

إميا، علوم الدين

(المجلد الرابع)

المؤلف

الإمام محمد الغزالي رحمه الله تعالى

إحياء علوم الدين

للإمام الغزالي

مع مقدمة في التصوف الإسلامي ودراسة تحليلية لشخصية الغزالي
وفلسفته في الإحياء
بمعلم

الدكتور بديوي طيبانة
الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم
بجامعة القاهرة

فيها كتب قيمة

مكتبة محمد بن إسماعيل حمزني المقدسي

From the Library of
Muhammad T. Hosien

الجزء الرابع

مكتبة وطبعة "كرياطة فوترا" سمراغ

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ »

(قرآن كريم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(كتاب التوبة)

(وهو الأول من ربع اللجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب . وبذكره يصدر كل خطاب . وبمحمده يتتم أهل النعم في دار الثواب . وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب . وضرب بينهم وبين السمداء بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . وتوب إليه توبة من يوقن أنه رب الأرباب ومسبب الأسباب . وزجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب . ونعزج الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب . إنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب . ونصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه صلاة تقذفنا من هول اللطع يوم العرض والحساب . وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مأب .

أما بعد : فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول إقدام الريدن ، ومفتاح استقامة السائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقرنين ، ولأئينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين ، وما أجدر بالأولاد ، الاتسداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو إن أذنب آدمى واجترم ، فهى شفتنة يعرفها من أخزم ، ومن أشبه أباه لما ظلم . ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر وعمر بعد أن هدم ، فليكن التزوع إليه في كلا طرفي النفي والاثبات والوجود والعدم ، ولقد قرع آدم سنّ النسم ، وتقدم على ما سبق منه وتقدم . فمن أخذه قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم ، بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة القربين ، والتجرد للشر دون التلافي سجية الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الأدميين . فالتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان . والتجرد للشر شيطان ، والتلاقي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان ، فقد ازدوج في طينة الانسان شائبتان ، واصطبغ فيه سجتان ، وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان ، فالتائب قد أقام البرهان ، على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الانسان ، والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان ، فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الامكان ، فإن الشر معجون مع الخير في طينة آدم محكما لا يخلصه إلا إحدى النارين

(كتاب التوبة)

[الباب التاسع]

والأربعون في استقبال

التهار والأدب فيه

والعمل]

قال الله تعالى - وأتم

الصلاة طرفي التهار -

أجمع المفسرون على

أن أحد الطرفين

أراد به الفجر وأمر

بصلاة الفجر واختلفوا

في الطرف الآخر قال

قوم أراد به المغرب وقال

آخرون صلاة العشاء

وقال قوم صلاة الفجر

والظهر طرف وصلاة

المغرب للطرف

وزلتا من الليل صلاة

العشاء ثم إن الله تعالى

أخبر عن عظيم بركة

الصلاة وشرف فائدتها

ومعرتها وقال - إن

الحسنات يذهب

نار الندم أو نار جهنم ، فالاحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الانسان من خبايا الشيطان وإليك الآن اختيار أهون النارين ، والبادرة إلى أخف الشرين ، قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطرار . إما إلى الجنة وإما إلى النار . وإذا كانت التوبة موقعا من الدين هذا للوقع وجب تقديمها في صدر ربيع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وعمراتها والآفات للنافعة منها والأدوية اليسرة لها ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان : الركن الأول في نفس التوبة وبيان حدها وحقيقتها وأنها واجبة على الفور وعلى جميع الأشخاص وفي جميع الأحوال وأنها إذا صحت كانت مقبولة . الركن الثاني : فيما عنه التوبة وهو الذنوب وبيان انقسامها إلى صفائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى وبيان كيفية توزيع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات وبيان الأسباب التي بها تعظم الصفائر . الركن الثالث : في بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك ماضى من المظالم وكيفية تكفير الذنوب وبيان أقسام التائبين في دوام التوبة : الركن الرابع : في السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في حل عقدة الاصرار من المذنبين ويتم القصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل . الركن الأول : في نفس التوبة .

(بيان حقيقة التوبة وحدها)

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة : علم وحال وفعل ، فالعلم الأول والحال الثاني والفعل الثالث والأول موجب للثاني والثاني موجب للثالث إيجابا اقتضاه اطراد سنة الله في الملك والملكوت . أما العلم : فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجبا بين العبد وبين كل محبوب فاذا عرف ذلك معرفة محققة يقين غالب على قلبه نار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب فان القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم فان كان فواته بفعله تأسف على الفعل الفوت فيسمى تألمه بسبب فله الفوت لمحبوبه ندما فاذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعله لتعلق بالحال وبالماضي وبالاستقبال أما تعلقه بالحال فباترك للذنب الذي كان ملابسا وأما بالاستقبال فباhezم على ترك الذنب الفوت للمحبوب إلى آخر العمر وأما بالماضي فبتلافي مافات بالجبر والقضاء إن كان قليلا للجبر فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الحيرت وأعنى بهذا العلم الايمان واليقين فان الايمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب عموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكيد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيشمر نور هذا الايمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب حيث يبصر باشراف نور الايمان أنه صار محجوبا عن محبوبه كمن يشق عليه نور الشمس وقد كان في ظففة فيسطع النور عليه بانقشاع سحب أو انحسار حجاب فرأى حبرية وقد أشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه وتنبث تلك النيران بارادته للاتهاض للتدارك فالعلم والندم والقصد التعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويحمل العلم كالسابق والمقدمة والترك كالثمره والتابع المتأخر وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام « الندم توبة (١) » إذ لا يخلو الندم عن علم أو حبه وأعمره وعن عزم ينجبه ويتلوه فيكون الندم محفوفا بطرفه أعنى ثمرته ومثمره وبهذا الاعتبار قيل في حد التوبة إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ فان هذا يعرض لمجرد الألم ولذلك قيل هو نار في القلب تلتهب وصدع

(١) حديث الندم توبة ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه إسناده من حديث ابن مسعود ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين .

السيئات - أي الصلوات
الحسن يذهب
الخطيئات ، وروى
أن أبا اليسر كتب
ابن عمرو الأنصاري
كان يبيع التمر فانت
امرأة تتباع تمرا فقال
لها إن هذا التمر ليس
بجيد وفي البيت أجود
منه فهل لك فيه رغبة
قالت نعم فذهب بها
إلى بيته فضمها إلى
نفسه وقبلها فقالت له
اتق الله فتركها وندم
ثم أتى النبي عليه
السلام وقال يا رسول
الله ما تقول في رجل
رود امرأة عن نفسها
ولم يبق شيء مما يفعل
الرجال بالنساء إلا
ركبه غير أنه لم يجامعها
قال عمر بن الخطاب

في السكبد لا ينشعب وباعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء وقال سهل بن عبد الله التستري التوبة تبدل الحركات للذمومة بالحركات المحمودة ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة والأقاويل في حدود التوبة لا تنحصر وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قبل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها وطلب العلم بمخاتق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة .

(بيان وجوب التوبة وفضلها)

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار (١) والآيات وهو واضح بنور البصيرة عند من افتتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدر على أن يسمى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنيا عن قائد يقوده في كل خطوة .. فالسالك إما أعمى لا يستغنى عن القائد في خطوه ، وإما بصير يهدي إلى أول الطريق ثم يهتدى بنفسه ، وكذلك الناس في طريق الدين يتقسمون بهذا الانقسام .. فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصا من كتاب الله أو سنة رسوله وربما يوزع ذلك فيتخير . فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده يختصر وخطاه قاصرة ومن سيد شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فيتبه بأدنى إشارة لسلك طريق معوصة وقطع عقبات متعبة ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان وهو لشدة نور باطنه يجترى بأدنى بيان فكأنه يكاد زيت يضيء ولو لم تمشه نار فاذا مسته نار فهو نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة . فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أولا بنور البصيرة إلى التوبة ماهي ثم إلى الوجوب مامعناه ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوتها وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ماهو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد فانه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لو صنفه بكونه واجبا معنى . وقول القائل صار واجبا بالإيجاب حديث محض فان مالا غرض لنا آجلا وعاجلا في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به أوجه علينا غيرنا أو لم يوجهه فاذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد وعلم أن لاسعادة في دار البقاء إلا لقاء الله تعالى وأن كل محبوب عنه يشقى لاهالة محول بينه وبين ما يشتهي محترق بنار القراق ونار الجحيم وعلم أنه لا يبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفاني والا كباب على حب ما لا بد من فراقه قطعا وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والاقبال بالكلية على الله طلبا للأنس به بدوام ذكره وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته وعلم أن الذنوب التي هي إغراض عن الله واتباع لهاب الشياطين أعداء الله للبعدين عن حضرته سبب كونه محبوبا مبعدا عن الله تعالى فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم فانه مالم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجه بسبب سلوكه في طريق البعد وما لم يتوجه فلا يرجع ومعنى الرجوع الترك والعزم فلا يشك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة وأما من لم يترشح لمثل هذا اللقام للرفع ذروته عن حدود أكثر الخلق في التقليد والاتباع له

(١) الأخبار الهائلة على وجوب التوبة مسلم من حديث الأغر الزني يأبها الناس توبوا إلى الله الحديث ولا بن ماجه من حديث جابر يأبها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا الحديث وسنده ضعيف .

قد ستر الله عليك لو
مترت على نفسك ولم
يرد رسول الله صلى الله
عليه وسلم عليه شيئا
وقال أنتظر أمر ربي
وحضرت صلاة العصر
وصلى النبي عليه الصلاة
والسلام العصر . فلما
فرغ أتاه جبريل بهذه
الآية فقال النبي عليه
الصلاة والسلام : أين
أبو اليسر قال هاأنذا
يا رسول الله قال شهدت
معنا هذه الصلاة قال
نعم قال اذهب فاتها
كفارة لما عملت فقال
عمر يا رسول الله هذا
له خاصة أولنا طامة ،
قال بل للناس طامة
فيستعد العبد لصلاة
الفجر باستكمال
الطهارة قبل طلوع

جمال رحب يتوصل به إلى النجاة من الهلاك فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين فقد قال الله تعالى - وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون - وهذا أمر على العموم وقال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا - الآية ومعنى النصوح الخالص لله تعالى خاليا عن الشوائب مأخوذ من النصح ويدل على فضل التوبة قوله تعالى - إن الله يحب المتطهرين - وقال عليه السلام «التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له» (١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فه أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أوامشاه الله قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده لم يموت فاستيقظ فاذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فأله تعالى أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا راحلته» (٢) وفي بعض الألفاظ قال من شدة فرحه إذا أراد شكر الله : أنا ربك وأنت عبي . وروى عن الحسن قال لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام قائلا يا آدم قررت عينك بتوبة الله عليك فقال آدم عليه السلام يا جبريل فان كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامى فأوحى الله إليه يا آدم ورثت ذوبك التعب والنصب وورثتهم التوبة فمن دعاني منهم لبيتك كما لبيتك ومن سألتى المغفرة لم أبخل عليه لأنى قريب مجيب يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى والاجماع منعقد من الأمة على وجوبها إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى وهذا داخل في وجوب الإيمان ولكن قد تدهش الغفلة عنه فعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة ولا خلاف في وجوبها ومن معانيها ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال وذلك لا يشك في وجوبه وأما التندم على ما سبق والتحزن عليه فواجب وهو روح التوبة وبه تمام التلاقي فكيف لا يكون واجبا بل هو نوع ألم يحصل لاجتماع عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله . فان قلت تألم القلب أمر ضرورى لا يدخل تحت الاختيار فكيف يوصف بالوجوب . فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله مبدل إلى تحصيل سببه وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لابعنى أن العلم يخلق العبد ويحدثه في نفسه فان ذلك محال بل العلم والندم والفعل والارادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وفعله - والله خالقكم وما تعملون - هذا هو الحق عند ذوى الأبصار وماسوى هذا ضلال . فان قلت أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك قلنا نعم وذلك لا يناقض قولنا إن الكل من خلق الله تعالى بل الاختيار أيضا من خلق الله والعبد مضطر

(١) حديث التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشرط الثاني دون الأول وأما الشرط الأول فروى ابن أبي الدنيا في التوبة وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف إن الله يحب الشاب التائب ولعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وأبي جلى بسند ضعيف من حديث على إن الله يحب العبد المؤمن المغتن الثواب (٢) حديث أنه أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض فلاة دوية مهلكة الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس زاذ مسلم في حديث أنس ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح ورواه مسلم بهذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث أبي هريرة مختصرا .

الفجر ويستقبل الفجر
بتجديد الشهادة كما
ذكرنا في أول الليل ثم
يؤذن إن لم يكن أجاب
للمؤذن ثم صلى ركعتي
الفجر يقرأ في الأولى
بعد الفاتحة قل يا أيها
الكاغرون وفي الثانية
قل هو الله أحد وإن
أراد قرأ في الأولى
- قولوا آمنا بالله
وما أنزل - الآية في
سورة البقرة وفي
الأخرى - ربنا آمنا
بما أنزلنا واتبعنا
الرسول - ثم يستغفر
الله ويسبح الله تعالى
بما يتيسر له من العدد
وإن اقتصر على كلمة
أستغفر الله لذنبى
سبحان الله بحمد ربى
آتى بالمقصود من

في الاختيار الذي له فان الله إذا خلق اليد الصحيحة وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة وخلق الخواطر للتعاضد في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لائم خلق العلم بأنه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الارادة الباعثة على التناول فأنجزم الارادة بعد تردد الخواطر التعاضد وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ولا بد من حصوله عند تمام أسبابه فاذا حصل انجزم الارادة بخلق الله تعالى إياها تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لاجتهاد إذ بعد تمام الارادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا فتحصل الحركة فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزم الارادة وهما أيضا من خلق الله وانجزم الارادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم اللوانع وهما أيضا من خلق الله تعالى ولكن بعض هذه المخالقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله تعالى في خلقه - ولن تجد لسنة الله تبديلا - فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة مالم يخلق فيها صفة تسمى قدرة ومالم يخلق فيها حياة ومالم يخلق إرادة مجزومة ولا يخلق الارادة المجزومة مالم يخلق شهوة وميلا في النفس ولا يبيث هذا الليل انبعثا تاما مالم يخلق علما بأنه موافق للنفس إما في الحال أوفي المال ولا يخلق العلم أيضا إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم فالعلم والليل الطبيعي أبدا يستتبع الارادة الجازمة والقدرة والارادة أبدا تستتبع الحركة وهكذا الترتيب في كل فعل والسكل من اختراع الله تعالى ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض فذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض كما لا يخلق الارادة إلا بعد العلم ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ولا يخلق الحياة إلا بعد الجسم فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة لأن الحياة تتولد من الجسم ويكون خلق الحياة شرطا لخلق العلم لأن العلم يتولد من الحياة ولكن لا يستعد المهل لقبول العلم إلا إذا كان حيا ويكون خلق العلم شرطا لجزم الارادة لأن العلم يولد الارادة ولكن لا يقبل الارادة إلا جسم حيا عالم ولا يدخل في الوجود إلا يمكن وللإمكان ترتيب لا يقبل التغير لأن تغييره محال فهما وجد شرط الوصف استعد المهل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد والمساكان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب والعبد مجرى هذه الحوادث للرتبة وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو واحد كلح البصر ترتيبا كليا لا يتغير وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها وعنه العبارة بقوله تعالى - إنا كل شيء خلقناه بقدر - وعن القضاء الكلي الأزلي العبارة بقوله تعالى - وما أمرنا إلا واحدة كلح بالبصر - وأما العباد فانهم مسخرون تحت مجارى القضاء والقدر ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوى جازم في نفسه يسمى القصد وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والعرفة فاذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحبوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا يا أيها الرجل قد تحركت ورميت وكتبت ونودي من وراء حجاب الغيب وسراقات الملكوت ومارميت إقدامك ولكن الله رمى وما تقات إذ قتلت ولكن قاتلهم بمنهم الله بأيديكم وعند هذا تحير عقول القاعدين في مجبوحة عالم الشهادة فمن قائل إنه جبر محض ومن قائل إنه اختراع صرف ومن متوسط مائل إلى أنه كسب ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد منهم من وجه وأن القصور شامل لجميعهم فلم يدركوا واحد منهم كنه هذا الامر ولم يحط علمه بجوانبه وتعام علمه ينال باسراق النور من كوة نافذة إلى عالم الغيب

التسبيح والاستغفار.
ثم يقول اللهم صل على محمد وعلى آل محمد اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شملي وتلم بها شعبي وترد بها الفتن عني وتصلح بها ديني وتحفظ بها غائبي وترفع بها شاهدي وترزقني بها عملي وتبييض بها وجهي وتلقني بها رشدي وتصمني بها من كل سوء اللهم أعطني إيمانا صادقا وقيما ليس بمسد كفر ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء

وأنة تعالى - عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول - وقد يطلق على الشهادة من لم يدخل في حيز الارتضاء ومن حرك سلسلة الأسباب والسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناسق سلسلتها بمسبب الأسباب انكشف له سر القدر وعلم علما يقيناً أن لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه . فان قلت قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والسكب أنه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض فكيف يمكن فهم ذلك وهل يمكن إصالح ذلك إلى الألفاظ بمثال ، فاعلم أن جماعة من الميمان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى القيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ومعرفة باللمس الذى تندر عليه فطلبوه فلما وصلوا إليه لمسوه فوق يد بعض الميمان على رجليه ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه فقالوا قد عرفناه فلما انصرفوا سألمهم بقية الميمان فاختلفت أجوبتهم فقال الذى لمس الرجل إن القيل ماهو إلا مثل اسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه ألين منها وقال الذى لمس الناب ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه وأمسى لخشونة فيه وليس فى غلظ الاسطوانة أصلا بل هو مثل عمود وقال الذى لمس الأذن لعمري هو لين وفيه خشونة فصدق أحدهما فيه ولكن قالما هو مثل عمود ولا هو مثل اسطوانة وإنما هو مثل جلد عريض غليظ فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه إذا أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة القيل ولم يخرج واحد فى خبره عن وصف القيل ولكنهم بحملتهم قصروا عن الاحاطة بكنه صورة القيل فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فانه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه وإن كان هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها وليس ذلك من غرضنا فلنرجع إلى ما كنا بصدده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة العلم والندم والترك وأن الندم داخل فى الوجوب لكونه واقعا فى جملة أعمال الله المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته للتخللة بينها وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمل .

(بيان أن وجوب التوبة على الفور)

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه إذ معرفة كون المعاصى مبهلكات من نفس الإيمان وهو واجب على الفور والتفصى عن وجوبه هو الذى عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل الكروء فان هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التى لاتعلق بعقل بل هى من علوم المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التفصى عن عهده مالم يصر باعثا عليه فالعلم بضر الذنوب إنما أريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان وهو للراد بقوله عليه السلام «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن» (١) وما أراد به نفي الإيمان الذى يرجع إلى علوم المكاشفة كالمعاقبة ووحدايته وصفاته وكتبه ورسله فان ذلك لا ينفى الزنا والمعاصى وإنما أراد به نفي الإيمان لكون الزنا مبعدا عن الله تعالى موجبا للمقت كما إذا قال الطبيب هذا سم فلما تناوله فاذا تناوله يقال تناوله وهو غير مؤمن لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيبا وغير مصدق به بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك فان العالم بالسم لا يتناوله أصلا فالعاصى بالضرورة ناقص الإيمان وليس الإيمان بابا واحدا بل هو نيف وسبعون بابا أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ومثاله قول القائل ليس الانسان موجودا واحدا بل هو نيف وسبعون موجودا أعلاها القلب والروح وأدناها إماطة الأذى عن البشرة بأن يكون مقصوص الشارب مقالوم الأظفار نقي البشرة عن الحث حتى تميز عن البهائم المرسة للوثة بأرواتها للسكره الصور بطول عبالها وأظلافها وهذا مثال مطابق فالإيمان كالانسان

(١) حديث لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن متفق عليه من حديث أبى هريرة .

والنصر على الأعداء
ومراقة الأنبياء اللهم
إني آزل بك حاجتي
وان نصر رأيت وضف
عملى واقترت إلى
رحمتك وأسألك
يا قاضى الأمور يا شافى
الصدور كما تجير بين
البحور أن تجيرى من
عذاب السعير ومن
دعوة الثبور ومن فتنة
القبور اللهم ما نصر
عنه رأيت وضف فيه
عملى ولم تبلغه نيق
وأمنيق من خير
وعدته أحدا من
عبائك أو خير أنت
معهطيه أحدا من خلقك
فأنا راغب إليك فيه
وأسألك إليه يارب
العالمين . اللهم اجعلنا
هادين مهدين خير

وقد شهادة التوحيد يوجد البطلان بالكلية كفقده الروح والذي ليس له لإشهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقود العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل الروح وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايه الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الأعضاء التي عدتها وتقورها فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأحوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة لاما يدق بالطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت وقول العاصي للمطيع إن مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة صنوبر أنا شجرة وأنت شجرة وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الحريف ضد ذلك تقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع النقلة عن أسباب ثبوت الأشجار : وسوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار . وهذا أمر يظهر عند الخاتمة وإنما اقطع نياط العارفين خوفا من دواعي الموت ومقدماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأفلون فالعاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته كالصحيح التهمك في الشهوات الضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صمته وأن للموت فالبا لا يقع فجأة فيقال له الصحيح يخاف المرض ثم إذا مرض خاف الموت وكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة ثم إذا ختم له بالسوء واليأس بالله وجب الخلود في النار فالعاصي للإيمان كالمأ كولات للضرة للأبدان فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة فكذلك العاصي فإذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا للنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك وإذا كان متاول السم إذا ندم يجب عليه أن يتنصرا ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة لتلافي البدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا القانية فتناول سموم الدين وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر فان الخوف من هذا السم قوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم والملك العظيم وفي قواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذي تصرم أعمار الدنيا دون عشر مدته إذ ليس لمدته آخر ألبنة فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملا يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتناء فلا ينجع بعد ذلك نصيح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنه من المالكين ويدخل تحت عموم قوله تعالى - إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون - ولا يفرقك لفظ الإيمان فنقول المراد بالآية الكافر إذ بين لك أن الإيمان بضع وسبعون بابا وأن الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن فالهجوب عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الذي هو أصل كما أن الشخص القاعد لجميع الأطراف التي هي حروف وفروع سيساق إلى الموت المدمم للروح التي هي أصل فلا بقاء للأصل دون الفرع ولا وجود للفرع دون الأصل ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد وهو أن وجود الفرع وبقائه جميعا يستدعي وجود الأصل وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع فبقاء الأصل بالفرع ووجود الفرع بالأصل فالعلم المكتشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل فلا يستغنى أحدهما عن الآخر وإن كان أحدهما في رتبة الأصل والآخر في رتبة

صالحين ولا مضلين حربا
لأعدائك وسلسا
لأوليائك نحب بحبك
الناس وننادي
بعداوتك من خالك
من خلقك اللهم هذا
الدعاء مني ومنك
الاجابة وهذا الجهد
وعليك التكلان إن الله
وإنا إليه راجعون ولا
حول ولا قوة إلا بالله
العلى العظيم ذى
الحبل الشدید والأمر
الرشید أسألك الأمن
يوم الوعيد والجنة
يوم الخلود مع المقربين
الشهود والركع السجود
والموفين بالعهود إنك
رحيم وودود أنت تفعل
ما تريد سبحانه من
تعطف بالعلم وقال به
سبحان من ليس الهدي

التابع وعلوم العاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها فإن هي لم تعمل عملها الذي تراد له قامت مؤيدة للمحبة على صاحبها ولذلك يزداد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر كما أوردنا من الأخبار في كتاب العلم .

(بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبتة)

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذ قال تعالى - وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون - فمهم الخطاب . ونور البصيرة أيضا يرشد إليه إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق البعد عن الله المقرب إلى الشيطان ولا يتصور ذلك إلا من عاقل ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والنصب وسائر الصفات للذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان إذ كمال العقل إنما يكون عند مقارنة الأربعين وأصله إيمانهم عند مراهقة البلوغ ومبادئه تظهر بعد سبع سنين والشهوات جنود الشيطان والعقول جنود الملائكة فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة إذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنهما ضدان فالطارد بينهما كالطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة ومهما غلب أحدهما أزهج الآخر بالضرورة وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل قد سبق جند الشيطان واستولى على السكان ووقع للقلب به أنس وإلف لاعماله مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويسر عليه النزوع عنه ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنفذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئا فشيئا على التدرج فإن لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وأنجز العين موعده حيث قال - لأحتسكن ذريته إلا قليلا - وإن كمل العقل وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات ولامعنى للتوبة إلا هذا وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان إلى طريق الله تعالى وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضروريا في حق كل إنسان نبي كان أو غيبيا فلا تظن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام وقد قيل :

فلا تحسبن هذا لها العذر وحدها سجيبة نفس كل غائبة هند

بل هو حكم أزلي مكتوب على جنس الإنس لا يمكن فرض خلافه ما لم تبدل السنة الإلهية التي لا مطمع في تبديلها فاذن كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره فإذا بلغ مسلما تبعا لأبويه غافلا عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفاته بتفهم معنى الإسلام فإنه لا ينفى عنه إسلام أبويه شيئا ما لم يسلم بنفسه فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع إلى قلب حدود الله في النع والاطلاق والانفكك والاسترسال وهو من أشق أبواب التوبة وفيه هلك الأكترون إذ هبوا عنه وكل هذا رجوع وتوبة فدل على أن التوبة فرض عين في حق كل شخص لا يتصور أن يحتفى عنها أحد من البشر كالم يستغنى آدم خلقه الولد لا يتسع لما لم يتسع له خلقه الوالد أصلا ، وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم فإن خلافي بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن المهم بالتذنب بالقلب فإن خلافي بعض الأحوال عن المهم فلا يخلو عن وسوس الشيطان بإيراد الحواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله فإن خلاعته فلا يخلو عن عفة وتصور على العلم بالله وصفاته وأفضاله وكل ذلك نقص وله أسباب وترك أسبابه بالشغول بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضده وللراد بالتوبة الرجوع ولا يتصور الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص وإنما يشاء وتون

وتكريم به سبحانه الذي لا ينفي التسييح إلا له سبحانه ذي الفضل والنعم سبحانه ذي الجود والكرم سبحانه الذي أحصى كل شيء بعلمه اللهم اجعل لي نورا في قلبي ونورا في قبري ونورا في ممالي ونورا في بصري ونورا في شهري ونورا في بشري ونورا في لحي ونورا في دمي ونورا في عظامي ونورا من بين يدي ونورا من خافي ونورا عن يميني ونورا عن شمالي ونورا من فوقي ونورا من تحتي اللهم زدني نورا وأعطني نورا واجعل لي نورا. ولهذا الدعاء أثر كثير وما رأيت

في القادر فأما الأصل فلا بد منه ، ولهذا قال عليه السلام «إِنَّ لِي غَانِ عَلَى قَلْبِي حَقٌّ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي
اليوم واللييلة سبعين مرة» (١) الحديث ، ولذلك أكرمته الله تعالى بأن قال - ليغفر لك الله ما تقدم
من ذنبك وما تأخر - وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره . فان قلت لا يخفى أن ما بطرأ على القلب
من المموم والحواطر قص وأن الكمال في الخلو عنه وأن التصور عن معرفة كنه جلال الله نقص
وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال وأن الانتقال إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع والرجوع
توبة ولكن هذه فضائل لا فرائض وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال والتوبة عن هذه
الأمر ليست بواجبة إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع فالمراد بقولك التوبة واجبة في كل حال .
فاعلم أنه قد سبق أن الانسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلا وليس معنى التوبة تركها
فقط بل تمام التوبة بتدريك ماضي وكل شهوة اتبعها الانسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن
نفس الانسان ظلمة إلى وجه المرأة الصقيلة فان تراكت ظلمة الشهوات صار رينا كما يصير بخار النفس
في وجه المرأة عند تراكمه خبثا كما قال تعالى - كلاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون - فاذا تراكم
الرين صار طبعا فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرأة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد
وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالطبوع من الخبث ولا يكتفي في تدارك اتباع الشهوات تركها
في المستقبل بل لا بد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب كما لا يكتفي في ظهور الصور في المرأة
قطع الأنفاس والبخارات السوداء لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبعت فيها من الأريان وكما
يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتتمحى
ظلمة المعصية بنور الطاعة وإليه الإشارة بقوله عليه السلام «أتبع السيئة الحسنة تمحها» (٢) فاذن
لا يستغنى العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه مباشرة حسنات تضاد آثارها آثار
تلك السيئات . هذا في قلب حصل أو لاصفاؤه وجلأؤه ثم أظلم بأسباب عارضة فأما التصديق الأول ففيه
يطول الصقل إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصدا عن المرأة كشغله في عمل أصل المرأة فهذه أشغال
طويلة لا تقطع أصلا وكل ذلك يرجع إلى التوبة ، فأما قولك إن هذا لا يسمى واجبا بل هو فضل وطلب
كمال . فاعلم أن الواجب له معنيان : أحدهما ما يدخل في فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو
القدر الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرّب العالم فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حتى تقاته تركوا
العايش ورفضوا الدنيا بالسكينة ثم يؤدي ذلك إلى بطلان التقوى بالسكينة فانه مهم ما فسدت العايش لم
يتفرغ أحد للتقوى بل شغل الحياة والحراثة والخبز يستغرق جميع العمر من كل واحد فباحتياج
إليه فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار والواجب الثاني هو الذي لا بد منه للوصول به
إلى القرب المطلوب من رب العالمين والقيام المحمود بين الصديقين والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة
في الوصول إليه كما يقال الطهارة واجبة في صلاة التطوع أي لمن يريد بها فانه لا يتوصل إليها إلا بها
فأما من رضى بالنقصان والحرمات عن فضل صلاة التطوع فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها كما يقال
العين والأذن واليد والرجل شرط في جود الانسان يعني أنه شرط لمن يريد أن يكون إنسانا كاملا

أحدا حافظ عليه
إلا وعنده خير ظاهر
وبركهة وهو من وصية
الصادقين بعضهم بمضا
محفظه والمحافظة عليه
منقول عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه
كان يقرؤه بين الفريضة
والسنة من صلاة
العجر ثم يقصد المسجد
للصلاة في الجماعة
ويقول عند خروجه
من منزله : - وقل رب
أدخلني مدخل صدق
وأخرجني مخرج صدق
واجعل لي من لدنك
سلطانا نصيرا - ويقول
في الطريق : اللهم إني
أسألك بحق السائلين
عليك وبحق ممشأى
هذا إليك لم أخرج
أشرا ولا بطرا ولا رياء

(١) حديث إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم واللييلة سبعين مرة مسلم من حديث الأغر المزني
لأنه قال في اليوم مائة مرة وكذا عند أبي داود والبخاري من حديث أبي هريرة إني لأستغفر الله
في اليوم أكثر من سبعين مرة وفي رواية البيهقي في الشعب سبعين لم يقل أكثر وتقدم في الأذكار
والدعوات (٢) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها الترمذي من حديث أبي ذر زيادة في أوله وآخره
وقال حسن صحيح وقد تقدم في رياضة النفس .

يبتغى بإنسانيته ويتوصل بها إلى درجات العلا في الدنيا فأما من قنع بأصل الحياة ورضى أن يكون كلحم طي وضم وكخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورجل فأصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة وأصل النجاة كأصل الحياة وما وراء أصل النجاة من السمادات التي بها تنتهي الحياة يجرى مجرى الأعضاء والآلات التي بها تنهي الحياة وفيه سعى الأنبياء والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل وعليه كان حرصهم وحواليه كان تطوافهم ولأجله كان رفضهم لما لا الدنيا بالكلية حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توعد حجرا في منامه فجاء إليه الشيطان وقال أما كنت تركت الدنيا الآخرة فقال نعم وما الذي حدث فقال توعدك لهذا الحجر تنم في الدنيا فلم لاتضع رأسك على الأرض فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الأرض وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التنم ، أقرى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجبا في فتاوى العامة . أقرى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لما شغله الثوب الذي كان عليه علم في صلاته حتى نزع (١) وشغله شرك نعله الذي جده حتى أعاد الشرك الخلق (٢) لم يعلم أن ذلك ليس واجبا في شرعه الذي شرعه لكافة عباده فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثرا في قلبه آرا يمنعه عن بلوغ القيام المحمود الذي قد وعد به ، أقرى أن الصديق رضي الله عنه بعد أن شرب اللبن وعلم أنه على غير وجهه أدخل أصبعه في حلقة ليخرجه حتى كاد يخرج معصروه ما علم من الفقه هذا القدر وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى الفقه إخراجها فلم تاب عن شربه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه وهل كان ذلك إلا لسر وقر في صدره عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكمن الغرور بالله وإياك مرة واحدة أن تفرك الحياة الدنيا وإياك ثم إياك ألف مرة أن يترك بالله الغرور ، فهذه أسرار من استنشق مبادئ روائعها علم أن لزوم التوبة التصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى في كل نفس من أنفاسه ولو عمر عمر نوح وأن ذلك واجب على القور من غير مهلة ، ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال لو لم ييك العاقل قبل بقي من عمره إلا على تفويت ماضى منه في غير الطاعة لكان خليقا أن يهزئه ذلك إلى المات ، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بثل ماضى من جهله وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لاجمالة وإن ضاعت منه وصار ضايعا سبب هلاكه كان بكاؤه منها أشد وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لاخلف لها ولا بدل منها فانها سالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتقتذك من شقاوة الأبد وأي جوهرة أنفس من هذا فإذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسرانا مبينا وإن صرقتها إلى معصية قد هلك هلاكها فاحشا ، فان كنت لا تبكي على هذه اللصية فذلك لجهلك ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة فان نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته والناس نيام فإذا ماتوا اتبهوا فنصد ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ولكل مصاب مصيبته وقد رفع الناس عن التدارك . قال بعض العارفين : إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للمبدأ علمه أنه قد بقي من عمره ساعة وإنك لا تستأخر عنها طريقة عين فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بخلافها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعب فيها

(١) حديث نزع صلى الله عليه وسلم الثوب الذي كان عليه في الصلاة تقدم في الصلاة أيضا (٢) حديث نزع الشرك الجديد وإعادة الشرك الخلق تقدم في الصلاة أيضا .

ولا سمعة خرجت انتفاء
سخطك وابتغاء
مرضاتك أسألك أن
تنقذني من النار
وأن تغفر لي ذنوبي
إنه لا يضر الذنوب إلا
أنت. وروى أبو سعيد
الخدري أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال
« من قال ذلك إذا
خرج إلى الصلاة وكل
الله به سبعين ألف
ملك يستغفرون له
وأقبل الله تعالى عليه
بوجهه الكريم حتى
يقضى صلاته » وإذا
دخل المسجد أو دخل
مجاذته للصلاة يقول:
بسم الله والمحمد لله
والصلاة والسلام على
رسول الله اللهم اغفر
لي ذنوبي واقتح لي

ويتدارك تفريطه فلا يجد إليه سبيلا وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى - وحيل بينهم وبين ما يشتهون - وإليه الإشارة بقوله تعالى - من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها - فقيل الأجل القريب الذي يطلبه معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد يملك الموت أخرني يوما أعتذرفيه إلى ربي وأتوب وأزود صالحا لنفسي فيقول ففيت الأيام فلا يوم فيقول فأخرني ساعة فيقول ففيت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة فيتفرغ روحه وتردد أنفاسه في شر أسفه ويتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب أصل لعنائه في صدمات تلك الأحوال فإذا زهقت نفسه فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة، ولمثل هذا يقال - وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن - وقوله - إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب - ومعناه عن قرب عهد بالحطية بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الربن على القلب فلا يقبل الهو ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أتبع السيئة الحسنة تمحها » ولذلك قال لقمان لابنه يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة ، ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسوية كان بين خطرين عظيمين : أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل الهو . الثاني أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالهو ، ولذلك ورد في الخبر « إن أكثر صياح أهل النار من التسوية (١) » فما هلك من هلك إلا بالتسوية فيكون تسويده القلب قد أوجلاؤه بالطاعة نسيئة إلى أن يختطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم ولا ينجو إلا من آتى الله بقلب سليم ، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده والعمر أمانة الله عنده وكذا سائر أسباب الطاعة فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيانتة فأمره محظر . قال بعض العارفين : إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرها إليه على سبيل الإلهام : أحدهما إذا خرج من بطن أمه يقول له عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك واتممتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إلى كيف تلقاني . والثاني عند خروج روحه يقول عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب وإليه الإشارة بقوله تعالى - أو فواجبه يدي أوف بعهدكم - وقوله تعالى - والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون - .

(بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة)

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتمم في الآخرة في جوار الله تعالى ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى ، وعلموا أن القلب خلق سليما في الأصل وكل مولود يولد على الفطرة وإعما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غيرة الذنوب وظلمتها ، وعلموا أن نار الندم تحرق تلك القبره وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كالأطعمة لظلام الليل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون ، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره ، وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الحسنة يوسخ الثوب وغسله

(١) حديث إن أكثر صياح أهل النار من التسوية لم أجد له أصلا .

أبواب رحمتك ويقدم
رجله النبي في الدخول
واليسرى في الخروج
من المسجد أو السجدة
فسجادة الصوفي بمنزلة
البيت والمسجد ثم يصل
صلاة الصبح في جماعة
فاذا سلم يقول : لا إله
إلا الله وحده لا شريك
له ، له الملك وله الحمد
يعحي ويميت وهو حي
لا يموت بيده الخير
وهو على كل شيء قدير
لا إله إلا الله وحده
صدق وعده ونصر
عبده وأعز جنده
وهزم الأحزاب وحده
لا إله إلا الله أهل النعمة
والفضل والثناء الحسن
لا إله إلا الله ولا نعبد
إلا إياه مخلصين له الدين
ولو كره الكافرون
ويقراً هو الله الذي

بالصابون والصابون الحار ينظفه لاجالة استعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه ، وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول فأنما عليك الزكية والتطهير . وأما القبول فبذول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له وهو للمسمى فلاحا في قوله - قد أفلح من زكاها - ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من للشاهدة بالبصر أن القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثرا متضادا يستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهد ويستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا لا يتصور الجمع بينهما فكأنه لم يبق من الدين إلا قشوره ولم يعلق به إلا أسماءه وقلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفاته فمن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعمى بقلبه إذ بقلبه يعرف غير قلبه فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه ، فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول والثوب يتسل بالصابون والوسخ لا يزول إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاوبف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على تامة فثالث ذلك أن تترامم الذنوب حتى تصير طبما وريتا على القلب فثالث هذا القلب لا يرجع ولا يتوب ، نعم قد يقول باللسان ثبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف الثوب أصلا لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف التمكن به فهذا حال امتناع أصل التوبة ، وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق القبلين على الدنيا المرصين عن الله بالسكينة فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر في قبول التوبة ولكننا نهض جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به وقد قال تعالى - وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات - وقال تعالى - غافر الذنب وقابل التوب - إلى غير ذلك من الآيات . وقال صلى الله عليه وسلم « لله أفرح بتوبة أحدكم » الحديث والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار ولمسيء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها (١) » . وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل فرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلا وهو قابل وقال صلى الله عليه وسلم « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم (٢) » وقال أيضا « إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة قبيل كيف ذلك يارسول الله قال يكون نصب عينه تائباً منه فإرا حتى يدخل الجنة (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « كفارة الذنب الندامة (٤) » . وقال صلى الله عليه وسلم « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

(١) حديث إن الله يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار الحديث مسلم من حديث أبي موسى بلفظ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار الحديث ، وفي رواية للطبراني لمسيء الليل أن يتوب بالنهار الحديث (٢) حديث لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم ابن ماجه من حديث أبي هريرة وإسناده حسن بلفظ لو أخطأتم وقال ثم تبتم (٣) حديث إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة الحديث ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلًا ولأبي نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة إن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له الحديث وفيه صالح المري ، وهو رجل صالح ولكنه مضعف في الحديث ولابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عمر إن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه والحديث غير محفوظ قاله العقيلي (٤) حديث كفارة الذنب الندامة أحمد والطبراني وهق في الشعب من حديث ابن عباس وفيه يحيى بن عمرو بن مالك الشكري ضعيف .

لا إله إلا هو الرحمن
الرحيم التسمية
والتسمين اسما إلى
آخرها فإذا فرغ منها
يقول : اللهم صل
على محمد عبدك
ونبيك ورسولك النبي
الأمي وعلى آل محمد
سلام تكون لهم رضاء
ولحمسه أداء وأعطه
الوسيلة والمقام المحمود
الذي وعدته وأجزه
عنا ما هو أهل وأجزه
عنا أفضل ما جازيت
نيا عن أمته وصل
على جميع إخوانه من
الطيبين والصديقين
والشهداء والصالحين .
اللهم صل على محمد
في الأولين وصل على
محمد في الآخرين وصل
على محمد إلى يوم الدين
اللهم صل على روح

ويروى « أن حبشيا قال يارسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة؟ قال نعم فولى ثم رجع فقال يارسول الله أكان يراني وأنا أعملها قال نعم فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها روحه^(١) » ويروى أن الله عز وجل لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا حجت عنه التوبة مادام الروح فيه^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ^(٣) » والأخبار في هذا لا تحصى . وأما الآثار : فقد قال سعيد بن السيب أنزل قوله تعالى - إنه كان للأوابين غفورا - في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب . وقال الفضيل قال الله تعالى : بشر الذين بأنهم إن تابوا قبلت منهم وحذر الصديقين أي إن وضعت عليهم عدلي عذبهم وقال طلق بن حبيب : إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه بحيث عنه في أم الكتاب . ويروى أن نبيا من أنبياء بني إسرائيل أذنب فأوحى الله تعالى إليه وعزتي لأن عدت لأعدتك فقال يارب أنت أنت وأنا أنا وعزتك إن لم تصمعي لأعودن فصمته الله تعالى وقال بعضهم إن الصبد ليذنب الذنب فلا يزال نادما حتى يدخل الجنة فيقول إبليس ليني لم أوقعه في الذنب وقال حبيب بن ثابت تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول أما إني قد كنت مشفقا منه قال فيغفر له . ويروى أن رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تدر فان قال له إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فان عليه ملكا موكلا به لا يغلق فأعمل ولا تيأس . وقال عبد الرحمن بن أبي قاسم تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى - إن يتنوها يغفر لهم ما قد سلف - فقال إني لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالا ولقد بلغني أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام . وقال عبد الله بن سلام لأحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل إن الصبد إذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين . وقال عمر رضي الله عنه اجلسوا إلى التوابين فانهم أرق أفئدة وقال بعضهم أنا أعلم متى يغفر الله لي قيل ومتى قال إذا تاب على وقال آخر أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم النفرة أي للنفرة من لوازم التوبة وتوابها لا محالة ويروى أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ثم نظر في الرآة فرى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال إلهي أطلعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة فان رجعت إليك أتقبلني فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا أحببتنا فأحببتنا وتركنا فتركناك وعصيتنا فأههلتنا وإن رجعت إلينا قبلناك . وقال ذو النون للصري رحمه الله تعالى إن لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب رواق القلوب وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندما وحزنا فجنوا من غير

(١) حديث أن حبشيا قال يارسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة قال نعم الحديث لم أجده له أصلا (٢) حديث إن الله لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح الحديث أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد أن الشيطان قال وعزتك يارب لا أزال أغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم فقال وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني أورده للسنن بصيغة ويروى كذا ولم يمهز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فدكرته احتياطا (٣) حديث إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ لم أجده بهذا اللفظ وهو صحيح المعنى وهو بمعنى أتبع السيئة الحسنة تمحها رواه الترمذي وتقدم قريبا .

محمد في الأرواح وصل
على جسد محمد
في الأجساد واجعل
شرائط صلواتك
ونواهي برحمتك
ورأيتك ورحمتك
وتحيتك ورضوانك
على محمد عبدك
ونبيك ورسولك اللهم
أنت السلام ومنك
السلام وإليك يعود
السلام غينا ربنا
بالسلام وأدخلنا دار
السلام تباركت يا ذا
الجلال والاکرام
اللهم إني أصبحت
لا أستطيع دفع ما أكره
ولا أملك قمع ما أرجو
وأصبح الأمر بيد
غيري وأصبحت مرتها
بعملي فلا قصر أقر
منى اللهم لا تشمت بي

جنون وتبلدوا من غير عي ولا بك وإنهم هم البلاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ثم تولت قلوبهم في اللسكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجيروت واستظلمت رواق الندم وقرءوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسم الورع فاستمذبوا مرارة الترك للدينا واستلناوا خشونة للضعج حتى ظفروا بمجل النجاة وعروة السلامة وسرحت أرواحهم في الملا حتى أتاخوا في رياض النعيم وخاصوا في بحر الحياة ودمعوا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بضياء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعادن المزم والكرامة فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة مقبولة لامحالة . فان قلت أقول ما قائلته المعتزلة من أن قبول التوبة واجب على الله . فأقول لأعني بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريد القائل بقوله إن التوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش وإنه إذا منع الماء مدة وجب العطش وإنه إذا دام العطش وجب الموت وليس في شيء من ذلك ما يريد المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى . بل أقول خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للعبية والحسنة ماحية للسيئة كما خلق الماء مزيلًا للعطش والقدرة منسعة بخلافه لوسبقت به الشيئة فلا واجب على الله تعالى ولكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لامحالة . فان قلت فما من تأمب إلا وهو شاك في قبول توبته والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه فلم يشك فيه . فأقول شكك في القبول كشكك في وجود شرائط الصحة فان للتوبة أركانًا وشروطًا دقيقة كما سيأتي وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذي يشك في دواء شربه للاسهال في أنه هل سهل وذلك لشكك في حصول شروط الاسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبعه وجودة عقاقيره وأدويته فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك في قبولها لامحالة على ما سيأتي في شروطها إن شاء الله تعالى .

(الركن الثاني فيما عنه التوبة وهي الذنوب صغارها وكبارها)

اعلم أن التوبة ترك الذنب ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجبا فعرفة الذنوب إذن واجبة والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل وتفصيل ذلك يستدعي شرح التكليفات من أولها إلى آخرها وليس ذلك من غرضنا ولكننا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامه والله الموفق للصواب برحمته

(بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد)

اعلم أن للانسان أوصافا وأخلاقا كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب هجائب القلب وغوائله ولكن تتحصر مشاركات الذنوب في أربع صفات ربوية وصفات شيطانية وصفات بهيمية وصفات سبعية وذلك لأن طينة الانسان محنت من أخلاط مختلفة فانتضى كل واحد من الأخلاط في المعجون منه أثارا من الآثار كما ينتضى السكر والحل والزعفران في السكجيين آثارا مختلفة . فأما ما ينتضى النزوع إلى الصفات الربوية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب اللدح والثناء والمز والنفي وحب دوام البقاء وطلب الاستملاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الأعلى وهذا يقتضب منه جملة من كبار الذنوب غفل عنها الخلق ولم يصدوها ذنوبا وهي للهلكات العظيمة التي هي كالأهيات لأكثر المصالح كما استعصمناه في ربيع للهلكات . الثانية هي الصفة الشيطانية التي منها يقتضب الحسد والبغى والحيلة والحداع والأمر بالتفاد وللنكر وفيه يدخل النسي والنفاق والدعوة إلى

عدوى ولا تسي . بي
صديق ولا تجعل
مصيتي في ديني ولا
تجعل الدنيا أكبر همي
ولا تسلط على من
لا يرحمني اللهم هذا
خلق جديد فاتحه
على بطاعتك واختمه
لي بمغفرتك ورضوانك
وارزقني فيه حنة
تقبلها مني وزكها
وضعها وماعلمت فيه
من سيئة فاغفر لي إنك
غفور رحيم ودود
رضيت بالله ربنا
وبالاسلام ديننا وبمحمد
صلى الله عليه وسلم نبيا
اللهم إني أسألك خير
هذا اليوم وخير
ما فيه وأعوذ بك من
شره وشر ما فيه
وأعوذ بك من شر

البدع والضلال . الثالثة الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والكذب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات . الرابعة الصفة السبعية ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ويترفع عنها حمل من الذنوب وهذه الصفات لها تدرج في الفطرة فالصفة البهيمية هي التي تغلب أو لا ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً ثم إذا اجتمعا استعمال العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوية وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق فهذه أمهات الذنوب ومنها بهائم تنفجر الذنوب من هذه النابع على الجوارح فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإظهار السوء للناس وبعضها على العين والسمع وبعضها على اللسان وبعضها على البطن والفرج وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح . قسمة ثانية : اعلم أن الذنوب تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى وإلى ما يتعلق بمحقوق العباد فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به وما يتعلق بمحقوق العباد كترك الزكاة وقتله النفس وغصبه الأموال وشمته الأعراس وكل تناول من حق الغير فاما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه وتناول الدين بالاغواء والدعاء إلى البدعة والترغيب في المعاصي وتهيج أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعل بعض الوعاظ بتعليب جانب الرجاء على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركاً فالعفو فيه أرجى وأقرب وقد جاء في الخبر «الدواوين ثلاثة ديوان يغفر ديوان لا يغفر ديوان لا يترك فالديوان الذي يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى وأما الديوان الذي لا يغفر فالشرك بالله تعالى وأما الديوان الذي لا يترك لمظام العباد (١) » أي لا بد وأن يطالب بها حتى يمضي عنها : قسمة ثالثة : اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغار وكبار وقد كثراختلاف الناس فيها فقال قائلون لاصغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهي كبيرة وهذا ضعيف إذ قال تعالى - إن تجتنبوا كبار ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً - وقال تعالى - الذين يجتنبون كبار الإثم والنواحيش إلا اللطم - وقال عليه السلام «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرون ما بينهن إن اجتنبت الكبائر (٢)» وفي لفظ آخر «كفارات ما بينهن إلا الكبائر» وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص «الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس (٣)» واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك فقال ابن مسعود هن أربع وقال ابن عمر هن سبع وقال عبد الله بن عمرو هن تسع وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر الكبائر سبع يقول هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع وقال مرة كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وقال غيره كل ما أوعده الله عليه بالنار فهو من الكبائر وقال بعض السلف كل ما أوجب عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة وقيل إنها مبهمة لا يعرف عددها كلية القدر وساعة يوم الجمعة . وقال ابن مسعود لما سئل عنها قرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله - إن تجتنبوا كبار ما تنهون عنه - فكل ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة . وقال أبو طالب للسكي

طوارق الليل والتهار
ومن بنتت الأمور
وجفأة الأندار ومن
شرك كل طارق يطرق
إلا طارقاً يطرق منك
غير يارحم الدنيا
والآخرة ورحيمها
وأعوذ بك أن أزل
أو أزل أو أضل أو أضل
أو أظلم أو أظلم أو أجهل
أو يجهل على عز جارك
وَجَل ثناؤك وتقدست
أسمائك وعظمت
نعمائك أعوذ بك من
شرب ما يبلع في الأرض
وما يخرج منها وما ينزل
من السماء وما يجرح فيها
أعوذ بك من حسنة
الحرص وشدة الطمع
وصورة الغضب وسنة
النفلة وتماطى الكلفة
اللهم إني أعوذ من

(١) حديث الدواوين ثلاثة ديوان يغفر الحديث أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة وفيه صدقة بن موسى الدقيقي ضعفه ابن معين وغيره وله شاهد من حديث سلمان ورواه الطبراني (٢) حديث الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفرون ما بينهن إن اجتنبت الكبائر مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث عبد الله بن عمرو الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس رواه البخاري .

الكبائر سبع عشرة جمعها من جملة الأخبار (١) وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم أربعة في القلب وهى الشرك بالله والإصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكره

(١) الأخبار الواردة في الكبائر حكى المصنف عن أبي طالب المكي أنه قال الكبائر سبع عشرة جمعها من جملة الأخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم الشرك بالله والإصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكره وشهادة الزور وقذف المحصن واليمين الفموس والسحر وشرب الخمر والسكر وأكل مال اليتيم ظلماً وأكل الربا والزنا واللواط والقتل والسرقة والفرار من الزحف وعقوق الوالدين انتهى . وما ذكر ماورد منها مرفوعاً وقد تقدم أربعة منها في حديث عبد الله بن عمرو وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة اجتبوا السبع اللوقيات قالوا يا رسول الله وماهى؟ قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات ولهما من حديث أبي بكره ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراف بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور أو قال قول الزور ولهما من حديث أنس سئل عن الكبائر قال الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال قول الزور أو قال شهادة الزور ولهما من حديث ابن مسعود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الذنوب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خالقك قلت ثم أى قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزاني حليمة جارك وللطبراني من حديث سلمة بن قيس إغماهى أربع لا تشركون بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تسرقوا وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت يابونى على أن لا تشركون بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر وفيه موقفاً على عبد الله بن عمر وأكبر الكبائر شرب الخمر وكلاهما ضعيف وللبراز من حديث ابن عباس باسناد حسن أن رجلاً قال يا رسول الله ما الكبائر؟ قال الشرك بالله والإيأس من روح الله والقنوط من رحمة الله وله من حديث بريدة أكبر الكبائر الإشراف بالله وعقوق الوالدين ومنع فضل المساء ومنع الفحل وفيه صالح بن حبان ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما وله من حديث أبي هريرة الكبائر أو لهن الإشراف بالله وفيه والانتقال إلى الأعراب بعد هجرته وفيه خالد بن يوسف السمين ضعيف وللطبراني فى الكبير من حديث سهل بن أبي حنيفة فى الكبائر والتعرب بعد الهجرة وفيه ابن لهيعة وله فى الأوسط من حديث أنى سعيد الحدرى الكبائر سبع وفيه والرجوع إلى الأعرابية بعد الهجرة وفيه أبو بلال الأشعري ضعفه الدارقطنى وللحاكم من حديث عبيد بن عمير عن أبيه الكبائر تسع فذكر منها واستحلال البيت الحرام وللطبراني من حديث واثله إن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على ما لم أقل وله أيضاً من حديثه إن من أكبر الكبائر أن ينتفى الرجل من ولده ولمسلم من حديث جابر بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو من الكبائر شتم الرجل والديه ولأبي داود من حديث سعيد بن زيد من أربى الربا الاستطالة فى عرض المسلم بغير حق وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أنه قال من أربى الربا من أربى الربا ما يعذبان وما يعذبان فى كبير وإنه لكبير أما أحدهما فكان يمشى بالقيمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله الحديث ولأحمد فى هذه القصة من حديث أبي بكره أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس الحديث ولأبي داود والترمذى من حديث أنس عرضت على ذنوب أمى فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أو تبها رجل ثم نسبها سكت عليه أبو داود واستغربه البخارى والترمذى وروى ابن أبي شيبة فى التوبة من حديث ابن عباس لاصغيرة مع إصرار وفيه أبو شيبة الحرامانى

مباهاة المكثرين
والإضرار على القليلين وأن
أنصر ظالمنا أو أخذ
مظلوماً وأن أقول فى
العلم بغير علم أو أعمل فى
الدين بغير يقين أعوذ
بك أن أشرك بك وأنا
أعلم وأستغفرك لما
لا أعلم أعوذ بعفوك
من عقابك وأعوذ
برضاك من سخطك
وأعوذ بك منك
لأحصى ثناء عليك
أنت كما أثبتت على
نفسك اللهم أنت ربى
لا إله إلا أنت خلقتنى
وأنا عبدك وإن
عبدك وعلى عهدك
ووعدك ما استطعت
أعوذ بك من شر
ما صنعت أبوء بنعمتك
على وأبوء بذنبي فاغفر لى

وأربع في اللسان ، وهي شهادة الزور وقذف المحصن واليمين الغموس ، وهي التي يحق بها باطلاً ويطل بها حقاً ، وقيل هي التي يقتطع بها مال امرئ مسلم باطلاً ولو سوا كامن أراك . وسُميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في النار . والسحر وهو كل كلام يغير الانسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلق . وثلاث في البطن وهي شرب الخمر والسكر من كل شراب وأكل مال اليتيم ظلماً وأكل الربا وهو يعلم . واثنان في الفرج وهما الزنا واللواط . واثنان في اليدين وهما القتل والسرقة . وواحدة في الرجلين وهو الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من العشرين وواحدة في جميع الجسد وهو عقوق الوالدين . قال وجملة عقوقهما أن يقسا عليه في حق فلا ير قسمهما وإن سألناه حاجة فلا يعطيهما وإن يسأه فيضربهما ويجوعان فلا يطعمهما هذا ما قاله وهو قريب ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه فانه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر وهي جنابة على الأموال ، ولم يذكر في كباير النفوس إلا القتل فأما فقه العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض له وضرب اليتيم وتعيذه وقطع أطرافه لاشك في أنه أكبر من أكل ماله ، كيف وفي الخبر من الكبائر « السبتان بالسبة ومن الكبائر استتالة الرجل في عرض أخيه السلم ^(١) وهذا زائد على قذف المحصن . وقال أبو سعيد الخدرى وغيره من الصحابة : إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر ^(٢) . وقالت طائفة : كل عمد كبيرة وكل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وكشف العطاء عن هذا أن نظر الناظر في السرقة أي كبيرة أم لا يصح ما لم يفهم معنى

والحديث منكر يعرف به . وأما الوقوفات فروى الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال الكبائر الإشراف بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله . وروى البيهقي فيه عن ابن عباس قال الكبائر الإشراف بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله وعقوق الوالدين وقتل النفس التي حرم الله وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف وأكل الربا والسحر والزنا واليمين الغموس الفاجرة والغلول ومنع الزكاة وشهادة الزور وكتمان الشهادة وشرب الخمر وترك الصلاة متمداً وأشياء مما فرضها الله ونقض العهد وقطيعة الرحم . وروى ابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عباس كل ذنب أصغر عليه العبد كبير وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس عن أنس قوله لا صغيرة مع الإصرار وإسناده جيد فقد اجتمع من المرفوعات والوقوفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون إلا أن بعضها لا يصح إسناده كما تقدم وإنما ذكرت الوقوفات حتى يعلم ما ورد في المرفوع وما ورد في الوقوف والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال كل ما نهى الله عنه كبيرة ، والله أعلم ^(١) حديث من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استتالة الرجل في عرض أخيه السلم عزاه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس لأحمد وأبي داود من حديث سعيد بن زيد والذي عندهما من حديثه من أربى الربا استتالة في عرض السلم بغير حق كما تقدم ^(٢) حديث أبي سعيد الخدرى وغيره من الصحابة إنكم تعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر أحمد والبخاري بسند صحيح وقال من الوقوفات بدل الكبائر ورواه البخاري من حديث أنس وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وقال صحيح الاسناد .

إنه لا ينفرد الذنوب إلا أنت . اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحاً وآخره نجاحاً وأوسطه فلاحاً . اللهم اجعل أوله رحمةً وأوسطه نعمةً وآخره تكريمةً أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والكبرياء لله والجبروت والسلطان لله والليل والنهار وما سكن فيها لله الواحد القهار . أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ، اللهم إنا نسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الخالق

الكبيرة والمراد بها كقول القائل السرقة حرام أم لا ، لامطعم في تعريفه إلا بعد تحرير معنى الحرام أو لأنم البحث عن وجوده في السرقة ، فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع وذلك لأن الكبير والصغير من المضافات وما من ذنب إلا وهو كبير بالاضافة إلى مادونه وصغير بالاضافة إلى ما فوقه فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالاضافة إلى النظرة صغيرة بالاضافة إلى الزنا وقطع يد المسلم كبيرة بالاضافة إلى ضربه صغيرة بالاضافة إلى قتله ، نعم للانسان أن يطلق على ما توعد بالنار على فله خاصة اسم الكبيرة ، ونفى بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة وله أن يطلق على ما أوجب الحدّ عليه مصيرا إلى أن ما جهل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيم وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب التهي عنه فيقول تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمته ثم يكون عظيما وكبيرة لا محالة بالاضافة ، إذ منصوصات القرآن أيضا تفاوتت درجاتها فهذه الاطلاقات لا حرج فيها وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ولا يمد تنزيلها على شيء من هذه الاحتمالات ، نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى - إن تجتنبوا كبار ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم - وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «الصلوات كفارات لما بينهنّ إلا الكبائر» فان هذا إثبات حكم الكبائر والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها وإلى ما يعلم أنها معدودة في الصغائر وإلى ما يشك فيه فلا يدري حكمه فالطعم في معرفة حدّ حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لا يمكن فان ذلك لا يمكن إلا بالسماح من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول إنني أردت بالكبائر عشرا أو خمسا ويفصلها ، فان لم يرد هذا بل ورد في بعض الألفاظ « ثلاث من الكبائر (١) » وفي بعضها « سبع من الكبائر (٢) » . ثم ورد « أن السبطين بالسبة الواحدة من الكبائر » وهو خارج عن السبع والثلاث علم أنه لم يقصد به العدد بما عصرف كيف يطعم في عدد ما لم يده الشرع وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل كما أبهم ليلة القدر لعظم جدّ الناس في طلبها ، نعم لنا سبيل كلي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق . وأما أعيانها فنعرفها بالظنّ والتقريب ونعرف أيضا أكبر الكبائر ، فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته . وبيانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعا أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقاءه وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله وإليه الإشارة بقوله تعالى - وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون - أي ليكونوا عبيدا لي ولا يكون العبد عبدا ما لم يعرف ربه بالرؤية ونفسه بالعبودية ولا بد أن يعرف نفسه وربه فهذا هو المقصود الأقصى يبعثه الأنبياء ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا ، وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام « الدنيا مزرعة الآخرة (٣) » فصار حفظ الدنيا أيضا مقصودا تابعا للدين لأنه وسيلة إليه

(١) حديث ثلاث من الكبائر الشيخان من حديث أبي بكره ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا الحديث وقد تقدم (٢) حديث سبع من الكبائر طب في الأوسط من حديث أبي سعيد الكبائر سبع وقد تقدم وله في الكبير من حديث عبدا لله بن عمر من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر الحديث ثم عدّهن سبعا وتقدم عن الصحيحين حديث أبي هريرة اجتنبوا السبع اللواتي (٣) حديث الدنيا مزرعة الآخرة لم أجده بهذه اللفظ مرفوعا وروى العقيلي في الضعفاء وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته الحديث وإسناده ضعيف .

للنار بديع السموات
والأرض ذو الجلال
والاكرام أنت الأحد
السمد الذي لم يلد ولم
يولد ولم يكن له كفوا
أحدا يحيى يا قيوم يا حي
حين لا شيء في ديمومة
ملكه وبقائه يا حي
عحي الموتى يا حي يحيي
الأحياء ووارث
الأرض والسماء ، اللهم
إني أسألك باسمك
بسم الله الرحمن الرحيم
وباسمك الله لا إله إلا
هو الحي القيوم
لأنأخذ سنة ولانوم
اللهم إني أسألك باسمك
الأعظم الأجل الأعز
الأكرم الذي إذا
دعيت به أجيبت وإذا
سئلت به أعطيت يا نور
النور يا مدبر الأمور

والمعلق من الدنيا بالآخرة شيان النفوس والأموال فكل ما يسدّ باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر
 ويليها ما يسدّ باب حياة النفوس ويليها ما يسدّ باب العايش التي بها حياة النفوس فهذه ثلاث مراتب ،
 تحفظ المعرفة على القلوب والحياة على الأبدان والأموال على الأشخاص ضروري في مقصود الشرائع ،
 كلها وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن يختلف فيها الملل فلا يجوز أن الله تعالى يمت نيا يريد يمت
 إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسوله أو يأمرهم بهلاك
 النفوس وإهلاك الأموال لحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب : الأولى ما يمنع من معرفة
 الله تعالى ومعرفة رسوله وهو الكفر فلا كبيرة فوق الكفر ، ذ الحجاب بين الله وبين الصدهو الجهل
 والوسيلة للقربة له إليه هو العلم والعرفة وقربه بقدر معرفته وبصده بقدر جهله ويتلو الجهل الذي
 يسمى كفرا الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته فان هذا أيضا عين الجهل لمن عرف الله لم يتصور
 أن يكون آمنا ولا أن يكون آسوا ويتلو هذه الرتبة البدع كلها التملقة بذات الله وصفاته وأفضاله
 وبضها أشد من بعض وضواتها على حسب تضاد الجهل ، وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه وبأفضاله
 وشرائعه وأوامره ونواهي ومراتب ذلك لا تنحصر وهي تنقسم إلى ما يعلم أنها داخلة تحت ذكر
 الكبائر المذكورة في القرآن وإلى ما يعلم أنه لا يدخل وإلى ما يشك فيه وطلب دفع الشك في القسم
 للتوسط طمع في غير مطمع . للرتبة الثانية : النفوس إذ يقاؤها وحفظها تنوم الحياة وتحصل للمعرفة
 بالله قتل النفس لامحالة من الكبائر وإن كان دون الكفر لأن ذلك يصد عن القصد وهذا
 يصد وسيلة المقصود إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى ويتلو هذه
 الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضى إلى الهلاك حتى الضرب وبضها أكبر من بعض ويقع في
 هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالله كور في قضاء الشهوات
 انقطع النسل ودفع الموجود قريب من قطع الوجود ، وأما الزنا فانه لا يفوت أصل الوجود ولكن
 يشوش الأنساب ويطل التوارث والتناصر وجملة من الأمور التي لا ينتظم العيش إلا بها بل كيف
 يتم النظام مع إباحة الزنا ولا ينتظم أمور البهائم مالم يتميز الفعل منها بإثان يختص بها عن سائر
 الفحول ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحا في أصل شرع قصد به الإصلاح وينبغي أن يكون الزنا
 في الرتبة دون القتل لأنه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولعكته يفوت تميز الأنساب
 ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضى إلى القتال وينبغي أن يكون أشد من اللواط لأن الشهوة
 داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرته . للرتبة الثالثة : الأموال فانها ما عايش
 الخلق فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاء واحق بالاستيلاء والسرقة وغيرها بل ينبغي أن تحفظ
 لتبقى يقاؤها النفوس إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها وإن أكلت أمكن تفرعها
 فليس يعظم الأمر فيها ، نعم إذا جرى تناولها بطريق بصير التدارك له فينبغي أن يكون ذلك من
 الكبائر وذلك بأربع طرق : أحدها الخفية ، وهي السرقة فانه إذا لم يطلع عليه غالبا كيف
 يتدارك . الثاني أكل مال اليتيم ، وهذا أيضا من الخفية وأغنى به في حق الولي والقيم فانه مؤتمن
 فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الأمر فيه واجب بخلاف النصب فانه ظاهر
 يعرف وبخلاف الحيانة في الوديعة فان للودع خصم فيه يتصنف لنفسه . الثالث : تفويتها بشهادة
 الزور . الرابع : أخذ الوديعة وغيرها باليمين القموس فان هذه طريق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز
 أن تختلف الشرائع في تحريمها أصلا وبضها أشد من بعض وكلها دون الرتبة الثانية التملقة بالنفوس

اعالم ما في الصدور
 يا صبح يا قريب يا مجيب
 الداء يا لطيفا لما يشاء
 يا رءوف يا رحيم يا كبير
 يا عظيم يا الله يا رحمن
 يا ذا الجلال والاكرام
 اللهم الله لا اله الا هو الحي
 القيوم وعتت الوجوه
 للحي القيوم يا الهى
 واه كل شيء الهما
 واحدا لا اله الا انت
 اللهم انى أسألك باسمك
 يا الله الله الله الذى
 لا اله الا هو رب العرش
 العظيم فتعالى الله الملك
 الحق لا اله الا هو رب
 العرش الكريم انت
 الأول والاخر والظاهر
 والباطن وصمت كل
 شيء رحمة وعلما
 كهيص حم عسق
 الرحمن يا واحد يا قهار

وهذه الأربعة جدية بأن تكون مرادة بالكبائر وإن لم يوجب الشرع الحد في بعضها ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم في مصالح الدنيا تأثيرها . وأما كل الربا فليس فيه إلا كل مال الغير بالتراضى مع الاخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد أن تختلف الشرائع في مثله وإذا لم يجعل النصب الذى هو أكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع وإن عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم أيضا الظلم بالنصب وغيره وعظم الحيانة والصدى إلى أن أكل دائق بالحيانة أو النصب من الكبائر فيه نظر وذلك واقع في مظنة الشك وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر بل ينبغى أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريا في الدين فيبقى مما ذكره أبو طالب المكى القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وعقوق الوالدين . أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضا لأن العقل محظوظ كما أن النفس محظوظة بل لاخير في النفس دون العقل فإزالة العقل من الكبائر ولكن هذا لا يجرى في قطرة من الخمر فلا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة وإنما هو شرب ماء نجس والقطرة وحدها في محل الشك وإيجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم أمره فبعد ذلك من الكبائر بالشرع وليس في قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع فان ثبت إجماع في أنه كبيرة وجب الاتباع وإلا فالتوقف فيه مجال . وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراس والأعراض دون الأموال في الرية وتناولها مراتب وأعظمها تناول القذف بالاضافة إلى فاحشة الزنا وقد عظم الشرع أمره وأظن ظنا غالبا أن الصحابة كانوا يبدون كل ما يجب به الحد كبيرة فهو بهذا الاعتبار لا تكفروه الصلوات الخمس وهو الذى تريده بالكبيرة الآن ولكن من حيث إنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرد لا يدل على كبره وعظمته بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنسانا يزنى فله أن يشهد ويحمله المشهود عليه بمجرد شهادته فان لم تقبل شهادته فحده ليس ضروريا في مصالح الدنيا وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات فاذن هذا أيضا يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع فأما من ظن أنه أن يشهد وحده أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره فلا ينبغى أن يجعل في حقه من الكبائر . وأما السحر فان كان فيه كفر فكبيرة وإلا فعظمته بحسب الضرر الذى يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره . وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغى أن يكون من حيث القياس في محل التوقف وإذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزنا وضربهم والظلم لهم بنصب أموالهم وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم وإجلالهم من أوطانهم ليس من الكبائر إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قيل فيه فالتوقف في هذا أيضا غير بعيد ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر . فاذا رجع حاصل الأمر إلى أنا نعى بالكبيرة مالا تكفروه الصلوات بحكم الشرع وذلك مما اتسم إلى ما علم أنه لا تكفروه قطعا وإلى ما ينبغى أن تكفروه وإلى ما يتوقف فيه والتوقف فيه بعضه مظنون للنفي والاثبات وبعضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة وإذن لا مطمع فيه فطلب رفع الشك فيه محال . فان قلت فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدها فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده . فاعلم أن كل مالا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإبهام لأن دار التكليف هي دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدين من حيث إنها كبيرة بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزنا وغيرها وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها ، وهذا أمر يتعلق بالأخرة والإبهام ألقى به حتى يكون الناس على وجل وحذر

ياعزيز يا جبار يا أحد
يا صمد يا ودود يا غفور
وهو الله الذى لا إله إلا
هو عالم الغيب والشهادة
هو الرحمن الرحيم لا إله
إلا أنت سبحانك إني
كنت من الظالمين
اللهم إني أعوذ باسمك
المسكون المحزون
النزل السلام الطهر
الطاهر القدوس القدس
يادهر يادهور ياديهار
يا أبد يا أول يا من لم يزل
ولا يزال ولا يزول وهو
يا هو لا إله إلا هو يا من
لا هو إلا هو يا من
لا يعلم ما هو إلا هو
يا كان يا كينان
يا روح يا كائن قبل
كل كون يا كائن بعد
كل كون يا مكونا

فلا يتجرءون على الصغائر اعتماداً على الصلوات الحسن وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى - إن تجنّبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم - ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والارادة فمن يتمكن من امرأة ومن موافقتها فكيف نفسه عن الوقوع فيقتصر على نظر أو لمس فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقوع أشد تأثيراً في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه فهذا معنى تكفيره فإن كان عيناً أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للمعجز أو كان قادراً ولكن امتنع لحوف أمر آخر فهذا لا يصلح لتكفير أصلاً وكل من يشتهي الحمر بطبعه ولو أيسح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي من مقدماته كسماع المراهي والأوتار، ثم من يشتهي الحمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الحمر ويطلقها في السماع فجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع فكل هذه أحكام أخروية ويجوز أن يبقى بعضها في محل الشك وتكون من التشابهات فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ولم يرد النص بعد ولا حد جامع بل ورد بالفاظ مختلفة: قد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشرارك بالله وترك السنة ونكث الصفقة (١) » قيل ماترك السنة قيل الخروج عن الجماعة ونكث الصفقة أن يبايع رجلاً ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله فهذا أو أمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حد جامع فيبقى لامحالة مبهماً . فإن قلت الشهادة لا تقبل إلا بمن يجنب الكبائر والورع عن الصغائر ليس شرطاً في قبول الشهادة وهذا من أحكام الدنيا . فأعلم أنا لا نخص رد الشهادة بالكبائر فلا خلاف في أن من يسمع المراهي ويلبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب ويشرب في أواني الذهب والفضة لا تقبل شهادته ولم يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر وقال الشافعي رضي الله عنه إذا شرب الخنفي النبيذ حددته ولم أرد شهادته فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ولم يرد به الشهادة فدل على أن الشهادة نفاً وإثباتاً لا تدور على الصغائر والكبائر بل كل الذنوب تقدر في المدالة إلا ما لا تخلو الإنسان عنه غالباً بضرورة مجاري العادات كالغيبية والتجسس وسوء الظن والكذب في بعض الأقوال وسباع الغيبة وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأكل الشبهات وسب الولد والغلام وضرهما بما حكم الغضب زائداً على الصلحة وإكرام السلاطين الظلمة ومصادقة الفجار والتكامل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزل الناس ويتجرد لأمر الآخرة ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمعته مع المخالطة بعد ذلك ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده وبطلت الأحكام والشهادات وليس لبس الحرير وسباع المراهي واللعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب والحلوة بالأجنبيات وأمثلة هذه الصغائر من هذا القبيل فإلى مثل هذا النهج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة وردها إلى الكبيرة والصغيرة ثم أحاد هذه الصغائر التي لا ترد الشهادة بها ولو اوظف عليها لآثر في رد الشهادة كمن أخذ الغيبة وثلب الناس عادة وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم والصغيرة تكبر بالمواظبة كما أن الباح يصير صغيرة بالمواظبة كاللعب بالشرطنج والترنم بالقضاء على الدوام وغيره فهذه بيان حكم الصغائر والكبائر.

(بيان كيفية توزيع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا)

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة والآخرة من عالم الغيب والملكوت وأعلى بالدنيا حالته قبل

(١) حديث الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشرارك بالله وترك السنة ونكث الصفقة الحديث الحاكم من حديث أبي هريرة نحوه وقال صحيح الاسناد .

لكل ككون أهيا
شراهيا أدوناي
أصبوت يا بجلي عظام
الأمور - فان تولوا
قل حسبي الله لا إله
إلا هو عليه توكلت
وهو رب العرش
العظيم - ليس كمثل شيء
وهو السميع البصير -
اللهم صل على محمد وعلى
آل محمد كما صليت
على إبراهيم وآل
إبراهيم وبارك على
محمد وعلى آل محمد كما
باركت على إبراهيم
وآل إبراهيم إنك
حميد مجيد اللهم إني
أعوذ بك من علم
لا ينفع وقلب لا يخشع
ودعاء لا يسمع اللهم إني
أعوذ بك من فتنة
الدجال وعذاب القبر

الموت وبالآخرة حالتك بمد الموت فديناك وآخرتك صفاتك وأحوالك يسمى القريب الذي منها دنيا والتأخر آخرة ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة فانا الآن نتكلم في الدنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت ولا يتصور شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلا بضرب الأمثال ولذلك قال تعالى - وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون - وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» (١) وما سيكون في اليقظة لا يتبين لك في النوم إلا بضرب الأمثال الموهجة إلى التعبير فكذلك ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا إلا في كثرة الأمثال وأغنى بكثرة الأمثال ما تعرفه من علم التعبير ويكفيك منه إن كنت فطنا ثلاثة أمثلة فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال رأيت كأن في يدي خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال إنك مؤذن تؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر قال صدقت وجاء رجل آخر فقال رأيت كأنني أصب الزيت في الزيتون فقال إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فإن أمك سييت في صفرك لأن الزيتون أصل الزيت فهو يرد إلى الأصل فنظر فإذا جاريته كانت أمه وقد سييت في صفره وقال له آخر رأيت كأنني أفلد الدر في أعناق الخنازير فقال إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال وإنما نعي بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه وجده صادقا وإن نظر إلى صورته وجده كاذبا فال مؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا فإنه لم يختم به قط وإن نظر إلى معناه وجده صادقا إذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو النع الذي يراد الختم له وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم وقدر عقولهم أنهم في النوم والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل فإذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن المثل صادق ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» (٢) وهو من المثل الذي لا يحقله إلا العالمون فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثل لجهله بالتفسير الذي يسمى تأويلا كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيرا فيثبت لله تعالى يدا وأصعبا، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا. وكذلك في قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله خلق آدم على صورته» (٣) فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا. ومن ههنا زل من زل في صفات الهيبة حق في الكلام وجعلوه صوتا وحرفا إلى غير ذلك من الصفات والقول فيه يطول وكذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد بجمود نظره على ظاهر المثل وتناقضه عنده كقوله صلى الله عليه وسلم «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح فيثور الملحد الأحمق ويكذب» (٤) ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول يا سبحان الله الموت عرض والكبش جسم فكيف يتقلب العرض جسما وهل هذا إلا محال ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحق عن معرفة أسرارهم فقال - وما يعقلها إلا العالمون - ولا يدري المسكين أن من قال رأيت في منامى أنه جى بكبش وقيل هذا هو الوباء الذي في البلد وذبح فقال المعبر صدقت والأمر كما رأيت وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يود قط لأن

ومن فتنة الهياوليات اللهم إني أعوذ بك من شر ما علمت وشر ما لم أعلم وأعوذ بك من شر سمعي وبصري ولساني وقلبي اللهم إني أعوذ بك من القسوة والغفلة والذل والسكنة وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق وضيق الأرزاق والسمة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص ومائر الأدمام، اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحويل عافيتك ومن جفأة نعمتك ومن جميع سخطك، اللهم إني أسألك الصلاة على

- (١) حديث الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا لم أجده مرفوعا وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب
- (٢) حديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن تقدم (٣) حديث إن الله خلق آدم على صورته تقدم (٤) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح متفق عليه من حديث أبي سعيد.

المذبح وقع اليأس منه فان العبر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته وترجع حقيقة ذلك إلى أن الوكيل بالرؤيا وهو الذي يطلع الأرواح عند النوم على مافي اللوح المحفوظ عرفه بما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لأن النائم إنما يحتمل المثال فكان مثاله صادقا وكان معناه صحيحا فالرسل أيضا إنما يكلمون الناس في الدنيا وهي بالاضافة إلى الآخرة نوم فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة حكمة من الله ولطفا بعباده وتيسيرا لادراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل فقوله يؤتى بالموت في صورة كيش أملح مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة وثبوت المعاني فيها بواسطتها ولذلك عبر القرآن بقوله كن فيكون عن نهاية القدرة وعبر صلى الله عليه وسلم بقوله «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» عن سرعة التقلب . وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في كتاب قواعد العقائد من ربيع الصادات فلنرجع الآن إلى الغرض فالمقصود أن تعريف توزيع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن إلا بضرب المثل فلتفهم من المثل الذي نصره معناه لاصورته . فنقول : الناس في الآخرة ينقسمون أصنافا وتفاوت درجاتهم ودرجاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتنا لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها ولاتفارق الآخرة في هذا المعنى أصلا ألته فان مدبر الملك والملكوت واحدا شريك له وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبديل لها إلا أنان محجز ناعن إحصاء آحاد الدرجات فلانعجز عن إحصاء الأجناس . فنقول الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام هالكين ومعذبين وناجين وفائزين . ومثاله في الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم للمذبون ويغنى بعضهم فهم الناجون ويخلع على بعضهم فهم الفائزون فان كان للملك عادلا لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق فلا يقتل إلا جاحدا لاستحقاق الملك معاندا له في أصل الدولة ولا يجذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته ولا يغنى إلا معترفا له برتبة الملك لكنه لم يقصر يعذب ولم يخدم ليخلع عليه ولا يخلع إلا على من أبى عمره في الخدمة والنصرة ثم ينبغي أن تكون خلق الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة وإهلاك الهالكين إما تحقيقا بحز الرقبة أو تسكيلا بالمثلة بحسب درجاتهم في العاندة وتمذيب المعذبين في الخفة والشدة وطول المدة وقصرها وأنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لانحصى ولا تنحصر فكذلك فافهم أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون فمن هالك ومن معذب مدة ومن ناج يحمل في دار السلامة ومن فائز والفائزون ينقسمون إلى من يحملون في جنات عدن أو جنات المأوى أو جنات الفردوس والمعذبون ينقسمون إلى من يعذب قليلا وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة وذلك آخر من يخرج من النار (١) كما ورد في الخبر وكذلك الهالكون الأيسون من رحمة الله تتفاوت درجاتهم وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي فلنذكر كيفية توزيعها عليها : الرتبة الأولى وهي رتبة الهالكين . نضى بالهالكين الأيسين من رحمة الله تعالى إذ الذي قتله الملك في الثالثة الذي ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تفعل عن معاني المثال وهذه الدرجة لانكون إلا للجاحدين والمرضين التجردين للدنيا المكذبين باقه ورسله وكتبه فان السعادة الأخروية في الأقرب من اقه والنظر إلى وجهه وذلك لا ينال أصلا إلا بالمعرفة التي يعبر عنها

محمد وعلى آله وأسألك
من الحسير كله عاجله
وأجله ما علمت منه
وما لم أعلم وأعوذ بك
من الشر كله عاجله
وأجله . ما علمت منه
وما لم أعلم وأسألك الجنة
وما قرب إليها من قول
وعمل وأعوذ بك من
النار وما قرب إليها من
قول وعمل وأسألك
ماسألك عبدك ونييك
محمد صلى الله عليه
وسلم وأستعذك مما
استعاذك منه عبدك
ونبيك محمد صلى الله
عليه وسلم وأسألك
ما قضيت لي من أمر أن
تجعل عاقبته رشدا
زرحتك يا أرحم
الراحمين يا حي يا قيوم
زرحتك أستنيث

(١) حديث إن آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه وأطولهم مكثا فيه مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة .

بالإيمان والتصديق والجاهدون هم المنكرون والمسكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبدأ الآباد وهم الذين يكذبون برب العالمين وبأنبيائه المرسلين إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة وكل محجوب عن محبوبه لمحول بينه وبين ما يشتهي لا محالة فهو لا محالة يكون محترقا نار جهنم بنار الفراق ولذلك قال العارفون ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للحور العين وإنما مطالبنا للقاء ومهربنا من الحجاب فقط ، وقالوا من يعبد الله بعوض فهو كئيم كأن يبده اطلب جنته أو لحوف ناره بل العارف يبده لتداته فلا يطلب إلا ذاته فقط ، فأما الحور العين والفراكة فقد لا يشتهيها وأما النار فقد لا يقيمها إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام ، فان نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الأئيدة ونار جهنم لا شغل لها إلا مع الأجسام وألم الأجسام تستحقر مع ألم الفؤاد ولذلك قيل :

وفي فؤاد الحب نار جوى أحر نار الجحيم أبردها

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا فقد روى من غلب عليه الوجد فندا على النار وعلى أصول القصب الجارحة للقدم وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبه ونرى الضبان يستولى عليه الغضب في القتال فتصفيه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لأن الغضب نار في القلب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الغضب قطعة من النار (١) » واحترق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه فليس الهلاك من النار واليف إلا من حيث إنه يفرق بين جزءين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الأجسام فالذي يفرق بين القلب وبين محبوبه الذي يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاما من تأليف الأجسام فهو أشد إيلا ما إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم ويستحقره بالاضافة إلى ألم الجسم فالصبي لو خير بين ألم الحرمان على الكرة والوصولان وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلا ولم يعد ذلك ألما وقال العدو في الميدان مع الصولجان أحب إلى من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه ، بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ويفرح به الأصدقاء لآثر الهريسة والحلواء ، وهذا كله لفقد المعنى الذي بوجوده يصير الجاه محبوبا ووجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام لذينا وذلك لمن استرته صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التي لا يناسبها ولا يلبها إلا القرب من رب العالمين ولا يؤلمها إلا البمد والحجاب وكلاهما لا يكون الذوق إلا في اللسان والسمع إلا في الأذان فلا تكون هذه الصفة إلا في القلب ، فمن لا قلب له ليس له هذا الحس كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الألحان وحسن الصور والألوان وليس لكل إنسان قلب ولو كان لمصاح قوله تعالى - إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب - فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلسا من القلب، واستأعنى بالقلب هذا الذي تكنته عظام الصدر ، بل أعنى به السر الذي هو من عالم الأمر وهو اللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسية وسائر الأعضاء عالمه ومملكته والله الخلق والأمر جيعا ، ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه - قل الروح من أمر ربي - هو الأمير والمملك لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق تربيا وعالم الأمر أمير على عالم الخلق وهو اللطيفة التي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه وعند ذلك يشم العبد مبادئ روائح المعنى للطوى تحت قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته » ونظر بعين

(١) حديث الغضب قطعة من النار الترمذي من حديث أبي سعيد نحوه وقد تقدم .

لا تكفى إلى تسمى
طرفة عين وأصلح لي
شأنى كله يا نور
السموات والأرض
يا جمال السموات
والأرض يا عماد
السموات والأرض
يا بديع السموات
والأرض يا ذا الجلال
والاكرام يا صريح
المستصرخين يا غوث
المستغيثين يا منتهى
رغبة الراغبين
والفرج عن الكروبين
والمروح عن الغومين
ومجيب دعوة
الضطرين وكاشف
السوء وأرحم الراحمين
وبله العالمين منزل
بك كل حاجة يا أرحم
الراحمين اللهم استر
عورائى وآمن روعائى

الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه وإلى التمتع في طريق تأويله ، وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعمقين في التأويل لأن الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة أولئك أكثر وإن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وهي حكته يختص بها من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ، ولنعد إلى العرض فقد أرخينا الطول وطولنا النفس في أمر هو أطل من علوم للعاملات التي تصدها في هذا الكتاب فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لاندخل تحت الحصر فذلك لم نوردها . الرتبة الثانية : رتبة للمعدين وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه فان رأس الإيمان هو التوحيد وهو أن لا يعبد إلا الله ومن اتبع هواه فقد أخذ إلهه هواه فهو موحد بلسانه بالحقيقة بل معنى قولك لا إله إلا الله معنى قوله تعالى - قل الله ثم ذرم في خوضهم يلعبون - وهو أن تذر بالكلية غير الله ، ومعنى قوله تعالى - الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - ولما كان الصراط المستقيم الذي لا يكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحد من السيف مثل الصراط الموصوف في الآخرة فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل وذلك قاذح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم فذلك يقتضى لامحالة نقصانا في درجات القرب ومع كل نقصان ناران نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ونار جهنم كما وصفها القرآن فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة إنعما يكون بسبب أمرين : أحدهما قوة الإيمان وضعفه ، والثاني كثرة اتباع الهوى وقلته وإذ لا يخلو بشر في غالب الأمر عن واحد من الأمرين قال الله تعالى - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا - ولذلك قال الخائفون من السلف : إنعما خوفنا لأننا نيقنا أنا على النار واردون وشككنا في النجاة ، ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان^(١) قال الحسن ياليتني كنت ذلك الرجل . واعلم أن في الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة وأن الاختلاف في المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع والشهر وسائر الدد وأن الاختلاف بالشدة لانه لانه وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب كأن الملك قد يعذب بعض القصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ثم يعفو وقد يضرب بالسياط وقد يعذب بنوع آخر من العذاب ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدة وهو اختلاف الأنواع إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كمن يعذب بأخذ المال وقتل الولد واستباحة الحرم وتعذيب الأقارب والضرب وقطع اللسان واليد والأنف والأذن وغيره ، فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع وهي بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه وكثرة الطاعات وقتلها وكثرة السيئات وقتلها . أما شدة العذاب بشدة قبح السيئات وكثرتها وأما كثرة فيكثرتها وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان وهو المعنى بهوله تعالى - وما ربك بظلام للعبيد - وبقوله تعالى - اليوم تجزى كل نفس

وأفلى عتراتي ، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بك أن أغتال من تحتي ، اللهم - م - إني ضعيف تقو في رضاك ضعفي وخذ إلى الخير بناصيتي واجعل الإسلام منتهى رضاي ، اللهم إني ضعيف تقو في اللهم إني ذليل فأعزني ، اللهم إني فقير فأغنني برحمتك يا أرحم الراحمين ، اللهم إنك تعلم سرى وعلايتي فأقبل معذرتي وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنوبي ، اللهم إني أسألك إيمانا ييسر قلبي ويقينا صادقا حتى أعلم

(١) حديث من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان أحمد وأبو يعلى من رواية أبي ظلال القسمل عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون .

بما كسبت - وبقوله تعالى - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - وبقوله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه وجانب العفو والرحمة أرجح ، إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم « سبقت رحمتي غضبي (١) » وقال تعالى - وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما - فإذا ن هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة ، فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظنا ومستنده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار. فنقول: كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع الفرائض : أعنى الأركان الخمسة ولم يكن منه إلا صفائر متفرقة لم يصر عليها فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط فانه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته إذ ورد في الأخبار أن الصلوات الخمس والجمعة وصوم رمضان كفارات لسائينهن ، وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفر للصفائر وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب وكل من هذا حاله قد ثقلت موازينه ، فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب في عيشة راضية ، ثم التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقرين وزوله في جنات عدن أوفى الفردوس الأعلى فكذلك يقع أصناف الإيمان ، لأن الإيمان إيمانان تقليدي كإيمان العوام يصدقون بما يستمرون ويستمرون عليه ، وإيمان كسفي يحصل بالشرح الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله ، فهذا الصنف هم القربون الذالون في الفردوس الأعلى وهم على غاية القرب من اللأ الأعلى وهم أيضا على أصناف فمنهم السابقون ومنهم من دونهم، وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر إذ الإحاطة بكنهه جلال الله غير ممكنة وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق وإنما يفرغ فيه الفواصون بقدر قواهم ويقدر ما سبق لهم من الله تعالى في الأزل ، فالطريق إلى الله تعالى لانهاية لمنزله فالسالكون سبيل الله لانهاية لدرجاتهم . وأما المؤمن إيمانا تقليديا فهو من أصحاب اليمين ودرجته دون درجة المقرين وهم أيضا على درجات فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقرين ، هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى الفرائض كلها : أعنى الأركان الخمسة التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلوة والزكاة والصوم والحج ، فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الاسلام فان تاب توبة نصوحا قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المفصول كالذي لم يتوسخ أصلا وإن مات قبل التوبة فهذا أمر محظر عند الموت إذ ربما يكون موته على الإصرار سببا لتزلزل إيمانه فيختم له بسوء الخاتمة لاسيما إذا كان إيمانه تقليديا ، فان التقليد وإن كان جزما فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة ، وكلاهما إن ماتا على الإيمان يندبان إلا أن يعفو الله عذابا يزيد على عذاب المناقشة في الحساب وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الإصرار ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات وعند انقضاء مدة العذاب ينزل البله المقلدون في درجات أصحاب اليمين والعارفون المستبصرون في أعلى عليين ،

أنه لن يصيبني إلا ما كتب لي والرضا بما قسمت لي يا ذا الجلال والاكرام اللهم يا هادي المضلين وياراحم المذنبين ومقيل عثره العائرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين اللهم عالم الخفيات رفيع الدرجات تلقى الروح بأمرك على من تشاء من عبادك غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذا الطول لا إله إلا هو أنت الوكيل

(١) حديث سبقت رحمتي غضبي مسلم من حديث أبي هريرة .

ففي الخبر « آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف (١) » فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام كأن يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين فان هذا جهل بطريق ضرب الأمثال بل هذا كقول القائل أخذ منه جملا وأعطاه عشرة أمثاله وكان الجمل يساوي عشرة دنائير فأعطاه مائة دينار فان لم يفهم من المثل إلا المثل في الوزن والثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفة الميزان والجمل في الكفة الأخرى عشر عشره بل هو موازنه معاني الأجسام وأرواحها دون أشخاصها وهياكلها فان الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لما ليته فروحه السالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسمانية وهذا صادق عند من يعرف روح السالية من الذهب والفضة بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال أعطيته عشرة أمثاله كان صادقا ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون فان روح الجوهرة لا تدرك بمجرد البصر بل بظننة أخرى وراء البصر فلذلك يكذب به الصبي بل القروي والبدوي ويقول ماهذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال ووزن الجمل ألف مثقال فقد كذب في قوله إني أعطيته عشرة أمثاله والكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لاسبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال وأن يحصل في قلبه النور الذي يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال فنجد ذلك ينكشف له الصدق والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الموازنة إذ يقول صلى الله عليه وسلم « الجنة في السموات (٢) » كما ورد في الأخبار والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا في الدنيا وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة وكذلك تفهيم البدوي وكما أن الجوهري مرحوم إذا بلى بالبدوي والقروي في تفهيم تلك الموازنة فالعارف مرحوم إذا بلى بالبلد الأبله في تفهيم هذه الموازنة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « ارحموا ثلاثة عالمين الجهال وغنى قوم افتقر وعزيز قوم ذل (٣) » والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنه لهم وامتحان وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلي وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام « البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل (٤) » فلا تظن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذي ينزل بالبدن فان بلاء نوح عليه السلام أيضا من البلاء العظيم إذ بلى بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا فرارا ولذلك لما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال « رحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر (٥) » فاذن لا تخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاهدين ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين ولذلك قلما ينفك الأولياء عن ضروب

(١) حديث إن آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف متفق عليه من حديث ابن مسعود (٢) حديث كون الجنة في السموات سخ من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه فاذا سألت الله فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن (٣) حديث ارحموا ثلاثة عالمين الجهال الحديث ابن حبان في الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس وعيسى ضعيف ورواه فيه من حديث ابن عباس إلا أنه قال عالم تلاعب به الصبيان وفيه أبو البختري، واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين (٤) حديث البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء، فدكره دون ذكر الأولياء وللطبراني من حديث فاطمة أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون الحديث (٥) حديث رحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر البخاري من حديث ابن مسعود .

وإليك الصبر يا من لا يشغله شأن عن شأن ولا يشغله سمع عن سمع ولا تشبهه عليه الأصوات ويا من لا تفتله المسائل ولا تختلف عليه اللغات ويا من لا يتبرم بالحاح الملحين أذقني برد عفوك وحلاوة رحمتك اللهم إني أسألك قلبا سليما ولسانا صادقا وعملا متقبلا أسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب . اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ونعما لا ينفد وقررة عين الأبد ومرافقة نبيك محمد وأسألك حبك

من الايذاء وأنواع البلاء بالأخراج من البلاد والسعاية بهم إلى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين كما يجب أن يكون المتعاض عن الجمل الكبير جوهره صغيرة عند الجاهلين من اللبثين للضعيف. فاذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه الصلاة والسلام «إنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر حررات» وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فتكون حماراً برجلين لأن الحمار يشارك في الحواس الخمس وإنما أنت مفارق للحمار بسرّ إلهي عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحمله وأشفتن منه فإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف إلا في عالم ذلك السرّ الذي فارقت به الحمار وسائر البهائم فمن ذهل عن ذلك وعطله وأهمله وقنع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذي أهلك نفسه بتعطيلها ونسبها بالإعراض عنها فلا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسي الله إذ ليس ذات الله مدرّكاً في هذا العالم بالحواس الخمس وكل من نسي الله أنساه الله لامحالة نفسه ونزل إلى رتبة البهائم وترك الترقى إلى الأفق الأعلى وخان في الأمانة التي أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافراً لأنعمه ومتعرضاً لنقته لأنه أسوأ حالاً من البهيمة فإن البهيمة تتخلص بالموت . وأما هذا فضده أمانة ترجع لامحالة إلى مودعها فإليه مرجع الأمانة ومصيرها وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة وإنما هبطت إلى هذا القالب الغاني وغربت فيه وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود إلى بارئها وخالقها إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة. والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية والمظلمة أيضاً راجعة إلى الحضرة إذ المرجع والمصير لكل إليه إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين ولذلك قال تعالى - ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم - فبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون قد انقلبت وجوههم إلى أفتيتهم واتكست رؤسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم يمهّد طريقه ، فعوذ بالله من الضلال والتزول إلى منازل الجهال فهذا حكم انقسام من يخرج من النار ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر ولا يخرج من النار إلا موحد . ولست أعنى بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله فإن اللسان من عالم الملك والشهادة فلا يرفع إلا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته وأيدي الغانمين عن ماله ومدة الرقبة والمال مدة الحياة بحيث لا تبقى رقبة ولا مال لا يرفع القول باللسان وإنما ينفع الصدق في التوحيد وكال توحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله . وعلامته أن لا يضب على أحد من الخلق بما يجري عليه إذ لا يرى الوسائط وإنما يرى مسبب الأسباب كما سيأتي تخميقه في التوكل وهذا التوحيد متفاوت فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال . ومنهم من له مثقال ومنهم من له مقدار خردلة وذرة ، فمن في قلبه مثقال دينار من إيمان فهو أول من يخرج من النار . وفي الخبر يقال «أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان» (١) وآخر من يخرج من في قلبه مثقال ذرة من إيمان وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا في الموازنة بين أعيان الأموال وبين التقود وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك فأما بقية السبب في تسارع العفو والتكفير إليها ففي الأمر إن البعد ليوقف بين يدي الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لكان من أهل الجنة فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سبّ عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لا تبقى له حسنة ، فتقول

(١) حديث أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان الحديث تقدم .

وحب من أحبك
وحب عمل يقرب إلى
حبك . اللهم بملك
الغيب وقدرتك على
خلقك أحيى ما كانت
الحياة خيراً لي وتوفى
ما كانت الوفاة خيراً لي
أسألك خشيتك في
الغيب والشهادة وكلمة
العدل في الرضا والغضب
والتصدق في الغنى والفقر
ولذة النظر إلى
وجهك والشوق إلى
لقاءك وأعوذ بك من
ضراء مضرة وفتنة
مضلة . اللهم اقم لي
من خشيتك ما تحول
به بيني وبين مصيبتك
ومن طاعتك ما يدخلني
جنتك ومن اليقين
ماتسون به علينا
مصائب الدنيا . اللهم
ارزقنا حزن خوف

اللائكة ياربنا هذا قد فئيت حسناته وبقى طالبون كثير فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتهم على سيئاتهم وصكوا له صكا إلى النار وكما يهلكه وبسبب غير بطريق القصاص فكذلك ينجل للظلم بحسنة الظالم إذ ينقل إليه عوضا عما ظلم به وقد حكى عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل إليه يستحله فقال لأفعل ليس في صحيفتي حسنة أفضل منها فكيف أمحوها وقال هو وغيره مذنوب إخواني من حسناتي أريد أن أزين بها صحيفتي فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد في العباد في درجات السعادة والشقاوة وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاهاى حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه حين فان ذلك ظن يصيب في أكثر الأحوال ولكن قد تتوق إلى الشرف على المهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء وغموض الأسباب التي رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم إذ ليس في قوة البشر الوقوف على كنهها فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها جبر عن ذلك السبب الحقى المفضى إلى النجاة بالعبودية والرضا وعمما يفضى إلى المهلاك بالغضب والانتقام ووراء ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية التي لا يطلع الخالق عليها فذلك يجب علينا أن نجوز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة والغيب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة فإن الاعتدال على التقوى والتقوى في القلب وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفي فيه يقتضى العفو ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضى البعد عن الله تعالى ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف ولولم يكن جزاء لم يكن عدلا ولولم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى - وما ربك بظلال للعبيد - ولا قوله تعالى - إن الله لا يظلم مثقال ذرة وكل ذلك صحيح فليس للإنسان إلا ما سمى وسعيه هو الذى يرى وكل نفس بما كسبت رهينة فلما راغوا أراغ الله قلوبهم ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم تحقيقا لقوله تعالى - إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافا أوضح من المشاهدة بالبصر إذ البصر يمكن الخلط فيه إذ قد يرى البعيد قريبا والكبير صغيرا ومشاهدة القلب لا يمكن الخلط فيها وإنما الشأن في افتتاح بصيرة القلب وإلا فيأرى بها بعد الافتتاح فلا يتصور فيه الكذب وإليه الإشارة بقوله تعالى - ما كذب الفؤاد ما رأى - . الرتبة الثالثة : رتبة الناجين وأغنى بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز وهم قوم لم يخدموا فيخلق عليهم ولم يقصروا فيعذبوا ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمتوهين والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا مصيبة فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم فقام من أهل الجنة ولا من أهل النار بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرع عنه بالأعراف وحلول طائفة من الخلق (١) فيه معلوم يقينا من الآيات والأخبار

الوعيد وسرور
رجاء للوعود حتى
نجد لمة ما نطلب
وخوف مامنه نهرب
اللهم ألبس وجوهنا
منك الحياء واملأ
قلوبنا بك فرحا وأسكن
في قوسنا من عظمتك
مهابة وذلك جوارحنا
لخدمتك واجعلك
أحب إلينا مما سواك
واجعلنا أخشى لك ممن
سواك نسألك تمام
النعمة بتمام التوبة
ودوام العافية بدوام
العصمة وأداء الشكر
بمحسن العبادة اللهم
إني أسألك بركة الحياة
وخير الحياة وأعوذ بك
من شر الحياة وشر
الوفاة وأسألك خير
ما بينهما أحيى حياة

(١) حديث حلول طائفة من الخلق الأعراف البزار من حديث أبي سعيد الخدرى سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لأبائهم فمنهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعهم العصية أن يدخلوا الجنة وهم على سور بين الجنة والنار الحديث وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ورواه الطبراني من رواية أبي معشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن المدنى عن أبيه مختصرا وأبو معشر نجيح السندى ضعيف ويحيى بن شبل لا يعرف وللحاكم عن حذيفة قال أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار

ومن أنوار الاعتبار فأما الحكم على العين كالحكم مشلا بأن الصبيان منهم فهذا مظلون وليس بمتيقن والاطلاع عليه تحقيا في عالم النبوة ويعد أن ترتقي إليه رتبة الأولياء والعلماء والأخبار في حق الصبيان أيضا متعارضة حتى قالت عائشة رضی الله عنهم الملمات بعض الصبيان عصفور من عصفير الجنة فأنكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال وما يدريك (١) فاذن الاشكال والاشتباه أغلب في هذا المقام . الرتبة الرابعة : رتبة الفائزين وهم العارفون دون القليلين وهم القربون السابقون فان القلة وإن كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم القربون وما يلحق هؤلاء يجاوز حد البيان والقدر الممكن ذكره ما فصله القرآن فليس بعد بيان الله بيان والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الذي أجمله قوله تعالى - فلتعلم نفس مأخوف لهم من قرة أعين - وقوله عز وجل أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصور أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم . وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والحجر والحلي والأساور فأنهم لا يحرصون عليها ولو أعطوها لم يقنعوا بها ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم فهي غاية السعادة ونهاية اللذات

وقصرت سيئاتهم عن الجنة الحديث وقال صحيح على شرط الشيخين وروى الثعلبي عن ابن عباس قال الأعراف موضع عال في الصراط عليه العباس وحمزة وطى وجمفر الحديث هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذابين (١) حديث عائشة أنها قالت لملمات بعض الصبيان عصفور من عصفير الجنة فأنكر ذلك وقال ما يدريك رواه مسلم قال المصنف والأخبار في حق الصبيان متعارضة . قلت روى البخارى من حديث سمرة بن جندب في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وفيه وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم عليه السلام وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة فقيل يارسل الله وأولاد الشركين قال وأولاد الشركين وللطبراني من حديثه سألتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد الشركين فقال هم خدمة أهل الجنة وفيه عباد بن منصور الناجي قاضي البصرة وهو ضعيف يرويه عن عيسى بن شعيب وقد ضعفه ابن حبان وللنسائي من حديث الأسود ابن سريع كنا في غزاة لنا الحديث في قتل الذرية ، وفيه إلا إن خياركم أبناء المشركين ثم قال لا تقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة الحديث وإسناده صحيح ، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة كل مولود يولد على الفطرة الحديث وفي رواية لأحمد ليس مولود يولد إلا على هذه الملة ولأبي داود في آخر الحديث فقالوا يارسل الله أفرايت من يموت وهو صغير فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وفي الصحيحين من حديث ابن عباس سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبراني من حديث ثابت بن الحرث الأنصاري كانت يهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا هو صديق فقال النبي صلى الله عليه وسلم كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد الحديث وفيه عبد الله بن طهيمه ولأبي داود من حديث ابن مسعود الوائدة والمودة في النار وله من حديث عائشة قلت يارسل الله ذراري المؤمنين فقال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فذراري المشركين قال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبراني من حديث خديجة قلت يارسل الله أين أطفالك منك قال في الجنة قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين وإسناده منقطع بين عبد الله بن الحرث وخديجة وفي الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة في أولاد المشركين هم من آبائهم وفي رواية هم منهم .

السعداء حياة من تحب بقاءه وتوفى وفاة الشهداء وفاة من تحب لقاءه ياخير الرازيين وأحسن التوابين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ورب العالمين ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم ما خلقت واغفر ما قدرت وطيب ما رزقت وتمم ما أنعمت وتقبل ما استعملت واحفظ ما استحفظت ولا تهتك ما سترت فانه لا إله إلا أنت أستغفرك من كل لذة بغير ذكرك ومن كل راحة بغير خدملك ومن كل سرور بغير قربك ومن كل فرح بغير مجالستك ومن كل

ولذلك قيل لرابطة العدوية رحمة الله عليها كيف رغبتك في الجنة قتالت الجار ثم الدار فهو لا يقوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزيتها بل عن كل شيء سواه حتى عن أنفسهم ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمشوقه المستوفى همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه فانه في حال الاسترقاق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه ويعبر عن هذه الحالة بأنه فنى عن نفسه ومضاه أنه صار مستغرقا بغيره وصارت همومه هما واحدا وهو محبوبه ولم يبق فيه مقنع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه لانتفسه ولا غير نفسه وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قررة عين لا يتصور أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر كما لا يتصور أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكمه إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره فمقد ذلك يدرك حاله ويعلم قطعا أنه لم يتصور أن تخطر بياله قبل ذلك صورته فالدنيا حجاب على التحقيق ورفعه ينكشف الغطاء فمقد ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة وان الدار الآخرة لمسى الحيوان لو كانوا يعلمون فهذا القدر كاف في بيان توزيع الدرجات على الحسنات والله الوافق بلفظه.

(بيان ماتعظم به الصغائر من الذنوب)

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب . منها الاصرار والواظبة ولذلك قيل لاصغيرة مع اصرار ولا كبيرة مع استغفار فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك كان الفوع عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ولذلك قال رسول الله ﷺ « خير الأعمال أدومها وإن قل (١) » والأشياء تستبان بأضدادها وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير للنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر قلما يزن الزانى بفته من غير مراودة ومقدمات وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة فكل كبيرة تكنتها صغائر سابقة ولا حقة ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الانسان عليها عمره . ومنها أن يستصغر الذنب فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكرهيته له وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به واستصغاره يصدر عن الألف به وذلك يوجب شدة الأثر في القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمهدور تسويده بالسيئات ولذلك لا يؤاخذ بما يجرى عليه في الغفلة فان القلب لا يتأثر بما يجرى في الغفلة وقد جاء في الخبر « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوفا يخاف أن يقع عليه والنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره (٢) » وقال بعضهم الذنب الذى لا يفر قول العبد ليت كل ذنب عملته مثل هذا وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعمه بجلال الله فاذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين لاصغيرة بل كل مخالفة فهي كبيرة وكذلك قال بعض الصحابة

شغل بغير معاملتك اللهم إني أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه اللهم إني أستغفرك من كل عقد عقده ثم لم أوف به اللهم إني أستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على فقويت بها على معصيتك اللهم إني أستغفرك من كل عمل عملته كخالفه ما ليس لك اللهم إني أسألك أن تصلى على محمد وعلى آل محمد وأسألك جوامع الخير وفوائحه وخواتمه وأعوذ بك من جوامع الشر وفوائحه وخواتمه اللهم احفظنا فيما أمرتنا واحفظنا عما نهيتنا واحفظ لنا ما أعطيتنا يا حافظ

(١) حديث خير الأعمال أدومها وإن قل متفق عليه من حديث عائشة بلفظ أحب وقد تقدم
(٢) حديث المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوفا كالجبل فوفا الحديث البخارى من رواية الحرث بن سويد قال حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين أحدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم والآخر عن نفسه فقد كر هذا وحديث لله أفرح بتوبة العبد ولم يبين المرفوع من الموقوف وقد رواه البيهقي في الشعب من هذا الوجه موقوفا ومرفوعا .

رضى الله عنهم للتابعين إنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اللواتك إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أمم فكانت الصفات عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبار وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ويتجاوز عن العاصي في أمور لا يتجاوز في أمثاله عن العارف لأن الذنوب والمخالفة يكبر بقدر معرفة الخائف . ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة والفتلة عن كونه سبب الشقاوة فكلما غلبت حلوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته إياه كما يقول أمارأيتني كيف مزقت عرضه ويقول الناظر في مناظرته أمارأيتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه ويقول العامل في التجارة أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبنته في ماله وكيف استحقتته فهذا وأمثاله تكبر به الصفات فإن الذنوب مهلكات وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحبل عليها فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه وبسبب بدمه من الله تعالى فالمرضى الذي يفرح بأن ينكسر إناءه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه . ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدري أنه إنما يعمل مقماً ليزداد بالامهال إنما يظن أن تمكنه من العاصي عناية من الله تعالى به فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بما كمن السرور بالله كما قال تعالى - ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير - ومنها أن يأتي الذنوب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره فان ذلك جناية منه على ستر الله الذي سدله عليه وتحريك لرغبة الشرفين أصمعه ذنبه أو أشهده فعله فهما جنايات انضمتا إلى جنايته فقلظت به فان انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحلم عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر وفي الخبر « كل الناس معافي إلا الجاهرين ببيت أحدم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه (١) » وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك السر فلا يظهر كفران لهذه النعمة . وقال بعضهم لا تذب فان كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذب ذنوبين ولذلك قال تعالى - المناقون والناقات بعضهم من بعض يأمرون بالفسك والمنكر وينهون عن العروف - وقال بعض السلف ما اتتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهونها عليه . ومنها أن يكون الذنوب طالما يقتدى به فاذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الأبريسم وركوبه مراكب الذهب وأخذ مال الشبهة من أموال السلاطين ودخوله على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته بإمام بترك الانكار عليهم وإطلاق اللسان في الأعراض وتعديه باللسان في المناظرة وقصد الاستخفاف واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه كالمجدل والمناظرة فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيحوت العالم ويبقى شره مستطير في العالم آماداً متطاولة فطوبى لمن إذامات ماتت ذنوبه معه وفي الخبر « من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً (٢) » قال تعالى - ونكتب ما قدموا وآثارهم - والآثار ما ياحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل وقال ابن عباس ويل للعالم من الأتباع . زل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق وقال بعضهم

الحافظين وياذا كر
الذاكرين وياشا كر
الشاكركين بذكرك
ذكروا وبفضلك
شكروا يا غياث ياغيث
يا مستغاث ياغيث
الستغاثين لا تنكثني إلى
نفس طرفة عسین
فأهلك ولا إلى أحد من
خلقك فأضيع الأكلاني
كلاءة الوليد ولا تغل
عني وتولني بما تتولى به
عبادك الصالحين أنا
عبدك وابن عبدك
ناصرتي بيدك جار في
حكمتك عدل في
نصاؤك نافذ في مشيئتك
إن تعذب فأهل ذلك
أنا ، وإن ترحم فأهل
ذلك أنت فاقبل اللهم
يا مولاي يا الله يارب
ما أنت له أهل ولا تفعل

(١) حديث كل الناس معافي إلا الجاهرين الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ كل أمتي وقد تقدم (٢) حديث من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها الحديث مسلم من حديث جرير بن عبد الله وقد تقدم في آداب الكسب .

مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تفرق ويغرق أهلها . وفي الاسرائيليات : إن طالما كان يصل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فصل في الاصلاح دهرا فأوحى الله تعالى إلى نبيهم قل له إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرتك لك ولكن كيف بمن أضلت من عبادي فأدخلتهم النار . فهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر فطليهم وظيفتان : إحداهما ترك الذنوب والأخرى إخفاؤهم وكاتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا فإذا ترك التجمل والليل إلى الدنيا وقع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويتدى به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم وإن مال إلى التجمل مالت طباع من دونه إلى التشبه به ولا يقدرزون على التجمل إلا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من المحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك فخر كات العلماء في طوري الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بالبرج وإما بالخسران وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها .

(الركن الثالث في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر)

فقد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا وذلك الندم أو رثه العلم يكون للمعاصي حائلا بينه وبين محبوبة وللسكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام ولتمامها علامة ولدوامها شروط فلا بد من يانها . أما العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي . وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو بعض أعزته طال عليه مصيبتة وبكائه وأي عزيز أعز عليه من نفسه وأي عقوبة أشد من النار وأي شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي وأي عجز أصدق من الله ورسوله ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبييا أن مرض ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت منه لظال في الحال حزنه فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض به للنار فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى فلامحة صححة الندم رقة القلب وغزارة الدمع وفي الخبر « جالسوا التوابين فأنهم أرق أفئدة (١) » ومن علامته أن تمسك حرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا عن حلالاتها فيستبدل بالليل كراهية وبالرغبة نفرة . وفي الاسرائيليات : إن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه وقد سأله قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم يقبل توبته فقال وعزني وجلالي لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه . فان قلت فالذنوب هي أعمال مشتبهة بالطبع فكيف يجد مرارتها ؟ فأقول من تناول عدلا كان فيه سم ولم يدركه بالدوق واستلته ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه فاذا قدم إليه عدل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك السم أم لا ؟ فان قلت لافه يوجد للمشاهدة والضرورة بل ربما تنفر عن العسل الذي ليس فيه سم أيضا تشبهه به فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعله بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الايمان ولما عز مثل هذا الايمان عزت التوبة والتائبون فلا ترى إلا معرضا عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصرا عليها فهذا شرط تمام الندم وينبغي أن يدوم إلى الموت

(١) حديث جالسوا التوابين فأنهم أرق أفئدة لم أجده مرفوعا وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبي الدنيا في التوبة قال جالسوا التوابين فان رحمة الله إلى النادم أقرب وقال أيضا فالموعة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب وقال أيضا التائب أسرع دمة وأرق قلبا .

اللهم يارب يا الله
ما أنا له أهل إنك أهل
التقوى وأهل المغفرة
يا من لا يضره الذنوب
ولا تنقصه المغفرة هب
لي ما لا يضرك وأعطني
ملا لا ينقصك ياربنا
أفرغ علينا صبورا
وتوفنا مسلمين توفي
مسلمنا وألحقني
بالصالحين أنت ولينا
فاغفر لنا وارحمنا وأنت
خير الغافرين ربنا
عليك توكلنا وإليك
أئبنا وإليك المصير
ربنا اغفر لنا ذنوبنا
وإسرافنا في أمرنا
وثبت أقدامنا وانصرنا
على القوم الكافرين
ربنا آتنا من لدنك
رحمة وهي لنا من
أمرنا رشدا ربنا

ويبقى أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل كما يجد متناول السم في العسل النفرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم إذ لم يكن ضرره من العسل بل بما فيه ولم يكن ضرر الثابت من سرقة وزناه من حيث إنه سرقة وزنا بل من حيث إنه من مخالفة أمر الله تعالى وذلك جار في كل ذنب . وأما القصد الذي ينبعث منه وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال وله تعلق بالماضي وهو تدارك ما فرط والمستقبل وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت . وشروطهما فيما يتعلق بالماضي أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهرا شهرا ويوما يوما ونفسا نفسا وينظر إلى الطاعات ما الذي قصر فيه منها وإلى المعاصي ما الذي قارفه منها فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها في ثوب نجس أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية في قضائها عن آخرها فإن شك في عدد ما فاتها منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذي يستيقن أنه أداه ويقضى الباقي وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد . وأما الصوم فإن كان قد تركه في سفر ولم يقضه أو أفطر عمدا أو نسي النية بالليل ولم يقض فيتعرف مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويشتمل بقضائه ، وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه لا من زمان البلوغ فإن الزكاة واجبة في مال الصبي فيؤدى ما علم بغالب الظن أنه في ذمته فإن أداه لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية أو أخرج البديل وهو على مذهب الشافعي رحمه الله تعالى فيقضى جميع ذلك فإن ذلك لا يجزئه أصلا وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء . وأما الحج فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد أفلس فعليه الخروج فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد فإن لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به فإنه إن مات قبل الحج مات عاصيا قال عليه السلام « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا (١) » والمجزء الطارىء بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها . وأما المعاصي فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بظلمة العباد كنظر إلى غير محرم وقعود في مسجد مع الجنابة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر ومماح ملاء وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث الدعة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذا من قوله ﷺ « اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها (٢) » بل من قوله تعالى - إن الحسنات يذهبن السيئات - فيكفر صمغ الملاهي بسباع القرآن وبمجالس الذكر ويكفر القعود في المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ويكفر مس الصحف محدثا بآداب الكرام الصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقيله بأن يكتب مصحفا ويجعله وقفا ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه وعد جميع المعاصي غير ممكن وإنما المقصود سلوك

(١) حديث من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا الحديث تقدم في الحج (٢) حديث اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها الترمذي من حديث أبي ذر وصححه وتقدم أوله في آداب الكسب وبضه في أوائل التوبة وتقدم في رياضة النفس .

آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارزقنا العون على الطاعة والعصمة من المعصية وإفراغ السبر في الخدمة وإيداع الشكر في النعمة وأسألك حسن الخاتمة وأسألك اليقين وحسن المعرفة بك وأسألك المحبة وحسن التوكل عليك وأسألك الرضا وحسن الثقة بك وأسألك حسن القلب إليك اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصلح أمة محمد اللهم ارحم أمة محمد اللهم فرج عن أمة محمد فرجا عاجلا ربنا اغفر

الطريق المضادة فإن المرض يجالج بضده فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمصيبة فلا يحسها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها والتضادات هي المتناسبات فلذلك ينبغي أن تعنى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة وهذا التدرج والتحقيق من التلطاف في طريق المهو فالرجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضا مؤثرا في المهو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . ويدل على أن الشيء يكفر بضده أن حب الدينار رأس كل خطيئة وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والخنين إليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له إذ القلب يتجافى بالمهموم والعموم عن دار المهموم قال صلى الله عليه وسلم « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا المهموم (١) » وفي لفظ آخر « إلا المهم يطلب المعيشة » وفي حديث عائشة رضي الله عنها « إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله تعالى عليه المهموم فتكون كفارة لذنوبه (٢) » ويقال إن المهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرف هو ظلمة الذنوب والمهم بها وشعور القلب بوقفة الحساب وهو الطلع . فان قلت هم الإنسان غالباً بما له وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة . فاعلم أن الحب له خطيئة والحرم من عنه كفارة ولو تمتع به تمت الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له كيف تركت الشيخ الكتيب فقال قد حزن عليك حزن مائة شكلى قال فما له عند الله قال أجرمائه شهيد فاذن المهموم أيضا مكفرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . وأما مظالم العباد ففيها أيضا معصية وجناية على حق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضا فلما تعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل والاتباع بالحسنات التي هي أضدادها فيقابل إبداءه الناس بالاحسان إليهم ويكفر غضب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال ويكفر تناول أعراضهم بالعبية والقدح فيهم بالتناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله ويكفر قتل النفوس باعتاق الرقاب لأن ذلك إحياء إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيدته والاعتاق إجماد لا يقدر الإنسان على الأكثر منه فيقابل الأعداء بالاحسان وهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمهو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل باعتاق رقبة ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه مالم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد إما في النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب أعنى به الإبداء المحض . أما النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق إيمانه أو من عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول وإن كان عمدا موجبا لقتصاص فبالقتصاص فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم ويحمله في روحه فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله ولا تسقط عهده إلا بهذا ولا يجوز له الاخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله تعالى بل عليه أن يتمسك بستر الله تعالى ويقيم حدا لله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب فالعفو في بعض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين فإن رفع أمر هذه إلى الوالي حتى أقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ما روى « أن ما عزم بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم

لنا ولا خواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم اللهم اغفر لي ولوالدي ولمن تولدنا وارحمهما كما ربياني صغيرا واغفر لأعمامنا وعماتنا وأخواننا وخالاتنا وأزواجنا وفذيواتنا وجميع المؤمنين والؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات يا أرحم الراحمين يا خير العافرين ولما كان الدعاء مع العبادة أحببنا أن نستوفى من ذلك فيما صالحنا نرجو بركته وهذه الأدعية استخرجها الشيخ

(١) حديث من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا المهموم وفي لفظ آخر إلا المهم في طلب المعيشة طس وأبو نعيم في الحلية والخطيب في التلخيص من حديث أبي هريرة بسند ضعيف تقدم في النكاح (٢) حديث إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه العموم وتقدم أيضا في النكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ ابتلاه الله بالحرز .

فقال يارسول الله إني ظلمت نفسي وزينيت وإني أريد أن تطهرني فرده فلما كان من الغد أتاه فقال يارسول الله إني قد زينيت فرده الثانية فلما كان في الثالثة أمر به لحفر له حفرة ثم أمر به فرجم فكان الناس فيه فريقين فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته وقائل يقول ما توبة أصدق من توبته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لو سعتهم (١) وجاءت الغامدية فقالت « يارسول الله إني قد زينيت فطهرني فردها فلما كان من الغد قالت يارسول الله لم تردني لعلك تريد أن تردني كما رددت معازا فوالله إني لحلي فقال صلى الله عليه وسلم أما الآن فاذهبي حتى تضعي فلما ولدت أنت بالصبي في خرقة فقالت هذا قد ولدته قال اذهبي فأرضعيه حتى تنظييه فلما فطمته أنت بالصبي وفي يده كسرة خبز فقالت يابني الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها لحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتضح الدم على وجهه فسبها فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال مهلا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت (٢) .

وأما القصاص وحده القذف : فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه وإن كان تناول مالا تناوله بغصب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تلبيس كترويح زائف أو ستر عيب من المبيع أو قصص أجره أجير أو منع أجرته فكل ذلك يجب أن يفحص عنه لامن حد بلوغه بل من أول مدة وجوده فإن ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراجها بعد البلوغ إن كان الولي قد قصر فيه فإن لم يفعل كان ظلما مطالبا به إذ يستوى في الحقوق المالية الصبي والبالغ وليحاسب نفسه على الحيات والدوايق من أول يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه فإن حصل مجرم ماعليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد يمكن فليكتبه وليكتب أسامي أصحاب المظالم واحدا واحدا وليطف في نواحي العالم وليطلبهم وليستحلهم أو ليؤد حقوقهم وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فانهم لا يقدرون على طلب العاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم وتسكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من السيئات أرباب المظالم فهلك بسينات غيره فهذا طريق كل تائب في رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم فكيف وذلك مما لا يعرف وربما يكون الأجل قريبا فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الأوقات هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته . أما أمواله الحاضرة فليرد إلى المالك ما يعرف له مال كما عينا وما لا يعرف له مال كما فعله أن يتصدق به فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك القدر كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام . وأما الجنابة على القلوب بمشاهدة الناس بما يسوؤهم أو يعيبهم في الغيبة فيطلب كل من تعرض له بلسانه أو أذى قلبه بفعله من أفعاله وليستحل واحدا واحدا منهم ومن مات أو غاب فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضا في القيامة وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته وعليه أن يعرفه قدر جنابته

(١) حديث اعتراف معاز بالزنا وردده صلى الله عليه وسلم حتى اعترف أربعا وقوله لقد تاب توبة الحديث مسلم من حديث بريدة بن الحصيب (٢) حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورجمها وقوله صلى الله عليه وسلم : لقد تابت توبة الحديث مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذي قبله .

أبو طالب المكي رحمه الله في كتابه قوت القلوب وطى قلبه كل الاعتقاد وفي البركة فليدفع بهذه الدعوات منفردا أو في الجماعة إماما أو مأموما ويختصر منها ما يشاء [الباب المحسون في ذكر العمل في جميع النهار وتوزيع الأوقات]

فمن ذلك أن يلزم موضعه الذي صلى هو فيه مستقبل القبلة إلا أن يرى انتقاله إلى زاويته أسلم لدينه لكلا يحتاج إلى حديث أو التفات إلى شيء فإن السكوت في هذا الوقت وترك الكلام له أثر ظاهر بين عباده أهل

وتعرضه له بالاستحلال للمهم لا يكتفي وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالاحلال
 وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو عمله من سيئاته فان كان في جملة جنائته على
 الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بعمرته كزناه بجاريته أو أهله أو نسبه باللسان إلى عيب من خفايا
 عيوبه يعظم أذاه مهما شوفه به فقد انسد عليه طريق الاستحلال فليس له إلا أن يستحل منها ثم
 تبقى له مظلة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلة الليت والغائب . وأما الذكر والتعريف فهو سيئة
 جديدة يجب الاستحلال منها ومهما ذكر جنائته وعرفه المجني عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال
 بقيت المظلمة عليه فان هذا حقه فعليه أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر من
 حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه فان الانسان عبد الاحسان وكل من نقر ببسيئة مال بحسنة
 فاذا طاب قلبه بكثره تودده وتلطفه صححت نفسه بالاحلال فان أي الاصرار فيكون تلطفه به
 واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنائته وليكن قدر سعيه في فرحه
 وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في أذاه حتى إذا قاوم أحدها الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك
 منه عوضا في القيامة بحكم الله به عليه كمن أتلّف في الدنيا مالا لجاه بمثله فامتنع من له المال من
 القبول وعن الإبراء فان الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبي فكذلك يحكم في صعيد القيامة
 أحكم الحاكمين وأعدل القسطين وفي المتفق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله
 صلى الله عليه وسلم قال « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم
 أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ قال لا
 فقتله فأكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له إنه قتل مائة نفس
 فهل له من توبة ؟ قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فان بها
 أناسا يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فانها أرض سوء فانطلق حتى إذا
 نصف الطريق أتاه الموت فاخضعت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة
 جاء تابيا مقبلا بقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك في صورة آدمي
 فجعلوه حكما بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فأبى أيهما كان أدنى فهو له ففاسوا فوجدوه أدنى
 إلى الأرض التي أراد قبضته ملائكة الرحمة (١) « وفي رواية : فكان إلى القرية الصالحة أقرب
 منها بشر فجعل من أهلها . وفي رواية : فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى
 وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشر فففر له ، فهذا تعرف أنه لا خلاص إلا برجحان
 ميزان الحسنات ولو بمشقال ذرة فلا بد للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد المتعلق بالمعصية .
 وأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقدا مؤكدا وبماهده . بهد وثيق أن لا يعود
 إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها كالذى يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلا فيعزم عزمًا جزما
 أنه لا يتناول الفاكهة مالم يزل مرضه فان هذا العزم يتأكد في الحال وإن كان يتصور أن تغلبه
 الشهوة في ثاني الحال ولكن لا يكون تابيا مالم يتأكد عزمه في الحال ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب
 في أول أمره إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال فان كان له مال موروث
 حلال أو كانت له حرفة يكتب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه فان رأس المعاصي أكل الحرام
 فكيف يكون تابيا مع الاصرار عليه ولا يكتفى بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات

العاملة وأرباب القلوب
 وقد ندب رسول الله
 صلى الله عليه وسلم إلى
 ذلك ثم قرأ الفاتحة
 وأول سورة البقرة إلى
 للفلقون والآيتين
 وإلهكم إله واحد وآية
 الكرسي والآيتين
 بعدها وآمن الرسول
 والآية قبلها وشهد الله
 وقل اللهم مالك الملك
 وإن ربكم الله الذي
 خلق السموات
 والأرض إلى الحسين
 ولقد جاءكم رسول إلى
 الآخر وقل ادعوا الله
 الآيتين وآخر الكهف
 من إن الذين آمنوا
 وذا النون إذ ذهب
 مغاضيا إلى خير الوارثين
 فسبحان الله حين
 تمسون وحين تصبحون

(١) حديث أبي سعيد الخدري المتفق عليه كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا
 عن أعلم أهل الأرض الحديث هو . متفق عليه كما قال الصنف من حديث أبي سعيد .

في اللأ كولات واللبيسات وقد قال بعضهم من صدق في ترك الشهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها . وقال آخر من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبدا . ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالما أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب كالذي يتوب عن الشرب والزنا والنصب مثلا وليست هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس إن هذه التوبة لاتصح وقال قائلون تصح ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل بل تقول لمن قال لاتصح إن غنيت به أن تركه بعض الذنوب لايفيد أصلا بل وجوده كدمه لما أعظم خطأك فانا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقتها سبب لقلته وهول لمن قال تصح إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضا خطأ بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر ولنا نتكلم في خطايا أسرار عفو الله فان قال من ذهب إلى أنها لاتصح إني أردت به أن التوبة عبارة عن الندم وإنما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية لالكونها سرقة ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجهه لأجل المعصية فان العلة شاملة لها إذ من يتوجه على قتل ولده بالسيف يتوجه على قتله بالسكين لأن توجهه بغوات محبوه سواء كان بالسيف أو بالسكين فكذلك توجه العبد بغوات محبوه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا فكيف يتوجه على البعض دون البعض فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوتة للمحبوب من حيث إنها معصية فلا يتصور أن يكون على بعض المعاصي دون البعض ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدينين دون الآخر فان استحالة ذلك من حيث إن المعصية في الخمرين واحد وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة فاذن معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لاتنال إلا بالندم ولا يتصور الندم على بعض التائبين فهو كالمالك المرتب على الايجاب والقبول فانه إذا لم يتم الايجاب والقبول قول إن العقد لا يصح أي لم ترتب عليه الثمرة وهو الملك وتحقيق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه وثمره الندم تكفير ما سبق فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصور الندم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصي وهو كلام مفهوم واقع يستنطق النصف بتفصيل به يكشف الغطاء . فنقول التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة . أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقته والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه كالذي يحق على أهل الملك وحرمة ويحجى على دابته فيكون خائفا من الجناية على الأهل مستحقرا للجناية على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله تعالى وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثرت التائبون في الأعصار الحاليه ولم يكن أحد منهم معصوما فلا تستدعي التوبة العصمة والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيرا شديدا ويحذره السكر تحذيرا أخف منه على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلا فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعا بحكم شهورته ندم على أكل العسل دون السكر . الثاني أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضا ممكن لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم الباطل لعله أن ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه فهذا أيضا ممكن كما في تفاوت

وسبحان ربك إلى آخر
السورة ولقد صدق الله
وأول سورة الحديد إلى
بذات الصدور وآخر
سورة الحشر من
لو أنزلنا ثم يسبح ثلاثا
وثلاثين وهكذا يحمد
مثله ويكبر مثله ويتمها
مائة بلا إله إلا الله وحده
لا شريك له فإذا فرغ
من ذلك يشتغل بتلاوة
القرآن حفظاً أو من
المصحف أو يشتغل
بأنواع الأذكار ولا
يزال كذلك من غير
فتور وقصور وناس
فان النوم في هذا الوقت
مكروه جدا فان غلبه
النوم فليقم في مصلاه
فأتمم استقبال القبلة
فان لم يذهب النوم
بالقيام مخطو خطوات

الكبائر والصغائر لأن الكبائر أيضا متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبها ، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لاتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلا ، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري فبحسب ترجيح شرب الخمر عنده يذم منه خوف يوجب ذلك تركا في المستقبل وندما على الماضي . الثالث أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة كالذي يتوب عن الفرية أو عن النظر إلى غير المحرم أو ما يجري مجراه وهو مصر على شرب الخمر فهو أيضا ممكن ووجه إمكانه أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه وندم على فعله ندما إما ضعيفا وإما قويا ولكن تكون لفظة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة وأسباب توجب قوة الشهوة فيكون الندم موجودا ولكن لا يكون مليا بتحريك العزم ولا قويا عليه ، فان سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يمارضه إلا ما هو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك المعصية وقد تشدد ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه وتكون له ضراوة ما بالغبية وثلب الناس والنظر إلى غير المحرم وخوفه من الله قد بلغ مبلغا يجمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك بل يقول هذا الفاسق في نفسه : إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا ينبغي أن أخلع العذار وأرخصي العنان بالكلية بل أجاهده في بعض المعاصي فماني أغلبه فيكون قهرى له في البعض كفارة لبعض ذنوبى ، ولو لم يتصور هذا لما تصور من الفاسق أن يصلى ويصوم ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح وإن كانت لله فترك الفسق لله فان أمر الله فيه واحد فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله تعالى ما لم تقرب بترك الفسق وهذا محال بأن يقول لله تعالى على أمران ولى على الخالفة فيهما عقوبتان وأنا ملئ في أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر فأنا أقهره فيما أقدر عليه ، وأرجو بمجاهدتي فيه أن يكفر عني بعض ما عجزت عنه بفراط شهوتي فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم . إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولا سبب له إلا هذا وإذا فهم هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها ، والخوف إذا كان من فعل ماض أورت الندم والندم يورث العزم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « الندم توبة » ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ولم يقل التائب من الذنوب كلها وبهذه المعاني تبين سقوط قول القائل إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لأنها متماثلة في حق الشهوة وفي حق التعرض إلى سخط الله تعالى ، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون التبيد لتفاوتهما في اقتضاء السخط ويتوب عن السكر دون القليل لأن لكثرة الذنوب تأثيرا في كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذى يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى كالمرض الذى حذره الطبيب الفاكهة فإنه قد يتناول قليلا ولكن لا يستكثر منها فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لا بد وأن يكون ما تاب عنه مخالفا لما بق عليه إما في شدة المعصية وإما في غلبة الشهوة وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصور اختلاف حاله في الخوف والندم فيتصور اختلاف حاله في الترك قدمه على ذلك الذنب ووفائه بعزمه على الترك يلحقه عن لم يذنب وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر والنواهي . فان قلت هل تصح توبة العنين من الزنا الذى قارفه قبل طريان العنة . فأقول لا ، لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فما يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه ولكنى أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذى قارفه ونار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الواقع به باقية

نحو القبلة ويتأخر بالخطوات كذلك ولا يستدير القبلة في إقامة استقبال القبلة وترك الكلام والنوم ودوام الذكر في هذا الوقت أثر كبير وبركة غير قليلة . وجدنا ذلك بحمد الله ونوصى به الطالبين ، وأثر ذلك في حق من يجمع في الأذكار بين القلب واللسان أكثر وأظهر وهذا الوقت أول النهار والنهار مظنة الآفات فإذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد حكم بنيانه وتبنت أوقات النهار جميعا على هذا البناء فلذا قارب طلوع الشمس يتسدى بهراء الساعات العشر

لكانت حرقه الندم تتمتع تلك الشهوة وتطلبها فإني أرجو أن يكون ذلك مكفراً لذنبه وماحياً عنه
سيئته إذ لاخلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وإن لم يطرأ
عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتيسر أسباب قضاء الشهوة ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغاً
أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده فاذن لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ
إلا أنه لا يعرفه من نفسه فان كل من لا يشتهي شيئاً يقدر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف والله
تمالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فصاه يقبله منه بل الظاهر أنه يقبله والحقيقة في هذا كله
ترجع إلى أن ظلمة اللصبة تتمحى عن القلب بشيئين : أحدهما حرقه الندم ، والآخر شدة المجاهدة
بالترك في المستقبل وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى
على محوها دون المجاهدة ولولا هذا لقلنا إن التوبة لا تقبل مالم يش التائب بعد التوبة مدة يجاهد
نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلاً فان قلت
إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب والآخر بقي في نفسه نزوع إليه وهو
يجاهدها ويمتها فأيهما أفضل ؟ . فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه ، فقال أحمد بن أبي الخوارى
وأصحاب أبي سليمان الداراني إن المجاهد أفضل لأن له مع التوبة فضل الجهاد . وقال علماء البصرة ذلك
الآخر أفضل لأنه لو قدر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذي هو في عرضة الفتور عن
المجاهدة وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة والحق فيه أن
الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان : إحداهما أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور في نفس الشهوة
فقط فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه واستيلاء دينه على شهوته فهو
دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوة الدين ، وأعلى بقوة الدين قوة الإرادة التي تنبثق بإشارة اليقين
وتقمع الشهوة النبعثة بإشارة الشياطين فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعاً وقول القائل إن هذا
أسلم إذ لو قدر لا يعود إلى الذنب فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ وهو كقول القائل
العنين أفضل من الفحل لأنه في أمن من خطر الشهوة والصبي أفضل من البالغ لأنه أسلم والفلس أفضل
من الملك القاهر القامع لأعدائه لأن الفلس لا عدو له والملك ربما يغلب مرة وإن غالب مرات وهذا
كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بأن العز في الأخطار وأن العلوش شرطه اقتحام
الاغرار بل كقول القائل الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد وأعلى رتبة
من صاحب الكلب والفرس لأنه آمن من أن يجمح به فرسه فتتكسر أعضاؤه عند السقوط على
الأرض وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدى عليه وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان
قويًا عالماً بطريق تأديبهما أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد . الحالة الثانية : أن يكون بطلان
النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغاً قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب
الشرع فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها فهذا أعلى رتبة من
المجاهد المقاسي لهيجان الشهوة وقمعها ، وقول القائل ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الاحاطة
بمقصود الجهاد فان الجهاد ليس مقصوداً لعينه بل المقصود قطع ضراوة العدو حتى لا يستجرك إلى شهواته
وان هجز عن استجراك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين فاذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت وما دمت
في المجاهدة فأنت بعد في طلب الظفر ومثاله كمثل من قهر العدو واسترقه بالاضافة إلى من هو مشغول بالجهاد
في صف القتال ولا يدري كيف يسلم ومثاله أيضاً مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس فهما تأمسان عنده
بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجراح بالاضافة إلى من هو مشغول بمسألة التأديب بعد ولقد ذل

وهي من تطهير الخضر
عليه السلام عليها
ابراهيم التيمي وذكر
أنه تعلمها من رسول الله
صلى الله عليه وسلم ،
وينال بالمداممة عليها
جميع التفريق في
الأذكار والدعوات ،
وهي عشرة أشياء
سبعة سبعة الفأحة
والعودتان وقل هو
الله أحد وقل يا أيها
الكافرون وآية
الكبرى وسبحان الله
والحمد لله ولا إله إلا الله
والله أكبر والصلاة
على النبي وآله وسخفر
لنفسه ولوالديه
والمؤمنين والمؤمنات
ويقول سبحان الله
في وهم عاجلاً وآجلاً
في الدين والدنيا والآخرة

في هذا فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ولم يطلوا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماتها بالكيفية مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فجزع عنه فقال هذا محال فكذب بالشرع وسلك سبيل الإباحة واسترسل في اتباع الشهوات وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربيع للهلكات . فان قلت لساؤلئك في تأييد أحد هاتين النعتين ولم يشتغل بالتفكير فيه والآخر جملة نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندما عليه فأيهما أفضل . فاعلم أن هذا أيضا قد اختلفوا فيه فقال بعضهم حقيقة التوبة أن تصب ذنبك بين عينيك . وقال آخرون حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك وكل واحد من اللذيين عندنا حق ولكن بالإضافة إلى حالين وكلام المتصوفة أبدا يكون قاصرا فان عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمه حال غيره فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال وهذا نقصان بالإضافة إلى المهمة والارادة والجديت يكون صاحبه متصور النظر على حال نفسه لايهمه أمر غيره إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازل له أحواله وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم فالطريق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة في القرب والبعد والله أعلم بمن هو أهدي سبيلا مع الاشتراك في أصل الهداية . فأقول تصور الذنب وذكركه والتفجع عليه كمال في حق المبتدئ لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته وانبعائه لسلك الطريق ولأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله فهو بالإضافة إلى العاقل كمال ولكنه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان فانه شغل مانع عن سلوك الطريق بل سالك الطريق ينبغي أن لا يهرج على غير السلوك فان ظهر له مبادئ الوصول وانكشف له أنوار المعرفة ولوامع التيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ماضي من أحواله وهو الكمال بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز طال تعب المسافر في عبوره مدة من حيث إنه كان قد خرب جسره من قبل فلو جلس على شاطئ النهر بعد عبوره يبكي متأسفا على تخريبه الجسر كان هذا مانعا آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك للمانع ، نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلًا فتعذر السلوك أو كان على طريقة النهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها فليظل بالليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله فان حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله فسلك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه وهذا لا يجره إلا من عرف الطريق والقصد والعاثق وطريق السلوك وقد أشرنا إلى تلويحات منه في كتاب العلم وفي ربيع للهلكات بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في النعيم في الآخرة لتزيد رغبته ولكن إن كان شابا فلا ينبغي أن يطيل فكره في كل ماله نظير في الدنيا كالحور والقصور فان ذلك الفكر بما يحرك رغبته في طلب العاجل ولا يرضى بالآجلة بل ينبغي أن يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له في الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة فالمبتدئ أيضا قد يستضربه فيكون النسيان أفضل له عند ذلك ولا يصدك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكي لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام فان قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الاعوجاج لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللاتقة بأهمهم فأنهم ما بعثوا إلا لأرشادهم فعليهم التلبس بما تنفع أهمهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مریده بنوع رياضة إلا ويغوض معه فيها وقد كان مستغنيا عنها لغراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهلا للأمر على المرید ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشعر (١) » وفي لفظ « إنما أسهو لأسن » .

(١) حديث أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشعر ذكره مالك بلاغا بغير إسناد وقال ابن عبد البر

مأنت له أهل ولا
تفعل ربنا يا رسولنا
مانحن له أهل إنك
غفور رحيم جواد كريم
رؤوف رحيم . وروى
أن ابراهيم التيمي لما
قرأه بعد أن تظنها
من الحضرة رأى في المنام
أنه دخل الجنة ورأى
الملائكة والأنبياء
عليهم السلام وأكل
من طعام الجنة وقيل
إنه مكث أربعة أشهر
لم يطعم وقيل لعله كان
ذلك لكونه أكل من
طعام الجنة فاذا فرغ
من المسجات أقبل
على التمسيح
والاستغفار والتلاوة
إلى أن تطلع
الشمس قدر رمح .

ولا تعجب من هذا فان الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء وكلواشي في كنف الرعاة أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبي كيف ينزل إلى درجة نطق الصبي كما قال صلى الله عليه وسلم للحسن « كخ كخ (١) » لما أخذ تمر من تمر الصدقة ووضعها في فيه وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول ارم هذه التمرة فانها حرام ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقته ترك الفصاحة ونزل إلى لكتته بل الذي يطم شاة أو طائرا يصوت به رغاء أو صفيرا تشبها بالبيمة والطائر تلتطفا في تعليمه فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فانها مزلة أقدام العارفين فضلا عن الغافلين ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

(بيان أقسام العباد في دوام التوبة)

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات . الطبقة الأولى : أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة فهذا هو الاستقامة على التوبة وصاحبها هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة التوبة النصوح واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « سبق للفردون المستهترون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا (٢) » فان فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الله كرههم وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة فترزأ عنها ولم يشغلها عن السلوك صرعها وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه على مجاهدتها وردها ثم تفاوتت درجات النزاع أيضا بالكثر والقلّة وباختلاف اللذة وباختلاف الأنواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر فمن عتظت يموت قريبا من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة ومن يجهل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته وحال هذا أعلا وأفضل إذ كل سيئة فأعما تجحها حسنة حتى قال بعض العلماء إنما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفا من الله تعالى واشتراط هذا بعيد وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق قهيج الشهوة وتحضر الأسباب حتى يتمكن ثم يطمع في الانكشاف فانه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره فيقدم على العصية وينقض توبته بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسرة له حتى يسد طرقها على نفسه ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه فيه تسلم توبته في الابتداء . الطبقة الثانية : تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كباثر الفواحش كلها إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتره لاعن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله من غيره أن يقدم عزمًا على الاقدام عليها ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من

لا يوجد في اللوطأ إلا مرسلًا لا إسناد له وكذا قال حمزة الكناني إنه لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الأنساطي وقد طال بحثي عنه وسؤالي عنه للآئمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسندا (١) حديث أنه قال للحسن كخ كخ لما أخذ تمر من الصدقة ووضعها في فيه البخاري من حديث أبي هريرة وتقدم في كتاب الحلال والحرام (٢) حديث سبق للفردون المستهترون بذكر الله الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة وحسنه وقد تقدم .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لأن أقصد في مجلس أذكر الله فيه من صلاة التداوة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب » ثم صلى ركعتين قبل أن ينصرف من مجلسه قد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلي الركعتين وبهاتين الركعتين تبين فائدة رعاية هذا الوقت وإذا صلى الركعتين بجمع هم وحضور فهم وحسن تدبر لما يقرأ يجد في باطنه آرا ونورا وروحا وأنسا إذا كان صادقا والذي يجده

أسبابها التي تعرض لها وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة إذ تعلم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة لآعن تصميم عزم وتحمين رأى وقصد وهذه أيضا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى وهي أغلب أحوال التائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه وإنما غاية سعيه أن يغلّب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى - الذين يحبون كباثر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع الغفرة - فكل للمام يقع بصغيرة لآعن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم اللغو عنه قال تعالى - والذين إذا ضلوا فأحشوا أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه على كرم الله وجهه « خياركم كل مفتن تواب (١) » وفي خبر آخر « المؤمن كالسنبلة فيء أحيانا ويميل أحيانا (٢) » وفي الخبر « لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة (٣) » أى الحين بعد الحين فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة الصريرين ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذى يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار وكالفقيه الذى يؤيس للفقهاء عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على تصان الطبيب والفقيه بل الفقيه في الدين هو الذى لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات قال النبي ﷺ « كل بنى آدم خطاءون وخير الخطائين التوابون المستغفرون (٤) » وقال أيضا « المؤمن واه راقع غيرهم من مات على رقبته (٥) » أى واه بالذنوب راقع بالتوبة والندم وقال تعالى - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة - فما وصفهم بعدم السيئة أصلا. الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوات في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لمجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك لجملة من الذنوب مع القدرة والشهوة وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوات وهو يود لو أقدره الله تعالى على قعبها وكفاه شرها هذا أمئبته في حال قضاء الشهوة وعند الفراغ يتندم ويقول ليتني لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم فهذه النفس هي التي تسمى النفس السولة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم - وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا - فأمرهم من حيث مواظبته على الطاعات وكرهته لما عايناهم مرجو

(١) حديث على خياركم كل مفتن تواب البيهقي في الشعب بسند ضعيف (٢) حديث المؤمن كالسنبلة تفيء أحيانا ويميل أحيانا أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس والطبراني من حديث عمار بن ياسر والبيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلا وكلها ضعيفة وقالوا تقوم بدل تفيء وفي الأمثال للرامهرمزي إسناده جيد حديث أنس (٣) حديث لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة (٤) حديث كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون الترمذي واستقره الحاكم وصحح إسناده من حديث أنس وقال التوابون بدل المستغفرون . قلت فيه على بن مسعدة ضعفه البخارى (٥) حديث المؤمن واه راقع غيرهم من مات على رقبته الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسند ضعيف وقالوا فسيء بدل غيرهم .

من البركة ثواب معجل له على عمله هذا وأحب أن يقرأ في هاتين الركعتين في الأولى آية الكرسي وفي الأخرى آمن الرسول والله نور السموات والأرض إلى آخر الآية وتكون نيته فيهما الشكر لله على نعمه في يومه وليلته ثم يصلي ركعتين أخريين يقرأ العوذتين فيهما في كل ركعة سورة وتكون صلواته هذه ليستعين بالله تعالى من شر يومه وليلته ويذكر بعد هاتين الركعتين كلمات الاستعاذة فيقول أعوذ بالله من شر السامة والهامة

ففى الله أن يوب عليه وعاقبته محظرة من حيث تسوية وتأخير فرعاً يختطف قبل التوبة ويقع أمره في المشيئة فان تدارك الله فضله وجبر كسره وامتق عليه بالتوبة التحق بالسابقين وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيجشى أن يحق عليه في الحاتمة ماسبق عليه من القول في الأزل لأنه مهما تمذر على التفقه مثلاً الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضف الرجاء في حقه وإذا سرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودرجاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية وارتباط حصول فقه النفس الذى به تستحق المناصب العلية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس فكما لا يصلح لمنصب الرياسة والقضاء والتقدم بالعلم إلا النفس صارت قلبية بطول التفقيه فلا يصلح ملك الآخرة ونعيمها ولا للقرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهراً بطول الزكية والتطهير هكذا سبق في الأزل بتدبير رب الأرباب ولذلك قال تعالى - ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاهوا وقد خاب من دساها - فهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب قدماً والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان قال صلى الله عليه وسلم «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس إنه من أهلها ولا يلقى بينه وبين الجنة إلا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها^(١)» فاذن الخوف من الحاتمة قبل التوبة وكل نفس فهو خاتمة ما قبله إذ يمكن أن يكون الموت متصلاً به فليراقب الأنفاس والإوقع في المهذور ودامت الحشرات حين لا ينفع التحسر . الطبقة الرابعة : أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله بل ينهك انهماك العاقل في اتباع شهواته فهذا من جملة الصرير وهذه النفس هي النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير ويخاف على هذا سوء الحاتمة وأمره في مشيئة الله فان ختم له بالسوء شقى شقاوة لا آخر لها وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا تطلع عليه كالأستحيل أن يدخل الانسان خراباً ليجد كنزاً فينتقى أن يجمده وأن يجلس في البيت ليجمعه الله عالماً بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال كطلب الكنوز في المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة وليت من اجتهد تعلم وليت من أجز استغنى وليت من صام وصلى غفر له فاناس كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا العاملون والعالمون كلهم محرومون إلا الخالصون والخلصون على خطر عظيم وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعاً يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزاً يجده تحت الأرض في بيته الحرب بعد عند ذوى البصائر من الحق والمفرورين وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصرّ على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة بعد عند أرباب القلوب من المتوهين والعجب من عقل هذا اللغو وتروجه حماقته في صفة حسنة إذ يقول إن الله كريم وجنته ليست

(١) حديث إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة الحديث متفق عليه من حديث سهل بن سعد قوله سبعين سنة ولمسلم من حديث أبي هريرة إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة الحديث ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبي هريرة إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة وشهر مختلف فيه

وأعوذ بأصمك وكنك
التامة من شر عبادك
وشر عبادك وأعوذ
باصمك وكنك التامة
من شر ما يجرى به الليل
والنهار إن ربى الله لا اله
إلا هو عليه توكلت
وهو رب العرش العظيم
ويقول بعد الر كنتين
الأولين اللهم إني
أصبحت لأستطيع
دفع ما أكره ولا أملك
نقع ما أرجو وأصبحت
مرتها بصلى وأصبح
أمرى بيد غيرى فلا
قصر أقرمى اللهم
لاتشمت بى عدوى
ولانى بى صديقى
ولانجعل مصيقتى فى
دينى ولا تجعل الدنيا
أكبر همى ولا مبلغ
علمى ولا تسلط على من

تضيق على مثلي ومعصيتي ليست تضره ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب الدينار وإذا قيل له إن الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر عن قهرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فمساء يرزقك من حيث لا تحتسب فيستحتمق قائل هذا الكلام ويستهزئ به ويقول ما هذا الهوس السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وإنما ينال ذلك بالكسب هكذا قدره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله ولا يعلم الغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لا تبديل لها فهما جميعاً وأنه قد أخبر إذ قال - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - فكيف يستقدانه كريم في الآخرة وليس بكرم في الدنيا وكيف يقول ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب اللال ومقتضاه الفتور عن العمل للملك القيم والنعيم الدائم وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من جهده في الآخرة وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا وينسى قوله تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - فتعود بالله من العمى والضلال فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس وانغماس في ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلًا تحت قوله تعالى - ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا لعمل صالحاً - أي أبصرنا أنك صدقت إذ قلت - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - فارجعنا نسعى وعند ذلك لا يمكن من الاثلاب ويحق عليه العذاب فتعود بالله من دواعي الجهل والشك والارتباب السابق بالضرورة إلى سوء النقلب والمآب.

(بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما

عن قصد وشهوة غالبية أو عن إمام بحكم الاتفاق)

اعلم أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا طريقه فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لعلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليحوها فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فلحسنة المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ولتسكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها فأما بالقلب فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ويتذلل لتذلل العبد الآبق ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم فما للعبد الآبق للذنب وجه للتكبر على سائر العباد وكذلك يضر بقلبه الحيرات للمسلمين والعزم على الطاعات . وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول رب ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي ذنوبي وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار . وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بشمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا أربعة من أعمال القلوب وهي التوبة أو العزم على التوبة وحب الافلاع عن الذنب وتخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة له وأربعة من أعمال الجوارح وهي أن تصلي عقيب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بعدها سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وبمحمد مائة مرة ثم تصدق بصدقة ثم تصوم يوماً وما وفي بعض الآثار تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصل ركعتين^(١) وفي بعض الأخبار تصلي أربع ركعات^(٢)

(١) أثر إن من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصل ركعتين أصحاب السنن من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له لفظ أبي داود وهو في الكبرى للنسائي مرفوعاً وموقوفاً فعلى المصنف عبر بالآثر لإرادة الوقوف فذكرته احتياطاً وإلا فالآثار ليست من شرط كتابي (٢) حديث التكفير بصلاة أربع ركعات ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل

لا يرحمني اللهم إنى أعوذ بك من الذنوب التي تزيد النعم وأعوذ بك من الذنوب التي توجب النقم ثم صلى ركعتين أخريين بنية الاستخارة لكل عمل يعمل في يومه وليلته وهذه الاستخارة تكون بمعنى الدعاء على الإطلاق وإلا فالاستخارة التي وردت بها الأخبار هي التي يصلها أمام كل أمر يريد ويقرأ في هاتين الركعتين - قل يا أيها الكافرون - وقل هو الله أحد - ويقرأ دعاء الاستخارة كما سبق ذكره في غير هذا الباب ويقول فيه كل قول وعمل أريده

وفي الخبر « إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلاية بالعلاية (١) » ولذلك قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار ، وفي الخبر الصحيح « أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنى عاجلت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا السيس فأقضى على بحكم الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم أو ماصليت معنا صلاة الغداة قال بلى فقال صلى الله عليه وسلم إن الحسنات يذهبن السيئات (٢) » وهذا يدل على أن مادون الزنا من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصلوات الخمس كفارات لما بينهن إلا الكبائر » فعلى الأحوال كلها ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجهد في دفعها بالحسنات. فان قلت فكيف يكون الاستغفار ناقصاً من غير حل عقدة الاصرار ، وفي الخبر « للستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله (٣) » وكان بعضهم يقول أستغفر الله من قولي أستغفر الله ، وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين . وقالت رابعة العدوية : استغفارتنا يحتاج إلى استغفار كثير . فاعلم أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ذكرناها في كتاب الأذكار والدعوات حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى - وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون - فكان بعض الصحابة يقول كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار معنا فإن ذهب هاسكنا (٤) . فنقول : الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة كما يقول الانسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة أستغفر الله وكما يقول إذا سمع صفة النار نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه ، وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وإبهاله في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلص نية ورغبة فهذه حسنة في نفسها فتصلح لأن تدفع بها السيئة ، وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم « ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة (٥) » وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب وللتوبة

من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يهوى امرأة الحديث وفيه فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فإذا هو مثل الهدية فقام نادماً فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم صل أربع ركعات فأنزل الله عز وجل - وأقم الصلاة طرفي النهار - الآية وإسناده جيد (١) حديث إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلاية بالعلاية البيهقي في الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ وما عملت من سوء فأحدث لله فيه توبة السر بالسر الحديث (٢) حديث إن رجلاً قال يارسول الله إنى عاجلت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا السيس الحديث في نزول - إن الحسنات يذهبن السيئات - متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله أو ماصليت معنا صلاة الغداة ورواه مسلم من حديث أنس وفيه هل حضرت معنا الصلاة قال نعم ومن حديث أبي أمامة وفيه ثم شهدت الصلاة مضاً قال نعم الحديث (٣) حديث المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله ابن أبي الدنيا في التوبة ومن طريقه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستهزىء بربه وسنده ضعيف (٤) حديثاً بعض الصحابة في قوله تعالى - وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم - الآية كان لنا أمانان ذهب أحدهما أحمد من قول أبي موسى الأشعري ورفعه الترمذي من حديثه أنزل الله على أماني الحديث وضعفه وابن مردويه في تفسيره من قول ابن عباس (٥) حديث ما أصر من استغفر الحديث تخدم في الدعوات .

في هذا اليوم اجل فيه
الحيرة . ثم يصلى
ركعتين أخريين يقرأ
في الأولى سورة الواقعة
وفي الأخرى سورة
الأعلى ويقول بعدها
اللهم صل على محمد
وعلى آل محمد واجعل
حبك أحب الأشياء
إلى وخشيتك أخوف
الأشياء عندي واقطع
عني حاجات الدنيا
بالشوق إلى لقائك وإذا
أقررت أعين أهل
الدنيا بدنياهم فأقرر
عيني بعبادتك واجعل
طاعتك في كل شيء
منى يا أرحم الراحمين
ثم يصلى بعد ذلك
ركعتين يقرأ فيهما
شيئاً من حزبه من
القرآن ثم بعد ذلك

والاستغفار درجات وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها، ولذلك قال سهل لا بد للعبد في كل حال من مولاة فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء. فإن عصى قال يارب استر علي فإذا فرغ من العصية قال يارب تب علي فإذا تاب قال يارب ارزقني العصمة وإذا عمل قال يارب تقبل مني وسئل أيضا عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال أول الاستغفار الاستجابة ثم الإنابة ثم التوبة فاستجابة أعمال الجوارح والإنابة أعمال القلوب والتوبة إقباله على مولاة بأن يترك الحلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ثم التنقل إلى الأفراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفسك ثم المعرفة ثم النجاة ثم المصفاة ثم الموالاة ثم محادثة السرو هو الحلة ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والدكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه ثم ينظر الله إليه فيرضه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش، وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم «التائب حبيب الله» فقال، إنما يكون حبيبا إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى - التائبون العابدون - الآية. وقال الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه، والمقصود أن للتوبة ثمرتين إحداهما تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له. والثانية نيل الدرجات حتى يصير حبيبا وللتكفير أيضا درجات فبعضه نحو لأصل الذنب بالكيفية وبعضه تخفيف له ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وإن خلا عن حل عقدة الاصرار من أوائل الدرجات فليس يخلو عن الفائدة أصلا فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قوله الله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - صدق وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر كالا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لسكانت الثانية مثلها ولكن لا يرجح الميزان بأحمال الذرات وذلك بالضرورة محال بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يتحمل فترفع كفة السيئات فيألك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيا وذرات المعاصي فلا تنفيها كالمرأة الحرقاء تسكس عن الغزل تعلا بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول أى غنى يحصل بخيط وما وقع ذلك في الثياب ولا تدرى المتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة فاذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بنية مسلم أو فضول كلام بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه وإنما يكون نقصانا بالإضافة إلى عمل القلب. ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان العريبي: إن لسانى في بعض الأحوال يجزى بالذكر والقرآن وقلبي غافل. فقال اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير وعوده الذكر ولم يستعمله في الشر ولم يعود الفضول وما ذكره حتى فان تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي فمن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذبا سبق لسانه إلى ما تعود فقال أستغفر الله ومن تعود الفضول سبق لسانه إلى قول ما أحقك وما أقبح كذبك ومن تعود الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادئ الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان نعوذ بالله وإذا تعود الفضول قال لعنه الله فيعصى في إحدى الكلمتين ويسلم في الأخرى وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معانى قوله تعالى - إن الله لا يضيع أجر المحسنين - ومعانى قوله تعالى - وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما - فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغبية واللعن والفضول هذا تضاعف في الدنيا لأدنى الطاعات وتضاعف الآخرة أكبر لو كانوا

إن كان متفرغا ليس له شغل في الدنيا يتنقل في أنواع العمل من الصلاة والتلاوة والذكر إلى وقت الضحى وإن كان ممن له في الدنيا شغل إما لنفسه أو لعياله فليعض لحاجته ومهامه بعد أن يصلى ركعتين لخروجه من المنزل وهكذا ينبغي أن يفعل أبدا لا يخرج من البيت إلى جهة إلا بعد أن يصلى ركعتين ليقبه الله سوء الخرج ولا يدخل البيت إلا ويصلى ركعتين ليقبه الله سوء المدخل بعد أن يسلم على من في المنزل من الزوجة وغيرها وإن لم يكن في البيت

يلمون - فإياك وأن تلمح في الطاعات مجرد الآفات فتفتر به غبتك عن العبادات فإن هذه مكيدة روجها الشيطان بلعته على الغرورين وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر وأهل التنظن للخفايا والسراير فأى خير في ذكرنا باللسان مع غفلة القلب فانقسم الحلق في هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالحيرات . أما السابق فقال صدقت ياملون ولكن هي كلمة حق أردت بها إبلافة لاجرم أعذبك مرتين وأرغم أنفك من وجهين فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب فكان كالذى داوى جرح الشيطان بشر الملح عليه . وأما الظالم الغرور فاستشعر في نفسه خيلاء الغفلة لهذه الدقمة ثم عجز عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر فأسمع الشيطان وتدلى بجمل غروره فتمت بينهما الشاركة والواقعة كما قيل : وافق شن طبقه . واقفه فاعتقه . وأما المقتصد فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب في العمل وتفظن لتقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير فكان السابق كالحائك الذى ذمت حيا كته فتركها وأصبح كاتباً والظالم للخلف كالذى ترك الحياكة أصلاً وأصبح كناساً والمقتصد كالذى عجز عن الكتابة فقال لأنكر مقدمة الحياكة وكذلك مذبوم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس فاذا عجزت عن الكتابة فلا ترك الحياكة وكذلك قالت رابعة العدوية استغفارنا محتاج إلى استغفار كثير فلا تظن أنها تدم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله بل تدم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه فانسكت عن الاستغفار باللسان أيضاً احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد فهكذا ينبغي أن تفهم ذم ما يذم وحمد ما يحمد وإلا جهلت معنى مقال القائل الصادق: حسنات الأبرار سيئات القريين. فإن هذه أمور وثبتت بالإضافة فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة بل ينبغي أن لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصي ولذلك قال جعفر الصادق إن الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث رضاه في طاعته فلا تحقرها منها شيئاً فلفل رضاه فيه وغضبه في معاصيه فلا تحقرها منها شيئاً فلفل غضبه فيه وخبأ ولايته في عبادته فلا تحقرها منهم أحداً ففعله ولى الله تعالى وزاد وخبأ إجابته في دعائه فلا تركوا الدعاء فربما كانت الاجابة فيه .

(الركن الرابع في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار)

اعلم أن الناس قيمان : شاب لاصبوة له نشأ على الخير واجتنب الشر وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعجب ربك من شاب ليست له صبوة (١) » وهذا عزيز نادى : والقسم الثانى هو الذى لا يخلو عن مقارفة الذنوب ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين وغرضنا أن نبين العلاج فى حل عقدة الإصرار ونذكر الدواء فيه . فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الدواء إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء فكل داء حصل من سبب فدواءه حل ذلك السبب ورضه وإبطاله ولا يبطل الشيء إلا بضده ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة إلا العلم ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة والغفلة رأس الخطايا قال تعالى - وأولئك هم العاقلون لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون - فلادواء إذن للتوبة إلا المعجون بسجن من حلالة العلم ومرارة الصبر وكما يجمع السكتنجيين بين حلالة السكر وحموضة الحبل ويقصد بكل منهما غرض آخر فى العلاج بمجموعهما فيجمع الأسباب المهيجة للصفراء فهكذا ينبغي أن تفهم علاج القلب بما به من مرض الإصرار فاذن لهذا الدواء أصلان : أحدهما العلم والآخر الصبر ولا بد من بيانها .

(١) حديث يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة أحمد والطبرانى من حديث عتبة بن عامر وفيه ابن لهيعة .

أحد يسلم أيضاً ويقول
السلام على عباد الله
الصالحين المؤمنين وإن
كان متفرغاً فأحسن
أشغاله فى هذا الوقت
إلى صلاة الضحى الصلاة
فإن كان عليه قضاء
صلى صلاة يوم أو
يومين أو أكثر وإلا
فاصل ركعات بطولها
ويقرأ فيها القرآن فقد
كان من الصالحين من
يختم القرآن فى الصلاة
بين اليوم والليلة وإلا
فليصل أعداداً من
الركعات خفيفة بفاتحة
الكتاب وقل هو الله
أحد وبالآيات التى فى
القرآن وفيها الدعاء
مثل قوله تعالى - ربنا
عليك توكلنا وإليك
أنبنا وإليك المصير -

فان قلت أينفع كل علم لحل الاصرار أم لا بد من علم مخصوص . فاعلم أن العلوم مجملتها أدوية لأعراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة ولكن يضمن كل علة علم مخصوص فكذلك دواء الاصرار . فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم ، فقول : يحتاج المريض إلى التصديق بأمور : الأول أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسبابا يتوصل إليها بالاختيار على ما رتبته مسبب الأسباب وهذا هو الايمان بأصل الطب فان من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك وهذا وزانه مما نحن فيه الايمان بأصل الشرع وهو أن السعادة في الآخرة سببا هو الطاعة والشقاوة سببا هو المصيبة وهذا هو الايمان بأصل الشرائع وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الايمان . الثاني أنه لا بد أن يصدق المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لا يلبس ولا يكذب فان إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرد دون هذا الايمان ، ووزانه مما نحن فيه العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم والايمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف . الثالث أنه لا بد أن يصدق المريض في الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب للضررة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف في ترك الاحتيا . فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتيا . ووزانه من الدين الاصغاء إلى الآيات والأخبار الشتملة على التريغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى والتصديق بجميع ما يلقى إلى صممه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف القوي على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج . الرابع أن يصدق المريض في الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه في نفسه الاحتيا عنه ليعرفه أو لا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله وما كوله ومشروبه فليس على كل مريض الاحتيا عن كل شيء ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص ووزانه من الدين أن كل عبد فليس يتلى بكل شهوة وارتكاب كل ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة وإنما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب ثم إلى العلم بأفاتها وقدر ضررها ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ثم إلى العلم بكيفية تكفيرها مسبقا منها فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فالعاصي إن علم عصيانته فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم وإن كان لا يدري أن ما ارتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرفه ذلك ، وذلك بأن يتكفل كل عالم باقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم ويميز ما يضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسهلهم ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يسأل عنه بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه فاتهم ورقة الأنبياء والأنبياء متركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم فان مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم كما أن الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف برصه مالم يعرفه غيره وهذا فرض عين على العلماء كافة وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة قريبا متدينا يعلم الناس دينهم فان الخلق لا يولدون إلا جهالا فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع والدنيا دار الرضى إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان والعلماء أطباء والسلاطين قوام دار المرضى فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكشف شره كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمى أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيم ليقده بالسلاسل والأغلال ويكشف شره عن نفسه وعن سائر الناس وإنما صار مرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان ثلاث علل : إحداها أن المريض به لا يدري أنه مريض . والثانية أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن

وأمثال هذه الآية يقرأ في كل ركعة آية منها إما مرة أو يكررها مهما شاء ويقدر للطالب أن يجلي بين الصلاة التي ذكرناها بعد طلوع الشمس وصلاة الضحى مائة ركعة خفيفة وقد كان في الصالحين من ورده بين اليوم والليلة مائة ركعة إلى مائتين إلى خمسمائة إلى ألف ركعة ومن ليس له في الدنيا شغل وقد ترك الدنيا إلى أهلها فما باله ييطان ولا يتعمج بحمد الله تعالى . قال سهل بن عبد الله التستري لا يكمل شغل قلب عبد بالله الكريم وله في الدنيا حاجة فاذا ارتفعت الشمس

فإن عاقبة موت مشاهد تنفر الطباع منه وما بعد اللوت غير مشاهد وطاقة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم قتلت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها فذلك تراه يتسل على فضل الله في مرض القلب ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال . والثالثة : وهو الداء العضال قد الطيب فإن الأطباء هم العلماء وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضاً شديداً هجروا عن علاجه وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر قصانهم فاضطروا إلى إغواء الخلق والاشارة عليهم بما يزيد مرضاً لأن الداء للهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تخدير الخلق منه استنكافاً من أن يقال لهم فلما بالكم تأمرون بالعلاج وتمنون أنفسكم فهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء واقطع النواء وهلك الخلق فقد الأطباء بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء فليتهم إذ لم ينصحوا لم يخشوا وإذا لم يصلحوا لم يفسدوا ولتهم سكتوا وما نطقوا فاتهم إذا تكلموا لم يهجمهم في مواعظهم إلا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإجراء وتغليب أسباب الرجاء وذلك لرائحة الرحمة لأن ذلك أهدى في الأسماع وأخف على الطباع فتصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا من مزيد جراءة على المعاصي ومزيد ثقة بفضل الله ومهما كان الطيب جاهلاً أو خائفاً أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه فالرجاء والخوف دواء آن ولكن لشخصين متضادى العلة أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه ما لا تطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية فتكسر سورة إصراره في الخوف بذكر أسباب الرجاء ليمود إلى الاعتدال وكذلك للمرضى على الذنوب المشتهى للتوبة للمتنع عنها بحكم القنوط واليأس استظاماً لذنوبه التي سبقت يسأل أيضاً بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب ، فأما معالجة للفرور المستمر في المعاصي بذكر أسباب الرجاء فيضاهي معالجة المهرور بالمثل طلباً للشفاء وذلك من دأب الجهال والأغبياء فاذن فساد الأطباء هي المعضلة الزبالة التي لا تقبل الدواء أصلاً . فإن قلت : فاذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق . فاعلم أن ذلك بطول ولا يمكن استقصاؤه ، نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهي أربعة أنواع : الأول أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والمعاصين ، وكذلك ماورد من الأخبار والآثار مثل قوله صلى الله عليه وسلم « ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا ومليكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما : يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ، ويقول الآخر : يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، فيقول الآخر : يا ليتهم إذ لم يخلقوا لماذا خلقوا علموا بما علموا ^(١) » وفي بعض الروايات « ليتهم تجالسوا فتذكروا ما علموا ، ويقول الآخر : يا ليتهم إذ لم يعلموا بما علموا تابوا بما علموا » وقال بعض السلف إذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتب عليه وإن لم يستغفر كتبها . وقال بعض السلف ما من عبد يصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يحسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء كفا عن عبدى وأمهلك فانكرا لم تخلقاه ولو خلقتاه لرحمتاه ولعله يتوب إلى فأغفر له ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات

وتصف الوقت من صلاة الصبح إلى الظهر كما يتصرف الصريين الظهر والقرب يصل الضحى فهذا الوقت أفضل الأوقات لصلاة الضحى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة الضحى إذا رخصت الفصال وهو أن ينام الفصيل في ظل أمه عند حرّ الشمس . وقيل الضحى إذا ضحيت الأقدام بحر الشمس وأقل صلاة الضحى ركعتان وأكثرها اثنتا عشرة ركعة ويجعل لنفسه دعاء بمد كل ركعتين ويسبح ويستغفر ثم يجد ذلك إن كان هناك

(١) حديث ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا ومليكان يتجاوبان بأربعة أصوات فيقول أحدهما يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا الحديث غريب لم أجده هكذا . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف إن لله ملكاً ينادى في كل ليلة أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاه الحديث وفيه ليل الخلائق لم يخلقوا ولتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا الحديث .

فذلك معنى قوله تعالى - إن الله يمك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكما من أحد من بعده - وفي حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه « الطابع معلق بقائمة العرش فإذا انتهكت الحرمات واستحللت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها (١) » وفي حديث مجاهد « القلب مثل الكف المفتوحة كلما أذنب العبد ذنبا انقضت أصبع حتى تنقبض الأصابع كلها فيسد على القلب فذلك هو الطابع (٢) » وقال الحسن : إن بين العبد وبين الله حدا من الماصى معلوما إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوقه بعدها لغيره والآثار في ذم الماصى ومدح التائبين لا تحصى فينبغى أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه ما خلف ديناراً ولا درهما وإنما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما أصابه (٣) .

النوع الثانى : حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من الصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع فى قلوب الخلق مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم فى عصيانه وما لقيه من الإخراج من الجنة حتى روى أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلال عن جسده وبدت عورته فاستعيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحل الإكليل عن جبينه ونودى من فوق العرش : اهبط من جوارى فإنه لا يجاورنى من عصائى قال فالتفت آدم إلى حواء باكية وقال هذا أول شؤم العصية أخرجنا من جوار الحبيب. وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لأجل الثمال الذى عبد فى داره أربعين يوماً وقيل لأن المرأة سأته أن يحكم لأبيها فقال نعم ولم يفعل وقيل بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها منه فسلم ملكه أربعين يوماً فهرب تأمها على وجهه فكان يسأل بكفه فلا يطعم فإذا قال أطمعوني فأتى سليمان بن داود شج وطرد وضرب . وحكى أنه استطعم من بيت لامرأته فطردته وصبقت فى وجهه . وفى رواية أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبته على رأسه إلى أن أخرج الله الحاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين (أيام العقوبة) قال فجاءت الطيور فمكفت على رأسه وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله فاعتذر إليه بعض من كان جنى عليه فقال لا ألومكم فيما فعلتم من قبل ولا أحمدكم فى عذرکم الآن إن هذا أمر كان من السماء ولا بد منه . وروى عن الاسرائيليات أن رجلاً تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه فراودته نفسه وطالبته بها فجاهدها واستعصم قال فنبأه الله بركة تقواه فكان نبيا فى بنى إسرائيل وفى قصص موسى عليه السلام أنه قال للخضر عليه السلام بم أطلعك الله على علم الغيب قال بتركى الماصى لأجل الله تعالى . وروى أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر إلى قيصه نظرة وكان جديداً فكانه أعجبه قال فوضمته الريح فقال لم فعلت هذا ولم آمرك ؟ قالت إنما نظمتك إذا أظمت الله .

حق يقضى مما ندب إليه من زيارة أو عيادة يمضى فيه وإلا فديم العمل لله تعالى من غير فتور ظاهراً وباطناً وقلبا وقالباً وإلفاظاً وترتيب ذلك أنه صلى مادام منشراحاً وقسمه محبة فإن سم ينزل من الصلاة إلى التلاوة فإن مجرد التلاوة أخف على النفس من الصلاة فإن سم التلاوة أيضاً يذكر الله بالقلب واللسان فهو أخف من القراءة فإن سم الذكر يدع ذكر اللسان ويلزم بقلبه الراقبة والراقبة على القلب بنظر الله تعالى إليه فما دام هذا العلم مسلماً لقلبه فهو مراقب والمراقبة عين

(١) حديث عمر الطابع معلق بقائمة من قوائم العرش فإذا انتهكت الحرمات الحديث ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عمر وهو منكر (٢) حديث مجاهد القلب مثل الكف المفتوحة . قلت هكذا قال المصنف وفى حديث مجاهد وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وليس بمرفوع وقد روينا فى شعب الايمان للبيهقى من قول حذيفة (٣) حديث أنه صلى الله عليه وسلم ما خلف ديناراً ولا درهما وإنما خلف العلم والحكمة البخارى من حديث عمرو بن الحرث قال ماتك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته ديناراً ولا درهما ولا عبداً ولا أمة ولمسلم من حديث عائشة ماتك ديناراً ولا درهما ولا شاة ولا ميرا رضى حديث أبى الدرداء إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما وإنما ورثوا العلم الحديث وقد تقدم فى العلم .

وروى أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام أتدرى لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال لا . قال لتفولك لإخوته - أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه فافلون - لم خفت عليه الذئب ولم ترجى ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له وتدرى لم رددته عليك ؟ قال لا قال لأنك رجوتني وقلت - عسى الله أن يأتيني بهم جميعا - وبما قلت - اذهبوا فتحسبوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا - وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك - اذكرني عند ربك - قال الله تعالى - فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين - وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود الأسرار بل الفرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار، نعم كانت سيئاتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة والأستغناء يمهلون ليزدادوا إثمًا ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر ، فهذا أيضا مما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع للصبرين فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة . النوع الثالث : أن يقرر عندهم أن تسجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جنائياته فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله فينبغي أن يخوف به فان الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر كما حكى في قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى إنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه قال صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ^(١) » وقال ابن مسعود إنى لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه وهو معنى قوله عليه السلام « من قارف ذنبا فارق عقله لا يعود إليه أبدا ^(٢) » وقال بعض السلف ليست اللمة سوادا في الوجه وقصا في المال إثمًا للجنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو شر منه وهو كما قال لأن اللمة هي الطرد والإبعاد فإذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد والحرماني عن رزق التوفيق أعظم حرمان وكل ذنب فانه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يعقته الله تعالى لعقته الصالحون . وحكى عن بعض العارفين أنه كان يعيش في الوحل جامعا ثيابه محترزا عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط قمام وهو يعيش في وسط الوحل ويبكي ويقول هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويحاربها حتى يقع في ذنب وذنبين ففندها بخوض في الذنوب خوفا وهو إشارة إلى أن الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر ولذلك قال الفضيل ما أنكرت من خير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك ورثتك ذلك وقال بعضهم إنى لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حمارى وقال آخر أعرف العقوبة حتى في فأر بيتي وقال بعض صوفية الشام نظرت إلى غلام نصراني حسن الوجه فوقفت أنظر إليه فمر بي ابن الجلاء الدمشقي فأخذ يدي فاستحييت منه فقلت يا أبا عبد الله سبحانه الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت للشار فغمز يدي وقال لتجدن عقوبتها بعد حين قال فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة . وقال أبو سليمان الداراني الاحتلام عقوبة وقال لا يفوت أحد صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه وفي الخبر « ما أنكرتم من زمانكم فيما غيرتم من أعمالكم ^(٣) » وفي الخبر « يقول الله تعالى إن أدنى ما أصنع

الذكروأفضله فان عجز عن ذلك أيضا وتملكته الوسواس وتزاحم في باطنه حديث النفس فليتم في النوم السلامة وإلا ففكرة حديث النفس تقسى القلب ككثرة الكلام لأنه كلام من غير اسان فيحترز عن ذلك قال سهل بن عبد الله أسوأ المعاصي حديث النفس والطالب يريد أن يعتبر باطنه كما يعتبر ظاهره فانه بحديث النفس وما يتخيل له من ذكر ماضى ورأى وسمع كشخص آخر في باطنه فيقيد الباطن بالمراقبة والرعاية كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر ويمكن للطالب المجد

(١) حديث إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده واللفظه إلا أنه قال الرجل بدل العبد من حديث ثوبان (٢) حديث من قارف ذنبا فارق عقله لا يعود إليه أبدا تقدم (٣) حديث ما أنكرتم من زمانكم فيما غيرتم من أعمالكم البيهقي في الزهد من حديث أبي الدرداء

بالعبء إذا أثر شهوته على طاعته أن أحرمه لذيق مناجاتي (١) . وحكى عن أبي عمرو بن علوان في قصة يطول ذكرها قال فيها كنت قائماً ذات يوم أصلى غمام قلمي هوى طاولته بفكرتي حتى تولد منه شهوة الرجال فوعدت إلى الأرض واسود جسدي كله فاستترت في البيت فلم أخرج ثلاثة أيام وكنت أعالج غمسه في الحمام بالصايون فلا يزداد إلا سواداً حتى انكشف بعد ثلاث فلقيت الجنيح وكان قد وجه إلى فأشخصني من الرقة فلما أتيت قال لي أما استحيت من الله تعالى كنت قائماً بين يديه فسارت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدي الله تعالى فلولا أتى دعوت الله لك وتبت إليه عنك لقيت الله بذلك اللون قال فمجيبت كيف علم بذلك وهو يفتدأ وأنا بالرقة . واعلم أنه لا يذنب العبد ذنباً إلا ويسود وجه قلبه فإن كان سعيداً أظهر السواد على ظاهره لينزجر وإن كان شقياً أخفى عنه حتى ينهك ويستوجب النار والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيره بل من شؤم الذنوب في الدنيا على الجملة أن يكسب ما بعده صفة فإن ابتلى بشيء كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى يتضاعف شقاؤه وإن أصابته نعمة كانت استدراجاً له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه وأما للطيب فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته .

النوع الرابع : ذكر ماورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالحمر والزنا والسرقه والقتل والنيسة والكبر والحسد وكل ذلك مما لا يمكن حصره وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أولاً بالنفس والسحنة ووجود الحركات على اللط الباطنة ويشتمل بعلاجها فليستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال له واحد « أوصني يا رسول الله ولا تكثر على قال لا تنضب (٢) » وقال له آخر « أوصني يا رسول الله فقال عليه السلام عليك باليأس مما في أيدي الناس فإن ذلك هو الغنى وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر وصل صلاة مودع وإياك وما يتذر منه (٣) » وقال رجل لمحمد بن واسع أوصني فقال أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة قال وكيف لي بذلك قال الزم الزهد في الدنيا فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم في السائل الأول مخايل الغضب فتهاء عنه وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل وتخيل محمد بن واسع في السائل مخايل الحرص على الدنيا وقال رجل لمعاذ أوصني فقال كن رحيماً كن لك بالجنزة عيافاً كأنه تفرس فيه آثار النفاظة والغلظة . وقال رجل لابراهيم بن آدم أوصني فقال : إياك والناس وعليك بالناس ولا بد من الناس فإن الناس هم الناس وليس كل الناس بالناس ذهب الناس وبقي الناس وما أرام بالناس بل غمسوا في ماء اليأس فكأنه تفرس فيه آفة الخناظة وأخبر عما كان هو الغالب على حاله في وقته وكان الغالب أذاه بالناس والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضي الله عنها أن اكتبي لي كتاباً توصيني فيه ولا تكثري فكتبت إليه من عائشة إلى معاوية سلام عليك أما بعد فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول

وقال غريب تفرد به هكذا العقيلي وهو عبيد الله بن هانيء . قلت : هو منهم بالكذب قال ابن أبي حاتم روى عن أبيه أحاديث بواطيل (١) حديث يقول الله إن أدنى ما أضع بالعبء إذا أثر شهوته على طاعته أن أحرمه لذيق مناجاتي غريب لم أجده (٢) حديث قال رجل أوصني ولا تكثر على قال لا تنضب تقدم (٣) حديث قال له آخر أوصني قال عليك باليأس الحديث ابن ماجه والحاكم وقد تقدم .

أن يصلى من صلاة الضحى إلى الاستواء مائة ركعة أخرى وأقل من ذلك عشرون ركعة يصلها خفيفة أو يقرأ في كل ركعتين جزءاً من القرآن أو أقل أو أكثر والنوم بعد الفراغ من صلاة الضحى وجد الفراغ من أعداد آخر من الركعات حسن . قال سفيان كان يجهم إذا فرغوا أن يناموا طلباً للسلامة وهذا النوم فيه فوائد منها أنه يبين على قيام الليل ومنها أن النفس تستريح ويصفو القلب لبقية النهار والعمل فيه والنفس إذا استراحت عادت جديدة فبعد الإنتباه

« من التمس رضا الله بسخط الناس كفاء الله مؤنة الناس ومن التمس سخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس ^(١) » والسلام عليك فانظر إلى قفها كيف تعرضت لآفة التي تكون الولاية بصددها وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم وكتبت إليه مرة أخرى : أما بعد ؛ فاتق الله فانك إذا اتقيت الله كفالك الناس وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا والسلام . فاذن على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية وتوسم الأحوال الآتية ليسكون اشتغاله بالمهم فان حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان . فان قلت : فان كان الواعظ يتكلم في جمع أسأله من لا يدري باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل . فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه إما على العموم وإما على الأكثر فان في علوم الشرع أغذية وأدوية فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل . ومثاله ما روى أن رجلا قال لأبي سعيد الخدري أوصني قال عليك بتقوى الله عزوجل فانها رأس كل خير وعليك بالجهاد فانه رهبانية الاسلام وعليك بالقرآن فانه نور لك في أهل الأرض وذكر لك في أهل السماء وعليك بالصمت لإمن خير فانك بذلك تغلب الشيطان . وقال رجل للحسن أوصني فقال أعز أمر الله يعزك الله . وقال لقمان لابنه يا بني زاحم العلماء بركتيك ولا تجادلهم فيمقتوك وخذ من الدنيا بلاغك وأنفق فضول كسبك لآخرتك ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا وعلى أعناق الرجال كلا وصم صوما يكسر شهوتك ولا تصم صوما يضر بصلاتك فان الصلاة أفضل من الصوم ولا تجالس السفية ولا تخالط ذا الوجهين . وقال أيضا لابنه يا بني لاتضحك من غير عجب ولا تمش في غير أرب ولا تسأل عمالا يعينك ولا تضع مالك وتصلح مال غيرك فان مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت يا بني إن من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغم ومن يقل الشر يأتيه ومن لا يملك لسانه يندم وقال رجل لأبي حازم أوصني فقال كل ما لوجاءك الموت عليه فرأيت غنيمة فالزمه وكل ما لوجاءك الموت عليه فرأيت مصيبة فاجتنبه . وقال موسى لالخضر عليهما السلام أوصني فقال كن بسابا ولا تكن غضابا وكن نفاعا ولا تكن ضرارا واتزع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تعير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران . وقال رجل لحمد بن كرام أوصني فقال اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك وقال رجل لحامد اللخاف أوصني فقال اجعل لدينك غلافا كغلاف الصحف أن تدنسه الآفات قال وما غلاف الدين قال ترك طلب الدنيا إلا ما لا بد منه وترك كثرة الكلام إلا فيما لا بد منه وترك مخالطة الناس إلا فيما لا بد منه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبدالعزيز رحمهم الله تعالى : أما بعد ، خف بما خوفك الله واحذر مما حذر الله وخذ مما في يديك لما بين يديك فخذ الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام ، وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى الحسن يسأله أن يعظه فكتب إليه : أما بعد ، فان الهول الأعظم والأمر المفضعات أمامك ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالمطب ، واعلم أن من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن نظر في العواقب نجح ومن أطاع هواه ضل ومن حلم غم ومن خاف أمن ومن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم فاذا زلت فارجع وإذا ندمت فأقلع وإذا جهلت فاسأل وإذا غضبت فأمسك . وكتب مطرف بن عبدالله إلى عمر بن عبدالعزيز رحمه الله : أما بعد ، فان الدنيا دار عقوبة ولها يجمع من لا عقل له وبها يفتر من لا علم عنده فكُن فيها يأمر المؤمنين كالمدادى جرحه يصبر

(١) حديث عائشة من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس الحديث الترمذي والحاكم

وفي مسند الترمذي من لم يسلم .

من نوم النهار تجدد
في الباطن نشاطا آخر
وشغفا آخر كما كان
في أول النهار فيكون
للصادق في النهار نهران
يغتمهما بخدمة الله
تعالى والدؤوب في العمل
وينبغى أن يكون
انتباهه من نوم النهار
قبل الزوال بساعة
حتى يتمكن من
الوضوء والطهارة قبل
الاستواء بحيث يكون
وقت الاستواء
مستقبل القبلة ذا كرا
أومسبحا أو تاليا قال الله
تعالى - وأقم الصلاة طرفي
النهار - وقال - فسبح
بحمد ربك قبل طلوع
الشمس وقبل غروبها -
قبل طلوع
الشمس صلاة الصبح

على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الهاء . وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عدى بن أروطة أما بعد ، فإن الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله فأما أولياؤه فمعتهم وأما أعداؤه فمعتهم . وكتب أيضا إلى بعض عماله : أما بعد ، قد أمكنتك القدرة من ظلم العباد فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئا إلا كان زائلا عنهم باقيا عليك ، واعلم أن الله عز وجل أخذ للظالمين من الظالمين والسلام . فهكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري خصوص واقته فهذه اللواعظ مثل الأغذية التي يشترك السكافة في الاتضاع بها ولأجل قد مثل هؤلاء اللواعظ انهم باب الاتماظ وغلبت العاصي واستشرى الفساد وبلى الخلق بوعاظ يخرقون أسجاعا وينشدون آياتا ويتكلمون ذكر ماليس في سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم فقطع عن قلوب العامة وقارهم ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل إلى القلب بل القائل متصلف ولستم متكلف وكل واحد منهما مدبر ومتخلف ، فاذن كان طلب الطبيب أول علاج الرضى وطلب العلماء أول علاج العاصين فهذا أحد أركان العلاج وأصوله . الأصل الثاني الصبر ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره وإنما تناول ذلك إما لتفلقته عن مضرتة وإما لشدة غلبة شهوته فله بيان فاذ كرناه هو علاج النقلة فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس . وحاصله أن للمريض إذا اشتدت ضرارته لما كوله مضرة فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم يذهب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثم يصير بقوة الحوف على الألم الذي يناله في تركه فلا يبدئ على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يبالغ الشهوة في العاصي كالشباب مثلا إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقرى الخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب للهبطة لشهوته ومهيج الشهوة من خارج هو حضور للشهوى والنظر إليه وعلاجه الهرب والعزلة ومن داخل تناول لذائذ الأطعمة وعلاجه الجوع والصوم الدائم وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ولا يصبر إلا عن خوف ولا يخاف إلا عن علم ولا يعلم إلا عن بصيرة واختكار أو عن سماع وتقليد فأول الأمر حضور مجالس الذكر ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع ثم التفكير فيه لتتمام الفهم وينبت من تمامه لاحالة خوفه وإذا قوى الحوف تيسر بمعونته الصبر وابتعثت الدواعي لطاب العلاج وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك فمن أعطى من قلبه حسن الاصغاء واستشعر الحوف فاتق واتنظر الثواب وصدق بالحسن فييسره الله تعالى ليسرى ، وأما من يخجل واستغنى وكذب بالحسن فييسره الله للعسرى فلا يفتن عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى وإعانة الله الآخرة والأولى . فان قلت فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الحوف والخوف لا يكون إلا بالعلم والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان فكأن من أصر على الذنب لم يصر عليه إلا لأنه غير مؤمن . فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان بل يكون لضعف الإيمان اذ كل مؤمن مصدق بأن العصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة ولكن سبب وقوعه في الذنوب أمور : أجهها أن العقاب الموعود غيب ليس يحاضر والنفس جبلت متأثرة بالحاضر فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر . الثاني : أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال آخذة بالخلق وقد قوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والإلف والعادة طبيعة خامسة والزروع عن

وقبل غروبها صلاة العصر - ومن آناه الليل فسبح - أراد العشاء الأخيرة - وأطراف النهار - أراد الظهر والمغرب لأن الظهر صلاة في آخر الطرف الأول من النهار وآخر الطرف الآخر غروب الشمس وفيها صلاة المغرب فصار الظهر آخر الطرف الأول والمغرب آخر الطرف الآخر فيستقبل الطرف الآخر باليقظة والتذكر كما استقبل الطرف الأول وقد عاد بنوم النهار جديدا كما كان بنوم الليل ويصلى في أول الثوال قبل السنة والفرض أربع ركعات

الماجل لحوف الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى - كلاب تجبون العاجلة وتذرون الآخرة - وقال عز وجل - بل تؤثرون الحياة الدنيا - وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات »^(١) وقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى خلق النار فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر إليها فقال وعزتك لا يسمع بها أحد فدخلها خلفها بالشهوات ثم قال اذهب فانظر إليها فنظر فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها، وخلق الجنة فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر إليها فنظر فقال وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها خلفها بالمكاره ثم قال اذهب فانظر إليها فنظر إليها فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد »^(٢) فإذا كون الشهوة مرهقة في الحال وكون العقاب متأخرا إلى المآل سيبان ظاهرا في الاسترسال مع حصول أصل الايمان فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدة عطشه مكذبا بأصل الطب ولا مكذبا بأن ذلك مضر في حقه ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز فهون عليه الألم ينتظر. الثالث أنه مامن مذنب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالחסنات وقد وعد بأن ذلك يجبره إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال بسوف التوبة والتكفير فمن حيث رحاؤه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع الايمان. الرابع أنه مامن مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجابا لا يمكن الغفو عنها فهو يذنب وينتظر الغفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الايمان ، نعم قد يقدم الذنب بسبب خامس يقدح في أصل إيمانه وهو كونه شاكا في صدق الرسل وهذا هو الكفر كالذي يحذره الطبيب عن تناول ما يضره في المرض فان كان المحذر ممن لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالي به فهذا هو الكفر . فان قلت فما علاج الأسباب الخمسة ؟ فأقول هو الفكر وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول وهو تأخر العقاب أن كل ما هو آت آت وأن غدا للناظرين قريب وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شركائه نطه فما يدريه لكل الساعة قريب والتأخر إذا وقع صار ناجزا ويذكر نفسه أنه أبدا في دنياه يتعب في الحال لحوف أمر في الاستقبال إذ يركب البحار ويقاسى الأسفار لأجل الريح الذي يظن أنه قد يحتاج إليه في ثاني الحال بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت وكان الماء البارد ألد الأشياء عنده تركه مع أن الموت ألم لحظة إذ لم يخف ما بعده ومفارقة الدنيا لا بد منها فكم نسبة وجوده في الدنيا إلى عدمه ألا وأبدا فلينظر كيف يبادر إلى ترك ملاذنه بقول ذي لم تتم معجزة على طيه فيقول كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعى الطب لنفسه بلا معجزة على طيه ولا يشهد له إلا عوام الخلق وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا وبهذا التفكير بينه يعالج اللذة الغالبة عليه ويكاف نفسه تركها ويقول إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبدا وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتغصنها وامتزاج صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعيم الآخرة وأما تسويق التوبة فيعالجها بالكفر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويق لأن السوف يبنى الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فلمه لا يبقى وإن بقي

(١) حديث حفت الجنة بالمكاره الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث إن الله خلق النار فقال لجبريل اذهب فانظر إليها الحديث أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وقدم فيه ذكر الجنة .

بتسليمة واحدة كان
صليها رسول الله صلى
الله عليه وسلم وهذه
صلاة الزوال قبل الظهر
في أول أوقاتها واحتاج
أن يراعى لهذه الصلاة
أول الوقت بحيث
يفطن للوقت قبل
المؤذنين حين يذهب
وقت الصلوة
بالاستواء فيشرع في
صلاة الزوال ويسمع
الأذان وقد توسط
هذه الصلاة ثم يستعد
لصلاة الظهر فان وجد
في باطنه كدرا من
عجالة أو مجالسة
اتفقت يستغفر الله
تعالى ويتضرع إليه
ولا يشرع في صلاة
الظهر إلا بعد أن يجد
الباطن عائدا إلى حاله

فلا يقدر على الترك غذا كما لا يقدر عليه اليوم فليت شعري هل عجز في الخيال إلا الغلبة الشهوة والشهوة ليست تغارقه غذا بل تضاعف إذ تتأكد بالاعتقاد فليست الشهوة التي أكدتها الانسان بالعادة كالتي لم يؤكدها وعن هذا هلك السوفون لأنهم يظنون الفرق بين المتأملين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبدا شاق ومماثال السوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فأها قوية لا تنقل إلى بمشقة شديدة فقال أواخرها سنة ثم أعود إليها وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الطلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوى الضعيف. وأما المعنى الرابع وهو انتظار عفو الله تعالى فعلاجه ما سبق وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظرا من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كثر في أرض خربة فان إمكان العفو عن الدين مثل هذا الامكان وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلده وترك ذخائر أمواله في صحن داره وقدر على دفعها وإخفائها فلم يفعل وقال أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلم غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ إلى داري أو إذا انتهى إلى داري مات على باب الدار فان الموت ممكن والغفلة ممكنة. وقد حكى في الأسمار أن مثل ذلك وقع فأننا أنتظر من فضل الله مثله فمنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه في غاية الحماقة والجهل إذ قد لا يمكن ولا يكون. وأما الخامس وهو شك فهذا كفر وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل وذلك بطول ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحمد عقله فيقال له ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو تقول أعلم أنه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة فان قال أعلم استحالة كذلك فهو أخرق معنوه وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء وإن قال أنا شاك فيه فيقال لو أخبرك شخص واحد مجهول عند ترك طعامك في البيت لحظة أنه ولدت فيه حياة وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه وإن كان ألد الأطعمة فيقول أتركه لا محالة لأنني أقول إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام والصبر عنه وإن كان شديدا فهو قريب وإن صدق فتفوتني الحياة والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد فيقال له يا سبحان الله كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الأولياء والعلماء والحكماء بل جميع أصناف العقلاء ولست أعنى بهم جهال العوام بل ذوى الألباب عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضا فيما يقول فليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثوابا وعقابا وإن اختلفوا في كفيته فان صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية للسكدر فلا يبقى له توقف إن كان عاقلا مع هذا الفسك إذ لانسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد بل لو قدرنا الدنيا بمخلوءة بالذرة وقدرنا طائرًا يلبتقط في كل ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص أبد الآباد شيئا فكيف يفتر رأى العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لأجل سعادة تبقى أبد الآباد ولذلك قال أبو العلاء أحمد ابن سليمان التوحى المرى :

قال النجم والطبيب كلاهما لا تبعت الأموات قلت إليك
إن صح قولك كما قلت بخاسر أو صح قولي فالحسار عليك

ولذلك قال على رضى الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكا إن صح ما قلت فقد تخلصنا جميعا وإلا فقد تحاصت وهلكت أى العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال. فان قلت هذه الأمور جلية ولكنها ليست تنال إلا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفسك فيها واستقلته وما علاج القلوب لوردها إلى الفسك لاسيما من آمن بأصل الشرع وتفضيله. فاعلم أن المنع من الفسك

من الصفاء والذائقون
حلوة الناجاة لا بد أن
يجدوا صفو الأنس في
العلاوة ويتكدرن
بيسر من الاسترسال
في اللباج ويصير على
بواطنهم من ذلك عقد
وكدر وقد يكون ذلك
بمجرد المخالطة والمجالسة
مع الأهل والولد مع
كون ذلك عبادة
ولكن حسنة الأبرار
سيات القريين فلا
يدخل الصلاة إلا
بعد حل العقد
وإذهاب الكدر وحل
العقد بصدق الانابة
والاستغفار والتضرع
إلى الله تعالى ودواء
ما يحدث من الكدر
بمجالسة الأهل والولدان
أن يكون في مجاسته

أمران : أحدهما أن الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأهو الهاوشدائد وحرسات العاصين في الحرمان عن النعيم القيم وهذا الفكر لداغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة . والثاني أن الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقتة فصار عقله مسخرا لشهوته فهو مشغول بتدبير حيلته وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنه من ذلك ، وأما علاج هذين للأعين فهو أن يقول لقلبه ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما جده تألما بذكره مع استحقار ألم مواعته فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به وأما الثاني وهو كون الفكر مفوتا للذات الدنيا فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم فأنهالا آخر لها ولا كدورة فيها ولذات الدنيا سريعة الدور وهي مشوبة بالمكدرات لما فيها لذنة صافية عن كدر وكيف وفي التوبة عن العاصي والإقبال على الطاعة تلذذ بمنجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته وطول الأُنس به ولو لم يكن للطبع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأُنس بمنجاة الله تعالى لكان ذلك كافيا فكيف بما يضاف إليه من نعيم الآخرة ، نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدنا كما كان الشر ديدنا فالنفس قابلة ما عودتها تعود والخير عادة والشر لاجبة ، فاذن هذه الأفكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ وتنبهيات تقع للقلب بأسباب تنفق لا تدخل في الحصر فيصير الفكر موافقا للطبع فيميل القلب إليه ويبر عن السبب الذي أوقع الواقعة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة وقد روى في حديث طويل أنه قام عمار بن ياسر فقال لملي بن أبي طالب كرم الله وجهه يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بنى ، فقال على رضى الله عنه بنى على أربع دعائم : على الجفاء والعمى والغفلة والشك ، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت الملبأ ومن عمى نسى الذكر ومن غفل حاد عن الرشد ومن شك غرته الأمانى فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب ، فلما ذكرناه بيان بعض آفات الغفلة عن التفكير وهذا القدر في التوبة كاف وإذا كان الصبر ركنا من أركان دوام التوبة فلا بد من بيان الصبر فذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى .

﴿ كتاب الصبر والشكر ﴾

(وهو الكتاب الثاني من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

غير راكن إليهم كل
الزككون بل يسترق
القلب في ذلك نظرات
إلى الله تعالى فتكون
تلك النظرات كفارة
لتلك المجالسة إلا أن
يكون قوى الحال
لا يجبه الخلق عن
الحق فلا يعتقد على
باطنه عقدة فهو كما
يدخل في الصلاة
لا يجدها ويجد باطنه
وقلبه لأنه حيث
استروحت نفس هذا
إلى المجالسة كان
استرواح نفسه منغمرا
بروح قلبه لأنه يجالس
وخالط وعين ظاهره
ناظرة إلى الخلق وعين
قلبه مطالعة للمضرة
الإلهية فلا يعتقد على
باطنه عقدة وصلاة

الحمد لله أهل الحمد والثناء ، التفرد برداء الكبرياء ، التوحد بصنات المجد والملاء ، الوؤيد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء . والصلاة على محمد سيد الأنبياء وعلى أصحابه سادة الأصفياء وعلى آله قادة البررة الأتقياء صلاة محروسة بالدوام عن الفناء ، ومصونة بالتعاقب عن التصرم والاتقضاء [أما بعد] فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر (١) كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعالى وإيمان من أسمائه الحسنى إذ سمى نفسه صبورا وشكورا فإلجله بل حقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن

﴿ كتاب الصبر والشكر ﴾

(١) حديث الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من

ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة مابه الإيمان ومن به الإيمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك مابه الإيمان فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى . الشطر الأول في الصبر وفيه بيان فضيلة الصبر وبيان حمله وحقيقته وبيان كونه نصف الإيمان وبيان اختلاف أساميه باختلاف متعلقاته وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف وبيان مظان الحاجة إلى الصبر وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى .

(بيان فضيلة الصبر)

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل - وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا - وقال تعالى - وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا وقال تعالى - ولنجزيَن الذين صبروا أجرهم بأحسن مما كانوا يعملون - وقال تعالى - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا - وقال تعالى - إنما يوفى الصابرون وأجرهم خير حساب - ثم من قرابة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله تعالى « الصوم لي وأنا أجزى به » فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى - واصبروا إن الله مع الصابرين - وعلق النصر على الصبر فقال تعالى - بل إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين - وجمع للصابرين بين أمور لم يجمها لغيرهم فقال تعالى - أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المنتدبون - فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول . وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الإيمان ^(١) » على ما سياتى وجه كونه نصفاً وقال صلى الله عليه وسلم « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ولأن تصبروا على ما أتم عليه أحب إلى من أن يوافيق كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا جدى فينكر بعضكم بعضاً وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكال ثوابه ثم قرأ قوله تعالى - ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم - ^(٢) » الآية وروى جابر أنه سئل عن الإيمان فقال « الصبر والسماحة ^(٣) » وقال أيضاً « الصبر كزمن كنوز الجنة ^(٤) » وسئل مرة « ما الإيمان فقال الصبر ^(٥) » وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم « الحج عرفة ^(٦) » معناه معظم الحج عرفة

رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد ضعيف (١) حديث الصبر نصف الإيمان أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود وتقدم في الصوم (٢) حديث من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث بطوله تقدم في العلم مختصراً ولم أجده هكذا بطوله (٣) حديث جابر سئل عن الإيمان فقال الصبر والسماحة الطبراني في معارج الأخلاق وابن حبان في الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن النكدر ضعيف ورواه الطبراني في الكبير من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده (٤) حديث الصبر كزمن كنوز الجنة غريب لم أجده (٥) حديث سئل مرة عن الإيمان فقال الصبر أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعاً الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ويزيد ضعيف (٦) حديث الحج عرفة تقدم في الحج .

الزوال التي ذكرناها
تحل الصدق وتبهيء
الباطن لصلاة الظهر
فيقرأ في صلاة الزوال
بقدر سورة البقرة
في النهار الطويل وفي
القصير ما يتيسر من
ذلك قال الله تعالى :
وعشوا وحين تظهرون -
وهذا هو الإظهار فإن
انتظر بعد السنة
حضور الجماعة للفرض
وقرأ الدعاء الذي بين
الفريضة والسنة من
صلاة الفجر حسن
وكذلك ما ورد أن
رسول الله صلى الله
عليه وسلم دعا به إلى
صلاة الفجر ثم إذا
فرغ من صلاة الظهر
يقرأ الفاتحة وآية
الكرسى ويسبح

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس»^(١) وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام تخلق بأخلاق وإن من أخلاقى أنى أنا الصبور وفي حديث عطاء عن ابن عباس لمادخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال «أؤمنون أنتم؟ فسكتوا فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله قال وما علامة إيمانكم قالوا انشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة»^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم «في الصبر على ما تكره خير كثير»^(٣) وقال المسيح عليه السلام: إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بالصبركم على ما تكرهون. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين»^(٤) والأخبار في هذا لا تحصى. وأما الآثار: فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبي موسى الأشعري عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر: الصبر في المصائب حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى. واعلم أن الصبر ملاك الإيمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر وقال صلى الله عليه وسلم «الله وجهه: بنى الإيمان على أربع دعائم: اليقين والصبر والجهاد والعدل. وقال أيضا الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له وكان عمر رضى الله عنه يقول: نعم العدلان ونعمت العلوة للصابرين يعنى بالمدين الصلاة والرحمة وبالعلوة الهدى والعلوة ما يحمل فوق العدلين على البعير وأشار به إلى قوله تعالى - أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون - وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ هذه الآية - إنا وجدناه صابرا نعم الصديق - أو أبى بكرى وقالوا عجباه أعطى وأثنى أى هو المعطى للصبر وهو النبي. وقال أبو الدرداء ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق.

(بيان حقيقة الصبر ومعناه)

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين وجميع مقامات الدين إيمان منتظم من ثلاثة أمور: معارف وأحوال وأعمال فالمعارف هي الأصول وهي تورث الأحوال والأحوال تثمر الأعمال فالمعارف كالأشجار والأحوال كالأغصان والأعمال كالثمار وهذا من طرف جميع منازل السالكين إلى الله تعالى واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على الكل كإذ ذكرناه في اختلاف اسم الإيمان والاسلام في كتاب قواعد العقائد وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبمجاله قائمة فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمره يصدر عنها ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين اللائكة والإنس والبهائم فإن الصبر خاصية الإنس ولا يتصور ذلك في البهائم ولللائكة أما في البهائم فلتنقصانها. وأما في اللائكة فلنكاملها ويانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبرا. وأما اللائكة

(١) حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس لأصل له مرفوعا وإماما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس (٢) حديث عطاء عن ابن عباس دخل على الأنصار فقال مؤمنون أنتم فسكتوا فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله الحديث الطبراني في الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء (٣) حديث في الصبر على ما تكره خير كثير الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم (٤) حديث لو كان الصبر رجلا لكان كريما الطبراني من حديث عائشة وفيه صبيح بن دينار ضعفه العقيلي.

ويحمد ويكبر ثلاثا
وثلاثين كما وصفنا ولو
قدر على الآيات كلها
التي ذكرناها بعد
صلاة الصبح وعلى
الأدعية أيضا كان ذلك
خييرا كثيرا وفضلا
عظيما ومن له همة
ناهضة وعزيمة صادقة
لا يستكثر شيئا لله
تعالى ثم يحيى بين
الظهر والعصر كما يحيى
بين العشاءين على
الترتيب الذي ذكرناه
من الصلاة والتلاوة
والذكر وللراغبة
ومن دام سره ينم
نومة خفيفة في النهار
الطويل بين الظهر
والعصر ولو أحيا بين
الظهر والعصر ركعتين
يقرأ فيهما ربع القرآن

عليهم السلام فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادرة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما بصرفها عن حضرة الجلال بمجرد آخر يظلب الصوارف . وأما الانسان فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا الشهوة الفداء الذى هو محتاج إليه ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ثم شهوة الكساح على الترتيب وليس له قوة الصبر البتة ، إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضادمقتضياتهما ومطالبهما وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم ولكن الله تعالى بفضل وسعة جوده أكرم بنى آدم ورفع درجاتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين : أحدهما يهديه . والآخر يقويه فتميز بمعونة الملكين عن البهائم ، واختص بصفيتين : إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذى إليه الهداية والتعريف ، فالبهيمة لا لمعرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط فذلك لا يتطلب إلا اللذينة . وأما الدواء النافع مع كونه مضرا في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه فصار الانسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة ولكن لم تتمكن هذه الهداية كافية ما لم تتمكن له قدرة على ترك ما هو مضر فكم من مضر يعرفه الانسان كالمرض النازل به مثلا ولكن لا قدرة له على دفعه فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بمجنود لم تروها وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد كأن نور الهداية أيضا يختلف في الخلق اختلافا لا ينحصر فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الانسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها باعثة دينيا ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين و باعث الهوى والحرب بينهما سجال ومعرفة هذا القتال قلب العبد ، ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة ، فان ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين ، فإذا ترك الأفعال المشتهة عمل يشمره حال يسمى الصبر وهو ثبات باعث الدين الذى هو في مقابلة باعث الشهوة وثبات باعث الدين حال شمرها المعرفة بدواة الشهوات ومضادتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة فإذا قوى يقينه أعنى المعرفة التي تسمى إيمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى قوى ثبات باعث الدين وإذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تقتضاه الشهوة فلا يتم ترك الشهوة الا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة وقوة المعرفة والأيمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها وهذان للملكان هما التكفلان بهذين الجندين باذن الله تعالى وتسخيرهما إياهما ، وهما من الكرام السكاتبين وهما الملكان اللوكلان بكل شخص من الآدميين . وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادى أعلى من رتبة الملك القوى لم يخف عليك أن جانب اليمين هو الذى أشرف الجانبين من جنح الدست ، ينبغى أن يكون مسلما له فهو اذن صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال . وللهذا طوران في الغفلة والفسكر وفي الاسترسال والمجاهدة فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومضى إليه فيكتب أعراضه سيئة وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب إقباله له حسنة وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسىء إليه فيثبت عليه سيئة وبالمجاهدة مستمد من جنوده فيثبت له به حسنة وانما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بآثارها فلذلك سميا كراما

أوتبرأ ذلك في أربع ركعات فهو خير كثير وان أراد أن يحيى هذا الوقت بمائة ركعة في النهار الطويل أمكن ذلك أو بشهرين ركعة قرأ فيها قل هو الله أحد ألف مرة في كل ركعة خمسين ويستاك قبل الزوال اذا كان صائما وان لم يكن صائما فأى وقت تغير فيه النعم . وفي الحديث « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب » وعند القيام من الفرائض يستحب قيل إن الصلاة بالسواك تنضل على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفا ، وقيل هو خير وإن أراد أن يقرأ بين

كاتبين أما الكرام فلا تتفاح العبد بكرمهما ولأن اللائكة كلهم كرام بررة وأما الكاتبون فلا يثبتها الحسنة والسيئات وإنما يكتبان في صحائف مطوية في سر القلب ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه في هذا العالم فانهما وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وحيلة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت لامن عالم الشهادة وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الأبصار في هذا العالم ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين مرة في القيامة الصغرى ومرة في القيامة الكبرى وأعني بالقيامة الصغرى حالة الموت إذ قال صلى الله عليه وسلم « من مات قد قامت قيامته ^(١) » وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال - ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة - وفيها يقال - كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا - أما في القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملائمتين الخلق وفيها يساق التتقون إلى الجنة والمجرمون إلى النار زمرا لا آحادا والموال الأول هو هول القيامة الصغرى والجميع أهوال القيامة الكبرى نظير في القيامة الصغرى مثل زلزلة الأرض مثلا فان أرضك الخاصة بك تزلزل في الموت فانك تعلم أن الزلزلة إذا نزلت بيلة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده قد حصلت الزلزلة في حقه لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره فحسته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان . واعلم أنك أرضى مخلوق من التراب وحطك الخاص من التراب بدنك فحط فاما بدن غيرك فليس بحطك والأرض التي أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان وإنما تخاف من زلزلة أن يتزلزل بدنك بسببه وإلا فالهواء أبدا متزلزل وأنت لا تخشاه إذ ليس يتزلزل به بدنك فحطك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فحط فهي أرضك وترابك الخاص بك وعظامك جبال أرضك ورأسك سماء أرضك وقلبك شمس أرضك وممك وبصرك وسائر خواصك نجوم جهاتك ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك وشعورك نبات أرضك وأطرافك وأشجار أرضك وهكذا إلى جميع أجزائك فاذا انهدم بالموت أركان بدنك قد زلزلت الأرض زلزالها فاذا انفصلت العظام من اللحم قد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فاذا رمت العظام قد نسفت الجبال نسفا فاذا أظلم قلبك عند الموت قد كورت الشمس تكويرا فاذا بطل سمك وبصرك وسائر خواصك قد انكدرت النجوم انكدارا فاذا انشق دماغك قد انشقت السماء انشقا فاذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك قد انفجرت البحار انفجيرا فاذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتك قد عطلت العشار تعطيلها فاذا فارقت الروح الجسد قد حملت الأرض ثمدت حتى ألت ما فيها وتخلت ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ولكني أقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ولا يغوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك بل ما يخص غيرك فان بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك وقد انشردت حواسك التي بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب والأعمى يستوى عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلائها لأنها قد كسفت في حقه دفعة واحدة وهو حصته منها فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره ومن انشق رأسه قد انشقت سماؤه إذ السماء عبارة عما يلي جهة الرأس فمن لا رأس له لا سما له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره فهذه هي القيامة الصغرى والحوف بعد أسفل والهول بعد مؤخر وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الحصوص وبطلت السموات والأرض ونسفت الجبال ونمت الأهوال . واعلم أن هذه الصغرى وإن طولنا في وصفها فانا لم نذكر عشر عشر أو صافها وهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى فان للإنسان ولادتين: إحداهما الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام

(١) حديث من مات قد قامت قيامته ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف.

الصلواتين في صلاته في
عشرين ركعة في كل
ركعة آية أو بعض آية
تقرأ في الركعة الأولى
- ربنا آتنا في الدنيا
حسنة وفي الآخرة
حسنة وقنا عذاب
النار - ثم في الثانية
- ربنا أفرغ علينا صبرا
وثبت أقدامنا وانصرنا
على القوم الكافرين -
ثم - ربنا لا تؤاخذنا
بإخراة السورة ثم - ربنا
لا تزغ قلوبنا - الآية ثم
- ربنا إنا سمعنا ناديا
ينادي للإيمان - الآية
ثم - ربنا آتنا بما
أزلت - ثم - أنت
ولينا فاغفر لنا - ثم
- فاطر السموات
والأرض أنت ولي -
ثم - ربنا إنك تعلم

فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم وله في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه الصبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم بل أوسع وأعظم فقس الآخرة بالأولى فما خلقكم ولا بشكم إلا كنفس واحدة وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين وإليه الإشارة بقوله تعالى - ونفثكم فيما لاتعلمون - فالمرء بالقيامة مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك والملكوت والمرء بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين الموراء إلى أحد العالمين وذلك هو الجهل والضلال والافتداء بالأعور الدجال ، فما أعظم غفلتك يامسكين وكلنا ذلك المسكين وبين يديك هذه الأحوال فان كنت لاتؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى أو ما سمعت قول سيد الأنبياء « كفى بالموت واعظا^(١) » أو ما سمعت بكرهه عليه السلام عند الموت حتى قال صلى الله عليه وسلم « اللهم هون على محمد سكرات الموت^(٢) » أو ما استجى من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع العاقلين الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون فيأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا يفرجون ويأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون فيا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون أفيتظنون أنهم في الدنيا خالدون أو لم يروا كم أهلكنا قباهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون أم يحسبون أن الموت سافروا من عندهم فهم معدومون كلا إن كل لما جميع لدينا محضرون ولكن ما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين وذلك لأننا جعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ولترجع إلى الغرض فان هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم العاملة . فقول قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام السكاتبين ولا يكتبان شيئا على الصبيان والمجانين إذ قد ذكرنا أن الحسنه في الاقبال على الاستفادة منها والسيئة في الاعراض عنهما وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة فلا يتصور منها إقبال وإعراض وهما لا يكتبان إلا الاقبال والاعراض من القادرين على الاقبال والإعراض ولعمري إنه قد تظهر مبادئ إشراق نور الهداية عند سن التمييز وتنمو على التدريج إلى سن البلوغ كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة بل إلى مضار الدنيا فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ولا يعاقب على تركها في الآخرة ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة بل على القيم العدل والولي البر الشفيق إن كان من الأبرار وكان على سمعت الكرام السكاتبين البررة الأخبار أن يكتب على الصبي سيئه وحسنه على صحيفة قلبه فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتحريف ثم يعذبه عليه بالضرب فكل ولي هذا صمته في حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقربين والصدقيين وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث كفى بالموت واعظا البيهقي في الشعب من حديث عائشة وفيه الريح بن بدر ضعيف ورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد (٢) حديث اللهم هون على محمد سكرات الموت الترمذي وقال غريب والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عائشة بافظ اللهم أعنى على سكرات الموت .

ما تخفى وما نعان -
الآية ثم - وقل رب زدني علما - ثم لا إله إلا أنت سبحانك - ثم رب لا تدركني فردا - ثم - وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين - ثم - ربنا هب لنا من أزواجنا - ثم - رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت على وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين - ثم - يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور - ثم - رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت على - الآية من سورة الأحقاف ثم - ربنا اغفر لنا

«أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة»^(١) وأشار إلى أصميه الكريمين صلى الله عليه وسلم .
(بيان كون الصبر نصف الإيمان)

اعلم أن الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليهما جميعا وللمعارف أبواب وللأعمال أبواب ولاشتال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفا وسبعين بابا واختلاف هذه الاطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربيع الصادات ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين : أحدهما أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا فيكون للإيمان ركنان : أحدهما اليقين والآخر الصبر والراد باليقين للمعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين والراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة ولا يمكن تزك العصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال «من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر» الحديث إلى آخره . الاعتبار الثاني أن يطلق على الأحوال الثمرة للأعمال لاهل المعارف وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقه الصبر إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيها وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار كأن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر وقد يرفع أيضا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى تسمين . باعث من جهة الشهوة ، و باعث من جهة الغضب فالشهوة لطلب اللذيذ والغضب للهروب من المؤلم وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار «الصوم نصف الصبر» لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعا فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع بمحدود الأعمال والأحوال ونسبتها إلى الإيمان والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان فان اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة .

(بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ماعنه الصبر)

اعلم أن الصبر ضربان : أحدهما ضرب بدني كتحمل الشاق بالبدن والثبات عليها وهو إما بالفعل كتصاقل الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها وإما بالاحتمال كالصبر عن الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات المائلة وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر النفسى عن مشتبهات الطبع ومقتضيات الهوى ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمى عفة وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر فان كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر وتضاده حالة تسمى الجزع والمهلح وهو إطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت وضرب الحدود وشق الجيوب وغيرها وإن كان فى احتمال النفسى تسمى حالة تسمى البطر وإن كان فى حرب ومقابلة سمى شجاعة ويضاده الجبن وإن كان فى كظم النيط والغضب سمى حلا ويضاده التذمر وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدور وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتمان السر وسمى صاحبه كتوما وإن كان عن فضول الغيش سمى زهدا ويضاده

(١) حديث أنا وكافل اليتيم كهاتين البخارى من حديث سهل بن سعد وتقدم .

ولاخواننا الذين -
الآية ثم - ربنا عليك
توكلنا - ثم سرب اغفر
لى ولوالدى ولمن دخل
بيتى مؤمنا وللمؤمنين
والمؤمنات ولا تزد
الظالمين إلا تبارا -
مهما يصل فليقرأ بهذه
الآيات وبالحفاظه على
هذه الآيات فى الصلاة
مواظبا للقلب واللسان
يوشك أن يرقى إلى
مقام الاحسان ولورد
فرد آية من هذه فى
ركعتين من الظهر أو
الصبر كان فى جميع
الوقت مناجيا لمولاه
وداعيا وتاليا ومصليا
والدؤوب فى العمل
واستيعاب أجزاء النهار
بلذادة وحلاوة من
غير سامة لا يصح

الحرس وإن كان صبرا على قدر يسير من الحفظ سمي قناعة وبضاده الشراء فأكثر أخلاق
الايان داخل في الصبر ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الايمان قال «هو الصبر» لأنه أكثر
أعماله وأعزها كما قال «الحج عرفه» (١) وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى
- والصابرين في البأساء - أي الضيقة - والضراء - أي الفقر - وحين البأس - أي المحاربة - وأولئك
الذين صدقوا وأولئك هم المتفون - فاذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ومن يأخذ المعاني من
الأسامي يظن أن هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها من حيث رأى الأسامي مختلفوا الذي
يسلك الطريق للمستقيم وينظر بنور الله يحفظ للمعاني أو لا يقطع على حقائقها ثم يلاحظ الأسامي
فإنها وضعت دالة على المعاني فالمعاني هي الأصول والألفاظ هي التوابع ومن يطلب الأصول من التوابع
لا بد وأن يزل وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى - أفمن ينشئ مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي
سويا على صراط مستقيم - فإن الكفار لم يخلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانكسارات ، نسأل
الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه .

(بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف)

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال : أحدها أن يقهر داعي الهوى فلا يتبع
له قوة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر وعند هذا يقال من صبر ظفر والواصلون إلى هذه الرتبة
هم الأقلون فلا جرم هم الصديقون القريبون الذين قالوا ربنا أقمهم استقاموا فهو لاء لازموا الطريق
للمستقيم واستووا على الصراط القويم واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين وإياهم ينادى النادى
- يا أيها النفس الطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية . الحالة الثانية أن تغلب دواعي الهوى
وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ولا يجاهد ليأسه من المهادنة
وهؤلاء هم العاقلون وهم الأكثرون وهم الذين استترقهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فكروا
أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله وإيهم الإشارة بقوله تعالى
- ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين -
وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخرت صفقتهم وقيل لمن قصد إرشادهم - فأعرض عنهم
تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم - وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط
والفرور بالأمانى وهو غاية الحق كما قال صلى الله عليه وسلم «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد
الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله» (٢) وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال أنا مشتاق
إلى التوبة ولكنها قد تعذرت على فقلت أطمع فيها أولم يكن مشتاقا إلى التوبة ولكن قال إن
الله غفور رحيم كريم فلا حاجة به إلى توبتي وهذا السكين قد صار عقله رقيقا لشهوته فلا يستعمل
عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته قد صار عقله في يد شهواته كسلم
أسير في أيدي الكفار فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الحمور وحملها ومعه عند الله تعالى
محل من يقهر مسلما ويسلمه إلى الكفار ويجعله أسيرا عندهم لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر
ما كان حقه أن لا يستسخر وسلط ماحقه أن لا يتسلط عليه وإنما استحق المسلم أن يكون متسلطا
لما فيه من معرفة الله وبعث الدين وإنما استحق الكافر أن يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل
بالدين وبعث الشياطين وحق للمسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه فهما سخر المعنى الشريف

إلا بعد تزكت نفسه
بكمال التقوى
والاستتفاء في الزهد
في الدنيا واتزج منه
متابعة الهوى ومتى بقي
على الشخص من
التقوى والزهد والهوى
بقية لا يدوم روحه في
المعمل بل ينشط وقنا
ويأس وقنا ويتناوب
النشاط والكسل فيه
لبقاء متابعه شيء من
الهوى بنقصان تقوى
أوجبة دنيا وإذا صح
في الزهد والتقوى فإن
ترك العمل بالجوارح
لا يضر عن العمل بالقلب
فمن رام دوام الروح
واستحلاء الدؤوب في
المعمل فعليه بحسب مادة
الهوى والهوى روح
النفس لا يزول ولكن

(١) حديث الحج عرفة أصحاب السنن من حديث عبد الرحمن بن يعمر وتقدم في الحج

(٢) حديث الكيس من دان نفسه الحديث تقدم في ذم الفرور .

الذي هو من حزب الله وجند للملائكة للمعنى الخسيس الذي هو من حزب الشياطين البعدين عن الله تعالى كان كمن أرق مسلماً لكافر بل هو كمن قصد الملك النعم عليه فأخذ أعز أولاده وسله إلى أبض أعدائه فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجاب له نعمته لأن الهوى أبض إله عبد في الأرض عند الله تعالى والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض . الحالة الثالثة أن يكون الحرب سجلاً بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه وهذا من المجاهدين يعد مثله لامن الظافرين وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم هذا باعتبار القوة والضعف وينتظر إليه أيضاً ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه : فانه إما أن يطلب جميع الشهوات أو لا يطلب شيئاً منها أو يطلب بعضها دون بعض وتزبل قوله تعالى - خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً - على من هجر عن بعض الشهوات دون بعض أولى والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقاً يشبهون بالأغنام بل هم أضل سبيلاً إذ البهيمة لم تخلق لها للبرقة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات وهذا قد خلق ذلك له وعطله فهو الناقص حقاً المدبر يقينا ولذلك قيل :

فلم أر في عيوب الناس عيباً كنعص القادريين على التمام

ويتقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بمجد جهيد وتصبر شديد ويسمى ذلك تصبراً وإلى ما يكون من غير شدة تصب بل يحصل بأدنى تحمل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر وإذا دامت التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسن تيسر الصبر ولذلك قال تعالى - فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسر - ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره فإن الرجل القوي يقدر على أن يصرع الضيف بأدنى حملة وأيسر قوة بحيث لا يلقاه في مصارعة إعياء ولا لقوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا يتعب ومزيد جهد وعرق جبين فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين و باعث الهوى فانه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين ومهما أذعنت الشهوات واقمعت وتسلط باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول اللواظبة أورت ذلك مقام الرضا كما سيأتي في كتاب الرضا فالرضا أعلى من الصبر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اعبد الله على الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير (١) » وقال بعض العارفين أهل الصبر على ثلاثة مقامات : أولها ترك الشهوة وهذه درجة التائبين . وثانيها الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين . وثالثها المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين وسنبين في كتاب المحبة أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر وكان هذا الانقسام يجرى في صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا . واعلم أن الصبر أيضاً ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض وتقل ومكروه ومحرم . فالصبر عن المحظورات فرض وعلى المكروه نقل والصبر على الأذى المحظور محظور كمن تقطع يده أو يده ولده وهو يصبر عليه ساكناً وكن يقصد حرمة بشهوة محظورة قبيح غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة ويسكت على ما يجرى على أهله فهذا الصبر محرم والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع يحكم الصبر فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يخيل إليك أن جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

(يان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغنى عنه في حال من الأحوال)

اعلم أن جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين : أحدهما هو الذي يوافق هواه .

(١) حديث اعبد الله على الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير الترمذي من

حديث ابن عباس وقد تقدم .

نزول متابعته والنبي
عليه السلام ما استعاذ
من وجود الهوى
ولكن استعاذ من
متابعته فقال « أعوذ
بك من هوى متبع »
ولم يستعذ من وجود
الشح فانه طبيعة
النفس ولكن استعاذ
من طاعته فقال « وشح
مطاع » ودقائق متابعة
الهوى تتبين على قدر
صفاء القلب وعلو الحال
فقد يكون متبعاً للهوى
باستعلاء مجالسة الخلق
ومكالمهم أو النظر
إليهم وقد يتبع الهوى
بتجاوز الاعتدال في
النوم والأكل وغير
ذلك من أقسام الهوى
المتبع وهذا شغل من
ليس له شغل إلا في الدنيا

والآخر هو الذي لا يوافق بل يكرهه وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما فهو إذن لا يستغنى قط عن الصبر . النوع الأول : ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها للباحة منها أخرجه ذلك إلى البطر والظنيان فإن الإنسان ليظن أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن والعوافي لا يصبر عليها إلا صديق . وقال سهل : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء . ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضوا الله عنهم قالوا ابتلينا بختة الضراء فصبونا وابتلينا بختة السراء فلم نصبر ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله - وقال عز وجل - إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم - وقال صلى الله عليه وسلم « الولد مبخلة مجبنة محزنة (١) » . « ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضي الله عنه يتعثر في قيصره نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال صدق الله - إنما أموالكم وأولادكم فتنة - إنى لما رأيت ابني يتعثر لم أملك نفسي أن أخذته (٢) » . ففى ذلك عبرة لأولى الأبصار فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولا ينهمك في التعم واللذة واللهو واللعب وأن يرعى حقوق الله في ماله بالاتفاق وفي بدنه ببذل العونة للخلق وفي لسانه ببذل الصدق وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر كما سيأتى وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة ومن العصمة أن لا تقدر والصبر على الحجابة والفصد إذا تولاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها فهذا عظمت فتنة السراء . النوع الثانى ما لا يوافق الهوى والطبع وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصى أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب أولا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتسنى من المؤذى بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام : القسم الأول ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التى توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان . الضرب الأول : الطاعة والعبد محتاج إلى الصبر عليها فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تفر عن العبودية وتشتهى الربوبية ولذلك قال بعض العارفين ما من نفس إلا وهى مضرة ما أظهره فرعون من قوله - أنا ربكم الأعلى - ولكن فرعون وجدله مجالاً وقبولاً فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه وما من أحد إلا وهو يدعى ذلك مع عبده وخدمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته وإن كان ممتناً من إظهاره فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم فى خدمته واستبداده ذلك ليس صدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية فى رداء الكبرياء؛ فاذن العبودية شاقة على النفس مطلقاً ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة ومنها ما يكره بسببهما جميعاً كالحج والجهاد فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد ومحتاج للطبع إلى الصبر على طاعته فى ثلاث أحوال : الأولى قبل الطاعة وذلك فى تصحيح النية والاحتمال والصبر عن شوائب الرياء

ثم يصلى العبد قبل العصر أربع ركعات فإن أمكنه تجديد الوضوء لكل فريضة كان أكمل وأتم ولو اغتسل كان أفضل فكل ذلك له أثر ظاهر فى تنوير الباطن وتكميل الصلاة ويقرأ فى الأربع قبل العصر إذا زلزلت والمعاديات والقارعة والمهاكم ويصلى العصر ويحجل من قراءته فى بعض الأيام والسماء ذات البروج ومممت أن قراءة سورة البروج فى صلاة العصر أمان من الدماميل ويقرأ بعد العصر ما ذكرنا من الآيات والداو وما يتيسر له من ذلك فإذا صلى

(١) حديث الولد مجبنة مبخلة محزنة أبو يعلى اللؤلؤى من حديث أبى سعيد وتقدم (٢) حديث لما نظر إلى ابنه الحسن يتعثر فى قيصره نزل عن المنبر الحديث أصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا الحسن والحسين وقال الترمذى حسن غريب .

ودواعي الآفات وعقد العزم على الاخلاص والوفاء وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والاخلاص وآفات الرياء ومكاييد النفس ، وقد نبه عليه صلوات الله عليه إذ قال « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » (١) وقال تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - ولهذا قسم الله تعالى الصبر على العمل ، فقال تعالى - إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات - الحالة الثانية : حالة العمل كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله ولا يتكامل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلزم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ ، وهذا أيضا من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى - نعم أجر العاملين الذين صبروا - أي صبروا إلى تمام العمل . الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر إليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره كما قال تعالى - ولا تبطلوا أعمالكم - وكما قال تعالى - لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى - فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى قد أبطل عمله . والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعا وقد جمعهما الله تعالى في قوله - إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى - فالعدل هو الفرض ، والاحسان هو النفل ، وإيتاء ذى القربى هو الروءة وصلة الرحم وكل ذلك محتاج إلى صبر . الضرب الثانى للمعاصى لها أحوج العبد إلى الصبر عنها ، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصى في قوله تعالى - وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى - وقال صلى الله عليه وسلم « المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه » (٢) والمعاصى مقتضى باعث الهوى . وأشد أنواع الصبر عن المعاصى الصبر عن المعاصى التى صارت مألوفاً بالعادة فإن العادة طبيعة خامسة ذات انصاف العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها ، ثم إن كان ذلك القمع مما يتيسر فله كان الصبر عنه أثقل على النفس كالصبر عن معاصى اللسان من الغيبة والكذب والراء والثناء على النفس تعريضا وتصريحا . وأنواع للزح اللؤذى للقلوب وضروب الكلمات التى يقصدها الأرزاء والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علوهم وسيرهم ومناصبهم فإن ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس فللنفس فيه شهوتان : إحداها نفي القبر والأخرى إثبات نفسه وبها تم له الربوية التى هى في طبعه ، وهى ضد ما أمر به من العبودية ولا اجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتادا في المحاورات يعسر الصبر عنها ، وهى أكبر الموبقات حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الأئس بها فترى الانسان يلبس حريرا مثلا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ماورد في الخبر « من أن الغيبة أشد من الزنا ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه المزلة والانفراد » (٣) فلا ينجيه غيره فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصى باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها وأيسر من حركة اللسان حركة الحواطر باختلاج الوسوس فلا جرم يبقى

العصر ذهب وقت التنفل بالصلاة وبقي وقت الأذكار والتلاوة وأفضل من ذلك مجالسة من يزهد في الدنيا ويسد كلامه عرا التقوى من الطاعة الزاهدين التسكلمين بما يقوى عزائم المؤمنين فإذا صحت نية القائل والمستمع فهذه المجالسة أفضل من الانفراد والمداومة على الأذكار وإن عدت هذه المجالسة وتصدرت فليتروح بالتنقل في أنواع الأذكار وإن كان خروجه لحوائجه وأمر معاشه في هذا الوقت يكون أفضل وأولى من خروجه

(١) حديث إنما الأعمال بالنيات متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم (٢) حديث المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه ابن ماجه بالشرط الأول والنسائي في الكبرى بالشرط الثانى كلاهما من حديث فضالة بن عبيد باسنادين جيدين وقد تقدم (٣) حديث إن الغيبة أشد من الزنا تقدم في آفات اللسان .

حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلاً إلا بأن يطلب على القلب ثم آخر في الدين يستغرقه كمن أصبح وهمومه ثم واحد وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه . القسم الثاني ما لا يرتبط بهجومه باختياره وله اختيار في دفعه كالأذى الذي يفعل أو قول وجب عليه في نفسه أو ماله ، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا وتارة يكون فضيلة . قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : ما كنا نعدّ إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى ، وقال تعالى - ولنصبرن على ما آذيتونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون - « وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا ، فقال بعض الأعراب من المسلمين هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحمرّت وجنتاه ثم قال يرحم الله أخى موسى لقد أذى بأكثر من هذا فصر^(١) » وقال تعالى - ودع أذاهم وتوكل على الله - وقال تعالى - واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا - وقال تعالى - ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك - الآية وقال تعالى - ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور - أى تصبروا عن المكافأة ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصص وغيره فقال تعالى - وإن عاقبتهم فعاقبوا بمنزل ما عاقبتهم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين - وقال صلى الله عليه وسلم « صل من قطعك وأعط من حرمك وأعف عمن ظلمك^(٢) » ورأيت في الإنجيل قال عيسى ابن مريم عليه السلام لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن والأقف بالأقف وأنا أقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الأيمن فحول إليه الخد الأيسر ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك ومن سخرك لتسير معه ميلا فسر معه ميلين وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى ، فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعا . القسم الثالث : ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره كالمصاب مثل موت الأعرز وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء وبالجملة سائر أنواع البلاء فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر . قال ابن عباس رضى الله عنهما : الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة وصبر على الصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهى من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم . فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين فإن ذلك شديد على النفس ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أسألك من اليقين ما تهون على به مصائب الدنيا^(٣) » فهذا صبر مستنده حسن اليقين . وقال أبو سليمان والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره وقال النبي صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة في بدنه أو ماله أو أولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحيت منه يوم القيامة أن أنصب ميزانا أو أنشر له ديوانا^(٤) »

في أول النهار ولا يخرج من المنزل إلا وهو على الوضوء . وكره جمع من العلماء تحية الطهارة بعد صلاة العصر وأجازة المشايخ والصالحون ويقولون كلما خرج من منزله بسم الله ماشاء الله حسي الله لاقوة إلا بالله ، اللهم إليك خرجت وأنت أخرجتني ؛ وليقرأ الفاتحة للمؤذنين ولا بدع أن يتصدق كل يوم بما يتيسر له ولو ثمرة أو لقمة فإن القليل بحسن النية كثير . وروى أن عائشة رضى الله عنها أعطت السائل

(١) حديث قسمه مرة مالا وقول بعض الأعراب هذه قسمة ما أريد بها وجه الله الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم (٢) حديث صل من قطعك الحديث تقدم (٣) حديث أسألك من اليقين ما تهون به على مصائب الدنيا الترمذي والنسائي والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وحسنه الترمذي وقد تقدم في الدعوات (٤) حديث قال الله إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة في بدنه أو ماله أو أولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل الحديث ابن عدى من حديث أنس بسند ضعيف .

وقال صلى الله عليه وسلم « انتظار الفرج بالصبر عبادة (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى - إنا لله وإنا إليه راجعون - اللهم أوجرنى في مصيبي وأعقبني خيرا منها إلا فعل الله به ذلك (٢) » وقال أنس حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل قال يا جبريل ماجزاه من سلبت كريمته قال سبحانه لا أعلم لنا إلا ما علمتنا قال تعالى جزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل إذا ابتليت عبدي بيلا فصر ولم يشكني إلى عواده أبدته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه فإذا برأته أبرأته ولا ذنب له وإن توفيته فإلى رحمتي (٤) » وقال داود عليه السلام : يارب ماجزاه الحزين الذي يصبر على الصائب ابتلاء مرضاتك قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أتزعه عنه أبدا. وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خطبته ما أنتم الله على عبد نعمة فأنزعها منه وعوضه منها الصبر إلا كان ما عوضه منها أفضل مما أنزع منه وقرأ - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - وسئل فضيل عن الصبر فقال هو الرضا بقضاء الله ، قيل وكيف ذلك ؟ قال الرضا لا يتعنى فوق منزلته ، وقيل حبس الشبلي رحمه الله في السارستان فدخل عليه جماعة فقال من أتم قالوا أجاؤك جاء وكذا زأرين فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي ، وكان بعض العارفين في جيه رقعة يخرجها كل ساعة ويطلعها وكان فيها - وأصبر لحكم ربك فانك ! ميتنا - ويقال إن امرأة فتحت اللوصلي عثرت فاقطع ظفرها فضحكت فقيل لها أما تعبدن الوجع فقالت إن لمة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجهه ، وقال داود لسليمان عليهما السلام يستدل على تقوى المؤمن بثلاث حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قد نال وحسن الصبر فيما قد فات . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجمك ولا تذكر مصيبتك (٥) » وروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوما وفي كفه صرة فافتقدها فإذا هي قد أخذت من كفه فقال بارك الله له فيها لعله أحوج إليها منى وروى عن بعضهم أنه قال مررت على سالم مولى أبي حذيفة في القتلى وبه رمق فقلت له أسقك ماء فقال جرتي قليلا إلى العدو واجمل الماء في الترس فإني صائم فان عشت إلى الليل شربته فهكذا كان صبر السالكى طريق

(١) حديث انتظار الفرج بالصبر عبادة القضاعى في مسند الشهاب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة من حديث على دون قوله بالصبر وكذلك رواه أبو سعيد المالبني في مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضيفة وللمزمذى من حديث ابن مسعود أفضل العبادة انتظار الفرج وتقدم في الدعوات (٢) حديث مامن عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله - إنا لله وإنا إليه راجعون - الحديث مسلم من حديث أم سلمة (٣) حديث أنس إن الله قال يا جبريل ماجزاه من سلبت كريمته الحديث الطبراني في الأوسط من رواية أبي ظلال القسطلي واسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخارى بلفظ إن الله عز وجل قال إذا ابتليت عبدي بحبيتيه فصر عوضته منهما الجنة رواه ابن عدي وأبو يعلى بلفظ إذا أخذت كريمتى عبدي لم أرض له ثوبا دون الجنة قلت يارسول الله وإن كانت واحدة قال وإن كانت واحدة وفيه سعيد بن سليم قال ابن عدي ضيف (٤) حديث يقول الله إذا ابتليت عبدي بيلا فصر ولم يشكني إلى عواده أبدته لحما خيرا من لحمه الحديث مالك في الموطأ من حديث عطاء بن يسار عن أبي سعيد انتهى وعبد بن كثير ضعيف ورواه البيهقي موقوفا على أبي هريرة (٥) حديث من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجمك ولا تذكر مصيبتك لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبي الدنيا في الرضا والسكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال من الصبر أن لا تتحدث بمصيبتك ولا بوجحك ولا تزكى نفسك .

عنة واحدة وقالت إن فيها لتأقيل ذر كثير . وجاء في الخبر « كل امرئ يوم القيامة تحت ظل صدقته » ويكون من ذكره من العصر إلى المغرب مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من قال ذلك كل يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحبت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد . بأفضل مما جاء به

الآخرة على بلاء الله تعالى . فان قلت فياذا تنال درجة الصبر في الصائب وليس الأم را إلى اختياره فهو مضطر شاه أم أبي فان كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية الصيبة فذلك غير داخل في الاختيار . فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الحدود وبالبلغة في الشكوى وإظهار الكآبة وتغيير العادة في اللبس والمفرش والمطم وهذه الأمور داخلة تحت اختياره فينبغي أن يختب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمرا على عادته ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت كما روى عن الرميضاء أم سليم رحمها الله أنها قالت توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقممت فسجيت في ناحية البيت فقدم أبو طلحة فقممت فبأت له إبطاره فجعل يأكل فقال كيف الصبي قلت بأحسن حال بحمد الله ومنه فانه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب منى حاجته ثم قلت ألا تعجب من جيراننا قال ما لهم قلت أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا فقال بئس ما صنعوا فقلت هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وإن الله قد قبضه إليه فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال اللهم بارك لهما في ليلتهما (١) قال الراوي فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرءوا القرآن ، وروى جابر أنه عليه السلام قال رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميضاء امرأة أبي طلحة ، وقد قيل الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب الصيبة من غيره ولا يخرج به عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء ولأن البكاء توجع القلب على الميت فان ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الانسان إلى الموت ولذلك لمسامات إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له « أما نهيتنا عن هذا فقال إن هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » بل ذلك أيضا لا يخرج عن مقام الرضا فالقدم على الحجامة والقصدا مرض به وهو متألم بسببه لا محالة وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه وسيأتي ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله تعالى ، وكتب ابن أبي نجيب يعزى بعض الخلفاء إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبواه له . واعلم أن الساضي قبلك هو الباقي لك والباقي بعدك هو المأجور فيك . واعلم أن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه فاذن مهمادفع الكراهة بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين ، نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب ، وقد قيل من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة فقد ظهر لك بهذه التسميات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال فان الذي كفى الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغنى عن الصبر على العزلة والاشفراد ظاهرا وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا فان اختلاج الحواطر لا يسكن وأكثر جولان الحواطر إنما يكون في فائت لا تدارك له وفي مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدر فهو كيفما كان تضييع زمان وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره فاذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة بحبة الله تعالى فهو مغبون هذا إن كان فكره ووساوسه في المباحات مقصورا عليه ولا يكون ذلك غالبا بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات إذ لا يزال ينازع كل من تحرك على خلاف غرضه في جميع عمره أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه بظهور أماره له منه بل يقدر التحالفه من أخلص الناس في حبه حتى في أهله وولده ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتهللون به

(١) حديث الرميضاء أم سليم توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقممت فسجيت في ناحية البيت الحديث طلب ومن طريقه أبو نعيم في الحلية والقصة في الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف .

إلا أحد عمل أكثر من ذلك ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين فقد ورد أن من قال في يومه مائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين لم يعمل أحد في يومه أفضل من عمله ويقول مائة مرة سبحان الله والحمد لله والكلمات ومائة مرة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وبحمده أستغفر الله ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين ومائة مرة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ومائة مرة أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة ومائة

في محالته ولا يزال في شغل دائم فلا شيطان جندان جندي بطير و جندي سير والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار وهذا لأن الشيطان خلق من النار وخلق الانسان من صلصال كالفخار والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة فلا يتصور نار مشتملة لا تتحرك بل لا تزال تتحرك بطبيعتها وقد كلف الملعون المخلوق من النار أن يطمن عن حر كته ساجدا لما خلق الله من الطين فأبى واستكبر واستعصى وعبر عن سبب استعصائه بأن قال - خلقتني من نار وخلقته من طين - فاذن حيث لم يسجد للملعون لأبينا آدم صلوات الله عليه وسلامه فلا ينبغي أن يطعم في سجوده لأولاده ومهما كف عن القلب وسواه وعدوانه وطيранه وجولانه فقد أظهر اتياده وإذعانه واتياده بالاذعان سجود منه فبوروح السجود وإتمامه الجبهة على الأرض قلبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح ولو جعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصور ذلك كما أن الانبطاح بين يدي العظم المحترم يرى استخفافا بالمادة فلا ينبغي أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح وتشر اللب عن اللب فتكون عن قبه عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب وتحقق أن الشيطان من النظيرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبح وهو ملك هم واحد فتشغل قلبك بالله وحده فلا يعبد الملعون مجالا فيك فصد ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا الامين ولا تظن أنه مخلو عنه قلب فارغ بل هو سيال مجرى من ابن آدم مجرى الدم وسيلانه مثل الهواء في القدر فانك إن أردت أن تخلو القدر عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو غيره فقد طمعت في غير مطعم بل بقدر ما تخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة فكذلك القلب المشغول بفكر مهم في الدين لا تخلو عن جولان الشيطان وإلا فمن غفل عن الله تعالى ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان ولذلك قال تعالى - ومن يبش عن ذكر الرحمن قبض له شيطانا فهو له قرين - وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يقبض الشاب الفارغ (١)» وهذا لأن الشاب إذا تطل عن عمل يشغل باطنه يباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغا ولم يبق قلبه فارغا بل يعيش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ ثم تزوج أفرأخه أيضا وتبيض مرة أخرى وتفرخ وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالت أسرع من توالت سائر الحيوانات لأن طبعه من النار وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالت فلا يزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع البتة بل تسرى شيئا فشيئا على الاتصال فالشهوة في نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار وكما لا يبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة فاذا تأملت علمت أن أعدى عدوك شهوتك وهي صفة نفسك ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج حين كان يصلب وقد سئل عن التصوف ما هو فقال هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك فاذا حقيقة الصبر وكاله الصبر عن كل حركة مذمومة وحر كة الباطن أولى بالصبر عن ذلك وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت نسأل الله حسن التوفيق بئنه وكرهه .

(بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه)

اعلم أن الذي أزل الداء أزل الدواء ووعد الشفاء فالصبر وإن كان شاقا أو ممتنا فتحصيله ممكن بصحون العلم والعمل فالعلم والعمل هما الأخلاط التي منها تر كب الأدوية لأمراض القلوب كلها ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آحر وعمل آحر وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها واستيقاض ذلك عما يطول

(١) حديث إن الله يقبض الشاب الفارغ لم أجده .

ولكننا نعرف الطريق في بعض الأمثلة . فنقول إذا افتقر الى الصبر عن شهوة الوقاع مثلا وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ لا تزال تحدته بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن الواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة . فنقول قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى وكل متصارعين أردنا أن يقلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر فلزمننا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة فأما باعث الشهوة فميسل تضعيفه ثلاثة أمور : أحدها أن ننظر إلى مادة قوتها وهي الأغذية الطيبة المهركة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الافطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه فيحترز عن اللحم والأطعمة اللذيذة للشهوة . الثاني قطع أسبابه الهيجة في الحال فانه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهة والفرار منها بالكيفية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النظره سهم مسموم من سهام إبليس ^(١) » وهو سهم يسده للمعون ولا ترس يمنع منه إلا التعميض الأحقان أو الحرب من صوب رمية فانه إنما يرمى هذا السهم عن قوس الصور فإذا انقلبت عن صوب الصور لم يصيبك سهمه . الثالث تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهي وذلك بالنكاح فان كل ما يشتهي الطبع في الباحات من جنسه ما يفتنى عن المحظورات منه وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر فان قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ثم قد لا يقع الشهوة في حق أكثر الرجال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعله بالصوم فان الصوم له وجاء ^(٢) » فهذه ثلاثة أسباب فالعلاج الأول وهو قطع الطعام يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضارى ليضعف فتسقط قوته . الثاني يضاهي تقييد اللحم عن الكلب وتضييب الشعير عن البهيمة حتى لا يتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها . والثالث يضاهي تسليتها بشئ قليل مما يميل إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب . وأما تقوية باعث الدين فاعلم ان تكون بطريقتين أحدهما إطعامه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة وفي الأثر: إن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة إذ فاته ما لا يبقى معه لإمداد الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر ومن أسلم خسيسا في نفيس فلا يفتنى أن يحزن لفوات الحسيس في الحال وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان فتارة يضعف وتارة يقوى فان قوى قوى باعث الدين وهيجه تهيجا شديدا وإن ضعف ضعفه وإتعا قوة الإيمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لمزجة الصبر وأقل ما أوتى الناس اليقين وعزيمة الصبر والثاني أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا قليلا قليلا حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجري عليها وتقوى منته في مصارعها فان الاعتاد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال ولذلك تزيد قوة الحالمين والفلاحين والقاتلين وبالجملة تقوية الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والطارئين والفقهاء والصالحين وذلك لأن قوامهم لم يتأكدا بالممارسة فالعلاج الأول يضاهي أطماع المصارع بالحمامة عند الغلبة ووعده بأنواع الصكرامة كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه بإمام موسى حيث قال - وإنكم إذا لمن القربين - والثاني يضاهي تمويد الصبي

(١) حديث النظره سهم مسموم من سهام إبليس تقدم غير مرة (٢) حديث عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعله بالصوم الحديث تقدم في النكاح .

صبغان من لا يشغله شأن عن شأن صبغان الله الختان النان صبغان الله السبغ في كل مكان . روى أن بعض الأبدال بات على شاطئ البحر فسمع في هذه الليل هذا التسبيح فقال من الذي أسمع صوته ولا أرى شخصه فقال أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر أسبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت فقلت ما اسمك فقال مهلبيا نسل قلت ما ثواب هذا التسبيح قال من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له . وروى أن عثمان رضى

الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ويستجري عليه وتقوى فيه منته فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وإن ضعف ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاءه وإنما أشدها كلف الباطن عن حديث النفس وإنما يشتد ذلك على من تفرغ له بأن تقع الشهوات الظاهرة وآثر المزلة وجلس للمراقبة والله كره الفكر فان الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب وهذا لا علاج له البتة إلا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة بهم ثم كل ذلك لا يكفي ما لم تصر الممومهما واحدا وهو الله تعالى ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسير الباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينبغي إلا الأوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة من القراءة والأذكار والصلوات ومحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور فان الفكر بالباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها إذ لا يغلو في جميع أوقاته عن حوادث تتجدد فتشغله عن الفكر والتذكر من مرض وخوف وإيذاء من إنسان وطغيان من مخالط إذ لا يستغنى عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب المعيشة فهذا أحد الأنواع الشاغلة . وأما النوع الثاني فهو ضروري أشد ضرورة من الأول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب العاش فان تهيئة ذلك أيضا تتحوج إلى شغل إن تولاه بنفسه وإن تولاه غيره فلا يغلو عن شغل قلب ممن يتولاه ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم عليه أو واقعة في تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر وينكشف فيه من أسرار الله تعالى في ملكوت السموات والأرض ما لا يقدر على عشر عشره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق والاتهاء إلى هذا هو أقصى المقامات التي يمكن أن تتال بالاكْتساب والجهد فأما مقادير ما ينكشف ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى في الأحوال والأعمال فذلك يجري مجرى الصيد وهو بحسب الرزق فقديرا بل الجهد ويحل الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ والمولود راء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فانها توازي أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد ، نعم اختيار العبد في أن يتعرض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا فان المهدوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى عليين وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب إليها فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله **يُتَّقِ اللَّهَ** « إن لم يكن في أيام دهركم نفحات ألا تعرضوا لها » وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية إذ قال الله تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وهذا من أعلى أنواع الرزق والأمور السماوية غائبة عنا فلا ندري متى يبسر الله تعالى أسباب الرزق لما علينا إلا تفريغ المهل والانتظار لتزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذي يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ويبت البذر فيها وكل ذلك لا ينفعه إلا بغير ولا يدري متى يقدر الله أسباب المطر إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه يغلي سنة عن مطر فكذلك لما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذرفه بذر الإرادة والاخلاص وعرضه لمهاب رياح الرحمة كما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعند اجتماع المهم وتساعد القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان فان المهم والأفئاس أسباب بحكم تقدير الله تعالى لاستدبار رحمته حتى

الله عنه سأل رسول
الله صلى الله عليه وسلم
عن تفسير قوله تعالى
- له مقاليد السموات
والأرض - فقال سألتني
عن شيء عظيم ما سألتني
غيرك هو لا إله إلا الله
والله أكبر وسبحان الله
والحمد لله ولا حول
ولا قوة إلا بالله عز وجل
وأستغفر الله الأول
الآخر الظاهر الباطن
له الملك وله الحمد لله
الخبر وهو على كل شيء
قدير من قالها عشرا
حين يصبح وحين
يمسي أعطى ست خصال
فأول خصلة أن يحرس
من إبليس وجنوده
الثانية أن يعطي قنطارا
من الأجر الثالثة يرفع
له درجة في الجنة

تستدر بها الأمطار في أوقات الاستسقاء، وهي لاستدراز أمطار الكاشفات ولطائف المعارف من خزائن
 الملكوت أشد مناسبة منها لاستدراز قطرات الماء واستجرار القيوم من أقطار الجبال والبحار بل
 الأحوال والكاشفات حاضرة معك في قلبك وإنما أنت مشغول عنها بملاتك وشهواتك فصار ذلك
 حجبا بينك وبينها فلا تحتاج إلا إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من
 باطن القلب واطهار ماء الأرض بحجر القى أسهل وأقرب من استرسال إليها من مكان بعيد منخض عنها
 ولكونه حاضرا في القلب ومنسيا بالثبيل عنه صمى الله تعالى جميع معارف الايمان تذكرا فقال تعالى
 - إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون - وقال تعالى - ولتذكروا لو الألباب - وقال تعالى - ولقد
 يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر - فهذا هو علاج الصبر عن الوسواس والشواغل وهو آخر درجات
 الصبر وإنما الصبر عن العلائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر . قال الجنيد رحمه الله السير من الدنيا
 إلى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق في حب الحق شديد والسير من النفس إلى الله تعالى صعب
 شديد والصبر مع الله أشد فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق وأشد العلائق
 على النفس علاقة الخلق وحب الجاه فان لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللذات في
 الدنيا على نفوس العقلاء وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية
 والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة لأموال الربوبية وعنه العبارة بقوله تعالى
 - قل الروح من أمر ربي - وليس القلب مذموما على حبه ذلك وإنما هو مذموم على غلط وقوعه بسبب
 تقرير الشيطان العيين للبعد عن عالم الأمر إذ حسده على كونه من عالم الأمر فأضله وأغواه وكيف يكون
 مذموما عليه وهو يطلب سعادة الآخرة فليس يطلب إلا بقاءه لافناء فيه وعزا لادله فيه وأمانا لا خوف فيه
 وغنى لا فقر فيه وكلا لا نقصان فيه وهذه كلها من أوصاف الربوبية وليس مذموما على طلب ذلك بل
 حق كل عبد أن يطالب ملكا عظيما لا آخر له وطالب الملك طالب للعلو والمزوال كمال لا محالة ونسكن الملك
 مكان ملك مشوب بأنواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو في الدنيا وملك يحلده
 دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ولا يقطع قاطع ولكنه آجل وقد خلق الانسان محجورا لراغب في العاجلة فجاء
 الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة التي في طبعه فاستغوا بالعاجلة وزين له الحاضرة وتوسل إليه بواسطة
 الحق فوعده بالغرور في الآخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة كما قال عليه السلام « والأحمق من أتبع نفسه
 هواها وتحنى على الله الأمانى » فأنخدع المخذول بغروره واشتغل بطالب عز الدنيا وملكها على قدر إمكانه ولم
 يتدل الموفق بحبل غروره إذ علم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة فصبر عن المخذولين بقوله تعالى - كلا
 بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة - وقال تعالى - إن هؤلاء يحبون العاجلة ويندرون وراءهم يوما
 تقيلا - وقال تعالى - فأعرض عنهم تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم -
 ولما استطار مكر الشيطان في كافة الخلق أرسل الله الملائكة إلى الرسل وأوحوا إليهم ماتم على الخلق
 من إهلاك العدو وإغوائه فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقي عن الملك المجازي الذي لا أصل
 له إن سلم ولا دوام له أصلا فنادوا فيهم - يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم اتقوا في سبيل
 الله اتا قلمت إلى الأرض أرضنتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل -
 فالتوراة والإنجيل والزرور والفرقان وصحف موسى وإبراهيم وكل كتاب منزل ما أنزل إلا لدعوة
 الخلق إلى الملك الدائم الخلد والبراد منهم أن يكونوا ملوكا في الدنيا ملوكا في الآخرة أما ملك الدنيا
 فالزهد فيها والقناعة باليسير منها وأما ملك الآخرة فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لافناء فيه وعزا
 لاذل فيه وقررة عين أخفيت في هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس والشيطان يدعوهم إلى ملك
 الدنيا لمعلمه بأن ملك الآخرة يفوت به إذ الدنيا والآخرة ضربتان ولعلمه بأن الدنيا لا تسلم له أيضا

الرابعة يزوجه الله من
 الحور العين الخامسة
 اثنا عشر ملكا
 يستغفرون له السادسة
 يكون له من الأجر كمن
 حج واعتبر ويقول
 أيضا في هذا الوقت وفي
 أول النهار اللهم أنت
 خلقتني وأنت هديتني
 وأنت تطعنتني وأنت
 تسقىني وأنت تميئني
 وأنت تحيي أنت ربي
 لا رب لي سواك ولا
 إله إلا أنت وحدك
 لا شريك لك ويقول
 ماشاء الله لا قوة إلا بالله
 ماشاء الله كل نعمة
 من الله ماشاء الله الخير
 كله يد الله ماشاء الله
 لا يصرف السوء إلا الله
 ويقول حسبي الله لا إله
 إلا هو عليه توكلت

ولو كانت تسلّم له لكان يحسده أيضاً ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المازعات والسكدرات وطول المعلوم في التدبيرات وكذا سائر أسباب الجاه ثم مهما تسلّم وتمت الأسباب ينقض العمر - حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس - فضرب الله تعالى لها مثلاً فقال تعالى - واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح - والزهد في الدنيا لما أن كان ملكاً حاضراً حسده الشيطان عليه فصدّه عنه ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حراً وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبداً لفرجه وبطنه وسائر أغراضه فيكون مسخراً مثل البهيمة مملوكاً يستجره زمام الشهوة أخذاً بحجته إلى حيث يزيد ويهوى فما أعظم افتقار الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكاً وينال الربوبية بأن يصير عبداً ومثل هذا هل يكون إلا معكوساً في الدنيا منكوساً في الآخرة ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد هل من حاجة؟ قال كيف أطلب منك حاجة ومسكى أعظم من ملكك فقال كيف قال من أنت عبده فهو عبدى فقال كيف ذلك قال أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك وقد ملكك هؤلاء كلهم فهم عبيدى فهذا إذن هو الملك في الدنيا وهو الذى يسوق إلى الملك في الآخرة فالخادعون بفرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعاً والدين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعاً فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ومدخل الغلط في ذلك وكيفية تعمية الشيطان وتلبسه يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه والاعراض عنه والصبر عند فواته إذ تصير بتركه ملكاً في الحال وترجوه ملكاً في الآخرة ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف بل لابد وأن يضيف إليه العمل وعمله في ثلاثة أمور: أحدها أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الأسباب كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الأرض إذ قال تعالى - ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها - الثاني أن يكلف نفسه في أعماله أفعالاً تخالف ما اعتاده فيبدل التكلف بالتبذل وزى الحشمة بزى التواضع وكذلك كل هيئة وحال وفعل في مسكن ومابس ومطعم وقيام وقعود كان يتأده وفاء بمقتضى جاهه فينبغي أن يبذلها بتواضع حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياده ضد فلامعنى للمعالجة إلا المصادمة - الثالث أن يراعى في ذلك التلطف والتدرج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل فإن الطبع تقور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدرج فيترك البعض ويسلى نفسه ببعض ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض إلى أن يقنع بالبقية وهكذا يفعل شيئاً فشيئاً إلى أن يجمع تلك الصفات التي رسخت فيه وإلى هذا التدرج الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله فإن النبات لا أرضاً تقطع ولا ظهراً أبقى»^(١) وإليه الإشارة بقوله عليه السلام «لا تشادوا هذا الدين فإن من شاده يظلمه»^(٢) فاذا نزل ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربيع المهلكات فأتخذه دستوراً لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التي فصلناها من قبل فان تفصيل الأحاد يطول ومن راعى التدرج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر

(١) حديث إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق الحديث أحمد من حديث أنس والبيهقي من حديث جابر وتقدم في الأوراد (٢) حديث لا تشادوا هذا الدين فإنه من شاده يظلمه تقدم فيه .

وهو رب العرش العظام
ثم يستعد لاستقبال
الليل بالوضوء والطهارة
ويقرا المسببات قبل
الغروب ويديم
التسبيح والاستغفار
بحيث تغيب الشمس
وهو في التسبيح
والاستغفار ويقرا عند
الغروب أيضاً والشمس
والليل والموذنين
ويستقبل الليل كما
استقبل النهار قال الله
تعالى - وهو الذى
جعل الليل والنهار خلفه
لمن أراد أن يذكر أو
أراد شكوراً - فكما
أن الليل يعقب النهار
والنهار يعقب الليل
ينبغي أن يكون العبد
بين الذكر والشكر
يعقب أحدهما الآخر

دونه كما كان يشق عليه الصبر معه فتعكس أموره فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوتاً وما كان مكروهاً عنده مشرباً هنيئاً لا يصبر عنه وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والتدبير وله نظير في العادات فإن الصبر يحمل على التعلم في الابتداء فقرأ فيشقى عليه الصبر عن اللب والصبر على اللب وإلى هذا يشير ماجي عن بعض العارفين أنه سأل الشبلي عن الصبر أيه أشد ؟ قال الصبر في الله تعالى قال لا يقال الصبر لله قال لا قال الصبر مع الله قال لا يقال فلا يش ؟ قال الصبر عن الله فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف . وقد قيل في معنى قوله تعالى - اصبروا وصابروا ورابطوا - اصبروا في الله وصابروا بالله ورباطوا مع الله وقيل الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء وقد قيل في معناه :

والصبر عنك لدموم عواقبه والصبر في سائر الأشياء محمود
وقيل أيضاً: الصبر يعمل في للواطن كلها إلا عليك فإنه لا يعمل
هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسواره .

الشرط الثاني من الكتاب في الشكر ، وله ثلاثة أركان

الأول : في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه . الثاني : في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعمامة . الثالث : في بيان الأفضل من الشكر والصبر .

الركن الأول في نفس الشكر

(بيان فضيلة الشكر)

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالله كرم في كتابه مع أنه قال - ولله أكبر - فقال تعالى - فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون - وقال الله تعالى - ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم - وقال تعالى - وسنجزى الشاكرين - وقال عز وجل إخباراً عن إبليس الهمين - لأقصدن لهم صراطك المستقيم - قيل هو طريق الشكر ولعلو رتبة الشكر طعن الهمين في الخلق قال : ولا تجحدوا كثرتهم شاكرين وقال تعالى - وقليل عن عبادي الشكور - وقد قطع الله تعالى بالزيد مع الشكر ولم يستثن قال تعالى - لئن شكرتم لأزيدنكم - واستثنى في خمسة أشياء في الاغناء والاجابة والرزق والنفرة والتوبة قال تعالى - سوف ينبيكم الله من فضله إن شاء - وقال فيكشف مات دعون إليه إن شاء - وقال : يرزق من يشاء بغير حساب وقال : ويغفر مادون ذلك لمن يشاء وقال : ويتوب الله على من يشاء وهو خلق من أخلاق الربوبية إذ قال تعالى - والله شكور حلیم - وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة قال تعالى - وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده - وقال - وآخر دعوانم أن الحمد لله رب العالمين - وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر (١) » وروى عن عطاء أنه قال « دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت أخبريني بأحب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسكت وقالت وأی شأنه لم يكن عجبا أنا في ليلة فدخل معي في فراشي أو قالت في الحافي حتى مس جلدي فقلت ثم قال يا ابنة أبي بكر ذريتي أتجد لربي قالت قلت إني أحب قربك لكني أوترهوا فكأذنت له فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء ثم قام يصلي فيسكت حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فسجد فيسكت ثم رفع رأسه فسجد فيسكت فلم يزل كذلك يسكت حتى جاء بلاء فأذنه بالصلاة فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر قال أفلاأكون عبدا شكورا ولم لأفضل ذلك

(١) حديث الطغام الشاكر بمنزلة الصائم الصابر علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه وابن ماجه

وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنان في إسناده اختلاف .

ولا يتخللها شيء كما
لا يتخلل بين الليل
والتهارشي والذكر
جميعه أعمال القلب
والشكر أعمال
الجوارح قال الله تعالى
- عملوا آل داود
شكرا - والله الموفق
المعين .

[الباب الحادي
والحسون في آداب
الريذة مع الشيخ]
أدب الريدين مع
الشيخ عند الصوفية
من مهام الآداب
وللقوم في ذلك اقتداء
برسول الله صلى الله
عليه وسلم وأصحابه
وقد قال الله تعالى
- يا أيها الذين آمنوا
لا تقدموا بين يدي الله
ورسوله واتقوا الله إن

وقد أنزل الله تعالى طى - إن في خلق السموات والأرض - (١) الآية وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبدا وإلى هذا السر يشير ما روى أنه مر بعض الأنبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتسحب منه فأنطقه الله تعالى فقال منذ سمعت قوله تعالى - وقودها الناس والحجارة - فأنا أبكي من خوفه فسأله أن يجبره من النار فأجاره ثم رآه بعد مدة طى مثل ذلك فقال لم تبكي الآن فقال ذلك بكاء الحوف وهذا بكاء الشكر والسرور وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال الحوف والشكر جميعا . وروى عنه عليه السلام أنه قال « ينادى يوم القيامة ليقم الحمدون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة قيل ومن الحمدون قال الذين يشكرون الله تعالى طى كل حال (٢) » وفي لفظ آخر « الذين يشكرون الله طى السراء والضراء » وقال صلى الله عليه وسلم « الحمد رداء الرحمن (٣) » وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام إنى رضيت بالشكر مكافأة من أوليائى فى كلام طويل وأوحى الله تعالى إليه أيضا فى صفة الصابرين أن دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام وعند الشكر أستزيدهم وبالنظر إلى أزيدهم ولما نزل فى الكدور ما نزل . قال عمر رضى الله عنه « أى اللال تتخذ فقال عليه السلام ليتخذ أحدكم لسانا ذا كرا وقلبا شاكرا (٤) » فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلا عن اللال . وقال ابن مسعود الشكر نصف الإيمان .

(بيان حد الشكر وحقته)

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين وهو أيضا ينتظم من علم وحال وعمل فالعلم هو الأصل في ورث الحال والحال يورث العمل ، فأما العلم فهو معرفة النعمة من النعم والحال هو الفرح الحاصل بانعامه والعمل هو القيام بما هو مقصود النعم ومحبوبه ويتعلق ذلك العمل بالقلب والجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الاحاطة بحقيقة الشكر فان كل ما قيل فى حد الشكر قاصر عن الاحاطة بكامل معانيه . فالأصل الأول : العلم وهو علم بثلاثة أمور بين النعمة ووجه كونها نعمة فى حقها وبذات النعم ووجود صفاته التى بها يتم الانعام ويصدر الانعام منه عليه فانه لا بد من نعمة ومنعم ومنعم عليه تصل إليه النعمة من النعم بقصد وإرادة فهذه الأمور لابد من معرفتها هذا فى حق غير الله تعالى فأما فى حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو النعم والوسائط من سخرن من جهته وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها بل الرتبة الأولى فى معارف الإيمان التقديس ثم إذا عرف ذاتا مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس وهو التوحيد ثم يعلم أن كل ما فى العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط فالكل نعمة منه فتقع هذه المعرفة فى الرتبة الثالثة إذ ينطوى فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والافتراد بالفعل وعن هذا عبر

(١) حديث عطاء دخلت طى عائشة فقلت لها أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت وأى أمره لم يكن عجبا الحديث فى بكائه فى صلاة الليل أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب أخلاق رسول الله عليه السلام ومن طريقه ابن الجوزى فى الوفاء وفيه أبو جناب واسمه يحيى بن أبى حبة ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان فى صحيحه من رواية عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء دون قولها وأى أمره لم يكن عجبا وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتضرا على آخر الحديث (٢) حديث ينادى يوم القيامة ليقم الحمدون الحديث الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بلفظ أول من يدعى إلى الجنة الحمدون الحديث وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور (٣) حديث الحمد رداء الرحمن لم أجده لأصلا فى الصحيح من حديث أنى هريرة السكبر رداؤه الحديث وتقدم فى العلم (٤) حديث عمر ليتخذ أحدكم لسانا ذا كرا وقلبا شاكرا الحديث تقدم فى الشكاح .

الله صبيح عليم - .
روى عن عبد الله بن الزبير قال قدم وفد طى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني تميم فقال أبو بكر أمر القمقاع بن معبد وقال عمر بل أمر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر ما أردت إلا خلافى وقال عمر ما أردت خلافتك قهاريا حتى ليرتقت أصواتهما فأنزل الله تعالى علىها الذين آمنوا - الآية قال ابن عباس رضى الله عنهما لا تقدموا لا تتكلموا بين يدي كلامه وقال جابر كان ناس يضعون قبل رسول الله قهوا عن تقديم الأضحية طى

رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله (٢) » وقال « ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله (٣) » ولا تظن أن هذه الحسنات يازاء عمريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب فسبحان الله كلمة تدل على التمجيس ولا إله إلا الله كلمة تدل على التوحيد والحمد لله كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق فالحسنات يازاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين. واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الأفعال ، فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلا في تيسير ذلك وإيصاله إليه فهو إشراك به في النعمة فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه بل منه بوجه ومن غيره بوجه فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحدا في حق الملك ، نعم لا يفيض من توحيده في حق الملك وكما شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبه بقلمه وبالكاغد الذي كتبه عليه فإنه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرها لأنه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك وقد يعلم أن الوكيل الموصل والحازن أيضا مضطربان من جهة الملك في الإيصال وأنه لو رد الأمر إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاب وأمر جزم يخاف عقابته لما سلم إليه شيئا فاذا عرف ذلك كان نظره إلى الحازن الموصل كمنظره إلى القلم والكاغد فلا يورث ذلك شركا في توحيده من إضافة النعمة إلى الملك وكذلك من عرف الله تعالى وعرف أفضاله علم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره كالقلم مثلا في يد الكاتب وأن الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها فان الله تعالى هو السالط للدواعي عليها لتفعل شاءت أم أبت كالحازن المضطرب الذي لا يجد سبيلا إلى مخالفة الملك ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما في يده فكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطرب إذ سلط الله عليه الإرادة وهيج عليه الدواعي وألقى في نفسه أن خيره في الدنيا والآخرة أن عطيك ما أعطاك وأن غرضه المقصود عنده في الخلق والمآل لا يحصل إلا به وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلا إلى تركه فهو إذن إنما يعطيك لمرض نفسه لا لمرضك ولو لم يكن غرضه في العطاء ما أعطاك ولو لم يعلم أن منفعة في منفعتك لما نفعك فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفسك فليس منكما عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخرك وألقى في قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطربا إلى الإيصال إليك فان عرفت الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله وكنت موحدا وقدرت على شكره بل كنت بهذه العرفة بمجرد ما شاكرنا ولذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته: إلهي خلقت آدم بيديك وفضلت فضلك فكيف شكرتك فقال الله عز وجل اعلم أن كل ذلك مني فكانت معرفته شكرا فاذا لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه فان خالجت ريب في هذا لم تكن عارفا بالنعمة ولا بالمنعم فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره فينقص معرفتك بنقص حالك في الفرح وينقص فرحك بنقص عملك فهذا بيان هذا الأصل. الأصل الثاني: الحال المستمدة من أصل للعرفة وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع وهو أيضا في نفسه

رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كان قوم يقولون لو أنزل في كذا وكذا فكره الله ذلك وقالت عائشة رضي الله عنها أي لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم . وقال الكلبى لا تسبقوا رسول الله يقول ولا فضل حتى يكون هو الذي يأمركم به وهكذا أدب الريد مع الشيخ أن يكون مسلوب الاختيار لا يتصرف في نفسه وماله إلا بمرأعة الشيخ وأمره وقد استوفينا هذا المعنى في باب المشيخة وقيل لا تقدموا لا تعشوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى

(١) حديث من قال سبحان الله فله عشر حسنات الحديث تقدم في الدعوات (٢) حديث أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله الترمذى وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر (٣) حديث ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله لم أجدهم رفوعا وإنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر عن ابراهيم النخعي يقال إن الحمد أكثر الكلام تضييفا .

شكر على تجرّده كما أن العرفة شكر ولكن إنما يكون شكرا إذا كان حاويا شرطه، وشرطه أن يكون فرحك بالنعمة ولا بالإنعام ، ولعل هذا مما يتعذر عليك فهبه فنضرب لك مثلا فنقول: الملك الذي يريد الخروج إلى سفر فأنعم بفرس على إنسان يتصور أن يفرح النعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه : أحدها أن يفرح بالفرس من حيث إنه فرس وإنه مال ينتفع به ومر كوب يوافق غرضه وإنه جواد نقيس وهذا فرح من لاحظ له في الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجدته في صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح . الوجه الثاني أن يفرح به لامن حيث إنه فرس بل من حيث يستدل به على عناية الملك به وشقيقته عليه واهتمامه بجانبه حتى لو وجد هذا الفرس في صحراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلا لاستغنائاه عن الفرس أصلا أو استحقاقه له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل في قلب الملك . الوجه الثالث أن يفرح به ليركبه ليخرج في خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه وربما يرتقى إلى درجة الوزارة من حيث إنه ليس يقنع بأن يكون محله في قلب الملك أن يحطيه فرسا ويعتني به هذا القدر من العناية بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطته ، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة أيضا بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب فهذه ثلاث درجات ، فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلا لأن نظر صاحبها تصور على الفرس فقرحه بالفرس لا بالمعنى ، وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر ، والثانية داخلية في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالنعمة ولكن لامن حيث ذاته بل من حيث معرفة عنيته التي تستحقه على الإنعام في المستقبل ، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه وإنما الشكر التام في الفرح الثالث ، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدرها على التوصل إلى القرب منه تعالى والذبول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام فهذا هو الرتبة العليا . وأمارة أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للأخرة ويعنيه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سيده لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيفة كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهلج بل من حيث إنه يحمله في محبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه ، ولذلك قال الشبلي رحمه الله : الشكر رؤية النعم لا رؤية النعمة . وقال الحواص رحمه الله : شكر العامة على الطعام والملبس والشرب ، وشكر الخاصة على واردات القلوب وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب فان القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفة ولفائه وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحلي الأشياء المرة كما قيل :

ومن يك ذا فم صرّ مريض يجد مرّا به الماء الزلالا

فاذن هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى ، فان لم تكن إبل فتمزي ، فان لم يكن هذا فالدرجة الثانية . أما الأولى فخارجة عن كل حساب فكمن من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه . الأصل الثالث : العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة النعم وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح . أما بالقلب فقصد الخير وإضاره لكافة الخلق . وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه . وأما بالجوارح : فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقى من

أبو الدرداء قال كنت
أمتى أمام أبي بكر
فقال لي رسول الله
صلى الله عليه وسلم
تمتني أمام من هو خير
منك في الدنيا والآخرة
وقيل نزلت في أقوام
كانوا يحضرون
مجلس رسول الله
صلى الله عليه وسلم
فاذا سئل الرسول
عليه السلام
عن شيء خاضوا فيه
وتقدموا بالقول
والفتوى فموا عن
ذلك وهكذا أدب
لاريد في مجلس الشيخ
ينبغي أن يلزم السكوت
ولا يقول شيئا يحضرته
من كلام حسن إلا
إذا استأمر الشيخ
ووجد من الشيخ
فسحة له في ذلك وشأن

الاستعانة بها على مصيئته حتى إن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء والشكر باللسان لاظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به فقد قال صلى الله عليه وسلم لرجل «كيف أصبحت قال بخير فأعاد صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال صلى الله عليه وسلم هذا الذي أردت منك (١)» وكان السلف يتساءلون وبنيتهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعا والمستنطق له به مطيعا وما كان تصدق الرياء باظهار الشوق وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين وكيف لا تتبع الشكوى من ملك للملوك ويده كل شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء إلا أخرى بالعبء إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى فهو البلى والقادر على إزالة البلاء وذلك الصبر لمولاه عز والشكوى إلى غيره ذلك وإظهار النذل للعبء مع كونه عبدا مثله ذلك قبيح قال الله تعالى - إن الذين تعبدون من دون الله لا يمكنون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له - وقال تعالى - إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - فالشكر باللسان من جملة الشكر . وقد روى أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقام شاب ليتكلم فقال عمر الكبر الكبر فقال يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسنة لكان في المسلمين من هو أسن منك فقال تكلم فقال لنا وقد الرغبة ولا وقد الرغبة أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك وأما الرغبة فقد آمننا منها عدلك وإيماننا نحن وفدا الشكر جثناك فشكرتك باللسان وتصرف . فهذه هي أصول معاني الشكر الهيطة بمجموع حقيقته . فأما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة النعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب . وقول من قال إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه نظر إلى مجرد عمل اللسان وقول القائل إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة جامع لأكثر معاني الشكر لا يشذ منه إلا عمل اللسان وقول حمدون القصار شكر النعمة أن ترى نفسك في الشكر طفيليا إشارة إلى أن معنى المعرفة من معاني الشكر فقط وقول الجنيد الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص وهؤلاء أحوالهم تعرب عن أحوالهم فذلك يختلف أجوبتهم ولا يتفق ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالا بما همهم عمالهم أو يتكلمون بما يرونه لائقا بحال السائل اقتضارا على ذكر القدر الذي يحتاج إليه وإعراضا عما لا يحتاج إليه فلا ينبغي أن تظن أن ما ذكرناه طعن عليهم وأنه لو عرض عليهم جميع المعاني التي شرحناها كانوا ينكرونها بل لا يظن ذلك بما قبل أصلا إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ في أن اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني أم يتناول بعضها مقصودا وبقية المعاني تكون من توابعه ولو أزمه ولنا قصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء والله الموفق برحمته .

للريد في حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقا يساق إليه فطلعه إلى الاستماع وما يرزق من طريق كلام الشيخ يحقق مقام إرادته وطلبه واستزادته من فضل الله وتطلعه إلى القول بوجهه عن مقام الطلب والاستزادة إلى مقام إثبات شيء لنفسه وذلك جنابة للريد . وينبغي أن يكون تطلعه إلى مبهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال باللسان في حضرة الشيخ بل يادته بما يريد لأن الشيخ يكون مستنطقا نطقه بالحق

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم لرجل كيف أصبحت فقال بخير فأعاد السؤال حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال هذا الذي أردت منك الطبراني في الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعا نحوه قال في الثالثة أحمد الله وهذا معضل ورواه في المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال أحمد الله إليك وفيه راشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه ورواه مالك في الموطأ موقوفا على عمر باسناد صحيح .

(بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى)

لذلك يحظر بياك أن الشكر إنما يعقل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر فانا نشكر للوكل إما بالثناء ليزيد محلم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم أو بالخدمة التي هي إغاثة لهم على بعض أغراضهم أو بالثول بين أيديهم في صورة الخدم وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشيء من ذلك وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين: أحدهما أن الله تعالى منزّه عن الحظوظ والأغراض مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإغاثة وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والإطراء وعن تكثير سواد الخدم بالثول بين يديه ركما سجدا فشكرنا إياه بما لاحظ له فيه ضاهى شكرنا الملك للتم علينا بأن تام في يوتنا أو نسجد أو نركع إذ لاحظ للملك فيه وهو غائب لاعلم له ولا حظ لله تعالى في أفعالنا كلها. الوجه الثاني أن كل ما تعطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعتنا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة نعمة ولو أعطانا الملك مركوبا فأخذنا مركوبا آخر له وربناه أو أعطانا الملك مركوبا آخر لم يكن الثاني شكر الأول منا بل كان الثاني يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدي إلى أن يكون الشكر محالا في حق الله تعالى من هذين الوجهين ولسنا نشك في الأمرين جميعا والشكر قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع . فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر له أو دعه عليه السلام وكذلك لموسى عليه السلام فقال يارب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك وفي لفظ آخر وشكرى لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتني وفي خبر آخر إذا عرفت أن النعمة مني رضيت منك بذلك شكرا . فان قلت فقد فهمت السؤال وفهمى قاصر عن إدراك معنى ما أوحى إليهم فاني أعلم استحالة الشكر لله تعالى فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه فان هذا العلم أيضا نعمة منه فكيف صار شكرا وكان الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر وأن قبول الخلة الثانية من الملك شكر للخلة الأولى والفهم قاصر عن درك السر فيه فان أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه . فاعلم أن هذا قرع باب من المعارف وهي أعلى من علوم الماملة ولكننا نشير منها إلى ملامح وشول ههنا نظران نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يعرفك قطعاً أنه الشاكر وأنه المشكور وأنه المحب وأنه المحبوب وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره وأن كل شيء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق في كل حال أزلا وأبداً لأن الغير هو الذي يتصور أن يكون له بنفسه قوام ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال أن يوجد إذ الوجود المحقق هو القائم بنفسه وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره فان اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود البتة وإنما للوجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقى موجودا فان كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ولا قيوم إلا واحد ولا يتصور أن يكون غير ذلك فاذن ليس في الوجود غير الحى القيوم وهو الواحد الصمد فاذا نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحب وهو المحبوب ومن ههنا نظر حبيب بن أبي حبيب حيث قرأ - إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب - فقال وأعجباه أعطى وأثنى إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى فهو المثنى وهو المثنى عليه ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهني حيث قرىء بين يديه - يحبه ويحبونه - فقال لعمرى يحبه ودعه يحبه

وهو عند حضور
الصادقين يرفع قلبه
إلى الله ويستعظم
ويستسقى لهم فيكون
لسانه وقلبه في القول
والنطق مأخوذ من إلى
مهم الوقت من أحوال
الطالبين المحتاجين إلى
ما يفتح به عليه لأن
الشيخ يعلم تطلع
الطالب إلى قوله
واعتداده بقوله
والقول كالبذر يقع في
الأرض فاذا كان
البذر فاسدا لا ينبت
وفساد الكلمة بدخول
الهوى فيها فالشيخ
ينقى بئر الكلام عن
شوب الهوى ويسلمه
إلى الله ويسأل الله
المعونة والسداد ثم يقول
فيكون كلامه بالحق

فبحق يحبهم لأنه إنما يحب نفسه أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب وهذه رتبة عالية لانضمامها إلا بمثال على حد عقلك فلا يخفى عليك أن المصنف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه والصانع إذا أحب صنعه فقد أحب نفسه والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه وكل ما في الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنعه فإن أحبه فما أحب إلا نفسه وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب وهذا كله نظر بين التوحيد وتعبير الصوفية عن هذه الحالة ببناء النفس أي فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير إلا الله تعالى فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول كيف فنى وطول ظله أريية أذرع ولعله يأكل في كل يوم أرطالا من الحبز فيضحك عليهم الجبال لجهلهم بمآلى كلامهم وضرورة قول المارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين وإليه الإشارة بقوله تعالى - إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهم وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين - ثم بين أن ضحك المارفين عليهم غدا أعظم إذ قال تعالى - فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون - وكذلك أمة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة قال - إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون - فهذا أحد النظريين . النظر الثاني نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسما قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب سبده وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعمام في كلتا العينين لأنهم نقوا ماهو الثابت تحقيقا وهو القيوم الذى هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقامم به ولم يقتصر واطى هذا حتى أثبتوا أنفسهم ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم م لا يثبت لهم ولا وجود لهم وإنما وجودهم من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا وفرق بين الوجود وبين الموجد وليس في الوجود إلا الموجود واحد وموجد فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو الموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان وإذا كان كل من عليها فان فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام . الفريق الثاني ليس بهم عمى ولكن بهم عور لأنهم يصرون بأحدى العينين وجود للوجود الحق فلا ينكرونه واليمين الأخرى إن تم عمالها لم يصير بها فناء غير الوجود الحق فأثبت موجودا آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقا كما أن الذى قبله جاحد تحقيقا فان جاوز حد العمى إلى العمى أدرك تفاوتنا بين الوجودين فأثبت عبدا وربا فهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الوجود الآخر دخل في حد التوحيد ثم إن كحل بصره بما يزيد في أنواره فيقل عمشه ويقدر ما يزيد في بصره يظهره نقصان ما أثبتته سوى الله تعالى فان بقى في سلوكه كذلك فلا يزال يفضى به النقصان إلى المحو فينمحي عن رؤية ماسوى الله فلا يرى إلا الله فيكون قد بلغ كمال التوحيد وحيث أدرك قصا في وجود ماسوى الله تعالى دخل في أوائل التوحيد وبينهما درجات لا تحصى فهذا تفاوت درجات الموحدين وكتب الله المنزلة على ألسنة رسله هي الكحل الذى به يحصل أنوار الأبصار والأنبياء هم الكحالون وقد جاءوا داعين إلى التوحيد المحض وترجمته قول لا إله إلا الله ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأتلون والجاحدون والمشركون أيضا قليلون وهم على الطرف الأقصى المقابل لاطرف التوحيد إذ عبدة الأوثان قالوا - ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى - فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولا ضعيفا والتوسطون هم الأكثرون وفيهم من تفتتح بصبره في بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا ولكن لا يدوم والهوام فيه عزيز :

من الحق الحق فالشيخ
لمريدين أمين الإلهام
كما أن جبريل أمين
الوحي فكما لا يخون
جبريل في الوحي
لا يخون الشيخ في
الإلهام وكما أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
لا ينطق عن الهوى
فالشيخ مقتد برسول
الله صلى الله عليه وسلم
ظاهرا وباطنا لا يتكلم
بهوى النفس . وهوى
النفس في القول
بشيئين : أحدهما طلب
استجلاب القلوب
وصرف الوجوه إليه
وما هذا من شأن
الشيخ . والثاني ظهور
النفس باستحلاء
الكلام والمعبود ذلك
خيانة عند المحققين

لكلّ إلى شأو الملا حر كات ولكن عزيز في الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب قبيل له - واسجد واقرب - قال في سجوده « أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ^(١) » فقوله صلى الله عليه وسلم « أعوذ بعفوك من عقابك » كلام عن مشاهدة فعل الله فقط فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله فاستعاذ بفعله من فعله ثم اقرب ففنى عن مشاهدة الأفعال وترقى إلى مصادر الأفعال وهي الصفات فقال « أعوذ برضاك من سخطك » وهما صفتان ثم رأى ذلك تقصانا في التوحيد فاقرب ورتقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال « وأعوذ بك منك » وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفة ولكنه رأى نفسه فاراً منه إليه ومستعيذا ومثنيا ففنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك تقصانا واقرب فقال « لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » فقوله صلى الله عليه وسلم « لأحصى » خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها وقوله « أنت كما أثنيت على نفسك » يبان أنه المثني والثني عليه وأن الكل منه بدا وإليه يعود وأن - كل شيء - هالك إلا وجهه - فكان أول مقاماته نهاية مقامات اللوحدين وهو أن لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله فيستعبد بفعل من فعله فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى يبدأ بالاضافة إلى الثانية فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك تصافى سلوكه وتقصيرا في مقامه وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم واليلة سبعين مرة ^(٢) » فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقاما بعضها فوق البعض أو لها وإن كان مجاوزا أقصى غايات الخلق ولكن كان تقصانا بالاضافة إلى آخرها فكان استغفاره لذلك، ولما قالت عائشة رضي الله عنها « أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فها هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد قال أفلا أكون عبدا شكورا ^(٣) » مضاء أفلا أكون طالبا للزيد في القامات فان الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى - لئن شكرتم لأزيدنكم - وإذا تفلطنا في بحار للكاشفة فلتقبض العنان ، ولترجع إلى ما يليق معلوم العاملة ، فنقول : الأنبياء عليهم السلام بعثوا الدعوة للخلق إلى كمال التوحيد الذي وصفناه ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة وإنما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر في ذلك التمام بالاضافة إلى تلك المشاهدة الشكر والشاكر والشكور ولا يعرف ذلك إلا بمثال ، فأقول : يمكنك أن تفهم أن ملكا من الملوك أرسل إلى عبد قد بد منه مراكوبا وملبوسا وهذا لأجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ثم يكون له حالتان : إحداها أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ويكون له عناية في خدمته ، والثانية أن لا يكون للملك حظ في العبد ولا حاجة به إليه بل حضوره لا يزيد في ملكه

(١) حديث قال في سجوده أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك الحديث مسلم من حديث عائشة أعوذ برضاك من سخطك وبمافاتك من عقوبتك الحديث (٢) حديث إنه ليغان على قلبي الحديث تقدم في التوبة وقبله في الدعوات (٣) حديث عائشة لما قالت له غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فها هذا البكاء الحديث رواه أبو الشيخ وهو بنية حديث عطاء عنها المتقدم قبل هذا بتسعة أحاديث وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصرا وكذلك هو في الصحيحين مختصرا من حديث المفيرة بن شعبة .

والشيخ فيها يجرى على لسانه راقد النفس تشطه مطالمة نعم الحق في ذلك فاقد الحظ من فوائد ظهور النفس بالاستحلاء والعجب فيصكون الشيخ لما يجربه الحق سبحانه وتعالى عليه مستمعا كأحد السمعين وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله يشكك مع الأصحاب بما يلقى إليه وكان يقول أنا في هذا الكلام مستمع كأحدكم فأشكل ذلك على بعض الحاضرين وقال إذا كان القائل هو يعلم ما يقول كيف يكون كستمع لا يعلم حتى يسمع منه فرجع إلى منزله فرأى ليلته

لأنه لا يقوى على القيام بخدمة تفي فيه غناء وغيبته لاتقص من ملكه فيكون قصد من الإنعام عليه بالمركوب والزيد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا ينتفع الملك به وبانتفاعه فنزل العباد من الله تعالى في المنزلة الثانية لافي المنزلة الأولى فان الأولى محال على الله تعالى والثانية غير محال . ثم اعلم أن العبد لا يكون شاكرًا في الحالة الأولى بمجرد الركوب والوصول إلى حضرته مالم يتم بخدمته التي أرادها الملك منه . وأما في الحالة الثانية فلا يحتاج إلى الخدمة أصلاً ومع ذلك يتصور أن يكون شاكرًا وكافرًا ويكون شكره بأن يستعمل ما أنعم الله عليه مولاه فيما أحبه لأجله للأجل نفسه وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطيه أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه فهم البس العبد الثوب وركب الفرس ولم ينفق الزاد إلا في الطريق فقد شكره مولاه إذ استعمل نعمته في محبته: أي فيما أحبه لعبده لأنفسه وإن ركب واستدبر حضرته وأخذ يمد منه فقد كفر نعمته: أي استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لأنفسه وإن جلس ولم يركب لافي طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضًا نعمته إذ أهملها وعطلها وإن كان هذا دون ما لو بعد منه فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال السموات لتكمل بها أبدانهم فيبعدون بها عن حضرته تعالى عما سادتهم في القرب منه فأعد لهم من النعم ما يقدر على استعماله في نيل درجة القرب وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى إذ قال - لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا - الآية فاذن نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب والله تعالى غني عنه قرب أم بعد والعبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه وبين أن يستعملها في معصيته فقد كفر لانتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له فان الله لا يرضى لعباده الكفر والعصية وإن عطلها ولم يستعملها في طاعة ولا معصية فهو أيضًا كفران للنعمة بالتضييع وكل ما خلق في الدنيا إما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الأسباب التي استعملها في الطاعة وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعملها في طريق البعد فهو كافر جار في غير محبة الله تعالى فالمعصية والطاعة تشملهما الشبهة ولكن لا تشملهما المحبة والكرهية بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه . ووراء بيان هذه الدقيقة سرّ القدر الذي يمنع من إفشائه وقد أحل بهذا الاشكال الأول وهو أنه إذا لم يكن للشكور حظ فكيف يكون الشكر ، وبهذا أيضا نحل الثاني فانالم ننن بالشكر إلا انصراف نعمة الله في جهة محبة الله فاذا انصرفت النعمة في جهة المحبة فعمل الله قد حصل المراد وفعلك عطاء من الله تعالى ومن حيث أنت محلله فقد أنى عليك وثناؤه نعمة أخرى منه إليك فهو الذي أعطى وهو الذي أنى وصار أحد فعليه سببا لانصراف فعله الثاني إلى جهة محبته فله الشكر على كل حال وأنت موصوف بأنك شاكر بمعنى أنك محل المعنى الذي الشكر عبارة عنه لا بمعنى أنك موجب له كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق للعالم وموجده ولكن بمعنى أنك محل له وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك فوصفك بأنك شاكر إثبات شيئية لك وأنت شيء إذ جعلك خالق الأشياء شيئا وإنما أنت لاشيء إذا كنت أنت ظانا لنفسك شيئا من ذاتك فأما باعتبار النظر إلى الذي جعل الأشياء شيئا فأنت شيء إذ جعلك شيئا فان قطع النظر عن جعله كنت لاشيء تحقيقا وإلى هذا أشار صلى الله عليه وسلم حيث قال «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» (١) لما قيل له يا رسول الله فقيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل فتبين أن الخلق مجارى قدرة الله تعالى ومحل أفضاله وإن كانوا هم أيضا من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل لبعض وقوله اعملوا وإن كان جاريا على

في المنام كأن قائله يقول له أليس العواص بعوض في البحر لطلب الدر ويجمع الصدق في مخلاته والدر قد حصل معه ولكن لا يراه إلا إذا خرج من البحر ويشاركه في رؤية الدر من هو على الساحل ففهم بالنام إشارة الشيخ في ذلك فأحسن أدب المرید مع الشيخ السكوت والحمود والجمود حتى يبادئه الشيخ بماله فيه من الصلاح قولاً وفعلًا وقيل أيضا في قوله تعالى - لا تقدموا بين يدي الله ورسوله - لا تطلبوا منزلة وراء منزلته ، وهذا من

(١) حديث اعملوا فكل ميسر لما خلق له متفق عليه من حديث علي وعمران بن حصين .

لسان الرسول صلى الله عليه وسلم فهو فعل من أفعاله وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع وعلمهم فعل من أفعال الله تعالى والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة وإنبعاث الداعية أيضا من أفعال الله تعالى وهو سبب لحركة الأعضاء وهي أيضا من أفعال الله تعالى ولكن بعض أفعاله سبب للبعض أى الأول شرط للثاني كما كان خلق الجسم سببا لخلق العرش إذ لا يخلق العرش قبله وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الإرادة والكل من أفعال الله تعالى وبعضها سبب للبعض : أى هو شرط ومعنى كونه شرطا أنه لا يستعد لقبول فعل الحياة إلا جوهر ولا يستعد لقبول العلم إلا ذو حياة ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم فيكون بعض أفعاله سببا للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أن بعض أفعاله موجب لغيره بل ممهّد شرط للحصول لغيره وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذى ذكرناه . فان قلت فلم قال الله تعالى اعملوا وإلا فأتتم معاقبون مذمومون على العصيان وما إلى الناشئ فكيف نذم وإعما الكل إلى الله تعالى . فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقادنا والاعتقاد سبب لهيجان الخوف وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافى عن دار الغرور ، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها فمن سبق له فى الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة ويعبر عن مثله بأن كلا يسر لما خاق له ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام العلماء فاذا لم يسمع لم يعلم وإذا لم يعلم لم يخف وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقى فى حزب الشيطان وإن جهنم لموعدهم أجمعين ، فاذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب وهو تسليط العلم والخوف عليه وما من مخدول إلا وهو مقود إلى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه فالتقون يساقون إلى الجنة قهرا والمجرمون يقادون إلى النار قهرا ولا قاهر إلا الله الواحد القهار ولا قادر إلا الملك الجبار وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الأمر كذلك سمعوا عند ذلك نداء النادى - لمن الملك اليوم لله الواحد القهار - ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لذلك اليوم على الخصوص ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم ، فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الأحوال حيث لا ينفهم الكشف ، فتعود بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فإنه أصل أسباب الهلاك .

(بيان تميز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه)

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى فى محابه ومعنى الكفر تقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها فى مكارهه وتميز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه مدر كان : أحدهما السمع ومستنده الآيات والأخبار . والثانى بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار وهذا الأخير عسير وهو لأجل ذلك عزيز ، فلذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ومعرفة ذلك تنبى على معرفة جميع أحكام الشرع فى أفعال العباد فمن لا يطالع على أحكام الشرع فى جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلا . وأما الثانى وهو النظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى فى كل موجود خلقه إذ ما خلق شيئا فى العالم إلا وفيه حكمة وتمت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية . أما الجلية فكالملم بأن الحكمة فى خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار فيكون النهار معاشا والليل لباسا فتيسر الحركة عند الإبصار والسكون عند الاستتار فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها

محاسن الآداب
وأعزها وينبغى للمريد
أن لا يحدث نفسه
بطلب منزلة فوق
منزلة الشيخ بل يجب
للشيخ كل منزلة عالية
ويتمنى للشيخ عزيز
النسج وغرائب المواهب
وبهذا يظهر جوهر
الريدى فى حسن الإرادة
وهذا يعزى فى الريدين
فإرادته للشيخ تعطيه
فوق ما يتمنى لنفسه
ويكون قائما بلعب
الإرادة . قال السرى
رحمه الله حسن الأدب
ترجمان العقل . وقال
أبو عبد الله بن حنيف
قال لى رويم يابنى
اجعل عملك ملحا
وأدبك دقيقا ، وقيل
التصوف كله أدب

بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة وكذلك معرفة الحكمة في القيم وزول الأمطار وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعما للخلق ومرعى للأنعام وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجليلة التي تعملها أفهام الخلق دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه إذ قال تعالى - أنا صبينا الماء صبام شققنا الأرض شقا فأنتنا فيها حبا وعنا - الآية . وأما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والثوابت خفية لا يطلع عليها كافة الخلق والقدر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر إليها وأشار إليه قوله تعالى - إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب - فجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمة واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما يعرف حكمها كالعلم بأن العين للإبصار واللبطش واليد للبطش واللمشى والرجل للمشى فالشم فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء والمرارة والكبد والكليتين وآحاد العروق والأعصاب والهضلات وما فيها من التجاوب والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والفظوسائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدرا يسيرا بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى - وما أوتيتهم من العلم الا قليلا - فاذن كل من استعمل شيئا في جهة غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى فمن ضرب غيره يده فقد كفر نعمة اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لايهلك بها غيره ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس إذ الإبصار يتم بهما وإنما خلقتا ليصير بهما ما ينفعه في دينه وديناه ويتقى بهما ما يضره فيهما فقد استعملهما في غير ما أريدتا به وهذا لأن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بهما على الوصول إلى الله تعالى ولا وصول إليه إلا بمحبتته والأنس به في الدنيا والتجافي عن غرور الدنيا ولا أنس إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ولا يبقى البدن إلا بالغذاء ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والماء والهواء ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق سائر الأعضاء ظاهرا وباطنا فكل ذلك لأجل البدن والبدن مطية النفس والراجع إلى الله تعالى هي النفس اللطيفة بطول العبادة والعرفة فلذلك قال تعالى - وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزقي - الآية فكل من استعمل شيئا في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لإقدامه على تلك المعصية . ولنذكر مثلا واحدا للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول : من نعم الله تعالى خلق الدرهم والدنانير وبهما قوام الدنيا وهما حجران لامنفعة في أعيانها ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته وقد يعجز عما يحتاج إليه ويملك ما يستغنى عنه كمن يملك الزعفران مثلا وهو محتاج إلى جمل يركبه ومن يملك الجمل وربما يستغنى عنه ويحتاج إلى الزعفران فلا بد بينهما من معاوضة ولا بد في مقدار العوض من تقدير إذ لا يبدل صاحب الجمل جملة بكل مقدار من الزعفران ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة وكذا من يشتري دارا بثياب أو عبدا بخمف أو دقيقا بحمار فهذه الأشياء لا تناسب فيها فلا يدرى أن الجمل كم يسوى بالزعفران فتعذر للعاملات جدا لافتقرت هذه الأعيان المتنافرة للتباعدة إلى متوسط بينها يحكم فيها بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته ومنزله حتى إذا تقررت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي خلق الله تعالى الدنانير والدرهم حاكين ومتوسطين بين سائر الأموال حتى تقدر الأموال بهما فيقال هذا الجمل يسوى

لكل وقت وأدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب فمن يلزم الأدب يبلغ مبلغ الرجال ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - لا ترضوا أصواتكم فوق صوت النبي - كان ثابت بن قيس بن شماس في أذنه قر وكان جمهوري الصوت فكان إذا كلم اناسا جهر بصوته وربما كان يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته فأزل الله تعالى الآية تأديبا له ونصيره .

مائة دينار وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذن متساويان وإنما أمكن التعديل بالتدوين إذ لا غرض في أعيانها ولو كان في أعيانها غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحاً ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فلا ينتظم الأمر فاذن خلقهما الله تعالى لتداولهما الأبدى ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل والحكمة أخرى وهى التوسل بهما إلى سائر الأشياء لأنهما عزيزان في أنفسهما ولا غرض في أعيانها ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء لا كمن ملك ثوباً فإنه لم يملك إلا الثوب فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأن غرضه في دابة مثلاً فاحتيج إلى شيء هو في صورته كأنه ليس بشيء وهو في معناه كأنه كل الأشياء والشئ إنما تستوى نسبه إلى الختافات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها كالمرأة لا لون لها وتحكى كل لون فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض وكالحرف لا معنى له في نفسه ونظير به المعاني في غيره فهذه هى الحكمة الثانية وفيهما أيضاً حكم يطول ذكرها فكل من عمل فيهما عملاً لا يلبق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما فاذن من كثرهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يتمتع عليه الحكيم بسببه لأنه إذا كثر فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة إذ لا غرض للأحاد في أعيانها فأنهما حجيران وإنما خلقا لتداولهما الأبدى فيكونا حاكمين بين الناس وعلامة معرفة للمقادير مقومة للمراتب فأخبر الله تعالى الذين يسجدون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتومة على صفحات الوجودات بخط إلهى لا حرف فيه ولا صوت الذى لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسوله صلى الله عليه وسلم حتى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذى عجزوا عن إدراكه فقال تعالى - والذين يكفرون الذهب والفضة ولا يتفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباد أليم - وكل من أخذ من الدراهم والدنانير آتية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالاً ممن كثر لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياة والكسب والأعمال التى يقوم بها أخساء الناس والحبس أهون منه وذلك أن الحرف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة في حفظ المائعات عن أن تتبدد وإنما الأواني لحفظ المائعات ولا يكفى الحرف والحديد في المقصود الذى أريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له من شرب في آتية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم^(١) وكل من عامل معاملة الرباطى الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لأنهما خلقا لغيرها لالنفسهما إذ لا غرض في عينهما فإذا أجر في عينهما فقد أخذها مقصوداً على خلاف وضع الحكمة إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشتري به طعاماً ودابة إذ ربما لا يبيع الطعام والدابة بالثوب فهو معذور في بيعه بنقد آخر ليحصل النقد فيتوصل به إلى مقصوده فأنهما وسيلتان إلى الغير لا غرض في أعيانها وموقعهما في الأموال كموقع الحرف من الكلام كما قال النحويون إن الحرف هو الذى جاء للمعنى في غيره وكوقع المرأة من الألوان فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ التعامل على التقدياية عمله فيبقى النقد مقيداً عنده وينزل منزلة الكنوز وتقييد الحاكم والبريد الموصول إلى الغير ظلم

(١) حديث من شرب في آتية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم متفق عليه من حديث أم سلمة ولم يصرح المصنف بكونه حديثاً .

أخبرنا ضياء الدين
عبد الوهاب بن طي
قال أنا أبو الفتح
الهروى قال أنا أبو نصر
الترياقي قال أنا أبو محمد
الجراسي قال أنا
أبو العباس الجبوري
قال أنا أبو عيسى
الترمذي قال ثنا محمد
ابن الشئبى قال ثنا مؤمل
ابن إسماعيل قال ثنا نافع
ابن عمر بن جميل الجهمي
قال حدثني حابس بن
أبي مليكة قال حدثني
عبد الله بن الزبير أن
الأقرع بن حابس قدم
على النبي صلى الله عليه
وسلم فقال أبو بكر
استعمله على قومه فقال
عمر لا تستعمله يا رسول
الله فنهكنا عند النبي
صلى الله عليه وسلم

كما أن حبسه ظلم فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصودا للادخار وهو ظلم . فان قلت : فلم جاز يبيع أحد التقدين بالآخر ولم جاز يبيع الدرهم بمثله . فاعلم أن أحد التقدين يخالف الآخر في مقصود التوصل ، إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدرهم تنفرق في الحاجات قليلا قليلا في المنع منه ما يشوش المقصود الخاص به ، وهو تيسر التوصل به إلى غيره . وأما يبيع الدرهم بدرهم بمثاله فجائز من حيث إن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر فانه عبث يجرى مجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ونحن لانخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه فلا نمنع مما لا تشوق النفوس إليه إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر وذلك أيضا لا يتصور جريانه ، إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الرديء فلا ينتظم العقد وإن طلب زيادة في الرديء ، فذلك مما قد يقصده فلا جرم نمنعه منه ونعكس بأن جيدها ورديتها سواء لأن الجودة والرداءة ينبغي أن ينظر إليهما فيما يقصد في عينه ، وما لا غرض في عينه فلا ينبغي أن ينظر إلى مضافات دقيقة في صفاته وإنما الذي ظلم هو الذي ضرب التقود مختلفة في الجودة والرداءة حتى صارت مقصودة في أعيانها وحقها أن لا تقصد . وأما إذا باع درهما بدرهم مثله نسيته فأنما لم يجز ذلك لأنه لا يقدم على هذا إلا مسامح قاصد الإحسان في القرض وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقى صورة للسامحة فيكون له حمد وأجر . والعارضه لاحد فيها ولا أجر فهو أيضا ظلم لأنه إضاعة خصوص السامحة وإخراجها في معرض المعاوضة وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها أو يتداوى بها فلا ينبغي أن تصرف على جهتها فان فتح باب المعاملة فيها يوجب تقيدها في الأيدي ويؤخر عنها الأكل الذي أريدت له لما خلق الله الطعام إلا ليؤكل والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبغي أن تخرج عن يد المستغنى عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغنى عنها . إذ من معه طعام فلم لا يأكله إن كان محتاجا ولم يحمله بضاعة تجارة وإن جعله بضاعة تجارة فليسه ممن يطلبه بغير الطعام يكون محتاجا إليه . فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضا مستغنى عنه ولهذا ورد في الشرع لمن المحسك وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب ، نعم بائع البر بالتمر معذور إذ أحدهما لا يسد مسد الآخر في الغرض وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه عايب فلا يحتاج إلى منع لأن النفوس لا تسمح به إلا عند التفاوت في الجودة ومقابلة الجيد بمثله من الرديء لا يرضى بها صاحب الجيد . وأما جيد برديئين فقد يقصد ولكن لما كانت الأطعمة من الضروريات والجيد يساوي الرديء في أصل الفائدة ويخالفه في وجوه التمتع أسقط الشرع غرض التمتع فيما هو القوام فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا وقد انكشف لنا هذا بعد الاعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بفن الفقهيات فانه أقوى من جميع ما أوردناه في الخلافات وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعي رحمه الله في التخصيص بالأطعمة دون السكيات إذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه إذ خصه بالأوقات ولكن كل معنى يراه الشرع فلا بد أن يضبط بعد وتحديد هذا كان ممكنا بالقوت وكان ممكنا بالمطعم فראى الشرع التحديد بمجنس المطعم أخرى لكل ما هو ضرورة البقاء وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحد لتخير الخلق في اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص فمعنى المعنى بكال قوته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص فيكون الحد ضروريا فلذلك قال الله تعالى - ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه -

حق علت أصواتها
فقال أبو بكر لعمر
ما أردت إلا خلافي وقال
عمر ما أردت خلافاك
فأنزل الله تعالى الآية
فكان عمر بعد ذلك
إذا تكلم عند النبي
صلى الله عليه وسلم
لا يسمع كلامه حتى
يستفهم . وقيل لما نزلت
الآية آلى أبو بكر أن
لا يتكلم عند النبي
صلى الله عليه وسلم إلا
كأن السرار فهكذا
ينبغي أن يكون المراد
مع الشيخ لا ينسبط
رفع الصوت وكثرة
الضحك وكثرة
الكلام إلا إذا بسطه
الشيخ فرفع الصوت
تنحية جلباب الوقار
والوقار إذا سكن

ولأن أصول هذه المعاني لا تختلف فيها الشرائع وإنما تختلف في وجوه التحديد كما يحشد شرع عيسى ابن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر وقد حده شرعنا بكونه من جنس السكر لأن قليله يدعو إلى كثيره والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم التقدين فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما خلق لحكمة فينبغي أن يصرف عنها ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة ومن يؤث الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا - ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزابل الشهوات وملاعب الشياطين بل لا يتذكر إلا أولو الأبواب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «لولا أن الشياطين محومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء (١)» وإذا عرفت هذا المثال قس عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكوتك وكل فعل صادر منك فانه إما شكر وإما كفر إذ لا يتصور أن ينفك عنها وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي تناطقت به عوام الناس بالكراهة وبعضه بالحظر وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالحظر . فأقول مثلا لو استنجيت باليمنى فقد كفرت نعمة اليمين إذ خلق الله لك اليمين وجعل إحداها أقوى من الأخرى فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل وتفضيل الناقص عدول عن العدل والله لا يأمر إلا بالعدل ثم أحوجك من أعطاك اليمين إلى أعمال بعضها شريف كأخذ للمصنف وبعضها خسيس كإزالة النجاسة فإذا أخذت المصنف باليسار وأزلت النجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بما هو خسيس فضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل وكذلك إذا بصقت مثلا في جهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم لأنه خلق الجهات لتكون متممة في حركتك وقسم الجهات إلى عالم يشرفها وإلى ما شرفها بأن وضع فيها بيتا أضافه إلى نفسه استمالة لقلبك إليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت ربك وكذلك اقتصمت أفعالك إلى ما هي شريفة كالطاعات وإلى ما هي خسيصة كقضاء الحاجة ورمى البصاق فإذا رميت بصافك إلى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التي بوضعها كل عبادتك وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت لأن الخف وقاية للرجل فالرجل فيه حظ والبداءة في الحظوظ فينبغي أن تكون بالأشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة وتقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل وهذا عند العارفين كبيرة وإن سماه الفقيه مكروها حتى إن بعضهم كان قد جمع أكرارا من الخنطة وكان يتصدق بها فستل عن سببه فقال لبست اللداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهوا فأريد أن أكفره بالصدقة ، نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر في هذه الأمور لأنه مسكين بل بإصلاح العوام الذين تقرب درجاتهم من درجة الأنعام وهم مغموسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثاله هذه الظلمات بالإضافة إليها فقيصع أن يقال الذي شرب الخمر وأخذ القدرح ييساره قد تعدى من وجهين : أحدهما الشرب والآخر الأخذ باليسار ومن باع خرا في وقت النداء يوم الجمعة قبيصع أن يقال خان من وجهين : أحدهما بيع الخمر والآخر البيع في وقت النداء ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة قبيصع أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة من حيث إنه لم يجعل القبلة عن يمينه فالمعاصي كلها ظلمات بعضها فوق بعض فيمنحوق بعضها في جنب البعض فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكنه بغير إذنه ولكن لو قتل بتلك السكنين أعز أولاده لم يبق

(١) حديث لولا أن الشياطين محومون على بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء تقدم في الصوم .

القلب عقل اللسان ما يقول وقد ينزل باطن بعض اليريدين من الحرمة والوقار من الشيخ ما لا يستطيع اليريد أن يشبع النظر إلى الشيخ وقد كنت أحم فيدخل على عمي وشيخي أبو النجيب السهروردي رحمه الله فيترشح جسدي عراقا وكنت أتمنى العرق لتخف الحمى فكنت أجد ذلك عند دخول الشيخ على ويكون في قدمه بركة وشفاء وكنت ذات يوم في البيت خاليا وهناك مندبل وجه لي الشيخ وكان يتعمم به فوق قدمي على الندبل اتفاقا قائل

لاستعمال السكين بغير إذنه حكم ونكابة في نفسه فكل ماراعاه الأنبياء والأولياء من الآداب وتسامحا فيه في الفقه مع العوام فسيبه هذه الضرورة وإلا فكل هذه للكاره عدول عن العدل وكفران للنعمة وتقصان عن الدرجة البلغة للعبد إلى درجات القرب ، ثم بعضها يؤثر في العبد بتقصان القرب وانعطاط المنزلة وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقر الشياطين وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهجة ومن غير حاجة عرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد . أما اليد فأنما خلق لخلق اللبث بل للطاعة والأعمال العينية على الطاعة . وأما الشجر فأنما خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوة الاعتناء والتماء ليبلغ منتهى نشوه فيتنتفع به عباده فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لقصد الحكمة وعدول عن العدل فإن كان له غرض صحيح فله ذلك إذا الشجر والحيوان جعل لخدمة لأغراض الإنسان فأنما جميعا فانيان هالكان فافناء الأخص في بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تخصيصهما جميعا وإليه الإشارة بقوله تعالى - وسفر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعا منه - نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وإن كان محتاجا لأن كل شجرة بينها لا تفي بحاجات عباد الله كلهم بل تفي بحاجة واحدة ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلما فصاحب الاختصاص هو الذي حصل البذر ووضعه في الأرض وساق إليه الماء وقام بالتمهيد فهو أولى به من غيره فيرجح جانبه بذلك ، فإن نبت ذلك في موات الأرض لا يسي آدمي اختص بغيره أو بغيره فلا بد من طلب اختصاص آخر وهو السبق إلى أخذه فللسابق خاصة السبق . فالعدل هو أن يكون أولى به ، وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك ، وهو مجاز محض ، إذ لا ملك إلا الملك للملوك الذي له مافي السموات والأرض ، وكيف يكون العبد مالكا وهو في نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره ، نعم الخلق عباد الله والأرض مائدة الله وقد أذن لهم في الأكل من مائدته بقدر حاجتهم كالملك ينصب مائدة لبيده ، فمن أخذ لقمة يمينه واحتوت عليها براحه فجاء عبد آخر وأراد انتزاعها من يده لم يمكن منه لأن اللقمة صارت ملكا له بالأخذ باليد فإن اليد وصاحب اليد أيضا مملوك ولكن إذا كانت كل لقمة بينها لا تفي بحاجة كل العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص والأخذ اختصاص يفرد به العبد فتمنع من لا يدلي بذلك الاختصاص عن مزاحمته ، فهكذا ينبغي أن تفهم أصراقه في عباده وقدلك تقول من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكثره وأمسكه وفي عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم وهو من الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله وإنما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا ، إذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم ، نعم لا يدخل هذا في حد فتاوى الفقه لأن مقادير الحاجات خفية والنفس في استعمار الفقر في الاستقبال مختلفة وأواخر الأعمار غير معلومة فتكليف العوام ذلك مجرى تكليف الصبيان الوفاق والثؤدة والسكوت عن كل كلام غير مهم ، وهو بحكم نقصانهم لا يطبقونه فتركنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو وإباحتنا ذلك إياهم لا يدل على أن اللهو واللعب حق فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال والاعتصار في الاتفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جلبوا عليه من البخل لا يدل على أنه غاية الحق . وقد أشار القرآن إليه إذ قال تعالى - إن يسألكموها فيحسبكم تبخلوا - بل الحق الذي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباده من مال الله إلا بقدر زاد الرأكب فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان إلى حضرة الملك الديان . فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن ركاب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدل وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والمقل وسائر الأسباب التي بها عرف أن ماسوى زاد الرأكب وبإل عليه

باطني من ذلك وهاتئ
الوطء . بالتقدم على
منديل الشيخ وانبعث
من باطني من الاحترام
ما أرجو بركته . قال
ابن عطاء في قوله تعالى
- لا ترضوا أصواتكم -
زجر عن الأذى لثلاث
يتخطى أحدا إلى ما فوقه
من ترك الحرمة وقال
سهل في ذلك لا تخاطبوه
إلا مستفهمين . وقال
أبو بكر بن طاهر
لا تبدهوه بالحطاب ولا
تجسوه إلا على حدود
الحرمة ولا تجهروا له
بالقول كجهر بضمكم
لبعض أي لا تملظوا له
في الحطاب ولا تنادوه
باسمه يا محمد يا أحمد كما
ينادي بضمكم بعضا
ولكن غمموه

في الدنيا والآخرة فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر واستقصاء ذلك محتاج إلى مجلدات ثم لانني إلا بالقليل وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق في قوله تعالى - وقليل من عبادي الشكور - وفرح إبليس لعنه الله بقوله - ولا تجدا أكثرهم شاكرين - فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله وأمورا أخرى وذلك تنقضي الأعمار دون استقصاء مبادئها ، فأما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير . فان قلت فقد رجح حاصل هذا الكلام إلى أن الله تعالى حكمة في كل شيء وأنه جعل بعض أفعال العباد سببا لنظام تلك الحكمة وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض أفعالها مانعا من تمام الحكمة فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساق الحكمة إلى غايتها فهو شكر وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران وهذا كله مفهوم ولكن الأشكال باقية وهو أن فعل العبد المنتظم إلى ما يتمم الحكمة وإلى ما يرضها هو أيضا من فعل الله تعالى فإن المبدأ في البين حتى يكون شاكرًا مرة وكافرًا أخرى . فاعلم أن تمام التحقيق في هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات مبادئها ونحو الآن نبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها يفهمها من عرف منطق الطير ويجدها من عجز عن الإيضاح في السير فضلائع أن يجول في جوار المسكوت جولان الطير فتقول : إن لله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الحلق والاختراع وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها فلم يكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضع اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادئ إشراقها فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الحفائش عن نور الشمس لضعف نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الحفائش فاضطر الذين فتحت أبصارهم للملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم للتناطين باللغات عبارة تفهم من مبادئ حقاقتها شيئا ضعيفا جدا فاستعاروا لها اسم القدرة فجاسرنا بسبب استعانتهم على النطق فقلنا لله تعالى صفة القدرة عنها يصدر الحلق والاختراع ثم الحلق ينقسم في الوجود إلى أقسام وخصوص صفات ومصدر أقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارة المشيئة فهي توهم منها أمرا مجعلا عند التناطين باللغات التي هي حروف وأصوات التناطين بها وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كتصور لفظ القدرة ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الذي هو غاية حكتها وإلى ما يقف دون الغاية وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة لرجوعها إلى الاختصاصات التي بها تم القسمة والاختلافات فاستعير لنسبة البالغ غايتها عبارة المحبة واستعير لنسبة الواقف دون غايتها عبارة الكراهة وقيل إنهما جميعا داخلان في وصف المشيئة ولكن لكل واحد خاصية أخرى في النسبة يوم لفظ المحبة والكراهة منهما أمرا مجعلا عند طالي الفهم من الألفاظ واللغات ثم انقسم عباده الذين هم أيضا من خلقه واختراعه إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكته دون غايتها ويكون ذلك قهرا في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم وإلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم لسياقة حكته إلى غايتها في بعض الأمور فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة فاستعير لنسبة المستعملين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة النضب فظهر على من غضب عليه في الأزل فعل وقضت الحكمة به دون غايتها فاستعير له الكفران وأردف ذلك بنقمة اللعن والمدمية زيادة في النكال وظهر على من ارتضاء في الأزل فعل انساق بسببه الحكمة إلى غايتها فاستعير له عبارة الشكر وأردف

واحترموا وقولوا له : ا
يا نبي الله يا رسول الله
ومن هذا القبيل
يكون خطاب المرید
مع الشيخ وإذا سكن
الوقار القاب علم اللسان
كيفية الخطاب . ولما
كلفت النفوس بحجة
الأولاد والأزواج
وتمكنت أهوية
النفوس والطباع
استخرجت من اللسان
عبارات غريبة وهي
تحت وقتها صاعها
كلف النفس وهواها
فاذا امتلأ القلب حرمة
ووقارا تعلم اللسان
العبارة . وروى لما
نزلت هذه الآية فقد
ثابت بن قيس في
الطريق يبكي فمر به
عاصم بن عدى فقال

بخلة الثناء والإطراء زيادة في الرضا والقبول والإقبال فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أنى وأعطى النكال ثم قبح وأردى وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ثم يلبسه من عحاسن ثيابه فإذا تم زينته قال يا جميل ما أجملك وأجمل ثيابك وأنظف وجهك فيكون بالحقيقة هو الجميل وهو الشيء على الجمال فهو الشيء عليه بكل حال وكأنه لم يكن من حيث المعنى إلا على نفسه وإنما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة فهكذا كانت الأمور في الأزل وهكذا تتسلسل الأسباب واللسبب بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب ولم يكن ذلك على انطاق وبمحت بل عن إرادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء وقيل إنه كلعج بالبر أو هو أقرب ففاضت بحار التقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلى ولفظ القدر بإزاء التفصيل للتأدى إلى غير نهاية وقيل إن شيئاً من ذلك ليس خارجاً عن القضاء والقدر فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل وكان بعضهم لقصوره لا يطبق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجامعه فألجؤا عما لم يطبقوا خوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم اسكنوا فما لهذا خلقتم لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وامتلات مشكاة بعضهم نورا مقتبساً من نور الله تعالى في السموات والأرض وكان زيتهم أبوا صافياً يكاد يضيء ولو لم تسمه نار فسمه نار فاشتعل نورا على نور فأشربت أقطار للكوت بين أيديهم بنور ربها فأدركوا الأمور كلها كما هي عليه فقيل لهم تأدبوا بأداب الله تعالى واسكنوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا^(١) فإن للحيطان آذانا وحواليكم ضعفاء الأبرار فسروا بسير أضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم فتخلقوا بأخلاق الله تعالى وأنزلوا إلى صفاء الدنيا من منتهى علوكم ليأنس بكم الضمضاء ويقتسبوا من بقايا أنواركم الشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب في جنح الليل فيجابه حياة محتملها شخصه وحاله وإن كان لا يحيا به حياة التردد في كمال نور الشمس وكونوا كمن قيل فيهم :

شربنا شراباً طيباً عند طيب كذاك شراب الطيبين يطيب

شربنا وأهرقنا على الأرض فضلة وللأرض من كأس الكرام نصيب

فكذلك كان أول هذا الأمر وآخره ولا يفهمه إلا إذا كنت أهلاً له وإذا كنت أهلاً له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج إلى قائد يقودك والأعمى يمكن أن يقاد ولكن إلى حد ما فإذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف وأدق من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجر وراءه أعمى وإذا دق المجال ولطف لطف الماء مثلاً ولم يكن العبور إلا بالسباحة فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه وربما لم يقدر على أن يستجر وراءه آخر فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ما هو مجال جماهير الخلق كنسبة الشيء على الماء إلى الشيء على الأرض والسباحة يمكن أن تعلم فأما الشيء على الماء فلا يكتسب بالتعليم بل ينال بقوة اليقين ، ولذلك قيل للشيء على الماء « إن عيسى عليه السلام يقال إنه مشى على الماء فقال صلى الله عليه وسلم لو ازداد يقيناً لشيء على الهواء^(٢) » فهذه

(١) حديث إذا ذكر القدر فأمسكوا الطبراني من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم ولم يصرح المصنف بكونه حديثاً (٢) حديث قيل له يقال إن عيسى مشى على الماء قال لو ازداد يقيناً لشيء على الهواء وهذا حديث منكر لا يعرف هكذا والمعروف ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزني قال قد جد الحواريون نبهم قبيل له توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه . فلما اتهموا إلى البحر

مايكيك يا ثابت قال هذه الآية تخوف أن تكون نزلت في - أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون - وأنا رفيع الصوت على النبي صلى الله عليه وسلم أخاف أن يحبط عملي وأكون من أهل النار فمضى عاصم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلب ثابتا البكاء فأتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول فقال لها إذا دخلت بيت فرسى فسدى على الضبة بمسار فضربته بمسار حتى إذا خرجت عطفته وقال لا أخرج حتى يتوفاني الله أو يرضى عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما

رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران لا يليق بعلم العامية أكثر منها وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبا إلى أفهام الخلق إذ عرف أنه ما خلق الجن والانس إلا ليعبدهم فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم ثم أخبر أن له عبيدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين ويغض الآخر واسمه إبليس وهو اللعين المنظر إلى يوم الدين ، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى - قل نزله روح القدس من ربك بالحق - وقال تعالى - يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده - وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى - ليضل عن سبيله - والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة فانظر كيف نسبة إلى العبد الذي غضب عليه والارشاد سيقاه لهم إلى الغاية فانظر كيف نسبة إلى العبد الذي أحبه وعندك في العادة له مثال فالملك إذا كان محتاجا إلى من يسقيه الشراب وإلى من يحججه وينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أقبحهما وأخسهما ولا يفوض حمل الشراب الطيب إلا إلى أحسنهما وأكملهما وأحبهما إليه ولا ينفى أن تقول هذا فعلى ولم يكون فعله دون فعلى؟ فانك أخطأت إذ أضفت ذلك إلى نفسك بل هو الذي صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب إتماما للعدل فان عدله تارة يتم بأمره ولا مدخل لك فيها وتارة يتم فيك فانك أيضا من أفعاله فداعيتك وقدرتك وعملك وسائر أسباب حركاتك في التعبير وفعله الذي رتبته بالعدل ترتيبا تصدر منه الأفعال المعتدلة إلا أنك لا ترى إلا نفسك فتظن أن ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فذلك تضيفه إلى نفسك وإنما أنت مثل الصبي الذي ينظر ليلا إلى لمب المشعد الذي يخرج صوراً من وراء حجاب ترقص وتزعم وتقوم وتقعده وهي مؤلفة من خرق لا تتحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل وراء وسها في يد المشعد وهو محتجب عن أبصار الصبيان فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعده ، وأما العقلاء فانهم يملون أن ذلك تحريك وليس يتحرك ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه المشعد الذي الأمر إليه والجادبة بيده فكذلك صبيان أهل الدنيا والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها التحركة فيجولون عليها ، والعلماء يطمون أنهم محركون إلا أنهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الأكثرون إلا العارفون والعلماء الراسخون فانهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة ثم شاهدوا رهوس تلك الخيوط في مناظرات لها هي معلقة بها وشاهدوا لتلك المناظرات مقابض هي في أيدي اللاتكة المحركين للسماوات وشاهدوا أيضا ملائكة السماوات مصروفة إلى حلة العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كي لا يصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وعبر عن هذه المشاهدات في القرآن وقيل - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وعبر عن انتظار ملائكة السماوات لما ينزل إليهم من القدر والأمر قويل - خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما - وهذه أمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم وعبر ابن عباس رضي الله عنهما عن اختصاص

إذا هو قد أقبل يمشي على الماء فذكر حديثا فيه أن عيسى قال : لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال

أتى عاصم النبي وأخبره بخبره قال اذهب فادعه فجاء عاصم إلى المكان الذي فيه رآه فلم يجده فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفرس فقال له إن رسول الله يدعوك فقال اكر الضبة فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ميكيك يا ثابت فقال أنا صيت وشهدا وتدخل الجنة فقال قدر ضيبت بشري الله تعالى ورسوله ولا أرفع صوتي أبدا على

الراسخين في العلم معلوم لا يحتملها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى - ينزل الأمرين - فقال لو ذكرت ما عرفه من معنى هذه الآية لرجتموني وفي لفظ آخر قلت إنه كافر . ولتقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم العاملة ما ليس منه فلنرجع إلى مقاصد الشكر فنقول: إذا رجع حقيقة الشكر إلى كون العبد مستعملاً في إتمام حكمة الله تعالى فأشكر العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه وأقربهم إلى الله للانسكة ولهم أيضاً ترتيب وما منهم إلا وله مقام معلوم وأعلام في رتبة القرب ملك اسمه إسرافيل عليه السلام وإنما علو درجاتهم لأنهم في أنفسهم كرام برة وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض ويلى درجاتهم درجة الأنبياء فانهم في أنفسهم أخيار وقد هدى الله بهم سائر الخلق وتم بهم حكمتهم وأعلامهم رتبة نبينا ﷺ وعليهم إذ أكمل الله به الدين وختم به النبيين ويليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فانهم في أنفسهم صالحون وقد أصلح الله بهم سائر الخلق ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره ثم يليهم السلاطين بالعدل لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم ولأجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أفضل من سائر الأنبياء فإنه أكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء ثم يلي العلماء والسلاطين الصالحون الذين أصاحوا دينهم ونفوسهم فقط فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم ومن عدا هؤلاء فهمج وعاع . واعلم أن السلطان بقوام الدين فلا ينبغي أن يستحق وإن كان ظالماً فاسقاً . قال عمرو بن العاص رحمه الله : إمام غشوم خير من فتنه تدوم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا يكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتتكرون ويفسدون وما يصلح الله بهم أكثر فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر وإن أساءوا فليعلموا بالوزر وعليكم الصبر (١) . وقال سهل من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل . وسئل أي الناس خير فقال السلطان قيل كثارى أن شر الناس السلطان فقال مهلاً إن لله تعالى كل يوم نظرتين نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ونظرة إلى سلامة أبدانهم فيطلع في صحيفته فيفترله جميع ذنبه وكان يقول الحشبات السود المعلقة على أبوابهم خير من سبعين قاصية تصون .

(الركن الثاني من أركان الشكر ماعليه الشكر)

وهو النعمة فلنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها وبجاءها فما يخص وبم فإن إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - فنقدم أمورا كلية تهمى القوانين في معرفة النعم ثم نشغل بذكر الأحاد والله الموفق للصواب .

(بيان حقيقة النعمة وأقسامها)

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة ولكن النعمة الحقيقية هي

(١) حديث سيكون عليكم أمراء يفسدون وما يصلح الله بهم أكثر الحديث مسلم من حديث أم سلمة يستعمل عليكم أمراء تعرفون وتتكرون ورواه الترمذي بلفظ سيكون عليكم أئمة وقال حسن صحيح وللبراز بسند ضعيف من حديث ابن عمر السلطان ظل الله في الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر وإن جار أو خاف أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر وأما قوله وما يصلح الله بهم أكثر فلم أجده بهذا اللفظ إلا أنه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فرغ إليه الناس لما أنكروا سيرة الوليد بن عقبة فقال عبس الله أصبروا فإن جور إمامكم خمسين سنة خير من هرج شهر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فقد كر حديثاً والإمارة الفاجرة خير من المهرج رواء الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به .

رسول الله فأزل الله تعالى - إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله - قال أنس كنا نتظر إلى رجل من أهل الجنة يمشى بين أيدينا فلما كان يوم الجمعة في حرب مسلم تراى ثابت من المسلمين بعض الانكسار وانهمزمت طائفة منهم فقال أوف لهؤلاء وما يصنعون ثم قال ثابت لسالم بن حذيفة ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا ثم نبينا ولم يزالا يقاتلان حتى قتل واستشهد ثابت كما وعده رسول الله

السعادة الأخروية وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز كتحية السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة فإن ذلك غلط محض وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقا ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويمن عليها إما بواسطة واحدة أو بواسطة فان تسميته نعمة صحيحة وصدق لأجل أنه يفضى إلى النعمة الحقيقية والأسباب المعينة والذات الملهمة نعمة شرعا بتسميات [القسم الأولى] أن الأمور كلها بالإضافة إلى انقسامها إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعا كالعلم وحسن الخلق وإلى ما هو ضار فيها جميعا كالجهل وسوء الخلق وإلى ما ينفع في الحال ويضر في المآل كالتلذذ باتباع الشهوات وإلى ما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل كقمع الشهوات ومخالفة النفس فالنافع في الحال والمآل هو النعمة تحقيقا كالعلم وحسن الخلق والضرر فيها هو البلاء تحقيقا وهو ضدهما والنافع في الحال للضرر في المآل بلاء محض عند ذوى البصائر وتظنه الجهال نعمة ومثاله الجائع إذا وجد عسلا فيه سم فإنه يئده نعمة إن كان جاهلا وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق إليه والضرر في الحال النافع في المآل نعمة عند ذوى الأبواب بلاء عند الجهال ومثاله الدواء البشع في الحال مذاقه إلا أنه شاف من الأمراض والأقسام وجالب للصحة والسلامة فالصبي الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء والعاقل يئده نعمة ويتلذذ منه بمن يهديه إليه ويقربه منه ويهيئه له أسبابه فلذلك تمنع الأم ولدها من الحجابة والأب يدعو إليها فإن الأب لكامل عقله يلح العاقبة والأم لفرط حبها وقصورها تلتحف الحال والصبي لجهله يتلذذ منه من أمه دون أيه ويأنس إليها وإلى شفقتها ويقدر الأب عدوا له ولو عقل لعلم أن الأم عدو باطن في صورة صديق لأن منعمها إياه من الحجابة يسوقه إلى أمراض وآلام أشد من الحجابة ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل وكل إنسان فإنه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل فلذلك تعمل به ما لا يعمل به العدو [قسمة ثانية] اعلم أن الأسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها فقلما يصفو خيرها كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه وسائر الأسباب ولكن تنقسم إلى مانعة أكثر من ضره كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب وإلى ماضره أكثر من نفعه في حق أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع وإلى ما يكافئ ضرره نفعه وهذه أمور تختلف بالأشخاص فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن أكثر فينفعه في سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات فهو مع هذا التوفيق نعمة في حق مومنين إنسان يستضر بالقليل أيضا إذ لا يزال مستضررا له شاكيا من ربه طالبا للزيادة عليه فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حقه [قسمة ثالثة] اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره وإلى مؤثر لغيره وإلى مؤثر لذاته ولغيره . فالأول ما يؤثر لذاته لا لغيره ككلذة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقاءه ، وبالجملة سعادة الأخرى التي لا انقضاء لها فانها لا تتطلب ليواصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها بل تتطلب لذاتها . الثاني ما يقصد لغيره ولا غرض أصلا في ذاته كالدرهم والدنانير فان الحاجة لو كانت لا تنقضي بها لكانت هي والحصاء بمثابة واحدة ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سريعة الإيصال إليها صارت عند الجهال محبوبة في نفسها حتى يجمعونها ويكثرونها ويتصارفوا عليها بالربا ويظنون أنهم مقصودة ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا فيحب بسببه رسوله الذي يجمع بينه وبينه ثم ينسى في محبة الرسول محبة الأصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولا بتمهيد الرسول وصراعاته وتفقدته وهو غاية الجهل والضلال . الثالث ما يقصد لذاته ولغيره كالصحة والسلامة فانها تقصد ليقدربسببها على الذكر والفكر الموصولين إلى لقاء الله تعالى أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا وتقصده أيضا لذاتها فان الإنسان وإن استغنى عن الشيء الذي أراد سلامة الرجل لأجله ف يريد أيضا سلامة الرجل

صلى الله عليه وسلم
وعليه درع فراه
رجل من الصحابة بعد
موته في المنام فقال له
اعلم أن فلانا رجلا من
المسلمين نزع درعي
فذهب بها وهو في
ناحية من السكر
وعنده فرس يستن
في طيله وقد وضع على
درعي برمة فانت خالده
ابن الوليد فأخبره
حقى استرد درعي واثت
أبا بكر خليفة رسول
الله عليه السلام قتل
له إن على ديننا حق
يقضى على وفلان من
عبيدي عتيق فأخبر
الرجل خالدًا فوجد
الدرع والفرس على
ما وصفه فاسترد الدرع
وأخبر خالدًا أبا بكر

من حيث إنها سلامة فأذن المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقياً وما يؤثر لذاته وتيرماً أيضاً فهو نعمة ولكن دون الأول فأما مالا يؤثر إلا لغيره كالتقدين فلا يوصفان في أنفسهما من حيث إنهما جوهران بأنهما نعمة بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة في حق من يقصد أمراً ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما فلو كان مقصده العلم والمباداة ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته استوى عنده الذهب واللدن فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والمباداة فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان نعمة [قصة رابعة] اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ولذيذ وجميل فاللذيذ هو الذي تدرك راحته في الحال والنافع هو الذي يفيد في المال والجميل هو الذي يستحسن في سائر الأحوال . والشروع أيضاً تنقسم إلى ضار وقيح ومؤلم وكل واحد من القسمين ضربان مطلق ومقيد . فالمطلق هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة أما في الخير فالكلم والحكمة فانها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة وأما في الشر فكالجهل فانه ضار وقيح ومؤلم وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل وذلك بأن يرى غيره عالماً ويرى نفسه جاهلاً فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة ثم قد يمنعه الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان فيعظم ألمه فانه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذلك التعلم ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة . والضرب الثاني للقيح وهو الذي جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض فرب نافع ومؤلم كقطع الأصبع التآكله والسلمة الخارجة من البدن ورب نافع قبيح كالحق فانه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع فقد قيل استراح من لا عقل له فانه لا يتهم بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن يموت وقت هلاكه ورب نافع من وجه ضار من وجه كإلقاء المال في البحر عند خوف الفرق فانه ضار للمال نافع للنفس في نجاتها والنافع قيمان ضروري للإيمان وحسن الخلق في الإيصال إلى سعادة الآخرة وأعتى بهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما البتة غيرها وإلى مالا يكون ضرورياً كالسكنجيين مثلاً في تسكين الصفران فانه قد يمكن تسكينها أيضاً بما يقوم مقامه [قصة خامسة] اعلم أن النعمة يعبر بها عن كمال لذية واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع عقلية وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات أما العقلية فكلمة العلم والحكمة إذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن ولا الفرج وإنما يستلذها القلب لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل وهذه أقل اللذات وجوداً وهي أشرفها أما قلتها فلأن العلم لا يستلذ إلا غلماً والحكمة لا يستلذها إلا حكيماً وما أقل أهل العلم والحكمة وما أكثر التسمين باسمهم والترسمين برسومهم وأما شرفها فلائها لازمة لا تزول أبداً لافي الدنيا ولا في الآخرة ودائمة لا تمل فالتعلم يشبع منه فيمل وشهوة الوقوع يفرغ منها فتستقل العلم والحكمة قط لا يتصور أن تمل وتستقل ومن قدر على الشريف الباقي أبد الأباد إذا رضي بالحسيس الفاني في أقرب الآماد فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته وإدباره وأقل أمر فيه أن العلم والعقل لا يحتاج إلى أعوان وحفظه بخلاف المال إذ العلم يهرسك وأنت تهرس المال والعلم يزيد بالإشفاق والمال ينقص بالإشفاق والمال يسرق والولاية يزل عنها والعلم لا تمتد إليه أيدي السراق بالأخذ ولا أيدي السلاطين بالعزل فيكون صاحبه في روح الأمن أبداً وصاحب المال والجاه في كرب الخوف أبداً ثم العلم نافع ولذيذ وجميل في كل حال أبداً والمال تارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة ولذلك فم الله تعالى المال في القرآن في مواضع وإن سباه خيراً في مواضع وأما تصوراً أكثر الخلق

بتلك الرؤيا فأجاز أبو بكر وصيته قال مالك بن أنس رضي الله عنهما لأعلم وصية أجيبت بعد موت صاحبها إلا هذه فهذه كرامة ظهرت ثابت بحسن تقواه وأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فليعتبر المرید الصادق ويعلم أن الشيخ عنده تذكرة من الله ورسوله وأن الذي يعتمد مع الشيخ عوض مالو كان في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتمده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام القوم بواجب الأدب أخبر الحق عن حالهم وأثنى عليهم قال - أولئك

عن إدراك لذة العلم فلما لعدم الذوق فمن لم يذوق لم يعرف ولم يشق إذ الشوق تبع الذوق وإما الفساد أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات كالمرضى الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرًا وإما تصور فطنهم إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل والطيور السماء ولا يستلذ إلا اللبن وذلك لا يدل على أنها ليست لذيفة ولا استطابته اللبن يدل على أنه ألد الأشياء فالقاصرون عن ذوق لذة العلم والحكمة ثلاثة إما من لم يحى باطنه كالطفل وإما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات وقوله تعالى - في قلوبهم مرض - إشارة إلى مرض العقول وقوله عز وجل - لينذر من كان حيا - إشارة إلى من لم يحى حياة باطنه وكل حى بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وإن كان عند الجهال من الأحياء ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتى بالأبدان . الثانية لذة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات كذلة الرياسة والغلبة والاستيلاء وذلك موجود في الأسود والتمر وبعض الحيوانات . الثالثة ما يشارك فيها سائر الحيوانات كذلة البطن والفرج وهذه أكثرها وجودا وهي أخسها ولذلك اشترك فيها كل مذبذبة ودرج حتى الديدان والحشرات ومن جاوز هذه الرتبة تشبث به لذة الغلبة وهو أشدها التصاقا بالمنغافلين فان جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة لاسيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله وهذه رتبة الصديقين ولا ينال تمامها إلا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب وأخر ما يخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة وأما مشرط البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون وشهوة الرياسة لا يقوى على كسرها إلا الصديقون فأما قمعها بالسكينة حتى لا يقع بها الإحساس على الدوام وفي اختلاف الأحوال فيشبه أن يكون خارجا عن مقدور البشر ، نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى في الأحوال لا يقع معها الإحساس بلذة الرياسة والغلبة ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعتره الفترات فتعود إليه الصفات البشرية فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل وعند هذا تقسم القلوب إلى أربعة أقسام قلب لا يحب إلا الله تعالى ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه وقلب لا يدري ما لذة المعرفة وما معنى الأنس بالله وإنما لذته بالجاه والرياسة والمال وسائر الشهوات البدنية وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعتره في بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتره في بعض الأحوال تالذذ بالعلم والمعرفة أما الأول فان كان ممكنا في الوجود فهو في غاية البمدوأما الثاني فالدنيا طائفة به وأما الثالث والرابع فموجدان ولكن على غاية الندور ولا يتصور أن يكون ذلك إلا نادرا شاذا وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة وإعانتكون كثرته في الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام فلا يزال يزداد المهدي طولا وتزداد مثل هذه القلوب قلة إلى أن تقرب الساعة ويقضى الله أمرا كان مفعولا وإنما يجب أن يكون هذا نادرا لأنه مبادئ ملك الآخرة والملك عزيز والملوك لا يكثرون فكما لا يكون الفائق في الملك والجمال إلا نادرا وأكثر الناس من دونهم فكذا في ملك الآخرة فان الدنيا مرآة الآخرة فانها عبارة عن عالم الشهادة والآخر عبارة عن عالم الغيب وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فانها أولى في حق رؤيتك فانك لا ترى نفسك وترى صورتك في المرآة أو لا فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة فالقلب التابع في الوجود متبوعا في حق المعرفة والقلب التأخر متقدما وهذا نوع من الانعكاس

الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى - أى اختبر قلوبهم وأخلصها كما عتحن الذهب بالنار فيخرج خالصه وكان أن اللسان ترجمان القلب وتهذب اللفظ لتأدب القلب فهذا ينبغي أن يكون المريد مع الشيخ . قال أبو عثمان الأدب عند الأكارب وفي مجالسة السادات من الأولياء يباغ بصاحبه إلى الدرجات العلا والخير في الأولى والعقبى ألا ترى إلى قول الله تعالى - ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم - ومعنا عليهم الله تعالى قوله سبحانه - إن الذين يتادونك من وراء الحجرات

ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب
والملكوت فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويصبر به إلى
عالم الملكوت فيسمى عبوره عبرة وقد أمر الحق به فقال - فاعتبروا بأولي الأبصار - ومنهم من
عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة ومنتفتح إلى حيمه أبواب جهنم وهذا
الحبس مملوء نارا من غائتها أن تطلع على الأئمة إلا أن بينه وبين إدراك أمها حجابا فاذا رفع
ذلك الحجاب بالموت أدرك وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا
الجنة والنار مخلوقتان ولكن الجحيم تدرك مرة بادراك يسمى علم اليقين ومرة بادراك آخر
يسمى عين اليقين وعين اليقين لا يكون إلا في الآخرة وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن
للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين فذلك قال الله تعالى - كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم -
أى في الدنيا - ثم لترونها عين اليقين - أى في الآخرة فاذا قد ظهر أن القلب الصالح ملك الآخرة
لا يكون إلا عزيزا كالشخص الصالح ملك الدنيا .

(قصة سادسة حاوية لمجامع النعم)

اعلم أن النعم تنقسم إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها وإلى ما هي مطلوبة لأجل الغاية أما الغاية فاتها
سعادة الآخرة ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء لافناء له وسرور لا غم فيه وعلم لا جهل معه وغنى
لا فقر بعده وهي النعمة الحقيقية ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا عيش إلا عيش الآخرة»^(١)
وقال ذلك مرة في الشدة تسلياً للنفس وذلك في وقت حفر الخندق في غدة الضر وقال ذلك مرة
في السرور منعا للنفس من الركون إلى سرور الدنيا وذلك عند إحداق الناس به في حجة الوداع^(٢)
وقال رجل «اللهم إني أسألك تمام النعمة فقال النبي صلى الله عليه وسلم وهل تعلم تمام النعمة؟ قال لا
قال تمام النعمة دخول الجنة^(٣)» وأما الوسائل فتقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس وإلى
ما يليه في القرب كفضائل البدن وهو الثاني وإلى ما يليه في القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب
الضيفة بالبدن من المال والأهل والمشيئة وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس
وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية فهي إذن أربعة أنواع : النوع الأول وهو الأخص
الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق وينقسم الإيمان
إلى عم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله وإلى علوم للعامة ، وحسن الخلق
ينقسم إلى قسمين ترك مقضى الشهوات والغضب وإسمه العفة ومراعاة العدل في الكف عن
مقضى الشهوات والإقدام حتى لا يمتنع أصلا ولا يقدم كيف شاء بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان
العدل الذي أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم إذ قال تعالى «أن لا تطغوا في البرزاق
وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا البرزاق» - فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح أو ترك النكاح
مع القدرة والأمن من الآفات أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر فقد أخسر
الميزان ومن انهماك في شهوة البطن والفرج فقد طغى في البرزاق وإنما العدل أن يخلو وزنه وتقديره
عن الطغيان والحسرة فتعتدل به كفتا الميزان فاذن الفضائل الخاصة بالنفس للقرابة إلى الله تعالى أربعة
علم مكاشفة وعلم معاملة وعفة وعدالة ولا يتم هذا في غالب الأمر إلا بالنوع الثاني وهو الفضائل البدنية

أكثرهم لا يتقون -
وكان هذا الحال من
وفد بني تميم جاءه وإلى
رسول الله صلى الله
عليه وسلم فنادوا يا محمد
أخرج إلينا فان مدحنا
زين وذمنا شين قال
فسمع رسول الله صلى
الله عليه وسلم يفرج
إليهم وهو يقول «إنما
ذلكم الله الذي فمه
شين ومدحه زين» في
قصة طويلة وكانوا أتوا
بها عزم وخطيبهم
فضلهم حسان بن ثابت
وشيبان المهاجرين
والأنصار بالخطبة وفي
هذا تأدب للريد في
الدخول على الشيخ
والإقدام عليه وتركه
الاستجمال وصبره إلى
أن يخرج الشيخ من

(١) حديث قوله عند حفر الخندق لا عيش إلا عيش الآخرة متفق عليه من حديث أنس (٢) حديث
قوله في حجة الوداع لا عيش إلا عيش الآخرة الشافعي مرسلًا والحاكم متصلًا وصححه وتقدم في الحج
(٣) حديث قال رجل اللهم إني أسألك تمام النعمة الحديث الترمذي من حديث معاذ بسند حسن

وهي أربعة الصحة والقوة والجمال وطول العمر ولا تنبأ هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث وهي النعم الخارجة الطيفة بالبدن وهي أربعة المال والأهل والجاه وكرم العشرة ولا يتنفع بشيء من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع وهي الأسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة وهي أربعة : هداية الله ورشده وتسيده وتأيدته ، فمجموع هذه النعم ستة عشر إذا قسمناها إلى أربعة وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض إما حاجة ضرورية أو نافعة . أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق إذ لا سبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة البتة إلا بهما فليس للانسان إلا ما سمى وليس لأحد في الآخرة إلا ما تزود من الدنيا فكذلك حاجة الفضائل النفسية التي تكسب هذه العلوم وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضروري . وأما الحاجة النافعة على الجملة فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة مثل المال والعز والأهل فان ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل إلى بعض النعم الداخلة . فان قلت : فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من للمال والأهل والجاه والعشرة . فاعلم أن هذه الأسباب جارية مجرى الجناح المبلغ والآلة السهلة للمقصود . أما المال فالفقير في طلب العلم والكمال وليس له كفاية : كساع إلى الهيجا بغير سلاح ، وكبازي بروم الصيد بلا جناح ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « نعم للمال الصالح للرجل الصالح ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « نعم العون على تقوى الله المال ^(٢) » وكيف لا ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات في طلب الأتوات وفي تهمة اللباس والسكن وضرورات المعيشة ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر ولا تدفع إلا بسلاح المال ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاضة الخيرات . وقال بعض الحكماء وقد قيل له ما النعم قال : اللهي فاني رأيت الفقير لا يعيش له ، قيل زدنا ، قال الأمن فاني رأيت الخائف لا يعيش له ، قيل زدنا ، قال العافية فاني رأيت المريض لا يعيش له ، قيل زدنا ، قال الشباب فاني رأيت الهرم لا يعيش له ، وكان ما ذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ولكن من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من أصبح معافي في بدنه أمانا في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ^(٣) » وأما الأهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة إليهما إذ قال صلى الله عليه وسلم « نعم العون على الدين المرأة الصالحة ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم في الولد « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث ولد صالح يدعو له ^(٥) » الحديث وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب النكاح . وأما الأقارب فهما أكثر أولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل الأعين والأيدي فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة في دينه ما لو انفرد به لظال شغله وكل ما يفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين فهو إذن نعمة . وأما العز

موضع خلوته . صحته
أن الشيخ عبدالقادر
رحمه الله كان إذا جاء
إليه فقير زائر يخرج
بالفقير فيخرج ويضع
جانب الباب ويصافح
الفقير ويسلم عليه ولا
يجلس معه ويرجع
إلى خلوته وإذا جاء
أحد ممن ليس من
زمره الفقراء يخرج
ويجلس معه غفط
لبعض الفقراء نوع
إنكار لتركه الخروج
إلى الفقير وخروجه
لتسبب الفقير فانه
ما خطر للفقير إلى
الشيخ فقال الفقير
رابطتنا معه رابطة
قلبية وهو أهل وليس
عنده أجنبية فكنتني
معه بموافقة القلوب

(١) حديث نعم المال الصالح للرجل الصالح أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث عمرو بن العاص بسند جيد (٢) حديث نعم العون على تقوى الله للمال أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر ورواه أبو القاسم البغوي من رواية ابن المنكدر مرسلًا من طريقه رواه القضاة في مسند الشهاب هكذا مرسلًا (٣) حديث من أصبح معافي في بدنه أمانا في سربه الحديث الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري وقد تقدم (٤) حديث نعم العون على الدين المرأة الصالحة لم أجده إسنادًا ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو الدنيا متاع وخير صاع الدنيا المرأة الصالحة (٥) حديث إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وتقدم في النكاح .

والجاء فيه يدفع الانسان عن نفسه الذل والضميم ولا يستغنى عنه مسلم فانه لا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم يشوش عليه علمه وعمله وفراغه ويشغل قلبه وقلبه رأس ماله وإعنا تدفع هذه الشواغل بالز والجاه ولذلك قيل الدين والسلطان توأمان . قال تعالى - ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض - ولا معنى للجاه إلى ملك القلوب كالألمعنى للنفى لإلا ملك الدراهم ومن ملك الدراهم تسخرت له أرباب القلوب لدفع الأذى عنه فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر وجية تدفع عنه البرد وكلب يدفع الذئب عن ماشيته فيحتاج أيضا إلى من يدفع الشر به عن نفسه ، وعلى هذا القصد كان الأنبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يرعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه وكذلك علماء الدين لا على قصد التناول من خزائهم والاستئثار والاستكثار في الدنيا بعتابهم ولا تظن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه ومكن في القلوب جبه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى افتقر إلى الحرب والهجرة (١) ، فان قلت كرم العشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا؟ فأقول نعم ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش (٢) » ولذلك كان صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة في نسب آدم عليه السلام (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « تخيروا لنطفكم الأكرام (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم وخضراء الدمن ، قيل وما خضراء الدمن ؟ قال المرأة الحسناء في اللبث السوء (٥) » فهذا أيضا من النعم ولست أعنى به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدنيا بل الانتساب إلى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أئمة العلماء وإلى الصالحين والأبرار التوسمين بالعلم والعمل . فان قلت فما معنى الفضائل البدنية . فأقول لا خفاء بشدة الحاجة إلى الصحة والقوة وإلى

(١) حديث ماناله صلى الله عليه وسلم من الأذى ونحوه حتى افتقر إلى الحرب والهجرة البخارى ومسلم من حديث عائشة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم هل آتى عليك يوم أشد من يوم أحد قال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبدالمطلب والحديث للترمذى وصححه وابن ماجه من حديث أنس لقد أخفت فى الله وما يخاف أحد ولقد أوديت فى الله وما يؤذى أحد ولقد آتى على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شئ يواريه ببطبال قال الترمذى معنى هذا حين خرج النبي ﷺ هاربا من مكة ومعه بلال وللبخارى عن عروة قال سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت عقبة بن أبى معيط جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فوضع رداءه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا فجاء أبو بكر فدفعه عنه الحديث والبراز وأبى يعلى من حديث أنس قال لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشى عليه فقام أبو بكر فجعل ينادى ويلكم أتقلون رجلا أن يقول ربى الله وإسناده صحيح على شرط مسلم (٢) حديث الأئمة من قريش النسائى والحاكم من حديث أنس بإسناد صحيح (٣) حديث كان صلى الله عليه وسلم من أكرم أرومة فى نسب آدم . الأرومة الأصل هذا معلوم فروى مسلم من حديث وائلة بن الأسقع مرفوعا إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم وفى رواية الترمذى إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والطلب بن ربيعة وصححه وللطلب بن أبى وداعة وحسنه إن الله خلق الخلق فجعلنى من خيرهم وفى حديث ابن عباس ما بال أقوام يتنزلون أصلى فوائقه لأننا أفضلهم أصلا وخيرهم موضعا (٤) حديث تخيروا لنطفكم ابن ماجه من حديث عائشة وتقدم فى النكاح (٥) حديث إياكم وخضراء الدمن تقدم فيه أيضا .

وتقدم بها عن ملاقة الظاهرة بهذا التقدير وأما من هو من غير جنس الفقراء فهو واقف مع العادات والظاهر فحق لم يوف حقه من الظاهر استوحش غرق الريد عمارة الظاهر والباطن بالأدب مع الشيخ ، قيسل لأبى منصور للفسرى كم صحبت أبا عثمان قال خدمته لاصحبه فالصحة مع الإخوان والأقران ومع الشايع الخدمة وينبغى للمريد أنه كلما أشكل عليه شئ من حال الشيخ يذكر قصة موسى مع الحضرة عليهما السلام كيف كان الحضرة يفعل أشياء

طول العمر إذ لا يتم علم وعمل لإيهما ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى ^(١) » وإنما يستحق من جملة أمر الجمال فيقال يكفي أن يكون البدن سليماً من الأمراض الشاغلة عن تحرى الحبرات ، ولعمري الجمال قليل الضياء ولكنه من الحبرات أيضاً أما في الدنيا فلا يخفى نفعه فيها وأما في الآخرة فمن وجهين : أحدهما أن القبيح مذموم والطيب عنه نافرة وحاجات الجميل إلى الاجابة أقرب وجاهه في الصدور أوسع فكأنه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه إذ هو نوع قدرة إذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فمعين على الآخرة بواسطتها . والثاني أن الجمال في الأكثر يدل على فضيلة النفس لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن فالنظر والنهبر كثيرا ما يتلازمان ولذلك عول أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيات البدن فتألموا الوجه والعين مرآة الباطن ، ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والنعم ، ولذلك قيل طلادة الوجه عنوان مافي النفس ، وقيل مافي الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن مافيه ، واستعرض للأموث جيشاً فرض عليه رجل قبيح فاستنطقه فاذا هو ألسكن فأسقط اسمه من الديوان وقال الروح إذا أشرفت على الظاهر فصباحة أو على الباطن فصباحة وهذا ليس له ظاهر ولا باطن ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « اطلبوا الخير عند صباح الوجوه ^(٢) » وقال عمر رضى الله تعالى عنه : إذا بستم رسولا فاطلبوه حسن الوجه حسن الاسم . وقال الفقهاء : إذا تساوت درجات الصلین فأحسنهم وجهاً وأولام بالامامة ، وقال تعالى « مما تبادلنا حذرة من العلم والجسم - ولنا نعي بالجمال ما يحرك الشهوة فان ذلك أنوثة وإنما نعي به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الأعضاء وتناسف خلقه الوجه بحيث لا تنبوا الطباع عن النظر إليه . فان قلت قد أدخلت المال والجاه والنسب والأهل والولد في حيز النعم ، وقد ذم الله تعالى المال والجاه وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) وكذا العلماء قال تعالى - إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم - وقال عز وجل - إنما أموالكم وأولادكم فتنة وقال صلى الله عليه وسلم : الناس أبناء ما يحسنون وقيمة كل امرئ ما يحسنه ، وقيل المرء بنفسه لا بأبيه فإمعنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا . فاعلم أن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المؤولة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب مالم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ما هي عليه ثم ينزل النقل على وفق مظهره منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لاسيما إلى جعلها إلا أن فيها فتناو محافوف ، فتعال للمال مثال الحية التي فيها تريباق نافع وسم نافع فان أصابها العزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن مهاب وطريق استخراج تريباقها النافع كانت نعمة وإن أصابها السوادى الترفهية عليه بلاء وهلاك وهو مثل البحر الذي تحته أصناف الجواهر والآلى فمن ظفر بالبحر فان كان عالما بالسباحة وطريق القوص وطريق الاحتراز عن

يشكرها موسى واذا أخبره الخضر بسرها يرجع موسى عن إنكاره لما يتكلمه المرید لقلته علمه بحقيقة ما يوجد من الشيع فليشيخ في كل شيء عذر بلسان العلم والحكمة . سأل بعض أصحاب الجنيد مسألة من الجنيد فأجابه الجنيد فصارضه في ذلك فقال الجنيد فان لم تؤمنوا لي فاعترزوني وقال بعض المشايخ من لم يعظم حرمة من تأدب به حرم بركة ذلك الأدب ، وقيل من قال لأستاذة لا لا يفلح أبدا . أخبرنا شيخنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على

(١) حديث أفضل السعادة طول العمر في عبادة الله غريب بهذا اللفظ وللترمذي من حديث أبي بكر أن رجلا قال يا رسول الله أي الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح
(٢) حديث اطلبوا الخير عند حسان الوجوه أبو يعلى من رواية إسماعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد بن ثابت بن سباع عن أمها عائشة وخيرة وأمها لا أعرف حالهما ورواه ابن حبان من وجه آخر في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وله طرق كلها ضعيفة (٣) حديث ذم المال والجاه الترمذي من حديث كعب بن مالك ماذنابان جاثمان أرسلنا في غنم بأفند لها من حب المال والشرف لدينه وقد تهم في ذم المال والبخل .

مهلكات البحر قد ظفر بنعمه ، وإن خاصه جاهلا بذلك قد هلك فذلك مدح الله تعالى للمال وسماه خيرا ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نعم العون على تقوى الله تعالى للمال » وكذلك مدح الجاه والعز إذ من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أظهره على الدين كله وحببه في قلوب الخلق وهو للنعى بالجاه ولكن النقول في مدحها قليل والنقول في ذم للال والجاه كثير ، وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه ، إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب . ومعنى الجاه ملك القلوب وإنما كثر هذا وقل ذلك لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال وطريق القوس في بحر الجاه فوجب تحذيرهم فانهم يهلكون بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ولو كانوا في أعيانها مذمومين بالاضافة إلى كل أحد لما تصور أن يضاف إلى النبوة للملك كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ولا أن يضاف إليها النبي كما كان لسليمان عليه السلام فالناس كلهم صبيان والأموال حيات والأنبياء والمرافون معزومون فقد يضر الصبي ما لا يضر للعزم ، نعم للعزم لو كان له ولده يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حية تعلم أنه لو أخذها لأجل ترياقها لاقتدى به ولده وأخذ الحية إذا رآها ليلعب بها فبذلك فله غرض في الترياق وله غرض في حفظ الولد فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد ، فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضررا كثيرا ، ولو أخذها لأخذها الصبي ويعظم ضرره يهلكه فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها ويشير على الصبي بالمهرب ويقبح صورتها في عينه ويعرفه أن فيها سنا قاتلا لا ينجو منه أحد ولا يحدته أصلا بما فيها من تقع الترياق فان ذلك ربما يضره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة وكذلك القواص إذا علم أنه لو غاص في البحر يمضى من ولده لا يبعثه وهلك فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر ، فان كان لا يتزجر الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه بين يديه فكذلك الأمة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان والأغبياء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنكم تنهاتون على النار تهافت الفراش وأنا أخذ بعجزكم ^(٢) » وحظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن الهالك فانهم لم يعثوا إلا ذلك وليس لهم في المال حظ إلا بقدر القوت فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يسكوه بل أبقوه فان الاتفاق في الترياق وفي الامساك السم ولو فتع للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لما لوا إلى سم الامساك ورغبوا عن ترياق الاتفاق فلذلك قبحت الأموال والنعى به تقيح إمساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذا ما أخذها بقدر الكفاية وصراف الفاضل إلى الخيرات فليس بمذموم وحق كل مسافر أن لا يحمل إلا بقدر زاده في السفر إذا صمم العزم على أن يختص بما يحملة . فأما إذا صممت نفسه باطعام الطعام وتوسيع الزاد على الرقاء فلا بأس بالاستكثار وقوله عليه الصلاة والسلام « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب ^(٣) » معناه لأفكم خاصة

قال أنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا هناد عن أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتركوني ماتر كنتم وإذا حدثتكم غدوا عنى فاتمها هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » قال الجنيد رحمه الله رأيت مع أبي حفص النيسابورى إنسانا كثير الصمت لا يتكلم قلت لأصحابه من هذا

(١) حديث إنما أنا لكم مثل الوالد لولده مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله لولده وقد تقدم
(٢) حديث إنكم تنهاتون على النار تهافت الفراش وأنا أخذ بعجزكم متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ مثل ومثل الناس . وقال مسلم ومثل أمى كمثل رجل استوقد نارا جعلت الدواب والفراش يقعن فيه فأنا أخذ بعجزكم وأنتم تتعممون فيه ولمسلم من حديث جابر وأنا أخذ بعجزكم عن النار وأنتم تهلون من يدى (٣) حديث ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب ابن ماجه

وإلا قد كان فيمن يروي هذا الحديث ويسئل به من بأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويخرقها في موضعه ولا يمسك منها حبة ، ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة استأذنه عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه في أن يخرج عن جميع ما يملكه فأذن له فنزل جبريل عليه السلام ، وقال : مه بأن يطعم للسكين ويكسو العارى ويقرى الضيف (١) الحديث . فأذن النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها ومرجوها بمخوفها وتمعها بضرها فمن وثق يصيرته وكال معرفته فله أن يقرب منها متقيا داءها ومستخرجا دواها ، ومن لا يثق بها فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الأخطار فلا تصدق بالسلامة شيئا في حق هؤلاء . وهم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه . فان قلت : فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية والرشد والتأييد والتسديد . فاعلم أن التوفيق لا يستغنى عنه أحد وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة البعد وبين قضاء الله وقدره وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة وما هو شقاوة ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره كما أن الإلحاد عبارة عن الليل لخصص بمن ماله إلى الباطل عن الحق وكذا الارتداد ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق ولذلك قيل :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما يفتى عليه اجتباؤه

فأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها لأن داعية الانسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا فمن أين ينفعه مجرد الإرادة فلا فائدة في الإرادة والقدرة والأسباب إلا بعد الهداية ولذلك قال تعالى - ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى - وقال تعالى - ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء - وقال صلى الله عليه وسلم « ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى أى بهديته قيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا (٢) . وللهداية ثلاث منازل : الأولى معرفة طريق الخير والشر للشار إليه بقوله تعالى - وهديناهم للنجدين - وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالقتل وبعضه على لسان الرسل ولذلك قال تعالى - وأما عود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى - فأسباب الهدى هي الكتب والرسل وبصائر العقول وهي مبذولة ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا والأسباب التي تمنى القلوب وإن كانت لا تمنى الأبصار قال تعالى - فانها لا تمنى الأبصار ولكن تمنى القلوب التي في الصدور - ومن جملة العميات الإلف والعادة وحب استصحابهما وعنه العبارة بقوله تعالى

والحاكم من حديث سلمان لفظ الحاكم وقال بلغة وقال مثل زاد الراكب وقال صحيح الاسناد . قلت هو من رواية أبي سفيان عن أشياخه غير مسمين وقال ابن ماجه عهد إلى أن يكفى أحدكم مثل زاد الراكب (١) حديث استئذان عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن جميع ما يملكه لما ذكر أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة فأذن له فنزل جبريل فقال مه أن يطعم المسكين الحديث الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف وقال صحيح الاسناد . قلت : كلا فيه خالد بن أبي مالك ضعيف جدا (٢) حديث ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله متفق عليه من حديث أبي هريرة لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتصمدنى الله بفضل منه ورحمة وفي رواية لمسلم ما من أحد يدخله عمله الجنة الحديث واتفقا عليه من حديث عائشة وانفرد به مسلم من حديث جابر وقد تقدم .

قيل لي هذا إنسان يصحب أبا حفص ويخدمنا وقد أتفق عليه مائة ألف درهم كانت له واستدان مائة ألف أخرى أنفقها عليه ما يسوغ له أبو حفص أن يتكلم بكلمة واحدة وقال أبو يزيد البسطامي صحبت أبا حفص السندی فكنت ألقنه ما يقيم به فرضه وكان يلحنى التوحيد والحقائق صرفا . وقال أبو عثمان صحبت أبا حفص وأنا غلام حدث فطردنى وقال لا تجلس عندى فلم اجعل مكافأتى له على كلامه أن أولى ظهري إليه فانصرفت أمشى إلى خلف ووجهي مقابل له حتى غبت

- إنا وجدنا آباءنا على أمة - الآية وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى - وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - وقوله تعالى - أ بشرنا منا واحدا نتبعه - فهذه المعينات هي التي منعت الاهتداء والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة وهي التي يد الله تعالى بها العبد حالا بعد حال وهي ثمرة المجاهدة حيث قاله تعالى - والذين جاهدوا فينا لهديتهم سبلتنا - وهو المراد بقوله تعالى: - والذين اهتدوا زادهم هدى - والهداية الثالثة وراء الثانية وهو النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة فيبتدى بها إلى ما لا يبتدى إليه بالمقل الذي يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم وهو الهوى المطلق وما عداه حجاب له ومقدمات وهو الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكل من جهته تعالى فقال تعالى - قل إن هدى الله فبغير هدى لا ينصره - وهو للسمى حياة في قوله تعالى - أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس - والعنى بقوله تعالى - أفمن نرحم الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - وأما الرشد فنحن به العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفترقه عما فيه فساده ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى - ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنابه عابدين - فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها فالصبي إذا بلغ خيرا بحفظ المال وطرق التجارة والاستمارة ولكنه مع ذلك يندرو ولا يريد الاستمارة لا يسمى رشيدا لالعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته فكمن شخص يقدم على ما يظن أنه يضره فقد أعطى الهداية وميزها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره ولكن ما أعطى الرشد فالرشد بهذا الاعتبار أ كمل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة . وأما التسديد فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليشتر في صوب الصواب في أسرع وقت فإن الهداية بمجرد ما لا تكفي بل لا بد من هداية محركة للداعية وهي الرشد والرشد لا يكفي بل لا بد من تيسير الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبثت الداعية إليه فالهداية محض التعريف والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتحرك والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد وأما التأيد فكأنه جامع للكل وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج وهو المراد بقوله عز وجل - إذ أيدتك روح القدس - وتوحيه منه الصمة وهي عبارة عن وجود إلهي يسبح في الباطن يقوى به الإنسان على تحملي الخير وتجنب الشر حتى يصير كانع من باطنه غير محسوس وإياه عنى بقوله تعالى - ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه - فهذه هي مجامع النعم ولئن تثبتت إلا بما غمخه الله من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي والقلب البصير التواضع المراعي والمعلم الناصح والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته والعز الذي يصونه عن سفه السفاء وظلم الأعداء ويستدهي كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسبابا وتستدعي تلك الأسباب أسبابا إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل التحيرين ومذموم للضطربين وذلك رب الأرباب ومسبب الأسباب وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلندكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - وبالله التوفيق .

عنه واعتقدت أن أحسن لنفسى برأ على بابه وأزل وأقعد فيه ولا أخرج منه إلا بأذنه فلما رأى ذلك منى قربى وقبلى وصيرنى من خواص أصحابه إلى أن مات رحمه الله ومن آدابهم الظاهرة أن للرشد لا يبسط سجاده مع وجود الشيخ إلا لوقت الصلاة فإن للرشد من شأنه التبتل للخدمة في السجادة إجماء إلى الاستراحة والتمزز ولا يتحرك في السماع مع وجود الشيخ إلا أن يخرج عن حد التمييز وهيبة الشيخ تملك المسريد عن الاسترسال في السماع وهيبه واستفراقه في

(بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء)
اعلم أنا جمعنا النعم في ستة عشر ضربا وجعلنا حصة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة للتأخرة فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصى الأسباب التي بها تمت هذه النعمة لم تقدر عليها ولكن الأكل أحد أسباب الصحة فلندكر نبذة من جملة الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل فلا يخفى أن الأكل فعل وكل فعل من هذا النوع فهو حركة وكل حركة لا بد لها من جسم متحرك هو آلتها ولا بد لها من قدرة على

الحركة ولا بد من إرادة للحركة ولا بد من علم بالمراد وإدراك له ولا بد للأكل من مأكول ولا بد للمأكول من أصل منه يحصل ولا بد له من صانع يصلحه فلنذكر أسباب الإدراك ثم أسباب الإرادات ثم أسباب القدرة ثم أسباب الأكل على سبيل التلويح لئلا سبيل الاستقصاء .

(الطرف الأول في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك)

اعلم أن الله تعالى خلق النبات وهو أكل وجودا من الحجر والحدرو والحديد والنحاس وسائر الجواهر التي لا تنمى ولا تغذى فان النبات خلق فيه قوة بها يجذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التي في الأرض وهي له آلات فهي يجذب الغذاء وهي العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة ثم تغلظ أصولها ثم تنشعب ولا تزال تستدق وتنشعب إلى عروق شعرية تنبسط في أجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر إلا أن النبات مع هذا الكمال ناقص فانه إذا أعوزه غذاء يساق إليه ويماس أصله جف وييس ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر فان الطلب إنما يكون بمعرفة اللطوب وبالاتقال إليه والنبات عاجز عن ذلك فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الاحساس وآلة الحركة في طلب الغذاء فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس التي هي آلة الإدراك فأولها حاسة اللمس وإنما خافت لك حتى إذا مستك نار محرقة أو سيف جارح تمس به قهرت منه وهذا أول حس يخلق للحيوان ولا يتصور حيوان إلا ويكفون له هذا الحس لأنه لم يحس أصلا فليس بحيوان وأنقص درجات الحس أن يحس بما لا يلاصقه ويماسه فان الاحساس مما يبعد منه إحساس أتم لا بحاله وهذا الحس موجود لكل حيوان حتى الدودة التي في الطين فانها إذا غرزت فيها إبرة انقبضت للهرب لا كالنبات فان النبات يقطع فلا ينقبض إذ لا يحس بالقطع إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت ناقصا كالدودة لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما يحس بدنك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك فخلق لك الشم إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدري أنها جاءت من أي ناحية فتحتاج إلى أن تطوف كثيرا من الجوانب فربما تعثر على الغذاء الذي شممت ربحه وربما تعثر فتكون في غاية النقصان لو لم يخلق لك إلا هذا فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بينها إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصا إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدوا لا حجاب بينك وبينه وأمام عينك وبينه حجاب فلا تبصره وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب المدون فتعجز عن الهرب فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئا حاضرا أو أمال الغائب فلا يمكنك معرفته إلا بكلام ينتظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع فاشتدت إليه حاجتك فخلق لك ذلك وميزت بهم الكلام عن سائر الحيوانات وكل ذلك ما كان يفنيك لو لم يكن لك حسي الذوق إذ يصل الغذاء إليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله فتهلك كالشجرة يصب في أصلها كل مائع ولا ذوق لها فتجذبه وربما يكون ذلك سبب جفافها ثم كل ذلك لا يفنيك لو لم يخلق في مقدمة دماغك إدراك آخر يسمى حسا مشتركا تؤدي إليه هذه الحسوسات الخمس وتجتمع فيه ولولا لطلال الأمر عليك فانك إذا أكلت شيئا أصفر مثلا فوجدته مرعا فقال لك قتر كته فاذا رأته مرة أخرى فلا تعرف أنه مر مضر ما لم تذقه ثانيا لولا الحس المشترك إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة فكيف تتنعم عنه والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة فلا بد من حاكم يجمع عنده الصفرة والمرارة جميعا حتى إذا أردت الصفرة حكم بأنه مر فيمتنع عن تناوله ثانيا وهذا كله تشارك فيه الحيوانات إذ لا شاة هذه الحواس كلها فلو لم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصا فان البهيمة يمتال عليها فتؤخذ فلا تدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف

الشيخ بالنظر إليه ومطالعة موارد فضل الحق عليه أنجع له من الإصغاء إلى السماع ومن الأدب أن لا يكتم على الشيخ شيئا من حاله ومواهب الحق عنده وما يظهر له من كرامة وإجابة وينكشف للشيخ من حاله ما يعلم الله تعالى منه وما يستحي من كشفه يذكره إيماء وتعميرضا فان المريد متى انطوى ضميره على شيء لا يكشفه للشيخ تصرعها أو تعريضها يصير على باطنه منه عقدة في الطريق وبالقول مع الشيخ وتحل العقدة وتزول ومن الأدب أن

تتخلص إذا قيدت وقد تلقى نفسها في بئر ولا تدرى أن ذلك يهلكها ولذلك قد تأكل البيهمة ما تستلذه في الحال ويضرها في ثانی الحال فتمرض وتموت إذ ليس لها إلا الاحساس بالحاضر فأما إدراك العواقب فلا، فبترك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى هي أشرف من الكل وهو العقل فيه تدرك مضرّة الأطعمة ومنفعتها في الحال والمآل وبه تدرك كيفية طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها فتنتفع بعقلك في الأكل الذي هو سبب صحتك وهو أحسن فوائد العقل وأقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ومعرفة الحكمة في علمه وعند ذلك تتقلب فائدة الحواس الخمس في حرك فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار اللوكلين بنواحي المملكة وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختص به فواحدة منها بأخبار الألوان والأخرى بأخبار الأصوات والأخرى بأخبار الروائح والأخرى بأخبار الطعوم والأخرى بأخبار الحرّ والبرد والخشونة واللينة والصلابة وغيرها وهذه البرد والجواسيس يقتضون الأخبار من أقطار المملكة ويسلمونها إلى الحس المشترك والحس المشترك قاعد في مقدّمة الدماغ مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهي محتومة ويسلمها إذ ليس له إلا أخذها وجمعها وحفظها فأما معرفة حقائق ما فيها فلا ولكن إذا صادف القلب العاقل الذي هو الأمير والملك سلم إليها آت إليه محتومة فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها في هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الأحكام والصلاح يحرك الجنود وهي الأعضاء مرة في الطلب ومرة في الحرب ومرة في إتمام التدبيرات التي تعين له فهذه سياقة نعمة الله عليك في الإدراكات ولا تظن أننا استوفيناها فان الحواس الظاهرة هي بعض الإدراكات والبصر واحد من جملة الحواس والعين آلة واحدة له وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها أغشية وبعض الأغشية كأنها نسج الضكبات وبعضها كالشيمة وبعض تلك الرطوبات كأنه يبيض البيض وبعضها كأنه الجمد ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب لو اختلفت طبقة واحدة من جملة العشر أوصفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الأطباء والكحالمون كلهم فهذا في حس واحد فحس به حاسة السمع وسائر الحواس بل لا يمكن أن تستوفي حكم الله تعالى وأنواع نعمه في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة مع أن جملة لا تزيد على جوزة صغيرة فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وهجائه فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات.

(الطرف الثاني في أصناف النعم في خلق الارادات)

اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل في الطبع وشوق إلى المشهورة له تستحثك على الحركة لكان البصر معطلا فكم من مريض يرى الطعام وهو أفتع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله فيبقى البصر والإدراك معطلا في حقه فاضطرت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك يسمى شهوة ونفرة عما يخالفك تسمى كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكّلها بك كالتقاضى الذي يضطرك إلى تناول حتى تتناول وتغذى فتبقى بالغذاء وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات ثم هذه الشهوة لو لم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت وأهلكت نفسك فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لترك الأكل بها لا كما تزرع فإنه لا يزال يجتذب الماء إذا انصب في أسفله حتى يفسد فيحتاج إلى آدمى يقدر غذاءه بقدر الحاجة فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تجامع فيبقى به نسلك ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى في خلق الرحم وخلق

لا يدخل في صحبة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتأديبه وتهذيبه وأنه أقوم بالتأديب من غيره ومتى كان عند الريد تطلع إلى شيخ آخر لاتصفو صحبته ولا ينفذ القول فيه ولا يستعد باطنه لسراية حال الشيخ إليه فان الريد كلما أيقن تفرد الشيخ بالشيخة عرف فضله وقويت محبته والمهبة والتألف هو الوساطة بين الريد والشيخ وعلى قدر قوة المهبة تكون سراية الحال لأن المهبة علامة التعارف والتعارف علامة الجنسية والجنسية جالبة للريد حال الشيخ أو بعض حاله

دم الحيض وتأليف الجنين من المني ودم الحيض وكيفية خالق الأثيين والعروق السالكة إليهما من الفقار الذي هو مستقر النطفة وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النطفة في بعضها لتتشكل بشكل الذكور وتقع في بعضها فتتشكل بشكل الإناث وكيفية إدارتها في أطوار خلقها مضفة وعلقة ثم عظما ولحما ودما وكيفية تسعة أجزاءها إلى رأس ويد ورجل وبطن وظهر وسائر الأعضاء لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك في مبدأ خلقك كل العجب فضلا عما تراه الآن ولكننا لسنا نريد أن نعرض إلا لنعم الله تعالى في الأكل وحده كي لا يطول الكلام . فاذن شهوة الطعام أحد ضروب الارادات وذلك لا يكفيك فانه تأنيك الهلكات من الجوانب فلو لم يخلق فيك الغضب الذي به تدفع كل ما يصادك ولا يوافقك لبقيت عرضة للاتآفات ولأخذمك كل ماحصلته من الغذاء فان كل واحد يشتهي ما في يديك فتحتاج إلى داعية في دفعه ومقاتلته وهي داعية الغضب الذي به تدفع كل ما يصادك ولا يوافقك ثم هذا لا يكفيك إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلا إلى ما يضر وينفع في الحال وأما في المآل فلا تسكني فيه هذه الارادة فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى مسخرة تحت إشارة العقل المعروف للعواقب كخلق الشهوات والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة قم بها انتفاعك بالعقل إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلا تضرك لا يغنيك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة وهذه الارادة أفردت بها عن البهائم إكراما لبني آدم كما أفردت بمعرفة العواقب وقد سمينا هذه الارادة باعثة دينا وفصلناه في كتاب الصبر تفصيلا أوفى من هذا .

(الطرف الثالث في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة)

اعلم أن الحس لا يفيد إلا الادراك والارادة لامعنى لها إلا الليل إلى الطلب والمهرب وهذا لا كفاية فيه ما لم تكن فيك آلة الطلب والمهرب فكم من مريض مشتاق إلى شيء بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه أن يمشي إليه لفقد رجليه أولا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لقلج وخذرفيهما فلا بد من آلات للحركة وقدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبا وبمقتضى الكراهية هربا فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها فمنها ما هو للطلب والمهرب كالرجل للانسان والجنح للطير والقوائم للدواب ومنها ما هو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافا كثيرا فمنها ما يكثر أعداؤه ويعد غذاؤه فيحتاج إلى سرعة الحركة فخلق له الجناح لطير بسرعة ومنها ما خلق له أربع قوائم ومنها ماله رجلان ومنها ما يذب وذكر ذلك بطول فلنذكر الأعضاء التي بها يتم الأكل فقط ليقاس عليها غيرها فنقول : رؤيتك الطعام من بعد وحركتك إليه لا تسكني ما لم تتمكن من أن تأخذه فافتقرت إلى آلة باطشة فأتم الله تعالى عليك بخلق اليدين وهما طويلتان ممتدتان إلى الأشياء ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتحرك في الجهات فتمتد وتنتهي إليك فلا تكون تكسبة منصوبة ثم جعل رأس اليد عريضا يخلق الكف ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هي الأصابع وجطلها في صفتين بحيث يكون الإبهام في جانب ويدور على الأربعة الباقية ولو كانت مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعا وضمانا بسطها كانت لك مجرفة وإن صممتها كانت لك مفرقة وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب وإن تشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة في القبض ثم خلق لها أظفارا وأسند إليهما وس الأصابع حتى لا تفتت وحتى تلتقط بها الأعياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع فأخذها بروس أظفارك ثم هب أنك أخذت الطعام باليدين فمن أين يكفيك هذا ما لم يصل إلى المعدة وهي في الباطن فلا بد وأن يكون من الظاهر

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان قال أنا أبو الفضل حميد قال أنا الحافظ أبو نعيم قال ثنا سليمان ابن أحمد قال ثنا أنس ابن أسلم قال ثنا عتبة ابن رزين عن أبي أمامة الباهلي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من علم عبدا آية من كتاب الله فهو مولاه ينبغي له أن لا يخذله ولا يستأثر عليه فمن فعل ذلك فقد فصم عروة من عر الاسلام » ومن الأدب أن يراعى خطرات الشيخ في جزئيات الأمور وكياناتها ولا يستحقر كراهة الشيخ ليصير

دهليز إليها حتى يدخل الطعام منه فجعل الفم منفذا إلى المعدة مع ما فيه من الحكم الكبيرة سوى كونه منفذا للطعام إلى للمعدة ثم إن وضعت الطعام في الفم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فنتحاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام فخلق لك اللحين من عظمين وركب فيهما الأسنان وطبق الأضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحنا ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك قسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس وإلى جادة قواطع كالرباعيات وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب ثم جعل مفصل اللحين متخلخلا بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرحى ولولا ذلك لما تيسر الاضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا وبذلك لا يتم الطحن فجعل اللحي الأسفل متحركا حركة دورية واللحي الأعلى ثابتا لا يتحرك فانظر إلى عجب صنع الله تعالى فان كل رحى صنمه الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحى الذي صنمه الله تعالى إذ يدور منه الأسفل على الأعلى فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه ، ثم هب أنك وضعت الطعام في فضاء الفم فكيف يتحرك الطعام إلى ما تحت الأسنان أو كيف تستجره الأسنان إلى نفسها أو كيف يتصرف باليد في داخل الفم فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان فإنه يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالخبرة التي ترد الطعام إلى الرحى هذا مع ما فيه من فائدة الذوق وحجاب قوة النطق والحكم التي لنا نطلب بدكرها ، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنه وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الخلق بنوع رطوبة فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها وينصب بقدر الحاجة حتى ينجس به الطعام فانظر كيف سخرها لهذا الأمر فانك ترى الطعام من بعد فيثور الحنكان للخدمة وينصب اللعاب حتى تحلب أشداقك والطعام بعد بعيد عنك ثم هذا الطعام الطحون للنعجن من يوصله إلى المعدة وهو في الفم ولا تقدر على أن تدضمه باليد ولا يدق للمعدة حتى تمتد فتجذب الطعام فانظر كيف هيا الله تعالى للرء والحنجرة وجعل على رأسها طبقات تتفتح لأخذ الطعام ثم تنطبق وتنضف حتى يتقلب الطعام بضغطه فيهبوى إلى المعدة في دهليز الرء فاذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لأن يصير لحمًا وعظما ودما على هذه الهيئة بل لابد وأن يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه أجزاؤه فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر يقع فيها الطعام فتحتوى عليه وتلق عليه الأبواب فلا يزال لا بنا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة إذ من جانبها الأيمن الكبد ومن الأيسر الطحال ومن قدام الترائب ومن خلف لحم الصلب فتعدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعا متشابها يصلح للنفوذ في تجاويف العروق وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه وركته وهو بعد لا يصلح للتغذية فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجارى من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهى إلى الكبد والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها وينتشر في أجزائها حتى تستولى عليه قوة الكبد فتصبغه بلون الدم فيستقر فيها ريشما يحصل له نضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء إلا أن حرارة الكبد هي التي تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلان كما يتولد في جميع ما ينطبخ إحداها شبيهة بالدردي والمكر وهو الحائط السوداء والأخرى شبيهة بالرغوة وهي الصفراء ولو لم تفصل عنها الفضلثان فسد مزاج الأعضاء فخلق الله تعالى الرارة والطحال وجعل لكل واحد منهما عنقا ممدودا إلى الكبد داخلا في تجوفه

حركاته معتمدا على حسن خلق الشيخ وكآله ومداراته. قال إبراهيم بن شيان كنا نصحب أبا عبد الله للعرب ونحن شبان ويسافر بنا في البرارى والفلوات وكان معه شيخ اسمه حسن وقد صحبه سبعين سنة فكان إذا جرى من أحدنا خطأ وتضير عليه حال الشيخ تشفع إليه بهذا الشيخ حتى يرجع لنا إلى ما كان . ومن أدب الريد مع الشيخ أن لا يستقل بوقائه وكشفه دون مراجعة الشيخ فان الشيخ علمه أوسع وبابه المفتوح إلى الله أكبر

فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ويجذب الطحال المكر السوداء فيبقى الدم صافيا ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لمافية من المائية ولولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية وأخرج منها متصاعدا إلى الأعضاء فخلق الله سبحانه الكليتين وأخرج من كل واحدة منهما عنقا طويلا إلى الكبد ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخلًا في تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حدة الكبد حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد إذ لو اجتذب قبل ذلك لفظ ولم يخرج من العروق فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلاث تها من كل ما يفسد الغذاء ، ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقا ثم قسمها بعد الطلوع أناسا وشعب كل قسم بشعب وانتشر ذلك في البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهرا وباطنا فيجري الدم الصافي فيها ويصل إلى سائر الأعضاء حتى تصير العروق المنقسمة شجرية كعروق الأوراق والأشجار بحيث لا تدرك بالأبصار فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الأعضاء ولو حلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الأمراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمة وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الحائط السوداء حدثت الأمراض السوداء كالهبق والجذام والماليخوليا وغيرها وإن لم تندفع المائية نحو الكلى حدثت منه الاستسقاء وغيره ، ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث الحسبية أما المرارة فأنها تجذب بأحد عنقها وتغذف بالعنق الآخر إلى الأمعاء ليحصل له في ثقل الطعام رطوبة مزقة ويحدث في الأمعاء لدغ يحركها للدغ فتضغط حتى يندفع الثقل وينزلق وتسكون صفرته لذلك وأما الطحال فأنه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ثم يرسل منها كل يوم شيئا إلى فم المعدة فيحرك الشهوة بعموضته وبينها ويشيرها ويخرج الباقي مع الفضل وأما الكلى فأنها تقتدي بما في تلك المائية من دم وترسل الباقي إلى المثانة ولتقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الأسباب التي أعدت للأكل ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء الرئيسية إلى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضواريب من القلب إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ثم كيفية تركيب الأعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وعضاريفها ورطوباتها لطلال الكلام وكل ذلك محتاج إليه للأكل والأمور أخر سواها بل في آدمي آلاف من العضلات والعروق والأعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته ولا شيء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشر وزيادة وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جملة عرق متحرك أو متحرك عرق ساكن هلسكت يامسكين فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أولًا لتقوى بعدها على الشكر فانك لا تعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أحسنها ثم لا تعرف منها إلا أنك نجوع فتأكل والحمار أيضا يعلم أنه يجوع فيأكل ويتعب فينام ويشتهي فيجامع ويستنهض فينهض ويرمح فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الحمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط قس على الاجمال ما أهملناه من جملة ما عرفناه حذرا من التطويل وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر الأن من علم شيئا من هذا أدرك فمتى من معاني قوله تعالى - وإن تمدوا نعمة الله لا تحصوها - ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء وقوام منافعها وأدراكها وقواها بخيار لطيف يتصاعد من الأخلط الأرجة ومستقره القلب ويسرى في جميع البدن بواسطة العروق الضواريب فلا يتهي إلى جزء من أجزاء البدن

فان كان واقعة للريد من الله تعالى يواقه الشيخ وعضيا له وما كان من عند الله لا يختلف وإن كان فيه شبهة تزول شبهة الواقعة بطريق الشيخ ويكتب للريد علما بصحة الوقائع والكشوف فالريد لعله في واقعه بخامره كمن إرادة في النفس فيشتبك كمن الإرادة بالواقعة مناما كان ذلك أوقفظة ولهذا سر عجيب ولا يقوم للريد باستئصال شأفة السكمن في النفس وإذا ذكره للشيخ فما في الريد من كمن إرادة النفس مفعود في حق الشيخ فان

إلا وحدث عند وصوله في تلك الأجزاء ما يحتاج إليه من قوة حسي وإدراك وقوة حركة وغيرها كالسراج الذي يدار في أطراف البيت فلا يصل إلى جزءه إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه ولكنه جعل السراج سبباً له بحكته وهذا البخار اللطيف هو الذي تسميه الأطباء الروح ومحل القلب ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالمرجة والدم الأسود الذي في باطن القلب له كالتبلة والغذاء له كالزيت والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت وكما أن السراج إذا انقطع زيتُه انقطعاً فراج الروح أيضاً ينطفئ* مهما انقطع غذاؤه وكان الفتيلة قد احترق فتصير رماداً بحيث لا تقبل الزيت فينطفئ* السراج مع كثرة الزيت فسكذلك الدم الذي تشبث به هذا البخار في القلب قد يهترق بفراط حرارة القلب فينطفئ* مع وجود الغذاء فإنه لا يقبل الغذاء الذي يبقى به الروح كما لا يقبل الرماد الزيت قبولاً فتشبت النار به وكما أن السراج تارة ينطفئ* بسبب من داخل كما ذكرناه وتارة بسبب من خارج كريح عاصف فكذلك الروح تارة تنطفئ* بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو التفتل وكما أن انطفاء السراج بغياء الزيت أو فساد الفتيلة أو برح عاصف أو بإطفاء إنسان لا يكون إلا لأسباب مقدرة في علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدر فكذلك انطفاء الروح وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذي أجل له في أم الكتاب فكذلك انطفاء الروح وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح إذا انطفأ أظلم البدن كله وفارقت أنوارها التي كان يستفيد منها من الروح هي أنوار الاحساسات والقدر والارادات وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة فهذا أيضاً من جزير إلى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى ومجائب صنعته وحكته ليعلم أنه لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي - عز وجل فتعسا لمن كفر بالله تعسا وسحقاً لمن كفر نعمته سحقاً. فان قلت فقد وصفت الروح ومثلته ورسول الله ﷺ «مثل عن الروح فلم يزد عن أن قال - قل الروح من أمر ربي-» (١) فلم يصفه لهم على هذا الوجه . فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح فان الروح يطلق لمعان كثيرة لان طول بذكرها ونحن إنما وصفنا من جعلها جماً لطيفاً تسميه الأطباء بروحاً وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه في الأعضاء وكيفية حصول الاحساس والقوى في الأعضاء به حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة في مجرى هذا الروح فلا يزالون موضع الخدر بل منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها ويحاولونها بما يفتح السدة فان هذا الجسم بلطفه ينفذ في شبك العصب وبواسطته يتأدى من القلب إلى سائر الأعضاء وما يرتقى إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل . وأما الروح التي هي الأصل وهي التي إذا فسدت فسدت سائر البدن فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ولا رخصة في وصفه إلا بأن يقال هو أمر رباني كما قال تعالى - قل الروح من أمر ربي - والأمور الربانية لا تخفى العقول وصفها بل تحجب فيها عقول أكثر الخلق وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات وتنازل في ذكر مبادئ وصفها معاقدة العقول القليلة بالجواهر والمرض المحبوسة في مضيقتها فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه بل ينور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور في عالم النبوة والولاية نسبة إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال وقد خالق الله تعالى الخلق أطواراً فكما يدرك العصب المحسوسات ولا يدرك العقول لأن ذلك طور لم يبلغه بعد فكذلك يدرك البالغ العقول ولا يدرك ما وراءها لأن ذلك طور لم يبلغه بعد

(١) حديث أنه مثل عن الروح فلم يزد على أن قال الروح من أمر ربي متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم في شرح عجائب القلب .

كان من الحق يتبرهن بطريق الشيخ وإن كان ينزع واقته إلى كون هوى النفس تزول وتبرأ ساحة للريد ويتحمل الشيخ ثقل ذلك لقوة حاله وحمه إيوائه إلى جناب الحق وكال معرفته ومن الأدب مع الشيخ أن الريد إذا كان له كلام مع الشيخ في شيء من أمر دينه أو أمر دنياه لا يستجمل بالإقدام على مكالمته الشيخ والمهجوم عليه حتى يتبين له من حال الشيخ أنه مستعد له ولسماع كلامه وقوله متفرغ فكما أن للدعاء أوقاناً وآداباً وشروطاً لأنه مخاطبة الله تعالى

وإنه لتمام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين وذلك للشرب أعز من أن يكون شريعة لسلك وإرد بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد ولباب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب وطل أول الليدان عتبة هي مستقر ذلك الأمر الرباني فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ولا لحافظ العتبة مشاهدة استحال أن يصل لليدان فكيف بالانتهاء إلى ماوراءه من للشاهدات العالية وكذلك قيل من لم يعرف حسه لم يعرف ربها أتى صادف هذا في خزانة الأطباء ومن أين للطبيب أن يلاحظه بل للعنى للسمى روحا عند الطبيب بالإضافة إلى هذا الأمر الرباني كالكرة التي يحركها صولجان الملك بالإضافة إلى الملك فمن عرف الروح الطبي فظن أنه أدرك الأمر الرباني كان كمن رأى الكرة التي يحركها صولجان الملك فظن أنه رأى الملك ولا يشك في أن خطأ فاحش وهذا الخطأ أخص منه جدا ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف وبها تدرك مصالح الدنيا عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر لم يأذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عنه بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئا ولكن ذكر نسبتة وفضله ولم يذكر ذاته أما نسبتة ففي قوله تعالى - من أمر ربى - وأما فضله فقد ذكر في قوله تعالى - يا أيها النفس اللطيفة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادى وادخلي جنتى - ولترجع الآن إلى الترض فان التصود ذكر نعم الله تعالى في الأكل فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى في آلات الأكل .

(الطرف الرابع: في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأظعمة

وتصير صالحة لأن يصلحها الأذى بعد ذلك بصنفته)

اعلم أن الأظعمة كثيرة ونعمه تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى وأسباب موارية لا تنتهي وذكر ذلك في كل طعام مما يطول فان الأظعمة إما أدوية وإما فواكه وإما أعذية فلنأخذ الأعذية فانها الأصل ولنأخذ من جعلتها حبة من البر ولتدع سائر الأعذية فتقول : إذا وجدت حبة أو حبات فلأكلتها فليت وبيت جائئا فما أحوجك إلى أن تنمو الحبة في نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تنفي بتمام حاجتك فخلق الله تعالى في حبة الحنطة من القوي ما يشتدى به كما خلق فيك فان النبات إما ما يشارك في الحس والحركة ولا يخالفك في الاغتذاء لأنه يشتدى بالماء ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق كما تشتدى أنت وتجذب ولسنا نطلب في ذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه ولكن نشير إلى غذائه . فتقول : كما أن الحشب والتراب لا يذيك بل تحتاج إلى طعام مخصوص فكذلك الحبة لا تشتدى بكل شيء بل تحتاج إلى شيء مخصوص بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تزد لأنه ليس يحيط بها إلا هواء ومجرد الهواء لا يصلح لغذائها ولو تركتها في الماء لم تزد ولو تركتها في أرض لأماء فيها لم تزد بل لابد من أرض فيها ماء يمزج ماؤها بالأرض فيصير طينا وإليه الإشارة بقوله تعالى - فلينظر الانسان إلى طعامه أنا صبينا للماء صبا ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حبا وعبا وقضا وزيونا ونخللا - ثم لا يكفي للماء والتراب إذ لو تركت في أرض ندية صلبة مترا كسمة لم تثبت لقد الهواء فيحتاج إلى تركها في أرض رخوة متخلقة يتغلغل الهواء إليها ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بهجر وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها وإليه الإشارة بقوله تعالى - وأرسلنا الرياح لواقح - وإنما إلقاها في إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض ثم كل ذلك لا يثبتك لو كان في برد مفرط وشتاء شات فتحتاج إلى حرارة الريح والصفى قد بان احتياج غذائه إلى هذه الأربعة فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد إذ يحتاج للماء لينساق

ظن قول مع الشيخ أيضا
آداب وشروط لأنهم
معاملة الله تعالى ويسأل
الله تعالى قبل الكلام
مع الشيخ التوفيق
لما يجب من الأدب
وقد نبه الحق سبحانه
وتعالى على ذلك فبأمر
به أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم في
مخاطبته فقال - يا أيها
الذين آمنوا إذا ناجيتم
الرسول قدموا بين
يدي نجواكم صدقة -
يعنى أمام مناجاتكم
قال عبد الله بن عباس
سأل الناس رسول الله
صلى الله عليه وسلم
فأكثروا حتى شقوا
عليه وأحفوه بالمسئلة
فأذهبهم الله تعالى
وقطعهم عن ذلك

إلى أرض الزراعة من البحار والعيون والأنهار والسواقي فانظر كيف خلق الله البحار وجر العيون وأجرى منها الأنهار ثم الأرض ربما تكون مرغمة والياه لا ترتفع إليها فانظر كيف خلق الله تعالى القيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها باذنه إلى أقطار الأرض وهي سحب تعال حوامل بالماء ثم انظر كيف يرسله مدارا على الأراضي في وقت الربيع والحريف على حسب الحاجة وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تنفجر منها العيون تدريجا فلو خرجت دفعة لفرقت البلاد وهلك الزرع واللواشى ونعم الله في الجبال والسحاب والبحار والأمطار لا يمكن إحصاؤها وأما الحرارة فأنها لا تحصل بين الماء والأرض وكلاهما باردان فانظر كيف سخر الشمس وكيف خلقها مع بعدها عن الأرض مسخرة للأرض في وقت دون وقت ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد والحر عند الحاجة إلى الحر فهذه إحدى حكم الشمس والحكم فيها أكثر من أن تحصى ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان في الفواكه انققاد وصلابة فتفتقر إلى رطوبة تضجها فانظر كيف خلق التمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه ويصنعها بتقدير الفاطر الحكيم ولذلك لو كانت الأشجار في ظل يمنع شروق الشمس والتمر وسائر الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة حتى إن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل فتظلم على رأسك الرطوبة التي يصر عنها بالزكام فكما يرطب رأسك يرطب القاكه أيضا ولا تطول فيها لا مطمع في استقصائه بل تقول كل كوكب في السماء قد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب فلا تخلو واحد منهما عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر بإحصائها ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ولم يصح قوله تعالى - ربنا ما خلقت هذا باطلا - وقوله عز وجل - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا لعابدين - وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضوا لا فائدة فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة والعالم كله كشخص واحد وآحاد أجسامه كالأعضاء له وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك وشرح ذلك يطول ولا ينبغي أن تظن أن الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأمر الله سبحانه في أمور جعلت أسبابا لها بحكم الحكمة يخالف للشرع لما ورد فيه من النهي عن تصديق النجميين وعن علم النجوم (١) بل النهي عنه في النجوم أمران : أحدهما أن تصدق بأنها فاعلة لآثارها مستقلة بها وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها وهذا كفر . والثاني تصديق النجميين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها لأنهم يقولون ذلك عن جهل فان علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق إلا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بخاق الله تعالى في الأرض وفي النبات وفي الحيوان ليس قادحا في الدين بل هو حق ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح في الدين ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك أخرج الثوب وابسطه فان الشمس قد طلعت وحمى النهار والهواء لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الإنكار عليه بحوائله حمى

وأمرهم أن لا يناجوه حتى يقدموا صدقة وقيل كان الأغنياء يأتون النبي عليه السلام ويطلبون الفقراء على المجلس حتى كره النبي عليه السلام طول حديثهم ومناجاتهم فأمر الله تعالى بالصدقة عند المناجاة فلما رأوا ذلك اتهموا عن مناجاته فأما أهل المسرة فلا تهم لم يجدوا شيئا وأسأهل اليسرة فبخلوا ومنموا فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت الرخصة وقال تعالى - آشفتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات - وقيل لما أمر الله تعالى بالصدقة

(١) حديث النهي عن تصديق النجميين وعن علم النجوم أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد ولاطبراني من حديث ابن مسعود وثوبان إذا ذكر النجوم فأمكروا وإسنادها ضعيف وقد تقدم في العلم ولمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال قلت لرسول الله أمورا كنا نصنعها في الجاهلية كنا نأتى السكبان قال فلا تأتوا السكبان الحديث .

الهواء على طلوع الشمس وإذا سألت عن تغيير وجه الإنسان قال قرعتي الشمس في الطريق فاسود وجهي لم يلزمك تكذيبه بذلك وقس بهذا سائر الآثار إلا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول فالجهول لا يجوز دعوى العلم فيه والعلوم بضع معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطولع الشمس وبضع لبعض الناس كحصول الزكام بسروقي القمر فاذن الكواكب ما خلقت عبثا بل فيها حكم كثيرة لا تحصى ولهذا «نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء وقرأ قوله تعالى - ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار - ثم قال صلى الله عليه وسلم : ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبته (١)» ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضا فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذي مسح بها سبته فله تعالى في ملكوت السموات والآفاق والأقنص والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المجهول لله تعالى فإن من أحب عالما فلا يزال مشغولا بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حبا له فكذلك الأمر في عجائب صنع الله تعالى فإن العالم كله من تصنيفه وتصنيف الصنفين من تصنيفه الذي صنفه بواسطة قلوب عباده فإن تعجبت من تصنيفه فلا تصحب من الصنف بل من الذي سخر الصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسميده وتريفه كما إذا رأيت لب للشعوز ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تعجب من اللعب فاتها خرق محرركة لا متحركة ولكن تعجب من حذق الشعوز المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار فاذن القصد أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركزها فيها ولا يتم الأفلاك إلا بحركاتها ولا يتم حركاتها إلا بعلائقها سبوية يحركونها وكذلك يتبادى ذلك إلى أسباب بيضاء تركنا ذكرها تشبيها بما ذكرناه على ما هم لنا ولتقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات .

(الطرف الخامس : في نعم الله تعالى في الأسباب الوصول للأطعمة إليك)

اعلم أن هذه الأطعمة كلها لا توجد في كل مكان بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد في بعض الأماكن دون بعض والناس منتشرون على وجه الأرض وقد تبعد عنهم الأطعمة ويعول بينهم وبينها البحار والبراري فانظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص حب اللال وشهوة الربح مع أنهم لا يفهمون في غالب الأمر شيء بل يجمعون فيما أن تحرق بها السفن أو تنهبها قطاع الطريق أو يموتوا في بعض البلاد فيأخذها السلاطين وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورتبهم وهم أشد أعدائهم لو عرفوا ، فانظر كيف سلط الله الجهل والقفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد في طلب الربح ويركبوا الأخطار ويضروا بالأرواح في ركوب البحر فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والحمل في البراري وانظر إلى الأبل كيف خلقت وإلى القرس كيف أمدت بسرعة الحركة وإلى الحمار كيف جعل صبورا على التعب وإلى الجمال كيف تقطع البراري وتطوى للراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات في البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج وتأمل ما يحتاج

(١) حديث قرأ قوله تعالى - ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار - ثم قال ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبته أي ترك تأملها التلخي من حديث ابن عباس بلفظ ولم يتفكر فيها وفيه أبو جناب يحيى بن أبي جبة ضعيف .

لم ينجح رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على ابن أبي طالب قدّم دينار اقتصد في به وقال على في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت الآية دعا عليا وقال ما ترى في الصدقة كم تكون ديناراً قال على لا يطيقونه قال كم قال على تكون حبة أو شعيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنك لتهيد ثم نزلت الرخصة ونسخت الآية وما نبه الحق عليه بالأمر بالصدق وما فيه من حسن الأدب وتقييد اللفظ والاحترام

إليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها وما يحتاج إليه السفن قد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حد الحاجة وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن ويتمادي ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر ترى تركها طلباً للإيجاز .

(الطرف السادس : في إصلاح الأطعمة)

اعلم أن الذي ينبت في الأرض من النبات وما يخلق من الحيوانات لا يمكن أن يفسد ويؤكل وهو كذلك بل لا بد في كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بإلقاء البض وإبقاء البض إلى أمور آخر لا تحصى واستقصاء ذلك في كل طعام بطول فلتعين رغيفاً واحداً ولتنظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بدء إلقاء البذر في الأرض فأول ما يحتاج إليه الحراث ليزرع ويصلح الأرض ثم الثور الذي يثير الأرض والقدان وجميع أسبابه ثم بعد ذلك التمهد بسقي الماء مدة ثم تنقية الأرض من الحشيش ثم الحصاد ثم القربك والتنقية ثم الطحن ثم العجن ثم الخبز فتأمل عدد هذه الأفعال التي ذكرناها وما لم نذكره وعدد الأشخاص القائمين بها وعدد الآلات التي يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره وانظر إلى أعمال الصناع في إصلاح آلات الحرائق والطحن والخبز من نجار وحداد وغيرها وانظر إلى حاجة الحداد إلى الحديد والرصاص والنحاس وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال والأحجار والمعادن وكيف جعل الأرض قطعاً متجاورات مختلفة ، فان قشقت علمت أن رغيفاً واحداً لا يستدير بحيث يصلح لأكلك يمسكين ما لم يعمل عليه أكثر من ألف صانع فابتدى من الملك الذي يزجي السحاب لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة اللائكة حتى تنتهي النوبة إلى عمل الانسان ، فاذا استدار طلبه قريب من مائة آلاف صانع كل صانع أصل من أصول الصنائع التي بها تتم مصلحة الخلق ، ثم تأمل كثرة أعمال الانسان في تلك الآلات حتى إن الآلة التي هي آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك لا تتكامل صورتها من حديدية تصلح للآلة إلا بعد أن تمر على يد الأبري خمساً وعشرين مرة ويتعاطى في كل مرة منها عملاً ، فلو لم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد واقتوت إلى عمل للنبل الذي تصعد به البر مثلاً بعد نيته لفد عمرك وهجرت عنه . أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نطفة قدرة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع الغريبة فانظر إلى القراض مثلاً وما جلمان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر فيتناولان الشيء معاً ويقطعانه بسرعة ولو لم يكشف الله تعالى طريق اتخاذ فضله وكرمه لمن قبلنا واقتصرنا إلى استنباط الطريق فيه فكفرتنا ثم إلى استخراج الحديد من الحجر وإلى تحصيل الآلات التي بها يعمل للقراض وعمر الواحد منا عمر نوح وأوئى أكل العقول تقصر عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وحدها فضلاً عن غيرها ، فسبحان من ألحق ذوى الأبصار بالعميان وسبحان من منع التبيين مع هذا البيان . فانظر الآن لو خلا بلك عن الطحان مثلاً أو عن الحداد أو عن الحجام الذي هو أحسن العمال أو عن الخائك أو عن واحد من جملة الصناع ماذا يصيبك من الأذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها ، فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى تهدت به مشيئته وتمت به حكته . ولنو جز القول في هذه الطبقة أيضاً فان العرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء .

(الطرف السابع : في إصلاح للصالحين)

اعلم أن هؤلاء الصناع الصالحين للأطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحش لتبددوا وتباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لا يجوزهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد ، فانظر كيف ألق الله تعالى بين قلوبهم وسلط الأوس والحبة عليهم لو أهدت مافي الأرض جميعاً

مانسخ ، والقائدة باقية . أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد ابن سلمان قال أنا أبو الفضل أحمد قال أنا الحافظ أبو نعيم قال حدثنا سليمان ابن أحمد قال حدثنا مطب بن شعيب قال حدثنا عبد الله بن صالح قال ثنا ابن لهيعة عن أبي قبيل عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه » فاحترام العلماء توفيق وهداية وإجمال ذلك خذلان وعقوق .

ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم - فلا أجل إلا لف وتعارف الأرواح اجتمعوا واتفقوا وبنوا المدن والبلاذ وربوا المساكن والدور متفارة متجاورة وربوا الأسواق والحانات وسائر أصناف البقاع مما يطول إحصاؤه ثم هذه المحبة تزول بأغراض يتراحون عليها ويتنافسون فمافى جبلة الإنسان الفيط والحسد والنفاضة وفلك مما يؤدي إلى التقاتل والتنافر فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدم بالقوة والمدة والأسباب وألقى رعبهم في قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعا وكرها وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاذ حتى ربوا أجزاء البلاذ كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها البعض فربوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الأسواق واضطروا الخلق إلى قانون العدل وأزموهم التساعد والتعاون حتى صار الحداد ينتفع بالصباب والحجاز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفع بالحداد وصار الحجام ينتفع بالحراث والحراث بالحجام وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض وانظر كيف بعث الأنبياء عليهم السلام حتى أصلحو السلاطين المصلحين للرعايا وعرفوهم قواين الشرع في حفظ العدل بين الخلق وقواين السياسة في ضبطهم وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة وأحكام الفقه ما هتدوا به إلى إصلاح الدنيا فضلا عما رشحدهم إليه من إصلاح الدين وانظر كيف أصلح الله تعالى الأنبياء بالملائكة وكيف أصلح للملائكة بعضهم ببعض إلى أن ينتهي إلى الملك المقرب الذي لا واسطة بينه وبين الله تعالى فالحجاز يخبز الصجين والطحان يصلح الحب بالطحن والحراث يصلح بالحصاد والحداد يصلح آلات الحراثة والنجار يصلح آلات الحداد وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأطمعة والسلطان يصلح الصناع والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم والعلماء يصلحون السلاطين والملائكة يصلحون الأنبياء إلى أن ينتهي إلى حضرة الربوبية التي هي ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف وكل ذلك نعم من رب الأرباب ومسبب الأسباب ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلا - لما هتدينا إلى معرفة هذه النبذة البسيرة من نعم الله تعالى ولولا عزله إيانا عن أن نطمع بعين الطمع إلى الاحاطة بكنهه نعمه لتشوقنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى - وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها - فان تكلمنا فإذنه انبسطنا وان سكتنا فبقهره اتبضنا ، إذ لا مغطى لما منع ولا مانع لما أعطى لأننا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بنعم القلوب نداء الملك الجبار - لمن الملك اليوم لله الواحد القهار - فالحمد لله الذي ميزنا عن الكفار وأحمنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار .

(الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام)

ليس يخفى عليك ماسبق من نعمة الله في خلق الملائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهدايتهم وتبليغ الوحي إليهم ولا تظن أنهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات: الملائكة الأرضية والسموية وحمة العرش. فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والغذاء الذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والارشاد وغيرها. واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يشتدى إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة هو أقله إلى عشرة إلى مائة إلى ما وراء ذلك ويأنه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف ذلك الغذاء بصير دما في آخر الأمر ثم يصير لحما وعظما وإذا صار لحما وعظما تم اغتذاء ذلك والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار فهي لا تتحرك بأنفسها ولا تتغير بأنفسها ومجرد الطبع لا يكفي في تردها في أطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طعينا ثم عجينا ثم خبزا مستديرا عجوزا إلا بصناع فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحما

[الباب الثاني والخمسون
في آداب الشيخ وما
يعتمده مع التلاميذ
والتلامذة]

أم الآداب : أن
لا يتعرض الصادق
للتقدم على قوم ولا
يتعرض لاستجلاب
بواطنهم بلطف الرفق
وحسن الكلام بحجة
للاستتباع فإذا رأى
أن الله تعالى يبعث
إليه المرشدين
والمرشدين بحسن
الظن وصدق الإرادة
محذر أن يكون ذلك
ابتلاء وامتحانا من
الله تعالى والنفوس
مجبولة على عجة إقبال
الخلق والشهرة وفي
الحنون السلامة إذا بلغ
الكتاب أجله وتمكن

وعظما وعروقا وعصبا إلا بصناع والصناع في الباطن هم الملائكة كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغي أن تغفل عن نعمه الباطنة . فأقول لا بد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم فإن الغذاء لا يتحرك بنفسه ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة السم ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم ولا بد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلا ولا بد من سابع يعرض القادير في الإصاق فيلحق بالمستدير مالا يبطل استدارته وبالعرضي مالا يبزل عرضه وبالجهوف مالا يبطل تجويفه ويحفظ على كل واحد قدر حاجته فانه لو جمع مثلا من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على غفده لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوهت صورته وخلقتة بل ينبغي أن يسوق إلى الأجناف مع رقتها وإلى الحدقة مع صفائها وإلى الأنفخذ مع غلظها وإلى العظم مع صلابته ما يلبق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل وإلا بطلت الصورة وربما بعض المواضع وضعف بعض المواضع بل لو لم يرع هذا الملك العدل في القسمة والتقسيم فساق إلى رأس الصبي وساير بدنه من الغذاء ما ينمو به إلا إحدى الرجاين مثلا لبقبت تلك الرجل كما كانت في حد الصغر وكبر جميع البدن فكنت ترى شخصا في ضخامة رجل وله رجل واحدة كأنها رجل صبي فلا ينتفع بنفسه البتة فمراعاة هذه الهندسة في هذه القسمة مفوضة إلى ملك من الملائكة ولا تظن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فان محيل هذه الأمور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول فهذه هي الملائكة الأرضية وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح وفي الغفلة تتردد وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خير لك منهم وذلك في كل جزء من أجزاءك الذي لا يتجزأ حتى يفترق بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك تركنا تفضيل ذلك للإيجاز والملائكة الأرضية مددوم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش والمنعم على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهمن القدوس المنفرد بالملك والمسكوت والعزة والجبروت جبار السموات والأرض مالك الملك ذو الجلال والإكرام، والأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرض وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجز من جانب إلى جانب (١) أكثر من أن تحصى فلذلك تركنا الاستشهاد به . فان قلت فهلا فوضت هذه

(١) حديث الأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجز من جانب إلى جانب انتهى . ففي الصحيحين من حديث أبي ذر في قصة الاسراء قال جبريل لحازن السماء الدنيا اتضح وفيه حتى أتى السماء الثانية فقال لحازنها اتضح الحديث ولهما من حديث أبي هريرة إن لله ملائكة سياحين يبلغونني عن أمتي السلام وفي الصحيحين من حديث عائشة في قصة عرضه نفسه على عبد ياليل فناداني ملك الجبال إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين الحديث ولهما من حديث أنس إن الله وكل بالرحم ملكا الحديث وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث بريدة الأسلمي ما من نبت ينبت إلا وعته ملك موكل حتى يحصد الحديث وفيه محمد بن صالح الطبري وأبو بحر البكر أوى واسمه عثمان بن عبد الرحمن وكلامه ضعيف ولطبراني من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف إن لله ملائكة ينزلون في كل ليلة يحسون الكلال عن دواب الغزاة إلا دابة في عنقها جرس وللترمذي وحسنه من حديث ابن عباس قالت اليهوديا بالقاسم أخبرنا عن الرعد قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب ولمسلم من حديث أبي هريرة بينا رجل بخلاء من الأرض سمع صوتا من سحابة اسق حديقة فلان فتتحي ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة الحديث.

العبد من حاله وعلم بتعريف الله إياه أنه مراد بالارشاد والتليم للمريدين فيكلمهم حينئذ كلام الناصح المشفق الوالد الولد بما ينفعه في دينه ودنياه وكل مرید ومسترشد ساقه الله تعالى إليه يراجع الله تعالى في معناه ويكثر الاجأ إليه أن يتولاه فيه وفي القول معه ولا يتكلم مع المرید بالكلمة إلا وقلبه ناظر إلى الله مستعين به في الهداية للصواب من القول سمعت شيخنا أبا النجيب السهروردي رحمه الله يوصي بعض أصحابه ويقول لا تتكلم أحدا من الفقراء إلا في أصنى

الأضال إلى ملك واحد ولم أفتقر إلى سبعة أملاك والحذقة أيضا محتاج إلى من يطحن أولاهم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانيا ، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثا ، ثم إلى من يعجن رابعا ، ثم إلى من يقطعه كرات مدورة خامسا ، ثم إلى من يرقها رغفا ناعرة ضيقة سادسا ، ثم إلى من يلصقها بالنور سابعا ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد يستقل به فهلا كانت أعمال الملائكة باطنا كأعمال الانس ظاهرا ؟ . فاعلم أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الانس وما من واحد منهم إلا وهو وحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب البتة فلا يكون لكل واحد منهم إلف واحد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى - وما لنا إلا له مقام معلوم - فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مشاغلهم في تعيين مرتبة كل واحد منهم وقضه مثال الحواس الخمس فان البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات ولا الشم يزاحمها ولاها ينزاعان الشم وليس كاليد والرجل فانك قد تبطش بأصابع الرجل بطشا ضعيفا قزاحم به اليد وقد تضرب غيرك برأسك قزاحم اليد التي هي آلة الضرب ولا كالإنسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والعجن والخبز فان هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الانسان واختلاف دواعيه فانه ليس وحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل ولذلك نرى الانسان يطيع الله مرة ويصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته وذلك غير ممكن في طباع الملائكة بل هم مجبولون على الطاعة لا مجال للمعصية في حقهم فلا جرم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ويسبحون الليل والنهار لا يفترون والراعي منهم راكع أبدا والساجد منهم ساجد أبدا والقائم قائم أبدا لاختلاف في أفعالهم ولافتور ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك ، فانك مهما جزمت الارادة بفتح الأجناف لم يكن للجنس الصحيح تردد واختلاف في طاعتك مرة ومعصيتك أخرى بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك يفتتح وينطبق متصلا بإشارتك فهذا يشبه من وجه ولكن يخالفه من وجه إذا لجنف لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتعا وإطباقا والملائكة أحياء عالمون بما يعملون فاذن هذه نعمة الله عليك في الملائكة الأرضية والسموية وحاجتك إليهما في غرض الأكل فقط دون ماعداها من الحركات والحاجات كلها فانا لم نطول بذكرها ، فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ومجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها فكيف أحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات ، فاذن قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة ثم قال - وذروا ظاهر الإثم وباطنه - فترك باطن الإثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدعة وإضار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة وترك الإثم الظاهر بالجوارح شكر للنعم الظاهرة ، بل أقول كل من عصى الله تعالى ولو في تطريفة واحدة بأن تفتح جفنه مثلا حيث يجب غض البصر فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه في السموات والأرض وما بينهما فان كل ما خلقه الله تعالى حق للملائكة والسموات والأرض والحيوانات والنبات بحملته نعمة على كل واحد من العباد قدتم به انتفاعه وإن انتفع غيره أيضا به فان لله تعالى في كل تطريفة بالجنف نعمتين في نفس الجنف إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجنف الأعلى وارتفاع الجنف الأسفل وعلى كل جفن شعور سود ونعمة الله تعالى في سوادها أنها تجمع ضوء العين إذ البياض يفرق الضوء والسواد يجمعه ونعمة الله تعالى في ترتيبها صفا واحدا أن يكون ما نالها من اليبس إلى باطن العين ومتشبها للأقذاء التي تنثر في الهواء وله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها ومع اللين قوام نضها وله في اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل وهو أن غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ولو طبق لم يصير فيجمع الأجناف مقدار ما تشابك الأهداب فينظر من وراء شبك الشعر فيكون شبك الشعر ما تمنع من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل ثم إن أصاب الحدقة غبار قد خلق

أوقاتك ، وهذه وصية نافعة لأن الكحة تقع في سمع المرید الصادق كالجبة تقع في الأرض وقد ذكرنا أن الجبة الفاسدة تهلك وتضيع وفساد حبة الكلام بالهوى وقطرة من الهوى تكدر بحرا من العلم فسد الكلام مع أهل الصدق والارادة ينبغي أن يستمد القلب من الله تعالى كما يستمد اللسان من الجنان وكما أن اللسان ترجمان القلب يكون قلبه ترجمان الحق عند العبد فيكون ناظرا إلى الله مصفيا إليه متقيا ما يرد عليه مؤديا للأمانة فيه ثم ينبغي

أطراف الأجنان خادمة منطبقة على الحدقة كالمصلاة للمرأة فيطبقها مرة أو مرتين وقد انصقلت الحدقة من العيار وخرجت الأقداء إلى زوايا العين والأجنان والفتاب لمالم يكن لحدقته جن خلق له يدين قراه على الدوام يسبح بها حدقته ليصقلها من العيار وإذا تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لا نقفاره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب ، ولعلنا نستأنفله كتاباً بصودافيه إن أمهل الزمان وساعد التوفيق نسميه عجائب صنع الله تعالى ، فلنرجع إلى غرضنا فنقول : من نظر إلى غير محرم فقد كفر بفتح العين فعمه الله تعالى في الأجنان ولا تقوم الأجنان إلا بالعين ولا العين إلا بالأس والراس إلا بجميع البدن ولا البدن إلا بالعضاء ولا العضاء إلا باللباء والأرض والهواء والطر والنجم والشمس والقمر ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسماوات ولا السماوات إلا بالملائكة فان الكل كاشي الواحد يرتبط البعض منه ببعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض فان كل كفر كل نعمة في الوجود من منتهى التري إلى منتهى التري فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جاد إلا ويطنه ولذلك ورد في الأخبار أن البقعة التي يجتمع فيها الناس إما أن تلغيم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم^(١) وكذلك ورد أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر^(٢) وأن الملائكة يلغون العصاة^(٣) في أقطاب كثيرة لا يمكن إحصاؤها وكل ذلك إشارة إلى أن العاصي بتطرفة واحدة جن على جميع مافي الملك واللكوت وقد أهلك نفسه إلا أن يتبع السيئة بحسنة تحموها فيقبل العمن بالاستغفار فصي الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام : يا أيوب مامن عبد لي من الآدميين إلا ومعك ملكان فإذا شكرني على نعمائي قال للملكان اللهم زده نعماً على نعم فانك أهل الحمد والشكر فكن من الشاكرين قريباً فكفى بالشاكرين علواً رتبة وعندى آتى أشكر شكرهم وملائكتي يدعون لهم والبقاع تحبهم والآثار تبكي عليهم ، وكما عرفت أن في كل طرفة عين نعماً كثيرة فاعلم أن في كل نفس ينسبط وينقبض نعمتين إذا نبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولولم يخرج لهلك وباتقاضه يجمع روح الهواء إلى القلب ولو سدت متنفسه لاحترق قلبه باقطع روح الهواء وبرودته عنه وهلك بل اليوم واليلة أربع وعشرون ساعة وفي كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات فليكن في كل لحظة آلاف آلاف نعمة في كل جزء من أجزاء بدنك بل في كل جزء من أجزاء العالم فانظر هل يتصور إحصاء ذلك أم لا ، ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - قال إلهي كيف أشكرك ولك في كل شعرة من جسدي نعمتان أن لبت أصلها وأن طمست رأسها وكذا ورد في الأثر أن من لم يعرف نعم الله إلا في مطعمه وشربه فقد قل عليه وحضر عذابه وجميع ما ذكرناه يرجع إلى اللطم والشرب فاعتبر ماسواه من النعم به فان البصير لا تقع عينه في العالم على شيء ولا يلم خاطره بوجوده إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليك فلنترك الاستقصاء والتفصيل فانه طمع في غير مطعم .

(بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر)

اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجاهل والفتلة فانهم ممنوا بالجهل والفتلة عن معرفة النعم ولا يتصور شكر النعمة إلا بهد معرفتها ، ثم إنهم ان عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه الحمد لله الشكر لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين العرفتين إلا غلبة الشهوة

(١) حديث إن البقعة التي اجتمع فيها الناس تلغيم أو تستغفر لهم لم أجده أصل (٢) حديث إن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر تقدم في العلم (٣) حديث إن للملائكة يلغون العصاة مسلم من حديث أبي هريرة للملائكة تلغون أحدكم إذا أشار إلى أخيه بحديدة وإن كان أخاه لأبيه وأمه.

للشيخ أن يعتبر حال الريدن ويتفرس فيه بنور الإيمان وقوة العلم والعرفه ما يتأتى منه ومن صلاحيته واستمداده فمن الريدن من يصلح لتجديد المحض وأعمال القلوب وطريق الأبرار ومن الريدن من يكون مستعداً صالحاً للقرب وسلك طريق التريين المرادين بحاملة القلوب والعاملات السنية ولكل من الأبرار والتريين مبادونهايات فيكون الشيخ صاحب الاشراف على البواطن يعرف كل شخص وما يصلح له والعجب أن الصراوى

واستيلاء الشيطان . أما الغفلة عن النعم فلها أسباب وأحد أسبابها أن الناس يجملهم لا يدون مايم
الخلق وسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لأنها عامة
للخلق مبنولة لهم في جميع أحوالهم فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصا به فلا يمد نعمة ولا
ترام يشكرون الله على روح الهواء ولو أخذ بمحتنتهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا في
بيت حمام فيه هواء حار أو في بئر فيه هواء ثقل برطوبة اللأء ماتوا غمافان ابتلى واحد منهم شيء من
ذلك ثم نجما ربما قدر ذلك نعمة وشكرا لله عليها وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقفا على أن تسلب
عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال والنعمة في جميع الأحوال الأولى بأن تشكر في بعضها فلا ترى
البصير يشكر صحة بصره إلا أن تسمى عينه فند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره موعده نعمة
ولما كانت رحمة الله واسعة وعم الخلق وبذل لهم في جميع الأحوال فلم يمد الجاهل نعمة وهذا الجاهل
مثل العبد السوء حتى أن يضرب دائما حتى إذا ترك ضربه ساعة تغله به متة فان ترك ضربه على الدوام
غلبه البطرا وترك الشكر صار الناس لا يشكرون إلا للسال الذي يتطرق الاختصاص إليهم من حيث
السكررة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم كما شكوا بعضهم قهره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر
شدة اغتمامه به فقال له أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم فقال لا قال أيسرك أنك أعمى
ولك عشرة آلاف درهم فقال لا قال أيسرك أنك أقطع اليد والرجلين ولك عشرة آلاف درهم فقال لا
قال أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم فقال لا قال أما تستحي أن تشكو مولاك وله
عندك عروض بخمسين ألفا . وحكى أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا فرأى في المنام
كأن قائلا يقول له تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنام وأن لك ألف دينار قال لا قال فسورة
هود قال لا قال فسورة يوسف قال لا فصد عليه سورا ثم قال فمك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو
فأصبح وقد سرى عنه . ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء ويده كوز ماء شربه فقال له عظمي فقال
لو لم تعط هذه الشربة إلا يغفل جميع أموالك وإلا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه قال نعم قال لو لم
تعط إلا بملكك كله فهل كنت تركه قال نعم قال فلا تفرح بملك لا يساوي شربة ماء فهذا تبين أن
نعمه الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها وإذا كانت الطباع مائلة
إلى اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة ، وقد ذكرنا النعم العامة فلندكر إشارة وجيزة إلى النعم
الخاصة فنقول ما من عبد إلا ولو أمن النظر في أحوال المرأى من الله نعمة أو نعم كثيرة تخصه لا يشاركه
فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها أحد وذلك يعرف به كل عبد
في ثلاثة أمور : في العقل والخلق والطم أما العقل فما من عبد قد تعلق بالهوى والهو راض عن الله في عقله يعتقد
أنه أعقل الناس وقل من يسأل الله العقل وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به
للتصف به فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره لأنه إن كان كذلك فالشكر
واجب عليه وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه فمن وضع كثر أعمت الأرض فهو
يفرح به ويشكر عليه فان أخذ الكثر من حيث لا يدري فيبقى فرحه بحسب اعتقاده ويبقى شكره لأنه
في حقه كالباقى وأما الخلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبها ويكرها وأخلاقها فينمها وإنما ينمها من
حيث يرى قسه بريئا عنها فإذا لم يشتغل بنم الغير فيبغى أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه
وابتلى غيره بالخلق السيء ، وأما العلم فما من أحد إلا ويعرف من بواطن أمور نفسه وخبايا أفكاره
ما هو متعده به ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لاقتضح فكيف لو اطلع الناس كافة
فانذ لكل عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله فلم لا يشكر من الله الجميل الذي
أرسله على وجه مساويه فأظهر الجميل وسر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به

يسلم الأراضى والفروس
ويسلم كل غرس وأرضه
وكل صاحب صنعة يعلم
منافع صنعه ومضارها
حتى للراة تعلم قطتها
وما يتأتى منه من الفزل
ودقته وغلظه ولا يعلم
الشيخ حال للريد
وما يصلح له . وكان
رسول الله صلى الله
عليه وسلم يكلم الناس
على قدر عقولهم بما
ويأمر كل شخص بما
يصلح له فمنهم من كان
يأمره بالانفاق ومنهم من
أمره بالإسك ومنهم
من أمره بالكسب
ومنهم من قرره على
ترك الكسب كأصحاب
الصفة فكان رسول
الله صلى الله عليه وسلم

حتى لا يطلع عليه أحد فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد إماما مطلقا وإما في بعض الأمور فننزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلا فنقول : مامن عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقربه أو عزه أو جاهه أو في سائر محابه أمور لو سلب ذلك منه وأعطى ما خصص به غيره لكان لا يرضى به وذلك مثل أن جعله مؤمنا لا كافرا وحيا لاجمادا وإنسانا لا بهيمة وذكرنا لأنني وصحيفا لامريضا وسليبا لامعيبا فان كل هذه خصائص وإن كان فيها عموم أيضا فان هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها بل له أمور لا يبدلها بأحوال الأدميين أيضا وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به أحد من الخلق أو لا يبدله بما خص به إلا أكثر فاذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فاذا حاله أحسن من حال غيره وإذا كان لا يعرف شخص يرضى لنفسه حالة بدلا عن حال نفسه إما على الجملة وإما في أمر خاص فاذن الله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواء وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد الغبطين عنده فانه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير مما هو فوقه فما باله ينظر إلى من فوقه ليردري نعم الله تعالى على نفسه ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه وما باله لا يسوى دنياه بدينه أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارنها يستدر إليها بأن في النفاق كثرة فينظر أبدا في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك فاذا كان حال أكثر الخلق في الدين خيرا منه وحاله في الدنيا خيرا من حال أكثر الخلق فكيف لا يلزمه الشكر، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا وشا كرا ومن نظر في الدنيا إلى من هو فوقه وفي الدين إلى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شا كرا (١) » فاذا كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما خص به وجده الله تعالى على نفسه نعمًا كثيرة لا سيما من خص بالسنة والإيمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والأمن وغير ذلك ولذلك قيل :

من شاء عيشا رحيا يسطيل به في دينسه ثم في دنياه إقبالا

فلينظرن إلى من فوقه ورعا ولينظرن إلى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله (٢) » وهذا إشارة إلى نعمة العلم وقال عليه السلام « إن القرآن هو العنى الذى لا غنى بعده ولا قمر معه (٣) » وقال عليه السلام « من آتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزا بآيات الله (٤) » وقال عليه السلام « ليس من آمن لم يتغن بالقرآن (٥) » وقال عليه السلام « كفى باليقين غنى (٦) » وقال بعض السلف يقول الله تعالى في بعض الكتب النزلة

(١) حديث من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا وشا كرا الحديث الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب وفيه المثنى بن الصباح ضعيف (٢) حديث من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله لم أجده بهذا اللفظ (٣) حديث إن القرآن هو الغناء الذى لا غناء بعده ولا قمر معه أبو يعلى والطبرانى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ إن القرآن غنى لا قمر بعده ولا غنى عنه قال الدارقطنى رواه أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشى عن الحسن مرسل وهو أوفيه بالصواب (٤) حديث من آتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزا بآيات الله البخارى في التاريخ من حديث رجاء الضوى بلفظ من آتاه الله حفظ كتابه ووطن أن أحدا أوتى أفضل مما أوتى قد صر أعظم النعم وقد تقدم في فضل القرآن ورجاء مختلف في صحته وورد من حديث عبد الله بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلها ضعيفة (٥) حديث ليس من آمن لم يتغن بالقرآن تقدم في آداب التلاوة (٦) حديث كفى باليقين غنى الطبرانى من حديث عقبة بن عامر ورواه ابن أبي الدنيا في القناعة موقفا عليه وقد تقدم.

يعرف أوضاع الناس وما يصلح لكل واحد فأما في رتبة الدعوة فقد كان يعمم الدعوة لأنه مبعوث لإنبات الحجية وإيضاح الحجية يدعو على الإطلاق ولا يخص بالدعوة من يتفرد فيه الهداية دون غيره . ومن أدب الشيخ أن يكون له خلوة خاصة ووقت خاص لا يسعه فيه معاناة الخلق حتى يفيض على جلوته فائدة خلوته ولا تدعى نفسه قوة ظنا منها أن استدامة المحاطة مع الخلق والكلام معهم لا يضره ولا يأخذ منه وأنه غير محتاج إلى الخلوة فان رسول الله

إن عبدا أغنيته عن ثلاثة لقد أعمت عليه نعمتي عن سلطان يأتيه وطيب يداويه وعمى في يد أخيه وعبر الشاعر عن هذا فقال :

إذا ما القوت بأتيك كذا الصحة والأمن
وأصبحت أبا حزن فلا فارقك الحزن

بل أرسق العبارات وأفصح الكلمات كلام أفصح من نطق بالضاد حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال «من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأن ما حيزت له الدنيا بحذافيرها» (١) ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث مع أنها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الإيمان الذي به وصولهم إلى النعيم القيم والملك العظيم بل البصير ينبغي أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان بل عن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من الشرق إلى المغرب من أموال وأتباع وأنصار وقيل له خذها عوضا عن علمك بل عن عشر عشر علمك لم يأخذه وذلك لرجائه أن نعمة العلم تفضي به إلى قرب الله تعالى في الآخرة بل لو قيل له لك في الآخرة ما ترجوه بكاله فخذ هذه اللذات في الدنيا بدلا عن التذاذك بالعلم في الدنيا وفرحك به لكان لا يأخذه لعله بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا تنصب ولا ينافس فيها وأنها صافية لا كدورة فيها ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدرة مشوشة لا يفي مرجوها بخوفها ولا لذتها بألمها ولا فرحها بغمها هكذا كانت إلى الآن وهكذا تكون ما بقي الزمان إذا ما خلقت لذات الدنيا لا تجلب بها العقول الناقصة وتخضع حتى إذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت كالمرأة الجميل ظاهرها تزين للشباب الشبق الفنى حتى إذا تقيدها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها في تعب قائم وعناء دائم وكل ذلك باعتراره بلذة النظر إليها في لحظة ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره فهكذا وقمت أرباب الدنيا في شباك الدنيا وحبائلها ولا ينبغي أن تقول إن العرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها فإن القبل عليها أيضا متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها وتألم المرض يفضى إلى لذة في الآخرة وتألم القبل يفضى إلى الألم في الآخرة فليقرأ للعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى - ولا تنهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تأملون فإنهم يأملون كما تأملون وترجون من الله ما لا يرجون - فاذن إنما سدد طريق الشكر على الخلق لجهاهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامية . فان قلت فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فساها تشكر . فأقول أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل في أمرنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة وأما القلوب البليدة التي لاتعد النعمة نعمة إلا إذا خصتها أو شعرت بالبلاء معها فسيبيله أن ينظر أبدا إلى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية إذ كان يحضر كل يوم دار المرضى والمقابر واللواضع التي تمام فيها الحدود فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره بيلاء الأمراض ويشكر الله تعالى ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويهدبون بأنواع العذب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنائيات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن ويحضر المقابر فيعلم أن أحب الأشياء إلى اللوى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوما واحدا أما من عصى الله فليتدارك وأما من أطاع فليزد في طاعته فان يوم القيامة يوم التغابن فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فما أعظم غنبي إذ ضيقت بعض الأوقات في الباحات، وأما العاصي فبغته ظاهر فإذا شاهد المقابر

(١) حديث من أصبح آمنا في سربه الحديث تقدم غير مرة .

صلى الله عليه وسلم مع كمال حاله كان له قيام الليل وصلوات يصلها ويدوم عليها وأوقات يخلو فيها فطبع البشر لا يستغنى عن السياسة قل ذلك أو أكثر لطف ذلك أو كنف وكم من مغرور قانع باليسير من طيبة القلب اتخذ ذلك رأس ماله واغتر بطيبة قلبه واسترمل في المازجة والمخالطة وجعل نفسه مناخ للباطلين باقمة توكل عنده وبرفق يوجد منه فيقصده من ليس قصده الدين ولا بغيته سلوك طريق للتقنين فافتن وأقن ويق في خطة القصور ووقع في

وعلم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له فيصرفه بنية العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله ليكون ذلك مغفرة لنعم الله تعالى في بنية العمر بل في الإسهال في كل نفس من الأتقاس وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلقه الله وهو التزوّد من الدنيا والآخرة فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى فصاها تشكروا وقد كان الربيع بن خثيم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيداً للمعرفة فكان قد حفر في داره قبراً فكان يضع غللاً في عنقه ويستم في لحدّه ثم يقول رب ارجعوني لعلّي أعمل صالحاً ثم يقوم ويقول يا ربيع قد أعطيت ما سألت فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد . وما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : عليكم بملازمة الشكر على النعم قبل زوالها . وقالت عن قوم فعادت إليهم . وقال بعض السلف النعم وحشية فقيدها بالشكر وفي الخبر : ما عظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه (١) فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال وقال الله سبحانه وتعالى - إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - فهذا تمام هذا الركن .

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر (بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد)

لذلك تقول ما ذكرته في النعم إشارة إلى أن الله تعالى في كل موجود نعمة وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً فمعنى الصبر إذن وإن كان البلاء موجوداً فمعنى الشكر على البلاء وقد ادعى مدعون أننا نشكر على البلاء فضلاً عن الشكر على النعمة فكيف يتصور الشكر على البلاء وكيف يشكر على ما يصبر عليه والصبر على البلاء يستدعي ألماً والشكر يستدعي فرحاً وما يتضادان ومعنى ما ذكرتموه من أن الله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده فاعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة والقول باثبات النعمة يوجب القول باثبات البلاء لأنهما متضادان فقد البلاء نعمة وقد النعمة بلاء ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه أما في الآخرة فكسعادة العبد بالزول في جوار الله تعالى وأما في الدنيا فكالايمان وحسن الخلق وما يمسح عليهما وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويغسده من وجه فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد أما المطلق في الآخرة فالعبد من الله تعالى إمامة وإماماً بدأ وأما في الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهي التي تفضي إلى البلاء المطلق وأما المقيد فكالتقوى والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا فالشكر المطلق للنعمة المطلقة وأما البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا المعصية بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي نعم الكافر قد لا يعرف أنه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا يصبر عليه والعاصي يعرف أنه عاصي فعليه ترك المعصية بل كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بإزالة الألم وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته فاذن يرجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس بلاء مطلق بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر فإن النفي مثلاً يجوز أن يكون سبباً لهلاك الإنسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده

(١) ما عظمت نعمة الله على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه الحديث ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ إلا عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة الحديث ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وقال إنه موضوع على حجج الأعور .

دائرة الفتور فما يستغنى
الشيخ عن الاستمداد
من الله تعالى والتضرع
بين يدي الله بقلبه إن لم
يكن يقابله وقلبه فيكون
له في كل كلمة إلى الله
رجوع وفي كل حركة
بين يدي الله خضوع
وإيمان دخلت الفتنة على
الغرورين الدعين للقوة
والاسترسال في الكلام
والخاطبة لقلة
معرفة صفات النفس
واغترارهم بيسير من
للوهبة وقلة تأديبهم
بالشيوخ . كان الجنيد
رحمه الله يقول لأصحابه
لو علمت أن صلاة
ركعتين لي أفضل من
جلوسي معكم ما جلست
عندكم فإذا رأى
الفضل في الخلوّة غلوا

والصحة أيضا كذلك فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه فكذلك مامن بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حاله فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبني قال الله تعالى - ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض - وقال تعالى - كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى - وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليحیی عبده للؤمن من الدنيا وهو يمجه كما يمحي أحدكم مريضه (١) » وكذلك الزوجة والولد والقريب وكل ما ذكرناه في الأقسام الستة عشر من النعم سوى الإيمان وحسن الخلق فانها يتصور أن تكون بلاء في حق بعض الناس فتكون أضعافها إذن نعمها في حقهم إذ قد سبق أن المعرفة كمال ونعمة فانها صفة من صفات الله تعالى ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء ويكون قدما نعمة مثاله جهل الإنسان بأجله فانه نعمة عليه إذ لو عرفه ربما تنخص عليه العيش وطال بذلك غمه وكذلك جهله بما يضمه الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه إذ لو رفع الستر وأطلع عليه لطال ألمه وحقدته واشتغاله بالانتقام وكذلك جهله بالصفات الذمومة من غيره نعمة عليه إذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالا عليه في الدنيا والآخرة بل جهله بالحاصل المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه فانه ربما يكون وليا لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهانتة ولو عرف ذلك وآذى كان إثمه لامحالة أعظم فليس من آذى نبيا أو وليا وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف. ومنها إيهام الله تعالى أمر القيامة وإيهامه ليلة القدر وساعة يوم الجمعة وإيهامه بعض الكبائر فكل ذلك نعمة لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم وحيث قلنا إن الله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق وذلك مطرد في حق كل أحد ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخلقها في بعض الناس وهي أيضا قد تكون نعمة في حق التائب بها فان لم تكن نعمة في حقه كالألم الحاصل من اللصية كقطعه يد نفسه ووفعه بشرته فانه يتألم به وهو عاص به وأم الكفار في النار فهو أيضا نعمة ولكن في حق غيرهم من العباد لاني حقهم لأن مصائب قوم عند قوم فوائد ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة ما عرف التعمون قدر نعمه ولا كثر فرحهم بها ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا في آلام أهل النار أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليها من حيث إنها عامة مبدولة ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء وهي أحسن من كل بستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها فاذن قد صح ما ذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئا إلا وفيه حكمة ولا خلق شيئا إلا وفيه نعمة إما على جميع عباده أو على بعضهم فاذن في خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا إما على البتلى أو على غير البتلى فاذن كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان الصبر والشكر جميعا . فان قامت فهما متضادان فكيف يجتمعان إذ لا صبر إلا على غم ولا شكر إلا على فرح . فاعلم أن الشيء الواحد قد يتم به من وجه ويفرح به من وجه آخر فيكون الصبر من حيث الاعتماد والشكر من حيث الفرح وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها . أحدها أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها إذ مقدورات الله تعالى لا تنتهى فلو ضفها الله تعالى وزادها ماذا كان يرده ويججزها فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا. الثاني أنه كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه . قال رجل لسهل رضى الله تعالى عنه دخل اللص بيتي

(١) حديث إن الله ليحیی عبده الدنيا الحديث الترمذی وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم .

وإذا رأى الفضل في
الجلوة يجلس مع
الأصحاب فتكون جلوته
في حماية خلوته وجلوته
مزيدا لخلوته وفي هذا
سر وذلك أن الأذى
ذو تركيب مختلف فيه
تضاد وتغابر على
ما أسلفنا من كونه
مترددا بين السفلى
والعلوى ولما فيه من
التغابر له حظ من
الفتور عن الصبر
على صرف الحق ولهذا
كان لكل عامل
فترة والفترة قد تكون
تارة في صورة العمل
وتارة في عدم الروح في
العمل وإن لم تكن في
صورة العمل ففي وقت
الفترة للمريد
والسالكين تضييع

وأخذ متاعى فقال اشكر الله تعالى لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام في دعائه إذ قال : اللهم لا تجعل مصيبتى في ديني، وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى على فيه أربع نعم إذ لم يكن في ديني وإذ لم يكن أعظم منه وإذ لم أحرم الرضا به وإذ أرجو الثواب عليه . وكان لبعض أرباب القلوب صديق فحسبه السلطان فأرسل إليه يملئه ويشكو إليه فقال له اشكر الله فضربه فأرسل إليه يملئه ويشكو إليه فقال اشكر الله فحسبه عنده وكان مبطونا قفيد وجعل حلقة من قيده في رجله وحلقة في رجل الجوسى فأرسل إليه فقال اشكر الله فكان الجوسى يحتاج إلى أن يقوم مرات وهو يحتاج إلى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضى حاجته فكتب إليه بذلك فقال اشكر الله فقال إلى متى هذا وأى بلاء أعظم من هذا فقال لو جعل الزنار الذي في وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع فاذن مامن إنسان قد أصيب ببلاء إلا ولو تأمل حق التأمل في سوء أدبه ظاهره أو باطنا في حق مولاه لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلا وآجلا ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فاقصر على عشرة فهو مستحق للشكر ومن استحق عليك أن يقطع يديك فترك إحداها فهو مستحق للشكر ولذلك مر بعض الشيوخ في شارع فصب على رأسه طشت من رماد فسجد لله تعالى سجدة الشكر فقيل له ماهذه السجدة فقال كنت أنتظر أن تصب على النار فلاقتصر على الرماد نعمة . وقيل لبعضهم ألا تخرج إلى الاستسقاء فقد احتسبت الأمطار فقال أنتم تستبطنون المطر وأنا أستبطن الحجر . فان قلت كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتي ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار . فاعلم أن الكافر قد خيئه له ما هو أكثر وإنما أهمل حتى يستكثر من الأثم ويطول عليه العقاب كما قال تعالى - إنما نعلم لهم ليزدادوا إثما - وأما المعاصي فمن أين تعلم أن في العالم من هو أعصى منه ورب خاطر بسوء أدب في حق الله تعالى وفي صفاته أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصي بالجوارح ولذلك قال تعالى في مثله - وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم - فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ثم اعلمه قد أخرجت عقوبته إلى الآخرة ومحمت عقوبتك في الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك وهذا هو الوجه الثالث في الشكر وهو أنه مامن عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون الصيبة فيخفف وقعها ومصيبة الآخرة تدوم وإن لم تنم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلى إذ أسباب التسلى مقطوعة بالكلية في الآخرة عن المعذنين ومن عجبت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب ثانيا إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابته شدة أو بلاء في الدنيا فأنه أكرم من أن يعذبه ثانيا (١) » الرابع أن هذه الصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب وكان لا بد من وصولها إليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها فهذه نعمة . الخامس أن ثوابها أكثر منها فان مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين : أحدهما الوجه الذي يكون به الدواء السكريه نعمة في حق المريض ويكون النفع من أسباب اللعب نعمة في حق الصبي فانه لو خلى واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والأدب فكان يحسر جميع عمره فكذلك المال والأهل والأقارب

(١) حديث إن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابه شدة أو بلاء في الدنيا فأنه أكرم من أن يعذبه ثانيا الترمذى وابن ماجه من حديث على من أصاب في الدنيا ذنبا عوقب به فأنه أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده الحديث لفظ ابن ماجه وقال الترمذى من أصاب حدا فبجمل عقوبته في الدنيا وقال حسن وللشيخين من حديث عبادة بن الصامت ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له الحديث.

واسترواح للنفس
وركون إلى البطالة فمن
بلغ رتبة الشيخية
انصرف قسم قترته إلى
الخلق فأفلق الخلق
بقسم قترته وما ضاع
قسم قترته كضياعه في
حق الريدين فالمريد
يعود من الفترة بقوة
الشدّة وحدة الطلب إلى
الإقبال على الله والشيخ
يكتسب الفضيلة من نفع
الخلق بقسم قترته
ويعود إلى أوطان
خلوته وخاص حاله
بنفس مشرّبة أكثر
من عود الفقير بمحبة
إرادته من قترته فيعود
من الخلق إلى الحلوة
متنزع الفتور بقلب
متعطش وافر النور
وروح متخلصة عن

والأعضاء حتى العين التي هي أعز الأشياء قد تكون سبباً لهلاك الإنسان في بعض الأحوال بل العقل الذي هو أعز الأمور قد يكون سبباً لهلاكه فالملحمة غداً يتمنون لو كانوا مجانين أو صيانياً ولم يتصرفوا بقولهم في دين الله تعالى فإيمان شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصور أن يكون له فيه خيرة دينية فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدر فيه الخيرة ويشكره عليه فإن حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد وغداً يشكره العباد على البلايا إذا رآوا ثواب الله على البلايا كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد فقد روى «أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني قال لا تتم الله في شيء قضاء عليك (١)» «ونظر صلى الله عليه وسلم إلى السماء فضحك فسئل فقال عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن إن قضى له بالسراء رضى وكان خيراً له وإن قضى له بالضراء رضى وكان خيراً له (٢)» الوجه الثاني أن رأس الخطايا للهلكة حب الدنيا ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عن دار المرور ومواناة النعم على وفق المراد من غير امتزاج بلاء ومصيبة تورت طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها وأنه بها حتى تصير كالجنة في حقه فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقتها وإذا كثرت عليه المصائب اترعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن إليها ولم يأنس بها وصارت سجناً عليه وكانت نجاة منها غاية اللذة كالخلاص من السجن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (٣)» والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضى بها واطمأن إليها والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحزن إلى الخروج منها والسكفر بعضه ظاهر وبعضه خفي ويقدر حب الدنيا في القلب يسرى فيه الشرك الخفي بل الموحّد المطلق هو الذي لا يجب إلا الواحد الحق فاذن في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به وأما التألم فهو ضروري وذلك يضاهي فرحك عند الحاجة إلى الحجابة بمن يتولى حجاتك مجاناً أو يسقيك دواءً نافعاً بشما مجاناً فانك تألم وتفرح فتصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل بل من دخل دار ملك للزيارة وعلم أنه يخرج منها لا محالة فرأى وجهها حسناً لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبالا وبلاء عليه لأنه يورثه الأناج بمنزل لا يمكنه القيام فيه ولو كان عليه في القيام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فأصابه ما يكره حتى نفره عن القيام كان ذلك نعمة عليه والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحمة وهم خارجون عنها من باب اللحد فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء وكل ما يزجج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة فمن عرف هذا تصوّر منه أن يشكر على البلايا ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصور منه الشكر لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة. وحكى أن أعرابياً عزى ابن عباس على أبيه فقال :

(١) حديث قال له رجل أوصني قال لا تتم الله في شيء قضاء عليك أحمد والطبراني من حديث عبادة زيادة في أوله وفي إسناده ابن الهيثم (٢) حديث نظر إلى السماء فضحك فسئل فقال عجبت لقضاء الله للمؤمن الحديث مسلم من حديث صهيب دون نظره إلى السماء وضحك عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضرء صبر فكان خيراً له وللنساء في اليوم والليلة من حديث سعد بن أبي وقاص عجبت من رضا الله للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر الحديث (٣) حديث الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

مضيق مطالعة الأغيار
قادمة بحمد شفها الى
دار القرار . ومن
وظيفة الشيخ حسن
خلقه مع أهل الارادة
والطلب والنزول من
حقه فيما يجب من
التبجيل والتعظيم
للساخب واستعماله
التواضع . حكى الرقي
قال كنت بمصر وكنا
في المسجد جماعة من
الفقراء جلوسنا فدخل
الزقاق فقام عند
أسطوانة يركع قلنا
بفرغ الشيخ من
صلاته وتقوم نسل عليه
فما فرغ جاء إلينا وسلم
علينا قلنا نحن كنا
أولى بهذا من الشيخ
فقال ما عذب الله

اصبر تكن بك صابرين فأتما صبر الرعية بعد صبر الراس
خير من العباس أجرك بعدد والله خير منك للعباس

قال ابن عباس ما عزاني أحد أحسن من تعزيتي. والأخبار الواردة في الصبر على الصائب كثيرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من يرد الله به خيرا يصبره» (١) وقال عليه السلام قال الله تعالى «إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا. وقال عليه السلام «ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى - إن الله وإنا إليه راجعون - اللهم أجرني في مصيبي وأعقبني خيرا منها إلا أنزل الله ذلك بعوقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى «من سلبت كريمته جزاؤه الخلود في دارى والنظر إلى وجهي» وروى أن رجلا قال يارسول الله ذهب مالي وسقم جسدي قال عليه السلام «لا خير في عبد لا ينهب ماله ولا يستقم جسمه إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره» (٢) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى ينتلى بيلاه في جسمه فيبلغها بذلك» (٣) وعن جباب بن الأرت قال أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه قلنا يارسول الله ألا تدعو الله تستنصره لنا فجلس عمرا لونه ثم قال «إن من كان قلبكم ليؤتى بالرجل فيحفر له في الأرض حفرة ويحيا بالنشار فيوضع على رأسه فيجمل فرقتين ما يصر فذلك عن دينه» (٤) وعن علي كرم الله وجهه قال : أيعا رجل حبسه السلطان ظلما فمات فهو شهيد وإن ضربه فمات فهو شهيد . وقال عليه السلام «من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك» وقال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه: تولدون للووت وتعمرون للخراب وتخرجون من ما غنى وتنفرون ما يبق ألاحيدا للسكر وهات الثلاث الفقر والمرض واللووت . وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله بعبده خيرا وأراد أن يصابه صب عليه البلاء صبا ونجحه عليه نجا فإذا دعاه قالت الملائكة صوت معروف وإن دعاه ثانيا قال يارب قال الله تعالى لييك عبدى ومعديك لاتسأنى شيئا إلا أعطيتك أودفت عنك ما هو خير وادخرت لك عندي ما هو أفضل منه فإنا كان يوم القيامة جىء بأهل الأعمال فوقوا أعمالهم بالميزان أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصب عليهم الأجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا

(١) حديث من يرد الله به خيرا يصبر منه البخارى من حديث أبى هريرة (٢) حديث أن رجلا قال يارسول الله ذهب مالي وسقم جسدي فقال لا خير في عبد لا ينهب ماله ولا يستقم جسمه إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره ابن أبى الدنيا في كتاب المرض والكفارات من حديث أبى سعيد الخدرى بإسناد فيه لين (٣) حديث أن الرجل ليكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى ينتلى بيلاه في جسمه فيبلغها بذلك أبو داود في رواية ابن داسه وابن العبد من حديث محمد بن خالد السلمى عن أبيه عن جده وليس في رواية التوثوى ورواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى من هذا الوجه ومحمد بن خالد لم يروعه إلا أبو الليث الحسن بن عمر الرقى وكذلك لم يروعه خالد إلا ابنه محمد وذكر أبو نعيم أن ابن منده سمى جده اللجلاج بن سليم فأنه أعلم وعلى هذا فأنه خالد بن اللجلاج العامرى ذاك مشهور روى عنه جماعة ورواه ابن منده وأبو نعيم وابن عبد البرقى الصحابة من رواية عبد الله بن أبى إياس بن أبى فاطمة عن أبيه عن جده ورواه البيهقى من رواية إبراهيم السلمى عن أبيه عن جده فأنه أعلم (٤) حديث جباب بن الأرت أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه الحديث تعقم .

قلبي بهذا قط جنى
ما تقيت بأن أحترم
وأفصد . ومن آداب
الشيخ التزول إلى
حال المردين من
الرفق بهم وبسطهم .
قال بعضهم : إذا رأيت
الفقير الله بالرفق ولا
تلقه بالعلم فإن الرفق
يؤنسه والعلم يوحشه
فاذا فصل الشيخ
هذا المعنى من الرفق
يتدرج للريد بركة
ذلك إلى الاتضاع
بالعلم فيعامل حينئذ
بصرح العلم . ومن
آداب الشيخ
التعطف على الأصحاب
وقضاء حقوقهم في
الصحة والمرض ولا
يترك حقوقهم اعتمادا
على إرادتهم وصدقهم

فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تفرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب ﴿ فذلك قوله تعالى - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ (١) - وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال شكنا نبي من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه فقال يارب العبد المؤمن يطيعك ويعتصم بمعاصيك تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويجترى عليك وظي معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا فأوحى الله تعالى إليه إن العباد لي والبلاء لي وكل يسبح بحمدي فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقاني فأجزيه بحسناته ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له في الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فأجزيه بسيئاته . وروى أنه لما نزل قوله تعالى - من يعمل سوءا يجز به - قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ غفر الله لك يا أبا بكر أليس تعرض ألسنتك بصيحتك الأذى ألسنتك تحزن فهذه مما تجزون به ﴾ (٢) ، يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك . وعن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ﴿ إذا رأيت الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج ثم قرأ قوله تعالى - فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء - ﴾ (٣) ، يعني لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخير حتى إذا فرحوا بما أوتوا مما عطا أعطوا من الخير أخذناهم بغتة . وعن الحسن البصري رحمه الله أن رجلا من الصحابة رضي الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها في الجاهلية فكلمها ثم تركها فجعل رجل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط فأثر في وجهه فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إذا أراد الله بعبده خيرا عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا ﴾ (٤) ، وقال علي كرم الله وجهه ألا أخبركم بأرجى آية في القرآن قالوا بلى فقرأ عليهم - وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير - فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار فإذا عاقبه الله في الدنيا فآله أكرم من أن يعذبه ثانيا وإن عفا عنه في الدنيا فآله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ﴿ ما جرح عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ولا قطرت قطرة

(١) حدث أنس إذا أراد الله بعبده خيرا وأراد أن يصايبه صب عليه البلاء صبا الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشي عن أنس أخصر منه دون قوله فإذا كان يوم القيامة إلى آخره وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان ورواه الأصفهاني في الترهيب والترهيب بتمامه وأدخل بين بكر وبين الرقاشي ضرار بن عمرو وهو أيضا ضعيف (٢) حديث لما نزل قوله تعالى - من يعمل سوءا يجز به - قال أبو بكر الصديق كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ غفر الله لك يا أبا بكر أليس تعرض ألسنتك بصيحتك الأذى ألسنتك تحزن فهذه مما تجزون به ﴾ (٣) حديث عقبة بن عامر إذا رأيت الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج الحديث أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب بسند حسن (٤) حديث الحسن البصري في الرجل الذي رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط الحديث وفيه إذا أراد الله بعبده خيرا عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا أحمد والطبراني بإسناد صحيح من رواية الحسن بن عبد الله بن معقل مرفوعا ومتصلا ووصله الطبراني أيضا من رواية الحسن بن عمار بن ياسر ورواه أيضا من حديث ابن عباس وقد روى الترمذي وابن ماجه الرفوع منه من حديث أنس وحسنه الترمذي .

قال بعضهم لا تضع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة . وحكى عن الجريري قال وافيت من الحج فابتدأت بالجنيب وصلت عليه وقلت حتى لا يتعنى ثم أتيت منزلي فلما صليت الغداة التفت وإذا بالجنيب خلفي فقلت يا سيدي إنما ابتدأت بالسلام عليك لكيلا تتعنى إلى ههنا فقال لي يا أبا محمد هذا ححك وذاك فضلك . ومن آداب الشيوخ أنهم إذا عدوا من بعض المترشدين ضعفا في مراعاة النفس وقهرها واعتاد صدق العزيمة أن يرققوا

أحب إلى الله من قطرة دم أهرقت في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله ، وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى صلاة الفريضة وخطوة إلى صلاة الرحم (١) . وعن أبي الورداء قال : توفي ابن لسليان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجدا شديدا فأناه ملكان فحشا بين يدي في زى الحصى ، فقال أحدهما : بذرت بذراقتها استصد مر به هذا فأفسده ، فقال للآخر ما تقول ، فقال أخذت الجادة فأنتيت على زرع فنظرت يمينا وشمالا فإذا الطريق عليه ، فقال سليمان عليه السلام ولم بذرت على الطريق أمعلت أن لا بد للناس من الطريق . قال فلم تعزني على ولدك أمعلت أن اللوت سبيل الآخرة كتاب سامان إلى ربه ولم يجزع على ولد بعد ذلك . ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض ، فقال يا بني : لأن تكون في ميزاني أحب إلى من أن أكون في ميزانك ، فقال يا أبت لأن يكون ما أحب أحب إلى من أن يكون ما أحب . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه نعى إليه ابنة له فاسترجع وقال عورة سترها الله تعالى ومؤنة كفاها الله وأجر قد ساقه الله ثم نزل فضلى ركعتين ثم قال قد صنعنا ما أمر الله تعالى . قال تعالى - واستعينوا بالصبر والصلاة - . وعن ابن المبارك أنه مات له ابن فزاه مجوسى يعرفه ، فقال له يبنى للعاقل أن يفعل اليوم ما يفضله الجاهل بعد خمسة أيام ، فقال ابن المبارك كتبوا عنه هذه . وقال بعض العلماء إن الله ليتلى العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمضى على الأرض وما له ذنب . وقال الفضيل : إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير . وقال حاتم الأصم إن الله عز وجل محتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس على الأغنياء بسليمان وعلى الفقراء بالمسيح وعلى العبيد يوسف وعلى المرضى بأبيوب صلوات الله عليهم . وروى أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بنى إسرائيل واختفى في الشجرة صر فوذلك فجىء بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار إلى رأس زكريا فأن منه أنه فأوحى الله تعالى إليه يا زكريا لأن سعدت منك أنة ثانية لأحونك من ديوان النبوة فضض زكريا عليه السلام على أصبه حتى قطع شطرين . وقال أبو السعود البلخي : من أصيب بمصيبة فمزق ثوبا أو ضرب صدره فكأنما أخذ رجا يريد أن يقاتل به ربه عز وجل . وقال لقمان رحمه الله لابنه : يا بني إن الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء فإذا أحب الله فوما ابتلاه ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط . وقال الأحنف بن قيس : أصبحت يوما أشتكى ضرسى ، فقلت لعسى ماتت البارحة من وجع الضرس حتى قلتها ثلاثا ، فقال : لقد أكرت من ضرسك في ليلة واحدة وقد ذهبت عيني هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد . وأوحى الله تعالى إلى عزير عليه السلام إذا نزلت بك بلية فلا تشكى إلى خلقى واشك إلى كالأشكوك إلى ملائكتى إذا سعدت مساويك وفضأحك نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل في الدنيا والآخرة .

(١) حديث أنس ما تجرع عبد قط جرتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم ، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها الحديث أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث على بن أبي طالب دون ذكر الجرتين وفيه محمد بن صدقة وهو الفدكي منكر الحديث وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر باسناد جيد ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاه وجه الله وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة ما قطر في الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل الحديث وفيه محمد بن صدقة ، وهو الفدكي منكر الحديث .

به ويوقوه على حد الرخصة ففي ذلك خير كثير وما دام العبد لا يتخطى حريم الرخصة فهو حر ثم إذا ثبت وخالط الفقراء وتدرج في لزوم الرخصة يدرج بالرفق إلى أوطان العزيمة . قال أبو سعيد بن الأعرابي كان شاب يحرف إبراهيم الصانع وكان لأبيه نعمة فاقطع إلى الصوفية وصحب أبا أحمد القلانسي فربعما كان يقع يد أبي أحمد شيء من الدراهم فكان يشتري له الرقاق والشواء والحلواء ويؤثره عليه ويقول هذا خرج من الدنيا وقد تعود

(بيان فضل النعمة على البلاء)

لعلك تقول هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم فهل لنا أن نسأل الله البلاء . فأقول لاوجه لذلك لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان يستعبد في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة (١) » وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة (٢) » وكانوا يستمذون من شماتة الأعداء وغيرها (٣) . وقال على كرم الله وجهه اللهم إني أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم « لقد سألت الله البلاء فأسأله العافية (٤) » وروى الصديق رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « سلوا الله العافية فما أعطى أحد أفضل من العافية إلا اليقين (٥) » وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجمل والشك ضافية القلب أهل من عافية البدن . وقال الحسن رحمه الله الخير الذي لاشر فيه العافية مع الشكر فكمن منعم عليه غير شاكر . وقال مطرف بن عبد الله لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أتلى فأصبر وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه « وعافيتك أحب إلي (٦) » وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين : أحدهما بالاضافة إلى ما هو أكثر منه إماني الدنيا أوفى الدين ، والآخر بالاضافة إلى ما يرجى من الثواب فينبغي أن نسأل الله تمام النعمة في الدنيا ودفع ما فوقعه من البلاء ويسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته فانه قادر على أن يعطى على الشكر ما لا يعطيه على الصبر . فان قلت : فقد قال بعضهم أود أن أكون جسرا على النار يعبر على الخلق كلهم فينجون وأكون أنا في النار وقال ممنون رحمه الله تعالى :

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاخترني

فهذا من هؤلاء سؤال البلاء فاعلم أنه حكى عن ممنون الحب رحمه الله أنه بلى بعد هذا البيت بعبارة الحصر فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان : ادعوا العمكم الكذاب . وأما محبة الانسان ليكون هو في النار دون سائر الخلق فغير ممكنة ولكن قد تنقلب المحبة على القلب حتى يظن المحب بنفسه حبا لمثل ذلك فمن شرب كأس المحبة سكر ومن سكر توسع في الكلام ولوزايله سكره علم أن ما غلب عليه كان حالة للاحقية لها فاسمته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبهم وكلام العشاق

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعبد في دعائه من بلاء الدنيا والآخرة أحمد من حديث بشر بن أبي أرطاة بلفظ أجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة وإسناده جيد ولأبي داود من حديث عائشة اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة وفيه بقية وهو مدلس ورواه بالنعنة (٢) حديث كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار البخاري ومسلم من حديث أنس كان أكثر دعوة يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم آتنا في الدنيا الحديث ولأبي داود والنسائي من حديث عبد الله بن السائب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين الركنين ربنا آتتنا الحديث (٣) حديث كان يستعبد من شماتة الأعداء تقدم في الدعوات (٤) حديث قال على رضي الله عنه اللهم إني أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم لقد سألت الله البلاء فله العافية الترمذي من حديث معاذ في أثناء حديث وحسنه ولم يسم عليا وإنما قال سمع رجلا وله وللنسائي في اليوم والليلة من حديث على كنت ساكنا ثم بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول الحديث وفيه فان كان بلاء فصرني فضربه برجله وقال اللهم عافه واشفه وقال حسن صحيح (٥) حديث أبي بكر الصديق سلوا الله العافية الحديث ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة بإسناد جيد وقد تقدم (٦) حديث وعافيتك أحب إلي ذكره ابن اسحق في السيرة في دعائه يوم خرج إلى الطائف بلفظ وعافيتك أوسع لي وكذا رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسلا

النعمة فيجب أن نفرق به وتوثره على غيره . ومن آداب الشيوخ التنزه عن مال المرید وخدمته والارتفاق من جانبه بوجه من الوجود لأنه جاء الله تعالى فيجعل نفسه وإرشاده خالصا لوجه الله تعالى فما يسدى الشيخ للمريد من أفضل الصدقات . وقد ورد « ماتصدق متصدق بصدقة أفضل من علم بيته في الناس » وقد قال الله تعالى تنبها على خلوص ما لله وحراسته من الشوائب . إنا نطمعكم لوجه الله لا يزيد منكم جزاء ولا شكورا فلا ينبغي للشيخ أن يطلب

يستلذ سماعه ولا يحول عليه كما حكى أن فاختة كان يرادها زوجها فتمننه فقال مالكى يملك عنى ولوأردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهرا لبطن لعلته لأجلك فسمعه سليمان عليه السلام فاستداه وعابه فقال يابى الله كلام العشاق لا يحكى وهو كما قال ، وقال الشاعر :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

وهو أيضا محال ومناه أن أريد ما لا يريد لأن من أراد الوصال ما أراد الهجر فكيف أراد الهجر الذى لم يرد به بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين : أحدهما أن يكون ذلك فى بعض الأحوال حتى يكتب به مرضاه الذى يتوصل به إلى مراد الوصال فى الاستقبال فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب والوسيلة إلى المحبوب محبوبة فيكون مثاله مثال محب المال إذا سلم درهمين فى درهمين فهو يحب الدرهمين يترك الدرهم فى الحال . الثانى أن يصير رضاه عنده مطلوباً من حيث إنه رضاه فقط ويكون له لذة فى استشعاره رضاه محبوبة منه تزيد تلك اللذة على لذته فى مشاهدته مع كراهته فمذ ذلك يتصور أن يريد ما فيه الرضا فلا ذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم فى البلا مع استشعارهم رضاه الله عنهم أكثر من لذتهم فى العافية من غير شعور الرضا فهو لاء إذا قدر وارضاه فى البلا صار البلا أحب إليهم من العافية وهذه حالة لا يعد وقوعها فى غلبات الحب ولكنها لا تثبت وإن ثبتت مثلاً فهل هى حالة صحيحة أم حالة اقتضاها حالة أخرى وردت على القلب فالت به عن الاعتدال هذا فيه نظر وذكر تحقيقه لا يلبق بما نحن فيه وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلا فسأل الله تعالى لأن بفضل على جميع خلقه الصفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين .

(بيان الأفضل من الصبر والشكر)

اعلم أن الناس اختلفوا فى ذلك فقال قائلون الصبر أفضل من الشكر وقال آخرون الشكر أفضل وقال آخرون هما سيات وقال آخرون مختلف ذلك باختلاف الأحوال واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل فلامعنى للتطوير بالنقل بل المبادرة إلى إظهار الحق أولى فقول فى بيان ذلك مقامان : المقام الأول البيان على سبيل التساهل وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ولا يطلب بالتفتيش عميقته وهو البيان الذى يبنى أن يخاطب به عوام الخلق لتصور أفهامهم عن ذلك الحقائق الغامضة وهذا الفن من الكلام هو الذى يبنى أن يتممه الومعاظ إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم والنظر المشفقة لا يبنى أن تصلح الصبي الطفل بالطيور السان وضروب الحلوات بل باللين اللطيف وعليها أن تؤخر عنه أطيب الأطعمة إلى أن يصير محتملاً لها بقوته ويفارق الضعف الذى هو عليه فى بنيتها فنقول : هذا المقام فى البيان بأبى البحث والتفصيل ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع وذلك يقتضى تفضيل الصبر فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة فى فضله فإذا أضيف إليه ما ورد فى فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر بل فيه ألفاظ صريحة فى التفضيل كقوله صلى الله عليه وسلم « من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ^(١) » وفى الخبر « يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له : أما ترضى أن يهزبك كما جزينا هذا الشاكر ، فيقول نعم يارب فيقول الله تعالى : كلا أنصمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت لأضفن لك الأجر عليه فيعطى أضناف جزاء الشاكرين ^(٢) » وقد قال الله تعالى - وإنما يؤتى الصابرون أجرهم بغير حساب - وأما قوله « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر ^(٣) »

ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسنداً وفيه من يجهل (١) حديث من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر تقدم (٢) حديث يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض الحديث لم أجده أصلاً (٣) حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

على صدقته جزاء إلا أن يظهر له فى شيء من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى فى قبول الرفق منه أو صلاح يترامى للشيخ فى حق اللريد بذلك فيكون التلبس به والارتفاق بخدمته لمصلحة تعود على اللريد مأمونة الفاسدة من جانب الشيخ قال الله تعالى - يؤتىكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم إن يسألكموها فيضكم تبخلوا ويخرج أضغانكم - معنى يحضركم أى يجهدكم وبلغ عليكم . قال قتادة : علم الله تعالى أن فى خروج المال إخراج الأضغان وهذا

فهو دليل على أن الفضيلة في الصبر إذ ذكر ذلك في معرض البالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر وهو كقوله صلى الله عليه وسلم «الجمعة حجج السالكين وجهاد للمرأة حسن التبع (١)» وكقوله صلى الله عليه وسلم «شارب الخمر كما بد الوثن (٢)» وأبدا التشبه به ينبغي أن يكون أعلى رتبة فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم «الصبر نصف الإيمان» لا يدل على أن الشكر مثله، وهو كقوله عليه السلام «الصوم نصف الصبر» فإن كل ما ينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفاً وإن كان بينهما تفاوت كما يقال الإيمان هو العلم والعمل فالعمل هو نصف الإيمان فلا يدل ذلك على أن العمل يساوي العلم، وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبدالرحمن بن عوف لمكان غناه (٣)» وفي خبر آخر «يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً (٤)» وفي الخبر «أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه مصراع واحد وأول من يدخله أهل البلاء أمامهم أيوب عليه السلام (٥)» وكل ما ورد في فضائل التقوى يدل على فضيلة الصبر لأن الصبر حال الفقير والشكر حال الثني، فهذا هو القام الذي يقع العوام ويكتفيهم في الوعظ والاتق والتعريف لما فيه صلاح دينهم. القام الثاني: هو البيان الذي تصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بمقائق الأمور بطريق الكشف والايضاح فنقول فيه: كل أمرين مبهمين لا يمكن للوازنة بينهما مع الإبهام ما لم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما وكل مكشوف يشتمل على أقسام لا يمكن للوازنة بين الجملة والجملة بل يجب أن تفرد الأحاد بالوازنة حتى يتبين الرجحان والصبر والشكر أقسامهما وشبههما كثيرة فلا يتبين حكمهما في الرجحان

(١) حديث الجمعة حجج السالكين وجهاد للمرأة حسن التبع الحارث بن أبي أسامة في مسنده بالشطر الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف أو الطبراني بالشرط الثاني من حديثه بسند ضعيف أيضاً أن امرأة قالت كتب الله الجهاد على الرجال فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة قال طاعة أزواجهن وفي رواية ماجزء غزوة للمرأة قال طاعة الزوج الحديث وفيه القاسم بن فياض وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وباقي رجاله ثقات (٢) حديث شارب الخمر كما بد الوثن ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ مدمن الخمر ورواه بلفظ شارب الخمر الحارث بن أبي أسامة من حديث عبدالله بن عمر وكلاهما ضعيف وقال ابن عدى إن حديث أبي هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصهباني (٣) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبدالرحمن بن عوف لمكان غناه الطبراني في الأوسط من حديث معاذ بن جبل يدخل الأنبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة بأربعين عاماً وقال لم يروه إلا شعيب بن خالد وهو كوفي ثقة، وروى البراز من حديث أنس أول من يدخل الجنة من أغنياء أمي عبدالرحمن بن عوف وفيه أغلب بن تميم ضعيف (٤) حديث يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً تقدم حديث معاذ قبله ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك ودينار الحبشي أحد الكذابين على أنس والحديث منكر (٥) حديث أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه باب واحد الحديث لم أجده أصلاً ولا في الأحاديث الواردة في مصاريع أبواب الجنة تفرقة، فروى مسلم من حديث أنس في الشفاعة والذي تصد محمد بن عبد الله إن ما بين للصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى وفي الصحيحين في خطبة عتبة بن غزوان ولقد ذكر لنا أن ما بين الصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة وليأتين عليه يوم وهو كظيم من الرحام.

تأديب من الله الكريم والأدب أدب الله . قال جعفر الخلدی جاء رجل إلى الجنيد وأراد أن يخرج عن ماله كله ويجلس معهم على الفقر فقال له الجنيد لا تخرج من مالك كله احبس منه مقدار ما يكفيك وأخرج الفضل وتوت بما حبست واجتهد في طلب الحلال لا تخرج كل ما عندك فاست آمن عليك أن تطالبك نفسك وكان النبي عليه السلام إذا أراد أن يعمل عملاً ثبت وقد يكون الشيخ يعلم من حاله للريد أنه إذا خرج من الشيء يكسبه من

والنقصان مع الاجمال فنقول : قد ذكرنا أن هذه اللقائات تنتظم من أمور ثلاثة : علوم وأحوال وأعمال والشكر والصبر وسائر اللقائات هي كذلك وهذه الثلاثة إذا وزن البعض منها البعض لاجل الناظرين في الظواهر أن العلوم تراد للأحوال والأحوال تراد للأعمال والأعمال هي الأفضل. وأما أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك فإن الأعمال تراد للأحوال والأحوال تراد للعلوم فالأفضل العلوم ثم الأحوال ثم الأعمال لأن كل مراد لغيره فذلك الغير لا محالة أفضل منه . وأما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تساوى وقد تفاوتت إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد المعارف وأفضل للمعارف علوم المكاشفة وهي أرفع من علوم للعاملة بل علوم للعاملة دون للعاملة لأنها تراد للعاملة ففائدتها إصلاح العمل وإنما فضل العالم للمعاملة على العابد إذا كان علمه مما يميمّ فمه ، فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل وإلنا العلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر فنقول : فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب وفائدة إصلاح حال القلب أن يكشف له جلال الله تعالى في ذاته وصفاته وأفضاله فأرفع علوم للمكاشفة معرفة الله سبحانه وهي الغاية التي تطلب لذاتها فإن السعادة تنال بها بل هي عين السعادة ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة وإنما يشعر بها في الآخرة فهي للمعرفة الحرة التي لا قيد عليها فلا تتقيد بغيرها وكل ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالإضافة إليها فإنها إنما تراد لأجلها ولما كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب نفعها في الإفضاء إلى معرفة الله تعالى فإن بعض المعارف يفضي إلى بعض إما بواسطة أو بوسائط كثيرة فكلما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقلّ فهي أفضل . وأما الأحوال فنفعي بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائبه الدنيا وشواغل الخلق حتى إذا ظهر وصفاته أوضح له حقيقة الحق فاذن فضائل الأحوال بقدر تأثيرها في إصلاح القلب وتطهيره وإعادة له أن تحصل له علوم للمكاشفة ، وكما أن تصديق المرأة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال للمرأة بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض فكذلك أحوال القلب فالحالة القريبة أو القربة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لأحالة بسبب القرب من القصد وهكذا ترتيب الأعمال فإن تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه وكلّ عمل إيمان يجلب إليه حالة مأمنة من المكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة إلى زخارف الدنيا وإما أن يجلب إليه حالة مهينة للمكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه واسم الأول العصية واسم الثاني الطاعة والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الأحوال ، وذلك أنا بالقول للطلق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة وأن الحج أفضل من الصدقة وأن قيام الليل أفضل من غيره ولكن التحقيق فيه أن النفي القدي معه مال وقد غلبه البخل وحب المال على إيساكه فأخرج الدرهم له أفضل من قيام ليل وصيام أيام لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرهما أو منعه الشبع عن صفاء القسك من علوم للمكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع فأما هذا اللدبر إذا لم تكن حاله هذه الحال فليس يستضرّ شهوة بطنه ولا هو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره وهو كالمرضى الذي يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به بل حقه أن ينظر في الهلك الذي استولى عليه والشح الطاع من جملة المهلكات ولا يزال صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة بل لا يزاله إلا إخراج المال فعليه أن يتصدق بما معه ، وتفصيل هذا مما ذكرناه في ربيع للمهلكات فارجع إليه فاذن باعتبار هذه الأحوال يختلف وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب للطلق فيه خطأ

الحال ما لا يتطلع به إلى المال حينئذ يجوز له أن يفسح للرديد في الخروج من المال كما فسح رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وقبل منه جميع ماله ، ومن آداب الشيخ إذا رأى من بعض الرديدين مكروها أو علم من حاله اعوجاجا أو أحسن منه بدعوى أو رأى أنه داخله عجب أن لا يصرح له بالمكروه بل يتكلم مع الأصحاب ويشير إلى المكروه الذي يعلم ويكشف عن وجه اللزمة جهلا فتصل بذلك الفائدة لكل فهذا أقرب إلى الدارات وأكثر أثرا تألف

إذ لو قال لنا قائل الحبز أفضل أم الماء لم يكن فيه جواب حتى إلا أن الحبز للجائع أفضل والماء للعطشان أفضل فان اجتماعا فليظنر إلى الأغلب فان كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل وإن كان الجوع أغلب فالحزب أفضل فان تساويا فهما متساويان وكذا إذا قيل السكجيين أفضل أم شراب الينوفرم يصح الجواب عنه مطلقا أصلا ، ثم لو قيل لنا السكجيين أفضل أم عدم الصفراء . فنقول : عدم الصفراء لأن السكجيين مراد له وما يراد لغيره فذلك الغير أفضل منه لاهالة فاذن في بذل المال عمل وهو الإنفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب ويتبأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وجهه فالأفضل للرفة ودونها الحال ودونها العمل . فان قلت قد حث الشرع على الأعمال وبالغ في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله - من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا - وقال تعالى - وبأخذ الصدقات - فكيف لا يكون الفعل والاتفاق هو الأفضل . فاعلم أن الطبيب إذا أتى على الدواء لم يبدل على أن الدواء مراد لعينه أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب ومرض القلوب مما لا يشرب به ظالما فهو كبرص على وجه من لامرأة معه فانه لا يشرب به ولو ذكر له لا يصدق به والسيل معه للبالغة في الشتاء على غسل أوجه بماء الورد مثلا إن كان ماء الورد يزيل البرص حتى يستحبه فرط الشتاء على المواظبة عليه فيزول مرضه فانه لو ذكر له أن القصد زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه ولنضرب مثلا أقرب من هذا فنقول : من له ولد علمه العلم والقرآن وأراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليبقى له محفوظا لقال إنه محفوظ ولا حاجة إلى تكرار ودراسة لأنه يظن أن ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبدا وكان له عبيدا فامر الولد بتعليم العبيد ووعده على ذلك بالجليل لتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم فربما يظن الصبي السكين أن القصد تعليم العبيد القرآن وأنه قد استخدم لتعليمهم فيشكل عليه الأمر فيقول ما بالي قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجل منهم وأعز عند الوالد وأعلم أن أبي لو أراد تعليم العبيد لقد علمه دون تكاليفي به وأعلم أنه لا نقصان لأبي بقصد هؤلاء العبيد فضلا عن عدم علمهم بالقرآن فربما يتكاسل هذا للسكين فيترك تعليمهم اعتادا على استغناء أبيه وعلى كرمه في الضعفة فيفسى العلم والقرآن ويسقى مدبرا محروما من حيث لا يدري وقد انخدع بمنثل هذا الخيال طائفة وسلكوا طريق الإباحة وقالوا إن الله تعالى غنى عن عبادتنا وعن أن يستقرض منا فأى معنى لقوله - من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا - ولو شاء الله إطعام الساكين لأطعمهم فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم كما قال تعالى حكاية عن الكفار - وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قالوا الذين كفروا للذين آمنوا أن نطعم من لو يشاء الله أطعمهم وقالوا أيضا - لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا - فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم فسبحان من إذا شاء أهلكت بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل يضل به كثير أو يهدى به كثيرا فهؤلاء لما ظنوا أنهم استخدموا لأجل الساكين والفقراء أو لأجل الله تعالى ثم قالوا لاحظنا في الساكين ولا حظ لله فينا وفي أموالنا سواء أفتقنا أو أمسكنا هلكوا كاهلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل العبيد ولم يشعر بأنه كان القصد نبات صفة العلم في نفسه وتأن كمن في قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا وإنما كان ذلك من الوالد تطفئا به في استجراره إلى ما فيه سعادته ، فهذا للتاليين لك ضلال من ضل من هذا الطريق فاذن للسكين الإختلاط يستوفى بواسطة المال حيث البخل وحب الدنيا من باطنك فانه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج بمخرج الدم العلة الهلكة من باطنك فالجمام خادم لك لأنك خادم للجمام ولا يخرج الجمام عن كونه خادما بأن يكون له

القلوب وإذا رأى من
المريد تقصيرا في خدمة
نديه إليها عمل تقصيره
ويغفو عنه ويعرضه
على الخدمة بالرفق
واللين وإلى ذلك نذب
رسول الله صلى الله
عليه وسلم فيما أخبرنا
ضياء الدين عبد الوهاب
ابن علي قال أنا أبو الفتح
الكروخي قراءة عليه
قال أنا أبو نصر الترياق
قال أنا أبو محمد الجراحی
قال أنا أبو العباس
الحجوي قال أنا أبو عيسى
الترمذي قال ثنا حنيفة
قال ثنا رشدين بن
سعد عن أبي هلال
الحولاني عن ابن
عباس بن جليد
الحجري عن عبد الله بن

غرض في أن يصنع شيئا بالدم ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ومزكية لها عن خبايا الصفات امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها وانتهى عنها (١) كما نهى عن كسب الحجام وسماها أو ساع أموال الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها (٢) والقصود أن الأعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربيع الهلكات والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة فهذا هو القول الكلي والقانون الأصلي الذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال والأحوال والمعارف ولنرجع الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر فنقول في كل واحد منهما معرفة وحال وعمل فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال أو العمل في الآخر بل يقابل كل واحد منهما بنظيره حتى يظهر التناسب وبهذا التناسب يظهر القضل ومهما توصلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفة واحدة إذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة المنيين مثلا من الله تعالى ومعرفة الصابر أن يرى العمى من الله وهما معرفتان متلازمتان متساويتان هذا إن اعتبرت في البلاء والصائب وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن اللصيق وفيها يتعد الصبر والشكر لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو القصد منها بالحكمة والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى فالصبر والشكر فيه إيمان لسمى واحد باعتبارين مختلفين ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالإضافة إلى باعث الهوى ويسمى شكرا بالإضافة إلى باعث الدين إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة وهو أن يصرع به باعث الشهوة وقد صرفه إلى مقصود الحكمة فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشيء على نفسه فاذن مجازي الصبر ثلاثة : الطاعة والوصية والبلاء وقد ظهر حكمها في الطاعة والوصية وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة والنعمة إما أن تقع ضرورية كالعينين مثلا وإما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال أما العينان فصر الأعمى عنهما بأن لا يظهر أن يشكوى ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ولا يترخص بسبب العمى في جش الماصي وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين : أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية ، والآخر أن يستعملهما في الطاعة وكل أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر فإن الأعمى كفى الصبر عن الصور الجميلة لأنه لا يراها والبصير إذا وقع بصره على جميل فصر كان شاكرًا لنعمة العينين وإن أتبع النظر كفر نعمة العينين فقد دخل الصبر في شكره وكذا إذا امتان بالعينين على الطاعة فلا بد أيضا فيه من صبر على الطاعة ثم قد يشكرها بالنظر إلى هجاب صنع الله تعالى ليتوصل به إلى معرفة أسبغائه وتعالى فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا وقد كان ضريرا من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء لأنه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر مثلا وكان الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويترك كلكم على وضغ ذلك محال جدا لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدين يفوت فبوتها ذلك الركن من الدين وشكرها باستعمالها فيها هي آلة في دين وذلك لا يكون إلا بصبر وأما ما يقع في محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ما وراءه في الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقير ووجود الزيادة نعمة وشكرها أن تصرف إلى الخيرات أو أن لا تستعمل في المعصية فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل لأنه تضمن الصبر أيضا وفيه فرح بنعمة الله

(١) حديث النهي عن كسب الحجام تقدم (٢) حديث امتنع من الصدقة وسماها أو ساع الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها مسلم من حديث عبد اللطيف بن ربيعة إن هذه الصدقة لا عمل لنا إنما هي أو ساع القوم وإنما لا عمل الحمد ولا لآل محمد وفي رواية له أو ساع الناس .

عمر قال جاء رجل إلى النبي عليه السلام فقال يا رسول الله كم أعفو عن الخادم قال «كل يوم سبعين مرة» وأخلاق للشايخ مهدي بحسن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أحق الناس باحياء سنته في كل ما أمر وندب وأنكروا وأوجب ومن جملة مهام الآداب حفظ أسرار الريدين فيها يكاشفون به ويعتجون من أنواع للنسج فسر الريد لا يتعدى ربه وشيخه ثم يحقر الشيخ في نفس الريد ما يجده في خلوته من كشف أو سماع خطاب أو شيء من خوارق العادات يعرفه

تعالى وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء وترك صرفه إلى التتم المباح وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد وأن الجملة أعلى رتبة من البعض وهذا فيه خلل إذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين أعضائها وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه إلى التتم المباح فالصبر هنا أفضل من الشكر والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله الصارف إياه إلى المباحات لأن الغني الصارف ماله إلى الخيرات لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نعمته وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى وهذه الحالة تستدعي لامحالة قوة والغني أتبع نعمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح والمباح فيه مندوحة عن الحرام ولكن لا بد من قوة في الصبر عن الحرام أيضا إلا أن القوة التي عنها يصدر صبر الفقير أعلى وأتم من هذه القوة التي يصدر عنها الاقتصار في التتم على المباح والشرف لتلك القوة التي يبدل العمل عليها فان الأعمال لا تراد إلا لأحوال القلوب وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والایمان فسادل على زيادة قوة في الايمان فهو أفضل لامحالة وجميع ماورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات والأخبار إنما أريد به هذه الرتبة على المحصر لأن السابق إلى أنفهام الناس من النعمة والأموال والغني بها والسابق إلى الأنفهام من الشكر أن يقول الانسان الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية لأن يصرفها إلى الطاعة ، فاذن الصبر أفضل من الشكر أي الصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة وإلى هذا للغني على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله حيث مثل عن الصبر والشكر أيهما أفضل فقال ليس مدح الغني بالوجود والمدح الفقير بالعدم وإنما المدح في الاثنين قيامهما بشروط ما عليهما فشرط الغني يصحبه فيما عليه أشياء تلام صفة وتمتعها وتلدها والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تلام صفة وتقبضها وتزججها فاذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشرط ما عليهما كان الذي آلم صفة وأزججها أتم حالا ممن متع صفة ونعمها والأمر على ما قاله وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر في القسم الأخير الذي ذكرناه وهو لم يرد سواء ويقال كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر فدعا عليه الجنيد فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده وإتلاف أمواله وزوال عقله أربع عشرة سنة فكان يقول دعوة الجنيد أصابني ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر ومهما لاحظت المعاني التي ذكرناها علمت أن لكل واحد من القولين وجهها في بعض الأحوال فرب فقير صابر أفضل من غني شاكر كما سبق ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر وذلك هو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير إذ لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات أو يمسكه على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين وللساكين وإنما ينتظر حاجه تسنح حتى يصرف اليها ثم إذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولا تقليد منة بل أداء لحق الله تعالى في تفقد عباده فهذا أفضل من الفقير الصابر . فان قلت فهذا لا يثقل على النفس والفقير يتحمل عليه الفقر لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذلك يستشعر ألم الصبر فان كان متألما جفراق اللال فينجبر ذلك ببلدته في القدرة على الانفاق . فاعلم أن الذي نراه أن من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكل حالا ممن ينفقه وهو يجمل به وإنما يقطع عن نفسه قهرا وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة في أيام النفس ليس مطاوعا بعينه بل لتأديها وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد والكلب التأديب أكل من الكلب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابرا على الضرب ولذلك محتاج إلى الإيلام والمجاهدة في البداية ولا يحتاج إليها في النهاية بل النهاية أن يصير ما كان مؤلما في حقه لدينة عنده كما يصير التلم عند الصبي العاقل لذيذا وقد كان مؤلما له أو لا ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأقلين في البداية بل قيل البداية بكثير كالصبيان أطلق الجنيد القول بأن الذي يؤلم صفة أفضل وهو كما قال صحيح فيها أراد من عموم الخلق ، فاذا إذا كنت لا تفصل الجواب وتطلقه لإرادة الأكثر

أن الوقوف مع شيء من هذا يشغل عن الله ويسد باب المزيد بل يعرفه أن هذه نعمة تشكر ومن ورائها نهم لا تحصى ويعرفه أن شأن المرید طلب النعم لا النعمة حتى يبقى سره محفوظا عند نفسه وعند شيخه ولا يذيع سره فاذا دعا الأسرار من ضيق الصدر وضيق لإذاعة السر يوصف به النسوان وضعفاء العقول من الرجال وسبب إذاعة السر أن للإنسان قوتين أخذة ومعطية وكلتاها تتشوف إلى الفصل المختص بها ولولا أن الله تعالى وكل للمعطية باظهار ما عندها

فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر فانه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام فإذا أردت التحقيق ففصل فان للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية ووراءها الرضا وهو مقام وراء الصبر ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا يتم فيه ولا فرح والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها ويدخل في جملتها أمور دونها فان حياة المبدى من تابع نعم الله عليه شكر ومعرفة بتقصيره عن الشكر شكر والاعتذار من قلة الشكر والشكر والمعرفة بعظيم حلم الله وكفى ستره شكر والاعتراض بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر والألم بأن الشكر أيضا نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر وشكر الوسائط شكر إذ قال عليه السلام «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» (١) وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة وقلة الاعتراف وحسن الأدب بين يدي النعم شكر وتلقى النعم بحسن القبول واستغظام صغيرها شكر وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها وهي درجات مختلفة فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدها على الآخر إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كما ورد في الأخبار والآثار وقد روى عن بعضهم أنه قال رأيت في بعض الأسفار شيخا كبيرا قد طعن في السن فسألته عن حاله فقال إني كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لي وهي كذلك كانت تهواني فاتفق أنهما زوجت مني فليلقن فافها قلت تعالى حتى نحبي هذه الليلة شكر الله تعالى على ما جمنا فضيلتنا تلك الليلة ولم يتفرغ أحدنا إلى صاحبه فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك فضيلتنا طول الليل فنذ سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة أليس كذلك يا فلانة قالت المعجوز هو كما يقول الشيخ فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقة أن لو لم يجمع الله بينهما وأنسب صبر الفرقة إلى شكر الوصال على هذا الوجه فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل فاذن لاوقوف على حقائق الفضلات إلا بتفضيل كما سبق والله أعلم .

﴿ كتاب الخوف والرجاء ﴾

(وهو الكتاب الثالث من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الرجو لطفه وثوابه الخوف مكره وعقابه الذي عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف آلائه إلى النزول بفنائمه والعدول عن دار بلائه التي هي مستقر أعدائه وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه للمرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته وصدمهم عن التعرض لأئمتهم والتهدف لسخطه وتقمته قودا لأصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمة الرفق والالطف إلى جنته ، والصلاة على محمد سيد أنبيائه وخير خليفته وعلى آله وأصحابه وعترته .

[أما بعد] فان الرجاء والخوف جناحان بهما يطير القربون إلى كل مقام محمود ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كشود فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوفًا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء إلا أزمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم مع كونه محفوفًا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا بسياط التخويف وسطوات التنصيف فلا بد اذن من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادها وتعادها ونحن

(١) حديث من لم يشكر الناس لم يشكر الله تقدم في الزكاة .

﴿ كتاب الرجاء والخوف ﴾

ما ظهرت الأسرار
فكامل العقل كلما
طلبت القوة العقل
قيدها ووزنها بالعقل
حتى يضعها في مواضعها
فيجل حال الشيوخ
عن إذاعة الأسرار
لرزانة عقولهم وينبغي
للمريد أن يحفظ سره
من به في ذلك صحته
وسلامته وتأيد الله
سبحانه وتعالى له
بتدارك الزيد بن
الصادق في مورد
ومصدره .

[الباب الثالث

والحمون في حقيقة

الصحة وما فيها من

الحير والشر]

للتعنى للصحة وجود

الجنسية وقد يدعو

إليها أعم الأوصاف

نجمع ذكرها في كتاب واحد يشتمل على شطرين الشطر الأول في الرجاء والشطر الثاني في الخوف أما الشطر الأول فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء والطريق الذي يحتل به الرجاء .

(بيان حقيقة الرجاء)

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين وإنما يسمى الوصف مقاما إذا ثبت وأقام وإنما يسمى حالا إذا كان تارضا سريع الزوال وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجع وإلى ما هو بينهما كصفرة المريض فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام فالذي هو غير ثابت يسمى حالا لأنه يحول على القرب وهذا جار في كل وصف من أوصاف القلب وغرضنا الآن حقيقة الرجاء فالرجاء أيضا يتم من حال وعلم وعمل فالعلم سبب يشمر الحال والحال يقتضي العمل وكان الرجاء اسما من جملة الثلاثة وبيانه أن كل ما يلائقك من مكروه ومحبوب فينتقم إلى موجود في الحال وإلى موجود فيما مضى وإلى منتظر في الاستقبال فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى مسمى ذكرا وتذكرا وإن كان ما خطر بقلبك موجودا في الحال مسمى وجدا وذوقا وإدراكا وإنما مسمى وجدا لأنها حالة تجدها من نفسك وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال وغلب ذلك على قلبك مسمى انتظارا وتوقعا فإن كان ينتظر مكروها حصل منه ألم في القلب مسمى خوفا وإشفاقا وإن كان محبوبا حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة في القلب وإرتياح مسمى ذلك الارتياح رجاء فالرجاء هو ارتياح القلب للانتظار ما هو محبوب عنده ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد وأن يكون له سبب فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه قاسم الرجاء عليه صادق وإن كان ذلك انتظارا مع انحراف أسبابه واضطرابها قاسم التورر والحق عليه أصدق من اسم الرجاء وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء قاسم التني أصدق على انتظاره لأنه انتظار من غير سبب وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه أما ما يقطع به فلا ، إذ لا يقال أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب لأن ذلك مقطوع به ، نعم يقال أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالأرض والإيمان كالبذر فيه والبطاقات جازية تجري تقليب الأرض وتطهيرها ويجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها والقلب يستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ويوم القيامة يوم الحصاد ولا يحصد أحد إلا ما زرع ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان ولما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه كما لا ينمو بذر في أرض سبخة فينبغي أن يقاس رجاء العبد للفرجة برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوس ثم أمده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته ثم نقي الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته مسمى انتظاره رجاء وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ثم انتظر الحصاد منه مسمى انتظاره حمقا وغرورا لارجاء وإن بث البذر في أرض طيبة لكن لاماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تنبل الأمطار ولا يتمتع أيضا مسمى انتظاره تمنا لارجاء ، فأذن اسم الرجاء وإنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والفسدات فالعبد إذا بث بذر الإيمان وسقاه بماء الطاعات

وقد يدعو إليها أخص الأوصاف فالدعاء بأعم الأوصاف كليل جنس البشر بعضهم إلى بعض والدعاء بأخص الأوصاف كليل أهل كل ملة بعضهم إلى بعض ثم أخص من ذلك كليل أهل الطاعة بعضهم إلى بعض وكليل أهل العصية بعضهم إلى بعض فإذا علم هذا الأصل وأن الجاذب إلى الصعبة وجود الجنسية بالأعم تارة وبالأخص أخرى فليفتقد الإنسان نفسه عند الليل إلى صفة شخص وينظر ما الذي يميل به إلى صحته ويزن أحوال من يميل إليه بميزان الشرع فإن

وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة وانتظر من فضل الله تعالى ثيبته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة للنفسية إلى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا في نفسه باعثا له على اللواظبة والقيام بعقضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت وإن قطع عن بذل الإيمان تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر للمغفرة فانتظاره حق وغرور قال صلى الله عليه وسلم « الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة (١) » وقال تعالى - خلف من بدم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا - وقال تعالى - خلف من بدم خلف ورتوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا - وذن الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال - ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا - فاذن العبد المجهتد في الطاعات المجتنب للمعاصي تحقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة وأما المعاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تصير تحقيق بأن يرجو قبول التوبة وأما قبول التوبة إذا كان كارها للمعصية تسوء السيئة وتسره الحسنه وهو يذم نفسه ويلومها ويشهى التوبة ويشاق إليها تحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجرى مجرى السبب الذى قد يفضى إلى التوبة وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب ولذلك قال تعالى - إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله - معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضا قد يرجو ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يهزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حق كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهد بسقى ولا تقيية . قال مجي ابن معاذ من أعظم الاعتزاز عندى القمادى في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة وانتظار زرع الجنة يبدد النار وطلب دار الطيعين بالمعاصي وانتظار الجزاء بغير عمل والتمنى على الله عز وجل مع الإفراط :

رجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليابس

فاذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بمرجان أكثر الأسباب وهذه الحالة تنجز الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان فان من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاؤه فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدا وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتقر عن تعهدا أصلا إلى وقت الحصاد وهذا لأن الرجاء يضاهي اليأس واليأس يمنع من التعهد فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لا ينبت فيترك لاهماله تفقد الأرض والتعب في تعهدا والرجاء محمود لأنه باعث واليأس مذموم وهو ضده لأنه صارف عن العمل والخوف ليس بضده للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتى بيانه بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة فاذن حال الرجال يورث طول المجاهدة بالأعمال واللواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتتم بمناجاته والتلطف في التعلق له فان هذه الأحوال لا بد وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك أو شخصا من الأشخاص فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى فان كان لا يظهر فليست تدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول في حضيض الغرور والتمنى فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل (١) حديث الأحمق من أتبع نفسه هواها الحديث تقدم غير مرة .

رأى أحواله مسددة
فليشر نفسه بحسن
الحال قد جعل الله
تعالى مرآته مجلوة
يلوح له في مرآة أخيه
جمال حسن الحال وإن
رأى أفضاله غير مسددة
فليرجع إلى نفسه باللائمة
والإتهام فقد لاح له في
مرآة أخيه سوء حاله
قبالجدير أن غر منه
كفراؤه من الأسود
قائما إذا اصطحبا
لزاد اظلمة واعوجاجا
ثم إذا علم من صاحبه
الذى مال إليه حسن
الحال وحكم لنفسه
بحسن الحال طالع ذلك
في مرآة أخيه فليعلم أن
الميل بالوصف الأعم
مركوز في جبلته والميل
بطره واقع وله

وبدل على إسماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم «جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال كيف أصبحت قال أصبحت أحب الخير وأهله وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه وإذا فاتني منه شيء حزنت عليه وحننت إليه قال هذه علامة الله فيمن يريد ولو أراذك للأخرى هيأك لها ثم لا يبالي في أي أوديتها هلكت فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير فن ارتجى أن يكون مراد بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور^(١)».

(بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه)

بحسبه أحكام وللنفس بسببه سكون ووركون فيسلب الميل بالوصف الأعم جدوى الميل بالوصف الأخص ويصير بين للتصاحبين استرواحات طبيعية وتلذذات جلية لا يفرق بينها وبين خلوص الصحبة لله إلا العلماء الزاهدون وقد يفسد المرید الصادق بأهل الصلاح أكثر مما يفسد بأهل الفساد ووجه ذلك أن أهل الفساد علم فساد طريقتهم فأخذ حذره وأهل الصلاح غره صلاحهم فقال إليهم بحسبة الصلاحية ثم حصل بينهم استرواحات طبيعية جلية حالت بينهم وبين

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له والحب يغلب الرجاء واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لثوابه ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغبان لاسياً في وقت الموت قال تعالى - لا تقنطوا من رحمة الله - حرم أصل اليأس وفي أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه أن تدرى لم فرقت بينك وبين يوسف لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأتم عنه غافلون لم خفت الذئب ولم ترجى ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له وقال صلى الله عليه وسلم «لا يعوتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى^(٢)» وقال صلى الله عليه وسلم «يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء^(٣)» وودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في الترع فقال كيف تجردك فقال أجدي أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي فقال صلى الله عليه وسلم ما اجتماع في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله مارجاً وأمنه مما يخاف^(٤)» وقال صلى الله عليه وسلم من أخرج الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه يهذأ بأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك . وقال صفيان : من أذنب ذنباً فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه غفر الله له ذنبه قال لأن الله عز وجل عير قوماً قال - وذلكم ظنكم الذي ظنتم بربكم أرداكم - وقال تعالى - وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً - وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره فإن لعنة الله حجته قال يارب رجوتك وخفت الناس قال فيقول الله تعالى قد غفرت لك^(٥)» وفي الخبر الصحيح «أن رجلاً كان يداين الناس فيسامح الغنى ويتجاوز عن المعسر فلقي الله ولم يعمل خيراً قط فقال الله عز وجل من أحق بذلك منا^(٦)» فضا عنه الحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع إفلاسه عن الطاعات وقال تعالى - إن الذين يتلون كتاب الله

(١) حديث قال زيد الخيل جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد الحديث الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وفيه أنه قال أنت زيد الخير وكذا قال ابن أبي حاتم سماه النبي ﷺ الخير ليس يروى عنه حديث وذكره في حديث يروى قيام زيد الخير فقال بارسول الله الحديث سمعت أبي يقول ذلك (٢) حديث لا يعوتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله مسلم من حديث جابر (٣) حديث أنا عند ظن عبدي بي ما شاء ابن جابر من حديث وائل بن الأسقع وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة دون قوله فليظن بي ما شاء (٤) حديث دخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في الترع فقال كيف تجردك الحديث الترمذي وقال غريب والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث أنس وقال النووي إسناده جيد (٥) حديث إن الله يقول للعبد يوم القيامة ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره الحديث ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد وقد تقدم في الأمر بالمعروف (٦) حديث أن رجلاً كان يداين الناس فيسامح ويتجاوز عن المعسر الحديث مسلم من حديث أبي مسعود حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر قال الله عز وجل نحن أحق بذلك بما جاوزوا عنه وانفق عليه من حديث حذيفة

وأقاموا الصلاة وأتقوا مآزر قنابهم سرا وعلاية يرجون تجارة لن تبور - ولما قال صلى الله عليه وسلم
 ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وخرجتم إلى الصدقات تدمون صدوركم وتجأرون إلى
 ربكم فهبط جبريل عليه السلام فقال إن ربك يقول لك لم تقنط عبادي غفرج عليهم ورجامهم
 وشوقهم (١) وفي الخبر «إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام أحب من يحبني وحبيني إلى
 خلقي فقال يارب كيف أحبيك إلى خلقك قال اذكرني بالحسن الجميل واذكر الآثي وإحساني وذكركم
 ذلك فانهم لا يعرفون مني إلا الجميل (٢)» وروى أبان بن أبي عياش في النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء
 فقال أوقفتني الله تعالى بين يديه فقال ما الذي حملك على ذلك قلت أردت أن أحبيك إلى خلقك فقال
 قد غفرت لك وروى يحيى بن أكرم بعد موته في النوم قيل له ما فعل الله بك فقال أوقفتني الله بين
 يديه وقال يا شيخ السوء فعلت وفعلت قال فأخذني من الرعب ما يعلم الله ثم قلت يارب ما هكذا
 حدثت عنك فقال وما حدثت عنى قلت حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس عن
 نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام أنك قلت أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء
 وكنت أظن بك أن لاتعذبني فقال الله عز وجل صدق جبريل وصدق نبي وصدق أنس وصدق
 الزهري وصدق معمر وصدق عبد الرزاق وصدقت قال فألبست ومشى بين يدي الولدان إلى الجنة
 فقلت يا لها من فرحة . وفي الخبر «أن رجلا من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم قال
 فيقول له الله تعالى يوم القيامة اليوم أويستك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها (٣)» وقال صلى الله
 عليه وسلم «إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي يا حنان يا منان فيقول الله تعالى
 لجبريل اذهب فائتني ببسدي قال فيجىء به فيوقفه على ربه فيقول الله تعالى كيف وجدت مكانك
 فيقول شرمكان قال فيقول ردوه إلى مكانه قال فيمشى ويلتفت إلى ورائه فيقول الله عز وجل إلى
 أي شيء تلتفت فيقول لقد رجوت أن لاتعذبني إليها بعد إذ أخرجتني منها فيقول الله تعالى اذهبوا
 به إلى الجنة (٤)» فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.

(بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء وبغلب)

اعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة وإما رجل غلب
 عليه الخوف فأسرف في اللواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله وهذا رجلان ماثلان عن
 الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال فأما المعاصي للفرور
 التمني على الله مع الاعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب صموما مهلكة في حقه
 وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة بل
 الفرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف والأسباب المهيجة له فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق
 متلطفا ناظرا إلى مواقع العلل معالجا لكل علة بما يضاعها لا بما يزيد فيها فان المطلوب هو المدد

وأبي هريرة بنحوه (١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا الحديث وفيه بهبط جبريل
 الحديث ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة فأوله متفق عليه من حديث أنس ورواه زيادة وخرجتم
 إلى الصدقات أحمد والحاكم وقد تقدم (٢) حديث إن الله تعالى أوحى إلى عبده داود عليه السلام
 أحب من يحبني الحديث لم أجده أصلا وكأنه من الاسرائليات كالذي قبله (٣) حديث أن رجلا
 من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم الحديث رواه البيهقي في الشعب عن زيد بن أسلم
 فذكره مقطوعا (٤) حديث إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي يا حنان يا منان
 الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله والبيهقي في الشعب وضعفه من حديث أنس .

حقيقة الصعبة قد
 فاكنتسب من طريقهم
 القصور في الطلب
 والتخلف عن بلوغ
 الأرب فليتبته الصادق
 لهذه الحقيقة ويأخذ
 من الصعبة أصنى
 الأقسام وينذر منها
 مايسد في وجهه للرام
 قال بعضهم هل رأيت
 شرايط إلا بمن تعرف
 ولهذا المعنى أنكسر
 طائفة من السلف
 الصعبة ورأوا الفضيلة
 في العزلة والوحدة
 كإبراهيم بن آدم
 وداود الطائي وفضيل
 ابن عياض وسليمان
 الخواص وحكى عنه
 أنه قيل له جاء إبراهيم
 ابن آدم أمانتقا قال
 لأن ألقى سبعا ضاريا

والقصد في الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوسطها فإذا حاوز الوسط إلى أحد الطرفين عوج لما رده إلى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء بل للبالغ في التخويف أيضا تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويردهم بالسلبية ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس ولم يكن غرض الوعاظ إلا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد الفساد فسادا وازداد للتهكمون في طغيانهم تماذيا قال على كرم الله وجهه إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله . ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حق الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فانهما مشتعلان على الخوف والرجاء جميعا لأنهما جامعان لأسباب الشفاء في حق أصناف المرضى ليستعمله العلماء الذين هم وورثة الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لاستعمال الأخرق الذي يظن أن كل شيء من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان . وحال الرجاء يظلب بشيئين أحدهما الاعتبار والأخر استقراء الآيات والأخبار والآثار . أما الاعتبار فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب السكر حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا ومحاسن حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعدله في الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام الوجود كآلات الغذاء وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظفار وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحرمة الشفتين وغير ذلك مما كان لا يتلذذ بفقده غرض مقصود وإنما كان يفوت به مزية جمال فالعناية الإلهية إذا لم تقصر عن عبادة في أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لسباده أن تفوتهم الزايد والمزاي في الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبد بل إذا نظر الانسان نظرا شافيا علم أن أكثر الخلق قد هيء له أسباب السعادة في الدنيا حتى إنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت وإن أخبر بأنه لا يهذب بعد للوت أبدا مثلا أو لا يعيش أصلا فليست كراحتهم للمدم إلا لأن أسباب النعم أغلب لا محالة وإنما الذي يتخفى للوت نادرتهم لا يتعمه إلا في حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة فاذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة فسنة الله لا يبدلها تبديلا فالغالب أمر الآخرة هكذا يكون لأن مدير الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم فهذا إذا توكل حق التأمل قوى به أسباب الرجاء ومن الاعتبار أيضا النظر في حكمة الشريعة وسنتها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها حتى كان بعض المارفين يرى آية اللدائنة في البقرة من أقوى أسباب الرجاء قليل له وما فيها من الرجاء فقال الدنيا كلها قليل ورزق الانسان منها قليل والدين قليل عن رزقه فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدى عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه .

الفن الثاني استقراء الآيات والأخبار : لما ورد في الرجاء خارج عن الحصر أما الآيات فقد قال تعالى - قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم - وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يبالي إنه هو الغفور الرحيم (١) وقال تعالى - والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض - وأخبر تعالى أن النار أعددها لأعدائه وإنما خوف بها أوليائه فقال - لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلال ذلك يخوف الله به عباده - وقال تعالى - واتقوا النار التي أعدت للكافرين - وقال تعالى - فأنذرتكم ناراً تلتظى لا يصلها

(١) حديث قرأ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب

جميعا ولا يبالي الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد وقال حسن غريب .

أحب إلى من أن أتقى إبراهيم بن آدم قال لأنني إذا رأته أحسنه كلامي وأظهر نفسي باظهار أحسن أحوالها وفي ذلك القنطة وهذا كلام عالم بنفسه وأخلاقها وهذا واقع بين المشاهدين لإيمان عصمه الله تعالى. أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي إجازة قال أنا الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد قال أنا أبو القاسم اسمعيل بن مسعدة قال أنا أبو عمرو محمد بن عبد الله بن أحمد قال أنا أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابي قال أنا محمد بن بكر بن عبد الرزاق قال حدثنا

إلا الأشقي الذي كذب وتولى - وقال عز وجل - وإن ربك لندو مغفرة للناس على ظلمهم - ويقال « إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية - وإن ربك لندو مغفرة للناس على ظلمهم - (١) » وفي تفسير قوله تعالى - ولسوف يعطيك ربك قرضى - قال لا يرضى محمد وواحد من أمته في النار وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول أنتم أهل العراق تقولون أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله - قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله - الآية ونحن أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى - ولسوف يعطيك ربك قرضى - وأما الأخبار فقد روى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال « أمي أمة مرحومة لا تعذب عليها في الآخرة عجل الله عقابها في الدنيا الزلازل والفتن فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمي رجل من أهل الكتاب قبيل هذا فداؤك من النار (٢) » وفي لفظ آخر « يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودي أو نصراني إلى جهنم فيقول هذا فدائي من النار فيلقى فيها (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « الحمى من فينج جهنم وهي حظ المؤمن من النار (٤) » وروى في تفسير قوله تعالى - يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه « أن الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام أني أجعل حساب أمتك إليك قال لا يارب أنت أرحم بهم مني فقال إذن لا تخزيك فيهم (٥) » وروى عن أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال يارب اجعل حسابهم إلى لكلا يطلع على مساوهم غيري فأوحى الله تعالى إليه هم أمتك وهم عبادي وأنا أرحم بهم منك لا أجعل حسابهم إلى غيري لكلا تنظر إلى مساوهم أنت ولا غيرك (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « حياتي خير لكم وموتى خير لكم أما حياتي فأسن لكم السنن وأشجع لكم الشرائع ، وأما موتى فإن أعمالكم تعرض على فما رأيت منها حسنا حمدت الله عليه وما رأيت منها سيئا استغفرت الله تعالى لكم (٧) »

(١) حديث إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزل عليك وإن ربك لندو مغفرة للناس على ظلمهم لم أجده بهذا اللفظ وروى ابن أبي حاتم والعملي في تفسيرهما من رواية علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب قال لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا عفو الله وتجاوزة ما هنا أحد العيش الحديث (٢) حديث أبي موسى أمة مرحومة لا تعذب عليها عجل عقابها في الدنيا الزلازل والفتن الحديث أبو داود دون قوله فإذا كان يوم القيامة الخ فرواها ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف وفي صحيحه من حديث أبي موسى كما سيأتي ذكره في الحديث الذي يليه (٣) حديث يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودي أو نصراني إلى جهنم الحديث مسلم من حديث أبي موسى إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار وفي رواية له لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا (٤) حديث الحمى من فينج جهنم وهي حظ المؤمن من النار أحمد من رواية أبي صالح الأشعري عن أبي أمامة وأبو صالح لا يعرف ولا يعرف اسمه (٥) حديث إن الله أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أني أجعل حساب أمتك إليك فقال لا يارب أنت خير لهم مني الحديث في تفسير قوله تعالى - يوم لا يخزي الله النبي - ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله (٦) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال يارب اجعل حسابهم إلى الحديث لم أقف له على أصل (٧) حديث حياتي خير لكم وموتى خير لكم الحديث البزار من حديث عبد الله بن مسعود وورجاله رجال الصحيح إلا أن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي داود وإن أخرجه له - مسلم ووثقه ابن معين والنسائي قد ضعفه كثيرون ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بنحوه باسناد ضعيف.

سليمان بن الأشعث قال ثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاب الجبال ومواقع القطر يفر بدينه عن الفتن » قال الله تعالى إخباروا عن خليله إبراهيم - واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى - استظهر بالعزلة على قومه . قيل : العزلة نوعان فريضة وفضيلة فالفريضة العزلة عن الشروأهله

وقال صلى الله عليه وسلم يوماً «يا كريم الضو قال جبريل عليه السلام أتدرى ما تفسير يا كريم الضو هو إن عفا عن السيئات برحمة بدلها حسنات بكرمه (١)» وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول «اللهم إني أسألك تمام النعمة فقال هل تدري ما علم النعمة؟ قال لا، قال دخول الجنة (٢)» قال الطهارة قد آتم الله علينا نعمته برضاه الإسلام لنا إذ قال تعالى - وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً - وفي الخبر «إذا أذنب العبد ذنباً فاستغفر الله يقول الله عز وجل للملائكة انظروا إلى عبدى أذنب ذنباً فاعلم أن له رباً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب أشهدكم أني قد غفرت له (٣)» وفي الخبر «لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له ما استغفرتني ورجائي (٤)» وفي الخبر «لوقعتني عبدى بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقراب الأرض مغفرة (٥)» وفي الحديث إن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه وإلا كتبها سيئة (٦)» وفي لفظ آخر «فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب الجين لصاحب الشمال وهو أمير عليه ألقى هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة تضعيف العشر وأرفع له تسع حسنات فلقى عنه السيئة» وروى أنس في حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال «إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه قال أعرابي وإن تاب عنه قال عبي عن قال فإن نادى النبي صلى الله عليه وسلم يكتب عليه قال الأعرابي فإن تاب قال عبي من صهيته قال إلى متى؟ قال إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله عز وجل إن الله لا يمل من المغفرة حتى يمل العبد من الاستغفار فإذا تم العبد بحسنة كتبها صاحب الجين حسنة قبل أن يعملها فإن عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله سبحانه وتعالى إلى سبعمائة ضعف وإذا تم بخطيئة لم تكتب عليه فإذا عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله عز وجل (٧)» وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم يوماً يا كريم الضو قال جبريل تدرى ما تفسير يا كريم الضو الحديث لم أجده عن النبي صلى الله عليه وسلم وللوجود أن هذا كان بين إبراهيم الخليل وبين جبريل هكذا رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة من قول عتبة بن الوليد ورواه البيهقي في الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال حدثني بعض الزهاد فذكره (٢) حديث سمع رجلاً يقول اللهم إني أسألك تمام النعمة الحديث تقدم (٣) حديث إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى للملائكة انظروا إلى عبدى أذنب ذنباً فاعلم أن له رباً يغفر الذنوب الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ إن عبداً أصاب ذنباً فقال أي رب أذنبت ذنباً فاغفر لي الحديث وفي رواية أذنب عبد ذنباً فقال الحديث (٤) حديث لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له من حديث أنس يابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك وقال حسن (٥) حديث لوقعتني عبدى بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقرابها مغفرة مسلم من حديث أبي ذر ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشركني شيئاً لقيته بمثلها مغفرة ولترمذي من حديث أنس الذي قبله يابن آدم لوقعتني الحديث (٦) حديث إن للملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه الحديث قال وفي لفظ آخر فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب الجين لصاحب الشمال وهو أمير عليه ألقى هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة من تضعيف العشر الحديث البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة بسند فيه لين باللفظ الأول ورواه أيضاً أطول منه وفيه إن صاحب الجين أمير على صاحب الشمال وليس فيه أنه يأمر صاحب الشمال بإلقاء السيئة حتى يلقى من حسناته واحدة ولم أجده لذلك أصلاً (٧) حديث أنس إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه قال أعرابي فإن تاب عنه قال عبي عن قال فإن عاد الحديث وفيه إن الله لا يمل من التوبة حتى يمل العبد من الاستغفار

والفضيلة عزلة الفضول وأهله ويجوز أن يقال الخلو غير العزلة فالخلوة من الأغيار والعزلة من النفس وما تنسج إليه وما يشغل عن الله فالخلوة كثيرة الوجود والعزلة قليلة الوجود. قال أبو بكر الوراق ما ظهرت الفتنة إلا بالخطيئة من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا وما سلم إلا من جانب الخلة وقيل السلامة عشرة أجزاء تسعة في الصمت وواحدة في العزلة وقيل الخلو أصل والخلطة عارض فليزوم الأصل ولا يخالط إلا بقدر الحاجة وإذا خالط لا يخالط إلا بحجة وإذا خالط يلازم

«يارسول الله إني لأصوم إلا الشهر لأزيد عليه ولا أصلي إلا الخس لأزيد عليها وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع : أين أنا إذ امت قتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : نعم مى ، إذا حفظت قلبك من اثنتين : الفلّ والحسد ، ولسانك من اثنتين : الغيبة والكذب ، وعينيك من اثنتين : النظر إلى ما حرم الله ، وأن تزدري بهما مسلما دخلت معي الجنة على راحق هاتين (١) » وفي الحديث الطويل لأنس « أن الأعرابي قال يارسول الله من بلى حساب الخلق ؟ قال الله تبارك وتعالى قال هو بنفسه ؟ قال نعم فتبسم الأعرابي فقال صلى الله عليه وسلم ضحكت بأعرابي قال إن الكريم إذا قدر عفا وإذا صاحب سامح ، قال النبي صلى الله عليه وسلم صدق الأعرابي ألا كريم أكرم من الله تعالى هو أكرم الأكرمين ثم قال لله الأعرابي (٢) » وفيه أيضا « إن الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ولو أن عبدا هدمها حجرا حجراتهم أحرقها ما يبلغ جرم من استخف بولي من أولياء الله تعالى . قال الأعرابي ومن أولياء الله تعالى قال المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى أما سمعت قولك الله عز وجل - الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور - » وفي بعض الأخبار « للؤمن أفضل من الكعبة (٣) » « والؤمن طيب طاهر (٤) » « والؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة (٥) » وفي الخبر « خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطا يسوق الله به عباده إلى الجنة (٦) » . وفي خبر آخر « يقول الله عز وجل

الصمت فانه أصل
والكلام عارض ولا
يتكلم إلا بحجة غطر
الصحة كثير يحتاج
العبد فيه إلى مزيد
علم والأخبار والآثار
في التحذير عن
الخلطة والصحة
كثيرة والكتب بها
مشحونة . وأجمع
الأخبار في ذلك ما أخبرنا
الشيخ الثقة أبو الفتح
بإسناده السابق إلى
أبي سليمان قال حدثنا
أحمد بن سليمان
النجاد قال ثنا محمد
ابن يونس الكرمي
قال ثنا محمد
ابن منصور الجشمي
قال ثنا مسلم بن سالم
قال ثنا السري
ابن يحيى عن الحسن

الحديث البيهقي في الشعب بلفظ جاء رجل ، فقال يارسول الله : إني أذنبت ذنبا . قال استغفر ربك قال فاستغفر ثم أعود . قال فإذا عدت فاستغفر ربك ثلاث مرات أو أربعاً . قال فاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو للسجور المحسور وفيه أبو بدر يسار بن الحكم للصري منكر الحديث وروى أيضا من حديث عقبة بن عامر أحدنا يذنب . قال يكتب عليه قال ثم يستغفر ويتوب قال يغفر له ويتاب عليه قال فيعود الحديث وفيه لا يعمل الله حتى تتلوا وليس في الحديثين قوله في آخره فاذا همّ البعد بحسنة الخ وهو في الصحيحين بنحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه فن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فان همّ بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فان همّ بها فعلمها كتبها الله سيئة واحدة زاد مسلم في رواية أو عاها الله ولا يهلك على الله إلا هالك ولهما نحوه من حديث أبي هريرة (١) حديث جاء رجل ، قال يارسول الله إني لأصوم إلا الشهر لأزيد عليه ولا أصلي إلا الخس لأزيد عليها وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع الحديث تقدم (٢) حديث أنس الطويل قال أعرابي يارسول الله من بلى حساب الخلق قال الله تبارك وتعالى قال هو بنفسه قال نعم فتبسم الأعرابي الحديث لم أجده أصلا (٣) حديث المؤمن أفضل من الكعبة ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ ما أعظمك وأعظم حرمتك والذي نفسى بيده لحرمة المؤمن أعظم حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به إلا خيرا ، وشيخه نصر ابن محمد بن سليمان الحمصي ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان وقد تقدم (٤) حديث المؤمن طيب طاهر لم أجده بهذا اللفظ . وفي الصحيحين من حديث حذيفة المؤمن لا ينجس (٥) حديث المؤمن أكرم على الله من الملائكة ابن ماجه من رواية أبي الهزم يزيد بن سفيان عن أبي هريرة بلفظ المؤمن أكرم على الله من بعض الملائكة وأبو الهزم تركه شعبة وضعفه ابن معين ورواه ابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من هذا الوجه بلفظ الصنف (٦) حديث خلق الله من فضل رحمته سوطا يسوق به عباده

إنما خلقت الخلق ليرجوا على ولم أخلقهم لأربح عليهم (١) « وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما خلق الله تعالى شيئا إلا جعل له ما يظله وجعل رحمته تطلب غضبه (٢) « وفي الخبر المشهور « إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق إن رحمته تطلب غضبه (٣) « وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة (٤) « . « ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار (٥) « . ومن لقي الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار (٦) « . ولا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان (٧) « وفي خبر آخر « لو علم الكافر نعمة رحمة الله ما أيس من جنته أحد (٨) « ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى « - إن زلزلة الساعة شيء عظيم - قال أتدرون أي يوم هذا هذا يوم يقال لأدم عليه الصلاة والسلام قم فابعث بعث النار من ذريرتك فيقول كم فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة قال فأبلس القوم وجعلوا يكون وتمطوا يومهم عن الاشتغال والعمل فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال مالكم لا تعملون فقالوا ومن يشتغل بعمل بعد ما حدثتنا بهذا فقال كم أنتم في الأمم أين تاويل وثاريت ومنسك وأجوج وما جوج أم لا يحضها إلا الله تعالى إنما أنتم في سائر الأمم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود والرقعة في ذراع

إلى الجنة لم أجده هكذا ويضئ عنه ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة عجب ربنا من قوم يجاء بهم إلى الجنة في السلاسل (١) حديث قال الله إنما خلقت الخلق ليرجوا على ولم أخلقهم لأربح عليهم لم أقف له على أصل (٢) حديث أبي سعيد ما خلق الله شيئا إلا جعل له ما يظله وجعل رحمته تطلب غضبه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب وفيه عبد الرحمن بن كردم جهله أبو حاتم وقال صاحب الليزان ليس بواه ولا بمجبول (٣) حديث إن الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق : إن رحمته تطلب غضبه متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث معاذ وأنس من قال لا إله إلا الله دخل الجنة الطبراني في الدعاء بلفظ من مات يشهد وتقدم من حديث معاذ وهو في اليوم واليلة للنسائي بلفظ من مات يشهد وقد تقدم من حديث معاذ ومن حديث أنس أيضا تقدم في الأذكار (٥) حديث من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار أبو داود والحاكم ومصححه من حديث معاذ بلفظ دخل الجنة (٦) حديث من لقي الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار الشيخان من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار وزاد البخاري صادقا من قلبه وفي رواية له من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ورواه أحمد من حديث معاذ بلفظ جبهه الله في الجنة وللنسائي من حديث أبي عمرة الأنصاري في أثناء حديث فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني رسول الله لا يلقى الله عبديؤ من بهما إلا حجب عن النار يوم القيامة (٧) حديث لا يدخلها من في قلبه وزن ذرة من إيمان أحمد من حديث سهل بن بيضاء من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار وفيه انقطاع وله من حديث عثمان بن عفان إنني لأعلم كلمة لا يقوله عبد حقا من قلبه إلا حرم على النار قال عمر بن الخطاب هي كلمة الإخلاص واسناده صحيح ولكن هذا ونحوه شاذ مخالف لما ثبت في الأحاديث الصحيحة من دخول جماعة من اللوحين النار وإخراجهم بالشفاعاة ، نعم لا يبقى في النار من في قلبه ذرة من إيمان كما هو متفق عليه من حديث أبي سعيد وفيه لمن وجدته في قلبه منقال ذرة من إيمان فأخرجوه . وقال مسلم من خير بدل من إيمان (٨) حديث لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أيس من جنته أحد متفق عليه من حديث أبي هريرة .

عن أبي الأحوص
عن عبد الله بن مسعود
قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم
ليأتين على الناس زمان
لا يسلم لدى دين دينه
إلا من فر بدينه من
قرية إلى قرية ومن
شاهق إلى شاهق ومن
جحر إلى جحر كالتلعب
الذي يروغ قالوا ومتى
ذلك يا رسول الله قال
إذا لم تنل العيشة إلا
بمعاصي الله فإذا كان
ذلك الزمان حلت
العزوبة قالوا وكيف
ذلك يا رسول الله وقد
أمرتنا بالتزوج قال إنه
إذا كان ذلك الزمان
كان هلاك الرجل على
يد أبويه فان لم يكن له
أبوان فعلى يذروجه

الدابة (١) فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بأزمة الرجاء إلى الله تعالى إذ ساقهم بسياط الخوف أولا فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال إلى إفراط اليأس داوام بدواء الرجاء وردهم إلى الاعتدال والقصد والآخر لم يكن مناقضا للأول ولكن ذكر في الأول مارآسيبالشفاء واقتصر عليه فلما احتاجوا إلى للعالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر . فقل الواعظ أن يقتدى بسيد الوعاظ فيتلطف في استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة الطل الباطنة وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه ، وفي الخبر « لو لم تذبوا لخلق الله خلقا يذبون فيغفر لهم (٢) » وفي لفظ آخر « لذهب بكم وجاء بخلق آخر يذبون فيغفر لهم إنه هو التفور الرحيم » وفي الخبر « لو لم تذبوا لحشيت عليكم ما هو شر من الذنوب . قيل وما هو قال العجب (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « والذي نفسى بيده له أرحم بعبده للؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها (٤) » وفي الخبر « ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ماخطرت على قلب أحد حتى إن إبليس ليتناول لمارجاء أن تصيبه (٥) » وفي الخبر « إن لله تعالى مائة رحمة ادخر منها عبده تسماوتسعين رحمة وأظهر منها في الدنيا رحمة واحدة فيها يتراحم الخلق فتحن الوالدة على ولدها وتعتطف البيهمة على ولدها فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والأرض قال فلا يهلك على الله يومئذ إلا هالك (٦) » وفي الخبر « ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا ينجيه من النار قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتخذني الله برحمته (٧) » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لن ينجيه عمله (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « إني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي آرونها للمطمعين المتقين بل هي للمتوكلين الخلقين (٩) »

(١) حديث لما تلا - إن زلزلة الساعة شيء عظيم - قال أتدرون أي يوم هذا الحديث الترمذي من حديث عمران بن حصين ، وقال حسن صحيح . قلت هو من رواية الحسن البصري عن عمران ولم يسمع منه ، وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي سعيد (٢) حديث لو لم تذبوا لخلق الله خلقا يذبون ليغفر لهم ، وفي لفظ لذهب بكم الحديث مسلم من حديث أبي أيوب واللفظ الثاني من حديث أبي هريرة قريبا منه (٣) حديث لو لم تذبوا لحشيت عليكم ما هو شر من الذنوب قيل ما هو قال العجب البزار وابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث أنس وتقدم في ذم الكبر والعجب (٤) حديث والذي نفسى بيده له أرحم بعبده للؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها متفق عليه من حديث عمر بنحوه (٥) حديث ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ماخطرت قط على قلب أحد الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود باسناد ضعيف (٦) حديث إن لله تعالى مائة رحمة الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٧) حديث ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٨) حديث اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لن ينجيه عمله تقدم أيضا (٩) حديث إني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي الحديث الشيخان من حديث أبي هريرة لكل نبي دعوة وإن خبات دعوتي شفاعتي لأمتي ، ورواه مسلم من حديث أنس ، وللترمذي من حديثه وصححه وابن ماجه من حديث جابر شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي ، ولابن ماجه من حديث أبي موسى ، ولأحمد من حديث ابن عمر خبرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة فاحترت الشفاعة لأنها أهم وأكفى آرونها للمتقين الحديث وفيه من لم يسم .

ولده فان لم يكن له زوجة ولا ولد فليد قرابته قالوا وكيف ذلك يا رسول الله قال يعبرونه بضيق المعيشة فيتكفف مالا يطيق حتى يوردوه المهلكة . وقد رغب جمع من السلف في الصعبة والأخوة في الله ورأوا أن الله تعالى من على أهل الإيمان حيث جعلهم إخوانا قال سبحانه وتعالى - واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا - وقال تعالى - هو الذي أمركم بالصبر وبالمؤمنين وألف

وقال عليه الصلاة والسلام «بشت بالخفيفة السمحة السهلة»^(١) وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفي «أحب أن يعلم أهل الكتابين أن في ديننا ساحة»^(٢) ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم - ولا تحمل علينا إصرا - وقال تعالى - ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم - وروى محمد بن الحنفية عن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال «لما نزل قوله تعالى - فاصفع الصفع الجليل - قال يا جبريل وما الصفع الجليل قال عليه السلام إذا عفوت عن من ظلمك فلاتعابه فقال يا جبريل فآفه تعالى أكرم من أن ياتب من عفا عنه فبكي جبريل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم فبعت الله تعالى إليهما ميكائيل عليه السلام وقال إن ربكما يقرنكما السلام ويقول كيف أعاتب من عفوت عنه هذا ملايشبه كرمي»^(٣) . والأخبار الواردة في أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى . وأما الآثار : فقد قال علي كرم الله وجهه : من أذنب ذنبا فستره الله عليه في الدنيا فآفه الله في الآخرة ومن أذنب ذنبا فزوب عليه في الدنيا فآفه تعالى أعدل من أن يثني عقوبته على عبده في الآخرة . وقال الثوري ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبيي لأنني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما . وقال بعض السلف : المؤمن إذا عصى الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه . وكتب محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه إن العبد إذا كان مسرفا على نفسه فرفع يديه يدعو ويقول : يارب حجبت الملائكة صوته وكذا الثانية والثالثة حتى إذا قال الرابعة ياربي قال الله تعالى حتى متى تعجبون عني صوت عبدي قد علم عبدي أنه ليس له رب يغفر الذنوب غيري أشهدكم أنني قد غفرت له . وقال إبراهيم بن آدم رحمة الله عليه خلاي الطواف ليله وكانت ليلة مطيرة مظلمة فوقفت في الملتزم عند الباب قلت : ياربي اعصمني حتى لأعصيك أبدا ففتفت بي هاتف من البيت يا إبراهيم أنت تسألني العصمة وكل عبادي للمؤمنين يطلبون مني ذلك فاذاعصمتهم فعلى من أنفضل ولمن أغفر ، وكان الحسن يقول لو لم يذنب للمؤمن لكان يطير في ملكوت السموات ولكن الله تعالى قعه بالذنوب . وقال الجنيد رحمه الله تعالى : إن بدت عين من الكرم ألحقت للسبيثين بالمسكين . ولقي مالك بن دينار أبانا فقال له إلى كم تحدث الناس بالرخس قال يا أبا يحيى إلى لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تخرق له كساءك هذا من الفرح . وفي حديث ربهى بن حراش عن أخيه ، وكان من خيار التابعين ، وهو ممن تكلم بعد اللوت . قال لما مات أخي سجدت بئوبه ألقيناه على نعشه فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا ، وقال : إني لقيت ربي عز وجل خياي بريح وريحان وربى غير غضبان وإني رأيت الأمر أيسر مما تظنون فلاتفتروا وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرنى وأصحابه حتى أرجع إليهم . قال ثم طرح نفسه فكأنها كانت حصىة وقعت في طشت فحملناه وذقناه . وفي الحديث

بين قلوبهم لو أنفقت مافي الأرض جميعا ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم - وقد اختار الصعبة والأخوة في الله تعالى سعيد ابن السبب وعبد الله ابن المبارك وغيرها . وفائدة الصعبة أنها تفتح مسام الباطن ويكتسب الانسان بها علم الحوادث والعوارض . قيل : أعلم الناس بالآفات أكثرهم آفات ويتصلب الباطن برزين العلم ويتمكن الصدق بطروقي هبوب الآفات ثم التخلص منها بالإيمان ويقع بطريق

(١) حديث بشت بالخفيفة السمحة السهلة أحمد من حديث أبي أمامة سمع ضعيف دون قوله السهلة وله وللطبراني من حديث ابن عباس أحب الدين إلى الله الخفيفة السمحة وفيه محمد بن اسحق رواه بالضعفة (٢) حديث أحب أن يعلم أهل الكتاب أن في ديننا ساحة أبو عبيد في غريب الحديث وأحمد (٣) حديث محمد بن الحنفية عن علي لما نزل قوله تعالى - فاصفع الصفع الجليل - قال يا جبريل وما الصفع الجليل قال إذا عفوت عن من ظلمك فلاتعابه الحديث ابن مردويه في تفسيره موقوفا على علي مختصرا قال الرضا بغير عتاب ولم يذكر بقية الحديث وفي إسناده نظر .

«أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله تعالى فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً وكان يعظه ويذمّه فكان يقول دعني وربّي أبثت على رقيبا حتى رآه ذات يوم على كبيرة فضرب فقال لا يضر الله لك قال فيقول الله تعالى يوم القيامة : أبتطيع أخذاً من محظّر رحمتي على عبادي اذهب أنت قد غفرت لك ثم يقول للعابد وأنت فقد أوجبت لك النار قال فوالذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أهلكت دنياه وآخرته (١)» وروى أيضاً أن لصاً كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة فرأى عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بني إسرائيل من الخواريق فقال اللص في نفسه هذا نبي الله يمر وإلى جنبه حواريه لو زلت فكنت معهما ثالثاً قال فزل فجعل يريد أن يدنو من الخواريق ويزدري نفسه تعظيماً للحواريق ويقول في نفسه مثل لا يمتشي إلى جنب هذا العابد قال وأحسن الخواريق به فقال في نفسه هذا يمتشي إلى جانبي فضم نفسه ومشي إلى عيسى عليه الصلاة والسلام فمضى بجنبه فبقي اللص خلفه فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام قل لهما ليستأنفا العمل فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما أما الخواريق فقد أحبطت حسناته لجنبه بنفسه وأما الآخر فقد أحبطت سيئاته بما ازدري على نفسه فأخبرها بذلك وضم اللص إليه في سياحته وجمعه من حواريه . وروى عن مسروق أن نبياً من الأنبياء كان ساجداً فوطئ عتقه بعض العصاة حتى أترق الحصى بجمبه قال فرجع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مضطرباً فقال اذهب فلن يضر الله لك فأوحى الله تعالى إليه تآلى على في عبادي إني قد غفرت له . ويقرب من هذا ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على الشركين ويلبثهم في صلاته فزل عليه قوله تعالى - ليس لك من الأمر شيء - الآية فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى عامة أولئك للإسلام (٢)» وروى في الأثر أن رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة قال فإذا أدخلنا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه فيقول يارب ما كان هذا في الدنيا بأكثر مني عبادة فرفعتني على في عليين فيقول الله سبحانه إنه كان يسألني في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألني النجاة من النار فأعطيت كل عبدسؤله وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل لأن المحبة أغلب على الراجي منها على الخائف فكم من فرق في الملوك بين من يخدم اتقاءً لمقابله وبين من يخدم ارتجاءً لانعامه وكرامته ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن ولذلك قال ﷺ «سلوا الله الدرجات العلى فإمتسألون كريماً (٣)» وقال «إذا سألت الله فأعظموا الرغبة وأسألوا الفردوس الأعلى فإن الله تعالى لا يتعاطمهم» (٤) وقال بكر بن سليم الصواف دخلنا على

(١) حديث أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً الحديث أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد جيد (٢) حديث ابن عباس كان يقنت على الشركين ويلبثهم في صلاته فزل عليه قوله تعالى - ليس لك من الأمر شيء - فترك الدعاء عليهم الحديث البخاري من حديث ابن عمر أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول اللهم المن فلانا وفلانا وفلانا بما يقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد فأنزل الله عز وجل - ليس لك من الأمر شيء - إلى قوله : فانهم ظالمون - ورواه الترمذي وسماه أبو إسحاق والحريث بن هشام وصفوان بن أمية وزاد فتاب عليهم فأسلوا الحسن إسلامهم وقال حسن غريب وفي رواية له أربعة نفر ولم يسمهم وقال فهداهم الله للإسلام وقال حسن غريب صحيح (٣) حديث سلوا الله الدرجات العلى فإمتسألون كريماً لم أجده بهذا اللفظ وللترمذي من حديث ابن مسعود سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسئل وقال هكذا روى حماد بن واقد وليس بالحافظ (٤) حديث إذا سألت الله فأعظموا الرغبة وأسألوا الفردوس الأعلى فإن الله لا يتعاطمهم شيء مسلم من حديث أبي هريرة إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم

الصحة والأخوة
التعاضد والتعاون
وتتقوى جنود القلب
وتستروح الأرواح
بالتشام وتتفق في
التوجه إلى الرقيق
الأعلى ويصير مثلها
في الشاهد كالأسوات
إذا اجتمعت خرقت
الأجرام وإذا تفردت
نصرت عن بلوغ
للرام . ورد في الخبر
عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم «للؤمن
كثير بأخيه» وقال
الله تعالى عبداً عن
لاصديق له - فإلنا من
شافعين ولاصديق
حميم - والحميم في الأصل
الهميم إلا أنه أبدلت
الماء بالحاء لقرب
مخرجهما إذ هما من

مالك بن أنس في العشي التي قبض فيها قتلنا يا أبا عبد الله كيف تجردك قال لا أدري ما أقول لكم إلا أنكم ستعاينون من غفوا الله ما لم يكن لكم في حساب ثم ما برحنا حتى أغمضناه. وقال يحيى بن معاذ في مناجاته يكاد رجائي لك مع الذنوب يطلب رجائي إليك مع الأعمال لأنني أعتد في الأعمال على الاخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف وأجدني في الذنوب أعتد على غفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف. وقيل إن مجوسيا استضاف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال إن أسلمت أضفنتك فمر الهوسى فأوحى الله تعالى إليه يا إبراهيم لم تطعمه إلا بتغير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره فلما أضفته ليلة ماذا كان عليك فمر إبراهيم يسمى خلف الهوسى فرده وأضافه فقال له الهوسى ما السبب فيما بدالك فذكر له فقال له الهوسى أهكذا ياملني ثم قال اعرض على الاسلام فأسلم. ورأى الأستاذ أبو سهل الصلوكي أبا سهل الزجاجي في المنام وكان يقول بوعيد الأبد فقال له كيف حالك فقال وجدنا الأماهون بما توهمنا. ورأى بعضهم أبا سهل الصلوكي في المنام على هيئة حسنة لا توصف فقال له يا أستاذهم نلت هذا فقال بحسن ظني بربي. وحكى أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى رأى في مرض موته في منامه أن القيامة قد قامت وإذا الجبار سبحانه يقول أين العلماء قال فجاءوا ثم قال ماذا عملتم فيما علمتم قال قلنا يارب قصرنا وأسأنا قال فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره فقلت أما أنا فليس في صحيفتي الشرك وقد وعدت أن تغفر مادونه فقال اذهبوا به فقد غفرت لكم ومات به بذلك ثلاث ليال. وقيل كان رجل شرب جمع قوما من ندمائه ودفع إلى غلامه أربعة دراهم وأمره أن يشتري شيئا من الفواكه للمجلس فمر الغلام ياب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل فقير شيئا ويقول من دفع إليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات قال فدفع الغلام إليه الدراهم فقال منصور ما الذي تريد أن أدعوك فقال لي سيد أريد أن أتخلص منه فدعا منصور وقال الأخرى قال أن يغفر الله لي وللسيدى ولك فدعا ثم قال الأخرى قال أن يتوب الله على سيدي فدعا ثم قال الأخرى فقال أن يغفر الله لي وللسيدى ولك وللقوم فدعا منصور فرجع الغلام فقال له سيده لم أبطأت قصص عليه القصة قال وبم دعا فقال سألت نفسي المتق فقال له اذهب فأنت حر قال وأيش الثاني قال أن يغفر الله على الدراهم قال لك أربعة آلاف درهم وأيش الثالث قال أن يتوب الله عليك قال تبت إلى الله تعالى قال وأيش الرابع قال أن يغفر الله لي ولك وللقوم قال هذا الواحد ليس إلى قلما بات تلك الليلة رأى في المنام كأن قائلا يقول له أنت ضلت ما كان إليك أقرى أتى لأفضل ما إلى قد غفرت لك وللقوم ولبنصور بن عمار وللقوم الحاضرين أجمعين. وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفي قال رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون جنازة قال فأخذت مكان المرأة وذهبت إلى القبرة وصلينا عليها ودفنا لبيت فقلت للمرأة من كان هذا البيت منك قالت ابني قلت ولم يكن لكم جيران قالت بلى ولكن صغروا أمره قلت وأيش كان هذا قالت عنثا قال فرحمها وذهبت بها إلى منزلي وأعطيتها دراهم وحنطة وثيابا قال فرأيت تلك الليلة كأنه أتاني آت كأنه القمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض فجعل يتشكرني فقلت من أنت فقال الخنث الذي دفنتموني اليوم رحمني ربي باحتقار الناس إياي. وقال إبراهيم الأطروش كنا قعودا فيفدنا مع معروف الكرخي على دجلة إذ مر أحداث في زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون فقالوا المعروف أما تراهم يصون الله مجاهرين ادع الله عليهم فرفع يديه وقال إلهي كما فرحتهم في الدنيا ففرحهم في الآخرة فقال اغفر لي إن شئت ولكن ليعزم وليعظم الرغبة فإن الله عز وجل لا يتعاطم شيء أعطاه والبخاري من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فاذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ورواه الترمذي من حديث معاذ وعباد بن الصامت

حروف الخلق والمهم
مأخوذ من الاهتمام
أى بهم بأمر أخيه
فلاهتمام بهم الصديق
حقيقة الصداقة. وقال
عمر إذا رأى أحدا
ودا من أخيه
فليتمسك به قلما
يصيب ذلك وقد قال
القاتل :

وإذا صفا لك من زمانك
واحد

فهو للراد وأين ذاك
الواحد

وأوحى الله تعالى إلى
داود عليه السلام

قال يا داود مالي أراك
منتبذا وحسبك قال

إلهي قلت الخلق من
أجلك فأوحى الله إليه

يا داود كن يقظانا
مر تادا لنفسك اخوانا

للقوم إنما سألتك أن تدعو عليهم فقال إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم ، وكان بعض الساف يقول في دعائه يا ربّ وأى أهل دهر لم يصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابقة ورزقك عليهم دارا سبحانه ما أحملك وعزتك إنك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدر الرزق حتى كأنك ياربنا لاتنضب فهذه هي الأسباب التي بها يجلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين ، فأما الحقى المفرورون فلا ينبغي أن يسموا شيئا من ذلك بل يسمعون ما سنورده في أسباب الخوف فإن أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف كالعبد السوء والصبي العرم لا يستقيم إلا بالأسوط والعصا وإظهار الخشونة في الكلام . وأما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح في الدين والدنيا .

(الشطر الثاني من الكتاب في الخوف)

وفيه بيان حقيقة الخوف وبيان درجاته وبيان أقسام المخاوف وبيان فضيلة الخوف وبيان الأفضل من الخوف والرجاء وبيان دواء الخوف وبيان معنى سوء الخاتمة وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم ، ونسأل الله حسن التوفيق .

(بيان حقيقة الخوف)

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحترائه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء ومن أنس باقه وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فإنهما زمانان ينعمان النفس عن الخروج إلى رعواتها ، وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال : الخوف حجاب بين الله وبين العبد . وقال أيضا إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا خوف وبالجملة فالهيب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصا في الشهود وإتماما للشهود غاية المقامات ، ولكننا الآن إنما نتكلم في أوائل المقامات فتقول : حال الخوف ينتظم بضامن علم وحال وعمل . أما العلم فهو العلم بالسبب المفضى إلى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلا ويجوز العفو والإفلات وأنك يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وهو تفاحش جنائته وكون الملك في نفسه حقودا غضوبا منتقما وكونه محفوقا بمن يحته على الانتقام خاليا عنمن يتشفع إليه في حقه وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تتحو أثر جنائته عند الملك فالعلم بتظاهر هذه الأسباب بسبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف وقد يكون الخوف لاعتن سبب جنائته قارفا الخائف بل عن صفة الخوف كالندى وقع في محالب سبع فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته على الاقتراس غالبا وإن كان اقتراسه بالاختيار وقد يكون من صفة جبلية للخوف منه تكوف من وقع في مجرى سيل أو جوار حريق فإن الماء يخاف لأنه بطبعه مجبول على السيلان والإغراق وكذا النار على الإحراق فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث للثبر لإحراق القلب وتألمه وذلك الإحراق هو الخوف فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأنه لو أهلك العالمين لميبال ولم ينعمه مانع وتارة يكون لكثرة الجنابة من العبد بمقارفة المعاصي وتارة يكون بهما جميعا وبحسب معرفته بعبوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغاثته وأنه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون تكون قوة خوفه فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وربه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أنا أخوفكم لله (١) » وكذلك قال الله تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - ثم إذا كملت المعرفة

وكل خدن لا يوافق
على مسرتي . فلا تصحبه
فانه عدو يقسى قلبك
ويباعدك مني . وقد
ورد في الخبر « إن
أجبتكم إلى الله الذين
يألفون ويؤلفون
فالمؤمن ألف مألوف »
وفي هذا دقمة وهي
أنه ليس من اختار
العزلة والوحدة لله
ينهب عنه هذا
الوصف فلا يكون ألفا
مألوفاً فإن هذه الإشارة
من رسول الله صلى
الله عليه وسلم إلى
الخلق الجبلي ، وهذا
الخلق يكمل في كل
من كان أتم معرفة
ويقينا وأوزن عقلا
وأتم أهلية واستعدادا
وكان أوفر الناس حظا

أورثت جلال الخوف واحترق القلب ثم يفيض أثر الحرقه من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات . أما في البدن فبالنحول والصفار والغبثية والزعقة والبكاء وقد تنشق به الحرارة فيفضى إلى الموت أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل أو يقوى فيورث القنوط واليأس . وأما في الجوارح فيكفها عن الماصى وتمييدها بالطاعات تلافياً لما فرط واستعداداً للمستقبل ، ولذلك قيل ليس الخائف من يكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وقال أبو القاسم الحكيم من خاف شيئاً هرب منه ومن خاف الله هرب إليه ، وقيل لدى التوب متى يكون العبد خائفاً قال إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذي يحمى مخافة طول السقام . وأما في الصفات فبأن يجمع الشهوات ويكدر اللذات فتصير للعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروهاً عند من يشبهه إذا عرف أن فيه سمّاً فاحترق الشهوات بالخوف وتآذبت الجوارح ويحصل في القلب الذبول والخشوع والدلة والاستكانة ويفارقه الكبر والحدق والحسد بل يصير مستوعب المهمل بخوفه والنظر في خطراته فلا يفرغ لغيره ولا يكون له شغل إلا للراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ومؤاخذه النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ويكون حاله حال من وقع في محاب سبغ ضار لا يدري أنه يفعل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه لا تمتنع فيه لغيره ، هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحترافه وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله وبعبوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأحوال وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال أن يمنع عن المحظورات، ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورفاقان زادت قوته كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم فيكف أيضاً عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى إذ التقوى أن يترك ما يريه إلى ما لا يريه وقد يحمل على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق في التقوى فإذا انضم إليه التجرد للخدمة فصار لا يبيى ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفساً من أنفاسه فهو الصدق وصاحبه جدير بأن يسمى صديقاً ويدخل في الصدق التقوى ويدخل في التقوى الورع ويدخل في الورع العفة فانه عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة ، فاذن الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فانه أعم لأنه كف عن كل محظور ، وأعلى منه التقوى فانه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعاً ووراء اسم الصديق والمقرب وتجري الرتبة الآخرة بمقابلتها مجرى الأخص من الأعم فاذا ذكرت الأخص فقد ذكرت الكل كما أنك تقول الإنسان إما عربي وإما عجمي والعربي إما قرشي أو غيره والقرشي إما هاشمي أو غيره والهاشمي إما علوي أو غيره والعلوي إما حسبي أو حسبيني فاذا ذكرت أنه حسبي مثلاً فقد وصفته بالجميع وإن وصفته بأنه علوي وصفته بما هو فوقه بما هو أعم منه فكذلك إذا قلت صديق فقد قلت إنه تقى وورع وعفيف فلا ينبغي أن تظن أن كثرة هذه الأسماء تدل على معان كثيرة متباينة فيختلط عليك كما اختلط على من طلب للمعانى من الألفاظ ولم يتبع الألفاظ للمعانى فهذه إشارة إلى مجامع معانى الخوف وما يكتنفه من جانب العلو كالمعرفة للوجبة له ومن جانب السفلى كالأعمال الصادرة منه كفا وإقداماً .

من هذا الوصف الأنبياء ثم الأولياء وأتم الجميع في هذا نبينا صلوات الله عليه وكل من كان من الأنبياء أتم ألفه كان أكثر تبعاً ونبينا صلى الله عليه وسلم كان أكثرهم ألفاً وأكثروا تكبروا فأتى مكاتبكم بكم الأمم يوم القيامة وقد نبه الله تعالى على هذا الوصف من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال - ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك - وإنما طلب العزلة مع وجود هذا الوصف ومن كان هذا الوصف فيه

من حديث عائشة والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية .

(بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف)

اعلم أن الخوف محمود وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد وهو غلط بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى الواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى والأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط وكذا الصبي ولكن ذلك لا يدل على أن المبالغة في الضرب محمودة وكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال والمحمود هو الاعتدال والوسط فأما القاصر منه فهو الذي يجرى مجرى رقة النساء بخطر البال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع وكذلك عند مشاهدة سبب هائل فاذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها ألماً مبرحاً فلا يسوقها إلى القصد ولا يصلح لرياضتها وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء ولست أعني بالعلماء الترسمين برسوم العلماء والتسمين بأسمائهم فانهم أبعد الناس عن الخوف بل أعني العلماء بالله وبأيامه وأفضاله وذلك مما قد عزّ وجوده الآن ، ولذلك قال الفضيل بن عياض إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت فانك إن قلت لا كفرت وإن قلت نعم كذبت وأشار به إلى أن الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات ومالم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحرارة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفاً . وأما المفرط فإنه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط وهو مذموم أيضاً لأنه يمنع من العمل وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الولة والدهشة وزوال العقل ، فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل ولولاه لما كان الخوف كلاً لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأ الجهل والعجز . أما الجهل فإنه ليس يدرى عاقبة أمره ولو عرف لم يكن خائفاً لأن الخوف هو الذي يتردد فيه . وأما العجز فهو أنه متعرض للحدور ولا يقدر على دفعه فاذن هو محمود بالإضافة إلى نقص آدمي وإنما المحمود في نفسه وذاته هو العلم والقدرة وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به وما لا يجوز وصف الله تعالى به فليس يكال في ذاته وإنما يصير محموداً بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه كما يكون احتمال ألم الدواء محموداً لأنه أهدون من ألم المرض والموت فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الولة والدهشة وزوال العقل وقد يخرج إلى الموت وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة أو يعرضها أو يكرس عضواً من أعضائها وإنما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أسباب الرجاء وأكثرها العالج به صدمة الخوف المفرط المفضي إلى القنوط أو أحد هذه الأمور فكل ما يراد لأمره فالمحمود منه ما يقضى إلى المراد المقصود منه وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل فكل ما يقدح في هذه الأسباب فهو مذموم . فان قلت من خاف فمات من خوفه فهو شهيد فكيف يكون حاله مذموماً . فاعلم أن معنى كونه شهيداً أن له رتبة بسبب موته من الخوف كان لا ينالها لومات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف فهو بالإضافة إليه فضيلة فأما بالإضافة إلى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبيله فليس بفضيلة بل للسالك إلى الله تعالى بطريق الفكر والمجاهدة والترقي في درجات المعارف في كل لحظة رتبة شهيد وشهداء ، ولولا هذا لكانت رتبة صبي يقتل أو مجنون يفترسه سبع أعلى من رتبة نبي أو ولي يموت حتف الله وهو محال فلا ينبغي أن يظن هذا بل أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى فكل ما يبطل العمر أو العقل أو الصحة التي يتطلّب العمر بتعطيلها فهو حسران ونقصان بالإضافة إلى أمور وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة

أقوى وأتم كان طلب العزلة فيه أكثر في الابتداء ولهذا المعنى حيب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلو في أول أمره وكان يخلو في غار حراء ويتحنث الليالي ذوات العدد وطلب العزلة لا يسلب وصف كونه آلفاً مألوفاً وقد غلط في هذا قوم ظنوا أن العزلة تطلب هذا الوصف فتركوا العزلة طلباً لهذه الفضيلة وهذا خطأ وسر طلب العزلة لمن هذا الوصف فيه أتم من الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ما أسلفنا في أول الباب إلى الجنس بالوصف

إلى أمور آخر كما كانت الشهادة فضيلة بالإضافة إلى مادونها لا بالإضافة إلى درجة التيقن والصديقين فاذن الخوف إن لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره فإن لم يحمل إلا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة فإذا أثر الورع فهو أعلى وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصديقين وهو أن يسلب الظاهر والباطن عماسوى الله تعالى حتى لا يبقى لنير الله تعالى فيه متسع فهذا أقصى ما عمده منه وذلك مع بقاء الصحة والعقل فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه ولو كان محمودا لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدین اللزيمين للجوع أياما كثيرة احفظوا عقولكم فإنه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل .

(بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه)

اعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه والكروه إما أن يكون مكروها في ذاته كالنار وإما أن يكون مكروها لأنه يفضى إلى المكروه كما تنكره العاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة كما ينكره المريض الفواكه الضرة لأدائها إلى الموت فلا بد لكل خائف من أن يتمثل في نفسه مكروها من أحد القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتى يحرق قلبه بسبب استنصاره ذلك الكروه ومقام الخائفين يختلف فيما يخلب على قلوبهم من المكروهات المهذورة فالذين يخلب على قلوبهم ما ليس مكروها لذاته بل لغيره كالذين يخلب عليهم خوف الموت قبل التوبة أو خوف نقض التوبة ونكث العهد أو خوف ضعف القوة عن الوفاء، بتمام حقوق الله تعالى أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالمساواة أو خوف الليل عن الاستقامة أو خوف اسديلا، العادة في اتباع الشهوات المألوفة أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسناته التي اتكل عليها وتمزز بها في عباد الله أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله أو خوف الاستدراج بتواتر النعم أو خوف انكشاف غوائل طاعته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب أو خوف تبعات الناس عنده في القيبة والحياطة والغش وإضمار السوء أو خوف ما لا يدري أنه يحدث في بقية عمره أو خوف تهجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت أو خوف الاعتزاز بزخارف الدنيا أو خوف اطلاع الله على سريرته في حال غفلته عنه أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل، فهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد خصوص فائدة وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضى إلى المخوف فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيوافظ على الفطام عن العادة ، والذي يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوسوس وهكذا إلى بقية الأقسام وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة فإن الأمر فيه محظر وأعلى الأقسام وأدناها على كمال المعرفة خوف السابقة لأن الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تحلل أسباب كثيرة فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أم الكتاب والخائف من الخاتمة بالإضافة إلى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك في حقهما بتوقيع محتمل أن يكون فيه حز الرقية ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه ولم يصل التوقيع إليهما بعد فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وأنه عما إذا يظهر ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته وأنه ما الذي خطر له في حال التوقيع من رحمة أو غضب وهذا التفات إلى السبب فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزل الذي جرى بتوقيمه القلم أعلى من الالتفات إلى ما يظهر في الأبد وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمى ثم قال : « هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزادونهم ولا ينقص ثم قبض كفه اليسرى

الأعم فلما علم الخدائق ذلك المهمم الله تعالى بحجة الحلوة والعزلة لتصفية النفس عن الليل بالوصف الأعم لترتقى المهمم العالية عن ميل الطباع إلى تألف الأرواح فإذا وفوا التصفية حقها اشترأت الأرواح إلى جنسها بالتألف الأصلي الأولى وأعادها الله تعالى إلى الخلق ومخالطتهم مصفاة واستنارت النفوس الطاهرة بأنوار الأرواح وظهرت صفة الجيلة من الألفة المكلمة آلفة مألوفة فصارت العزلة من أهم الأمور عند من

وقال هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آباؤهم لا يزداد فيهم ولا ينقص وليعملن أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم ثم يستقدم الله قبل اللوت ولو بوقاق باقة وليعملن أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل هم ثم يستخرجهم الله قبل اللوت ولو بوقاق ناقة السعيد من سعد بقضاء الله والشقى من شقى بقضاء الله والأعمال بالحوادث (١) وهذا كاتقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجنائه وإلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التي تقتضي الهيبة لامحالة فهذا أعلى رتبة ولذلك يبقى خوفه وإن كان في طاعة الصديقين وأما الآخر فهو في عرصة التورود والامن إن واطب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير باليخاف من غير جنابة بل العاصي لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ولولا أنه مخوف في نفسه لما سخره للمعصية ويسر له سبيلها ومهد له أسبابها فان تيسير أسباب المعصية إبعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجري عليه أسبابها ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توسل بها من سرت له الطاعات ومهد له سبيل القربات فالعاصي قد قضى عليه بالمعصية شاء أم أبى وكذا المطيع فالذي يرفع محمدا صلى الله عليه وسلم إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ويضع أبا جهل في أسفل سافلين من غير جنابة سبقت منه قبل وجوده جدير بأن يخاف منه لصفة جلالة فان من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الإرادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضروريا والذي عصى عصى لأنه سلط عليه إرادة قوية جازمة وآتاه الأسباب والقدرة فكان الفعل بعد الإرادة والقدرة ضروريا فليت شمري ما الذي أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه وما الذي أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعي المعصية عليه وكيف يحال ذلك على العبد وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزلي من غير جنابة ولا وسيلة فالخوف بمن يقضى بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل ووراء هذا المعنى سر القدر الذي لا يعجز إفتاؤه ولا يمكن تفهم الخوف منه في صفاته جل جلاله إلا بمثال لولا إذن التسرع لم يستجري على ذكره ذوبصيرة فقد جاء في الخبر « إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام يداود خفي كما تخاف السبع الضاري (٢) » فهذا المثل يفهمك حاصل المعنى وإن كان لا يقف بك على سببه فان الوقوف على سببه وقوف على سر القدر ولا يكشف ذلك إلا لأهله . والحاصل أن السبع يخاف لا لجنابة سبقت إليه منك بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيبته ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالي فان قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك وإن خلاك لم يخلك شفقة عليك وإبقاء على روحك بل أنت عنده أحسن من أن يلتفت إليك حيا كنت أو ميتا بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك ثلثة عنده على وتيرة واحدة إذ لا يقدح ذلك في عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته والله المثل الأعلى ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة أنه صادق في قوله « هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي » هؤلاء إلى النار ولا أبالي » ويكفيك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستئناء وعدم المبالاة.

(١) حديث هذا كتاب من الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آباؤهم الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال حسن صحيح غريب (٢) حديث إن الله تعالى أوحى إلى داود يداود خفي كما يخاف السبع الضاري لم أجده أصلا ولعل المصنف قصد بإبراده أنه من الاسرائيليات فانه عبر عنه بقوله جاء في الخبر وكثيرا ما يعبر بذلك عن الاسرائيليات التي هي غير مرفوعة .

يألف فيؤلف ومن أدل الدليل على أن الذي اعتزل آلف مألوف حتى يذهب الغلط عن الذي غلط في ذلك وذم العزلة على الاطلاق من غير علم بحقيقة الصعبة وحقيقة العزلة فصارت العزلة مرغوبا فيها في وقتها والصعبة مرغوبا فيها في وقتها قال محمد بن الحنفية رحمه الله ليس بحكيم من لم يماثر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له منه فرجا . وكان بشر بن الحرث يقول إذا قصر العبد في طاعة الله سلبه الله تعالى من يؤنسه فالأنيس يهشه الله

الطبقة الثانية من الخائفين : أن يمثل في أنفسهم ما هو المكروه وذلك مثل سكرات اللوت وشدته أو سؤال منكر ونكير أو عذاب القبر أو هول المطلع أو هيبية الموقف بين يدي الله تعالى والحيا من كشف السر والسؤال عن القبر والقطمير أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه أو الخوف من النار وأغلاها وأهوالها أو الخوف من الحرمان عن الجنة ذار النعيم والملك المقيم وعن نقصان الدرجات أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها فهي لا عمالة محوقة وتختلف أحوال الخائفين فيها ولعلها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين وما قبل ذلك خوف العاملين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين ومن لم تكمل معرفته ولم تفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بألم البعد والفراق وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار وإنما يخاف الحجاب وجد ذلك في باطنه منكرا وتوجب منه في نفسه وربما أنكر لمة النظر إلى وجهه الكريم لولا منع الشرع إياه من إنكاره فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد والإفباطه لا يصدق به لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج والعين بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم فأما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهله ومن كان أهله استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره فالإي هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين نساء الله تعالى حسن التوفيق بكرمه .

(بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه)

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار وتارة بالآيات والأخبار. أما الاعتبار فمبطله أن فضيلة التي بقدر غنائم في الاضواء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة إذ لا مقصود سوى السعادة ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه فكل ما أتان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر غايته وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر ولا تيسر للواظبة على الذكر والفكر إلا باطعاب حب الدنيا من القلب ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك للشهوات إلا بجمع الشهوات ولا تتمتع الشهوة بشيء كما تتمتع بنار الخوف فالخوف هو النار المحرقة للشهوات فان فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف عن الماصي ويحث على الطاعات ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلي . وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات أهل الجنان قال الله تعالى - وهدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون - وقال تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - وصفهم بالعلم لحشيتهم وقال عز وجل - رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه - وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لأن الخوف ثمرة العلم ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام وأما الخائفون فان لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه فانظر كيف أفردهم بمراقبة الرفيق الأعلى وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مراقبة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء ومراقبة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم ولذلك لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله

للصديقين رقما من الله تعالى وثوابا للبعد معجلا والأنيس قد يكون مفيدا كالمشاخ وقد يكون مستفيدا كالمريدين فصحيح الخلوة والعزلة لا يترك من غير أنيس فان كان قاصرا يؤنس الله بمن يتم حاله به وإن كان غير قاصر يقبض الله تعالى له من يؤنس من الريدين وهذا الأنس ليس فيه ميل بالوصف الأعم بل هو بالله ومن الله وفي الله. وروى عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «التحابون في الله على عمود من ياقوته حمراء في رأس العمود سبعون

تعالى كان يقول أسألك الرفيق الأعلى (١) « فاذن إن نظر إلى مئمره فهو العلم وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى ولا يخفى ماورد في فضائلهما حتى إن العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى. والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقال الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين وقد خصص الله تعالى التقوى بالاضافة إلى نفسه فقال تعالى - لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم - وإنما التقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف كما سبق ولذلك قال تعالى - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى - ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله - وقال عز وجل - وخافون إن كنتم مؤمنين - فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الايمان فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضيلة التقوى « إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم فإذام بصوت يسمع أقصام كما يسمع أدنام فيقول . يا أيها الناس إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم إنما هي أعمالكم ترد عليكم . أيها الناس إني قد جعلت نسبا وجعلت نسبا فوضعت نسي ورفعت نسبكم . قلت - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من فلان فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسي أبن المتقون فيرفع للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب (٢) » وقال عليه الصلاة والسلام « رأس الحكمة مخافة الله (٣) » وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود « إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدى (٤) » وقال الفضيل : من خاف الله دله الخوف على كل خير . وقال الشبلي رحمه الله : ما خفت الله يوما إلا رأيت له بابا من الحكمة والعبرة مارأيت قط . وقال يحيى بن معاذ : ما من مؤمن يعمل سيئة إلا ويلحقها حسنتان خوف العقاب ورجاء العفو كعجب بين أسدين . وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام وأما الورعون فإنه لا يبقى أحد إلا ناقشته الحساب وقشقت عما في يديه إلا الورعين فإني أستحي منهم وأجلهم أن أوقهم للحساب والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف فإن خلت عن الخوف لم تسم بهله الأسمى وكذلك ماورد في فضائل الذكر لا يخفى وقد جعله الله تعالى مخصوصا بالخاصين فقال - سيذكر من يخشى - وقال تعالى - ولمن خاف مقام ربه جنتان - وقال صلى الله عليه وسلم « قال عز وجل وعزني

ألف غرفة مشرفون على أهل الجنة يضيئون حنهم لأهل الجنة كما تضيئ الشمس لأهل الدنيا فيقول أهل الجنة انطلقوا بنا ننظر إلى التحابين في الله عز وجل فإذا أشرفوا عليهم أضاء حنهم لأهل الجنة كما تضيئ الشمس لأهل الدنيا عليهم ثياب سندس خضر مكتوب على جباههم هؤلاء التحابون في الله عز وجل » وقال أبو إدريس الخولاني لمعاذ إني أحبك في الله فقال له أبشر ثم أبشر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينصب لطائفة من الناس كراسي حول

(١) حديث لماخير في مرض موته كان يقول أسألك الرفيق الأعلى متفق عليه من حديث عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يغير فلما نزل به ورأسه في حجرى غشى عليه ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال اللهم الرفيق الأعلى فقلت أنه لا يختارنا وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح الحديث (٢) حديث إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمعه أقصام كما يسمعه أدنام فيقول يا أيها الناس إني قد أنصت إليكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم إنما هي أعمالكم ترد عليكم أيها الناس إني جعلت نسبا الحديث الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرک بسند ضعيف والثعلبي في التفسير مقتصر على آخره إني جعلت نسبا الحديث من حديث أبي هريرة (٣) حديث رأس الحكمة مخافة الله أبو بكر بن لال الفقيه في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب وضعفه من حديث ابن مسعود ورواه في دلائل النبوة من حديث عقبه بن عامر ولا يصلح أيضا (٤) حديث إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدى قاله لابن مسعود لم أقف له على أصل.

لأجمع طي عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين فان أمنى في الدنيا أخفته يوم القيامة وإن خافى في الدنيا أمته يوم القيامة (١) « وقال صلى الله عليه وسلم « من خاف الله تعالى خافه كل شيء ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شيء (٢) » وقال ﷺ « أتاكم عقلا أشدكم خوفاً لله تعالى وأحسنكم فيما أمر الله تعالى به ونهى عنه نظراً (٣) » وقال يحيى بن معاذ رحمة الله عليه مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف النقر دخل الجنة . وقال ذو النون رحمة الله تعالى من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد الله حبه وصح له به . وقال ذو النون أيضا ينبغي أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء فاذا غلب الرجاء تشوش القلب . وكان أبو الحسين الضرير يقول : علامة السعادة خوف الشقاوة لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده فاذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين . وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الخلق غدا فقال أشدكم خوفاً اليوم . وقال سهل رحمة الله لا تجد الخوف حتى تأكل الحلال . وقيل للحسن بأبائه كيف تصنع بحال أقواما يخوفوننا حتى تسكد قلوبنا تطير فقال والله إنك إن تخالط أقواما يخوفونك حتى يدركك أمن خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى يدركك الخوف . وقال أبو سليمان الداراني رحمة الله ما فارق الخوف قلبا إلا خرب وقالت عائشة رضی الله عنها « قلت يا رسول الله - الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة - هو الرجل يسرق ويرزى قال لا ، بل الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه (٤) » والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر وكل ذلك ثناء على الخوف لأن مذمة الشيء ثناء على ضده الذي ينفيه وضد الخوف الأمن كما أن ضد الرجاء الأيس وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له بل نقول كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنهما متلازمان فان كل من رجا محبوبا فلا بد وأن يخاف فوته فان كان لا يخاف فوته فهو إذا لا يحبه فلا يكون بانتظاره راجيا فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وما مجتهدان ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لفنته عنه وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه إذ العلوم لا يرجى ولا يخاف فاذا المحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لاحتمال فقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف والتقديران يتقابلان لاحتمال إذا كان ذلك الأمر للنتظر مشكوكا فيه نعم أحد طرفي الشك حمد يرجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظنا فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر فاذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء وخفي الخوف بالاضافة إليه وكذا بالمكس وطى كل حال فهما متلازمان ولذلك قال تعالى - ويدعوننا رغبا ورهبا - وقال عز وجل - يدعون ربهم خوفا وطمعا - ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء فقال تعالى - ما لكم لا ترجون لله وقارا - أي لا تخافون وكثيرا ما ورد في القرآن الرجاء بمعنى

(١) حديث لأجمع طي عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين ابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسل (٢) حديث من خاف الله خافه كل شيء الحديث أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين باسناد ضعيف معضل وقد تقدم (٣) حديث أتاكم عقلا أشدكم خوفاً الحديث لم أقف له على أصل ولم يصح في فضل العقل شيء (٤) حديث عائشة قلت يا رسول الله - الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة - هو الرجل يسرق ويرزى قال لا ، الحديث الترمذي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الاسناد . قلت بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذي وروى عن عبد الرحمن بن سعد عن أبي جازم عن أبي هريرة .

العرش يوم القيامة
وجوهم كاتم ليلة
البدن يفزع الناس
ولا يفزعون ويخاف
الناس ولا يخافون وهم
أولياء الله الذين لا خوف
عليهم ولا هم يحزنون
ف قيل من هؤلاء
يا رسول الله ؟ قال
التحابون في الله عز
وجل . وروى عبادة
ابن الصامت عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
قال « يقول الله عز وجل
حقت محبتي للمتحابين
في المتزاوين في
والتبازلين في
والتصادقين في »
أخبرنا الشيخ
أبو الفتح محمد بن
عبد الباقي إجازة قال
أنا أحمد بن الحسين

الخوف وذلك لتلازمهما إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه بل أقول كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية فان البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى - فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا - وقال تعالى - يبكون وينبهم خشوعا - وقال عز وجل - أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون - وقال ﷺ « ما من عبد مؤمن تخرج من عينيه دموع وإن كانت مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى ثم تصيب شيئا من حروجه إلا حرمه الله على النار (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا اشعر قلب المؤمن من خشية الله تحات عنه خطاياها كما يتحات من الشجرة ورقها (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يلبح النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعوذ اللبن في الصرع (٣) » وقال عقبة بن عامر « ما النجاة يا رسول الله قال أمسك عليك لسانك ولاسمعك يبتك وابتك طي خطيئتك (٤) » وقالت عائشة رضی الله عنها « قلت يا رسول الله أيدخل أحد من أمتك الجنة بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فيكبي (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله تعالى أو قطرة دم أهرقت في سبيل الله سبحانه وتعالى (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم ارزقني عينين هطالتين تشفيان [١] بذروف الدمع قبل أن تصير الدموع دما والأضراس حمرا (٧) » وقال ﷺ « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله وذكر منهم رجلا ذكر الله خاليا قضاقت عيناه (٨) » وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من استطاع أن يبكي فليبك ومن لم يستطع فليبتك . وكان محمد بن النكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول : بلغني أن النار لا تأكل موصا من الدموع . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ابكوا فان لم تبكوا فبتا كوا فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ووصلى حتى ينكسر صلبه وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله ما ترغرت عين بعائها إلا لم يرهق وجه صاحبها قطر ولا ذلة

(١) حديث ما من مؤمن يخرج من عينه دموع وإن كانت مثل رأس الذباب الحديث الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٢) حديث إذا اشعر جلد المؤمن من خشية الله تحات عنه ذنوبه الحديث الطبراني والبيهقي فيه من حديث العباس بسند ضعيف (٣) حديث لا يلبح النار عبد بكى من خشية الله الحديث الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة (٤) حديث قال عقبة بن عامر ما النجاة يا رسول الله قال أمسك عليك لسانك الحديث تقدم (٥) حديث عائشة قلت يدخل الجنة أحد من أمتك بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فيكبي لم أقف له على أصل (٦) حديث ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دموع من خشية الله الحديث الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن غريب وقد تقدم (٧) حديث اللهم ارزقني عينين هطالتين تشفيان بذروف الدمع الحديث الطبراني في الكبير وفي الدعاء وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بإسناد حسن ورواه الحسين الروزي في زيادته على الزهد والرقائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبد الله مرسلدون ذكر الله وذكر الدار قطن في العلال أن من قال فيه عن أبيه وهم إنما هو عن سالم بن عبد الله مرسلدا قال وسالم هذا يشبه أن يكون سالم بن عبد الله المحاربي وليس بابن عمر انتهى وما ذكره من أنه سالم المحاربي هو الذي يدل عليه كلام البخاري في التاريخ ومسلم في السكتي وابن أبي حاتم عن أبيه وأبي أحمد الخاكم فان الراوي له عن سالم عبد الله أبو سلمة وإنما ذكروا له رواية عن سالم المحاربي والله أعلم، نعم حكى ابن عساكر في تاريخه الخلاف في أن الذي يروي عن سالم المحاربي أو سالم بن عبد الله بن عمر (٨) حديث سبعة يظلهم الله في ظله الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

[١] قوله تشفيان بذروف الدمع الذي في الجامع الصغير تشفيان القلب بذروف الدمع من خشيتك .

ابن خيرون قال أنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الله المصملي قال أنا أبو القاسم عمر بن جعفر ابن محمد بن سلام قال أنا أبو اسحق إبراهيم بن اسحق الحاربي قال حدثنا حماد عن يحيى ابن سعيد عن سعيد ابن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا أخيركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة قالوا وما هو قال إصلاح ذات البين وإياكم والبغضة فانها هي الخالقة » وبإسناد إبراهيم الحاربي عن عبيد الله بن عمر عن أبي أمامة عن عبد الله ابن الوليد عن عمران ابن رباح قال سمعت

يوم القيامة فإن سألت دموعه أطفأ الله بأول قطرة منها بحارا من النيران ولو أن رجلا بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة . وقال أبو سليمان البكاء من الخوف والرجاء والطرب من الشوق . وقال كعب الأخبار رضى الله عنه والذى نفسى يده لأن أبكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على وجنتى أحب إلى من أن أتصدق بجبل من ذهب . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لأن أدمع دموعه من خشية الله أحب إلى من أن أتصدق بألف دينار . وروى عن حنظلة قال « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلى فذنت من المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذنا في الدنيا ثم تذكرت ما كنا فيه فقلت في نفسى قد ناققت حيث تحول عني ما كنت فيه من الخوف والرفة فخرجت وجعت أنادى نافع حنظلة فاستقباني أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال كلام يوافق حنظلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول نافع حنظلة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلام يوافق حنظلة فقلت يا رسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجات منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلى فأخذنا في حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه فقال صلى الله عليه وسلم يا حنظلة لو أنكم كنتم أبدا على تلك الحالة لصاغتكم الملائكة في الطرق وعلى فراشكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة (١) » فاذن كل ما ورد في فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الأمن فهو دلالة على فضل الخوف لأن جملة ذلك متعلقة به إما تعلق السبب أو تعلق السبب .

(بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما)

اعلم أن الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر إليهما فيعتر به شك في أن الأفضل أيهما وقول القائل الخوف أفضل أم الرجاء سؤال فاسد يضاهاى قول القائل الحبز أفضل أم الماء وجوابه أن يقال الحبز أفضل للجائع والماء أفضل للعطشان فإن اجتماعا نظر إلى الأغلب فإن كان الجوع أغلب فالحبز أفضل وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل وإن استويا فهما متساويان وهذا لأن كل ما يراد لمقصود فضله يظهر بالاضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه والخوف والرجاء دوا آن يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاعتذار به فالخوف أفضل وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل وكذلك إن كان الغالب على العبد العصية فالخوف أفضل ويجوز أن يقال مطلقا الخوف أفضل على التأويل الذى يقال فيه الحبز أفضل من السكنجين إذ يعالج بالحبز مرض الجوع والسكنجين مرض الصفراء ومرض الجوع أغلب وأكثر فالخوف إلى الحبز أكثر فهو أفضل فهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل لأن المعاصى والاعتذار على الخلق أغلب وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستقى من بحر الرحمة ومستقى الخوف من بحر الغضب ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب وليس وراء المحبة مقام . وأما الخوف فستنده الالتفات إلى الصفات التى تقتضى العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء . وعلى الجملة فإيراد لغيره يبنى أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لالفظ الأفضل فنقول : أكثر الخوف لهم أصلح من الرجاء وذلك لأجل غلبة المعاصى . فأما التقوى الذى ترك ظاهر الاثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يتمدد خوفه ورجاؤه ولذلك

(١) حديث حنظلة كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا الحديث وفيه نافع حنظلة الحديث وفيه ولكن يا حنظلة ساعة وساعة مسلم مختصرا .

أبا مسلم يقول صممت
أبا هريرة يقول الخبر
وفي الخبر تحذير عن
البغضة وهو أن يحفو
الختلى الناس مقتالهم
وسوء ظن بهم وهذا
خطأ وإنما يريد أن
يخلو مقتنا لنفسه
وعلمنا بما في نفسه من
الآفات وحذرا على
نفسه من نفسه وعلى
الخلق أن يعود عليهم
من شره فمن كانت
خلوته بهذا الوصف
لا يدخل تحت هذا
الوعيد والاشارة
بالحاقة يعنى أن البغضة
حالقة للدين لأنه نظر
إلى المؤمنين والمسلمين
يعين المقت . وأخبرنا
الشيخ أبو الفتح
بأسانه إلى إبراهيم

قيل لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا وروى أن علياً كرم الله وجهه قال لبعض ولده يا بني خف الله خوفاً ترى أنك لو أتيت به بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيت به بسيئات أهل الأرض غفرها لك ولذلك قال عمر رضي الله عنه لو نودي لي يدخل النار كل الناس لإرجلا واحداً لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ولو نودي لي يدخل الجنة كل الناس لإرجلا واحداً لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل وهذا عبارة عن غاية الحروف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوي فمثل عمر رضي الله عنه ينبغي أن يستوى خوفه ورجاؤه فأما العاصي إذا ظن أنه الرجل الذي استثنى من الذين أمروا بدخول النار كان ذلك دليلاً على اغتراره . فان قلت مثل عمر رضي الله عنه لا ينبغي أن يتساوى خوفه ورجاؤه بل ينبغي أن يغلب رجاءه كما سبق في أول كتاب الرجاء وأن قوته ينبغي أن تكون بحسب قوته أسبابه كما مثل بالزرع والبذر ومعلوم أن من بث البذر الصحيح في أرض تقيّة وواظب على تعهدها وجاء بشرط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجاء الإدراك ولم يكن خوفه مساوياً لرجائه فهكذا ينبغي أن تكون أحوال المتقين . فاعلم أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زلله وذلك وإن أوردناه مثلاً فلا يفسد بضاهي ما نحن فيه من كل وجه لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة إذ علم بالتجربة صحة الأرض وتقاؤها وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق المهلكة في تلك البقاع وغيرها وانعاشل مسألنا بذر لم يجرب جنسه وقد بث في أرض غريبة لم يحدها الزارع ولم يجربها وهي في بلاد ليس يدري أكثر الصواعق فيها أم لا فمثل هذا الزارع وإن أدى كنه مجهوده وجاء بكل مقدورة فلا يغلب رجاءه على خوفه والبذر في مسألنا هو الإيمان وشروط صحته دقيقة والأرض القلب وخفايا خبئه وصفاته من الشرك الحفي والنفاق والرياء وخفايا الأخلاق فيه غامضة والآفات هي الشهوات وزخارف الدنيا والثغرات القلب إليها في مستقبل الزمان وإن سلم في الحال وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة إذ قد يمرض من الأسباب ما لا يطاق مخالفته ولم يجرب مثله والصواعق هي أهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده وذلك مما لم يجرب مثله ثم الحصاد والإدراك عند التصرف من القيامة إلى الجنة وذلك لم يجرب فمن عرف حقائق هذه الأمور فإن كان ضعيف القلب جباناً في نفسه غلب خوفه على رجائه لإحالة كما سيحكي في أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين وإن كان قوي القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه فأما أن يغلب رجاءه فلا وقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ في تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئاً إذ كان قد خصه رسول الله ﷺ بعلم المنافقين (١) فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الحفي وإن اعتقد تقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتبليس حاله عليه وإخفاء عيبه عنه وإن وثق به فمن أين يثق بيقانه على ذلك إلى تمام حسن الحاتمة وقد قال صلى الله عليه وسلم «إن الرجل يعمل عمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر (٢)» ، وفي رواية «لا قدر فواق

الحربي قال حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا أبو عاصم عن ثور عن خالد بن معدان قال إن الله تعالى ملكاً نصفه من نار ونصفه من تلج وإن من دعائه اللهم فكما ألفت بين هذا التلج وهذه النار فلا تلج يظني النار ولا النار تذيب التلج ألفت بين قلوب عبادك الصالحين وخصيف لاتألف قلوب الصالحين وقد وجدتم رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقته العزيز بقاب قوسين في وقت لا يسمه فيه شيء لطف حال الصالحين وجدتم في ذلك المقام العزيز

(١) حديث إن حذيفة كان خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين مسلم من حديث حذيفة في أصحابي اثنا عشر مناقباً تماماً لا يدخلون الجنة حتى يبلغ الجمل في سم الحياض الحديث (٢) حديث إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر وفي رواية لا قدر فواق ناقه الحديث مسلم من حديث أبي هريرة إن الرجل يعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يحتم له بعمل أهل النار وللبزائر والطيراني في الأوسط سبعين سنة وإسناده حسن ولشيوخين في أثناء حديث لابن مسعود إن أهدكم يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع الحديث

ناقة فيسبق عليه الكتاب فيحتم له بعمل أهل النار وقد فراق الناقة لا يحتمل عملاً بالجوارح إنما هو بمقدار خاطر يختلج في القلب عند اللوت فيقتضى خاتمة السوء فكيف يؤمن ذلك فاذن أقصى غايات المؤمن ان يتدل خوفه ورجاؤه وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مسندة للاغترار وقلة الأمر فقول ذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من أثني عليهم فقال تعالى - يدعون ربهم خوفاً وطمعا - وقال عز وجل - ويدعوننا رغبا ورهبا - وأين مثل عمر رضي الله عنه فالخلق الموجودون في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من التفرقة فيكون ذلك سببا لتكامل عن العمل وداعيا إلى الانهماك في العاصي فان ذلك قنوط وليس بخوف إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعو إلى التجافي عن دار القنوط وهو الخوف الممود دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث ودون اليأس الموجب للقنوط وقد قال يحيى بن معاذ من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الادكار . وقال مكحول الدمشقي من عبد الله بالخوف فهو حروري ومن عبده بالرجاء فهو مرجي ومن عبده بالمهبة فهو زنديق ومن عبده بالخوف والرجاء والمهبة فهو موحد فاذن لا بد من الجمع بين هذه الأمور وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الاشراف على اللوت أما عند اللوت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل فالشرف على اللوت لا يقدر على العمل ثم لا يطبق أسباب الخوف فان ذلك يقطع نياط قلبه ويبين على تمجيل موته وأما روح الرجاء فانه يقوى قلبه ويعجب إليه ربه الذي إليه رجاءه ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا بحياة الله تعالى ليكون محاللقاء الله تعالى فان من أحب لقاء الله تعالى أحب لقاءه والرجاء تقارنه المهبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب والقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تثمر المعرفة بالمهبة فان الصير إليه والقيدوم بالموت عليه ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه فهما كان القلب الغالب عليه عند اللوت حب الأهل والولد والمسال والسكن والعقار والرفقاء والأصحاب فهذا رجل محابه كلها في الدنيا فالدنيا جنته إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب فهوته خروج من الجنة وحيولة بينه وبين ما يشتهي ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهي فاذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلاقتها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا إذن سجنه لأن السجن عبارة عن البقعة المسانمة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه فهوته تقوم على محبوبه وخلاص من السجن ولا يخفى حال من أفلت من السجن وخلى بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدر فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلا عما أعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر وفضلا عما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا إليها من الأنكال والسلاسل والأغلال وضروب الخزي والنكال فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى ولا سبيل إليه إلا باخراج حب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى من جاه ومال ووطن فالأولى أن تدعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم إذ قال « اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد (١) » والعرض

ليس فيه تهديد زمن العمل بخمسين سنة ولا ذكر شبر ولا فواق ناقة (١) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك الحديث الترمذي من حديث معاذ و تقدم في الأذكار والدعوات .

وقال السلام علينا
وطى عباد الله الصالحين
فهم مجتمعون وإن
كانوا متفرقين
وصحبتهم لازمة
وعزيمتهم في التواصل
في الدنيا والآخرة
جازمة . وعن عمر بن
الخطاب رضي الله عنه
لو أن رجلا صام النهار
وقام الليل وتصدق
وجاهد ولم يحب في
الله ولم يفض فيه
مانعه ذلك . أخبرنا
رضي الدين أحمد بن
إسماعيل بن يوسف
إجازة إن لم يكن معانا
قال أنا أبو المظفر عن
والده أبي القاسم
القشيري قال سمعت
أبا عبد الرحمن السلمي
يقول سمعت عبد الله

أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لأنه أذاب للمحبة وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات وألحق لهبة الدنيا عن القلب ولذلك قال عليه السلام « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه (١) » وقال تعالى « أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء » ولما حضرت سليمان التيمي الوفاة قال لابن عباسي حدثني بالرخص واذكر لي الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله برجونه وقال أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه لابنه عند الموت اذكر لي الأخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام أن جئني إلى عبادي فقال بماذا قال بأن تذكر لهم الآتي ونصائي فاذن غاية السعادة أن يموت محبا لله تعالى وإنما تحصل المحبة بالمعرفة وبإخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن البانع من المحبوب ولذلك رأى بعض الصالحين أباسليمان الداراني في المنام وهو يطير فسأله فقال الآن أفلت فلما أصبح سأل عن حاله فقيل له إنه مات البارحة.

(بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف)

اعلم أن ما ذكرناه في دواء الصبر وشرحناه في كتاب الصبر والشكر هو كاف في هذا الغرض لأن الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء لأن أول مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار وهذا اليقين بالضرورة يبيح الخوف من النار والرجاء للجنة والرجاء والخوف يقويان على الصبر فإن الجنة قد حفت بالمسكاره فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف ولذلك قال على كرم الله وجهه من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن الهرمات ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام ويؤدي دوام الذكر إلى الأُنس ودوام الفكر إلى كمال المعرفة ويؤدي كمال المعرفة والآنس إلى المحبة وتبقيها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ولا بعدها مقام سوى الصبر وبه المجاهدة والتجرد لله ظاهر أو باطنا ولا مقام بعد المجاهدة من فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والأُنس ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بنيته وهو التوكل فاذن فبما ذكرناه في علاج الصبر كفاية ولكننا نرد الخوف بكلام جملي فنقول : الخوف يحصل بطريقتين مختلفتين أحدهما على من الآخر، ومثاله أن الصبي إذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف وربما مد اليد إلى الحية ليأخذها ويلب بها ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها فاذا نظر الصبي إلى أبيه وهو ترعد فرائسه ومخالف في الحرب منها قام معه وغلب عليه الخوف وواقفه في الحرب غفوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وحماها وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه وقلة مبالاته . وأما خوف الابن فأيمانه بمجرد التقليد لأنه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب مخوف في نفسه فيعلم أن السبع مخوف ولا يعرف وجهه وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين أحدهما الخوف من عذابه والثاني الخوف منه فأما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضيه الهيبة والخوف والحذر المطلقين على سر قوله تعالى - ويحذركم الله نفسه - وقوله عز وجل - اتقوا الله حق تقاته - وأما الأول فهو خوف عجم الخلق وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار وكونها جزاء من على الطاعة والمصيبة وضعفه بسبب الطفلة وسبب الإيمان وإيمان زول الطفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال

ابن المسلم يقول سمعت أبا بكر التلمساني يقول سمعوا مع الله فان لم تطيقوا فاصبروا مع من يصحب مع الله لتوصلكم بركة صحبتهم إلى صحبة الله. وأخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة قال أنا عمر ابن أحمد الصفار النيسابوري إجازة قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت أبا نصر الأصفهاني يقول سمعت أبا جعفر الحدادي يقول سمعت على بن سهل يقول : الأُنس بالله تعالى أن تستوحش من الخلق إلا من أهل

(١) حديث لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه مسلم من حديث جابر وقد تقدم .

يوم القيامة وأصناف العذاب في الآخرة وتزول أيضا بالنظر إلى الخائفين ومجالسهم ومشاهدة أحوالهم فان قامت المشاهدة فالسباع لا يغلو عن تأثير وأما الثاني وهو الأمل فان يكون الله هو الخوف أعني أن يخاف العبد الحجاب عنه ويرجو القرب منه . قال ذو النون رحمه الله تعالى خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لحي وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية ولكن هو بمجرد التقليد أيضا هي خوف الصبي من الحية تقليدا لأبيه وذلك لا يستند إلى بصيرة فلاجرم يضعف ويزل على قرب حتى إن الصبي ربما يرى المزمزيم يدم على أخذ الحية فينظر إليه ويفتربه فيتجرأ على أخذها تقليدا له كما احترز من أخذها تقليدا لأبيه والعقائد التقليدية ضعيفة في الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها للؤكد لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب المعاصي مدة طويلة على الاستمرار فاذن من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقفا في محالبه لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام خفي كما تخاف السبع الضاري ولا حيلة جلب في الخوف من السبع الضاري إلا معرفة السبع ومعرفة الوقوع في محالبه فلا يحتاج إلى حيلة سواء فمن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالي ويحكم ما يريد ولا يخاف قرب الملائكة من غير وسيلة سابقة وأبعد إبليس من غير جريمة سألقة بل صفته ما ترجمه قوله تعالى هؤلاء في الجنن ولا يبالي وهو هؤلاء في النار ولا يبالي وإن خطر ببالك أنه لا يعاقب إلا على معصية ولا يثيب إلا على طاعة فتأمل أنه لم يعد الطبع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يعد المعاصي بدواعي للمعصية حتى يعصى شاء أم أبى فانه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعا بالضرورة فان كان أبده لأنه عصاه فلم حمله على للمعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية أو يقف لا محالة على أول لعل له من جهة العبد بل قضى عليه في الأزل وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم إذ قال «احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند ربهما فحج آدم موسى عليه السلام قال موسى أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفع فيك من روحه وأسجدك ملائكته وأسكنك جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض فقال آدم أنت موسى الذي اصطفاك الله برسائه وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيا فبكمت وحدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قال موسى بأربعين عاما قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال أقتلوني على أن عملت عملا كتبه الله على قبل أن أعمله وقبل أن يخلقني بأربعين سنة قال صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى (١) فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين للطلوعين على سر القدر ومن مع هذا فقامن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف فان كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في محال السبع والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه وقد يهجم عليه فيفتسه وذلك بحسب ما يتفق ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم ولكن إذا أضيف إلى من لا يعرفه سمى اتفاقا وإن أضيف إلى علم الله لم يجز أن يسمى اتفاقا والواقع في محال السبع لو كملت معرفته لكان لا يخاف السبع لأن السبع مسخر إن سلط عليه الجوع اقترب وان سلط عليه الغفلة خلى وترك فانما يخاف خالق السبع وخالق صفاته فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع

(١) حديث احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بألفاظ أخر .

ولايه الله فان الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله . وقد نه القائل نظما على حقيقة جامعة لمعان الصحة والحلوة وفائدتهما وما يحذر فيهما بقوله : وحدة الانسان خير من جليس السوء عنده

وجليس الخير خير من قوم المرء وحده [الباب الرابع والخمسون في أداء حقوق الصحبة والأخوة في الله تعالى] قال الله تعالى - وتعاونوا على البر والتقوى - وقال تعالى - وتواصوا بالحق - وتواصوا بالمرحمة - وقال في وصف أصحاب

بل إذا كشف الغطاء علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى لأن المهلك بواسطة السبع هو الله . فاعلم أن سبع الآخرة مثل سبع الدنيا وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلا يسوقه القدر للتفرغ عن القضاء الجزم الأزلى إلى ما خلق له من خلق الجنة وخلق لها أهلا سخرها لأسبابها شاءوا أم أبوا ، وخلق النار وخلق لها أهلا سخرها لأسبابها شاءوا أم أبوا فلا يرى أحد نفسه في ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة ، فهذه مخاوف العارفين بسر القدر فمن تعدبه القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسيبيله أن يعالج نفسه بمعالج الأخيار والآثار فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين للفرورين فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء . وأما الآمنون فهم الفراغة والجهال والأغبياء . أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الأولين والآخرين (١) وكان أشد الناس خوفاً (٢) حتى روى أنه كان يصلى على طفل ، قضى رواية أنه سمع في دعائه يقول « اللهم مه عذاب القبر وعذاب النار (٣) » وفي رواية ثانية « أنه سمع قائلاً يقول هنيئاً لك عصفور من عصافير الجنة فضضب وقال ما يدريك أنه كذلك والله إنى رسول الله وما أدري ما يصنع بى إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم (٤) » وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضاً على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأولين لما قالت أم سلمة هنيئاً لك الجنة فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك والله لأزكى أحداً بعد عثمان (٥) وقال محمد بن خولة الحنفية والله لأزكى أحداً غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبى الذى ولدنى قال فثارت الشيعة عليه فأخذ يذكر من فضائل على ومناقبه ، وروى في حديث آخر « عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئاً لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضره (٦) » وفي حديث آخر « أنه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئاً

(١) حديث كان سيد الأولين والآخرين مسلم من حديث أبى هريرة أناسيد ولد آدم ولا تخف الحديث
(٢) حديث كان أشد الناس خوفاً تقدم قبل هذا بخمسة وعشرين حديثاً قوله والله إنى لأخشاكم لله وقوله والله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية (٣) حديث إنه كان يصلى على طفل فسمع في دعائه يقول اللهم مه عذاب القبر وعذاب النار الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على صبي أوصية وقال لو كان أحد نجا من ضمة القبر لنجا هذا الصبي واختلف فى إسناده فرواه فى الكبير من حديث أبى أيوب أن صبياً دفن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أفلت أحد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبي (٤) حديث إنه سمع قائلة تقول لطفل مات هنيئاً لك عصفور من عصافير الجنة فضضب وقال ما يدريك الحديث مسلم من حديث عائشة قالت توفى صبي فقلت طوبى له عصفور من عصافير الجنة الحديث وليس فيه فضضب وقد تقدم (٥) حديث لما توفى عثمان بن مظعون قالت أم سلمة هنيئاً لك الجنة الحديث البخارى من حديث أم العلاء الأنصارية وهى القائلة رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتى عليك لقد أكرمك الله قال وما يدريك الحديث ، وورد أن التى قالت ذلك أم خارجة بن زيد ولم أجد فيه ذكر أم سلمة (٦) حديث إن رجلاً من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئاً لك عصفور من عصافير الجنة الحديث أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ إن أمه قالت هنيئاً لك يا بنى الجنة ورواه البيهقى فى الشعب إلا أنه قال فقالت أمه هنيئاً لك الشهادة وهو عند الترمذى إلا أنه قال إن رجلاً قال له أشر بالجنة وقد تقدم فى دم اللال والبخل مع اختلاف.

ر- ول الله صلى الله عليه وسلم - أشداه على الكفار رحما بينهم - وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على آداب حقوق الصحبة فمن اختار صحبة أو أخوة فأدبه فى أول ذلك أن يسلم نفسه وصاحبه إلى الله تعالى بالمسئلة والدعاء والتضرع ويسأل البركة فى الصحبة فانه يفتح على نفسه بذلك إما باباً من أبواب الجنة وإما باباً من أبواب النار فان كان الله تعالى يفتح بينهما خير افهو باب من أبواب الجنة قال الله تعالى - الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين - وقيل

لك الجنة فقال صلى الله عليه وسلم من هذه النأية على الله تعالى فقال المريض هي أمى يارسول الله فقال وما يدرك لعل فلانا كان يتكلم بما لا يعنيه ويخجل بما لا يعنيه (١) وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول « شيتنى هود وأخواتها (٢) » سورة الواقعة وإذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقال العلماء لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى - ألبعدا لعاد قوم هود - ألبعدا لثمود - ألبعدا للمدين كما بدت ثمود - مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها ، وفي سورة الواقعة - ليس لو قتها كاذبة ، خافضة رافضة - أى جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة إما خافضة قوما كانوا مرفوعين فى الدنيا وإما رافضة قوما كانوا مخفوضين فى الدنيا ، وفى سورة التكويد أحوال يوم القيامة وانكشاف الحائمة وهو قوله تعالى - وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت علت نفس ما أحضرت - وفى عم يتساءلون - يوم ينظر المرء ما قدمت يداه - الآية ، وقوله تعالى - لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا - والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى - وإنى لعفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى - لكان كافيا إذ علق المفردة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها ، وأشد منه قوله تعالى - فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فمضى أن يكون من المفلحين - وقوله تعالى - ليسأل الصادقين عن صدقهم - وقوله تعالى - سنفرغ لكم أية الثقلان - وقوله عز وجل - أفأمنوا مكر الله - الآية وقوله - وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذنه أليم شديد - وقوله تعالى - يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا - الآيتين وقوله تعالى - وإن منكم إلا واردها - الآية وقوله - اعملوا ما شئتم - الآية وقوله - من كان يريد حرث الآخرة زدله فى حرثه - الآية وقوله - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - الآيتين وقوله تعالى - وقدمنا إلى ما عملوا من عمل - الآية وكذلك قوله تعالى - والعصر إن الإنسان لفي خسر - إلى آخر السورة فهذه أربعة شروط للخلاص من الحمران وإنما كان خوف الأنبياء مع ما فاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى - ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون - حتى روى أن النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفا من الله تعالى فأوحى الله إليهما لم تبكيا وقد أمتكما فقالا ومن يأمن مكر (٣) وكانهما إذ علمتا أن الله هو علام الغيوب وأنه لا وقوف لهما على غاية الأمور لم يأمن أن يكون قوله قد أمتكما ابتلاء وامتحانا لهما ومكرا بهما حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمتا من المكرو ما فويا بقولهما كما أن إبراهيم عليه السلام لما وضع فى المنجنيق قال حسبي الله وكانت هذه من الدعوات العظام فامتحن وعورض بجبريل فى الهواء حتى قال ألك حاجة فقال أما إليك فلا فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبي الله فأخبر الله تعالى عنه فقال - وإبراهيم الذى وفى - أى بموجب قوله حسبي الله وبمثل هذا أخبر عن موسى عليه السلام حيث قال - إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إنى معكما أسمع وأرى - ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى فى نفسه خيفة إذ لم يأمن مكر الله والتبس الأمر عليه حتى جدد عليه الأمن وقيل له - لا تخف إنك أنت الأملئ - ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئا له الجنة الحديث تقدم أيضا (٢) حديث شيتنى هود وأخواتها الحديث الترمذى وحسنه والحاكم وصححه من حديث ابن عباس وهو فى التماثل من حديث أبى جحيفة وقد تقدم فى كتاب السماع (٣) حديث أنه وجبريل صلى الله عليهما وسلم بكيا خوفا من الله عز وجل فأوحى الله إليهما لم تبكيا الحديث ابن شاهين فى شرح السنة من حديث عمر ورويناه فى مجلس من أمالى أبى سعيد النقاش بسند ضعيف .

إن أحد الأخوين فى الله تعالى يقال له ادخل الجنة فيسأل عن منزل أخيه فان كان دونه لم يدخل الجنة حتى يعطى أخوه مثل منزله . فان قيل له لم يكن يعمل مثل عملك فيقول إنى كنت أعمل لى وله فيعطى جميع ما يسأل لأخيه ويرفع ويرفع أخوه إلى درجته وإن فتح الله تعالى عليهما بالصحة شرا فهو باب من أبواب النار . قال الله تعالى - ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتى لئنى لم اتخذ فلانا خليلا - وإن مكات الآية

« اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك (١) » فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه دع عنك مناشدتك ربك فإنه واف لك بما وعدك فكان مقام الصديق رضى الله عنه مقام الثقة بوعد الله ، وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو أتم لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعاني صفاته التى يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى ، ومن عرف حقيقة المعرفة وقصور معرفته عن الاحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لا محالة ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم لما قيل له - أنت قلت للناس اتخذوني وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك - وقال - إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم - الآية . فوض الأمر إلى المشيئة وأخرج نفسه بالكلية من بين لعلمه بأنه ليس له من الأمر شيء وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطا يخرج عن حد العقول والنألوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حساب فضلا عن التحقيق والاستيقان وهذا هو الذى قطع قلوب العارفين ، إذ الطامة الكبرى هى ارتباط أمرك بمشيئة من لا يالى بك إن أهلكك فقد أهلك أمثالك ممن لا يحصى ولم يزل فى الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام والأمراض ويعرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ثم يتخذ العقاب عليهم أبد الآبائهم يخبر عنه ويقول - ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين - وقال تعالى - وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم - الآية فكيف لا يخاف ماحق من القول فى الأزول ولا يطمع فى تداركه ولو كان الأمر أنفا لكنت الأطماع تمتد إلى حيلة فيه ولكن ليس بالإلتسليم فيه واستقراء خفى السابقة من جلى الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح فمن يسهل له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التى سبقت له بالشقاوة ، إذ كل ميسر لما خلق له وإن كانت الخيرات كلها يسيرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعا وبظاهره وباطنه على الله مقبلا كان هذا يقتضى تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقا به ولكن خطر الحائمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف إشعالا ولا يمكنها من الانطفاء ، وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصعبين من أصابع الرحمن وإن القلب أشد تقبلا من القدر فى غلباتها وقد قال مقلب القلوب عز وجل - إن عذاب ربهم غير مأمون - فأجهل الناس من أمنه وهو ينادى بالتحذير من الأمن ولولا أن الله لطف بعباده العارفين إذ روح قلوبهم بروح الرجاء لا حترقت قلوبهم من نار الخوف . فأسباب الرجاء رحمة لخواص الله وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه ، إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب . قال بعض العارفين : لو حالت بينى وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة أسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد لأنى لأدرى ما ظهر له من القلب . وقال بعضهم : لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الاسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الإسلام لأنى لا أدرى ما يمرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار . وكان أبو الدرداء يخلف بالله ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه . وكان سهل يقول : خوف الصديقين من سوء الحائمة عند كل خطرة وعند كل

وردت فى قصة مشهورة ولكن الله تعالى نيه بذلك عباده على الحذر من كل خيل يقطع عن الله واختيار الصحبة والأخوة اتفاقا من غير نية فى ذلك وتثبت فى أول الأمر شأن أرباب الغفلة الجاهلين بالنيات والمقاصد والمنافع والمضار . وقد قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى كلام له وهل يفسد الناس إلا الناس ، فالفساد بالصحبة متوقع والصالح متوقع وما هذا سبيله كيف لا يحذر فى أوله ويحكم الأمر فيه بكثرة اللجأ إلى الله تعالى وصدق الاختيار

(١) حديث قال يوم بدر : اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك البخارى من حديث ابن عباس بالنظر : اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم الحديث .

حركة وهم الدين وصفهم الله تعالى إذ قال - وقلوبهم وجلة - . ولما احتضر سفيان جعل يبكي ويجزع قبيل له يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإن عفو الله أعظم من ذنوبك ، فقال أو طي ذنوبي أبكي ؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا . وحكى عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه ، فقال إذا حضرته الوفاة فاقعد عند رأسي ، فإن رأيتني متاً على التوحيد غفد جميع ما أمسكته فاشتره لوزاوسكرا واتره على صبيان أهل البلد ، وقل هذا عرس للنفلت ، وإن متّ على غير التوحيد فأعلم الناس بذلك حتى لا يفتروا بشهود جنازتي ليحضر جنازتي من أحبّ على بصيرة لئلا يلحقني الرياء بعد الوفاة . قال : وبم أعلم ذلك فذكر له علامة فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر والاوز وفرقه . وكان سهل يقول : للريد يخاف أن يبتلى بالمعاصي ، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر . وكان أبو يزيد يقول : إذا توجهت إلى المسجد فكان في وسطى زناراً أخاف أن يذهب بي إلى البيعة وبيت النار حتى أدخل المسجد فيقطع عني الزنار فهذا لي في كل يوم خمس مرات . وروى عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال : يامعشر الحواريين أنتم تخافون للمعاصي ، ونحن معاشر الأنبياء نخاف الكفر . وروى في أخبار الأنبياء أن نبيا شكاً إلى الله تعالى الجوع والقمل والعري سنين وكان لباسه الصوف ، فأوحى الله تعالى إليه : عبيدي أمارضيت أن عصمت قلبك أن تكفري حتى تسألني الدنيا فأخذ التراب فوضه على رأسه ، وقال بلى قد رضيت ياربّ فاعصمني من الكفر ، فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء ، لسوء الخاتمة أسباب تتقدم على اللوث مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات الذمومة ، ولذلك اشتدّ خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن : لو أعلم آتى برى من النفاق كان أحبّ إلى مما طلعت عليه الشمس وما عنوا به النفاق الذي هو ضد أصل الإيمان بل للراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلماً مناقها ، وله علامات كثيرة : قال صلى الله عليه وسلم « أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم وإن كانت فيه خصلة منهن فبها شعبة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، وإذا خاصم فجر (١) » وفي لفظ آخر « وإذا هاهد خدر » وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لا يخلو عن شيء منه إلا صدق إذ قال الحسن : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب واختلاف للدخل والمخرج ، ومن الذي يخلو عن هذه للعاني بل صارت هذه الأمور مألوفاً بين الناس معتادة ونسي كونها منكراً بالكيفية بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة ، فكيف الظن بزماننا حتى قال حذيفة رضي الله تعالى عنه : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها مناقها إن لم يسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات (٢) وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم

(١) حديث أربع من كن فيه فهو منافق الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو وقد تقدم في قواعد العقائد (٢) حديث حذيفة إن الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها مناقها الحديث أحمد من حديث حذيفة وقد تقدم في قواعد العقائد .

وسؤال البركة والخبرة
في ذلك وتقديم صلاة
الاستخارة . ثم إن
اختيار الصحبة
والأخوة عمل وكل
عمل يحتاج إلى النية
وإلى حسن الخاتمة
وقد قال عليه الصلاة
والسلام في الخبر
الطويل « سبعة
يظلمهم الله تعالى فمنهم
اثنان تهابأ في الله
فضأ على ذلك وماتا
عليه » إشارة إلى
أن الأخوة والصحبة
من شرطها حسن
الخاتمة حتى يكتب
لها ثواب للمؤاخاة
ومنى أقصد للمؤاخاة
بتضييع الحقوق فيها
فقد العمل من
الأول . قيل ما حمد

من الشعر كنا نعدّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبار^(١). وقال بعضهم : علامة النفاق أن تكفره من الناس مأتى مثله ، وأن تعب على شيء من الجور ، وأن تبغض على شيء من الحق . وقيل من النفاق : أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك . وقال رجل لابن عمر رحمه الله إننا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون ، فإذا خرجنا تكلمنا فيهم ، فقال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) . وروى أنه سمع رجلا يذم الحجاج ويقع فيه ، فقال : رأيت لو كان الحجاج حاضرا أكنت تتكلم بما تكلمت به قال لا قال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) . وأشد من ذلك ما روى أن نقرأ قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه ، فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه ، فقال تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا ، فقال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٤) . وهذا حذيفة كان قد خص بلم المناققين وأسباب النفاق ، وكان يقول : إنه يأتي على القلب ساعة يتلىء بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز إبرة ويأتي عليه ساعة يتلىء بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مغرز إبرة . فقد عرفت بهذا أن خوف العارفين من سوء الحاتمة ، وأن سببه أمور تتقدمه : منها البدع . ومنها المعاصي . ومنها النفاق ، ومتى تخلو العبد عن شيء من جملة ذلك وإن ظن أنه قد خلا عنه فهو النفاق ، إذ قيل من أمن النفاق فهو منافق . وقال بعضهم لبعض العارفين : إني أخاف على نفسي النفاق ، فقال لو كنت منافقا لما خفت النفاق فلإنزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والحاتمة خائفا منهما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « العبد المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه فوالذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعجب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار^(٥) » ، والله المستعان .

(بيان معنى سوء الحاتمة)

فإن قلت : إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الحاتمة فما معنى سوء الحاتمة . فاعلم أن سوء الحاتمة على رتبتين : إحداها أعظم من الأخرى . فأما الرتبة العظيمة المسائلة : فإن يغلب على القلب عند سكرات اللوت وظهور أهواله إما الشك : وإما الجحود فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجبا

(١) حديث أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر الحديث البخاري من حديث أنس وأحمد والبراز من حديث أبي سعيد وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وصحح إسناده وتقدم في التوبة (٢) حديث قال رجل لابن عمر إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون الحديث رواه أحمد والطبراني وقد تقدم في قواعد العقائد (٣) حديث سمع ابن عمر رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال رأيت لو كان الحجاج حاضرا الحديث تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج (٤) حديث إن نقرأ قعدوا عند باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه فلما خرج سكتوا الحديث لم أجد له أصلا (٥) حديث العبد المؤمن بين مخافتين من أجل قد مضى الحديث البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقد تقدم في ذم الدنيا ذكره ابن المبارك في كتاب تزهد بلاغا وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرج له ولم في مسند الفردوس .

الشیطان متعاونین
على بر حسده
متأخین فی الله
متحایین فیہ فانه
یحسد نفسه وبعث
قبیله على إفساد
ما بینهما . وكان
الفضیل يقول : إذا
وقمت الغیبة ارفعت
الأخوة ، والأخوة فی الله
تعالی مواجهة قال
الله تعالی - إخوانا
على سرر متقابلین -
ومتی أضر أحدھا
للآخر سوءا أو کره
منه شیئا ولم ینبهه
علیه حتى ینزله أو
یتسبب إلى إزالته منه
فماواجه بل استدبره
قال الجنید رحمه الله
ماتواخی اثنان فی
الله واستوحش

بينه وبين الله تعالى أبداً وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب المخلد . والثانية وهى دونها أن يلبس على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها فيمثل ذلك فى قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى فى تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه فى تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكسا رأسه إلى الدنيا وصارفا وجهه إليها ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ومهما حصل الحجاب نزل العذاب إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحبوبين عنه فأما المؤمن السليم قلبه عن حب الدنيا المصروف همه إلى الله تعالى فتقول له النار جز يا مؤمن فان نورك قد أطفأ لهى فهما اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فالأمر مخطر لأن المرء يموت على ما عاش عليه ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه إذ لا تصرف فى القلوب إلا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال فلا مطمع فى عمل ولا مطمع فى رجوع إلى الدنيا ليتدارك وعند ذلك تمظم الحسرة إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ فى القلب مدة طويلة وتأكّد ذلك بالأعمال الصالحة فانه يححو عن القلب هذه الحالة التى عرضت له عند الموت فان كان إيمانه فى القوة إلى حد مثقال أخرجه من النار فى زمان أقرب وإن كان أقل من ذلك طال مكثه فى النار ولو لم يكن إلا مثقال حبة فلا بد وأن يخرج من النار ولو بعد آلاف سنين . فان قلت فما ذكرته يقتضى أن تسرع النار إليه عقيب موته فما باله يؤخر إلى يوم القيامة وبمهل طول هذه المدة . فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الإيمان بل الصحيح عند ذوى الأبصار ما سمعت به الأخبار وهو «أن القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (١)» . «وأنه قد يفتح إلى قبر المذبذب سبعون بابا من الجحيم (٢)» كما وردت به الأخبار فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقى بسوء الخاتمة وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر (٣) والتعذيب بعده (٤) ثم المناقشة فى الحساب (٥) والافتضاح على ملاء من الأشهاد فى القيامة (٦) ثم بعد ذلك خطر الصراط (٧) وهول الزبانية (٨) إلى آخر ما وردت به الأخبار فلا يزال الشقى مترددا فى جميع أحواله بين أصناف العذاب وهو فى جملة الأحوال معذب إلا أن يتغمده الله برحمته ولا تظن أن محل الإيمان يأكله التراب بل التراب يأكل جميع الجوارح ويدهها إلى أن يبلغ الكتاب أجله

(١) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة الترمذى من حديث أبى سعيد وقال غريب وتقدم فى الأذكار (٢) حديث إنه يفتح إلى قبر المذبذب سبعون بابا من الجحيم لم أجده أصلا (٣) حديث سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر تقدم فى قواعد العقائد (٤) حديث عذاب القبر تقدم فيه (٥) حديث المناقشة فى الحساب تقدم فيه (٦) حديث الافتضاح على ملاء الأشهاد فى القيامة أحمد والطبرانى من حديث ابن عمر باسناد جيد من اتقى من ولده ليفضحه فى الدنيا فضحه الله على رءوس الأشهاد وفى الصحيحين من حديث ابن عمر وأما الكافر والمناقض فينادى بهم على رءوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم والطبرانى والمقبلى فى الضعفاء من حديث الفضيل بن عياض فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة وهو حديث طويل منكر (٧) حديث خطر الصراط تقدم فى قواعد العقائد (٨) حديث هول الزبانية الطبرانى من حديث أنس الزبانية يوم القيامة أسرع إلى فسقة حملة القرآن منها إلى عبدة الأوثان والنيران . قال صاحب الميزان حديث منكر وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم معضلا فى خزنة جهنم ما بين منكبى أحدهم كما بين الشرق والغرب .

أحدهما من صاحبه إلا لعله فى أحدهما للمواخاة فى الله أصنى من الماء الزلال وما كان لله فأنه مطالب بالصفا فيه وكل ماضيا دام والأصل فى دوام صفائه عدم المخالفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمار أخاك ولا تماره ولا تعسده موعدا فتخلفه» . قال أبو سعيد الحراز : سمعت الصوفية خمسين سنة ما وقع بينى وبينهم خلاف قليل له وكيف ذلك ؟ قال لأنى كنت معهم على نفسى .

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردى إجازة قال أنا عمر بن أحمد الصفار قال أنا

فتجتمع الأجزاء للترفة وتماد إليها الروح التي هي محل الإيمان وقد كانت من وقت الموت إلى الاعادة إما في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة وإما على حالة تضاد هذه الحال إن كانت والعباد بالله شقية . فان قلت لما السبب الذي يفضي إلى سوء الخاتمة . فاعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها أما الختم على الشك والجهود فينحصر سببه في شيئين : أحدهما يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح في الأعمال كالمبتدع الزاهد فان عاقبته مخطرة جدا وإن كانت أعماله سالحة ولست أعنى مذهبا . فأقول إنه بدعة فان بيان ذلك يطول القول فيه بل أعنى بالبدعة أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقه على خلاف ما هو عليه إما برأيه ومعقوله ونظيره الذي به يجادل الحضم وعليه يعول وبه يتر وإما أخذنا بالتقليد ممن هذا حاله فاذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا إذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادئ سكراته منه فقد ينكشف به بعض الأمور فهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطما به متيقنا له عند نفسه لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصة لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له إذ لم يكن عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها فان اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعباد بالله منه فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون - وبقوله عز وجل - قل هل تثبتم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - وكما أنه قد ينكشف في النوم ما سيكون في المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي النائمة للقلب من أن ينظر إلى اللسكوت فيطالع ما في اللوح المحفوظ لتكشف له الأمور على ما هي عليه فيكون مثل هذه الحال سببا للكشف ويكون الكشف سبب الشك في بقية الاعتقادات وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئا على خلاف ما هو به إما تقليدا وإما نظرا بالرأى والمعقول فهو في هذا الخطر والزهد والصلاح لا يكتفي لدفع هذا الخطر بل لا ينجي منه إلا الاعتقاد الحق والبله بعزل عن هذا الخطر أعنى الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيمانا جملا راسخا كالأعراب والسوادبية وسائر العوام الذين لم يحوضوا في البحث والنظر ولم يشرعوا في الكلام استقلالاً ولا أصغوا إلى أصناف التكلمين في تقليد أقاويلهم المختلفة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله (١) » ولذلك منع السلف من البحث والنظر والحوض في الكلام والتفتيش عن هذه الأمور وأمروا الخلق أن يقتصر على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعا وبكل ما جاء من الظواهر مع اعتقاده نفي التشبيه ومنعهم عن الحوض في التأويل لأن الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباته كشوة ومسالكه وعرة والمعقول عن ذلك جلال الله تعالى قاصرة وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة وما ذكره الباحثون بيضاعة عقولهم مضطرب ومتمازض والقلوب لما ألقى إليها في مبتدأ النشأة آفة وبه متعلقة والتصببات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للمقائد الوروثة أو المأخوذة بحسن الظن من الطلحين في أول الأمر ثم الطباع

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله البرار من حديث أنس وقد تقدم .

أبو بكر أحمد بن خلف
قال أنا أبو عبد الرحمن
السلمي قال سمعت
عبد الله الداراني قال
سمعت أبا عمر والدمشقي
الرازي يقول سمعت أبا
عبد الله بن الجلاء يقول
وقد سأله رجل على أي
شرط أصحب الخلق
قال إن لم ترم فلا
تؤذم . وإن لم ترم
فلا تسؤم . وبهذا
الاسناد قال أبو عبد الله
لاضيع حق أخيك
بما بينك وبينه من
للودة والصدقة فان الله
تعالى فرض لكل
مؤمن حقوقا لم يضيها
إلا من لم يراع حقوق الله
عليه ومن حقوق
الصحة أنه إذا وقع
فرقة ومباينة لا يذكر

عجب الدنيا مشغوفة وعليها مقبلة وشهوات الدنيا بخنقتها آخذة وعن تمام الفكر صارفة فإذا فتح باب الكلام في الله وفي صفاته بالرأى والمقول مع تفاوت الناس في قرأئهم واختلافهم في طبائهم وحرص كل جاهل منهم على أن يدعى الكمال أو الاحاطة بكنه الحق انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب الصغين إليهم وتأكد ذلك بطول الإلف فيهم فانسد بالكيفية طريق الخلاص عليهم فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ولا يتعرضوا لما هو خارج عن حد طاعتهم ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظن وحسبان وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وأنه صفو الايمان ويظن أنه ما وقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين - ولتعلن نبأه بعد حين - وينبئ أن ينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء:

أحسنتم ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغررت بها وعند صفو الليالي يحدث السكر

واعلم يقينا أن كل من فارق الايمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض في البحث فقد تعرض لهذا الخطر ومثاله مثال من انكسرت سفينهته وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج فربما يتفق أن يلقه إلى الساحل وذلك بعيد والهلاك عليه أغرب . وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين بيضاة عقولهم إمامع الأدلة التي حرروها في تصباتهم أودون الأدلة فان كان شاكا فيه فهو فاسد الدين وإن كان واثقا به فهو آمن من مكر الله مغتر بعقله الناقص وكل خائض في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين إلا إذا جاوز حدود العقول إلى نور المكاشفة الذي هو مشرق في عالم الولاية والنبوة وذلك هو الكبريت الأحمر وأنى يتيسر وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام والذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا في هذا الفضول فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الحاتمة.

وأما السبب الثاني فهو ضعف الايمان في الأصل ثم استيلاء حب الدنيا على القلب ومهما ضعف الايمان ضعف حب الله تعالى وقوى حب الدنيا فيصير بحيث لا يبق في القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس ولا يظهر له أثر في محالمة النفس والعدول عن طريق الشيطان فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقو ويسود وتراكم ظلمة النفوس على القلب فلا يزال يطفي ما فيه من نور الايمان على ضعفه حتى يصير طبعنا ورينا فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب أعنى حب الله ضعفا لما يبدو من استشعار فراق الدنيا وهي المحبوب الغالب على القلب فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بانكار ما قدر عليه من الموت وكراهة ذلك من حيث إنه من الله فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب كما أن الذي يحب ولده حبا ضعيفا إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضا فان اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكاً مؤكدا والسبب الذي يقضى إلى مثل هذه الحاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الايمان الموجب لضعف حب الله تعالى فمن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وإن كان يحب الدنيا أيضا فهو أبعد عن هذا الخطر وحب الدنيا رأس كل خطيئة وهو الداء العضال وقد عم أصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى إذ لا يحبه إلا من عرفه ولهذا قال تعالى - قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترى بصواحيق يأتي الله بأمره - فاذن كل من فارقت روحه في حالة خطرة الانكار على الله تعالى بباله وظهور بغض قلبه في تفرقه بينه وبين أهله وماله

أخاه إلا بخير . قيل
كان لبعضهم زوجة
وكان يعلم منها ما يكره
فكان يقال له استخبارا
عن حالها فيقول لا ينبغي
للرجل أن يقول في أهله
إلا خيرا فارقها وطلقها
فاستخبر عن ذلك فقال
امرأة بعدت عني
ولست مني في شيء
كيف أذكرها وهذا
من التخلق بأخلاق الله
تعالى أنه سبحانه يظهر
الجميل ويستر القبيح
وإذا وجد من أحدها
ما يوجب التقاطع فهل
يبغضه أولا يختلف
القول في ذلك . كان
أبو ذر يقول إذا انقلب
عما كان عليه أبغضه
من حيث أحببته وقال
غيره لا يبغض الأخ

وسائر محابه فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا لما أحبه فيقدم على الله قدوم العبد البغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهرا فلا يغني ما يستحقه من الحزى والنكال وأما الذي يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الذي تحمل مشاق الأعمال ووعثاء الأسفار طمعا في لقاءه فلا يغني ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلا عما يستحقه من لطائف الأكرام وبدائع الانعام . وأما الخاتمة الثانية التي هي دون الأولى وليست مقتضية للخلود في النار فلها أيضا سببان : أحدها كثرة المعاصي وإن قوى الإيمان والآخرة ضعف الإيمان وإن قلت المعاصي وذلك لأن مقارفة المعاصي سببا غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكرة الإلف والعادة وجميع ما ألفه الانسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبا عن الله تعالى فالذي لا يقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر والذي لم يقارف ذنبا أصلا فهو بعيد جدا عن هذا الخطر والذي غلبت عليه المعاصي وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم في حقه جدا ونعرف هذا بثال وهو أنه لا يغني عليك أن الانسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره حتى إنه لا يرى إلا ما يماثل مشاهداته في اليقظة وحتى إن المراهق الذي يحتمل لا يرى صورة الوقاع إذا لم يكن قد واقع في اليقظة ولو بقي كذلك مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع ثم لا يغني أن الذي قضى عمره في الفقه يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذي قضى عمره في التجارة والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقير لأنه إنما يظهر في حالة النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف أو بسبب آخر من الأسباب والموت شبيه النوم ولكنه فوقه ولو كان سكرات الموت وما يتقدمه من العشي قريب من النوم فيقتضى ذلك تذكّر المألوف وعوده إلى القلب وأحد الأسباب الرجعة لحصول ذكره في القلب طول الإلف فطول الإلف بالمعاصي والطاعات أيضا مرجع وكذلك تخالف أيضا منامات الصالحين منامات الفساق فتكون غلبة الإلف سببا لأن تتمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل إليها نفسه فربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته وإن كان أصل الإيمان باقيا بحيث يرجى له الخلاص منها وكما أن ما خطر في اليقظة إنما يخطر بسبب خاص بعلمه الله تعالى فكذلك آحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى تعرف بعضها ولا تعرف بعضها كما أننا نعلم أن الحاطر ينتقل من الشيء إلى ما يناسبه إما بالمشابهة وإما بالمضادة وإما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحس منه . أما بالمشابهة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر جميلا آخر وأما بالمضادة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحا ويتأمل في شدة التفاوت بينهما وأما بالمقارنة فبأن ينظر إلى فرس قدر آه من قبل مع إنسان فيتذكر ذلك الانسان وقد ينتقل الحاطر من شيء إلى شيء ولا يدري وجه مناسبته له وإنما يكون ذلك بواسطة واسطتين مثل أن ينتقل من شيء إلى شيء ثان ومنه إلى شيء ثالث ثم ينسى الثاني ولا يكون بين الثالث والأول مناسبة ولكن يكون بينه وبين الثاني مناسبة وبين الثاني والأول مناسبة فكذلك لا تنتقل الحواطر في المنامات أسباب من هذا الجنس وكذلك عند سكرات الموت فعلى هذا والعلم عند الله من كانت الخياطة أكثر أشغاله فانك تراه يومئذ إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليخيط بها ويبل أصبعه التي لها عادة بالكسبان ويأخذ الأزار من فوقه ويقدره ويشبهه كأنه يتعاطى تفصيله ثم يمد يده إلى المقرض ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات فلا طرقي له إلا المجاهدة طول العمر في فطامه

بعد الصجبة ولكن يفض عمله قال الله تعالى لئنيتي صلى الله عليه وسلم - فان عصوك قتل إني بريء مما تعملون - ولم يقل إني بريء منكم . وقيل كان شاب يلازم مجالس أبي الدرداء وكان أبو الدرداء يميزه على غيره فابتلى الشاب بكبيرة من الكبائر وانتمى إلى أبي الدرداء ما كان منه قليل له لو أبعدته وهجرته فقال سبحان الله لا يترك صاحب بيتي كان منه . قيل : الصداقة لجة كلحمة النسب . وقيل لحكيم مرة أيما أحب إليك أخوك أو صديقك فقال إنما

نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن القلب فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ويكون طول الواظبة على الخير وتحلية الفكر عن الشر عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت فانه يموت الرء على ما عاش عليه ومخسر على ما مات عليه ولذلك نقل عن بقال أنه كان يلقن عند الموت كلتي الشهادة فيقول خمسة ستة أربعة فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال إلقه له قبل الموت. وقال بعض العارفين من السلف العرش جوهره تتلألاً نوراً فلا يكون العبد على حال إلا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها فإذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من العرش فر بما يرى نفسه على صورة مصيبة وكذلك يكشف له يوم القيامة فيرى أحوال نفسه فيأخذ من الحياء والخوف ما يجمل عن الوصف وما ذكره صحيح وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك فان النائم يدرك ما يكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهي جزء من أجزاء النبوة فإذا رجع سوء الحاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الحواطر ومقلب القلوب هو الله والاتفاقات اللقضية لسوء الحواطر غير داخلية تحت الاختيار دخولا كلياً وإن كان لطول الإلغ فيه تأثير فهذا عظم خوف العارفين من سوء الحاتمة لأنه لو أراد الانسان أن لا يرى في المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وإن كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة حتى سمعت الشيخ أبا على الفارمذي رحمة الله عليه يصف لي وجوب حسن أدب المرید لشيخه وأن لا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال حكيت لشيخ أبي القاسم الكرماني مناماً لي وقلت رأيتك قلت لي كذا فقلت لم ذاك قال فخرجتني شهر اولم يكلمني وقال لولاً أنه كان في باطنك تجوز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في النوم وهو كما قال إذ قلما يرى الانسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه فهذا هو القدر الذي نسمح بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر الحاتمة وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكشوفة وقد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الحاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل وترجي جميع العمر في طاعة الله من غير مصيبة فان كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير فلا بد وأن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسببه بكاؤك ونياحتك وبدوم به حزنك وقلقك كما سنحكيه من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لئار الخوف من قلبك وقد عرفت بهذا أن أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح وأن سلامته مع اضطراب أمواج الحواطر مشكلة جداً ولذلك كان مطرف بن عبدالله يقول إني لأعجب ممن هلك كيف هلك ولكني أعجب ممن نجما كيف نجما ولذلك قال حامد اللقاف إذا صمدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقدمات على الخير والاسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا كيف نجما هذا من دنيا فسد فيها خيارنا وكان الثوري يوماً يبكي فقيل له علام تبكي فقال بكينا على الذنوب زماناً فالآن نبكي على الاسلام. وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الأهواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك وقلب المؤمن أشد اضطراباً من السفينة وأمواج الحواطر أعظم التظام من أمواج البحر وإنما الخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فراق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب» (١) ولا يتسع فواق الناقل لأعمال توجب الشقاوة بل هي الحواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف وقال سهل رأيت كأنني أدخلت الجنة فرأيت ثلاثمائة نبي فسألتهم ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا قالوا سوء.

(١) حديث إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة الحديث تقدم .

أحب أخى إذا كان
صديقي وهذا الخلاف
في المفارقة ظاهراً وباطناً
وأما الملازمة باطنياً إذا
وقعت المبينة ظاهراً
فتختلف باختلاف
الأشخاص ولا يطلق
القول فيه إطلاقاً من
غير تفصيل فمن الناس
من كان تغيره رجوعاً
عن الله وظهور حكم
سوء السابقة فيجب
بفضه وموافقة الحق
فيه ومن الناس من
كان تغيره عثرة
حدثت وفترة وقعت
يرجى عوده فلا ينبغي
أن يبغض ولكن
يبغض عمله في الحالة
الحاضرة ويلاحظ بعين
الود منتظراً له المرجع
والعود إلى أوطان

الخاتمة ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطا عليها وكان موت الفجأة مكروها ، أما الموت فجأة فلا أنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب والقلب لا يخلو عن أمثاله إلا أن يدفع بالكراهة أو بنور المعرفة ، وأما الشهادة فلا أنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنيا والأهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب إذ لا يهجم على صف القتال موطناً نفسه على الموت لإحبابه وطلباً لمرضاة وبتعامد نياه بأخرته وراضياً بالبيع الذي باه به الله به إذ قال تعالى - إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة والبايع راغب عن البيع لاعماله ومخرج حبه عن القلب وبمجرد حب الموض المطلوب في قلبه ومثل هذه الحالة قد يظن على القلب في بعض الأحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها فصف القتال سبب زهوق الروح على مثل هذه الحالة هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والفتنة وحسن الصيت بالشجاعة فان من هذا حاله وإن قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كجاءت عليه الأخبار (١) وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها فواظب على ذكر الله تعالى وأخرج من قلبك حب الدنيا واحرس عن فعل الما صي جوارحك وعن الفكر فيها قلبك واحترز عن مشاهدة الما صي ومشاهدة أهلها جهدك فان ذلك أيضا يؤثر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك وإياك أن تسوف وتقول سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة فان كل نفس من أنفاسك خاتمتك إذ يمكن أن تختطف فيمروحك فراقب قلبك في كل تطريفة وإياك أن تهمله لحظة فعمل تلك اللحظة خاتمتك إذ يمكن أن تختطف فيها روحك هذا مادمت في يقظتك وأما إذا تمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن وأن يظنك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك لست أقول على لسانك فان حركة اللسان بمجرد ضعيفة الأثر . واعلم قطعا أنه لا يصاب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم فالبا عليه وأنه لا يظنك في النوم إلا ما كان غالباً قبل النوم ولا يبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك والموت والبعث شبيه النوم واليقظة فكما لا ينام العبد إلا على ما غلب عليه في يقظته ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه فكذلك لا يموت للمرء إلا على ما عاش عليه ولا يحشر إلا على ما مات عليه وتحقق قطعا وبقينا أن الموت والبعث حالتان من أحوالك كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب إن لم تكن أهلا لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة وراقب أنفاسك ولحظاتك وإياك أن تنفل عن الله طرفة عين فانك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم فكيف إذا لم تفعل والناس كلهم هلكتي إلا العالمون والعالمون كلهم هلكتي إلا العالمون والعالمون كلهم هلكتي إلا المخلصون والمخلصون كلهم هلكتي إلا عظيم . واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك وضرورتك ، طعم وملبس ومسكن والباقي كله فضول والضرورة من الطعم ما يقيم صلبك ويسد رمقك فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه فهما ضرورتان في الجبلة وكلاهما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك . واعلم أنه إن كان همتك ما يدخل بطنك قيمتك ما يخرج من بطنك وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوى على عبادة الله تعالى كتصديق من قضاء

الصلح قد ورد « أن النبي عليه الصلاة والسلام لما شتم القوم الرجل الذي أتى باحشة قال له وزجرهم بقوله ولا تتكفونوا عونا للشيطان على أخيك » وقال إبراهيم النخعي لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب يذنبه فانه يركبه اليوم ويتركه غدا وفي الخبر « اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيثبه » وروى أن عمر رضى الله عنه سأل عن أخ له كان آخاه فخرج إلى الشام فسأل عنه بعض من قدم عليه فقال ما فعل أخى فقال له ذلك أخو الشيطان قال له ما قال له إنه قارف

(١) حديث المقتول في الحرب إذا كان قصده الغلبة والفتنة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الشهادة متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري إن رجلا قال يا رسول الله الرجل يقاتل للدنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فن في سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وفي رواية الرجل يقاتل شجاعة ويقا تل حمية ويقا تل رياء وفي رواية يقاتل غضبا .

حاجتك فضامة ذلك تظهر في ثلاثة أمور: من مأكولك في وقته وقدره وجنسه أما الوقت فأقله أن يكفى في اليوم واليلة بمرة واحدة فيواظب على الصوم وأما قدره فبأن لا يزيد على ثلث البطن وأما جنسه فأن لا يطلب لذائذ الأطعمة بل يقنع بما يتفق فان قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مشونة الشهوات والذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشهوات وأمكنك أن لا تأكل إلا من حله فان الحلال يعز ولا يفي بجميع الشهوات وأما لبسك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد وستر العورة فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدائق فطلبك غيره فضول منك يضيع فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرة والطعم أخرى من الحرام والشبهة وقس بهذا ما تدفع به الحر والبرد عن بدنك فكل ما حصل مقصود اللباس إن لم تنكف به في خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده بل كنت ممن لا يعلأ بطنه إلا التراب وكذلك المسكن إن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفا والأرض مستقرا فان غلبك حر أو برد فمليك بالمسجد فان طلبت مسكنا خاصا طال عليك وانصرف إليه أكثر عمرك وعمرك هو بضاعتك ثم إن تيسر لك قصصت من الخائض سوى كونه حائلا بينك وبين الأبرار ومن السقف سوى كونه دافعا للأمطار فأخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف فقد تورطت في مهواة يبعد ريقك منها وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصرت عليها تفرغت لله و قدرت على التزود لأخرك والاستعداد لحاجتك وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأمانى تشعبت همومك ولم يبال الله في أى واد أهلك فاقبل هذه النصيحة ممن هو أحوج إلى النصيحة منك . واعلم أن متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير فإذا دفعته يوما بيوم في تسويةك أو غفلتك اختطفت لحافة في غير وقت إرادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك فان كنت لاتقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك إذ لم يكن فيما وصفناه من أمرا الحائجة كفاية في تخوفك فانا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيد بعض القساوة عن قلبك فانك تتحقق أن عقل الأنبياء والأولياء والعلماء وعملهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في أحوالهم لم اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصمق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشيا عليه وبعضهم يغمى ميتا إلى الأرض ولا يغرو إن كان ذلك لا يؤثر في قلبك فان قلوب العاقلين مثل الحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون.

(بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف)

روت عائشة رضی الله عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويرتد في الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله (١) » وقرأ صلى الله عليه وسلم آية في سورة الواقعة فصعق (٢) » وقال تعالى « وخر موسى صعقا - ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة جبريل عليه السلام بالأبطح فصعق (٣) » وروى أنه عليه السلام كان إذا دخل

(١) حديث عائشة كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة تغير وجهه الحديث متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث قرأ في سورة الواقعة فصعق المعروف فيما يروى من هذه القصة أنه قرئ عنده - لدينا أنكلا وجحيا وطعاما إذا غصة وعذابا ألجما - فصعق كما رواه ابن عدي والبيهقي في الشعب مرسلًا وهكذا ذكره الصنف على الصواب في كتاب السماع كما تقدم (٣) حديث إنه رأى صورة جبريل بالأبطح فصعق البزار من حديث ابن عباس بسند جيد سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته فقال ادع ربك فدعابه فطلع عليه من قبل المشرق فجعل يرتفع ويسير فلما رآه صعق ورواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلًا

الكبائر حتى وقع في الحجر فقال إذا أردت الخروج فأذني قال فكتب إليه - حم - تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب - ثم عاتبه تحت ذلك وعذله فلما قرأ الكتاب بكى فقال صدق الله تعالى ونصح عمر قناب ورجع . وروى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ابن عمر يلتفت بعينا وشمالا فسأله فقال يا رسول الله آخيت رجلا فأنا أطلبه ولا أراه فقال يا عبد الله إذا آخيت أحدا فاسأله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله فان

في الصلاة يسمع لصدرة أزيز كأزيز المرجل (١) وقال صلى الله عليه وسلم «ما جاءني جبريل قط إلا هو يرعد فرقا من الجبار (٢)» وقيل لما ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام بيكيان فأوحى الله إليهما ما لكاتبكيان كل هذا البكاء فقالا يارب مانا من مكرك فقال الله تعالى هكذا كونا لاتأمننا مكري . وعن محمد بن النكدر قال لما خلقت النار طارت أنفذة للملائكة من أماكنها فلما خلق بنو آدم طادت وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل «مالي لأرى ميكائيل يضحك فقال جبريل ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار (٣)» وقال إن لله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يفضب الله عليهم فيطهيم بها وقال ابن عمر رضي الله عنهما «خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من القروياكل فقال يا ابن عمر مالك لاتأكل قلت يا رسول الله لأشتهيه فقال لكني أشتهيه وهذا صبح رابعة لم أذق طعاما ولم أجده ولو سألت ربي لأعطاني ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر اذا بقيت في قوم يجشون رزق سنتهم ويضعف اليقين في قلوبهم قال فوا لله ما برحنا ولافتنا حتى نزلت - وكان من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها وياياكم وهو المسيح العظيم - قال فقال رسول الله ﷺ إن الله ليأمركم بكنز المال ولا يتابع الشهوات من كنز دنائير يريد بها حياة فانية فان الحياة بيد الله ألا واني لأكتر دنيارا ولادرها ولا أخبار رزقا لعد (٤)» وقال أبو الدرداء كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم إذا قام في الصلاة من مسيرة ميل خوفا من ربه . وقال مجاهد بكى داود عليه السلام أربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه وحتى غطى رأسه فودى يداود أجماع أنت فنتطمع أم ظمآن فنتسقى أم عار فتكسى فتحب نعمة حاج العود فأحترق من حر خوفه ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والغفرة فقال يارب اجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته في كفه مكتوبة فكان لا ييسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره إلا رآها فأبكته قال وكان يؤتى بالقدح ثائه فاذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه . ويروى عنه عليه السلام أنه ما رفع رأسه إلى السماء حتى مات حياة من الله عز وجل وكان يقول في مناجاته : إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت على الأرض رحبها وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلى روعي سبحانك إلهي أنبت أطباء عبادك ليدأوا وخطيئتي فكلمهم عليك بدلتي فبؤس الالقائطين من رحمتك . وقال الفضيل بلغني أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخا واضعابه على

بلفظ فنتسقى عليه وفي الصحيحين عن عائشة رأى جبريل في صورته مرتين ولهما عن ابن مسعود رأى جبريل له ستائة جناح (١) حديث كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدرة أزيز كأزيز المرجل أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي من حديث عبد الله بن الشخير وتقدم في كتاب السجاع (٢) حديث ما جاءني جبريل قط إلا هو ترتعد فرائضه من الجبار لم أجده هذا اللفظ وروى أبو الشيخ في كتاب العظيمة عن ابن عباس قال إن جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترعد فرائضه فرقا من عذاب الله الحديث وفيه زميل بن سمالك الحنفي يحتاج إلى معرفته (٣) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل مالي لأرى ميكائيل يضحك فقال ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الحائضين من رواية ثابت عن أنس باسناد جيد ورواه ابن شاهين في السنة من حديث ثابت مرسل وورد ذلك أيضا في حق إسرافيل رواه البيهقي في الشعب وفي حق جبريل رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الحائضين (٤) حديث ابن عمر خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل على حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر وبأكل الحديث ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر قال البيهقي هذا إسناد مجهول والجراح بن مهال ضعيف.

كان مريضا عدته وإن كان مشغولا أعتته» وكان يقول ابن عباس رضي الله عنهما ما اختلف رجل إلى مجلس ثلاثا من غير حاجة تكون له فعلت ما مكافأته في الدنيا وكان يقول سعيد بن العاص لجليسي حتى ثلاث إذا دنا رحبت به وإذا حدث أقبلت عليه وإذا جلس أوسعت له وعلامة خلوص المحبة لله تعالى أن لا يكون فيها شائبة حظ عاجل من رفق أو إحسان فان ما كان مطولا يزول بزوال علته ومن لا يستند في خلقه إلى علة يحكم بدوام خلقه ومن شرط الحب في الله

رأسه حتى لحق بالجيال فاجتمعت إليه السباع فقال ارجعوا لا أريدكم إنما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني إلا البكاء ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداد الخطاء وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تخريق العظام واشتعال الحشا وقبل أن يؤمرني ملائكة غلاظ شداد لا يصون الله مأمريهم ويملون ما يؤمرون . وقال عبد العزيز بن عمر لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال إلهي مع صوتي في صفاء أصوات الصديقين ، وروى أنه عليه السلام لما طال بكأؤه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتد غمه فقال يا رب أمتارحم بكائي فأوحى الله تعالى إليه يا داود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك فقال إلهي وسيدى كيف أنسى ذنبي وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الريح وأظلى الطير على رأسى وأنست الوحوش إلى محرابي إلهي وسيدى فما هذه الوحشة التي بيني وبينك فأوحى الله تعالى إليه يا داود ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة للعصية يا داود آدم خلق من خلقى خلقته يدي ونفخت فيه من روحي وأسجدت له ملائكتي وألبسته ثوب كرامتي وتوجهت بتاج وقاري وشكالى الوحدة فزوجه حواء أمي وأسكنته جنتي عصاني فطردته عن جوارى عريانا ذليلا يا داود اجمع منى والحق أقول أطهنا فأطعناك وسألنا فأعطيناك وعصيتنا فأهلناك وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلنا . وقال يحيى بن أبي كثير بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء فإذا كان قبل ذلك يوم أخرج له المنبر إلى البرية فأمر سليمان أن ينادى بصوت يستقرى البلاد وما حولها من النياض والآكام والجيال والبراري والصوامع والبيع فينادى فيها ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت قال فتأتى الوحوش من البراري والآكام وتأتى السباع من النياض وتأتى الهوام من الجبال وتأتى الطير من الأوكار وتأتى العذارى من خدورهن وتجتمع الناس لذلك اليوم ويأتى داود حتى يرفى للنبر ويحيط به بنو إسرائيل وكل صنف على حدته محيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه فيأخذ في الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصرائح ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتصوت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس ثم يأخذ في أحوال القيامة وفي النياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة فاذا رأى سليمان كثرة الموتى قال يا ابتاه قد مزقت الستمة بين كل ممزق وماتت طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام فيأخذ في الدعاء فيبناها كذلك إذ ناداه بعض عباده بني إسرائيل يا داود عجلت بطلب الجزاء على ربك قال فيخبر داود مفضيا عليه فاذا نظر سليمان إلى ما أصابه آتى بسرير لحمله عليه ثم أمر مناديا ينادى ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله فإن الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبا وتقول يا من قتلته ذكر النار يا من قتلته خوف الله ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه ويقول يا إله داود أغضبنا أنت على داود ولا يزال يناجى ربه فيأتي سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعر فيقول يا ابتاه تقو بهذا على ما تريد فإيا كل من ذلك القرص ما عاء الله ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم . وقال يزيد الرقاشي خرج داود ذات يوم بالناس عظيمهم ويخوفهم فخرج في أربعين ألفا فمات منهم ثلاثون ألفا ومارجع إلا في عشرة آلاف قال وكان له جاريان أخذهما حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب تمدتا على صدره وعلى رجله مخافة أن تفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت . وقال ابن عمر رضى الله عنهما دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت القدس وهو ابن ثمان حجج فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ونظر إلى مجتهدتهم قد خرقوا التراقي وسلكوا فيها السلاسل وعدوا أنفسهم إلى أطراف بيت القدس فهاله ذلك

إيثار الأخ بكل ما يقدر عليه من أمر الدين والدنيا قال الله تعالى - يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - فقوله تعالى - لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا - أي لا يحسدون إخوانهم على ما لهم وهذا الوصفان بهما يكمل صفو المحبة أحدهما انزعاج الحسد على شيء من أمر الدين والدنيا. والثاني الإيثار بالمقدور. وفي الخبر عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام «المرء على دين خليله ولاخير

فرجع إلى أبويه ثم بصبيان يلعبون فقالوا له يا يحيى هلم بنا لنلعب فقال إني لم أخق للعب قال فأتى أبويه فسألهما أن يدرجاه الشمر ففعلوا فرجع إلى بيت المقدس وكان يخدمه نهارا ويصبح فيه ليلا حتى أتت عليه خمس عشرة سنة فخرج ولزم أطواد الأرض وغيران الشعاب فخرج أبواه في طلبه فأدركاه على بحيرة الأردن وقد أنقع رجليه في الماء حتى كاد العطش يذبحه وهو يقول وعزتك وجلالك لأذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكاني منك فسأله أبواه أن يخطر على قرص كان معهما من شعير ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه فمدح بالبرفردة أبواه إلى بيت المقدس فكان إذا قام يصلى بكى حتى يبكي معه الشجر والدر ويبكى زكريا عليه السلام لبكائه حتى يغمى عليه فلم يزل يبكي حتى خرقت دموعه لحم خديه وبدت أضراسه للناظرين فقالت له أمه يا بني لو أذنت لي أن آخذلك شيئا تواري به أضراسك عن الناظرين فأذن لها فهدمت إلى قطمق لبود فألصقتهما على خديه فكان إذا قام يصلى يبكي فإذا استنقعت دموعه في القطعتين أتت إليه أمه ففصرتهما فإذا رأى دموعه تسيل على ذراعي أمه قال اللهم هذه دموعي وهذه أمي وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين فقال له زكريا يوما يا بني إنما سألت ربي أن يهبك لي لتقرعينا بك فقال يحيى يا أبت إن جبريل عليه السلام أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا كل بكاء فقال زكريا عليه السلام يا بني فابك . وقال المسيح عليه السلام : معاشر الخواريين خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان من الدنيا حتى أقول لكم إن أكل الشعير والنوم على الزابل مع الكلاب في طلب الفردوس قليل . وقيل كان الحليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يغمى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلا في ميل فيأتيه جبريل فيقول له ربك يقرئك السلام ويقول هل رأيت خليلا يخاف خليله فيقول يا جبريل إني إذا ذكرت خطيئتي نسيت فهذه أحوال الأنبياء عليهم السلام فدونك والتأمل فيها فانهم أعرف خلق الله بالله وصفاته صلوات الله عليهم أجمعين وعلى كل عباد الله للقرابين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف)

روى أن أبابكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر ليتني مثلك ياطائر ولم أخلق بشرا . وقال أبوذر رضي الله عنه وددت لو أتى شجرة تعضد وكذلك قال طلحة . وقال عثمان رضي الله عنه وددت أني إذا مت لم أبعث وقالت عائشة رضي الله عنها وددت أني كنت نسيا منسيا وروى أن عمر رضي الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشيا عليه فكان ينادي أما وأخذ يوما تينة من الأرض فقال يا ليتني كنت هذه التينة يا ليتني لم أك شيئا مذكورا يا ليتني كنت نسيا منسيا يا ليتني لم يولدني أمي وكان في وجه عمر رضي الله عنه خيطان أسودان من الدموع . وقال رضي الله عنه من خاف الله لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ولولا يوم القيامة لكان غير ماترون ولما قرأ عمر رضي الله عنه - إذا الشمس كورت - وانتهى إلى قوله تعالى - وإذا الصحف نشرت - خر مغشيا عليه ومر يوما بدار إنسان وهو يصلى ويقرأ سورة والطور فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالى - إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع - نزل عن حمارة واستند إلى حائط ومكث زما نورا ورجع إلى منزله فمرض شهرا يعوده الناس ولا يدرون ما مرضه وقال على كرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فلم أر اليوم شيئا يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثا غبرا بين أعينهم أمثال ركب للفرى قد بانوا لله سجدا وقياماتلون كتاب الله يراوحن بين جباههم وأقدامهم فإذا أصبحوا ذكروا الله فنادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم والله فسكأن بالقوم بانوا غافلين

لك في صجة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه وكان يقول أبو معاوية الأسود إخواني كلهم خير مني قيل وكيف ذلك؟ قال كلهم يرى لي الفضل عليه ومن فضلى على نفسه فهو خير مني وبعضهم نظما : تذلل لمن إن تذلت له يرى ذلك للفضل لا لله

وجانب صداقة من لم يزل على الأصدقاء يرى الفضل له .

[الباب الخامس والخمسون في آداب الصحبة والأخوة]
سئل أبو حفص عن أدب الفقراء في الصحبة

ثم قام فما رؤى بمد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم ، وقال عمران بن حصين : وددت أن أكون رمادا تنسفني الرياح في يوم عاصف ، وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : وددت أني كبش فيذبني أهلي فإياكلون لحمي ويحسون مرقى ، وكان علي بن الحسين رضي الله عنه إذا توشأ اصفر لونه فيقول له أهله ما هذا الذي يتأكد عند الوضوء فيقول أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم . وقال موسى بن مسعود كنا إذا جلسنا إلى الثوري كأن النار قد أحاطت بنا المأزى من خوفه وجزعه وقرأ مضر القاريء يوما - هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق - الآية فيكي عبد الواحد بن زيد حتى غشى عليه فلما أفاق قال وعزتك لاعتصمتك جهدي أبدا فأعنى بتوفيقك على طاعتك ، وكان المسور ابن محزمة لا يقوى أن يسمع شيئا من القرآن لشدة خوفه ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة لما يعقل أياما حتى أتى عليه رجل من ختم ققرأ عليه - يوم نحشر التقيين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا - فقال أنا من المجرمين ولست من التقيين أعد على القول أيها القاريء فأعادها عليه فشبه شقفة فلحق بالآخرة ، وقرئ عند يحيى البكاء - ولو ترى إذ وقفوا على ربهم - فصاح صيحة مكث منها مريضا أربعة أشهر يناد من أطراف البصرة ، وقال مالك بن دينار بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجورية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول يارب كم شهوة ذهبت لدايتها وبقيت تبعاتها يارب أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار وتبكي فما زال ذلك مقامها حتى طلع الهجر ، قال مالك فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسي صارخا أقول ثكلت مالكاً أمه ، وروى أن الفضيل رؤى يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الشكوى المحترقة حتى إذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال واسواتاه منك وإن غفرت ثم انقلب مع الناس ، وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الخائفين فقال قلوبهم بالخوف فرحة وأعينهم باكية يقولون كيف نخرج والموت من ورائنا والقبر أماننا والقيامة موعدنا وطى جهنم طريقنا وبين يدي الله ربنا وموقفنا. ومر الحسن بشاب وهو مستغرق في ضحكته وهو جالس مع قوم في مجلس فقال له الحسن يا فتى هل مررت بالصراط قال لا قال فهل تدري إلى الجية تصير أم إلى النار قال لا قال فما هذا الضحك قال فما رؤى ذلك الفتي بعدها ضاحكا . وكان حماد بن عبد ربه إذا جلس مستوقفا على قدميه فيقال له لو أطعمت أنت فيقول تلك جلسة الآمن وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى ، وقال عمر بن عبد العزيز : إنما جعل الله هذه النغلة في قلوب العباد رحمة كيلا يموتوا من خشية الله تعالى ، وقال مالك بن دينار لقد هممت إذا أنا مت أمرهم أن يقيدوني ويغلقوني ثم ينطلقوا بي إلى ربى كما ينطلق بالعبء الأبق إلى سيده ، وقال حاتم الأصم لا تفتقر بموضع صالح فلا مكان أصلح من الجنة وقد لقي آدم عليه السلام فيها مالتى ولا تفتربكثرة العبادة فان إبليس بعد طول تعبه لقي مالتى ولا تفتربكثرة العلم فان بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي ولا تفتربؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع ببقائه أقاربه وأعداؤه . وقال السرى : إنى لأنظر إلى أننى كل يوم مرات محافة أن يكون قد اسود وجهى ، وقال أبو حفص منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسى أن الله ينظر إلى نظر السخط وأعمالى تدل على ذلك ، وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال إنى اجترأت البارحة على الله سأله الجنة ، وقالت أم محمد بن كعب القرظى لابنها يابنى إنى أعرفك صغيرا طيبا وكبيرا طيبا وكانك أحدت حدثا موبقا لما أراك تصنع في ليلتك ونهارك فقال يا أماء ما يؤمننى أن يكون الله تعالى قد اطلع على وأنا على بعض ذنوبى فمقتى وقال وعزنى وجلالى لا غفرت لك ، وقال الفضيل إنى لا أغضب نبييا مرسلًا ولا ملكا مقربا ولا عبدا صالحا ليس هؤلاء بما ينون يوم القيامة إنما أغضب من لم يخلق . وروى «أن فتى من الأنصار

فقال حفظ حرمت
الشامخ وحسن
العشرة مع الاخوان
والصيحة للأصغر
وترك صجة من ليس
في طبقتهم وملازمة
الإيثار ومجانبة الادخار
والمعاونة في أمر الدين
والدنيا فمن أدهم
التغافل عن زلل
الاخوان والصحف فيها
يجب فيه الصيحة
وكتم عيب صاحبه
واطلاعه على عيب
يعلم منه . قال عمر بن
الخطاب رضي الله عنه
رحم الله امرأ أهدي
إلى عيوبى وهذا فيه
مصلحة كلية تكون
للشخص ممن ينهيه
على عيوبه قال جعفر
ابن برقان قال لى

دخلته خشية النار فسكان يبكي حتى حبسه ذلك في البيت فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه واعتنقه فخر ميتا فقال ﷺ جهزوا صاحبكم فان الفرق من النار فتت كبده (١) وروى عن ابن أبي مسيرة أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول يا ليت أُمِّي لم تلدني فقالت له أمه يا مسيرة إن الله تعالى قد أحسن إليك هداك إلى الإسلام قال أجل ولكن الله قديين لنا وأولادو النار ولم يبين لنا أن صادرون عنهم أو قيل لفرقد السبخي أخبرنا بأعجب شيء بلغك عن بني إسرائيل فقال بلغني أنه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح فتذاكرن ثواب الله وعقابه فتن جميعا في يوم واحد وكان عطاء السلي من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبدا إنما كان يسأل الله العفو وقيل له في مرضه ألا تشتهي شيئا فقال إن خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعا للشهوة ويقال إنه ما رفع رأسه إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة وأنه رفع رأسه يوما ففزع فسقط فافتق في بطنه فتق وكان يمس جسده في بعض الليلة مخافة أن يكون قد مسخ وكان إذا أصابهم ريح أو برق أو غلاء طامع قال هذا من أجل يصيبهم لومات عطاء لاستراح الناس ، وقال عطاء خرجنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشاء قد تورمت أقدامهم من طول القيام وغارت أعينهم في رؤسهم ولصقت جلودهم على عظامهم وبقيت العروق كأنها الأوتار يصبحون كأن جلودهم قشور البطيخ وكأنهم قد خرجوا من القبور مخبرون كيف أكرم الله للطيعين وكيف أهان العاصين فبينما هم يمشون إذ مر أحدهم بمكان غر مغشيا عليه فجلس أصحابه حوله ليكون في يوم شديد البرد وجبينه يرشح عرقا فجاءوا بعاء فمسحوا وجهه فأفاق وسألوه عن أمره فقال إني ذكرت أني كنت عصيت الله في ذلك المكان. وقال صالح المري قرأت على رجل من المتصدين - يوم تغلب وجوههم في النار يتولون باليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول - فصعق ثم أفاق فقال زدني يا صالح فاني أجد غما فقرأت - كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فميتا - وروى أن زرارَةَ بن أبي أوفى صلى بالناس الغداة فلما قرأ - فاذا نقر في الناقر - خر مغشيا عليه فحمل ميتا. ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز فقال عظمي يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين اعلم أنك لست أول خليفة يموت فبكي ثم قال زدني قال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت فبكي ثم قال زدني يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين الجنة والنار منزل غر مغشيا عليه . وقال ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية - وإن جهنم لم وعدهم أجمعين - صاح سلمان الفارسي ووضع يده على رأسه وخرج هاربا ثلاثة أيام لا يقدر أن عليه (٢) ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولدها وهي تقول يا ابنه ليت شعري أي خديك بدأ به اللود أولا فصعق داود وسقط مكانه وقيل مرض سفيان الثوري فعرض دليله على طبيب ذمى فقال هذا رجل قطع الخوف كبده ثم جاء وجس عروقه ثم قال ما علمت أن في اللثة الحنيفة مثله وقال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه سألت الله عز وجل أن يفتح علي بابا من الخوف ففتح ففتحت علي عقلي فقامت يارب علي قدر ما أطيق فسكن قلبي وقال عبد الله بن عمرو بن العاص أبكوا فان لم تبكوا فتابكوا فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وكأنه أشار إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (٣) » وقال العنبري اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوة وهو يبكي ولحيته

ميمون بن مهران قل لي في وجهي ما أكره فان الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكرهه فان الصادق يجب من صدقه والكاذب لا يحب الناصح قال الله تعالى ولكن لا تحبون الناصحين - والنصيحة ما كانت في السر ومن آداب الصوفية القيام بخدمة الإخوان واحتمال الأذى منهم فبذلك يظهر جوهر الفقير روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر بقلع ميزاب كان في دار العباس بن عبد المطلب إلى الطريق بين الصفا والمروة فقال له العباس قلعت ما كان

- (١) حديث إن فقي من الأنصار دخلته خشية من النار حتى حبسه خوفه في البيت الحديث ابن أبي الدنيا في الخائفين من حديث حذيفة والبيهقي في الشعب من حديث سهل بن سعد باسنادين فيهما نظر .
 (٢) حديث ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية وإن جهنم لم وعدهم أجمعين صاح سلمان الفارسي لم أقف له على أصل (٣) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا فإعداد المقائد

ترجف فقال عليكم بالقرآن عليكم بالصلاة وبالحكم ليس هذا زمان حديث إنما هذا زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الفريق إنما هذا زمان احفظ لسانك وأخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر ورؤى الفضيل يوما وهو يمشي قليل له إلى أين؟ قال لأدري وكان يمشي والمها من الخوف . وقال ذر بن عمر لأبيه عمر بن ذر : ما بال التكلمين يتكلمون فلا يسيئ أحد فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب فقال يا بني ليست النائمة الشكلى كالنائمة للستأجرة وحكي أن قوما وقفوا بعباد وهو يسيئ فقالوا ما الذي يبيك يرحمك الله ؟ قال فرخه يجدها الخائفون في نلوبهم قالوا وما هي ؟ قال روعة النداء بالعرض على الله عز وجل . وكان الخواص يسيئ ويقول في مناجاته قد كبرت وضعف جسمي عن خدمتك فأعتقني . وقال صالح الرمي : قدم علينا ابن السامك مرة فقال أرني شيئا من بعض مجائب عبادكم فنهبت به إلى رجل في بعض الأحياء في خص له فاستأذنا عليه فإذا رجل يعمل خوصا فقرأت عليه . إذا أغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الجحيم ثم في النار يسجرون . فسحق الرجل شهقة وخر مغشيا عليه فخرجنا من عنده وتركناه على حاله وذهبنا إلى آخر فدخلنا عليه فقرأت هذه الآية فسحق شهقة وخر مغشيا عليه فذهبنا واستأذنا على ثالث فقال ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا فقرأت . ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد . فسحق شهقة فبدأ اللهم من منخريه وجعل يتشحط في دمه حتى ييس قتر كناه على حاله وخرجنا فأدرته على ستة أنفوس كل نخرج من عنده وتركه مغشيا عليه ثم أتيت به إلى السابع فاستأذنا فإذا امرأة من داخل الحصن تقول ادخلوا فدخلنا فإذا شيخ فان جالس في مصلاه فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا قلت بصوت عال إلا إن للمخلق غدا مقاما قال الشيخ بين يدي من ويمك ثم بقى مبهوتا فأعماها شاخصا بصره يصيح بصوته ضيف أوه أوه حتى انقطع ذلك الصوت فقالت امرأته اخرجوا فانكم لا تنتفعون به الساعة فلما كان بعد ذلك ماألت عن النوم فإذا ثلاثة قد أفاقوا وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى وأما الشيخ فإنه مكث ثلاثة أيام على حاله مبهوتا متحيرا لا يؤدى فرضا فلما كان بعد ثلاث عقل وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال وكان قد حلف أنه لا يضحك أبدا ولا ينام مضطجعا ولا يأكل ممنا أبدا لما روى ضاحكا ولا مضطجعا ولا أكل ممنا حتى مات رحمه الله . وقال الحجاج لسعيد بن جبير بلغني أنك لم تضحك قط فقال كيف أضحك وجههم قد سمعت والأغلال قد نصبت والزبانية قد أعدت وقال رجل للحسن يا أبا سعيد كيف أصبحت قال بخير قال كيف حالك فتبسم الحسن وقال تسألني عن حالى ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتملق كل إنسان منهم بخسبة على أذى حال يكون قال الرجل على حال شديدة قال الحسن حالى أشد من حالهم . ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت إلى مسجد في بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عينها فرقدت فاستبكت في منامها ثم انتبهت فقالت يا أمير المؤمنين إني والله رأيت عجبا قال وما ذلك ؟ قالت رأيت النار وهي تزفر على أهلها ثم جرى الصراط فوضع على منها فقال هيه قالت جئى بعد الملك بن مروان فحمل عليه فامضى عليه إلا سير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جرى بالوليد بن عبد الملك فحمل عليه فامضى إلا سير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جرى بسليمان بن عبد الملك فامضى عليه إلا سير حتى انكفأ به الصراط فهوى كذلك فقال عمر هيه قالت ثم جرى بك والله يا أمير المؤمنين فصاح عمر رحمة الله عليه صيحة خرا مغشيا عليه فقامت إليه فجعلت تتأدى في أذنه يا أمير المؤمنين إني رأيتك والله قد نجوت إني رأيتك والله قد نجوت قال وهي تتأدى وهو يصيح ويفحص برجليه

رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده فقال إذن لا يرده إلى مكانه غير يدك ولا يكون لك سلم غير عاتق عمير فأقامه على عاتقه وورده إلى موضعه ومن أديهم أن لا يرون لنفسهم ملكا يختصون به قال ابراهيم بن شيان كنا لانصحب من يقول نلى . أخبرنا بذلك رضى الدين عن أبي اللفظ عن والده أبي القاسم القشيري قال سمعت أبا حاتم الصوفي قال سمعت أبا نصر السراج يقول ذلك وقال أحمد بن القلانسي دخلت على قوم من الفقراء يوما بالبصرة فأكرموني

ويحكى أن أويسا القرني رحمه الله كان يحضر عند القاص فيسكي من كلامه فاذا ذكر النار صرخ أويسا ثم يقوم منطلقا فيتبعه الناس فيقولون مجنون مجنون . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه وكان طاوس يفرش له الفرش فيضطجع ويتلى كما تتلى الحبة في المقلبي ثم ينب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول طير ذكر جهنم نوم الخائفين . وقال الحسن البصري رحمه الله : يخرج من النار رجل بعد ألف عام باليتي كنت ذلك الرجل وإنما قال ذلك خوفا من الخلود وسوء الخاتمة . وروى أنه ماضحك أربعين سنة قال وكنت إذا رأيت قاعدا كأنه أسير قد قدم لتضرب عنقه وإذا تكلم كأنه يماين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها فاذا سكنت كأن النار تسعير بين عينيه وعوتب في شدة حزنه وخوفه فقال ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع في طي بعض ما يكره فمقتني فقال اذهب فلا غفرت لك فأنا أعمل في غير معتمل . وعن ابن السكك : قال وعظت يوما في مجلس قمام شاب من القوم فقال يا أبا العباس لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالي أن لانسع غيرها قلت وماهي رحمك الله قال قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أوفي النار ثم غاب عنى فقعدته في المجلس الآخر فلم أره فسألت عنه فأخبرت أنه مريض يعاد فأتيته أعوده فقلت يا أخي ما الذي أرى بك فقال يا أبا العباس ذلك من قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أو النار قال ثم مات رحمه الله فرأيت في المنام فقلت يا أخي ما فعل الله بك ؟ قال غفر لي ورحمني وأدخلني الجنة قلت بماذا ؟ قال بالكلمة فهذه مخاوف الأنبياء والأولياء والملاء والصالحين ونحن أجدر بالخوف منهم لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة وإفليس أمننا لقلعة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا بل قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا فلا قرب الرحيل ينهنا ولا كثرة الذنوب تحركنا ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا ولا خطر الخاتمة يزهبنا فسأل الله تعالى أن يتدارك فضله وجوده أحوالنا فيصلحنا إن كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا . ومن العجائب أنا إذا أردنا المال في الدنيا زرنا وغرنا وأجرنا وركبنا البحار والبراري وخاطرنا وإن أردنا طلب رتبة العلم تفقهنا وتعبنا في حفظه وتكراره وسهرنا ونجهدنا في طلب أرزاقنا ولا نتق بضمان الله لنا ولا نجلس في بيوتنا فنقول اللهم ارزقنا ثم إذا طمحت أعيننا نحو الملك الدائم القيم قلنا بأن نقول بألسنتنا اللهم اغفر لنا وارحمنا والذي إله رجاؤنا وبه اعترازنا ينادينا ويقول - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . ولا يغرنكم بالله الغرور . يا أيها الإنسان ما تحرك ربك الكريم - ثم كل ذلك لا ينهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا فهاهنا لإعنة هائلة إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها ويحيرنا فسأل الله تعالى أن يتوب علينا بل نسأله أن يشوق إلى التوبة سراير قلوبنا وأن لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا فنكون ممن يقول ولا يعمل ويسمع ولا يقبل إذا سمعنا الوعظ بكينا وإذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا فلا علامة للحدلان أعظم من هذا فسأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشد عنه وفضله ولتقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردناه فان القليل من هذا يصادف القلب القابل فيسكني والكثير منه وإن أفيض على القلب العاقل فلا يفتني . ولقد صدق الراهب الذي حكى عنه عيسى بن مالك الحولاني وكان من خيار العباد أنه رأى على باب بيت للقدس واقفا كهية المحزون من شدة الوله ما يكاد يرقأ معه من كثرة البكاء فقال عيسى لما رأته هالتي منظره قلت أيها الراهب أوصني بوصية أحفظها عنك فقال يا أخي بماذا أوصيك إن استطعت أن تسكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خائف حذر

وبجلوني قتلت يوما لبعضهم ابن إزاري فسقطت من أعينهم . وكان إبراهيم بن آدم إذا سمع إنسان شارطه على ثلاثة أشياء أن تكون الخدمة والأذان له وأن تكون يده في جميع ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيده فقال رجل من أصحابه أنا لأقدر على هذا فقال أعجبني صدقك . وكان إبراهيم ابن آدم ينظر البساتين ويعمل في الحصاد وينفق على أصحابه . وكان من أخلاق السلف أن كل من احتاج إلى شيء من مال أخيه استعمله من غير مؤامرة قال الله

يخاف أن يفشل فتقرسه السباع أو يسهو فتشهه الهوام فهو مذكور القلب وجل فهو في الحفاقة ليله وإن أمن القفرون وفي الحزن نهاره وإن فرح البطالون ثم ولي وتركني ققلت لو زدتن شيئا عسى ينفعني فقال الظمآن يحزبه من الماء أسره وقد صدق فان القلب الصافي يحركه أدنى عناية والقلب الجامد تنبو عنه كل اللواعظ وما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام فلا ينبغي أن يظن أنه تقدير بل هو تحقيق فانك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيت مشحونا بأصناف السباع وأنواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها وهي التي لا تزال تفترسك وتنهشك إن غفلت عنها لحظة إلا أنك محجوب العين عن مشاهدتها فإذا انكشف الغطاء، ووضعت في قبرك عاينتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها الموافقة لما نراها قري بعينك العقارب والحيات وقد أهدت بك في قبرك وإنما هي صفاتك الحاضرة الآن قد انكشفت لك صورها فان أردت أن تغفلها وتغورها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فضلا عن ظاهر بشرتك والسلام.

كتاب الفقر والزهد

(وهو الكتاب الرابع من ربيع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي تسبح له الرمال ، وتسجد له الظلال ، وتذكرك من هيئته الجبال ، خلق الانسان من الطين اللابزب والصالصال ، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال ، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال ، وأذن له في قرع باب الخدمة بالهدو والآصال ، ثم كحل بصيرة الخالص في خدمته بنور المبرة حتى لاحظ بضائه حضرة الجلال ، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ، ما استتبع دون مبادئ إشراقه كل حسن وجمال ، واستنقل كل ماصرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستنقال ، وعمل له ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة عيس وتختال ، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجبت من طينة الخزي وضربت في قالب النكال ، وهي متلفعة بجلبابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال ، وقد نصبت جبالها في مدارج الرجال ، فهي تقتنصهم بضروب السكر والإغتيال ، ثم لا تجزى معهم بالخلف في مواعيد الوصال ، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال ، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال ، فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال ، زهدوا فيها زهد البغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال ، وأقبلوا بكنههم على حضرة الجلال ، واتقوا منها بوصال ليس دونه انفصال ، ومشاهدة أبدية لا يعترها فناء ولا زوال ، والصلاة على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل .

[أما بعد] فان الدنيا عدوة لله عز وجل بغرورها ضل من ضل وبكبرها زل من زل فإرأس الخطايا والسيئات ، وبغضا أم الطاعات وأس القربات ، وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وذم الحب لها في كتاب ذم الدنيا من ربيع المهلكات ، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فانه رأس المنجيات ، فلا مطمع في النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزواها عن العبد ويسمى ذلك فقرا وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا ولكل واحد منهما درجته في نيل السعادات وحظ في الاعانة على الفوز والنجاة ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودراجتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما ونذكر الفقر في شطر من الكتاب والزهد في شطر آخر منه ونبدأ بذكر الفقر فقول:

[الشطر الأول من الكتاب في الفقر] وفيه بيان حقيقة الفقر وبيان فضيلة الفقر مطلقا وبيان

(كتاب الفقر والزهد)

(٢٤ - إحياء - رابع)

تعالى - وأمرهم شورى بينهم - أى مشاعهم فيه سواء ومن أدبهم أنهم إذا استنقلوا صاحباً يتهمون أنفسهم ويتسبون في إزالة ذلك من بواطنهم لأن انطواء الضمير على مثل ذلك للمصاحب وليجة في الصعبة. قال أبو بكر الصكتاني صحبني رجل وكان على قلبي ثقيلاً فوهبت له شيئاً بنية أن يزول ثقله من قلبي فلم يزول فخالوت به يوماً وقلت له ضع رجلك على خدي فأبى فقلت له لا بد من ذلك ففعل ذلك فزال ما كنت أجده في باطني قال الرقي قصدت من الشام إلى الحجاز

خصوص فضيلة الفقراء وبيان فضيلة التقير على التقى وبيان أدب الفقير في فقره وبيان أدبه في قبوله العطاء وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة وبيان مقدار التقى المحرم للسؤال وبيان أحوال السائلين والله الموفق للصواب بلطفه وكرمه .

(بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه)

اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه أما قد مالا حاجة إليه فلا يسمى فقرا وإن كان المحتاج إليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا وإذا فهمت هذا لم تشك في أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثاني الحال ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده فان كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاد من غيره فهو التقى الناطق ولا يتصور أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحدا فليس في الوجود إلا غنى واحد وكل من عداه فانهم محتاجون إليه ليجدوا وجودهم بالدوام وإلى هذا الحصر الاشارة بقوله تعالى - والله التقى وأتم الفقراء - هذا معنى الفقر مطلقا ولكل السانقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص والإفقر العبد بالاضافة إلى أصناف حاجاته لا يحصر لأن حاجاته لا حصر لها ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال وهو الذي يريد الآن يانه فقط فنقول: كل فاقد للمال فانا نسميه فقيرا بالاضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجا إليه في حقه ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر ونحن نميزها ونخص كل حال باسم لتتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها : الحالة الأولى وهي العليا أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضا له ومحترزا من شره وشغله وهو الزهد واسم صاحبه الزاهد . الثانية أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهده فيه لو أتاه وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا . الثالثة أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة فيه ولو لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه بل إن أتاه صفوا عفوا أخذوه وفرح به وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به وصاحب هذه الحالة نسميه قائما إذ تقع نفسه بالوجود حتى ترك الطلب مع ما فيها من الرغبة الضعيفة . الرابعة أن يكون تركه الطلب لهجزه وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سيلا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه وهو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص . الخامسة أن يكون ما قدده من المال مضطرا إليه كالجائع الفاقد للخبز والعارى الفاقد للثوب ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية وقدا تنفك هذه الحالة عن الرغبة ، فهذه خمسة أحوال أعلاها الزهد والاضطرار إن انضم إليه الزهد وتصور ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتي بيانه ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد وهي أن يستوى عنده وجود المال وبقده فان وجدته لم يفرح به ولم يتأذى وإن فقده فكذلك بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها إذا أتاه ما ألفه درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها من يومها قتالت خادمها ما استطعت فبما فرقت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لئلا تنظر عليه قتالت لو ذكرتيني لقتلت فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بخذا في يده وخزائمه لم تضره إذ هو يرى الأموال في خزائنه الله تعالى لاقى يد نفسه فلا يفرق بين أن تكون في يده أو في يد غيره . وينبغي أن يصمى صاحب هذه الحالة للستغنى لأنه غنى عن قد المال ووجوده جميعا وليفهم من هذا الاسم معنى يشارك اسم التقى المطلق على الله تعالى وعلى كل من كثر ماله من العباد فان من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال في يده وإنما هو غنى عن دخول المال في يده لاعتقائه فهو إذن فقير من وجه وأما هذا الشخص فهو غنى عن دخول المال في يده وعن بقاءه في يده وعن خروجه من يده أيضا فانه ليس يتأذى به ليجتاح إلى إخراجه وليس يفرح به ليجتاح إلى بقاءه وليس فاقد له

حتى سألت الكنانى عن هذه الحكاية . ومن أدبهم تقديم من يرفون فضله والتوسعة له في المجلس والايثار بالوضع . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا في صفة ضيقة فجاءه قوم من البدرين فلم يجدوا موضعا يجلسون فيه فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يكن من أهل بدر فجلسوا فكانهم فاشتر ذلك عليهم فأزل الله تعالى - وإذا قيل انشروا فانشروا - الآية وحكى أن علي بن بدار الصوفى ورد على أبي عبد الله بن خفيف زائرا فهاشيا فقال له

ليحتاج إلى الدخول في يده فضاء إلى العموم أميل فهو إلى النفي الذي هو وصف الله تعالى أقرب وإعسا
قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان ولكننا لانسى صاحب هذه الحالة غنيا بل
مستغنيا ليقى النفي اصحا لمن له النفي المطلق عن كل شيء وأما هذا العبد فان استغنى عن المال وجودا
أوعدما فلم يستغن عن أشياء أخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليقى استغناؤه الذي زين
الله به قلبه فان القلب للقيد بحب المال رقيق والمستغنى عنه حر والله تعالى هو الذي أعتقه من هذا
الرق فهو محتاج إلى دوام هذا العتق والقلوب متقلبة بين الرق والحرية في أوقات متقاربة لأنها بين
أصميين من أصابع الرحمن فلذلك لم يكن اسم النفي مطلقا عليه مع هذا الكمال الإعجازي. واعلم أن
الزهد درجة هي كمال الأبرار وصاحب هذه الحالة من التفرين فلا جرم صار الزهد في حقه قصصا ناذحسات
الأبرار سيئات التفرين وهذا لأن الكارهة للدنيا مشغول بالدنيا كما أن الراغب فيها مشغول بها والشغل
بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى إذ لا بعد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجابا فانه أقرب
إليك من جبل الوريد وليس هو في. كان حتى تكون السموات والأرض حجابا بينك وبينه فلا حجاب
بينك وبينه إلا شغلك بغيره. وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره وأنت لا تزال مشغولا بنفسك
وبشهوات نفسك فكذلك لا تزال محجوبا عنه فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى والمشغول
ببغض نفسه أيضا مشغول عن الله تعالى بكل ما سوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع
العاشق والمشوق فان التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستغفاله وكرهه حضوره فهو في حال
اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ولو استغرقه المشق لفعل عن غير المشوق
ولم يلتفت إليه فكما أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك في العشق ونقص فيه
فكذا النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ولكن أحدهما أخف من الآخر بل الكمال
في أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضا وحبا فانه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة فلا
يجتمع أيضا بغض وحب في حالة واحدة فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبا إلا أن
المشغول بحبا غافل وهو في غفلة سالك في طريق البعد والمشغول ببغضا غافل وهو في غفلة سالك في
طريق القرب إذ يرجى له أن ينتهي حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتتبدل بالشهود فالكمال له مرتبة لأن
بغض الدنيا مطية توصل إلى الله فالهبط والبهوض كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة
وعلقها وتسييرها ولكن أحدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدبرها فهما سيان بالإضافة إلى الحال
في أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ولكن حال المستقبل محمود بالإضافة إلى
الستدبر إذ يرجى له الوصول إليها وليس محمودا بالإضافة إلى المعتكف في الكعبة اللازم لها الذي لا يخرج
منها حتى يفترق إلى الاشتغال بالدابة في الوصول إليها فلا ينبغي أن تظن أن بغض الدنيا مقصود في عينه
بل الدنيا طائق عن الله تعالى ولا وصول إليه إلا بدفع العائق ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله
من زهد في الدنيا واقصر عليه فقد استجمل الراحة بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة فيبين أن سلوك
طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع التريم العائق عن الحج، فاذن قد ظهر
أن الزهد في الدنيا إن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال وإن أريد به الرغبة في
عدمها فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضى والقانع والحريص ونقصان بالإضافة إلى درجة المستغنى بل
الكمال في حق المال أن يستوى عندك المال والماء وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بأن تكون
على شاطئ البحر ولا قلته تؤذيك إلا في قدر الضرورة مع أن المال محتاج إليه كما أن الماء محتاج إليه
فلا يكون قلبك مشغولا بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا يبغض الماء الكثير بل تقول أشرب

أبو عبد الله تقدم فقال
بأى عذر فقال بأنك
لقيت الجنيد ومالقيته
ومن أدبهم ترك محبة
من همه شيء من
فضول الدنيا قال الله
تعالى - فأعرض عن
تولى عن ذكرنا ولم يرد
إلا الحياة الدنيا -
ومن أدبهم بذل
الانصاف للاخوان
وترك مطالبة الانصاف
قال أبو عثمان الحيري
حق الصحبة أن توسع
على أخيك من مالك
ولا تطمع في ماله وتصفه
من نفسك ولا تطلب
منه الانصاف وتكون
تبعاله ولا تطمع أن
يكون تبعالك وتستكثر
ما يصل اليك منه
وتستقل ما يصل اليك

منه بقدر الحاجة وأسقى منه عباد الله بقدر الحاجة ولا يغفل به على أحد فهكذا ينبغي أن يكون المال لأن الحبز والماء واحد في الحاجة وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر وإذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذي دبره العالم علمت أن قدر حاجتك من الحبز يأتيك لا بحالة مادمت حيا كيا أتيتك قدر حاجتك من الماء على ماسيأتي يانه في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى، قال أحمد بن أبي الحواري قلت لأبي سلمان الداراني قال مالك بن دينار للمغيرة ذهب إلى البيت فخذ الركة التي أهديتها لي فإن العدو يوسوس لي أن اللص قد أخذها قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية قدزاده في الدنيا ما غلبه من أخذها فبين أن كراهية كون الركة في بيته التفات إليها سببه الضعف والقصان . فان قلت فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال ونفروا منه كل انفار . فأقول: كما هربوا من الماء على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجتهم فقرروا عما وراءه ولم يجمعوه في القرب والروايا يديرونه مع أنفسهم بل تركوه في الأنهار والآبار والبراري للمحتاجين إليه لأنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها (١) إذ كان يستوى عندهم المال والماء والذهب والحجر وما نقل عنهم من امتناع فلما أن ينقل عن من خاف أن لو أخذه أن يخذله المال ويقيد قلبه فيدعوه إلى الشهوات وهذا حال الضعفاء فلا جرم البغض للمال والمهرب منه في حقهم كمال وهذا حكم جميع الخلق لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء وإما أن ينقل عن قوى بلغ الكمال والسكن أظهر الفرار والنفار نزول إلى درجة الضعفاء ليقنطوا به في الترك إذ لو اقتدوا به في الأخذ لم يكونوا كما يفرض للزجل المعزم بين بدى أولاده من الحياة لا لضعفه عن أخذها والسكن لعله أنه لو أخذها أخذها أولاده إذ أروها فيهم لسكون والسير بسير الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء فقد عرفت إذن أن الراتب ست وأعلاها رتبة الاستغنى ثم الزاهد ثم الراضى ثم القانع ثم الحرص ، وأما الضطر في تصور في حقه أيضا الزهد والرضا والقناعة ودرجته تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال واسم الفقير يطلق على هذه الحجة أما تسمية الاستغنى فقيرا فلا وجه لها بهذا المعنى بل إن سمي فقيرا في معنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجا إلى الله تعالى في جميع أموره عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقربها فإنه أحق باسم العبد من العاقبين وإن كان اسم العبد عاما للخلق فكذلك اسم الفقير عام ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير فاسم الفقير مشترك بين هذين للعنيين وإذا عرفت هذا الاشتراك فهمت أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعوذ بك من الفقر» (٢)

(١) حديث إن خزائن الأرض حملت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر فأخذوها ووضعوها في مواضعها هذا معروف وقد تقدم في آداب العيشة من عند البخاري تطبيقا مجزوما به من حديث أنس أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين وكان أكثر مال أتى به فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ولم يلتفت إليه فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فلما كان يرى أحدا إلا أعطاه ووصله عمر بن محمد البحري في صحيحه من هذا الوجه وفي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف قدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار يقدمونه الحديث ولهما من حديث جابر لوجاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثا فلم يقدم حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر أبو بكر متاديا فنادى من كان له على رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أودين فليأتنا فقلت إن النبي صلى الله عليه وسلم وعدني حفثا لي ثلاثا (٢) حديث أعوذ بك من الفقر تقدم في الأذكار والدعوات .

منك . ومن أدبهم في الصعبة لين الجانب وترك ظهور النفس بالصولة . قال أبو علي الروذباري الصولة على من فوقك قعة وعلى من مثلك سوء أدب وعلى من دونك عجز ومن أدبهم أن لا يجري في كلامهم لو كان كذا لم يكن كذا ولت كان كذا وعسى أن يكون كذا فانهم يرون هذه التنديرات عليه اعتراضا . ومن أدبهم في الصعبة حذر المفاارقة والحرص على الملازمة . قيل صحب رجل رجلا ثم أراد المفاارقة فاستأذن صاحبه فقال بشرط أن لا تصحب أحدا إلا إذا كان فوقنا وان كان

وقوله عليه السلام « كاد الفقر أن يكون كفرا ^(١) » لا يناقض قوله « أحيى مسكينا وميتى مسكينا ^(٢) » إذ فقر المضطر هو الذي استعاذ منه والفقر الذي هو الاعتراف بالمسكنة والدلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذي سأله في دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء .

(بيان فضيلة الفقر مطلقا)

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى - للفقر المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم - الآية وقال تعالى - للفقر الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض - ساق الكلام في معرض المدح ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالمجرة والاحصار وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر . وأما الأخبار : في مدح الفقر فأكثر من أن تحصى روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أي الناس خير فقالوا مؤسرين المال يعطى حق الله في نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس يارسل الله قال فقير يعطى جهده ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم لبلال « القى الله فقيرا ولا تلقه غنيا ^(٤) » وقال عليه السلام « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال ^(٥) » وفي الخبر المشهور « يدخل فقرا أمى الجنة قبل أغنيائها بخمسةائة عام ^(٦) » وفي حديث آخر « بأربعين خريفا ^(٧) » أي أربعين سنة فيكون للراد به تقدير تقدم الفقير الحرص على الغنى الحرص والتقدير بخمسةائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد على الغنى الراغب وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوتنا بين الفقراء في درجاتهم وكان الفقير الحرص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسمائة ولا تظن أن تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجري على لسانه جزافا وبالاتفاق بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم إلا بحقيقة الحق فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ^(٨) » فإنه تقدير تحقيق لاحالة ولكن ليس في قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتخمين فأما بالتحقيق فلا إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق به غيره وهو يختص بأنواع من الخواص أحدها أنه يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته واللائكة والدار الآخرة لا كما يعلمه غيره

(١) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا تقدم في ذم الحسد (٢) حديث اللهم أحيى مسكينا وميتى مسكينا الترمذى من حديث أنس وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد وقد تقدم (٣) حديث ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه أي الناس خير فقالوا مؤسرين المال يعطى حق الله من نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس قال فقير يعطى جهده أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصر على الرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له (٤) حديث قال لبلال القى الله فقيرا ولا تلقه غنيا الحاكم في كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال ورواه الطبرانى من حديث أبي سعيد بلفظ مت فقيرا ولا تمت غنيا وكلاهما ضعيف (٥) حديث إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال ابن ماجه من حديث عمران ابن حصين وقد تقدم (٦) حديث يدخل فقرا أمى الجنة قبل أغنيائهم بخمسةائة عام الترمذى من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح وقد تقدم (٧) حديث دخولهم قبلهم بأربعين خريفا مسلم من حديث عبد الله بن عمرو إلا أنه قال فقراء المهاجرين والترمذى من حديث جابر وأنس (٨) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة البخارى من حديث أبي سعيد ورواه هو ومسلم من حديث أبي هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بلفظ رؤيا المؤمن جزء الحديث وقد تقدم .

فوقنا أيضا فلا تصعبه لأنك صحبتنا أولا فقال الرجل زال عن قلبي نية المفارقة . ومن أدبهم التمطف على الأصغر . قيل : كان إبراهيم بن آدم يعمل في الحصاد ويطمع الأصحاب وكانوا يجتمعون بالليل وهم صيام وربما كان يتأخر في بعض الأيام في العمل فقالوا ليله تعالوانا كل فطورنا دونه حتى يعود بعد هذا يسرع فأفطروا وانا ما وفرجع إبراهيم فوجدهم نياما فقال مساكين لعلمهم لم يكن لهم طعام فعمد إلى شيء من الدقيق فعبجه فانتدبوا وهو ينفع في النار واضعا

بل مخالفًا له بكثرة المعلومات وزيادة اليقين والتحقيق والكشف والثاني أن له في نفسه صفة بها تتم له الأفعال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بإرادتنا وباختيارنا وهي القدرة وإن كانت القدرة وللقدر جميعا من فعل الله تعالى. والثالث أن له صفة بها يصير لللائكة وبشاهدكم كأن للبصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها البصيرات. والرابع أن له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب إما في اليقظة أو في المنام إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب فهذه كالات وصفات يعلم ثبوتها للأنبياء ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين وإلى خمسين وإلى ستين ويمكننا أيضا أن تكلف تقسيمها إلى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءا واحدا من جملة ما ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن وتخمين فلا ندرى تحقيقا أنه الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا وإنما المعلوم مجامع الصفات التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها وذلك لإرشادنا إلى معرفة علة التقدير فكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق فأما لم كان هذا الفقير الحريص مثلا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة واقضى ذلك التقدم بمخمسائة عام فليس في قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ولا وثوق به والترض النبيه على منهاج التقدير في أمثال هذه الأمور فإن الضعيف الإيمان قد يظن أن ذلك يجري من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق وحاشا من نصب النبوة عن ذلك. ولترجع إلى نقل الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم أيضا «خير هذه الأمة قراؤها وأسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها»^(١) وقال صلى الله عليه وسلم «إن لي حرقين اثنتين فمن أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضني الفقير والجهاد»^(٢) وروى أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ فقال يا محمد إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول أحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا»^(٣) وتكون معك أينما كنت فأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال يا جبريل إن الدنيا دار من لادار له وما لمن لا مال له ولها يجمع من لا عدل له فقال له جبريل يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت. وروى أن المسيح صلى الله عليه وسلم مر في سياحته برجل نامم ملتف في عبادة فأيقظه وقال يا نامم قم فاذا ذكر الله تعالى فقال ما تريد مني؟ إني قد تركت الدنيا لأهلها فقال له قم إذن يا حبيبي ومر موسى صلى الله عليه وسلم برجل نامم على التراب وتحت رأسه لينة ووجهه ولحيته في التراب وهو متر بعبادة فقال يا رب عبدك هذا في الدنيا ضائع فأوحى الله تعالى إليه يا موسى أما علمت أني إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها وعن أبي رافع أنه قال ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه فأرسلني إلى رجل من يهودي خبير وقال قل له يقول لك محمد أسلفني أو بني دقيقا إلى هلال رجب قال فأتيتته فقال لا والله إلا برهن فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال أما والله إني لأمين في أهل السماء أمين في أهل الأرض ولو باعني أو أسلفني لأدبت إليه اذهب بدرعي

عاشته على التراب قالوا له في ذلك قال فات ليكم لم تجدوا فطورا فتمتم قالوا انظروا بأي شيء عاملناه وبأي شيء ياملنا. ومن أدبهم أن لا يقولوا عند الدعاء إلى أين ولم وبأي سبب قال بعض العلماء إذا قال الرجل للصاحب قم بنا فقال لي أين فلا تصعبه. وقال آخر من قال لأخيه أعطني من مالك فقال كم تريد ما قام بحق الإخاء وقد قال الشاعر:

لا يسألون أحلام حين يندبهم
لثنايات على ما قال برهانا
ومن أدبهم أن لا يشكفوا للاخوان

(١) حديث خير الأمة قراؤها وأسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها لم أجده له أصلا (٢) حديث إن لي حرقين اثنتين الحديث وفيه الفقر والجهاد لم أجده له أصلا (٣) حديث أن جبريل نزل فقال إن الله يقرأ عليك السلام ويقول أحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا الحديث وفيه إن الدنيا دار من لادار له الحديث هذا ملفق من حديثين فروى الترمذي من حديث أبي أمامة عرض على ربي ليحصل لي بطحاء مكة ذهبا قلت لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما الحديث وقال حسن ولأحمد من حديث عائشة الدنيا دار من لادار له الحديث وقد تقدم في فم الدنيا.

هذا إليه فارهنه فلما خرجت نزلت هذه الآية - ولا تمدن عينيك إلى مامتعا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا (١) - الآية وهذه الآية تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم «الفقر أزين المؤمن من العذار الحسن على خد الفرس (٢)» وقال ﷺ «من أصبح منكم معافى في جسده آمنا في سره عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها (٣)» وقال كتب الأخبار «قال الله تعالى لموسى عليه السلام يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين». وقال عطاء الخراساني مرني من الأنبياء بساحل فاذا هو برجل يصطاد حيتانا فقال بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شيء ثم مر بآخر فقال باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يارب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك فقال الله تعالى للدلائكة اكشفوا لعبدي عن منزلتيهما فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من السكرامة ولدك من الهوان قال رضيت يارب وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «اطلمت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلمت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء» وفي لفظ آخر «قللت أين الأغنياء قليل جسيم الجده» وفي حديث آخر «فرأيت أكثر أهل النار النساء قللت ماشأهن قليل شغلن الأحرار الذهب والزعفران (٤)» وقال صلى الله عليه وسلم «تحفة المؤمن في الدنيا الفقر (٥)» وفي الخبر «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه (٦)» وفي حديث آخر «رأيت دخل الجنة زحفا (٧)» وقال المسيح صلى الله عليه وسلم بشدة يدخل الغنى الجنة وفي خبر آخر عن أهل البيت رضى الله عنهم أنه صلى الله عليه وسلم قال «إذا أحب الله عبدا ابتلاه فاذا أحبه الحب البالغ اقتناه قليل وما اقتناه قال لم يترك له أهلا ولا مالا (٨)» وفي الخبر «إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته (٩)» وقال موسى عليه السلام يارب من أجاؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك فقال: كل فقير فقير فيمكن أن يكون الثاني للتوكيد ويمكن أن يراد به الشديدا الضر وقال المسيح صلوات الله

(١) حديث أبي رافع ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر الحديث في نزول قوله تعالى - ولا تمدن عينيك إلى مامتعا به أزواجا منهم - الطبراني بسند ضعيف (٢) حديث الفقر أزين للمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس الطبراني من حديث عداد بن أوس بسند ضعيف والمعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم رواه ابن عدى في الكامل هكذا (٣) حديث من أصبح منكم معافى في جسده الحديث الترمذي وقد تقدم (٤) حديث اطلمت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء الحديث تقدم في آداب النكاح مع الزيادة التي في آخره (٥) حديث تحفة المؤمن في الدنيا الفقر رواه محمد بن خفيف الشيرازي في شرف الفقر وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به ورواه أبو منصور أيضا فيه من حديث ابن عمر بسند ضعيف جدا (٦) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان الحديث تقدم وهو في الأوسط للطبراني بإسناد فرد وفيه نكارة (٧) حديث رأيت يني عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة زحفا تقدم وهو ضعيف (٨) حديث إذا أحب الله عبدا ابتلاه الحديث الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني (٩) حديث إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء ولم يسمع منه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام يا موسى فذكره زيادة في أوله ورواه أبو نعيم في الحلية من قول كتب

قبل لما ورد أبو حفص
المسراق تكلف له
الجنيد أنواعا من
الأطعمة فأنكر ذلك
أبو حفص وقال صير
أصحابي مثل الخائث
يقدم لهم الألوان
والفتوة عندنا ترك
التكلف وإحضار
ما حضر فإن بالتكلف
ربما يؤثر مفارقة
الضيف وبترك
التكلف يستوى
مقامه وذهابه ومن
أدهم في الصحة
المدارة وترك الدهنة
وتشبه المدارة
بالدهنة والفرق بينهما
أن المدارة ما أردت
به صلاح أخيك
فدأرت لرجاء صلاحه
واحتملت منه ما تكره

عليه وسلامه إني لأحب السكنة وأبغض النعماء وكان أحب الأسماء إليه صلوات الله عليه أن يقال له يامسكين ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما يجيئون إليك ولا يجيئون إليك ولا يجيئون يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبي ذر وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وأبي هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضي الله عنهم أجمعين أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك وذلك لأنهم شكوا إليه التأذي برأيتهم وكان لباس القوم الصوف في شدة الحر فاذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم فاشتد ذلك على الأغنياء منهم الأقرع بن حابس التيمي وعيينة بن حصن الفزاري وعباس بن مرداس السلمي وغيرهم فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجتمعهم وإياهم مجلس واحد فنزل عليه قوله تعالى - واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عينك عنهم - يعني الفقراء - تريد زينة الحياة الدنيا - يعني الأغنياء - ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا - يعني الأغنياء - وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (١) - الآية . واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعند رجل من أشرف قريش فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فأنزله الله تعالى - عبس وتولى أن جاء الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر تنفعه الذكرى - يعني ابن أم مكتوم - أما من استغنى فانت له تصدى (٢) - يعني هذا الشريف . وعن النبي ﷺ أنه قال « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرجل للرجل في الدنيا فيقول : وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك على ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة أخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف فمن أطعمك في أو كساك في يريد بذلك وجهي فخذ بيده فهو لك والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ بيده ويدخله الجنة (٣) » وقال عليه السلام « أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عنهم الأيادي فان لهم دولة قالوا يا رسول الله وما دولتهم قال إذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة (٤) »

والدهانة ما قصدت به شيئا من الهوى من طلب حظ أو إقامة جاه . ومن أدبهم في الصبغة رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط ، تقل عن الشافعي رحمه الله أنه قال : الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء فكان بين النقبض والانبساط . ومن أدبهم ستر عورات الاخوان قال عيسى عليه السلام لأصحابه : كيف تصنعون إذا رأيتم أحبا كما نأما فكشف الريح عنه ثوبه قالوا نستره ونعطيته فقال بل تكشفون عورته

الأخبار غير مرفوع باسناد ضعيف (١) حديث قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما الحديث في نزول قوله تعالى - واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم - الآية تقدم من حديث خباب وليس فيه أنه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم إذا عرقوا وهذه الزيادة من حديث سلمان (٢) حديث استئذان ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعند رجل من أشرف قريش ونزول - قوله تعالى - عبس وتولى - الترمذي من حديث عائشة وقال غريب قلت ورجاله رجال الصحيح (٣) حديث يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل في الدنيا فيقول وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك على الحديث أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس باسناد ضعيف يقول الله عز وجل يوم القيامة أدنوا مني أحبائي فتقول الملائكة ومن أحبواك فيقول فقراء المسلمين فيدون منه فيقول أما إني لم أزو الدنيا عنكم لهوان كان بكم على ولكن أردت بذلك أن أضعف لكم كرامتي اليوم فتمنوا على ما شتمت اليوم الحديث دون آخر الحديث وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم في الحلية وسأني في الحديث الذي بعده (٤) حديث أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عنهم الأيادي فان لهم دولة الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف اتخذوا عند الفقراء أيادي فان لهم دولة يوم القيامة فاذا كان يوم القيامة نادى مناد عيروا إلى الفقراء فيعتذر إليهم كما يعتذر أحدكم إلى

وقال صلى الله عليه وسلم «دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي فنظرت فاذا بلال ونظرت في أعلاها فاذا فقراء أمي وأولادهم ونظرت في أسفلها فاذا فيه من الأغنياء والنساء قليل فقلت يارب ماشأهم قال أما النساء فأضربنهن الأحران الذهب والحرير وأما الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب وتفقدت أصحابي فلم أر عبد الرحمن بن عوف ثم جاءني بعد ذلك وهو يبكي فقلت ما خافك عنى قال يا رسول الله والله ما وصلت إليك حتى لقيت للشيبات وظننت أنى لأرأك ، فقلت ولم ؟ قال كنت أحاسب بمالى (١) » فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابجة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة (٢) وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « إلامن قال بالمال هكذا وهكذا (٣) » ومع هذا فقد استضمر بالنعى إلى هذا الحد «ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل قبير فلم ير له شيئا فقال :لوقم نور هذا على أهل الأرض لوسمهم (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم «الأخبركم بملوك أهل الجنة قالوا بلى يا رسول الله قال كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره (٥) » وقال عمران ابن حصين « كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء فقال يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك فى عبادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ قلت نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله فقام وقتت معة حتى وقف يباب فاطمة فقرع الباب وقال السلام عليكم أأدخل فقالت ادخل يا رسول الله قال أنا ومن معى قالت ومن معك يا رسول الله قال عمران فقالت فاطمة والذى بئسك بالحق نيبا ما على الإعباء قال اصنعى بها هكذا وهكذا وأشار بيده فقالت هذا جسدى قد وارىته فكيف برأسى فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال شدى بها على رأسك ثم أذنت له فدخل فقال السلام عليكم بالبناء كيف أصبحت قالت أصبحت والله وجعة وزادنى وجعا على ماى أنى لست أقدر على طعام آكله فقد أضربنى الجوع فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا تجزعى بالبناء فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاث وإنى لأكرم على الله منك ولوسألت ربي لأطعمنى ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها أبشرى فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة قالت فأن آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران قال آسية سيدة نساء عالمها ومريم سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك إنسكن فى بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب ثم قال لها اقمى بآبن عمك

إلى أخيه فى الدنيا [١] (١) حديث دخلت الجنة فسمعت حركة أمامى فنظرت فاذا بلال ونظرت إلى أعلاها فاذا فقراء أمى وأولادهم الحديث الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف نحوه وقصة بلال فى الصحيح من طريق آخر (٢) حديث إن عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة أصحاب السنن الأربعة من حديث سعيد بن زيد قال الترمذى حسن صحيح (٣) حديث إلامن قال بالمال هكذا وهكذا متفق عليه من حديث أبى ذر فى أثناء حديث تقدم . (٤) حديث دخل على رجل قبير ولم ير له شيئا فقال لوقم نور هذا على أهل الأرض لوسمهم لم أجده (٥) حديث الأخرى عن ملوك الجنة الحديث متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يقولوا ملوك وقد تقدم ولا بن ماجه بسند جيد من حديث معاذ الأخرى عن ملوك الجنة الحديث دون قوله أغبر أشعث .

[١] قال البرهان الحلبي رأيت عن ابن تيمية أبى العباس بخط بعض الفضلاء حديث أخذوا مع الفقراء أباذى وكذا حديث الفقر فخرى قال كلاهما كذب انتهى وكذا رأيت فى كلام له آخر .

قالوا سبحان الله من يفعل هذا قال أحذكم يسمع فى أخيه بالسكامة فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها ومن أدبهم الاستغفار للاخوان بظهر النبي والاهتمام لهم مع الله تعالى فى دفع الكاره عنهم . حكى أن أخوين ابتلى أحدهما بهوى فأظهر عليه أخاه فقال إنى ابتليت بهوى فان شئت أن لاتتقد على عبقى لله فافعل فقال ما كنت لأحل عقد إختائك لأجل خطيتك

وعقد بينه وبين الله عقدا أن لا يأكل ولا يشرب حتى يمافيه الله تعالى من هوام وطوى أربعين يوما كلما يسأله

فوالله لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة (١)» وروى عن علي كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على نجمع الدرهم رمام الله بأربع خصال بالتمحط من الزمان والجور من السلطان والحيانة من ولاة الأحكام والشوكة من الأعداء (٢)». وأما الآثار فقد قال أبو العرداء رضى الله عنه: ذوالدرهمين أشد حبا أو قال أشد حبا من ذى الدرهم، وأرسل عمر رضى الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار فجاء حزينا كشيا فقالت امرأته أحدث أمر قال أشد من ذلك ثم قال أرى درعك الخلق فشقة وجهه صررا وفرقه ثم قام يصلى ويصلي إلى النداء ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يدخل فقراء أمى الجنة قبل الأغنياء بمسائة عام حتى إن الرجل من الأغنياء يدخل في غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج (٣)» وقال أبو هريرة: ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين ورجل دعا بشرا به فلا يقال له أيها تريد وقيل جاء فقير إلى مجلس الثورى رحمه الله فقال له تخبط لو كنت غنيا لما قربتكم، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقيبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء. وقال المؤمل ما رأيت الفنى أذل منه في مجلس الثورى ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثورى رحمه الله. وقال بعض الحكماء: سكن ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا جميعا ولورغب في الجنة كما يرغب في الفنى لغاز بهما جميعا ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعدى الدارين جميعا وقال ابن عباس: ملعون من أكرم بالفنى وأهان بالفقر. وقال لقمان عليه السلام لابنه: لا تحقرن أحدا خلقان ثيابه فان ربك وربك واحد وقال يحيى بن معاذ: حبك الفقراء من أخلاق المرسلين وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين، وفي الاخبار عن الكتب السالفة أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام: احذر أن أمتكت فتسقط من عينى فأصب الدنيا عليك صبا، ولقد كانت عائشة رضى الله عنها تفرق مائة ألف درهم في يوم واحد بوجهها اليها معاوية وابن عامر وغيرهما وإن درعها لمرقوع وتقول لها الجارية لو اشتريت لك بدرهم لحا تظفرين عليه وكانت صائفة فقالت لو ذكرتني لفعملت، وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال «إن أردت اللحوق بى فطليك بعيش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعى درعك حتى ترقعيه (٤)» وجاء رجل إلى إبراهيم بن آدم بشرة آلاف درهم فأبى عليه أن يقبها فألح عليه الرجل فقال له إبراهيم أتريد أن أمحو اسمى من ديوان الفقراء بشرة آلاف درهم للأفضل ذلك أبدأ رضى الله عنه.

(١) حديث عمران بن حصين كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء فقال يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك فى عيادة فاطمة الحديث تقدم (٢) حديث إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا الحديث أبو منصور الديلى باسناد فيه جملة وهو منكر (٣) حديث سعيد بن عامر يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمسائة عام الحديث وفى أوله قصة أن عمر بعث إلى سعيد بألف دينار فجاء حزينا وفرقا، وقد روى أحمد فى الزهد القصة إلا أنه قال تسعين عاما وفى إسناده يزيد بن أبى زياد تكلم فيه وفى رواية له بأربعين سنة وأمادخولهم قبلهم بمسائة عام فهو عند الترمذى من حديث أبى هريرة وصححه وقد تقدم قبل هذا بورتين .
(٤) حديث قال لمائسة إن أردت اللحوق بى فطليك بعيش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء الحديث الترمذى وقال غريب والحاكم وصححه نحوه من حديثها وقد تقدم .

عن هواه يقول ما زال
فبعد الأربعين أخبره
أن الهوى قد زال
فأكل وشرب . ومن
أدبهم أن لا يحوجوا
صاحبهم إلى الداراة
ولا يلجئوه إلى الاعتذار
ولا يتكلموا للصاحب
ما يشق عليه بل
يكونوا للصاحب من
حيث هو مؤثرين مراد
الصاحب على مراد
أنفسهم قال على بن أبى
طالب كرم الله وجهه
شر الأصدقاء من
حوجك إلى مداراة
أو الجأك إلى اعتذار
وتكلفت له . وقال
جعفر الصادق أتفضل
إخوانى على من
يتكلف لى وأحفظ
منه وأخفهم على قلبى

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن هدى إلى الاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به (١) »
وقال صلى الله عليه وسلم « يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تنظفروا بثواب فقركم وإلا فلا (٢) »
فالأول القانع وهذا الراضى ويكاد يشعر هذا بمفهومه أن الحريص لا ثواب له على فقره ولكن العمومات
الورادة في فضل الفقر تدل على أن له ثوابا كما سيأتي تحقيقه فلعل للراد بعم الرضا والكرهه لفضل
الله في حبس الدنيا عنه ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في فضله
تلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال « إن لكل شئ مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم هم جلساء
الله تعالى يوم القيامة (٣) » وروى عن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ أنه قال « أحب العباد إلى الله تعالى
الفقير القانع برزقه الراضى عن الله تعالى (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل قوت آل محمد
كفافا (٥) » وقال « ما من أحد غنى ولا فقير إلا ودَّ يوم القيامة أنه كان أوتى قوتا في الدنيا (٦) » وأوحى الله
تعالى إلى إسماعيل عليه السلام اطلبني عند المنكسرة قلوبهم قالوا ومن هم قال الفقراء الصادقون وقال
صلى الله عليه وسلم « لأحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا (٧) » وقال ﷺ « يقول الله تعالى يوم القيامة
أين صفوتى من خلقتي فتقول الملائكة ومن هم يا ربنا فيقول فقراء المسلمين القانعون بعطائى الراضون
بقدرى أدخلوهم الجنة فيدخلونها ويأكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون (٨) » فهذا في
القانع والراضى . وأما الزاهد فستذكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى . وأما الآثار
في الرضا والقناعة فكثيرة ولا يخفى أن القناعة يضادها الطمع ، وقد قال عمر رضى الله تعالى عنه إن
الطمع فقر والياس غنى وإنه من يسئ عمافى أيدي الناس وقع استغنى عنهم . وقال أبو مسعود رضى الله
تعالى عنه ما من يوم إلا ومالك ينادى من تحت العرش يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك وقال
أبو النرداء رضى الله تعالى عنه ما من أحد إلا وفي عقله نقص وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا
مسرورا والليل والنهار دائبان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص وقيل
لبعض الحكماء ما لفتى قال قلته تمنيك ورضاك بما يكفيك وقيل كان إبراهيم بن آدم من أهل النعم بخراسان
فبينما هو يشرف من قصره ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله فلما أكل
نام فقال لبعض غلمانه إذا قام فاجئني به فلما قام جاء به إليه فقال إبراهيم أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع

(١) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به رواه مسلم وقد تقدم (٢) حديث
يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث
أبي هريرة وهو ضعيف جدا فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصرى منهم بالكذب ووضع الحديث
(٣) حديث إن لكل شئ مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين الحديث الدارقطنى في غرائب مالك
وأبو بكر بن لال في مقام الأخلاق وابن عدى في الكامل وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر .
(٤) حديث أحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضى من الله لم أجده بهذا اللفظ وتقدم عند
ابن ماجه حديث إن الله يحب الفقير المتعفف (٥) حديث اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا مسلم من
حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بلفظ قوتا وقد تقدم (٦) حديث ما من أحد غنى ولا فقير إلا ود
يوم القيامة أنه كان أوتى قوتا في الدنيا ابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم (٧) حديث لا أحد أفضل
من الفقير إذا كان راضيا لم أجده بهذا اللفظ (٨) حديث يقول الله يوم القيامة أين صفوتى من خلقتي ؟
فتقول الملائكة ومن هم يا ربنا فيقول فقراء المسلمين الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس .

من أكون معه كما
أكون وحدي فأدأب
الصحة وحقوق
الأخوة كثيرة
والحكايات في ذلك
يطول نقلها وقد رأيت
في كتاب الشيخ أبي
طالب المكي رحمه الله
من الحكايات في هذا
المعنى شيئا كثيرا قد
أودع كتابه كل شئ
حسن من ذلك وحاصل
الجميع أن العبد ينبغي له
أن يكون لمولاه ويريد
كل ما يريد لمولاه
لأنفسه وإذا صاحب
شخصا تكون محبته
إياه لله تعالى وإذا صحبه
له تعالى يجتهد له في كل
شئ يزيد عند الله
زلفى وكل من قام
بحقوق الله تعالى يرزقه

قال نعم قال فشيمت قال نعم قال ثم نمت طيبا قال نعم فقال إبراهيم في نفسه فما أصنع أنا بالدينا والنفس تمنع بهذا القدر ومر رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحاً وبقلا فقال له يا عبد الله أترضيت من الدنيا بهذا فقال ألا أدلك على من رضى بشر من هذا قال بلى قال من رضى بالدنيا عوضاً عن الآخرة وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزاً يابساً فيلته بالماء ويأكله بالملح ويقول من رضى من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد . وقال الحسن رحمه الله لمن الله أقواماً أقم لهم الله تعالى ثم لم يصدقوه ثم قرأ - وفي السماء رزقكم وما تعدون فورب السماء والأرض إنه لحق - الآية . وكان أبو ذر رضى الله عنه يوماً جالساً في الناس فأتته امرأته فقالت له اجلس بين هؤلاء والله ما في البيت هبة ولا سفة فقال ياهنم إن بين أيدينا عبة كشودا لا ينجونها إلا كل عصف فرجعت وهي راضية وقال ذو النون رحمه الله أقرب الناس إلى الكفر ذوفاة لا صبر له وقيل لبعض الحكماء ما مالك فقال التجمل في الظاهر والتصديق في الباطن والياس مما في أيدي الناس وروى أن الله عز وجل قال في بعض الكتب السالفة المزلّة يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت فاذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا محسن إليك وقد قيل في القناعة:

اضرع الى الله لا تضرع الى الناس واقنع بياس فان العز في الياس
واستنن عن كل ذي قربى وذي رحم إن النفي من استغنى عن الناس
وقد قيل في هذا المعنى أيضا :

يا جامعا مانعا والدهر يرمقه بمقدرا أمتى باب منه يلقه
مفكرا كيف تأتبه منيته أغاديا أم بها يسرى فتطرقة
جمت مما لا تقل هل جمت له يا جامع المال أيا ما تفرقه
لل مال عندك مخزون لو ارثه ما لل مال مالك إلا يوم تنفقه
أرفه ييال فتي يذو على ثقة أن الذي قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون ما يدنسه والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يهلك بساحتها لم يبق في ظلها هم يؤرقه

بيان فضيلة الفقر على النفي

اعلم أن الناس قد اختلفوا في هذا فذهب الجنيّد والحواص والأكثرون إلى تفضيل الفقر . وقال ابن عطاء النفي الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر ويقال إن الجنيّد دعا على ابن عطاء لمخالفته إياه في هذا فأصابته عنة وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر وبيننا أوجه التفاوت بين الصبر والشكر ومهدنا مسيل طلب الفضيلة في الأعمال والأحوال وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل ، فأما الفقر والنفي إذا أخذنا مطلقاً لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار في تفضيل الفقر ولا بد فيه من تفصيل فنقول : أما يتصور الشك في مقامين : أحدهما فقير صابر ليس بحريص على الطلب بل هو قانع أراض بالاضافة الى غنى منفق ماله في الحيرات ليس حريصاً على إمساك المال والثاني فقير حريص مع غنى حريص إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من النفي الحريص المسك وأن النفي المنفق ماله في الحيرات أفضل من الفقير الحريص أما الأول فربما يظن أن النفي أفضل من الفقير لأنهما تساويا في نصف الحرص على المال والنفي متقرب بالصدقات والحيرات والفقير عاجز عنه وهذا هو الذي ظنه ابن عطاء فيها نحسبه ، فأما النفي المتمتع بالمال وإن كان في مباح فلا يتصور أن يفضل على الفقير القانع وقد يشهد له ماروي في الخبر « أن الفقراء شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالحيرات والصدقات والحج والجهاد فعلمهم كلمات في التسبيح وذكر لهم أنهم يالون بها فوق ما ناله الأغنياء فتملم الأغنياء ذلك

الله تعالى علما بمعرفة النفس وعيوبها وبصرفه محاسن الأخلاق ومحاسن الآداب وبوقفه من أداء الحقوق على بصيرة وبفقهه في ذلك كله ولا يفوته شيء مما يحتاج إليه فيما يرجع إلى حقوق الحق وفيما يرجع إلى حقوق الخلق فكل تقصير يوجد من خبث النفس وعدم تزكيتها وبقائه صفاتها عليه فإن صحبت ظلمت بالانفراط تارة وبالتفريط أخرى وتعدت الواجب فيما يرجع إلى الحق والخلق والحكايات واللواعظ والآداب وصماعها لا يعمل في النفس

فكانوا يقولونه فعاد الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال عليه السلام ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (١) وقد استشهد ابن عطاء أيضا لماسئل عن ذلك فقال الغنى أفضل لأنه وصف الحق أمادليه الأول فقيه نظر لأن الخبر قدورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك وهو أن ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب الغنى وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال «بثت الفقراء رسولا إلى رسول الله ﷺ فقال إني رسول الفقراء إليك فقال مرحبا بك وبعين جئت من عندهم قوم أحبهم قال قالوا يا رسول الله إن الأغنياء ذهبوا بالخير يحجون ولا تقدر عليه ويتمرون ولا تقدر عليه وإذا مرضوا بشوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء أما خصلة واحدة فإن في الجنة غرضا ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء لا يدخلها إلا نبي فقير أو شهيد فقير أو مؤمن فقير ، والثانية يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ، والثالثة إذا قال الغنى سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغنى بالفقير ولو أنفق فيها عشرة آلاف درهم وكذلك أعمال البر كلها فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا رضينا رضينا (٢) فهذا يدل على أن قوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء أى مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم وأما قوله إن الغنى وصف الحق فقد أجابه بعض الشيوخ فقال أترى أن الله تعالى غنى بالأسباب والأعراض فاتقطع ولم ينطق وأجاب آخرون فقالوا إن التكبر من صفات الحق فينبى أن يكون أفضل من التواضع ثم قالوا بل هذا يدل على أن الفقراء أفضل لأن صفات العبودية أفضل للعبد كالخوف والرجاء وصفات الربوبية لا ينبى أن ينازع فيها ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم «الكبرياء ردأى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحدا منهما قصمته (٣)» وقال سهل حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها لأنهما من صفات الرب تعالى فمن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الغنى والفقر وحاصل ذلك تعلق بمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها إذ كما يناقض قول من فضل الغنى بأنه صفة الحق بالتكبر كذلك يناقض قول من ذم الغنى لأنه وصف للعبد بالعلم والعلم والفرقة فانه وصف الرب تعالى والجهل والغفلة وصف العبد وليس لأحد أن يفضل الغفلة على العلم فكشف الغطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبى أن يضاف إلى مقصوده إذ به يظهر فضله والدنيا ليست مخدورة لعينها ولكن لكونها عاقبة عن الوصول إلى الله تعالى ولا الفخر مطلوب بالعينه لكن لأن فيه قد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه وكم من غنى لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن التصدوغاية للقصد فى الدنيا

(١) حديث شكا الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات الحديث وفي آخره فقال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه (٢) حديث زيد بن أسلم عن أنس بثت الفقراء إلى رسول الله ﷺ رسولا إن الأغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولا تقدر عليه الحديث وفيه بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء الحديث لم أجده هكذا بهذا السياق والمعروف فى هذا الغنى مارواه ابن ماجه من حديث ابن عمر اشكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فضل الله به عليهم أغنياءهم فقال يا معشر الفقراء ألا بشركم أن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام وإسناده ضعيف (٣) حديث قال الله تعالى الكبرياء ردأى والعظمة إزارى تقدم فى العلم وغيره.

زيادة تأثير ويكون كبر قلب فيه للنساء من فوقه فلا يمتك فيه ولا ينتفع به وإذا أخذت بالتقوى والزهد فى الدنيا نبع منها ماء الحياء وتفقهت وعلمت وأدت الحقوق وقامت بواجب الآداب بتوفيق الله سبحانه وتعالى .

[الباب السادس والخمسون فى معرفة الانسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك]

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردى قال أنا الشريف نور الهدى أبوطالب الزينى قال أنا كريمة المروزية قالت أخبرنا أبو الهيثم

هو حب الله تعالى والأنس به ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن والفقر قد يكون من الشواغل كما أن الغنى قد يكون من الشواغل وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا إذ لا يجتمع معه حب الله في القلب والحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله وربما يكون شغله في الفراق أكثر وربما يكون شغله في الوصال أكثر والدنيا معشوقة العاقلين المحروم منها مشغول بطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها فاذا إن فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال في حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة ووجود قدر الحاجة أفضل من قلته إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل للعرفة وإن أخذت الأمر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد إذ فتنه السراء أشد من فتنه الضراء ومن العصمة أن لا يقدر ولذلك قال الصحابة رضى الله عنهم بلينا بفتنة الضراء فبصرنا وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر وهذه خلقة الآدميين كلهم إلا الشاذ الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادرا ولما كان خطاب الشرع مع الكل لامع ذلك النادر والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر زجر الشرع عن الغنى وذمه وفضل الفقر ومدحه حتى قال المسيح عليه السلام : لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم . وقال بعض العلماء : تقلب الأموال يمص حلاوة الإيمان وفي الخبر « إن لكل أمة مجلا ومجلا هذه الأمة الدينار والدرهم ^(١) » وكان أصل مجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضا واستواء المال والماء والذهب والحجر إنما يتصور للأنبيا عليهم السلام والأولياء ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للدنيا « إليك عنى ^(٢) » إذ كانت تمثل له بزيتها وكان على كرم الله وجهه يقول : يا صفراء غري غري ويا بيضاء غري غري وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادئ الاغترابها لولا أن رأى برهان ربه وذلك هو الغنى المطلق إذ قال عليه الصلاة والسلام « ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس ^(٣) » وإذا كان ذلك بعيدا فاذا أصلح لكافة الخلق فقد للمال وإن تصدقوا به وصرفوه إلى الخيرات لأنهم لا ينفكون في القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة في بذلها وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم ويقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة ويقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله من جهة ومهما انتقطت أسباب الأنس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمنا بالله انصرف لامحالة إلى الله إذ لا يتصور قلب فارغ وليس في الوجود إلا الله تعالى وغيره فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر ومثلهما مثل الشرق والغرب فانهما جبهتان فالتردد بينهما بقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوبه عن الدنيا وأنسه بها فاذا فضل الفقير والغنى بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط فان تساويا فيه تساوت درجتهم إلا أن هذا مزللة قدم وموضع غرور فان الغنى ربما يظن أنه منقطع القلب

(١) حديث لكل أمة مجل ومجلا هذه الأمة الدينار والدرهم أبو منصور الديلمي من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من حديث حذيفة باسناد فيه جهالة (٢) حديث كان يقول للدنيا إليك عنى الحديث الحاكم مع اختلاف وقد تقدم (٣) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

الكشميني قال أخبرنا أبو عبد الله القزويني قال أنا أبو عبد الله البخاري قال ثنا عمر ابن حفص قال ثنا أبي قال ثنا الأعمش قال ثنا زيد بن وهب قال ثنا عبد الله قال ثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق للصدوق قال « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يعث الله تعالى إليه ملكا بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشق أممته ثم ينفخ فيه الروح وإن الرجل ليعمل بعمل

عن السال ويكون حبه دقينا في باطنه وهو لا يشعر به وإنما يشعر به إذا فقد فليجرب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه فان وجد قلبه إليه التفاتا فليعلم أنه كان مغرورا فكم من رجل باع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التي كانت مستكنة فيه فتحقق إذن أنه كان مغرورا وأن العشق كان مستكنا في الفؤاد استكنا النار تحت الرماد وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء والأولياء وإذا كان ذلك محالاً أو بعيداً فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل لأن علاقة الفقير وأنسه بالدين أضعف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسيحاته وعباداته فان حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكد بها الأنس بالذكور ولا يكون تأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها في قلب مشغول وقدك قال بعض السلف مثل من تعبد وهو في طلب الدنيا مثل من يطفي النار بالحلفاء ومثل من يضل يده من العمر بالسلك . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى : تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها أفضل من عبادة غنى ألف عام . وعن الضحاك قال من دخل السوق فرأى شيئا يشبهه فصر واحتسب كان خيرا له من ألف دينار ينفقها كلها في سبيل الله تعالى . وقال رجل لبشر بن الحرث رحمه الله : ادع الله لي فقد أضرت بي العيال فقال إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لي في ذلك الوقت فان دعائك أفضل من دعائي وكان يقول مثل الغني المتجد مثل روضة على مزبلة ومثل الفقير المتجد مثل عقد الجواهر في جيد الحسنة وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء ، وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : اللهم إني أسألك الدلالة عند النصف من نفسي والزهد فيما جاوز الكفاف وإذا كان مثل الصديق رضي الله عنه في كمال حاله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك في أن فقد المال أصلح من وجوده هذا مع أن أحسن أحوال الغني أن يأخذ حلالا وينفق طيبا ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ويطول انتظاره ومن نوقش الحساب فقد عذب ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة إذ كان مشغولا بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه ما أحب أن لي حانوتا على باب المسجد ولا تخطئي فيه صلاة وذكر وأرجح كل يوم خمسين دينارا وأصدق بها في سبيل الله تعالى قيل وما تكره قال سوء الحساب ولذلك قال سفيان رحمه الله اختار الفقراء ثلاثة أشياء واختار الأغنياء ثلاثة أشياء اختار الفقراء راحة النفس و فراغ القلب وخفة الحساب واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدّة الحساب وما ذكره ابن عطاء من أن الغني وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح ولكن إذا كان العبد غنيا عن وجود السال وعدمه جميعا بأن يستوى عنده كلاهما فأما إذا كان غنيا بوجوده ومفتقرا إلى بقائه فلا يضاهاه غناه غنى الله تعالى لأن غنى بذاته لا بما يتصور زواله والمال يتصور زواله بأن يسرق وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنيا بالأعراض والأسباب صحيح في ذم غنى يريد بقاء المال وما ذكر من أن صفات الحق لا تليق بالعبد غير صحيح بل العلم من صفاته وهو أفضل شيء للعبد بل منتهى البعد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى وقد سمعت بعض المشايخ يقول إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسمية والتسمعون أوصافا له أي يكون له من كل واحد نصيب وأما التكبر فلا يليق بالعبد فان التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي فيلحق به ، نعم قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء وأنه يعلم أنه كذلك والبعد أمور

أهل النار حتى ما يكون
بينه وبينها إلا ذراع
فيسبق عليه الكتاب
فيعمل بعمل أهل الجنة
فيدخل الجنة وإن
الرجل يعمل بعمل
أهل الجنة حتى
ما يكون بينه وبينها
إلا ذراع فيسبق عليه
الكتاب فيعمل بعمل
أهل النار فيدخل النار
وقال تعالى - ولقد
خلقنا الإنسان من
سلالة من طين ثم جعلناه
نطفة في قرار مكين -
أي حريز لاستقرارها
فيه إلى بلوغ أمدها ثم
قال بعد ذكر تقليبهم
أنشأناه خلقا آخر - قيل
هذا الانشاء نفع الروح
فيه . واعلم أن الكلام
في الروح صعب الرام

به بأنه يطلب أعلى للراتب إن قدر عليه ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتلبس فلي
العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر والطبع أكبر من العاصي والعالم أكبر من الجاهل والانسان
أكبر من البيمة والجسد والنبات وأقرب إلى الله تعالى منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محففة
لاشك فيها لكانت صفة التكبر حاصلة له ولا تفتقه به وفضيلة في حقه إلا أنه لا سبيل له إلى معرفته فان ذلك
موقوف على الخاتمة وليس يدري الخاتمة كيف تكون وكيف تنفق فلجهله بذلك وجب أن لا يستفد
لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر إذ ربما يختم للكافر بالإيمان وقد يختم له بالكفر فلم يكن ذلك لاتبابه
لتصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصور أن يعلم الشيء على ما هو به كان العلم كلالاً في حقه لأنه من
صفات الله تعالى ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصاناً في حقه إذ ليس
من أوصاف الله تعالى علم يضره فمعرفة الأمور التي لا تضر فيها هي التي تصور في العبد من صفات
الله تعالى فلا جرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الأنبياء والأولياء والصلحاء فاذن لو استوى عنده وجود
السال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه فهو
فضيلة أما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلاً فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغنى الشاكر .
[المقام الثاني في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغنى الحريص] ولنفرض هذا في شخص واحد
هو طالب للمال وساع فيه وفاقد له ثم وجده فله حالة الفقد وحالة الوجود فأى حالته أفضل فنقول:
نظير فان كان مطلوبه ما لا بد منه في العيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه
فحال الوجود أفضل لأن الفقر يشغله بالطلب وطالب القوت لا يقدر على الفكر والتذكر إلا بقدره مدخوله
بشغل والكفى هو القادر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل قوت آل محمد كقوت آل داود » وقال « كاد
الفقر أن يكون كفراً » أي الفقر مع الاضطرار فيما لا بد منه وإن كان المطلوب فوق الحاجة أو كان
المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين فحال الفقر أفضل وأصلح
لأنهما استويا في الحرص وحب المال واستويا في أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق
الدين واستويا في أن كل واحد منهما ليس يتعرض لصحبة بسبب الفقر والغنى ولكن افتراقاً في أن الواجد
يأنس بما وجده فبتأ كدجه في قلبه ويطمئن إلى الدنيا والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون
الدنيا عنده كالسجن الذي يفي الخلاص منه ومهما استوت الأمور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما
أشد ركونا إلى الدنيا فحال أشد لا محالة إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد
أنسه بالدنيا وقد قال عليه السلام « إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة (١) »
وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد فينبغي أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى ولا تحب ما يفارقك وهو
الدنيا فانك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى فيكون قدمك بالموت على ما تكرهه وفراقك لما
تعبه وكل من فارق محبوا فيكون أذاه في فراقه بقدر حبه وقد أنسه به وأنس الواجد للدنيا القادر عليها أكثر
من أنس الفاقدها وإن كان حريصاً عليها فاذن قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل
والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين أحدهما غنى مثل غنى عائشة رضي الله عنها يستوى عنده الوجود
والعدم فيكون الوجود مزيداً له إذ يستفيد به أدعية الفقراء ولما كين وجمع همهم والثاني الفقر عن
مقدار الضرورة فان ذلك يكاد أن يكون كفراً ولا خيراً فيه بوجه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يبقى حياته
ثم يستعين بهوته وحياته على الكفر والمعاصي ولومات جوعا لكانت مفاصيه أقل فالأصلح له أن يموت
جوعاً ولا يمهد ما يضطر إليه أيضاً فمذا تفصيل القول في الغنى والفقر ويبقى النظر في فقير حريص متكالب على

والامساك عن ذلك
سبيل ذوى الأحلام وقد
عظم الله تعالى شأن
الروح وأسجل على
الخلق بقلة العلم حيث
قال - وما أوتيتم من
العلم إلا قليلاً - وقد
أخبرنا الله تعالى في كلامه
عن إكرامه بن آدم
قال المولود كرمنا بن
آدم وروى « أنه لما
خلق الله تعالى آدم
وذريته قالت الملائكة
يا رب خلقتهم يأكلون
وهربون وينكحون
فاجعل لهم الدنيا ولنا
الآخرة فقال وعزني
وجلالى لأجل ذرية
من خلقت يدي كن
قلت له كن فكان « فع
هذه الكرامة واختياره
سبحانه وتعالى بإمام على

(١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة تقدم .

طلب المال ليس له هم سواء وفي غنى دونه في الحرص على حفظ المال ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقده كنتفجع الفقير بفقره فهذا في محل النظر والأظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوة تفجعهما لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقدته والعلم عند الله تعالى فيه .

(بيان آداب الفقير في فقره)

اعلم أن للفقير آداباً في باطنه وظاهره ومخاطبته وأفعاله ينبغي أن يراعيها فأما أدب باطنه فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر أعنى أنه لا يكون كارهاً فعل الله تعالى من حيث إنه فعله وإن كان كارهاً للفقر كالهجوم يكون كارهاً للحجامة لتألمه بها ولا يكون كارهاً فعل الحجامة ولا كارهاً للحجامة بل ربما يتقصد منه منة فهذا أقل درجاته وهو واجب وتقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر وهو معنى قوله عليه السلام «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بشواب فقركم وإلا فلا» وأرفع من هذا أن لا يكون كارهاً للفقر بل يكون راضياً به وأرفع منه أن يكون طالباً له وفرحاً به لعله بنوائل التقى ويكون متوكلاً في باطنه على الله تعالى وإتقاه في قدر ضرورته أنه يأتيه لاحالة ويكون كارهاً للزيادة على الكفاف وقد قال على كرم الله وجهه : إن لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر فمن علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ولا يشكو حاله ويشكر الله تعالى على فقره ، ومن علاماته إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه ويعصى ربه بترك طاعته ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء وهذا يدل على أن كل فقير فليس بمحمود بل المحمود الذي لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقر ويرضى لعله بشكرته إذ قيل ما أعطى عبد شيئاً من الدنيا إلا قيل له خذنه على ثلاثة أثلاث: شغل وهم وطول حساب . وأما أدب ظاهره فأن يظهر التمعف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يسترقعه ويستتر أنه يستره ففي الحديث «إن الله تعالى يحب الفقير التمعف أبا العيال» وقال تعالى - بحسبهم الجاهل الأغنياء من التمعف - وقال سفيان أفضل الأعمال التجمل عند الهنة وقال بعضهم ستر الفقر من كذو البر . وأما في أعماله فأدبه أن لا يتواضع لغيره لأجل غناه بل يتكبر عليه قال على كرم الله وجهه ما أحسن تواضع التقى للفقير رغبة في ثواب الله تعالى وأحسن منه تبه الفقير على التقى ثقة بالله عز وجل فهذه رتبة وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادئ الطمع . قال الثوري رحمه الله إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه مرء وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص . وقال بعض العارفين إذا خالط الفقير الأغنياء انحلت هروته فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته فإذا سكن إليهم ضل وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق مدهنة للأغنياء وطعماً في العطاء وأما أدبه في أفعاله فأن لا يفتربسبب الفقر عن عبادة ولا يمنع بذلك قليلاً ما يفضله عنه فان ذلك جهد القل وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى . روى زيد بن أسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم قيل وكيف ذلك يا رسول الله قال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها وأخرج رجل درهماً من درهمين لا يملك غيرها طيبة به نفسه فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة ألف (١)» وينبغي أن لا يدخر ما لا يبل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي وفي الإذخار ثلاث درجات إحداها أن لا يدخر إلا ليوومه وليته وهي درجة الصديقين والثانية أن يدخر لأربعين يوماً فان ما زاد عليه داخل في طول الأمل وقد فهم العطاء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة

(١) حديث زيد بن أسلم درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف قيل وكيف يا رسول الله قال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف الحديث النسائي من حديث أبي هريرة متصلاً وقد تقدم في الزكاة ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مرسلًا .

الملائكة لما أخبر عن الروح أخبر عنهم بقلة العلم وقال - ويشلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي - الآية قال ابن عباس قالت اليهود للنبى عليه السلام أخبرنا ما للروح وكيف تمذب الروح التي في الجسد وإنما الروح من أمر الله ولم يكن نزل إليه فيه شيء فلم يجهم فأتاه جبرائيل بهذه الآية وحيث أمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإخبار عن الروح وماهية باذن الله تعالى ووجه وهو صلوات الله عليه معدن العلم وينبوع الحكمة فكيف يسوغ لغيره

في أمل الحياة أربعين يوماً وهذه درجة المتقين والثالثة أن يدخر لسته وهي أقصى للراتب وهي رتبة الصالحين ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية فعنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته وغنى الخصوص في أربعين يوماً وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل هذه الأقسام فبعضهم كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل وبمضون قوت أربعين يوماً وبمضون يوماً وليلة وهو قسم عائشة وحفصة .

(بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال)

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس اللال وغرض المعطي وغرضه في الأخذ أما نفس المال فينبغي أن يكون حلالاً خالياً عن الشبهات كلها فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذها وقد ذكرنا في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب وأما غرض المعطي فلا يخلو إما أن يكون غرضه تطيب قلبه وطلب محبته وهو الهدية أو الثواب وهو الصدقة والزكاة أو الذكر والرياء والسمعة إما على التجرد وإما بمزوجا ببقية الأغراض أما الأول وهو الهدية فلا بأس بقبولها فإن قبولها سنة رسول الله ﷺ (١) ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة فالأولى تركها فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه للمنة فليرد البعض دون البعض فقد أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن وأقط وكبش قبل السمن والأقط ورد الكبش (٢) وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس ويرد على بعض (٣) وقال «لقد هممت أن لا أتهدى إلا من قرشى أو ثقفى أو أنصاري أو دوسي» (٤) وفعل هذا جماعة من التابعين وجاءت إلى فتح اللوصلى صرة فيها خمسون درهماً فقال حدثنا عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «من أتاه رزق من غير مسألة فأنما يردده على الله» (٥) ثم فتح الصرة فأخذ منها درهماً ورد سائرهما وكان الحسن يروي هذا الحديث أيضاً ولكن حمل إليه رجل كيساً ورزماً من رقيق ثياب خراسان فرد ذلك وقال من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا فلي عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق وهذا يدل على أن أمر العالم والواعظ أشد في قبول العطاء

(١) حديث إن قبول الهدية سنة تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية (٢) حديث أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ممن وأقط وكبش قبل السمن والأقط ورد الكبش أحمد في أثناء حديث يعلى بن مرة وأهدت إليه كبشين وشيئا من سمن وأقط فقال النبي صلى الله عليه وسلم خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عليها الآخر وإسناده جيد وقال وكيع مرة عن يعلى بن مرة عن أبيه (٣) حديث كان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وإيم الله لا قبل بعد يومى هذا من أحد هدية إلا أن يكون مهاجراً الحديث فيه محمد بن اسحق ورواه بالنعنة (٤) حديث لقد هممت أن لا أتهدى إلا من قرشى أو ثقفى أو أنصاري أو دوسي الترمذي من حديث أبي هريرة وقال روى من غير وجه عن أبي هريرة قلت ورجاله تمت (٥) حديث عطاء مرسل من أتاه رزق من غير وسيلة فردته فأنما يرد على الله عز وجل لم أجده مرسل هكذا ولأحمد وأبي يعلى والطبراني بإسناد جيد من حديث خالد بن عدي الجهني من بلغه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يردده فأنما هو رزق ساقه الله عز وجل إليه ولأحمد وأبي داود الطيالسي من حديث أبي هريرة من أتاه الله من هذا المال شيئاً من غير أن يسأله فليقبله وفي الصحيحين من حديث عمر ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذ الحديث .

الحوض فيه والاشارة إليه لاجرم لما تناقضت الأنفس الانسانية للتطلعة إلى الفضول المشوقة إلى للعقول المتحركة بوضعها إلى كل ما أمره بالسكون فيه والتسوية بحرصها إلى كل تحقيق وكل تمويه وأطلقت عنان النظر في مسارج التفكير وخالصت غمرات معرفة ماهية الروح تاهت في التيه وتوعدت آراؤها فيه ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والمقل في شيء كالاختلاف في ماهية الروح ولو ثبتت النفوس حدها مترفة بجزءها كان ذلك أجدر بها

وقد كان الحسن يقبل من أصحابه ، وكان إبراهيم التيمي يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويمرض عليه غيرهم اللين فلا يأخذها ، وكان بعضهم إذا أعطاه صدقه شيئا يقول أركه عندك وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل من قبل القبول فأخبرني حتى آخذه وإفلا ، وأما هذا أن يشق عليه الرد لورده ويفرح بالبول ويرى المنه على نفسه في قبول صدقه هديته ، فإن علم أنه يمازجه منة فأخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقهاء الصادقين . وقال بشر : ما سألت أحدا قط شيئا إلا سرى السقطى لأنه قد صبح عندي زهده في الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون عوناً له على ما يحب ، وجاء خراساني إلى الجنيدي رحمه الله يسأل أن يأكله فقال أفرقه على الفقراء ، فقال ما أريد هذا . قال ومتى أعيش حتى آكل هذا قال ما أريد أن تنفقه في الخل والبقل بل في الحلوات والطيبات قبل ذلك منه ، فقال الخراساني ما أجد في بغداد أمن على منك ، فقال الجنيدي ولا ينبغي أن يقبل إلا من مثلك . الثاني أن يكون للثواب المجرود ذلك صدقة وزكاة فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة فإن اشبهه عليه فهو محل شبهة وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة وإن كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر إلى باطنه ، فإن كان مقارفا لمصيبة في السري لم أن المظي لو علم ذلك لفرط طبعه ولما تقرب إلى الله بالتصدق عليه فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو عاوي ولم يكن فإن أخذه حرام محض لاشبهة فيه . الثالث أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله ، إذ يكون معينا له على غرضه الفاسد . وكان سفیان الثوري يرد ما يعطى ، ويقول : لو علت أنهم لا يذكرون ذلك افتخارا به لأخذت ، وعتوب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة ، فقال إنما أرد صلتهم إشفاقا عليهم ونصحا لهم لأنهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم . وأما غرضه في الأخذ فينبغي أن ينظر أهو محتاج إليه فيما لا بد منه أو هو مستغن عنه فإن كان محتاجا إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في العطي فالأفضل له الأخذ . قال النبي صلى الله عليه وسلم « ما للعطي من سعة بأعظم أجرا من الأخذ إذا كان محتاجا (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فأنما هو رزق ساقه الله إليه (٢) » وفي لفظ آخر « فلا يرد » . وقال بعض العلماء : من أعطى ولم يأخذ سأل ولم يعط وقد كان سري السقطى يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمه الله عليهما شيئا فرده مرة ، فقال له السري : يا أحمد احذر آفة الرد فانها أشد من آفة الأخذ ، فقال له أحمد أعد على ما قلت فأعاده ، فقال أحمد ما رددت عليك إلا لأن عندي قوت شهر فاحبسه لي عندك فإذا كان بعد شهر فأفذه إلي ، وقد قال بعض العلماء يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره . فأما إذا كان ما أتاه زائدا على حاجته فلا يخلو إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه والتكفل بأمور الفقراء والاتفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء ، فإن كان مشغولا بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه إن كان طالبا طريق الآخرة فإن ذلك محض اتباع الهوى وكل عمل ليس لله فهو في سبيل الشيطان أوداع إليه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ثم له مقامان : أحدهما أن يأخذ في الملاينة

وأولى فأما أقول
من ليس متمسكا
بالشرائع فنزله
الكتاب عن ذكرها
لأنها أقوال أبرزتها
العقول التي ضلت
عن الرشاد وطبعت
على الفساد ولم يصبا
نور الاهتداء ببركة
متابعة الأنبياء فهم كما
قال الله تعالى - كانت
أعينهم في غطاءه عن
ذكرى وكانوا
لا يستطيعون سمعا - .
وقالوا قلوبنا في
أكنة مما تدعونا
إليه وفي آذاننا وقر
ومن بيننا وبينك
حجاب - فلما حجوا
عن الأنبياء لم يسمعوا
وحيث لم يسمعوا لم
يهتدوا فأصروا على

(١) حديث ما للعطي من سعة بأعظم أجرا من الأخذ إذا كان محتاجا الطبراني من حديث ابن عمر وقد تقدم في الزكاة (٢) حديث من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فأنما هو رزق ساقه الله إليه ، وفي لفظ آخر فلا يرد عندما قبل هذا بحديث .

ويرد في السرّ أو يأخذ في العلانية ويفرق في السرّ ، وهذا مقام الصديقين وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من اطمأنت نفسه بالرياضة . والثاني أن يترك ولا يأخذ بصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه فيفعل كليهما في السرّ أو كليهما في العلانية ، وقد ذكرنا أهل الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه في كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقير فليطلب من موضعه . وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سرى السقطى رحمهما الله فأما كان لاستغناؤه عنه إذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره فإن في ذلك آفات وأخطارا والورع يكون حذرا من مظان الآفات إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه . وقال بعض المجاورين بمكة كانت عندي دراهم أعدتها للإتفاق في سبيل الله فسمعت فقيرا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي أنا جائع كما ترى عريان كما ترى فما ترى فيما ترى يا من يرى ولا يرى فنظرت فإذا عليه خلقان لا تسكاد نواريه فقلت في نفسي لأجد لدراهمي موضعا أحسن من هذا فحملتها إليه فنظر إليها ثم أخذ منها خمسة دراهم وقال : أربعة ثمن مئزرين ودرهم أضعه ثلاثا فلاحاجة في إلى الباقي فزده . قال فرأيت الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان فهجس في نفسي منه شيء فالتفت إلى فأخذ بيدي فأطافني معه أسبوعا كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخيشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين : منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر ولم يظهر ذلك للناس ، فقال هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه وآخذ من أيدي الخلق لأن هذه أتعامل وقتنة وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة ، وللقصود من هذا أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وقتنة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه وقدر الحاجة يأتيك رقما بك ، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء . قال الله تعالى - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا - وقد قال صلى الله عليه وسلم « لاحق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكنه ، فما زاد فهو حساب (١) » فاذن أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب وفيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرض للحساب ، وإن عصيت الله فأنت متعرض للمعاقب ، ومن الاختبار أيضا أن تعزم على ترك لغة من اللذات تقربا إلى الله تعالى وكسرا لصفة النفس فتأتيك عضوا صفوا تتحنن بها قوة عقلك ، فالأولى الامتناع عنها فإن النفس إذا رخص لها في تقص العزم ألقت تقص المهدي وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها فرد ذلك مهم وهو الزهد ، فإن أخذته وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد ، ولا يقدر عليه إلا الصديقون . وأما إذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وتمهد جماعة من الصالحاء فخذ ما زاد على حاجتك فإنه غير زائد على حاجة الفقراء ، وبادر به إلى الصرف إليهم ولا تدخره فإن إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار فربما يحلو في قلبك فتمسكه فيكون فتنة عليك . وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال والتعمير في اللطم والشرب وذلك هو الهلاك . ومن كان غرضه الرفق وطنب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظن بالله لا على اعتماد السلاطين الظلمة فإن رزقه الله من حلال قضاءه وإن مات قبل القضاء قضاءه الله تعالى عنه وأرضى غرماءه وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يضر القرض ولا يخذله بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقرضه على بصيرة ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة وقد قال تعالى

الجهالات وخبجوا بالمقول عن المأمول والعقل حجة الله تعالى يهدي به قوما ويضل به قوما آخرين فلم تنقل أفواهم في الروح واختلافهم فيه . وأما المستمسكون بالشرائع الذين تكلموا في الروح قهرا منهم بطريق الاستبدال والنظر وقوم منهم بلسان القوق والوجد لا باستعمال الفكر حتى تكلم في ذلك مشايخ الصوفية أيضا وكان الأولى الامسك عن ذلك والتأدب بأدب النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد قال الجنيد : الروح شيء استأثر الله بعلمه ولا

(١) حديث لاحق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكنه فما زاد فهو حساب الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال وجلف الحبز والماء بدل قوله طعام يقيم صلبه وقال صحيح .

- ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله - قبل معناه لبيع أحد ثوبيه وقيل معناه فليستترض بجاهه فذلك مما آتاه الله . وقال بعضهم إن لله تعالى عبادا ينفقون على قدر بضائهم والله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى . ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف الأقوياء والأسخياء والأغنياء فقيل من هؤلاء ؟ فقال أما الأقوياء فهم أهل التوكل على الله تعالى وأما الأسخياء فهم أهل حسن الظن بالله تعالى وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى فاذن مهما وجدت هذه الشروط فيه وفي المال وفي للمطى فلأخذه وينبئ أن يرى ما يأخذه من الله لا من للمطى لأن للمطى واسطة قد سخر للمطاه وهو مضطر إليه بما سلط عليه من الدواعي والإرادات والاعتقادات . وقد حكى أن بعض الناس دعا شقيقا في خمسين من أصحابه فوضع الرجل مائة حسنة فلما تصدق لأصحابه إن هذا الرجل يقول من لم يرني صنعت هذا الطعام وقدمته طعامي عليه حرام قماموا كلهم وخرجوا إلا شابا منهم كان دونهم في الدرجة فقال صاحب المنزل لشقيق ما قصدت بهذا قال أردت أن أختبر توحيد أصحابي كلهم . وقال موسى عليه السلام : يارب جعلت رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل يدينني هذا يوما ويشينني هذا ليلة فأوحى الله تعالى إليه هكذا أصنع بأوليائي أجرى أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم فلا ينبئني أن يرى للمطى إلا من حيث إنه مسخر ما جور من الله تعالى نساء الله حسن التوفيق لما يرضاه .

(بيان تَهْرِيمِ السُّؤَالِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ وَأَدَابِ الْفَقِيرِ لِلضَّرْفِ فِيهِ)

اعلم أنه قد وردت منه كثيرة في السُّؤَالِ وَتَشْدِيدَاتِ وَوَرْدِيهِ أَيْضًا مَا يَدُلُّ عَلَى الرَّخْصَةِ إِذْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «للسائل حق ولو جاء على فرس» (١) وفي الحديث «ردوا السائل ولو بظلف محرق» (٢) ولو كان السُّؤَالُ حَرَامًا مَطْلَقًا لِمَاجَازِ إِعَانَةِ التَّمْدِي عَلَى عِدْوَانِهِ وَالْإِعْطَاءِ إِعَانَةً فَالْكَاشِفُ لِلغَطَاءِ فِيهِ أَنَّ السُّؤَالَ حَرَامٌ فِي الْأَصْلِ وَإِنَّمَا يَبَاحُ بِضَرُورَةٍ أَوْ حَاجَةٍ مَهْمَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ الضَّرُورَةِ فَإِن كَانَ غَنَابَةً فَهُوَ حَرَامٌ وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ الْأَصْلَ فِيهِ التَّحْرِيمُ لِأَنَّهُ لَا يَنْفَكُ عَنْ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ مَحْرَمَةٌ : الْأَوَّلُ إِظْهَارُ الشُّكْوَى مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِذِ السُّؤَالُ إِظْهَارٌ لِلْفَقْرِ وَذَكَرَ لِقِصُورِ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ وَهُوَ عَيْنُ الشُّكْوَى وَكَأَنَّ الْعَبْدَ لِلْمَلُوكِ لَوْ سَأَلَ لَسَكَانَ سؤَالِهِ تَشْنِيعًا عَلَى سَيِّدِهِ فَكَذَلِكَ سؤَالُ الْعِبَادِ تَشْنِيعٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَهَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْرَمَ وَلَا يَجْعَلُ إِلَّا لِلضَّرُورَةِ كَمَا تَجْعَلُ لِلتَّيَّةِ . الثَّانِي أَنَّ فِيهِ إِذْلالَ السَّائِلِ فَهِيَ تَعْبِيرٌ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَذِلَّ نَفْسَهُ لغيرِ اللَّهِ بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَذِلَّ نَفْسَهُ لِمَوْلَاهُ فَإِنَّ فِيهِ عِزَّهُ فَأَمَّا سَائِرُ الْخَلْقِ فَاتِّهَمُ عِبَادَ أَمْثَالِهِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَذِلَّ لَهُمْ إِلَّا لِلضَّرُورَةِ وَفِي السُّؤَالِ ذَلُّ السَّائِلِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى السُّؤَالِ . الثَّلَاثُ أَنَّهُ لَا يَنْفَكُ عَنْ إِيْذَاءِ السُّؤَالِ غَالِبًا لِأَنَّهُ رَجْمًا لَا تَسْمَعُ نَفْسَهُ بِالْبَذْلِ عَنْ طَيْبِ قَلْبٍ مِنْهُ فَإِن بَدَّلَ حَيَاةً مِنَ السَّائِلِ أَوْ رِيَاءً فَهُوَ حَرَامٌ عَلَى الْآخِذِ وَإِن مَنَعَ رَجْمًا اسْتِحْيَا وَتَأَذَى فِي نَفْسِهِ بِالْمَنَعِ إِذْ يَرَى نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الْبَخْلَاءِ فِي الْبَذْلِ تَقْصَانِ مَالِهِ وَفِي النَّعْ بِتَقْصَانِ جَاهِهِ وَكَلَامِهَا مُؤْذِيَانِ وَالسَّائِلُ هُوَ السَّبَبُ فِي الْإِيْذَاءِ وَالْإِيْذَاءِ حَرَامٌ إِلَّا لِلضَّرُورَةِ وَمِمَّا فَهَمَّتْ هَذِهِ الْمَهْذُورَاتُ الثَّلَاثُ فَتَدْفَعُهُمْ قَوْلُهُ

(١) حديث للسائل حق وإن جاء على فرس أبو داود من حديث الحسين بن علي ومن حديث علي وفي الأول بل بن أبي يحيى جهه أبو حاتم ووثقه ابن حبان وفي الثاني شيخ لم يسم وسكت عليهما أبو داود وما ذكره ابن الصلاح في علوم الحديث أنه باه عن أحمد بن حنبل قال أربعة أحاديث تدور في الأسواق ليس لها أصل منها للسائل حق الحديث فانه لا يصح عن أحمد فقد أخرج حديث الحسين بن علي في مسنده (٢) حديث ردوا السائل ولو بظلف محرق أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح والنسائي واللفظ له من حديث أم مجيد . وقال ابن عبد البر حديث مضطرب .

تجوز العبارة عنه
بأكثر من موجود
ولكن نجعل للصادقين
محملا لأقوالهم وأفعالهم
ويجوز أن يكون
كلامهم في ذلك بمثابة
التأويل لكلام
الله تعالى والآيات
المنزلة حيث حرم
تفسيره وجوز تأويله
إذ لا يسع القول في
التفسير إلا نقل وأما
التأويل فتتمد
العقول إليه بالباع
الطويل وهو ذكر
ما تحتمل الآية من
المعنى من غير القطع
بذلك وإذا كان الأمر
كذلك فللقول فيه
وجه ومحل . قال
أبو عبد الله النجاشي
الروح جسم يلفظ

صلى الله عليه وسلم «مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها» (١) فانظر كيف سماها فاحشة ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح لضرورة كإباحة شرب الخمر لمن غس بلقمة وهو لا يجد غيره. وقال صلى الله عليه وسلم «من سأل عن غنى فأنما يستكثر من جمر جهنم» (٢) «ومن سأل وله ما يفييه أجه يوم القيامة ووجهه عظم يتققع وليس عليه لحم» وفي لفظ آخر «كانت مسأله خدوشا وكدوحا في وجهه» (٣) وهذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد «وبايح رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفيفة: ولا تسألوا الناس شيئا» (٤) وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيرا بالتعفف عن السؤال ويقول «من سألنا أعطينا ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا» (٥) وقال ﷺ «استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير قالوا ومنك يا رسول الله قال ومنى» (٦) وجمع عمر رضى الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه عش الرجل فمشاه ثم صممه ثانيا يسأل فقال ألم أقل لك عش الرجل قال قد عشته فنظر عمر فإذا تحت يده عملة مملوءة خبزاً فقال لست سائلا ولكنك تاجر ثم أخذ الخلة وترها بين يديه إبل الصدقة وضربه بالدرة وقال لا تعد ولولأن سؤاله كان حراما لما ضرب به ولا أخذ مخلاته ولعل الفقيه الضعيف اللثة الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول أما ضرب به فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتحزير وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استجازوه وهو استبعاد مصدره التصور في الفقه فأين يظهر فقه الفقهاء كلهم في حصوله عمر بن الخطاب رضى الله عنه واطلاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده أتقنى أنه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة وأعلم ذلك ولكن أقدم عليه غضبا في معصية الله وحاشاه أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبى الله وهيهات فان ذلك أيضا معصية بل الفقه الذى لاح له فيه أنه رأى مستغنيا عن السؤال وعلم أن من أعطاه شيئا فأنما أعطاه على اعتقاده أنه محتاج وقد كان كاذبا فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التلبس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم فبقي مالا مالا لك له فوجب صرفه إلى الصالح وإبل الصدقة وعطفها من المصالح وينزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذبا كأخذ المولى بقوله إني علوى وهو كاذب فإنه لا يملك ما يأخذه وكأخذ الصوفى الصالح الذى يعطى لصلاحه وهو فى الباطن مقارفا لمعصية لو عرفها للعطى لما أعطاه وقد

(١) حديث مسألة الناس من الفواحش وما أحل الله من الفواحش غيرها لم أجده أصل (٢) حديث من سأل عن غنى فأنما يستكثر من جمر جهنم الحديث أبو داود وابن حبان من حديث سهل بن الخنظلية مقتصر على ما ذكر منه وتقدم فى الزكاة ولمسلم من حديث أبي هريرة من يسأل الناس أموالهم تكثرا فأنما يسأل جمرا الحديث وللبرار والطبراني من حديث مسعود بن عمر ولا يزال العبد يسأل وهو غنى حتى يخلق وجهه وفى إسناده لين وللشيخين من حديث ابن عمر ما زال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم وإسناده جيد (٣) حديث من سأل وله ما يفييه كانت مسأله خدوشا وكدوحا فى وجهه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود وتقدم فى الزكاة (٤) حديث بايع قوما على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفيفة ولا تسألوا الناس شيئا مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي (٥) حديث من سألنا أعطينا ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا ابن أبي الدنيا فى القناعة والحارث بن أبى أسامة فى مسنده من حديث أبى سعيد الخدرى وفيه حسن بن هلال لم أر من تكلم فيه وباقيم ثقات (٦) حديث استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير الحديث البرار والطبراني من حديث ابن عباس استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك وإسناده صحيح وله فى حديث فتعففوا ولو بحزم الحطب وفيه من لم يسم وليس فيه وما قل من السؤال الخ.

عن الحسن ويكبر عن اللس ولا يجبر عنه بأكثر من موجود وهو وإن منع عن العبارة فقد حكم بأنه جسم فكأنه عبر عنه. وقال ابن عطاء خلق الله الأرواح قبل الأجساد لقوله تعالى - ولقد خلقناكم - يعنى الأرواح - ثم صورناكم - يعنى الأجساد . وقال بعضهم الروح لطيف قائم فى كسيف كالصبر جوهر لطيف قائم فى كسيف وفى هذا القول نظر وقال بعضهم الروح عبارة والقائم بالأشياء هو الحق وهذا فيه نظر أيضا لأن يحمل على معنى الإحياء فقد قال

ذكرنا في مواضع أن ما أخذوه على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد إلى مالكه فاستدل بفعل عمر رضى الله عنه على صحة هذا المعنى الذى ينفل عنه كثير من الفقهاء وقد قررناه في مواضع ولا تستدل بفعلك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر فاذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة فاعلم أن اتشى إيمان يكون مضطرا إليه أو محتاجا إليه حاجة مهمة أو حاجة خفيفة أو مستغنى عنه ، فهذه أربعة أحوال . أما المضطر إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا وسؤال العارى وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في السئول بكونه مباحا والسئول منه بكونه راضيا في الباطن وفي السائل بكونه عاجزا عن الكسب فان القادر على الكسب وهو بطلان ليس له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة . وأما المستغنى فهو الذى يطلب شيئا وعنده مثله وأمثاله فسؤاله حرام قطعا وهذا طرفان واضحان وأما المحتاج حاجة مهمة فكل مريض الذى يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف وكن له جبة لا قميص تحمها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهى إلى حد الضرورة وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على الشئ بمشقة ، فهذا أيضا ينبغي أن تسترسل عليه الإباحة لأنها أيضا حاجة محقة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مكروها مهما صدق في السؤال وقال ليس تحت جيبتي قميص والبرد يؤذيني أذى أطيعه ولكن يشق على فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى . وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الحروق من ثيابه عن أعين الناس وكن يسأل لأجل الأدم وهو واجد للخبز وكن يسأل الكراء لقرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الرحلة فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال باظهار حاجة غير هذه فهو حرام وإن لم يكن وكان فيه شئ من المذورات الثلاثة من الشكوى والدل وإيذاء السئول فهو حرام لأن مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباع بها هذه المذورات وإن لم يكن فيها شئ من ذلك فهو مباح مع الكراهة . فان قلت فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المذورات . فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج ولكن يقول أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبنى رعونة النفس بثوب فوق ثيابي وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس فيخرج به عن حد الشكوى . وأما الدل فبأن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذى يعلم أنه لا يتقصه ذلك في عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله أو الرجل السخى الذى قد أعد ماله لمثل هذه الكرام فيفرح بوجود مثله ويتقبل منه منة بقبوله فيسقط عند الدل بذلك فان الدل لازم لفنة لا محالة . وأما الإيذاء فسيبيل الخلاص عنه أن لا يعين شخصا بالسؤال بعينه بل يلقى الكلام عرضا بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة وإن كان في القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام فهذا إيذاء فانه ربما يبذل كرها خوفا من اللامة ويكون الأحب إليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير اللامة . وأما إذا كان يسأل شخصا معينا فينبغى أن لا يصرح بل يعرض تعريضا ييق له سبيلا إلى التغافل إن أراد فاذا لم تغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته وأنه غير متأذبه وينبغى أن يسأل من لا يستحيا منه لورده أو تغافل عنه فان الحياء من السائل يؤذى كأن الربا مع غير السائل يؤذى . فان قلت فاذا أخذ مع العلم بأن باعث المعطى هو الحياء منه أو من الحاضرين ولو لا ما ابتدأ به فهل هو حلال أو شبهة . فأقول ذلك حرام محض لاختلاف فيه بين الأمة وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والصادرة إذ لا فرق بين أن يضرب ظاهرا جلده بسياط الحشبة أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف اللام وضرب الباطن أشد نكاية في قلوب العقلاء

بعضهم الإحياء صفة
المهي كالخلق صفة
الخالق وقال - قل الروح
من أمرى - وأمره
كلامه وكلامه ليس
بمخلوق أى صار الحى
حيا بقوله كن حيا
وطى هذا لا يكون
الروح معنى فى الجسد
فمن الأقوال ما يدل
على أن قائله يعتقد قس
الروح ومن الأقوال
ما يدل على أنه يعتقد
حدوته ثم إن الناس
مختلفون فى الروح الذى
سئل رسول الله صلى
الله عليه وسلم عنه
فقال قوم هو جبرائيل
وتدل عن أمير المؤمنين
على بن أبى طالب رضى
الله عنه أنه قال هو
ملك من الملائكة له

ولا يجوز أن يقال هو في الظاهر قد رضى به وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر^(١) » فان هذه ضرورة القضاة في فصل الخصومات إذ لا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال فاضطروا إلى الحكم بظاهر القول باللسان مع أنه ترجح كثير الكذب ولكن الضرورة دعت إليه وهذا سؤال عمابين الصدد وبين الله تعالى والحاكم فيه أحكم الحاكمين والقلوب عنده كالأسنة عند سائر الحكام فلا تنتظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أتوك وأتوك فإن النقي مع لقاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة ومفتي القلوب هم علماء الآخرة وبتوأم النجاة من سطوة سلطان الآخرة كما أن مفتي الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا، فإذا ما أخذ مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه ردة إلى صاحبه فإن كان يستحي من أن يسترده ولم يسترده فعليه أن يشبه على ذلك بما يساوى قيمته في معرض الهدية والمقابلة ليتقصى عن هديته فإن لم يقبل هديته فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه وبالسؤال الذي حصل به الأذى . فان قلت فهذا أمر باطن يعسر الاطلاع عليه فكيف السبيل إلى الخلاص منها فربما يظن السائل أنه مريض ولا يكون هو في الباطن راضياً . فأقول لهذا ترك التقون السؤال رأساً لما كانوا يأخذون من أحد شيئاً أصلاً فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلاً إلا من السرى رحمة الله عليهما وقال لأنى علمت أنه يفرح بمخروج السال من يده فأنا أعينه على ما يحب وإنما عظم التكبر في السؤال وتأكد الأمر بالتعفف لهذا لأن الأذى إنما يحل بضرورة وهو أن يكون السائل مشرفاً على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم الميتة فكان الامتناع طريق الورع ومن أرباب القلوب من كان واتقيا يصيرته في الاطلاع على قرائن الأحوال فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بعضاً ويرد بعضاً كما فعل رسول الله ﷺ في الكبش والسمن والأخط وكان هذا فيما يأتيهم من غير سؤال فان ذلك لا يكون إلا عن رغبة ولكن قد تكون رغبته طمعا في جاه أو طلباً للرياء والسحمة فكانوا يحترزون من ذلك فأما السؤال فقد امتنعوا عن رأساً إلا في موضعين أحدهما الضرورة فقد سأل ثلاثة من الأنبياء في موضع الضرورة سليمان وموسى والخضر عليهم السلام ولا شك في أنهم ما سألوا إلا من علموا أنه يرغب في إعطائهم . والثاني السؤال من الأصدقاء والاخوان فقد كانوا يأخذون ما لهم بغير سؤال واستئذان لأن أرباب القلوب علموا أن اللطوب رضا القلب لا نطق اللسان وكانوا قد وثقوا باخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمباستهم فإذا كانوا يسألون الاخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على ما يريدونه وإلا فكانوا يستغنون عن السؤال ، وحد إباحة السؤال أن تعلم أن السؤال بصفة لو علم ما لك من الحاجة لا تبدأك دون السؤال فلا يكون لسؤالك تأثير إلا في تعريف حاجتك فأما في تحريكه بالحياء وإثارة داعيته بالحيل فلا يتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن وحالة لا يشك في الكراهة ويعلم ذلك بقرينة الأحوال فالأخذ في الحالة الأولى حلال مطلق وفي الثانية حرام سحت ويتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فإنه الآثم وليدع ما يريه إلى ما لا يريه وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضمف حرصه وشهوته فان قوى الحرص وضعت الفطنة تراه له ما يوافق فرضه فلا يتفطن للقرائن إلا على الكراهة وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله صلى الله عليه وسلم « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه^(٢) »

سبعون ألف وجهه
ولسكل وجهه منه
سبعون ألف لسان
ولسكل لسان منه
سبعون ألف لغة يسبح
الله تعالى بتلك اللغات
كلها ويخلق من كل
تسيحة ما كبايطير مع
اللائكة إلى يوم
القيامة . وروى عن
عبد الله بن عباس
رضي الله عنهما أن
الروح خلق من خلق
الله صورهم على صورة
بني آدم وما زل من
السماء ملك إلا ومعه
واحد من الروح وقال
أبو صالح الروح كهيئة
الانسان وليسوا بناس
وقال مجاهد الروح على
صورة بني آدم لهم أيد
وأرجل . وروى

(١) حديث إنما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر لم أجده أصلاً وكذا قال النزي لما سئل عنه.

(٢) حديث إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه تقدم .

وقد أوتي جوامع الكلم لأن من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أيه أو أحد قرابته فبأكل من أيدي الناس وإن أعطى بغير سؤال فأنما يعطى بدينه ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراما وإن أعطى بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سئل وأين من يقتصر في السؤال على حد الضرورة ، فإذا فحقت أحوال من يأكل من أيدي الناس علمت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت وأن الطيب هو الكسب الذي اكتسبته بملك أنت أو مورثك فاذن بعيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدي الناس ، فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره وأن يزيننا بجلاله عن حرامه ويفضله عن سواه بمنه وسعة جوده فإنه على ما يشاء قدير .

(بيان مقدار النفي المحرم لسؤال)

اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم «من سأل عن ظهر غنى فأنما يسأل جمرًا فليستقل منه أو ليستكر» صريح في التحريم ، ولكن حدّ النفي مشكل وتقديره عسيره وليس إلينا وضع القادر بل يستدرك ذلك بالتوقيف ، وقد ورد في الحديث «استغفروا بنى الله تعالى عن غيره قالوا وما هو قال غداه يوم وعشاء ليلة (١)» وفي حديث آخر «من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل إلحافا (٢)» وورد في لفظ آخر «أربعون درهما» ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبغي أن يقطع بزوردها على أحوال مختلفة فإن الحق في نفسه لا يكون إلا واحداً والتقدير مجتمع وغاية الممكن فيه تقريب ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين ، فنقول . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاحق لابن آدم إلا في ثلاث طعام يقيم صلبه وثوب يوارى به عورته وبيت يكفه فمأزاد فهو حساب» فلنجعل هذه الثلاث أصلا في الحاجات لبيان أجناسها والنظر في الأجناس والقادر والأوقات ، فأما الأجناس فهي هذه الثلاث ويلحق بها مافي معناها حتى يلحق بها الكراء للمسافر إذا كان لا يقدر على الشيء وكذلك ما يجرى مجراه من اللهجات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفالته كالدابة أيضا . وأما القادر فالثوب يراعى فيه ما يليق بدوى الدين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومبداس وأما الثاني من كل جنس فهو مستغن عنه وليقتصر على هذا أثاث البيت جميعا ولا ينبغي أن يطلب رقة الثياب وكون الأواني من النحاس والفضة فيما يكفي فيه الخرف فإن ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على أحسن أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة . وأما الطعام فقدرة في اليوم مد وهو ما قدره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير والأدم على الدوام فضلة وقطعه بالسكينة إضرار ففي طلبه في بعض الأحوال رخصة . وأما السكن فأقله ما يجزى من حيث المقدار وذلك من غير زينة فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى وأما بالاضافة إلى الأوقات فما يحتاج إليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه وماوى يمكنه فلا شك فيه فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات : إحداهما يحتاج إليه في غد . والثانية ما يحتاج إليه في أربعين يوما أو خمسين يوما . والثالثة ما يحتاج إليه في السنة ، ولتقطع بأن من معه ما يكفي له ولعياله إن كان له عيال لسنة نسأله حرام فإن ذلك غاية النفي وعليه ينزل التقدير بخمسين درهما في الحديث فإن خمسة دنائير تكفي المنفرد

(١) حديث استغفروا بنى الله قالوا وما هو قال غداه يوم وعشاء ليلة تقدم في الزكاة من حديث سهل ابن الحنظلية قالوا ما يفتيه قال ما يشديه أو يعشيه ولأحمد من حديث على باسناد حسن قالوا وما ظهر غنى؟ قال عشاء ليلته وأما اللفظ الذي ذكره المصنف فذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة .
(٢) حديث من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل إلحافا وفي لفظ آخر أربعون درهما تقدما في الزكاة .

ياكلون الطعام وليسوا
بملائكة وقال سعيد
ابن جبير لم يخلق الله
خلقا أعظم من الروح
غير العرش ولوشاء
أن يبلغ السموات
والأرضين السبع في
لقمة لصل صورة
خلقه على صورة
الملائكة وصورة
وجهه على صورة
الآدميين يقوم يوم
القيامة عن عرش العرش
والملائكة معه في صف
واحد وهو بمن يشفع
لأهل التوحيد ولولا أن
بينه وبين الملائكة
سترا من نور لحرق
أهل السموات من
نوره فهذه الأقاويل
لا تكون إلا تقلا وصحاحا
بلفهم عن رسول الله

في السنة إذا اقتصد أما للميل فربما لا يكفي ذلك وإن كان يحتاج إليه قبل السنة فإن كان قادرا على السؤال ولا تقوته فرصته فلا يحل له السؤال لأنه مستغن في الحال وربما لا يعيش إلى الغد فيكون قد سأل ما لا يحتاج فيكفيه غداً يوم وعشاء ليلة وعليه ينزل الخبر الذي ورد في التقدير بهذا القدر وإن كان يقوته فرصة السؤال ولا يجد من يسطيه لو أخر فيسأل له السؤال لأن أمل البقاء سنة غير بيدفوه بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطراً عاجزاً عما يهينه فإن كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفاً وكان مألجلاً السؤال خارجاً عن محل الضرورة لم يحل سؤاله عن كراهية وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطراب وخوف القوت وتراخي اللذة التي فيها يحتاج إلى السؤال وكل ذلك لا قبل الضبط وهو منوط باجتهاد البد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى فيستفيق فيه قلبه ويسبل به إن كان سالكا طريق الآخرة وكل من كان يقينه أقوى وثقته بجعي الرزق في المستقبل أم وثقته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى أعلى فلا يكون خوف الاستقبال وقد أتاك الله قوت يومك لك ولعالمك إلا من ضعف اليقين والاصفاء إلى تخويف الشيطان وقد قال تعالى - فلا تخافونم وخافون إن كنتم مؤمنين - وقال عز وجل - الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالتمشاه والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً - والسؤال من التمشاه التي أيجت بالضرورة وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه في السنة أشد من حال من ملك مالا موروثاً وادخره لحاجة وراء السنة وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله وهذه الحصلة من أمهات الهلكات ، نسأل الله حسن التوفيق بطقه وكرمه .

(بيان أحوال السائلين)

كان بشر رحمه الله يقول الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل وإن أعطى لا يأخذ فهذا مع الروحانيين في عليين و فقير لا يسأل وإن أعطى أخذ فهذا مع القرين في جنات الفردوس و فقير يسأل عند الحاجة فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين فاذن قد اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى أنه مع الفاقة محط الرتبة والدرجة . قال شقيق البلخي لأبراهيم بن آدم حين قدم عليه من خراسان كيف تركت الفقراء من أصحابك قال تركتهم إن أعطوا شكروا وإن منعوا صبروا و ظن أنهم لما وصفهم بترك السؤال قد أتى عليهم غاية التناء فقال شقيق هكذا تركت كلاب بلخ عندنا فقال له إبراهيم فكيف الفقراء عندك يا أبا اسحق فقال الفقراء عندنا إن منعوا شكروا وإن أعطوا آثروا وقبل رأسه وقال صدقت يا أستاذ فاذن درجات أرباب الأحوال في الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفتها انقسامها واختلاف درجاتها فانه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها إلى قلاعها ومن أسفل سافلين إلى أعلى عليين وقد خلق الانسان في أحسن تقويم ثم رده إلى أسفل سافلين ثم أمر أن يرتقى إلى أعلى عليين ومن لا يميز بين السفل والعلو لا يقدر على الرقي قطعاً وإنما الشك فيمن عرف ذلك فانه ربما لا يقدر عليه وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضي أن يكون السؤال مزيداً لهم في درجاتهم ولكن بالإضافة إلى حالهم فان مثل هذه الأعمال بالنيات وذلك كما روى أن بعضهم رأى أبا اسحق النوري رحمه الله يمد يده ويسأل الناس في بعض المواضع قال فاستعظمت ذلك واستجبته له فأتيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال لا يعظم هذا عليك فان النوري لم يسأل الناس إلا ليعطيهم وإنما سألهم ليثيبهم في الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم وكأنه أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم « يد المظى هي العليا (١) » فقال بعضهم يد المظى هي يد الآخذ لئلا لأنه يعطى الثواب والقدر له

(١) حديث يد المظى هي العليا . سلم من حديث أبي هريرة .

صلى الله عليه وسلم ذلك وإذا كان الروح للثول عنه شيئاً من هذا القول فهو غير الروح الذي في الجسد صلى هذا يسوغ القول في هذا الروح ولا يكون الكلام فيه ممنوعاً وقال بعضهم الروح لطيفة تسرى من الله إلى أما كن معروفة لا يبر عنه بأكثر من موجود بإيجاد غيره وقال بعضهم الروح لم يخرج من كني لأنه لو خرج من كني كان عليه القدر قيل فمن أي شيء خرج قال من بين جماله وجلاله سبحانه وتعالى بملاحظة الإشارة حسبها بسلامه وحيابها بكلامه

لما يأخذهم قال الجنيد هات الميزان فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائنة ثم قال احملها إليه فقلت في نفسي إنما فوزن الشيء ليعرف مقداره فكيف خلط به مجهولاً وهو رجل حكيم واستحييت أن أسأله فذهبت بالصرّة إلى النوري فقال هات الميزان فوزن مائة درهم وقال ردّها عليه وقل له أنا لأقبل منك أنت شيئاً وأخذ ما زاد على المائنة قال فزاد تصبني فسأته فقال الجنيد رجل حكيم يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه وزن المائنة لنفسه طلباً لثواب الآخرة وطرح عليها قبضة بلا وزن فهُ عز وجل فأخذت ما كان فهُ تبارك وتعالى ورددت ما جعله لنفسه قال فرددتها إلى الجنيد فبكي وقال أخذ ماله ورد ما لنا الله السمتان، فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم وكيف خلصت فهُ أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجي الأسرار وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والاقبال على الله تعالى بكنه المهمة فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل كمن ينكر مثلاً كون الدواء مسهلاً قبل شربه ومن أنكره بعد أن طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فأنكر ذلك لغيره كان كمن شرب للسبيل فلم يؤثر في حقه خاصة لعله في باطنه فأخذ ينكر كون الدواء مسهلاً وهذا وإن كان في الجهل دون الأول ولكنه ليس خالياً عن حفظ واف من الجهل بل البصير أهدر جلين إماراً على سلك الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم فهو صاحب الدوق والمعرفة وقد وصل إلى عين اليقين وإما رجل لم يسلك الطريق أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهو صاحب علم اليقين وإن لم يكن واصلاً إلى عين اليقين ولعلم اليقين أيضاً رتبة وإن كان دون عين اليقين ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين وبمشر يوم القيامة في زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتل القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين فسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين في العلم القائلين آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب .

[الشرط الثاني من الكتاب في الزهد] وفيه بيان حقيقة الزهد وبيان فضيلة الزهد وبيان درجات الزهد وأقسامه وبيان تفصيل الزهد في الملبس والسكن والأثاث وضروب العيشة وبيان علامة الزهد .

(بيان حقيقة الزهد)

اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال إذ به يظهر الحال الباطن وإلا فليس القول مراداً لعينه وإن لم يكن صادراً عن حال سمى إسلاماً ولم يسم إيماناً والعلم هو السبب في حال يجرى مجرى الثمر والعمل يجرى من الحال مجرى الثمرة فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل . أما الحال فتعني بها ما يسمى زهداً وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه فكل من عدل عن شيء إلى غيره بماوضة ويبيع وغيره فأنما عدل عنه لرغبته عنه وإنما عدل إلى غيره لرغبته في غيره فخاله بالاضافة إلى العدول عنه يسمى زهداً وبالاضافة إلى العدول إليه يسمى رغبةً وجباً فإذن يستدعى حال الزهد مرغوباً عنه ومرغوباً فيه هو خير من الرغوب عنه وشرط الرغوب عنه أن يكون هو أيضاً مرغوباً فيه بوجه من الوجوه فمن رغب عما ليس مطلوباً في نفسه لا يسمى زهداً إذ تارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زهداً وإنما يسمى زهداً من ترك الدرهم والدنانير لأن التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة وشرط الرغوب فيه أن يكون عنده خيراً من الرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة فالبايع لا يقسم على البيع إلا والمشتري عنده خير من البيع فيكون حاله بالاضافة إلى البيع زهداً فيه وبالاضافة إلى العوض عنه رغبةً فيه وجباً ولذلك قال الله تعالى - وشروه بضمن نحس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين - معناه باعوه فقد يطلق الشراء بمعنى البيع

فهو معتق من ذلك كمن
وسئل أبو سعيد الخزاز
عن الروح مخلوقة هي
قال نعم ولولا ذلك
ما أقرت بالربوبية
حيث قالت بلى والروح
هي التي قام بها البدن
واستحق بها اسم الحياة
وبالروح ثبت العقل
وبالروح قامت الحجة
ولو لم يكن الروح
كان العقل معطلاً
لا حجة عليه ولا له
وقيل إنها جوهر مخلوق
واصحبها أطف
المخلوقات وأصفي
الجواهر وأتورها وبها
تترادى النفوس وبها
يكون الكشف لأهل
الحقائق وإذا حجب
الروح عن مراعاة
السير أساءت الجوارح

ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه إذ طعموا أن يخلو لهم وجه أبيهم ، وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعا في العوض فاذن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا ، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد ولكن في الآخرة ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن زهد في الدنيا كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة وإن كان هو للميل في وضع اللسان ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصور إلا بالدول إلى شيء هو أحب منه وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال والذي يرغب عن كل ماسوى الله تعالى حتى الفرائس ولا يحب إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق ، والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ولم يزد في مثل تلك الحظوظ في الآخرة بل طمع في الحور والقصور والأنهار والنواكه فهو أيضا زاهد ولكنه دون الأول والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذي يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجميل في الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقا ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين وهو زهد صحيح كما أن التوبة عن بعض المعاصي صحيحة فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات . والزهد عبارة عن ترك اللباحات التي هي حظ النفس ، ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض اللباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات ، وللتنصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهدا وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه ولكن العادة تخص هذا الاسم بترك اللباحات فاذن الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا إلى الآخرة أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا وكما يشترط في اللزغوب فيه أن يكون خيرا عنده فيشترط في اللزغوب عنه أن يكون مقدورا عليه فإن ترك ما لا يقدر عليه محال وبالترك يتبين زوال الرغبة ، ولذلك قيل لابن المبارك يا زاهد فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا فبماذا زهدت ؟ . وأما العلم الذي هو شمر لهذه الحال فهو العلم بكون التروك حقيقيا بالاضافة إلى للأخذ كعلم التاجر بأن العوض خير من البيع فيرغب فيه ومالم يتحقق هذا للعلم لم يتصور أن تزول الرغبة عن البيع فكذلك من عرف أن ما عند الله باق وأن الآخرة خير وأبقى لأي لذاتها خير في أنفسها وأبقى كما تكون الجواهر خيرا وأبقى من الثلج مثلا . ولا يصير على مالك الثلج يبعه بالجواهر والآلى ؛ فهكذا مثال الدنيا والآخرة فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الدوبان إلى الانقراض والآخرة كالجواهر التي لا تفسد له فيقدر قوة اليقين والمعرفة بالثناوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع والمعاملة حتى إن من قوى يقينه يبيع نفسه وماله كما قال الله تعالى - إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة - . ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى - فاستبشروا بيئكم الذي بايستم به - فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر وهو أن الآخرة خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا ؛ إما لضغف علمه ويقينه . وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهورا في يد الشيطان . وإما لاغتراره بعوايد الشيطان في التسوية يوما بعد يوم إلى أن يحتطفه للوت ولا يبق معه إلا الحسرة بعد الفوت وإلى تعريف حساسة الدنيا الاشارة بقوله تعالى - قل متاع الدنيا قليل - وإلى تعريف قاسمة الآخرة الاشارة بقوله عز وجل - وقال الذين أتوا العلم وبلدكم ثواب الله خير - فبني على أن العلم بنقاسة الجوهر هو الرغب عن عوضه ولما لم يتصور الزهد إلا بما وضة ورغبة عن المحبوب في أحب منه . قال رجل في دعائه « اللهم أرني الدنيا كما تراها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تقل هكذا ولكن قل أرني

للأدب ولذلك صارت الروح بين نجل واستار وقابض ونازع وقيل الدنيا والآخرة عند الأرواح سواء وقيل الأرواح أقسام أرواح تجول في البرزخ وتبصر أحوال الدنيا والملائكة وتسمع ما تحدث به في السماء عن أحوال الآدميين وأرواح تحت العرش وأرواح طيارة إلى الجنان وإلى حيث شاءت على أقدارها من السمي إلى الله أيام الحياة . وروى سعيد بن المسيب عن سلمان قال أرواح المؤمنين تذهب في برزخ من الأرض حيث شاءت بين السماء والأرض حتى بردها

الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك (١) وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي وكل مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير والمبد يراها حقيرة في حق نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلا لأنه مستغن عن الحشرات أصلا وليس مستغنيا عن الفرس والله تعالى غنى بذاته عن كل ماسواه فيرى السكل في درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله ويراه متفاوتا بالإضافة إلى غيره والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره . وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لأنه يبيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى فكأن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك البيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض فكذلك الزهد يوجب ترك للزهد فيه بالكلية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلاقتها فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات وإلا كان كمن سلم للبيع ولم يأخذ الثمن فإذا وفي بشرط الجانبين في الأخذ والترك فليست بشر ببيعته الذي يبيع به فان الذي يبيع به هذا البيع وفي بالعهد فمن سلم حاضرا في غائب وسلم الحاضر وأخذ يسمي في طلب الغائب سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان الماقد بمن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد وما دام ممسكا للدنيا لا يصح زهده أصلا ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد في بنيامين وإن كانوا قد قالوا - ليوسف وأخوه أحب إلى أينا منا - وعزموا على إبعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدم قترك ولا وصفهم أيضا بالزهد في يوسف عند العزم على إخراجه بل عند التسليم والبيع فضلامة الرغبة الامساك وعلامة الزهد الاخراج فان أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيها أخرجت فقط ولست زاهدا مطلقا وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم تصور منك الزهد لأن ما لا يقدر عليه لا يقدر على تركه وربما يستهويك الشيطان بفروره ويخيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها فلا ينبغي أن تتدلى بعجل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله فانك إذا لم تجرب حال القدرة فلا تتق بالقدرة على الترك عندها فكمن ظان بنفسه كراهة الماص عند تعذرها فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات فإياك أن تثق برعدها في الساحات والوثوق الغليظ الذي تأخذه عليها أن تجربها مرة بعد مرة في حال القدرة فإذا دعت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهرا وباطنا فلا بأس أن تثق بها وتوثق بما ولو كان تكون من تغيرها أيضا على حذر فانها سرية النفس للعهد قرية الرجوع إلى مقتضى الطبع . وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ما ترك فقط وذلك عند القدرة . قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة ألا ترى إلى ابن الحائك هذا لا تفتق في مسألة إلا رد علينا يعني أبا حنيفة فقال ابن شبرمة لا أدري أهو ابن الحائك أم ماهو لكن أعلم أن الدنيا غدت إليه فهرب منها وهربت منا فطلبناها وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء محبته لقلعناه حتى نزل قوله تعالى - ولو أننا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم - (٢) .

إلى جسدها . وقيل إذا ورد على الأرواح ميت من الأحياء التقوا وتحدثوا وتساءلوا وركل الله بها ملائكة تعرض عليها أعمال الأحياء حتى إذا عرض على الأموات ما يعاقب به الأحياء في الدنيا من أجل الذنوب قالوا نعتذر إلى الله ظاهرا عنه فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى وقد ورد في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم « تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس على الله وتعرض على الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة فيفرضون بحسناتهم

(١) حديث قال رجل اللهم أرني الدنيا كما تراها فقال له لا تقل هكذا ولكن قل أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك ذكره صاحب الفردوس مختصرا اللهم أرني الدنيا كما تريها صالح عبادك من حديث أبي بصير ولم يخرج له ولده (٢) حديث قال المسلمون إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء محبته لقلعناه حتى نزل قوله تعالى - ولو أننا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم - الآية لم أفق له على أصل .

قال ابن مسعود رحمه الله : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت منهم يعنى من القليل قال وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى - منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة - (١) . واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل إسالة القلوب وعلى سبيل الطمع فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشيء منه في العبادات وإنما الزهد أن تترك الدنيا لملك محاربتها بالاضافة إلى نفاسة الآخرة فأما كل نوع من الترك فإنه يتصور ممن لا يؤمن بالآخرة فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق ولكن لا يكون زهدا إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي الدواهنأ من اللال وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعا في العوض ليس من الزهد فكذلك تركه طمعا في الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء واستقلاله لما في حفظ المال من المشقة والنساء والحاجة إلى التذلل للسلطين والأغنياء ليس من الزهد أصلا بل هو استعجال حظ آخر للنفس بل الزاهد من آتته الدنيا راحة صفوا عفوا وهو قادر على التمتع بها من غير نقصان، جاء وقبح اسم ولا فوات حظ للنفس فتركها خوفا من أن يأنس بها فيكون آتسا بغير الله ومحالما سوى الله ويكون مشركا في حب الله تعالى غيره أو تركها طمعا في ثواب الله في الآخرة فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعا في أشربة الجنة وترك التمتع بالسراير والنسوان طمعا في الحور العين وترك التفرج في البساتين طمعا في بساتين الجنة وأشجارها وترك الزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا في زينة الجنة وترك المطاعم اللذيذة طمعا في فواكه الجنة وخوفا من أن يقال له - أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا - فأثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفوا صفوا لعله بأن ما في الآخرة خير وأبقى وأن ماسوى هذا لمعاملات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة أصلا .

(بيان فضيلة الزهد)

قال الله تعالى - نخرج على قومه في زينته - إلى قوله تعالى : وقال الذين أوتوا العلم ويطمئنون بكم ثواب الله خير لمن آمن - فنسب الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء وقال تعالى - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا - وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا وقال عز وجل - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا - قيل معناه أيهم أزهدهم فيها فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال وقال تعالى - من كان يريد حرث الآخرة زد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب - وقال تعالى - ولا تمدن عينيك إلى ما متنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى - وقال تعالى - الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة - فوصف الكفار بذلك لفهمومه أن للؤمن هو الذى يتصف بتقيته وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا . وأما الأخبار : فما ورد منها في ذم الدنيا كثير وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا من ربيع المهلكات إذ ذم الدنيا من المهلكات ونحن الآن نقتصر على فضيلة بعض الدنيا فإنه من النجيات وهو المعنى بالزهد وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أصبح وهمه الدنيا شقت الله عليه أمره وفرق عليه ضيقه وجعل قمره بين عينيه ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيقه وجعل غناه في قلبه وآتته الدنيا وهي راحة » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيت العبد وقد أعطى صمتا وزهدا في الدنيا فاقربوا منه

(١) حديث ابن مسعود ما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى - منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة - الآية البيهقي في دلائل النبوة باسناد حسن (٢) حديث من أصبح وهمه الدنيا شقت الله عليه أمره الحديث ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذى من حديث أنس بسند ضعيف نحوه

وتزداد وجوههم يابسا وإشراقا » فاتقوا الله تعالى ولا تؤذوا موتاكم وفي خبر آخر « إن أعمالكم تعرض على عشارتكم وأقاربكم من اللواتى فإن كان حسنا استبشروا وإن كان غير ذلك قالوا اللهم لاتنهم حتى تهديهم كما هديتنا » وهذه الأخبار والأقوال تدل على أنها أعيان في الجسد وليست بيمان وأعراض ، مثل الواسطى لأى علة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحلم الخلق ؟ قال لأنه خلق روحه أولا فوقع له صحبة التمسكين والاستقرار الآراء يقول « كنت

فانه يلقي الحكمة^(١) وقال تعالى - ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ولذلك قيل: من زهد في الدنيا أربعين يوما أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأنطق به لسانه. وعن بعض الصحابة أنه قال « قلنا يارسول الله أي الناس خير؟ قال كل مؤمن مخوم القلب صدوق اللسان قلنا يارسول الله وما مخوم القلب؟ قال التقى التقى الذي لا غل فيه ولا عش ولا بنى ولا حسد قلنا يارسول الله فمن على أثره؟ قال الذي يشأ الدنيا ويحب الآخرة^(٢) » ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم « إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا^(٣) » فجعل الزهد سببا للحبة فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل اللقائم ومفهومه أيضا أن يحب الدنيا متعرض لبعض الله تعالى وفي خبر من طريق أهل البيت « الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة فان صادقا قلبا فيه الايمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا^(٤) » ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا مؤمن حقا قال وما حقيقة إيمانك؟ قال عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها وكأني بالجنة والنار وكأني برش ربي بارزا فقال صلى الله عليه وسلم عرفت قازم، عبد نور الله قلبه بالايمان^(٥) » فانظر كيف بدأ في إظهار حقيقة الايمان بمزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال عبد نور الله قلبه بالايمان « ولما سئل رسول الله ﷺ عن معنى الشرح في قوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام - وقيل له ماهذا الشرح؟ قال إن النور إذا دخل في القلب انشرح له الصدر وانفسح قيل يارسول الله وهل لذلك من علامة؟ قال نعم التجافي عن دار الضرور والإقامة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوه^(٦) » فانظر كيف جعل الزهد شرط للاسلام وهو التجافي عن دار الضرور وقال صلى الله عليه وسلم « استحيوا من الله حق الحياء قالوا إنا لنستحي منه تعالى فقال ليس كذلك تبون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون^(٧) » فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى « ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا إنا مؤمنون قال وما علامة إيمانكم؟ فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشهامة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء فقال عليه الصلاة والسلام إن كنتم كذلك فلا تجتمعوا ما لا تأكلون ولا تبينوا ما لا تسكنون ولا تاتسوا فيما عنه ترحلون^(٨) » فجعل الزهد تسكئة لإيمانهم وقال جابر رضى الله عنه « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث إذا رأيتم العبد قد أوتي صمتا وزهدا في الدنيا فاقتربوا منه فانه يلقي الحكمة ابن ماجه من حديث أبي خلد بسند فيه ضعف (٢) حديث قلنا يارسول الله وما مخوم القلب؟ قال التقى التقى الحديث ابن ماجه باسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله يارسول الله فمن على أثره وقد تقدم ورواه بهذه الزيادة بالاسناد للذکور الحرائطي في مكارم الأخلاق (٣) حديث إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه وقد تقدم (٤) حديث الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة فان صادقا قلبا فيه الايمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا لم أجده أصلا (٥) حديث لما قال له حارثة أنا مؤمن حقا فقال وما حقيقة إيمانك الحديث البراز من حديث أنس والطبراني من حديث الحارث بن مالك وكلا الحديثين ضعيف (٦) حديث سئل عن قوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه - الحديث الحاكم وقد تقدم (٧) حديث استحيوا من الله حق الحياء الحديث الطبراني من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب باسناد ضعيف (٨) حديث لما قدم عليه بعض الوفود قالوا إنا مؤمنون قال وما علامة إيمانكم الحديث الخطيب وابن عساكر في تاريخهما باسناد ضعيف من حديث جابر .

نباء وآدم بين الروح والجسد « أي لم يكن روحا ولا جسدا وقال بعضهم الروح خلق من نور العزة وإبليس من نار العزة ولهذا قال - خلقتني من نار وخلقته من طين - ولم يدرك أن النور خير من النار فقال بعضهم قرن الله تعالى العلم بالروح فهي لطاقتها تنمو بالعلم كما ينمو البدن بالتغذية وهذا في علم الله لأن علم الخلق قليل لا يبلغ ذلك والختار عند أكثر متكلمي الاسلام أن الانسانية والحيوانية عرضان خلقا في الانسان واللسوت يدمهما وأن الروح هي الحياة بينهما صار

قال : من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط بها غيرها وجبت له الجنة فقام إليه على كرم الله وجهه ، وقال بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما لا يخلط بها غيرها ؟ صفه لنا فسرنا لنا ، قال : حب الدنيا طلبا لها واتباعا لها ، وقوم يقولون قول الأنبياء ويعملون عمل الجبابرة ، فمن جاء بلا إله إلا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة (١) . وفي الخبر « السخا من اليقين ولا يدخل النار موثقن والبخل من الشك ولا يدخل الجنة من شك (٢) » . وقال أيضا « السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار (٣) » والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا والسخا ثمرة الزهد والتناء على الفقرة ثناء على الثمر لامحالة . وروى عن ابن السيب عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فأنطق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالما إلى دار السلام (٤) » وروى أنه صلى الله عليه وسلم « مر في أصحابه بشار من النوق حفل وهي الحوامل وكانت من أحب أموالهم إليهم وأتسها عندهم لأنها تجمع الظهر والاحم واللين والوبر ، ولعظمتها في قلوبهم قال الله تعالى - وإذا العشار عطلت - قال فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره فقيل له يا رسول الله هذه أنفس أموالنا لم تنتظر إليها فقال قد نهاني الله عن ذلك ثم تلا قوله تعالى - ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به - (٥) » الآية وروى مسروق عن عائشة رضی الله عنها قالت « قلت يا رسول الله ألا تستطم الله فيطممك قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع ، قال يا عائشة والذي نفسى بيده لو سألت ربي أن يجرى معي جبال الدنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض ولكنى اخترت جوع الدنيا على شبعها وقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها ، يا عائشة إن الدنيا لا تنبى لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله لم يرش لأولى العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرش لى إلا أن يكفنى ما كلفهم ، فقال - فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل - والله مالى يد من طاعته وإنى والله لأصبرن كما صبروا بجهدى ولا قوة إلا بالله (٦) »

البدن بوجودها حيا
وبالاعادة إليه في القيامة
يصريها وذهب بعض
متكلمى الاسلام إلى أنه
جسم لطيف مشتق
بالأجسام الصكيفة
اشتباك الماء بالسود
الأخضر وهو اختيار
أبي للمالى الجوسى
وكثير منهم مال إلى
أنه عرض لإلأنه دردم
عن ذلك الأخبار
الدالة على أنه جسم
لماورد فيمن العروج
والهبوط والتردد في
البرزخ حيث وصف
بأوصاف دل على أنه
جسم لأن المرض لا
يوصف بأوصاف إذ
الوصف معنى والمعنى
لا يقوم بالمعنى واختار
بضمه أنه عرض .

(١) حديث جابر من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط معها شيئا وجبت له الجنة لم أر من حديث جابر وقد رواه الترمذى الحكيم في النوادر من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف نحوه (٢) حديث السخا من اليقين ولا يدخل النار موثق الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء ولم يخرج له ولده في مسنده (٣) حديث السخي قريب من الله الحديث الترمذى من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث أبي ذر من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه الحديث لم أره من حديث أبي ذر ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب فم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلًا ولا بن عدى في الكامل من حديث أبي موسى الأشعري من زهد في الدنيا أربعين يوما وأخلص فيها العبادة أجرى الله نيايح الحكمة من قلبه على لسانه وقال حديث منكر وقال الذهبي باطل ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية مختصرا من حديث أبي أيوب من أخلص لله وكلها ضعيفة (٥) حديث مرفى أصحابه بشار من النوق حفل الحديث وفيه ثم تلا قوله تعالى - ولا تمدن عينيك - الآية لم أجده أصلا (٦) حديث مسروق عن عائشة قلت يا رسول الله ألا تستطم ربك فيطممك قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع الحديث . وفيه يا عائشة إن الله لم يرش لأولى العزم من الرسل إلا الصبر الحديث أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من طريق أبي عبد الرحمن السلمى من رواية عباد ابن عباد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق مختصرا : يا عائشة إن الله لم يرش من أولى العزم

وروى عن عمر رضى الله عنه « أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضى الله عنها البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ، ومر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر ، فقال عمر يا حفصة ألسنت تطمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته فقالت بلى قال ناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة . وناشدتك الله هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خير ، وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله ﷺ قرَّبتم إليه يوما طعاما طي مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباءة مثنية فثبت له ليلة أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال منعموني قيام الليلة بهذه العبادة اتتوها بائنتين كما كنتم تثنونها ، وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لغسل يديه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوبا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة ، وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بنى ظفر كساء بن إزارا ورداء وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره قد عقد طرفه إلى عنقه فصرى كذلك فما زال يقول حتى أبكها وبكى عمر رضى الله عنه وانتحب حتى ظننا أن قسه ستخرج (١) » وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال كان لى

من الرسل إلا الصبر على مكروهاها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم فقال تعالى - فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل - ومجاله مختلف في الاحتجاج به (١) حديث إن عمر لما فتحت عليه الفتوحات قالت له حفصة البس لين الثياب إذا قدمت عليك الوفود الحديث بطوله وفيه ناشدتك الله هل تعلمين كذا يذكرها ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أبكها وبكى الخ لم أجده هكذا مجموعا في حديث وهو مفرق في عدة أحاديث فروى البراز من حديث عمران بن حصين قال ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله غداء وعشاء من خبز شعير حتى لقي ربه وفيه عمرو ابن عبد الله القدرى متروك الحديث وللترمذى من حديث عائشة قالت ما شبع من طعام فأشاء أن أبكي إلا بكيت قلت لم قالت أذكر الحال التي فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا عليها والله ما شبع من خبز ولحم مرتين في يوم قال حديث حسن وللشيخين من حديثها ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعا حتى قبض وللبخارى من حديث أنس كان لا يأكل على خوان الحديث وتقدم في آداب الأكل وللترمذى في السائل من حديث حفصة أنها لما مثلت ما كان فراش النبي صلى الله عليه وسلم؟: مسح ثنيه ثنتين فنام عليه الحديث ولابن سعد في الطبقات من حديث عائشة أنها كانت تفرش للنبي صلى الله عليه وسلم عباءة بائنتين الحديث وتقدم في آداب المعيشة وللبزاز من حديث أبي الدرداء قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل له الدقيق ولم يكن له إلا قميص واحد وقال لا نعم يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد قال يونس بن بكير قد حدث عن سعيد بن ميسرة البكرى بأحاديث لم يتابع عليها واحتملت على ما فيها قلت فيه سعيد ابن ميسرة فقد كذبه يحيى القطان وضعفه البخارى وابن حبان وابن عدى وغيرهم ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت صلى في شملة قد عقد عليها زاد العطريني في جزئه الشهور فقدها في عنقه ما عليه غيرها وإسناده ضعيف وتقدم في آداب المعيشة .

سئل ابن عباس رضى الله عنهما قيل أين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان فقال أين يذهب ضوء الصباح عند فناء الأدهان قيل له فأين تذهب الجسوم إذا بليت قال فأين يذهب لجها إذا مرضت . وقال بعض من يتم بالعلوم المدروسة والمذمومة وينسب إلى الاسلام: الروح تنفصل من البدن في جسم لطيف . وقال بعضهم إنها إذا فارقت البدن تحمل معها القوة الوهمية بتوسط النطقية فتكون حينئذ مطالعة للمعاني والمحسوسات لأن

القيامة أن تقوم قال لاولكن هذا إسرائيل عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك فأتاه إسرائيل فقال إن الله عز وجل سمع ما ذكرت فبعثني بفاتيح الأرض وأمرني أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فضلت وإن شئت نيبا ملكا وإن شئت نيبا عبدا فأوماً إليه جبريل أن تواضع لله فقال نيبا عبدا ثلاثا (١) وقال صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله بعبده خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعبود نفسه» (٢) وقال صلى الله عليه وسلم «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيها في أيدي الناس يحبك الناس» (٣) وقال صلى الله عليه وسلم «من أراد أن يؤتبه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا» (٤) وقال صلى الله عليه وسلم «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ومن خاف من النار لها عن الشهوات ومن ترقب الموت ترك اللذات ومن زهد في الدنيا هانت عليه الصييات» (٥) ويروى عن نبينا وعن النبي صلى الله عليه وسلم «أربع لا يدركن إلا تعب الصمت وهو أول العبادة والتواضع وكثرة الذكر وقلة الشيء» (٦) وإيراد جميع الأخبار الواردة في مدح بخص الدنيا ودم حبها لا يمكن فإن الأنبياء ما بعثوا إلا لأصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق وفيها أوردناه كفاية والله المستعان. وأما الآثار: فقد جاء في الأثر: لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل مالم يسألوا ما تنقص من دنياهم وفي لفظ آخر: مالم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى: كذبتم لستم بها صادقين. وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال تابنا الأعمال كلها فلم نر في أمر الآخرة أبلغ من زهد في الدنيا وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين أتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا خيرا منكم قيل ولم ذلك؟ قال كانوا أزهد في الدنيا منكم. وقال عمر رضي الله عنه الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد وقال بلال بن سعد كفي به ذنبا أن الله تعالى يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها وقال رجل لسفيان أشتهي أن أرى عالما زاهدا فقال ويحك تلك ضالة لا توجد وقال وهب بن منبه إن للجنة ثمانية أبواب فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوابون يقولون وعزة ربنا لا يدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا العاشقين للجنة. وقال يوسف بن أسباط رحمه الله إنني لأشتهي من الله ثلاث خصال أن أموت حين أموت وليس في ملكي درهم ولا يكون علي دين ولا على عظمي لحم فأعطى ذلك كله. وروى أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز لقبوها وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها فقال له بنوه قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فبكي الفضيل وقال أتدرون ما مثلي ومثلكم كمثلكم قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها فلما هربت ذبحوها لأجل أن يتنفعوا بجلدها وكذلك

(١) حديث ابن عباس خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا الحديث في نزول إسرائيل وقوله إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة الحديث تقدم مختصرا (٢) حديث إذا أراد الله بعبده خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعبود نفسه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس دون قوله ورغبه في الآخرة وزاد قهقهة في الدين وإسناده ضعيف (٣) حديث ازهد في الدنيا يحبك الله الحديث تقدم (٤) حديث من أراد أن يؤتبه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا لم أجده أصلا (٥) حديث من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات الحديث ابن حبان في الضعفاء من حديث علي بن أبي طالب (٦) حديث أربع لا يدركن إلا تعب الصمت هو أول العبادة الحديث الطبراني والحاكم من حديث أنس وقد تقدم . .

شعاع الشمس ولما رأى المتكلمون أنه يقال لهم الموجودات محصورة قديم وجسم وجوهر وعرض فالروح من أي هؤلاء فاختار قوم منهم أنه عرض وقوم منهم أنه جسم لطيف كما ذكرنا واختار قوم أنه قديم لأنه أمر والأمر كلام والكلام قديم فأحسن الإمساك عن القول فيها هذا سبيله وكلام الشيخ أبي طالب المكي في كتابه يدل على أنه يعيل إلى أن الأرواح أعيان في الجسد وهكذا النفوس لأنه يذكر أن الروح تتحرك للخير ومن حركتها يظهر نور في القلب

أنتم أردتم ذمعي على كبريتي موتوا يا أهلي جوعا خير لكم من أن تدبجوا فضيلا . وقال عبيد بن عمير كان السبع ابن مريم عليه السلام يلبس الشر ويأكل الشجر وليس له ولد يموت ولا يمت يخرب ولا يدخر لقد أينما أدركه النساء نام . وقالت امرأة أبي حازم لأبي حازم هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب فقال لها أبو حازم من هذا كله بد ولكن لا بد لنا من اللوت ثم البعث ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ثم الجنة أو النار . وقيل للحسن لم لا تحلل ثيابك قال الأمر أهمل من ذلك . وقال إبراهيم بن آدم قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب الفرح بالوجود والحزن على الفقد والسرور بالمدح فاذا فرحت بالوجود فأنت حريص وإذا حزنت على الفقد فأنت ساخط والساخط معذب وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والسجب يحبط العمل . وقال ابن مسعود رضي الله عنه ركعتان من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدنا . وقال بعض السلف نعمة الله علينا فيها صرف عنا أكثر من نعمته فيها صرف إلينا وكأنه التفت إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحمي عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه ^(١) » فإذا فهم هذا علم أن النعمة في النعم في اللع المؤدى إلى الصحة أكبر منها في الاعطاء المؤدى إلى السقم . وكان الثوري يقول: الدنيا دار التواء لا دار استواء ودار ترح لا دار فرح من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء . وقال سهل لا يخاف من العمل المتعبد حتى لا يفرغ من أربعة أشياء الجوع والعري والفقر والذل . وقال الحسن البصري أدركت أقواما وصحت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا بأسفون على شيء منها أدبر وهي كانت في أعينهم أهون من التراب كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطوله ثوب ولم ينصب له قدر ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئا ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط فإذا كان الليل قيام على أقدامهم يفرشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فسكك رقابهم كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يفرزها لهم فلم يزالوا على ذلك ووالله ما سلوا من الذنوب ولا نجوا إلا بالفرقة رحمة الله عليهم ورضوانه .

(بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه وإلى الرغبة عنه وإلى الرغبة فيه)
اعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث: الدرجة الأولى وهي السفلى منها أن يزهد في الدنيا وهو لها مشتة وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ولكنه يجاهد ما يكفها وهذا يسمى التزهد وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد والتزهد يذيب أولانسه ثم كيبه والزهاد أو لا يذيب كيبه ثم يذيب نفسه في الطاعات لافي الصبر على ما فارقه والتزهد على خطر فانه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير . الدرجة الثانية : التي يترك الدنيا طوعا لاستحقاقه إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالذي يترك درهما لأجل درهمين فانه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل ولكن هذا الزاهد يرى لاحالة زهده وبلتفت إليه كما يرى البائع للبيع وبلتفت إليه فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده ووظن في نفسه أنه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرا منه وهذا أيضا نقصان . الدرجة الثالثة: وهي العليا أن يزهد طوعا ويزهد في زهده فلا يرى زهده إذ لا يرى أنه ترك شيئا إذ عرف أن الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تاركا شيئا والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ونعيم الآخرة أحسن من خزفة بالإضافة إلى جوهرة فهذا هو الكمال في الزهد وسببه كمال المعرفة

(١) حديث إن الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا الحديث تقدم .

وله اللك فليهم الخير عند ذلك وتحرك للشر ومن حركتها تظهر ظلمة في القلب فيرى الشيطان الظلمة فيقبل بالاغواء ويحث وجدت أقوال الشايع تشير إلى الروح أقول : ما عندي في ذلك على معنى ما ذكرت من التأويل دون أن أقطع به إذ مبلى في ذلك إلى السكوت والامساك فأقول والله أعلم : الروح الانساني العلوي السناوي من عالم الأمر والروح الحيواني البشري من عالم الخلق والروح الحيواني البشري هل الروح العلوي ومسوره والروح

ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا كما أن تارك الخزفة بالجوهرة آمن من طلب الاقالة في البيع . قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبي موسى عبد الرحيم في أى شئ تتكلم ؟ قال في الزهد قال في أى شئ ؟ قال في الدنيا فنفض يده وقال ظننت أنه يتكلم في شئ^١ والدنيا لا شئ^٢ إيش زهد فيها ومثل من ترك الدنيا للأخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب العمورة بالمجاهدات والكاشفات مثل من منحه من باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشطه بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى أنفذ أمره في جميع مملكته أقرى أنه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ماقد ناله فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فلذتها في حال المضغ وتنقض على القرب بالابتلاع ثم يبقى نعلها في المعدة ثم تنهى إلى التنين والتقدر ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثفل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها ونسبة الدنيا كلها أعنى ما يسلم لكل شخص منها وإن عمر مائة سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا إذ لا نسبة للمتاهي إلى ماله نهاية له والدنيا متناهية على القرب ولو كانت تسمى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لانسبة لها إلى نعيم الأبد فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدره غير صافية فأى نسبة لها إلى نعيم الأبد فاذن لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى ما زهد فيه ولا يلتفت إلى ما زهد فيه إلا لأنه يراه شيئاً معتداً به ولا يراه شيئاً معتداً به إلا لقصور معرفته بسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة فهذا تفاوت درجات الزهد وكل درجة من هذه أيضاً لها درجات إذ تصبر للزهد يختلف ويتفاوت أيضاً باختلاف قدر الشقة في الصبر وكذلك درجة للعجب زهده بقدر التفاته إلى زهده . وأما أقسام الزهد بالإضافة إلى الرغبة فيه فهو أيضاً ثلث درجات: الدرجة السفلى أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كمناب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار إذ فيها « إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعر عطاشا على عرقه لصدرت رواء^(١) » فهذا هو زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا فإن الخلاص من الألم يحصل بمجرد عدم الدرجة الثانية أن زهد رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات للوعدة في جنته من الحور والقصور وغيرها وهذا زهد الراجين فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرمداً لا آخر له . الدرجة الثالثة وهي العليا أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها بل هو مستغرق الهم بالله تعالى وهو الذي أصبح وهو مومئ^٣ واحد وهو للوحد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى لأن من طلب غير الله فقد عبده وكل مطلوب معبود وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه وطلب غير الله من الشرك الخفى وهذا زهد المحبين وهم العارفون لأنه لا يجب الله تعالى خاصة إلا من عرفه وكما أن من عرف الدينار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يجب إلا الدينار فكذلك من عرف الله وعرف قوة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أن الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التمتع بالحور العين

(١) حديث إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعر عطاشا على عرقه لصدرت رواء أحمد من حديث ابن عباس التقي مؤمنان على باب الجنة مؤمن غنى ومؤمن فقير الحديث وفيه إني حبست بعدك محبسا فظيما كرها ما وصلت إليك حتى سال مني العرق ما لوورده ألف بعرأ كلة حمض لصدرت عنه رواء وفيه دريد غير منسوب يحتاج إلى معرفته قال أحمد حديثه مثله .

الحيوانى جسمانى لطيف
حامل لقوة الحس
والحركة ينبعث من
القلب أعنى بالقلب
هنا الضغطة اللحمية
العروفة الشكل للوعدة
في الجانب الأيسر
من الجسد وينتشر
في تجاويف العروق
الضوارب وهنـه
الروح لسائر الحيوانات
ومنه تفيض قوى
الحواس وهو الذى
قوامه باجراء سنة الله
بالفداء غالبا ويتصرف
بعلم الطب فيه
باعتدال مزاج الأخلاط
ولورود الروح الانسانى
العلوى على هذا
الروح تجنس الروح
الحيوانى وبابن
أرواح الحيوانات

والنظر إلى نفس القصور وخضرة الأشجار غير ممكن فلا يجب إلالة النظر ولا يؤثر غيره ولا تظن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور منع في قلوبهم بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به والطلبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك لأن اللعب بالعصفور في نفسه أطل وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق . وأما اتقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نستغل بتقل الأقاويل ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أن أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الاحاطة بالكل . فنقول: للمرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل وتفصيله مراتب بعضها أشرح لأحد الأقسام وبعضها أجمال للعجل . أما الاجمال في الدرجة الأولى فهو كل ما سوى الله فينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد في نفسه أيضا ، والاجمال في الدرجة الثانية أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها ، وفي الدرجة الثالثة أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس ، وفي الدرجة الرابعة أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه ، وإذا الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم ، والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأغنى به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب ، إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبغ من هذا فيكاد يخرج مافيه الزهد عن الحصر وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها قال - زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والحيل المسومة والأنعام والحراث ذلك متاع الحياة الدنيا - ثم رده في آية أخرى إلى خمسة فقال عز وجل - اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد - ثم رده تعالى في موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى - إنما الحياة الدنيا لعب ولهو - ثم رد الكل إلى واحد في موضع آخر فقال - ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى - فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا فينبغي أن يكون الزهد فيه وإدافهت طريق الاجمال والتفصيل عرفت أن البعض من هذه لا يخالف البعض وإنما يفارقه في الشرح مرة والاجمال أخرى . فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمه لاحالة لأنه إنما يريد البقاء ليتمتع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء فان من أراد شيئا أزد دوامه ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو يمكن في هذه الحياة فاذا رغب عنها لم يردها ولذلك لما كتب عليهم القتال - قالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب - فقال تعالى - قل متاع الدنيا قليل - أي لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال الناقين . أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وإنظروا إحدى الحسينين وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستشفقون رأحة الجنة ويبادرون إليه مبادرة الظمان إلى الماء البارد حرصا على نصرة دين الله أو نيل رتبة الشهادة وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة حتى إن خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول كم غررت بروحي وهجمت على الصوف طمعا في الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز فلما مات عد على جسده ثمانمائة نقيب من آثار الجراحات هكذا كان حال الصادقين في الإيمان رضى الله تعالى عنهم أجمعين

واكتسب صفة أخرى صار تفاعلا للنطق والالهام قال الله تعالى - ونس وما سواها فألمها فجورها وتقواها - فتسويتها بورود الروح الانساني عليها واقطاعها عن جنس ارواح الحيوانات فتكونت النفس بتكوين الله تعالى من الروح العلوي وصار تكون النفس التي هي الروح الحيواني من الآدمي من الروح العلوي في عالم الأمر كتكون حواء من آدم في عالم الخلق وصار بينهما من التألف والتعاشق كما بين آدم وحواء وصار كل واحد منهما يفوق للوت

وأما الناقون ففروا من الزحف خوفا من الموت قليل لهم - إن الموت الذي تفرون منه فانه ملائكم - فايتارم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير فأولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فارتحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . وأما المخلصون فان الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة فطارأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلا أو ثلاثين سنة بتمتع الأبد استبشروا بيمينهم الذي باعوا به فهذا بيان الزهود فيه ، وإذا فهمت هذا علمت أن ما ذكره للتكلمون في حدّ زهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم ما رآه غالبا على نفسه أو على من كان يحاط به فقال بسر رحمه الله تعالى الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس ، وهذا إشارة إلى الزهد في الجاه خاصة . وقال قاسم الجوعى الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف فبقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد ، وهذا إشارة إلى الزهد في شهوة واحدة ، ولعمري هي أغلب الشهوات على الأكثر وهي الشهوة لأكثر الشهوات . وقال الفضيل الزهد في الدنيا هو القناعة وهذا إشارة إلى المال خاصة . وقال الثوري الزهد هو قصر الأمل وهو جامع لجميع الشهوات فان من يميل إلى الشهوات يحدث نفسه بالبقاء فيطول أمله ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها . وقال أويس إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه وما قصد بهذا حدّ الزهد ولكن جعل التوكل شرطاً في الزهد . وقال أويس أيضا الزهد هو ترك الطلب للمضمون وهو إشارة إلى الرزق . وقال أهل الحديث الدنيا هو العمل بالرأى والمقول والزهد إتباع العلم ولزوم السنة وهذا إن أريد به الرأى الفاسد والمقول الذي يطلب به الجاه في الدنيا فهو صحيح ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة أو إلى بعض ما هو من فضول الشهوات فان من العلوم ما لا فائدة فيه في الآخرة وقد طوّ لوها حتى يتقضى عمر الانسان في الاشتغال بواحد منها فشرط الزاهد أن يكون الفضول أوّل مرغوب عنه عنده ، وقال الحسن الزاهد الذي إذا رأى أحدا قال هذا أفضل مني فذهب إلى أن الزهد هو التواضع وهذا إشارة إلى نفي الجاه والمعجب وهو بعض أقسام الزهد وقال بعضهم الزهد هو طلب الحلال ، وأين هذا ممن يقول الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس ، ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال وقد كان يوسف بن أسباط يقول من صبر على الأذى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد ، وفي الزهد أقاويل وراء ما نقلناه فلم نترقى قلها فائدة فان من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رآها مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة وأما من انكشف له الحق في نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا يتلقف من سمعه فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور في البصيرة لكنهم ذكروا ما ذكروه عند الحاجة فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف وقد يكون سبب الاقتصار الاخبار عن الحالة الرهنة التي هي مقام العبد في نفسه والأحوال تختلف فلا جرم الأقوال المبهمة عنها تختلف ، وأما الحق في نفسه فلا يكون إلا واحدا ولا يتصور أن يختلف وإنما الجامع من هذه الأقاويل الكامل في نفسه وان لم يكن فيه تفصيل مقاله أبو سليمان الداراني إذ قال سمعنا في الزهد كلاما كثيرا والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل وقد فصل مرة وقال من تزوج أو سافر في طلب العيشة أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا فجعل جميع ذلك ضدّا للزهد ، وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى - إلا من أتى الله بقلب سليم - فقال هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى وقال إنما زهدوا في الدنيا لفرغ قلوبهم من همومها للآخرة ، فهذا بيان أقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف الزهود فيه ، فأما بالإضافة إلى أحكامه فيقسم إلى فرض وهل وسلامة كما قاله إبراهيم بن آدم فالفرض هو الزهد في الحرام والنفل هو الزهد في الحلال والسلامة هو الزهد في الشبهات . وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع في كتاب الحلال

بغفارة صاحبه قال الله تعالى - وجعل منها زوجا ليسكن إليها - فسكن آدم إلى حواء وسكن الروح الانساني العلوي إلى الروح الحيواني وصيره نفسا وتكون من سكنون الروح إلى النفس القلب وأعني بهذا القلب اللطيفة التي عملها اللبنة للحمية فاللبنة اللبنة من عالم الخلق وهذه اللبنة من عالم الأمر وكان تكون القلب من الروح والنفس في عالم الأمر كتكون الفرية من آدم وحواء في عالم الخلق ولولا الساكنة بين الزوجين اللذين أحدهما النفس ماتكون القلب فمن

والحرام وذلك من الزهد إذ قيل لمالك بن أنس ما الزهد قال التقوى ، وأما بالاضافة إلى خفايا ما يتركه فلانهاية للزهد فيه إذ لانهاية لما تمتع به النفس في الحطرات واللحظات وسائر الحالات لاسيا خفايا الرياء فان ذلك لا يطلع عليه إلا محاسرة العلماء بل الأموال الظاهرة أيضا درجات الزهد فيها لا تنهاه فمن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام إذ توعد حبرا في نومه فقال له الشيطان أما كنت تركت الدنيا لما الذي بدالك قال وما الذي تجد قال توعدك الحجر . أي تنعمت برفع رأسك عن الأرض في النوم فرمى الحجر وقال خذ مع ماركته لك ، وروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه لبس السوج حتى تقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس واستراحة حس اللبس فسأته أمه أن يلبس مكان السوج جبة من صوف فضلع فأوحى الله تعالى إليه يا يحيى آثرت على الدنيا فبكي ونزع الصوف وعاد إلى ما كان عليه ، وقال أحمد رحمه الله تعالى الزهد زهد أويس بلغ من العريان أن جلس في قوصرة وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط فقال ما أنتي أنت إنما أقامني الذي لم يرض لي أن أتم بظل الحائط فاذن درجات الزهد ظاهرا وباطنا لا حصر لها وأقل درجاته الزهد في كل شعبة ومحظور ، وقال قوم الزهد هو الزهد في الحلال لا في الشبهة والمحظور فليس ذلك من درجاته في شيء ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنيا فلا يتصور الزهد الآن . فان قلت مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ماسوى الله فكيف يتصور ذلك مع الأكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالتهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى . فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الاقبال بكل القلب عليه ذكر أو فكريا ولا يتصور ذلك إلا مع البقاء ولا بقاء إلا بضروريات النفس فهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلا بغير الله فان ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه المشتغل بملف الناقه وسبقها في طريق الحج ليس معرضا عن الحج ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج ولا غرض لك في تنعم ناقتك باللذات بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصدك فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش للمهلك بالأكل والشرب وعن الحر والبرد المهلك باللباس والسكن فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقتصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى فذلك لا يناقض الزهد بل هو شرط الزهد . وإن قلت فلا بد وأن أتلذذ بالأكل عند الجوع . فاعلم أن ذلك لا يضرك إذا لم يكن قصدك التلذذ فان شارب الماء البارد قد يستلذذ بالشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش ومن يقضى حاجته قد يستريح بذلك ولكن لا يكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد فلا يكون القلب منصرفا إليه فالإنسان قد يستريح في أيام الليل بتنسم الأسحار وصوت الأطيبار ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة لما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره ولقد كان في الخائفين من طلب موضعا لا يصيبه فيه نسم الأسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه فيكون فيه أنس بالدنيا وتنصان في الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله ولذلك كان داود الطائي له جب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس ويشرب الماء الحار ويقول من وجد قلة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا ، فهذه مخاوف المحتاطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط فانه وإن كان شاقا فثدته قريبة والاحتفاء مدة يسيرة للتنعم على التأيد لا يتقل على أهل المعرفة القاهرين لأقسام سياسة الشرع للتعصمين بمرورة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

(بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة)

اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم فالفضول كالحيل السوسة مثلا إنقلب الناس

القلوب قلب متطلع إلى الأب الذي هو الروح العلوى مبال إليه وهو القلب المؤيد الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه حذيفة رضى الله عنه قال : القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهو فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الايمان فيمثل البقلة يدها للماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يدها القيح والصديد فأى المادتين

إنما يقتنيتها لثمنه ركوها وهو قادر على الشيء واللهم كالأكل والشرب ولنا تقدر على تفصيل أصناف الفضول فان ذلك لا ينحصر وإنما ينحصر المهم الضروري واللهم أيضا يتطرق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته فلا بد من بيان وجه الزهد فيه والمهمات ستة أمور : اللطم واللبس والسكن وأثامه والنكح والسال والجاه يطلب لأغراض وهذه الستة من جملة ما وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له وكيفية الاحتراز منه في كتاب الرياء من ربيع المهلكات ونحن الآن تقتصر على بيان هذه المهمات الستة [الأول اللطم] ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم صلته ولكن له طول وعرض فلا بد من قبض طول وعرضه حتى يتم به الزهد فأما طولها فبالإضافة إلى جملة العمر فان من يملك طعام يومه فلا يفتن به وأما عرضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله وأما طولها فلا يقصر إلا بقصر الأمل وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند عدة الجوع وخوف المرض ومن هذا حاله فاذا استقل بما تناوله لم يدخر من غذائه لعشائه وهذه هي الدرجة العليا . الدرجة الثانية : أن يدخر لشهر أو أربعين يوما . الدرجة الثالثة : أن يدخر لسنة فقط وهذه رتبة ضفاء الزهاد ومن ادخر لأكثر من ذلك فتمسحته زاهدا محال لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدا فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يمرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس كداود الطائي فإنه ورث عشرين دينارا فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا اعتماد من جعل التوكل شرط الزهد وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار وأقل درجاته في اليوم واليلة نصف رطل وأوسطه رطل وأعلى مدته واحد وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفارة وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت ولو الخبز من النخالة وأوسطه خبز الشعير والذرة وأعلى خبز البر غير منخول فاذا ميز من النخالة وصار حواري فقد دخل في التتم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله وأما الأدم فأقله للحم أو البقل والحل وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أي دهن كان وأعلى اللحم أي لحم كان وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين فان صار دائما أو أكثر من مرتين في الأسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدا في البطن أصلا وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله في اليوم واليلة مرة وهو أن يكون صائما وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ويأكل ليلة ولا يشرب وأعلى أن يتمنى إلى أن يطوى ثلاثة أيام أو أسبوعا وما زاد عليه وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربيع للهلكات ولنظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية زهدهم في الطعام وركهم الأدم قالت عائشة رضي الله تعالى عنها « كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار قيل لها فهم كنتم تعيشون قالت بالأصوين التمر والماء (١) » وهذا ترك اللحم والبرق والأدم . وقال الحسن « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ويلبس الصوف ويتعل الخوص ويلبغ أصابعه ويأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد أكل كما تأكل العبيد وأجلس كما تجلس العبيد (٢) » وقال المسيح عليه السلام بحق أقول لكم إنه من طلب الفردوس فغزب الشعير له والنوم على الزابل مع الكلاب كثير . وقال الفضيل

غلبت عليه حكم له
بها والقلب للنكوس
ميل إلى الأم التي هي
النفس الأمارة بالسوء
ومن القلوب قلب
متردد في ميله إليها
وبحسب غلبة ميل
القلب يكون حكمه
من السعادة والشقاوة
والعقل جوهر الروح
العالي ولسانه والبال
عليه وتديره للقلب
المؤيد والنفس الركية
الطمثنة تدير الوالد
للولد البار والزوج
للزوجة الصالحة
وتدبيره للقلب
النكوس والنفس
الأمارة بالسوء تدير
الوالد للولد العاق
والزوج للزوجة السيئة
فنكوس من وجه

(١) حديث عائشة كانت تأتي أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار الحديث ابن ماجه من حديث عائشة كان يأتي على آل محمد الشهر ما يرى في بيت من بيوتهم دخان الحديث وفي رواية له ما يوقد فيه نار ولأحمد كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوتهم نار وفي رواية له ثلاثة أهلة (٢) حديث الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار

ما شيع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر (١). وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول: يا بني إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البرى وخبز الشعير وإياكم وخبز البر فانكم لن تقوموا بشكره وقد ذكرنا سيرة الأنبياء والسلف في المطعم والشرب في ربيع المهلكات فلانعيده ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء آتوه بشربة من لبن مشوبة بصل فوضع القدح من يده وقال «أما إنى لست أحرمه ولكن أركه تواضعاً لله تعالى» (٢) وآتى عمر رضى الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال اعزلوا عنى حسابها وقد قال يحيى بن معاذ الرازى الزاهد الصادق قوته ما وجد ولباسه ما ستر ومسكنه حيث أدرك الدنيا سجنه والقبر مضجعه والحلوة مجلسه والاعتبار فكرته والقرآن حديثه والرب أنيسه والذكر رفيقه والزهد قرينه والحزن شأنه والحياة شعاره والجوع إدامه والحكمة كلامه والتراب فراشه والتقوى زاده والصمت غنيمته والصبر معتمده والتوكل حسبه والعقل دليله والعبادة حرفه والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى [المهم الثانى] اللبس وأقل درجته ما يدفع الحرّ والبرد ويستر العورة وهو كساء يتغطى به وأوسطه قميص وقلنسوة ونعلان وأعله أن يكون معه منديل وسراويل وماجاوز هذا من حيث القدر فهو مجاوز حدّ الزهد وشرط الزاهد أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه بل يلزمه القمود في البيت ، فإذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد من حيث القدر ، أما الجنس فأقله المسوح الجشنة وأوسطه الصوف الحشن وأعله القطن الغليظ ، وأما من حيث الوقت فأقصاه ما يستر سنة وأقله ما يبقى يوماً حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه وأوسطه ما يتماسك عليه شهراً وما يقاربه فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل وهو مضادّ للزهد إلا إذا كان المطلوب خشوته ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه فمن وجد زيادة من ذلك فينبغى أن يتصدق به فان أمسكه لم يكن زاهداً بل كان مجابلاً للدنيا ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس قال أبو بردة أخرجت لنا عائشة رضى الله تعالى عنها كساء ملبداً وإزاراً غليظاً فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين (٣) وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يحب المتبذل الذى لا يبالي ما لبس» (٤) وقال عمرو بن الأسود العنسى لا لبس مشهوراً أبداً ولا أنام بليل على دثار أبداً ولا أركب على ما تور أبداً ولا أملاً جوفى من طعام أبداً فقالت عمر من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود (٥) وفي الخبر «ما من عبد لبس ثوب شهرة إلا أعرض الله عنه حتى يزرعه وإن كان عنده حبيبا (٦) واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم (٧)

ومنجذب إلى تديرها من وجه إذ لا بد له منها وقول القائلين واختلافهم في محل العقل فمن قائل إن محل الدماغ ومن قائل إن محل القلب كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك واختلافهم في ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد وانجذابه إلى البارئارة وإلى العاقى أخرى وللقلب والدماغ نسبة إلى البار والعاق فاذا روى في تدير العاق قيل مسكنه الدماغ وإذا روى في تدير البار قيل مسكنه القلب فالروح العلوى بهم بالارتفاع إلى مولاه شوقاً وحنواً ونزهاً

الحديث تقدم دون قوله إنما أنا عبد فإنه ليس من حديث الحسن إنما هو من حديث عائشة وقد تقدم (١) حديث ما شيع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر تقدم (٢) حديث لما أتى أهل قباء آتوه بشربة من لبن بصل فوضع القدح من يده الحديث تقدم (٣) حديث أخرجت عائشة كساء ملبداً وإزاراً غليظاً فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين (٤) حديث إن الله يحب المتبذل الذى لا يبالي ما لبس لم أجده أصلاً (٥) حديث عمر من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود رواه أحمد بإسناد جيد (٦) حديث ما من عبد لبس ثوب شهرة الحديث ابن ماجه من حديث أنى ذرّ بإسناد جيد دون قوله وإن كان عنده حبيبا (٧) حديث اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم أبو يعلى من حديث أبي هريرة قال

وكانت قيمة ثوبه عشرة (١). وكان إزاره أربعة أذرع ونصفا (٢). واشترى سراويل بثلاثة دراهم (٣). وكان يلبس فمكتين يضاوين من صوف (٤) وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ وفي الخبر كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قميص زيات (٥). ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سيرا من سندس قيمته مائتا درهم (٦) فكان أصحابه يلسونه ويقولون يا رسول الله أنزل عليك هذا من الجنة تهجبا وكان قد أهدها إليه للقوقس ملك الاسكندرية فأراد أن يكرمه بلبسه ثم نزع وأرسل به إلى رجل من الثركين وصله به ثم حرم لبس الحرير والديباج وكانه إنما لبسه أو لا تأكيدا للتحريم كما لبس خاتما من ذهب يوم ماتم نزع (٧) فحرم لبسه على الرجال وكما قال لعائشة في شأن بريرة اشتطى لأهلها الولاء (٨) فلما اشترطته صعد عليه السلام للبر فحرمه وكما أباح التمتع ثلاثا ثم حرمها لتأكيد أمر النكاح (٩) وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خميسة لها علم فلما سلم قال شغافى النظر إلى هذه اذهبوا بها إلى أبي جهم واتتوني بأبجانيته (١٠) يعنى كساءه فاختر لبس الكساء على الثوب الناعم وكان شر الكفلة قد أخلق فأبدل بغير جديد صلى فيه فلما سلم قال أعيذوا الشراك الخلق واتزعوها هذا الجديد فأنى نظرت إليه في الصلاة

دخلت يوما السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس إلى البرازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم الحديث وإسناده ضعيف (١) حديث كان قيمة ثوبه عشرة دراهم لم أجده (٢) حديث كان إزاره أربعة أذرع ونصفا أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عروة بن الزبير مرسلان كان رداء رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع ، وعرضه ذراعان ونصف الحديث وفيه ابن لهيعة . وفي طبقات ابن سعد من حديث أبي هريرة كان له إزار من نسج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر ، وفيه محمد بن عمر الواقدي (٣) حديث اشترى سراويل بثلاثة دراهم للمعروف أنه اشترى بأربعة دراهم كما تقدم عند أبي يعلى وشراؤه السراويل عند أصحاب السنن من حديث سويد بن قيس إلا أنه لم يذكر فيه مقدار ثمنه قال الترمذي حسن صحيح (٤) حديث كان يلبس فمكتين يضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ تقدم في آداب وأخلاق النبوة لبسه للشملة والبرد والخبرة . وأما لبسه الحلة ففي الصحيحين من حديث البراء رأته في حلة حمراء ولأبي داود من حديث ابن عباس حين خرج إلى الحرورية وعليه أحسن ما يكون من حلة اليمن وقال رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحلة وفي الصحيحين من حديث عائشة أنه صلى الله عليه وسلم قبض في ثوبين أحدهما إزار غايظهما يصنع باليمن وتقدم في آداب العيشة ولأبي داود والترمذي والنسائي من حديث أبي رثة وعليه بردان أخضران سكت عليه أبو داود واستغربه الترمذي والبراز من حديث قدامة الكلبي وعليه حلة حبرة وفيه عريف بن إبراهيم لا يعرف قاله الذهبي (٥) حديث كان قيمته كأنه قميص زيات الترمذي من حديث أنس بسند ضعيف كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحبته حتى كأن ثوبه ثوب زيات (٦) حديث لبس يوما واحدا ثوبا سيرا من سندس قيمته مائتا درهم أهدها له القوقس ثم نزع الحديث (٧) حديث لبس يوما خاتما من ذهب [١] ثم نزع متفق عليه وقد تقدم (٨) حديث قال لعائشة في شأن بريرة اشتطى لأهلها الحديث متفق عليه من حديثها (٩) حديث أباح التمتع ثلاثا ثم حرمها مسلم من حديث سلمة بن الأكوع (١٠) حديث صلى في خميسة لها علم الحديث متفق عليه وقد تقدم في الصلاة.

[١] قول العراقي ثم نزع الحديث هكذا في النسخ بغير ذكر راو ولم يتكلم عليه الشارح فليظنراه .

عن الأكواع ومن
الأهكوان القلب
والنفس فاذا ارتقى
الروح يحنو القلب إليه
حنو الولد الحنين
البار إلى الوالد وحن
النفس إلى القلب الذي
هو الولد حين الولادة
الحنينة إلى ولدها وإذا
حننت النفس ارتقت
من الأرض واتزوت
عروقها الضاربة في
العالم السفلى وأنطوى
هواها وانحسنت
مادته وزهدت في الدنيا
وتجافت عن دار
الغرور وأنابت إلى دار
الخلود وقد تخلد النفس
التي هي الأم إلى
الأرض بوضعها الجبلى
لتسكنها من الروح
الجوانى الجنس

«ولبس خاتما من ذهب ونظر إليه على للنبر نظرة فرمى به فقال شغلنى هذا عنكم نظرة إليه ونظرة إليكم^(١)». «وكان صلى الله عليه وسلم قد احتدى مرة نعلين جديدين فأعجبه حسنهما فخر ساجدا وقال : أهينى حسنهما فتواضعت لى خشية أن يعقبنى ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه^(٢)» وعن سنان بن سعد قال حكيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أعمار وجلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال «انظروا ما أحسنها وما أليتها قال أقام إليه أعرابي فقال يا رسول الله هب لى وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئا لم يبخل به قال فدفعتها إليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى فمات صلى الله عليه وسلم وهى فى المذاكرة^(٣)» وعن جابر «قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضى الله تعالى عنها وهى تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الابل فلما نظر إليها بكى وقال يا فاطمة تجرعى حرارة الدنيا لنعيم الأبد فأنزل الله عليه وسوف يعطيك ربك فترضى^(٤)» وقال صلى الله عليه وسلم «إن من خيار أمتى فى آبائى للالأطى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله تعالى ويكون سرا من خوف عذابه مؤتمهم على الناس خيفة وعلى أنفسهم ثقيلة يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان أجسامهم فى الأرض وأقدتهم عند العرش^(٥)» فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اللابس «وقد أوصى أمتة عامة باتباعه إذ قال «من أحبني فليستن بسننى^(٦)» وقال «عليكم بسننى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى عضوا عليها بالواجذ^(٧)» وقال تعالى - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله - «وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها خاصة وقال إن أردت اللحق بى فإياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعى ثوبا حتى ترقية^(٨)» وعد على قميص عمر رضى الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من آدم واشترى على بن أبى طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم. ولبسه وهو فى الخلافة وقطع كية من الرمنين وقال الحمد لله الذى كسانى هذا من ريشه. وقال الثورى وغيره البس من الثياب ما لا يشرك عند العلماء ولا يعمرك عند الجهال وكان يقول إن الفقير ليربى وأنا أصلى فأدعه بجوز ويمر بى واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البرة فأمقته ولا أدعه بجوز. وقال بعضهم قومت نوبى سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوايق. وقال ابن شبرمة خير ثيابى ما خدمنى وشرها ما خدمته. وقال بعض السلف : البس من الثياب ما مخلطك بالسوقة ولا تلبس منها ما يشرك فينظر إليك. وقال أبو سليمان الداراني : الثياب ثلاثة ثوب لله وهو ما يستر العورة وثوب للنفس وهو ما يطلب لينة وثوب للناس وهو ما يطلب جوهره وحسنه. وقال بعضهم من رقى ثوبه رقى دينه

(١) حديث لبس خاتما فنظر إليه على للنبر فرمى به وقال شغلنى هذا عنكم الحديث تقدم (٢) حديث احتدى نعلين جديدين فأعجبه حسنهما الحديث تقدم (٣) حديث سنان بن سعد حكيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أعمار الحديث أبو داود الطيالسى والطبرانى من حديث سهل بن سعد دون قوله وأمر أن يحاك له واحدة أخرى فهى عند الطبرانى فقط وفيه زمعة بن صالح ضعيف ويقع فى كثير من نسخ الإحياء سيار بن سعد وهو غلط (٤) حديث جابر دخل على فاطمة وهى تطحن بالرحى الحديث أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق باسناد ضعيف (٥) حديث إن من خيار أمتى فى آبائى للأطى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم ويكون سرا من خوف عذابه الحديث تقدم وهو عند الحاكم والبيهقى فى الشعب وضعفه (٦) حديث من أحبني فليستن بسننى تقدم فى التلخيص (٧) حديث عليكم بسننى وسنة الخلفاء الراشدين الحديث أبو داود والترمذى وصححه وابن ماجه من حديث العرياض بن سارية (٨) حديث قال لعائشة إن أردت اللحق بى فإياك ومجالسة الأغنياء

ومستندها فى ركوبها إلى الطباع التى هى أركان العالم السفلى . قال الله تعالى - ولو شئنا لرضناها ولكنها أشهد إلى الأرض واتبع هواه - فاذا سكنت النفس التى هى الأم إلى الأرض انجذب إليها القلب للنكوس انجذاب الولد للوالد إلى الوالدة للعوجة الناقصة دون الوالد الكامل للستقيم وتنجذب الروح إلى الولد الذى هو القلب لما جبل عليه من انجذاب الوالد إلى ولده فعد ذلك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولاه وفى هذين الانجذابين يظهر حكم السعادة والشقاوة

وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم مابين العشرين إلى الثلاثين درهما وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين قميص ومئزر تحته وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه . وقال بعض السلف أول الناس الذي وفى الخبر « البذاعة من الايمان » وفى الخبر « من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعا لله تعالى وابتغاء لوجهه كان حقا على الله أن يدخر له من عمقرى الجنة فى تحت الياقوت » وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه قل لأوليائى لا يلبسوا ملابس أعدائى ولا يدخلوا مداخل أعدائى فيكونوا أعدائى كما هم أعدائى وانظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ فقال انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق وكان عليه ثياب رفاق وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أنى ذر فى بزته فجعل يتكلم فى الزهد فوضع أبو ذر راحته على فيه وجعل يضرب به قفص ابن عامر فشكاه إلى عمر فقال أنت صنعت بنفسك تتكلم فى الزهد بين يديه بهذه البزّة وقال على كرم الله وجهه إن الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا فى مثل أدنى أحوال الناس ليقضى بهم النفسى ولا يزى بالقصير فقره ولما عوتب فى خشونة لباسه قال هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقتدى به السلم ونهى صلى الله عليه وسلم عن التمتع وقال « إن لله تعالى عبادا ليسوا بالمتتمين (١) » ورؤى فضالة بن عبيد وهو والى مصر أشعث حافيا قليل له أنت الأمير وتفعل هذا فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاه وأمرنا أن نحتفى أحيانا (٢) . وقال على لعمر رضى الله عنهما إن أردت أن تلحق بصاحبك فارقع القميص ونكس الإزار واخضف النعل وكل دون الشبع وقال عمر اخشوشنوا وإياكم وزى العجم كسرى وقبصر . وقال على كرم الله وجهه من زيا بزى قوم فهو منهم وقال رسول الله ﷺ « إن من شرار أمتى الذين غدوا بالنعيم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتصدقون فى الكلام (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكمين وما أسفل من ذلك فى النار ولا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا (٤) » وقال أبو سليمان الداراني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يلبس الشعر من أمتى إلا مرأ أو أحق (٥) » وقال الأوزاعى لباس الصوف فى السفر سنة وفى الحضرة بدعة ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف فقال له قتيبة ماداك إلى مدرعة الصوف فسكت فقال أكلك ولا تجيبى فقال أكره أن أقول زهدا فأزكى نفسى أو تقرا فأشكروا وقال أبو سليمان لما اتخذ الله إبراهيم خيلا أوحى إليه أن وار عورتك من الأرض وكان لا يتخذ من كل شئ إلا واحدا سوى السراويل فإنه كان يتخذ سراويلين فاذا غسل أحدهما لبس

الترمذى وقال غريب والحاكم ومصححه من حديث عائشة وقد تقدم (١) حديث نهى عن التمتع وقال إن لله عبادا ليسوا بالمتتمين أحمد من حديث معاذ وقد تقدم (٢) حديث فضالة بن عبيد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاه [١] وأمرنا أن نحتفى أحيانا أبو داود باسناد جيد (٣) حديث إن من شرار أمتى الذين غدوا بالنعيم الحديث الطبراني من حديث أبي أمامة باسناد ضيف سيكون رجال من أمتى يأكلون ألوان الطعام الحديث وآخره أولئك شرار أمتى وقد تقدم (٤) حديث أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه الحديث مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد ورواه أيضا النسائي من حديث أبي هريرة قال محمد بن يحيى الذهلى كلا الحديثين محفوظ (٥) حديث أبي سليمان لا يلبس الشعر من أمتى إلا مرأ أو أحق لم أجده له إسنادا .

[١] الإرفاه بكسر الهمزة ثم راء ساكنة ثم فاء مقصورة ثم هاء وليست بتاء : التدهن والترجيل كل يوم . وقيل التوسع فى الطعم والمشرى برهقان اه .

- ذلك تقدير العزيز
الطيب - . وقد ورد
فى أخبار داود عليه
السلام أنه سأل ابنه
سليمان أين موضع العقل
منك قال القلب لأنه
قالب الروح والروح
قالب الحياة . وقال
أبو سعيد القرشى
الروح روحان روح
الحياة وروح المات فاذا
اجتمعا عقل الجسم
وروح المات هى التى إذا
خرجت من الجسد
يصير الحى ميتا وروح
الحياة ما به مجارى
الأنفاس وقوة الأكل
والشرب وغيرها ،
وقال بعضهم : الروح
نسيم طيب يكون به
الحياة والنفس ريح
حارة تكون منها

الآخر حتى لا يأتي عليه حال الإلوةورته مستورة ، وقيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه مالك تلبس الجيد من الثياب فقال وما للعبد والثوب الحسن فاذا عتق قلبه والله ثياب لا تبلى أبدا ، وروى عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أنه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل إذا قام يصلي ، وقال الحسن لفرقد السبخي تحسب أن لك فضلا على الناس بكسائك بلفظي أن أكثر أصحاب النار أصحاب الأكسية نفاقا . وقال يحيى بن معين : رأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الحرق من الزابل ويسلمها ويلفها ويلبسها قلت إنك تكسى خيرا من هذا فقال ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة فجعل يحيى بن معين يحدث بها ويكفي [اللهم الثالث] للسكن وللزهد فيه أيضا ثلاث درجات : أعلاها أن لا يطلب موضعا خاصا لنفسه فيقتنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة وأوسطها أن يطلب موضعا خاصا لنفسه مثل كوخ مبنى من سقف أو خص أو ما يشبهه وأدناها أن يطلب حجرة مبنية إما بشراء أو إجازة فان كان قدر سعة السكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرج هذا القدر عن آخر درجات الزهد فان طلب التشييد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالسكينة حد الزهد في السكن فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو بالطين أو بالأجر واختلاف قدره بالسعة والضيق واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات بأن يكون مملوكا أو مستأجرا أو مستعارا وللزهد مدخل في جميع ذلك وبالجملة كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الضرورة وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين والغرض من السكن دفع اللط والبرد ودفع الأعين والأذى وأقل الدرجات فيه معلوم وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطلب الفضول والساعي له بعيد من الزهد جدا وقد قيل أول شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التدريز والتشييد يعني بالتدريز كف دروز الثياب فانها كانت تشل شلا والتشييد هو البنيان بالجص والأجر وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد (١) وقد جاء في الخبر « يأتي على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود الجمانية » وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن يهدم عليه كان قد علاها (٢) « ومروا عليه السلام بمجنونة معلقة فقال لمن هذه قالوا لفلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أصحابه عن تغير وجهه صلى الله عليه وسلم فأخبر فذهب فهدمها فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير (٣) » وقال الحسن « مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لينة على لينة ولا تصبة على تصبة (٤) »

(١) حديث كانت الثياب تشل شلا وكانوا يبنون بالسعف والجريد أما شل الثياب من غير كف فروى الطبراني والحاكم أن عمر قطع ما فضل عن الأصابع من غير كف وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما البناء ففي الصحيحين من حديث أنس في قصة بناء مسجد المدينة فسفوا النخل قبل المسجد وجعلوا عضادته الحجارة الحديث ولهما من حديث أبي سعيد كان المسجد على عريش فوق كفة المسجد (٢) حديث أمر العباس أن يهدم عليه له كان قد علاها الطبراني من رواية أبي العالية أن العباس بنى غرفة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم هدمها الحديث وهو منقطع (٣) حديث مر بمجنونة معلقة قال لمن هذه ؟ قالوا لفلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه الحديث أبو داود من حديث أنس بأسناد جيد بلفظ فرأى قبة مشرفة الحديث والمجنونة القبة (٤) حديث الحسن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لينة على لينة الحديث ابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية هكذا مررنا ولطبراني في الأوسط من حديث عائشة من سأل عن أوسره أن ينظر إلى فلينظر إلى أشعث شاحب مشعر لم يضع لينة على لينة الحديث وإسناده ضعيف .

الحركات للذمومة والتهنوت ويقال فلان حار الرأس وفي الفصل الذي ذكرناه يقع التنبيه بماهية النفس وإشارة المشايخ بماهية النفس إلى ما يظهر من آثارها من الأفعال المذمومة والأخلاق المذمومة وهي التي تعالج بحسن الرياضة إزالتها وتبديلها والأفعال الرديئة زوال الأخلاق الرديئة تبدل . أخبرنا الشيخ العالم رضي الدين أحمد بن اسمعيل القزويني قال أنا إجازة أبو سعيد محمد بن أبي العباس الحلبي قال أنا القاضي محمد بن سعيد الفرخزادي قال أنا

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله بعبد شرا أهلك ماله في الماء والطين ^(١) » وقال عبد الله ابن عمر « مررت علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا فقال ما هذا قالنا خص لنا قد وهى فقال أرى الأمر أمجمل من ذلك ^(٢) » واتخذ نوح عليه السلام بيتا من قصب فقيل له لو بنيت فقال هذا كثير لمن يموت ، وقال الحسن دخلنا على صفوان بن يحيى وهو في بيت من قصب قدمال عليه فقيل له لو أصلحته فقال كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة ^(٣) » وفي الخبر « كل نفقة للعبد يؤجر عليها إلا ما أنفق في الماء والطين ^(٤) » وفي قوله تعالى - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا - إنه الرياسة والتطاول في البناء . وقال صلى الله عليه وسلم « كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما أكن من حر » أورد ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي شكاه إليه ضيق منزله « اتسع في السماء ^(٦) » أي في الجنة ، ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صرح قد بنى بجص وأجر فسكبر وقال ما كنت أظن أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هامان لفرعون يعني قول فرعون - فأوقد لي يا هامان على الطين - يعني به الأجر ويقال إن فرعون هو أول من بنى له بالجص والأجر وأول من عمله هامان ثم تبعها الجبارة وهذا هو الزخرف ورأى بعض السلف جامعا في بعض الأمصار فقال أدركت هذا المسجد مبنيا من الجريد والسعف ثم رأيت مبنيا من رهص ثم رأيت مبنيا بالبن فكان أصحاب السعف خيرا من أصحاب الرهص وكان أصحاب الرهص خيرا من أصحاب اللبن وكان في السلف من يبني داره مرارا في مدة عمره لضعف بنائه وقصر أهله وزهده في إحكام البناء وكان منهم من إذا حج أو غزاه زرع بيته أو وهبه لجيرانه فاذا رجع أعاده وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهي عادة العرب الآن يبلاد اليمن وكان ارتفاع بناء السقف قائمة وبسطة . قال الحسن كنت إذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت يدي إلى السقف ، وقال عمرو

أبو اسحق أحمد بن محمد
ابن إبراهيم قال أنا
الحسين بن محمد بن
عبد الله السفياني
قال حدثنا محمد
ابن الحسن القطيني
قال حدثنا أحمد بن
عبد الله بن يزيد
العقيلي قال حدثنا
صفوان بن صالح قال
حدثنا الوليد بن مسلم
عن ابن لهيعة عن
خالد بن يزيد عن

ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز وهذا حكم كل أثاث فإنه إنما يراد المقصود فإذا استغنى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة وما لا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الخزف في كل ما يكتفي فيه الخزف ولا يزال بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به وأوسطها أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد كالتي معه قصصاً يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ الناع فيها وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء لتخفيف وأعلها أن يكون له بعد ذلك حاجة آلة من الجنس النازل الحسيس فإن زاد في العدد أوفى قلته الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد قالت عائشة رضي الله عنها : كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من آدم حشوها ليف^(١) . وقال الفضيل ما كان فراش رسول الله ﷺ إلا عباءة مثنية ووسادة من آدم حشوها ليف ، وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام فدمت عيناهم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما الذي أبكاك يا ابن الخطاب قال ذكرت كسرى وقصر وماها فيه من اللك وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط فقال صلى الله عليه وسلم أما ترى يا عمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة قال بلى يا رسول الله قال فذلك كذلك^(٢) . ودخل رجل على أبي ذر فجلس بقلب بصره في بيته فقال يا أبذر ما أرى في بيتك متاعاً ولا غير ذلك من الأثاث فقال إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا فقال إنه لا بد لك من متاع مادمت ههنا فقال إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه ، ولما قام عمر بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له مامعك من الدنيا فقال معي عصا أتوكأ عليها وأتكل بها حية إن لقيتها ومعى جرابي أحمل فيه طعامي ومعى قصعة آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبون ومعى مطهرتي أحمل فيها شرابي وطهورى للصلاة لما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي فقال عمر صدقت رحمك الله . ووقدم رسول الله ﷺ من سفر فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى على باب منزلها ستراً وفي يديها قلبين من فضة فرجع فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أبو رافع فقال من أجل الستر والسوارين فأرسلت بهما بلالا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى فقال أذهب فيهما وادفعه إلى أهل الصفة فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم فدخل عليها ﷺ فقال بأبي أنت قد أحسنت^(٣) .

(١) حديث عائشة كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من آدم حشوها ليف أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه (٢) حديث ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عباءة مثنية ووسادة من آدم حشوها ليف الترمذي في الشامل من حديث حفصة بقصة العبادة وقد تقدم ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقد تقدم قبله بعض طرقه (٣) حديث دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط النخل فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه الحديث متفق عليه من حديثه وقد تقدم (٤) حديث قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على منزلها ستراً وفي يديها قلبين من فضة فرجع الحديث لم أره مجموعاً ولأبي داود وابن ماجه من حديث سفينة إسناده جيد أنه صلى الله عليه وسلم جاء فوضع يديه على عضادتي الباب فرأى القرام قد ضربت في ناحية البيت فرجع فقالت فاطمة لعل انظر فأرجعه الحديث والنسائي من حديث ثوبان بإسناد جيد قال جاءت ابنة هيرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وفي يدها فتخ من ذهب الحديث

النفس لطيفة مودعة في القالب منها الأخلاق والصفات الذميمة كما أن الروح لطيفة مودعة في القلب منها الأخلاق والصفات الحمودة كما أن العين محل الرؤية والأذن محل السمع والأنف محل الشم والتم محل التدوق وهكذا النفس محل الأوصاف للذمومة والروح محل الأوصاف الحمودة وجميع أخلاق النفس وصفاتها من أصلين أحدها الطيش والثاني الشره وطيشتها من جهلها وشرها من حرصها وشبهت النفس في طيشتها بكرة مستديرة على مكان أملس

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة سترًا فتهتكه وقال « كَلِمَاتُ آيَاتِهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا أُرْسِلُ بِهَا إِلَى آلِ فُلَانٍ ^(١) » وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديداً وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنوية فما زال يتقلب ليلته فلما أصبح قال لها أعيدي العباءة الخلقفة ونحى هذا الفراش عني قد أسهرني الليلة ^(٢) وكذلك أتته دنائير خمسة أوستة ليلاً فبيتها فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل قالت عائشة رضيت الله عنها فقام حينئذ حتى صمت غبطه ثم قال « ما ظن محمد بربه لولقي الله وهذه عنده ^(٣) » وقال الحسن أدركت سبعين من الأخيار مالأحدم إلا نوبه وما وضع أحدم بينه وبين الأرض ثوباً قط كان إذا أراد النوم يباشر الأرض بجسمه وجعل نوبه فوقه [المهم الخامس] للنكح وقد قال قائلون لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرتة وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال قد حجب إلى سيد الزاهدين النساء فكيف زهد فيهن وواقعه على هذا القول ابن عيينة وقال كان أزهد الصحابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية والصحيح ما قاله أبو سلمان الداراني رحمه الله إذ قال كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشغول والمرأة قد تكون شاغلا عن الله وكشف الحق فيه أنه قد تكون العزوبة أفضل في بعض الأحوال كما سبق في كتاب النكاح فيكون ترك النكاح من الزهد وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا فضله ولكن ترك النكاح احترازا عن ميل القلب إلىهن والأنس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد فإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظر والمضاجعة والواقعة فليس هذا من الزهد أصلا فإن الولد مقصود لبقاء نسله وتكثير أمة محمد ﷺ من الترات واللذة التي تلتحق بالإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا ضرره إذ لم تكن هي المقصد والمطلب وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازا من قلة الأكل والشرب وليس ذلك من الزهد في شيء لأن في ترك ذلك فوات بدنه فكذلك في ترك النكاح انقطاع

وفيه أنه وجد في يد فاطمة سلسلة من ذهب وفيه يقول الناس فاطمة بنت محمد في يدها سلسلة من نار وأنه خرج ولم يقعد فأمرت بالسلسلة فبيعت فاشترت بثمنها عبداً فأعتقته فلما سمع قال الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار ^(١) حديث رأي على باب عائشة سترًا فتهتكه الحديث الترمذي وحسنه والنسائي في الكبرى من حديثها ^(٢) حديث فرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديداً وفيه كان ينام على عباءة مثنوية الحديث ابن حبان في كتاب أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من حديثها قالت دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنوية فأنطلقت فبعثت إلى بفراش خشوه صوف فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذا الحديث وفيه أنه أمرها برده ثلاث مرات فردته وفيه مجاهد بن سعيد مختلف فيه والمعروف حديث حفصة المتقدم ذكره من الشبائل ^(٣) حديث أتته دنائير خمسة أوستة عشاء فبيتها فسهر ليله الحديث وفيه ما ظن محمد بربه لولقي الله وهذه عنده أحمد من حديث عائشة بإسناد حسن أنه قال في مرضه الذي مات فيه يا عائشة ما فعلت بالذهب فبجاء ما بين الخمسة إلى الثمانية إلى التسعة فجعل يقلب يده ويقول ما ظن محمد بالحديث وزاد أتقها وفي رواية سبعة أو تسعة دنائير وله من حديث أم سلمة بإسناد صحيح دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شام ^(١) الوجه قالت لحسبت ذلك من وجع فقلت يابني الله مالك شام الوجه فقال من أجل الدنائير السبعة التي أتنا أمس أمسينا وهي في خصم الفراش وفي رواية أمسينا ولم تنفقا .

[١] شام بالمعجمة متغير يقال شهم تغير عن حاله لما روى اه .

مصوب لا تزال متحركة
بجملتها ووضعها وشبهت
في حرصها بالفراش
الذي يلقي نفسه على
ضوء الصباح ولا يتنقح
بالضوء اليسير دون
المهجوم على جرم الضوء
الذي فيه هلاكه فمن
الطيش توجد العجلة
وقلة الصبر والصبر
جوهر العقل والطيش
صفة النفس وهواها
وروحها لا ينلها إلا
الصبر إذ العقل يقمع
المهوى ومن الشر
يظهر الطمع والحرص
وهما اللذان ظهرا في
آدم حيث طمع في
الحلود حرص على أكل
الشجرة وصفات النفس
لها أصول من أصل
تكونها لأنها مخلوقة

نسله فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا في لذته من غير خوف آفة أخرى وهذا معناه سهل لا محالة ولأجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله ﷺ في أنه لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب باصلاحهن والافتاق عليهن (١) فلامعنى زهده فهن حذر من مجرد كثرة الوقوع والنظر ولكن آتى بتصوّر ذلك لغير الأنبياء والأولياء فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان فينبغى أن يترك الأصل إن كان يشغله وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن أو جمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة ويراع قلبه في ذلك قال أبو سليمان : الزهد في النساء أن يختار للمرأة الدون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة . وقال الجعيد رحمه الله أحب للمرشد للتبدي أن لا يشغل قلبه بثلاث وإلتفات حاله : التمسك وطلب الحديث والزواج وقال أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع لهمة فاذا ظهر أن كثرة النكاح كلذة الأكل لما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعا [اللهم السادس] ما يكون وسيلة إلى هذه المحنة ، وهو المال والجاه : أما الجاه فعناء ملك القلوب بطلب محل فيها يتوصل به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وانفق إلى من يخدمه انفق إلى جاه لا محالة في قلب خامه لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يتم بخدمته وقيام القدر والمحل في القلوب هو الجاه وهذا له أول قريب ولكن يتعاضد به إلى هاوية لا عمق لها ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لطلب قمع أو لدفع ضرر أو لخلاص من ظلم فأما النفع فينبغى عنه المال فان من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن عنده للاستأجر قدر وإنما يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجره وأما دفع الضرر فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل فيه العدل أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بعمل له في قلوبهم أو محل له عند السلطان وقدر الحاجة فيه لا يضبط لاسيا إذ انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب والحائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلا فان اشتغاله بالدين والعبادة يمهده من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار فكيف بين المسلمين فأما التوهّمات والتقدير التي تتحوّل إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهمي أو هام كاذبة إذ من طلب الجاه أيضا يخل عن أذى في بعض الأحوال فصلاح ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه ، فاذن طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلا واليسير منه داع إلى الكثير وضراوته أشد من ضراوة الحمر فليحترز من قليله وكثيره . وأما المال فهو ضروري في العيشة أعني القليل منه فان كان كسوبا فاذا اكتسب حاجة يومية فينبغى أن يترك الكسب كان بهضم إذا اكتسب حيتين رفع سفته وقام . هذا شرط الزهد فان جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حد ضغف الزهاد وأقرباؤهم جميعا وإن كانت له ضيعة ولم يكن له قوّة يقين في التوكل فأمسك منها مقدار ما يكفي ربه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدق بكل ما يفضل عن كفاية سنته ولكن يكون من ضغف الزهاد فان شرط التوكل في الزهد كما شرطه أوبس القرني رحمه الله فلا يكون هذا من الزهاد وقولنا إنه خرج من حد الزهاد نعتي به أن ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من القمامات المحمودة لا يناله وإلا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة وأمر الله في جميع ذلك أخف من أمر العيل وقد قال أبو سليمان لا ينبغي أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه فان أجابوا وإلا تركهم وصل بنفسه ماشاء معناه أن التصديق الشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه كل ذلك في عياله ، نعم لا ينبغي أن يجيبهم أيضا فباخرج عن حد الاعتدال وليتعلّم من رسول الله صلى الله عليه وسلم

من تراب ولها بحسبه وصف وقيل وصف الضعف في آدمي من التراب ووصف البخل فيه من الطين ووصف الشهوة فيه من الحما للسنون ووصف الجهل فيه من الصلصال وقيل قوله كالفخار فهذا الوصف فيه شيء من الشيطنة لدخول النار في الفخار فمن ذلك الخداع والحيل والحسد فمن عرف أصول النفس وجبلاتها عرف أن لا قدرة له عليها إلا بالاستعانة بياربها وطارها فلا يتحقق العبد بالإنسانية إلا بسند أن يدبر دواعي الحيوانية فيه بالصلم والعدل وهو

إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين لأن ذلك من الزينة لامن الحاجة ، فإذا ما يضطر الإنسان إليه من جاء ومال ليس يحذور ، بل الزائد على الحاجة سم قاتل والقتصر على الضرورة دواء نافع وما بينهما درجات متشابهة ، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سما قاتلا فهو مضر وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعا ولكنه قليل الضرر والسّم محظور شرهه والدواء فرض تناوله وما بينهما مشقة أمره فمن احتاط فائما محتاط لنفسه ومن تساهل فائما يتساهل على نفسه ، ومن استبرأ لدينه وترك ما يريه إلى ما يريه وردّ نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم ، وهو من الفرقة الناجية لا عمالة ، والقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب إلى الدنيا بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين والشرط من جملة الشروط ، وبدل عليه ما روى أن إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئا فلم يقرضه فرجع مهموما فأوحى الله تعالى إليه لو سألت خليلك لأعطاك فقال يارب عرفت ممتك للدنيا تخفت أن أسألك منها شيئا فأوحى الله تعالى إليه ليس الحاجة من الدنيا ، فاذن قدر الحاجة من الدين وما وراء ذلك وبال في الآخرة وهو في الدنيا أيضا كذلك يعرفه من يجر أحوال الأغنياء وما عليهم من الحنة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتال الدل فيه ، وظاية سعاده به أن يسلم لورثته فإيا كلونه ، وربما يكونون أعداء له وقد يستعينون به على العصية فيكون هو معيناهم عليها ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القمل لا يزال ينسج على نفسه حيا ثم يروم الخروج فلا يجد خلاصا فيموت وبهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فائما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشبهه حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه والأهل والولد وشهامة الأعداء ومراآة الأصدقاء وسائر حظوظ الدنيا ، فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه فقصده الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيدا بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها ولوترك محبوبا من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلا لنفسه وساعيا في هلاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة فتبقى السلاسل في قلبه معانقة بالدنيا التي فاتته وخلفها فهي تجاذبه إلى الدنيا ومخالب ملك الموت قد عانت بمرور قلبه تجذبه إلى الآخرة فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كمشخص ينشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجازبة من الجانبين ، والذي ينشر بالمنشار إنما ينزل للوالم ييدنه ويؤم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره فما ظنك بألم يتمكن أولا من صميم القلب خصوصا به لا بطريق السراية إليه من غيره فهذا أول عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرة فوت التزول في أعلى عليين وجوار رب العالمين ، فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى وعند الحجاب تسلط عليه نار جهنم ، إذ النار غير مسالطة إلا على محبوب . قال الله تعالى - كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم - فترتب العذاب بالنار على ألم الحجاب وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه ، فنسأل الله تعالى أن يقرر في أسماعنا ما نشت في روع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قيل له أحبب من أحببت فانك مفارقة (١) وفي معنى ما ذكرناه من المثال قول الشاعر :

(١) حديث نعت في روعه أحب من أحببت فانك مفارقة تقدم

رعاية طرفي الافراط والتفريط ثم بذلك تقوى إنسانيته ومعناه ويدرك صفات الشيطنة فيموا الأخلاق المذمومة وكال إنسانيته ويتقاضاه أن لا يرضى لنفسه بذلك ثم تكشف له الأخلاق التي تنازع بها الربوية من الكبر والعز وروية النفس والعجب وغير ذلك فيرى أن صرف البسودية في ترك المنازعة للربوية والله تعالى ذكر النفس في كلامه القديم بثلاثة أوصاف : بالطمأنينة قال - يا أيها النفس المطمئنة وسماها الوامة

كدود كدود القز ينسج دائماً ويهلك غما وسط ماهو ناسجه

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أن العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه إهلاك دود القز نفسه رفضوا الدنيا بالسكينة حتى قال الحسن : رأيت سبعين بديرا كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم . وفي لفظ آخر : كانوا بالبلاء أشد فرحا منكم بالحصب والرخاء لو رأيتهم قلمت عجانين ، ولورأوا خياركم قالوا ما هؤلاء بمن خلاق ، ولورأوا شراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب . وكان أحدهم يمرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول أخاف أن يفسد على قلبي ، فمن كان له قلب فهو لاهمة يخاف من فساده والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى - ورفضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون - وقال عز وجل - ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا - . وقال تعالى - فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك ميلتهم من العلم - فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام احمني معك في سياحتك ، فقال أخرج مالك والحقني . فقال لأستطيع فقال عيسى عليه السلام بعجب يدخل النقي الجنة أوقال بشدة . وقال بعضهم : مامن يوم ذر شارقه إلا الأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات ملكان بالشرق وملكان بالمغرب يقول أحدهم بالشرق : يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر أقصر ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا تلفا ويقول اللذان بالمغرب أحدهما لدوا للموت وأبنوا للخراب ، ويقول الآخر كلوا وتمتعوا اطول الحساب .

(بيان علامات الزهد)

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد وليس كذلك فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب اللذات بالزهد فسكن من الرهايين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا دبرا لا باب له وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم إليه ومدحهم له فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطمة بل لا بد من الزهد في المال والجاه جميعا حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعى جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والسياب الرقيقة كما قال الحواصن في وصف المدعين إذ قال وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يوهون بذلك على الناس ليهدى إليهم مثل لباسهم لئلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا فيمطوا كما تمطى الساكنين ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم وأنهم على السنة وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها وإنما يأخذون بعلة غيرهم . هذا إذا طولبوا بالحقائق وأجلبوا إلى المضايق وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهديب أخلاق نفوسهم فظهرت عليهم صفاتهم ففأبتهم فادعوا حالاً لهم فهم مائلون إلى الدنيا متبعون للهوى . فهذا كله كلام الحواصن رحمه الله . فاذن معرفة الزهد أمر مشكل بل حال الزهد على الزهد مشكل وينبغي أن يعول في باطنه على ثلاث علامات : العلامة الأولى أن لا يفرح بوجود ولا يحزن على مفقود كما قال تعالى - لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم - بل ينبغي أن يكون بالصد من ذلك وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده . العلامة الثانية أن يستوى عنده ذامه ومادحه فالأول علامة الزهد في المال والثاني علامة الزهد في الجاه . العلامة الثالثة أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلوة الطاعة إذ لا يخلو القلب عن حلوة الهبة إمامة الدنيا وإمامة الله وهما في القلب كالماء والهواء في القدر فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشغل بشيء

قال - لا أقسم يوم
القيامة ولا أقسم
بالنفس اللوامة -
وساها أمانة ، فقال
- إن النفس لأمانة
بالسوء - وهي نفس
واحدة . ولها صفات
متغايرة ، فاذا امتلأ
القلب سكينة خلع
على النفس خلع
الطمأنينة لأن السكينة
مزيد الإيمان وفيها
ارتقاء القلب إلى مقام
الروح لما منح من
حظ اليقين وعند
توجه القلب إلى محل
الروح توجه النفس
إلى محل القلب ، وفي
ذلك طمأنينة وإذا
ازهجت من مقام
جيباتها ودواعي
طبيعتها متطلعة إلى

ولذلك قيل لمضمهم إلى ماذا أفضى بهم الزهد فقال إلى الأُنس بالله . فأما الأُنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان وقد قال أهل المرفقة إذا تعلق بالإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعا وعمل لهما وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وبشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لهما ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام: اللهم إني أسألك إيمانا يياثر قلبي . وقال أبو سليمان من شغل بنفسه شغل عن الناس وهذا مقام العاملين ومن شغل بربه شغل عن نفسه وهذا مقام العارفين والزاهد لا بد وأن يكون في أحد هذين القامتين . ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه وعند ذلك يستوى عنده للدخ والنم والوجود والعدم ولا يستدل بما ساكه قليلا من المال على قصد زهده أصلا . قال ابن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان أكان داود الطائي زاهدا قال نعم قلت قد بلغني أنه ورث عن أبيه عشرين دينارا فأتفقها في عشرين سنة فكيف كان زاهدا وهو يمسك الدنانير ، فقال أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد وأراد بالحقيقة الغاية فإن الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس . ولا يتم الزهد إلا بالزهد في جميعها فكل من ترك من الدنيا شيئا مع القدرة عليه خوفا على قلبه وعلى دينه فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه وآخره أن يترك كل ماسوى الله حتى لا يتوسد حجرا كما فعله للسيح عليه السلام ، ففسأل الله تعالى أن يرزقنا من مبادئه نصيبا وإن قل فإن أمثالا لا يستجريء على الطمع في غايته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه . وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علنا أن الله تعالى لا يتعاطمه شيء فلا بعد في أن نعظم السؤال اعتادا على الجود المجاوز لسكل كمال . فاذن علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمداخ والدم وذلك لعلبة الأُنس بالله . ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخرى لا محالة : مثل أن يترك الدنيا ولا يبالى من أخذها . وقيل علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول أبى رباطا أو أعمر مسجدا . وقال يحيى ابن معاذ : علامة الزهد السخاء بالموجود . وقال ابن خفيف علامته وجود الراحة في الخروج من الملك . وقال أيضا : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف . وقال أبو سليمان : الصوف علم من أعلام الزهد فلا ينبغي أن يلبس صوفا بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم . وقال أحمد ابن حنبل وسفيان رحمهما الله : علامة الزهد قصر الأمل . وقال سري : لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه . ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه . وقال النضر اباضى : الزاهد غريب في الدنيا والعارف غريب في الآخرة . وقال يحيى بن معاذ : علامة الزهد ثلاث عمل بلا علاقة وقول بلا طمع وعز بلا رياسة . وقال أيضا الزاهد لله يسمطك الخلل والحرد والعارف يشمك المسك والضرب وقال له رجل متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأصدمع الزاهدين ، فقال إذا صرت من رياضتك لنفسك في السرى إلى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضمف في نفسك . فأما ما لم يبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح . وقال أيضا : الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطها والزاهد فيها يسخم وجهها ويتنف شعرها ويحرق ثوبها ، والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها . وقال السرى ما رست كل شيء من أمر الزهد فقلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس فاني لم أبلغه ولم أطلقه . وقال الفضيل رحمه الله جل الله الشركه في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخبز كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا . فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى .

مقار الطمانينة فهي
لواصة لأنها تعود
بالأصحة على نفسها
لنظرها وعلها يحل
الطمانينة ثم انجذابها
إلى محلها التي كانت
فيه أمانة بالسوء ،
وإذا أقامت في محلها
لا يشاها نور العلم
والعرفة فهي على
ظلمتها أمانة بالسوء
فالنفس والروح
يتطاردان ، فتارة
يملك القلب دواعي
الروح ، وتارة يملكه
دواعي النفس . وأما
السرى فقد أشار
القوم إليه ووجدت
في كلام القنوم أن
منهم من جعله بعد
القلب وقبل الروح ،
ومنهم من جعله بعد

﴿ كتاب التوحيد والتوكل ﴾

(وهو الكتاب الخامس من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله مدبر الملك والملكوت المنفرد بالعزة والجبروت الرافع للساء بغير حماد القدر فيها أرزاق الضاد الذي صرف أعين ذوى القلوب والألباب عن ملاحظة الوسايط والأسباب إلى مسبب الأسباب ورفع همهم عن الالتفات إلى ماعداه والاعتقاد على مدرسواه فلم يبدؤوا إلا بإياه علماً بأنه الواحد القهر الصمد الإله وتحقياً بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا ينتهي عندهم الرزق وأنه ما من ذرة إلا إلى الله خالقها ومامن دابة إلا على أقدار رزقها فلما تحققتوا أنه لرزق عباده ضامن وبه كفيل تولكوا عليه فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل والصلاة على محمد قانع الأباطيل المهادي إلى سواء السبيل وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً .

[أما بعد] فإن التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات اللوقين بل هو من معالي درجات القرين وهو في نفسه غامض من حيث العلم ثم هو شاق من حيث العمل ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتقاد عليها شرك في التوحيد والتناقل عنها بالكلية طعن في السنة وقبح في الشرع والاعتقاد على الأسباب من غير أن ترى أسباباً تتغير في وجه العقل وانغماس في غمرة الجهل وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقضى التوحيد والنقل والشرع في غاية العدوس والعسر ولا يقوى على كشف هذا النطاء مع شدة الخفاء لإحصاء الطماء الذين اكتنحوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ثم نطقوا بالاعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ثم نردفه بالتوحيد في الشطر الأول من الكتاب ونذكر حال التوكل وعمله في الشطر الثاني .

(بيان فضيلة التوكل)

أما من الآيات فقد قال تعالى - وعلى الله توكلوا إن كنتم مؤمنين - وقال عز وجل - وعلى الله فليتوكل التوكلون - وقال تعالى - ومن يتوكل على الله فهو حسبه - وقال سبحانه وتعالى - إن الله يحب المتوكلين - وأعظم بمقام موسوم بحجة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه فمن الله تعالى حسبه وكافيه وعجه ومراعيه فقد فاز الفوز العظيم فإن المحبوب لا يبذو ولا يبعد ولا يحجب وقال تعالى - أليس الله بكاف عبده - فطالب الكفاية من غيره والتارك للتوكل هو المكذب لهذه الآية فانه سؤال في معرض استنطاق الحق كقولته تعالى - هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً - وقال عز وجل - ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم - أي عزيز لا يذل من استجار به ولا يضيع من لاذ بجناحه والتجأ إلى ذمامه وحماه وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تديره وقال تعالى - إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - بين أن كل ما سوى الله تعالى عبد مسخر حاجته مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه وقال تعالى - إن الذين تصيدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه - وقال عز وجل - والله خزائن السموات والأرض ولكن لناغيين لا يفقهون - وقال عز وجل - يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذنه - وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار . وأما الأخبار : فقد قال

﴿ كتاب التوحيد والتوكل ﴾

الروح وأطى منها وألطف وقالوا السرّ عمل للشاهدة والروح عمل المحبة . والقلب عمل العرفة والسرّ الذي وقعت إشارة القوم إليه غير مذكور في كتاب الله وإنما المذكور في كلام الله الروح والنفس وتنوع صفاتها والقلب والفؤاد والعقل وحيث لم نجد في كلام الله تعالى ذكر السر بالمعنى المشار إليه ورأينا الاختلاف في القول فيه وأشار قوم إلى أنه دون الروح وقوم إلى أنه ألتف من الروح فنقول والله أعلم : الذي صموه سرا ليس هو بشيء مستقل بنفسه

صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود وأريت الأُم في اللوسم فرأيت أمتي قدملأوا السهل والجليل فأعجبتني كثرتهم وهياتهم قبيل لي أرضيت قلت نم قيل ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب قيل : من هم يا رسول الله؟ قال الذين لا يكتبون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة وقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعله منهم فقام آخر فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال صلى الله عليه وسلم : سبقك بها عكاشة (١) وقال صلى الله عليه وسلم : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تمدو أجناسهم وتروح بطاناً (٢) وقال صلى الله عليه وسلم : من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله اليها (٣) وقال صلى الله عليه وسلم : من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه (٤) ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا إلى الصلاة ويقول : بهذا أمرني ربِّي عز وجل قال عز وجل - وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها - (٥) الآية وقال ﷺ : «لم يتوكل من استرقى واكتوى» (٦) وروى أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام وقد رمى إلى النار بالنجنيق أنك حاجة قال أما إليك فلا فواف به قوله حسبى الله ونعم الوكيل إذ قال ذلك حين أخذ ليرمي فأنزله الله تعالى - وإبراهيم الذي وفى - وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود ما من عبد يتصم في دون خلقي فتكديه السموات والأرض إلا جعلت له مخرجاً . وأما الآثار فقد قال سعيد بن جبيرة لدغني عقرب فأقسمت على أمي لتسترقين فنالت الرأقي بيدي التي لم تدع وقرأ الحواص قوله تعالى - وتوكل على الحى الذى لا يموت - إلى آخرها فقال ما ينبغي لأحد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى . وقيل لبعض العلماء في منامه من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته وقال بعض العلماء لا يشغلك الضمون لك من الرزق عن القروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك . وقال يحيى بن معاذ في وجود الصبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطاب العبد . وقال إبراهيم ابن آدم سألت بعض الرهبان من أين تأكل فقال لي ليس هذا العلم عندي ولكن سل ربى من أين يطعمنى . وقال هرم ابن حيان لأويس القرنى أين تأمرنى أن أكون فأومأ إلى الشام قال هرم كيف العيشة قال أويس أف

(١) حديث ابن مسعود أريت الأُم في اللوسم فرأيت أمتي قدملأوا السهل والجليل الحديث رواه ابن منيع باسناد حسن واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس (٢) حديث لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير الحديث الترمذى والحاكم ومصححاه من حديث عمرو وقد تقدم (٣) حديث من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة الحديث الطبرانى فى الصغير وابن أبى الدنيا ومن طريقه البيهقى فى الشعب من رواية الحسن عن عمران بن حصين ولم يسمع منه وفيه إبراهيم بن الأشمث تكلم فيه أبو حاتم (٤) حديث من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما فى يديه الحاكم والبيهقى فى الزهد من حديث ابن عباس باسناد ضعيف (٥) حديث كان إذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا إلى الصلاة ويقول بهذا أمرني ربى قال تعالى - وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها - الطبرانى فى الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام قال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية ومحمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيعدهم معاً من جد أبيه (٦) حديث لم يتوكل من استرقى واكتوى الترمذى وحسنه والنسائى فى الكبير والطبرانى واللفظ له إلا أنه قال أو من حديث المقرئ بن شعبة وقال الترمذى من اكتوى أو استرقى فقد برى من التوكل وقال النسائى ما توكل من اكتوى أو استرقى .

له وجود وذات كالروح
والنفس وإنما
صفت النفس وتزكت
انطلق الروح من وثاق
ظلمة النفس فأخذ في
المروج إلى أوطان
القرب واترج القلب
عند ذلك عن مستقره
متطلماً إلى الروح
فاكتسب وصفاً اذا
على وصفه فانجم على
الواجدين ذلك الوصف
حيث رأوه أصفى من
القلب فسموه سرا
ولما صار للقلب وصف
زائد على وصفه بتطلعه
إلى الروح اكتسب
الروح وصفاً اذا
فى عروجه وانجم
على الواجدين فسموه
سرا والذي زعموا أنه
الطف من الروح روح

لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها للوعظة وقال بعضهم متى رضيت بالله وكبلا وجدت إلى كل خير سيلا ، نسأل الله تعالى حسن الأدب .

(بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل)

اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان وجميع أبواب الإيمان لا تنظم إلا بعلم وحال وعمل والتوكل كذلك ينظم من علم هو الأصل وعمل هو الثمرة وحال هو المراد باسم التوكل . فلنبدأ ببيان العلم الذي هو الأصل وهو للسمى إيماننا في أصل اللسان إذ الإيمان هو التصديق وكل تصديق بالقلب فهو علم وإذا قوى سمى يقينا ولكن أبواب اليقين كثيرة ونحن إنما نحتاج منها إلى ما نبني عليه التوكل وهو التوحيد الذي يترجمه قولك : لا إله إلا الله وحده لا شريك له والإيمان بالله القدرة التي ترجم عنها قولك : له الملك والإيمان بالجود والحكمة الذي يدل عليه قولك : وله الحمد فمن قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ثم له الإيمان الذي هو أصل التوكل أعني أن يصير معنى هذا القول وصفا لازما قلبه غالبا عليه فأما التوحيد فهو الأصل والقول فيه يطول وهو من علم المكاشفة ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ولا يتم علم العاملة إلا بها فاذن لا تعرض إلا للقدر الذي يتعلق بالمعاملة والأفات والتوحيد هو البحر الحضم الذي لا ساحل له فتقول : للتوحيد أربع مراتب وينقسم إلى لب وإلى لب اللب وإلى قشر وإلى قشر القشر ولتمثل ذلك تقريبا إلى الأفهام الضعيفة بالجوز في قشرته الطيافان له قشرتين وله لب وللب دهن هو لب اللب فالرتبة الأولى من التوحيد هي أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين والثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام القرين وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار والرابعة أن لا يرى في الوجود إلا واحدا وهي مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد لأنه من حيث لا يرى إلا واحدا فلا يرى نفسه أيضا وإذا لم يرفضه لكونه مستقرا بالتوحيد كان فانيا عن نفسه في توحيدته بمعنى أنه فني عن رؤية نفسه والخلق فالأول موحد مجرد اللسان ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان والثاني موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة إن توفي عليه ولم تضعف بالمعاصي عقده ولهذا العقدة حيل يقصدها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة وله حيل يقصدها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصدها أيضا إحكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاما والعارف به يسمى متكلما وهو في مقابلة المتدع ومقصده دفع البتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام وقد يخص المتكلم باسم للوحد من حيث إنه يعمى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تتحل عقده والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فعلا واحدا إذ انكشف له الحق كما هو عليه ولا يرى فعلا بالحقيقة إلا واحدا وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه لأنه كلف قلبه أن يقدر على مفهوم لفظ الحقيقة فإن تلك رتبة العوام والتكلمين إذ لم يفارق التكلم العامي في الاعتقاد بل في صنعة تليق الكلام الذي به حيل البتدع عن تحليل هذه العقدة والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد فلا يرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد ، فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثاني كالقشرة السفلى ، والثالث كالب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب وكما أن القشرة العليا من الجوز لا خير فيها بل إن أكل فهو مر الذاق وإن نظر إلى باطنه فهو كره للنظر وإن أخذ

متصفه بوصف أخص
مما عهدوه والذي صموه
قبل الروح صرا هو قلب
اتصف بوصف زائد
غير مما عهدوه وفي مثل
هذا الترقى من الروح
والقلب ترقى النفس
إلى محل القلب وتتحدع
من وصفها فتصير نفسا
مطمئنة تتردد كثيرا
من مردات القلب من
قبل إذ صار القلب يريد
ما يريد مولاه متبرئا
عن الحول والقوة
والإرادة والاختيار
وعندها ذاق طعم
سرف العبودية حيث
صار حرا عن إرادته
واختياراته وأما العقل
فهو لسان الروح
وترجمان البصيرة
والبصيرة للروح بمثابة

حطباً أطفأ النار وأكثرت الدخان وإن ترك في البيت ضيق المكان فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز
للصون ثم يرمى به عنه فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر
عدمه الظاهر والباطن لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت والقشرة السفلى هي
القلب والبدن وتوحيد اللناق يصون بدنه عن سيف الغزاة فانهم لم يؤمروا بشق القلوب والسيف
إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده وكما أن
القشرة السفلى ظاهرة النفع بالاضافة إلى القشرة العليا فانها تصون القلب وتحمسه عن الفساد عند
الادخار وإذا فصلت أمكن أن يتنفع بها حطبها لكنها نازلة القدر بالاضافة إلى القلب وكذلك مجرد الاعتقاد
من غير كشف كثير النفع بالاضافة إلى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالاضافة إلى الكشف والشاهدة
التي تحصل بانسراح الصدر وانساحه وإشراق نور الحق فيه إذ ذاك الشرح هو للراد بقوله تعالى
- فن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - وبقوله عز وجل - أفمن شرح الله صدره للإسلام
فهو على نور من ربه - وكأن القلب تقيس في نفسه بالاضافة إلى القشر وكله القصد ولكنه لا يخلو عن
شوب عسارة بالاضافة إلى الدعوى المستخرج منه فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه
لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالاضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق.
فان قلت كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحدا وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي
كثيرة فكيف يكون الكثير واحدا . فاعلم أن هذه غاية علوم الكاشفات وأسرار هذا العلم لا يجوز
أن تسطر في كتاب فقد قال العارفون إفشاء سر الربوبية كفر ثم هو غير متعلق بعلم العاملة نعم ذكر
ما يكسر سورة استبعادك يمكن وهو أن الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ويكون
واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار وهذا كما أن الانسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده
وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحدا إذ تقول إنه إنسان واحد
فهو بالاضافة إلى الإنسانية واحدا وكم من شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه
وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق
بواحد ليس فيه تفريق وكأنه في عين الجمع والملتفت إلى الكثرة في تفرقة فكذلك كل ما في الوجود من
الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد
وباعتبارات أخرى سواء كثير وبعضها أشد كثرة من بعض ومثاله الانسان وإن كان لا يطابق الغرض
ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحدا ويستبين بهذا الكلام ترك
الانكار والوجود لمقام لم يلقه وتؤمن به إيمان تصديق فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا
التوحيد نصيب وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبيا كان لك
نصيب منه بقدرة إيمانك وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق
الحافظ وهو الأكثر والدوام نادر عزير وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص
يدور في الأسفار فقال فبأذنت فقال أدور في الأسفار لأصح حالتي في التوكل وقد كان من التوكلين
فقال الحسين قد أنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد فسكان الخواص كان في تصحيح
المقام الثالث في التوحيد فطالبه بالمقام الرابع فهذه مقامات الوحيدين في التوحيد على سبيل الاجمال .
فان قلت فلا بد لهذا من شرح بقدر ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه . فأقول أما الرابع فلا يجوز الخوض
في بيانها ليس التوكل أيضا مبنيا عليه بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث. وأما الأول وهو النفاق
فواضح. وأما الثاني وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل

القلب والنقل بشارة
اللسان . وقد ورد في
الحبر عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه
قال يا أيها السلفي
الله العقل فقال له أقبل
فأقبل ثم قال له أدبر
فأدبر ثم قال له أقعد
فقعدي ثم قال له انطلق
فنطق ثم قال له اصمت
فصمت فقال وعزني
وجسالي وعظمي
وكبريائي وساهلاني
وجبروتي ما خلقت
خلقا أحب إلي منك
ولا أكرم علي منك
بك أعرف وبك
أحمد وبك أطاع
وبك آخذ وبك
أعطي وإياك أعاتب
ولك الثواب وعليك
العقاب وما أكرمك

الابتدعة فيه مذكور في علم الكلام وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه . وأما الثالث : فهو الذي يبنى عليه التوكل إذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل فلنذكر منه القدر الذي يرتبط بالتوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب . وحاصله أن ينكشف لك أن لافاعل إلا الله تعالى وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم الملتفرد بأبداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره بل كان منه خوفك وإليه رجائك وبه تتك وعليه اتكالك فانه الفاعل على الانفراد دون غيره وما سواه مسخرون لاستقلالهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض وإذا افتتحت لك أبواب الكاشفة اتضح لك هذا اتضاحاً آتياً من الشاهدة بالبصر وإنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يتنى به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين : أحدهما الالتفات إلى اختيار الحيوانات . والثاني الالتفات إلى الجمادات أما الالتفات إلى الجمادات فكاعتقادك على المطرفي خروج الزرع ونباته ونعائه وعلى النعم في نزول المطر وعلى البرد في اجتماع النجم وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها وهذا كله شرك في التوحيد وجهل بمقائق الأمور ، ولذلك قال تعالى - فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون - قيل معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجانا ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أن الريح هو الهواء والهواء لا يتحرك بنفسه مالم يحركه محرك وكذلك محركه وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ولا هو متحرك في نفسه عز وجل فالتفات العبد في النجاة إلى الريح يضاهي التفات من أخذ لتحز رقبته فكتب الملك توقيعاً بالهفو عنه وتخليته فأخذ يشغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذي به كتب التوقيع يقول لولا القلم لما تخلصت فيري نجاته من القلم لمن محرك القلم وهو غاية الجهل ومن علم أن القلم لا يحكم له في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والنجم والأرض وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتنسخير القلم في يد الكاتب بل هذا تمثيل في حقه لا اعتقادك أن الملك الموقع هو الكاتب التوقيع والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى - وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى - فاذا انكشف لك أن جميع ما في السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائباً وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك فأنت في الملكة الثانية وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختيارية ويقول كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يمطيك رزقك باختياره فان شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك وهذا الشخص هو الذي يحز رقبته بسيفه وهو قادر عليك إن شاء حز رقبته وإن شاء عفا عنك فكيف لا تخافه وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ويقول له أيضاً ، نعم إن كنت لا ترى القلم لأنه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو السخر له وعند هذا زل أقدام الأكرمين إلا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كوز الكاتب مسخراً مضطراً كما شاهد جميع الضملاء كون القلم مسخراً وعرفوا أن غلط الضملاء في ذلك كغلط النملة مثلها لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلاً عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو السواد للبياض وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لصيق حدقتها فكذلك من لم يشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهراً وراء الكل فوقه في الطريق

شيء أفضل ممن
البر « وقال عليه
السلام » لا يهجمكم
إسلام رجل حتى
تعلموا ماعنده عقله «
وسألت عائشة رضی
الله عنها النبي صلى الله
عليه وسلم قالت قلت
« يا رسول الله بأي شيء
يتفاضلون الناس ؟ قال
بالعقل في الدنيا
والآخرة قالت قلت
أليس يحزى الناس
بأعمالهم ؟ قال يا عائشة
وهل يعمل بطاعة
الله إلا من قد عقل
فبغير عقولهم يعملون
وعلى قدر ما يعملون
يحزون « وقال عليه
السلام « إن الرجل
ينطلق إلى المسجد
فيصلي وصلاته

على السكاتب وهو جهل محض بل أرباب القلوب والشاهدات قد أنطق الله تعالى في حتمهم كل ذرة في السموات والأرض بقدرته التي بها نطق كل شيء حتى سمعوا تقديسها وتسيبها لله تعالى وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلتي تتكلم بالأحرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون ولست أعنى به السمع الظاهر الذي لا يجاوز الأصوات فإن الحمار شريك فيقول لا قدر لما يشارك فيه الهائم وإنما أريد به ممما يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي . فان قلت فهذه أهجوبة لا يقبلها العقل فصف لي كيفية نطقها وأنها كيف نطقت وبماذا نطقت وكيف سبحت ووقدست وكيف شهدت على نفسها بالهجز . فاعلم أن لكل ذرة في السموات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة في السر وذلك مما لا ينحصر وله ينتاهي فانها ككلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذي لا نهاية له - قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر - الآية ثم إنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت وإفشاء السر لئلا يبل صدر الأحرار قبور الأسرار وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك قد نوحى بخفياها فنادى بسرهم على ملائمتي الخلق ولو جاز إفشاء كل سر لنا لما قال صلى الله عليه وسلم «لوتعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» (١) بل كان يذكر ذلك لهم حتى يكون ولا يضحكون . ولما نهى عن إفشاء السر القدر (٢) . ولما قال «إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا» (٣) ولما خص حذيفة رضي الله عنه ببعض الأسرار (٤) . فاذن عن حكايات مناجاة قدرات الملك والملكوت لقلوب أرباب الشاهدات ما نمان : أحدهما استحالة إفشاء السر . والثاني خروج كلماتها عن الحصر والتهابة ولكننا في المثال الذي كنا فيه وهي حركة القلم نحكي من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ونرد كلماتها إلى الحروف والأصوات وإن لم تكن هي حروفها وأصواتها ولكن هي ضرورة التفهيم فنقول : قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد وقد رآه أسود وجهه بالخبر ما بال وجهك كان أبيض مشرقا والآن قد ظهر عليه السواد فلم سودت وجهك وما السبب فيه فقال الكاغد ما أنصفتني في هذه المقالة فإني ما سودت وجهي بنفسى ولكن سل الخبر فانه كان مجموعا في المهبرة التي هي مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظلما وعدوانا فقال صدقت فسأل الخبر عن ذلك فقال ما أنصفتني فإني كنت في المهبرة وادما ساكنا عازما على أن لا أبرح منها فاعتدى على القلم بطمعه الفاسد واختطفني من وطني وأجلاني عن بلادى وفرق جمعى وبددنى كما ترى على ساحة يضاء فالسؤال عليه لاطى فقال صدقت ثم سأل القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه وإخراج الخبر من أوطانه فقال مل اليد والأصابع فإني كنت قصبا نابتا على شط الأنهار مترزاها بين خضرة الأشجار فجاءتني اليد بسكين فنحت عنى قسرى ومزقت عنى ثيابى واقتلعتنى من أصلى وفصلت بين أنا وبينى ثم برتنى وشقت رأسى ثم غمستنى في سواد الخبر ومرارته وهى تستخدمنى وتمشيقى على قمة رأسى ولقد ثرت الملح على جرحى بسؤالك وعتابك فتسع عنى وسل من قهرنى فقال صدقت ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له فقالت اليد ما أنا إلا لحم وعظم ودم وهل رأيت للحمايظلم أوحسا يتحرك بنفسه وإنما أنا مركب مسخر ركبتى فارس يقال له القدرة والعزة فهى التي ترددى

لا تعدل جناح بموضة
وإن الرجل ليأتى
السجد فيصلى وصلاته
تعدل جبل أحد إذا
كان أحسنهما عقلا
فيل وكيف يكون
أحسنهما عقلا ؟ قال
أورعها عن محارم
الله وأحرصها على
أسباب الخير وإن
كان دونه في العمل
والطوع . وقال :
عليه الصلاة والسلام
«إن الله تعالى قسم
العقل بين عباده
أشتاتا فان الرجلين
يستوى علمهما
وبرهما وصومهما
وصلاتهما ولكنهما
يتفاوتان في العقل
كالذرة في جنب أحد»
وروى عن وهب بن

(١) حديث لوتعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا الحديث تقدم غير مرة (٢) حديث النهى عن إفشاء سر القدر ابن عدى وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر القدر سر الله فلا تنشوا لله عز وجل سره انظر أبي نعيم وقال ابن عدى لا تتكلموا في القدر فانه سر الله الحديث وهو ضعيف وقد تقدم (٣) حديث إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا الحديث الطبراني وابن حبان في الضعفاء وتقدم في العلم (٤) حديث أنه خص حذيفة ببعض الأسرار تقدم .

وتجول في نواحي الأرض أما ترى للدر والحجر والشجر لا يتعدى شيء منها مكانه ولا يتحرك بنفسه إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوي القاهر أما ترى أيدي الوحي تساوي في صورة اللحم والعظم والدم ثم لامعاملة بينها وبين القلم فأنا أيضا من حيث أنا لامعاملة بيني وبين القلم فسل القدرة عن شأني فإني مركب أزهي من ركبتي فقال صدقت ثم سألت القدرة عن شأنها في استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها فقالت دع عنك لومي ومعاتبتي فكم من لأم ملوم وكم من ملوم لا ذنب له وكيف خفي عليك أمرى وكيف ظننت أنني ظلمت اليد لما ركبته وقد كنت لها راكبة قبل التحريك وما كنت أحركها ولا أستسخرها بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بي أنني ميتة أو معدومة لأنني ما كنت أتحرك ولا أحرك حتى جاءني موكل أزهي وأرهقني إلى ما تراه مني فكانت لي قوة على مساعدته ولم تكن لي قوة على مخالفته وهذا هو كل يسمى الإرادة ولا أعرفه إلا باسمه وهجومه وصياله إذ أزهي من غمرة النوم وأرهقني إلى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورأيتي فقال صدقت ثم سألت الإرادة ما الذي جراك على هذه القدرة الساكنة الطمئنة حتى صرقتها إلى التحريك وأرهقتها إليه إرهاقا لم نجد عنه مخلصا ولا مناصا فقالت الإرادة لا تتجمل على فعلنا فعندرا وأنت تلوم فإني ما تهضت بنفسى ولكن أنهضت وما انبعثت ولكني بعثت بحكم قاهر وأمر جازم وقد كنت ساكنة قبل بحبيته ولكن ورد على من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة فأشخصتها باضطراب فإني مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ولا أدري بأي جرم وقعت عليه وسخرت له وألزمت طاعته لكني أدري أنني في دعة وسكون مالم يرد على هذا الوارد القاهر وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقعت عليه وقفا وألزمت طاعته إثر ما بل لا يبقى لي معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة لعمري مادام هو في التردد مع نفسه والتعير في حكمه فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه فإذا انجز حكمه أزيجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه فسل العلم عن شأني ودع عنى عتابك فإني كما قال القائل :

مق ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراجلون م

قال صدقت وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالباً لهم ومعاتباً إليهم على استنباط الإرادة وتسخيرها لإشخاص القدرة فقال العقل أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسى ولكن أشعلت وقال القلب أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسى ولكن بسطت وقال العلم أما أنا فنقش نقشت في يابض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسى فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عنى فسل القلم عنى لأن الخط لا يكون إلا بالقلم فصد ذلك تمنع السائل ولم يقنعه جواب وقال قد طال عمي في هذا الطريق وكثرت منازل ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره ولكن كنت أظن أنني قد تجاوزت التردد لما كنت أسمع كلاماً مقبولاً في الفؤاد وعذرا ظاهرا في دفع السؤال فأما قولك إني خط ونقش وإنما خطني قلم فلست أفهمه فإني لأعلم قلما إلا من القصب واللوحة إلا من الحديد أو الخشب ولا خط إلا بالحبر ولا سراج إلا من النار وإني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولأشاهد من ذلك شيئا أصعب جمجمة ولا أرى طعنا فقال له القلم إن صدقت في ما قلت فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف . واعلم أن المهالك في الطريق التي توجهت إليها كثيرة فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت فيه لما هذا بمشك فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له وإن كنت راغبا في استتمام الطريق إلى القصد فألق ميمك وأنت شهيد . واعلم أن العوالم في طريقك هذا ثلاثة عالم الملك والشهادة أولها وقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم وقد تجاوزت

منبه أنه قال إني أجد في سبعين كتابا أن جميع ما أعطى الناس من بدء الدنيا إلى انقطاعها من العقل في جنب عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم كهيئة رملة وقعت من بين جميع رمال الدنيا. واختلف الناس في ماهية العقل والكلام في ذلك بكثرة ولا تؤثر نقل الأقاويل وليس ذلك من غرضنا هال قوم : العقل من العلوم فإن الخالي من جميع العلوم لا يوصف بالعقل وليس العقل جميع العلوم فإن الخالي عن معظم العلوم يوصف بالعقل وقالوا ليس من العلوم النظرية فإن من

تلك للنازل على سهولة والثاني عالم الملكوت وهو ورأى فاذا جاوزته انتهى إلى منازل وفيه المهامه والقيح والجبال الشاهقة والبحار العذبة ولا أدري كيف تسلم فيها والثالث وهو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها منزل القدرة والارادة والعلم وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت لأن عالم الملك أسهل منه طريقاً وعالم الملكوت أوعر منه منهجاً وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرض وللماء فلا هي في حدة اضطراب الماء ولا هي في حدة سكون الأرض ونباتها وكل من يمشى على الأرض يمشى في عالم الملك والشهادة فان جاوزت قوته إلى أن يعوى على ركوب السفينة كان كمن يمشى في عالم الجبروت فان انتهى إلى أن يمشى على الماء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت من غير تمتع فان كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف قد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافي وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب وحصول اليقين الذي يمشى به على الماء أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه السلام «لوا زاد يقينا لشي على الهواء» (١) لما قيل له إنه كان يمشى على الماء فقال السائل قد تحيرت في أمرى واستشعر قلبي خوفاً مما وصفته من خطر الطريق ولست أدري أطيق قطع هذه المهامه التي وصفتها أم لا فهل لذلك من علامة؟ قال نعم افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوى فإن ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب فيشبه أن تكون أهلاً لهذا الطريق فان كل من جاوز عالم الجبروت وقرع باباً من أبواب الملكوت كوشف بالقلم أما ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم في أول أمره كوشف بالقلم إذ أنزل عليه - اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم - فقال السائل لقد نجت بصري وحدقته فوالله ما أرى قسماً ولا خشباً ولا أعلم قلماً إلا كذلك فقال العلم لقد أبدت النجمة أما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الدوات فكذلك لا تشبه يده الأيدي ولا قلبه الأقلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت فليس الله تعالى في ذاته بجسم ولا هو في مكان بخلاف غيره ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدي ولا قلبه من نضب ولا لونه من خشب ولا كلامه بصوت وحرف ولا خطه رقم ورسم ولا خبره زاج وعص فان كنت لا تشاهد هذا هكذا فأراك إلا عشنا بين حولة التنزيه وأتومة التشبيه مذنباً بين هذا وذال إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فكيف زهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها وزهت كلامه عن معاني الحروف والأصوات وأخذت تتوقف في يده وقلبه ولوحه وخطه فان كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله خالق آدم على صورته» الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكيف مشبهاً مطلقاً كما يقال كن يهودياً صرفاً وإلا فلا تلب بالتوراة وإن فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصار لا بالأبصار فكيف منزهاً صرفاً ومقدساً خفياً واطو الطريق فانك بالواد المقدس طوى واستمع بسر قلبك لما يوحى فاعلمك نجد على النار هدى ولعلك من سرادقات العرش تتأدى بما نودي به موسى - إن أنا ربك - فلما سمع السائل من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وأنه عنت بين التشبيه والتنزيه فاشتعل قلبه ناراً من حدة غضبه على نفسه لما رآها بين النقص ولقد كان زيتته الذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء ولولم تحسه نار لما نفع فيه العلم بحدته اشتعل زيته فأصبح نوراً على نور فقال له العلم اغتم الآن هذه الفرصة واخضع بصرك لملك نجد على النار هدى ففتح بصره فانكشف له القلم الإلهي

(١) حديث قيل له إن عيسى يمشى على الماء قال لو زاد يقينا لشي على الهواء تقدم .

شرط ابتداء النظر
تقدم كمال العقل فهو
إذن من العلوم
الضرورية وليس هو
جميعها فان صاحب
الحواس المختلفة عاقل
وقد علم بعض
مدارك العلوم
الضرورية. وقال بعضهم
العقل ليس من أقسام
العلوم لأنه لو كان منها
لوجب المحصم بأن
الداهل عن ذكر
الاستحالة والجواز
لا يتصف بكونه عاقل
ونحن نرى العاقل في
كثير من أوقاته ذاهلاً
وقالوا هذا العقل صفة
يتبها بها درك العلوم .
وتقل عن الحرث بن
أسد المحاسبي وهو من
أجل الشايخ أنه قال

فأذا هو كما وصفه العلم في التزييه ما هو من خشب ولا قصب ولا له رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم وكان له في كل قلب رأسا ولأرأس له قبضته منه العجب وقال نعم الرفيق العلم جزاء الله تعالى عنى خيرا إذا الآن ظهر لي صدق أنباءه عن أوصاف القلم فاني أراه قلما لا لأقلام فصد هذا ودع العلم وشكره وقال قد طال مقامى عندك ومرادنى لك وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم وأسأله عن شأنه فسافر إليه وقال له: ما بالك أيها القلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم ماتت به الارادات إلى أشخاص القدر وصر فيها إلى اللقدورات فقال أوقد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة وصمحت من جواب القلم إذ سأته فأحالك على اليد قال لم أنسى ذلك قال فجوابى مثل جوابه قال كيف وأنت لا تشبهه قال القلم أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته قال نعم قال فسل عن شأنى الملقب يمين الملك فاني في قبضته وهو الذي يردنى وأنا متهمور مسخر فلا فرق بين القلم الإلهى وقلم آدمى في معنى التسخير وإنما الفرق في ظاهر الصورة فقال فمن يمين الملك فقال القلم أما سمعت قوله تعالى - والسماوات مطويات بيمينه - قال نعم قال والأقلام أيضا في قبضة يمينه هو الذى يردّها فسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائب ما يزيد على عجائب القلم لا يجوز وصف شئ من ذلك ولا شرحه بل لا تحوى مجلدات كثيرة عشر عشر وصفه والجملة فيه أنه يمين لا كالأيمان ويد لا كالأيدي وأصبع لا كالأصابع فرأى القلم محركا في قبضته فظهر له عذر القلم فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم فقال جوابى مثل ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة وهى الحوالة على القدرة إذ لا يد لك حكم لها فى نفسها وإنما محرکها القدرة لا محالة فسافر السالك إلى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استحق عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين فقالت إنما أنا صفة فاسأل القادر إذ الصمد على الموصوفات لا على الصفات وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجرأة لسان السؤال فثبت بالقول الثابت ونودى من وراء حجاب سرادقات الحضرة - لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون - فحشيتة هية الحضرة غر صفا يضرب في غشيتة فلما أفاق قال سبحانك ما أعظم شأنك تبت إليك وتوكلت عليك وآمنت بأنتك الملك الجبار الواحد القهار فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بفضوك من عقابك وبرضاك من سخطك ومالى إلا أن أسألك وأتضرع إليك وأبتهل بين يديك فأقول : اشرح لى صدرى لأعرفك واحلل عقدة من لساني لأتقن عليك فنودى من وراء الحجاب إياك أن تطمع فى الثناء وتزيد على سيد الأنبياء بل ارجع إليه فما آتاك غفده وما نهاك عنه فاتته عنه وما قاله لك قلله فانه ما زاد فى هذه الحضرة على أن قال « سبحانك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك (١) » فقال إلهى إن لم يكن لسان جرأة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع فى معرفتك فنودى إياك أن تتخطى رقاب الصديقين فأرجع إلى الصديق الأكبر فأتدبه فان أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم بأبهم اقتديتم اهتديتم أما سمعته يقول العجز عن درك الإدراك إدراكك فيك كيف نصيما من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جماعنا وجلالنا فنصد هذا رجوع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاناته وقال لليمين والقلم والعلم والإزادة والقدرة وما بعدها اقبلوا عذرى فاني كنت غريبا حديث العهد بالدخول فى هذه البلاد ولكل داخل دهشة لما كان إنكارى عليكم إلا عن قصور وجهل والآن قد صبح عندي عذركم وانكشف لى أن للنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته مرددون فى قبضته وهو الأول والآخرو الظاهر والباطن فلماذا كرت ذلك فى عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيل له كيف يكون هو الأول والآخروهما وصفان متناقضان وكيف يكون هو الظاهر والباطن فالأول ليس بآخر والظاهر ليس يباطن فقال هو الأول بالاضافة إلى الموجودات إذ صدر منه الشكل على ترتيبه واحد ابدا وهو الآخر

(١) حديث سبحانك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك تقدم .

العقل غريزة يتبها بها
درك العلوم وعلى هذا
يتقرر ما ذكرناه فى
أول ذكر العقل : أنه
لسان الروح لأن
الروح من أمر الله
وهى المتحملة للأمانة
التي أبت السماوات
والأرضون أن يحملنها
ومنها يفيض نور
العقل وفى نور العقل
تشكل العلوم فالعقل
للعلوم بمثابة الروح
للسكتوب وهو صفته
منكوس متطلع إلى
النفس تارة ومنتصب
مستقيم تارة فمن كان
العقل فيه منكوسا
إلى النفس فرقه فى
أجزاء السكون وعدم
حسن الاعتدال
بذلك وأخطأ طريق

بالإضافة إلى سير السائرين إليه فانهم لا يزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة فيكون ذلك آخر السفر فهو آخر في الشهادة أول في الوجود وهو باطن بالإضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لأدراكه بالحواس الخمس ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد في الفعل : أعنى من انكشف له أن الفاعل واحد . فان قلت فقد انتهى هذا التوحيد إلى أنه يتنى على الإيمان بعالم الملكوت فمن لم يفهم ذلك أو يجده فطريقه ؟ فأقول : أما الجاحد فلا علاج له إلا أن يقال له إنكارك لعالم الملكوت كأنكار السمنية لعالم الجبروت ، وهم الذين حصروا العلوم في الحواس الخمس فأنكروا القدرة والإرادة والعلم لأنها لا تدرك بالحواس الخمس فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس ، فان قال وأنا منهم فاني لأهتدي إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيئاً سواه ، فيقال إنكارك لما شاهدناه بما وراء الحواس الخمس كأنكار السوفسطائية للحواس الخمس فانهم قالوا ماتراه لاشق به فلعلنا نراه في المنام ، فان قال وأنا من جملتهم فاني شاك أيضاً في المحسوسات فيقال هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه فترك أياماً قلائل وماكل مريض يقوى على علاجه الأطباء هذا حكم الجاحد . وأما الذي لا يجحد ولكن لا يفهم طريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه التي يشاهد بها عالم الملكوت فان وجدوها صحيحة في الأصل وقد نزل فيها ماء أسود يقبل الأزالة والتقية اشتغلوا بتقيته اشتغال الكحال بالأبصار الظاهرة فاذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه فان كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذي ذكرناه في التوحيد ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرات الملك ولللكوت شهادة التوحيد كلوه بحرف وصوت وردوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه فان في عالم الشهادة أيضاً توحيدا إذ يعلم كل أحد أن للزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد بأمرين فيقال له على حد عقوله إلى العالم واحد والمدير واحد إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فيكون ذلك على ذوق مارآء في عالم الشهادة فيفسد اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله وقد كلف الله الأنبياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، ولذلك نزل القرآن بلسان العرب على حد عاداتهم في المحاورة . فان قلت فمثل هذا التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عمادا للتوكل وأصلا فيه ؟ فأقول نعم فان الاعتقاد إذا قوى عمل عمل الكشفي في إثارة الأحوال إلا أنه في الغالب يفضو يتسارع إليه الاضطراب والتزلزل غالبا ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التي تلقها من أستاذه أو من أبويه أو من أهل بلده . وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شيء من ذلك بل لو كشف النطاء لما ازداد يقينا وإن كان يزداد وضوحا كما أن الذي يرى إنسانا في وقت الإسفار لا يزداد يقينا عند طلوع الشمس بأنه إنسان ولكن يزداد وضوحا في تفصيل خلقته وامثال للكاشفين والمتقدين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامري فان سحرة فرعون لما كانوا مطالبين على منتهى تأثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الأمر فلم يكثرثوا بقول فرعون - لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف - بل - قالوا لن نؤثر لك على ما جاءنا من البنات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا - فان البيان والكشف يمنع التغير . وأما أصحاب السامري لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثمبان فما نظروا إلى عجل السامري ومموا خواره تغيروا ومموا قوله - هذا الحكم وإله موسى - ونسوا أنه لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم صرا ولا نفعا فكل من آمن بالنظر

الاهتداء ومن اتصب العقل فيه واستقام تأيد العقل بالبصيرة التي هي لروح بمثابة القلب واهتدى إلى الصكون ثم عرف الكون بالكون مستوفيا أقسام المعرفة بالكون والكون فيكون هذا العقل عقل الهداية فكما أحب الله إقباله في أمره دل على إقباله عليه وما كرهه الله في أمره دل على الادبار عنه فلا يزال يتبع محاب الله تعالى ويحجب مسأخطة وكلما استقام العقل وتأييد بالبصيرة كانت دلالاته على الرشد ونهيه عن الشيء . قال بعضهم : العقل على

إلى ثمان يكفر لاحالة إذا نظر إلى مجل لأن كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد في عالم الشهادة كثير . وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فلذلك لا نجد فيه اختلافا وتضادا أصلا . فان قلت ما ذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت أن الوسائط والأسباب مسخرات وكل ذلك ظاهر إلا في حركات الانسان فانه يتحرك إن شاء ويسكن إن شاء فكيف يكون مسخرا . فاعلم أنه لو كان مع هذا إيشاء إن أراد أن يشاء ولا يشاء إن لم يرد أن يشاء لكان هذا منزلة التقدم وموقع الغلط لو كان علم أنه يفعل ما يشاء إذا شاء أن يشأ أم لم يشأ فليست المشيئة إليه إذ لو كانت إليه لاختفت إلى مشيئة أخرى وتسلسل إلى غير نهاية وإذا لم تكن المشيئة إليه فهما وجدت المشيئة التي تصرف القدرة إلى مقدورها انصرفت القدرة لاحالة ولم يكن لها سبيل إلى الخالفة للحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة متحركة ضرورة عند انجزام المشيئة فالمشيئة تحدث ضرورة في القلب فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة إلى التقدير بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة فهو مضطر في الجميع . فان قلت فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار وأنت لا تنكر الاختيار فكيف يكون مجورا مختارا . فأقول لو انكشف الغطاء لعرفت أنه في عين الاختيار مجبور فهو إذن مجبور على الاختيار فكيف يفهم هذا من لا يفهم الاختيار ، فلنشرح الاختيار بلسان التكلمين شرحا وجيزا يليق بما ذكر متظفلا وتابعا فان هذا الكتاب لم يقصد به إلا العلم العاملة ، ولكني أقول لفظ الفعل في الانسان يطلق على ثلاثة أوجه : إذ يقال الانسان يكتب بالأصابع ويتنفس بالرئة والخنجرة ويحرق الماء إذا وقف عليه بحممه فينسب إليه الحرق في الماء والتنفس والكتابة ، وهذه الثلاثة في حقيقة الاضطرار والجبر واحدة ولكنها تختلف وراء ذلك في أمور فأعرب لك عنها بثلاث عبارات فنسعى خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فلا طبيعيا ونسعى تنفسه فلا إراديا ونسعى كتابته فلا اختياريا والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي لأنه مهما وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح للهواء انحرق الهواء لاحالة فيكون الحرق بعد التخطى ضروريا والتنفس في معناه فان نسبة حركة الخنجرة إلى إرادة التنفس كنسبة انحراق الماء إلى ثقل البدن فهما كان الثقل موجودا وجد الانحراق بصدده وليس الثقل اليه وكذلك الارادة ليست اليه ، ولذلك لو قصد عين الانسان بإبرة طبق الأجنان اضطرارا ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر مع أن تضيض الأجنان اضطرارا فإرادى ولكنه إذا تمثل صورة الإبرة في مشاهدته بالادراك حدثت الارادة بالتمضيض ضرورة وحدثت الحركة بها ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه مع أنه فعل بالقدرة والارادة فقد التحق هذا بالفعل الطبيعي في كونه ضروريا . وأما الثالث وهو الاختيارى فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق وهو الذى يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل وثارة إيشاء وثارة لا يشاء فيظن من هذا أن الأمر اليه وهذا الجبر بمعنى الاختيار فلنكشف عنه ، ويانه أن الارادة تبع للعلم الذى يحكم بأن الشيء موافق لك والأشياء تنقسم إلى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تخير وتردد وإلى ما قد يتردد العقل فيه فالذى تقطع به من غير تردد أن يقصد عينك مثلا بإبرة أو بدتك بسيف فلا يكون في علمك تردد في أن دفع ذلك خير لك وموافق فلا جرم تنبعت الارادة بالعلم والقدرة بالارادة وتحصل حركة الأجنان بالدفع وحركة اليد بدفع السيف ولكن من غير روية وفكرة ويكون ذلك بالارادة ومن الأشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه فلا يدري أنه موافق أم لا فيحتاج الى روية وفكر حتى يتميز أن الخير في الفعل أو الترك فإذا حصل بالفكر والرؤية العلم بأن أحدهما خير التحق ذلك بالذى يقطع به من غير روية وفكر فانبعثت الارادة ههنا كما تنبعت لدفع السيف والسنان فإذا انبعثت لفعل ما ظهر للعقل

ضربين ضرب يعصر به أمر دنياه وضرب يعصر به أمر آخرته ، وذكر أن العقل الأول من نور الروح والعقل الثاني من نور الهداية فالعقل الأول موجود في عامة ولد آدم والعقل الثاني موجود في الموحدين مفقود من المشركين . وقيل إنما يسمى العقل عقلا لأن الجهل ظلمة فإذا غلب النور بصبره في تلك الظلمة زالت الظلمة فأبصر فعقل العقل والجهل ، وقيل عقل الإنسان مستصحب في التصدي ومتمم له في الصدور يتلوه عيني القماد والذى ذكرناه عن كون العقل لسان

أنه خير سميت هذه الإرادة اختياراً مشتقاً من الخير أي هو انبعاث إلى مظهر للعقل أنه خير وهو عين تلك الإرادة ولم ينتظر في انبعاثها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل في حقه إلا أن الخيرية في دفع السيف ظهرت من غير روية بل على البديهة وهذا افتقر إلى الروية فلاختيار عبارة عن إرادة خاصة وهي التي انبعت بإشارة العقل فبالله في إدراكه توقف وعن هذا قيل إن العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين وشر الشرين ولا يتصور أن تنبثق الإرادة إلا بحكم الحس والتخييل أو بحكم جزم من العقل ولذلك لو أراد الإنسان أن يحز رقبة نفسه مثلاً لم يمكنه لالعدم القدرة في اليد والعدم السكين ولكن لفقد الإرادة الداعية للشخصة للقدرة وإنما فقدت الإرادة لأنها تنبث بحكم العقل أو الحس بكون الفعل موافقاً وقتله نفسه ليس موافقاً له فلا يمكنه مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه إلا إذا كان في عتوبة، وولة لا تطاق فإن العقل هنا يتوقف في الحكم ويتردد لأن تردده بين شر الشرين فإن ترجح له بعد الروية أن ترك القتل أقل شراً لم يمكنه قتل نفسه وإن حكم بأن القتل أقل شراً وكان حكمه جزماً لا ميل فيه ولا صارف منه انبعت الإرادة والقدرة وأهلك نفسه كالذي يتبع بالسيف للقتل فإنه يرمى بنفسه من السطح مثلاً وإن كان مهلكاً ولا يبالي ولا يمكنه أن لا يرمى نفسه فإن كان يتبع بضرب خفيف فإن انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمي فوقفت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمى نفسه ولا تنبث له داعية البتة لأن داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس والقدرة مسخرة للداعية والحركة مسخرة للقدرة والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدري فأنما هو محل ومجرى لهذه الأمور فأما أن يكون منه فكلاً ولا فاذن معنى كونه مجبوراً أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لامنه ومعنى كونه مختاراً أنه محل لإرادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً محضاً موافقاً وحدث الحكم أيضاً جبراً فإذ هو مجبور على الاختيار ففعل النار في الاحراق مثلاً جبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض وفعل الإنسان على منزلة بين الترتين فإنه جبر على الاختيار فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة لأنها كانت ذاتاً واتموا فيه بكتاب الله تعالى فسموه كسباً وليس مناقضاً للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه وفعل الله تعالى يسمى اختياراً بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تمييز وتردد فإن ذلك في حقه محال وجميع الألفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن أن تستعمل في حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ويطول القول فيه . فإن قلت فهل تقول إن العلم ولد الإرادة والإرادة ولدت القدرة والقدرة ولدت الحركة وأن كل متأخر حدث من المتقدم . فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لا من قدرة الله تعالى وإن أبيت ذلك فإمعن ترتب البعض من هذا على البعض . فاعلم أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الذي يعبر عنه بالقدرة الأزلية وهو الأصل الذي لم يبق كافة الخلق عليه إلا الراسخون في العلم فأنهم وقفوا على كنهه ومعناه والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيد عن الحق وبيان ذلك يطول ولكن بعض المقدمات مترتب على البعض في الحدوث ترتب الشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ولا علم إلا بعد حياة ولا حياة إلا بعد محل الحياة وكما لا يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذي هو شرط الحياة فكذلك في سائر درجات الترتيب ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة وبعضها لم يظهر إلا للخواص المكشوفين بنور الحق والإفلا يتقدم متقدماً ولا يتأخر متأخراً إلا بالحق والزموم وكذلك جميع أفعال الله تعالى ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثاً يضاهاه فعل المجانين تعالى الله عن قول الجاهلین علواً كبيراً وإلى هذا أشار قوله تعالى - وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون - وقوله تعالى - وما خلقتنا السموات والأرض وما بينهما

الروح وهو عقل واحد ليس هو على ضربين ولكنه إذا انتصب واستقام تأيد بالبصيرة واعتدل ووضع الأشياء في مواضعها وهذا العقل هو العقل المستضيء بنور الشرع لأن انتصابه واعتداله هداة إلى الاستضاءة بنور الشرع لكون الشرع ورد على لسان النبي المرسل وذلك لقرب روحه من الحضرة الإلهية ومكاشفة بصيرته التي هي للروح بمثابة القلب بقدرة الله وآياته واستقامة عقله بتأيد البصيرة فالبصيرة تحيط بالمعلوم التي يستوعبها العقل والتي

لا عين . ما خلقناهما إلا بالحق - فكل ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور أن يكون إلا كحادث وعلى هذا الترتيب الذي وجد فما تأخر متأخراً إلا لانتظار شرطه وللشروط قبل الشرط محال والحال لا يوصف بكونه مقدوراً فلا يتأخر العلم عن النطفة إلا لفقد شرط الحياة ولا يتأخر عنها الإرادة بعد العلم إلا لفقد شرط العلم وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق ليس في شيء من ذلك لعب واتفاق بل كل ذلك بحكمة وتديرو تفهيم ذلك عسير ولكننا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثالا يقرب مبادئ الحق من الأفهام الضعيفة وذلك بأن تقدر إنسانا محدثاً قد اتقى في الماء إلى رقبته فالحدث لا يرتفع عن أعضائه وإن كان الماء هو الرفع وهو ملاقه فقدر القدرة الأزلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقة الماء للأعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل لرفع الحدث بالماء انتظاراً للشرط وهو غسل الوجه فإذا وضع الواقف في الماء وجهه على الماء عمل الماء في سائر أعضائه وارتفع الحدث فربما يظن الجاهل أن الحدث ارتفع عن اليدين برضه عن الوجه لأنه حدث عقبيه إذ يقول كان الماء ملاقياً ولم يكن رافعا والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه، فإذن غسل الوجه هو الرفع للحدث عن اليدين وهو جهل بضاهي ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالارادة والإرادة بالعلم وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاق لها بغسل الوجه والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيها شيء ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة فهكذا ينبغي أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الأزلية مع أن القدرة قديمة والمقدورات حادثة وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكشفات فلتترك جميع ذلك فإن مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل فإن الفاعل بالحقيقة واحد فهو الخوف والمرجو وعليه التوكل والاعتماد ولم تقدر على أن نذكر من محار التوحيد إلاقطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد واستيفاء ذلك في عمر نوح محال كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه وكل ذلك ينطوي تحت قول لا إله إلا الله وما أخف مؤثته على اللسان وما أسهل اعتقاد مفهومه انظره على القلب وما أعز حقيقته وله عند العلماء الراسخين في العلم فكيف عند غيرهم . فان قلت فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ومعنى التوحيد أن لا فاعل إلا الله تعالى ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد فإن كان العبد فاعلاً فكيف يكون الله تعالى فاعلاً وإن كان الله تعالى فاعلاً فكيف يكون العبد فاعلاً ومفعول من فاعلين غير مفهوم . فأقول نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد وإن كان له معنيان ويكون اسم مجمل مراداً بينهما لم يتناقض كما يقال قتل الأمير فلانا ويقال قتله الجلاد ولكن الأمير قاتل بمعنى والجلاد قاتل بمعنى آخر فكذلك العبد فاعل بمعنى والله عز وجل فاعل بمعنى آخر فمضى كون الله تعالى فاعلاً أنه المخرع الموجد ومعنى كون العبد فاعلاً أنه المحل الذي خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم فارتبطت القدرة بالارادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط وارتبطت القدرة بالله فارتبطت المعلول بالعلة وارتبطت المخرع بالمتخرع وكل ماله ارتباط بقدرة فان محل القدرة يسمى فاعله كيفما كان الارتباط كما يسمى الجلاد قاتلاً والأمير قاتلاً لأن القتل ارتبط بقدرة هما ولكن على وجهين مختلفين فلذلك سمى فاعلهما فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال في القرآن مرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد ونسبها بعينها مرة أخرى إلى نفسه فقال تعالى في الموت - قل يتوفاكم ملك الموت - ثم قال عز وجل - الله يتوفى الأنفس حين موتها وقال تعالى - أفرأيتم ما تعمرنون - أضاف إليهم قال تعالى - أنا صابنا الماء صبائهم شققنا الأرض شققاً فابتنا فيها حبا وعنيا - وقال عز وجل - فأرسلنا إليهم باروخنا فتمثل لها بشراسوايا - ثم قال تعالى - ففخنا فيها من روحنا وكان النافع جبريل عليه

يضيق عنها نطاق العقل لأنها تستمد من كليات الله التي يفسد البحر دون فادها والعقل ترجمان تؤدي البصيرة إليه من ذلك شطرا كما يؤدي القلب إلى اللسان بعض ما فيه ويستأثر ببعضه دون اللسان ولهذا المعنى من حمد على مجرد العقل من غير الاستضاءة بنور الشرع حظى بعلوم الكائنات التي هي من الملك والملك ظاهر الكائنات ومن استضاء عقله بنور الشرع تأيد بالبصيرة فاطلع على الملكوت والملكوت باطن الكائنات اختص بكاشفته أرباب البصائر

السلام وكما قال تعالى - فاذا قرأناه فاتبع قرآنه - قيل في التفسير معناه إذا قرأه عليك جبريل .
وقال تعالى - قاتلوم بدينهم الله بأيديكم - فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه والتعذيب هو
عين القتل بل صرح وقال تعالى - فلم تقتلوم ولكن الله قتلهم - وقال تعالى - وما رميت إذ
رمىت ولكن الله رمى - وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهرا ولكن معناه وما رميت بالمعنى الذي
يكون الرب به راميا إذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به راميا ، إذ هما معنيان مختلفان . وقال
الله تعالى - الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم - ثم قال - الرحمن علم القرآن - وقال - علمه
البيان - وقال - ثم إن علينا بيانه - وقال - أفرايتم ما عنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون - ثم
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف ملك الأرحام «إنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة في يده
ثم بصورها جسدا ، فيقول يارب أذكر أم أنثى أسوى أم معوج فيقول الله تعالى ماشاء ويخلق
الملك (١)». وفي لفظ آخر «ويصور الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة». وقد قال بعض
السلف إن الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الأرواح في الأجساد ، وأنه يتنفس بوصفه
فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلجج في جسم ولذلك سمى روحا وما ذكره في مثل هذا الملك
وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب يصائرهم فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم
إلا بالنقل والحكم به دون النقل تخمين مجرد وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الأدلة والآيات
في الأرض والسموات ثم قال - أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد - . وقال - شهد الله أنه
لا إله إلا هو - فيبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا بل طرق الاستدلال مختلفة فكم من
طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات ، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما
قال بعضهم عرفت ربي ولولا ربي لما عرفت ربي وهو معنى قوله تعالى - أولم يكف بربك أنه
على كل شيء شهيد - وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحيي والمميت ثم فوض الموت والحياة إلى
ملكين ففي الخبر «أن ملكي الموت والحياة تناظرا ، فقال ملك الموت أنا أميت الأحياء ، وقال ملك
الحياة أنا أحى الموتى فأوحى الله تعالى إليهما كونا على عملكما وما سخرتكما له من الصنع وأنا المحيي
والمحيي لا يعيت ولا يحيى سواي (٢)» فاذن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تناقض هذه المعاني
إذا فهمت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للذي ناوله التمرة «خذها لولم تأتها لأنتك (٣)» أضاف
الائتان إليه وإلى التمرة ، ومعلوم أن التمرة لا تأتي على الوجه الذي يأتي الإنسان إليها وكذلك لما
قال الثائب أنوب إلى الله تعالى ولا أنوب إلى محمد فقال صلى الله عليه وسلم «عرف الحق لأهله (٤)»

(١) حديث وصف ملك الأرحام أنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم بصورها جسدا الحديث
البراز وابن عدى من حديث عائشة إن الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكا
فيدخل الرحم فيقول يارب ماذا الحديث وفي آخره فإمن شيء إلا وهو يخلق معه في الرحم وفي صنده
جهالة وقال ابن عدى إنه منكر ، وأصله متفق عليه من حديث ابن سمود بنحوه (٢) حديث
إن ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت أنا أميت الأحياء وقال ملك الحياة أنا أحى الأموات
فأوحى الله إليهما أن كونا على عملكما الحديث لم أجده أصلا (٣) حديث قال للذي ناوله التمرة
خذها لولم تأتها لأنتك ابن حبان في كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل بن شرحبيل ووصله الطبراني
عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح (٤) حديث إنه قال للذي قال أنوب إلى الله ولا أنوب إلى
محمد عرف الحق لأهله تقدم في الزكاة .

والعقول دون الجامدين
على مجرد العقول دون
البصائر وقد قال بعضهم
إن العقل عقول عقل
للهدية مسكنة في القلب
وذلك للمؤمنين الموقنين
ومتعملة في الصدرين
عيني الفؤاد والعقل
الأخر مسكنة في الدماغ
ومتعملة في الصدرين
عيني الفؤاد قبل الأول
يدبر أمر الآخرة ،
وبالثاني يدبر أمر
الدنيا والذي ذكرناه
أنه عقل واحد إذا
تأيد بالبصيرة دبر
الأمرين وإذا تفرد
دبر أمرا واحدا وهو
أوضح وأبين ، وقد
ذكرنا في أول الباب
من تديره للنفس
الطمشة والأمانة

فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة ومن أضافه إلى غيره فهو التجوز والستير في كلامه وللتجوز وجه كما أن للحقيقة وجها واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ولكن ظن أن الانسان مخترع بقدرته فيها فاعلا بمحركته وظن أنه تخفيق وتوهم أن نسبه إلى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل إلى الأمير فانه مجاز بالاضافة إلى نسبه إلى الجلال فلما انكشف الحق لأهله عرفوا أن الأمر بالعكس وقالوا إن الفاعل قد وضعه أيها اللغوي للمخترع فلا فاعل إلا الله فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز أي تجوز به عما وضعه اللغوي له ولما جرى حقيقة للعق على لسان بعض الأعراب قصدا أو اتفاقا صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «أصدق بيت قاله الشاعر قول لبيد: • ألا كل شيء ما خلا الله باطل» (١) أي كل ما لا تقوام له بنفسه وإنما قوامه بغيره فهو باعتبار نفسه باطل وإنما حقيقته وحقيقته بغيره لا بنفسه فاذن لاحق بالحقيقة إلا الحى القيوم الذى ليس كمثله شيء فانه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته فهو الحق وما سواه باطل ولذلك قال سهل: يا مسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا كمن الآن كما لم تكن فانه اليوم كما كان. فان قلت قد ظهر الآن أن الكل جبر فلما معنى الثواب والعقاب والنضب والرضا وكيف غضبه على فعل نفسه. فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا إليه في كتاب الشكر فلان طول باعادته فهذا هو القدر الذى رأينا الرمز إليه من التوحيد الذى يورث حال التوكل ولا يتم هذا إلا بالايان بالرحمة والحكمة فان التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب والايان بالرحمة وسعتها هو الذى يورث الثقة بمسبب الأسباب ولا يتم حال التوكل كما سياتى إلا بالائتلاف بالوكيل وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل وهذا الايمان أيضا باب عظيم من أبواب الايمان وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقادا قاطعا لا يسترهب فيه وهو أن يصدق تصديقا يقينيا لا ضعف فيه ولا ريب أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من العلم ما تختمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لا ينهى لوصفها ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضرر ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزداد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولأن ينقص منها جناح بعوضة ولأن يرفع منها ذرة ولأن ينقص منها ذرة ولأن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضرر عمن بلى به ولأن يزال حصه أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وهجر وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل محض لا جور فيه وحق صرف لا ظلم فيه بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينصفى وكما ينصفى والقدر الذى ينصفى وليس فى الامكان أصلا أحسن منه ولا أتم ولا أكل ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفضله لكان بخلا يناقض الجود وظلما يناقض العدل ولو لم يكن قادرا لكان مجزا يناقض الالهية بل كل فقر وضرر فى الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة فى الآخرة وكل نقص فى الآخرة بالاضافة إلى شخص فهو نعيم بالاضافة إلى غيره اذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ولولا المرض لما تهم الأصحاء بالصحة ولولا النار

(١) حديث أصدق بيت قاله العرب بيت لبيد: • ألا كل شيء ما خلا الله باطل •

متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ قاله الشاعر وفى رواية لمسلم أشعر كلمة تكلمت بها العرب

ما ينسب الانسان به إلى كونه عقلا واحدا • ويبدأ بالبصيرة تارة ومنفردا بوصفه تارة والله اللهم للربوب [الباب السابع] والخمسون فى معرفة الخواطر وتفصيلها وتميزها]

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردى قال أخبرنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال أنا هناد قال أنا أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مرة الهمداني عن عبد الله بن مسعود

لما عرف أهل الجنة قدر النعمة وكان فداء أرواح الانس بأرواح البهائم وتسليطهم على ذمهم ليس بظلم بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران وفداء أهل الايمان بأهل الكفران عين العدل وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس فان الكمال والنقص يظهر بالاضافة فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعا وكما أن قطع اليد إذا تأكلت إبقاء على الروح عدل لأنه فداء كامل بناقص فكذلك الأمر في التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة فكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لمب فيه وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الأطراف مضطرب الأمواج قريب في السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ولم يعلموا أن ذلك غرض لا يقفه إلا العالمون ووراء هذا البحر سر القدر الذي تغير فيه الأكترون ومنع من إفشاء سره المكشوفون . والحاصل أن الخير والشر مقضى به وقد كان مقضى به واجب الحصول بعد سبق الشبهة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولتقتصر على هذه الرامز من علوم المكاشفة التي هي أصول مقام التوكل ولتراجع إلى علم المعاملة إن شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الشرط الثاني من الكتاب : في أحوال التوكل وأعماله وفيه بيان حال التوكل وبيان ما قاله الشيوخ في حد التوكل وبيان التوكل في الكسب للمنفرد والعمل وبيان التوكل بترك الادخار وبيان التوكل في دفع الضرر وبيان التوكل في إزالة الضرر بالتداوى وغيره والله الموفق برحمته .

بيان حال التوكل

قد ذكرنا أن مقام التوكل ينتظم من علم وحال وعمل وذكرنا العلم فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه وإنما العلم أصله والعمل عمرته وقد أكثر الخاضعون في بيان حد التوكل واختلفت عباراتهم وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حده كما جرت عادة أهل التصوف به ولا فائدة في التقل والاكتثار فلنكشف الغطاء عنه ونقول : التوكل مشتق من الوكالة يقال وكل أمره إلى فلان أي فوضه إليه واعتمد عليه فيه ويسمى الموكل إليه وكيلاً ويسمى المفوض إليه متوكلاً عليه ومتوكلاً عليه مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزاً وتصوراً فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلاً فنقول : من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبس فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبس لم يكن متوكلاً عليه ولا واثقاً به ولا مطمئن النفس بتوكيله إلا إذا اعتقد فيه أربعة أمور : منتهى الهداية ومنتهى القوة ومنتهى الفصاحة ومنتهى الشفقة أما الهداية فيعرف بها مواقع التلبس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شيء أصلاً وأما القدرة والقوة فليستجري على التصريح بالحق فلا يدهن ولا يخاف ولا يستحي ولا يخجل فإنه ربما يطلع على وجه تلبس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف الضعفة للقلب عن التصريح به وأما الفصاحة فهي أيضاً من القدرة إلا أنها قدرة في اللسان على الانصاح عن كل ما استجراً القلب عليه وأشار إليه فلا كل عالم بمواقع التلبس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبس وأما منتهى الشفقة فيكون باعتنا له على بذل كل ما يقدر عليه في حقه من المجهود فان قدرته لا تنفد دون العناية به إذا كان لاجمه أمره ولا يبالي به ظفر خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك فان كان شاكاً في هذه الأربعة أو في واحدة منها أو جوز أن يكون خصمه في هذه الأربعة أكمل منه لم يطمئن نفسه إلى وكيله بل بقي منزوع القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذر منه من قصور

رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للشيطان لمة بابن آدم وللذم لمة فأملأه الشيطان فأباعد بالشر وتكذيب بالحق وأملأه للذم فأباعد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتهود بالله من أبقاه من الشيطان ثم قرأ - الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء - » وإنما يتطلع إلى معرفة اللتين وتمييز الخواطر طالب مر يد يتشوق إلى ذلك تشوق العطشان إلى الماء لما يعلم من وقع ذلك وخطره وفلاحه وصلاحه

وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة أحواله في شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الحاصل فيه والاعتقادات والظنون في القوة والضعف تفاوت تفاوتاً لا ينحصر فلا جرم تفاوت أحوال التوكلين في قوة الطمأنينة والثقة تفاوتاً لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه كما لو كان الوكيل والدلول هو الذي يسعى لجمع الحلال والحرام لأجله فانه يحصل له يقين ينتهي الشفقة والعناية فتصير خصلة واحدة من الحاصل الأربعة قطعية وكذلك سائر الحاصل يتصور أن يحصل القطع به وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنه أضح الناس لساناً وأقواماً بياناً وأقدرهم على نصرة الحق بل على تصور الحق بالباطل والباطل بالحق فإذا عرفت التوكل في هذا المثال فقس عليه التوكل على الله تعالى فإن ثبت في نفسك بكشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والعناية والرحمة بحملة العباد والآحاد وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة اتكل لا محالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوته فانه لا حول ولا قوة إلا بالله كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة فإن الحول عبارة عن الحركة والقوة عبارة عن القدرة فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسيه أحد أمرين إما ضعف اليقين بأحدى هذه الحاصل الأربعة وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وإنزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه فإن القلب قد يزعج تبعاً للوهم وطاعة له عن غير نقصان في اليقين فإن من يتناول عسلاً فشيبه بين يديه بالعذرة ربما نثر طبعه وتعدر عليه تناوله ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت نثر طبعه عن ذلك وإن كان متيقناً بكونه ميتاً وأنه حجاب في الحال وأن سنة الله تعالى مطردة بأنه لا يمضيه الآن ولا يمضيه وإن كان قادر عليه كأنها مطردة بأن لا يقبل القلم الذي في يده حية ولا يقبل السنور أسداً وإن كان قادراً عليه ومع أنه لا يشك في هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الميت في فراش أو البيت معه في البيت ولا ينفر عن سائر الجمادات وذلك جبن في القلب وهو نوع ضعف فلما نخلو الإنسان عن شيء منه وإن قل وقد يقوى فيصير مرضاحتي يخاف أن يبيت في البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه فاذن لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر فكيف من يقين لاطمأنينة معه كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام - أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي - فالتمس أن يكون مشاهداً إحياء الميت بعينه ليثبت في خياله فإن النفس تتبع الحيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تباع بالآخرة إلى درجة النفس الطمئنة وذلك لا يكون في البداية أصلاً ولكن من مطمئن ليقين له كسائر أرباب الملل والمذاهب فإن اليهودي مطمئن القلب إلى تهوده وكذا النصراني ولا يقين لهم أصلاً وإنما يشعرون الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين إلا أنهم معرضون عنه فاذن الجبن والجرأة غرائز ولا ينفع اليقين معها في أحد الأسباب التي تضاد حال التوكل كأن ضعف اليقين بالحاصل الأربعة أحد الأسباب وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى وقد قيل مكتوب في التوراة ما عمن من تقة إنسان مثله وقد قال **عليه السلام** «من استعز بالعبيد أذله الله تعالى (١)» وإذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التي سميت توكل فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات :

وفساده ويكون ذلك عبداً مراداً بالحظوة صفو اليقين ومنع الموقنين وأكسب التشوف إلى ذلك للمقربين ومن أخذ به في طريقهم ومن أخذ في طريق الأبرار قد يتشوف إلى ذلك بعض التشوف لأن التشوف إليه يكون على قدر الهمة والطلب والارادة والحظ ومن الله الكريم من هو في مقام عامة المؤمنين والمسلمين لا يتطاع إلى معرفة اللتين ولا يتم بتمييز الخواطر ومن الخواطر ما هي رسل الله تعالى إلى العبد كما قال بعضهم لي قلب إن عصيته

(١) حديث من اعتر بالعبيد أذله الله العقبلي في الضمراء وأبو نعيم في الحلية من حديث عمر أوردته العقبلي في ترجمة عبد الله بن عبد الله الأموي . وقال لا يتابع على حديثه وقد ذكره ابن جبان في الثقات وقال يخالف في روايته .

الدرجة الأولى : ما ذكرناه وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكلماته وعنايته كحالها في الثقة بالوكيل . الثانية : وهي أقوى أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفرج إلى أحد سواها ولا يعتمد إلا إياها فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يخلها وإن نابه أمر في غيبها كان أول سابق إلى لسانه يأماه وأول خاطر يخطر على قلبه أمه فأنها مفرغته فانه قد وثق بكلماتها وكفائتها وشفتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له ويظن أنه طبع من حيث إن الصبي لو طوب بتفصيل هذه الحاصل لم يقدر على تلقين لفظه ولا على إحضاره مفصلاً في ذهنه ولو كان كل ذلك وراء الإدراك فمن كان بالله إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتاده عليه كاف به كما يكلف الصبي بأمه فيكون متوكلاً حقا فإن الطفل متوكل على أمه والفرق بين هذا وبين الأول أن هذا متوكل وقد نفى في توكله عن توكله إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته بل إلى التوكل عليه فقط فلا مجال في قلبه لغير التوكل عليه . وأما الأول فيتوكل بالتكليف والسكسب وليس فانياً عن توكله لأن له البغايا إلى توكله وشعورابه وذلك شغل صارف عن ملاحظة التوكل عليه وخدمه إلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل ما أدناه قال ترك الأمانى قيل وأوسطه قال ترك الاختيار وهو إشارة إلى الدرجة الثانية . وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه . الثالثة : وهي أعلاها أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتاً تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت وهو الذي قوى يقينه بأنه يجري للحركة والقدرة والارادة والعلم وسائر الصفات وأن كلاً يحدث جبراً فيكون بائناً عن الانتظار لما يجري عليه ويفارق الصبي فإن الصبي يفرج إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها بل هو مثل صبي علم أنه وإن لم يزعق بأمه فالأم تطلبه وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله وإن لم يسألها اللبن فالأم تنامحه وتحميه وهذا المقام في التوكل يشترط ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته وأنه يعطى ابتداء أفضل مما يسأل فكيف من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق والمقام الثاني لا يقتضى ترك الدعاء والسؤال منه وإنما يقتضى ترك السؤال من غيره فقط . فان قلت فهذه الأحوال هل يتصور وجودها . فاعلم أن ذلك ليس بمحال ولكنه عزيز نادر والمقام الثاني والثالث أعزها والأول أقرب إلى الامكان ثم إذا وجد الثالث والثاني فدوامه أبعد منه بل يكاد لا يكون للمقام الثالث في دوامه إلا كصفرة الوجه فان انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوة والأسباب طبع وانقباضه عارض كما أن انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع وانقباضه عارض والوجه عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن حتى تتمحى عن ظاهر البشرة الحجرة التي كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة فان البشرة ستر رقيق تراءى من وراءه حمرة الدم وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم وكذا انقباض القلب بالسكسية عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم وأما المقام الثاني فيشبه صفرة المحموم فإنه قد يدوم يوماً ويومين والأول يشبه صفرة مريض استحكمت مرضه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يزول . فان قلت فهل يبقى مع العبد تديروا وتعلق بالأسباب في هذه الأحوال ؟ فاعلم أن المقام الثالث ينفي التديروا رأساً مادامت الحالة باقية بل يكون صاحبها كالمهتوت والمقام الثاني ينفي كل تديروا إلا من حيث الفزع إلى الله بالدعاء والابتهاك كتدبير الطفل في التعلق بأمه فقط والمقام الأول لا ينفي أصل التديروا والاختيار ولكن ينفي بعض التدبيرات كالتوكل على وكيله في الخصومة فإنه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه وكيله به أو التدبير الذي عرفه من عادته وسنته دون صريح إشارته فأما الذي يعرفه بإشارته بأن يقول له لست أتكلم إلا في حضورك فيشتغل بالحالة بالتدبير للحضور ولا يكون هذا مناقضاً لتوكله عليه إذ ليس هو فزعاً عنه

عصيت الله وهذا حال
عبد استقام قلبه
واستقامة القلب
لطمانينة النفس وفي
طمأنينة النفس بأس
الشیطان لأن النفس
كلما تحركت كدرت
صفو القلب وإذا
تكدر طمع الشيطان
وقرب منه لأن صفاء
القلب محفوف بالتذكر
والرعاية ولذا ذكر نور
بقية الشيطان كاتقاء
أحدنا النار . وقد
ورد في الخبر « إن
الشیطان جائم على
قلب ابن آدم فإذا
ذكر الله تعالى تولى
وخسئ وإذا غفل
التقم قلبه فذمه ومناه »
وقال الله تعالى « ومن
يمش عن ذكر

إلى حول نفسه وقوته في إظهار الحجة ولا إلى حول غيره بل من تمام توكله عليه أن يفعل ما رسمه له إذ لو لم يكن متوكلاً عليه ولا ممتدداً له في قوله لما حضر قوله وأما للعلوم من عادته واطراد سنته فهو أن يعلم من عادته أنه لا يحاج الخصم إلا من السجل فقام توكله إن كان متوكلاً عليه أن يكون محولاً على سنته وعادته ووافياً بمقتضاها وهو أن يعمل السجل مع نفسه إليه عند هصاصته فاذن لا يستغنى عن التدبير في الحضور وعن التدبير في إحضار السجل ولوترك شيئاً من ذلك كان قصراً في توكله فكيف يكون فعله تصافيه ، ثم بعد أن حضر وفاء بإشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته وقد ناظرا إلى محاجته قد يقبى إلى المقام الثانى والثالث في حضوره حتى يبقى كالمبهوت ينتظر لا يفرغ إلى حوله وقوته اذ لم يبق له حول ولا قوة وقد كان فرعه إلى حوله وقوته في الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسنته وقد انتهى نهايته فلم يبق إلا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجرى وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال في التوكل وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل وأن كل تدبير وعمل لا يجوز أيضاً مع التوكل بل هو على الانقسام وسأبني تفصيله في الأعمال فاذا فرغ التوكل إلى حوله وقوته في الحضور وإحضار السجل لا يناقض التوكل لأنه يعلم أنه لو لا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلاً وتعباً محضاً بلا جدوى فاذن لا يصير مفيداً من حيث إنه حوله وقوته بل من حيث إن الوكيل جملة ممتدداً لها جتموعاً فذلك بإشارته وسنته فاذن لا حول ولا قوة إلا بالوكيل إلا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها في حق الوكيل لأنه ليس خالفاً حوله وقوته بل هو جاعل لهما مفيداً في أنفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله وإيمانه صدق ذلك في حق الوكيل الحق وهو الله تعالى إذ هو خالق الحول والقوة كما سبق في التوحيد وهو الذى جعلهما مفيدين إذ جعلهما مشرطاً لما يخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد فاذن لا حول ولا قوة إلا بالله حقاً وصدقا فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذى وردت به الأخبار فيمن يقول لا حول ولا قوة إلا بالله (١) وذلك قد يستبعد فيقال كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب بفهم لفظها وهيات فإما ذلك جزاء على هذه الشهادة التى ذكرناها في التوحيد ونسبة هذه الكلمة وثوابها إلى كلمة لا إله إلا الله وثوابها كنسبة معنى إحداها إلى الأخرى إذ في هذه الكلمة إضافة شيتين إلى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة ، وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل إليه فانظر إلى التفاوت بين الكل وبين شيتين لتعرف به ثواب لا إله إلا الله بالإضافة إلى هذا وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد تحريين وليبين فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات وأكثر الخلق قيدوا بالتحريين وما طرقتوا إلى اللين وإلى اللين الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «من قال لا إله إلا الله صادقا من قلبه مخلصا وجبت له الجنة (٢)» وحيث أطلق من غير ذكر الصدق والإخلاص أراد بالطلق هذا القيد كما أضاف المفردة إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواضع وأضافها إلى مجرد الإيمان في بعض المواضع والراد به القيد بالعمل الصالح فالملك لا ينال بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب بأصاحد حديث ولكنه حديث نفس وإيمانه الصدق والإخلاص وراءهما ولا ينصب سرير الملك إلا للقرين وهم المخلصون، ثم لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب اللين أيضا درجات عند الله تعالى وإن كانت لا تنتهى إلى الملك أما ترى أن الله سبحانه لما ذكر في سورة الواقعة القرين السابقين تعرض لسرير الملك فقال - على

(١) أحاديث ثواب قول لا حول ولا قوة إلا بالله تقدمت في الدعوات (٢) حديث من قال لا إله إلا الله صادقا مخلصا من قلبه وجبت له الجنة الطبراني من حديث زيد بن أرقم وأبو يعلى من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

الرحمن تقيض له شيطانا فهو له قرين - وقال الله تعالى - إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون - فبالقوى وجود خالص الذكر وبها يفتح بابه ولا يزال العبد يتقى حتى يحصى الجوارح من المكارة ثم يحسبها من الفضول وما لا يعبه فتصير أقواله وأفعاله ضرورة ثم تنتقل تقواه إلى باطنه ويظهر الباطن ويقيه عن المكارة ثم من الفضول حتى يتقى حديث النفس قال سهل بن عبد الله أسوأ المعاصى حديث النفس ويرى الإصغاء

سرر موضونة متسكين عليها متقابلين - ولما انتهى إلى أصحاب اليمين ما زاد على ذكر الماء والظل والنواكه والأشجار والحوارمين وكل ذلك من لذات المنظر والشروب والمأكل والنكوح ويتصور ذلك للبهائم على الدوام وأين لذات البهائم من لذة الملك والنزول في أعلى عليين في جوار رب العالمين ولو كان لهذه اللذات قدر لها وسعت على البهائم ولما رفعت عليها درجة اللائكة أفترى أن أحوال البهائم وهي مسية في الرياض متممة بالماء والأشجار وأصناف الأكلات متممة بالنزوان والسفاد أعلى وألذ وأشرف وأجدر بأن تكون عند ذوى السكالك مغبوظة من أحوال اللائكة في سرورهم: اقرب من جوار رب العالمين في أعلى عليين هيئاتها مآبعد عن التحصيل من إذاخير بين أن يكون حماراً أو يكون في درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام وليس يخفى أن شبه كل شيء منجذب إليه وأن النفس التي نزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة فهو بالأساكفة أشبه في جوهره منه بالكتابة وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل لذات البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات اللائكة فهو بالبهائم أشبه منه باللائكة لا محالة وهوؤلاء هم الذين يقال فيهم - أولئك كالأنعام بل هم أضل - وإنما كانوا أضل لأن الأنعام ليس في قوتها طلب درجة اللائكة فتركها الطاب للعجز، وأما الإنسان ففي قوته ذلك والقادر على نيل السكالك أخرى بالنم وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب السكالك. وإذا كان هذا كلاماً معترضاً فلنرجع إلى المنصود فقد بينا معنى قول لا إله إلا الله ومعنى قول لا حول ولا قوة إلا بالله وأن من ليس قائلاً بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل. فان قلت ليس في قولك لا حول ولا قوة إلا بالله إلا نسبة شيتين إلى الله فلو قال قائل السماء والأرض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه؟ فأقول لا، لأن الثواب على قدر درجة المثاب عليه ولا مساواة بين الدرجتين ولا ينظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة إن جاز وصفهما بالصغر تجوز أفليست الأمور بمعظم الأشخاص بل كل عامى يفهم أن الأرض والسماء ليستا من جهة الآدميين بل هما من خالق الله تعالى فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرها على المعزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممن يدعى أنه يدقق النظر في الرأى والمعقول حتى يشق الشعر بمجدة نظره فهي مهاكة مخطرة ومزلة عظيمة هلك فيها العاقولون إذ أثبتوا لأنفسهم أمراً وهو شرك في التوحيد وإثبات خالق سوى الله تعالى فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى إياه فقد علت رتبته وعظمت درجته فهو الذى يصدق قول لا حول ولا قوة إلا بالله وقد ذكرنا أنه ليس في التوحيد إلا عقبتان. إحداهما: النظر إلى السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والقيم والمطر وسائر الجمادات. والثانية: النظر إلى اختيار الحيوانات وهي أعظم العقبتين وأخطرها وبقطعها كمال سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة أعنى ثواب المشاهدة التي هذه الكلمة ترجمتها فاذا رجع حال التوكل إلى التبرى من الحول والقوة والتوكل على الواحد الحق وسيتضح عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى.

بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل

ليقين أن شيئاً منها لا يخرج عماداً كرنا ولكن كل واحد يشير إلى بعض الأحوال فقد قال أبو موسى الديلى قلت لأبي يزيد ما التوكل؟ فقال ما تقول أنت قلت إن أصحابنا يقولون لو أن السباع والأفاعى عن يمينك ويسارك ما تحرك لذلك شرك فقال أبو يزيد نعم هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتمتعون وأهل النار في النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل فاذا ذكره أبو موسى فهو خبر عن أجل أحوال التوكل وهو المقام الثالث وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العلم الذى هو من أصول التوكل وهو العلم بالحكمة وأن ما فعله الله تعالى فعله بالواجب فلا تميز بين أهل النار

إلى ما عدت به النفس
ذنباً فيتقيه ويتقصد
القلب عند هذا الاتقاء
بالذكر اتقاد السكواكب
في كبد السماء ويصير
القلب سماء محفوظاً بزينة
كواكب الذكر فاذا
صار كذلك بمسد
الشیطان ومثل هذا
العبد يسدر في حقه
الحواطر الشيطانية
ولماته ويكون له
خواطر النفس ويحتاج
الى أن يتقيها ويميزها
بالعلم لأن منها خواطر
لا يضر إضاًؤها
كطالبات النفس
بحاجاتها وحاجاتها
تنقسم إلى الحقوق
والحظوظ ويتعين
التمييز عند ذلك واتهام
النفس بمطالبات

وأهل الجنة بالإضافة إلى أصل العدل والحكمة وهذا أغصن أنواع العلم ووراه سر القدر وأبو يزيد قد استكلم إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحياة شرطاً في المقام الأول من التوكل فقد احترز أبو بكر رضي الله عنه في النار إذ سد منافذ الحيات (١) إلا أن يقال فضل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره أو يقال إنما فعل ذلك شفقة في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لافي حق نفسه وإنما يزول التوكل بتحريك سره وتغييره لأمر يرجع إلى نفسه وللتنظري هذا مجال ولكن سيأتي بيان أن أمثال ذلك وأكثر من لا يناقض التوكل فإن حركة السر من الحيات هو الخوف وحق التوكل أن يخاف مسلط الحيات إذ لا حول للحيات ولا قوة لها إلا بالله فإن احترز لم يكن استكاله على تدييره وحوله وقوته في الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير . وسئل ذو النون المصري عن التوكل فقال خلغ الأرباب وقطع الأسباب فخلغ الأرباب إشارة إلى علم التوحيد وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كان اللفظ يتضمنه قبيل له زدنا فقال إلقاء النفس في الصودية وإخراجها من الربوبية وهذا إشارة إلى التبري من الحول والقوة فقط . وسئل حمدون القصار عن التوكل فقال إن كان لك عشرة آلاف درهم عليك دائق دين لم تأمن أن تموت ويبق دينك في عنقك ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء لا تأمن من الله تعالى أن يقضيها عنك وهذا إشارة إلى مجرد الإيمان بسعة القدرة وأن في القدورات أسباباً خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل فقال التعلق بالله تعالى في كل حال فقال السائل زدني فقال ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو التولى لذلك فالأول مقام للمقامات الثلاث والثاني إشارة إلى المقام الثالث خاصة وهو مثل توكل إبراهيم صلى الله عليه وسلم إذ قاله جبريل عليه السلام أنك حاجة فقال أما إليك فلا، إذ كان سؤاله سبباً يفضي إلى سبب وهو حفظ جبريل له فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك فيكون هو التولى لذلك وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم يرمعه غيره وهو حال عزيز في نفسه ودوامه إن وجد أبعده منه وأعز . وقال أبو سعيد الخراز التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب ولعله يشير إلى المقام الثاني فسكونه بلا اضطراب إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به واضطرابه بلا سكون إشارة إلى فزعه إليه وابتئاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمه وسكون قلبه إلى تمام شفقتها . وقال أبو على الدقاق التوكل ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض فالمتوكل يسكن إلى وعده والسلم يكتفي بلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالإضافة إلى المنظور إليه فإن العلم هو الأصل والوعد يقبضه والحكم يتبع الوعد ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك وللشيوخ في التوكل أقاويل سوى ما ذكرناه فلان طول بها فإن الكشف أنفع من الرواية والنقل فهذا ملتصق بحال التوكل والله الموفق برحمته واطفه .

بيان أعمال التوكلين

اعلم أن العلم يورث الحال والحال يثمر الأعمال وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكالحم على الوضغ وهذا ظن الجهال فإن ذلك حرام في الشرع والشرع قد أمضى على التوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين بل تكشف القطاء عنه وتقول إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بلمه إلى مقاصده وسعي العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالسبب أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع أو لإزالة ضار قد نزل به

الحظوظ قال الله تعالى
- يا أيها الذين آمنوا
إن جاءكم فاسق بنبأ
فتبينوا - أي فتبينوا
وسبب نزول الآية
الوليد بن عتبة حيث
بعثه رسول الله صلى
الله عليه وسلم إلى بني
المصطلق فكذب عليهم
ونسبهم إلى الكفر
والمصيان حتى تم
رسول الله صلى الله
عليه وسلم بقتالهم ثم
بعث خاله إليهم فسمع
أذان المغرب والعشاء
ورأى ما يدل على
كذب الوليد بن عتبة
فأنزل الله تعالى الآية
في ذلك فظهر الآية
وسبب نزولها ظاهر
وصار ذلك تنبيهاً من
الله عباده على التثبت

(١) حديث إن أبا بكر سدد منافذ الحيات في النار شفقة على النبي صلى الله عليه وسلم تقدم .

كالتداوى من الرض فتمصود حركات العبد لاتعدو هذه العنون الأربعة وهو جاب النافع أو حفظه
أودفع الضار أو قطعه فلنذكر شروط التوكل ودرجاته في كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع .
[الفن الأول : في جلب النافع] فقول فيه : الأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات مقطوع
به ومظنون ظنا يوثق به وموهوم وهما لاشق النفس به ثقة تامة ولا تطمئن إليه . الدرجة الأولى :
المقطوع به ، وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت السبب بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا
لا يختلف كما أن الطعام إذا كان موضوعا بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تمد اليد إليه
وتقول أنا متوكل ، وشروط التوكل ترك السعي ومد اليد إليه سعي وحركه وكذلك مضغه بالأسنان
وابتلاعه بإطباق أعالي الحنك على أسافله فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء فانك إن انتظرت
أن يخلق الله تعالى فيك شعا دون الحيز أو يخلق في الحيز حركة إليك أو يسخر ملكا ليضغه لك
ويوصله إلى معدتك فقد جهلت سنة الله تعالى وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت في أن يخلق الله
تعالى نباتا من غير بذر أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام فشكل ذلك جنون
وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه فليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم . أما
العلم . فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة وأنه هو الذي يطعمك
ويستيك . وأما الحال فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله تعالى لاطي اليد والطعام
وكيف تعتمد على صحة يدك وربما تحف في الحال وتفليح ، وكيف تعمل على قدرتك وربما يطرأ
عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك ، وكيف تعمل على حضور الطعام ، وربما
يسلط الله تعالى من يظلمك عليه أويعث حية تزحجك عن مكانك وتفرق بينك وبين طعامك .
وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى فبذلك فلنفرح وعليه فلتقول فإذا
كان هذا حاله وعلمه فليجد اليد فانه متوكل . الدرجة الثانية : الأسباب التي ليست متيقنة ولكن
الغالب أن السبب لاتحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيدا كالذي يفارق الأمصار والقوافل
ويسافر في البوادي التي لا يطرقتها الناس إلا نادرا ويكون سفره من غير استصحاب زاد فهذا ليس
شروطا في التوكل بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين ، ولا يزول التوكل به بعد أن يكون
الاعتماد على فضل الله تعالى لاطي الزاد كما سبق ولكن فعل ذلك جائز . وهو من أعلى مقامات
التوكل ولذلك كان بفعله الخواص فان قلت : فهذا سعي في الهلاك وإلقاء النفس في التهلكة .
فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين : أحدهما أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدتها
وسواها على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقاربه بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر
وتعذر في ذكر الله تعالى . والثاني أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق من الأشياء
الحسيسة فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الأمر في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي أو
يتهمى إلى حلة أو قرية أو إلى حشيش يجترى به فيجيا به مجاهداً نفسه . والمجاهدة عماد التوكل
وعلى هذا كان يعول الخواص ونظراؤه من التوكلين . والدليل عليه أن الخواص كان لاتفارقه
الإبرة والمقرض والحبل والركوة ويقول . هذا لا يقدح في التوكل . وسببه أنه علم أن البوادي
لا يكون للماء فيها على وجه الأرض وما جرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البر بغير دلو ولا حبل ولا
يطلب وجود الحبل والدلو في البوادي كما يطلب وجود الحشيش والماء يحتاج إليه لوضوءه كل يوم مرات
ولعظته في كل يوم أو يومين مرة فان المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام

في الأمور قال سهل في
هذه الآية الفاسق
الكذاب والكاذب
صفة النفس لأنها
تمسلى أشياء وتسول
أشياء على غير حقائقها
فتعين التثبت عند
خاطرها وإقامتها
فيجعل العبد خاطر
النفس نبأ يوجب
التثبت ولا يستفزه
الطبع ولا يستجمله
الهوى فقد قال بعضهم
أدنى الأدب أن تقف
عند الجهل ، وآخر
الأدب أن تقف عند
الشبهة . ومن الأدب
عند الاشتباه إنزال
الخاطر بحرك النفس
وخالفها وبارئها
وفاطرها وإظهار الفقر
والفاقة إليه والاعتراف

وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرق فتكشف عورته ولا يوجد القراض والابرة في البوادي غالبا عند كل صلاة ولا يقوم مقامهما في الخياطة والقطع شيء مما يوجد في البوادي فكل ما في معنى هذه الأربعة أيضا يلحق بالدرجة الثانية لأنه مظنون ظنا ليس مقطوعا به لأنه محتمل أن لا يتخرق الثوب أو يعطيه إنسان ثوبا أو يجد على رأس البئر من يسقيه ولا يحتمل أن يتحرك الطعام محضوفا إلى فيه فبين الدرجتين فرقان ولكن الثاني في معنى الأول ولهذا قول لوانحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لأماء ولا حشيش ولا بطرقه طارق فيه وجلس متوكلا فهو آثم به ساع في هلاك نفسه كإروى أن زاهدا من الزهاد فارق الأمصار وأقام في سفح جبل سبعا وقال لأسأل أحدا شيئا حتى يأتي ربي برزقي فبعد سبعا فكاد يموت ولم يأتيه رزق فقال يارب إن أحييتني فانتني برزقي الذي قسمت لي وإلا فاقضني إليك فأوحى الله جل ذكره إليه وعزني لأرزقك حتى تدخل الأمصار وتصدق بين الناس فدخل الصر وقد نجاه هذا بطعام وهذا إشراب فأكل وشرب وأوجس في نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى إليه أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا أما علمت أني أن أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إلي من أن أرزقه بيد قدرتي فاذن التباعد عن الأسباب كلها مزاغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الأسباب لا يناقض التوكل كما ضربناه مثلا في الوكيل بالخصومة من قبل ولكن الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية فمضى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب. فان قلت لما قولك في القعود في البلد بغير كسب أهو حرام أو مباح أو مندوب. فاعلم أن ذلك ليس بمحرام لأن صاحب السياحة في البادية إذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه والصبر يمكن إلى أن يتفق ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام وإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له ولكن ليس فعله حراما إلا أن يشرف على الموت ففعل ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب وإن كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله فهو أفضل وهو من مقامات التوكل وهو أن يشتغل بالله تعالى ولا يهتم برزقه فان الرزق يأتيه لامحالة وعندهذا يصح ما قاله بعض العلماء وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لأدركه وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب وكان عاصيا وقلال له يا جاهل كيف أخلقك ولا أرزقك ، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل فانهم أجمعوا على أن لا رزق ولا يميت إلا الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا ولزالت بدعائكم الجبال» (١) وقال أبو يعقوب السوسى التوكلون تجرى أرزاقهم على أيدي العباد بلا تعب تدخر والله تعالى يرزقها يوما بيوم. فان قلت نحن أكبر بطونا فانظروا إلى الأنعام كيف قبض الله تعالى لها هذا الحق للرزق. وقال أبو يعقوب السوسى التوكلون تجرى أرزاقهم على أيدي العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكذوبون. وقال بعضهم العبيد كلهم في رزق الله تعالى لكن بعضهم يأكل

بالجهل وطلب العرفة والعمونة منه فانه إذا أتى بهذا الأدب يناث وإيمان ويتبين له هل الخاطر لطلب حظ أو طلب حق فان كان لاحق أمضاه وإن كان لاحظ نفاه وهذا التوقف إذا لم يتبين له الخاطر بظاهر العلم لان الافتقار إلى باطن العلم عند فقد الدليل في ظاهر العلم ثم من الناس من لا يسمه في صحته إلا الوقوف على الحق دون الحظ وإن أمضى خاطر الحظ يصير ذلك ذنبا حاله فيستغفر منه كما يستغفر من الذنوب ومن الناس من يدخل في تناول الحظ ويعضى خاطره

(١) حديث لو توكلتم على الله حق توكله الحديث وزاد في آخره ولزالت بدعائكم الجبال وقد تقدمنا قريبا دون هذه الزيادة فرواها الامام محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ ابن جبل باسناد فيه لين لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال ورواه البيهقي في الزهد من رواية وهيب السكي مرسلًا دون قوله لمشيتم على البحور وقال هذا منقطع

بذل كالسؤال وبعضهم يتعب وانتظار كالتجار وبعضهم بامتهان كالصانع وبعضهم بمنزلة كالمصوبية يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة . الدرجة الثالثة : ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى للسبب من غير ثقة ظاهرة كالذي يستغنى في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه وذلك يخرج بالسكية عن درجات التوكل كلها وهو الذي فيه الناس كلهم أعني من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الأسباب فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل وهذا مثل الأسباب التي نسبتها إلى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطيرة والكي بالإضافة إلى إزالة الضار فإن النبي صلى الله عليه وسلم وصف التوكلين بذلك ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الأمصار ولا يأخذون من أحد شيئا بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب وأمثال هذه الأسباب التي يوثق بها في السبب مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها . وقال سهل في التوكل إنه ترك التدبير وقال إن الله خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه وإنما حجبهم بتدبيرهم ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر فهي التي تحتاج إلى تدبير دون الأسباب الجلية فاذن قد ظهر أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل وإلى ما لا يخرج وأما الذي يخرج ينقسم إلى مقطوع به وإلى مظنون وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الاتكال على مسبب الأسباب فالتوكل فيها بالحال والعلم بالعمل . وأما المظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعا والمتوكلون في ملابسة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات : الأول : مقام الخواص ونظرأه وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في توفيقه على الصبر أسبوعا وما فوقه أو تيسير حشيش له أو قوت أو تيسير على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك فإن الذي يحمل الزاد قد يفقد الزاد أو يضل بعيره ويموت جوعا فذلك يمكن مع الزاد كما أنه يمكن مع فقده . المقام الثاني : أن يقعد في بيته أو في مسجد ولكنه في القرى والأصا وهذا أضنف من الأول ولكنه أيضا متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة معوله على فضل الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ولكنه بالعود في الأمصار متعرض لأسباب الرزق فإن ذلك من الأسباب الجلية إلا أن ذلك لا يبطل توكله إذا كان نظره إلى الذي يسحره سكان البلد لا يصل رزقه إليه لا إلى مكان البلد إذ يتصور أن يفعل جميعهم عنه ويضيئعه لولا فضل الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم . المقام الثالث : أن يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذي ذكرناه في الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب وهذا السمر لا يخرج أيضا عن مقامات التوكل إذالم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوته وجاهه وبضاعته فإن ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه في لحظة بل يكون نظره إلى الكفيل الحق يحفظ جميع ذلك وتيسير أمبابه له بل يرى كسبه وبضاعته وكفايته بالإضافة إلى قدرته تعالى كإبري القلم في يد الملك الموقع فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك أنه بماذا يتحرك وإلى ماذا يعيل وبم يحكم ثم إن كان هذا المكتسب مكتسبا لعياله أو ليفرق على الساكنين فهو يبدنه مكتسب وقلبه عنه منقطع فحال هذا أشرف من حال القاعد في بيته . والدليل على أن الكسب لا ينافي حال التوكل إذا روعيت فيه الشروط وانضاف إليه الحال والمعرفة كما سبق أن الصديق رضي الله عنه لما بويج بالخلافة أصبح أخذًا الأتواب تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق ينادي حتى كرهه المسلمون وقالوا كيف تفعل ذلك وقد أمنت خلافة النبوة فقال لا تشغلوني عن عيالي فإني إن أضعتم كنت لما سواهم أضيع حتى فرضوا له قوساً أهل بيت من المسلمين فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطيب قلوبهم واستغرق الوقت بمصالح المسلمين أولى ويستحيل أن يقال لم يكن الصديق

بمزيد علم لديه من الله وهو علم السعة لصد مأذون له في السعة عالم بالأذن فيمضي خاطر الحظ والمراد بذلك على بصيرة من أمره يحسن به ذلك ويليق به عالم بزيادته وتقصانه عالم بحاله عجم لعلم الحال وعلم القيام لا يقاس على حاله ولا يدخل فيه بالتقليد لأنه أمر خاص بعبد خاص وإذا كان شأن العبد تميز خواطر النفس في مقام تخلصه من لسات الشيطان تكثر لديه خواطر الحق وخواطر الملك وتصير خواطر الأربعة في حقه ثلاثا ويسقط خاطر الشيطان إلا

في مقام التوكل فمن أولى بهذا المقام منه فدل على أنه كان متوكلاً لا باعتبار ترك الكسب والسعي بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الأسباب وبشروط كان يراعيها في طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره فمن دخل السوق ودرهمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها ولا يصح التوكل إلا مع الزهد في الدنيا، نعم يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد . وقال أبو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد رحمه الله عليهما وكان من التوكلين : أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارتحت السوق كنت أكتسب في كل يوم ديناراً ولا أبيت منه دافقاً ولا أستريح منه إلى قيراط أدخل به الحمام بل أخرجه كله قبل الليل وكان الجنيد لا يتكلم في التوكل بحضرة وكان يقول أستحي أن أتكلم في مقامه وهو حاضر عندي . واعلم أن الجلوس في رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل فإن لم يكن معلوم ووقف وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل إلا على ضعف ولكن يقوى بالحال والعلم كتوكل المكتسب وإن لم يسألوا بل قنعوا بما يحمل إليهم فهذا أقوى في توكلهم لكنه بعد اشتها القوم بذلك قد صار لهم سوقاً فهو كدخول السوق ولا يكون داخل السوق متوكلاً إلا بشروط كثيرة كما سبق . فان قلت لما الأفضل أن يعمد في بيته أو يخرج ويكتسب ؟ . فاعلم أنه إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر وإخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئاً بل يكون قوى القلب في الصبر والاتكال على الله تعالى فالعمود له أولى وإن كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب وتركه أهم من ترك الكسب وما كان التوكلون يأخذون ما تستشرف إليه نفوسهم . كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر الروزي أن يعطى بعض الفقراء شيئاً فضلاً عما كان استأجره عليه فرداه فلما ولي قال له أحمد الحقه وأعطه فانه يقبل فالحقه وأعطاه فأخذه فسأل أحمد عن ذلك فقال كان قد استشرفت نفسه فرد فلما خرج انقطع طمعه وأيس فأخذ . وكان الخواص رحمه الله إذا نظر إلى عبد في العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئاً . وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه في أسفاره رأيت الحضر ورضى بصحبي ولكني فارتته خيفة أن تسكن نفسي إليه فيكون نقصاً في توكلتي فاذا للمكتسب إذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق في كتاب الكسب وهو أن لا يقصد به الاستكثار ولم يكن اعتماداً على بضاعته وكفايته كان متوكلاً . فان قلت لما علامة عدم اتكاله على البضاعة والكفاية . فأقول علامته أنه إن سرقت بضاعته أو خسرت تجارتها أو تعوق أمر من أموره كان راضياً به ولم تبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحداً فان من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقدته ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه وكان بشر يعمل المنازل فتركها وذلك لأن البعادي كاتبه قال بلغني أنك استعنت على رزقك بالمغازل رأيت إن أخذ الله سمكك وبصرك الرزق على من ؟ فوقع ذلك في قلبه فأخرج آلة المغازل من يده وتركها وقيل تركها لما نوهت باسمه وقصد لأجلها وقيل فعل ذلك لما مات عياله كما كان لسفيان خمسون ديناراً يتجر فيها فلما مات عياله فرقتها . فان قلت فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن إليها وهو يعلم أن الكسب غير بضاعة لا يمكن . فأقول بأن يعلم أن الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة وأن الذين كثرت بضاعتهم فسروقت وهلكت فيهم كثرة وأن يوطن نفسه على

نادراً لضيق مكانته من النفس لأن الشيطان يدخل بطريق اتساع النفس واتساع النفس باتباع الهوى والإخلاق إلى الأرض ومن ضايق النفس على التمييز بين الحق والحظ ضاقت نفسه وسقط عمل الشيطان إلا نادراً لدخول الابتلاء عليه ثم من الرادين المتعلقين بمقام المقرين من إذا صار قلبه سماء مزينا بزينة كوكب الذكر بصير قلبه سماوياً يترقى ويعرج يباطنه ومعناه وحقيقته في طبقات السموات وكلما ترقى تتضاءل النفس المطمئنة وتبعد عنه خواطرها حتى يجاوز السموات

أن الله لا يفعل به إلا ما فيه صلاحه فان أهلك بضاعته فهو خير له فلعنه لو تركه كان سببا لفساد دينه وقد لطف الله تعالى به وذايته أن يموت جوعا فينبغي أن يعتد أن الموت جوعا خيرا له في الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته فاذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها ففي الخبر «إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو ضله لكان فيه هلاكه فينظر الله تعالى إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه فيصبح كشيئا حزينا يتطير بجاره وابن عمه من سبق من دهاني وماهى إلا رحمة رحمته الله بها (١)» ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا فاني لا أدري أيهما خير لي ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور لم يتصور منه التوكل ولذلك قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري لي من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك فاني ما شئمت منه راحة هذا كلامه مع علو قدره ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال ما أدركته ولعله أراد إدراك أقصاه وما لم يكمل الإيمان بأن لا فاعل إلا الله ولا رازق سواه وأن كل ما يقدره على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يتصنئه العبد لم يكمل حال التوكل فبناء التوكل على قوة الإيمان بهذه الأمور كما سبق وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تنبئ على أصولها من الإيمان . وبالجملة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعى قوة القلب وقوة اليقين ولذلك قال سهل من طعن على التكسب فقد طعن على السنة ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على التوحيد . فان قلت فهل من دواء ينتفع به في صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة وحسن الظن بالله تعالى في تيسير الأسباب الخفية . فأقول نعم هو أن تعرف أن سوء الظن تلقين الشيطان وحسن الظن تلقين الله تعالى قال الله تعالى - الشيطان يعدمكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدمكم مغفرة منه وفضلا - فان الانسان بطبعه مشغوف بسباع تخويف الشيطان ولذلك قيل الشفيق بسوء الظن مولع وإذا انضم إليه الجبن وضمف القلب ومشاهدة التوكلين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضا تبطل التوكل فقد حكى عن عابد أنه عكف في مسجد ولم يكن له مملوم فقال له الامام لولا كتبت لكان أفضل لك فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثا فقال في الرابعة يهودى في جوار المسجد قد ضمن لي كل يوم رغيفين فقال إن كان صادقا في ضمانه فكوفك في المسجد خير لك فقال يا هذا لو لم تكن إماما تقف بين يدي الله وبين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيرا لك إذ فضلت وعد يهودى على ضمان الله تعالى بالرزق . وقال إمام السجدة لبعض المصلين من أين تأكل؟ قال يا شيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم أجيبك . وينفع في حسن الظن بمجىء الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية أن تسمع الحكايات التي فيها عجائب صنع الله تعالى في وصول الرزق إلى صاحبه وفيها عجائب قهر الله تعالى في إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعا كما روى عن حذيفة المرعشي وقد كان خدم إبراهيم بن آدم فميل له ما أعجب ما رأيت منه فقال بقينا في طريق مكة أياما لم نجد طعاما ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب فنظر إلى إبراهيم وقال يا حذيفة أرى بك الجوع فقلت هو مارأى الشيخ فقال على بدواة وقرطاس فحُثت به إليه فكتب :
بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود إليه بكل حال والمشار إليه بكل معنى وكتب شعرا :

(١) حديث إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو ضله لكان فيه هلاكه فينظر الله إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف جدا نحوه إلا أنه قال إن العبد ليشراف على حاجة من حاجات الدنيا الحديث بنحوه .

بمروج باطنه كما كان ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم بظاهره وقلبه فاذا استكمل العروج تنقطع عنه خواطر النفس لتستره بأنوار القرب وبعد النفس عنه وعند ذلك تنقطع عنه خواطر الحق أيضا لأن الحاضر رسول والرسالة إلى من بعد وهذا قريب وهذا الذي وصفناه نازل ينزل به ولا يدوم بل يعود في هبوطه إلى منازل مطالبات النفس وخواطره فتعود إليه خواطر الحق وخواطر الملك وذلك أن الخواطر تستدعى وجودا . وما أشرنا إليه حال الغناء ولا خاطر فيه وخواطر

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا ضائع أنا عارى
 هي ستة وأنا الضمين لنصفها فكمن الضمين لنصفها يابارى
 مدحى لفيرك لهب نار خضتها فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إلى الرقعة فقال اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك فخرجت فأول من لقيت كان رجلا على بغلة فناولته الرقعة فأخذها فلما وقف عليها بكى وقال ماضل صاحب هذه الرقعة فقلت هو في المسجد الفلاني فدفع إلى صرة فيها ستائة دينار ثم لقيت رجلا آخر فسألته عن ركب البغلة فقال هذا نصراني فحنت إلى ابراهيم وأخبرته بالقصة فقال لا تمسها فانه يجيئ الساعة فلما كان بعد ساعة دخل النصراني وأكب على رأس ابراهيم يقبله وأسلم . وقال أبو يعقوب الأقطع البصرى : جئت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفا فحدثنى نفسى بالخروج فخرجت إلى الوادى لعلى أجد شيئا يسكن ضعفى فرأيت ساجمة مطروحة فأخذتها فوجدت فى قلبى منها وحشة وكان قائلا يقول لى جئت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة فرميت بها ودخات المسجد وقدمت فاذا أنا برجل أعجمى قد أبل حتى جلس بين يدى ووضع قنطرة وقال هذه لك فقلت كيف خصصنى بها قال اعلم أنا كنا فى البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على العرق فندرت إن خلصنى الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصرى من المجاورين وأنت أول من لقيته فقلت افتحها ففتحها فاذا فيها حميد مصرى ولوز مقشور وسكر كهاب فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت رد الباقى إلى أصحابك هدية منى إليكم وقد قبلتها ثم قلت فى نفسى رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادى : وقال عمشاد الدينوى : كان على دين فاشتغل قلبى بسببه فرأيت فى النوم كأن قائلا يقول يا بغيل أخذت علينا هذا المقدار من الدين خذ عليك الأخذ وعلينا العطاء فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا تصابا ولا غيرها . وحكى عن بنان الجمال قال : كنت فى طريق مكة أجيئ من مصر ومعى زاد فجاءتنى امرأة وقالت لى يا بنان أنت حمال تعمل على ظهرك الزاد وتوم أنه لا يرزقك قال فرميت بزادى ثم أتى على ثلاث لم أكل فوجدت خالخالا فى الطريق فقلت فى نفسى أحمله حتى يجيئ صاحبه فرمينا يعطينى شيئا فأرده عليه فاذا أنا بتلك المرأة فقالت لى أنت تاجر تقول عسى يجيئ صاحبه فأخذ منه شيئا ثم رمته لى شيئا من الدراهم وقالت أفققها فاكثفت بها إلى قريب من مكة . وحكى أن بنانا احتاج إلى جارية تخدمه فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له منها وقالوا هو ذا يجيئ النفير فنشترى ما يوافق فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا إنها تصلح له فقالوا لصاحبها بكم هذه فقال إنها ليست للبيع فألحوا عليه فقال إنها لبنان الجمال أهدتها إليه امرأة من سمرقند فحملت إلى بنان وذكرت له القصة ، وقيل كان فى الزمان الأول رجل فى سفر ومعه قرص فقال إن أكلته مت فوكل الله عز وجل به مسلكا وقال إن أكله فارزقه وإن لم يأكله فلا تعطه غيره فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله وبقي القرص عنده . وقال أبو سعيد الحراز : دخلت البادية بغير زاد فأصابتنى فاقة فرأيت المرحلة من بعيد فسرت بأن وصلت ثم فكرت فى نفسى أتى سكنت واتسكنت على غيره وآليت أن لأدخل للمرحلة إلا أن أحمل إليها فحفرت لنفسى فى الرمل حفرة وواريت جسدى فيها إلى صدرى فسمعت صوتا فى نصف الليل عاليا بأهل المرحلة إن لله تعالى وليا حبس نفسه فى هذا الرمل فالحقوه فجاء جماعة فأخرجونى وحملونى إلى القرية . وروى أن رجلا لازم باب عمر رضى الله عنه فاذا هو بقاتل يقول : يا هذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى اذهب فتعلم القرآن فانه سيخنيك عن باب عمر فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر فاذا هو قد اعتزل

الحق اتى فى لمكان القرب وخاطر النفس بعد عنه لبعده النفس وخاطر الملك تخلف عنه كتحذاف جبريل فى ليلة للعراج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال . لودنوت أئمة لا حترقت . قال محمد بن على الترمذى المحدث والسكلم إذا تحمق فى درجتهما لم يخافا من حديث النفس فكما أن النبوة محفوظة من إلقاء الشيطان كذلك عمل المكلمة والحادثة محفوظة من إلقاء النفس وفتنتها ومحمروس بالحق والسكينة لأن السكينة حجاب للسكلم والمحدث مع نفسه . وصمعت

واشتغل بالعبادة فجاءه عمر فقال له إنى قد اشتقت إليك فما الذى شغلك عنى فقال إنى قرأت القرآن فأغنانى عن عمر وآل عمر فقال عمر رحمك الله الذى وجدت فيه فقال وجدت فيه وفى السماء رزقكم وما توعدون - فقلت رزقى فى السماء وأطلبه فى الأرض فبكى عمر وقال صدقت فكان عمر بعد ذلك يأتىه ويجلس إليه . وقال أبو حمزة الخراسانى حججت سنة من السنين فبينما أنا مشى فى الطريق إذ وقعت فى بئر فإزعتنى نفسى أن أستغيث فقلت لا والله لا أستغيث فاستتممت هذا الحاطر حتى مر برأس البئر جلان فقال أحدهما للآخر تعال حتى نسد رأس هذا البئر لا يقع فيه أحد فأتوا بقصب وبارية وطموار رأس البئر فهجمت أن أصبح فقلت فى نفسى إلى من أصبح هو أقرب منهما وسكنت فينا أنا بعد ساعة إذ أنا بشىء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله وكأنه يقول تعلق فى مهممة له كنت أعرف ذلك فتعلقت به فأخرجنى فاذا هو سبع فرس وهتف به هاتفياً بأحزمة أليس هذا أحسن نجينك من التلف بالتلف فشيت وأنا أقول:

نهانى حيانى منك أن أكشف الهوى وأغنينى بالهمم منك عن الكشف
تلفنت فى أمرى فأبدت شاهدى إلى غائبى واللفظ يدرك باللفظ
ترأيت لى بالغيب حتى صكأتما تبشرنى بالغيب أنك فى الكف
أراك وبى من هيتى لك وحشة فتؤنسنى باللفظ منك وباللفظ
وتحى محبا أنت فى الحب حتفه وذا عجب كون الحياة مع الخنف

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر وإذا قوى الايمان به وانضم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر وقوى الايمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه فى أسبوع فاللوت خير له عند الله عز وجل ولذلك حبسه عنه، تم التوكل بهذه الأحوال والشاهدات وإلا فلا يتم أصلاً .

بيان توكل المیل

اعلم أن من له عيال فكيف يفارق المنفرد لأن المنفرد لا يصح توكله إلا بأمرين : أحدهما قدرته على الجوع أسبوعاً من غير استشراف وضيق نفس . والآخر أبواب من الايمان ذكرناها من جملتها أن يطيب نفساً بالموت إن لم يأتته رزقه علماً بأن رزقه اللوت والجوع وهو وإن كان نقصاً فى الدنيا فهو زيادة فى الآخرة فيرى أنه سيق إليه خير الرزقين له وهو رزق الآخرة وأن هذا هو المرض الذى به يموت ويكون راضياً بذلك وأنه كذا قضى وقدر له فهكذا يتم التوكل للمنفرد ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ولا يمكن أن يقرر عندهم الايمان بالتوحيد وأن اللوت على الجوع رزق مغبوط عليه فى نفسه إن اتفق ذلك نادراً وكذا سائر أبواب الايمان فاذن لا يمكنه فى حقه إلاً توكل المكتسب وهو اللقاص الثالث كذوكل أبى بكر الصديق رضى الله عنه إذ خرج للكسب فأما دخول البوادى وترك العيال توكلوا فى حقهم أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلوا فى حقهم فهذا حرام وقد يفضى إلى هلاكهم ويكون هو مؤاخذا بهم بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقاً وغنيمة فى الآخرة فله أن يتوكل فى حقهم ونفسه أيضاً عيال عنده ولا يجوز له أن يضعها إلا أن تساعده على الصبر على الجوع مدة فإن كان لا يطيقه ويضطرب عليه قلبه وتتشوش عليه عبادته لم يجز له التوكل . ولذلك روى أن أباً تراب النخشبى نظر إلى صوفى مد يده إلى قنبر بطيخاً كلاً بعد ثلاثة أيام فقال له لا يصالح لك التصوف أزم السوق أى لا تصوف إلا مع التوكل ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام . وقال أبو على الروذبارى إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع فألزموه السوق ومروه بالعمل والكسب فاذن بدنه عياله وتوكله فما يضر يمدنه كتوكله فى عياله وإنما يفارقهم فى شىء واحد وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع

الشيخ أبو محمد بن
عبد الله البصرى
بالبصرة يقول الحواطر
أربعة : خاطر من
النفس و خاطر من
الحق و خاطر من
الشیطان و خاطر من
الملك فأما الذى من
النفس فيحسن به من
أرض القلب والذى
من الحق من فوق
القلب والذى من الملك
عن بين القلب والذى
من الشيطان عن يسار
القلب والذى ذكره
إنما يصح لعبد أذاب
نفسه بالتقوى والتزهد
وتصفى وجوده واستقام
ظاهره وباطنه
فيكون قلبه كالمرآة
المجلاة لا يأتیه
الشیطان من ناحية

وليس له ذلك في عياله وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس اقتطاعا عن الأسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادر أو ملازمة البلاد والأمصار أو ملازمة البوادي التي لا تخلو عن حشيش وما يجرى مجراه فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر والتوكل في الأمصار أقرب إلى الأسباب من التوكل في البوادي وكل ذلك من الأسباب إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يعدوا تلك أسبابا وذلك لضعف إيمانهم وشدة حرصهم وقلة صبرهم على الأذى في الدنيا لأجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل ومن نظر في ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيقا أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيرا لا يجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوز رزقه أما ترى الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الأم لتكفل به شاءت أم أبت اضطرابا من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب ثم لما لم يكن له سن يرضع به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى الضغ ولأنه لرخواة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم فإذا صار بحيث يواقفه الغذاء الكثيف أنبت له أسنانا قواطع وطواحين لأجل المضغ فإذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلك سبيل الآخرة ، فحينئذ بعد البلوغ جهل محض لأنه ما نقصت أسباب معيشته يلوغ به بل زادت فإنه لم يكن قادرا على الاكتساب فالآن قد قدر فزادت قدرته ، نعم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهي الأم أو الأب وكانت شفقة مفرطة جدا فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرة أو مرتين وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه فكذلك قد سلط الله الشفقة والموودة والرقوة الرحمة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة حتى إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانمشت له داعية إلى إزالة حاجته فقد كان الشفق عليه واحدا والآل المشفق عليه ألف وزيادة وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص فما رأوه محتاجا ولو رأوه يتيمًا تسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه ويكفلونه فمارؤى إلى الآن في سنن الحصب يتيم قد مات جوعا مع أنه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا وقد كان المشفق واحدا والمشفق الآن ألف ، نعم كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ولكنها واحدة وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض فكيف من يتيم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وأم فينجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين وبترك التعم والاقتصار على قدر الضرورة ولقد أحسن الشاعر حيث يقول :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسمى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

فإن قلت الناس يكفلون يتيم لأنهم يرونه عاجزا بصباه وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون إليه ويقولون هو مثنا فليجهد لنفسه . فأقول إن كان هذا القادر بطالا فقد صدقوا فعليه الكسب ولا معنى للتوكل في حقه فإن التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى فما للبطل والتوكل وإن كان مشتغلا بالله ملازما لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالتوكل لا يلومونه في ترك الكسب ولا يكفلونه ذلك بل اشتغاله بالله تعالى يقرر حبه

إلا يبصره فإذا سودت
الغاب وعسلاه الرين
لا يبصر الشيطان .
روى عن أبي هريرة
رضي الله عنه عن
رسول الله صلى الله
عليه وسلم « إن العبد
إذا أذنب نكت في
قلبه نكتة سوداء
فإن هو نزع واستغفر
وتاب صقل وإن عاد
زيد فيه حتى تملأ قلبه
قال الله تعالى - كلاب
ران على قلوبهم
ما كانوا يكسبون - »
سمعت بعض العارفين
يقول كلاما دقيقا
كوشف به فقال الحديث
في باطن الانسان
والخيال الذي تراه
لباطنه وتخيل بين
القلب وصفاء الذكر

في قلوب الناس حتى يعملون إليه فوق كفايته وإنما عليه أن لا يخلق الباب ولا يهرب إلى جبل من بين الناس وما رؤى إلى الآن عالم أو طابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو في الأمصار فمات جوعا ولا يرى قط بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقد ر عليه فان من كان لله تعالى كان الله عز وجل له ومن اشتغل بالله عز وجل ألقى الله حبه في قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها فقد در الله تعالى الملك والملكوت تديرا كافيا لأهل الملك والملكوت فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدير واشتغل به وآمن ونظر إلى مدير الأسباب لا إلى الأسباب ، نعم ما دره تديرا يصل إلى المشتغل به الخلو والطيور السمان والطياب الرقيقة والحيل النفيصة على الدوام لا محالة وقد يقع ذلك أيضا في بعض الأحوال لكن دره تديرا يصل إلى كل مشتغل بعبادة الله تعالى في كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناول له لا محالة والغالب أنه يصل أكثر منه بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس في التمتع على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الأغذية اللطيفة وليس ذلك من طريق الآخرة وذلك قد لا يحصل بغير اضطراب وهو في الغالب أيضا ليس يحصل مع الاضطراب وإنما يحصل نادرا وفي النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب فأثر الاضطراب ضعيف عند من انفتحت بصيرته فذلك لا يطمئن إلى اضطرابه بل إلى مدير الملك والملكوت تديرا لا يجاوز عبدا من عباده رزقه وإن سكن إلا نادرا ندورا عظيما يتصور مثله في حق المضرب فإذا انكشفت هذه الأمور وكان معه قوة في القلب وشجاعة في النفس أثمر ما قاله الحسن البصري رحمه الله إذ قال وددت أن أهل البصرة في عيالي وأن حبة بدينار . وقال وهيب بن الورد لو كانت السماء نحاسا والأرض رصاصا واهتممت برزقي لظننت أن مشرك فاذا فهمت هذه الأمور فهمت أن التوكل مقام مفهوم في نفسه ويمكن الوصول إليه لمن قهر نفسه وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل فإياك أن تجمع بين الإفلاسين الإفلاس عن وجود اللقاه ذوقا والإفلاس عن الإيعان به علما ، فأذن عليك بالقناعة بالنزر القليل والرضا بالقوت فإنه يأتيك لا محالة وإن فررت منه وعند ذلك على الله أن يعث إليك رزقك على يدي من لا تحتسب فان اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى - ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب - الآية ، لأنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذات الأظعمة فما ضمن إلا الرزق الذي تدوم به حياته وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن واطمأن إلى ضمانه فان الذي أحاط به تدير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق بل مداخل الرزق لا تحصى ومجاريه لا يهتدى إليها وذلك لأن ظهوره على الأرض وسببه في السماء قال الله تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وأسرار السماء لا يطالع عليها ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال ماذا تطلبون ؟ قالوا نطلب الرزق فقال إن علمت أي موضع هو فاطلبوه قالوا نسال الله قال إن علمت أنه ينسأكم فذكروه فقالوا ندخل البيت وتوكل وننظر ما يكون فقال التوكل على التجربة شك قالوا لها الحيلة ؟ قال ترك الحيلة . وقال أحمد بن عيسى الحراز كنت في البادية فثاني جوع شديد فظلمت نفسي أن أسأل الله تعالى طعاما فقلت ليس هذا من أفعال التوكلين فظلمتني أن أسأل الله صبرا فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يهتف بي ويقول :

ويزعم أنه منا قريب وأنا لا نضيق من أتنا

ويسألنا على الإقتار جهدا فكأننا لا نراه ولا يرانا

قد فهمت أن من انكسرت نفسه وقوى قلبه ولم يضيف بالجبن باطنه وقوى إيمانه بتدبير الله تعالى كان مطمئن النفس أبدا واتما باقه عز وجل فان أسوأ حاله أن يموت ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتي من

هو من القلب وليس هو من النفس وهذا بخلاف ما تقرر فسأته عن ذلك فذكر أن بين القلب والنفس منافاة وعادات وتألما وتوددا وكلا انطلقت النفس في شئ بهواها من القول والفعل تأثر القلب بذلك وتكدر فاذا عاد الصدم من مواطن مطالبات النفس وأقبل على ذكره وعمل مناجاته وخدمته لله تعالى أقبل القلب بالمعابسة للنفس وذكر النفس شيئا من فعلها وقولها كاللأم للنفس والمعاتب لها على ذلك فاذا كان الخاطر أول الفعل

ليس مطمئنا فاذن تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب والذي ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التي دبرها صادق فاقنع وجرب تشاهد صدق الوعد تحقيقا بما برده عليك من الأرزاق الصعبة التي لم تكن في ظنك وحسابك ولا تكن في توكلك منتظرا للأسباب بل لسبب الأسباب كالاسكون منتظرا لقلم الكاتب بل لقلب الكاتب فانه أصل حركة القلم والمحرك الأول واحد فلا ينبغي أن يكون النظر إلا إليه وهذا شرط توكل من يخوض البوادي بلا زاد أو يصدق في الأمصار وهو خامل وأما الذي له ذكر بالعبادة والتم في اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ وثوب خشن يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحسب ولا يحسب على الدوام بل يأتيه أضافه فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والتصور فان اشتغاره بسبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار في حق الحامل مع الاكتساب فالاهتمام بالرزق فيسبح بذوى الدين وهو بالعلماء أقيح لأن شرطهم القناعة والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وإن كانوا معه إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدي الناس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن فان الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى لأنه تفرغ لله عز وجل وإعانة للمعطي على نيل الثواب ومن نظر إلى مجاري سنة الله تعالى علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيمًا عن الأحقق للرزوق والعائل المحروم فقال أراد الصانع أن يدل على نفسه إذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحقق لظن أن العقل رزق صاحبه فلما رأوا خلافه علموا أن الرزاق غيرهم ولائقة بالأسباب الظاهرة لهم ، قال الشاعر :

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا هلصكن إذن من جهلن البهائم

(بيان أحوال التوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال)

اعلم أن مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وقوف في ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون إلى الطعام فأخرج إليهم غلمانا كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز وأمرهم أن يطبوا بعضهم رغيفين رغيفين وبعضهم رغيفا رغيفا ويجهتدوا في أن لا يغفلوا عن واحد منهم وأمر مناديا حتى نادى فيهم أن اسكنوا ولا تتعاقوا بغلمانى إذا خرجوا إليكم بل ينبغي أن يطمئن كل واحد منكم في موضعه فان الغلمان مسخرون وهم ماء ورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم فن تعلق بالغلان وآذام وأخذ رغيفين فاذا فتح باب الميدان وخرج أتبعته بغلام يكون موكلا به إلى أن أتقدم لعقوبته في ميدان معلوم عندي ولكن أخفيه ومن لم يؤذ الغلمان وقع برغيف واحد أتاه من يد الغلام وهو ساكن فأتى أخصه بخلمة سنية في اليد المذكور لعقوبة الآخر ومن ثبت في مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلمة له ومن أخطأ غلمانى لما أوصلوا إليه شيئا فبات الليلة جائعا غير متسخط للغلان ولا ذلاليته أوصل إلى رغيفا فأتى غدا أستوزره وأفوض ماسكى إليه فانتسم السؤال إلى أربعة أقسام: قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبة الموعودة وقالوا من اليوم إلى غد فرج ونحن الآن جائعون فبادروا إلى الغلمان فأذوم وأخذوا الرغيفين فسبقت العقوبة إليهم في اليد المذكور فندموا ولم ينفعهم الندم ، وقسم تركوا التعلق بالغلان خوف العقوبة ولكن أخذوا رغيفين فلبت الجوع فسدوا من العقوبة وما فازوا بالخلمة وقسم قالوا إنا نجلس بمراى من الغلمان حتى لا يخطونا ولكن نأخذ إذ أعطونا رغيفا واحدا وتقع به فلعلنا نوزر بالخلمة ففازوا بالخلمة وقسم رابع اختلفوا في ذوايا الميدان وانحرفوا عن مرأى أعين الغلمان وقالوا إن اتبموننا وأعطونا قننا برغيف واحد وإن

ومقتحه فمرته من
أم شأن البعد لأن
الأفضل من الخواطر
تنشأ حتى ذهب بعض
العلماء إلى أن العلم
للقترض طلبه بقول
رسول الله صلى الله
عليه وسلم «طلب
العلم فريضة على
كل مسلم» هو علم
الخواطر قال لأنها أول
العقل وبسببها فساد
العقل وهذا لعمري
لا يتوجه لأن رسول الله
صلى الله عليه وسلم
أوجب ذلك على كل
مسلم وليس كل المسلمين
عندهم من القريحة
والعرق ما يعرفون به
ذلك ولكن يعلم
الطالب أن الخواطر
بمثابة البذر فمنها ما هو

أخطأونا قاسينا شدة الجوع الليلة فلما نأقوى على ترك التسخط فنال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك فما نفهم ذلك إذ اتهمهم العلمان في كل زاوية وأعطوا كل واحد غيافا واحدا وجرى مثل ذلك أياما حتى اتفق على الدور أن اختفى ثلاثة في زاوية ولم تقع عليهم أبصار العلمان وشغلهم شغل صارف عن طول التفنيس فباتوا في جوع شديد فقال اثنان منهم ليتنا تعرضنا للعلمان وأخذنا طعامنا فلنا نطبق الصبر وسكت الثالث إلى الصباح فنال درجة القرب والوزارة فهذا مثال الخلق والبيدان هو الحياة في الدنيا وباب البيدان الموت واليعاد المجهول يوم القيامة والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل إذا مات جائعا راضيا من غير تأخير ذلك إلى ميعاد القيامة لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون والتعلق بالعلمان هو العتدى في الأسباب والعلمان المسخرون هم الأسباب والحال في ظاهر البيدان يرى العلمان هم المقيمون في الأمصار في الرباطات والمساجد على هيئة السكون والمختفون في الزوايا هم السامحون في البوادي على هيئة التوكل والأسباب تتبعهم والرزق يأتيهم إلا على سبيل الندور فان مات واحد منهم جائعا راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى وقد انقسم الخلق إلى هذه الأقسام الأربعة ولعل من كل مائة تعلق بالأسباب تسعون وأقام سبعة من العشرة الباقية في الأمصار متعرضين للسبب بمجرد حضورهم واشتهارهم وساح في البوادي ثلاثة وتسخط منهم اثنان وفاز بالقرب واحد وعلله كان كذلك في الأمصار السالفة وأما الآن فالتارك للأسباب لا ينتهي إلى واحد من عشرة آلاف .

[الفن الثاني في التعرض لأسباب الادخار] فمن حصل له مال يارث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب فله في الادخار ثلاثة أحوال : الأولى أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل إن كان جائعا ويلبس إن كان عاريا ويشترى مسكنا مختصرا إن كان محتاجا ويفرق الباقي في الحال ولا يأخذ ولا يدخره إلا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه فيدخره على هذه النية فهذا هو الوفي بموجب التوكل تحقيقا وهي الدرجة العليا . الحالة الثانية المقابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل أن يدخر لسنه فما فوقها فهذا ليس من التوكلين أصلا وقد قيل لا يدخر من الحيوانات إلا الثلاثة : الفأرة والخملة وابن آدم . الحالة الثالثة أن يدخر لأربعين يوما فما دونها فهذا هل يوجب حرمانه من المقام المحمود والعود في الآخرة للمتوكلين اختلفوا فيه فذهب سهل إلى أنه يخرج عن حد التوكل وذهب الحواصم إلى أنه لا يخرج بأربعين يوما ويخرج بما يزيد على الأربعين وقال أبو طالب السبكي لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الأربعين أيضا وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار ، نعم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له وكل ثواب موعود على رتبة فانه يتوزع على تلك الرتبة وتلك الرتبة لها بداية ونهاية ويسمى أصحاب النهايات السابقين ، وأصحاب البدايات أصحاب اليمين ، ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات وكذلك السابقون وأعلى درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين فلامعنى للتقدير في مثل هذا بل التحقيق أن التوكل يترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل وأما عدم آمال البقاء فيعند اشتراطه ولو في نفس فان ذلك كالممتنع وجوده أما الناس فمختلفون في طول الأمل وقصره وأقل درجات الأمل يوم وليلة فمادونه من الساعات وأقصاه ما يتصور أن يكون عمر الانسان وبينهم درجات لاحصر لها فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى القصد ممن يؤمل سنة وتقيده بأربعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام بعيد فان تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار ما رخص الأمل فيه ولكن استحقاق موسى لنيل الموعود كان لا يتم إلا بعد أربعين يوما لسرّجرت به وبأمثاله سنة الله تعالى في تدرج الأمور كما قال عليه السلام «إن الله خسر طينة آدم بيده أربعين صباحا» (١) لأن استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفا على مدة مبلغها ما ذكر فإذا ناء

(١) حديث خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث

بذر السعادة ومنها
ما هو بذر الشقاوة .
وسبب اشتباه
الحواطر أحد أربعة
أشياء لا خامس لها إما
ضعف اليقين أو قلة العلم
بمعرفة صفات النفس
وأخلاقها أو متابعة
الهوى بمخرم قواعد
التوى أو محبة الدنيا
جاهها وماله واطلب
الرفعة والمنزلة عند
الناس فمن عصم
عن هذه الأربعة
يفرق بين لمة الملك
ولمة الشيطان ومن
اشلى بها لا يلهها
ولا يطلها وانكشف
بعض الحواطر دون
البعض لوجود بعض
هذه الأربعة دون
البعض وأقوم الناس

السنة لا يدخر ٤ إلا بحكم ضعف القلب والركون إلى ظاهر الأسباب فهو خارج عن مقام التوكل غير واثق باحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الأسباب فان أسباب الدخل في الارتفاعات والركوات تتكرر بتكرر السنين غالبا ومن ادخر لأقل من سنة فله درجة بحسب قصر أملة ومن كان أملة شهرين لم تسكن درجته كدرجة من أمل شهرا ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر بل هو ينزل في الرتبة ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل فالأفضل أن لا يدخر أصلا ، وإن ضعف قلبه فكلما قل ادخاره كان فضله أكثر ، وقد روى في الفقير الذي أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه وأسامة أن يسأله فإسأله وكفناه يردته فلما دفنه قال لأصحابه «إنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالمقرلية البدر ولولا خصلة كانت فيه لبعث ووجهه كالشمس الضاحية . قلنا وماهي يا رسول الله ؟ قال كان صوامقا وما كثير الذكر لله تعالى غير أنه كان إذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف وإذا جاء الصيف ادخر حلة الشتاء لشتائه ، ثم قال صلى الله عليه وسلم بل أقل ما أو تيمم اليقين وعزيمة الصبر (١) الحديث ، وليس الكوز والشفرة وما يحتاج إليه على الدوام في معنى ذلك فان ادخاره لا ينقص الدرجة وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج إليه في الصيف ، وهذا في حق من لا ينزعج قلبه بترك الادخار ولا تستشرف نفسه إلى أبدى الخلق بل لا يلتفت قلبه إلا إلى الوكيل الحق فان كان يستشعر في نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر فالادخار له أولى بل لو أمسك ضيعة يكون دخله واقيا بقدر كفايته وكان لا يفرغ قلبه إلا به فذلك له أولى لأن المقصود إصلاح القلب ليتجدد للذكر الله ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه والمحدور ما يشغل عن الله عز وجل وإلا فالدنيا في عينها غير محدورة لا وجودها ولا عدمها ، ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمهترمون وأهل الحرف والصناعات فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المهترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما بل دعا الكل إلى الله تعالى وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعالى وعمدة الاشتغال بالله عز وجل القلب فصواب الضيف ادخاره قدر حاجته كما أن صواب القوي ترك الادخار ، وهذا كله حكم المنفرد ، فأما الليل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لئلا يجبر لضعفهم وتسكين قلوبهم وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل لأن الأسباب تتكرر عند تكرار السنين فادخاره ما يزيد عليه سببه ضعف قلبه وذلك يناقض قوة التوكل فالتوكل عبارة عن موحد قوى القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة ، وقد ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لئاله قوت سنة (٢) ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر له شيئا لئلا (٣) ونهى بلال عن الادخار في كسرة خبز ادخارها ليفطر عليها فقال ﷺ «أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إقلالا» (٤)

ابن مسعود وسلمان الفارسي باسناد ضعيف جدا وهو باطل (١) حديث أنه قال في حق الفقير الذي أمر عليا أو أسامة فإسأله وكفناه يردته أنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالمقرلية البدر الحديث وفي آخره من أقل ما أو تيمم اليقين وعزيمة الصبر لم أجده أصلا وتقدم آخر الحديث قبل هذا . (٢) حديث ادخر لئاله قوت سنة متفق عليه وتقدم في الزكاة (٣) حديث نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئا لقد تقدم نهي أم أيمن وغيرها (٤) حديث نهى بلال عن الادخار وقال أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إقلالا البزاز من حديث ابن مسعود وأبي هريرة وبلال دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صبر من تمر فقال ذلك ، وروى أبو يسيلى والطبراني في الأوسط حديث أبي هريرة وكلها ضعيفة وأما ما ذكره المصنف من أنه ادخر كسرة خبز فلم أره .

بتميز الخواطر وأقوهم بعرفة النفس ومعرفتها صعبة النال لا تكاد تيسر إلا بعد الاستقصاء في الزهد والتقوى . واتفق للشافعي على أن من كان أكله من الحرام لا يفرق بين الإلهام والوسوسة . وقال أبو علي الدقاق من كان قوته معلوما لا يفرق بين الإلهام والوسوسة وهذا لا يصح على الإطلاق لا بقيد وذلك أن من المعلوم ما يقسمه الحق سبحانه وتعالى لعبداذن يسوق إليه في الأخذ منه وانتقوت به ومثل هذا المعلوم لا يحجب عن تميز الخواطر إنما ذلك

وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سئمت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تجباً » (١) « اقتداء بسيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم وقد كان قصر أمه بحيث كان إذا بال يتيم مع قرب الماء ويقول « ما يدري لعل لا أبلغه » (٢) وقد كان صلى الله عليه وسلم لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله إذ كان لا يثق بما ادخره ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعلقاً لأقوياء من أمته فان أقوياء أمته ضعفاء بالاضافة إلى قوته وادخر عليه السلام لعياله سنة للضعف قلب فيه وفي عياله ولكن ليس ذلك للضعفاء من أمته بل أخبر « أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » (٣) « تطيبوا قلوب الضعفاء حتى لا ينتهي بهم الضعف إلى اليأس والاضوط فيتركون اليسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدرجات لما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم لإرحمة للعالمين كلهم على اختلاف أوضاعهم ودرجاتهم وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قديصر بعض الناس وقد لا يضر ، ويدل عليه ما روى أبو أمامة الباهلي « أن بعض أصحاب الصفة توفي لما وجد له كفن فقال عليه السلام فقتلوا ثوبه فوجدوا فيه دينارين في داخل إزاره فقال صلى الله عليه وسلم كيتان (٤) » وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالاً ولا يقول ذلك في حقه وهذا يحتل وجهين لأن حاله محتمل حالين: أحدهما أنه أراد كيتين من النار كما قال تعالى - تكوي بها جباههم وجنوبهم وظهورهم - وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقير والتوكل مع الانلاس عنه فهو نوع تلبس. والثاني أن لا يكون ذلك عن تلبس فيكون المعنى به نقصان عن درجة كماله كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين في الوجه وذلك لا يكون عن تلبس فان كل ما يخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته في الآخرة إذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص بقدرة من الآخرة . وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن الدخر ليس من ضرورته بطلان التوكل فيتمهله ما روى عن بشر قال الحسين المغازلي من أصحابه كنت عنده ضحوة من النهار فدخل عليه رجل كهل أصغر خفيف العارضين فقام إليه بشر قال وما رأيتك قام لأحد غيره قال ودفع إلى كفاف من دراهم وقال اشتر لنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام الطيب وما قال لي قط مثل ذلك قال سبغت بالطعام فوضعتة فأكل معه وما رأيتك أكل مع غيره قال فأكلنا حاجتنا وبق من الطعام شيء كثير فأخنيه الرجل وجمعه في ثوبه وحمله معه وانصرف فنجبت من ذلك وكرهته له فقال لي بشر لملك أنكرت فله؟ قلت نعم أخذ بقية الطعام من غير إذن فقال ذاك أخونا فتح الموصلى زارنا اليوم من الموصل فأنما أراد أن يطمنا أن التوكل إذ أصبح لم يضر مع الادخار [الفن الثالث في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المرض للخوف] اعلم أن الضرر قد يعرض للخوف في نفس أو مال وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأساً أما في النفس فكان نوم في الأرض المسبعة أو في مجارى السيل من الوادى أو تحت الجدار المسائل والسقف المنكسر فكل ذلك منهي عنه وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة ، فم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها ومظنونة وإلى موهومة فترك الموهوم منها من شرط التوكل وهي التي نسبتها إلى دفع الضرر نسبة السكى والرقية

يقال في حق من دخل في معلوم باختيار منه وإيثار لأنه ينحجب لموضع اختياره والذي أشرنا إليه منسوخ من إرادته فلا يحجبه المعلوم وفرقوا بين هواجس النفس ووسوسة الشيطان وقالوا إن النفس تطالب وتلح فلا تزال كذلك حتى تصل إلى مرادها والشيطان إذا دعا إلى زلة ولم يجب يوسوس بأخرى إذ لا غرض له في تخصيص بل مراده الاغواء كيفما أمكنه وتكلم الشيوخ في الحاطرين إذا كانا من الحق أيهما يتبع قال الجنيد الحاطر الأول

(١) حديث قال لبلال إذا سئمت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تجباً الطبراني والحاكم من حديث أبي سعيد هوثة . حديث الق الله فقيراً [٦] قد تقدم (٢) حديث أنه صلى الله عليه وسلم بال وتيمم مع قرب الماء ويقول ما يدري لعل لا أبلغه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٣) حديث إن الله يحب أن تؤتى رخصه الحديث أحمد والطبراني والبيهقي من حديث أم عمرو وقد تقدم (٤) حديث أبي أمامة توفي بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين في داخله إزاره فقال صلى الله عليه وسلم كيتان أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه .

[٦] قول العراقي حديث الحق الله فقيراً الخ لم يكن هذا الحديث موجوداً بالأصل فلمله بنسخته تأمل.

فان السكى والريقة قد يقدّم به على المحذور دفعا لما يتوقع وقد يستعمل بعد نزول المحذور للازالة للورسول
الله صلى الله عليه وسلم لم يصف للتوكلين إلا بترك السكى والريقة والطيرة ولم يصفهم بأنهم إذا خرجوا إلى
موضع بارد لم يلبسوا جبة والحبة تلبس دفعا للبرد المتوقع وكذلك كل ما في معناها من الأسباب ، نعم
الاستظهار يأكل الثوم مثلا عند الخروج إلى السفر في الشتاء تهبجا لقوة الحرارة من الباطن ربما
يكون من قبيل التعمق في الأسباب والتحويل عليها فيكاد يقرب من السكى بخلاف الحية وترك الأسباب
الدافعة وإن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفي
فشرط التوكل الاحتمال والصبر قال الله تعالى - فأغضه وكبلا واصبر على ما يقولون - وقال تعالى -
ولنصبرن على ما آذيتونا وعلى الله فليتوكل التوكلون - وقال عز وجل - ودع أذاهم وتوكل على الله -
وقال سبحانه وتعالى - فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل - وقال تعالى - نعم أجر العاملين الذين
صبروا وعلى ربهم يتوكلون - وهذا في أذى الناس وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب
فترك دفعها ليس من التوكل في شيء إذ الفائدة فيه ولا يراد السعى ولا يترك السعى لعينه بل لإعاقته على
الدين وترتب الأسباب ههنا كترتها في الكسب وجلب النافع فلا تطول بالاعادة وكذلك في الأسباب
الدافعة عن المال فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير لأن هذه أسباب
عرفت بسنة الله تعالى إما قطعا وإما ظنا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي لما أن أهمل البعير
وقال توكلت على الله «اعقها وتوكل» (١) وقال تعالى - خذوا حذركم - وقال في كيفية صلاة الخوف
- وليأخذوا أسلحتهم - وقال سبحانه - وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل - وقال تعالى
لموسى عليه السلام - فأسر بعبادى ليلا - والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبب
واختفاء رسول الله ﷺ في الغار اختفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر (٢) وأخذ السلاح في الصلاة
ليس دافعا قطعا كقتل الحية والعقرب فإنه دافع قطعا ولكن أخذ السلاح سبب مظنون وقد بينا أن
المظنون كالمقطوع وإنما الوهوم هو الذي يقتضى التوكل تركه . فان قلت قد حكى عن جماعة أن
منهم من وضع الأسد يده على كتفه ولم يتحرك . فأقول وقد حكى عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه
فلا ينبغي أن يفرك ذلك المقام فإنه وإن كان مهيحا في نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق التعلم من الغير
بل ذلك مقام رفيع في الكرامات وليس ذلك شرطا في التوكل وفيه أسرار لا يفهمها من لم ينته إليها .
فان قلت وهل من علامة أعلم بها أنى قد وصلت إليها ؟ فأقول الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات ولكن
من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه أن يسخر لك كلب هو معك في إهابك يسمى الغضب فلا يزال
يحضك ويعض غيرك فان سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلى لم يستشمل إلا بأشارتك وكان مسخرا
لك فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذي هو ملك السباع وكنب دارك أولى بأن يكون
مسخرا لك من كلب البوادي وكنب إهابك أولى بأن يتسخر من كلب دارك فإذا لم يسخر لك الكلب
الباطن فلا تطمع في استسجار الكلب الظاهر . فان قلت فإذا أخذ التوكل سلاحه حذرا من العدو وأغلق
بابه حذرا من اللص وعقل بعيره حذرا من أن ينطلق فبأى اعتبار يكون متوكلا . فأقول يكون متوكلا
بالم والحال فأما العلم فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يدفع بكفايته في إغلاق الباب بل لم يدفع إلا بدفع الله
تعالى إياه فكيف من باب يفاق ولا ينفذ وكيف من بعير يعقل ويموت أو يفات وكيف من أخذ سلاحه يقتل

لأنه إذا بق رجح صاحبه
الى التأمل وهذا شرط
العلم . وقال ابن عطاء
الثانى أقوى لأنه ازداد
قوة بالأول . وقال
أبو عبد الله بن خفيف
هما سواء لأنهما
من الحق فلا مزية
لأحدهما على الآخر قالوا
الواردات أعم من
الحواطر لأن الحواطر
تمتص بنوع خطاب
او مطالبة والواردات
تكون تارة حواطر
وتارة تكون وارد
سرور ووارد حزن
ووارد قبض ووارد
بسط . وقيل بنور
التوحيد يقبل الحاطر
من الله تعالى وبنور
للعرفة يقبل من
لللك وبنور الايمان

(١) حديث اعقلها وتوكل الترمذى من حديث أنس قال يحيى القطان منكر ورواه ابن خزيمة في
التوكل والطبرانى من حديث عمرو بن أمية الضمرى باسناد جيد قيدها (٢) حديث اخفى رسول الله
صلى الله عليه وسلم عن أعين الأعداء دفعا للضرر تقدم في قصة اختفائه في الغار عند إرادة الهجرة .

أويغلب فلا تتشكل على هذه الأسباب أصلاً بل على مسبب الأسباب كما حضر بنا المثل في الوكيل في الحصومة فإنه إن حضر وأحضر السجل فلا يتشكل على نفسه وسجله بل على كفاية الوكيل وقوته. وأما الحال فهو أن يكون راضياً بما يقضى الله تعالى به في بيته ونفسه ويقول اللهم إن سلطت على مافي البيت من يأخذه فهو في سبيلك وأنا راض بحكمك فإني لأدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها أو عارية وودعة فتستردها ولا أدري أنه رزقي أو سبقت مشيتك في الأزل بأنه رزق غيري وكيفما قضيت فأنا راض به وما أغلقت الباب تحصناً من فضائك وتسخطا له بل جرياً على مقتضى سننك في ترتيب الأسباب فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب فإذا كان هذا حاله وذلك الذي ذكرناه علمه لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير وأخذ السلاح وإغلاق الباب ثم إذا عاد فوجد متاعه في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى وإن لم يجده بل وجده مسروقاً نظراً إلى قلبه فإن وجده راضياً أو غير راضٍ بذلك عالماً أنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة فقد صح مقامه في التوكل وظهر له صدقه. وإن تألم قلبه به ووجد قوة الصبر فقد بان له أنه ما كان صادقاً في دعوى التوكل لأن التوكل مقام بعد الزهد ولا يصح الزهد إلا لمن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي بل يكون على العكس منه فكيف يصح له التوكل، نعم قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكوه ولم يكثر سعيه في الطلب والتجسس وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب ييدنه فقد كانت السرقة مزيداً له في ذنبه من حيث إنه ظهر له صورته عن جميع القمامات وكذبته في جميع الدعاوى فبمده هذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدق نفسه في دعاؤها ولا يتدلى بحبل غرورها فإنها خداعة أمانة بالسوء مدعية للخير. فإن قلت فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ. فأقول للمتوكل لا يخلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها وكوز يشرب منه وإنا متواضعا منه وجراب يحفظ به زاده وعصا يدفع بها عدوه وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت وقد يدخل في يده مال وهو يسكه ليجد محتاجاً فيصرفه إليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلاً لتوكله وليس من شرط التوكل إخراج الكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده وإتمام ذلك في المأكول وفي كل مال زاد على قدر الضرورة لأن سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء التوكلين في زوايا المساجد وما جرت السنة بتفرقة الكيزان والأمتعة في كل يوم ولا في كل أسبوع والخروج عن سنة الله عز وجل ليس شرطاً في التوكل ولذلك كان الخواص يأخذ في السفر الحبل والركوة والمقراض والإبرة دون الزاد لكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الأمرين. فإن قلت فكيف يتصور أن لا يحزن إذا أخذ متاعه الذي هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه فإن كان لا يشتهي فلم أمسكه وأغلق الباب عليه وإن كان أمسكه لأنه يشتهي له حاجته إليه فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهي. فأقول إنما كان يحفظه ليستعين به على دينه إذ كان يظن أن الخيرة له في أن يكون له ذلك المتاع ولولا أن الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه إياه فاستدل على ذلك بتيسير الله عز وجل وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعاً به إذ يحتمل أن تكون خيرة في أن يتبلى بفقده ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر فلما أخذ الله تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه لأنه في جميع الأحوال واثق بالله حسن الظن به فيقول لولا أن الله عز وجل علم أن الخيرة كانت لي في وجودها إلى الآن والخيرة لي الآن في عدمها لما أخذها مني فبمثل هذا الظن يتصور أن يندفع عنه الحزن إذ به يخرج عن أن يكون فرحه بأسباب من حيث إنها أسباب بل من حيث إنه يسرها مسبب الأسباب عناية وتلطفاً وهو كالمرضى بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله فإن قدم إليه الدواء فرح وقال لولا أنه

ينهى النفس وبنور الإسلام يرد على العدو ومن قصر عن درب حقائق الزهد وتطلع إلى تمييز الخواطر يزن الخاطر أولاً بميزان الشرع فما كان من ذلك تقلاً أو فراضاً عليه وما كان من ذلك محرماً أو مكروهاً يفتيه فإن استوى الخاطر ان في نظر العلم ينفذ أمرهما إلى مخالفة هوى النفس فإن النفس قد يكون لها هوى كما من في أحدهما والغالب من شأن النفس الاعوجاج والركون إلى الدون وقد يلم الخاطر بنشاط النفس والعبد يظن أنه بنهوض القلب وقد يكون من القلب تفاق

يعرف أن الغذاء ينفعني وقد قويت على احتياله لما قربه إليّ وإن أخر عنه الغذاء بعد ذلك أيضا فرح وقال لولا أن الغذاء يضرني ويسوقني إلى الموت لما حال بيني وبينه وكل من لا يعتقد في لطف الله تعالى ما يعتده للمريض في الوالد المشفق الحافق لعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلا . ومن عرف الله تعالى وعرف أهله وعرف سنته في إصلاح عباده لم يكن فرحه بالأسباب فانه لا يدري أي الأسباب خير له كما قال عمر رضي الله عنه : لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا فاني لأدري أيهما خير لي فكذلك ينبغي أن لا ينالي للتوكل يسرق متاعه أولا يسرق فانه لا يدري أيهما خير له في الدنيا أو في الآخرة فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الانسان وكم من غنى يتلى بواقعة لأجل غناه يقول ياليتني كنت فقيرا .

(بيان آداب للتوكلين إذا سرق متاعهم)

للتوكل آداب في متاع بيته إذا خرج عنه . الأول : أن يباق الباب ولا يستقصي في أسباب الحفظ كالتماسه من الجيران الحفظ مع العلق وبكلمه أغلاقا كثيرة فقد كان مالك بن دينار لا يبتلق بابه ولكن يشده بشريط ويقول لولا الكلاب ما شدته أيضا . الثاني : أن لا يترك في البيت متاعا يعرض عليه السراق فيكون هو سبب محصيتهم أو إمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم ولذلك لما أهدى للفقيرة إلى مالك بن دينار ركوة قال خذها لاحاجة لي إليها قال لم ؟ قال يوسوس إلى العدو أن المس أخذها فكانه احترز من أن يعصى السارق ؟ ومن شغل قلبه بوسوس الشيطان بسرقتها ولذلك قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية هذا قد زهد في الدنيا لما عليه من أخذها . الثالث : أن ما يضطر إلى تركه في البيت ينبغي أن يوصى عند خروجه الرضا بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه ويقول ما يأخذه السارق فهو منه في حل أو هو في سبيل الله تعالى وإن كان فقيرا فهو عليه صدقة وإن لم يشترط الفقر فهو أولى فيكون له نيتان لو أخذه غنى أو فقير : أحدهما أن يكون ماله مانعا له من العصية فانه ربما يستغنى به فيتوانى عن السرقة بدمه وقد زال عصيانه بأكل الحرام لما أن جعله في حل . والثانية أن لا يظلم مسلما آخر فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر ، ومهما بنو حراسة مال غيره بمال نفسه أو ينو دفع العصية عن السارق أو تخفيفها عليه فقد نسح للمسلمين وامتل قوله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالما أو مظلوما (١) » ونصر الظالم أن تمنحه من الظلم وغفوه عنه إعدام للظلم ومنع له ولينحقق أن هذه النية لا تضره بوجه من الوجوه إذ ليس فيها ما يسلط السارق ويغير القضاء الأزلي ولكن يتحقق بالزهد نيته فان أخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة درهم لأنه نواه وقصده وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضا كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن ترك العزل فأقر النطفة قرارها أن له أجر غلام وله من ذلك الجماع وعاش قتل في سبيل الله تعالى وإن لم يولد له (٢) لأنه ليس أمر الولد إلا الوقاع فأما الحق والحياة والرزق والبقاء فليس إليه فلو خاق لكان ثوابه على فعله وفعله لم يندم فكذلك أمر السرقة . الرابع : أنه إذا وجد للمال مسروقا فينبغي أن لا يعجز بل يفرح إن أمكنه ويقول لولا أن الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى ثم إن لم يكن قد جعله في سبيل الله عز وجل فلا يزال في طلبه وفي إساءة الظن بالمسلمين ، وإن كان قد جعله في سبيل الله فيترك طلبه فانه قد قدمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة فان

(١) حديث انصر أخاك ظالما أو مظلوما متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم (٢) حديث من ترك العزل وأقر النطفة قرارها كان له أجر غلام الحديث لم أجد له أصلا .

بكونه إلى النفس يقول بعضهم منذ عشرين سنة ما سكن قلبي إلى نفسي ساعة فيظهر من سكون القلب إلى النفس خواطر تشبه خواطر الحق على من يكون ضعيف العلم فلا يدرك نفاق القلب والخواطر المتولدة منه إلا العلماء الراسخون . وأكثر ما تدخل الآفات على أرباب القلوب والإخدين من اليقين واليقظة والحال بسهم من هذا القبيل وذلك لقلة العلم بالنفس والقلب وبقاء نصيب الهوى فيهم . وينبغي أن يعلم الصديق قطعا أنه مهما بقى عليه أثر

أعيد عليه فالأولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جعله في سبيل الله عز وجل وإن قبله فهو في ملكه في ظاهر العلم لأن الملك لا يزول بمجرد تلك النية ولكنه غير محبوب عند التوكلين . وقد روى أن ابن عمر سرق ناقته فطلبها حتى أعيأ ثم قال في سبيل الله تعالى فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين فبعاه رجل ، فقال : يا أبا عبد الرحمن إن ناقتك في مكان كذا فليس نعله وقام ثم قال أستغفر الله وجلس فقيل له ألا تذهب فتأخذها فقال إني كنت قلت في سبيل الله . وقال بعض الشيوخ رأيت بعض إخواني في النوم بعد موته قلت ما فعل الله بك قال غفر لي وأدخلني الجنة وعرض علي منازل فيها فرأيته قال وهو مع ذلك كئيب حزين قلت قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين فتتفس الصمداء ثم قال نعم إني لا أزال حزينا إلى يوم القيامة قلت ولم ؟ قال إني لما رأيت منازل في الجنة رفعت لي مقامات في عشرين ما رأيت مثلها فيها رأيت فقرحت بها فلما همت بدخولها نادى مناد من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له إنما هي لمن أمضى السبيل ، قلت وما إمضاء السبيل؟ فقيل لي كنت تقول للشيء إنه في سبيل الله ثم ترجع فيه فلو كنت أمضيت السبيل لأمضيت لك . وحكى عن بعض العباد بمكة أنه كان نائما إلى جنب رجل معه هميانه فانتبه الرجل فقصد هميانه فاتهم به فقال له كم كان في هميانك فذكر له حملته إلى البيت ووزنه من عنده ثم بعد ذلك أعله أصحابه أنهم كانوا أخذوا الهميان مزحاً معه فجاء هو وأصحابه معه وردوا الذهب فأبى وقال خذ حلالا طيبا فما كنت لأعود في مال أخرجته في سبيل الله عز وجل فلم يقبل فألحوا عليه فدعا ابنا له وجعل يصره صرورا ويبعث بها إلى الفقراء حتى لم يبق منه شيء ففكذا كانت أخلاق السلف وكذلك من أخذ رغيفا ليعطيه فقيرا فغاب عنه كان يكره رده إلى البيت بعد إخراجة فيعطيه فقيرا آخر وكذلك يفعل في الهرام والدنانير وسائر الصدقات . الخامس : وهو أقل الدرجات أن لا يدعوا على السارق الذي ظلمه بالأخذ ، فإن فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهته وتأذبه على مافات وبطل زهده ولو بالغ فيه بطل أجره أيضا فيما أصيب به ففي الخبر « من دعا على ظالمه فقد انتصر (١) » . وحكى أن الربيع بن خيثم سرق فرس له وكان قيمته عشرين ألفا وكان قائما يصلي فلم يقطع صلاته ولم يزعج اطلبه فبعاه قوم بوزنه ، فقال أما إني قد كنت رأيت وهو يحمله قيل وما منعك أن تزجره . قال كنت فيها هو أحب إلي من ذلك يعني الصلاة فعملوا يدعون عليه فقال لا تفعلوا وقولوا خيرا فاني قد جعلتها صدقة عليه . وقيل لبعضهم في شيء قد كان سرق له ألا تدعو على ظالمك قال ما أحب أن أكون عوناً للشيطان عليه قيل رأيت لورد عليك قال لا أخذه ولا أنظر إليه لأنني كنت قد أحلته له . وقيل لآخر : ادع الله على ظالمك ، فقال ما ظلمني أحد ثم قال إنما ظلم نفسه ألا يكفيه السكين ظلم نفسه حتى أزيد شرًا . وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف في ظلمه ، فقال لا تغرق في شتمه فان الله تعالى ينتصف للحجاج ممن انتهك عرضه كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودمه . وفي الخبر « إن العبد ليظلم الظالمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتصر له من المظالم (٢) » . السادس أن يتم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله تعالى ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما وجعل ذلك نصفا في دنياه لانهصا في دينه فقد شكوا بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله

(١) حديث من دعا على من ظلمه فقد انتصر تقدم (٢) حديث إن العبد ليظلم الظالمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة الحديث تقدم .

قال إن لم يكن لك غم أنه قد صار في السلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بما لك فما نصحت للمسلمين. وسرق من علي بن الفضل دنانير وهو يطوف بالبيت فرآه أبوه وهو يبكي ويعزن فقال أطلي الدنانير تبكي؟ فقال لا والله ولكن طي للسكين أن يستل يوم القيامة ولا تكون له حجة وقيل لبعضهم ادع طي من ظلمك فقال إني مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه فهذه أخلاق السلف رضي الله عنهم أجمعين .

[الفن الرابع في السعي في إزالة الضرر كداواة للرض وأمثاله] اعلم أن الأسباب الزيلة للمرض أيضا تنقسم إلى مقطوع به كالماء للزبل لضرر العطش والحبز للزبل لضرر الجوع وإلى مظنون كالتصد والحمامات وشرب الدواء السهل وسائر أبواب الطب أعنى معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهي الأسباب الظاهرة في الطب وإلى موهوم كالسكي والرقية . أما المقطوع فليس من التوكل تركه بل تركه حرام عند خوف الموت. وأما الموهوم فشرط التوكل تركه إذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم للتوكلين وأقواها السكي ويليها الرقية والطيرة آخر درجاتها والاعتماد عليها والاتكال إليها غاية التعمق في ملاحظة الأسباب وأما الدرجة المتوسطة وهي المظنونة كالدواوة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء فعمله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الموهوم وتركه ليس محظورا بخلاف المقطوع بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص فهي طي درجة بين الدرجتين ويدل على أن التداوى غير مناقض للتوكل فدل رسول الله ﷺ وقوله وأمره به أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم « مامن داء إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام (١) » يعني الموت وقال عليه السلام « تداووا عباد الله فإن الله خلق الداء والدواء (٢) » . « وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال: هي من قدر الله (٣) » وفي الخبر المشهور « ما مرت ببل من الملائكة إلا قالوا مر أمتك بالحجامة (٤) » وفي الحديث أنه أمر بها وقال « اجتمعوا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين لا يبيح بكم التمس فيقتل بكم (٥) » فذكر أن تبيخ الدم سبب الموت وأنه قاتل بإذن الله تعالى وبين أن إخراج الدم خلاص منه إذ لا فرق بين إخراج الدم المهلك من الإهاب وبين إخراج العرق من تحت الثياب وإخراج الحية من البيت وليس من شرط التوكل ترك ذلك بل

(١) حديث مامن داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود دون قوله إلا السام وهو عند ابن ماجه مختصرا دون قوله عرفه إلى آخره وإسناده حسن ولترمذي وصححه من حديث أسامة بن شريك إلا الهرم والطبراني في الأوسط والبخاري من حديث أبي سعيد الخدري والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس وسندهما ضعيف والبخاري من حديث أبي هريرة ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ولمسلم من حديث جابر لكل داء دواء (٢) حديث تداووا عباد الله الترمذي وصححه وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة بن شريك (٣) حديث سئل عن الدواء والرقى هل يرد من قدر الله فقال هي من قدر الله الترمذي وابن ماجه من حديث أبي خزيمة وقيل عن أبي خزيمة عن أبيه قال الترمذي وهذا أصح (٤) حديث ما مرت ببل من الملائكة إلا قالوا مر أمتك بالحجامة الترمذي من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب ورواه ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف (٥) حديث اجتمعوا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين الحديث البزار من حديث ابن عباس بسند حسن موقوفا ورفعه الترمذي بلفظ إن خيرا ما تجتمعون فيه سبع عشرة الحديث دون ذكر التبيخ وقال حسن غريب وقال البزار إن طريقه المقدمة أحسن من هذا الطريق ولابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف من أراد الحجامة فليتحه سبعة عشر الحديث.

القلب فيقبل بالاغواء والوسوسة وذكر أن حركة النفس تكون إما هوى وهو عاجل حظ النفس أو أمنية وهي عن الجهل التريزي أو دعوى حركة أوسكون وهي آفة العقل ومحنة القلب ولا ترد هذه الثلاثة إلا بأحد ثلاثة جهل أو غفلة أو طلب فضول ثم يكون من هذه الثلاثة ما يجب فيه فانها ترد بخلاف مأمور أو طي وفق منهي ومنها ما يكون نفيها فضيلة إذا وردت بمباحات . وذكر أن الروح إذا تحركت اتقدح من جوهرها نور ساطع يظهر من

هو كسب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها في البيت وليس من التوكل الحروح عن سنة الوكيل أصلاً وفي خبر مقطوع «من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة (١)» وأما أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوي بالحمية (٢) وقطع لسعد بن معاذ عرقاً (٣) أي فصدته وكوى سعد بن زرارة (٤) وقال لعلى رضي الله تعالى عنه وكان رمد العين «لأننا كل من هذا يعني الرطب وكل من هذا فإنه أوفق لك (٥)» يعني سلقاً قد طبخ بدقيق شعير . وقال لصبيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين «تأكل تمرًا وأنت أرمد فقال إني آكل من الجانب الآخر فتبسم صلى الله عليه وسلم (٦)» . وأما فله عليه الصلاة والسلام فقد روى في حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة (٧) قيل السنة لكي . وتداوى ﷺ غير مرة من العقرّب وغيرها (٨) وروى أنه كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فكان يلفه بالحناء (٩) وفي خبر أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء وقد جعل على قرحة خرجت به تراباً (١٠) وما روى في تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر وقد صنف في ذلك كتاب وسمى طب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر بعض العلماء في الاسرائيليات أن موسى عليه السلام اعتل بطة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علته

(١) حديث من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة الطبراني من حديث معقل بن يسار وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس وإسنادها واحد اختلف على روايته في الصحابي وكلاهما فيه زيد العمى وهو ضعيف (٢) حديث أمره بالتداوي لغير واحد من الصحابة الترمذي وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك أنه قال للأعراب حين سألوه تداووا الحديث وسيأتي في قصة على وصهيب في الحمية بعده (٣) حديث قطع عرقاً لسعد بن معاذ مسلم من حديث جابر قال رمى سعد في أكله خمسة النبي صلى الله عليه وسلم بيده بمشقص الحديث (٤) حديث أنه كوى أسعد بن زرارة الطبراني من حديث سهل بن حنيف بسند ضعيف ومن حديث أبي أسامة بن سهل بن حنيف دون ذكر سهل (٥) حديث قال لعلى وكان رمداً لأننا كل من هذا ، الحديث أبو داود والترمذي وقال حسن غريب وابن ماجه من حديث أم المنذر (٦) حديث قال لصبيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين تأكل تمرًا وأنت رمد الحديث تقدم في آفات اللسان (٧) حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة ابن عدي من حديث عائشة وقال إنه منكر وفيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويعني بن معين (٨) حديث أنه تداوى غير مرة من العقرّب وغيرها الطبراني بإسناد حسن من حديث جبلة بن الأزرق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لدغته عقرب ففتى عليه فرآه الناس الحديث وله في الأوسط من رواية سعيد بن مسيرة وهو ضعيف عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى تفتح كفاً من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلاً ولأبي يعلى والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن جعفر أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم بعد ماسم وفيه جابر الجعفي ضعفه الجمهور (٩) حديث كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فيلفه بالحناء الزبيري وابن عدي في الكامل من حديث أبي هريرة وقد اختلف في إسناده على الأحوص بن حكيم كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء الترمذي وابن ماجه من حديث سلمى قال الترمذي غريب (١٠) حديث جعل على قرحة خرجت بيده تراباً البخاري ومسلم من حديث عائشة كان إذا اشتكى الإنسان التي منه أو كانت قرحة أو جرح قال النبي صلى الله عليه وسلم بيده هكذا ووضع سفيان بن عيينة الراوي سبأته بالأرض ثم رفسها وقال بسم الله ترربة أرضنا وريقة بعضنا في سقيتنا .

ذلك النور في القلب همة عالية بأحد معان ثلاثة إما بفرض أمر به أو بفضله نذب إليه وإما بمباح يعسود صلاحه إليه وهذا الكلام يدل على أن حركتي الروح والنفس هما الوجهتان للمتين . وعندى والله أعلم أن اللتين يتقدمان على حركة الروح والنفس لحركة الروح من لمة الملك والهمة العالية من حركة الروح وهذه الحركة من الروح بركة لمة الملك وحركة النفس من لمة الشيطان ومن حركة النفس الهمة الدنيئة وهي من شؤم لمة الشيطان فاذا وردت اللتان ظهرت الحركتان

فقالوا له لوتداويت بكذا لبرئت فقال لا أتداوى حتى يعافيني هو من غير دواء فظالت علته فقالوا له إن دواء هذه العلة معروف محرب وإنما تتداوى به فنبأ فقال لا أتداوى وأقامت علته فأوحى الله تعالى إليه وعزى وجلالى لأبرأتك حتى تتداوى بما ذكرته فدأوه فبرأ فأوحى في نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى إليه أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك على من أودع العقاقير منافع الأشياء غيرى . وروى في خبر آخر أن نبيا من الأنبياء عليهم السلام شكاه على مجدها فأوحى الله تعالى إليه كل البيض . وشكا نبي آخر الضعف فأوحى الله تعالى إليه كل اللحم باللبن فإن فيها القوة قيل هو الضعف عن الجماع . وقد روى أن قوما شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم فأوحى الله تعالى إليه مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فإنه يحسن الولد . وفعل ذلك في الشهر الثالث والرابع إذ فيه يصور الله تعالى الولد وقد كانوا يطعمون الحبلى السفرجل والنساء الرطب فهذا تبيين أن مسبب الأسباب أجرى سنته بربط السبب بالأسباب إظهارا للحكمة والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الأسباب فكما أن الحبز دواء الجوع والماء دواء العطش فالسكنجيين دواء الصفراء والسقمونيا دواء الاسهال لا يفارقه إلا في أحد أمرين : أحدهما أن معالجة الجوع والعطش بالماء والحبز جلى واضح يدركه كافة الناس ومعالجة الصفراء بالسكنجيين يدركه بعض الخواص فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق في حقه بالأول : والثانى أن الدواء يسهل والسكنجيين يسكن الصفراء بشروط أخرى الباطن وأسباب في الزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها وربما يفوت بعض الشروط فيتعاد الدواء عن الاسهال . وأما زوال العطش فلا يستدعى سوى للماء شروطا كثيرة وقد يتفق من العوارض ما يوجب دواء العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلال الأسباب أبدا ينحصر في هذين الشئتين وإلا فالمسبب يتلو السبب لا محالة مهما تمت شروط السبب وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخيره وترتيبه بحكم حكته وكمال قدرته فلا يضر التوكل استعماله مع النظر إلى مسبب الأسباب دون الطبيب والدواء فقد روى عن موسى عليه السلام أنه قال يارب من الداء والدواء؟ فقال تعالى منى قال فما يصنع الأطباء؟ قال يا كلون أرزاقهم ويطيرون نفوس عبادى حتى يأتى شفاى أو قضائى فاذن معنى التوكل مع التداوى التوكل بالعلم والحال كما سبق في فنون الأعمال الدافعة للضرر الجالبة للنفع فأما ترك التداوى رأسا فليس شرطا فيه . فإن قلت فالسكى أيضا من الأسباب الظاهرة النفع . فأقول ليس كذلك إذ الأسباب الظاهرة مثل الفصد والحجامة وشرب السهل وسقى المبردات للمحرور وأما السكى فلو كان مثلها في الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه وقلما يعتاد السكى في أكثر البلاد وإنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب فهذا من الأسباب اللوهومة كالرقى إلا أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه احتراق بالنار في الحال مع الاستئناء عنه فإنه مامن وجع يعالج بالسكى إلا أنه دواء يفتى عنه ليس فيه إحراق فالاحتراق بالنار جرح محرب للبنية محذور السراية مع الاستئناء عنه بخلاف الفصد والحجامة فإن سرايتهما بعيدة ولا يسد مسدهما غيرها ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السكى دون الرقى ^(١) وكل واحد منهما بعيد عن التوكل وروى أن عمران بن الحصين اعتل فأشاروا عليه بالسكى فامتنع فلم يزالوا به وعزم عليه الأمر حتى اكتوى فكان يقول كنت أرى نورا وأسمع صوتا وتسلم على اللاشك فقلنا كثنويت انقطع ذلك عنى وكان يقول اكتوينا كيات فوالله ما أفلمحت ولا أنجحت ثم تاب من ذلك وأتاب إلى الله تعالى

وظهر سر العطاء والابتلاء من معط كريم ومبل حكيم وقد تكون هاتان اللتان متداركتين وينمحي أثر إحداها بالأخرى والتلفظن للتلفظ يفتح عليه بمطالمة وجود هذه الآثار في ذاته باب أنس ويتقى أبادمتفقا حاله مطالما آثار اللتين . وذكر خاطر خامس : وهو خاطر العقل متوسط بين الخواطر الأربعة يكون مع النفس والمدون لوجود التمييز وإثبات الحجبة على العبد ليدخل العبد في الشئ بوجود عقل إذ لو فقد العقل سقط العقاب والعتاب وقد

(١) حديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السكى دون الرقى البخارى من حديث ابن عباس وأنهى أمق عن السكى ، وفي الصحيحين من حديث عائشة رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرقية من كل ذى حمة .

فرد الله تعالى عليه ما كان يحد من أمر الملائكة وقال لمطرف بن عبد الله ألم تر إلى الملائكة التي كان أكرمى الله بها قد ردها الله تعالى على بعد أن كان أخبره بفقدها فاذن السكى وما يجرى مجراه هو الذى لا يليق بالتوكل لأنه يحتاج في استنباطه إلى تدبير ثم هو منموم ويبدل ذلك على شدة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها والله أعلم .

(بيان أن ترك التداوى قد يحمى في بعض الأحوال ويبدل على قوة التوكل)

وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم)

يكون مع الملك والروح
ليوقع الفعل مختاراً
ويستوجب به
الثواب . وذكر
خاطر سادس وهو خاطر
اليقين وهو روح
الإيمان ومزيد العلم
ولا يبعد أن يقال الخاطر
السادس وهو خاطر
اليقين حاصله راجع
إلى ما يرد من خاطر
الحق وخاطر العقل
أصله تارة من خاطر
الملك وتارة من خاطر
النفس وليس من
العقل خاطر على
الاستقلال لأن العقل
كما ذكرنا غريزة يتهيأ
بها إدراك العلوم وتهيأ
بها الانجذاب إلى
دواعى النفس تارة
وإلى دواعى الملك تارة

اعلم أن الدين تداوى من السلف لا ينصرفون ولكن قد ترك التداوى أيضاً جماعة من الأكابر فرمى
يظن أن ذلك قصان لأنه لو كان كالاتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لا يكون حال غيره في التوكل
أكمل من حاله ، وقد روى عن أبي بكر رضى الله عنه أنه قيل له لو دعونا لك طبيباً فقال الطبيب قد نظر
إلى وقال إني فقال ما أريد . وقيل لأبي الدرداء في مرضه ما تشكى قال ذنوبى قيل فما تشهى قال مغفرة
ربى قالوا ألا تدعوك طبيباً قال الطبيب أمرضى . وقيل لأبي ذر وقد رميت عيناه لوداوينها قال
إني عنهما مشغول فقيل لوسألت الله تعالى أن يافكك فقال أسأله فإيه هو أم على منها . وكان الربيع
ابن خيم أصابه فالج فقبله لوتداوى فقال قد همت ثم ذكرت عاداً وعموداً وأصحاب الرس وقرونيين
ذلك كثير أو كان فيهم الأطباء فهلك التداوى والتداوى ولم تكن الرقى شيئاً . وكان أحمد بن حنبل يقول أحب
لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوى من شرب الدواء وغيره وكان به علل فلا يخبر
للتطب بها أيضاً إذا سأله . وقيل لسهل متى يصح لعبد التوكل قال إذا دخل عليه الضرر في جسمه
والنقص في ماله فلم يلتفت إليه شغلاً بهاله وتظنر إلى قيام الله تعالى عليه فإذا منهم من ترك التداوى
وراه ومنهم من كرهه ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصالحهم إلا بعصر
الصوارف عن التداوى . فنقول إن ترك التداوى أسباباً . السبب الأول : أن يكون المريض من
الكاشفين وقد كوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه ويكون ذلك معلوماً عن تارة برؤيا
صادقة وتارة بحس وظن وتارة بكشف محقق ويشبه أن يكون ترك الصديق رضى الله عنه التداوى
من هذا السبب فإنه كان من الكاشفين فإنه قال لما شفى رضى الله عنها في أمر اليراث إنعاهن أخذك
وإنما كان لها أخت واحدة ولكن كانت امرأته حاملاً فولدت أنثى فعلم أنه كان قد كوشف بأنها
حامل بأنثى فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضاً بانثها وجهه وإلا فلا يظن به إنكار التداوى وقد شاهد
رسول الله ﷺ تداوى وأمر به . السبب الثاني : أن يكون للمريض متحولاً بهاله وبخوف عاقبه
وإطلاع الله تعالى عليه فينسى ذلك ألم المرض فلا تفرغ قلبه للتداوى متحولاً بهاله وعليه يدل كلام أبى
ذر إذ قال إني عنهما مشغول . وكلام أبى الدرداء إذ قال إنما تشكى ذنوبى فكان تألم قلبه خوفاً من ذنوبه
أكثر من تألم بدنه بالمرض ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته أو كالحائف الذى يعمل إلى
ملك من الملوك لقتل إذ قيل له لا تأكل وأنت جائع فيقول أنا مشغول عن ألم الجوع فلا يكون ذلك
إنكاراً لكون الأكل نافعا من الجوع ولا طمناً فيمن أكل وقرب من هذا اشتغال سهل حيث
قيل له ما القوت فقال هو ذكرا الحى القيوم فقيل إنما سألتك عن القوام فقال القوام هو العلم قيل سألتك
عن الغذاء قال الغذاء هو الذكر قيل سألتك عن طعمة الجسد قال مالك وللجسد دع من تولاه أولاً
يتولاه آخراً إذا دخل عليه علة فرده إلى صانه أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردها إلى صانها حتى
يصلحها . السبب الثالث : أن تكون العلة مزمنة والدواء الذى يؤمر به بالاضافة إلى علته موهوم
النفع جار مجرى السكى والرقية فيتركه التوكل وإله يشير قول الربيع بن خيم إذ قال ذكرت عاداً

وتمد وفيهم الأطباء فهلك المداوى والمداوى أى أن الدواء غير موثوق به وهذا قد يكون كذلك في نفسه وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته للطب وقلة تجربته له فلا يثلب على ظنه كونه نافعا ولا شك في أن الطبيب المحرب أشد اعتقادا في الأدوية من غيره فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد والاعتقاد بحسب التجربة وأكثر من ترك التداوى من العباد والزهاد هذا مستند لأنه يبقى الدواء عنده شيئا موهوما لأصله وذلك صحيح في بعض الأدوية عند من عرف صناعة الطب غير صحيح في البعض ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى الكل نظرا واحدا فيرى التداوى تعمقا في الأسباب كالسكى والرقى فيتركه توكلا . السبب الرابع . أن يقصد العبد ترك التداوى استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى أو ليحرب نفسه في القدرة على الصبر قدورد في ثواب المرض ما يكثر ذكره فقد قال صلى الله عليه وسلم « نحن معاصر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى العبد على قدر إيمانه فان كان صلب الإيمان شدد عليه البلاء وإن كان في إيمانه ضعف خفف عنه البلاء (١) » وفي الخبر « إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار فنتهم من يخرج كذهب الإبريز لا يرد ومنهم دون ذلك ومنهم من يخرج أسود محترقا (٢) » وفي حديث من طريق أهل البيت « إن الله تعالى إذا أحب عبدا ابتلاه فان صبر اجتبه فان رضى اصطفاه (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « تجبون أن تكونوا كالحجر الصالة لا تمرضون ولا تسقمون (٤) » وقال ابن مسعود رضى الله عنه تجدد المؤمن أصح شئ قلبا وأمراضه جسما وتجدد المنافق أصح شئ جسما وأمراضه قلبا . فلما عظم الثناء على المرض والبلاء أحب قوم المرض واغتموه لينالوا ثواب الصبر عليه فكان منهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ويقاسى العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويعلم أن الحق أغلب على قلبه من أن يشمله المرض عنه وإنما يمنع المرض جوارحه وعلما أن صلاحهم يعودا مثلا مع الصبر على قضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قايما مع العافية والصحة في الخبر « إن الله تعالى يقول للملائكة اكتبوا العبدى صالح ما كان يعمل فانه في وثاقى إن أطلقته أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه وإن توفيته توفيته إلى رحمتى (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس (٦) » فقيل معناه ما دخل عليه من الأمراض والمصائب وإليه الإشارة بقوله تعالى - وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم - وكان سهل يقول ترك التداوى وإن ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض أفضل من التداوى لأجل الطاعات وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها وكان يداوى الناس منها وكان إذا رأى العبد يصلى من

وإلى دواعى الروح تارة
وإلى دواعى الشيطان
تارة فعلى هذا لا تزيد
الخواطر على أربعة
ورسول الله صلى الله
عليه وسلم لم يذكر غير
اللمتين وهاتان اللتان
هما الأصل والخواطران
الآخران فرع عليهما
لان لمة الملك إذا حركت
الروح واهتزت الروح
بالهمة الصالحة قربت
أن تهتز بالهمة الصالحة
إلى حظائر القرب فورد
عليه عند ذلك خواطر
من الحق وإذا تحقق
بالقرب يتحقق بالقضاء
فتثبت الخواطر الربانية
عند ذلك كما ذكرناه
قبل لموضع قرينه
فيكون أصل خواطر
الحق لمة لللك ولمة

(١) حديث نحن معاصر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل الحديث أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه على شرط مسلم نحوه مع اختلاف وقد تقدم مختصرا ورواه الحاكم أيضا من حديث سعد بن أبي وقاص وقال صحيح على شرط الشيخين (٢) حديث إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه الحديث الطبرانى من حديث أن أمانة بسند ضعيف (٣) حديث من طريق أهل البيت إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث على ولم يخرج له ولده في مسنده ولطبرانى من حديث أبي عتبة إذا أراد الله بعبده خيرا ابتلاه وإذا ابتلاه اقتناه لا يترك له مالا ولا ولدا وسنده ضعيف (٤) حديث تجبون أن تكونوا كالحجر الصالة لا تمرضون ولا تسقمون ابن أبي عاصم في الأحاد والثاني وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة والبيهقى في الشعب من حديث أبي فاطمة وهو صدر حديث إن الرجل ليكون له المنزلة عند الله الحديث وقد تقدم (٥) حديث إن الله يقول للملائكة اكتبوا العبدى صالح ما كان يعمل فانه في وثاقى الحديث الطبرانى من حديث عبد الله بن عمر وقد تقدم (٦) حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس تقدم ولم أجده مرفوعا .

قعود ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض فيتداوى للقيام إلى الصلاة والنهوض إلى الطاعات يجب من ذلك ويقول صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التداوى للقوة والصلاة قائما. وسئل عن شرب الدواء فقال كل من دخل في شيء من الدواء فأنما هو سعة من الله تعالى لأهل الضعف. ومن لم يدخل في شيء فهو أفضل لأنه إن أخذ عيضا من الدواء ولو كان هو الماء البارد يسئل عنه لم أخذه ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لطهم بأن ذرة من أعمال القلوب مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح والمرض لا ينع من أعمال القلوب إلا إذا كان ألم غالبا مدهشا . وقال سهل رحمه الله على الأجسام رحمة وعمل القلوب عقوبة . السبب الخامس : أن يكون الصديق قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها فيرى المرض إذا طال تكفيرا فيترك التداوى خوفا من أن يسرع زوال المرض فقد قال عليه السلام «لا تزال الحمى والليلة بالبدن حتى يموت على الأرض كالبردة ماعليه ذنب ولا خطيئة» (١) وفي الخبر «حمى يوم كفارة سنة» (٢) قيل لأنها تهد قوة سنة وقيل للانسان ثلثمائة وستون مفصلا تدخل الحمى في جميعها ويجد من كل واحد ألما فيكون كل ألم كفارة يوم ، ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأله زيد بن ثابت ربه عز وجل أن لا يزال محموا فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله وسأل ذلك طائفة من الأنصار فكانت الحمى لا تزالهم (٣) ولما قال صلى الله عليه وسلم «من أذهب الله كرميته لم يرض له ثوابا دون الجنة» (٤) قال فلقد كان من الأنصار من يتحنى العمى وقال عيسى عليه السلام: لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصاب والأمراض على جسده وماله لما يرجو في ذلك من كفارة خطايا . وروى أن موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاء فقال يارب ارحمه فقال تعالى كيف أرحمه فيما به أرحمه أي به أكفر ذنوبه وأزيد في درجاته . السبب السادس أن يستشعر البدن في نفسه مبادئ البطر والظنانيان تطول مدة الصحة فيترك التداوى خوفا من أن يماجله زوال المرض فتعاوده الغفلة والبطر والظنانيان أو طول الأمل والتسويف في تدارك الفائت وتأخير الخبرات فان الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينبعث الهوى وتتحرك الشهوات وتدعو إلى المعاصي وأقلها أن تدعو إلى التسمم في الباحات ، وهو تضييع الأوقات وإهمال للريح العظيم في مخالفة النفس وملازمة الطاعات وإذا أراد الله بعبده خيرا لم يخلفه عن التنبه بالأمراض والمصاب ولذلك قيل لا يغلو

(١) حديث لا تزال الحمى والليلة بالبدن حتى يموت على الأرض كالبردة ماعليه خطيئة أبو يعلى وابن عدى من حديث أبي هريرة والطبراني من حديث أبي الدرداء نحوه وقال الصداع بدل الحمى وللطبراني في الأوسط من حديث أنس مثل المريض إذا صح وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء تقع في صفائها ولونها وأسانيده ضيفة (٢) حديث حمى يوم كفارة سنة القضاعى في مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال ليلة بدل يوم (٣) حديث لما ذكر رسول الله ﷺ كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت أن لا يزال محموا الحديث وسأل ذلك طائفة من الأنصار أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدرى بإسناد جيد أن رجلا من المسلمين قال يا رسول الله أرأيت هذه الأمراض تصيننا ما لنا فيها قال كفارات قال أي وان قلت قال فان شوكة ثمانون قال فدعا أي أن لا يفارقه الوعك حتى يموت الحديث وللطبراني في الأوسط من حديث أبي بن كعب أنه قال يا رسول الله ما جزاء الحمى قال تجرى الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم أو ضرب عليه عرق فقال اللهم إني أسألك حمى لا تمنعني خروجا في سبيلك ولا خروجا إلى بيتك ولا مسجدا نبيك الحديث والاسناد مجهول قاله طي بن المديني (٤) حديث من أذهب الله كرميته لم يرض له ثوابا دون الجنة تقدم الرفوع منه دون قوله فلقد كان في الأنصار من يتحنى العمى .

الشیطان اذا حرك النفس هوت بجملتها الى مركزها من الصبرية والطبع فظهر منها لحركتها خواطر ملائمة لتعريفاتها وطبيعتها وهواها فصارت خواطر النفس نتيجة لمة الشيطان فأصلها لثان وينتجان آخرين وخواطر اليقين والعقل مندرج فيهما والله أعلم

[الباب الثامن والخمسون في شرح الحال والمقام والفرق بينهما]

قد ذكر الاشتباه بين الحال والمقام واختلفت إشارات الشيوخ في ذلك ووجود الاشتباه لمكان تشابههما

المؤمن من علة أو قلة أو زلة وقد روى «أن الله تعالى يقول الفقر سجنى وللرض قيدي أحبس به من أحب من خلقى» فإذا كان في المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصي فأى خير يزيد عليه ولم ينبغ أن يشتغل بملاجه من يخاف ذلك على نفسه فالعافية في ترك المعاصي قد قال بعض العارفين لإنسان كيف كنت بهدى؟ قال في عافية قال إن كنت لم تصب الله عز وجل فأنت في عافية وإن كنت قد عصيته فأى داء أدوا من اللصية ماعوفى من عصي الله . وقال على كرم الله وجهه لما رأى زينة النبط بالعراق في يوم عيد ما هذا الذى أظهره؟ قالوا يا أمير المؤمنين هذا يوم عيدهم فقال كل يوم لا يصيب الله عز وجل فيه فهو لنا عيد . وقال تعالى - من بعد ما أراكم ماتحبون - قيل العوافى - إن الانسان ليظنى أن رآه استغنى - وكذلك إذا استغنى بالعافية . وقال بعضهم : إنما قال فرعون : أنار بكم الأعلى لطول العافية لأنه لبث أربعمائة سنة لم يصدع له رأس ولم يحم له جسم ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية لئنه الله ولوأخذته الشقيقة يوما لشغلته عن الفضول فضلا عن دعوى الربوبية . وقال صلى الله عليه وسلم «أكثروا من ذكر هانم اللذات (١)» وقيل الحمى رائد الموت فهو مذكرة له ودافع للتسوية ، وقال تعالى - أولايرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون - قيل يفتنون بأمراض يختبرون بها ، ويقال إن العبد إذا مرض مرضين ثم لم يقب قال له ملك الموت يا غافل جاءك من رسول بعد رسول فلم تجب ، وقد كان السلف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص في نفس أو مال وقالوا لا يغفل المؤمن في كل أربعين يوما أن يروع روعة أو يصاب بيلة حتى روى أن عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها . وأن النبي صلى الله عليه وسلم «عرض عليه امرأة فحكي من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل وانها مامرست قط ، فقال لا حاجة لي فيها (٢)» . وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل وما الصداع ما عرفه فقال صلى الله عليه وسلم : إليك عنى من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا وهذا (٣)» لأنه ورد في الخبر «الحمى حظ كل مؤمن من النار (٤)» . وفي حديث أنس وعائشة رضى الله عنهما «قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟ فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة (٥)» وفي لفظ آخر «الذى يذكر ذنوبه فحزنه» ولا شك في أن ذكر الموت على المريض أغلب فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة في زوالها وإذراؤا لأنفسهم مزيدا فيها لامن حيث رأوا التداوى قهصانا وكيف يكون نقصانا وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم .

(١) حديث أكثروا ذكر هانم اللذات الترمذى وقال حسن غريب والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٢) حديث عرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى هم أن يتزوجها فقيل فانها مامرست قط فقال لا حاجة لي فيها أحمد من حديث أنس بنحوه باسناد جيد (٣) حديث ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل وما الصداع ما عرفه فقال إليك عنى الحديث أبوداود من حديث عامر البرام أخى الحضرمي [١] بنحوه وفى إسناده من لم يسم (٤) حديث الحمى حظ كل مؤمن من النار البراز من حديث عائشة وأحمد من حديث أبى أمامة والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس وأبو منصور والديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وحديث أنس ضعيف وبقيا حسان (٥) حديث أنس وعائشة قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟

[١] الحضرمي : نطن من محارب بن خصفة .

في نفسهما وقد اخلهما قراءى للبعض الشيء حالا وتراعى للبعض مقاما وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما على أن اللفظ والبطارة عنهما مشعر بالفرق فالحال سمى حال التحول والقام مقاما لثبوته واستقراره وقد يكون الشيء بعينه حالاً ثم يصير مقاما مثل أن يبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ثم تزول الداعية بقلية صفات النفس ثم تعود ثم تزول فلا يزال العبد حال المحاسبة يتماهد الحال ثم يحول الحال بظهور صفات النفس

(بيان الرد على من قال ترك التداوى أفضل بكل حال)

فلو قال قائل إنما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لغيره وإلا فهو حال الضمفاء، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء ، فيقال ينبغي أن يكون من شرط التوكل ترك الحجامة والفصد عند تبخخ الدم . فان قيل إن ذلك أيضا شرك فليكن من شرطه أن تلدغه العقرب أو الحية فلا ينحيا عن نفسه ، إذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فأى فرق بينهما ؟ . فان قال وذلك أيضا شرط التوكل فيقال ينبغي أن لا يزال لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالحبز ولدغ البرد بالجبة وهذا لا قائل به ، ولا فرق بين هذه الدرجات فان جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى وأجرى بها سنته ، وبدل على أن ذلك ليس من شرط التوكل ما روى عن عمر رضى الله عنه وعن الصحابة في قصة الطاعون فانهم لما قصدوا الشام واتموا إلى الجاية بلغهم الخبر أن به موتا عظيما وباء ذريما فافترق الناس فرقتين ، فقال بعضهم لاندخل على الوباء فنلقى بأيدينا إلى التهلكة ، وقالت طائفة أخرى بل ندخل وتوكل ولا نهرب من قدر الله تعالى ولا نفر من الموت فنكون كمن قال الله تعالى فيهم - ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت - فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه ، فقال يرجع ولا ندخل على الوباء ، فقال له المخالفون في رأيه : أنفر من قدر الله تعالى ؟ قال عمر نعم نعم من قدر الله إلى قدر الله ، ثم ضرب لهم مثلا ، فقال : أرايتم لو كان لأحدكم غنم فهبط واديا له شعبتان : إحدىها محصبة ، والأخرى مجدبة أليس إن رعى المحصبة رعاها بقدر الله تعالى وإن رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى فقالوا نعم ثم طلب عبد الرحمن ابن عوف ليسأله عن رأيه وكان غائبا فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك ، فقال عندي فيه يأمر المؤمنين شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر الله أكبر فقال عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع في أرض وأتمم بها فلا تخرجوا فرارا منه (١) » ففرح عمر رضى الله عنه بذلك وحمد الله تعالى إذ وافق رأيه ورجع من الجاية بالناس ، فاذن كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أظلم القامات إن كان أمثال هذا من شروط التوكل . فان قلت فلم نهى عن الخروج من البلد الذى فيه الوباء ، وسبب الوباء في الطب الهواء وأظهر طرق التداوى الفرار من الضر ، والهواء هو الضر فلم يرخص فيه ؟ . فاعلم أنه لا خلاف في أن الفرار عن الضر غير منهي عنه ، إذ الحجامة والفصد فرار من الضر وترك التوكل في أمثال هذا مباح وهذا لا يدل على القصد ولكن الذى يتقدح فيه والعلم عند الله تعالى أن الهواء لا يضر من حيث إنه يلاقى ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق له فانه إذا كان فيه عفونة ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير في الباطن فالخروج من البلد لا يخلص غالبا من الأثر الذى استحکم من قبل ولكن يتوهم الخلاص فيصير هذا من جنس الموهومات كالترقى والطيرة وغيرها ، ولو تجرد هذا المعنى لكان مناقضا للتوكل ولم يكن منهيًا عنه ولكن صار منهايا عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر وهو أنه لو رخص للأصحاء في الخروج لما بقى في البلد إلا المرضى الذين أقصدهم الطاعون فانكسرت قلوبهم وقعدوا التمهدين ولم يبق في البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام وهم يسجزون عن مباشرتهما بأنفسهم فيكون ذلك سعيًا في إهلاكهم تحقيقًا وخلصهم منتظر

فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة لم أقف له على إسناد (١) حديث عبد الرحمن بن عوف إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه الحديث وفي أوله قصة خروج عمر بالناس إلى الجاية وأنه بلغهم أن بالشام وباء الحديث رواه البخارى .

إلى أن تداركه
العونة من الله الكريم
وبغلب حال المحاسبة
وتستقهر النفس
وتتضبط وتملكها
المحاسبة قصير المحاسبة
وطنه ومستقره ومقامه
فيصير في مقام المحاسبة
بعد أن كان له حال
المحاسبة ، ثم ينزله
حال المراقبة ، فمن
كانت المحاسبة مقامه
يصير له من المراقبة
حال ، ثم يحول حال
المراقبة لتناوب السهو
والغفلة في باطن العبد
إلى أن ينقشع ضباب
السهو والغفلة ويتدارك
الله عبده بالمعونة
فتصير المراقبة مقاما
بعد أن كانت حالا ولا
يستقر مقام المحاسبة

كما أن خلاص الأسماء منتظر فلواقاموا لم تكن الإقامة قاطعة بالموت ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعا بالخلّاص وهو قاطع في إهلاك الباقيين والمسلمون كالبنيان يشد بعضه بضواؤ المؤمنين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداهى إليه سائر أعضائه فهذا هو القدى يتفدح عندنا في تعليل التهي ويتعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البه فانه لم يؤثر الهواء في باطنهم ولا بأهل البه حاجة إليهم، نعم لو لم يبق بالبه إلا مطعون وانفروا إلى المتهمدين وقدم عليهم قوم فرما كان يتفدح استجاب الدخول ههنا لأجل الاعانة ولا ينهى عن الدخول لأنه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن جية للمسلمين، وبهذا شبه الفرار من الطاعون في بعض الأخبار بالفرار من الزحف (١) لأن فيه كسرا لقلوب بية المسلمين وسما في إهلاكهم فهذه أمور دقيقة فمن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر مما سمعه وغلط العباد والزهاد في مثل هذا كثير وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك . فان قلت ففي ترك التداوى فضل كما ذكرت فلم لم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التداوى لينال الفضل ؟ . فنقول فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليكفرها وأخاف على نفسه طفيان العافية وغلبة الشهوات أو احتاج إلى ما يذكره الموت لتلبة الغفلة أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لتصوره عن مقامات الراضين والتوكلين أو نصرت بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى في الأدوية من لطائف النافع حتى صار في حقه موهوما كالرقي أو كان شغفه بحاله يمنعه عن التداوى وكان التداوى يشغله عن حاله لضغفه عن الجمع فإلى هذه المعاني رجعت الصوارف في ترك التداوى وكل ذلك كالات بالإضافة إلى بعض الخلق وقصان بالإضافة إلى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل كان مقامه أعلى من هذه اللقائات كلها إذ كان حاله يقتضى أن تكون مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الأسباب وقدها فانه لم يكن له نظر في الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب ومن كان هذا مقامه لم تضرم الأسباب كما أن الرغبة في المال تمس والرغبة عن المال كراهية له وإن كانت كالا فهي أيضا تمس بالإضافة إلى من يستوى عنده وجود المال وعدمه فاستواء الحجر والذهب أو كل من الحرب من الذهب دون الحجر وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء للمدر والذهب عنده وكان لا يمسكه لتعليم الخلق مقام الزهد فانه منتهى قوتهم لالخوفه على نفسه من إمساكه فانه كان أعلى رتبة من أن تفره الدنيا، وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها (٢) فكذلك يستوى عنده مباشرة الأسباب وتركها مثل هذه المشاهدة وإنما لم يترك استعمال الدواء جريا على سنة الله تعالى وترخيصا لأمة فيما تمس إليه حاجتهم مع أنه لا ضرر فيه بخلاف إدخال الأموال فان ذلك بعظم ضرره، نعم التداوى لا يضر إلا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء وهذا قد نهى عنه ومن حيث إنه يقصد به الصحة ليستعان بها على المعاصي وذلك منهى عنه والمؤمن في غالب الأمر لا يقصد ذلك وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعا بنفسه بل من حيث إنه جملة الله تعالى سببا للذم كالماء مرويا ولا الحبز مشبعا لحكم التداوى في مقصوده كحكم الكسب فانه إن اكتسب للاستعانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها وإن اكتسب للتنعم المباح فله حكمه قد ظهر بالمعاني التي أوردناها أن ترك التداوى قد يكون أفضل في بعض الأحوال ، وأن التداوى قد يكون أفضل في بعض ، وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال

قراره إلا بنازل حال المراقبة ولا يستقر مقام المراقبة قراره إلا بنازل حال المشاهدة فإذا منع الصبد بنازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه ونازل المشاهدة أيضا يتكون حاله يحول بالاستتار ويظهر بالتجلى ثم يصير مقاما وتخلص فحسه عن كسوف الاستتار ثم مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه كالتحقق بالبقاء والتخلص إلى البقاء والترقي من عين اليقين إلى حق اليقين وحق اليقين نازل يحرق شغاف القلب وذلك أعلى فروع

(١) حديث تشبيه الفرار من الطاعون بالفرار من الزحف رواه أحمد من حديث عائشة باسناد جيد ومن حديث جابر باسناد ضعيف وقد تقدم (٢) حديث أنه عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها تهدم ولنظفه عرضت عليه مفاتيح خزائن السماء وكنوز الأرض فردها .

والأشخاص والنيات وأن واحدا من الفعل والتوكّل ليس شرطا في التوكّل إلا ترك الوهومات كالسكى والرقى فإن ذلك تعمق في التدبيرات لا يليق بالتوكلين .

(بيان أحوال التوكلين في إظهار المرض وكتابه)

اعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البرّ وهو من أعلى اللقّامات لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل فكتمانه أسلم عن الآفات ومع هذا فلاظهار لأبأس به إذا صحت فيه النية والمقصد ومقاصد الاظهار ثلاثة : الأول أن يكون غرضه التداوى فيحتاج إلى ذكره للطبيب فيذكره لاني معرض الشكاية بل في معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى ، فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن المطيب أوجاعه وكان أحمد بن حنبل يغير بأمرض يجدها ويقول إنما أصف قدرة الله تعالى في . الثاني : أن يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتدى به وكان مكينا في المعرفة فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر في المرض بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى أن المرض نعمة فيشكر عليها فيتحدث به كما يتحدث بالنم . قال الحسن البصري : إذا حمد المريض لله تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى . الثالث أن يظهر بذلك عجزه وانقاره إلى الله تعالى وذلك بحسن ممن تليق به القوة والشجاعة ويستبعد منه العجز كما روى أنه قيل لعلي في مرضه رضى الله عنه كيف أنت قال بشر فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنوا أنه شكاية فقال آجمل على الله ؟ فأحب أن يظهر عجزه وانقاره مع ما علم به من القوة والضراوة وتأدب فيه بأدب النبي صلى الله عليه وسلم إياه حيث مرض على كرم الله وجهه فسمعه عليه السلام وهو يقول : اللهم صبرني على البلاء فقال له صلى الله عليه وسلم « لقد سألت الله تعالى البلاء فسل الله العافية (١) » فهذه النيات برخص في ذكر المرض وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله تعالى حرام كما ذكرته في تحريم السؤال على الفقراء إلا بضرورة ويصير الاظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة لئلا يظن الله تعالى فان خلا عن قرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه لأنه ربما يوم الشكاية ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزيد في الوصف على الموجود من العلة ومن ترك التداوى توكلًا فلاوجه في حقه للاظهار لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الانشاء ، وقد قال بعضهم من بث لم يصبر ، وقيل في معنى قوله - فصبر جميل - لاشكوى فيه ، وقيل ليعقوب عليه السلام ما الذي أذهب بصرك ؟ قال مر الزمان وطول الأحزان فأوحى الله تعالى إليه : بتفرغت لشكواي إلى عبادي فقال يارب أيوب إليك ، وروى عن طاوس ومجاهد أنهما قالَا يكتب على المريض أنينه في مرضه وكانوا يكرهون أن ين المرض لأنه إظهار معنى يقتضى الشكوى حتى قيل ما أصاب إبليس لئنه الله من أيوب عليه السلام إلا أنينه في مرضه فجعل الأنين حظه منه ، وفي الخبر « إذا مرض العبد أوحى الله تعالى إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده فان حمد الله وأثنى بخير دعواه وإن شكا وذكر شرا قال كذلك تكون (٢) » وإنما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية وخوف الزيادة في الكلام فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم منهم فضيل ووهيب وبشر ، وكان فضيل يقول أشتهي أن أمرض بلا عواد وقال لا أكره العلة إلا لأجل العواد رضى الله عنه وعنه أجمعين .

(١) حديث مرض على فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول اللهم صبرني على البلاء فقال لقد سألت الله البلاء فسل الله العافية تقدم مع اختلاف (٢) حديث إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده الحديث تقدم .

الشاهدة . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم إني أسألك إيمانًا يباشر قلبي » قال سهل بن عبد الله للقلب تجوفان أحدهما باطن وفيه السمع والبصر وهو قلب القلب وسويداؤه والتجوف الثاني ظاهر القلب وفيه العقل ومثل العقل في القلب مثل النظر في العين وهو مقال لموضع مخصوص فيه بمنزلة الصقال الذي في سواد العين ومنه تنبعث الأشعة المحيطة بالمرئيات فهكذا تنبعث من نظر العقل أشعة العلوم المحيطة بالمعلومات وهذه الحالة التي خرقت شفاف

كل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا والله سبحانه وتعالى للوفق .

﴿ كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ﴾

(وهو الكتاب السادس من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرتة ، وصفي أسرارهم من ملاحظة غير حضرته ، ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته ، ثم تجلي لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرفت بأنوار معرفته ، ثم كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته ، ثم احتجب عنها بكنهه جلاله حتى تاهت في يدهاء كبريائه وعظمتته ، فكلما اهتزت لملاحظة كنهه الجلال غشيها من الدهش ما أغبر في وجه العقل وبصيرته ، وكلامته بالانصراف آتية نوديت من سرادقات الجمال صبر أيها الآيس عن نيل الحق بجهله ومجملته ، فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرق في بحر معرفته ، ومحرقة بنار محبته . والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكامل نبوته ، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمة ، وقادة الحق وأزمته وسلم كثيرا .

[أما بعد] فإن المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات والقدرة العليا من الدرجات فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالنوبة والصبر والزهد وغيرها وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تخل القلوب عن الإيمان بامكانها ، وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها حتى أنكروا بعض العلماء إمكانها ، وقال لا معنى لها إلا الواظبة على طاعة الله تعالى ، وأما حقيقة المحبة في حال الإمعان الجنس والثالث ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة النجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر ، ونحن نذكر في هذا الكتاب بيان شواهد الشرع في المحبة ثم بيان حقيقتها وأسبابها ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى ثم بيان أن أعظم اللذات لذته النظر إلى وجه الله تعالى ثم بيان سبب زيادة لذته النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا ثم بيان الأسباب القوية لطلب الله تعالى ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب ثم بيان السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ثم بيان معنى الشوق ثم بيان محبة الله تعالى للعباد ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى ثم بيان معنى الانبساط في الأنس ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته ثم بيان حقيقته ثم بيان أن الدعاء وكرهه للمعاصي لا تناقضه وكذا القرار من المعاصي ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة ، فهذه جميع بيانات هذا الكتاب .

(بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى)

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض وكيف يفرض ما لا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته فلا بد وأن يتقدم الحب ثم بذلك يطبع من أحب ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل - يحبهم ويحبونه - وقوله تعالى - والذين آمنوا أهدى الله - وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة إذ قال أبو رزين العقيلي «يارسول الله ما الإيمان قال أن يكون

﴿ كتاب المحبة والشوق والأنس ﴾

القلب ووصلت إلى سويدائه وهي حق اليقين هي أسنى المطايا وأعز الأحوال وأشرفها ونسبة هذه الحال من المشاهدة كمنسبة الأجر من التراب إذ يكون ترابا ثم طينا ثم لبنا ثم أجرا فالشاهدة هي الأول والأصل يكون منها الفناء كالطين ثم البقاء كاللبن ثم هذه الحالة وهي آخر الفروع . ولما كان الأصل في الأحوال هذه الحالة وهي أشرف الأحوال وهي محض موهبة لا تسكتسب سميت كل المواهب من النوازل بالعباد أحوالا لأنها غير مقدورة

الله ورسوله أحب إليك مما سواهما (١)» وفي حديث آخر «لا يؤمن أحدكم حتى يكون لله: رسوله أحب إليه مما سواهما (٢)» وفي حديث آخر «لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين (٣)» وفي رواية «ومن نفسه» كيف وقد قال تعالى - قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم - الآية. وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والانكار وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهبة فقال «أحبوا الله لما يفتدكم به من نعمة وأحبوني لحب الله إياي (٤)» وروى «أن رجلاً قال يا رسول الله إنى أحبك فقال ﷺ: استمد للفقر فقال إنى أحب الله تعالى قال استمد للبلاء (٥)» وعن عمر رضی الله عنه قال «نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به فقال النبي صلى الله عليه وسلم: انظروا إلى هذا الرجل القدي نورا قلبه لقد رأيت بين أبيه يضوانه بأطيب الطعام والشراب فدعا حب الله ورسوله إلى ماترون (٦)» وفي الخبر المشهور «إن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه: هل رأيت خلياً يميت خليله فأوحى الله تعالى إليه هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه قال ياملك الموت الآن قابض (٧)» وهذا لا يجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه. فاذا علم أن الموت سبب اللقاء أزعج قلبه إليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم في خطبته «اللهم ارزقني حبا وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبا واجعل حبا أحب إلي من الماء البارد (٨)» وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال «يا رسول الله متى الساعة؟ قال ما أعددت لها قال ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أنى أحب الله ورسوله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب (٩)» قال أنس لما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من ذاق من خالص محبة الله تعالى غشغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر. وقال الحسن من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فإذا تفكر حزن. وقال أبو سليمان الداراني

(١) حديث أبي رزين العقيلي أنه قال يا رسول الله ما الإيمان؟ قال أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما أخرجه أحمد بزيادة في أوله (٢) حديث لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما متفق عليه من حديث أنس بلفظ لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله وذكره بزيادة (٣) حديث لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين وفي رواية ومن نفسه متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم دون قوله ومن نفسه وقال البخاري من والده وولده وله من حديث عبد الله بن هشام قال عمر يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي قال لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال عمر فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي فقال الآن يا عمر (٤) حديث أحبوا الله لما يفتدكم به من نعمة الحديث الترمذي من حديث ابن عباس وقال حسن غريب (٥) حديث إن رجلاً قال يا رسول الله إنى أحبك فقال استمد للفقر الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن مغفل بلفظ فأعد للفقر تحفاً دون آخر الحديث وقال حسن غريب (٦) حديث عمر قال نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به الحديث أبو نعيم في الحلية باسناد حسن (٧) حديث إن إبراهيم قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه هل رأيت خلياً يميت خليله الحديث لم أجده أصلاً (٨) حديث اللهم ارزقني حبا وحب من يحبك الحديث تقدم (٩) حديث قال أعرابي يا رسول الله متى الساعة قال ما أعددت لها الحديث متفق عليه من حديث أنس ومن حديث أبي موسى وابن مسعود بنحوه.

للعبد يكسبه فأطلقوا القول وتداولت السنة الشيوخ أن القامات مكاسب والأحوال مواهب وطى الترتيب الذي درجنا عليه كلها مواهب إذ المكاسب محفوفة بالمواهب وللمواهب محفوفة بالمكاسب فالأحوال مواجيد والقامات طرق الواجيد ولكن في القامات ظهر الكسب وبطنت المواهب وفي الأحوال بطن الكسب وظهرت المواهب فالأحوال مواهب علوية سماوية والقامات طرفها وقول أمير المؤمنين طي بن أبي طالب رضي الله عنه سلوني عن طرق

إن من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشغلون عنه بالدنيا. وروى أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نخلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم ما الذي بلغ بكم ما أرى فقالوا الخوف من النار فقال حق على الله أن يؤمن الخائف ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا وتغيرا فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى قالوا الشوق إلى الجنة فقال حق على الله أن يعطيكم ما ترجون ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن على وجوههم المرائي من النور فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى قالوا أحب الله عز وجل فقال أتمم القربون أتمم القربون أتمم القربون. وقال عبد الواحد بن زيد مررت برجل قائم في الحاج فقلت أما تجد البرد فقال من غفله حب الله لم يجد البرد. وعن سرى السقطي تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام فقال يا أمة موسى ويا أمة عيسى ويا أمة محمد غير المهين لله تعالى فانهم ينادون يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه فكاد قلوبهم تتخلع فرحا. وقال هرم بن حيان المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه وإذا أحبه أقبل إليه وإذا وجد حلاوة الاقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروحه في الآخرة. وقال يحيى بن معاذ عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه وجهه يدهش العقول فكيف وده ووده ينسى مادونه فكيف لطفه. وفي بعض الكتب عبيد أنا وحقك لاك محب فبحق عليك كن لي محبا. وقال يحيى بن معاذ مثقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب. وقال يحيى بن معاذ إلهي أني مقيم بفنائك مشغول بفنائك صغيرا أخذتني إليك وسر بلتني بعرفتك وأمكنتني من لطفك وقتلتني في الأحوال وقلبتني في الأعمال سترا وتوبة وزهدا وشوقا ورضا وحبنا تسقى من حياضك وتهملني في رياضك ملازما لأمرك ومشغولا بقولك ولما طرت شاربي ولاح طأري فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتدت هذا منك صغيرا فلي ما بقيت حولك دندنه وبالضراعة إليك مهممة لأنني محب وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف وقد ورد في حب الله تعالى من الأخبار والآثار ما لا يدخل في حصر حاصر وذلك أمر ظاهر وإنما التعموض في تحقيق معناه فلنشتغل به.

(بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى)

اعلم أن المطلب من هذا الفصل لا ينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها ثم معرفة شروطها وأسبابها ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى : فأول ما ينبغي أن يتحقق أنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماديل هو من خاصية الحى المدرك ثم المدركات في انقسامها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلتذ به وإلى ما ينافيه وينافره ويؤلمه وإلى ما لا يؤثر فيه بإيلاام وإذاذ فكل ما في إدراكه لذته وراحته فهو محبوب عند المدرك وما في إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك وما يخلو عن استعجاب ألم ولذته لا يوصف بكونه محبوبا ولا مكروها فاذن كل لذية محبوب عند الملتذبه ومعنى كونه محبوبا أن في الطبع ميلا إليه ومعنى كونه مبغوضا أن في الطبع نفرة عنه فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء اللذ فان تأكد ذلك الميل وقوى سمي عشقا والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب فاذا قوى سمي مقتافهنا أصل في حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته . الأصل الثاني : أن الحب لما كان تابعا للإدراك والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات ولكل واحد منها لذته في بعض المدركات وللطبع بسبب تلك اللذته ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع للتسليم لذته العين في الأبصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور للليجة الحسنة المستلذة ولذته الأذن في النغمات الطيبة للموزونة ولذته الشم في الروائح الطيبة ولذته الذوق في الطعوم ولذته اللس في اللبن والنعومة

السموات فاني أعرف بها من طرق الأرض إشارة إلى المقامات والأحوال فطسرق السموات التوبة والزهد وغير ذلك من المقامات فان السالك لهذه الطرق يصير قلبه سماويا وهي طرق السموات ومنتزل البركات وهذه الأحوال لا يتحقق بها إلا ذو قلب سماوى . قال بعضهم الحال هو الذكر الحفي وهذا إشارة إلى شيء مما ذكرناه وسمعت الشايع بالعراق يقولون الحال ما من الله فكل ما كان من طريق الاكتساب والأعمال يقولون هذا ما من العبد فاذا لاح المرید

ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذذة كانت محبوبة أي كان للطبع السليم ميل إليها حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حبيب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعل قرعة عيني في الصلاة (١) » فسمى الطيب محبوبا ومعلوم أنه لاحظ للمعين والسمع فيه بل للشم فقط وسمى النساء محبوبات ولاحظ فيهن إلا للبصر واللسان دون الشم والذوق والسمع وسمى الصلاة قرعة عين وجعلها أبلغ المحبوبات ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس بل حس سادس مظنته القلب لا يدركه إلا من كان له قلب ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم إلا أن كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس حتى يقال إن الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يتمثل في الخيال فلا يجب فاذن قد بطلت خاصية الإنسان وما يميزه من الحس السادس الذي يعبر عنه إما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من المصطلحات فلا مشاحة فيه وهيئات فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر والقلب أشد إدراكا من العين وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ولا معنى للحب إلا الليل إلى ما في إدراكه لذة كما سيأتي تفصيله فلا يشكر إذن حب الله تعالى إلا من قد به المقصود في درجة البهائم فلم يجاوز إدراك الحواس أصلا . الأصل الثالث : أن الإنسان لا يخفى أنه يحب نفسه ولا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل نفسه وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لأجل نفسه هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون أنه لا يتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته والحق أن ذلك متصور وموجود فلبين أسباب المحبة وأقسامها وبيان أن المحبوب الأول عند كل حي نفسه وذاته ومعنى حبه لنفسه أن في طبعه ميلا إلى دوام وجوده ونفرة عن عدمه وهلاكه لأن المحبوب بالطبع هو اللذات المحبب وأي شيء أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده وأي شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل لا مجرد ما يخافه بعد الموت ولا مجرد الخبز من سكرات الموت بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارها لذلك ولا يحب الموت والعدم المهض إلا المقاساة ألم في الحياة ومهما كان مبتلى بيبلاء فمحبوبه زوال البلاء فان أحب العدم لم يحبه لأنه عدم بل لأن فيه زوال البلاء فالهلاك والعدم محموت ودوام الوجود محبوب وكان دوام الوجود محبوب فكأن الوجود أيضا محبوب لأن الناقص فاقد للسكمال والنقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة إليه والهلاك والعدم محموت في الصفات وكأن الوجود كما أنه محموت في أصل الذات ووجود صفات السكمال محبوب كما أن دوام أصل الوجود محبوب وهذه غريزة في الطباع بحكم سنة الله تعالى - ولن تجد لسنة الله تبديلا - فاذن المحبوب الأول للإنسان ذاته ثم سلامة أعضائه ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقائه فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها والمال محبوب لأنه أيضا آلة في دوام الوجود وكأله وكذا سائر الأسباب . فالإنسان يحب هذه الأشياء لأعيانها بل لارتباط حظه في دوام الوجود وكأله بها حتى إنه يحب ولده وإن كان لا يناله منه حظ بل يتحمل المشاق لأجله لأنه يخافه في الوجود بعدمه فيكون في بقاء نفسه نوع بقاء له فلنفسه بقاء بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبدا ، نعم لو خير بين قتله وقتل ولده وكان طبعه باقيا على اعتداله آثر بقاء نفسه على بقاء ولده

(١) حديث حبيب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء الحديث النسائي من حديث أنس دون قوله ثلاث وقد تقدم .

شيء من اللواهب والواجب قالوا هذا مامن الله وصموه حالا إشارة منهم إلى أن الحال موهبة . وقال بعض مشايخ خراسان الأحوال موازيت الأعمال . وقال بعضهم الأحوال كالبروق فان بقي لحديث النفس وهذا لا يكاد يستقيم على الإطلاق وإنما يكون ذلك في بعض الأحوال فانها تسطرق ثم تستلبها النفس فأما على الإطلاق فلا والأحوال لا تتجزأ بالنفس كالدهن لا يتجزأ بالماء . وذهب بعضهم إلى أن الأحوال لا تكون

لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه المحقق وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكامل نفسه فانه يرى نفسه كثيرا بهم قويا بسببهم متجسلا بكاملهم فان العشرة والمال والأسباب الخارجية كالجنح الكمل للانسان وكال الوجود ودوامه محبوب الطبع لاحتلاله فاذن المحبوب الأول عند كل حي ذاته وكال ذاته ودوام ذلك كله والمكروه عنده ضد ذلك فهذا هو أول الأسباب السبب الثاني: الاحسان فان الانسان عبد الاحسان وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها وقال رسول الله ﷺ «اللهم لا تجعل لنا جلا على» يدا فيحبه قلبي^(١)» إشارة إلى أن حب القلب للمحسن اضطرار لا استطاع دفعه وهو جيلة وفطرة لا سبيل إلى تغييرها وهذا السبب قد يحب الانسان الأجنبي الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة وهذا إذا حقق رجوع إلى السبب الأول فان المحسن من أمد بالمال والمونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكال الوجود وحصول الحظوظ التي بها يتأهب الوجود إلا أن الفرق أن أعضاء الانسان محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين الكمال المطلوب فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببا له كالطبيب الذي يكون سببا في دوام صحة الأعضاء ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب اذ سبب الصحة إذ الصحة مطلوبة لذاتها والطبيب محبوب لا لذاته بل لأنه سبب للصحة وكذلك العلم محبوب والأستاذ محبوب ولكن العلم محبوب لذاته والأستاذ محبوب لسكونه حبب العلم المحبوب وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير محبوبة لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام فاذن يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة والإفكل واحد يرجع إلى محبة الانسان نفسه فكل من أحب المحسن لاحسانه فأحب ذاته تحقيقا بل أحب إحسانه وهو فعل من أفضاله لو زال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقا ولو نقص نقص الحب ولو زاد زاد ويتطرق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه . السبب الثالث أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظه وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه وذلك كحب الجمال والحسن فان كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة واللذة محبوبة لذاتها لانغيرها ولا تظن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة فان قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها وإدراك نفس الجمال أيضا لذية فيجوز أن يكون محبوا لذاته وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجاري محبوب لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الخضرة والماء الجاري^(٢) والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل حتى إن الانسان لتفرج عنه العموم والمعموم بالنظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر فهذه الأسباب ملدة وكل لذية محبوب وكل حسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذة ولا أحد ينكر كون الجمال محبوا بالطبع فان ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوا عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله جميل يحب الجمال»^(٣) .

[الأصل الرابع في بيان معنى الحسن والجمال] اعلم أن المهبوس في مضيق الخيالات والمهسوسات

(١) حديث اللهم لا تجعل لكافر على يدا فيحبه قلبي أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند ضعيف منقطع وقد تقدم (٢) حديث كان يعجبه الخضرة والماء الجاري أبو نعيم في الطب النبوي من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر إلى الخضرة وإلى الماء الجاري وإسناده ضعيف (٣) حديث إن الله جميل يحب الجمال مسلم في أثناء حديث لابن مسعود.

إلا إذا دامت فأما إذا لم تدم فهي لو أضح وطوالع وبوادروهي مقدمات الأحوال وليست بأحوال . واختاف الشيخ في أن العبد هل يجوز له أن ينتقل إلى مقام غير مقامه الذي هو فيه قبل إحكام حكم مقامه . قال بعضهم : لا ينبغي أن ينتقل عن الذي هو فيه دون أن يحكم حكم مقامه . وقال بعضهم : لا يكمل المقام الذي هو فيه إلا بعد ترقيه إلى مقام فوقه فينظر من مقامه العالي إلى مادونه من المقام فيحكم أمر مقامه . والأولى أن يقال والله أعلم : الشخص في مقامه يعطى حالاً من

ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلق والشكل وحسن اللون وكون البياض مشرباً بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان فإن الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص فيظن أن ما ليس مبصراً ولا متخيلاً ولا متشكلاً ولا متلوناً مقدر فلا يتصور حسنه وإذا لم يتصور حسنه لم يكن في إدراكه لثمة فلم يكن محبوباً وهذا خطأ ظاهر فإن الحسن ليس مقصوراً على مدركات البصر ولا على تناسب الخلق وامتزاج البياض بالحمرة فإنا نقول هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن بل نقول هذا ثوب حسن وهذا إناء حسن فأى معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة ومعلوم أن المعين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة وما من شيء من المدركات إلا وهو منقسم إلى حسن وقبيح فإما معنى الحسن الذي تشارك فيه هذه الأشياء فلا بد من البحث عنه وهذا البحث يطول ولا يليق بعلم العامة الاطناب فيه فنصرح بالحق ونقول كل شيء جماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له فإذا كان جميع كالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر فالفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كرك وفر عليه والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ولكل شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده فحسن كل شيء في كماله الذي يليق به فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت ولا يحسن الأواني بما يحسن به الثياب وكذلك سائر الأشياء . فإن قلت فهذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الأصوات والطعوم فإنها لا تنفك عن إدراك الحواس لها فهي محسوسات وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها وإنما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس . فاعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات إذ يقال هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والروءة وسائر خصال الخير وهي من هذه الصفات لا يدرك بالحواس المحسوس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته وآية ذلك وأن الأمر كذلك أن الطباع مجبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم مع أنهم لم يشاهدوا بل على حب أرباب المذاهب مثل الشافعي وأبي حنيفة ومالك وغيرهم حتى إن الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حد العشق فيحمله ذلك على أن ينفق جميع ماله في نصرة مذهبه والذب عنه ويحاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه ومتبوعه فكأن من دم أربق في نصرة أرباب المذاهب وليت شعري من يحب الشافعي مثلاً فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته فاستحسانه الذي حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة فإن صورته الظاهرة قد انقلبت تراباً مع التراب وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والاحاطة بمدارك الدين وانتهاضه لإفادة علم الشرع ونشره هذه الخيرات في العالم وهذه أمور جميلة لا يدرك جمالها إلا بنور البصيرة فأما الحواس قاصرة عنها وكذلك من يحب أبا بكر الصديق رضي الله عنه ويفضله على غيره أو يحب علياً رضي الله تعالى عنه ويفضله ويتصب له فلا يحبهم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره فمعلوم أن من يحب الصديق رضي الله تعالى عنه مثلاً ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكله إذ كل ذلك زال وتبدل وانعدم ولكن بقي ما كان الصديق به صديقاً وهي الصفات الحمودة التي هي مصادر السير الجميلة فكان الحب باقياً

مقامه الأعلى الذي سوف يرتقى إليه فيوجد أن ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذي هو فيه ويتصرف الحق فيه كذلك ولا يضاف الشيء إلى الصديق أنه يرتقى أولاً يرتقى فإن البسود بالأحوال يرتقى إلى المقامات والأحوال مواهب ترقى إلى المقامات التي يترج فيها الكسب بالموهبة ولا يلوح للبعد حال من مقام أعلى مما هو فيه إلا وقد قرب رقيه إليه فلا يزال الصديق يرتقى إلى المقامات بزيادة الأحوال فلي ما ذكرناه يتضح تداعيل المقامات والأحوال حتى التوبة

بقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور ، وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذا علم حقائق الأمور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته لجميع خلال الخير ينشعب على هذين الوصفين ، وهما غير مدركين بالحس ومحلها من جملة البدن جزء لا يتجزأ فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء الذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوا لأجله ، فاذن الجمال موجود في السير ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا فالمحسوب مصدر السير الجميلة ، وهي الأخلاق الحميدة والفضائل الثمينة ، وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس حتى إن الصبي المثلج وطيبه إذا أردنا أن نحبه إليه غائبا أو حاضرا حيا أوميتا لم يكن لنا سبيل إلا بالاطناب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة فهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه ولم يقدر أن لا يحبه فهل غلب حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم وبغض أبي جهل وبغض إبليس لعنه الله إلا بالاطناب في وصف المحاسن والقامح التي لا تدرك بالحواس بل لما وصف الناس حائما بالسخاء ووصفوا خالدًا بالشجاعة أحبهم القلوب حبا ضرورياً وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم بل إذا حكى من سيرة بعض الملوك في بعض أقطار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين لبعد المزار ونأى الديار ، فاذن ليس حب الانسان مقصورا على من أحسن إليه بل المحسن في نفسه محبوب وإن كان لا ينتهي قط إحسانه إلى المحب لأن كل جمال وحسن فهو محبوب والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما ، وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصورة الباطنة بالبصيرة الباطنة ، فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل إليها ، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للعلماني الباطنة أكثر من حبه للعلماني الظاهرة فشتان بين من يحب نقشا مصورا على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة . السبب الخامس : المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب ، إذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرد تناسب الأرواح كما قال صلى الله عليه وسلم « لما تعارف منها ائتلف وماتنا كرمها اختلف ^(١) » وقد حققنا ذلك في كتاب آداب الصعبة عند ذكر الحب في الله فليطلب منه لأنه أيضا من عجائب أسباب الحب ، فاذن ترجع أقسام الحب إلى خمسة أسباب ، وهو حب الانسان وجود نفسه وكاله وبقائه وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه وحبه من كان محسنا في نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسنا إليه وحبه لكل ما هو جميل في ذاته ، سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن فلو اجتمعت هذه الأسباب في شخص واحد تضاعف الحب لا محالة كما لو كان للانسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الخلق ومحسن إلى الوالد كان محبوا لا محالة غاية الحب وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال في نفسها ، فان كانت هذه الصفات في أقصى درجات الكمال كان الحب لا محالة في أعلى الدرجات ، فلنبين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كلها واجتماعها إلا في حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى .

ولا تعرف فضيلة إلا فيها حال ومقام وفي الزهد حال ومقام وفي التوكل حال ومقام وفي الرضا حال ومقام . قال أبو عثمان الخيري منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته ، أشار إلى الرضا ويكون منه حال ثم يصير مقاما والمحبة حال ومقام ولا يزال العبد يتوب بطروق حال التوبة حتى يتوب وطروق حال التوبة بالانزجار أولا . قال بعضهم الزجر هيجان في القلب لا يسكنه إلا الاتقياء من الغفلة فيرده إلى اليقظة فاذا تيقظ أبصر الصواب من الخطأ .

(١) حديث لما تعارف منها ائتلف مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم في آداب الصعبة .

(بيان أن المتحق للمحبة هو الله وحده)

وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله نذلك لجهله وتصوره في معرفة الله تعالى واجب الرسول صلى الله عليه وسلم محمود لأنه عين حب الله تعالى وكذلك حب العلماء والأتقياء لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب وحب المحبوب محبوب وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يتجاوز إلى غيره فلا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه . وإيضاحه بأن ترجع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها ونبين أنها مجتمعة في حق الله تعالى بمحملتها ولا يوجد في غيره إلا آحادها وأنها حقيقة في حق الله تعالى ووجودها في حق غيره وهم وتخييل ، وهو مجاز محض لا حقيقة له ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة ضد ما تخيله ضغفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تحقياً وبيان أن التحقيق يقتضى أن لا يحب أحداً غير الله تعالى . فأما السبب الأول وهو حب الانسان نفسه وبقائه وكاله وودام وجوده وبضه لهلاكه وعدمه وتصفائه وقواطع كاله فهذه جيلة كل حى ، ولا يتصور أن ينفك عنها وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى فان من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته وودام وجوده وكاله وجوده من الله وإلى الله وبالله فهو المخرج الموجد له وهو للبقى له وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب للوصول إليه وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب وإلّا فالبعد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته بل هو محض وعدم صرفه لا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء ، وهو ناقص بحد وجوده لولا فضل الله عليه بالتكامل لخلقته . وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا اليوم الحى الذى هو قائم بذاته وكل ماسواه قائم به فان أحب المارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره ، فبالضرورة يجب اللفيد لوجوده والمديم له إن عرفه خالقا موجدا ومخترعا مبقيا وقيوما بنفسه ومقوما لغيره فان كان لا يجب فهو لجهله بنفسه وبربه والمحبة ثمرة المعرفة فتعتمد باندامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها وكيف تصور أن يحب الانسان نفسه ولا يجب ربه الذى به قوام نفسه ، ومعلوم أن البتلى بحر الشمس لما كان يجب الظل فيجب بالضرورة الأشجار التى بها قوام الظل وكل ما فى الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر والنور بالإضافة إلى الشمس فان السكل من آثار قدرته ووجود السكل تابع لوجوده كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوام العوام إذ تخيلوا أن النور أثر الشمس وقائض منها ووجودها هو خطأ محض إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافا أظهر من مشاهدة الأبصار أن النور حاصل من قدرة الله تعالى احتراعا عند وقوع المقابلة بين الشمس والأجسام الكثيفة كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضا حاصل من قدرة الله تعالى ولكن الغرض من الأمثلة التمهيم فلا يطلب فيها الحقائق فاذن إن كان حب الانسان نفسه ضروريا لغيره لمن به قوامه وأولاد واهم ثانيا في أصاه وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضا ضرورى إن عرف ذلك كذلك ومن خلا عن هذا الحب فلا نه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته وهو عالم الشهادة الذى يشاركه البهائم في التتم به والاتساع فيه دون عالم الملكوت الذى لا يبطأ رضى إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة فينظر فيه بقدر قربه في الصفات من الملائكة ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم .

وقال بعضهم : الزجر ضياء في القلب يصير به خطأ قصدوا الزجر في مقدمة التوبة على ثلاثة أوجه زجر من طريق السلم وزجر من طريق العقول وزجر من طريق طريق الإيمان قينازل التائب حال الزجر وهى موهبة من الله تعالى تقوده إلى التوبة ولا يزال بالبسد ظهور هوى النفس يحويه آثار حال التوبة والزجر حتى تستقر وتصير مقاما وهكذا في الزهد لا يزال يتزهد بنزلة حال تربيته قنة ترك الاشتغال بالدنيا وتبجح له الإقبال عليها

وأما السبب الثاني وهو حبه من أحسن إليه فواساه بماله ولاطفه بكلامه وأمدّه بجموته وانتدب
 لنصرته وقمع أعداءه وقام بدفع شرّ الأشرار عنه وانتهى وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه في
 نفسه وأولاده وأقاربه فإنه محبوب لا محالة عنده وهذا بينه يقتضى أن لا يحب إلا الله تعالى فإنه
 لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط فأما أنواع إحسانه إلى كل عبده فلست
 أعدها إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - وقد
 أشرنا إلى طرف منه في كتاب الشكر ولكننا تقتصر الآن على بيان أن الاحسان من الناس غير
 متصور إلا بالجواز وإنما المحسن هو الله تعالى ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه وممكنك
 منها لتتصرف فيها كيف تشاء فانك تظن أن هذا الاحسان منه وهو غلط فإنه إنما تم إحسانه به
 وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك فمن الذي أنعم بخلقه وخلق
 ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وداعيته ومن الذي حييك إليه وصرف وجهه إليك وألقى في نفسه
 أن صلاح دينه أودنيه في الاحسان إليك ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله ومهما سلط الله
 عليه الدواعى وقرر في نفسه أن صلاح دينه أودنيه في أن يسلم إليك ماله كان مقهوراً مضطراً
 في التسليم لا يستطيع مخالفته فالمحسن هو الذي اضطره لك وسخره وسلط عليه الدواعى الباعثة
 المرهقة إلى الفعل وأما يده فواسطة يصل بها إحسان الله إليك وصاحب اليد مضطر في ذلك اضطراب
 مجرى الماء في جريان الماء فيه فان اعتقدته محسناً أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن لامن
 حيث هو واسطة كنت جاهلاً بحقيقة الأمر فإنه لا يتصور الاحسان من الانسان إلا إلى نفسه أما
 الاحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين لأنه لا يبذل ماله إلا لنفرض له في البذل إما أجل وهو الثواب
 وإما عاجل وهو المنة والاستسخار أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم أو جذب قلوب الخلق
 إلى الطاعة والمحبة وكما أن الانسان لا يلقى ماله في البحر إذ لا غرض له فيه فلا يلقى في يد إنسان
 إلا لنفرض له فيه وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده وأما أنت فلست مقصوداً بل يدك آلة له في القبض
 حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك المال فقدم استخرك في القبض
 للتوصل إلى غرض نفسه فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عما يبذله من ماله أو عوضاً أو ربح عنده
 من ماله ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلاً البتة فاذن هو غير مستحق للشكر
 والحب من وجهين : أحدهما أنه مضطر بتسليط الله الدواعى عليه فلا قدرته على المخالفة فهو جاز مجرى
 خازن الأمير فإنه لا يرى محسناً بتسليم خلعته الأمير إلى من خلع عليه لأنه من جهة الأمير مضطر إلى الطاعة
 والامتثال لما يرصمه ولا يقدر على مخالفته ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك فكذلك كل محسن
 لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعى عليه وألقى في نفسه أن حظه ديناً
 وديناً في بذله فبذله لذلك . والثاني أنه معتاض عما يبذله حظاً هو أوفى عنده وأحب مما يبذله فكما
 لا يعد البائع محسناً لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما يبذله فكذلك الواهب اعتاض الثواب
 أو الحمد والثناء أو عوضاً آخر وليس من شرط العوض أن يكون عيناً متمولاً بل الحظوظ كلها
 أعوض تستحق الأموال والأعيان بالإضافة إليها فالاحسان في الجود والجود هو بذل المال من
 غير عوض وحظ يرجع إلى الباذل وذلك محال من غير الله سبحانه فهو الذي أنعم على العالمين إحساناً
 إليهم ولأجلهم لا حظ وغرض يرجع إليه فإنه يتعالى عن الأغراض فللفظ الجود والاحسان في حق
 غيره كذب أو مجاز ومعناه في حق غيره محال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض فهو المنفرد
 بالجود والاحسان والطول والامتنان فإن كان في الطبع حب المحسن فينبغي أن لا يحب العارف إلا الله

فدمجو أثر حاله بدلالة
 شره النفس وحرصها
 على الدنيا ورؤية العاجلة
 حتى تتداركه العونة
 من الله الكريم فيزهد
 ويستقر زهده ويصير
 الزهد مقامه ولا تزال
 نازلة حال التوكل تفرع
 باب قلبه حتى يتوكل
 وهكذا حال الرضا حتى
 يطمئن على الرضا ويصير
 ذلك مقامه وههنا
 لطيفة وذلك أن مقام
 الرضا والتوكل يثبت
 ويحكم ببقائه مع وجود
 داعية الطبع ولا يحكم
 ببقاء حال الرضا مع
 وجود داعية الطبع
 وذلك مثل كراهة
 مجدها الراضى بحكم
 الطبع ولكن علمه
 بمقام الرضا يغمركم

تعالى إذ الاحسان من غيره محال فهو المستحق لهذه المحبة وحده وأما غيره فيستحق المحبة على الانسان بشرط الجهل بمعنى الاحسان وحقيقته . وأما السبب الثالث وهو حبك المحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه وهذا أيضا موجود في الطباع فانه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو في قطر من أقطار الأرض بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متعنت شرير وهو أيضا بعيد عنك فانك تجد في قلبك تفرقة بينهما إذ تجد في القلب ميلا إلى الأول وهو الحب وتفرقة عن الثاني وهو البغض مع أنك آيس من خير الأول وآمن من شر الثاني لا تقطع طمعتك عن التوغل إلى بلادها فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن فقط لا من حيث إنه محسن إليك وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى أن لا يحب غيره أصلا إلا من حيث يتعلق منه بسبب فان الله هو المحسن إلى الكافة والتفضل على جميع أصناف الخلائق أولا بإيجادهم وثانيا بتكليفهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضرورتهم وثالثا بترفيهم وتنعيمهم بخلق الأسباب التي هي في مظان حاجاتهم وإن لم تكن في مظان الضرورة ورابعا بتجديدهم بالمزايا والزوائد التي هي في مظنة زينتهم وهي خارجة عن ضرورتهم وحاجاتهم ومثال الضروري من الأعضاء الرأس وانقلب والسكبد ومثال المحتاج إليه العين واليد والرجل ومثال الزينة استقواس الحاجبين وحمرة الشفتين وتلوز العينين إلى غير ذلك مما لو فات لم تنتخرم به حاجة ولا ضرورة ومثال الضروري من النعم الخارجة عن بدن الانسان الماء والغذاء ومثال الحاجة السواء واللحم والفواكه والأطعمة التي لا تنتخرم بعدها حاجة ولا ضرورة وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى القرش فاذن هو المحسن فكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته فانه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الاحسان وخالق أسباب الاحسان فالحب بهذه العلة لغيره أيضا جهل محض ومن عرف ذلك لم يحب بهذه الالة إلا الله تعالى . وأما السبب الرابع وهو حب كل جميل لغات الجمال لاحظ ينال منه وراء إدراك الجمال فقد بينا أن ذلك محبوب في الطباع وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة والأول يدركه الصبيان والبهائم والثاني يختص بدركه أرباب القلوب ولا يشاركون فيه من لا يعلم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال فان كان مدركا بالقلب فهو محبوب القلب ومثال هذا في المشاهدة حب الأنبياء والمعلم وذوى الكرام السنية والأخلاق للرضية فان ذلك متصور مع تشوش صورة الوجه وسائر الأعضاء وهو الراد بحسن الصورة الباطنة والحس لا يدركه ، نعم يدرك بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه فمن يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الصديق رضى الله تعالى عنه أو الشافعي رحمة الله عليه فلا يحبه إلا الحسن ما ظهر له منهم وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي مصدر الأفعال إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالة عليها فمن رأى حسن تصنيف المصنف وحسن شعر الشاعر بل حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة ثم كلما كان العلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة كان العلم أشرف وأجمل وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدرا وأجل للمومات هو الله تعالى فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى

الطبع وظهور حكم
الطبع في وجود
الكرهية المقصودة
بالعلم لا يخرج عنه
مقام الرضا ولا يفتقد
حال الرضا لأن الحال
تجردت موهبة أحقرت
داعية الطبع فيقال
كيف يكون صاحب
مقام في الرضا ولا يكون
صاحب حال فيه والحال
مقدمة المقام والمقام
أثبتت قول: لأن المقام
لما كان مشوبا بكسب
العبد احتمل وجود
الطبع فيه والحال لما
كانت موهبة من الله
زهت عن مزج الطبع
لحال الرضا أصلف ومقام
الرضا أمكن ولا بد
للمقامات من زائد
الأحوال فلا مقام إلا

وكذلك ما يقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به فاذن جمال صفات الصديقين الذين نجحهم القلوب طبعاً ترجع إلى ثلاثة أمور: أحدها علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه. والثاني قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالارشاد والسياسة. والثالث نزهتهم عن الرذائل والحباث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشر وبمثل هذا يحب الأنبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم فأنسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى. أما العلم فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وقد خاطب الخالق كلهم فقال عز وجل - وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً - بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشر ذلك - ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء - والتقدير اليسير الذي علمه الخلائق كلهم فتعليمه عدوه كما قال تعالى - خلق الانسان علمه الله البيان - فان كان جمال العلم وشرفه أمراً محبوباً وكان هو في نفسه زينة وكلاً للموصوف به فلا ينبغي أن يحجب بهذا السبب إلا الله تعالى فعلوم العلماء جهل بالاضافة إلى علمه بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحجب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعم وإن كان الأجهل لا يتخلو عن علم ما تتفاضل معيشته والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم لأن الأعم لا يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية يتصور في الامكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لانهاية لها ومعلومات الخالق متناهية. وأما صفة القدرة: فهي أيضاً كمال والعجز نقص فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فانه محبوب وإدراكه لتدبيره حق إن الانسان ليسمع في الحكاية شجاعة على وخالد رضى الله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران فيصايف في قلبه اهتز ازا وفرحاً وارتياحاً ضرورياً بمجرد لذة السماع فضلاً عن المشاهدة ويورث ذلك حبا في القلب ضرورياً للمتعرف به فانه نوع كمال فانسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى فأعظم الأشخاص قوة وأوسعهم ملكاً وأقوامهم بطشاً وأقهرهم للشهوات وأقمهم لحباث النفس وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره مامتهى قدرته وإنما غاية أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الانس في بعض الأمور وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا ضراً ولا نفعاً بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الحرس وأذنه من الصمم وبدنه من المرض ولا يحتاج إلى عد ما يعجز عنه في نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته فضلاً عما لاتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها والأرض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها فلا قدرة له على ذرة منها وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك ولو سلط جوضاً على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه فليس للمبد قدرة إلا بتسكين مولاة كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين إذ قال - إننا مكنا له في الأرض - فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتسكين الله تعالى إياه في جزء من الأرض والأرض كلها مدرة بالاضافة إلى أجسام العالم وجميع الولايات التي يحظى بها الناس من الأرض غبرة من تلك المدرة ثم تلك الغبرة أيضاً من فضل الله تعالى وتمكينه فبدت تحيل أن يحب عبداً من عباده الله تعالى لقدرة وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فهو الجبار

بعد سابقة حال ولا تخرد للمقامات دون سابقة الأحوال. وأما الأحوال فمنها ما يصير مقاما ومنها ما لا يصير مقاما والسر فيه ما ذكرناه أن الكسب في المقام ظهر والوهبة بطن وفي الحال ظهرت للوهبة والكسب بطن فلما كان في الأحوال اللوهبة غالبية لم تنقيد وصارت الأحوال إلى مالاتهاية لها ولطف سقى الأحوال أن يصير مقاما ومقدورات الحق غير متناهية ومواهبه غير متناهية ولهذا قال بعضهم لو أعطيت روحانية عيسى وكلمة موسى وخلة إبراهيم

القاهر والعالِم القادر السموات مطويات يمينه والأرض وملكها وما عليها في قبضته وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته إن أهلكتهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعبى بخلقها ولا يعبه لغوب ولا ثور في اختراعها فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء فإن كان يتصور أن يجب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواء أصلا . وأما صفة التنزه عن العيون والنقائص والتقدس عن الرذائل والخبائث فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة والأنبياء والصدّيقون وإن كانوا منزّهين عن العيوب والخبائث فلا يتصور كمال التقدس والتنزه إلا للواحد الحق الملك القدوس ذي الجلال والإكرام . وأما كل مخلوق فلا تخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزا مخلوقا مسخرا مضطرا هو عين العيب والنقص فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله وليس في القدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره فإن منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبدا مسخرا لغيره فأعما بغيره وذلك محال في حق غيره فهو المنفرد بالكمال التنزه عن النقص المقدس عن العيوب وشرح وجوه التقدس والتنزه في حقه عن النقائص بطول وهو من أسرار علوم المكاشفات فلا يتطول بذكره فهذا الوصف أيضا إن كان كمالا وجمالا محبوبا فلا تتم حقيقته إلا لله وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقا بل بالإضافة إلى ماهو أشد منه نقصانا كما أن للفرس كمالا بالإضافة إلى الجمار وللإنسان كمالا بالإضافة إلى الفرس وأصل النقص شمل للكل وإنما يتفاوتون في درجات النقصان ؛ فاذن الجميل محبوب والجميل المطلق هو الواحد الذي لا ند له الفرد الذي لا ضد له الصمد الذي لا منازع له الغنى الذي لا حاجة له القادر الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه العالم الذي لا يهزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض التاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة الأرنى الذي لا أول لوجوده الأبدى الذي لا آخر لبقائه الضروري الوجود الذي لا يحوم إمكان العدم حول حضرته القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به جبار السموات والأرض خالق الجماد والحيوان والنبات المنفرد بالعزة والجبروت المتوحد بالملك والملكوت ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال الذي تحير في معرفة جلاله المقول ونحرس في وصفه الألسنة الذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى نبوة الأنبياء الاترار بالقصور عن وصفه كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» (١) وقال سيد الصديقين رضى الله تعالى عنه: العجز عن درك الإدراك إدراك سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ، فليت شعري من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيرا وبجمله مجازا أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والحمد ونعوت الكمال والحاسن أو ينكر كون الله تعالى موصوفا بها أو ينكر كون الكمال والجمال والبهاء والعظمة محبوبا بالطبع عند من أدركه فسبحان من احتجب عن بصائر العميان غيره على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبق له منه الحسن الذين هم عن نار الحجاب مبعدون وترك الحاسرين في ظلمات العمى يتبهون وفي مسارج المحسوسات وشهوات البهائم يترددون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالاحسان لأن الاحسان يزيد وينقص ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : إن أود الأوداء إلى من عبدني بغير نوال لكن يعطى الربوبية حقا ، وفي الزبور : من أظلم ممن

(١) حديث لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك تقدم .

عليه السلام لطلب ما وراء ذلك لأن مواهب الله لا تنحصر وهذه أحوال الأنبياء ولا تعطى الأولياء ولكن هذه إشارة من القائل إلى دوام تطوع العبد وتطلبه وعدم قناعته بما هو فيه من أمر الحق تعالى لأن سيد الرسل صلوات الله عليه وسلامه به على عدم القناعة وقصر باب الطلب واستئزال بركة المزيد بقوله عليه السلام «كل يوم لم أزد في علمي فلا بورك لي في صبيحة ذلك اليوم» وفي دعائه صلى الله عليه وسلم «اللهم ما قصر عنه رأبي وضعف فيه

عبدني لجنة أوتار لولم أخلق جنة ولا ناراً ألم أكن أهلاً أن أطاع ، ومرّ عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد نخلوا فقالوا فقالوا نخاف النار ونرجو الجنة فقال لهم نخلوا فخرتم ونخلوا فارجوتهم ، ومرّ بقوم آخرين كذلك فقالوا نعبده حبا له وتعظيما لجلاله فقال أتم أولياء الله حقا معكم أمرت أن أقيم وقال أبو حازم إني لأستحي أن أعبده للثواب والعقاب فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل وكالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل ، وفي الخبر لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجرا لم يعمل ولا كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل (١) ، وأما السبب الخامس للحب فهو للنسبة والشاكلة لأن شبه الشيء منجذب إليه والشكل إلى الشكل أميل ، ولذلك ترى الصبي يألف الصبي والكبير يألف الكبير ويألف الطير نوعه وينفر من غير نوعه وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح ، وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهده الأخبار والآثار كما استقصيناه في باب الأخوة في الله من كتاب آداب الصعجة فيطلب منه وإذا كانت النسبة سبب المحبة فالمناسبة قد تكون في معنى ظاهر كمناسبة الصبي الصبي في معنى الصبا وقد يكون خفيا حتى لا يطلع عليه كما ترى من الأعماد الذي يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع في مال أو غيره كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال «الأرواح جنود مجنونة فما تصارفت منها اتلفت وماتت ما لم منها اختلف» فالصغار هو التناسب والتناكر هو التباين وهذا السبب أيضا يقتضى حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع إلى الشابهة في الصور والأشكال بل إلى معان باطنة يجوز أن يذكر بعضها في الكتب وبعضها لا يجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الغيرة حتى يتر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السلوك فالتى يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالاعتداء والتخلق بأخلاق الربوبية حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية من العلم والبر والاحسان واللائف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل إلى غير ذلك من مكارم الشريعة فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى لاجتماع طلب القرب بالمكان بل بالصفات ، وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها آدمي فهي التي يومي إليها قوله تعالى - ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي - إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق وأوضح من ذلك قوله تعالى - فإذا سويته ونفخت فيه من روحي - ولذلك أسجد له ملائكته ويشير إليه قوله تعالى - إنا جعلناك خليفة في الأرض - إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة وإليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله خلق آدم على صورته (٢)» حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة للدركة بالحواس فشهروا وجسموا وصوروا ، تعالى الله عن أن يشبهه الملائكة عما يقول الجاهلون علوا كبيرا وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام «مرضت فلم تعبدني فقال يارب وكيف ذلك قال مرض عبدي فلان فلم تعده ولو عدته وجدته عنده (٣)» وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض كما قال الله تعالى «لا يزال يتقرب العبد إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به وإسائه الذي ينطق به (٤)» وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد

عملي ولم تبلغه نيق
وأنتيق من خير وعدته
أحدا من عبادك أو
خير أنت معطيه أحدا
من خلقك فأنا أرغب
إليك وأسالك إياه
فاعلم أن مواهب الحق
لا تنحصر والأحوال
مواهب وهي متصلة
بكلمات الله التي ينفذ
البحر دون تقادها
وتنفذ أعداد الرمال
دون أعدادها والله
النعيم للعطي .

[الباب التاسع
والخمسون في الاشارات
إلى اللقائات على
الاختصار والابحاز]
أخبرنا شيخنا شيخ
الاسلام أبو الجيب
السروردي رحمه الله
قال أنا أبو منصورين

(١) حديث لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجرا لم يعمل لم أجده أصل (٢) حديث إن الله خلق آدم على صورته تقدم (٣) حديث توله تعالى مرضت فلم تعبدني فقال وكيف ذلك قال مرض فلان الحديث تقدم (٤) حديث قوله تعالى لا يزال يتقرب العبد إلى بالنوافل حتى أحبه الحديث البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

تحزب الناس فيه إلى قاصرين مالوا إلى التشبيه الظاهر وإلى غالبين مسرفين جاوزوا حدَّ المناسبة إلى الاتحاد وقالوا بالحلول حتى قال بعضهم أنا الحق وصل النصارى في عيسى عليه السلام فقالوا هو إلهه وقال آخرون منهم تدرع الناسوت باللاهوت وقال آخرون أتحد به ، وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتشليل واستحالة الاتحاد والحلول واتضح لهم مع ذلك حقيقة السرف فهم الأقولن ، ولعل أبا الحسن النورى عن هذا المقام كان ينظر إذا غلبه الوجد في قول القائل :

لازلت أزل من وداك منزلا تحجير الأبواب عند نزوله

فلم يزل يعدو في وجدته طى أجمة قد قطع قصبها وبقي أصوله حتى تشققت قدماه وتور متاومات من ذلك وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها وهو أعزها وأبعدها وأقلها وجودا ، فهذه هى المعلومة من أسباب الحب وجملة ذلك مظاهرة في حق الله تعالى تحقيقا لإجازة وفى أعلى الدرجات لافى أدناها فكان المعقول المقبول عند ذوى البصائر حب الله تعالى فقط كما أن للعقول الممكن عند العيان حب غير الله تعالى فقط ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته إياه فى السبب والشركة نقصان فى الحب وغض من كماله ولا ينفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد إلا الله تعالى فإنه موصوف بهذه الصفات التى هى نهاية الجلال والكمال ولا شريك له فى ذلك وجودا ولا يتصور أن يكون ذلك إمكانا فلا جرم لا يكون فى حبه شركة فلا تطرق النقصان إلى حبه كما لا تطرق الشركة إلى صفاته فهو المستحق إذا الأصل المحبة والكمال المحبة استحقا فالإسما فيه أصلا .

(بيان أن أجل الذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم

وأنة لا يتصور أن لا يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة)

اعلم أن اللذات تابعة للإدراكات والانسان جامع لجملة من القوى والغرائز وكل قوة وغريزة لذة ولذتها فى نيلها لمقتضى طبيعته الذى خلقت له فان هذه الغرائز ماركبت فى الانسان عشا بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام فلا جرم لذتها فى الغلبة والانتقام الذى هو مقتضى طبيعتها وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام فلا جرم لذتها فى نيل هذا الغذاء الذى هو مقتضى طبيعتها وكذلك لذة السمع والبصر والشم فى الإبصار والاستماع والشم فلا تلخو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذتها بالإضافة إلى مدرجاتها فكذلك فى القلب غريزة تسمى النور الإلهى لقوله تعالى - أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الايمان واليقين ولا معنى للاشتغال بالأسماء فان الاصطلاحات مختلفة والضعيف يظن أن الاختلاف واقع فى المعانى لأن الضعيف يطلب المعانى من الألفاظ وهو عكس الواجب فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة ما يدرك المعانى التى ليست منخبة ولا محسوسة كما دراكه خالق العالم وأفقاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية ولنسم تلك الغريزة عقلا بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية وإلا فالصفة التى فارق الانسان بها البهائم وبها يدرك معرفه الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغى أن تدم وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها فمقتضى طبيعتها المعرفة والعلم وهى لذتها كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها وليس غنى أن فى العلم والمعرفة لذة حتى إن الذى ينسب إلى العلم والمعرفة ولو فى شئ خسيس يفرح به والذى ينسب إلى الجهل ولو فى شئ حقير يغمم به وحتى إن الانسان لا يكاد يصبر عن التحدى بالعلم والتدح به فى الأشياء الحقيرة فالعالم بالالمب بالشرط نوح على حسنة لا يطبق السكوت فيه عن التعليم ويطلق لسانه بذكر ما يلمه وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره

خيرون إجازة قال أنا أبو محمد الحسن بن على بن محمد الجوهري إجازة قال أنا أبو عمرو محمد بن العباس بن محمد قال أنا أبو محمد يحيى بن صاعد قال أنا الحسين بن الحسن الروزى قال أنا عبد الله ابن المبارك قال أنا الهيثم بن جميل قال أنا كثير بن سليم المدائني قال سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه قال أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال يا رسول الله إنى رجل ذرب اللسان وأكثر ذلك على أهلى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أين أنت من الاستغفار فأتى استغفر الله

من كمال ذاته به فان العلم من أخص صفات الربوبية وهي منتهى الكمال ولذلك يرتاح الطبع إذا أُنهي عليه بالذكاء وغزارة العلم لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذبه ثم ليست لذة العلم بالحراثة والحياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتديير أمور الخلق ولالذلة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملسكوت السموات والأرض بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم حتى إن الذي يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك مجده لذة وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه فان علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدييره في رياسته كان ذلك ألد عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أحوالك فان اطلع على أسرار الوزير وتدييره وما هو عازم عليه في أمور الوزارة فهو أشهى عنده وأذمن علمه بأسرار الرئيس فان كان خيرا يباطن أحوال الملك والسلطان الذي هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده وأذمن علمه بباطن أسرار الوزير وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد وجه له أكثر لأن لذته فيه أعظم فهذا استبان أن ألد المعارف أشرفها وأشرفها بحسب شرف المعلوم فان كان في المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم فالعلم به ألد العلوم لا بحالة وأشرفها وأطيبها وليت شعري هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزنيها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها وهل يتصور أن تكون حضرة في الملك والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بمبادئ جلالها ومعجائب أحوالها وصف الواصفين فان كنت لا تشك في ذلك فلا ينبغي أن تشك في أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتيب الأمور الالهية المحيطة بكل الوجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار وهذا تبين أن العلم لذيد وأن ألد العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتدييره في مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين فينبغي أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات أعنى لذة الشهوة والنضب ولذة سائر الحواس الخمس فان اللذات مختلفة بالنوع أولا كخالفه لذة الوقاع لذة السماع ولذة المعرفة للذة الرياضة وهي مختلفة بالضعف والقوة كخالفه لذة الشبق المفلتم من الجماع لذة الفاتر للشهوة وكخالفه لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال لذة النظر إلى مادونه في الجمال وإتمامه أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها فان الخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألد عنده من الروائح الطيبة وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل فيعلم به أن لذة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل فهذا معيار صادق في الكشف عن ترجيح اللذات فنعود ونقول: اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلذة الحواس الخمس وإلى باطنة كلذة الرياضة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها إذ ليست هذه اللذة للمعين ولا للألف ولا للأذن ولا لللس ولا للذوق والمعاني الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرياضة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء فان كان الخير خسيس المهمة ميت القلب شديد المهمة اختار اللحم والحلاوة وإن كان على المهمة كامل العقل اختار الرياضة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياما كثيرة فاختاره للرياسة يدل على أنها ألد عنده من المطاعم الطيبة، نعم الناقص الذي لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي أو كالذي ماتت قواه الباطنة كالمعتوه لا يبعد أن يؤثر لذة المطاعم على لذة الرياضة وكما أن لذة الرياضة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والسنه فلهذا معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى

في اليوم واللييلة
مائة مرة» وروى
أبو هريرة رضي الله عنه
في حديث آخر «فاني
لأستغفر الله وأتوب
إليه في كل يوم مائة
مرة» وروى أبو بردة
قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم «إنه
ليغان على قلبي فأستغفر
الله في اليوم مائة مرة»
وقال الله تعالى - وتوبوا
إلى الله جميعا أيه
الذونون لعلمكم
تفلحون - وقال الله
عز وجل - إن الله يحب
التوابين - وقال الله
تعالى - يا أيها الذين
آمنوا توبوا إلى الله
نوبة نصوحا - التوبة
أصل كل مقام وقوام
كل مقام ومفتاح كل

أسرار الأمور الإلهية ألد من الرياسة التي هي أعلى الذات الغالبة على الخلق وغاية العبارة عنه أن يقال - فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين - وأنه أعد لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعاً فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر وينغمس في بحار المعرفة ويترك الرياسة ويستحق الخلق الذين رأسهم لله بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته ويكون مشوباً بالسكدرات التي لا يتصور الخلو عنها ويكونه مقطوعاً بالموت الذي لا يدمن إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وأزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فيستعظم بالاضافة إليها لذة معرفة الله ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين فإنها خالية عن الزاحمات والسكدرات متممة للمتواردين عليها لا تضيق عنهم بكبرها وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض وإذا خرج النظر عن المقدرات فلانها لعرضها فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض يرتع في رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة ثم هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت إذ الموت لا يدمن محل معرفة الله تعالى ومحلها الروح الذي هو أمر رباني سماوي وإنما الموت يغير أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويغلبها من حبسها فأما أن يعدمها فلا - ولا تحببن الذين قتلوا في سبيل الله أو اتابوا أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم - الآية . ولا تظن أن هذا مخصوص بالمقتول في الحركة فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفي الخبر « إن الشهيد يتنقى في الآخرة أن يرد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة وإن الشهداء يتنقون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء^(١) » فإذا ن جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بحسبه وشخصه فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والأرض وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً إلا أنهم يتفاوتون في سعة متزهاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم فقد ظهر أن لذة الرياسة وهي باطنة أقوى في ذوى الكمال من لذات الحواس كلها وأن هذه اللذة لا تكون لهيعة ولا لصبي ولا لمتوه وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لدوى الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرن الرياسة فأما معنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأسرار مملكته أعظم لذة من الرياسة فهذا مختص بمعرفة من نال مرتبة المعرفة وذاقها ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا قلب له لأن القلب معدن هذه القوة كأنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللب بالصولجان عند الصبيان ولا رجحان على لذة شم البنفسج عند العنين لأنه قد الصفة التي بها تدرك هذه اللذة ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال من ذاق عرف ولعمري طلاب المعلوم وإن لم يشتغلوا بطب معرفة الأمور الإلهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف الشكليات وإحلال الشبهات التي قوى حرصهم على طلبها فإنها أيضاً معارف وعلوم وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ويتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق والحكاية فيه قليلة الجدوى فهذا

(١) حديث إن الشهيد يتنقى في الآخرة إلى الدنيا ليقول مرة أخرى الحديث متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم وليس فيه وإن الشهداء يتنقون أن يكونوا علماء الحديث .

حال وهي أول المقامات وهي بمثابة الأرض للبناء فمن لا أرض له لا بناء له ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له وإني ببلغ على وقد وسعى وجهدي اعتبرت المقامات والأحوال وثمرتها فرأيتها يجمعها ثلاثة أشياء بعد صحة الإيمان وعقوده وشروطه فصارت مع الإيمان أربعة ثم رأيتها في إفادة الولادة العنوية الحقيقية بمثابة الطابع الأربع التي جعلها الله تعالى بأجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية ومن تحقق بحقائق هذه الأربع يلج ملكوت السموات

القدر ينهك على أن معرفة الله سبحانه ألد الأشياء وأنه لالذة فوقها ولهذا قال أبو سليمان الداراني إن لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له أخبرني بأبا محفوظ أي شيء هاجك إلى العبادة والانتفاع عن الخلق فكت فقال ذكر الموت فقال وأي شيء الموت فقال ذكر القبر والبرزخ فقال وأي شيء القبر فقال خوف النار ورجاء الجنة فقال وأي شيء هذا إن ملكا هذا كله بيده إن أحببته أسالك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا . وفي أخبار عيسى عليه السلام : إذا رأيت مشغوبا بطلب الرب تعالى فقد أهله ذلك عما سواه ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحرث في النوم فقال ما فعل أبو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق فقال تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يا كلان وبشر بنان قلت فأنتم قال علم الله قلته رغبت في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه وعن علي بن الوراق قال رأيت في النوم كأنني أدخلت الجنة فرأيت رجلا قاعدا على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقيانه من جميع الطيبات وهو يأكل ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بضا ويرد بضا قال ثم جاوزتهما إلى حظيرة القدس فرأيت في سرادق العرش رجلا قد شخص يصيره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف قلت لرضوان من هذا فقال معروف الكرخي عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حبا له فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة . وذكر أن الآخرين بشر بن الحرث وأحمد بن حنبل ولذلك قال أبو سليمان : من كان ليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه . وقال الثوري رابعة ماحقة إيمانك قالت ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء بل عبدته حبا له وشوقا إليه ، وقالت في معنى المحبة نظما :

أحبك حين حبّ الهوى وحبا لأنك أهل لداكا
فأما الذي هو حبّ الهوى فشغلي بذكرك عن سواكا
وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

واعلمها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بمحظوظ عاجلة ومحبها هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها وهو أعلى الحبين وأقواها والذمة مطالعة جمال الربوية هي التي عبر عنها رسول الله ﷺ حيث قال حاكيا عن ربه تعالى «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» (١) وقد تعجل بعض هذه اللذات في الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية ولذلك قال بعضهم إني أقول يا رب يا الله فأجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال لأن النداء يكون من وراء حجاب وهل رأيت جالسا ينادي جليسه وقال إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة أي يخرج كلامه عن حد عقولهم فيرون ما يقوله جنونا أو كفرا ثم قصد المارفين كلامهم وصله ولقاؤه فقط فهي قرة العين التي لا تعلم نفس ما أخفى لهم منها وإذا حصلت المحقق المأموم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقا بنعيمها فلو ألقى في النار لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم ينتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية وليت شعري من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى وماله صرورة ولا شكل وأي معنى لو عد الله تعالى به عبادة وذكره أنه أعظم النعم بل من عرف الله عرف أن اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوي تحت هذه اللذة كما قال بعضهم :

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت الحديث البخاري من حديث أبي هريرة .

ويكشف بالقدر والآيات ويصير له ذوق وفهم لكلمات الله تعالى المنزلات ويعظي بجميع الأحوال والمقامات فكلها من هذه الأربع ظهرت وبها تهيات وتأكدت فأحد الثلاث بعد الإيمان التسوية النصح والثاني الزهد في الدنيا والثالث تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله تعالى ظاهرا وباطنا من الأعمال القلبية والقلبية من غير قور وقصور ثم يستعان على إتمام هذه الأربعة بأربعة أخرى بها تمامها وقوامها وهي

سكانت لقي أهواء مفارقة فاستجمعت مذ رأيتك العين أهواي
ضار بعسدي من كنت أحسنه وصرت مولى الورى مذ صرت مولاي
تركت للناس دينام ودينهم سفلا بد كرك ياديني ودنيائي
ولذلك قال بعضهم : وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جته

وما أرادوا بهذا إلا إثارة لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح فان
الجنة معدن تمتع الحواس . فأما القلب فلذته في لقاء الله فقط ومثال أطوار الخلق في لذتهم ما نذكره
وهو أن الصبي في أول حركته وتميزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو حتى يكون ذلك عنده
ألذ من سائر الأشياء ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذة
اللعب ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها ثم تظهر لذة
الرياسة والعلو والتكاثر وهي آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها كما قال تعالى - اعلموا أنما الحياة
الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر - الآية ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها
لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ما قبلها فكل متأخر فهو أقوى وهذا هو
الآخر إذ يظهر حب اللعب في سن التمييز وحب النساء والزينة في سن البلوغ وحب الرياسة بعد
العشرين وحب العلوم يقرب الأربعين وهي الغاية العليا وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب
ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرياسة فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة
ويشتغل بمعرفة الله تعالى . والعارفون يقولون - إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون
فسوف تملون - .

(بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا)

اعلم أن المدركات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال كالصور التخيلية والأجسام المتلونة والمشكلة من
أشخاص الحيوان والنبات وإلى ما لا يدخل في الخيال كذات الله تعالى وكل ما ليس بحس كالم والقدرة
والارادة وغيرها ومن رأى إنساناً ثم غص بصره وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها
ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين
لأن الصورة المرئية تكون موافقة للتخيلة وإنما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف فان صورة
الرئي صارت بالرؤية أتم انكشافاً ووضوحاً وهو كشيء يرى في وقت الاسفار قبل اتشارضوه
النهار ثم رؤى عند تمام الضوء فانه لا تفارق إحدى الحالتين الأخرى إلا في مزيد الانكشاف، فاذن
الخيال أول الادراك والرؤية هو الاستكمال لادراك الخيال وهو غاية الكشف وسمى ذلك رؤية لأنه
غاية الكشف لأنه في العين بل لو خلق الله هذا الادراك الكامل للكشوف في الجبهة والصدر
مثلاً استحق أن يسمى رؤية وإذا فهمت هذا في التخيلات فاعلم أن المعلومات التي لا تتشكل أيضاً
في الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان : إحداهما أولى والثانية استكمال لها وبين الأولى والثانية من
التفاوت في مزيد الكشف والايضاح ما بين التخيل والرئي فيسمى الثاني أيضاً بالاضافة إلى الأول
مشاهدة واقعا ورؤية وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف وكما أن سنة
الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجناف يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجاباً بين البصر
والرئي ، ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية وما لم ترتفع كان الادراك الحاصل مجرد التخيل
فيكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محجوبة بموارض البدن ومقتضى الشهوات

قلة الكلام وقلة الطعام
وقلة المنام والاعتزال
عن الناس . واتفق
العلاء الزاهدون
والشايخ على أن هذه
الأربع بها تستقر
المقامات وتستقيم
الأحوال وبها صار
الأبدال أبدالاً بتأييد
الله تعالى وحسن
توفيقه ونبين بالبيان
الواضح أن سائر
المقامات تدرج في
صحة هذه ومن ظفر
بها فقد ظفر بالمقامات
كلها وأولها بعد الإيمان
التوبة وهي في مبدأ
صحتها تنفتح إلى أحوال
وإذا صحت تشتمل
على مقامات وأحوال
ولا بد في ابتدائها
من وجود زاجر

وما غاب عليها من الصفات البشرية فانها لاتنتهي إلى المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار والقول في سبب كونها حجابا بطول ولا يليق بهذا العلم ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام - لن ترانى - وقال تعالى - لاتدركه الأبصار - أى في الدنيا ، والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج (١) . فاذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا غير منضكة عنها بالسكاية وإن كانت متفاوتة فمنها ماتراكم عليه الحبث والصدأ فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الحبث جوهرها فلا تقبل الإصلاح والتصقيل وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد نعوذ بالله من ذلك . ومنها ما لم ينته إلى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل فيعرض على النار عرضا يجمع منه الحبث الذي هو متدنس به ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها في حق المؤمنين كماوردت به الأخبار سبعة آلاف سنة (٢) ولن ترتحل نفس عن هذا العالم إلا ويصحبها غيرة وكدورة ما وإن قلت . ولذلك قال الله تعالى - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم تنجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا - فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها فاذا أكل الله تطهيرها وتزكيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن حملة ماوعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ووافى استحقاق الجنة وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه أحدا من خلقه فانه واقع بعد اقيامة ووقت القيامة مجهول فعند ذلك يشتغل بصفائه وقائه عن الكدورات حيث لا يرهق وجهه غيرة ولا قنرة لأن فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالاضافة إلى ماعله كانكشاف تجلى المرآة بالاضافة إلى ما تخيله ، وهذه للشاهدة والتجلى هي التي نسمى رؤية ، فاذن الرؤية حق بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان فان ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علوا كبيرا بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة فتراه في الآخرة كذلك ، بل أقول المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتتقلب مشاهدة ، ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة ، والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح كما ضربنا من المثال في استكمال الخيال بالرؤية ، فاذا لم يكن في معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها في الوضوح إلى غاية

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج على الصحيح هذا الذي صححه المصنف هو قول عائشة في الصحيحين أنها قالت من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب. ولمسلم من حديث أبي ذر سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك قال نور أنى أراه وذهب ابن عباس وأكثر العلماء إلى إثبات رؤيته له وعائشة لم ترو ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وحديث أبي ذر قال فيه أحمد ما زلت له منكرًا . وقال ابن خزيمة في القلب من صحة إسناده شيء مع أن في رواية لأحمد في حديث أبي ذر رأيت نورا إني أراه ورجال إسنادهما رجال الصحيح (٢) حديث إن أقصى المكث في النار في حق المؤمنين سبعة آلاف سنة الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة إنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمى الحديث وفيه وأطولهم مكثا فيها مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة وإسناده ضعيف .

ووجدان الزاجر حال لأنه موهبة من الله تعالى على ما تقرر أن الأحوال مواهب وحال الزجر مفتاح التوبة ومبدؤها . قال رجل لبشر الحافي مالى أراك مهموما . قال لأنى ضال ومطلوب ظللت الطريق والقصد وأنا مطلوب به ، ولو تبينت كيف الطريق إلى المقصد لطلبت ولكن سنة الفضلة أدركتني وليس لي منها خلاص إلا أن أزجر فأزجر . وقال الأصمعي : رأيت أعرايا بالبصرة يشتكى عيذه وهما يميل منها الماء فقات له ألا

السكشاف أيضا جهة وصوره لأنها هي بعينها لا تفرق منها إلا في زيادة السكشاف كأن الصورة المرئية هي التخييلة بعينها إلا في زيادة السكشاف وإليه الإشارة بقوله تعالى - يسمي نورهم بين أيديهم وبأيامهم يقولون ربنا أعمم لنا نورنا - إذ تمام النور لا يؤثر إلا في زيادة السكشاف ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة والحب زرعاً ومن لا نواة في أرضه كيف يحصل له نخل ومن لم يزرع الحب فكيف يحصل له زرع فكذلك من لم يعرف الله تعالى في الدنيا فكيف يراه في الآخرة ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي أيضا على درجات متفاوتة فاختلاف التجلي بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر إذ تختلف لامحالة بكثرتها وقلتها وحسنها وقوتها وضعفها ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام «إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة (١)» فلا ينبغي أن يظن أن غير أبي بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر بل لا يجد إلا عشر عشره إن كانت معرفته في الدنيا عشر عشيره ولما فضل الناس بسر وقر في صدره فضل لامحالة بتجلّي انفراد به وكما أنك ترى في الدنيا من يؤثر لذة الرياضة على الطعوم والتكسوح وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرياضة وعلى التكسوح والطعوم والشروب جميعا فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة إذ يرجع نعيمها إلى الطعوم والتكسوح وهؤلاء بينهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفناه من إشارات لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة للتكسوح والطعوم والشروب وسائر الخلق مشغولون به ولذلك لما قيل لرابعة ماتقولين في الجنة فقالت الجارثم الدار فبينت أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة وكل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا ولا يحصد أحد إلا ما زرع ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه ولا يموت إلا على ما عاش عليه فما صحبه من المعرفة هو الذي يتعم به بعينه فقط إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتضاعف اللذة به كما تضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة الممشوق رؤية صورته فإن ذلك منتهى لذته وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهي فمن لا يشتهي إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره بل ربما يتأذى به فاذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر معرفته فأصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالإيمان. فان كانت لذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهي قليلة وإن كان أضاعفها لأن لذة المعرفة في الدنيا ضعيفة فتضاعفها إلى حد قريب لا ينتهي في القوة إلى أن يستحق سائر لذات الجنة فيها. فاعلم أن هذا الاستحقاق لذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها وإن انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بملائق الدنيا فكيف يدرك لذتها فلما عرفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة في الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ثم هذه اللذة مع كمالها لانسبة لها أصلا إلى لذة اللقاء والشاهدة كما لانسبة للذة خيال الممشوق إلى رؤيته ولللذة استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى ذوقها ولللذة اللبس باليد إلى لذة الوقوع وإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فتقول

(١) حديث إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة ابن عدى من حديث جابر . وقال باطل بهذا الاسناد وفي الميزان للذهبي أن لدارقطني رواه عن الهاملي عن علي بن عبدة وقال الدارقطني إن علي بن عبدة كان يضع الحديث ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق وابن الجوزي في الموضوعات من حديث جابر وأبي بردة وعائشة .

تسمع عينك فقال لا لأن الطبيب زجرني ولاخير فيمن لا يزرع فالزاجر في الباطن حال يهبها الله تعالى ولا بد من وجودها للتائب ثم بعد الانزجار يجد العبد حال الانتباه. قال بعضهم: من لزم مطالعة الطوارق اتقه. وقال أبو يزيد : علامة الانتباه خمس إذا كر نفسه افتقر وإذا كر ذنبه استغفر إذا ذكر الدنيا اء ر وإذا ذكر الآخرة استبشر وإذا ذكر المولى اقشعر . وقال بعضهم : الانتباه أوائل دلالات الخير إذا اتقه العبد من رقدة غفلته أداه ذلك الانتباه إلى

لذة النظر إلى وجه المشوق في الدنيا تتفاوت بأسباب أحدها كمال جمال المشوق ونقصانه فإن اللذة في النظر إلى الأجل أكل لآعماله . والثاني كمال قوة الحب والشهوة والعشق فليس التذامن اشتد عشقه كالتذامن من ضخت شهوته ووجهه . والثالث كمال الإدراك فليس التذامن برؤية المشوق في ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بعد كالتذامن بإدراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضوء ولا إدراك اللذة الضاحجة مع ثوب حائل كأدراكها مع التجرد . والرابع اندفاع العوائق للشهوة والآلام الشاغلة للقلب فليس التذامن الصحيح الفارغ للتجرد للنظر إلى المشوق كالتذامن الخائف للذمور أو الريض التألم أو للشغول قلبه بهم من المهمات تقدر عاشقا ضعيف العشق ينظر إلى وجهه مشوقا من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته في حالة اجتماع عليه عقارب وزناير تؤذي بهر تلذغه وتشغل قلبه فهو في هذه الحالة لا يخلو عن لذة مامن مشاهدة معشوقه فلوطرأت على المفاجأة حالة انبعاث بها الستر وأشرق بها الضوء واندفع عنه المؤذبات وبقي سلبا فارغا وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى يبلغ أقصى الغايات فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يعتد بها فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به والعقارب والزناير مثال الشهوات للتساطة على الإنسان من الجوع والعطش والغضب والنم والحزن وضعف الشهوة والحب مثال قصور النفس في الدنيا ونقصاتها عن الشوق إلى اللأ الأعلى والثقاتها إلى أسفل السافلين وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياضة والثقاتها إلى اللعب بالصفور والعارف وإن قويت في الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوشات ولا يتصور أن يخلو عنها البتة نعم قد تضعف هذه العوائق في بعض الأحوال ولا تدوم فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل وتمنم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقتلا يدوم بل يمرض من الشواغل والأفكار والحواطر ما يشوشه وينقصه وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللذة منقصة إلى الموت وإنما الحياة الطيبة بعد الموت وإنما العيش عيش الآخرة - وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون - وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فإنه يجب لقاء الله تعالى فيجب الموت ولا بكرهه إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة فإن المعرفة كالبنر وبهر المعرفة لا ساحل له فالأحاطة بكنهه جلال الله محال فكما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقويت كثر التيمم في الآخرة وتو عظم كما أنه كلما كثر البذر وحسن كثير الزرع وحسن ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا في الدنيا ولا يزرع إلا في صعيد القلب ولا حصاد إلا في الآخرة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله» (١) لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر والمواظبة على المجاهدة والانتطاع عن علائق الدنيا والتجرد للطلب ويستدعى ذلك زمانا لا حافة لمن أحب الموت أحب لأنه رأى نفسه واقفا في المعرفة بالنفا إلى منهي ما يسر له ومن كره الموت كرهه لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصرا عما يحتمله قوته لو عمر فهذا سبب كراهة الموت ووجهه عند أهل المعرفة . وأما سائر الخلق فنظروهم مقصور على شهوات الدنيا إن سمعت

التيقظ فإذا تيقظ
أكرمه تيقظه الطاب
لطريق الرشدي طلب
وإذا طلب عرف
أنه على غير سبيل الحق
فيطلب الحق ويرجع
إلى باب توبته ثم يصطلي
باتباعه حال التيقظ.
قال فارس : أوفى
الأحوال التيقظ
والاعتبار . وقيل :
التيقظ تبيان خط
السلك بعد مشاهدة
سبيل الجاة . وقيل :
إذا صحت اليقظة كان
صاحبها في أوائل
طريق التوبة . وقيل :
اليقظة خردة من
جهة الولي لقلوب
الخائفين تدلم على
طلب التوبة فإذا تمت

(١) حديث أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله إبراهيم الحربي في كتاب ذكر الموت من رواية ابن لهيعة عن ابن الهادي عن المطلب عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله ووالد المطلب عبد الله بن حوطب مختلف في صحبته ولأحمد من حديث جابر إن من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الابانة والترمذي من حديث أبي بكر أن رجلا قال يارسول الله أي الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله قال هذا حديث حسن صحيح وقد تقدم.

أحبوا البقاء وإن ضاقت تمنوا الموت وكل ذلك حرمان وخسران معمدره الجهل والنفلة فالجهل والنفلة مغرس كل شقاوة والعلم والمعرفة أساس كل سعادة فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة ومعنى العشق فانه المحبة المفرطة القوية ومعنى لفظة المعرفة ومعنى لفظة الرؤية ومعنى كونها للذم سائر اللذات عند ذوى العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوى النقصان كما تكمن الرياسة لله من الطعومات عند الصبيان . فان قلت فهذه الرؤية محلها القلب أو العين في الآخرة . فاعلم أن الناس قد اختلفوا في ذلك وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن البقلة ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق في عينه أو في جبهته بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها فان العين محل وظرف لانظر إليه ولا حكم له والحق فيه أن القدرة الأزلية واسعة فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين ، هذا في حكم الجواز ، فأما الواقع في الآخرة من الجازين فلا يدرك إلا بالسمع (١) والحق ما ظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق في العين ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهره إلا يجوز إزالة الظواهر بالضرورة والله تعالى أعلم .

(بيان الأسباب القوية لحب الله تعالى)

اعلم أن أسعد الخلق حالا في الآخرة أقوام حبا لله تعالى فان الآخرة معناها التدميم على الله تعالى ودرك سعادة لقاءه وما أعظم نعيم الحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكن من دوام مشاهدته أبد الأبد من غير منغص دمكدر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع إلا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب فكما ازدادت المحبة ازدادت اللذة وإنما يكتب العبد حب الله تعالى في الدنيا وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهي إلى الاستتار الذي يسمى عشقا فذلك ينفك عنه الأكرهون وإنما يحصل ذلك بسببين : أحدهما قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب فان القلب مثل الإناء الذي لا يتسع للخل مثلا ما لم يخرج منه الماء - ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه - وكما الحب في أن يحب الله عز وجل بكل قلبه وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره فيقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله ويقدر ما يبقى من الماء في الإناء ينقص من الحبل المصوب فيه وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى - قل الله ثم ذرهم في خوضهم - وبقوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - بل هو معنى قولك لا إله إلا الله أي لا معبود ولا محبوب سواه فكل محبوب فانه معبود فان العبد هو القيد والمعبود هو القيد به وكل محب فهو مقيد بما يحبه ولذلك قال الله تعالى - أرايت من اتخذ إلهه هوا - وقال ﷺ « أبيض إله عبد في الأرض الهوى » ولذلك قال عليه السلام « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة (٢) » ومعنى الاخلاص أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومتصود قلبه فقط ومن هذا حاله فالله نيا - جنة لأنها مانعة له من مشاهدة محبوبه وموته خلاص من السجن وقدم على المحبوب فما حاله من ليس له إلا محبوب واحد وقد طال إليه مشوقه وتمادى عنه حبسه غلى من السجن ومكن من المحبوب وروح بالأمن أبداً أباداً فآداب أسباب ضعف حب الله في القلوب قوة حب الدنيا وحب الأهل والمال والولد والأقارب والمعار والدواب والبساتين والمتزهات

(١) حديث رؤية الله في الآخرة حقيقة متفق عليه من حديث أبي هريرة أن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر الحديث (٢) حديث من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة تقدم .

يقظته قل بذلك إلى
مقام التوبة فهذه
أحوال ثلاثة تقدم
التوبة ثم التوبة في
استقامتها تحتاج إلى
المحاسبة ولا تستقيم
التوبة إلا بالمحاسبة .
تقل عن أمير
المؤمنين على رضى
الله عنه أنه قال :
حاسبوا أنفسكم قبل
أن تحاسبوا وزنوها
قبل أن توزنوا
وتزينوا للعرض
الأكبر على الله يومئذ
تعرضون لا تخفى
منكم خافية - فالمحاسبة
بمخبط الأنفاس وضبط
الحواس ورعاية
الأوقات وإيثار المهمات
ويسلم العبد أن

حتى إن المتفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسيم الأسفار ملتفت إلى نعيم الدنيا ومتعرض لنقصان حب الله تعالى بسببه فبقدر ما أنس بالدنيا فينتقص أنه باق ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة كما أنه لا يقرب الإنسان من للشرق إلا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدره ولا يطيب قلب امرأته إلا ويضيق به قلب ضررتها فالدنيا والآخرة ضررتان وهما كالشرق والمغرب وقد انكشف ذلك لدى القلوب انكشافاً أوضح من الإبصار بالعين وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والاعتقاد إليهما بزمام الخوف والرجاء فما ذكرناه من المقامات كالنوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هي مقدمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة وهو تخليّة القلب عن غير الله وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار ثم يتشعب منه الخوف والرجاء ويتشعب منها التوبة والصبر عليهما ثم ينجر ذلك إلى الزهد في الدنيا وفي المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط حتى يتسع بعده لزول معرفة الله ووجهه فيه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب وهو أحد ركني المحبة وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « الطهور شطر الإيمان » (١) كما ذكرناه في أول كتاب الطهارة . السبب الثاني لقوة المحبة قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب وذلك بعد تطهير القلب من جميع شوائب الدنيا وعلاقتها بجزى مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثاني ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والعرفه وهي السكمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلاً حيث قال - ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء - وإليها الإشارة بقوله تعالى - إليه يصعد الكلم الطيب - أي العرفه - والعمل الصالح يرفعه - فالعمل الصالح كالجمال لهذه العرفه وكالخدام وإتمام العمل الصالح كله في تطهير القلب أولاً من الدنيا ثم إدامة طهارته فلا يراد العمل إلا لهذه العرفه وأما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل فالعلم هو الأول وهو الآخر وإتمام الأول علم العاملة وغرضه العمل وغرض العاملة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه حلية الحق ويتزين بعلم العرفه وهو علم المكاشفة ومهما حصلت هذه للعرفه تبعها المحبة بالضرورة كما أن من كان متعدي المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أجه ومال إليه ومهما أجه حصلت اللذة فاللذة تبع المحبة بالضرورة والمحبة تبع العرفه بالضرورة ولا يوصل إلى هذه العرفه بعد انقطاع شوائب الدنيا من القلب إلا بالفسكر الصافي والذكر الدائم والجد البالغ في الطلب والنظر المستمر في الله تعالى وفي صفاته وفي ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى الأقوياء ويكون أول معرفتهم لله تعالى ثم به يعرفون غيره وإلى الضعفاء ويكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلى الفاعل وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى - أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد - ويقول تعالى - شهدا أنه لا إله إلا هو - ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بم عرفت ربك قال عرفت ربى ربى ولولا ربى لما عرفت ربى وإلى الثاني الإشارة بقوله تعالى - سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - الآية ويقول عز وجل - أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض - ويقول تعالى - قل انظروا ما ذاق السموات والأرض - ويقول تعالى - الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين إليه البصر خاسئاً وهو حير - وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين وهو الأوسع على السالكين وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكر والاعتبار والنظر فى آيات خارجه عن الحصر . فان قلت كلا الطريقين مشكل فأوضح لنا منهما

الله تعالى أوجب عليه هذه الصلوات الخمس فى اليوم والليلة رحمة منه لعله سبحانه بعده واستيلاء الغفلة عليه كي لا يستعبده الهوى وتستره الدنيا فالصلوات الخمس سلسلة تجذب النفوس إلى مواطن العبودية لأداء حق الربوبية ويراقب العبد نفسه بحسن المحاسبة من كل صلاة إلى صلاة أخرى ويسد مدخل الشيطان بحسن المحاسبة والرعاية ولا يدخل فى الصلاة إلا بعد حل العقد عن القلب بحسن التوبة والاستغفار لأن كل كلمة وحركة على خلاف الشرع تسكت فى

(١) حديث الطهور شطر الإيمان مسلم من حديث أبى مالك الأشعري وقد تقدم .

ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المهبة . فاعلم أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالخلق سبحانه على سائر الخلق فهو فاضل والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق فلا فائدة في إيرادها في الكتب وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الأفهام وإنما قصرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر واشتغالها بهوات الدنيا وحفظ النفس وللناصح من ذكر هذا اتساعه وكثرته وانشباب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية إذ ما من ذرة من أطل السموات إلى تخوم الأرضين إلا ونهاها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكته ومنتهى جلاله وعظمته وذلك مما لا يتناهى - قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي - فالخوض فيه انغماس في بحار علوم للكاشفة ولا يمكن أن يتطفل به على علوم للعامة ولكن يمكن الرمز إلى مثال واحد على الإيجاز ليقع التنبيه لجنسه . فنقول : أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال فلتتسكلم فيها ولترك الأعلى ثم الأفعال الإلهية كثيرة فتطلب أقلها وأحقرها وأصغرها ولننظر في هجابها فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها أعنى بالإضافة إلى اللائكة وما كوت السموات فانك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هي مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها التي هي مركزها فإنه لانسبة لها إليه وهي في السماء الرابعة وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من السموات السبع ثم السموات السبع في الكرسي كحلقة في فلاة والكرسي في العرش كذلك فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث القادير وما أحقر الأرض كلها بالإضافة إليها بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار قد قال رسول الله ﷺ «الأرض في البحر كالأصطبل في الأرض»^(١) ومصدق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة وعلم أن للكشوف من الأرض عن الماء بجزيرة صغيرة بالإضافة إلى كل الأرض ثم انظر إلى الأدمي المخلوق من التراب الذي هو جزء من الأرض وإلى سائر الحيوانات وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض ودع عنك جميع ذلك فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجري مجراه فانظر في البعوض على قدر صغر قدره وتأمله بمقل حاضر وفكر صاف فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل القيل الذي هو أعظم الحيوانات إذ خلق له خرطومًا مثل خرطومه وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للقيل بزيادة جناحين وانظر كيف قسم أعضاء الظاهرة فأثبت جناحه وأخرج يده ورجله وشق صممه وبصره ودبر في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته مادبره في سائر الحيوانات وركب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والمهاضمة ما ركب في سائر الحيوانات هذا في شكله وصفاته ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه وعرفه أن غذاءه دم الانسان ثم انظر كيف أنبت له آلة الطيران إلى الانسان وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو مجرد الرأس وكيف هداه إلى مسام بشرة الانسان حتى يضع خرطومه في واحد منها ثم كيف قواه حتى يفرز فيه الخرطوم وكيف علمه المس والتجرع للدم وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوفًا حتى يجري فيه الدم الرقيق ويتنهي إلى باطنه وينتشر في سائر أجزائه ويفذيه ثم كيف عرفه أن الانسان يقصده بيده فعلمه حيلة الحرب واستعداد آتله وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بهد بيده منه فيترك المس ويهرب ثم إذا سكنت اليد يعود ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يصير موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه وانظر إلى أن حدقة كل حيوان صغير لما لم تحتمل حدقته الأجفان لصغره وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والبار خلق للبعوض والذباب يدين فتنظر إلى الذباب

(١) حديث الأرض في البحر كالأصطبل في الأرض لم أجده أصلا .

القلب نكتة سوداء
وتعقد عليه غفدة
والثفقد الحاسب بين
الباطن للصلاة بضبط
الجوارح ويعتق مقام
الحاسبة فيكون عند
ذلك لصلاته نور يشرق
على أجزاء وقته إلى
الصلوة الأخرى فلا تنزال
صلاته ممنورة تامة بنور
وقته ووقته منورا
معمورا بنور صلاته .
وكان بعض الحاسبين
يصحّص الصلوات في
قرطاس ويدع بين كل
صلتين يابضا وكما
ارتكب خطيئة من
كلمة غيبة أو أمر آخر
خط خطأ وكلماتكم
أو تحرك فيها لا يبينه
تقط نقطة ليتسبر
ذنبه وحركاته فيها

فتراه على الدوام يمسح حدقيه يديه وأما الانسان والحيوان الكبير فخلق حدقيه الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافهما حادة فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة ويرميه إلى أطراف الأهداب وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين وتعين على الإبصار وتحسن صورة العين وتبشكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء شبك الأهداب واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصفلتين من غير أجنان وعلما كيفية التصقيل باليدين ولأجل ضعف أبصارها تراها تنهافت على السراج لأن بصره ضعيف فهي تطلب ضوء النهار فاذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن أنه في بيت مظلم وأن السراج كوة من البيت المظلم إلى الوضع المضى فلا يزال يطلب الضوء ويرمى نفسه إليه فاذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق ولعلك تظن أن هذا لقصاتها وجهها فاعلم أن جهل الانسان أعظم من جهلها بل صورة الأدمى في الاكباب على الشهوات الدنيا صورة الفرائش في تنهافت على النار إذ تلوح للأدمى أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا يدري أن تحتها السم النافع القاتل فلا يزال يرمى نفسه عليها إلى أن ينفس فيها ويتقيد بها ويهلك هلاكا مؤبدا فليت كان جهل الأدمى كجهل الفرائش فأنها باعترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت في الحال والأدمى يبقى في النار أبد الأبد أو مدة مديدة ولذلك كان ينادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول «إني ممسك بمحجزكم عن النار وأتم تنهافتون فيها تنهافت الفرائش»^(١) فهذه لمة عجبية من معجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات وفيها من المعجائب ما لا يجتمع الأولون والآخرون على الاحاطة بكنهه وعجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جليلة من ظاهر صورته فأما خفايا معاني ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تحسه لا يشاركه فيها غيره فانظر إلى النحل ومعجائبها وكيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يبرشون وكيف استخراج من لعابها الشمع والعسل وجمال أحدهما ضياء وجمال الآخر شفاء ثم لو تأملت معجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار واحترازها عن التماسات والأقذار وطاعتها لواحد من جملتها هو أكبرها شخصا وهو أميرها ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والانصاف بينها حتى انه ليقول على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة لفضيت منها عجبا آخر العجب إن كنت بصيرا في نفسك وفارغا من هم بطنك وفرجك وشهوات نفسك في معاداة أقرانك وموالاة إخوانك ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الأشكال الشكل السدس فلاتنبى بيتا مستديرا ولا مربعا ولا ممتعا بل سدسا لخاصية في الشكل السدس يقصر فهم المهندسين عن دركها وهو أن أوسع الأشكال وأحوها المستديرة وما يقرب منها فإن المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لاتضيع الزوايا فبقي فارغة ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فان الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع مترامة ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثم تراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا للسدس وهذه خاصية هذا الشكل فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافة قدمه

(١) حديث إني ممسك بمحجزكم عن النار وأتم تنهافتون فيها تنهافت الفرائش متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ومثل أمي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفرائش يقعن فأنا أخذ بمحجزكم وأتم تقتحمون فيه لفظ مسلم واقصر البخاري على أوله وسلم من حديث جابر وأنا أخذ بمحجزكم وأتم تفلتون من يدي .

لا يعنيه لتضييق المحاسبة بحجاري الشيطان والفس الأمانة بالسوء لموضع صدقه في حسن الاقتاد وحرمة على تحقيق مقام المباد وهذا مقام المحاسبة والرعاية يقع من ضرورة حمة التوبة. قال الجنيدي: من حسنت رعايته دامت ولايته . وسئل الواسطي: أي الأعمال أفضل قال مراعاة السر والمحاسبة في الظاهر والمراقبة في الباطن ويكمل أحدهما بالآخر وبهما تستقيم التوبة والمراقبة والرعاية حالان شريفان وصيران مقامين شرفيين يصحان بصحة مقام التوبة وتستقيم التوبة

لطفًا به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتنهأ بعيشه فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه فاعتبر بهذه اللمة اليسيرة من محمّرات الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات فإنّ القدر القوي بلغه فهنا القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه ولانسبة لما أحاط به علنا إلى ما أحاط به الطماء والأنبياء ولانسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله تعالى بطلعه بل كل ما عرفه الخالق لا يستحق أن يسمى علما في جنب علم الله تعالى فبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين وبزيادة المعرفة تزداد المحبة فإن كنت طالبا لسعادة لقاء الله تعالى فابذل الدنيا وراء ظهرك واستغرق العمر في الذكر الدائم والفكر اللازم ففساك تحظى منها بقدر يسير ولكن تال بذلك اليسير ملكا عظيما لا آخر له .

(بيان السبب في تفاوت الناس في الحب)

اعلم أنّ المؤمنين مشتركون في أصل الحب لا اشتراكهم في أصل المحبة ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرعت سمعهم فتلقوها وحفظوها وربما تخيلوا لها معاني يتعالى عنها رب الأرباب وربما يظلموا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسدا بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين والتخيّلون هم الضالون والعارفون بالحقائق هم المقربون وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة في قوله تعالى - فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم - الآية فإن كنت لاتفهم الأمور إلا بالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثلا فنقول أصحاب الشافعي مثلا يشتركون في حب الشافعي رحمه الله الفقهاء منهم والعوام لأنهم مشتركون في معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله ولكن العامي يعرف علمه مجملا وانفقيه يعرفه مفصلا فتكون معرفة الفقيه به أتم وإعجاب به وجه له أشد فأن رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لامحالة ومال إليه قلبه فإن رأى تصنيفا آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لامحالة حبه لأنه نضاعفت معرفته بعلمه وكذلك يعتقد الرجل في الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه فاذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعه ازداد به معرفة وازداد له حبا وكذا سائر الصناعات والفضائل والعامي قد يسمع أن فلانا مصنف وأنه حسن التصنيف ولكن لا يدري ما في التصنيف فيكون له معرفة مجملة ويكون له بحسبه ميل مجمل والبصير إذا فتش عن التصانيف واطلع على ما فيها من العجائب تضاعف حبه لامحالة لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف والعالم يجملته صنع الله تعالى وتصنيفه والعامي يعلم ذلك ويعتقده وأما البصير فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه حتى يرى في البعوض مثلا من عجائب صنعه ما ينبهه به عقله ويتحير فيه له ويزداد بسببه لامحالة عظمة الله وجلاله وكال صفاته في قلبه فيزداد له حبا وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا استدل بذلك على عظمة الله الضائع وجلاله وازداد به معرفة قوله حبا وبحر هذه المعرفة أعنى معرفة عجائب صنع الله تعالى بحر لا ساحل له فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحب لاحصر له ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب المحسوسة التي ذكرناها للحب فإن من يحب الله مثلا لكونه محسنا إليه منعا عليه ولم يحبه لذاته ضغفت محبته إذ تنصير بتغير الاحسان فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والنعماء وأما من يحبه لذاته ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبة والتفاوت في المحبة هو السبب لتفاوت في سعادة الآخرة ولذلك قال تعالى - وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا -

على الكمال بهما
فصارت المحاسبة
والرعاية والرعاية من
ضرورة مقام التوبة .
أخبرنا أبو زرعة بإجازة
عن ابن خلف أبي بكر
الشيرازي قال سمعت
أبا عبد الرحمن السلمي
يقول سمعت الحسن
الفارسي يقول سمعت
الجريري يقول أمرنا
هذا مبنى على فضيل
وهو أن تعلم شك
للرعاية لله تعالى ويكون
العلم على ظاهره قائما .
وقال المرتضى: للرعاية
مراعاة السر للملاحظة
الحق في كل لحظة
ولقطة قال الله تعالى
- أفمن هو قائم على
كل نفس بما كسبت -
وهذا هو علم القيام

(بيان السبب في تصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه)

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلها هو الله تعالى وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أول المعارف وأسبغها إلى الأفهام وأسماها على العقول وترى الأمر بالضد من ذلك فلا بد من بيان السبب فيه وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات وأجلها لمعنى لاتفهمه إلا بمثال وهو أنا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخط مثلا كان كونه حيا عندنا من أظهر الموجودات حياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلي عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة إذ صفاته الباطنة كشموته وغضبه وخلقه ومهته ومرضه وكل ذلك لانرفه وصفاته الظاهرة لانرفه بعضها وبمضها أشك فيه كقدر طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته أمحياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيوانا فإنه جلي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته فإن هذه الصفات لا تحس بشيء من الحواس الخمس ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته فلو نظرنا إلى كل مافي العالم سواء لم نعرف به صفة له عليه إلا دليل واحد وهو مع ذلك جلي واضح ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده ونذكره بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماه وأرض وكوكب وبر وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد وجميع مافي العالم شواهدنا طاعة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته والموجودات للمدركة لا حصر لها فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد لها إلا شاهد واحد وهو ما أحسنا به من حركة يده فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله إذ كل ذرة فأنها تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها يشهد بذلك أول تركيب أعضائنا واتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة فإنا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ولكن لما لم يبق في الوجود شيء مدرك ومحسوس ومقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فأنه تهرت العقول ودهشت عن إدراكه فإن ما تقصر عن فهمه عقولنا فله سببان: أحدهما خفاؤه في نفسه وغموضه وذلك لا يخفى مثاله . والآخر ما يتناهى وضوحه وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار لاختفاء النهار واستتاره لكن لشدة ظهوره فإن بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرق فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع إبصاره فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة وفي غاية الاستمراق والشمول حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض فصار ظهوره بسبب خفائه فسبحان من احتجب بإشراق نوره واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور فإن الأشياء تسبقان بأضدادها وماعم وجوده حتى إنه لا ضد له عسر إدراكه فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض فإنا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ويزل عند غيبوبة الشمس فلو كانت الشمس دائما المشرق لا غروب لها لكاننا نظن أنه لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرها

وبذلك يتم علم الحال ومعرفة الزيادة والقصان وهو أن يعلم ميار حاله فيما بينه وبين الله وكل هذا ملازم لصحة التوبة وصحة التوبة ملازم لها لأن الحاضر مقدمات العزائم والعزائم مقدمات الأعمال لأن الحواطر تحقق إرادة القلب والقلب أمير الجوارح ولا تتحرك إلا بتحرك القلب بالارادة والمراقبة حسم مواد الحواطر الرديئة فصار من تمام المراقبة تمام التوبة لأن من حصر الحواطر كفى مؤنة الجوارح لأن بالمراقبة اصطلام عروق إرادة للكاره من

فإننا لا نشاهد في الأسود إلا السواد وفي الأبيض إلا البياض فأما الضوء فلا ندركه وحده ولكن لما غابت الشمس وأظلمت الواضع أدركنا تفرقة بين الحالين فقلنا أن الأجسام كانت قد امتزجت بضوء وانصفت بصفة فأرقتها عند الغروب ففرقنا وجود النور بدمه وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بصر شديد وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور هذا مع أن النور أظهر المحسوسات إذ به تدرك سائر المحسوسات فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره انظر كيف تصور استنباط أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده فأنه تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلها ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والأرض وبطل الملك والملكوت ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين ولو كان بعض الأشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لأدركت التفرقة بين الشيتين في الدلالة ولكن دلالاته عامة في الأشياء على نسق واحد ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه فلا جرم أوردت شدة الظهور خفاء فهذا هو السبب في تصور الأفهام وأما من قويت بصيرته ولم تضاف منته فانه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله وأفضاله أثر من آثار قدرته فهي تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة ودونه وإنما الوجود للواحد الحق الذي بوجوده الأعمال كلها ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأعمال إلا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث إنه مماء وأرض وحيوان وشجر بل ينظر فيه من حيث إنه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزا له إلى غيره كمن نظر في شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيها الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه حبر وعفص وزاج . رقوم على بياض فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف وكل العالم تصنيف الله تعالى فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث أنه فعل الله وأحبه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظرا إلا في الله ولا عارفا إلا بالله ولا محبا إلا لله وكان هو الموحد الحق الذي لا يرى إلا الله بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبد الله فهذا الذي يقال فيه إنه فنى في التوحيد وأنه فنى عن نفسه وإليه الإشارة بقول من قال كنا بنا فقينا عنا فقينا بل نحن فهذه أمور معلومة عند ذوى البصائر أشكلت لضعف الأفهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهومة موصلة للغرض إلى الأفهام أو اشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لتعريفهم مما لا ينهيم فهذا هو السبب في تصور الأفهام عن معرفة الله تعالى وانضم إليه أن المدركات كلها التي هي شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان في الصبا عند فقد العقل ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق في الهمة بشهوته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وأهملها فمقط وقعها عن قلبه بطول الأنس ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقا للعادة عجيبا انطاق لسانه بالمعرفة طبعا فنال سبحانه الله وهو يرى طول النهار نفسه وأعضائه وسائر الحيوانات السالوفة وكلها شواهد قاطمة لا يحس بشهادتها لطول الأس بها ولو فرض أنك بلغ عاقلا ثم انقضت غشاوة عينه فامتد بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة لحبف على عقله أن ينهر لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب لخالقها فهذا أمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذى سد على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة في بحارها الواسعة فالناس في طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذى يضرب به الثلل إذا كان راكبا للحمار وهو يطلب حماره والجلبيات إذا صارت . طلوبة صارت معناسة فهذا سر هذا الأمر فليحقق ولذلك قيل:

قد ظهرت فما تخفى على أحد إلا على أكمه لا يعسرف العمرا
لكن بطن بما أظهرت محتجبا فكيف يعرف من بالعرف قد ستر

القلب وبالمهاسة
استدراك ما انقلت
من المراقبة . أخبرنا
أبو زرعة عن ابن
خلف عن السلمي قال
سمعت أبا عثمان القرظي
يقول أفضل ما يلزم
الإنسان في هذا
الطريق المهاسبة
والمراقبة وسياسة
العمل بالعلم وإذا صحت
التوبة صحت الإنابة
قال إبراهيم بن آدم
إذا صدق العبد في
توبته صار منييا لأن
الإنابة ثانيا درجة
التوبة وقال أبو سعيد
القرظي المنيب الراجح
عن كل شيء يشغله
عن الله إلى الله وقال
بعضهم الإنابة الرجوع
منه إليه لا من شيء

(بيان معنى الشوق إلى الله تعالى)

اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب ونحن ثبت وجود الشوق إلى الله تعالى وكون العارف مضطراً إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الأخبار والآثار أما الاعتبار فيمكن في إثباته ما سبق في إثبات الحب فكل محبوب يشاق إليه في غيبته لا محالة فأما الحاصل الحاضر فلا يشاق إليه فإن الشوق طلب وتشوق إلى أمر والوجود لا يطلب ولكن ياتيه أن الشوق لا يتصور إلا إلى شيء أدرك من وجهه ولم يدرك من وجهه فأما ما لا يدرك أصلاً فلا يشاق إليه فإن من لم ير شخصاً ولم يسمع وصفه لا يتصور أن يشاق إليه وما أدرك بكما لا يشاق إليه وكما الإدراك بالرؤية فمن كان في مشاهدة محبوبه مداوماً للنظر إليه لا يتصور أن يكون له شوق ولكن الشوق إنما يتعاقب بما أدرك من وجهه ولم يدرك من وجهه ومن وجهين لا ينكشف إلا بمثل من الشهادات . فنقول مثلاً من غاب عن معشوقه وبقي في قلبه خياله فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية فلو أمضى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفة حتى نسيه لم يتصور أن يشاق إليه ولو رآه لم يتصور أن يشاق في وقت الرؤية فمضى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله فكذلك قد رآه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكمال رؤيته ونعم الانكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه . والثاني : أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلاً ولا سائر محاسنه فيشتاق لرؤيته وإن لم يرها قط ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم أن له أعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط والوحيان جميعاً متصوران في حق الله تعالى بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين فإن ما توضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن كان في غاية الوضوح فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحاً غاية الاتضاح بل يكون مشوباً بشوائب التخيلات فإن الخيالات لا تنفتر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات وهي مكدرات للمعارف ومنقصات وكذلك يضاف إليها شواغل الدنيا فاعلم كمال الوضوح بالمشاهدة وتمائم إشراق التجلي ولا يكون ذلك إلا في الآخرة وذلك بالضرورة يوجب الشوق فإنه منتهى محبوب العارفين فهذا أحد نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتضح ما الثاني أن الأمور الإلهية لا نهاية لها وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لا نهاية لها غائصة والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر فلا يزال متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلاً لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة والشوق الأول ينتهي في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة ولا يتصور أن يسكن في الدنيا وقد كان إبراهيم بن آدم من المشتاقين فقال قلت ذات يوم يارب ان أعطيت أحداً من المهين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطني ذلك فقد أضر بي القلق قال فرأيت في النوم أنه أوقفني بين يديه وقال يا إبراهيم أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه فقلت يارب تهت في حبك فلم أدرك ما أقول فأغترى وعلمني ما أقول فقال قل اللهم رضني بقضائك وصبرني على بلائك وأوزعني شكر نعمائك فإن هذا الشوق يسكن في الآخرة وأما الشوق الثاني فيشبه أن لا يكون له نهاية لافي الدنيا ولا في الآخرة إذ نهايته أن ينكشف للمعنى في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال لأن ذلك لا نهاية له ولا يزال العبد طالماً بأنه بقي من الجمال والجلال ما لم يتضح له فلا يسكن قط شوقه لاسيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة لأنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال فهو يجد لذلك شوقاً لدينا لا يظهر فيه ألم ولا يبعد أن تكون

غيره فمن رجع من غيره إليه ضيق أحد طرفي الانابة والنيب على الحقيقة من لم يكن له مرجع سواه فيرجع إليه من رجوعه ثم يرجع من رجوعه رجوعه فيبقى شجواً لا وصف له قائماً بين يدي الحق مستغرقاً في عين الجمع ومخالفة النفس ورؤية عيوب الأفعال والمجاهدة بتحقيق الرعاية والرقابة . قال أبو سليمان ما استحييت من نفسي عملاً فأحتسبه وقال أبو عبد الله السجزي من استحسن شيئاً من أحواله في حال إرادته فسدت عليه إرادته إلا أن يرجع

الطاف الكشف والظفر متوالية إلى غير نهاية فلا يزال النعيم واللذة متزايدا أبدا لا يباد وتكون لذة ما يتجدد من اطائف النعيم شاغلة عن الاحساس بالشوق إلى ما لم يحصل وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا أصلا فان كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفا على حد لا يتضاعف ولكن يكون مستمرا على الدوام وقوله سبحانه وتعالى - نورهم يمشى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا آتّم لنا نورا - محتمل لهذا المعنى وهو أن ينعم عليه بأعمام النور مهما تزود من الدنيا أصل النور ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور في غير ما استنار في الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد الاستكمال والاشراق فيكون هو المراد بشمائه وقوله تعالى - انظرونا نقبوس من نوركم قيل ارجعوا وارجعوا كما قالتموا نورا - يدل على أن الأنوار لا يبد وأن يتزود أصلها في الدنيا ثم يزداد في الآخرة إشراقا فاما أن يتجدد نور قلا والحكم في هذا برجم الظنون محظر ولم ينكشف لنا فيه بعدما يوثق به فسنأل الله تعالى أن يزيدنا علما ورشدا ويرينا الحق حقا فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه. وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تحصى فلما اشتهر من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقاءك (١) » وقال أبو الدرداء لكعب أخبرني عن أخى آية يعني في التوراة فقال يقول الله تعالى: طال شوق الأبرار إلى لقاءي وإني إلى لقاءهم لأشد شوقا قال ومكتوب إلى جانبها من طلبني وجدني ومن طلب غيري لم يجدني ، فقال أبو الدرداء أشهد آتى سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا وفي أخبار داود عليه السلام إن الله تعالى قال يادود أبلغ أهل أرضي أنى حبيب لمن أحبني وجلس لمن جالسني ومؤمن لمن أنس بذكري وصاحب لمن صاحبي ومختار لمن اختارني ومطيع لمن أطاعني ما أحبني عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه لإقبالته لفسى وأحبيته حبا لا يتقدمه أحد من خلقي من طلبني بالحق وجدني ومن طلب غيري لم يجدني ، فارتضوا يا أهل الأرض ما أتم عليكم من غرورها واهلها إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي وانفسوا بى أو انفسكم وأسارع إلى محبتكم فاني خالقت طينة أحبائي من طينة إبراهيم خليلي وموسى نبيي ومحمد صفيي وخالقت قلوب الشائقين من نوري ونعمتها بجلالى . وروى عن بعض السلف أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن لى عبادا من عبادى يحبونى وأحبهم ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ويذكرونى وأذكروهم وينظرون إلى وأناظر إليهم فان حدثت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم مقتك قال يارب وما علامتهم قال يراعون الظلال بالهار كما يراعى الراعى الشقيق غنمه ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب فاذا جنم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصب والى أقدامهم واقترشوا إلى وجوههم وناجوني بكلامى وتعلقوا إلى باضامى فيبين صارخ وباك وبين متأوه وشاك وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد بينى ما يتحملون من أجلى وبسمى ما يشتكون من حبي أوله ما أعطيهم ثلاث : أنفذ من نوري في قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم . والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيها فى موازينهم لاستقلتها لهم . والثالثة أقبل بوجهى عليهم قمرى من أقبلت بوجهى عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه . وفى أخبار داود عليه السلام ان الله تعالى أوحى إليه يادود الى كم تذكر الجنة ولا تسألنى الشوق الى قال يارب من الشائقون اليك قال ان للشائقين الى الذين صفتهم من كل كدر ونهتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم الى آخره فانظرون الى واني لأحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سمائى ثم أدعو نجباء ملائكتى فاذا اجتمعوا

(١) حديث أنه كان يقول فى دعائه اللهم انى أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت الحديث أحمد والحاكم وتقدم فى الدعوات .

الى ابتداءه فيروض
نفسه ثانيا ومن لم يزن
نفسه بميزان الصدق
فبإله وعليه لا يبلغ
مبلغ الرجال ورؤية
عيوب الأفعال من
ضرورة صحة الانابة
وهو فى تحقيق مقام
التوبة ولا تستقيم
التوبة الا بصدق
المجاهدة ولا يصدق
العبد فى المجاهدة الا
بوجود الصبر وروى
فضالة بن عبيد قال
سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول
المجاهد من جاهد نفسه
ولا يتم ذلك الا بالصبر
وأفضل الصبر الصبر
على الله بمكوف اللهم
عليه وصدق المراقبة
له بالقلب وجسم مواد

سجدوا لي فأقول إني لم أدعكم لتسجدوا لي ولكن دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلى وأباهي بكم أهل الشوق إلى فان قلوبهم لتضي في سماءي ملائكتي كما تضي الشمس لأهل الأرض. يادادو إني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني ونعمتها بنور وجهي فأنخذتهم لنفسي محبتي ، وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به إلى يزدادون في كل يوم شوقا . قال داود يارب أرني أهل محبتك ، فقال يادادو ائت جبل لبنان فان فيه أربعة عشر نفسا فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول فاذا أتيتهم فأقرتهم مني السلام وقل لهم إن ربكم يقرئكم السلام ويقول لكم الأتسألون حاجة فانكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم فاتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة الله عز وجل ، فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه ، فقال داود إني رسول الله إليكم جسكم لأبلغكم رسالة ربكم فأقبلوا نحوه وألقوا أسماءهم نحو قوله وألقوا أبصارهم إلى الأرض ، فقال داود إني رسول الله إليكم يقرئكم السلام ويقول لكم الأتسألون حاجة ألا تنادوني أسمع صوتكم وكلامكم فانكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم وأنظر إليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرقيقة . قال فجرت الدموع على خدودهم ، فقال شيخهم سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا . وقال الآخر . سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك . وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك أفتجرتي على الداء وقد علمت أنه لا حاجة لنا في شيء من أمورنا فأدم لنا لزوم الطريق إليك وأنهم بذلك المنة علينا . وقال الآخر : نحن مقصرون في طلب رضاك فأعنا علينا بجودك . وقال الآخر : من نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكر في عظمتك أفتجرتي على الكلام من هو مشغل بعظمتك متفكر في جلالك وطلبنا الدنو من نورك . وقال الآخر : كلت ألسنتنا عن دعائك لعظم شأنك وقربك من أوليائك وكثرة متك على أهل محبتك . وقال الآخر : أنت هديت قلوبنا لذكرك وفرغتنا للاشتغال بك فاغفر لنا تقصيرنا في شكرك . وقال الآخر : قد عرفت حاجتنا إنما هي النظر إلى وجهك . وقال الآخر : كيف يجتري البعد على سيده إذ أمرتنا بالدعاء بجودك فهب لنا نورا نهدي به في الظلمات من أطباق السموات . وقال آخر : ندعوك أن تقبل علينا وتدعيه عندنا . وقال الآخر : نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا . وقال الآخر : لا حاجة لنا في شيء من خلقك فامن علينا بالنظر إلى جمال وجهك . وقال الآخر : أسألك من بينهم أن تعمي عيني عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بالآخرة . وقال الآخر : قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أوليائك فامن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء دونك . فأحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قل لهم قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سربا فاني كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى توري وجلالي . فقال داود يارب يم نالوا هذا منك قال بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها والحلوات بي ومناجاتهم لي وإن هذا منزل لايناله إلا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشتغل بشيء من ذكرها وفرغ قلبه لي واختارني على جميع خلقي فعند ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه حتى ينظر إلى نظر الناظر بعينه إلى الشيء وأربه كرامتي في كل ساعة وأقره من نور وجهي ، إن

الحواطر والصبر
ينقسم إلى فرض
وفضل فالفضل كالصبر
على أداء المفترضات،
والصبر عن المحرمات
ومن الصبر الذي هو
فضل الصبر على الفقر
والصبر عند الصدمة
الأولى وهكئان
المصائب والأوجاع
وترك الشكوى
والصبر على إخفاء
الفقر، والصبر على كتم
النصح والكرامات
ورؤية العبر والآيات
ووجوه الصبر فرضا
وفضلا كثيرة وكثير
من الناس من يقوم
بهذه الأقسام من
الصبر ويضيق عن
الصبر على الله بلزوم
حمة المراقبة والرعاية

مرض مرضته كما تعرض الوالدة الشفيقة ولدها ، وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكرى ، فإذا فعلت ذلك به يادود سميت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحببها إليه لا يفتخر عن الاشتغال بي . يستعجلى التذوق وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظري من بين خلقى لا يرى غيرى ولا أرى غيره فلو رأيت يادود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه وتمشمت أعضاؤه وانمخغ قلبه إذا سمع بذكرى أباهى به ملاسكتى وأهل سمواتى يزداد خوفاً وعبادة ، وعزى وجلالى يادود لأقدمته فى الفردوس ولأشفيين صدره من النظر إلى حق يرضى وفوق الرضا . وفى أخبار داود أيضاً : قل لىبادى للتوجهين إلى محبتي ماضركم إذا احتجبت عن خلقى ورفقت الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلى بيون قلوبكم وما ضرركم ما زويت عنكم من الدنيا إذا بسطت دينى لكم وما ضرركم مسخطة الخلق إذا التمس رضائى . وفى أخبار داود أيضاً : إن الله تعالى أوحى إليه تزعم أنك محبى ، فان كنت محبى فأخرج حب الدنيا من قلبك فان حبى وحبها لا يجتمعان فى قلب . يادود خالص حبيبي مخالصة وخالط أهل الدنيا مخالطة ودينك قلدنيه ولا تقلد دينك الرجال ، أما ما استبان لك مما وافق محبتي فتمسك به ، وأما ما أشكل عليك قلدنيه فما على آتى أسارع إلى سياستك وتفويحك ولا كن قائداً ودليلك أعطيك من غير أن تسألنى وأعينك على الشدائد وإن قد حلفت على نفسى آتى لا أتيب إلا عبداً قد عرفت من طلبته وإرادته إلقاء كنفه بين يدى وأنه لا غنى به عنى ، فإذا كنت كذلك نزع القلة والوحشة عنك وأسكن الغنى قلبك فانى قد حلفت على نفسى أنه لا يطمئن عبد لى إلى نفسه ينظر إلى ضالها إلا وكلته إليها أضف الأشياء التى لا تضاد عملك فتكون متعباً ولا يتفجع بك من يصحبك ولا تجد لمعرفى حدا فليس لها غاية ، ومتى طلبت منى الزيادة أعطتك ولا تجد للزيادة منى حدا ، ثم أعلم بنى إسرائيل أنه ليس بينى وبين أحد من خلقى نسب فلتعظم رغبتهم وإرادتهم عندى أبح لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ضمنى بين عينيك وانظر إلى يصر قلبك ولا تنظر بعينك التى فى رأسك إلى الدين حجت عقولهم عنى فأمرجوها وسخت باقطع ثوابى عنها فانى حلفت بزتى وجلالى لا أتحس ثوابى لىبد دخل فى طاعتى للتجربة والتسوية تواضع لمن تعلمه ولا تطاول على الريدن ، فلو علم أهل محبتي منزلة الريدن عندى لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها . يادود لأن تخرج مريداً من سكرة هو فيها تستقنه فأكتبك عندى جهيدا ، ومن كتبتك عندى جهيدا لا يكون عليه وحشة ولا فاقة إلى المخلوقين . يادود : تمسك بكلامى وخذ من تمسك لنفسك لا تؤثبن منها فأحجب عنك محبتي لا تؤيس عبادى من رحمتى أقطع شهوتك لى فانما أبعث الشهوات لضعة خلقى ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فانها تنقص حلاوة مناجاتى ، وإنما عقوبة الأقوياء عندى فى موضع التناول أدنى ما يصل اليهم أن أحجب عقولهم عنى فانى لم أرض الدنيا لحبيبي وزهته عنها . يادود : لا تجعل بينى وبينك طالما يحجبك بسكره عن محبتي . أولئك قطاع الطريق على عبادى الريدن استمن على ترك الشهوات بإدمان الصوم ، وإياك والتجربة فى الإفطار فان محبتي للصوم إدمانه . يادود تحبب إلى بمعادة تمسك امنعها الشهوات أنظر اليك وترى الحبيب بينى وبينك مرفوعة إنما أداريك مداراة لتقوى على ثوابى إذا مننت عليك به وانى أحببه عنك وأنت متمسك بطاعتى . وأوحى الله تعالى إلى داود يادود لويلم الدرود عنى كيف انتظارى لهم ورفى بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم لما اتوا شوقاً إلى وتقطعت أوصالهم من محبتي

ونفى الخواطر ، فاذن حقيقة الصبر كائنة فى التوبة ككيفية الرقبة فى التوبة والصبر من أعز مقامات اللوقين وهو داخل فى حقيقة التوبة . قال بعض العلماء : أى شىء أفضل من الصبر وقد ذكره الله تعالى فى كلامه فى نيف وتسمين موضعا وما ذكر شيئا بهذا العدد وصحة التوبة تحتوى على مقام الصبر مع شرفه . ومن الصبر الصبر على النعمة ، وهو أن لا يصر فيها فى معصية الله تعالى وهذا أيضا داخل فى صحة التوبة

يادود هذه إرادتي في اللذين عنى فسكيف إرادتي في المقبلين على يادود أحوج ما يكون العبد إلى إذا استغنى عنى وأرحم ما يكون بعدي إذا أدبر عنى وأجل ما يكون عندي إذا رجع إلى ، فهذه الأخبار ونظائرها مما لا يحصى تدل على إثبات المحبة والشوق والأنس ، وإيضا تحقيق معناها ينكشف بما سبق .

(بيان محبة الله للعبد ومعناها)

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده فلا بد من معرفة معنى ذلك. ولتقدم الشواهد على محبته ، فقد قال الله تعالى - محبم ومحبونه - وقال تعالى - إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا - وقال تعالى - إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين - ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله تعالى - قل فلم يعذبكم بذنوبكم - وقد روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أحب الله تعالى عبدا لم يضوه ذنب والثائب من الذنوب كمن لا ذنب له ثم تلا - إن الله يحب التوابين - (١) » ومعناه أنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت كما لا يضر الكفر الماضي بعد الإسلام وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنوب فقال - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب (٢) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله (٣) » وقال عليه السلام « قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببتني كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به (٤) » الحديث . وقال زيد بن أسلم : إن الله يحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول : اععمل ما شئت فقد غفرت لك ، وما ورد من أنظار المحبة خارج عن الحصر ، وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز ، إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق والعشق عبارة عن الليل الغالب المفرط ، وقد بينا أن الإحسان موافق للنفس والجمال موافق أيضا ، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر وتارة يدرك بالبصيرة والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر ، فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلا بل الأسمى كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلا حتى إن اسم الوجود الذي هو أعم الأسماء اشتراكا لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد بل كل ما سوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى فالوجود التابع لا يكون مساويا للوجود التبوع ، وإيضا الاستواء في إطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر في اسم الجسم ، إذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فهما من غير استحقاق أحدهما لأن يكون فيه أصلا فليست الجسمية لأحدهما مستنادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله ولا لخلق ، وهذا التابع في سائر الأسمى

(١) حديث أس إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب والثائب من الذنوب كمن لا ذنب له ذكره صاحب الفردوس ولم يخرج له ولده في مسنده وروى ابن ماجه الشطر الثاني من حديث ابن مسعود تقدم في التوبة (٢) حديث إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب الحديث الحاكم وصحح استناده والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود (٣) حديث من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله ابن ماجه من حديث أبي سعيد باسناد حسن دون قوله ومن أكثر إلى آخره ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه الزيادة وفيه ابن لهيعة (٤) حديث قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه الحديث البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

وكان سهل بن عبد الله يقول الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ، وروى عن بعض الصحابة بلينا بالضراء فصرنا وبلينا بالسراء فلم نصبر ومن الصبر رعاية الاقتصاد في الرضا والغضب والصبر عن محبة الناس والصبر على المحول والتواضع والدل داخل في الزهد وإن لم يكن داخلا في التوبة وكل ما فات من مقام التوبة من المقامات السنية والأحوال وجد في الزهد وهو ثالث الأربعة التي ذكرنا وحقيقة الصبر تظهر من طمأنينة النفس وطمأنينتها من تزكيتها وتزكيتها بالتوبة

أظهر كالعالم والارادة والقدرة وغيرها فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق والخلق وواضح اللفظ وإنما وضع هذه الأسماء أولا للخالق فان الخلق أسبق إلى العقول والأفهام من الخالق فكان استعمالها في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل والمهبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملامم وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة فاتها ما يوافقها فتستفيد بنيله كالأقلام فتلتذ بنيله وهذا محال على الله تعالى فان كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن في حق الإلهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبدا وأزلا ولا يتصور تجدده ولا زواله فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط وليس في الوجود إلا ذاته وأفعاله ، ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الليثي رحمه الله تعالى لما قرئ عليه قوله تعالى - يحبهم ويحبونه - فقال بحق يحبهم فانه ليس يجب إلا نفسه على معنى أنه الكل وأن ليس في الوجود غيره فمن لا يجب إلا نفسه وأفعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته فهو إذن لا يجب إلا نفسه ، وما ورد من الألفاظ في حبه لصاحبه فهو مؤول ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به في الأزل فحبه لمن أحبه أزلي مهما أضيف إلى الإرادة الأزلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب وإذا أضيف إلى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقضي له كما قال تعالى «لا يزال عبيد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه» فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربه فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به فهو معنى حبه ، ولا يفهم هذا إلا بمثال وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه وبأذن له في كل وقت في حضور بساطه لميل الملك إليه إما لينصره بقوته أو ليسترخ بمشاهدته أو ليستشيره في رأيه أو ليهي أسباب طعامه وشرابه فيقال إن الملك يحبه ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق للملامم له وقد يقرب عبدا ولا يمنعه من الدخول عليه لالانتفاع به ولا للاستعجاب به ولكن لسكون العبد في نفسه موصوفا من الأخلاق الرضية والحصول الحميدة بما يليق به أن يكون قريبا من حضرة الملك وافرالحظ من قربه مع أن الملك لا عرض له فيه أصلا فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال قد أحبه وإذا اكتسب من الحصول الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال قد توصل وحبه نفسه إلى الملك فحبه الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثاني بالمعنى الأول وإنما يصح تشبيهه بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب فان الحبيب هو القريب من الله تعالى والقرب من الله في البعد من صفات الهائم والسباع والشياطين والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية فهو قرب بالصفة لا بالمكان ومن لم يكن قريبا لفحص قريبا فقد تغير فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعا اذ صار قريبا بعد أن لم يكن وهو محال في حق الله تعالى اذ التغير عليه محال بل لا يزال في نموت الكمال والجلال على ما كان عليه في أزل الأزال ولا يتكشف هذا إلا بمثال في القرب بين الأشخاص فان الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعا وقد يكون أحدهما ثابتا فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير في أحدهما من غير تغير في الآخر بل القرب في الصفات أيضا كذلك فان التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه في كمال العلم وجماله والأستاذ واقف في كمال علمه غير متحرك بالزول الى درجة تلميذه والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل الى ارتفاع العلم فلا يزال دائما في التغير والترق الى أن يقرب من أستاذه والأستاذ ثابت غير متغير فكذلك ينبغي أن يفهم ترق العبد في درجات القرب فكلما صار أكمل صفة وأتم علما وإحاطة بمقائق الأمور وأثبت قوة في قهر الشيطان وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن

فالنفس اذا تزكت
بالتوبة النصوح زالت
عنها الشراسة الطبيعية
وقلة الصبر من وجود
الشراسة للنفس وإياتها
واستصائها والتوبة
النصوح تلين النفس
وتخرجها من طبيعتها
وشراستها الى اللين
لأن النفس بالحماسة
والرابة تصفو وتطفيء
نيرانها التساجعة
بتابعة الهوى وتبلغ
بطمأنينتها محل لرضا
ومقامه وتطمئن فيه
بحارى الأقدار قال
أبو عبد الله النجاشي
«الله عباد يستحيون
من الصبر ويتلقفون
مواضع أقداره بالرضا
تلقفا، وكان عمر بن
عبد العزيز يقول

الذائل صار أقرب من درجة الكمال ومنتهى الكمال لله وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله ، نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الأستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حق الله محال فإنه لا نهاية الكمال وسلك العبد في درجات الكمال متنهوا ولا ينتهي إلا إلى حد محدود لا مطمع له في المساواة ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتاً لا نهاية له أيضاً لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال فاذن محبة الله لله بدتقريره من نفسه بدفع الشواغل والمصاحي عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه . وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذي هو مفلس عنه فاقد له فلا جرم يشاقق إلى ما فاتته وإذا أدرك منه شيئاً يلتذبه والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى . فان قلت محبة الله للعبد أمر ملتبس فمعرفة العبد أنه حبيب الله ؟ فأقول يستدل عليه بعلاماته وقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه ؟ قال لم يترك له أهلاً ولا مالاً ^(١) » فعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره . قيل لعيسى عليه السلام لم لا تشتري حماراً فتركبه فقال أنا أعزّ على الله تعالى من أن يشغاني عن نفسه بحمار ، وفي الخبر « إذا أحب الله عبداً ابتلاه فان صبراً اجتبه فان رضى اصطفاه ^(٢) » وقال بعض العلماء إذا رأيتك تحبه ورأيتك يبتليك فاعلم أنه يريد يصافيك ، وقال بعض المريدين لأستاذهم قد طولت بشئ من المحبة فقال يا بني هل ابتلاك بمحسوب سواء فأثرت عليه إياه قال لا قال فلا تطمع في المحبة فإنه لا يعطيكها عبداً حق يبلوه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله عبداً جعل له وأعظم من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه ^(٣) » وقد قال « إذا أراد الله بعبده خيراً ابصره بيبوب نفسه ^(٤) » فأخص علاماته حبه لله فان ذلك يدل على حب الله . وأما الفعل الدال على كونه محبوباً فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سره وجهه فيكون هو الشير عليه والدبر لأمره والمزين لأخلاقه والمستعمل لجوارحه والسدد لظاهره وباطنه والجاعل همومه لها واحداً والبغض للدنيا في قلبه والموحيش له من غيره والمؤنس له بلذة الناجاة في خلواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد ، فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله فانها أيضاً علامات حب الله للعبد .

(القول في علامات محبة العبد لله تعالى)

اعلم أن المحبة يدعيها كل واحد وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى فلا ينبغي أن يفتقر الإنسان بتأيسر الشيطان وخذع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى مالم يتمتعها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ونمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح وتدل تلك الآثار الفاتضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار وهي كثيرة فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والشاهدة في دار السلام فلا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب مشاهدته ولقائه وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت فينبغي أن يكون محباً للموت غير فارّ منه فان المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه

- (١) حديث إذا أحب الله عبداً ابتلاه الحديث الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني وقد تقدم .
- (٢) حديث إذا أحب الله عبداً ابتلاه فان صبراً اجتبه الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرج له ولله في مسنده (٣) حديث إذا أحب الله عبداً جعل له وأعظم من نفسه الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ إذا أراد الله بعبده خيراً (٤) حديث إذا أراد الله بعبده خيراً ابصره بيبوب نفسه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بزيادة فيه بإسناد ضعيف .

أصبحت ومالي سرور
إلام واقع القضاء قال
رسول الله صلى الله
عليه وسلم لابن عباس
حين وصاه « اعلم الله
باليقين في الرضا فان لم
يكن فان في الصبر
خييراً كثيراً » وفي الخبر
عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم « من خير
ما أعطى الرجل الرضا
بما قسم الله تعالى له »
فالأخبار والآثار
والحكايات في فضيلة
الرضا وشرفه أكثر
من أن تحصى والرضا
ثمرة التوبة النصوح
وما تخلف عبد عن
الرضا إلا تخلفه عن
التوبة النصوح فاذن
تجمع التوبة النصوح
حال الصبر ومقام الصبر
وحال الرضا ومقام

ليقتم بمشاهدته والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى الشهادة . قال صلى الله عليه وسلم « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه »^(١) وقال حذيفة عند الموت حبيب جاء طي فاقه لا أفلح من ندم . وقال بعض السلف : ما من خصلة أحب إلى الله أن تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود فقدم حب لقاء الله على السجود وقد شرط الله سبحانه لحقيقة الصدق في الحب القتل في سبيل الله حيث قالوا إنا نحب الله فجعل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال - إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا - وقال عز وجل - يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون - وفي وصية أبي بكر لم يرضى الله تعالى عنهما : الحق تميل وهو مع تمله مرىء والباطل خفيف وهو مع خفته وبيء فان حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدركك وإن ضيقت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تمجزه ، وروى عن اسحق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله نخلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب إني أقسمت عليك إذا لقيت العدو غدا فلتني رجلا شديدا بأسه شديدا حرره أقاتله فك وبقاتلني ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني ويقر بطني فاذا لقيت غدا قلت يا عبد الله من جدع أنفك وأذنيك فأقول فيك يارب وفي رسوئك فتقول صدقت قال سعد فلقد رأيته آخر النهار وإن أذنه وأذنه لملقتان في خيط^(٢)

قال سعيد بن السيب أرجو أن يروى الله آخر قسمه كما أبرأه ، وقد كان الثوري وبشر الحافي يقولان لا يكره الموت إلا مريب لأن الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه . وقال البويطي لبعض الزهاد أعجب الموت فكأنه توقف فقال لو كنت صادقا لأحبيته وتلاقوه تعالى - فتمنوا الموت إن كنتم صادقين - قال الرجل فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يتمنين أحدكم الموت »^(٣) فقال إنما قاله لضر نزل به لأن الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه . فان قلت ممن لا يحب الموت فهل يتصور أن يكون محبا لله ؟ فأقول كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد وهذا يناقض كمال حب الله تعالى لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة فان الناس متفاوتون في الحب ويبدل على التفاوت ما روى أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاة عاتبة قريش في ذلك وقالوا أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى فقال والله لقد أنكحت إياها وإني لأعلم أنه خير منها فكان قوله ذلك أشد عليهم من ضله فقالوا وكيف وهي أختك وهو مولاك فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فليتنظر إلى سالم »^(٤)

فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيجبه ويحب أيضا غيره فلا جرم يكون نعيمه

(١) حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة (٢) حديث اسحق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله نخلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب إني أقسم عليك إذا لقيت العدو غدا فلتني رجلا شديدا بأسه شديدا حرره أقاتله فك وبقاتلني ويجدع أنفي وأذني الحديث الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية وإسناده جيد (٣) حديث لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به الحديث متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم (٤) حديث أبي حذيفة بن عتبة أنه لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاة عاتبة قريش في ذلك وفيه فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فليتنظر إلى سالم لم أره من حديث حذيفة وروى أبو يعين في الحلية للرفوع منه من حديث عمر أن سالما يحب الله حقا من قلبه وفي رواية له إن سالما شديدا يحب الله عز وجل ولم يخف الله عز وجل ما عصاه وفيه عبد الله بن لهيعة .

الرضا والخوف والرجاء
مقامان شريفان من
مقامات أهل اليقين
وهما كائنان في صلب
التوبة النصوح لأن
خوفه حمله على التوبة
ولولا خوفه ما تاب
ولولا رجاءه ما خاف
فالرجاء والخوف
يتلازمان في قلب المؤمن
ومتبدل الخوف
والرجاء لاتب المستقيم
في التوبة . دخل رسول
الله صلى الله عليه وسلم
على رجل وهو في
سياق الموت فقال
« كيف تجدك قال
أجدني أخاف ذنوبي
وأرجو رحمة ربّي فقال
ما اجتمع في قلب عبد
في هذا الموطن إلا أعطاه
الله ما رجا وآمنه بما

بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها .
وأما السبب الثاني للكراهة : فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وإنما يكره
محلته قبل أن يستعد للقاء الله فذلك لا يدل على صدق الحب وهو كالحب الذي وصله الخبر بقدم
حبيه عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليبيء له داره ويعد له أسبابه فيلقاه كما بهواه فارغ القلب
عن الشواغل خفيف الظهر عن الموائق فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلا وعلامته
الدروب في العمل واستفراق الهم في الاستعداد . ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يهجه
في ظاهره وباطنه فيلزم مشاق العمل ويجتنب اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل ولا يزال
مواظبا على طاعة الله ومتقربا إليه بالوفاء وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب
في قلب محبوبه وقد وصف الله المحبين بالایشار فقال - يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم
أحاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - ومن بقى مستمرا على متابعة الهوى
فمحبوبه ما بهواه بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجرى فأتارك ما أريد لما يريد

بل الحب إذا غلب فتح الهوى فلم يبق له تتم بغير المحبوب كما روى أن زليخا لما آمنت وتزوج بها
يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة واقطعت إلى الله تعالى فكان يدعوها إلى فراشه
نهارا فتدافسه إلى الليل فإذا دعاها ليلا سرفت به إلى النهار وقالت يا يوسف إنما كنت أحبك قبل
أن أعرفه فأما إذ عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلا حتى قال لها إن الله جل
ذكره أمرني بذلك وأخبرني أنه مخرج منك ولدين وجاعلها نبيين فقالت أما إذا كان الله تعالى
أمرك بذلك وجعلني طريقا إليه فطاعة لأمر الله تعالى فمنداها سكنت إليه ؟ فأذن من أحب الله
لا يصيبه ولذلك قال ابن المبارك فيه :

تصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وفي هذا المعنى قيل أيضا :

وأترك ما أهوى لما قد هويته فأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسى

وقال سهل رحمه الله تعالى علامة الحب إثاره على نفسك وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل
صار حبيبا وإنما الحبيب من اجتنب الناهى وهو كما قال لأن محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال
تعالى - يحبهم ويحبونه - وإذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه وإنما عدوه نفسه وشهوته فلا
يخذله الله ولا يكله إلى هواه وشهوته ولذلك قال تعالى - والله أعلم بأعدائكم وكفى وليا وكفى
بالله نصيرا - فان قلت فالصبيان هل يضاد أصل المحبة فأقول : إنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها فك
من إنسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة ويأكل ما يضره مع العلم بأنه يضره وذلك لا يدل على
عدم حبه لنفسه ولكن المعرفة قد تضاهى والشهوة قد تناب فيعجز عن القيام بحق المحبة ويدل عليه ما روى
« أن نعيمان كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل قليل فيحده في مصية يرتكبها إلى أن
آتى به يوما فلعنه رجل وقال ما أكثر ما يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه
وسلم لا تلعنه فإنه يحب الله رسوله (١) » فلم يخرج بالمصية عن المحبة، نعم يخرج المصية عن كمال الحب

(١) حديث آتى نعيمان يوما فلعنه رجل قال ما أكثر ما يؤتى به فقال لا تلعنه فإنه يحب الله
ورسوله البخارى وقد تقدم .

يخاف « وجاء في تفسير
قوله تعالى سولاتقوا
بأيديكم إلى التهلكة
هو العبد يذنب
الكبائر ثم يقول قد
هلكت لا ينفعني عمل
فالتائب خاف ظن
ورجال الغفرة ولا يكون
التائب تابيا إلا وهوا
خائف ثم إن التائب
حيث قيد الجوارح عن
السكران واستعان بنعم
الله على طاعة الله فقد
يشكر النعم لأن كل
جارحة من الجوارح
نعمة وشكرها قيدها
عن العصية واستعمالها
في الطاعة وأى شاكر
للنعمة أكبر من التائب
المستقيم فإذا جمع مقام
التوبة هذه القامات
كلها فقد جمع مقام

وقد قال بعض العارفين إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحب الله تعالى حيا متوسطا فإذا دخل سويداء القلب أحببه الحب البالغ وترك المعاصي وبالجملة في دعوى المحبة خطر ولذلك قال الفضيل إذا قبل لك أحب الله تعالى فاسكت فانك إن قلت لا ، كفرت وإن قلت نعم ، فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت . ولقد قال بعض العلماء ليس في الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ولا في جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشئ من ذلك . ومنها أن يكون مستهترا يذكر الله تعالى لا يفتتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه فمن أحب شيئا أكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به فعلمة حب الله حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل من ينسب إليه فان من يحب إنسانا يحب كلب محله فالهبة إذا قويت تعدت من المحبوب إلى كل ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه وذلك ليس شركة في الحب فان من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله وكلامه لأنه كلامه فلم يجاوز حبه إلى غيره بل هو دليل على كمال حبه ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لأنهم خلقه فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب الأخوة والصحة ولذلك قال تعالى - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أحبوا الله لما يندوكم به من نعمة وأحبوني لله تعالى (١)» وقال سفیان من أحب من يحب الله تعالى فأنما أحب الله ومن أكرم من يكرم الله تعالى فأنما يكرم الله تعالى . وحكى عن بعض الريدين قال كنت قد وجدت حلاوة المناجاة في سن الارادة فأدمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ثم لحقتني فترة فاقطعت عن التلاوة قال فسمعت قائلا يقول في المنام إن كنت تزعم أنك تحبني فلم جفوت كتابي أما تدبرت ما فيه من لطيف عتابي قال فانتبهت وقد أشرب في قلبي محبة القرآن فعادت إلى حالي . وقال ابن مسعود لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فان كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله . وقال سهل رحمة الله تعالى عليه علامة حب الله حب القرآن وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبي ﷺ وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة وعلامة حب السنة حب الآخرة وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زادا وبلغة إلى الآخرة . ومنها أن يكون أنسه بالحلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه فيواظب على التهجد ويغتنم هذه الليل وصفاء الوقت بانقطاع المواق وأقل درجات الحب التلذذ بالحلوة بالحبيب والتمتع بمناجاته فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألد عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته قيل لبراهيم بن آدم وقد نزل من الجبل من أين أقبلت فقال من الأنس بالله وفي أخبار داود عليه السلام لا تستأنس إلى أحد من خلقي فإني إنما أقطع عني رجلين رجلا استبطأ ثوابي فاقطع ورجلا نسي في فرضي بحاله وعلامة ذلك أن أكله إلى نفسه وأن أدعه في الدنيا حيران ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشا من الله تعالى ساقطا عن درجة محبته وفي قصة برخ وهو العبد الأسود الذي استسقى به موسى عليه السلام إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام إن برخا نعم العبد هو لي إلا أن فيه عيبا قال يارب وما عيبه قال يصعبه نسيم الأسفار فيسكن إليه ومن أحبني لم يسكن إلي عبي . وروى أن عابدا عبد الله تعالى في غيضة دهر طويلا فنظر إلى طائر وقد عشن في شجرة يأوى إليها ويصفر عندها فقال لو حولت مسجدي إلى تلك الشجرة فكنت أنس بصوت هذا الطائر

(١) حديث أحبوا الله لما يندوكم به من نعمة الحديث تقدم .

التسوية حال الزجر
وحال الانتباه وحال
التيقظ ومخالفة النفس
والتقوى والمجاهدة
ورؤية عيوب الأفعال
والانابة والصبر والرضا
والمحاسبة والمراقبة
والرعاية والشكر
والخوف والرجاء وإذا
صحت التوبة النصح
وزكّت النفس انجحت
مرآة القلب وبان قبس
الدنيا فيها فيحصل
الزهد والزهد يتحقق
فيه التوكل لأنه لا يزهد
في الوجود إلا لاعتماده
على الموعد والسكون
إلى وعد الله تعالى هو
عين التوكل وكلما بقى
على العبد بيقية في تحقق
المقامات كلها بسد
توبته يستدركه

قال ففعل فأوحى الله تعالى إلى نبيّ ذلك الزمان قل لفلان العابد استأنست بمخلوق لأحطتكم درجة لا تتألمها بشيء من عملك أبداً ، فاذن علامة المحبة كمال الأُنس بمنجاة المحبوب وكال التمس بالحلوة . وكال الاستيحاش من كل ما ينقص عليه الحلوة ويعوق عن لقمة للناجاة وعلامة الأُنس مصير العقل والفهم كله مستغرقاً بلغة الناجاة كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه وقد انتهت هذه اللذة يحضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به ونطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو في الصلاة فلم يشعر به ومهما غلب عليه الحب والأُنس صارت الحلوة والناجاة قرّة عينه يدفع بها جميع المموم بل يستغرق الأُنس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تكرر على صممه مراراً مثل العاشق الوطمان فإنه يكلم الناس بلسانه وأنسه في الباطن بذكر حبيبته فالحب من لا يطمئن إلا بمحبوبه . وقال قتادة في قوله تعالى - الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب - قال هشت إليه واستأنست به . وقال الصديق رضي الله تعالى عنه من ذاق من خالص حبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال مطرف بن أبي بكر المحب لا يسأم من حديث حبيبته وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قد كذب من ادعى محبتي إذا جنة الليل نام عنى أليس كل محب يحب لقاء حبيبته فما أئاذاً موجود لمن طلبني . وقال موسى عليه السلام : يارب أين أنت فأقصدك فقال إذا قصدت فقد وصلت . وقال يحيى بن معاذ من أحب الله أبغض نفسه . وقال أيضاً من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب : يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق . ومنها أن لا يتأسف على ما فوته مما سوى الله عز وجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته فيكره رجوعه عند الغفلات بالاستعطف والاستعتاب والتوبة . قال بعض العارفين إن لله عبداً أحبوه واطمأنوا إليه فذهب عنهم التأسف على القاتات فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم إذ كان ملكاً مليكهم تاماً ومأشاه كان فما كان لهم فهو واصل إليهم ومافاتهم فيحسن تديروهم وحق المحب إذا رجع من غفاته في لحظة أن يقبل على محبوبه ويشتغل بالعتاب ويسأله ويقول رب بأى ذنب قطعت برّك عنى وأبعدتنى عن حضرتك وشغلتنى بنفسى وبمتابعة الشيطان فيخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ماسبق من الغفلة وتكون هفوته سبباً لتجدد ذكره وصفاء قلبه ومهما لم ير المحب إلا المحبوب ولم ير شيئاً إلا منه لم يتأسف ولم يشك واستقبل الكل بالرضا وعلم أن المحبوب لم يقدر له إلا ما فيه خيرته ويذكر قوله - وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم - ومنها أن يتمم بالطاعة ولا يستقلها ويسقط عنه تعبها كما قال بعضهم كابدت الليل عشرين سنة ثم تتممت به عشرين سنة . وقال الجنيد علامة المحب دوام النشاط والدهوب بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه . وقال بعضهم العمل على المحبة لا يدخله الفتور . وقال بعض العلماء والله ما اشتفى محب لله من طاعته ولو حلل عظيم الوسائل فكل هذا وأمثاله موجود في للشاهدات فإن العاشق لا يستقل السعى في هوى معشوقه ويستتلك خدمته بقلبه وإن كان شاقاً على بدنه ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به فهكذا يكون حب الله تعالى فإن كل حب صار غالباً قهراً لا محالة ما هو دونه فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ترك الكسل في خدمته وإن كان أحب إليه من المال ترك المال في حبه ، وقيل لبعض المهيين وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء ما كان سبب حاله هذه في المحبة فقال سمعت يوماً محباً وقد خلا بمحبوبه وهو يقول أنا والله أحبك بقلبي كله وأنت ممرض عنى بوجهك كله فقال له المحبوب إن كنت تحبني فأيش تنفق على قال يا سيدي أملكك ما أملك

زهده في الدنيا وهو ثالث الأربعة . أخبرنا شيخنا قال أنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون قال أنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري إجازة قال أنا أبو عمرو محمد بن العباس قال أنا أبو محمد يحيى بن ساعدة قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزي قال حدثنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا الهيثم بن جميل قال أنا محمد بن سليمان عن عبد الله بن بريدة قال «قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فبدأ بغاطمة رضي الله عنها فرآها قد أحدثت في البيت ستراً وزوائد في يديها فلما رأى

ثم أنفق عليك روحى حتى تهلك فقات هذا خلق لحاق وعبد أعبد فكيف سجد لمبود فكل هذا بسببه . ومنها أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله رحماً بهم شديداً على جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيئاً مما يكرهه كما قال الله تعالى - أشداه على الكفار رحماً بينهم - ولا تأخذهم لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف وبه وصف الله أوليائه إذ قال الذين يكافون محي كما يكلف الصبي بالصبي . ويأوون إلى ذكرى كما يأوى النسر إلى وكرة ويفضون لمهارمه كما يفضب النمر إذا حرد فانه لا يبالي قل الناس أو كثروا فانظر إلى هذا المثال فان الصبي إذا كلف بالصبي لم يفارقه أصلاً وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصحاح حتى يرد إليه فان نام أخذه معه في ثيابه فاذا انتبه عاد وتمسك به ومهما فارقه بكى ومهما وجده ضحك ومن نازعه فيه أبضه ومن أعطاه أحبه وأما النمر فانه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه فهذه علامات المحبة فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه نصفاً في الآخرة شرابه وعذب مشربه ومن امتزج بحبه حب غير الله تمت في الآخرة بقدر حبه إذ يمزج شرابه بقدر من شراب القربين كما قال تعالى في الأبرار - إن الأبرار لى نعيم - ثم قال - يدعون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها القربون - فاذا طاب شراب الأبرار لشوب الشراب الذى هو للمقربين والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال - إن كتاب الأبرار لى عليين - ثم قال - يشهده القربون - فكان أمانة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهده المقربون وكان الأبرار يجدون المزيد فى حلهم ومعرفتهم بقربهم من القربين ومشاهدتهم لهم فكذلك يكون حالهم فى الآخرة - ما خلقكم ولا بشكم إلا كنفس واحدة - كما بدأنا أول خلق نعيده - وكما قال تعالى - جزاء وفاقاً - أى وافق الجزاء نعمهم فقول الحاصل بالصرف من الشراب وقبول الشوب بالشوب وشوب كل شراب على قدر ما سبق من الشوب فى حبه وأعماله - فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره - وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - وإن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها - وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين - فمن كان حبه فى الدنيا رجاء لنعيم الجنة والخور العين والتصوير مكن من الجنة ليتبوا منها حيث يشاء فيلب مع الولدان ويتمتع بالنسوان فهناك تنتهى لذته فى الآخر لأنه إنما يعطى كل إنسان فى المحبة ما تشتهيه نفسه وتلذذ عينه ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يغب عايه إلا حبه بالاخلاص والصدق أنزل فى مقعد صدق عند مليك مقتدر - فالأبرار يرتعون فى البساتين ويتعمون فى الجنان مع الخور العين والولدان والمقربون ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرة منها فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون وللمجاسة أقولم آخرون ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله وعليون لدوى الأبواب (١) » ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين عظم أمره فقال - وما أدراك ما عليون - كما قال تعالى - القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة - ومنها أن يكون فى حبه خائفاً متضائلاً تحت الهيبة والتمظيم وقد يظن أن الخوف يضاد الحب وليس كذلك بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أن إدراك الجمال يوجب الحب والخصوص المحبين مخاوف فى مقام المحبة ليست لغيرهم وبعض مخاوفهم أشد من بعض فأولها خوف الإعراض وأشد منه خوف الحجاب وأشد منه خوف الإبعاد وهذا المعنى فى سورة هود هو الذى شيب سيد

ذلك رجوع ولم يدخل
ثم جلس فجعل ينكت
فى الأرض ويقول
مالى وللدنيا مالى
وللدنيا فرأت فاطمة
أنه إنما رجع من أجل
ذلك الستر فأخذت
الستر والزوائد
وأرسلت بهما مع بلال
وقالت له اذهب إلى
النبي صلى الله عليه وسلم
قل له قد تصدقت به
فضمه حيث شئت فأتى
بلال إلى النبي صلى الله
عليه وسلم فقال قالت
فاطمة قد تصدقت به
فضمه حيث شئت فقال
النبي صلى الله عليه وسلم
بأبى وأمى قد فعلت
بأبى وأمى قد فعلت
اذهب فبه « وقيل
فى قوله تعالى - إنا
جعلنا ما على الأرض
زيناً لها لنولم أهم

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله وعليون لدوى الأبواب البزاز من حديث أنس بن مالك ضعيف مقتصر على الشطر الأول وقد تقدم والشطر الثانى من كلام أحمد بن أبى الحوارى وأمله أدرج فيه .

المحبين (١) إذ سمع قوله تعالى - ألا بعدا لثمود - ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود - وإنما أعظم هيبته البعد وخوفه في قاب من ألف القرب وذاقه وتنعم به فحديث البعد في حق البعدين يشيب صماعة أهل القرب في القرب ولا يعن إلى القرب من ألف البعد ولا يبكي لحوف البعد من لم يمكن من بساط القرب ثم خوف الوقوف وسلب الزيد فانا قدمنا أن درجات القرب لانهاية لها وحق العبد أن يجتهد في كل نفس حتى يزداد فيه قربا ولذلك قال رسول الله ﷺ « من استوى يومه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون (٢) » وكذلك قال عليه السلام « إنه ليغان على قلبي في اليوم والليله حتى أستغفر الله سبعين مرة (٣) » وإنما كان استغفاره من القدم الأول فانه كان بعدا بالاضافة إلى القدم الثاني ويكون ذلك عقوبة لهم على القصور في الطريق والالتفات إلى غير المحبوب كما روى أن الله تعالى يقول إن أدنى ما أضع بالعالم إذا آثر شهوات الدنيا على طاعتي أن أسلبه لذيذ مناجاتي فسلب للزيد بسبب الشهوات عقوبة للمحوم فأما الخصوص فيحجبهم عن الزيد مجرد الدعوى والمحب والركون إلى ما ظهر من مبادئ اللطف وذلك هو السكر الحفي الذي لا يقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة ثم خوف فوت مالا يدرك بعد فوته . مع إبراهيم بن آدم قائلا يقول وهو في سياحته وكان على جبل :

كل شيء منك مغفور سوى الإعراض عنا
قد وهبنا لك مافات فهب مافات منا

فاضطرب وغشى عليه فلم يبق يوما وليلة وطرات عليه أحوال ثم قال سمعت النداء من الجبل يا إبراهيم كن عبدا فكنت عبدا واسترحت ثم خوف السلو عنه فان المحب يلزمه الشوق والطلب الخنث فلا يفتر عن طلب الزيد ولا يتسلى إلا بلطف جديد فان تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجته والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر فان هذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها فاذا أراد الله السكر به واستدراجه أخفى عنه ماورد عليه من السلو فيقف مع الرجاء ويفتر بحسن النظر أو بغلبة الغفلة أو الهوى أو النسيان فكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكرو والبيان وكان من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضى هيجان الحب وهي أو صاف اللطف والرحمة والحسنة فمن أوصافه ما يلوح فيورث السلو كأوصاف الجبرية والعزة والاستغناء وذلك من مقدمات السكر والشقاء والحمران ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه إلى حب غيره وذلك هو اللقت والسلو عنه مقدمة هذا المقام والاعراض والحجاب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبر والتهاب من دوام اللذو وملاحة لوظائف الأوراد أسباب هذه اللعاني ومقدماتها وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام اللقت نموذ بالله منه وملازمة الحوف لهذه الأمور وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب فان من أحب شيئا خاف لامحالة فقدة فلا يخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب مما يمكن فواته وقد قال بعض العارفين من عبد الله تعالى بحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال ومن عبده من طريق الحوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاءش ومن عبده من طريق المحبة والحوف أحبه الله تعالى فحبه ومكنه وعلمه فالهلب لا يخلو عن خوف والخائف لا يخلو عن محبة ولكن الذي غلبت عليه المحبة

(١) حديث شيعتي هود أخرجه الترمذي وقد تقدم غير مرة (٢) حديث من استوى يومه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون لا أعلم هذا إلا في منام لعبد العزيز بن أبي رواد قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت يا رسول الله أوصني فقال ذلك بزيادة في آخره رواه البيهقي في الزهد (٣) حديث إنه ليغان على قلبي متفق عليه من حديث الأغر وقد تقدم .

أحسن عملا - قيل
الزهد في الدنيا . سئل
أمير المؤمنين على بن
أبي طالب رضي الله
عنه عن الزهد فقال
هو أن لا يتألى بمن
أكل الدنيا مؤمن أو
كافر . وسئل الشبلي
عن الزهد فقال ويلكم
أي مقدار الجناح
بعوضة أن يزهد فيها .
وقال أبو بكر الواسطي
إلى متى أصول بترك
كسيف وإلى متى أصول
بإعراضك عما لا تزن
عند الله جناح بعوضة
فاذا صح زهد العبد
صح توكله أيضا لأن
صدق توكله مكنه من
زهده في الوجود فمن
استقام في التوبة
وزهد في الدنيا وحقق

حق اتسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا يسير يقال هو في مقام المحبة وبعد من المحبين وكان شوب الخوف يسكن قليلا من سكر الحب فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لذلك طاقة البشر فاعما الخوف يبدله ويخفف وقه على القلب فقد روى في بعض الأخبار أن بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته فعمل ذلك فهم في الجبال وحر عقله ووله قلبه وبقي شاخصا سبعة أيام لا يفتنع بشئ ولا يفتنع به شئ فسأل له الصديق ربه تعالى فقال يارب انقصه من القدرة بعضها فأوحى الله تعالى إليه إنما أعطيتاه جزءا من مائة ألف جزء من المعرفة وذلك أن مائة ألف عبد سألوني شيئا من المحبة في الوقت الذي سألتني هذا فأخرت إجابتهم إلى أن شفقت أنت لهذا فلما أجبته فيها سألت أعطيتهم كما أعطيتهم قصمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد فهذا ما أصابه من ذلك فقال سبحانك يا أحكم الحاكمين انقصه مما أعطيت فأذهب الله عنه جملة الجزء وبقي معه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة فاعتدل خوفه وجهه ورجاؤه وسكن وصار كسائر العارفين ، وقد قيل في وصف حال العارف :

قريب الوجد ذو مرمى بعيد عن الأحرار منهم والبيد
غريب الوصف ذو علم غريب كأن فؤاده زبر الحديد
لقد عزت معانيه وجلت عن الأبصار إلا للشيء
يرى الأعياد في الأوقات تجرى له في كل يوم ألف عيد
ولالأجباب أفرح بعيد ولا يجد السرور له بعيد

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد آياتا يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين وإن كان ذلك لا يجوز إظهاره وهي هذه الآيات :

سرت بأناس في التيوب قلوبهم خلوا بقرب اللاجد التفضل
عراسا بقرب الله في ظل قدسه تجول بها أرواحهم وتنقل
مواردم فيها على المز والهي ومصدرم عنها لما هو أكمل
تروح جز مفرد من صفاته وفي حال التوحيد تمشي وترقل
ومن جد هذا ماتدق صفاته وما كتبه أولى لديه وأعدل
سأكنم من علمي به ما يصونه وأبذل منه ما أرى الحق يبذل
وأعطي عباد الله منه حقوقهم وأمنع منه ما أرى النع بفضل
على أن للرحمن سرا يصونه إلى أهله في السر والصون أجل

وأمثال هذه العارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شئ من ذلك لمن لم ينكشف له بل لو اشترك الناس فيها حُرِّبَت الدنيا للحكمة تقتضي فحول الغفلة لعمارة الدنيا بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما حُرِّبَت الدنيا زهدم فيها وبطلت الأسواق وللما يظن بل لو أكل العلماء الحلال لا اشتغلوا بأنفسهم ولوقت الألسنة والأقدام عن كثير مما انتشر من العلوم ولكن لله تعالى فيها هو شر في الظاهر أسرار وحكم كأن له في الخير أسراراً وحكماً ولا منتهى لحكته كما لا غاية لقدرة . ومنها كتمان الحب واجتباب الدعوى والتوقى من إظهار الوجد والمحبة تعظيماً للمحبوب وإجلالاً له وهيبة منه وغيره على سره فإن الحب سر من أسرار الحبيب ولأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حد الضم ويزيد عليه فيكون ذلك من الاقتراء وتعظم العقوبة عليه في العقاب وتجب على البلوى في الدنيا ، نعم قد يكون للحب سكرة في جبهته حتى يدهش فيه وتضطرب أحواله

هذين اللقامين استوفى
سائر اللقائات وتكون
فيها وتحقق بها ترتيب
التوبة مع الرقابة
وارتباط إحداها
بالأخرى أن يتوب
العبد ثم يستقيم في
التوبة حتى لا يكتب
عليه صاحب النجاة
شيئاً ثم يرتقى من
تطهير الجوارح عن
للماضي إلى تطهير
الجوارح عما لا يضي
فلا يسمع بكلمة فضول
ولا حركة فضول ثم
ينتقل للرعاية والمهاسبة
من الظاهر إلى
الباطن وتستولى
الرقابة على الباطن
وهو التحقق بعلم
القيام بمحو خواطر
الصية عن باطنه

فيظهر عليه حبه فان وقع ذلك عن غير تحمل أو اكتساب فهو معذور لأنه متهور وربما تشتمل من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه فالقادر على الكتمان يقول: وقالوا قريب قلت ما أنا صانع بقرب شعاع الشمس لو كان في حجري فإلى منه غير ذكرك بخاطر يهيج نار الحب والشوق في صدرى والعاجز عنه يقول:

يخفى فيسدى الدمع أسراره ويظهر الوجد عليه النفس

ويقول أيضا:

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره في جفنه كيف يكتم

وقد قال بعض العارفين أكثر الناس من الله بدها أكثرهم إشارة به كأنه أراد من يكثر التعريض به في كل شيء ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد فهو محموت عند الهيبين والعلماء بالله عز وجل ودخل ذو النون المصري على بعض إخوانه ممن كان يذكر المحبة فرآه مبتلى بيبلاه فقال لا يحبه من وجد ألم ضره فقال الرجل لكني أقول لا يحبه من لم يتم بضره فقال ذو النون ولكني أقول لا يحبه من شمر نفسه بحبه فقال الرجل أستغفر الله وأتوب إليه فان قلت المحبة منتهى القامات وإظهارها إظهار للخير فلماذا يستنكر. فاعلم أن المحبة محمودة وظهورها محمود أيضا وإنما الذموم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار وحق المحب أن يتم على حبه الحق أفعاله وأحواله دون أقواله وأفعاله وينبغي أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب بل ينبغي أن يكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط فأما إرادته اطلاع غيره فشر في الحب وقادح فيه كما ورد في الإنجيل إذا تصدقت فتصدق بحيث لاتعلم شمالك ما صنعت يمينك فالذي يرى الخفيات يحزبك لآلئها وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لتلايم بذلك غير ربك فاظهار القول والفعل كله مذموم إلا إذا غلب سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه. حكى أن رجلا رأى من بعض المجانين ما استجهله فيه فأخبر بذلك معروفا الكرخي رحمه الله فقبس ثم قال يا أخى له محبوب صغير وكبار وعقلاء ومجانين فهذا الذي رأيته من مجانينهم ومجايكه التظاهر بالحب بسبب أن المحب إن كان عارفا وعرف أحوال اللائكة في جهنم الدائم وشوقهم اللازم الذي به يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يهضمون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لاستنكاف من نفسه ومن إظهار حبه وعلم قطعا أنه من أخس الهيبين في مملكته وأن حبه أقمص من حب كل محب لله قال بعض الكاشفين من الهيبين عبت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل اليهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت أن لى عند الله شيئا فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات في قصة طويلة قال في آخرها فبلغت صفا من اللائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء قلت من أتم فقالوا نحن المحبون لله عز وجل نمبدهمنا منذ ثلثمائة ألف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواء ولا ذكرنا غيره قال فاستحييت من أعمالى فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنه في جهنم فأذن من عرف نفسه وعرف ربه واستحياته حتى الحياء خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى، نعم يشهد على حبه حركاته وسكناته وإقدامه وإحجامه وتردداته كما حكى عن الجنيد أنه قال مرض أستاذنا السرى رحمه الله فلم تعرف لعلته دواء ولا عرفنا لها سببا فوصف لنا طبيب حاذق فأخذنا قارورة مائه فنظر إليها الطبيب وجعل ينظر إليه مليا ثم قال لى أراه بول عاشق قال الجنيد فصمت وغشى على ووقعت القارورة من يدي ثم رجعت إلى السرى فأخبرته فقبس ثم قال قائله الله ما أبصره قلت بأستاذ وتبين المحبة في البول قال نعم وقد قال السرى مرة

ثم خواطر الفضول
فاذا تمكن من
رعاية الحظرات عصم
عن مخالفة الأركان
والجوارح وتستقيم
توبته قال الله تعالى
لنبيه صلى الله عليه
وسلم - فاستقم كما
أمرت ومن تاب
مك - أمره الله
تعالى بالاستقامة في
التوبة أمرا له ولأتباعه
وأمرته وقيل لا يكون
للريد مريدا حتى
لا يكتب عليه صاحب
الجمال شيئا عشرين
سنة ولا يلام من
هذا وجود العصمة
ولكن الصادق الثاب
في النادر إذا ابتلى
بذنب ينسحق أثر الذنب
من باطنه في

لو شئت أقول ما أيسر جلدى على عظمى ولا سل جسمى إلا حبه ثم غشى عليه وتدل الغشية على أنه أصح في غلبة الوجد ومقدمات الغشية فهذه مجامع علامات الحب وثمراته . ومنها الأنس والرضا كما سيأتي . وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب وما لا يثمره الحب فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الأخلاق ، نعم قد يحب الله لإحسانه إليه وقد يحبه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين ولذلك قال الجنيد الناس في محبة الله تعالى عام وخاص فالعوام نالوا ذلك بمحرتهم في دوام إحسانهم وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أرضوه إلا أنهم تعلق بحبهم وتكثرت على قدر النعم والإحسان فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد بالملك ولما عرفوا صفاته الكاملة وأسماء الحسنى لم يمتنعوا أن أحبوه إذ استحق عندهم المحبة بذلك لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم نعم من الناس من يحب هواه وعدواقه إبليس وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل فيظن أنه محب لله عز وجل وهو الذى قدمت فيه هذه العلامات أو يلبس بها نفاقا ورياء وحمية وغرضه عاجل حظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك ككلاء السوء وقراء السوء أولئك بنضاء الله في أرضه وكان سهل إذا تكلم مع إنسان قال يادوست أى يا حبيب قميل له قد لا يكون حبيبا فكيف تقول هذا فقال في أذن القائل سرا: لا يخلو إما أن يكون مؤمنا أو منافقا فان كان مؤمنا فهو حبيب الله عز وجل وإن كان منافقا فهو حبيب إبليس وقد قال أبو تراب النخشبى في علامات المحبة آياتا :

الطيف ساعة لوجود
النم في باطنه
على ذلك والنم توبة
فلا يكتب عليه
صاحب الثمال شيئا
فاذا تاب توبة نصوحا
ثم زهد في الدنيا
حق لا يهتم في غذاه
لشائه ولا في عشاءه
لغذائه ولا يرى الأذخار
ولا يكون له تعلق
م بصد قد جمع
في هذا الزهد
والفقر والزهد أفضل
من الفقر وهو فقر
وزيادة لأن الفقير
عادم لشيء اضطرابا
والزاهد تارك لشيء
اختيارا وزهد
يحقق توكله وتوكله
يحقق رضاه ورضاه
يحقق الصبر وصبره

لا تخدعن فلاحبيب دلائل
● منها تتعمه بمر بلائه
فالتنع منه عطية مقبولة
ومن الدلائل أن ترى من عزمه
ومن الدلائل أن يرى متبسا
ومن الدلائل أن يرى متفهما
ومن الدلائل أن يرى متشفا
ولديه من تحف الحبيب وسائل
وسروره في كل ما هو فاعل
والفقر إكرام وبر عاجل
وطوع الحبيب وإن ألح العاذل
والقلب فيه من الحبيب بلايل
لكلام من يحظى لديه السائل
متحفظا من كل ما هو قائل

وقال يحيى بن معاذ :

ومن الدلائل أن تراه مشمرا
ومن الدلائل حزنه ونحيبه
ومن الدلائل أن تراه مسافرا
ومن الدلائل زهده فيما يرى
ومن الدلائل أن تراه باسكيا
ومن الدلائل أن تراه ملما
ومن الدلائل أن تراه راضيا
ومن الدلائل ضحكه بين الورى
في خرفتين على شطوط الساحل
جوف الظلام لما له من عاذل
نحو الجهاد وكل فصل فاضل
من دار ذل والنم الزائل
أن قد رآه على قبيح فاضل
كل الأمور إلى اللبيك العادل
بملكه في كل حكم نازل
والقلب محزون كقلب الثا كل

(بيان معنى الأنس بالله تعالى)

قد ذكرنا أن الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره وما يطلب عليه في وقته فاذا غلب عليه التطلع من وراء حجب القيب إلى منى الجمال واستشعر صورته عن الاطلاع على كنهه الجلال انبعث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه وتسمى هذه الحالة

في الانزعاج شوقا وهو بالاضافة إلى أمر غائب وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره متصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد استبشيره القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنسا وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم البلاة وخطر إمكان الزوال والبعد تألم القلب بهذا الاستشمار فيسمى تألمه خوفا وهذه الأحوال تاجبة لهذه الملاحظات والملاحظات تاجبة لأسباب تفضيها لا يمكن حصرها فالأنس من استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال حتى إنه إذا غلب وتجرد عن ملاحظة ما ظاه عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له أنت مشتاق فقال لا إنما الشوق إلى غائب فإذا كان الغائب حاضرا فإلى من يشاق وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت إلى ما بقى في الامكان من مزايا الألفاظ ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة كما حكى أن إبراهيم بن آدم نزل من الجبل فقيل له من أين أقبلت فقال من الأنس بالله وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله بل كل ما يوق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب كما روى أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهورا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه التشيان لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ما سواه . ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه يا من آتني بذكره وأوحشني من خلقه وقال الله عز وجل لداود عليه السلام كن لي مشتاقا وبني مستأنسا ومن سواي مستوحشا وقيل لراعيه لم تلت هذه المنزلة قالت بركي مالا يئيبني وأنسى بمن لم يزل . وقال عبد الواحد بن زيد مررت براهب قلت له يا راهب لقد أعجبتك الوحدة فقال يا هذا لو ذقت حلوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك الوحدة رأس العبادة قلت يا راهب ما أفل ما تجده في الوحدة قال الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم قلت يا راهب متى يذوق العبد حلوة الأنس بالله تعالى قال إذا صفا الود وخلصت العاملة قلت ومتى يصفو الود قال إذا اجتمع المهم فصارهما واحدا في الطاعة . وقال بعض الحكماء عجبا للخلائق كيف أرادوا بك بدلا عجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك . فان قلت فما علامة الأنس فاعلم أن علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشره الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر فان خالط فهو كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة وغريب في حضر وحاضر في سفر وشاهد في غيبة وغائب في حضور محالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبة الذكر كما قال علي كرم الله وجهه في وصفهم هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين واستلنوا ما استوعر الترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صهبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالهل الأهل أوكث خلفاء الله في أرضه والدةاة إلى دينه فهذا معنى الأنس بالله وهذه علامته وهذه شواهدة وقد ذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والشوق والحب لظنه أن ذلك يدل على التشبيه وجهله بأن جمال اللذرات بالبصائر أكمل من جمال البصرات ولذة معرفتها أغلب على ذوى القلوب ومنهم أحمد بن غالب يعرف بسلام الخليل أنكر على الجنيد وعلى أبي الحسن النوري والجماعة حديث الحب والشوق والعشق حتى أنكر بعضهم مقام الرضا . وقال ليس إلا الصبر فأما الرضا فقير متصور وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين إلا على القشور فظن أنه لا وجود إلا للقشر فان المحسوسات وكل ما يدخل في الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراءه اللب المطلوب فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أن الجوز خشب كله ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل :

بحق حبس النفس
وصدق المجاهدة
وحبس النفس لله
بحق خوفه وخوفه
بحق رجاءه ويجمع
بالتوبة والزهد كل
القمامات والزهد
والتوبة إذا اجتمع
صحة الإيمان وعقوده
وشروطه يوزن هذه
الثلاثة رابع به تمامها
وهو دوام العمل لأن
الأحوال السنية
ينكشف بعضها بهذه
الثلاثة وتيسر بعضها
متوقف على وجود
الرابع وهو دوام
العمل وكثير من
الزهاد للتحققين بالزهد
للمستقيمين في التوبة
تخلفوا عن كثير من
معنى الأحوال لتخلفهم

الأنس بالله لا يحويه بطلان وليس يدركه بالحول محتمل
والآنسون رجال كلهم نجيب وكلهم مصفوفة فقه عمال
(بيان معنى الانبساط والادلال الذي ثمره غلبة الأنس)

اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكمت بشوشه قلق الشوق ولم ينصفه خوف التغير والحجاب فإنه يثمر
نوعاً من الانبساط في الأقوال والأفعال والناجاة مع الله تعالى وقد يكون منكر الصورة لما فيه
من الجرامة وقلة الهيبة ولسكنه محتمل بمن أقيم في مقام الأنس ومن لم يتم في ذلك اللقاه ويتشبه بهم
في الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر ومثاله مناجاة برخ الأسود الذي أمر الله تعالى كليهما موسى
عليه السلام أن يسأله ليستسقى لبي إسرائيل بعد أن قحطوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام
ليستسقى لهم في سبعين ألفاً فأوحى الله عز وجل إليه كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم
سرأرهم خبيثة بدعوتني على غير يقين ويأمنون مكري ارجع إلى عبد من عبادي يقال له برخ قتل له
يخرج حتى أستجيب له فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف فبينما موسى ذات يوم يمشي في طريق
إذا ببعد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود في شملة قد عقدها على عنقه فصره موسى
عليه السلام بنور الله عز وجل فسلم عليه وقال له ما اسمك فقال اسمي برخ قال فأنت طلبتنا منذ حين
اخرج فاستسقى لنا فخرج فقال في كلامه ما هذا من فعالك ولا هذا من حلك وما الذي بدالك أتقصت
عليك عيونك أم عانت الرياح عن طاعتك أم فقد ما عندك أم اشتد غضبك على المذنبين ألسنت كنت
غفارا قبل خلق الخطائين خلقت الرحمة وأمرت بالعطف أم تريتنا أنك ممتنع أم تخشى الموت فتعجل
بالعقوبة قال فابرح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر وأنبت الله تعالى العشب في نصف يوم حتى بلغ
الركب قال فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال كيف رأيت حين خاسمت ربي كيف أنصفني
فهم موسى عليه السلام به فأوحى الله تعالى إليه أن برخاً يضحكني كل يوم ثلاث مرات. وعن الحسن
قال احترقت أخصاص بالبصرة فبقي في وسطها خص لم يحترق وأبو موسى يومئذ أمير البصرة فأخبر
بذلك فبعث إلى صاحب الحص قال فأتني بشيخ فقال يا شيخ ما بال خصك لم يحترق قال إني أقسمت على
ربي عز وجل أن لا يحرقه فقال أبو موسى رضى الله عنه إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
« يكون في أمي قوم شعثة رهوسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرم (١) » قال ووقع حريق بالبصرة
فجاء أبو عبيدة الجواص فجعل يتخطى النار فقال له أمير البصرة انظر لا تحترق بالنار فقال إني أقسمت على
ربي عز وجل أن لا يحرقني بالنار قال فاعزم على النار أن تطفأ قال فمزم عليها فطشت وكان أبو حفص
يمشي ذات يوم فاستقبله رستاق مدهوش فقال له أبو حفص ما أصابك فقال صل حمارى ولا أمالك غيره
قال فوقف أبو حفص وقال وعزتك لا أخطو خطوة ما لم تر دعليه حمارة قال فظهر حماره في الوقت ومر
أبو حفص رحمه الله . فهذا وأمثاله يجرى لدوى الأنس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم. قال الجنيد رحمه الله
أهل الأنس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامة. وقال مرة لوصحبا
العموم لسكروهم وهم يحدون الزيد في أحوالهم بذلك وذلك يحتمل منهم ويليق بهم وإليه أشار القائل:

قوم تخالجهم زهو بسيدم والعبد زهو على مقدار مولاه

تاهوا برؤيته عما سواه له يا حسن رؤيتهم في عز ما تاهوا

ولاستبهدون رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامهما ففي القرآن تشبيهات على

(١) حديث الحسن عن أبي موسى يكون في أمي قوم شعثة رهوسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله

لأبرم ، ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء وفيه انقطاع وجهالة .

عن هذا الرابع ولا
يراد الزهد في الدنيا
إلا لكمال الفراغ
المستعان به على إدامة
العمل لله تعالى والعمل
فه أن يكون العبد
لا يزال ذا كرا أو تاليا
أو مصليا أو مراقبا
لا يشغله عن هذه إلا
واجب شرعى أو مهم
لا بد منه طبعي فاذا
استولى العمل القلبي
على القلب مع وجود
الشغل الذي أداء إليه
حكم الشرع لا يستر
باطنه عن العمل
فاذا كان مع الزهد
والتقوى متمسكا
بدوام العمل فقد
أكل الفضل وما آلى
جهدا في العبودية

هذه الماني لوفطنت وفهمت فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولى البصائر والأبصار حتى ينظروا إليها
 بين الاعتبار فأعما هي عند ذوى الاعتبار من الأسماء . فأول القصص قصة آدم عليه السلام
 وإبليس أماتراهما كيف اشتركا في اسم المعصية والخالفة ثم تباينا في الاجتباء والصحة . أما إبليس
 فأبلس عن رحمة . وقيل إنه من البعدين . وأما آدم عليه السلام فقيل فيه - وعصى آدم ربه
 فنوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى - وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم في الاعراض
 عن عبد والاقبال على عبد وهما في العبودية سياتن ولكن في الحال مختلفان ، فقال - وأما من
 جاءك يسعى وهو يغشى فأنت عنه تلهى - وقال في الآخر - أما من استغنى فأنت له تصدى -
 وكذلك أمره بالعودة مع طائفة ، فقال عز وجل - وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا قل سلام
 عليكم - وأمره بالإعراض عن غيرهم ، فقال - وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض
 عنهم - حتى قال - فلا تعد بهم الذكرى مع القوم الظالمين - وقال تعالى - واصبر نفسك مع
 الذين يدعون ربهم بالنداء والعسى - فكذا الانبساط والإدلال يحتمل من بعض العباد دون
 بعض ، فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام - إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء
 وتهدى من تشاء - وقوله في التمليل والاعتذار لما قيل له - اذهب إلى فرعون - فقال - ولهم
 على ذنب - وقوله - إن أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطق لسانى - وقوله - إننا
 نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى - وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب لأن الذى
 أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل ولم يحتمل ليونس عليه السلام مادون هذا لما أقيم مقام القبض
 والهية فوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث ونودى عليه إلى يوم القيامة - لولا أن
 تداركه نعمة من ربه لبند بالعراء وهو مذموم - . قال الحسن العراء هو القيامة ، ونهى نبينا
 صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به . وقيل له - فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ
 نادى وهو مكظوم - وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والقامات وبعضها لما سبق في
 الأزل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد ، وقد قال تعالى - ولقد فضلنا بعض النبيين
 على بعض - وقد قال - منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات - فكان عيسى عليه السلام من
 الفضلين وإدلاله سلم على نفسه ، فقال - والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا -
 وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الأنس . وأما يحيى بن زكريا عليه السلام فانه أقيم
 مقام الهية والحياة فلم ينطق حتى أتى عليه خالقه ، فقال - وسلام عليه - وانظر كيف احتمل
 لإخوة يوسف مافعلوه يوسف . وقد قال بعض العلماء : قد عدت من أول قوله تعالى - إذ قالوا
 ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا - إلى رأس العشرين من أخباره تعالى عن زهدم فيه نيفا
 وأربعين خطبة بعضها أكبر من بعض وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والأربع ففهر
 لهم وغفا عنهم ولم يحتمل العزيز في مسألة واحدة سأل عنها في القدر حتى قيل يحيى من ديوان النبوة
 وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكبر العلماء فأكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك . وكان
 آصف من للسرفين وكانت مصيبته في الجوارح فضا عنه فقد روى أن الله تعالى أوحى إلى سليمان
 عليه السلام يارأس العابدين وياابن محجة الزاهدين إلى كم يصيبني ابن خالك آصف وأنا أحلم عليه
 مرة بعد مرة فوعزنى وجلالى لأن أخذته عصفة من صفائى عليه لأتركه مثقال من معه ونكالا
 لمن يده . فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام أخبره بما أوحى الله تعالى إليه فخرج حتى علا

قال أبو بكر الوراق :
 من خرج من قالب
 العبودية صنع به ما
 يصنع بالآبق . وسئل
 سهل بن عبد الله
 التستري : أى منزلة إذا
 قام الصديق مقام
 العبودية قال إذا ترك
 التدبير والاختيار فاذا
 تحقق العبد بالتوبة
 والزهد ودوام العمل
 لله يشغله وقته الحاضر
 عن وقته الآتى ويصل
 إلى مقام ترك التدبير
 والاختيار ثم يصل إلى
 أن يملك الاختيار ،
 فيكون اختياره من
 اختيار الله تعالى لئوال
 هواه ووفور علمه
 وانقطاع مادة الجهل
 عن باطنه . قال يحيى
 ابن معاذ : الرازى مادام

كثيماً من رمل ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال إلهي وسيدى أنت أنت وأنا أما فكيف أتوب إن لم تنب علي وكيف أستعصم إن لم تصمني لأعودن فأوحى الله تعالى إليه صدقت يا آصف أنت أنت وأنا أنا استقبل التوبة وقد ثبت عليك وأنا التواب الرحيم ، وهذا كلام مدلل به عليه وهارب منه إليه وناظر به إليه ، وفي الخبر « إن الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن كان أشقى على الملكة كم من ذنب واجهته به غفرته لك قد أهلكك في دونه أمة من الأمم » فهذه سنة الله تعالى في عباده بالتفضيل والتقديم والتأخير على ما سبقته به للشبهة الأزلية وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل لها في القرآن شيء إلا وهو هدى ونور وتعرف من الله تعالى إلى خلقه فتارة يعرف إليهم بالتقديس فيقول - قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد - وتارة يعرف إليهم بصفات جلاله فيقول - للملك القدوس السلام المؤمن للهيم العزيز الجبار المتكبر - وتارة يعرف إليهم في أفضاله الخوف قول الرجوة فيتلو عليهم سنته في أعدائه وفي أنبيائه فيقول - ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد - ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل - ولا يبدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهي الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتوحيده وأمعرفة صفاته وأسمائه وأمعرفة أفضاله وسنته مع عباده ، ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس ولما فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلك القرآن فقال « من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن (١) » لأن منتهى التقديس أن يكون واحداً في ثلاثة أمور : لا يكون حاصله من هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله لم يلد ولا يكون حاصله من هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله لم يولد ولا يكون في درجته وإن لم يكن أصلاً له ولا فرعاً من هو مثله ودل عليه قوله - ولم يكن له كفواً أحد - ويجمع جميع ذلك قوله تعالى - قل هو الله أحد - وجعلت تفصيل قول لا إله إلا الله فهذه أسرار القرآن ولا تنهاها أمثال هذه الأسرار في القرآن - ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين - ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه نوروا القرآن واتموا غرائبه فيه علم الأولين والآخرين وهو كما قال ولا يعرفه إلا من طال في آحاد كلماته فكره وصفاه فهمه حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر ملك قادر وأنه خارج عن حد استطاعة البشر وأكثر أسرار القرآن معبأة في طي القصص والأخبار فكان حريصاً على استنباطها لينكشف لك فيه من المعاني ما تستحقر معه العلوم الزخرفة الخارجة عنه فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس والانبساط الذي هو ثمرة وبيان تفاوت عباد الله فيه والله سبحانه وتعالى أعلم .

(القول في معنى الرضا بقضاء الله وحقيقته وما ورد في فضيلته)

اعلم أن الرضا عمرة من ثمار المحبة وهو من أعلى مقامات القربين وحقيقته غامضة على الأكثرين وما يدخل عليه من التشابه والابهام غير منكشف إلا لمن علمه الله تعالى التأويل وفهمه وقمته في الدين فقد أنكر منكرين تصور الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل الله فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي وأنهدم بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والانكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى ، ولو انكشف هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حيث قال « اللهم قمه في الدين وعلمه التأويل (٢) »

(١) حديث من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن أحمد من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه البخاري من حديث أبي سعيد ومسلم من حديث أبي هريرة نحوه (٢) حديث دعاه لابن عباس اللهم قمه في الدين وعلمه التأويل متفق عليه دون قوله وعلمه التأويل ورواه أحمد بهذه الزيادة وتقدم في العلم .

العبد يتعرف يقال له لا تختر ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف فاذا عرف وصار عارفاً يقال له إن شئت اختر وإن شئت لا تختر لأنك إن اخترت فباختيارنا اخترت وإن تركت الاختيار فباختيارنا تركت الاختيار فانك بنا في الاختيار وفي ترك الاختيار والعبد لا يتحقق بهذا المقام العالي والحال العزيز الذي هو الغاية والنهاية وهو أن يملك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من الاختيار إلا بإحكامه هذه الأربعة التي ذكرناها لأن ترك التدبير فناء وتمليك التدبير

فلنبداً ببيان فضيلة الرضا ثم بحكايات أحوال الراضين ثم نذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوره فيما يخالف الهوى ثم نذكر ما يظن أنه من تمام الرضا وليس منه كترك الدعاء والسكوت على المعاصي .

(بيان فضيلة الرضا)

أما من الآيات قوله تعالى - رضی الله عنهم ورضوا عنه - وقد قال تعالى - هل جزاء الإحسان إلا الإحسان - ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى وقال تعالى - وما كن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر - فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال - إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والنكرو ولقد كره الله أكبر - فكما أن مشاهدة للذكور في الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة بل هو غاية مطلب سكان الجنان ، وفي الحديث « إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضائك ^(۱) فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل . وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه في حب الله للعبد ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته إذ تنصير أفهام الخلق عن دركه ومن يقوى عليه فيستقل باذراكه من نفسه . وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر إليه فاعلموا الرضا لأنه سبب دوام النظر فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأمان لما نظروا بنعم النظر فلما أمروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه وعلوا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب وقال الله تعالى - ولقد ينمزيه قال بعض للفسرين فيه يأتي أهل الجنة في وقت للزبد ثلاث تحف من عند رب العالمين : إحداها هدية من عند الله تعالى ليس عندم في الجنان مثلها فذلك قوله تعالى - فلا تحم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين - والثانية السلام عليهم من ربهم فيزيد ذلك على الهدية فضلاً وهو قوله تعالى - سلام قولاً من رب رحيم - والثالثة يقول الله تعالى : إني عنكم راض . فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم فذلك قوله تعالى - ورضوان من الله أكبر - أي من النعم الذي هم فيه فهذا أفضل رضا الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد . وأما من الأخبار فقد روى « أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل طائفة من أصحابه ما أتم قالوا مؤمنون فقال ما علامة إيمانكم فقالوا نصر على البلاء ونشكر عند الرخاء ورضى عما وقع القضاء فقال مؤمنون ورب الكعبة ^(۲) » وفي خبر آخر أنه قال « حكاء علماء كادوا من قههم أن يكونوا أنبياء ^(۳) » وفي الخبر « طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كغافا ورضى به ^(۴) » وقال ^(۵) « من رضى من الله تعالى بالتقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالتقليل من العمل ^(۶) » وقال أيضاً « إذا أحب الله تعالى عبداً ابتلاه فان صبر اجتنابه فان رضى اصطفاه » وقال أيضاً « إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من أمي أجنحة فيطرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاءوا فتقول لهم

والاختيار من الله تعالى لعبده ورده إلى الاختيار تصرف بالحق وهو مقام البقاء وهو الانسلاخ عن وجود كان بالعبد إلى وجود يصير بالحق وهذا العبد ما بقى عليه من الاعوجاج ذرة واستقام ظاهره وباطنه في العبودية وعمر المسلم والعمل ظاهره وباطنه وتوطن حضرة القرب بنفسى بين يدي الله عز وجل متمسكة بالاستكانة والافتقار متحققه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تكفى إلى نفسى طرفة عين فأهلك ولا إلى أحد من خلقك فأضيع الكلائي كلاة

(۱) حديث إن الله يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضائك البرار والطبراني في الأوسط من حديث أنس في حديث طويل بسند فيه لين وفيه فيتجلى لهم يقول أنا الذي صدقكم وعدى وآمنت عليكم نعمتي وهذا عمل إكرامى فسلوني فيسألونه الرضا الحديث ورواه أبو جلى بلفظهم قول ما ذا تريدون فيقولون رضائك الحديث ورجاله رجال الصحيح (۲) حديث سأل طائفة من أصحابه ما أتم قالوا مؤمنون فقال ما علامة إيمانكم الحديث تقدم (۳) حديث أنه قال في حديث آخر حكاء علماء كادوا من قههم أن يكونوا أنبياء تقدم أيضاً (۴) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كغافا ورضى به الترمذى من حديث فضالة بن عبيد بلفظ وقع وقال صحيح وقد تقدم (۵) حديث من رضى من الله بالتقليل من الرزق رضى من الله بالتقليل من العمل رويناه في أمالي المحاملى باسناد ضعيف من حديث طى بن أبى طالب ومن طريق المحاملى رواه أبو منصور الديلمى في مسند التردوس .

للملائكة هل رأيتم الحساب فيقولون ما رأينا حسابا فتقول لهم هل جزئتم الصراط فيقولون ما رأينا صراطا فتقول لهم هل رأيتم جهنم فيقولون ما رأينا شيئا فتقول للملائكة من أمة من أمتهم فيقولون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فتقول ناشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا فيقولون خصلتان كانتا فينا فبلغنا هذه النزلة بفضل رحمة الله فيقولون وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحي أن نصيبه ونرضى باليسير مما قسم لنا فتقول للملائكة بحق لكم هذا (١) وقال صلى الله عليه وسلم «يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب قهركم وإفلا (٢)». وفي أخبار موسى عليه السلام إن بنى إسرائيل قالوا له سل لنا ربك أمرا إذا نحن فعلناه يرضى به عنا فقال موسى عليه السلام: إلهي قد سمعت ما قالوا فقال يا موسى قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم، ويشهد لهذا ما روى عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال «من أحب أن يعلم ماله عند الله عز وجل فلينظر ماله عز وجل عنده فإن الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه (٣)». وفي أخبار داود عليه السلام مالأولياء والمهم بالدنيا إن المهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم. يادادو إن عجبني من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يمتنون. وروى أن موسى عليه السلام قال يارب دني على أمر فيه رضاك حتى أعمله فأوحى الله تعالى إليه: إن رضائي في كرهك وأنت لا تصبر على ماتكرهه. قال يارب دني عليه، قال فإن رضائي في رضاك بقضائي. وفي مناجاة موسى عليه السلام أي رب أي خلقك أحب إليك؟ قال من إذا أخذت منه المنيب سألني قال فأني خلقك أنت عليه ساخط. قال من يستخبرني في الأمر فإذا قضيت له سخط قضائي. وقد روى ما هو أشد من ذلك وهو أن الله تعالى قال «أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي ولم يرض بقضائي فليخذ ربا سواي (٤)» ومثله في الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال «قال الله تعالى قدرت للقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع، فمن رضى فله الرضا مني حتى يلقاني ومن سخط فله السخط مني حتى يلقاني (٥)» وفي الخبر المشهور «يقول الله تعالى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقت له الخير على يديه وويل لمن خلقت له الشر وأجريت الشر على يديه وويل لمن قال لم وكيف (٦)» وفي الأخبار السالفة أن نبيا من الأنبياء شكى إلى الله عز وجل الجوع والقر والقمل عشر سنين لما أجيب إلى ما أراد ثم أوحى الله تعالى إليه كم تشكوا هكذا كان بدوك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض

(١) حديث إذا كان يوم القيامة أنبت الله لظانفة من أمتي أجنحة فيطرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها رواه ابن حبان في الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلمي من حديث أنس مع اختلاف، وفيه حميد بن على القيسي ساقط هالك والحديث منسك مخالف للقرآن، وللأحاديث الصحيحة في الورد وغيره (٢) حديث أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب قهركم وإلا فلا تقدم (٣) حديث من أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر ماله عند الله الحديث الحاكم من حديث جابر وصححه بإفظ منزله ومنزلة الله (٤) حديث قال الله أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي الحديث الطبراني في الكبير وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هند الدارمي مقتصر على قوله من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليتمس ربا سواي وإسناده ضعيف (٥) حديث قال الله تعالى قدرت للقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا الحديث لم أجده بهذا اللفظ وللطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق الدين الحديث وإسناده ضعيف (٦) حديث يقول الله خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقت له الخير وأجريت الخير على يديه الحديث ابن شاهين في شرح

الوليد ولا تغفل عني.

[الباب الستون :

في ذكر إشارات

الشايخ في القامات

على الترتيب]

قولهم في التوبة قال

رويم معنى التوبة أن

يتوب من التوبة قيل

معناه قول رابصة

أستغفر الله العظيم

من قلة صدق في قولي

أستغفر الله . وسئل

الحسن الغزالي عن

التوبة ، فقال تسألني

عن توبة الانابة أو

عن توبة الاستجابة

فقال السائل ما توبة

الانابة ؟ فقال : أن

تخاف من الله عز

وجل من أجل

قدرته عليك . قال

فما توبة الاستجابة .

وهكذا سبق لك مني وهكذا تضيعت عليك قبل أن أخلق الدنيا أقريرد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك أم تريد أن أبدل ما قدرته عليك فيكون ما تحب فوق ما أحب ويكون ما تريد فوق ما أريد وعزتي وجلالي لأن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأهونك من ديوان النبوة . وروى أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصدون على بدنه وينزلون بجمل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد إلى رأسه ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ولا يرفع رأسه ، فقال له بعض ولده يا أبت : أما ترى ما يصنع هذا بك لونهيته عن هذا فقال يا بني : إنى رأيت ما لم تروا ، وعلت ما لم تعلموا إنى تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار المهوان ومن دار النعيم إلى دار الشقاء فأخاف أن تحرك أخرى فيصينى ما لا أعلم . وقال أنس بن مالك رضى الله عنه « خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى لى فعلته لم فعلته ولا لى لى لم أفعله لم لافعله ولا قال فى شىء كان لى لى لم يكن لى لى لم يكن لى لى كان إذا خاصنى محاصم من أهله يقول دعوه لوقضى شىء لكان (١) . وروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : يا داود إنك تريد وأريد وإنما يكون ما أريد فان سلمت لما أريد كفتك ما تريد ، وإن لم تسلم لما أريد أحببتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد . [وأما الآثار] فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال . وقال عمر بن عبد العزيز ما بقى لى سرور إلا فى مواقع القدر . وقيل له ماتشهى ، قال ما يقضى الله تعالى . وقال يعقوب بن مهران من لم يرض بالقضاء فليس لحقه دواء . وقال الفضيل : إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك . وقال عبد العزيز ابن أبي رواد : ليس الشأن فى أكل خبز الشعير والحل ولا فى لبس الصوف والشعر ولكن الشأن فى الرضا عن الله عز وجل . وقال عبدالله بن مسعود : لأن الحس حجرة أحرق ما أحرقته وأبقت ما أبقت أحب إلى من أن أقول لى لى كان لى لى لم يكن أو لى لى لم يكن لى لى كان . ونظر رجل إلى قرحة فى رجل محمد بن واسع ، فقال لى لى لأرحمك من هذه القرحة ، فقال : إنى لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج فى عيني . وروى فى الاسرائيليات أن تابدا عبد الله دهرا طويلا فأرى فى المنام فلانة الراعية رفيقتك فى الجنة فسأل عنها إلى أن وجدها فاستضافها ثلاثا لينظر إلى عملها فكان بيت قائما وتبيت نائمة وبظلم صائما وتظل مفطرة ، فقال أمالك عمل غير ما رأيت ، قالت ما هو والله إلا ما رأيت لأعرف غيره فلم يزل يقول تذكرى حتى قالت خصلة واحدة هى فى إن كنت فى شدة لم آمن أن أكون فى رخاء وإن كنت فى مرض لم آمن أن أكون فى صحة وإن كنت فى الشمس لم آمن أن أكون فى الظل فوضع العابد يده على رأسه وقال أهذه خصلة هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد . وعن بعض السلف إن الله تعالى إذا قضى فى السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه . وقال أبو الدرداء ذروة الايمان الصبر للحكم والرضا بالقدر . وقال عمر رضى الله عنه ما أبالى على أى حال أصبحت وأمسيت من شدة أورشاء . وقال الثورى يوما عند رابعة : اللهم ارض عنى فقالت أما تستحي من الله أن تسأل الرضا وأنت عنه غير راض فقال أستغفر الله فقال جعفر ابن سليمان الضبى لى لى يكون العبد راضيا عن الله تعالى قالت إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالذمة . وكان الفضيل يقول إذا استوى عنده النع والهطاء فقد رضى عن الله تعالى . وقال أحمد بن أبي الخوارى قال أبو سليمان الداراني إن الله عز وجل من كرمه قدرضى من عبيده بما رضى العبيد من مواليهم السنة عن أبي أمامة باسناد ضعيف (١) حديث أنس خدمت النبي صلى الله عليه وسلم لما قال لى لى فعلته لم فعلته الحديث متفق عليه وقد تقدم .

قال أن تستحي من الله لقربه منك وهذا الذى ذكره من توبة الاستجابة إذا تحقق العبد بها برعما تاب فى صلواته من كل خاطر يعلم به سوى الله تعالى ويستغفر الله منه وهذه توبة الاستجابة لازمة لبواطن أهل القرب كما قيل وجودك ذنب لا يقاس به ذنب . قال ذوالنون توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة ، وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم . مثل أبو محمد سهل عن الرجل

قلت وكيف ذاك قال أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه قلت نعم قال فإن عجة لله من عبيده أن يرضوا عنه . وقال سهل حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يحكته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين وجعل الغم والحزن في الشك والسخط (١) » .

(بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى)

اعلم أن من قال ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصور فأنما أتى من ناحية إنكار المحبة فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغرق الهم به فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين : أحدهما أن يبطل الاحساس بالألم حتى يجرى عليه الألم ولا يحس وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها ومثاله الرجل المحارب فإنه في حال غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها حتى إذا رأى الهم استدله به على الجراحة بل الذي يندوفى شغل قريب قد تصيبه شوكة في قدمه ولا يحس بألم ذلك لشغل قلبه بل الذي يحجم أو يحاق رأسه بعديدة كالة يتألم به فإن كان مشغول القلب بهم من مهماته فرغ للزينة والحمام وهو لا يشعر به وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقاً بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ما عداه فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغم له لولا عشقه ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف تصور في الألم العظيم بالحب العظيم فإن الحب أيضا يتصور تضاعفه في القوة كما يتصور تضاعف الألم وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال فمن ينكشف له شيء منه فقد يبهرة بحيث يدهش ويشقى عليه فلا يحس بما يجرى عليه . فقد روى أن امرأة فتحت الموصلى عثرت فاقطعت ظفرها فضحكت قبيل لها أما تجددين الوجع ؟ فقالت إن لذة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجمعه ، وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه فقيل له في ذلك فقال يادوست ضرب الحبيب لا يوجع . وأما الوجه الثاني فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضيا به بل راغبا فيه مريدا له أعني بعقله وإن كان كارها بطبعه كالذي يلتبس من الفساد الفسد والحجامة فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به وراغب فيه ومتقلد من الفساد به منة بفعله فهذا حال الراضى بما يجرى عليه من الألم وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر وجملة راضيا بها ومهما أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته رضى به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه هذا إن كان يلاحظ الثواب والاحسان الذي يجازى به عليه ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ الحب في مراد محبوبه ورضاه لا الحى آخر وراءه فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوا بعنده ومطلوبا لكل ذلك موجود في للشاهدات في حب الخلق وقد توأصفتها التوأمون في نظمهم وشرهم ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم مشحون بالأقدار والأخبار بدايته من نقطة ملدرة ونهايته جيفة قنطرة وهو فيما بين ذلك يحمل المدرة وإن نظر إلى المدرك

(١) حديث إن الله يحكته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا والفرح في الرضا الحديث الطبراني من حديث ابن مسعود إلا أنه قال بتسطه وقد تقدم .

يتدوب من الشيء
ويتركه ثم يخطر ذلك
الشيء بقلبه أو يراه
أو يسمع به فيجد
حلاوته فقال الحلاوة
طبع البشرية ولا يد
من الطبع وليس له حيلة
إلا أن يرفع قلبه إلى
مولاه بالشكوى
وينكره بقلبه ويلزم
نفسه الانكار ولا
يفارقه ويدعو الله أن
ينسيه ذلك ويشغله
بغيره من ذكره
وطاعته قال وإن غفل
عن الانكار طرفة
عين أخاف عليه أن
لا يسلّم وتعمل الحلاوة
في قلبه ولكن مع
وجدان الحلاوة يلزم
قلبه الانكار ويحزن
فإنه لا يضره . وهنا

للجمال فهي العين الحسيدة التي تفلط فيما ترى كثيرا قري الصغير كبيرا والكبير صغيرا والبعيد قريبا والقصيح جميلا فاذا تصور استيلاء هذا الحب لمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلي الأبدى الذي لا منتهى لكأله الدرك بعين البصرة التي لا يعترها الفلظ ولا يدور بها الوت بل تبقى بعد الموت حية عند الله فرحة برزق الله تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المهين وأقوالهم فقد قال شقيق البلخي من يرى ثواب الشدة لا يشتهي المخرج منها . وقال الجنيد سألت سريرا السقطي هل يجحد الحب ألم البلاء ؟ قال لا قلت وإن ضرب بالسيف قال نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة ضربة على ضربة . وقال بعضهم أحببت كل شيء بحبه حتى لو أحب النار أحببت دخول النار . وقال بشر بن الحرث مرت برجل وقد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس فتبعته فقلت له لم ضربت ؟ فقال لأنني عاشق قتلته ولم سكت ؟ قال لأن معشوقتي كان بخدائي ينظر إلى قتلتي فلو نظرت إلى المشوق الأكبر قال فزعت زعقة خرميتا . وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ذهبت عيونهم في قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم لما ظنك بقلوب وقت بين جماله وجلاله إذا لاحظت جلالة هابت وإذا لاحظت جماله تاهت . وقال بشر قصدت عبادان في بدايتي فاذا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه فرفضت رأسه فوضعت في حجرى وأنا أردد الكلام فلما أفاق قال من هذا الفضولى الذي يدخل بينى وبين ربى لو قطعنى إربا إربا ما زددت له إلا حبا . قال بشر لما رأيت بعد ذلك رقعة بين عبد وبين ربه فأنكرتها . قال أبو عمرو محمد بن الأشعث إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فقتلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ما أحسن بذلك . وقال سعيد بن يحيى رأيت بالبصرة في خان عطاء بن مسلم شابا وفي يده مديحة وهو ينادى بأعلى صوته والناس حوله وهو يقول:

يوم الفراق من القيامة أطول والوت من ألم التفرق أجمل

قالوا الرحيل قتلست براحل لكن مهجتي التي ترحل

ثم بقر بالمدينة بطنه وخر ميتا فسألت عنه وعن أمره فقيل لي أنه كان يهوى فقي لبعض الملوك حجب عنه يوما واحدا ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل دلتى على أعبد أهل الأرض فدلته على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب بصره فسمعه وهو يقول : إلهى تمتنى بهما ماشئت أنت وسلبتني ماشئت أنت وأبقيت لي فيك الأمل يا رب يا وصول . ويروى عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه اشتكى له ابن فاشد وجدته عليه حتى قال بعض القوم لقد خشينا على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث فمات الغلام فخرج ابن عمر في جنازته وما رجا أشد سرورا أبدا منه فقيل له في ذلك فقال ابن عمر إنما كان حزني رحمة له فلما وقع أمر الله رضىنا به . وقال مسروق : كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك فالدريك يوقظهم للصلاة والحمار يتقنون عليه الماء ويعمل لهم خبائهم والكلب يحرسهم قال جاء الثعلب فأخذ الديك فحزنوا له وكان الرجل صالحا فقال عسى أن يكون خيرا ثم جاء ذئب فغرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه فقال الرجل عسى أن يكون خيرا ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال عسى أن يكون خيرا ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فاذا قد سبي من حولهم وبقواهم قال وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب

الذى قاله سهل كاف
بالغ لكل طالب صادق
يريد محبة توبته .
والعارف القوى الحال
يتمكن من إزالة
الحلاوة عن باطنه
ويسهل عليه ذلك .
وأسباب سهولة ذلك
متنوعة للعارف ومن
تمكن من قلبه حلاوة
حب الله الخاص عن
صفاء مشاهدته وصرف
يقين فأى حلاوة تبقى
في قلبه وإنما حلاوة
الهوى لمدم حلاوة حب
الله . وسئل السوسى
عن التوبة فقال التوبة
من كل شيء ذمه العلم
إلى مامدحه العلم وهذا
وصف يعم الظاهر
والباطن لمن كوشف
بصره العلم لأنه لا يقاء

والخير والديكة فكانت الحيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى فاذن من عرف خفي لطف الله تعالى رضي بفعله على كل حال . و يروى أن عيسى عليه السلام مر برجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجنبين بفالج وقد تآثر لجه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذي عافاني مما ابتلي به كثيرا من خلقه فقال له عيسى يا هذا أي شيء من البلاء أراه مصروفا عنك فقال يا روح الله أنا خير ممن يجعل الله في قلبه ما جعل في قلب من معرفته فقال له صدقت هات يدك فناوله يده فاذا هو أحسن الناس وجها وأفضلهم هيئة وقد أذهب الله عنه ما كان به فصحب عيسى عليه السلام وتبعه معه وقطع عروة بن الزبير رجله من ركبتة من أكلة خرجت بها ثم قال الحمد لله الذي أخذ مني واحدة وإيمك لأن كنت أخذت لقد أبيت ولئن كنت ابتليت لقد عافيت ثم لم يدع ورده تلك الليلة وكان ابن مسعود يقول الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيتهما ركبت إن كان الفقر فإن فيه الصبر وإن كان الغنى فإن فيه البخل . وقال أبو سليمان الداراني قد نلت من كل مقام حالا إلا الرضا فمالي منه إلا المشام الرجح وطى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة وأدخلني النار كنت بذلك راضيا ، وقيل لعارف آخر هل نلت غاية الرضا عنه فقال أما الغاية فلا ولكن مقام الرضا قد نلته لوجعتي جسرا على جهنم يبر الخلائق طى إلى الجنة ثم ملابى جهنم نعمة لقسمه وبدلا من خليفته لأحببت ذلك من حكمه ورضيت به من قسمه وهذا الكلام من علم أن الحب قد استغرق همه حتى منه الاحساس بألم النار فإن بقي إحساس فيغمره ما يحصل من لذته في استنعاره حصول رضا محبوبه بالقائه إياه في النار واستيلاء هذه الحالة غير محال في نفسه وإن كان بعيدا من أحوالنا الضعيفة ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأقوياء ويظن أن ماهو عاجز عنه ييجز عنه الأولياء . وقال الروذباري قلت لأبي عبد الله بن الجلاء الدمشقي قول فلان وددت أن جسدي قرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوه مامنهنا فقال يا هذا إن كان هذا من طريق التعظيم والاحلال فلا أعرف وإن كان هذا من طريق الأشفاق والنصح للخلق فأعرف قال ثم غشي عليه وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه بقی ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد قد تقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء فجعل يبكي لما يراه من حاله فقال لم تبكي ؟ ول لأنى أراك على هذه الحالة العظيمة قال لا تبك فإن أحبه إلى الله تعالى أحبه إلى ثم قال أحدثك شيئا لعل الله أن يفتحك به واكنم على حتى أموت إن اللاتسكة تزورنى فأتس بها وتسلم على فأسمع تسليمها فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة إدهو سبب هذه النعمة الحسنة فمن يشاهد هذا في بلائه كيف لا يكون راضيا به قال ودخلنا على سويد بن منبجة نعوده فرأينا ثوبا ملقى فما ظننا أن تحته شيئا حتى كشف فقالت له امرأته أهلى فداؤك ما نطعمك ما نسقيك فقال طالت الضجة ودبرت الحرافيف وأصبحت نضوا لأطعم طاماموا ولا أسبيغ شرابا منذ كنا فذكر أياما وما يسرنى أتى نقصت من هذا قلامة ظفر . ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة وقد كان كف بصره جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له فإدعو لهذا ولهذا وكان مجاب الدعوة . قال عبد الله بن السائب فأنتيه وأنا غلام فتصرفت إليه فمرفنى وقال أنت قارى أهل مكة؟ قلت نعم فذكر قصة قال في آخرها قلت له يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك فتبسم وقال يا بنى قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصرى . وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يعرف له خبر فقيل له لو سألت الله تعالى أن يرده عليك فقال اعتراضى عليه فيما قضى أشد على من ذهب ولدى ، وعن بعض العباد أنه قال إني أذنبت ذنبا عظيما فأنا أبكى عليه منذ ستين سنة وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب فقيل له وما هو ؟ قال قلت مرة لثى كان ليته

للجهل مع العلم كالإبقاء
ليل مع طلوع الشمس
وهذا يستوعب جميع
أقسام التوبة بالوصف
الخاص والعام وهذا
العلم يكون علم الظاهر
والباطن بتطهير الظاهر
والباطن بأخص
أوصاف التوبة وأعم
أوصافها . وقال
أبو الحسن التورى
التوبة أن تتوب عن
كل شيء سوى الله
تعالى . قولهم فى الورع
قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « ملاك
دينكم الورع » أخبرنا
أبو زرعة إجازة عن
أبي بكر بن خلف عن
أبي عبد الرحمن السلى
إجازة قال أنا أبو سعيد
الحلال قال حدثنى

لم يكن . وقال بعض السلف لو قرض جسمي بالمقاريض لكان أحب إلي من أن أقول لك قضاء الله سبحانه ليته لم يقضه ، وقيل لعبد الواحد بن زيد هبنا رجل قد تعبد خمسين سنة تقصده فقال له يا حبيبي أخبرني عنك هل قنعت به ؟ قال لا ، قال أنست به ؟ قال لا ، قال فهل رضيت عنه ؟ قال لا ، قال فأتنا مزيدك منه الصوم والصلاة ؟ قال نعم ، قال لولا آتي أستحي منك لأخبرتكم بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة ومعناه أنك لم يفتح لك باب القلب فتتري إلى درجات القرب بأعمال القلب وإنما تمتد في طبقات أصحاب اليمين لأن مزيدك منه في أعمال الجوارح التي هي مزيد أهل العموم . ودخل جماعة من الناس على الشبلي رحمه الله تعالى في مارستان قد حبس فيه وقد جمع بين يديه حجارة فقال لمن أتم ؟ قالوا محبوبك فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة قهاريبوا فقال ما بالكم ادعيتم محبتني إن صدقتم فاصبروا على بلائي ، وللشبلي رحمه الله تعالى :

إن الهبة للرحمن أسكرني وهل رأيت محبا غير سكران

وقال بعض عباد أهل الشام كلكم يلقي الله عز وجل مصدقا ولله قد كذبه وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها ولو كان بها شلل ظل يوارىها يعني بذلك أن الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستنكفون منه . وقيل إنه وقع الحريق في السوق فقيل للسرى احترق السوق وما احترق دكانك فقال الحمد لله ثم قال كيف قلت الحمد لله على سلامتي دون المسلمين فتاب من التجارة وترك الحانوت بية عمره توبة واستغفارا من قوله الحمد لله ، فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين ومهما كان ذلك ممكنا في حب الخلق وحفظهم كان ممكنا في حق حب الله تعالى وحفظ الآخرة قطعا . وإمكانه من وجهين : أحدهما الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الوجود كالرضا بالقصد والحجامة وشرب الدواء انتظارا للشفاء . والثاني الرضا به لالحظ وراهه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له فقد يظلم الحب بحيث ينغمر مراد الحب في مراد المحبوب فيكون أذنا الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه وتقوى إرادته ولو في هلاك روحه كما قيل • فما لجرح إذا أرضا كم ألم • وهذا يمكن مع الاحساس بالألم وقد يستولى الحب بحيث يدهش عن إدراك الألم فالقياس والتجربة والشاهدة دالة على وجوده فلا ينبغي أن ينكره من قده من نفسه لأنه إنما قده لقمه سببه وهو فرط حبه ومن لم يذوق طعم الحب لم يعرف محابته فله محبين محائب أعظم مما وصفناه . وقد روى عن عمرو بن الحرث الرافعي قال : كنت في مجلس بالرقعة عند صديق لي وكان معنا فقي يتعشق جارية مغنية وكانت معنا في المجلس فضربت بالقضيب وغنت :

علامة ذل الهوى على العاشقين البكا

ولاسيا عاشق إذا لم يجد مشتكى

فقال لها التي أحسنت والله يا سيدتي أفأذنين لي أن أموت فقالت مت راشدا قال فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فيه وغمض عينيه فحركناه فإذا هو ميت . وقال الجنيدي رأيت رجلا متعلقا بكم صبي وهو يتضرع إليه ويظهر له الهبة فالتفت إليه الصبي وقال له إلى متى هذا التفاني الذي تظهر لي فقال قد علم الله أني صادق فيما أوردته حتى لو قلت لي مت لمت فقال إن كنت صادقا لمت قال فتحنى الرجل وغمض عينيه فوجد ميتا . وقال صمنون الحب كان في جيراننا رجل وله جارية يهبها فاية الحب فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيسا فبينما هو يحرك القدر إذ قالت الجارية آه قال فدهش الرجل وسقطت للأعقمن يده وجعل يحرك ما في القدر بيده حتى سقطت أصابعه فقالت الجارية ما هذا ؟ قال هذا ما كان قولك آه . وحكى عن محمد بن عبد الله البغدادي قال رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول :

ابن قتيبة قال ثنا عمر بن عثمان قال حدثنا بقية عن أبي بكر بن أبي مرزوم عن حبيب بن عبيد عن أبي الدرداء رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توجس على نهر فلما فرغ من وضوئه أفرغ فضله في النهر وقال يئنه الله عز وجل قوما ينعمهم . قال عمر بن الخطاب لا ينبغي لمن أخذ بالقوى ووزن بالورع أن يذل لصاحب دنيا قال معروف السرخي احفظ لسانك من اللعج كما تحفظه من الدم . نقل عن الحرث بن أسد المحاسبي أنه كان على طرف أصبه الوسطى عرق إذا مديده إلى

من مات عشقا فليمت هكذا لاخير في عشق بلا موت

ثم رمى نفسه إلى الأرض فملوه ميتا فهذا أو مثاله قد يصدق به في حب الخالق والتصدق به في حب الخالق
أولى لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال بل كل جمال في
العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال، نعم الذي فقد البصر ينكر جمال الصور والذي فقد السمع ينكر لذة
الألحان والنفحات للوزونة فالذي فقد القلب لا بد أن ينكر أيضا هذه الذات التي لا مظنة لها سوى القلب.

(بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا)

طعام فيه شبهة ضرب
عليه ذلك الرق .
سئل الشبلي عن الورع
فقال الورع أن تتورع
أن يقتت قلبك عن
الله طرفة عين . وقال
أبو سليمان الداراني
الورع أول الزهد كما
أن القناعة طرف من
الرضا . وقال يحيى بن
معاذ الورع الوقوف
على حد العلم من غير
تأويل . مثل الخواص
عن الورع فقال أن
لا يتكلم العبد إلا بالحق
غضب أو رضى وأن
يصكون اهتمامه بما
يرضى الله تعالى .
أخبرنا أبو زرعة بإجازة
عن أبي بكر بن خلف
إجازة عن السلمي قال
سمعت الحسن بن أحمد

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا وكذلك كراهة للعاصي ومقت أهلهم ومقت أسبابها والسعي في إزالتها
بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضا وقد غلط في ذلك بعض البطالين للترين وزعم أن
العاصي والفجور والكافر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به وهذا جهل بالتأويل وغفلة
عن أسرار الشرع ، فأما الدعاء فقد تعبدنا به وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر
الأنبياء عليهم السلام على ما نقلناه في كتاب الدعوات تدل عليه وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في
أعلى القامات من الرضا وقد أتى الله تعالى على بعض عباده بقوله لو يدعوتنار غياور هبوا - أما إنكار العاصي
وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا به قال السورضو بالحياة الدنيا واطمأنوا
بها - وقال تعالى - رضوا بأن يكونوا مع الخوالب وطبع على قلوبهم - وفي الخبر للشهيد « من شهد
منكرا فرضى به فكأنه قد فعله » وفي الحديث « الدال على الشر كغافله ^(١) » وعن ابن مسعود: إن العبد
ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه قيل وكيف ذلك ؟ قال يلغيه فيرضى به وفي الخبر « لو
أن عبدا قتل بالمشرك ورضى بقتله آخر بالمغرب كان شريكا في قتله ^(٢) » وقد أمر الله تعالى بالحدس وللنافة
في الحيرات وتوقى الشرور فقال تعالى - وفي ذلك فليتنافس المتنافسون - وقال النبي صلى الله عليه وسلم
« لا حد إلا في اثنتين رجل آتاه الله حكمة فهو يبينها في الناس ويطهاها ورجل آتاه الله مالاً فإسقطه على
هلكته في الحق ^(٣) » وفي لفظ آخر « ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار فيقول الرجل
لو آتاني الله مثل ما آتى هذا لعمت مثل ما فعل . وأما بعض الكفار والقجار والانكار عليهم ومقتهم
فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى - لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء
من دون المؤمنين - وقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء - وقال تعالى
- وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا - وفي الخبر « إن الله تعالى أخذ اليثاق على كل مؤمن أن
يغض كل منافق وعلى كل منافق أن يغض كل مؤمن ^(٤) » وقال عليه السلام « اللء مع من
أحب ^(٥) » وقال « من أحب قوما ووالاهم حشر معهم يوم القيامة ^(٦) » وقال عليه السلام « أوثق

(١) حديث الدال على الشر كغافله أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بإسناد
ضعيف جدا (٢) حديث لو أن رجلا قتل بالمشرك ورضى بقتله آخر في المغرب كان شريكا في قتله
لم أجد له أصلا بهذا اللفظ ولا بن عدى من حديث أبي هريرة من حضر مصيبة فكرها فكأنما
غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فكأنما حضرها وتقدم في كتاب الأمر بالمعروف (٣) حديث لا حد
إلا في اثنتين الحديث البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم
(٤) حديث إن الله أخذ اليثاق على كل مؤمن أن يغض كل منافق الحديث لم أجد له أصلا
(٥) حديث اللء مع من أحب تقدم (٦) حديث من أحب قوما ووالاهم حشر معهم الطبراني من حديث
أبي قرصافة وابن عدى من حديث جابر من أحب قوما على أعمالهم حشر في زمرة من زاد ابن عدى
يوم القيامة وفي طريقه إسماعيل بن يحيى التيمي ضعيف .

عري الإيمان الحب في الله والبغض في الله (١) وشواهد هذا قد ذكرناها في بيان الحب والبغض في الله تعالى من كتاب آداب الصجبة وفي كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا نعيد. فان قلت فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى (٢) فان كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قاذح في التوحيد وإن كانت بقضاء الله تعالى فمكرهاؤها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد. فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم وقد التبس على قوم حق رأوا السكوت عن المنكر مقاما من مقامات الرضا ومموه حسن الخلق وهو جهل محض بل تقول الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد فليس من التضاد في شيء واحد أن يكره من وجه ويرضى به من وجه إذ قد يموت عدوك الذي هو أيضا عدو بعض أعدائك وساع في إهلاكه فنكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك وترضاه من حيث إنه مات عدوك وكذلك العصية لها وجهان وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته فيرضى به من هذا الوجه تسليما للملك إلى مالك الملك ورضا بما يفعله فيه ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة كونه محموتا عند الله وبغضا عنده حيث سلط عليه أسباب البعد ولتقت فهو من هذا الوجه منكر ومذموم ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال فلنفرض محبوبا من الخلق قال بين يدي محبيه إني أريد أن أمير بين من يحبني ويغضني وأنصب فيه معيارا صادقا وميزانا ناطقا وهو أني أتصد إلى فلان فأؤذيه وأضربه ضربا يضطره ذلك إلى الشتم لي حتى إذا شتمني أبغضته وأخذته عدوا لي فكل من أحبه أعلم أيضا أنه عدوي وكل من أبغضه أعلم أنه صديق ومحبي ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض وحصل البغض الذي هو سبب العداوة لخلق على كل من هو صادق في محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول أما تديرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إيابه للبغض والعداوة فأنا محب له وراض به فانه رأيك وتديرك وفعلك وإرادتك وأما شتمه إياك فانه عدوان من جهته إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ولكنه كان مرادك منه فانك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتديرك الذي دبرته فأنا راض به ولو لم يحصل لك ذلك نقصانا في تديرك وتعويقا في مرادك وأنا كاره لغوات مرادك ولكنه من حيث إنه يوصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك إذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم فأنا كاره له من حيث نسبه إليه ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو رادك ومقتضى تديرك وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحب له لأنه مرادك وأنا على موافقتك أيضا منبغض له لأن شرط المحب أن يكون الحبيب المحبوب حبيبا ولامدوه عدوا وأما بغضك فاني أراضه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعي البغض ولكني أبغضه من حيث إنه وصف ذلك البغض وكسبه وفعله وأمقته لذلك فهو محموت عندي لمقته إياك وبغضه ومقته لك أيضا عندي مكروه من حيث إنه وصفه وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضي وإنما التناقض أن

ابن جعفر يقول سمعت محمد بن داود الدينوري يقول سمعت ابن الجلاء يقول أعرس من أقام بمكة ثلاثين سنة ولم يشرب من ماء زمزم إلا من ماء استقاه بركوته ورشائه ولم يتناول من طعام جلب من مصر شيئا. وقال الخواص: الورع دليل الخوف والخوف دليل المعرفة والمعرفة دليل القربة قولهم في الزهد: قال الجنيد: الزهد خلو الأيدي من الأملاك والقلوب من التبع. وسئل الشبلي عن الزهد فقال لا زهد في الحقيقة لأنه إما أن يزهد فيها ليس له فليس ذلك زهدا أو يزهد فيها هو له

(١) حديث أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله رواه أحمد وتقدم في آداب الصجبة (٢) الأخبار الواردة في الرضا بقضاء الله الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص من سعادة ابن آدم رضاه بما قسم الله عز وجل الحديث وقال غريب وتقدم حديث ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وحديث إن الله بقسطه جعل الروح والفرح في الرضا وتقدم في حديث الاستخارة واقدردلى الخير حيث كان ثم رضني به وحديث من رضني من الله بالقليل من الرزق رضني منه بالقليل من

يقول هو من حيث إنه مرادك مرضى ومن حيث إنه مرادك مكروه وأما إذا كان مكروها لامن حيث إنه فعله ومراده بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لا تناقض فيه ويشهد لذلك كل ما يكره من وجه ويرضى به من وجه ونظائر ذلك لأنخصي فاذن تسليط الله دواعي الشهوة والعصية عليه حتى يجره ذلك إلى حب العصية ويجره الحب إلى فعل العصية يضاهاى ضرب المحبوب للشخص الذى ضربناه مثلا ليجره الضرب إلى الغضب والغضب إلى الشتم ومقت الله تعالى لمن عصاه وإن كانت معصيته بتدييره يشبه بغض الشتم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما يحصل بتدييره واختياره لأسبابه وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبده أعنى تسليط دواعي للعصية عليه يدل على أنه سبقت مشيئته بإبعاده ومقتته فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله ويعتق من مقته الله ويعادى من أبغده الله عن حضرته وإن اضطره بجهده وقدزته إلى معاداته ومخالفته فإنه يبيد مطرودا لمعون عن الحضرة وإن كان بعيدا بإبعاده قهرا ومطرودا بطرده واضطراره والبعده عن درجات القرب يذمى أن يكون مقبلا بغيره إلى جميع المحبين موافقة للمحبيب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده وبهذا يتقرر جميع ماوردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم وللبالغة في مقتهم مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل وهذا كله يستمد من سر القدر الذى لا رخصة في إفشاءه وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان في الشيئة والإرادة ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضى به فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل وكذا من قاله إلهما جميعا منه من غير اقرار في الرضا والكراهة فهو أيضا مقصر وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه فالأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم «القدر سر الله فلا تنشوه»^(١) وذلك يتعلق بعلم الكاشفة وغرضنا الآن بيان الامكان فيما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصى مع أنها من قضاء الله تعالى وقد ظهر الفرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه وبهذا يعرف أيضا أن الدعاء بالمنفرة والمعصية من المعاصى وسائر الأسباب العينية على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا لكشف وسيا لتواتر مزايا اللطف كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعالى في العطش وشرب الماء طلبا لازالة العطش مباشرة سبب رتبة مسبب الأسباب فكذلك الدعاء سبب رتبة الله تعالى وأمر به وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جريا على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل واستقصائه في كتاب التوكل فهو أيضا لا يناقض الرضا لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به نعم إظهار البلاء في معرض الشكوى وانكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض . وقد قال بعض السلف من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول هذا يوم حار أى في معرض الشكابة وذلك في الصيف فأما في الشتاء فهو شكر والشكوى تناقض الرضا بكل حال وذم الأطعمة وغيرها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى لأن مذمة الصنعة مذمة للصانع والكل من صنع الله تعالى وقول القائل الفقر بلاء وحنة والعيال هم وتمب والاحتراف كد ومشفة كل ذلك قاذح في الرضا بل ينبغى أن يسلم التديير لمديره والمملكة للمالكها ويقول ما قاله عمر رضى الله عنه : لا أبالى أصبحت غنيا أو فقيرا فإني لأدرى أيهما خير لي .

العمل وحديث أسألك الرضا بالقضاء الحديث وغير ذلك (١) حديث القدر سر الله فلا تنشوه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر وابن عدي في الكامل من حديث عائشة وكلاهما ضعيف .

فكيف زهد فيه وهو
معه وعندة فليس
الإظلاف النفس وبذل
مواساة ، يشير إلى
الأقسام التي سبقت بها
الأفلام وهذا لو اطرده
هدم قاعدة الاجتهاد
والكسب ولكن
مقصود الشبلى أن يقال
الزهد في عين للصد
بالزهد لثلا يقر به .
قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم «إذا
رأيت الرجل قد أوى
زهدا في الدنيا ومنطقا
فأقربوا منه فإنه يلقي
الحكمة» وقد سمي الله
عز وجل الزاهد بن
علماء في قصة قارون
قال تعالى - وقال
الذين أوتوا العلم ويلكم
ثواب الله خير - قيل

(بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظان للمعاصي ومذمتها لا يقدح في الرضا)

اعلم أن الضعيف قد يظن أن النهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون (١) يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بمدظهور الطاعون أن تلو فتح هذا الباب لا رحل عنه الأصحاء وبقى فيه المرضى مهملين لا متمهدين لهم فيهلكون هزلا وضرا ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأخبار بالفرار من الزحف (٢) ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة في الانصراف وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل وإذ اعرف للمعنى ظهر أن الفرار من البلاد التي هي مظان للمعاصي ليس فرارا من القضاء بل من القضاء الفرار عما لا بد من الفرار منه وكذلك مذمة المواضع التي تدعو إلى المعاصي والأسباب التي تدعو إليها لأجل التنفير عن العصية ليست منمومة لما زال السلف الصالح يتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بغداد وإظهارهم ذلك وطلب الفرار منها فقال ابن المبارك قد طفت الشرق والغرب لما رأيت بها شرًا من بغداد قيل وكيف قال هو بل زدري فيه نعمة الله وتستصغر فيه مصيبة الله ولما قم خراسان قيل له كيف رأيت بغداد قال ما رأيت بها إلا شرطيا غضبان أو تاجرا لهفان أو قارئا حيران ولا ينبغي أن تظن أن ذلك من الغيبة لأنه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به وإنما قصد بذلك تحذير الناس وكان يخرج إلى مكة وقد كان مقامه بغداد يرقب استعداد القافلة ستة عشر يوما فكان يتصدق بستة عشر دينارا لكل يوم دينار كفارة لقامه وقد ذم العراق جماعة كعمر بن عبد العزيز وكعب الأحمري. وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له أين تسكن فقال العراق قال فما تصنع به بلغني أنه ما من أحد يسكن العراق إلا قبض الله له قرينا من البلاء وذكر كعب الأحمري يوما العراق فقال فيه تسعة أعشار الشر وفيه الداء المضال وقد قيل قسم الحبر عشرة أجزاء فتسعة أعشاره بالشام وعشره بالعراق وقسم الشر عشرة أجزاء على العكس من ذلك وقال بعض أصحاب الحديث كنا يوما عند الفضيل بن عياض فجاءه سوفي متدرع بسبابة فأجلسه إلى جانبه وأقبل عليه ثم قال أين تسكن فقال بغداد فأعرض عنه وقال يا تبتنا أحدم في زى الرهبان فاذا سألتاه أين تسكن قال في عسى الظلمة وكان بشر بن الحرث يقول مثال التمدد بغداد مثال التمدد في الحش وكان يقول لا تفتدوا بي في اللقائم ها من أردادن مخرج فليخرج وكان أحمد بن حنبل يقول لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثر في يقضى قيل وأين تختار السكنى قال بالثغور. وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد زاهد وشريرم شرير فهذا يدل على أن من بلى ببلدة تكثر فيها للمعاصي ويقال فيها الخير فلا عذر له في اللقائم بها بل ينبغي أن يهاجر قال الله تعالى - ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها - فان منه عن ذلك عمال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضيا بحاله مطمئن النفس إليه بل ينبغي أن يكون منزعج القلب منها قائلًا على الدوام - ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها - وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل الطبعين قال الله تعالى - واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة - فاذن ليس في شيء من أسباب نقص الدين البتة رضا مطلق إلا من حيث إضافتها إلى فعل الله تعالى فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها عمال وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل القامات الثلاث رجل يحب الموت شوقا إلى لقاء الله تعالى ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ورجل قال لا أختر شيئا بل أرضى

هم الزاهدون . وقال سهل بن عبد الله للعقل ألف اسم ولكل اسم منه ألف اسم وأول كل اسم منه ترك الهدى ، وقيل في قوله تعالى - وجعلناهم أممًا يهدون بأمرنا لما صبروا - قيل عن الدنيا . وفي الخبر والعلاء أبناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا فاذا دخلوا في الدنيا فاحذروهم على دينكم ه وجاء في الأثر لا تزال لإله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله ما لم يبالوا ما قص من دنياهم فاذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين .

(١) حديث النهي عن الخروج من بلد الطاعون تقدم في آداب السفر (٢) حديث إنه شبه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف فيه .

بما اختاره الله تعالى ورفضت هذه السألة إلى بعض العارفين فقال صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلمهم فضولا واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط فقال للثوري كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم واليوم وددت أني مت فقال له يوسف لم ؟ قال لما أخوف من الفتنة فقال يوسف لكني لا أكره طول البقاء فقال سفيان لم ؟ قال لعل أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا فقيل لوهيب إيش تقول أنت ؟ فقال أنا لا أختار شيئا أحب ذلك إلى أحبه إلى الله سبحانه وتعالى قبله الثوري بين عينيه وقال روحانية ورب السكبة .

(بيان جملة من حكايات المهين وأقوالهم ومكاشفاتهم)

وقال سهل : أعمال البر كلها في موازين الزهاد وثواب زهدهم زيادة لهم . وقيل من سمى باسم الزهد في الدنيا فقد سمى بألف اسم محمود ومن سمى باسم الرغبة في الدنيا فقد سمى بألف اسم مذموم . وقال السري الزهد ترك حظوظ النفس من جميع مافي الدنيا ويجمع هذا الحظوظ المالية والجاهية وحب المنزلة عند الناس وحب المهددة والثناء وسئل الشبلي عن الزهد فقال الزهد غفلة لأن الدنيا لاشيء والزهد في لاشيء غفلة وقال بعضهم لما رأوا حقارة الدنيا زهدوا

قيل لبعض العارفين إنك محب فقال لست محبا إنما أعجب وبالمحب متموب وقيل له أيضا الناس يقولون إنك واحد من الصبة فقال أنا كل الصبة وكان يقول إذا رأيتموني فقد رأيتم أربعين بدلا قيل وكيف وأنت شخص واحد قال لأنني رأيت أربعين بدلا وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه وقيل له بلغنا أنك ترى الحضر عليه السلام فتبسم وقال ليس العجب بمن يرى الحضر ولكن العجب بمن يريد الحضر أن يراه فيحتجب عنه وحكى عن الحضر عليه السلام أنه قال ما حدثت نفسي يوما قط أنه لم يبق ولي لله تعالى إلا عرفته إلا ورأيت في ذلك اليوم ولما لم أعرفه وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى فصاح ثم قال ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك قيل فحدثنا بأشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى فقال وهذا أيضا لا يجوز أن أطلعكم عليه قيل فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك فقال نعم دعوت نفسي إلى الله فجمحت على فعمزت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لي بذلك . ويحكى عن يحيى بن معاذ أنه رأى أبا يزيد في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزا على صدور قدميه رافعا أخصيه مع عقبه عن الأرض ضاربا بذقنه على صدره شاخصا بعينه لا يظرف قال ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قصد فقال اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء والشي في الهواء فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوما طلبوك فأعطيتهم طي الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء ثم انفتق فرآني فقال يحيى قلت نعم ياسيدي فقال مذمتي أنت ههنا ؟ قلت منذ حين فسكت فقلت ياسيدي حدثني بشيء فقال أحدثك : يصلح لك أدخلني في الفلك الأسفل فدورني في الملكوت السفلي وأراني الأرضين وما تحتمل إلى الثرى ثم أدخلني في الفلك العلوي فطوف بي في السموات وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش ثم أوقفني بين يديه فقال سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك ؟ فقلت ياسيدي ما رأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه فقال أنت عبيدي حقا تعبدني لأجلى صدقا لأفغان بك ولأنعمان فذكر أشياء ، قال يحيى فهالني ذلك وامتلأت به وعجبت منه فقلت ياسيدي لم لاسألك المعرفة به وقد قال لك ملك الملوك سلني ما شئت قال فصاح بي صيحة وقال اسكت ويملك غرت عليه مني حتى لأحبه أن يعرفه سواه . وحكى أن أبا تراب النخشي كان محبا لبعض المريدين فكان يدينسه ويقوم بعصا له والمريد مشغول بعبادته ومواجدهته فقال له أبو تراب يوما لو رأيت أبا يزيد فقال إني عنه مشغول فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله لو رأيت أبا يزيد هاج وجد المريد فقال ويحك ما أصنع بأبي يزيد قد رأيت الله تعالى فأغثناني عن أبي يزيد قال أبو تراب فهاج طبعي ولم أملك نفسي فقلت ويملك تعتر بالله عز وجل لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة قال فبيت النبي من قوله وأنكره فقال وكيف ذلك قال له ويملك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك ترى أبا يزيد

عند الله قد ظهر له على مقداره فصرف ماقلت فقال احملني إليه فذكر قصة قال في آخرها فوقنا على تل تنتظره ليخرج إلينا من العيضة وكان يأوى إلى غيضة فيها سبع قال فمر بنا وقد قلب نروة على ظهره فقلت لافتي هذا أبو يزيد فانظر إليه فانظر إليه الفقى فضعف فخر كناه فاذا هوميت فتماونا على دفنه فقلت لأبي يزيد ياسيدي نظره إليك قتله قال لا، ولكن كان صاحبكم صادقا واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه فلما رأنا انكشف له سر قلبه فضاقت عن حمله لأنه في مقام الضياء للريدين فقتله ذلك. ولما دخل الزنج البصرة قتلوا الأنس ونهبوا الأموال اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا لو سألت الله تعالى دفعهم فسكت ثم قال إن لله عبادة في هذه البلدة لودعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات في ليلة واحدة ولكن لا يفعلون قيل لم؟ قال لأنهم لا يحبون ما لا يحب ثم ذكر من إجابة الله أشياء لا يستطيع ذكرها حتى قال ولو سألوه أن لا يقم الساعة لم يقمها وهذه أمور ممكنة في أنفسها فمن لم يحظ بشيء منها فلا ينبغي أن يخلو عن التصديق والایمان بإمكانها فإن القدرة واسعة والفضل عميم ومعجائب الملك والملكوت كثيرة ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها وفضله على عباده الذين اصطفى لا غاية له ولذلك كان أبو يزيد يقول إن أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة إبراهيم فاطلب ما وراء ذلك فإن عنده فوق ذلك أضعافا مضاعفة فان سكنت إلى ذلك حبيبك به وهذا بلاء مثلهم ومن هو في مثل حالهم لأنهم الأمل فالأمل. وقد قال بعض العارفين: كوشفت بأربعين حوراء رأيتهن يتساعين في الهواء عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشن ويتثنى معهن فنظرت إليهن نظرة فوقبت أربعين يوما ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال، وقيل لي انظر إليهن قال فسجدت وغمضت عيني في سجودي لثلاثا انظر إليهن وقلت أعوذ بك مما سواك لا حاجة لي بهذا فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عني. فأمثال هذه المكاشفات لا ينبغي أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه للظلمة وقلبه القاسي لضاقت مجال الإيمان عليه بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة أدناها الإخلاص وإخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهرا وباطنا، ثم مكاتبة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصنا بحسن المحول فهذه أوائل سلوكهم وأقل مقاماتهم وهي أعز موجود في الأتقياء من الناس وبعد تصفية القلب عن كبدورة الالتفات إلى الخلق بغيبض عليه نور اليقين وينكشف له مبادئ الحق وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجرى مجرى إنكار من أنكرك إمكان انكشاف الصورة في الحديدية إذا شكلت وتقيت وصقلت وصورت بصورة للرآة فنظر للنسكر إلى مافي يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والحجب وهو لا يحكي صورة من الصور فأنكر إمكان انكشاف المرئي فيها عند ظهور جوهرها وإنكار ذلك غاية الجهل والضلال فهذا حكم كل من أنكرك كرامات الأولياء إذ لا مستند له إلا قصوره عن ذلك وقصوره من رآه وبشئ المستند ذلك في إنكار قدرة الله تعالى بل إنما يشم روائح المكاشفة من سلك شيئا ولو من مبادئ الطريق كما قيل لبشر بأى شيء بلغت هذه للزلة قال كنت أكره الله تعالى حالي معناه أسأله أن يكتم على ويغني أمرى. وروى أنه رأى الحضير عليه السلام، فقال له ادع الله تعالى لي، فقال يسر الله عليك طاعته. قلت: زدني قال وسترها عليك، فقيل معناه سترها عن الخلق، وقيل معناه سترها عنك حتى لا تلتفت أنت إليها. وعن بعضهم أنه قال ألقى الشوق إلى الحضير عليه السلام فسألت الله تعالى مرة أن يريني إياه ليطمئني شيئا كان أهم الأشياء على. قال فرأيتة فما غلب على همى ولا همى إلا أن قلت له يا أبا العباس علمني شيئا إذا قلته حجبت عن قلوب الخليفة فلم يكن لي فيها قدر ولا يعرفني أحد بصالح ولا ديانة، فقال قل: اللهم أسبل على كتيبي

زهدهم في الدنيا
لهوانها عندهم وعندي
أن الزهد في الزهد
غير هذا وإنما الزهد
في الزهد بالخروج من
الاختيار في الزهد لأن
الزاهد اختار الزهد
وأرادته وإرادته تستند
إلى عله وعله قاصر
فاذا أقيم في مقام ترك
الارادة وانسلخ من
اختياره. كاشفه الله
تعالى بمرادته فيترك
الدنيا عراد الحق لا بمراد
نفسه فيكون زهده
بالله تعالى حينئذ أو
يعلم أن مراد الله منه
التلبس بشيء من
الدنيا فما يدخل بالله
في شيء من الدنيا
لا يقص عليه زهده
فيكون دخوله في

سترك وحط على سرادقات حجبك واجعلني في مكنون غيبك واحجبني عن قلوب خلقك قال ثم غاب فلم أراه ولم أشتق إليه بعد ذلك فمازت أقول هذه الكلمات في كل يوم فحكي أنه صار بحيث كان يستدل ويمتنحى حتى كان أهل الدمة يسخرون به ويستسخرونه في الطرق يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم وكان الصبيان يلعبون به فكانت راحته ركود قلبه واستقامة حاله في ذلوه وخموله فكذا حال أولياء الله تعالى في أمثال هؤلاء ينبغي أن يطلبوا والمفرورون إنما يطلبونهم تحت الرقعات والطيالسة وفي الشهور بين الخلق بالعلم والورع والرياسة وغيره الله تعالى على أوليائه تأبى الإخفاء كما قال تعالى: أوليائي تحت قباني لا يعرفهم غيري ، وقال صلى الله عليه وسلم «رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له أو قسم على الله لأمره» (١) وبالجملة فأبعد القلوب عن مشام هذه العان القلوب المتكبرة العجبة بأفهامها المستبشرة بعملها وعلماها وأقرب القلوب إليها القلوب النكسرة المستبشرة ذلت نفسها استتمارا إذا ذل واهتم لم يحس بالذل كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه فاذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضا به دم الغفاته إلى التل بل كان عند نفسه أخس منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلا في حقه بل يرى نفسه دون ذلك حتى صار التواضع الطبع صفة ذات لمثل هذا القلب يرجى له أن يستشقى مبادئ هذه الروائح فان قدنا مثل هذا القلب وحرمانا مثل هذا الروح فلا ينبغي أن يطرح الايمان بإمكان ذلك لأنه ممن لا يقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبا لأولياء الله مؤمنا بهم فمضى أن يحشر مع من أحب ويشهد لهذا ما روى أن عيسى عليه السلام قال لبي إسرائيل ابن يئس الزرع قالوا في التراب فقال بحق أقول لكم لا تثبت الحكمة إلا في قاب مثل التراب ولقد انتهى الريدون لولاية الله تعالى في طلب شروطها بأذلال النفس إلى منتهى الضعة والحسة حتى روى أن ابن الكريبي وهو أستاذ الجنيد دعا رجلا إلى طعام ثلاث مرات ثم كان يردّه ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله في المرة الرابعة فسأله عن ذلك فقال قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينظر دمه يدعى فيرمى له عظم فيعود ولورد دنتي خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبت وعنه أيضا أنه قال نزلت في محلة فرفرت فيها بالصالح ففتشت على قلبي فدخلت الحمام وعبدت إلى ثياب فاخرة فسرقها ولبستها لم يلبس مرقعتي فوقها وخرجت وجملت أمشي قليلا قليلا فلحقوني فترعوا مرقعتي وأخذوا الثياب وصفعوني وأوجعوني ضربا فصرت بعد ذلك أعرف بصلص الحمام فسكنت نفسي فكذا كانوا يروّضون أنفسهم حتى يخاصم الله من النظر إلى الخلق ثم من النظر إلى النفس فان الملتفت إلى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له فليس بين القلب وبين الله حجاب به وتخال حائل وإنما بعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها وأعظم الحجب شغل النفس ، ولذلك حكى أن شاهدا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يغازق مجلس أبي يزيد ، فقال له يوما أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لأفطر وأقوم الليل لأنام ولا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئا وأنا أصدق به وأحبه ، فقال أبو يزيد ولو صمت ثلاثمائة سنة وقت لي لها ما وجدت من هذا ذرة . قال ولم ؟ قال لأنك محجوب بنفسك قال فلماذا دواء ؟ قال نعم قال قل لي حتى أعمله قال لا تقبله ، قال فاذا ذكره لي حتى أعمل قال اذهب الساعة إلى الزين فاحلق رأسك ولحيتك واتزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق في عنقك مخلاة مملوءة جوزا واجمع الصبيان حولك وقل كل من صفهني صفعة أعطته جوزة وادخل السوق وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك فقال الرجل سبحان الله تقول لي مثل هذا فقال أبو يزيد قولك سبحان الله شرك قال وكيف ؟ قال لأنك عظمت نفسك فسبحنا

(١) حديث رب أشعث أغبر ذي طمرين مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

التي من الدنيا بالله
وباذن منه زهدا
في الزهد والزاهد
في الزهد استوى عنده
وجود الدنيا وعدمها
إن تركها تركها بالله
وإن أخذها أخذها
بالله وهذا هو الزهد في
الزهد وقد رأينا من
العارفين من أقيم في
هذا القام . وفوق هذا
مقام آخر في الزهد وهو
لمن يرد الحق إليه
اختياره لسمة علمه
وطهارة نفسه في مقام
البقاء في زهد زهدا
ثالثا ويترك الدنيا بعد
أن مكن من ناصيتها
وأعيدت عليه
موهوبة ويكون تركه
الدنيا في هذا القام
باختياره واختياره

وما سبحت ربك فقال هذا لأفعله ولكن دلتى على غيره فقال ابتدء به فاقبل كل شيء فقال لأطبقه قال قد قات لك إنك لا تقبل فهذا الذى ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره إلى نفسه ومرض بنظر الناس إليه ولا ينجى من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله فمن لا يطبق الدواء فلا ينجى أن ينكر إمكان الشفاء في حق من داوى نفسه بعد المرض أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلاً فأقل درجات الصحة الإيمان بإمكانها فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضاً وهذه أمور جليلة في الشرع واضحة وهى مع ذلك مستبعدة عند من يعد نفسه من علماء الشرع فقد قال عليه السلام «لا يستكمل العبد الإيمان حتى تكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب من أن يعرف» (١) وقد قال عليه السلام « ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ولا يرأى بشيء من عمله وإذا عرض عليه أمران أحدهما للدين والآخرة والآخرة آثر أمر الآخرة على الدنيا (٢) » وقال عليه السلام « لا يكمل إيمان عبد حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق وإذا رضى لم يدخله رضاه في باطل وإذا قار لم يتناول ما ليس له (٣) » وفي حديث آخر « ثلاث من أوتيهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود العدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر وخشية الله في السر والملاية (٤) » فهذه شروط ذكرها رسول الله صلى الله عليه وآله لأولى الإيمان فالعجب ممن يدعى علم الدين ولا يصادف في نفسه ذرة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يجحد ما لا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة عليه وراه الإيمان ، وفي الأخبار أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه إيماناً أخذ لخلق من لا يفر عن ذكرى ولا يكون له هم غيرى ولا يؤثر على شئ من خلقه وإن حرق بالنار لم يجحد لحرق النار وجعا وإن قطع بالناشير لم يجحد لس الحديد أما . فمن لم يبلغ إلى أن يقبله الحب إلى هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والكشفات وكل ذلك وراء الحب والحب وراء كمال الإيمان ومقامات الإيمان وتفاوته في الزيادة والنقصان لا حصر له ولذلك قال عليه السلام للصديق رضى الله عنه « إن الله تعالى قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بى من أمتى وأعطاني مثل إيمان كل من آمن به من ولد آدم (٥) » وفي حديث آخر « إن الله تعالى ثلاثاً خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة فقال أبو بكر يا رسول الله هل في منها خلق فقال كلها فيك يا أبا بكر وأحبها إلى الله سبحانه (٦) » وقال عليه السلام

من اختيار الحق قد
يختار تركها حيناً تأسياً
بالأنبياء والصالحين
ويرى أن أخذها في
مقام الزهد رفق أدخل
عليه لموضع ضعفه عن
درك شأو الأقوياء من
الأنبياء والصدّيقين
فترك الرفق من الحق
بالحق للحق وقد تناوله
باختياره رفقاً بالنفس
بتدبير يسوسه فيه
صريح العلم وهذا
مقام التصرف لأقوياء
العارفين زهدوا ثالثاً
بالله كما رغبوا ثانياً بالله
كما زهدوا أولاً بالله .
[قولهم في الصبر]
قال سهل: الصبر انتظار
الفرج من الله وهو
أفضل الخدمة وأعلاها
وقال بعضهم: الصبر

(١) حديث لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف ذكره صاحب الفردوس من حديث على بن أبي طلحة وعلى هذا فهو معضل فعلى ابن أبي طلحة إنما سمع من التابعين ولم أجده أصلاً (٢) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وفيه سالم الراذى ضعفه ابن معين والنسائي ووثقه ابن حبان واسم أبيه الواحد (٣) حديث لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق الحديث الطبراني في الصغير بلفظ ثلاث من أخلاق الإيمان وإسناده ضعيف (٤) حديث ثلاث من أوتيهن فقد أوتى ما أوتى آل داود العدل في الرضا والغضب غريب بهذا اللفظ والمعروف ثلاث منجيات فذكرهن بنحوه وقد تقدم (٥) حديث إنه قال للصديق إن الله قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بى من أمتى الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن على مع تقديم وتأخير والحارث ضعيف (٦) حديث إن الله تعالى ثلاثاً خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة الحديث الطبراني في الأوسط من حديث أنس مرفوعاً عن الله خلقته بضعة عشر وثلاثاً خلق من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة ومن حديث ابن عباس الإسلام ثلاثاً شرعة وثلاث عشرة شريعة

« رأيت ميزانا دلى من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمقي في كفة فرجحت بهم ووضع أبو بكر في كفة وجيء بأمقي فوضعت في كفة فرجح بهم (١) » ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره فقال « لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لا اتخذت أباً بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله تعالى (٢) » يعني نفسه .

(خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالهبة ينتفع بها)

قال سفيان : الهبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال غيره دواء الله كروا قال غيره إشار المحبوب وقال بعضهم كراهية البقاء في الدنيا وهذا كله إشارة إلى ثمرات الهبة فأما نفس الهبة فليعرضوا لها ، وقال بعضهم الهبة معنى من المحبوب قهر للقلوب عن إدراكه وتمتع الألسن عن عبارته ، وقال الجنيد حرم الله تعالى الهبة على صاحب العلاقة وقال كل عجة تكون بعوض فإذا زال العوض زالت الهبة وقال ذو النون قل لمن أظهر حب الله احذر أن تذل لغير الله وقيل للشبلي رحمه الله صف لنا العارف والمحب فقال العارف إن تكلم هلك والمحب إن سكت هلك وقال الشبلي رحمه الله :

يا أيها السيد الكريم حبك بين الحشا مقيم
يارافع النوم عن جفوني أنت بما مر بي عليم
عجبت لمن يقول ذكرت إلي وهل أنسى فأذكر ما نسيت
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ولولا حسن ظني ما حييت
فأحيا بالمنى وأموت شوقاً فكم أحيا عليك وكم أموت
شربت الحب كأساً بعد كأس فما نفد الشراب وما رويت
قلبت خياله نصب ليعنى فان قصرت في نظري عميت

وقالت رابعة العدوية يوماً من يدلنا على حبيبتنا فقالت خادمة لها حبيبتنا معنا ولكن الدنيا قطعنا عنه وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى أوحى الله إلى عيسى عليه السلام إنى إذا اطلمت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي وتوليتة بحفظي وقيل تكلم ممنون يوماً في الهبة فإذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فمات وقال إبراهيم بن آدم إلهي إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وآستقي بذكرك وفرغتي للتفكر في عظمتك . وقال السري رحمه الله من أحب الله عاش ومن مال إلى الدنيا طاش والأحمق يندو ويروح في لاش والعاقل عن عبوبه فئاش وقيل لرابعة كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم فقالت والله إنى لأحبه حباً شديداً ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين وسئل عيسى عليه السلام عن أفضل الأعمال فقال الرضا عن الله تعالى والحب له وقال أبو يزيد المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة إنما يحب من مولاه وقال الشبلي المحب دهش في لذة وحريرة في تعظيم وتبيل المحبة أن تمحو أترك عنك حتى لا يبقى فيك شيء راجع منك إليك وقيل الهبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح وقال الخواص الهبة محو الارادات واحترق جميع الصفات والحاجات وسئل سهل عن الهبة فقال

وفيه وفي الكبير من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ الايمان وللبزار من حديث عثمان بن عفان إن لله تعالى مائة وسبع عشرة شريعة الحديث وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبي بكر وجوابه وكلها ضعيفة (١) حديث رأيت ميزانا دلى من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمقي في كفة فرجحت بهم الحديث أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف (٢) حديث لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لا اتخذت أباً بكر خليلاً الحديث متفق عليه وقد تقدم.

أن تصبر في الصبر
أى لا تطالع فيه
الفرج . قال الله تعالى
والصابرين في البأساء
والضراء وحين البأس
أولئك الذين صدقوا
وأولئك هم التقون .
وقيل : لكل شيء
جوهر وجوهر الانسان
العقل وجوهر العقل
الصبر فالصبر عرك
النفس وبالعرك تلين
والصبر جاز في الصابر
مجري الأنفاس لأنه
يحتاج إلى الصبر عن
كل ما يبى ومكروه
ومذموم وظاهره أو الباطن
والعلم يدل والصبر
يقبل ولا تتفع دلالة العلم
بغير قبول الصبر ومن
كان العلم سائسه في
الظاهر والباطن لا يتم

عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه وقيل معاملة المحب على أربع منازل على المحبة والمهبة والحياء والتعظيم وأفضلها التعظيم والمحبة لأن هاتين الزلتين يقيان مع أهل الجنة في الجنة ويرفع عنهم غيرهما وقال هرم بن حبان المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه وإذا أحبه أقبل عليه وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بين الفترة وهي تحصره في الدنيا وتروحه في الآخرة . وقال عبد الله بن محمد سمعت امرأة من للتعبيدات تقول وهي باكية والدموع على خدها جارية والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لا اشتريته شوقاً إلى الله تعالى وحبالقائه قال فقلت لها فلي ثقة أنت من عملك قالت لا ولكن لحبي إياه وحسن ظني به أفترأه بعد ذنبي وأنا أحبه وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إلىّ وتقطعت أوصالهم من محبتي يا داود هذه إرادتى فى الدبرين عنى فكيف إرادتى فى القلبين علىّ يا داود أحوج ما يكون العبد إلىّ إذا استغنى عنى وأرحم ما أكون ببغدى إذا أدبر عنى وأجل ما يكون عندى إذا رجع إلىّ وقال أبو خالد الصغار لقي نبي من الأنبياء عابداً فقال له إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معشر الأنبياء نعمل عليه أتم تعملون على الحروف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق . وقال الشبلى رحمه الله أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود ذكركمى لهذا كرىن وجنتى للمطيعين وزيارتى للمشتاقين وأنا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام يا آدم من أحب حببنا صدق قوله ومن أنس بحببه رضى فعله ومن اشتاق إليه جد فى مسيره وكان الخواص رحمه الله يضرب على صدره ويقول واشوقاه لمن يرانى ولا أراه . وقال الجنيد رحمه الله يحيى بن نوس عليه السلام حتى عمى وقام حتى أعشى وصلى حتى أهدى وقال وعزتك وجلالك لو كان بينى وبينك بحر من نار لحضته إليك شوقاً منى إليك وعن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال سألت رسول الله ﷺ عن سنته فقال المعرفة رأس مالى والعقل أصل دىنى والحب أساسى والشوق مركبى وذكر الله أنيسى والثقة كبرى والحزن رفيقى والعلم سلاحى والصبر رداً والرضا غنىتى والعجز غفري والزهد حرفتى واليقين قوتى والصدق شفىعى والطاعة حىى والجهاد خلقى وقررة عىنى فى الصلاة (١) وقال ذوالنون سبحان من جعل الأرواح جنوداً مجندة فأرواح المارقين جلاية قدسية فلذلك اشتاقوا إلى الله تعالى وأرواح المؤمنىن روحانية فلذلك حنوا إلى الجنة وأرواح الفاضلىن هوائية فلذلك مالوا إلى الدنيا . وقال بعض المشايخ رأيت فى جبل الكام رجلاً أسمى اللون ضئيف البدن وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول :

الشوق والهوى صيرانى كما ترى

ويقال الشوق نار الله أشعلها فى قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما فى قلوبهم من الحواطر والارادات والعبوارض والحاجات فهذا القدر كاف فى شرح المحبة والأنس والشوق والرضا فلنقتصر عليه والله الموفق للصواب تم كتاب المحبة والشوق والرضا والأنس يتلوه كتاب النية والاخلاص والصدق .

﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق ﴾

(وهو الكتاب السابع من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

نحمد الله حمد الشاكرىن ونؤمن به إيمان الموقنين ونقر بوحدانىته إقرار الصادقىن ونشهد أن لا إله

(١) حديث على سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال المعرفة رأس مالى والعقل أصل دىنى الحديث ذكره القاضى عياض من حديث على بن أبى طالب ولم أجد له إسناداً .

﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق ﴾

ذلك له إلا إذا كان الصبر مستقره ومسكنه والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقل أحدهما بدون الآخر ومصدرهما الفريزة العقلية وهما متقاربان لاتحاد مصدرهما وبالصبر يتعامل على النفس وبالعلم يرتقى الروح وهما البرزخ والفرقان بين الروح والنفس ليستقر كل واحد منهما فى مستقره وفى ذلك صريح العدل وصحة الاعتدال وباتصال أحدهما عن الآخر أعنى العلم والصبر ميل أحدهما على الآخر أعنى النفس والروح وبيان ذلك بدق وناهيك بشرف

إلا الله رب العالمين وخالق السموات والأرضين ومكلف الجن والأنس والملائكة القربين أن يعبدوه عبادة المخلصين فقال تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - فإله إلا الدين الخالص التين . فانه أغنى الأغنياء عن شركة الشاركن والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى جميع النبيين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

[أما بعد] فقد انكشف لأرباب القلوب بصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة فالناس كلهم هلكت إلا العالمون والعالمون كلهم هلكت إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم فالعمل بغير نية عناء والنية بغير إخلاص رياء وهول لئلا يفتكهم ومع العصيان سواء والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً - وقد مننا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً - وليت شعري كيف يصح نيته من لا يعرف حقيقة النية أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص أو كيف تطالب الخالص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولاً لتحصل المعرفة ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما سبلنا العبد إلى النجاة والإخلاص ونحن نذكر معاني الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب : الباب الأول في حقيقة النية ومعناها . الباب الثاني : في الإخلاص وحقيقته . الباب الثالث : في الصدق وحقيقته . [الباب الأول في النية] وفيه بيان فضيلة النية وبيان حقيقة النية وبيان كون النية خيراً من العمل وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس وبيان خروج النية عن الاختيار .

(بيان فضيلة النية)

قال الله تعالى - ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه - والراد بذلك الإرادة هي النية وقال ﷺ « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرس ورب قتيل بين الصفيين الله أعلم بنيه (٢) » وقال تعالى - إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما - فجعل النية سبب التوفيق وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم (٣) » وإيماناً على القلوب لأنها مظنة النية وقال صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد للملائكة في صحف محتمة فتلقى بين يدي الله تعالى فيقول ألقوا هذه الصحيفة فإنه لم يرد بما فيها وجهي ثم ينادى الملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا فيقولون يا ربنا إنه لم يعمل شيئاً من ذلك فيقول الله تعالى إنه نواه (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « الناس أربعة رجل آتاه الله عز وجل علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه في ماله فيقول لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لعلت كما يعمل فيها في الأجر سواء ورجل آتاه الله تعالى مالا ولم يؤته علماً فهو يتخطى بحمله في ماله فيقول لو آتاني الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فيها في الوزر سواء (٥) » ألا ترى كيف شرکه بالنية في محاسن عمله

(١) حديث إنما الأعمال بالنيات الحديث متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم (٢) حديث أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرس ورب قتيل بين الصفيين الله أعلم بنيه أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبد الله بن لهيعة (٣) حديث إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث إن العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد بها الملائكة الحديث الدار قطني من حديث أنس بإسناد حسن (٥) حديث الناس أربعة رجل آتاه الله علماً ومالاً الحديث ابن ماجه

الصبر قوله تعالى - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - كل أجر أجره بحساب وأجر الصابرين بغير حساب . وقال الله تعالى لنيه : - واصبر وما صبرك إلا بالله - أضاف الصبر إلى نفسه لشرف مكانه وتكامل النعمة به . قيل وقف رجل على الشبلي فقال أي صبر أشد على الصابرين فقال الصبر في الله فقال لا ، فقال الصبر لله فقال لا ، فقال الصبر مع الله فقال لا ، فغضب الشبلي وقال ويحك أي شيء هو فقال الرجل الصبر عن الله قال فصرخ الشبلي صرخة كاد أن تلتف روحه . وعندى

ومساويه وكذلك في حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ذل «إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ولا وطننا موطأ يخيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا محصاة إلا شركونا في ذلك وهم بالمدينة قالوا وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا قال حسبهم العذر فشركوهم بحسن النية (١)» وفي حديث ابن مسعود «من هاجر ينتهي شيئا فهو له هاجر رجل فتزوج امرأة منافقة كان يسمى مهاجر أم قيس (٢)» وكذلك جاء في الخبر «إن رجلا قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار (٣)» لأنه قاتل رجلا ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته وفي حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم «من غزا وهو لا ينوي إلا عقلا فله مانوى (٤)» وقال أبي «استعنت رجلا يفرز ومعنى فقال لاحق تجعل لي جملا فجعلت له فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له (٥)» وروى في الاسرائيليات أن رجلا مراكبثان من رمل في جماعة فقال في نفسه لو كان هذا الرمل طعاما لتسمته بين الناس فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له إن الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك. وأعطاك ثواب مالوكان طعاما فتصدقته به، وقد ورد في أخبار كثيرة «من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة (٦)» وفي حديث عبد الله بن عمرو «من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها أرغب ما يكون فيها ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه في قلبه وجمع عليه ضيقه وفارقها أزهد ما يكون فيها (٧)» وفي حديث أم سلمة «أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم البيداء فقلت يا رسول الله يكون فيهم السكره والأجير فقال يخسرون على نياتهم (٨)» وقال عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إنما يقتل القتلتون على النيات (٩)» وقال عليه السلام «إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الحلقى على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا فلان يقاتل حمية فلان يقاتل عصية ألا فلا تقولوا فلان قتل في سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله

من حديث أبي كريمة الأعماري بسند جيد بلفظ مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر الحديث وقد تقدم ورواه الترمذي بزيادة وفيه وإنما الدنيا لأربعة نفر الحديث وقال حسن صحيح (١) حديث أنس بن مالك بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا الحديث البخاري مختصرا وأبو داود (٢) حديث ابن مسعود من هاجر ينتهي شيئا فهو له هاجر رجل فتزوج امرأة منافقة كان يسمى مهاجر أم قيس الطبراني بإسناد جيد (٣) حديث إن رجلا قتل في سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار لم أجده لأصلا في الموصولات وتمامه أبو اسحق الفراءى في السنن من وجه مرسل (٤) حديث من غزا وهو لا ينوي إلا عقلا فله مانوى النسائي من حديث عبادة ابن الصامت وتقدم غير مرة (٥) حديث أبي استعنت رجلا يفرز ومعنى فقال لاحق تجعل لي جملا فجعلت له فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له الطبراني في مسند الشاميين ولأبي داود من حديث يعلى بن أمية أنه استأجر أجيرا للغزو وسمى له ثلاثة دنانير فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما أجده في غزوته هذه في الدنيا والآخرة إلا دنانيره التي سمى (٦) حديث من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة متفق عليه وقد تقدم (٧) حديث عبد الله بن عمرو من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه الحديث ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد قوله وفارقها أرغب ما يكون فيها ودون قوله وفارقها أزهد ما يكون فيها وفيه زيادة ولم أجده من حديث عبد الله بن عمرو (٨) حديث أم سلمة في الجيش الذي يخسف بهم يخسرون على نياتهم مسلم وأبو داود وقد تقدم (٩) حديث إنما يقتل القتلتون على النيات ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية من حديث عمر بإسناد ضعيف بلفظ إنما يبعث ورويناه في فوائد تمام بلفظ إنما يبعث المسلمون على النيات ولابن ماجه من حديث أبي هريرة إنما يبعث الناس على نياتهم وفيه لبث بن أبي سليم مختلف فيه .

في معنى الصبر عن الله وجهه ولكونه من أشد الصبر على الصابرين وجهه وذلك أن الصبر عن الله يكون في أخص مقامات المشاهدة يرجع العبد عن الله استحياء وإجلالا وتنطبق بصيرته خجلا وذوبانا ويتغيب في مفاوز استتكاته وتخفيه لإحساسه بعظيم أمر التجلي وهذا من أشد الصبر لأنه بواستدامة هذا الحال تأدية لحق الجلال والروح تود أن تكتحل بصبرتها باستلحاق نور الجلال وكما أن النفس منازعة لعموم حال الصبر فالروح في هذا الصبر منازعة فاشد الصبر

هي العليا فهو في سبيل الله (١) « وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « يبعث كل عبد على مامات عليه (٢) » وفي حديث الأحنف عن أبي بكر « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالتقاتل والمقتول في النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال لأنه أراد قتل صاحبه (٣) » وفي حديث أبي هريرة « من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان ومن أدان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنثى من الجيفة (٥) » .

وأما الآثار : فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أفضل الأعمال أداء ما اقترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى ، وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وإن قصت نقص بقدره . وقال بعض السلف . رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية . وقال داود الطائي البرهمنه التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوماً إلى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك . وقال الثوري : كانوا يتعلمون النية للعمل كما تعلمون العمل . وقال بعض العلماء : اطلب النية للعمل قبل العمل وما دمت تنوي الخير فأنت بخير ، وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول من يداني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى فاني لا أحب أن يأتي على ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله قليل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فإذا فترت أو تركته فهم بعمله فإن الهام بعمل الخير كعامله ، وكذلك قال بعض السلف : إن نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها وإن ذنوبكم أخفى من أن تملوها ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين بغير لكم ما بين ذلك . وقال عيسى عليه السلام : طوبى لعين نامت ولا تهم بعصية وانتهت إلى غير إثم . وقال أبو هريرة : يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم ، وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ أو نابوا عنكم حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبوا أخباركم - يبكي ويردها ويقول : إنك إن بلوتنا فاحتنا وهنتك أستارنا . وقال الحسن : إنما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات . وقال أبو هريرة : مكتوب في التوراة ما أريد به وجهي فقليله كثير وما أريد به غيري فكثيره قليل . وقال بلال بن سعد : إن العبد يقول قول مؤمن فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه فان تورع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى فان صلحت نيته فبالجهد أن يصلح ما دون ذلك ، فاذن عماد الأعمال النيات فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيراً والنية في نفسها خير وإن تعذر العمل بها تقى .

(بيان حقيقة النية)

اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها (١) حديث إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الحلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا الحديث ابن المبارك في الزهد موقفاً على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع في الصحيحين من حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (٢) حديث جابر يبعث كل عبد على مامات عليه رواه مسلم (٣) حديث الأحنف عن أبي بكر إذا التقى المسلمان بسيفهما فالتقاتل والمقتول في النار متفق عليه (٤) حديث أبي هريرة من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان أحمد من حديث صهيب ورواه ابن ماجه مقتصر على قصة الدين دون ذكر الصداق (٥) حديث من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الحديث أبو الوليد الصغار في كتاب الصلاة من حديث إسحق بن أبي طلحة مرسل .

عن الله تعالى لك .
وقال أبو الحسن بن
سالم هم ثلاثة متصبر
وصابر وصبار فالمتصبر
من صبر في الله فمرة
يصبر ومرة يجزع
والصابر من يصبر في
الله وقه ولا يجزع
ولكن تتوقع منه
الشكوى وقد يمكن
منه الجزع وأما الصبار
فذلك الذي صبره في
الله والله وبالله فهذا هو
وقع عليه جميع البلايا
لا يجزع ولا يتغير من
جهة الوجود والحقيقة
لا من جهة الرسم
والحلقة وإشارته في
هذا ظهور حكم العلم
فيه مع ظهور صفة
الطبيعة . وكان
الشيلي يتمثل بهذين
البيتين :

أمران : علم وعمل العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه وذلك لأن كل عمل أعنى كل حركة وسكون اختياري فانه لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم وإرادة وقدرة لأنه لا يريد الإنسان ما لا يظنه فلا بد وأن يعلم ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من إرادة ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه موافقا لفرض إما في الحال أو في المآل فقد خلق الإنسان بحيث يوافق بعض الأمور ويلازم غرضه ويخالفه بعض الأمور فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ودفع الضار النافي عن نفسه فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا فان من لا يصبر الغداء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناول ومن لا يصبر النار لا يمكنه الحرب منها فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسبابا وهي الحواس الظاهرة والباطنة وليس ذلك من غرضنا ثم لو أبصر الغداء وعرف أنه موافق له فلا يكتفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه إذ المريض يرى الغداء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والليل ولقد الداعية الحركة إليه فخلق الله تعالى له الليل والرغبة والإرادة وأعنى به نزوعا في نفسه إليه وتوجها في قلبه إليه ثم ذلك لا يكتفيه فكف من مشاهد طعاما راغب فيه يريد تناوله عاجز عنه لكونه زمنا غفلت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة والقدرة تنتظر الداعية الباعثة والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد وهو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقا فاذا جازمت المعرفة بأن الشيء موافق ولا بد وأن يفعل وسلت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الليل فاذا انبعثت الإرادة انتهت القدرة لتحريك الأعضاء فالقدرة خادمة للإرادة والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة والانبعاث النفس بحكم الرغبة والليل إلى ما هو موافق للفرض إما في الحال وإما في المآل فالحرك الأول هو الفرض المطلوب وهو الباعث والفرض الباعث هو المقصد النوي والانبعاث هو المقصد والنية والانبعاث القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل إلا أن انبعاث القدرة للعمل قد يكون يباعث واحد وقد يكون يباعثين اجتماعا في فعل واحد وإذا كان يباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان ملبا يانبعاث القدرة وقد يكون كل واحد قاصرا عنه إلا بالاجتماع وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر لكن الآخر انبعاث عاضدا له ومعاون فيخرج من هذا التقسيم أربعة أقسام فلنذكر لكل واحد مثالا وإسما . أما الأول . فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد كما إذا هجم على الإنسان سبع فكلما رآه قام من موضعه فلا مزعج له إلا غرض الحرب من السبع فانه رأى السبع وعرفه ضارا فانبعثت نفسه إلى الحرب ورغبت فيه فانتهت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث فيقال نيته الفرار من السبع لانية له في القيام لغيره وهذه النية تسمى خاصة ويسمى العمل بموجبها إخلاصا بالإضافة إلى الفرض الباعث ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته . وأما الثاني : فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة كان كافيا في الحمل لو انفرد ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة فبعضها فقره وقرابته وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وأنه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر وعلم ذلك من نفسه بأنه يحضره قريب غنى فيرغب في قضاء حاجته وفتير أجني فيرغب أيضا فيه وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حمية ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة وقد اجتمعا جميعا فأقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الأول فلنسم هذا مراقبة للباعث : والثالث : أن لا يستقل كل واحد لو انفرد

إن صوت الهب من
أم الشوق
ق وخوف الفراق
يورث ضرا
صابر الصبر فاستغاث
به الصبر
رفصاح الحب للصبر
صبرا
قال جعفر الصادق
رحمه الله أمر الله تعالى
أنبياءه بالصبر وجعل
الحظ الأعلى للرسول
صلى الله عليه وسلم
حيث جعل صبره بالله
لأنفسه فقال
- وما صبرك إلا بالله -
وسئل السري عن
الصبر فكلم فيه فدب
على رجله عقرب فجعل
يضربه بإثره فقيل له لم
لا تدفعه ؟ قال أستحي
من الله تعالى أن أتكلم

ولكن قوى مجموعهما على إنهاض القدرة ومثاله في المحسوس أن يتعاون ضميضان على حمل ما لا ينفرد أحدهما به ومثاله في غرضنا أن يقصده قريبه النبي فيطلب درهما فلا يعطيه ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقير وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء ويكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء ولو كان الطالب فاسقا لاثواب في التصديق عليه لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء ولو اجتمعا أو رثا بمجموعهما تحريك القلب ولنسم هذا الجنس مشاركة . والرابع : أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالاعانة والتسهيل . ومثاله في المحسوس أن يتعاون الضعيف الرجل القوي على الحمل ولو انفرد القوي لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل فان ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه . ومثاله في غرضنا أن يكون للانسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يقتر عن عمله وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه فهو شوب تطرق إلى النية ولنسم هذا الجنس المعاونة فالباعث الثاني إما أن يكون رقيقا أو شريفا أو معينا وسنذكر حكمها في باب الاخلاص والغرض الآن بيان أقسام النيات فان العمل تابع للباعث عليه فيكسب الحكم منه ولذلك قيل إنما الأعمال بالنيات لأنها تابعة لاحكامها في نفسها وإنما الحكم للتنوع .

(بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم « نية المؤمن خير من عمله (١) »)

اعلم أنه قديظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى والعمل ظاهر ولعمل السر فضل وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضى عموم الحديث أن تكون نية التفكير خيرا من التفكير وقديظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدوم وهو ضعيف لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خير من القليل بل ليس كذلك فان نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة والأعمال تدوم والعموم يقتضى أن تكون نيته خيرا من عمله وقد يقال إن معناه أن النية بمجرد خيرا من العمل بمجرد دون النية وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد إذ العمل بلانية أو على النقلة لا خير فيه أصلا والنية بمجرد خيرا وظاهر الترجيح للمشركين في أصل الخير بل المعنى به أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعة خيرا من العمل أى لكل واحد منهما أثر في القصد وأثر النية أكثر من أثر العمل فعناء نية المؤمن من جملة طاعته خيرا من عمله الذي هو من جملة طاعته والغرض أن للعبد اختيارا في النية وفي العمل فهما عملان والنية من الجملة خيرا فهذا معناه وأما سبب كونها خيرا ومترجحة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود فمن قال الخير خيرا من الفاكهة فأنما يعني به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاعتناء ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن اللغذاء مقصود وهو الصحة والبقاء وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها بالبعض

(١) حديث نية المؤمن خير من عمله الطبراني من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواص ابن مسمان وكلاهما ضعيف .

في حال ثم أخالف
ماتكم فيه . أخبرنا
أبوزرعة إجازة عن
أبي بكر بن خلف إجازة
عن أبي عبد الرحمن
قال سمعت محمد بن خالد
يقول سمعت الفرغاني
يقول سمعت الجنييد
رحمه الله يقول إن الله
تعالى أكرم المؤمنين
بالإيمان وأكرم الأيمان
بالعقل وأكرم العقل
بالصبر فالإيمان زين
المؤمن والعقل زين
الإيمان والصبر زين
العقل وأنشد عن
إبراهيم الحواري
رحمه الله :

صبرت على بعض
الأذى خوف كله
ودافعت عن نفسي
لنفسى ففرت

فالطاعات غذاء للقلوب ، والقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة وسعادتها وتنعمها بلقاء الله تعالى . فالقصد لذة السعادة بلقاء الله قط ولن يتعم بلقاء الله إلا من مات عبدا لله تعالى عارفا بالله ولن يحبه إلا من عرفه ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له ، فالأنس يحصل بدوام الذكر والمعرفة تحصل بدوام الفكر ؛ والمحبة تتبع للمعرفة بالضرورة ولن يتفرغ القلب لدوام الفكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ، ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلا إلى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له وإعما يميل إلى الحيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوطة بها كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعله بأن سلامته فيهما ، وإذا حصل أصل الليل بالمعرفة فأنما يقوى بالعمل بمقتضى الليل والمواظبة عليه فان للمواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى ترشح الصفة وتحوى بسببها فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياضة لا يكون ميلا في الابتداء إلا ضعيفا ، فان اتبع مقتضى الليل واشتغل بالعلم وتربية الرياضة والأعمال المطلوبة لذلك تأكد ميلا ورسخ وعسر عليه النزوع وإن خالف مقتضى ميلا ضعف ميلا وانكسر وربما زال وانحرق بل القى ينظر إلى وجه حسن مثلا فيميل إليه طبعه ميلا ضعيفا لوتبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميلا حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ، ولو نظم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميلا لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الليل ويكون ذلك زبرا ودفا في وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه وينقمع وينمحي وهكذا جميع الصفات والحيرات والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة والشهوات كلها هي التي تراد بها الدنيا لا الآخرة ، ويميل النفس إلى الحيرات الأخرى وانصرافها عن الدنيا هو الذي يفرغها للذكر والفكر ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى إنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب وترى القلب إذا تألم بعله يموت عزيز من أعزته أو يهجم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائض وتغير اللون إلا أن القلب هو الأصل للتبوع فكأنه الأمير والراعي والجوارح كالخدم والراعي والاتباع ، فالجوارح خادمة للقلب بتأكد صفاتها فيه فالقلب هو المقصود والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد (١) » وقال عليه الصلاة والسلام « اللهم أصلح الراعي والرعية (٢) » وأراد بالراعي القلب . وقال الله تعالى - لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم - وهي صفة القلب ، فمن هذا الوجه يجب لامحالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح ، ثم يجب أن تكون النية من جملة أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له . وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعود القلب لإرادة الخير ويؤكد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكتب على الذكر والفكر فبالضرورة يكون خيرا بالاضافة إلى الفرض لأنه متمكن من نفس المقصود ، وهذا كأن للعدة إذا تألمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر وتداوى بالشرب والدواء الواصل إلى للعدة ، فالشرب خير من طلاء الصدر لأن طلاء الصدر أيضا إنما أريد به أن يسرى منه الأثر

وجرعتها للكروه
حتى تدرت
ولولم أجرعها إذن
لاشأزت
ألارب ذلساق للنفس
عزة
ويارب نفس بالتذلل
عزت
إذا ماددت الكف
ألتس النفي
إلى غدير من قال
اسألوني فقلت
سأصبر جهدي إن في
الصبر عزة
وأرضى بدنياي وإن
هي قلت
قال عمر بن عبدالعزيز
رحمه الله : ما أنتم الله
على عبد من نعمة ثم
اتزعها ففاضه مما
اتزع منه الصبر
إلا كان ما عاضه خيرا

(١) حديث إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد متفق عليه من حديث النعمان بن بشير وقد تقدم (٢) حديث اللهم أصلح الراعي والرعية ولم أجده .

إلى العدة ، فما يلاقى عين العدة فهو خير وأنفع فهكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ للطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح ، فلا تظن أن في وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب فإن من يجد في نفسه تواضعا ، فاذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ، ومن وجد في قلبه رقة على يقيم فاذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة في قلبه ، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا لأن من مسح رأس يقيم وهو غافل بقلبه أو ظان أنه مسح نوبا لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيده الرقة وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول المهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جيبته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع ، فكان وجود ذلك كعدمه وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا فيقال العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه إذا فعل عن غفلة ، فاذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاده شرا فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب فقها وهي صفة الرياء التي هي من الليل إلى الدنيا فهذا وجه كون النية خيرا من العمل ، وبهذا أيضا يعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة » لأن هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهي غاية الحسنات وإنما الاتمام بالعمل يزيدنا تأكيدها فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها إثارة لوجه الله تعالى وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق فلن ينال الله لحوما ولا دملواها واسكن يالله التقوى منكم ، والتقوى هنا أعنى القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن قوما بالمدينة قد شركونا في جهادنا » كما تقدم ذكره لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الحارثيين في الجهاد وإنما فرقهم بالأبدان لموافق تخص الأسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات وبهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التي أو ردها في فضيلة النية فاعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا تظول بالإعادة.

(بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية)

اعلم أن الأعمال وإن اتسمت أقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب وودفع وفكر وذكر وغير ذلك بما لا يتصور إحصاؤه واستقصاؤه فهي ثلاثة أقسام طاعات ومعاص ومباحات. القسم الأول: للأصبي وهي لا تتغير عن موضعها بالنية فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام « إنما الأعمال بالنيات » فيظن أن للعصية تنقلب طاعة بالنية كالذي يغتاب إنسانا مراعاة لقلب غيره أو يطعم فقيرا من مال غيره أو يبني مدرسة أو مسجدا أو رباطا بمال حرام أو صدقه الخير فهذا كله جهل والنية لا تؤثر في إخراجها عن كونها ظلما وعدوانا ومعصية بل قصد الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر ، فإن عرفه فهو مما ندم للشرع وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طاب العلم فريضة على كل مسلم والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا هيئات بل الروح لذلك على القلب حتى الشهوة وباطن الهوى فإن القلب إذا كان سائلا إلى طلب الجاهل واستماله قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبس على الجاهل ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: ما عصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل. قيل يا أبا محمد هل تعرف شيئا أشد من الجهل قال نعم الجهل بالجهل وهو كما قال لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف تعلم وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ورأس العلم العلم بالعلم كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل

بما أنزعه منه وأنشد
لسمنون :
تجمرت من حاله
نعى وأبوسا
زمانا إذا أجرى عزاليه
احتسى
فكم غمرة قد جرعتني
كثوسا
فجرتها من بحر صبري
أكوسا
تدرعت صبري
والتحت صروفه
وقلت لنفسي الصبر أو
فاهل كي أسي
خطوب لوان الشم
زاحن خطبها
لساخت ولم تدرك لها
الكف ملسا
[قولهم في الفقر] قال
ابن الجلاء : الفقر أن
لا يكون لك فاذا كان
لك لا يكون لك حتى

فان من لا يعلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكتب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم والمقصود أن من قصد الخير بمصيبة عن جهل فهو غير معذور إلا إذا كان قريب العهد بالاسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم ، وقد قال الله سبحانه - فاستلوا أهل الذکر إن كنتم لاتعلمون - وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه (١) » ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق والفجور القاصرين همهم على ممارسة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والسالكين فان هؤلاء إذا تملوا كانوا قاطع طريق الله واتهمض كل واحد منهم في بلدته نائبا عن الدجال يتكالب على الدنيا ويقبح الهوى ويتباعه عن التقوى ويستجريء الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ويتسلسل ذلك ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله وفي مظومه وملبسه ومسكنه فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلا وألني سنة وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ثم العجب من جهله حيث يقول « إنما الأعمال بالنيات » وقد قصدت بذلك نشر علم الدين فان استعمله هو في الفساد فالمصيبة منه لا منى وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير وإنما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلم العلم يحسن ذلك في قلبه والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه وليت شعري ما جوابه عن وهب سيفا من قاطع طريق وأعد له خيلا وأسبابا يستعين بها على مقصوده ويقول إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله فان إعداد الخيل والرباط والقوة للقزاة من أفضل القربات فان هو صرفه إلى قطع الطريق فهو المعاصي وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرم مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله تعالى ثلثائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء (٢) » فليت شعري لم حرم هذا السخاء ولم يجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فاذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه لا أن يمد به بغيره والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله وقد يعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى فمن لا يزال مؤثرا لدنياه على دينه وهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله يتفقدون أحوال من يتردد إليهم فلو رأوا منه تقصيرا في ثقل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه وإذارا وأمنه فجورا واستحلال حرام هجره ونقوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلا عن تعليمه لهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر وقد تemoذ جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة وما تهوؤوا من الفاجر الجاهل . حتى عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد وهجره وصار لا يكلمه فلم يزل يسأله عن تغييره عليه وهو

نؤثر . وقال السكتاني إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح النفي بالله تعالى لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر . وقال النوري : نعت الفقراء السكون عند العدم والبذل عند الوجود . وقال غيره : والاضطراب عند الوجود . وقال الدراج فتشت كنف أستاذي أريد مكحلة فوجدت فيها قطعة فتجريت ، فلما جاء قلت له : إني وجدت في كنفك هذه القطعة . قال قد رأيتها ردها ثم قال خذها واشتر بها شيئا فقات : ما كان أمر هذه القطعة بحق معبودك فقال مارزقي

(١) حديث لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله الحديث الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في رياضة التملين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله لا يعذر الجاهل على الجهل وقال لا ينبغي بدل ولا يحل وقد تقدم في العلم (٢) حديث إن لله ثلثائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء تقدم في كتاب المحبة والشوق .

لا يذكره حتى قال بلغنى أنك طيقت حائط دارك من جانب الشارع وقد أخذت قدر سمك الطين وهو
أعملة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم فكذلك كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم وهذا
وأمثاله مما يلبس على الأغبياء وأتباع الشيطان وإن كانوا أرباب الطيامة والأحكام الواسعة وأصحاب
الأسنة الطويلة والفضل الكثير ، أعنى الفضل من العلوم التي لا تشمل على التحذير من الدنيا
والزجر عنها والترغيب في الآخرة والدعاء إليها بل هي العلوم التي تتعاقب بالخلق ويتوصل بها إلى جمع
الحطام واستتباع الناس والتقدم على الأقران فاذن قوله عليه السلام «إنما الأعمال بالنيات» يختص
من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون العاصي إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد والمباح ينقلب
معصية وطاعة بالقصد فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً ، نعم لنية دخل فيها وهو أنه إذا انضاف
إليها قصد خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة. القسم الثاني الطاعات
وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها . أما الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى
لا غير فإن نوى الرياء صارت معصية وأما تضاعف الفضل فبكرة النيات الحسنة فإن الطاعة الواحدة
يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل
حسنة عشر أمثالها (١) كما ورد به الخبر ومثاله التعمد في المسجد فإنه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيات
كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال التقيين ويبلغ به درجات القربين أو لها أن يعتقد أنه بيت الله
وأن داخله زار الله فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال
«من قدم في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على الزور إكرام زاره» (٢) وثانيها أن ينتظر الصلاة
بعد الصلاة فيكون في جملة انتظاره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى - ورباطوا - . وثالثها الترهيب
بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات فإن الاعتكاف كفو وهو في معنى الصوم وهو
نوع ترهب ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رهبانية أمق التعمود في المساجد» (٣) ورباطها
عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد
وخامسها التجرد لذكر الله أولاً استماع ذكره وللتذكر به كما روى في الخبر «من غدا إلى المسجد ليذكر
الله تعالى أو يذكره كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى» (٤) . سادسها أن يقصد إفادة العلم بأمر معروف
ونهي عن منكر إذ المسجد لا يخلو عن منسى في صلته أو يتعاطى ما لا يحل له في أمره المعروف ويرشده
إلى الدين فيكون شريكاً معه في خيره الذي يعلم منه فتضاعف خيراته . وسابعها أن يستفيد أخصاً
في الله فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة والمسجد معيش أهل الدين المحبين لله وفي الله. وثامنها
أن يترك الذنوب حياءً من الله تعالى وحياءً من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضى هناك الحرمة ،
وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما : من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع
خصال أخصها مستغفاداً في الله أو رحمة مستنزلة أو علماً مستظرفاً أو كلمة تدل على هدى أو تصرفه

الله تعالى من الدنيا
صفراء ولا يضاء
غيرها فأردت أن
أوصي أن تشد في كفي
فأردتها إلى الله وقال
ابراهيم الخواص الفقر
رداء الشرف ولباس
المسلمين وجلباب
الصالحين . وسئل
سهل بن عبد الله عن
الفقير الصادق فقال
لا يسأل ولا يرد ولا
يعبس . وقال أبو علي
الروذباري رحمه الله
سألني الزقاق فقال
يا أبا علي لم ترك الفقراء
أخذ البلغة في وقت
الحاجة قال قلت لأنهم
مستغنون بالمعطي عن
العطايا قال نعم ولكن
وقع لي شيء آخر فقلت
هات أفدني ما وقع لك

(١) حديث تضعيف الحسنة بعشر أمثالها تقدم (٢) حديث من قدم في المسجد فقد زار الله تعالى
وحق على المزور إكرام زاره ابن حبان في الضعفاء من حديث سلمان والبيهقي في الشعب نحوه من
رواية جماعة من الصحابة لم يسموا بأسناد صحيح وقد تقدم في الصلاة (٣) حديث رهبانية أمق التعمود
في المساجد لم أجده أصلاً (٤) حديث من غدا إلى المسجد يذكر الله ويذكره كان كالمجاهد في سبيل
الله مالى هو معروف من قول كعب الأحبار رويته في جزء ابن طوق وللطبراني في الكبير من حديث
أبي أمامة من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يعلّمه كان له كأجر حج تاماً حجة وبأسناده جيد
وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة من غدا إلى المسجد أوراخ أعد الله له في الجنة نزلاً كما غدا أوراخ

عن ردى، أو يترك الذنوب خشية أوحيا، فهذا طريق تكثير النيات وقس به سائر الطاعات والمباحات إذ من طاعة إلا وتحتل نيات كثيرة وإنما يحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جده في طلب الخير وتشمره له وتفكره فيه فهذا تزكو الأعمال وتتضاعف الحسنات [القسم الثالث المباحات] أو ما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطى البهائم للهملة عن سهو وغفلة ولا يبينى أن يستحق العبد شيئا من الحطرات والحطوات واللاحظات فكل ذلك يسئل عنه يوم القيامة أنه لم فعله وما الذى قصده هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «حلالها حساب وحرامها عقاب» (١) وفي حديث معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة بإصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه» (٢) وفي خبر آخر «من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنثن من الجيفة» فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية. فان قلت لما الذى يمكن أن ينوى بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله. فاعلم أن من يتطيب مثلا يوم الجمعة وفي سائر الأوقات يتصور أن يقصد التمتع بلبات الدنيا أو يقصد به إظهار الفخر بكثره المال ليحسده الأقران أو يقصد به رياء الخلق أو يقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبية إذا كان مستحلا للنظر إليهن ولأمور أخر لا تحصى وكل هذا يجعل التطيب معصية فبذلك يكون أنثن من الجيفة في القيامة إلا القصد الأول وهو التلذذ والتعم فإن ذلك ليس بمعصية إلا أنه يسئل عنه ومن نوقش الحساب عذب ومن أتى شيئا من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره وناهيك خسرانا بأن يستعجل ما يفنى ويحسر زيادة نعيم لا يفنى وأما النيات الحسنة فانه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة (٣) وينوى بذلك أيضا تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائرا لله إلا يطيب الرائحة وأن يقصده ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحهم وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدى إلى إيذاء محالطيه وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيصون الله بسببه فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية كما قيل:

إذا رحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراجلون هم

وقال الله تعالى - ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم - أشار به إلى أن التسبب إلى الشرّ شر وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر فقد قال الشافعى رحمه الله من طاب ريحه زاد عقله فهذا أو أمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالب على قلبه وإذا لم يغلب على قلبه إلا النعيم الدنيال تخضره هذه النيات

(١) حديث حلالها حساب وحرامها عذاب تقدم (٢) حديث معاذ إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطين بإصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه لم أجد له إسنادا (٣) حديث إن لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد من اغتسل يوم الجمعة ومسّ من طيب إن كان عنده ولبس أحسن ثيابه الحديث ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن سلام ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبى مهنته وفي إسناده اختلاف وفي الصحيحين أن عمر رأى حلة سبراء عند باب المسجد فقال يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها برم الجمعة للحديث.

قال لأنهم قوم لا يفقههم
الوجود إذ لله فاقهم
ولا تضرهم الفاقة إذ لله
وجودهم قال بعضهم
الفقر وقوف الحاجة
على القلب ومحوها
عماسوى الرب وقال
السوحى الفقير الذى
لا تنبيه النعم ولا تفقره
الحسن. وقال يحيى بن
معاذ حقيقة الفقر أن
لا يستغنى إلا بالله ورسوله
عدم الأسباب كلها
وقال أبو بكر الطوسى
بقيت مدة أسأل عن
معنى اختيار أصحابنا
لهذا الفقر على سائر
الأشياء فلم يجنى أحد
بجواب يقنعى حتى
سألت نصر بن الحامى
فقال لى لأنه أول
منزل من منازل

وإن ذكرت له لم يبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس وليس ذلك من النية في شيء والمباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ماعداه ولهذا قال بعض العارفين من السلف إنى لأستحب أن يكون لى فى كل شىء نية حتى فى أكلى وشربى ونومى ودخولى إلى الخلاء وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن و فراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين فمن قصده من الأكل التقوى على العبادة ومن الوقاع تحصين دينه وتطيب قلب أهله والتوصل به إلى نسل صالح يبعد الله تعالى بعده فتكثرت به أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان عظيمًا بأكله ونسكاحه وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير متمتع لمن غلب على قلبه هم الآخرة ولذلك ينبغي أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو فى سبيل الله وإذا بلغه اغتياح غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيئاته وستنقل إلى ديوانه حسناته ولن يولد ذلك بسكوته عن الجواب فى الخبر « إن العبد ليحاسب فقبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيتعجب ويقول يارب هذه أعمال ما عملتها قط فيقال هذه أعمال الذين اغتايوك وآذوك وظلوك (١) » وفى الخبر « إن العبد ليوافق القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة فيأتى وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فاقبص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته حتى لا يبقى له حسنة فتقول الملائكة قد فويت حسناته وبقي طالبون فيقول الله تعالى ألقوا عليه من سيئاتهم ثم صكوا له صكا إلى النار (٢) » وبالجملة فإياك ثم إياك أن تستحق شيئا من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب فان الله تعالى مطلع عليك وشهيد بما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد وقال بعض السلف كتبت كتابا وأردت أن أتربه من حائط جارلى فتخرجت ثم قلت تراب وما تراب قربة فتهتف بى هاتف سيلم من استخف بتراب ما يلقى غدام سوء الحساب وصلى رجل مع الثورى فرآه مقلوب الثوب فمره فمد يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوه فسأله عن ذلك فقال إنى لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه لغير الله وقد قال الحسن إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول بينى وبينك الله فيقول والله ما أعرفك فيقول بلى أنت أخذت ابنة من حائطى وأخذت خيطا من ثوبى فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين فان كنت من أولى العزم والنهى ولم تسكن من القترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك وراقب أحوالك ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تأمل أولا أنك لم تتحرك وماذا تقصد وما الذى تنال به من الدنيا وما الذى يفوتك من الآخرة وماذا ترجع الدنيا على الآخرة فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فأرض عزمك وما خطر ببالك وإلا فأمسك ثم راقب أيضا قلبك فى إمساكك وامتناعك فان ترك الفعل فعل ولا بدله من نية صحيحة فلا ينبغي أن يكون الداعى هو الذى لا يطلع عليه ولا يعرفك ظواهر الأمور ومشهورات الخبرات وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاعتراض وقد روى عن زكريا عليه السلام أنه كان يعمل فى حائط بالطين وكان أجيرا لقوم قدموا له رغيفا إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده فدخل عليه قوم

(١) حديث إن العبد ليحاسب فقبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الأعمال الحسنة ما يستوجب به الجنة الحديث وفيه هذه أعمال الذين اغتايوك الحديث أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من طريق أبى نعيم من حديث شيب بن سعد البلوى مختصرا إن العبد ليأتى كتابه يوم القيامة منتشرا فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول هذا لى ولم أعلمها فيقال بما اغتايك الناس وأنت لا تشمر وفيه ابن لهيعة (٢) حديث إن العبد ليوافق القيامة بحسنات أمثال الجبال وفيه وبأى قد ظلم هذا وشتم هذا الحديث تقدم مع اختلاف .

التوحيد فتمت بذلك
وسئل ابن الجلاء عن
الفقر فسكت حتى صلى
ثم ذهب ورجع ثم قال
انى لم أسكت إلا لدرهم
كان عندى فذهبت
فأخرجته واستحيت
من الله تعالى أن أتكلم
فى الفقر وعننى ذلك
ثم جلس وتكلم .
قال أبو بكر بن
طاهر عن حكم الفقير
أن لا يكون له رغبة
فان كان ولا بد لا تجاوز
رغبته كفايته . قال
فارس قلت لبعض
الفقراء مرة وعليه أثر
الجوع والضر لم لا تسأل
فقطعموك ؟ فقال إنى
أخاف أن أسألهم
فيمنعونى فلا يفلحون
وأشده لبعضهم :

فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ فمجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده وظنوا أن الخير في طلب المساعدة في الطعام فقال إنى أعمل لقوم بالأجرة وقدموا إلى الرغيف لا تقوى به على عملهم فلما كلمهم لم يكفهم ولم يكفى وضفت عن عملهم فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله فان ضغفه عن العمل قص في فرض وترك الدعوة إلى الطعام تمس في فضل ولا حكم للفضائل مع الفرائض . وقال بعضهم دخلت على سفيان وهو يأكل فما كلنى حتى لعق أصابعه ثم قال لولا أنى أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه . وقال سفيان من دعا رجلا إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فان أجابه فأكل فعليه وزران وإن لم يأكل فعليه وزر واحد وأراد بأحد الوزرين التفاق وبالتالي تعريضه أخاه لما يكره لوعله فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال فلا يقسم ولا يحجم إلا بنية فان لم تحضره النية توقف فان النية لا تدخل تحت الاختيار .

(بيان أن النية غير داخله تحت الاختيار)

اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيات» فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله نويت أن أدرس لله أو أكل لله ويظن ذلك نية وهيات فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر أو انتقال من خاطر إلى خاطر والنية بعزل من جميع ذلك وإنما النية انبعثت النفس وتوجهها وميلها إلى مظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا وإما آجلا والليل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة بل ذلك كقول الشيعان نويت أن أشتهى الطعام وأميل إليه أو قول الفارغ نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقلى فذلك محال بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجه نحوه إلا باكتساب أسبابه وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة لغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها ومالم يعتقد الانسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين وإذا اعتقد فانما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بفرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت والدواعى والصوراف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ويختلف ذلك بالأشخاص والأحوال وبالأعمال فإذا غلبت شهوة النكاح مثلا ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد دينا ولادنيا لا يمكنه أن يواقع على نية الولد بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة إذ النية هي إجابة الباعث ولا باعث إلا الشهوة فكيف ينوى الولد وإذا لم يغب على قلبه أن إقامة سنة النكاح (١) اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بهظم فضلها لا يمكن أن ينوى بالنكاح اتباع السنة إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه وهو حديث محض ليس بنية ، نعم طريق اكتساب هذه النية مثلا أن يقوى أولا إيمانه بالشرع ويقوى إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويدفع عن نفسه جميع المنفات عن الولد من ثقل المؤنة وطول التسب وغيره فإذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب فتحركه تلك الرغبة وتحرك أعضاءه مباشرة العقد فإذا اتهمت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان نوايا فان لم يكن كذلك فما يقدره في نفسه ويرده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا فيه نية حتى إن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصرى وقال ليس تحضرنى نية ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات المدرى قتالت أجيء بالمرأة فسكت ساعت ثم قاله نعم قبيل له في ذلك فقال كان لى في المدرى نية

(١) حديث إن النكاح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقدم في آداب النكاح .

قالوا غدا العيد ماذا
أنت لابسه
قلت خاتمة ساق
عبد الجرجا
فقر وصبرها ثوبان
تحتمها
قلب يرى ربه الأعياد
والجمعا
أحرى الملابس أن تلقى
الحبيب به
يوم التزاور في الثوب
الذى حلما
الدهر لى مآثم إن غبت
يا أملى
والعيد مادمت لى
مرأى ومستمتعا .
[قولهم في الشكر]
قال بعضهم الشكر
هو العيبة عن النعمة
برؤية النعم . وقال
يجي بن معاذ الرازى
لست بشاكر مادمت
تشكر وغاية الشكر

ولم تحضرنى في المرأة نية فتوقفت حتى هياها الله تعالى ومات حماد بن سليمان وكان أحد علماء أهل الكوفة قبيل للثوري ألا تشهد جنازته فقال لو كان لى نية لفعلت وكان أحدهم إذا سئل عملا من أعمال البر يقول إن رزقى الله تعالى نية فعلت وكان طاوس لا يحدث إلا بنية وكان يسئل أن يحدث فلا يحدث ولا يسئل فيبتدىء قبيل له في ذلك قال أفتحبون أن أحدث بغير نية إذا حضرته نية فعلت. وحكى أن داود بن الحبر لما صنف كتاب العقل جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه أحمد صفحا ورده فقال مالك قال فيه أسانيد ضفاف فقال له داود أنا لم أخرجه على الأسانيد فأنظر فيه بين الحبر وإنما نظرت فيه بين العمل فانتفعت قال أحمد فرده على حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت فأخذته ومكث عنده طويلا ثم قال جزاك الله خيرا فقد انتفعت به وقيل لطاوس ادع لنا فقال حتى أجد له نية. وقال بعضهم أنا في طاب نية لعيادة رجل منذ شهر لما صحت لى بعد . وقال عيسى بن كثير مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه ألا تمرض عليه العشاء قال ليس من نيتي وهذا لأن النية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية وكانوا لا يرون أن يعملوا عملا إلا بنية لهم بأن النية روح العمل وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه نويت بل هو انبعث القلب يجرى مجرى الفتح من الله تعالى فقد تيسر في بعض الأوقات وقد تعذر في بعضها ، نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات فان قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالبا ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم تيسر له ذلك بل لا تيسر له في القرئص إلا بمجهود وجهه وقيامته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فرجما تنبث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تيسر للراغب في الدنيا وهذه أعز النيات وأعلاها ويعز على بسيط الأرض من يفهمها فضلا عن يتعاطاها ونيات الناس في الطاعات أقسام إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقى النار ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة وهذا وإن كان نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا الأمر سواء فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى الموعد في الآخرة وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرها الجنة فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه كالأجير السوء ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله إذا أكثر أهل الجنة البله وأما عبادة ذوى الأبواب فاتها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه جباله وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكداً وروادف وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعم في الجنة فانهم لم يقصدوها بل هم الذين يدعون ربهم بالعبادة والعشى يريدون وجهه فقط وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنم بالنظر إلى الحور العين مما يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين بل أشد فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين بل استعظام النفوس البيمية الشهوانية لقضاء الوطرن مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهى استعظام الخنفساء لصاحبها وإفهامها وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء فعسى أكثر القلوب عن إحصار جمال الله وجلاله يضاهى عصى الخنفساء عن إدراك جمال النساء فانها لا تشمر به أصلا ولا تلتفت إليه ولو كان لها عقل وذكرن لها لا تحسنت عقل من يلتفت إليهن ولا يزالون مختلفين - كل حزب بما لديهم فرحون - ولذلك خلقهم -

التعير وذلك أن
الشكر نعمة من
الله يجب الشكر
عليها وفي أخبار داود
عليه السلام إلهي
كيف أشكرك وأنا
لا أستطيع أن
أشكرك إلا بنعمة
ثانية من نعمك فأوحى
الله إليه إذا عرفت
هذا فقد شكرته
ومعنى الشكر في اللغة
هو الكشف والانتهاز
يقال شكر وكشر
إذا كشف عن قعر
وأظهره فشر النعم
وذكرها وتعدادها
باللسان من الشكر
وباطن الشكر أن
تستعين بالنعم على
الطاعة ولا تستعين بها
على العصية فهو شكر

حكى أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل في المنام فقال له كل الناس يطلبون من الجنة إلا أبا يزيد فان يطلبني ورأى أبو يزيد ربه في المنام فقال يارب كيف الطريق إليك فقال اترك نفسك وتعال إلي . ورؤى الشبلي بعد موته في المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال لم يطالبني على الدعوى بالبرهان إلا على قوله واحد قلت يوما أي خسارة أعظم من خسران الجنة فقال أي خسارة أعظم من خسران لقائي والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالا وأفعالا لا يستنكرها الظاهرون من الفقهاء فانما يقول من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقه بصفة لأن الأعمال بالنيات وذلك مثل العفو فانه أفضل من الانتصار في الظلم وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليربح نفسه ويتقوى على العبادات في المستقبل وليس تنبث نيته في الحالين للصوم والصلاة فالأكل والشرب والنوم هو الأفضل له بل لو مل العبادات لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو ترफساعة بلم ووحيد عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة . قال أبو الدرداء إنني لأستجم نفسي بشئ من اللهو فيكون ذلك عوناً لي على الحق وقال عليّ كرم الله وجهه روحوا القلوب فانها إذا كرهت عميت وهذه دقائق لا يدركها إلا بمسيرة العلماء دون الحشوية منهم بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر في الطلب وإنما ينتهي به أن يجيد أولاً قوته ليحتمل العالجة بالصد والحاذق في لعب الشطرنج مثلاً قد ينزل عن الرخ والفرس مجاناً ليتوصل بذلك إلى الغلبة والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قرينه ويوليه دبره حيلة منه ليستجره إلى مضيق فيفكر عليه فيقهره فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستعملها الضعفاء فلا ينبغي للمريد أن يضمن إنكاره على ما رآه من شيخه ولا للمتعلم أن يعترض على أستاذه بل ينبغي أن يقف عند حد بصيرته وما لا يفهمه من أحوالهما يسلمهما لهما إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما ومن الله حسن التوفيق .

(الباب الثاني في الإخلاص وفضيلته وحقائقه ودرجاته)

(فضيلة الإخلاص)

قال الله تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - وقال - ألا لله الدين الخالص - وقال تعالى - إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله - وقال تعالى - فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً - نزلت فيمن يعمل لله ويجب أن يحمده عليه وقال النبي صلى الله عليه وسلم « ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله ^(١) » وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال « ظن أبي أن له فضلاً على من هو دونه من أصحاب رسول الله ﷺ فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضعفائهم ودعوتهم وإخلاصهم وصلاتهم ^(٢) » وعن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من

(الباب الثاني في الإخلاص)

(١) حديث ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله الترمذي وصححه من حديث النعمان بن بشير (٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه أنه ظن أن له فضلاً على من دونه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائهم ودعوتهم وإخلاصهم رواه النسائي وهو عند البخاري بلفظ هل تصرون وترزقون إلا بضعفائكم .

النعمة . وصحمت شيخنا رحمه الله ينشد عن بعضهم :
أوليتي نعماً أبوح بشكرها
وكفيتني كل الأمور بأسرها
فلا شكرنك ما حبيت وإن أمت
فلتشكرنك أعظمي في قبرها .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السراء والضراء » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ابتلى فصر وأعطى فشكر وظلم فغفر وظلم فاستغفره قيل فما باله قال « أولئك

أحبت من عبادي^(١)» وقال طي بن أبي طالب كرم الله وجهه لاتهموا لقلة العمل واهتموا للقبول فان النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل «أخلص العمل مجزك منه القليل^(٢)» وقال عليه السلام «مامن عبد يخلص لله العمل أربعين يوما إلا ظهرت بناييع الحكمة من قلبه على لسانه^(٣)» وقال عليه السلام «أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعت فيما علمت فيقول يارب كنت أقوم به آتاه الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول للملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فتدقيل ذلك ورجل آتاه الله ما لا يقول الله تعالى لقد أنعمت عليك فماذا صنعت فيقول يارب كنت أتصدق به آتاه الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول للملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فتدقيل ذلك ورجل قتل في سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول يارب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت فيقول الله كذبت وتقول للملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فتدقيل ذلك قال أبو هريرة ثم خطب رسول الله ﷺ على غنذى وقال يا باهريرة أولئك أول خلق تمر نار جهنم بهم يوم القيامة^(٤)» فدخل راوى هذا الحديث على معاوية ورؤي له ذلك فبكي حتى كادت نفسه تزهد ثم قال صدق الله إذ قال - من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها - الآية وفي الاسرائيليات أن عبدا كان يعبد الله دهرا طويلا فجاءه قوم فقالوا إن ههنا قوم ما يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال أين تريد رحك الله قال أريد أن أقطع هذه الشجرة قال وما أنت وذلك تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك فقال إن هذا من عبادتي قال فإني لا أتركك أن تقطعها فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس أطلقني حتى أكلمك فقام عنه فقال إبليس يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك وما تبعدها أنت وما عليك من غيرك والله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها فقال العابد لا بد لي من قطعها فذا بذه لاقتال قلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز إبليس فقال له هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنقع قال وما هو قال أطلقني حتى أقول لك فأطلقه فقال إبليس أنت رجل فقير لا شيء لك إنما أنت كل على الناس يعولونك ولعلك تحب أن تفضل على إخوانك وتواسى جيرانك وتشبع وتستغنى عن الناس قال نعم قال فارجع عن هذا الأمر ولك على أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهم ما أفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك فيكون ذلك أنقع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يفرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئا ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها فتفكر العابد فما قال وقال صدق الشيخ لست بنبي فيلزمي قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها

(١) حديث الحسن مرسل يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي رويته في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلا يقول كل واحد من رواته سألت فلانا عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء المجهمي عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف (٢) حديث أنه قال لمعاذ أخلص العمل مجزك منه القليل أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وإسناده منقطع (٣) حديث مامن عبد يخلص لله أربعين يوما ابن عدى ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات عن أبي موسى وقد تقدم (٤) حديث أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم الحديث وقد تقدم .

لمس الأمن وم
مهتدون . وقال
الجنيد فرض الشكر
الاعتراف بالنعمة بالقلب
والسان . وفي الحديث
«أفضل الذكر لإله
إلا الله وأفضل الدعاء
الحمد لله» . وقال بعضهم
في قوله تعالى - وأسبغ
عليك نعمه ظاهرة
وباطنة - قال الظاهرة
العواقي والغنى والباطنة
اليساوى والفقير
فان هذه نعم أخروية
لما يستوجب بها من
الجزاء . وحقبة
الشكر أن يرى جميع
المقضى له به نعماً غير
ما يضره في دينه لأن
الله تعالى لا يقضى للعبد
للمؤمن شيئاً إلا وهو
نعمته في حقه فإما عاجلة

وما ذكره أكثر منفعة فاعده على الوفاء بذلك وحاف له فرجع العابد إلى متعبه فبات فلما أصبح رأى دينار بن عند رأسه فأخذها وكذلك الغد ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئاً فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له إلى أين ؟ قال أقطع تلك الشجرة فقال كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها قال فتناوله العابد ليفعل به كإفدل أول مرة فقال هيرت فأخفه إبليس وصرعه فاذا هو كالصنوبر بين رجله وقعد إبليس على صدره وقال لتتبين عن هذا الأمر أولاً فغلبت غضبت أول مرة ثم وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لا يوهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك وهذه الحكايات تصديق قوله تعالى - لإعبادك منهم المخلصين - إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالاخلاص ولذلك كان معروف السرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول يا نفس أخلصي تتخلصي . وقال يعقوب الكفوف : المخلص من يكتم حسنه كما يكتم سيئاته . وقال سليمان : طوبى لمن سحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى ، وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أبي موسى الأشعري : من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس ، وكتب بعض الأولياء إلى أخ له أخلص الية في أممالك يكفك القليل من العمل . وقال أيوب السخيتاني : تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال ، وكان مطرف يقول من صفا صني له ومن خلط خلط عليه . ورؤى بعضهم في المنام فقيل له كيف وجدت : عملك ؟ فقال كل شيء عملة ثم وجدته حتى حبة رمان لقطتها من طريق وحتى هرة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنات وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيت في كفة السيئات وكان قد تقى حماري قيمته مائة دينار فمأرأيت له ثواباً فقلت موت سنور في كفة الحسنات وموت حماري ليس فيها قيل لي إنه قد وجه حيث بعث به فانه لما قيل لك قد مات قلت في لعنة الله فبطل أجرك فيه ولوقلت في سبيل الله لوجدته في حسنتك . وفي رواية قال وكنيت قد صدقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرم إلى فوجدت ذلك لاطى ولالى . قال سفيان لما سمع هذا ما أحسن حاله إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه . وقال يحيى بن معاذ : الاخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من القث والهمس ، وقيل كان زجل يخرج في زى النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم فاتفق أن حضر يوماً موضعاً فيه مجمع للنساء فسرقته درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفثوا فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت التوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه فدعا الله تعالى بالاخلاص وقال إن نجوت من هذه الفضيحة لأعود إلى مثل هذا فوجدت الدرّة مع تلك المرأة فصاحوا أن أطلقوا الحرّة فقد وجدنا الدرّة . وقال بعض الصوفية : كنت قائماً مع أبي عبيد التستري وهو يحرق أرضه بعد العصر من يوم عرفة فمر به بعض إخوانه من الأبدان فساره بشيء فقال أبو عبيد لا ، فمرّ كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني فقلت لأبي عبيد ما قال لك ؟ فقال سألتني أن أحج معك قلت لا قلت فملا فقلت ؟ قال ليس لي في الحج نية وقد نويت أن أتم هذه الأرض العشية فأخاف إن حججت معه لأجله تعرضت لمقت الله تعالى لأنني أدخل في عمل الله شيئاً غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة . وروى عن بعضهم قال : غزوت في البحر ففرض بضنا عملة فقلت اشتريها فأتفّع بها في غزوى فاذا دخلت مدينة كذا بثها فربحت فيها فاشتريتها فرأيت تلك الية في النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه اكتب الغزاة فأملى عليه خرج فلان متزهاً وفلان مرائياً وفلان تاجراً وفلان في سبيل الله ثم نظر إلى وقال اكتب فلان خرج تاجراً فقلت

يعرفها ويفهمها وإما
أجلة بما يقضى له من
الكاره فاما أن تكون
درجة له أو تعجيباً أو
تكفيراً فاذا علم أن
مولاه أنصح له من
نفسه وأعلم بمصلحه
وأن كل ما منه نعم فقد
شكر .

[قولهم في الخوف]
قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم «رأس
الحكمة مخافة الله»
وروى عنه عليه
الصلاة والسلام أنه قال
«كان داود النبي عليه
السلام يعوده الناس
يظنون أن به مرضاً
وما به مرض إلا خوف
الله تعالى والحياء منه»
قال أبو عمر الدمشقي
الحناف من يخاف من

الله في أمرى ماخرجت أنجر وما معى تجارة أنجر فيها ماخرجت إلا للزوق قال يا شيخ قد اشتريت
أمس مخلاة تريد أن تبيع فيها فبكيت وقلت لا تسكتبونى تاجرا فنظر إلى صاحبه وقال ما ترى فقال
اكتب خرج فلان غازيا إلا أنه اشترى في طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى.
وقال سرى السقطى رحمه الله تعالى : لأن تصلى ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من أن تكتب
سبعين حديثا أو سبعمائة بعلو . وقال بعضهم في إخلاص ساعة نحاة الأبد ولكن الاخلاص عزيز
ويقال العلم بذر والعمل زرع وماؤه الاخلاص . وقال بعضهم إذا أغض الله عبدا أعطاه ثلاثا ومنه
ثلاثا أعطاه محبة الصالحين ومنه القبول منهم وأعطاه الأعمال الصالحة ومنه الاخلاص فيها وأعطاه
الحكمة ومنه الصدق فيها . وقال السوسى : مراد الله من عمل الخلاق الاخلاص فقط . وقال
الجنيد : إن لله عبادا عقلوا فلما عقلوا عملوا فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الاخلاص إلى أبواب
البر أجمع . وقال محمد بن سعيد الروزى : الأمر كله يرجع إلى أصلين فعل منه بك وفعل منك له
فترض ما فعل وتخلص فيما تعمل فاذن أنت قد سمعت بهذين وفزت في الدارين .

(بيان حقيقة الاخلاص)

اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره فاذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصا ويسمى الفعل
الصفى الخالص إخلاصا قال الله تعالى - من بين فرت ودم لنا خالصا سائغا للشاربين - فإما خلوص
الابن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرت ومن كل ما يمكن أن يمتزج به والاخلاص يضاده
الاشراك فمن ليس مخلصا فهو مشرك إلا أن الشرك درجات فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك
في الإلهية والشرك منه خفي ومنه جلي وكذا الاخلاص والاخلاص وضده يتواردان على القلب
فحله القلب وإنما يكون ذلك في القصور والنيات وقد ذكرنا حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة
البواعث فهما كان الباعث واحدا على التجرد سمى الفعل الصادر عنه إخلاصا بالإضافة إلى النوى
فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو محاص ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص
ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب
كما أن الالحاد عبارة عن النيل ولكن خصصته العادة بالنيل عن الحق ومن كان باعته مجرد الرياء
فهو معرض للهلاك ولنا تسلكم فيه إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربيع المهلكات
وأقل أموره ماورد في الخبر من « إن الرائي يدعى يوم القيامة بأربع أسماء يامرأى ياخذع بآه شرك
يا كافر (١) » وإنما تتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن أمتزج بهذا الباعث باعث آخر
إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس ومثال ذلك أن يصوم ليتنفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع
قصد التقرب أو يستق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر
أو يتخلص من شر يعرض له في بلده أو ليهرب عن عدوه في منزله أو يتبرم بأهله وولده أو يشغل
هو فيه فأراد أن يستريح منه أياما أو ليفزو ولجارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيئة
الصاكر وجرها أو يصلى بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله أو يتعلم
العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزا بين المشركين أو ليسكون تقاره أو ماله محروسا
بعض العلم عن الأطماع أو اشتغل بالدريس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلبنة الحديث
أو تكفل بهنمة العلماء والصوفية لتكون حرمة وافرة عندهم وعند الناس أو لينال به رفقا في الدنيا

(١) حديث إن الرائي يدعى يوم القيامة يامرأى ياخذع الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب السنة
والاخلاص وقد تقدم .

نفسه أكثر مما يخاف
من الشيطان . وقال
بعضهم ليس الخائف
من يبكي ويمسح
عينه ولكن الخائف
التارك ما يخاف أن
يغضب عليه . وقيل
الخائف الذى لا يخاف
غير الله قيل أى
لا يخاف لنفسه إنما
يخاف إجلالا له
والخوف للنفس خوف
العقوبة . وقال سهل
الحوف ذكر والرجاء
أنهى أى منهما تولد
حقائق الإيمان . قال
الله تعالى - ولقد
وصينا الذين أوتوا
الكتاب من قبلكم
وإياكم أن اتقوا
الله - . قيل هذه الآية
قطب القرآن لأن مدار

أو كتب مصحفاً ليجود بالموظبة على الكتابة خطه أو حج ماشياً ليخفف عن نفسه الكراء أو تواضاً ليتذلف أو يتبرد أو اعتدل لتطير رائحته أو روى الحديث ليعرف بعلو الاستناد أو اعتكف في المسجد ليخفف كراء السكن أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبع الطعام أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه أو يعود مريضاً ليعاد إذا مرض أو يشيع جنازة ليشيع جناز أهله أو يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالحير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار فمهما كان باعته هو التقرب إلى الله تعالى والسكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الاخلاص وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك وقد قال تعالى «أنا أغنى الشركاء عن الشرك» وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويعيل إليه القلب قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما ينتك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس فلذلك قيل من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجما وذلك لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الأمر على صاحبه فيها وإنما نظرنا فيها إذا كان القصد الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور ثم هذه الشوائب إما أن تكون في رتبة اللواقفة أو في رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة كما سبق في النية ، وبالجملة فاما أن يكون الباعث النفسى مثل الباعث الدينى أو أقوى منه أو أضعف ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره وإنما الاخلاص تخلص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلاً وكثيرها حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواء وهذا لا يتصور إلا من يحب الله مستمتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار حتى لا يحب الأكل والشرب أيضاً بل تكون رغبته فيه كرهته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجلبة فلا يشتهي الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله ويتمنى أن لو كفى شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبقى في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ويكون قدر الضرورة مطلقاً باعده لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح الية في جميع حركاته وسكناته فلو نام مثلاً حتى يرج نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة الخاصين فيه ومن ليس كذلك فباب الاخلاص في الأعمال مسدود عليه إلا على التدور وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصاً فالذى يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة ، وبالجملة غير الله فقدا كتسبت جميع حركاته تلك الصفة فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادراً فإذا نزل علاج الاخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب فاذا تيسر الاخلاص وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خاصة لوجه الله ويكون فيها مغروراً لأنه لا يرى وجه الآفة فيها كما حكى عن بعضهم أنه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأول لأنى تأخرت يوماً لعذر فصليت في الصف الثانى فاعتزنى خجلة من الناس حيث رأونى في الصف الثانى ففرفت أن نظر الناس إلى فى الصف الأول كان مسرئى وسبب استراحة قلبى من حيث لا أشعر وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى والعاملون عنه يرون حسناتهم كلها فى الآخرة سيئات وهم الرادون بقوله تعالى - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتمسون - وبدا لهم سيئات ما كسبوا -

الأمر كله على هذا .
وقيل إن الله تعالى جمع للخائفين مافرقه على المؤمنين وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان فقال تعالى - هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون - وقال - إنما يخشى الله من عباده العلماء - وقال - رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه - . وقال سهل: كمال الإيمان بالعلم وكمال العلم بالخوف . وقال أيضاً: العلم كسب الإيمان والخوف كسب المعرفة . وقال ذوالنون: لا يسقى الحب كأس الحبة إلا من إعاد أن ينضج الخوف قلبه . وقال فضيل بن عياض

ويقوله تعالى - قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء فان الباعث للأكثرين على نشر العلم لئلا الاستيلاء والفرح بالاستبصار والاستبشار بالحمد والثناء والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وترى الواعظين على الله تعالى بصيحة الخلق ووعظه للسلطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه وهو يدعى أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين ولو ظهر من أفرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساء ذلك وغمه ولو كان باعته الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول إنا غمك لا تقطع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لو اتفقوا بقولك لكنت أنت الثواب واغتمامك لغوات الثواب محمود ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابا وأعود عليه في الآخرة من انفراده، وليت شعري لو اعتم عمر رضي الله عنه بتصدعه أبي بكر رضي الله تعالى عنه للإمامة أكان غمه محمودا ومذموما ولا يسترىب ذودين أن لو كان ذلك لكان مذموما لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح منه أعود عليه في الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل بل فرح عمر رضي الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر، فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك وقد ينخدع بعض أهل العلم بفرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور فان النفس سهلة القيادة في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ولم يف بالوعد وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكابدة الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتعتها، فمعرفة حقيقة الاخلاص والعمل به بحر عميق يفرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد القذ وهو المستثنى في قوله تعالى - لإعبادك منهم المخلصين - فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر.

(بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص)

قال السوسى : الاخلاص فقد رؤية الاخلاص ، فان من شاهد في إخلاصه الاخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص ، وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل فان الالتفات إلى الاخلاص والنظر إليه محب ؛ وهو من جملة الآفات . والحال : ما صفا عن جميع الآفات فهذا تعرض لآفة واحدة . وقال سهل رحمه الله تعالى : الاخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة ، وهذه كلمة جامعة محيطه بالعرض وفي معناه قول إبراهيم بن آدم : الإخلاص صدق النية مع الله تعالى . وقيل لسهل أى شئ أشد على النفس ، فقال : الاخلاص إذ ليس لها فيه نصيب . وقال رويم : الاخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا في الدارين ، وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا والعايد لأجل تنعم النفس بالشهوات في الجنة معاول بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين وهو الاخلاص المطلق . فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج وإنما المطلوب الحق لذوى الأبواب وجه الله تعالى فقط ، وهو القائل لا يتحرك الانسان الا لحظ والبراءة من الحظوظ صفة الالهية ، ومن ادعى ذلك فهو كافر . وقد قضى القاضي أبو بكر الباقلاني بتكفير من يدعى البراءة من الحظوظ وقال هذا من صفات

إذا قيل لك تخاف الله
اسكت فانك ان قلت لا
كفرت وان قلت نعم
كذبت فليس وصفك
وصف من يخاف .
[قولهم في الرجاء] قال
رسول الله صلى الله عليه
وسلم ويقول الله
عز وجل أخرجوا من
النار من كان في قلبه
مثقال حبة من خردل
من إيمان ثم يقول
وعزتي وجلالي
لأجعل من آمن بي
من ساعة من ليل
أو نهار كمن لا يؤمن
بي . قيل «جاء أعرابي
إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال من يلى
حساب الخلق ؟ فقال
الله تبارك وتعالى قال
هو بنفسه ؟ قال نعم

الإلهية وما ذكره حق ، ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا ، وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط . فأما التلذذ بمجرد العرفة والناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى . فهذا حظ هؤلاء وهذا لا يبعده الناس حظا بل يتعجبون منه . وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذّة الطاعة والناجاة وملازمة الشهود للحضرة الإلهية سرّاً وجهراً جميع نعم الجنة لاستحقرّوه ولم يلتفتوا إليه فحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره . وقال أبو عثمان : الاخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط ولذلك قال بعضهم الاخلاص في العمل : أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه فانه إشارة إلى مجرد الاخفاء . وقد قيل الاخلاص : ما استر عن الخلائق وصفا عن العلائق وهذا أجمع للمقاصد . وقال المحاسبي : الاخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب وهذا إشارة إلى مجرد نفي الرياء وكذلك قول الخواص : من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية . وقال الحواريون لعيسى عليه السلام : ما الخالص من الأعمال فقال الذي يعمل لله تعالى لا يجب أن يحمده عليه أحد وهذا أيضا ترمض ترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للاخلاص . وقال الجنيد : الاخلاص تصفية العمل من الكدورات . وقال الفضيل : ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والاخلاص أن يعافيك الله منهما . وقيل : الاخلاص دوام الرقابة . ونسيان الحظوظ كلها وهذا هو البيان الكامل والأقوال في هذا كثيرة . ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة وإنما البيان الشافي بيان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم « إذ سئل عن الاخلاص فقال : أن تقول ربّي الله ثم تستقيم كما أمرت (١) » أي لا تعبد هواك وتفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم في عبادته كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الاخلاص حقا .

(بيان درجات الشوائب والآفات المكذرة للاخلاص)

اعلم أن الآفات المشوشة للاخلاص بعضها جلي وبعضها خفي وبعضها ضيف مع الجلاء وبعضها قوى مع الحفاء ولا يفهم اختلاف درجاتها في الحفاء والجلاء إلا بمثال . وأظهر مشوشات الاخلاص الرياء فلندكر منه مثالا . فنقول : الشيطان يدخل الآفة على الصلّي مهما كان مخلصا في صلاته ثم نظر إليه جماعة أودخل عليه داخل فيقول له حسن صلاتك حتى ينظر اليك هذا الحاضر أمين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يفتاك فتخشع جوارحه وتكمن أطرافه وتحسن صلاته وهذا هو الرياء الظاهر ولا يخفى ذلك على المتدبّين من الريدين . الدرجة الثانية يكون المرید قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ويستمر في صلاته كما كان قبلاً في معرض الحير ويقول أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور اليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت فأحسن عملك بين يديه فمصاه يقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة وهذا أغمض من الأول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول وهو أيضا

(١) حديث سئل عن الاخلاص فقال أن تقول : ربّي الله ثم تستقيم كما أمرت لم أره بهذا اللفظ وللترمذی وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبدالله التقي قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعتم به قال قل ربّي الله ثم استقم وهو عند مسلم بلفظ : قل لي في الاسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم .

فتبسم الأعرابي فقال
النبي صلى الله عليه
وسلم م ضحكك
يا أعرابي ؟ فقال
إن الكريم إذا قدر
عسا وإذا حاسب
سامع . وقال شاه
الكرماني : علامة
الرجاء حسن الطاعة .
وقيل : الرجاء رؤية
الجلال بعين الجلال .
وقيل : قرب القلب
من ملاطفة الرب .
قال أبو طي الروذباري :
الحسوف والرجاء
بكنساحي الطائر إذا
استويا استوى الطائر
وتّم في طيرانه . قال
أبو عبد الله بن خفيف :
الرجاء ارتياح القلوب
لرؤية كرم المرجو .
قال مطرف : لو

عين الرياء ومبطل للاخلاص فانه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه فلم يرض لنفسه ذلك في الخلوّة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه فهذا بعض التلبس بل المقتدى به هو الذي استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه فأما هذا فحوض النفاق والتلبس فمن اقتدى به أئيب عليه . وأما هو فيطالب بتلبسه ويماقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفا به . الدرجة الثالثة وهي أدق مما قبلها أن يجرب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفة بين الخلوّة والشاهدة للغير محض الرياء ويعلم أن الاخلاص في أن تكون صلاته في الخلوّة مثل صلاته في الملأ ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخضع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته فيقبل على نفسه في الخلوّة ويحسن صلته على الوجه الذي يرتضيه في الملأ ويصلي في الملأ أيضا كذلك فهذا أيضا من الرياء الغامض لأنه حسن صلته في الخلوّة لتحسن في الملأ فلا يكون قد فرق بينها فالثغرات في الخلوّة والملأ إلى الخلق بل الإخلاص أن تكون مشاهدة الهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة فكأن نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرأين ويظن أن ذلك يزول بأن تستوى صلته في الخلوّة واللأوهيات بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلوّة واللأوهيات وهذا من شخص مشغول بهم بالخلق في الملأ والخلاص وهذا من السكايد الحفية للشيطان . الدرجة الرابعة هي أدق وأخفى أن ينظر إليه الناس وهو في صلته فيحجز الشيطان عن أن يقول له اخضع لأجلهم فانه قد عرف أنه تفتن لذلك فيقول له الشيطان تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحي من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه وتخضع جوارحه ويظن أن ذلك عين الإخلاص وهو عين السكر والجداع فان خشوعه لو كان نظره إلى جلالة لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوّة ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الحاضر مما يأنه في الخلوّة كما يأنه في الملأ ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الحاضر كما لا يكون حضور البهيمة سببا فاما يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الحفي من الرياء ، وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديب الخلة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء (١) كما ورد به الخبر ، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بصحة الله تعالى وتوفيقه وهدايته وإلا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى لا ينفصل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب فان هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ حتى لا يرتبط نظر الحاقق بها ولا ستئناس الطبع بها فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تركها وتكون أبعث القلب باطنا لها لأجل تلك الشهوة الحفية أو مشوبة بها شوبا يخرج عن حد الاخلاص بسببه وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص بل من يعتكف في مسجده مور نظيف حسن العمارة يأنس إليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف وقد يكون المحرك الحفي في سره هو الأنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه ويتبين ذلك في ميله إلى أحد السجدين أو أحد للوضعين إذا كان أحسن من الآخر وكل ذلك امتزج بشوائب الطبع وكدورات

(١) حديث الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديب الخلة السوداء في الظلمة الظلماء على الصخرة تقدم في العلم وفي ذم الجاه والرياء .

وزن خوف المؤمن
ورجاؤه لا اعتدلا .
والخوف والرجاء
للإيمان كالجنحين
ولا يكون خائفا إلا
وهو راجح ولا راجيا
إلا وهو خائف لأن
موجب الخوف الإيمان
وبالإيمان رجاء
وموجب الرجاء الإيمان
ومن الإيمان خوف
ولهذا المعنى روى
عن لقمان أنه قال
لابنه خف الله تعالى
خوفا لا تأمن فيه
مكره وارجح أشد من
خوفك ، قال فكيف
أستطيع ذلك وإني
لي قلب واحد ؟ قال
أما علمت أن المؤمن
لتو قلبين يخاف
بأحدهما ويرجو

النفس ومبطل حقيقة الاخلاص لعمري النفس الذي يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة فمنها ما يغلب ومنها ما يقل لكن يسهل حدكه ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير وغش القاب ودغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيرا ، ولهذا قيل ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها فإن الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واعتزازه بها كنظر السوادى إلى حمرة الدينار الموه واستدارته وهو مفتوش زائغ في نفسه وقبائط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغر العبي فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشد وأعظم ومدخل الآفات التطرقة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فلينتفع بما ذكرناه مثلا والفقن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل أيضا فلا فائدة في التفصيل .

(بيان حكم العمل للشوب واستحقاق الثواب به)

اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس في أن ذلك هل يقتضى ثوابا أم يقتضى عقابا أم لا يقتضى شيئا أصلا فلا يكون له ولا عليه وأما الذي لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب العقاب . وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما النظر في الشوب وظاهر الأخبار يدل على أنه لا ثواب له (١) وليس تغلو الأخبار عن تعارض فيه والذي يتقدم لما فيه والعلم عند الله أن ينظر إلى قدر قوة الباعث فإن كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسى تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفرض للعقاب نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرب وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الدينى وهذا لقوله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - ولقوله تعالى - إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها - فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذى يساويه وبقيت زيادة وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد وكشف الغطاء عن هذا أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها فداعية الرياء من الهلكات وإنما غذاء هذا الهلك وقوته العمل على وقته وداعية الخير من النجيات وإنما قوتها بالعمل على وقتها فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضا تلك الصفة وأحدهما مهلك والآخر منجى فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من البردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناوله كما أنه لم يتناولهما وإن كان أحدهما غالبا لم يخل الغالب عن أثر فكلما لا يضيع مثقال ذرة

(١) الأخبار التي يدل ظاهرها على أن العمل للشوب لا ثواب له قال وليس تغلو الأخبار عن تعارض أبو داود من حديث أبي هريرة أن رجلا قال يا رسول الله رجل ينتقى الجهاد في سبيل الله وهو ينتقى عرضا من الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أجر له الحديث والنسائي من حديث ابن أمية باسناد حسن أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والله كرمه له فقال لا شيء له فأعادها ثلاث مرات يقول لا شيء له ثم قال إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه وللمزنى وقال غريب وابن حبان من حديث أبي هريرة الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال له أجزان أجر السر وأجر العلانية وقد تقدم في ذم الجاه والرياء .

بالآخر وهذا لأنها من حكم الإيمان . [قولهم في التوكل] قال السرى : التوكل الانحلال من الحول والقوة . وقال الجنيد التوكل أن تكون لله كما لم تكن فيكون الله لك كما لم يزل . وقال سهل : كل المقامات لها وجه وفقا غير التوكل فإنه وجه بلافتا قال بعضهم يريد توكل العناية لا توكل الكفاية والله تعالى جعل التوكل مقرونا بالإيمان فقال - وعلى الله فتوكلو وإن كنتم مؤمنين - وقال - وعلى الله فليتوكل المؤمنون - وقال لبيد - وتوكل على الحى الذى لا يموت - وقال

من الطعام والشراب والأدوية ولا يفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى فكذلك لا يضيع مثال ذرة من الخير والشر ولا يفك عن تأثير في إنارة القلب أو تسويده وفي تقريره من الله أو إبعاده فإذا جاء بما يقربه شبرا مع ما يعده شبرا فقد عاد إلى ما كان فلم يكن له ولا عليه وإن كان الفعل مما يقربه شبرين والآخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر وقد قال النبي ﷺ «أتبع السيئة الحسنة تمحها» (١) فإذا كان الرياء المحض يمحوه الاخلاص المحض عتبه فإذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس نعم يمكن أن يقال إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص وإنما اشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة ولكن الصواب أن يقال مهما كان الحج هو المحرك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا يفك نفس السفر عن ثواب. وما عتدى أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الغنائم وبين جهة لا غنيمة فيها ويعد أن يقال إدراك هذه التفرقة يحبط بالسكينة ثواب جهادهم بل العدل أن يقال إذا كان الباعث الأصلي والمزجج القوي هو إعلاء كلمة الله تعالى وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلا فان هذا الالتفات نقصان لا محالة. فان قلت فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء محبط للثواب وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى طاوس وغيره من التابعين «أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن مصطنع المعروف أوقال يتصدق فيجب أن يحمده ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت - فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا - (٢)» وقد قصد الأجر والمدح جميعا وروى معاذ عن النبي ﷺ أنه قال «أدنى الرياء شرك» (٣) وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «يقال لمن شرك في عمله خذ أجره ممن عملت له» (٤) وروى عن عبادة «أن الله عز وجل يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من عمل لي عملا فأشرك معي غيري ودعت نصيبي لشريك» وروى أبو موسى «أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» (٥) وقال عمر رضي الله عنه تقولون فلان شهيد ولعله أن يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقا وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال رسول الله ﷺ «من هاجر بيتني شيئا من الدنيا فهو له» (٦) فتقول هذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقوله من هاجر بيتني شيئا من الدنيا وكان ذلك هو الأغلب على همه وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لأن طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين

(١) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها تقدم في رياضة النفس وفي التوبة (٢) حديث طاوس وعبد من التابعين أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن مصطنع المعروف أوقال يتصدق فيجب أن يحمده ويؤجر فقلت - فمن كان يرجوا لقاء ربه - ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسلًا وقد تقدم في ذم الحياء والرياء (٣) حديث معاذ عن النبي ﷺ أنه قال «أدنى الرياء شرك» (٤) حديث أبي هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «يقال لمن أشرك في عمله خذ أجره ممن عملت له تقدم فيه من حديث محمود بن لبيد بنحوه وتقدم فيه حديث أبي هريرة من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركه وشركه وفي رواية مالك في الموطأ فهو له كله (٥) حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله تقدم فيه (٦) حديث ابن مسعود من هاجر بيتني شيئا من الدنيا فهو له تقدم في الباب الذي قبله.

ذواتون: التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة. وقال أبو بكر الرقاق: التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد. وقال أبو بكر الواسطي: أصل التوكل صدق الفاقة والافتقار وأن لا يفارق التوكل في أمانيه ولا يلتفت بسره إلى توكله لحظة في عمره. وقال بعضهم من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبرا يدفنها فيه وينس الدنيا وأهلها لأن حقيقة التوكل لا يقوم لها أحد من الخلق على كماله. وقال سهل أول مقامات التوكل أن يكون العبد بين يدي الله تعالى

حرام لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها وأما لفظ الشركه حيث ورد فطلق للتساوى وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه فلا يبنى أن يرجى عليه ثواب ثم إن الانسان عند الشركه أبدا في خطر فانه لا يدري أى الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالاولى ولذلك قال تعالى - فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا - أى لا يرجى اللقاء مع الشركه التى أحسن أحوالها التساقط ويجوز أن يقال أيضا منصب الشهادة لا ينال إلا بالاخلاص فى الغزو وبيد أن يقال من كانت داعيته الدينية بحيث تزججه إلى مجرد الغزو وإن لم يكن غنيمة وقدر على غزوطا فتبين من الكفار إحداها غنية والأخرى فقيرة فمال إلى جهة الأغنياء لا إلاء كلمة الله وللفنينة لا ثواب له على غزوه ألبتة ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك فان هذا حرج فى الدين ومدخل للبأس على المسلمين لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الانسان عنها إلا على التدور فيكون تأثير هذا فى هوان الثواب فأما أن يكون فى إحباطه فلا، نعم الانسان فيه على خطر عظيم لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله ويكون الأغلب على سره الحظ النفسى وذلك مما يخفى غاية الحفاء فلا يحصل الأجر إلا بالاخلاص والاخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ فى الاحتياط فلذلك يبنى أن يكون أبدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول خائفا أن تكون فى عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها وهكذا كان الخائفون من ذوى البصائر وهكذا يبنى أن يكون كل ذى بصيرة ولذلك قال سفیان رحمه الله لا أعتد بما ظهر من عملى وقال عبدالعزیز بن أبى رواد جاورت هذا البيت ستين سنة وحببت ستين حجة فمادخلت فى شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسى فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله لئنه لالى ولا على ومع هذا فلا يبنى أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فان ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ القصد أن لا يفوت الاخلاص ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعا وقد حكى أن بعض الفقهاء كان يخدم أباسعيد الحراز ويغف فى أعماله فتكلم أبو سعيد فى الاخلاص يوما يريد إخلاص الحركات فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطلبه بالاخلاص فمذمر عليه قضاء الحوائج واستنصر الشيخ بذلك فسأله عن أمره فأخبره بغطالته نفسه بحقيقة الاخلاص وأنه يعجز عنها فى أكثر أعماله فتركها فقال أبو سعيد لا تفعل إذ الاخلاص لا يقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد فى تحصيل الاخلاص فمما قلت لك أترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل وقد قال الفضيل ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لأجل الخلق شرك.

(الباب الثالث فى الصدق وفضيلته وحقيقته)

(فضيلة الصدق)

قال الله تعالى - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا»^(١) ويكفى فى فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه والله تعالى وصف الأنبياء به فى معرض اللذخ والثناء فقال - واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا - وقال - واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادقا الوعد وكان رسولا نبيا - وقال تعالى - واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا - وقال ابن عباس أربع من كن فيه فقد ربح الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر. وقال شمر بن الحرث من عامل الله بالصدق

(الباب الثالث فى الصدق)

(١) حديث إن الصدق يهدى إلى البر الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

حكيت بين يدي
الفاصل يقلمه كيف أراد
ولا يكون له حركة
ولاندير وقال حمدون
التصار : التوكل هو
الاعتصام بالله . وقال
سهل أيضا : العلم كله باب
من التعميد والتعبد كله
باب من الورع والورع
كله باب من الزهد
والزهد كله باب من
التسوكل . وقال :
التقوى واليقين مثل
كففى البران والتوكل
لسانه به تعرف الزيادة
والذفصان ويقع لى أن
اتوكل على قدر العلم
بلوكل فكل من كان
أم معرفة كان أم
توكلا ومن كل توكله
قلب فى رؤية الوكيل
عن رؤية توكله ثم إن

استوحش من الناس . وقال أبو عبد الله الرملي رأيت منصوراً الدينوري في المنام فقلت له ما فعل الله بك قال غفر لي ورحمني وأعطاني مالم أؤمل فقلت له أحسن ما توجه العبد به إلى الله ماذا؟ قال الصدق وأقبح ما توجه به الكذب . وقال أبو سليمان اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك . وقال رجل لحكيم ما رأيت صادقاً فقال له لو كنت صادقاً لعرفت الصادقين وعن محمد بن علي السكتاني قال وجدنا دين الله تعالى مبني على ثلاثة أركان على الحق والصدق والعدل فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول . وقال الثوري في قوله تعالى - ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة - قال هم الذين ادعوا بحجة الله تعالى ولم يكونوا صادقين، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يداود من صدقتي في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته وصاح رجل في مجلس الشبلي ورمى نفسه في دجلة فقال الشبلي إن كان صادقاً فآله تعالى ينجيهِ كما نجى موسى عليه السلام وإن كان كاذباً فآله تعالى يفرقه كما أغرق فرعون . وقال بعضهم أجمع الفقهاء والطاء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها إلا ببعض الإسلام الخالص عن البدعة والهوى والصدق لله تعالى في الأعمال وطيب المطعم . وقال وهب بن منبه وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفاً كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرءونها ويتدارسونها . لاكثر أنفع من العلم والامال أربع من الحلم ولا حسب أوضع من الغضب ولا قرين أزين من العمل ولا رفیق أشين من الجهل ولا شرف أعز من التقوى ولا كرم أوفى من ترك الهوى ولا عمل أفضل من الفكر ولا حسنة أظى من الصبر ولا سيئة أخزى من الكبر ولا دواء ألين من الرفق ولا داء أوجع من الحرق ولا رسول أعدل من الحق ولا دليل أنصح من الصدق ولا قرر أذل من الطمع ولا غنى أشقى من الجمع ولا حياة أطيب من الصحة ولا معيشة أهنأ من العفة ولا عبادة أحسن من الخشوع ولا زهد خير من القنوع ولا حارس أحفظ من الصمت ولا غائب أقرب من الموت . وقال محمد بن سعيد الروزي إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى امرأة يدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة . وقال أبو بكر الوراق احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق وقيل لدى النون هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل؟ قال :

قد بينا من الذنوب حيارى نطلب الصدق ما إليه سبيل

فدعواي الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقیل

وقيل لسهل ما أصل هذا الأمر الذي نحن عليه فقال الصدق والسخاء والشجاعة قليل زدنا فقال التقى والحياء وطيب الغذاء . وعن ابن عباس رضي الله عنهما «أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال : قول الحق والعمل بالصدق^(١)» وعن الجنيد في قوله تعالى - ليسأل الصادقين عن صدقهم - قال يسأل الصادقين عن أنفسهم عند ربهم وهذا أمر على خطر .

(بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه)

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان صدق في القول وصدق في النية والارادة وصدق في العزم وصدق في الوفاء بالعزم وصدق في العمل وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها فمن انصف بالصدق في جميع ذلك فهو صادق لأنه مبالغة في الصدق ثم هم أيضاً على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه . الصدق الأول : صدق اللسان وذلك لا يكون إلا في الإخبار أو فيما يتضمن الإخبار وينبئ عليه والخبر إيمان يتعلق بالماضي أو بالمستقبل

(١) حديث ابن عباس سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق لم أجده بهذا اللفظ .

قوة للفرقة فيصدق
العلم بالعدل في القسمة
وإن الأقسام نصبت
بإزاء القسوم لهم عدلاً
وموازنة فإن النظر
إلى غير الله لوجود
الجهل في النفس وكل
ما أحس بشيء يقدح
في توحيده يراه من
منبع النفس فقصاص
التوكل يظهر بظهور
النفس وكأله يثبت
بضية النفس وليس
للاقوياء اعتماد
بتصحيح توكلهم وإنما
شغلهم في تضييق
النفس بتقوية مواد
القلب فإذا غابت
النفس انحسرت مادة
الجهل فصح التوكل
والصدق غير ناظر
إليه وكلا تحرك من

وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هو عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كالان: أحدهما الاحتراز عن المعارض فصدقيل للمعارض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة وتمتضيه المصلحة في بعض الأحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراه وفي الحذر عن الظلمة وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار تلك فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمراه الحق به ويتمتضيه الدين فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه لأن الصدق ما يريد لتداته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه نعم في مثل هذا الوضع ينبغي أن يعدل إلى المعارض ما وجد إليه سبيلا، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفروى بغيره (١) وذلك كي لا يتهمى الخبر إلى الأعداء فيقصد وليس هذا من الكذب في شيء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نعى خيرا (٢)» ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع من أصلح بين اثنين ومن كان له زوجتان ومن كان في مصالح الحرب، والصدق ههنا يتحول إلى النية فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير فهما صح قصده وصدق نيته وتجردت للخير إرادته صار صادقا وصديقا كيفما كان لفظه ثم التعريض فيه أولى وطريقه ما حكي عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجته خطي بأصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولى ليس هو ههنا واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه فكان قوله صادقا وأفهم الظالم أنه ليس في الدار فالكالك الأول في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعارض أيضا إلا عند الضرورة والكالك الثاني أن يراعى معنى الصدق في ألفاظه التي ينجى بهاربه كقوله -وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض- فإن قلبه إن كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأمانى الدنيا وشهواته فهو كاذب وكقوله -إياك نعبد- وقوله أنا عبد الله فإنه إذا التصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صادقا ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله أنا عبد الله لعجز عن تحقيقه فإنه إن كان عبدا لنفسه أو عبدا الدنيا أو عبدا للشهوات لم يكن صادقا في قوله وكل ماتقيد العبد به فهو عبده كما قال عيسى عليه السلام يا عبدة الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخيصة (٣)» فسمى كل من تقيد قلبه بشيء عبدا له وإنما العبد الحق لله عز وجل من أعتق أولا من غير الله تعالى فصار حرا مطلقا فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا لحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبعبجته وتقيد بباطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالى ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية وهو أن يعتق أيضا عن إرادته لله من حيث هو بل يقنع بما يريد الله له من تقرب أو إبعاد فتضى إرادته في إرادة الله تعالى وهذا عبء عتق عن غير الله فصار حرا ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرا وصار مفعودا لنفسه موجودا لسيده ومولاه إن حركه تحرك وإن سكنه سكن وإن ابتلاه رضى لم يبق فيه متع لطلب والتماس واعتراض بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق في العبودية

(١) حديث كان إذا أراد سفرا ورمى بغيره متفق عليه من حديث كعب بن مالك (٢) حديث ليس بكاذب من أصلح بين الناس الحديث متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وقد تقدم (٣) حديث تعس عبد الدينار الحديث البخارى من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

النفس بقية يرد على ضمير سر قوله تعالى - إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء - فيغلب وجود الحق الأعيان والأكران ويرى الكون بالله من غير استقلال الكون في نفسه ويصير التوكل حينئذ اضطرارا ولا يقصد في توكل مثل هذا التوكل ما يقصد في توكل الضمءاء في التوكل من وجود الأسباب والوسائط لأنه يرى الأسباب مواتا لا حياة لها إلا بالتوكل وهذا توكل خواص أهل المعرفة. [قولهم في الرضا] قال الحرث الرضا نكون

لہ تعالیٰ فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لانه - وهذه درجة الصديقين . وأما الحريرة عن غير الله فدرجات الصادقين وبمدها تتحقق العبودية لله تعالیٰ وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقا ولا صديقا فهذا هو معنى الصدق في القول . الصدق الثاني: في النية والأرادة ويرجع ذلك إلى الاخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالیٰ فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا ككروينا في فضيلة الاخلاص من حديث الثلاثة حين يسأل العالم ما عملت فيما علمت ؟ فقال فعلت كذا وكذا ، فقال الله تعالیٰ كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم (۱) فإنه لم يكذب ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه في إرادته ونيته، وقد قال بعضهم: الصدق صحة التوحيد في التصديق وكذلك قول الله تعالیٰ - والله يشهد إن المنافقين لكاذبون - وقد قالوا إنك لرسول الله وهذا صدق ولكن كذبهم لامن حيث أنطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرق إلى الخبر وهذا القول يتضمن إخبارا بقرينة الحال إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يتقدم ما يقول فكذب في دلالة بقرينة الحال على ما في قلبه فإنه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الاخلاص فكل صادق فلا بد وأن يكون مختصا. الصدق الثالث: صدق العزم فان الإنسان قد يقدم العزم على العمل فيقول في نفسه إن رزقني الله ما لا تصدقت بجميعة أو بشرطه أو إن لقيت عدوا في سبيل الله تعالیٰ قاتلت ولم أبال وإن قتل وإن أعطاني الله تعالیٰ ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالیٰ بظلم وميل إلى خلق فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضمف يضاد الصدق في العزيمة فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال لفلان شهوة صادقة ويقال هذا المريض شهوته كاذبة مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوى أو كانت ضعيفة فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى والصادق والصدیق هو الذي تصادف عزمته في الحیرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضمف ولا تردد بل تسخو نفسه أبدا بالعزم الصمم الجازم على الحیرات وهو كما قال عمر رضی الله عنه: لأن أدم تضرب عنق أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر رضی الله عنه فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم والمهبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر رضی الله عنه وأكذلك بما ذكره من القتل. ومراتب الصديقين في العزائم تختلف فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه ولكن إذا خلى ورأيه لم يقدم ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه بل في الصادقين والؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب إليه من حياة أبي بكر الصديق. الصدق الرابع: في الوفاء بالعزم فان النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم والثؤنة فيه خفيفة فاذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم وهذا يضاد الصدق فيه ، ولذلك قال الله تعالیٰ - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - فقد روى عن أنس «أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه أما والله لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع قال تشهد أحدا في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا أبا عمير وإلى أين فقال وإها لريح الجنة أتى أجد رجها دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطنة فقالت أخته بنت النضر ما عرفت أخی إلا بينانه ، فترلت هذه الآية - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - (۲) . «ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب

القلب تحت جريان الحكم وقال ذوالنون الرضا سرور القلب عبر القضاء . وقال سفيان عند رابعة اللهم ارض عنا فقالت له أما تستحي أن تطلب رضا من است عنه براص فسألها بعض الحاضرين متى يكون الصدر ارضيا عن الله تعالیٰ فقالت إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة . وقال سهل إذا اتصل الرضا بالرضوان اتصلت الطمأنينة - فطوبى لهم وحسن مآب - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا» وقال عليه السلام «إن الله

(۱) حديث الثلاثة حين سأل العالم ماذا عملت فيما علمت فما عملت في الحديث تقدم (۲) حديث أنس أن عمه أنس بن

ابن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر - (١) وقال فضالة بن عبيد سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذى يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته . قال الراوى : فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجل جيد الإيمان إذا لقي العدو فكأما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم عائر فقتله فهو فى الدرجة الثانية ورجل مؤمن خلط أعماله الحلو وآخر سيئا لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الثالثة ورجل أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الرابعة (٢) » وقال مجاهد رجلان خرجا على ملاء من الناس تعود قتالا إن رزقنا الله تعالى مالاً لنصدقن فبخلوا به فنزلت - ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين - وقال بعضهم إنما هو شئ نووه فى أنفسهم لم يتكلموا به قولا ، - ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله غلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون - فجعل العزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث فإن النفس قد تسخو بالعزم ثم تكسب عند الوفاء لشدة عليها ولهيجان الشهوة عند التمكّن وحصول الأسباب ، ولذلك استثنى عمر رضى الله عنه فقال لأن أقدم فتضرب عنقى أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر اللهم إلا أن تسول لى نفسى عند القتل شيئا لأجده الآن لأنى لا آمن أن يتقل عليها ذلك فتخبر عن عزمها ، أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالعزم وقال أبو سعيد الخزاز رأيت فى المنام كأن ملكين نزلا من السماء فتالا لى ما للصدق قلت الوفاء بالعهد فتالا لى صدقت وعرجا لى السماء . الصدق الخامس فى الأعمال وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لا يتصف هو به لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر وهذا مخالف ما ذكرناه من ترك الرياء لأن للرأى هو الذى يقصد ذلك ورب واقف على هيئة الخشوع فى صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة فمن ينظر إليه يراه قائما بين يدي الله تعالى وهو بالباطن قائم فى السوق بين يدي شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق فى الأعمال وكذلك قد يمضى الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار فهذا غير صادق فى عمله وإن لم يكن ملتفتا إلى الخلق ولا مرآيا أيام ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلاية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر وليس ثياب الأشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبا فى دلالة الظاهر على الباطن فاذا مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت زياه ورفوت بها الاخلاص وإن كانت عن غير قصد فيفوت

النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث فى قتاله بأحد حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول - رجال صدقوا - الآية الترمذى وقال حسن صحيح والنسائى فى الكبرى وهو عند البخارى مختصرا إن هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر (١) حديث وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد وقرأ هذه الآية أبو نعيم فى الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسلا (٢) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان الحديث الترمذى وقال حسن .

تعالى بحكته جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط وقال الجنيب الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلوب فاذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا وليس الرضا والمحبة كالخوف والرجاء فانهما حالان لا يغازقان اابد فى الدنيا والآخرة لأنه فى الحجة لا يستثنى عن الرضا والمحبة . وقال ابن عطاء الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد لأنه اختار له الأفضل فى رضى له وهو ترك السخط . وقال أبو تراب ليس بنال الرضا من الله من

بها الصدق ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل سريري خيرا من علانيتي واجعل علانيتي سالحة (١) » وقال يزيد بن الحرث إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف وإن كانت سريره أفضل من علانيته فذلك الفضل وإن كانت علانيته أفضل من سريره فذلك الجور وأنشدوا:

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى فقد عز في الدارين واستوجب الثنا
فإن خالف الإعلان سرا فما له على سعيه فضل سوى الكد والعنا
فما خالص الدينار في السوق نافق ومفشوشه الردود لا يقتضى الننا

للدنيا في قلبه مقدار.
وقال السري : خمس
من أخلاق القربين
الرضا عن الله فيما يحب
النفس وتكبره
والحب له بالتعجب
إليه والحياء من الله
والأنس به والوحشة
مما سواه. وقال الفضيل
الراضى لا يتمنى فوق
منزله شيئا وقال ابن
شيمون الرضا بالحق
والرضا له والرضا عنه
فالرضا به مدبرا ومختارا
والرضا عنه قاسما
ومعطيا والرضا له إلها
وربا . سئل أبو سعيد
هل يجوز أن يكون
الصدرا ضيا ساخطا قال
نعم يجوز أن يكون
راضيا عن ربه ساخطا
على نفسه وعلى كل قاطع

وقال عطية بن عبد الغافر : إذا واقعت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به اللائكة يقول هذا عبدي حقا . وقال معاوية بن قرة من يدلنى على بكاء بالليل بسام بالهار ، وقال عبد الواحد بن زيد كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أشمل الناس به وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له ولم أر أحدا قط أشبه سريرة بعلانية منه ، وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول إلهى عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة ويكي ، وقال أبو يعقوب النهرجوري : الصدق موافقة الحق في السر والعلانية فأذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق . الصدق السادس : وهو أعلى الدرجات وأعزها الصدق في مقامات الدين كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهو والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور فإن هذه الأمور لها مبادئ ينطلق الاسم بظهورها ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقا فيه كما يقال فلان صدق القتال ، ويقال هذا هو الخوف الصادق وهذه هي الشهوة الصادقة وقال الله تعالى - إيمان المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا - إلى قوله - أولئك هم الصادقون - وقال تعالى - ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر - إلى قوله - أولئك الذين صدقوا - وسئل أبو ذر عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقيل له سألتك عن الإيمان فقال « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقرأ هذه الآية (٢) » ولضرب للخوف مثلا لما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ولكنه خوف غير صادق أى غير بالغ درجة الحقيقة أما تراه إذا خاف سلطانا أو قاطع طريق في سفره كيف يصفر لونه وترعد فرسه ويتنفس عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه ويتقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به أهله وولده وقد يزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار كل ذلك خوفا من ذلك المهدور ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان نصية عليه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لم أر مثل النار نام هار بها ولا مثل الجنة نام طالها (٣) » فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جدا ولا غاية لهذه اللقائات حتى ينال تمامها ولكن لكل عبده منه حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوى فإذا قوى سمي صادقا فيه فمعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه لانهاية لها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام « أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك فقال لا تطبق ذلك قال بل أرى فواعده البقيع في ليلة مقمرة فأثام فنظر النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو به قد سد الأفق بعنى جوانب السماء فوقع النبي ﷺ مغشيا عليه فأفاق وقد عاد

- (١) حديث اللهم اجعل سريري خيرا من علانيتي الحديث تقدم ولم أجده (٢) حديث أبي ذر سألتك عن الإيمان فقرأ قوله تعالى - ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر - إلى قوله - أولئك الذين صدقوا - رواه محمد بن نصر للروزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجده إلا نادرا .
(٣) حديث لم أر مثل النار نام هار بها الحديث تقدم .

جبریل لصورته الأولى فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما ظننت أن أحدا من خلق الله هكذا قال وكيف لو رأيت إسرافيل إن العرش لملئ كاهله وإن رجليه قد مرقتا تحت تخوم الأرض السفلى وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع (۱) ۞ يعنى كالصغور الصغير، فانظر ما الذى يشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق في التعظيم . وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مرت ليلة أسرى بي وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالى من خشية الله تعالى (۲) ۞ يعنى الكساء الذى يلقى على ظهر البعير وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا يلبغوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قال ابن عمر رضى الله عنهما لن تبلغ حقيقة الايمان حتى تنظر الناس كلهم حقى في دين الله . وقال مطرف ما من الناس أحد إلا وهو أحقق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الحق أهون من بعض وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ عبد حقيقة الايمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير (۳) ۞ فالصادق إذ فن في جميع هذه المقامات عزيز ثم درجات الصدق لانها يتلها وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض فان كان صادقا في الجميع فهو الصديق حقا قال سعد بن معاذ ثلاثة أنا فيهن أقوى وفيها سواهن ضعيف ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسى حتى أفرغ منها ولا شيعت جنازة فحدثت نفسى بغير ما هى قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دقتها وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولاً إلا علمت أنه حق فقال ابن المسيب ما ظننت أن هذه الحصال تجتمع إلا في النبي عليه السلام فهذا صدق في هذه الأمور وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا اللبلغ فهذه هي درجات الصدق ومعانيه والكلمات الماثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب لاتعرض إلا لأحاد هذه اللعان نعم قد قال أبو بكر الوراق الصدق ثلاثة صدق التوحيد وصدق الطاعة وصدق المعرفة فصدق التوحيد لامة للؤمنين قال الله تعالى - والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون - وصدق الطاعة لأهل العلم والورع وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق وهو أيضا غير محيطة بجميع الأقسام. وقال جعفر الصادق: الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك فقال تعالى - هو اجتباكم - وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام إنى إذا أحببت عبدا ابتليت به يلايا لاتقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه فان وجدته صابرا اتخذته وليا وحببها وإن وجدته جزوعا بشكونى إلى خلقى خذلته ولا أبالى فاذن من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعا وكراهة اطلاق الخلق عليها . ثم كتاب الصدق والاخلاص ، يتلوه كتاب البراقبة والمحاسبة والحمد لله .

يقطعه عن الله . وقيل للحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما إن أبا ذر يقول الفقر أحب إلى من الفنى والسقم أحب إلى من الصحة قال رحمه الله أبا ذر ، أما أنا فأقول : من اتسكل على حسن اختيار الله له لم يتمن أنه في غير الحالة التى اختار الله له وقال على رضى الله عنه من جلس على بساط الرضا لم ينله من الله مكروه أبدا ومن جلس على بساط السؤال لم يرض عن الله في كل حال . وقال يحيى رجع الأمر كله إلى هذين الأصلين فل منه بك وفعل

(۱) حديث قال لجبريل أحب أن أراك في صورتك التى هى صورتك فقال لاتطبق ذلك الحديث تقدم في كتاب الرجاء والخوف أخصر من هذا الذى ثبت في الصحيح أنه رأى جبريل في صورته مرتين (۲) حديث مرت ليلة أسرى بي وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالى من خشية الله الحديث محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الإيادى ضمنه الجمهور وقال البيهقي ورواه حماد بن سلمة عن أبى عمران الجوفى عن محمد بن عمير بن عطارده وهذا مرسل (۳) حديث لا يبلغ عبد حقيقة الايمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير لم أجد له أصلا في حديث مرفوع .

﴿ كتاب المراقبة والمحاسبة ﴾

(وهو الكتاب الثامن من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على كل جارحة بما اجتاحت المطلع على ضئير القلوب إذا هجست الحسب على خواطر عباده إذا اختلجت الذي لا يجزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض تهركت أو سكنت المحاسب على التقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت التفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت التطول بالغو عن معاصيهم وإن كثرت وإنما محاسبهم لنعم كل نفس ما أحضرت وتظنر فيها قدمت وأخرت فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقت في صعيد القيامة وهلكت وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لحابت وخسرت فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وحملت واستغرقت رحمته الخلائق في الدنيا والآخرة وغمرت فينفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت ويمن توفيقه تقيدت الجوارح بالمبادات وتآدبت وبحسن هدايته أنجلت عن القلوب ظلمات الجهل واتشمت وتأييده ونصرته انقطعت مكابد الشيطان واندفعت وبلاطف عنايته ترحج كفة الحسنات إذا تقلت وببشيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت فنه العطاء والجزاء والابعاد والادناء والاسعاد والاشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأنبياء .

[أما بعد] قد قال الله تعالى - ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين - وقال تعالى - ووضع الكتاب قترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا معاملا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا - وقال تعالى - يوم يعثم الله جميعا فلينبثهم بما عملوا أخصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد - وقال تعالى - يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - وقال تعالى - ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون - وقال تعالى - يوم تجمد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه - وقال تعالى - واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه - فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد وأنهم سينا قشون في الحساب ويطالبون بمثاقيل الدر من الخطرات واللحظات وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ومحاسبتها في الخطرات واللحظات فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خفي في القيامة حسابها وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه وما به ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الحزى والقت سبائته فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمراقبة فقال عزم من قائل - يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورا بظوا - فرا بظوا أنفسهم أولا بالمشارة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاقبة فكانت لهم في المراقبة مقامات ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وفضلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة ولكن كل حساب فبعد مشاركة ومراقبة ويتبعه عند الحسرة المعاقبة والمعاقبة فلندكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق .

(المقام الأول من الرابطة المشارة)

اعلم أن مطلب للتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الروح وكأن التاجر

﴿ كتاب المراقبة والمحاسبة ﴾

منك له قرضي بما
عمل وتخلص فيما تعمل
وقال بعضهم الراضى
من لم يندم على فائت
من الدنيا ولم يتأسف
عليها . وقيل ليحيى
ابن معاذ بن يعقوب
إلى مقام الرضا قال إذا
أقام نفسه على أربعة
أصول فيما يعامل به يقول
إن أعطيتى قبلت
وإن منعتى رضيت
وإن تركتى عبت
وإن دعوتى أجيبت
وقال الشبلى رحمه الله
بين يدى الجنيد لا حول
ولا قوة إلا بالله . قال
الجنيد قولك ذابنيق
صدر فقال صدقت قال
ضيق الصدر ترك
الرضا بالقضاء وهذا
إنما قاله الجنيد رحمه

يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما
مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى - قد أفلح من زكاهها وقد خاب من
دساها - وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعلمها ويستخرها
فيما يزكياها كما يستعين التاجر بشريكه وعلامة الذي يتجر في ماله وكما أن الشريك يصير خصما منازعا
يجاذبه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولا ويراقبه ثانيا ويحاسبه ثالثا وبقائه أو ياتبرأ بما فكذلك
العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولا فيوظف عليها الوظائف ويحصرط عليها الشروط ويرشدها إلى
طرق الفلاح ويعزم عليها الأمر بسلك تلك الطرق ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة فانه لو أهملها لم يربحها
إلا الحيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجؤ واترد بالمال ثم بعد الفراغ ينبغي أن
يحاسبها ويطلبها بالوفاء بما شرط عليها فان هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدره للتنهى
مع الأنبياء والشهداء فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيرا من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها
محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى ثم كيفما كانت فصيها إلى التصرم والاقتضاء ولا خير في خير لا يدوم بل
شر لا يدوم خير من خير لا يدوم لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقى الفرح باقظاعه دائما وقد انقضى
الشر والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على اقطاعه دائما وقد انقضى الخير ولذلك قيل :

أشد الغم عندى في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

فغم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها
وسكناتها وخطراتها وحظواتها فان كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن
يشترى بها كنز من الكنوز لا ينتهى نعيمة أبد الآباد فاقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى
ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل ، فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة
الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك
العامل يفرغ المجلس لمشارطته فيقول للنفس مالى بضاعة إلا للعمر ومهما فقى فقد فنى رأس المال
ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد أمهاني الله فيه وأنسى في أجلي وأنعم على
به ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا لحاسبى أنك قد توفيت
ثم قدر ددت فإياك ثم إياك أن تضيعى هذا اليوم فان كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها واعلمى بأنفس
أن اليوم واللييلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد في الخبر «أنه ينشر للعبد بكل يوم ولييلة أربع
وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نورا من حسناته التى عملها فى تلك الساعة
فيقاله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التى هى وسيلته عند الملك الجبار مالووزع
على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الاحساس بألم النار ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة
فرح تنتها وينشأ ظلامها وهى الساعة التى عصى الله فيها فيقاله من الهول والفرع ما لوقم على أهل
الجنة لتغص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوءه (١) وهى الساعة
التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشئ من مباحات الدنيا فيتحصر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال
القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاتته وناهيك به حسرة وغنا
وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه اجهدى اليوم فى أن تعمري خزانتك ولا تدعيها
فارغة عن كنوزك التى هى أسباب مسلكك ولا تميلى إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من

(١) حديث ينشر للعبد كل يوم ولييلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها
مملوءة من حسناته الحديث بطوله لم أجد له أصلا .

الله تنبها منه على
أصل الرضا وذلك أن
الرضا يحصل لانسراح
القلب واتساحه
وانسراح القلب من
نور اليقين قال الله تعالى
- أفمن شرح الله صدره
للإسلام فهو على نور
من ربه - فاذا تمكن
النور من الباطن اتسع
الصدر وانفتحت عين
البصيرة وعان حسن
تدبير الله تعالى فينتزع
السخط والضجر لأن
اتساع الصدر يتضمن
حلاوة الحب وفعل
المحبوب بموقع الرضا
عن المحب الصادق لأن
المحب يرى أن الفعل
من المحبوب مراده
واختياره فيفنى في لذة
رؤية اختيار المحبوب

درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة فألم العين وحسرتة لا يطاق وإن كان دون ألم النار وقد قال بعضهم هب أن السوء قد عني عنه أليس قد فاتت أبواب الحسين أشار به إلى العين والحسرة وقال الله تعالى - يوم يحصمكم ليوم الجمع ذلك يوم التضامن - فهذه وصيته لنفسه في أوقاته ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل وتسليمها إليها فأنها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وبها تم أعمال هذه التجارة وإن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم وإنما تعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء فيوصيها بحفظها عن معاصيها أما العين فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بحرم أو إلى عورة مسلم أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار بل عن كل فضول مستغنى عنه فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام ثم إذا صرفها عن هذا لم تمنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله ورسوله ومطالعة كتب الحكمة للانعاظ والاستفادة وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضولاسيا اللسان والبطن أما اللسان فلأنه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة وجنابته عظيمة بالنية والكذب والتميمة وتزكية النفس ومذمة الخلق والأطعمة واللعن والدعاء على الأعداء والمهارة في الكلام وغير ذلك مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان فهو يصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكور والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراتة فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا في الذكر فنطق المؤمن ذكر ونظيره عبدة وصمته فكرة وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد - وأما البطن فيكافئه ترك الشره وتقليل الأكل من الحلال واجتناب الشبهات وبعثه من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة وبشرط على نفسه أنها إن خالفت شيئا من ذلك عاقبها بالنس عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها وهكذا يشترط عليها في جميع الأعضاء واستقصاء ذلك بطول ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ثم في النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ويرتب لها تفصيلها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها وهذه شروط يفترق إليها في كل يوم ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أياما وطواعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديده للمشارطة فيها ببقى ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد والله عليه في ذلك حق ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة محتاج إلى أن يقضى حق الله فيها فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والالتقياد للحق في مجاريها ويحذر بها منية الإهمال ويمظها كما يوعظ العبد الأبق للتمرد فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها - وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين - فهذا وما يجري مجراه هو أول مقام الرابطة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير قال الله تعالى - واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروا - وهذا للمستقبل وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة نقصان فانه يسمى محاسبة فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيئنا - وقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا - وقال تعالى

عن اختيار نفسه كما قيل :
وكل ما يفعل المحبوب محبوب .

[الباب الحادى والستون في ذكر الأحوال وشرحها]
حدثنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب السهروردي رحمه الله قال أنا أبو طالب الزيني قال أخبرتنا كريمة السروزية قالت أنا أبو الهيثم الكشميري قال أنا أبو عبد الله القسري قال أنا أبو عبد الله البخاري قال ثنا سليمان بن حرب قال حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاث من

- ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه - ذكر ذلك تحذيرا وتنبها للاحتراز منه في المستقبل . وروى عبادة بن الصامت أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويصطه « إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فان كان رشدا فأمضه وإن كان غيا فاته عنه (١) » . وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فان مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة . وقال لقمان : إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة . وروى شداد بن أوس عن صلى الله عليه وسلم أنه قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله (٢) » دان نفسه أي حاسبها ويوم الدين يوم الحساب وقوله - أننا لمدينون - أي لها سبون . وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتهبثوا للمرض الأكبر ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة . وقال لكعب كيف تجدها في كتاب الله قال ويل للذيان الأرض من ديان السماء ففلاء بالدرة وقال لإمامن حاسب نفسه فقال كعب يا أمير المؤمنين إنها إلى جنبها في التوراة ما بينهما حرف لإمامن حاسب نفسه وهذا كله إشارة إلى المحاسبة له - مستقبل إذ قال من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الأمور أولا وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها . [للرابطة الثانية الرقابة] إذا أوصى الانسان نفسه وتحرط عليها مذكراته فلا يبقى إلا الرقابة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظتها بالعين الكائنة فانها إن تركت طفت وفسدت . ولنذكر فضيلة الرقابة ثم درجاتها . أما الفضيلة : فقد سأل جبريل عليه السلام عن الاحسان فقال « أن تعبد الله كأنك تراه (٣) » وقال عليه السلام « اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك (٤) » وقد قال تعالى - أفئن هو قائم على كل نفس بما كسبت - وقال تعالى - ألم يعلم بأن الله يرى - وقال الله تعالى - إن الله كان عليكم رقيبا - وقال تعالى - والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون - . وقال ابن المبارك لرجل : راقب الله تعالى فسأله عن تفسيره فقال كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل . وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدي رقيبا على فلا أبالي بغيره . وقال أبو عثمان المغربي : أفضل ما يلزم الانسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والرقابة وسياسة عمله بالعلم . وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات . وقال الجريري : أمرنا هذا مبني على أصلين أن تلزم نفسك الرقابة لله عز وجل ويكون العلم على ظاهره قائما . وقال أبو عثمان : قال لي أبو حفص إذا جلست للناس فكن واعظا لنفسك وقلبك ولا يفرتك اجتماعهم عليك فانهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك . وحكى أنه كان لبعض المشايخ . ن هذه الطائفة تليذ شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض أصحابه كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ فدعا بئدة طيور وناول كل واحد منهم طائرا وسكينا وقال اذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم فرجع كل واحد بطائره مذبوحا ورجع الشاب والطائر حي في يده فقال مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك فقال لم أجد موضعا لا يراني فيه أحد إذ الله مطلع على في كل مكان فاستحسنوا منه هذه الرقابة وقالوا حق لك أن تكرم .

كن فيه وجد حلاوة
الإيمان : من كان الله
ورسوله أحب إليه مما
سواها ومن أحب عبدا
لا يحبه إلا الله ومن يكره
أن يعود في الكفر بعد
إذ أنقذه الله منه كما
يكره أن يلقى في النار .
وأخبرنا شيخنا
أبو زرعة طاهربن
أبي الفضل قال أنا
أبو بكر بن خاف قال
أنا أبو عبد الرحمن قال
أنا أبو عمر بن حيوة
قال حدثني أبو عبيد بن
مؤمل عن أبيه قال
حدثني بشر بن محمد
قال حدثنا عبد الملك
ابن وهب عن إبراهيم
ابن أبي عجلة عن
المرباض بن سارية
قال « كان رسول الله

- (١) حديث عبادة بن الصامت إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته الحديث تقدم (٢) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت الحديث تقدم (٣) حديث سأل جبريل عن الاحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم (٤) حديث اعبد الله كأنك تراه الحديث تقدم .

وحكى أن زليخا لما خات يوسف عليه السلام قامت انطقت وجه ضمك كان لها فقال يوسف مالك أمتحيين من مراقبة جماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار . وحكى عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت له ألا تستحي فقال ممن أستحي ؟ وما يرانا إلا السكواكب قالت فأين مكوكها . وقال رجل للجنيديم أستعين على غض البصر فقال بطلك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه . وقال الجنيدي : إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل ، وعن مالك بن دينار قال : جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة قيل له ومن يسكنها ؟ قال يقول الله عز وجل إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني والذين اشتت أصلابهم من خشيق وعزقي وجلالي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من عافقي صرفت عنهم العذاب . وسئل الهاسبي عن المراقبة فقال : أولها علم القلب بقرب الرب تعالى . وقال للرتش : المراقبة مراعاة السرعة ملاحظة الغيب مع كل لحظة ولقطة . وروى أن الله تعالى قال للملائكة أتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن . وقال محمد بن علي الترمذي اجعل مراقبتك لمن لا تيب عن نظره إليك واجعل شكرك لمن لا تتقطع نعمه عنك واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه . وقال سهل : لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان . وسئل بعضهم عن قوله تعالى - رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه - فقال معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده . وسئل ذواتونهم ينال العبد الجنة ؟ فقال بحمض استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس معه سهو ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية وانتظار الموت بالتأهب له ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يفتل ساعة ولا أن مانخفه عنه ينيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غدا لناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي عظمي فقال : لئن كنت إذا عصيت الله خاليا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت . وقال سفيان الثوري : عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة . وقال فرقد السنجي : إن المنافق ينظر فإذا لم ير أحدا دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى . وقال عبدالله بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة فمرسنا في بعض الطريق فأعجدر عليه راع من الجبل فقال له يراعى بعني شاة من هذه الغنم فقال إني مملوك فقال قل لسيديك أكلها الدئب قال فأين الله قال فبكي عمر رضي الله عنه ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تمتك في الآخرة .

(بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها)

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلانا ويراعى جانبه ويعني بهذه المراقبة حالة القلب يشمرها نوع من المعرفة وشمرك تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاتة إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه وأما المعرفة التي تشر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة لا يخلق مكشوف بل أشد من ذلك فهذه المعرفة إذا صارت يقينا

صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم اجعل حبك أحب إلى من نفسي وصمى وبصرى وأهلى ومالى ومن الماء البارد فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب خالص الحب وخالص الحب هو أن يحب الله تعالى بكيته وذلك أن العبد قد يكون في حال قائما بشروط حاله بحكم العلم والجيلة تقاضاه بصد العلم مثل أن يكون راضيا والجيلة قد تصكبه ويكون النظر إلى الاتقياد بالعلم لا إلى الاستعصاء بالجيلة فقد يحب الله تعالى ورسوله بحكم الإيمان

أعنى أنها خلت على الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته فربما علم لاشك فيه لا يفتاب على القلب كالعلم بالموت فاذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه واللوقون بهذه المعرفة هم للقربون ، وهم يتسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين ، فراقبتهم على درجتين . الدرجة الأولى : مراقبة القرين من الصديقين ، وهي مراقبة التظيم والاجلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ومنكسراً تحت الهبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلاً وهذه مراقبة لانطول النظر في تفصيل أعمالها فانها مقصورة على القلب . أما الجوارح فانها تتعلم عن التلفت إلى اللباحات فضلاً عن المظهورات ، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمتعممة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد ، بل يسد الرعية من ملك كلية الراعى والقلب هو الراعى فاذا صار مستغرقاً بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف وهذا هو الذى صار همه ما واحداً فكفاه الله سائر المصوم ، ومن نال هذه الدرجة فقد ينفل عن الخلق حتى لا يصير من يحضر عنده وهو فاع عينية ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا يسمع به وقد يمر على ابنه مثلاً فلا يكلمه حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك ، قال لمن عابه إذا مرتت بى فركنى ولا تستبعد هذا فانك تجد نظير هذا فى القلوب المظومة للملوك الأرضى حتى إن خدم للملك قد لا يحسون بما يجرى عليهم فى مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم بل قد يشغل القلب بهم حقير من مهجات الدنيا فيغوص الرجل فى الفكر فيه ويمشى فربما يجاوز للوضع الذى قصده وينسى الشغل الذى نهض له . وقد قيل لبيد الواحد بن زيد هل تعرف فى زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق ، فقال ما أعرف إلا رجلاً سيدخل عليكم الساعة فما كان إلا سريعاً حتى دخل عتبة الغلام ، فقال له عبد الواحد بن زيد من أين جئت يا عتبة ، فقال من موضع كذا وكان طريقه على السوق فقال من أقيت فى الطريق فقال ما رأيت أحداً . ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه مر بامرأة فدفعها فسمعت على وجهها قليل له لم فلت هذا ؟ فقال ما ظننتها إلا جداراً . وحكى عن بعضهم أنه قال مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بيدها منهم تقدمت إليه فأردت أن أكله فقال ذكر الله تعالى أشهى قلت أنت وحدك فقال معى ربي وملسكى قلت من سبق من هؤلاء فقال من غفر الله له قلت أين الطريق فأشار نحو السماء وقام ومضى ، وقال أكثر خلقك شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فانها لا تتحرك إلا بما هو فيه . ودخل الشبلى على أبي الحسين النورى وهو معتكف فوجده ساكناً حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شئ فقال له من أين أخذت هذه الرقبة والسكون ، فقال من سنور كانت لنا فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الحجر لا تتحرك لها شمرة . وقال أبو عبد الله بن خفيف خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبى على الروذبارى فقال لى عيسى بن يونس المصرى المعروف بالزاهد إن فى صور شاباً وكهلاً قد اجتمعاً على حال الرقبة ، فلو نظرت إليهما نظرة لملك تستفيد منهما فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفى وسطى خرقة وليس على كفتى شئ فدخلت المسجد فاذا بشخصين قاعدتين مستقبلي القبلة فسلمت عليهما فما أجاباني فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب . قلت : نشدتكما بالله إلا ردتما على السلام فرجع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلى وقال يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير . يا ابن خفيف : ما أقل شغلك حتى تفرغ إلى لقائنا . قال فأخذ بكفتى ثم طأطأ رأسه فى السكان فبقيت عندهما حتى صليت الظهر والعصر

ويحب الأهل والولد
بحكم الطبع . والمجبة
وجوه وبواعث الهبة
فى الانسان متنوعة
لنفا عجة الروح
وعجة القلب وعجة
النفس وعجة العقل
فصول رسول الله
صلى الله عليه وسلم
وقد ذكر الأهل
وللال والماء البارد
معناه استئصال عروق
الهبة بحجة الله تعالى
حتى يكون حب الله
تعالى طالباً فيحب الله
تعالى بقلبه وروحه
وكليته حتى يكون
حب الله تعالى أغلب
فى الطبع أيضاً والجلبة
من حب الماء البارد
وهذا يكون حبا
صافياً لخواص تنضج

فذهب جوعى وعطشى وعانى . فلما كان وقت العصر قلت عطشى فرفع رأسه إلى وقال : يا ابن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة فبقيت عندها ثلاثة أيام لا أكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئا ولا شربا فلما كان اليوم الثالث قلت في سرى أحلفهما أن يعطاني لعل أن أتفجع بهما فرفع الشاب رأسه وقال لي يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيئته على قلبك يعظك بلسان فضله ولا يعظك بلسان قوله والسلام قم عنا فهذه درجة للمراقبين الذين غلب على قلوبهم الاجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لتغير ذلك . الدرجة الثانية : مراقبة الورعين من أصحاب اليقين وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهريهم وباطنيهم على قلوبهم ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متمسكة بالاعتدال إلى الأحوال والأعمال إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة . نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يعجمون إلا بعد الثبوت فيه ويعتدون عن كل ما يفتضحون به في القيامة فانهم يرون الله في الدنيا مطلعا عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فانك في خلوتك قد تعاطى أعمالا فيحضرك صبي أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك وتراعى أحوالك لاعتدال وإجلال وتعظيم بل عن حياء فان مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فانها تهيج الحياء منك وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه فضلا به لحياء منه فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته ، وله فيها نظران نظر قبل العمل ونظر في العمل . أما قبل العمل فلينظر أن مظهره وتحرك يظلمه خاطره أهو لله خاصة أهو في هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ، فان كان لله تعالى أمضاء ، وإن كان لتعريف الله استحياء من الله وانكشف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وسيله إليه وعرفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها وأنها عدوة تقسها إن لم يتداركها الله بعصمته وهذا التوقف في بداية الأمور إلى حد البيان واجب محتموم لا يحصى لأحد عنه فان في الخبر « إنه ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الديوان الأول لم . والثاني كيف . والثالث لمن (١) » ومعنى لم أى لم فعلت هذا أكان عليك أن تظلم لمولك أوملت إليه بشهوتك وهو لك فان سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثاني فقيل له كيف فعلت هذا فان لله في كل عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا يعلم فيقال له كيف فعلت أم يعلم محقق أم مجهول وظن فان سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو اللطالبة بالاخلاص فيقال له لمن عملت أوجه الله خالصاً وواف بقولك لا إله إلا الله فيكون أجرك على الله أولم آتاه خلق مثلك فخذ أجرك منه أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا أم عملته بسهواً وخفة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك وإن عملت لتعريفى فقد استوجبت مقى وعقابي إذ كنت عبداً لي تأكل رزقي وترفعه بنعمتي ثم تعمل لتعريفى أما سمعتنى أقول - إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - إن الذين تصدون من دون الله لا يعلكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه - ويحك أما سمعتنى أقول - لا إله إلا الله الخالص - فاذا عرف العبد أنه بصدده هذه اللطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد للسؤال جواباً وليسكن الجواب جواباً فلا يبدى ولا يعيد إلا بعد الثبوت

(١) حديث ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الأول لم . والثاني كيف . والثالث لمن . لم أنف له على أصل .

به وبنوره نار الطبع والجليلة وهذا يكون حب الذات عن مشاهدة مكوف الروح وخلوصه إلى مواطن القرب . قال الواسطى في قوله تعالى - يحبهم ويحبونه - كما أنه بذاته يحب كذلك يحبون ذاته فالهواء راجعة إلى الذات دون التعوت والصفات . وقال بعضهم الحب شرطه أن تلحقه سكرات الهبة فإذا لم يكن ذلك لم يكن حبه فيه حقيقة فإذا نال الحب حبان حب عام وحب خاص فالحب العام مفسر بامثال الأمر وربما كان حبا من معدن العلم بالألاء

ولا يحرك جفنا ولا أتملة إلا بعد التأمل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لما ذاب الرجل ليستل عن كحل عينيه وعن فته الطين بأصبعيه وعن لسه ثوب أخيه (١) وقال الحسن كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وثبت فان كان لله أمضاه . وقال الحسن : رحم الله تعالى عبدا وقف عندهم فان كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر وقال في حديث سعد بن أوصاه سلمان « اتق الله عندك إذا هممت (٢) » وقال محمد بن علي إن المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس كما طاب ليل فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العالم للثين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكابد الشيطان فحق لم يعرف نفسه وربه وعدوه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله وبرضاه في نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته فلا يسل في هذه المراقبة بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ولا تظن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يندر هبات بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركة من غير عالم لأنه يعلم آفات النفوس ومكابد الشيطان ومواقع التورق فتق ذلك والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه فلا يزال الجاهل في ثعب والشيطان منه في فرح وهمة فتعود بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران لحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالقول وسعيه بالجراحة فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى النفس فيتقيه ويحجز القلب عن الفكر فيه وعن الهم به فان الخطرة الأولى في الباطن إذا لم تدفع أورت الرغبة والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد والتصد يورث العمل والفعل يورث البوار والمقت فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر فان جميع ما وراءه يقبه وهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر في ذلك بنور العلم ويستعيد بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى فان عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضي بنور علماء الدين ويلفر من العلماء المضلين القبلين على الدنيا فرار من الشيطان بل أشد قد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لا تسأل عنى طالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبي أولئك قطاع الطريق على عبادي ، فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى فان مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوية فكيف يستضي بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغضها ومقيتها وهي شهوات الدنيا فلتكن همه المرید أولا في أحكام العلم أوفى طلب عالم معرض عن الدنيا أوضيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات (٣) » جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقا فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات ولذلك قال عليه السلام « من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا (٤) » فما قدر العقل الضعيف الذي سعد الأدمى به حتى يصد إلى محوه وعقده بمقارفة الذنوب ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست في هذه الأعصار فان الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا

والنعماء وهذا الحب مخرجه من الصفات وقد ذكر جمع من المشايخ الحب في المقامات فيكون النظر إلى هذا الحب العام الذي يكون لكسب العبد فيه مدخل . وأما الحب الخاص فهو حب الذات عن مطالعة الروح وهو الحب الذي فيه السررات وهو الاصطناع من الله الكريم لبيده واصطفاؤه إياه وهذا الحب يحسبون من الأحوال لأنه محض موهبة ليس للكسب مدخل وهو مفهوم من قول النبي صلى الله عليه وسلم « أحب إلى من الماء البارد » لأنه

(١) حديث قال لما ذاب إن الرجل ليستل عن كحل عينيه الحديث تقدم في التي قبله (٢) حديث سعد بن أوصاه سلمان أن اتق الله عندك إذا هممت إذا هممت أحمد والحاكم وصحه وهذا القدر منه موقوف وأوله مرفوع تقدم (٣) حديث إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث عمران بن حصين وفيه حفص بن عمر العدني ضعفه الجمهور (٤) حديث من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا تقدم ولم أجده .

بالتوسط بين الخلق في الخصومات الثلاثة في اتباع السموات وقالوا هذا هو الفقه وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجردوا لفقه الدنيا الذي ما قصد به الإدفع الشواغل عن القلوب لئلا يفرغ لفقه الدين فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه وفي الخبر «أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه التثبت» (١) «ولهذا توقف طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمرو وأسامة ومحمد بن مسلمة وغيرهم فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعاً له واهم معجباً برأيه وكان ممن وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال «فاذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك» (٢) «وكل من خاض في شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى - ولا تقف ما ليس لك به علم - وقوله عليه السلام «إياكم والظن فإن الظن أكلب الحديث» (٣) «وأراد به ظناً بغير دليل كما يستفق بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه واصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق رضى الله تعالى عنه اللهم أرني الحق حقا وارزقني اتباعه وأرني الباطل باطلا وارزقني اجتنابه ولا تجعله متشابها علي فأتبع الهوى . وقال عيسى عليه السلام «الأمور ثلاثة: أمر استبان رغبته فاتبعه وأمر استبان غيبه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه» (٤) «وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم» (٥) «فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتننا على عبده - وكان فضل الله عليك عظيماً - وأراد به العلم وقال تعالى - فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون - وقال تعالى - إن علينا للهدى - وقال - ثم إن علينا آياته - وقال - وطى الله قصد السبيل - وقال على كرم الله وجهه: الهوى شريك العمى ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ونعم طاردهم اليقين وعاقبة الكذب الندم وفي الصدق السلامة رب بعيد أقرب من قريب وغريب من لم يكن له حبيب والصدى من صدق غيبه ولا يدمك من حبيب سوء ظن نعم الخلق التكرم والحياء سبب إلى كل جميل وأوثق العرالتقوى وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى إنما لك من دنياك ما أصلحت به مشواك والرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فان لم تأته أتاك وإن كنت جازعاً على ما أصيب مما في يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك واستدل على ما لم يكن بما كان فانما الأمور أشباه والرد يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه لما نالك من دنياك فلا تسكثرن به فرحاً وما فاتك منها فلا تقبه نفسك أسفاً وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلفت وشغلك لأخرك وهك فيما بعد الموت وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، فاذن النظر الأول للمراقب نظره في الهم والحركة أهي لله أم للهوى وقد قال صلى الله عليه وسلم «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ولا يرأى بشيء من عمله وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا» (٦) «وأكثر ما ينكشف له في حركاته أن يكون مباحواً ولكن

(١) حديث أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه التثبت لم أجده (٢) حديث فاذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً الحديث تقدم (٣) حديث إياكم والظن الحديث تقدم (٤) حديث قال عيسى الأمور ثلاثة الحديث الطبراني من حديث ابن عباس بأسناد ضعيف (٥) حديث اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم لم أجده (٦) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

كلام عن وجدان روح
تلتذ بحب الذات
وهذا الحب روح
والحب الذي يظن عن
مطالعة الصفات ويطمع
من مطالع الإيمان
قال هذا الروح ولما
صحت محبتهم هذه أخبر
الله تعالى عنهم بقوله -
أذلة على المؤمنين - لأن
الحب يذل لهجوبه
ولهجوب محبوه
وينشد:
لعين تغدى ألف عين
وتتقى
ويكرم ألف للحبيب
المكرم
وهذا الحب الخالص
هو أصل الأحوال
السنية وموجبها وهو
في الأحوال كالتوبة
في اللقائات فمن صحت

لا يعنيه فتركه لقوله صلى الله عليه وسلم «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(١). النظر الثاني للمراقبة عند الشروع في العمل وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويعحسن النية في إتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكل ما يمكنه وهذا ملازم له في جميع أحواله فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب فإن كان قاعدا مثلاً فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ﷺ «خير المجالس ما استقبال به القبلة»^(٢) ولا يجلس متربها إذ لا يجالس للولك كذلك ومثل ذلك مطلع عليه قال إبراهيم بن آدم رحم الله جلست مرة متربها فسمعت هاتفا يقول هكذا تجالس للولك فلم أجلس بعد ذلك متربها وإن كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التي ذكرناها في مواضعها فكل ذلك داخل في المراقبة بل لو كان في قضاء الحاجة فمراعاته لأدائها وفاء بالمراقبة فاذن لا يخلو البعد إما أن يكون في طاعة أو في معصية أو في مباح فمراقبته في الطاعة بالاخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحرصاتها عن الآفات وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم والافتقار والحياء والاشتغال بالتفكير وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم شهود للنعم في النعمة والشكر عليها ولا يخلو البعد في جملة أحواله عن بلية لا بد له من الضرب عليها ونعمة لا بد له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض الله تعالى عليه إما فعل يلزمه مباشرة أو محذور يلزمه تركه أو نذوب حث عليه لیسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عبادة الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ولكل واحد من ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام للمراقبة - ومن يتعمد حدود الله فقد ظلم نفسه - فينبغي أن يتفقد البعد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغاً من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الأعمال ليشغل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مضنون والأرباح تتال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى - ولا تنس نصيبك من الدنيا - وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة فإن الساعات ثلاث ساعة مضت لا تنب فيها على البعد كيفما اقتضت في مشقة أو رفاهية وساعة مستقبلية لم تأت بعد لا يدري البعد أيعيش إليها أم لا ولا يدري ما يقضى الله فيها وساعة راهنة فينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه فإن لم تأت الساعة الثانية لم يتحصر على فوات هذه الساعة وإن أتت الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى ولا يطول أمه خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون ابن وقته كأنه في آخر أنفاسه فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدري وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر رضي الله تعالى عنه من قوله عليه السلام «لا يكون المؤمن ظاعناً إلا في ثلاث تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لغة في غير هرم»^(٣) وما روى عنه أيضاً في معناه «على العاقل أن تكون له أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى وساعة يخلو فيها للمطعم والشرب»^(٤)

توبته على الكمال تحقق بسائر القامات من الزهد والرضا والتوكل على ما شرعناه أولاً ومن صحت محبته هذه تحققت بسائر الأحوال من الفناء والبقاء والصحو والحو وغير ذلك والتوبة لهذا الحب أيضاً بمثابة الجبان لأنها مشتملة على الحب العام الذي هو لهذا الحب كالجسد ومن أخذ في طريق المحبوبين وهو طريق خاص من طريق الهبة يتكامل فيه ويجتمع له روح الحب الخاص مع قالب الحب العام الذي تشتمل عليه التوبة

(١) حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه تقدم (٢) حديث خير المجالس ما استقبال به القبلة الحاكم من حديث ابن عباس وقد تقدم (٣) حديث أبي ذر لا يكون المؤمن ظاعناً إلا في ثلاث تزود لمعاد الحديث أحمد وابن حبان والحاكم وصححه أنه صلى الله عليه وسلم قال إنه في صحف موسى وقد تقدم (٤) حديث وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات ساعة يناجي فيها ربه الحديث وهي بقية حديث أبي ذر الذي قبله .

فان في هذه الساعة عوننا له على بقية الساعات ثم هذه الساعات التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والشرب لا ينبغي أن يغفل عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر فإن الطعام الذي يتناوله مثلا فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح والناس فيه أقسام : قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار فينظرون في عجائب صنعه وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات السخرة للشهوة فيه كما فصلنا بعضه في كتاب الشكر وهذا مقام ذوى الألباب وقسم ينظرون فيه بعين التفت والكراهة ويلاحظون وجه الاضطرار إليه وبودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهوته وهذا مقام الزاهدين وقوم يرون في الصنعة الصانع ويترقون منها إلى صفات الخالق فتكون مشاهدة ذلك سببا لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين إذ الهب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله في النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب المكوت وذلك عزيز جدا . وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص فيتأسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرم من حملته ويذمون منه ما لا يوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطيبخ والطباخ ولا يعلمون أن الفاعل للطيبخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى وأن من ذم شيئا من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» (١) فهذه الرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهج لمن أحكم الأصول .

(الرابطة الثالثة : محاسبة النفس بعد العمل . ولتذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها)

أما الفضيلة : فقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لندو وهذه إشارة إلى المحاسبة على ماضي من الأعمال ، ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا ، وفي الخبر «أنه عليه السلام جاء رجل فقال يا رسول الله أوصني فقال أمستوص أنت فقال نعم قال إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فأمضه وإن كان غيا فاته عنه» وفي الخبر وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه . وقال تعالى - وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون - والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «إني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم مائة مرة» (٢) وقال الله تعالى - إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون - وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم وعن ميمون بن مهران أنه قال لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه والشريكان يتحاسبان بعد العمل ، وروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبابكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت ما أحد من الناس أحب إلي من عمر ثم قال لها كيف قلت فأعدت عليه ما قال فقال لأحد أعز علي من عمر فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكامة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها «وحدث أبي طلحة حين شغله الطائر في صلواته فتدبر ذلك فجعل حائظه صدقة لله تعالى ندما ورجاء للمعوض بمافاته» (٣)

(١) حديث لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة غير مرة (٣) حديث أبي طلحة حين شغله الطائر عن صلواته فجعل حديقته صدقة تقدم غير مرة .

النصح وعند ذلك لا يتقلب في أطوار المقامات لأن التقلب في أطوار المقامات والترقى من شيء منها إلى شيء طريق المحبين ومن أخذ في طريق المجاهدة من قوله تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلنا - ومن قوله تعالى - ويهدي إليه من ينيب - أثبت كون الانابة سببا للهداية في حق المحب وفي حق المحبوب صرح بالاجتباء غير معتل بالكسب فقال الله تعالى - يجتبي إليه من يشاء - فمن أخذ في طريق المحبوبين يطوى بساط أطوار المقامات ويندرج فيه

وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب قبيل له يا أيها يوسف قد كان في بيتك وغلمانك ما يكفونك هذا فقال أردت أن أجرب نفسي هل تنكروه . وقال الحسن : المؤمن قوام على نفسه محاسبها شئوإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ثم فسر المحاسبة فقال إن المؤمن يفجؤه شئٌ يسجبه فيقول والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي ولكن هيات حيل بيني وبينك وهذا حساب قبل العمل ثم قال ويفرط منه الشئ فيرجع إلى نفسه فيقول ماذا أردت بهذا والله لأعند بهذا والله لأعود لهذا أبدا إن شاء الله . وقال أنس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يوما وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائط فسمعه منه يقول ويبي وبينه جدار وهو في الحائط عمر بن الخطاب أمير المؤمنين يخ بخ والله لتتقين الله أو لعذبك . وقال الحسن في قوله تعالى - ولا أقسم بالنفس اللوامة - قال لا يلقي المؤمن إلا عتاب نفسه ماذا أردت بكلمتي ماذا أردت بأكلتي ماذا أردت بشربي والفاجر يعصى قدام عتاب نفسه . وقال مالك ابن دينار رحمه الله تعالى رحم الله عبدا قال لنفسه ألسنت صاحبة كذا ألسنت صاحبة كذا ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدا وهذا من معاتبة النفس كما سيأتي في موضعه ، وقال ميمون بن مهران : التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان قائم ومن شريك شحيح ، وقال إبراهيم التيمي : مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أباكرها ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعانق سلاسلها وأغلظها فقلت لنفسي يا نفس أى شئ تريدين فقالت أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا قلت فأنت في الأمانة فاعملى ، وقال مالك بن دينار سمعت الحجاج يخطب وهو يقول : رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به رحم الله امرأ نظر في مكياله رحم الله امرأ نظر في ميزانه فإزال يقول حق أبكاني ، وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال كنت أصعبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء وكان يجيئ إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ما حملك على ما صنعت يوم كذا .

(بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل)

اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فيبذى أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصا منهم على الدنيا وخوفا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الحيرة لهم في فواته ولو حصل ذلك لهم فلا يقيم إلا أياما قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبدا لا يبادم هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق فعوذ بالله من ذلك ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وإن كان من خسران طالبه بضمائه وكلفه تداركه في المستقبل ، فكذلك رأس مال الصديق في دينه الفرائض وربحه النوافل والقضائل وخسرانه المعاصي وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمانة بالسوء فيحاسبها على الرأف أولها فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل وإن ارتكبت معصية اشتغل بقوتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقرط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغب في شئ منها فيبني أن يتقى غيبة النفس ومكرها فانها خداعة ملبسة مكاراة فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تنكلم به بطول نهاره وليتكفل بنفسه

صفوها وخالصها بأتم وصفها والقامات لا تقيده ولا تعبه وهو يقيدها ويعبها بترقيه منها وانزاعه صفوها وخالصها لأنه حيث أشرفت عليه أنوار الحب الخاص خلعت ملابس صفات النفس ونسوتها والقامات كلها مصفية لتتوت والصفات النفسانية فالزهد يصفه عن الرغبة والتوكل يصفه عن قلة الاعتماد المتولد عن جهل النفس والرضا يصفه عن ضربان عرق المنازعة والمنازعة لبقاء جمود في النفس ما أشرق عليها فموس الحبة الخاصة فيسقى ظلها

من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته أنه لم سكت وعن سكوته لم سكن؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنه قدر أذى الواجب فيه كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباقي على نفسه فليشته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي القدي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون . أما بعضها فالقائمة والضمان وبعضها بردها وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما وساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة كما تقل عن توبة ابن الصمة وكان بالرقه وكان محاسبا لنفسه فحسب يوما فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فإذا هي وأحد عشرون ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال : ياويلي أتني الملك بأحد وعشرين ألف ذنب فكيف . وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ثم خر مغشيا عليه فإذا هويت فسمعوا قائلا يقول يالك ركضة إلى الفردوس الأعلى فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة ، ولو رمى العبد بكل معصية حجرا في داره لامتلات داره في مدة يسيرة قريبة من عمره ولكنه يتساهل في حفظ العاصي والمسكان يحفظان عليه ذلك أحصاه الله ونسوه .

(للرابطة الرابعة في معاينة النفس على تقصيرها)

مهما حاسب نفسه فلم تسل عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي وأنت بها نفسه وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها بل ينبغي أن يعاقبها فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة فقد روى عن منصور بن إبراهيم أن رجلا من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على خنثها ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست . وروى أنه كان في بني إسرائيل رجل يتعبد في صومته فمكث كذلك زمانا طويلا فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فاقتن بها وهم بها فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بسابقة فقال ما هذا الذي أريد أن أصنع فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فقدم فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال هيأت هيأت رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعود معي في صومتي لا يكون والله ذلك أبدا فتركها معلقة في الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت فشكر الله له ذلك وأزل في بعض كتبه ذكره ويحكى عن الجنيد قال سمعت ابن الكربي يقول أصابتني ليلة جنابة فاحتجت أن أغتسل وكانت ليلة باردة فوجدت في نفسي تأخرا وتقصيرا فحدثني نفسي بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء أو أدخل الحمام ولا أعنى على نفسي فقلت وأهيجاه أنا أطامل الله في طول عمري فيجب له على حق فلا أجدي السارعة وأجد الوقوف والتأخر آليت أن لا أغتسل إلا في مرتعتي هذه وآليت أن لا أزعمها ولا أعصرها ولا أجنفها في الشمس . ويحكى أن غزوان وأبا موسى كانا في بعض مغازيمهما فمكثت جارية تنظر إليها غزوان فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت وقال إنك للحاظلة إلى ما يضر لك ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينقص على نفسه العيش . ويحكى أن حسان بن أبي سنان مر بخرقة فقال متى بنيت هذه ثم أقبل على نفسه فقال تسألين عما لا يعينك لأعاقبك بصوم سنة فصامها . وقال مالك بن ضيفم جاء رباح القيسي يسأل عن

وجودها فمن تحقق
بالحب الخاص لانت
نفسه وذهب جودها
فإذا ينزع الزهد منه
من الرغبة ورغبة
الحب أحرقت رغبته
وماذا يصفي منه التوكل
ومطالعة الوكيل حشو
بصيرته وماذا يسكن
فيه الرضا من عروق
المنزعة ممن لم تسل
كليتة . قال الروذباري
مالم تخرج من كليتك
لا تدخل في حد الهبة
وقال أبو يزيد من
قتلته محبته فديته
رؤيته ومن قتلته عشقه
فديته منادته ، أخبرنا
بذلك أبو زرعة عن
ابن خلف عن أبي
عبد الرحمن قال سمعت
أحمد بن علي بن جعفر

أبي بعد العصر قلنا إنه نائم فقال أنوم هذه الساعة هذا وقت نوم؟ ثم ولى منصرفاً فأتبعناه رسولاً وقلنا له ألا نوقظه لك فجاء الرسول وقال هو أشغل من أن يفهم عنى شيئاً أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول أقلت وقت نوم هذه الساعة أنساك هذا عليك بنام الرجل متى شاء وما يدريك أن هذا ليس وقت نوم تكلمين بما لا تطيقن أما إن لله على عبداً لا أتقنه أبداً لا أوسدك الأرض لنوم حولاً إلا لمرض حائل أو لعقل زائل سواء لك أما تستحين كم توخين وعن غيبك لا تنتهين قال وجعل يبكي وهو لا يشمر بمكاني فلما رأيت ذلك انصرفت وزرته . ويحكى عن نعيم الدارى أنه نام ليلة لم يقم فيها بتجدد قوام سنة لم يبق فيها عقوبة للذى صنع . وعن طلحة رضى الله تعالى عنه قال « انطلق رجل ذات يوم ففرغ ثيابه وتمرغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه ذوقى ونار جهنم أشد حراً أجيبة بالليل بطالة بالتأخر فيينا هو كذلك إذ أبصر النبي صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة فأتاه فقال غلبتني نفسي فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ألم يكن لك بد من الذى صنعت أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة ثم قال لأصحابه تزودوا من أخيك فجعل الرجل يقول له يا فلان ادع لى يا فلان ادع لى فقال النبي صلى الله عليه وسلم عنهم فقال اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم مدده فقال الرجل اللهم اجعل الجنة مأبهم^(١) . وقال حذيفة بن قبادة قيل لرجل كيف تصنع بنفسك في شهواتها فقال ما طوى وجه الأرض نفس أبغض إلى منها فكيف أعظم شهواتها ودخل ابن السكك على داود الطائي حين مات وهو في بيته على التراب فقال يا داود سجت نفسك قبل أن تسجن وعذبت نفسك قبل أن تعذب فالיום ترى ثواب من كنت تعمل له . وعن وهب بن منبه أن رجلاً تصد زماناً ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة قوام سبعين سبباً يأكل في كل سبت إحدى عشرة عمرة ثم سأل حاجته فلم يعطها فرجع إلى نفسه وقال منك أتيت لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك فزل إليه ملك وقال يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التى مضت وقد قضى الله حاجتك . وقال عبد الله بن قيس كنا في غزاة لنا فحضر العدو فصيح في الناس قماموا إلى المصاف في يوم شديد الريح وإذا رجل أمامى وهو يخاطب نفسه ويقول أى نفسى ألم أشهد مشهد كذا وكذا قتل لى أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ألم أشهد مشهد كذا وكذا قتل لى أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك قتل لى لرمقته اليوم فرمقته فجعل الناس على عدوهم فكان فى أوائلهم ثم إن العدو حمل على الناس فأنكشوا فكان فى موضعه حتى انكشوا امرأتها وهونابن يقاتل فوالله ما زال ذلك إذ به حتى رأته صريماً فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة وقد ذكرنا حديث أبى طلحة لما اشتغل قلبه فى الصلاة بطائر فى حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك وإن عمر كان يضرب قدميه بالدره كل ليلة ويقول ماذا عملت اليوم وعن مجمع أنه رفع رأسه إلى السطح فوق بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام فى الدنيا . وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه الصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه ما حملك على أن صنعت يوم كذا وكذا . وأنكر وهيب بن الورد شيئاً على نفسه فتتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه ويحك إنكاراً يريد بك الخير ورأى محمد ابن بشر داود الطائي وهو يأكل عند إفطاره خبزاً بغير ملح فقال له لو أكلته بملح فقال إن نفسى لتدعونى إلى الملح منذ سنة ولا ذاقى داود ملحاً مادام فى الدنيا فكذا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم والعجب

(١) حديث طلحة انطلق رجل ذات يوم ففرغ ثيابه وتمرغ في الرمضاء وكان يقول لنفسه ونار جهنم أشد حراً الحديث بطوله ابن أبى الدنيا فى محاسبة النفس من رواية ليث بن أبى سليم عنه وهذا منقطع أو مرسل ولا أدري من طلحة هذا .

يقول سمعت الحسين بن علي بن يقطين قال أبو يزيد ذلك فإذا التفتل فى أطوار اللقمان لوام المهيمن وطى بساط الأطوار لحواص المهيمن وم المهيمنون تخلفت عن همهم اللقمان وربما كانت اللقمان على مسداج طبقات السموات وهى مواطن من يتعثر فى أذيال بنياه . قال بعض الصكبار لآبراهيم الحواص إلى ماذا أدى بك التصوف فقال إلى التوكل فقال نسعى فى عمران باطنك أين أنت من الفناء فى التوكل برؤية الوكيل فالنفس إذا تحركت

أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبضوا عليك ثم همل نفسك وهي أعظم عدوك وأشد طغيانا عليك وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلها فان غاب عنهم أن يشوعوا عليك مبيشة الدنيا ولو عقلت لملت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له ونفسك هي التي تنفص عليك عيش الآخرة فهي بالمعاقبة أولى من غيرها .

[الرابطة الخامسة المجاهدة]

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرأها قد قارفت مصيبة فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت وإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن يؤديها بتثقل الأوراد عليها ويلزمها فنوناً من الوظائف جبراً لما فاتت منه وتداركاً لما فرطت فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحياناً تلك الليلة وأخر ليلة صلاة المقرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين وقات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشياً أو التصديق بجميع ماله كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخضة لها بما فيه نجاتها . فان قلت إن كانت نفسى لا تطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فما سبيل معالجتها . فأقول سبيلك في ذلك أن تسمعها ما ورد في الأخبار من فضل المجتهدين (١) ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صجبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة فتلاحظ أقواله وتفقدى به وكان بعضهم يقول كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعاً إلا أن هذا العلاج قد تعذر إذ قد فقد في هذا الزمان من مجتهد في العبادة اجتهاد الأولين فينبغي أن يدل من الشاهدة إلى السماع فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهد وقد اقتضى تبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم فيمتنع نفسه أياماً قلائل بشهوات مكدره ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد فعوذ بالله تعالى من ذلك ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة للريد في الاجتهاد اقتداء بهم فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رحم الله أقواماً يحسبهم الناس مرضى ومأمم مرضى (٢)» قال الحسن أجهدتهم العبادة قال الله تعالى - والذين يؤتون ما آتوا قلوبهم ورجلة - قال الحسن يعملون ما عملوا من أعمال البر ويحافظون أن لا ينجم ذلك من عذاب الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «طوبى لمن طال عمره وحسن عمله (٣)» ويروى أن الله تعالى يقول للملائكة ما بال عبادي مجتهدين

(١) الأخبار الواردة في حق المجتهدين أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص من قام بشئ آيات لم يكتب من العاقبين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المنظرين وله وللنساء وابن ماجه من حديث أبي هريرة بأسناد صحيح رحم الله رجلاً قام من الليل صلى وأيقظ امرأته وللترمذي من حديث بلال عليك بقيام الليل فإنه ذاب الصالحين قبلكم الحديث وقال غريب ولا يصح وقد تقدم في الأوراد مع غيره من الأخبار في ذلك (٢) حديث رحم الله أقواماً يحسبهم مرضى ومأمم مرضى لم أجده له أصلاً في حديث مرفوع ولكن رواه أحمد في ازهد موقوفاً على علي في كلام له قال فيه ينظر إليهم الناظر فيقول مرضى وما بال قوم من مرض (٣) حديث طوبى لمن طال عمره وحسن عمله الطبراني من حديث عبد الله بن بشر وفيه بقية رواه بصيغة عن وهو مدلس وللترمذي من حديث أبي بكر خير الناس من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح وقد تقدم .

بصفتها متفكته من دائرة الزهد يردّها الزاهد إلى الدائرة بزهده والتوكل إذا تحرّكت نفسه يردّها بتوكله والراضى يردّها برضاه وهذه الحركة من النفس بقايا وجودية تفترق إلى سياسة العلم وفي ذلك تنسم روح القرب من بعيد وهو أداء حق العبودية مبلغ العلم وبحسبه الاجتهاد والكسب ومن أخذ في طريق الخاصة عرف طريق التخلص من البقايا بالتستر بأنوار فضل الحق ومن اكتسى ملابس نور القرب بروح دائمّة المكوف محجة عن

فيقولون إلها خوفهم شيئا يخافوه وشوقهم إلى شيء فاشتاقوا إليه فيقول الله تبارك وتعالى فكيف لورآني عبادي لسكانوا أشد اجتهادا . وقال الحسن : أدركت أقواما وصحبت طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقل ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ولمي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تطؤونه بأرجلكم إن كان أحدم ليعيش عمره كله ما طوى له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ولا جعل بينه وبين الأرض شيئا قط وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنهم الليل قيام على أطرافهم يفتشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكك رقابهم إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها وسألوا الله أن يتقبلها وإذا عملوا السيئة أحزتهم وسألوا الله أن يفرها لهم والله مازالوا كذلك وعلى ذلك والله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة . ويحكى أن قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه وإذا فيهم شاب ناكل اللحم فقال عمر له يا فتى ما الذي بلغ بك ما أرى فقال يا أمير المؤمنين أسقام وأمراض فقال سألتك بالله إلا صدقتني فقال يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة وصغر عندي زهرتها وحلاوتها واستوى عندي ذهبها وحجرها وكأني أنظر إلى عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة والنار فأظلمات لذلك نهاري وأسهرت ليلي وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه . وقال أبو نعيم كان داود الطائي يشرب الفتيت ولا يأكل الحبز فقيل له في ذلك فقال بين مضع الحبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية ودخل رجل عليه يوما فقال إن في سقف بيتك جذعا مكسورا فقال يا ابن أخي إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام . وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر فما التفت ينة ولا يسرة فقيل له في ذلك فقال إن الله عز وجل خالق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة . وقالت امرأة مسروق : ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة وقالت والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة له . وقال أبو الدرداء: لولا ثلاث ما أحببت العيش يوما واحدا الظمأ لله بالهواجر والسجود لله في جوف الليل ومجالسة أقوام ينتقون أطايب السلام كما ينتقى أطايب الثمر، وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة ويصوم في الحر حتى يخضر جسده ويصفر فكان علقمة بن قيس يقول له لم تعذب نفسك فيقول كرامتها أريد وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلى حتى يسقط فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له إن الله عز وجل لم يأمر بك بكل هذا فقال إنما أنا عبد مملوك لا أدع من الاستكانة شيئا إلا جئت به ، وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجله فكان يصلي جالساً ألف ركعة فإذا صلى العصر احتجى ثم قال عجبت للخلقة كيف أرادت بك بدلامنك عجبت للخلقة كيف أنست بسواك بل عجبت للخلقة كيف استتارت قلوبها بذكر سواك ، وكان ثابت البناني قد حبيت إليه الصلاة فكان يقول اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلي لك في قبره فائذن لي أن أصلي في قبري . وقال الجنيد : مارأيت أعبد من السرى أنت عليه ثمان وتسعون سنة مارؤى مضطجعا إلا في علة الموت . وقال الحرث بن سعد : مر قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكلموه في ذلك فقال وما هذا عند ما يراد بالخلق من ملاقة الأهوال وهم غافلون قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ونسوا حظهم الأكبر من ربهم فبكي القوم عن آخرهم ، وعن أبي محمد الغازلي قال جاور أبو محمد الجريري بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ولم يمد رجله ففسر عليه أبو بكر السكتاني فسلم عليه وقال له يا أبا محمد بهم قدرت على اعتكافك هذا فقال علم صدق باطني

الطوارق والصروف لا يزعمه طلب ولا يوحشه سلب فالزهد والتوكل والرضا كائن فيه وهو غير كائن فيها على معنى أنه كيف تقب كان زاهدا وان رغب لأنه بالحق لا بنفسه وإن رؤى منه الالتفات إلى الأسباب فهو متوكل وإن وجد منه الكراهة فهو راض لأن كراهته لنفسه ونفسه للحق وكراهته للحق أعيد إليه نفسه بدواعيها وصفاتها مطهرة موهوبة محمولة ملطوف بها صارعين الداء دواءه وصار الاعلال شفاءه وناب طلب الله له مناب كل

فأعاني على ظاهري فأطرق الكتاني ومشى مفكرا ، وعن بعضهم قال دخلت على فصح الموصلي فرأيت قد مد كفيه بيكي حتى رأيت الدموع تتحدر من بين أصابعه فدنوت منه فاذا دموعه قد خالطها صفرة فقلت ولم بالله يافتح بكيت الدم فقال لولا أنك أحلفتني بالله ما أخبرتك ، نعم بكيت دما فقلت له على ماذا بكيت الدموع ؟ فقال على تخلفي عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ما صحت لي الدموع قال فرأيت بعد موته في المنام فقلت ما صنع الله بك ؟ قال غفر لي فقلت له فماذا صنع في دموعك ؟ فقال قريبي ربي عز وجل وقال لي يافتح الدمع على ماذا ؟ قلت يارب على تخلفي عن واجب حقه فقال والدم على ماذا ؟ قلت على دموعي أن لا تصح لي فقال لي يافتح ما أردت بهذا كله وعزق وجلالي لقد صعد حافظك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة ، وقيل إن قوما أرادوا سفرا فنادوا عن الطريق فاتهوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه فأشرف عليهم من صومعته فقالوا ياراهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق فأومأ برأسه إلى السماء فعلم القوم ما أراد فقالوا ياراهب إنا سائلوك فهل أنت مجيئنا ؟ قال سلوا ولا تسكروا فان النهار لن يرجع والعمر لا يعود والطالب حيث فصب القوم من كلامه فقالوا ياراهب علام الخاق غدا عند مليكم فقال على نياتهم فقالوا أوصنا فقال تزودوا على قدر سفركم فان خير الزاد ما باع البقية ثم أُرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه في صومعته . وقال عبد الواحد بن زيد مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديت ياراهب فلم يجبي فناديت الثانية فلم يجبي فناديت الثالثة فأشرف على وقال يا هذا ما أنا براهب إنما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمه في كبريائه وصبر على بلائه ورضى بقضائه وحمده على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته وفكر في حساب عاقبه فقهاره صائم وليه قائم قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار فذلك هو الراهب وأما أنا فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم فقلت ياراهب فما الذي قطع الخاق عن الله بعد أن عرفوه ؟ فقال يا أخي لم يقطع الخاق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها لأنها عمل المعاصي والدنوب والعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله تعالى من ذنبه وأقبل على ما يقربه من ربه . وقيل لداود الطائي لو سرحت لحيتك فقال إني إذن افارغ ، وكان أويس القرني يقول هذه ليلة الركوع فيحي الليل كله في ركعة وإذا كانت الليلة الآتية قال هذه ليلة السجود فيحي الليل كله في سجدة ، وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لا يتهاى بالطعام والشراب فقالت له أمه لو رقت بنفسك قال الرفق أطلب دعيني أتمب قليلا وأتمم طويلا وحج مسروق فما نام قط إلا ساجدا . وقال سفيان الثوري عند الصباح بحمد القوم السرى وعند المات بحمد القوم التقي . وقال عبد الله بن داود : كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أي كان لا ينام طول الليل ، وكان كهمس بن الحسن يصلي كل يوم ألف ركعة ثم يقول لنفسه قومي يا ما أوى كل شر فلما ضعف اقتصر على خمسين ركعة كان بيكي ويقول ذهب نصف عملي وكانت ابنة الربيع بن خيثم تقول له يا أبت مالي أرى الناس ينامون وأنت لاتنام ؟ فيقول يا ابتناء إن أباك يخاف البيات ولما رأت أم الربيع ما يلقى الربيع من البكاء والسهر نادته يا بني لملك قلت قليلا قال نعم يا أماء قالت فمن هو حتى نطلب أهله فيعضو عنك فوالله لو يملون ما أنت فيه لرحموك وعضوا عنك فيقول يا أماء هي نفسي ، وعن عمر ابن أخت بشر بن الحرث قال سمعت خالي بشر بن الحرث يقول لأمي يا أخت جوفي وخواصري تضرب على قالت له أمي يا أخي أتأذن لي حتى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندي تحساه برم جوفك فقال لها ويحك أخاف أن يقول من أين لك هذا الدقيق فلا أدري إيش أقول له فسكت أمي وبكى معها

طالب من زهد وتوكل
ورضا أو صار مطلوبه
من الله ينوب عن كل
مطلوب من زهد
وتوكل ورضا . قالت
رابعة : يحب الله لا يسكن
أنيته وحينئذ حتى
يسكن مع محبوبه .
وقال أبو عبد الله
القرشي حقيقة المحبة
أن تهب لمن أحببت
كلك ولا يبقى لك . نك
شيء . وقال أبو الحسين
الوراق : السرور بالله
من شدة المحبة له والمحبة
في القلب نار تحرق كل
دنس . وقال يحيى بن
معاذ صبر المهين أشد
من صبر الزاهدين
واحبها كيف يصبر
الإنسان عن حبيبه .
وقال بعضهم من ادعى

وبكيت معهم . قال عمر ورأت أمي ما يبشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفساً ضعيفاً فقالت له أمي يا أخي ليت أمك لم تلدني فقد والله تقطعت كبدي مما أرى بك فسمعتة يقول لها وأنا فليت أمي لم تلدني وإذ ولدته لم يدبر ثديها علي . قال عمر وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار . وقال الربيع : أتيت أويسا فوجدته جالساً قد صلى الفجر ثم جلس فجلست قفلات لأشغله عن التسبيح فمكث مكانه حتى صلى الظهر ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء . ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ثم جلس فقبلته عيناه فقال اللهم إني أعوذ بك من عين نائمة ومن بطن لا تشبع قفلت حسبي هذا منه ثم رجعت ونظر رجل إلى أويس فقال يا أبا عبد الله مالي أراك كأنك مريض فقال وما لأويس أن لا يكون مريضاً يطعم المريض وأويس غير طاعم وينام المريض وأويس غير نائم . وقال أحمد بن حرب : يا عجبا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه وأن النار تسعرت تحتها كيف ينام بينهما ، وقال رجل من النساء أتيت إبراهيم بن آدم فوجدته قد صلى العشاء فقدمت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوءاً فذاك ذلك في صدرى قفلت له رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجماً ثم لم تجدد الوضوء فقال كنت الليل كله جائلاً في رياض الجنة أحياناً وفي أودية النار أحياناً فهل في ذلك نوم . وقال ثابت البناني : أدركت رجلاً كان أحدهم يصلي فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبوا ، وقيل مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ونزل الماء في إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يلم به أهله وقيل كان ورد ممنون في كل يوم خمسمائة ركة ، وعن أبي بكر اللطوعي قال كان وردى في شببتي كل يوم ليلة أقرأ فيه : قل هو الله أحد إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة شك الراوي ، وكان منصور بن العتمر إذا رأته قلت رجل أصيب بعصية منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين إن حركته جاءت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه ما هذا الذي تصنع بنفسك تبكي الليل عامته لا تسكت لعلك يابني أصبت نفساً لملك قتلت فتيلاً ؟ فيقول يا أمه أنا أعلم بما صنعت بنفسى ، وقيل لعامر بن عبد الله كيف صبرك على سهر الليل وظمأ المواجر فقال هل هو إلا أني صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس في ذلك خطير أمر وكان يقول ما رأيت مثل الجنة نام طالبها ولا مثل النار نام هاربها وكان إذا جاء الليل قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يصبح فإذا جاء النهار قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسي فإذا جاء الليل قال من خاف أدج وعند الصباح محمد القوم السرى . وقال بعضهم : سمعت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأته نام بليل ولا نهار . وروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال : صليت خلف علي رضي الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انقلبت عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما أرى اليوم شيئاً يشبههم كانوا يصبحون شعاً غبراً صفراً قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله يراوون بين أقدامهم وجباههم . وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح ومملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكان القوم باتوا غافلين يعني من كان حوله وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطاً في مسجد بيته يخوف به نفسه وكان يقول لنفسه قومي فوالله لأزحفن بك زحفاً حتى يكون السكل منك لاني فإذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول أنت أولى بالضرب من دابتي وكان يقول ايظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دوننا كلا والله لئراحمهم عليه زحاما حتى يملوا انهم تدلفوا ورواهم رجالا . وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد

عجة الله من غير تورع
عن محارمه فهو كذاب
ومن ادعى عجة الجنة
من غير إنفاق ملكه
فهو كذاب ومن ادعى
حب رسول الله صلى
الله عليه وسلم من غير
حب الفقراء فهو كذاب
وكانت رابعة تنشد :
نصى الإله وأنت
تظهر حبه
هذا لعمري في القفال
بديع
لو كان حبك صادقاً
لأطعته
إن الحب لمن يحب
مطيع
وإذا كان الحب
للإحوال كالتسوية
للمقامات فمن ادعى
حالة محترمة ومن
ادعى محبة تختبر توبته

مالوقيل له القيامة غدا ما وجد مزيادا ، وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليبرد الحر فلا ينام وأنه مات وهو ساجد وأنه كان يقول : اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي . وقال القاسم بن محمد غدوت يوما وكنت إذا غدوت بدأت بمائشة رضى الله عنها أسلم عليها فغدوت يوما إليها فاذا هي تصلى صلاة الضحى ، وهي تقرأ - فن الله علينا ووفانا عذاب السموم - وتبكي وتدعو وتردد الآية فقامت حتى مللت وهي كاهى فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت أفرغ من حاجتي ثم أرجع ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كاهى تردد الآية وتبكي وتدعو . وقال محمد بن إسحاق لما ورد علينا عبدالرحمن بن الأسود حاجا اعتلت إحدى قدميه فقام يصلى على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء . وقال بعضهم : ما أخاف من اللوت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل . وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه سببا الصالحين صفة الألوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاه من الصوم عليهم غيرة الحاشمين . وقيل للحسن : ما بال المهجدين أحسن الناس وجوها فقال لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره ، وكان عامر بن عبد القيس يقول : إلهى خلقتي ولم تؤامرني وتميتني ولا تظني وخلقت معي عدوا وجعلته يجرى منى مجرى الدم وجعلته يرانى ولا أراه ثم قلت لي امتنك إلهى كيف أتمسك إن لم تمسكني إلهى في الدنيا المموم والأحزان وفي الآخرة العقاب والحساب فأبى الراحة والفرح ، وقال جعفر بن محمد كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثانى صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا كان السحر صاح صيحة قال جعفر بن محمد حدثت به بعض البصريين فقال لا تنظر إلى صباحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح . وعن القاسم بن راشد الشيباني قال كان زمعة نازلا عندنا بالمصب . وكان له أهل وبنات ، وكان يقول فيصلى ليلا طويلا فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته أيها الركب للمرسون أكل هذا الليل ترقدون أفلا تقومون فترحلون فيتواثبون فيسمع من ههنا بك ومن ههنا داع ومن ههنا قارىء ومن ههنا متوضئ ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح محمد القوم السرى . وقال بعض الحكماء : إن لله عبادا أنعم عليهم فرفوه وشرح صدورهم فأطاعوه وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين وبيوتنا للحكمة وتوايت للعظمة وخزائن للقدرة فهم بين الخلق مقبولون ومدبرون وقلوبهم تجول في اللسكوت وتلوذ بمحجوب التيوم ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد وما لا يمكن واضفا أن يصفه فهم في باطن أمورهم كالديباج حسنا وهم في الظاهر مناديل مبدولون لمن أرادهم تواضعا ، وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالتكلف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء . وقال بعض الصالحين : بينا أنا أصير في بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى واد هناك فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تجيبه لها دوى عال فاتبع الصوت فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية - يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا - إلى قوله - ويحذركم الله نفسه - قال فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خرمغشيا عليه فقلت وأسماءه هذا لشقائي ، ثم انتظرت إفاقة فأفاق بعد ساعة فسمعتة وهو يقول أعوذ بك من مقام الكذابين أعوذ بك من أعمال البطالين أعوذ بك من إعراض الداخلين ثم قال لك خشعت قلوب الحاشمين وإليك فرغت آمال القصرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ثم نفص يده فقال مالي وللدنيا

فان التوبة قالب الروح
الحب وهذا الروح
قيامه بهذا القلب
والأحوال أعراض
قوامها بجوهر الروح
وقال صمدون : ذهب
المحبون لله بشرف
الدنيا والآخرة لأن
النبي صلى الله عليه وسلم
قال «لراء مع من
أحب» فهم مع الله
تعالي وقال أبو يعقوب
السوسى لا تصح المحبة
حتى تخرج من رؤية
المحبة إلى رؤية
المحبوب بفناء علم
المحبة من حيث كان
له المحبوب في الغيب
ولم يكن هذا بالمحبة
فاذا خرج المحب إلى
هذه النسبة كان
عجا من غير محبة

ومال الدنيا ولي عليك يا دنيا بأبناء جنسك وآلاف نعيمك إلى عميك فاذهبي وإياهم فاخذعي ثم قال
أين القرون للماضية وأهل الدهور السالفة في التراب ييلون وعلى الزمان يفنون فناديته يا عبد الله أتعلم
اليوم خلفك أنتظر فراغك فقال وكيف يفرغ من ياد الأوت وتو جادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه
أم كيف يفرغ من ذهب أيامه وبقيت آثامه ثم قال أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها ثم لها عنى
ساعة وقرأ - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون - ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى وخرت
مغشيا عليه فقلت قد خرجت روحه فدوت منه فاذا هو يضطرب ثم أفاق وهو يقوطين أنا ما خاطري
هب لي إساءتي من فضلك وجللي بسترى واعف عن ذنوبي بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك فقلت
له بالذي ترجوه لنفسك وتثق به إلا كتبتى فقال عليك بكلام من ينفك كلامه ودع كلام من أوقته
ذنوبه إنى لفي هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبائس وبجاهدنى فلم يجد عونا على ليخرجنى مما أنا فيه
غيرك فأليك عنى يا مخدوع فقد عطلت على لساني وميلت إلى حديثك شعبة من قلبى وأنا أعوذ بالله
من شرك ثم أرجو أن يعيدنى من سخطه ويفضل على برحمته . قال فقلت هذاولى الله أخاف أن أشغله
فأعاقب فى موضعى هذا فانصرفت وتركته . وقال بعض الصالحين بينا أنا أسير فى مسيرى إذملت إلى
شجرة لأستريح تحتها فاذا أنا بشيخ قد أشرف على فقال لى يا هذا قم فان الموت لم يمت ثم هام على وجهه
فاتبعته فسمعتة وهو يقول - كل نفس ذائقة الموت - اللهم بارك لى فى الموت فقلت وفى بعد الموت
فقال من أيقن بما بعد الموت شعر مئزر الخذر ولم يكن له فى الدنيا مستقر ثم قال يامن لوجهه عنت
الوجوه بيض وجهى بالنظر إليك واملا قلبى من المحبة لك وأجرنى من ذل التوييح غدا عندك فقد
آن لى الحياء منك وحن لى الرجوع عن الاعراض عنك ، ثم قال لولا حلك لم يسخى أجلي ولولا
عفوك لم ينسب فبا عندك أملى ثم مضى وتركنى ، وقد أشهدوا فى هذا المعنى :

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد	تراه بقمة أو بطن وادى
ينوح على معاص فاضحات	يكدر ثقلها صفو الرقاد
فان هاجت مخاوفه وزادت	فدعوته أغشى باعسادى
فأنت بما ألقىه عليم	كثير الصفع عن زلل العباد
ألد من التلذذ بالعوانى	إذا أقبلن فى حلال حسان
منيب فر من أهل ومال	يسبح إلى مكان من مكان
ليخمل ذكره ويعيش فردا	ويظفر فى العباد بالأماني
تلذذ التسلاوة أين ولى	وذكر بالأسواد وباللسان
وعند الموت يأتيه بشير	يبشر بالنجاة من الهوان
فيدرك ما أراد وما تمنى	من الراحة فى غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يحتم القرآن فى كل يوم ثلاث مرات ويجاهد نفسه فى العبادات غاية المجاهدة فقيل له
قد أجهدت نفسك فقال كم عمر الدنيا فقيل سبعة آلاف سنة فقال كم مقدار يوم القيامة فقيل خمسون
ألف سنة فقال كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم يعنى أنك لو عشت عمر الدنيا
واجتهدت سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان ربك
كثيرا وكنت بالرغبة فيه جديرا فكيف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها فهكذا كانت سيرة السلف
الصالحين فى مرابطة النفس ومراقبتها فهما تردت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العباد
فظالم أحوال هؤلاء فانه قد عز الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فمواضع

مثل الجنييد عن
المحبة قال : دخول
صفات المحبوب على
البدل من صفات
المحب . قيل هذا على
معنى قوله تعالى « فاذا
أحبته كنت له مصما
وبصرا » وذلك أن
المحبة إذا صفت وكملت
لأنزال تجذب بوصفها
إلى محبوبها ، فاذا
انتهت إلى غاية جهدها
وقفت والرابطة متأصلة
متأكدة وبكمال وصف
المحبة أزال اللوانع من
المحب وبكمال وصف
المحبة تجذب صفات
المحبيب تعطفا على
المحب الخاص من
موانع قاذحة فى صدق
الحب ونظرا إلى
قصوره بعد استفاد

في القلب وأبث على الاقتداء فليس الخبر كالمعينة وإذا هجرت عن هذا فلا تنفل عن سماع أحوال هؤلاء فان لم تكن إبل لعزى وخير نفسك بين الاقتداء بهم والسكون في زميرهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين وبين الاقتداء بالجلمة الغافلين من أهل عصرك ولا ترض لها أن تتخرط في سلك الحق وتقع بالتشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء فان حدثت نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها يا نفس لا تستكفي أن تكوني أقل من امرأة فأخس برجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها ، ولندكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات قد دروي عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخارها ثم قالت إلهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بهيبه وهذا مقامى بين يديك ثم قبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت إلهي هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فقلت شمري أقبلت منى ليلتي فأهنا أم رددتها على فأعزى وعزتلك لهذا دأبى ودأبك ما بقتنى وعزتلك لو اتهرتني عن بابك ما برحت لما وقع في نفسى من وجودك وكرمك . ويروى عن هجرة أنها كانت تحب الليل وكانت مكفوفة البصر فإذا كان في السحر نادت بصوت لها محزون إليك قطع العابدون دجى اليا لى يستقبون إلى رحمتك وفضل مغفرتك فبك يا إلهي أسألك لا بغيرك أن تجعلنى في أول زمرة السابقين وأن ترفنى لديك في عليين في درجة المقربين وأن تلحنى بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم ثم تحر ساجدة فيسمع لها وجبة ثم لاتزال تدعو وتبكي إلى الفجر . وقال يحيى بن بسطام: كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع عن النياحة والبكاء فقلت لصاحب لى لو أتيناها إذا دخلت فأمرناها بالرفق بنفسها فقال أنت وذلك قال فأتيناها فقلت لها لو رقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئاً فكان لك أقوى على ما تريد من قال فبكيت ثم قالت والله لو ددت أنى أبكى حتى تنفد دموى ثم أبكى دما حتى لا تبقى قطرة من دمى في جرحه من جوارحى وأنى لى بالبكاء وأنى لى بالبكاء فلم تزل تردد وأنى لى بالبكاء حتى غشى عليها . وقال محمد بن معاذ حدثتني امرأة من المتجندات قالت رأيت في منامى كأنى أدخلت الجنة فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم فقلت ما شأن أهل الجنة قيام فقال لى قائل خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التى زخرفت الجنان لقدومها فقلت ومن هذه المرأة فقيل أمة سوداء من أهل الأيكة يقال لها شعوانة قالت فقلت أختى والله قالت فيينا أنا كذلك إذ أقبل بها على نجبية تطير بها في الهواء فلما رأيتها ناديت يا أختى أما تترين مكانى من مكانك فلو دعوت لى مولاك فألحنى بك قالت فبسمت إلى وقالت لى بأن لقدومك ولكن احفظى عنى اثنتين أرمى الحزن قلبك وقدمى محبة الله على هواك ولا يضرك منى . وقال عبد الله بن الحسن كانت لى جارية رومية وكنت بها معجبا فكانت في بعض الليالى نائمة إلى جنبى فانتبهت فالتفتها فلم أجدها فعمت أطلها فإذا هى ساجدة وهى تقول بحبك لى إلا ما غفرت لى ذنوبى فقلت لها لا تتولى بحبك لى ولكن قولى بحبى لك فقالت يا مولاي بحبى لى أخرجنى من الشرك إلى الاسلام وبحبى لى أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام . وقال أبو هاشم القرشى قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية فزلت في بعض ديارنا قال فكنت أسمع لها من الليل أنينا وشهيقا فقلت يوما لحادم لى أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع قال فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئاً غير أنها لاترد طرفها عن السماء وهى مستقبله القبلة تقول خلقت سرية ثم غديتها بنعمتك من حال إلى حال وكل أحوالك لها حسنة وكل بلائك عندها جميل وهى مع ذلك متعرضة لخطك بالتوبى على ماصيك فلنة جد فلتة أراها تظن أنك لاترى سوء فعلها وأنت علم خبير وأنت على كل شىء قدير . وقال ذو النون المصري خرجت لية من وادى كنعان فلما علوت الوادى إذا سواد مقبل على وهو يقول

جهده فيعود الهب
يفسوا لك اكتساب
الصفات من المبوب،
فيقول عند ذلك :
أنا من أهوى
ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتى أبصرته
وإذا أبصرتنا أبصرتنا
وهذا الذى عبرنا عنه
حقيقة قول رسول الله
صلى الله عليه وسلم
« تخلقوا بأخلاق الله »
لأنه بزاهة النفس
وكال الزكية يستعد
للمحبة والمحبة موهبة
غير معطلة بالزكية
ولكن سنة الله
جارية أن يركى نفوس
أحبابه بحسن توفيقه
وتأييده وإذا منح
زاهة النفس وطهارتها

- وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون - ويكي فلما قرب من السواد إذ أذهى امرأة عليها جبة صوف ويدها ركوة فقالت لي من أنت غير فرزة منى قلت رجل غريب فقالت يا هذا وهل يوجد مع الله غربة قال فبكيت لقولها فقالت لي ما الذي أبكاك قلت قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع في نجاحه قالت فان كنت صادقا فلم بكيت قلت يرحمك الله والصادق لا يبكي قالت لا قلت ولم ذلك قالت لأن البكاء راحة القلب فسكت متعجبا من قولها . وقال أحمد بن علي استأذنا على عفيفة فحجبتنا فلما رأنا الباب فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعنا وهي تقول اللهم إني أعوذ بك ممن جاء يشغلني عن ذكرك ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها يا أمة الله ادعي لنا فقالت جعل الله قراكم في بيتي للعفرة ثم قالت لنا مكث عطاء السلي أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء فانت منه نظرة فغمضت غمضا عليه فأصابه فتق في بطنه فياليت عفيفة إذا رفعت رأسها لم تنس وباليها إذا عصت لم تصد . وقال بعض الصالحين خرجت يوما إلى السوق ومعى جارية حبشية فاحتسبتها في موضع بناحية السوق وذهبت في بعض حوائجى وقلت لا تبرحى حتى أنصرف إليك قال فانصرفت فلم أجدها في الموضع فانصرفت إلى منزلى وأنا شديد الغضب عليها فلما رأته عرفت الغضب في وجهى فقالت يا مولاي لا تسجل على إنك أجلسنى في موضع لم أر فيه ذا كر الله تعالى خفت أن يخسف بذلك الموضع فصجبت لقولها وقلت لها أنت حرة . فقالت ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لى أجران وأما الآن فقد ذهب عنى أحدها . وقال ابن العلاء السمدى كانت لى ابنة عم يقال لها بريدة تعبدت وكانت كثيرة القراءة في المصحف فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت فلم تزل تبكي حتى ذهبت عنها من البكاء فقال بنوعهما انطلقوا بنا إلى هذه للمرأة حتى نضلها في كثرة البكاء قال فدخلنا عليها فقلنا يا بريرة كيف أصبحت قالت أصبحت أسبغا أضيافا منيخين بأرض غربة تنتظر متى ندعى فنجيب قلنا لها كم هذا البكاء قد ذهبت عينك منه فقالت إن يكن لعينى عند الله خير لما يضرهما ما ذهب منهما في الدنيا وإن كان لهما عند الله شرف فزيدهما بكاء أطول من هذا ثم أعرضت . قال فقال القوم قوموا بنا فمى وألفى فى شىء غير ما نحن فيه . وكانت معاذة العدوية إذ جاء النهار تقول هذا يومى الذى أموت فيه لما تطعم حتى تمسى فإذا جاء الليل تقول هذه الليلة التى أموت فيها فتصلى حتى تصبح . وقال أبو سليمان الداراني بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها وقت أنا إلى ناحية من البيت فلم تزل قابعة إلى السحر فلما كان السحر قلت ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة قالت جزاؤه أن تصوم له غدا وكانت شعوانة تقول فى دعائها إلهى ما أشوقنى إلى لقائك وأعظم رجائى لجزائك وأنت الكريم الذى لا يخيب لديك أمل الآملين ولا يهمل عندك شوق المشتاقين إلهى إن كان دنائى جلى ولم يقربنى منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالتدب وسائل على فان عفوت فمن أولى منك بذلك وإن عذبت فمن أعدى منك هنالك إلهى قد جرت على نفسى فى النظر لها وبقى لها حسن نظرك فالويل لها إن لم تسعدنا إلهى إنك لم تزل بى برا أيام حياتى فلا تقطع عنى برك بعد مماتى ولقد رجوت ممن تولانى فى حياتى بإحسانه أن يسفنى عند مماتى بنفرانه إلهى كيف أياس من حسن نظرك بعد مماتى ولم تولنى إلا الجليل فى حياتى إلهى إن كانت ذنوبى قد أخافتنى فان محبتى لك قد أجارتنى فتول من إصرى ما أنت أهله وعد بفضلك على من غره جهله إلهى لو أردت إهانتى لما هديتنى ولو أردت فضيحتى لم تسترنى فمتعنى بماله هديتنى وأدم لى ما به سترتني إلهى ما أظنك تردنى فى حاجة أفنيت فيها عمري إلهى لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك . وقال الخواص دخلنا على رحلة العابدة وكانت قد صامت حتى اسودت وبكت حتى عميت وصلت حتى أقصدت وكانت تصلى قاعدة فلسنا عليها ثم ذكرناها شيئا من العفوليهون عليها الأمر قال فشبهت

جذب روحه بمجاذب
المحبة خلع عليه خلع
الصفات والأخلاق
ويكون ذلك عنده
رتبة فى الوصول فتارة
ينبت الشوق من
باطنه إلى ما وراء ذلك
لكون عطابا لله
غير متناهية
وتارة يقضى بما منح
فيكون ذلك وصوله
الذى يسكن نيران
هوقه وياعث الشوق
تستتر الصفات للهوية
المحققه رتبة الوصول
عند الحب ولولا باعث
الشوق رجح القهقرى
وظهرت صفات نفسه
الحائلة بين الله وقلبه
ومن ظن من الوصول
غير ما ذكرناه أو تخايل
له غير هذا القدر فهو

ثم قالت على بنفى فرح فؤادى وكلم كبدى والله لوددت أن الله لم يخلقى ولم أك شيئا مذكورا ثم أقبلت على صلاتها . فعليك إن كنت من الرابطين الراقين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبث نشاطك ويزيد حرصك وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك فانك إن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر وإن أردت مزيدا فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الأولياء فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الله فإن حدثك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت إنما تيسر الخير فى ذلك الزمان لكثرة الأعوان والآن فان خالفت أهل زمانك رأوك مجنونا وسخروا بك فواقهم فيما هم فيه وعليه فلا يجرى عليك إلا ما يجرى عليهم والصلية إذا عمت طابت فأياك أن تتدلى بعجل غرورها وتخضع بتزويرها وقل لها أرأيت لو هجم سيل جارف يفرق أهل البلد وتبتوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال وقدرت أنت على أن تفارقهم وتركبى فى سفينة تتخلصين بها من العرق فهل يخرج فى نفسك أن الصلية إذا عمت طابت أم تتركين مواضعهم وتستجهلينهم فى صنعهم وتأخذين حذرهم مما دهلك فاذا كنت تتركين مواضعهم خوفا من العرق وعذاب العرق لا يتمادى إلا ساعة فكيف لا هربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له فى كل حال ومن أين تطيب للصية إذا عمت ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ولم يهلك الكفار إلا بمواقفة أهل زمانهم حيث قالوا - إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون - فعليك إذا اشتغلت بمعاينة نفسك وحملها على الاجتهاد فاستصحت أن لا تترك معاتبها وتوييحها وتقريرها وتعرفها سوء نظرها لنفسها فصاها تزجر عن طغيانها .

(الرابطة السادسة فى توييح النفس ومعاتبتها)

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنيدك وقد خلقت أمارة بالسوء مائلة إلى الشر فرارة من الخير وأمرت بتزكيتها وتويعها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها فان أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك وإن لازمتها بالتوييح والمعاينة والمعدل والملازمة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس اللطيفة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تنفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك مالم تشتغلن أولابوعظ نفسك أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ نفسك فان امتعظت فقط الناس وإلا فاستحى منى وقال تعالى - وذكر فان الله كرى ترفع المؤمنين - وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وأنها أبدا تعزز بظننها وهدايتها ويشد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحق فتقول لها يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفتنة وأنت أشد الناس غباوة وحماقا أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنت صائرة إلى إحداهما على القرب شمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تخطفين أوغدا فأراك ترين الموت بعيدا ويراها الله قريبا أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب وأن البئيد ما ليس بآت أما تعلمين أن الموت يأتى بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة وأنه لا يأتى فى شئ دون شئ ولا فى شتاء دون صيف ولا فى صيف دون شتاء ولا فى نهار دون ليل ولا فى ليل دون نهار ولا يأتى فى الصبا دون الشباب ولا فى الشباب دون الصبا بل كل نفس من الأقسام يمكن أن يكون فيه الموت فجأة فان لم يكن الموت فجأة فيكون للرض فجأة ثم يفضى إلى الموت فمالك لا تستمدين للموت

متعرض للذهب
النصارى فى اللاهوت
والناسوت. وإشارات
الشيوع فى الاسترقاق
والقضاء كلها عائدة إلى
تحقيق مقام المحبة
بامتلاء نور اليقين
وإخلاصة الذكر على
القلب وتحقيق حق
اليقين بزوال اعوجاج
البقايا وأمنت اللوث
الوجودى من بقاء
صفات النفس وإذا
صحت المحبة ترتبت
عليها الأحوال وتبينها.
سئل الشبلى عن المحبة
فقال كأس لها وهج
إذا استقر فى الحواس
وسكن فى النفوس
تلاشت. وقيل للمحبة
ظاهر وباطن ظاهرها
اتباع رضا المحبوب

وهو أقرب إليك من كل قريب أما تدبرين قوله تعالى - اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم - ويعك يا نفس إن كانت جراتك على معصية الله لا تعتادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك . ويعك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأي جسارة تعرضين لقت الله وغضبه وشده بدعا به أظنين أنك تطيقين عذابه هيات هيات جربي نفسك إن الهالك البطر عن ألم عذابه فاحسبي ساعة في الشمس أوفى بيت الحمام أوفى أصبعك من النار لبتين لك قدر طافتك أم تقترين بكرم الله وفضله واستغاثه عن طاعتك وعبادتك فمالك لا تعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك فاذا قصدك عدو فلم تستبطين الحيل في دفعه ولا تسكينه إلى كرم الله تعالى وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقض إلا بالدينار والدرهم فمالك تزعين الروح في طلبها ونحصيلها من وجوه الحيل فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كثر أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب أتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لا يتبدل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . ويعك يا نفس ما أعجب نقاقتك ودعائك الباطلة فانك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك - وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها - وقال في أمر الآخرة - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - فقد تنكفلك بأمر الدنيا خاصة وصرفتك عن السعي فيها فكذبت بأفعالك وأصبحت تسالكين على طلبها تنكالب المدهوش المستهتر ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض للفرور المستحقر ما هذان علامات الإيمان لو كان الإيمان باللسان فلم كان الناقدون في الدرك الأسفل من النار . ويعك يا نفس كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت وهيات أتحسبين أنك تتركين سدى ألم تكوني نطفة من متى - متى - كنت علقة تعلق فسوى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى فإن كان هذا من إضمارك فما أ كفرك وأجهلك أما تفكرين أنه مما إذا خلقك من نطفة خلقك قد درك ثم السيل يسرك ثم أماتك فأفرك أفسكذيبه في قوله ثم إذا شاء أشرك فإن لم تكوني مكذبة فمالك لا تأخذين حذرَكَ ولو أن يهوديا أخبرك في آله أطمعتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه أفسكان قول الأنبياء للوئذين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه للترلة أقل عندك تأثرا من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع قصان عقل وتصور علم والمعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقربا لرميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان أفسكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء أم صار حرجهم وأغللها وأنكأها وزقومها ومقامها وصديدها وسمومها وأفاعها وعقوبها أحقر عندك من عقرب لا تحسبن بألمها إلا يوما أو أقل منه ما هذه أفعال العقلاء بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك فإن سكنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فمالك تسوفين العمل واللوت لك بالمرصاد ولله يختطفك من غير مهلة فبما إذا آمنت استعجال الأجل وهبك أنك وعدت بالامهال مائة سنة أظنين أن من يطعم الدابة في حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك أرايت لو سافر رجل ليتفق في المرة فأقام فيها سنين مستظلا بظلاله بنفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تصحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قرية أو حياضه أن مناصب القمهاء تنال من خير خلقه اعتماها على كرم الله سبحانه وتعالى

وباطنها أن يكون مفتونا بالحبيب عن كل شيء ولا يبقى فيه بقية لغيره وللنفسه فمن الأحوال السنية في المحبة الشوق ولا يكون الحب إلا مشتاقا أبدا لأن أمر الحق تعالى لا نهاية له فما من حال ياتها الحب إلا ويعلم أن ما وراء ذلك أوفى منها وأتم : حزني كحسك لالدا أمد

ينهي إليه ولالدا أمد ثم هذا الشوق الحادث عنده ليس كبه وإنما هو موهبة خص الله تعالى بها المحبين . قال أحمد ابن أبي الحواري دخلت على أبي سليمان

ثم هي أن الجهد في آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلافلعل اليوم آخر عمرك فلم لا تستغلين فيه بذلك فإن أوحى إليك بالامهال لما للناع من المبادرة وما الباعث لك على التسوية هل له سبب إلا هجرك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والشقة أنتظرين يوماً يأتيك لا تصبر فيه مخالفة الشهوات هذا يوم لم يخلق الله قط ولا يخلق فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمسكاره ولا تكون الكاره قط خفيفة على النفوس وهذا محال وجوده أما تأملين مذكم تعدين نفسك وتقولين غدا غدا فقد جاء الغد وصار يوماً فكيف وجدته أما علمت أن الغد الذي جاء وصار يوماً كان له حكم أمس لابل تعجزين عنه اليوم فانت غدا عنه أهيجز وأهيجز لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها فإذا هجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن هجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى فأخرها إلى سنة أخرى مع العلم بأن طول اللدة يزيد الشجرة قوة ورسوخاً ويزيد القالع ضعفاً وهناً فلما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في للشيب بل من العناية رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب القديب والقضيب الرطب يقبل الانحاء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك فإذا كنت أيها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية وتركبين إلى التسوية لما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ولعلك تقولين ما يعنى عن الاستقامة إلا حرصى على لذة الشهوات وقلة صبرى على الآلام والشقات فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التمتع بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الأباد ولا مطعم في ذلك إلا في الجنة فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها قرب أكلة تمنع أكلات وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنا بشر به طول عمره وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضاً مزمناً وامتنع عليه شربه طول العمر فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة أصبر ثلاثة أيام ليتنم طول العمر أم يقضى شهوتك في الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثائة يوم وثلاثة آلاف يوم وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته ، وليت شعري ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في دركات جهنم فمن لا يطبق الصبر على ألم المهادنة كيف يطبق ألم عذاب الله ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفى أو لحق جلى . أما الكفر الخفى فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب . وأما الحلق الجلى فاعتادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكروه واستدراج واستغفاله عن عبادتك مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز أو حبة من السال أو كلة واحدة تسمينها من الحلق بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » ويحك يا نفس لا ينهى أن تترك الحياة الدنيا ولا يتركك بالله الغرور فانظري لنفسك فما أمرك بهم لغيرك ولا تضيعي أو قاتك فالأفئاس معدودة فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بضعك فاغتسمى الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل والنقى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت واستعدى للأخرة على قدر بقائك فيها يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب ولا تتكئين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير حبة ولبد وحطب وغير ذلك فاته قادر على ذلك أنتظنين أيها النفس أن زمهرير جهنم أخف برداً وأقصر مدة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا كلا أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة

الداراني فرأته يكي
قلقت ما يكيك رحك
الله قال ويحك يا أحمد
إذا جن هذا الليل
اقترشت أهل الهبة
أقدامهم وجرت
دموعهم على خدودهم
وأشرف الجليل
جل جلاله عليهم
يقول « بيني من تقد
بكلامي واستراح إلى
مناجاني وإني مطلع
عليهم في خلواتهم أسمع
أنينهم وأرى بكاهم
يا جبريل ناد فيهم
ما هذا البكاء الذي
أراه فيكم هل خبركم
خبر أن حبياً يندب
أحبابه بالنار كيف
يجعل بي أن أعذب
قوما إذا جن عليهم
الليل تعلقوا إلى في

في الشدة والبرودة فتظن أن البعد ينجو منها بغير سعي هيات كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار
وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبردتها إلا بحسن التوحيد وخذق الطاعات وإنما كرم الله تعالى
في أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لافي أن يندفع عنك العذاب دون حصنه كأن كرم
الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار وهذا للطريق استخراجها من بين حديد ووجر حتى تدفى
بها برد الشتاء عن نفسك وكما أن شراء الحطب والجبة بما يستغنى عنه خالقك ومولاك وإنما تشتريه
لنفسك إذ خلقه سبباً لاستراحتك فطاعاتك ومجاهداتك أيضاً هو مستغن عنها وإنما هي طريقك إلى
نجاتك فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فلعليها والله غنى عن العالمين . ويحك يا نفس انزعي عن جبهك
وقبسي آخرتك بدنياك فما خلقكم ولا بشكم إلا كنفس واحدة وكما بدأنا أول خلق نعيده . وكما
بدأكم تمودون وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلاً ولا تحويلاً . ويحك يا نفس ما أراك إلا ألقت الدنيا
وأنت بها فصر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مفاربتها وتؤكدين في نفسك مؤدتها فاحسي أنك
غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فأنت مؤمنة بالموت الفرق بينك وبين محابك
أقربين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمد بصره إلى وجه مبيع يعلم أنه يستغرق ذلك
قلبه ثم يضطر لاجمالة إلى مفارقتها فهو معدود من العقلاء أم من الخلق . أما تلعين أن الدنيا دار للملك
الملوك ومالك فيها إلا مجاز وكل ما فيها لا يصحب المختارين بها بعد الموت ، ولذلك قال سيد البشر صلى الله
عليه وسلم « إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة واعملم ماشئت فانك مجزى
به وعش ماشئت فانك ميت (١) » . ويحك يا نفس أتعين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس
بها مع أن الموت من ورائه فاتما يستكبر من الحسرة عند المفارقة وإنما يزود من السم الممك وهو لا يدري
أو ما تنظيرين إلى الدين مضوا كيف بنوا وعولائم ذهبوا وخلصوا كيف أورش الله أرضهم وديارهم أعداءهم
أما تترينهم كيف يجمعون مالا يأكلون ويبنون مالا يسكنون ويؤملون مالا يدركون يبنون كل واحد
قصراً مرفوعاً إلى جهة السماء ومقره قبر محفور تحت الأرض فهل في الدنيا حمق وانتكاس أعظم من
هذا يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ويغرب آخرته وهو سائر إليها قطعاً ، أما تستحيين يا نفس
من مساعدة هؤلاء الخلق على حماقتهم واحسي أنك لست ذات بصيرة تهتدي إلى هذه الأمور وإنما تلعين
بالطبع إلى التشبه والانتداء فقبسي عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء للتكبين على الدنيا
واقندي من الفريقين بمن هو أعدل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والدكاء يا نفس ما أعجب
أمرك وأشد جهلك وأظهر ظيانك ، عجيبك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجليلة ولعلك يا نفس
أسرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها ، أو ما تفكرين أن الجاه لاعمق له إلا ميل القلوب من بعض
الناس إليك فاحسي أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة
لا تبقى أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر
من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا
فكيف تبين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقي هذا إن كنت ملداً
من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب حتى أدعت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب كيف وبأبي
إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلاً عن محلتك فان كنت يا نفس لا تتركين
للدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فما لك لا تتركينها ترفها عن خسة شركائهم وتزها عن
كثرة عنائهم وتوقيا من سرعة فناها أم مالك لا ترهدين في قليلها بعد أن زهدت كثيرها ومالك

حلقت إذا وردوا
القيامة على أن أسفر لهم
عن وجهي وأيهم
رياض قدسي وهذه
أحوال قوم من المحبين
أقيموا مقام الشوق
والشوق من المحبة
كالزهد من التوبة
إذا استقرت التوبة
ظهر الزهد وإذا
استقرت المحبة ظهر
الشوق . قال الواسطي
في قوله تعالى - عجبت
إليك رب لترضى - قال
شوقاً واستهانة بمن
وراءه - قال هم أولاء
على أنرى - من شوقه
إلى مكالمة الله ورمى
بالألواح لما فاته من
وقته . قال أبو عثمان
الشوق نمرة المحبة فمن
أحب الله اشتاق إلى

(١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم في العلم وغيره .

تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخصاء فما أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكون في زمرة المقرّبين من النبيين والصدّيقين في جوار رب العالمين أهد الآبدن لتسكون في صف النعال من جملة الحقّ الجاهلين أياما فلائل فإحسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين ، فبادري ويحك يا نفس قد أشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير فمن ذا يصلّي عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت . ويحك يا نفس مالك بالإيام معدودة هي بضاعتك إن انجرت فيها وقد ضيقت أكثرها فلوبكيت بقية عمرك على ماضيت منها لسكنت مقصورة في حق تفصك فكيف إذا ضيقت البقية وأصررت على عادتك. أماتعلمين يا نفس أن الموت موعدهك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود أنيسك والفرع الأكبرين يديك ، أماعلمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان الغلظة أنهم لا يرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم ، أماتعلمين يا نفس أنهم يتحنون الرجعة إلى الدنيا يوما ليستفتلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت في أمنيتهم ويوم من عمرك لو يسع منهم بالدنيا بخذافيرها لا يشروه لو قدروا عليه وأنت تضييع أيامك في الغفلة والبطالة . ويحك يا نفس أماتستحيين تزينين ظاهرهك للخلق وتبارزين الله في السرّ بالعظام أفستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق . ويحك أهو أهون الناظرين عليك أمأميرين الناس بالخير وأنت متلطفة بالردائل تدعين إلى الله وأنت عنه فارة وتذكرين بالله وأنت له ناسية ، أماتعلمين يا نفس أن الذنب أنتن من العذرة وأن العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك . ويحك يا نفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك . ويحك يا نفس قد جعلت نفسك حمارا لإبليس يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك ، ومع هذا فتمجبن بملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأسا برأس لكان الريح في يديك وكيف تمجبن بملك مع كثرة خطاياك وزلللك وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتي ألف سنة وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه . ويحك يا نفس ما أعندرك ويحك يا نفس ما أوقحك ويحك يا نفس ما أجهلك وما أجرأك على العاصي ويحك كم تعفدين فتقصين ويحك كم تعمدين فتعدرين ويحك يا نفس أتستغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها أماتنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جموا كثيرا وبنوا مشيدا وأملوا بعيدا فأصبح جمعهم بورا وبنياتهم قبورا وأملهم غرورا ويحك يا نفس أملك بهم عبرة أمالك إليهم نظرة أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين هيات هيات ساء ما توهمين ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابني على وجه الأرض قصرك فان بطنها عن قليل يكون قبرك أماتخافين إذا بلغت النفس منك التراقي أن تبدورسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن منك البكاء والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والقفظة ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بقصان عمرك وما تقع مال يزيد وعمر ينقص . ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك ، فكمن مستقبل يوما لا يستكمله وكمن مؤمل لمد لا يلبغه فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك قترين تحسرم عند الموت ثم لاترجعين عن جهالتك فاحذري أيها النفس المسكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدا أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلايته

لقائه . وقال أيضا في قوله تعالى - فان أجل الله آت - تقرّبة للمشتاقين معناه آتى أعلم أن شوقكم إلى غالب وأنا أجلت للقائكم أجلا وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشتاقون إليه وقال ذوالنون: الشوق أعلى الدرجات وأعلى القسامات إذا بلغها الانسان استبطن الموت شوقا إلى ربه ورجاء لقائه والنظر إليه . وعندى أن الشوق السكّان في المحبين إلى رب يتوقعون في الدنيا غير الشوق الذي يتوقعون به ما بعد الموت والله تعالى يكشف أهل وده بعبايا مجدونها

فانظري يا نفس بأى بدن تفتين بين يدي الله وبأى لسان تهيين وأعدى لسؤال جوابا وللجواب صوابا واعلمي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال وفي دار زوال للدار مقام في دار حزن ونصب للدار نصيب وخلود اعملى قبل أن لاتعملى اخرجى من الدنيا اختيارا خروج الأحرار قبل أن تخرجى منها على الاضطرار ولا تفرحى بما يساعدك من زهرات الدنيا فرب مسرور مضنون ورب مضنون لا يشعر فويل لمن له الويل ثم لا يشعر بضحك ويضح ويهجو ويحرج ويأكل ويشرب وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتبارا وسعيك لها اضطرارا ورفضك لها اختيارا وطلبك للآخرة ابتدارا ولا تكونى ممن يجز عن شكر ما أوتى ويتنى الزيادة فيما جنى وينهى الناس ولا ينتهى واعلمى يا نفس أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل ولا للجسد خلف من كانت مطيته الليل والنهار فانه يساره وإن لم يسر فاعتظى يا نفس بهذه للوعظة واقبل هذه النصيحة فان من أعرض عن اللوعظة قد رضى بالنار وما أراك بها راضية ولا هذه للوعظة واعية فان كانت المساواة تمنحك عن قبول اللوعظة فاستمعى عليها بدوام التجدد والقيام فان لم تزل قبل المواظبة على الصيام فان لم تزل قبل صلاة الخاطلة والكلام فان لم تزل قبل صلة الأرحام والطف بالآيتام فان لم تزل فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقل على عينه وأنه قد تراكت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه فوطنى نفسك على النار قد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا فكل ميسر لما خلق له فان لم يبق فيك مجال للوعظ فاتقنى من نفسك والقنوط كبيرة من الكبائر فعوذ بالله من ذلك فلا سيولك إلى القنوط ولا سيولك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فان ذلك اغترار وليس برجاء فانظري الآن هل يأخذك حزن على هلهة اللصية التي ابتليت بها وهل تسمع عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فان سمحت لمستقى الدمع من بحر الرحمة قد بقى فيك موضع للرجاء فواظبى على النياحة والبكاء واستمعى بأرحم الراحمين واشتكى إلى أكرم الأكرمين وأدمنى الاستغاثة ولا تملى طول الشكاية لله أن يرحم ضحكك وبخبك فان مصيبتك قد عظمت وبلبتك قد فاضت وتماديتك قد طال وقد انقطعت منك الحيل وراحت عنك العلل فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجأ إلا إلى مولك فافزعى إليه بالتضرع واخضعى فى تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لأنه يرحم للتضرع الدليل ويثبت الطالب التلطف ويوجب دعوة للضطر وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة وإلى رحمته محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تنجع فيك العظائم ولم يكسر ك التويع فالمطلوب منه كريم والمستول جواد والمستغاث به رءوف والرحمة واسعة والكرم فاض والغفوشامل وقولى يا أرحم الراحمين يا رحمن يا رحيم يا حلیم يا عظیم يا كريم أنا للذنب المصر أنا الجريء الذى لا أقلع أنا للتأدى الذى لا أستسى هذا مقام للتضرع للسكين والبائس الفقير والضعيف الخفير والمالك التريق فجل أغاثنى وفرجى وأرنى آثار رحمتك وأذقنى برد غضوك ومعذرتك وارزقنى قوة عظمتك يا أرحم الراحمين اقتداء بأبيك آدم عليه السلام قد قال وهب بن منبه لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقأ له فممة فاطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكسر رأسه فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ما هذا الجهد الذى أرى بك قال يا رب عظمت مصيبتى وأحاطت بي خطيئتي وأخرجت من ملكوت ربى فصرت فى دار الهوان بعد الكرامة وفى دار الشقاء بعد السعادة وفى دار النصب بعد الراحة وفى دار البلاء بعد العافية وفى دار الزوال بعد القرار وفى دار اللوت والفناء بعد الخلود والبقاء فكيف لا أبكى على خطيئتي فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ألم أصطفك لنفسي وأحللتك دارى وخصصتك بكرامتى وحذرتك من سخطى ألم أخلقك يدي ووضعت فيك

علما ويطلبونها فوفا
فكذلك يكون شوقهم
ليصير العلم ذوقا وليس
من ضرورة مقام الشوق
استبطاء اللوت وربما
الأسماء من الحسين
يتلذذون بالحياة لله
تعالى كما قال الجليل
رسوله عليه الصلاة
والسلام قل إن صلاتى
ونسكى ومحياى ومماتى
له رب العالمين - فمن
كانت حياته لله منحه
الكريم لمة للتأجاة
والحبة فتمت عينه
من التقدي ثم يكلفه من
النخ والعطايا فى الدنيا
ما يتحقق بمقام الشوق
من غير الشوق إلى
ما بعد اللوت وأنكر
بعضهم مقام الشوق
وقال إنما يكون الشوق

من روحى وأسجدت لك ملائكتى فصيت أمرى ونسيت عهدى وتعرضت لسخطى فوعزنى وجلالى لو ملأت الأرض رجالا كلهم مثلك يعبدونى ويسبحوننى ثم عصونى لأنزلتهم منازل العاصين فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلاثمائة عام . وكان عبيد الله البجلي كثير البكاء يقول فى بكائه طول ليله: إلهى أنا الذى كلما طال عمرى زادت ذنوبى أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى واعبيدها خطيئة لم تبل وصاحبها فى طلب أخرى واعبيدها إن كانت النار لك مقبلا ومأوى واعبيدها إن كانت القامع لرأسك تهباً واعبيدها قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى . وقال منصور بن عمار سمعت فى بعض الليالى بالكوفة عابداً يناجى ربه وهو يقول يا رب وعزتك ما أردت بعصيتك عذابك ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سولت لى نفسى وأعانتى على ذلك شقوتى وغرنتى سترك المرخى على فصيتك بجهلى وخالفتك بفعلى فمن عذابك الآن من يستغنى أو يجبل من أعتصم إن قطعت حبلك عنى واسوأناه من الوقوف بين يديك غدا إذ اقبل للمخفين جوزا ووقيل للمتقين حطوا مع المخفين أجوزاً مع المتقين أحطوا بلى كلما كبرت سنى كثرت ذنوبى وبلى كلما طال عمرى كثرت معاصى فالى متى آتوب وإلى متى أعود أما آن لى أن أستحي من ربى فهذه طرق القوم فى مناجاة مولاهم وفى معاتبة نفوسهم وإنما مطلبهم من اللناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء فمن أهمل المعاتبة والنناجاة لم يكن لنفسه مراعىا وبوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضياً والسلام . ثم كتاب المحاسبة والمراقبة . ويتلوه كتاب التفكير إن شاء الله تعالى والمحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه .

(كتاب التفكير)

(وهو الكتاب التاسع من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذى لم يخذل عزته نهوا ولا قطرا ولم يجعل لمرأى أقدام الأوهام ومرمى سهام الأفهام إلى حمى عظمته مجرى بل ترك قلوب الطالبين فى يدها كبريائه والهمة حيرى كلما اهترت لنيل مطلوبها ردتها سبجات الجلال قسرا وإذا همت بالانصراف آية نوديت من سرادقات الجلال صبرا صبرا ثم قبل لها أجيلى فى ذل العبودية منك فكرا لأنك لو تفكرت فى جلال الربوبية لم تقدرى له قدرا وإن طلبت وراء الفكر فى صفاتك أمرا فانظرى فى نعم الله تعالى وأياديه كيف توالى عليك ترمى وجددى لكل نعمة منها ذكر وشكرا وتأملى فى بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيرا وشرا ونفعا وضرا وعسرا ويسرا وفوزا وخسرا وجبرا وكسرا وطيا ونشرا وإيماناً وكفراً وعرفانا ونكراً فان جاوزت النظر فى الأفعال إلى النظر فى الذات فقد حاولت أمرا إمرا وخاطرت بنفسك بمجازرة حد طاقة البشر ظلما وجورا فقد انبهرت العقول دون مبادئ إشرافه وانقصت على أعقابها اضطرابا وقهرا والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يمد سيادته غفرا صلاة تبقى لنا فى عرسات القيامة عذبة وذخرا وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم فى سماء الدين بدرا ولطوائف المسلمين صدرا وسلم تسليما كثيرا .

[أما بعد] فقد وردت السنة بأن « تفكر ساعة خير من عبادة سنة (١) » وكثر الحديث فى كتاب

(كتاب التفكير)

(١) حديث تفكر ساعة خير من عبادة سنة ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث أنس بن مالك

لغائب ومتى يغيب الحبيب عن الحبيب حتى يشتاقي ولهذا سئل الأنطاكى عن الشوق فقال إنما يشتاقي إلى الغائب وما غبت عنه منذ وجدته وإنكار الشوق على الإطلاق لا أرى له وجها لأن رتب العطايا والنح من أنصبة القرب إذا كانت غير متناهية كيف ينكر الشوق من الحب فهو غير غائب وغير مشتاق بالنسبة إلى ما وجد ولكن يكون مشتاقا إلى ما لم يجد من أنصبة القرب فكيف يمنع حال الشوق والأمر هكذا. ووجه آخر أن الانسان لا يبد له من أمور يريدها

الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ولا يحق أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم وأكثر الناس قد عرفوا فضله وربته لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفماذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذي يطلب به أهو مراد لعينه أم لثمرة تستفاد منه فان كان لثمرة فما تلك الثمرة أهى من المعلوم أو من الأحوال أو منهما جميعا وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أولا فضيلة التفكير وثمرته ثم مجارى الفكر ومسارحه إن شاء الله تعالى.

(فضيلة التفكير)

قد أمر الله تعالى بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى - الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا - وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما « إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره (١) » وعن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال مالكم لا تسكلمون؟ فقالوا نتفكر في خلق الله عز وجل قال فكذلك فاعلموا تفكروا في خلقه ولا تفكروا فيه فان بهنا المغرب أرضا بيضاء نورها يابضا ويابضا نورها مسيرة الشمس أربعين يوما بها خلق من خلق الله عز وجل لم يصوا الله طرفة عين قالوا يارسول الله فأين الشيطان منهم؟ قال ما يدرون خلق الشيطان أم لا قالوا من ولد آدم؟ قال لا يدرون خلق آدم أم لا (٢) » وعن عطاء قال « انطلقت يوما أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضى الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال قول رسول صلى الله عليه وسلم زر غبا تردد حبا قال ابن عمير فأخبرنا بأعجب شيء رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيكثرت وقالت كل أمره كان عجبا أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال ذريني أعبد لربي عز وجل فقام إلى القرية فتوضأ منها ثم قام يصلى فسكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى آتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال يارسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ويحك يا بلال وما يعنى أن أبكي وقد أنزل الله تعالى على في هذه الليلة - إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الأبواب - ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها (٣) » قيل

بلفظ ستين سنة باسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى في الموضوعات ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ ثمانين سنة وإسناده ضعيف جدا ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ خير من قيام ليلة (١) حديث ابن عباس إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه باسناد ضعيف ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر قلت فيه الوازع بن نافع متروك (٢) حديث خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال مالكم لا تسكلمون فقالوا نتفكر في خلق الله الحديث روينا في جزء من حديث عبد الله بن سلام (٣) حديث عطاء انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة الحديث قال ابن عمير فأخبرنا بأعجب شيء رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث في نزول - إن في خلق السموات والأرض - وقال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها تقدم في الصبر والشكر وأنه في صحيح ابن حبان من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء .

حكم الحال لموضع
بشريته وطبيعته
وعدم وقوفه على حد
العلم الذى يقتضيه حكم
الحال ووجود هذه
الأمر مثير لئثار الشوق
ولا نعى بالشوق إلا
مطالبة تنبعث من
الباطن إلى الأولى
والأعلى من أنصبة
القرب وهذه اللطافة
كاشفة في الهيبين فالشوق
إذن كأن لاوجه
لانكاره وقد قال قوم
شوق للشاهدة واللقاء
أشد من شوق البعد
والغيوبة فيكون في
حال الغيوبة مشتاقا
إلى اللقاء ويكون في
حال اللقاء والشاهدة
مشتاقا إلى زوائد
ومبار من الحبيب

للأوزاعي ما غاية التفكير فيهنّ قال يقرؤهنّ ويقلهنّ . وعن محمد بن واسع أن رجلا من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر فسألها عن عبادة أبي ذر فقالت كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر . وعن الحسن قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وعن الفضيل قال : الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك ، وقيل لابراهيم إنك تطيل الفكرة فقال الفكرة مخ العقل ، وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يتمثل بقول القائل :

إذا للره كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

وعن طاوس قال قال الحواريون لعيسى بن مريم ياروح الله هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال نعم من كان منطقته ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرة فانه مثلي . وقال الحسن : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو وفي قوله تعالى - سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض غير الحق - قال أمنع قلوبهم التفكير في أمري . وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطوا أعينكم حظها من العبادة فقالوا يارسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال النظر في المصحف والتفكير فيه والاعتبار عند معجائبه (١) » ، وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة أنها قالت . لو تطالمت قلوب التتقين بفكرها إلى ما قد ادخر لها في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تقر لهم في الدنيا عين . وكان لقمان يطيل الجلوس وحده فكان يمر به مولاه فيقول يا لقمان إنك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس كان آنس لك فيقول لقمان إن طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة . وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل . وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة . وقال عبد الله ابن المبارك يوما لسهل بن علي وراه ساكتا متفكرا أين بلغت ؟ قال الصراط . وقال بشر : لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل . وعن ابن عباس ركعتان مقصدتان في تفكير خير من قيام ليلة بلا قلب . وبيننا أبو شريح يمشي إذ جلس فتفتق بكسائه فجعل يبكي فقل له سيكك ؟ قال تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي . وقال أبو سليمان عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكير . وقال أبو سليمان الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب . وقال حاتم من العبارة يزيد العلم ومن الله كر يزيد الحب ومن التفكير يزيد الخوف . وقال ابن عباس : التفكير في الخير يدعو إلى العمل به والتدبر على الشر يدعو إلى تركه . وروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه إني لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر إلى همه وهو أهواؤه فإذا كان همه وهو أهواؤه إلى جملة صمته تفكرا وكلامه حمدا وإن لم يتكلم . وقال الحسن إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة . وقال اسحاق بن خلف كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قرأ تفكرا في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويكي حتى وقع في دار جار له قال فوثب صاحب الدار من فراشه عريا ناول يده سيف وظن أنه لئس فلما نظر إلى داود رجوع ووضع السيف وقال من ذا الذي طرحك من السطح قال ما شعرت بذلك . وقال الجنيد أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسيم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن لله عز وجل ثم قال بالهامن مجالس ما أجملها ومن شراب ما ألهه طوبى لمن رزقه

(١) حديث أبي سعيد الخدري أعطوا أعينكم حظها من العبادة الحديث ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة بإسناد ضعيف .

وإفضاله وهذا هو الذي أراه وأختاره . وقال فارس : قلوب المشتاقين منورة بنور الله فإذا تحركت اشتياقا أضاء النور ما بين المشرق والمغرب فيعرضهم الله على الملائكة فيقول هؤلاء المشتاقون إلى أشهدكم أني إليهم أشوق . وقال أبو يزيد : لو أن الله حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار . سئل ابن عطاء الله عن الشوق فقال هو احتراق الحشا وتلهب القلوب وتقطع الأكياد من البعد بعد القرب . سئل بعضهم هل الشوق

وقد الشاهي رحمه الله تعالى استمينا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر وقال أيضا صحة النظر في الأمور نجاة من المرور والعزم في الرأي سلامة من التفریط والندم والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفتنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة ففكر قبل أن تعزم وتدبر قبل أن تهجم وشاور قبل أن تهم . وقال أيضا الفضائل أربع: إحداهما الحكم وقوامها الفكرة . والثانية العفة وقوامها في الشهوة . والثالثة القوة وقوامها في الغضب . والرابعة العدل وقوامها في اعتدال القوى النفس فهذه أقاويل العلماء في الفكرة وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجازيها .

(بيان حقيقة الفكر وعمرة)

اعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستمر منهما معرفة ثالثة . ومثاله أن من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان: أحدهما أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيقبل بصله إلى إيثار الآخرة اعتادا على مجرد قوله وهذا يسمى تقليدا ولا يسمى معرفة . والطريق الثاني أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار ثم يعرف أن الآخرة أبقى فيحصل له من هاتين للمعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين فاحضار للمعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتدكرا ونظرا وتأملا وتدبرا . أما التدبر والتأمل والتفكير فبإشارات مترادفة على معنى واحد ليس تخفا معان مختلفة وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر فهي مختلفة المعاني وإن كان أصل اللفظ واحدا كما أن اسم الصارم والمهند والسيف يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع وللهند يدل عليه من حيث نسبه إلى موضعه والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد فكذلك الاعتبار ينطلق على إحضار للمعرفتين من حيث إنه يبرهنها إلى معرفة ثالثة وإن لم يقع الصور ولم يمكن إلا الوقوف على للمعرفتين فينتقل عليه اسم التذكر لاسم الاعتبار . وأما النظر والتفكير فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة فمن ليس بطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا فكل متفكر فهو متذكر وليس كل متذكر متفكرا ، وفائدة التذكر أن تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تمحى عن القلب ، وفائدة التفكير تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصله فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكير والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى فالمعرفة تاج المعرفة فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر وهكذا يتماهى النتاج ويتماهى العلوم ويتماهى الفكر إلى غير نهاية ، وإنما تسند طريق زيادة المعارف بالموت أو بالموت . هذا لمن يقدر على استتار العلوم ويهتدى إلى طريق التفكير . وأما أكثر الناس فاعما بمنوعا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي بها تستمر العلوم كالتدبير لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الأزواج للقضى إلى النتاج فيها ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلهي في القلب يحصل بالهطيرة كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وذلك عزيز جدا وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الأكثر ثم للتفكير قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ولا يقدر على التعبير عنها لقلته بممارسته لصناعة التعبير في الإرادة فكأن من إنسان يعلم أن الآخرة أولى بالإيثار علما حقيقيا ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيرادها والتعبير عنه مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن للمعرفتين السابقتين وهو أن الأبقى أولى

أعلى أم الهبة؟ قال الهبة لأن الشوق يتولد منها فلا مشتاق إلا من غلبه الحب فالحب أصل والشوق فرع وقال النصر ابادي : للخلق كلهم مقام الشوق لا مقام الاشتياق ومن دخل في حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار . ومنها الأنس وقد مثل الجنيد عن الأنس فقال : ارتفاع الحشمة مع وجود الهية . ومثل ذو النون عن الأنس فقال : هو انبساط الهبة إلى المحبوب قيل معناه قول الخليل - أرني كيف تحمي لآوتي - وقول موسى - أرني

بالإبتار وأن الآخرة أبقى من الدنيا فتحصل له معرفة نائمة وهو أن الآخرة أولى بالإبتار فرجع حاصل حقيقة التفكير إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة نائمة . وأما عمرة الفكر فهى العلوم والأحوال والأعمال ولكن عمرة الخاصة العلم لاغير ، نعم إذا حصل العلم فى القلب تغير حال القلب وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالعمل تابع للحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر ، فالفكر إذن هو للبدأ وللفتاح للخبرات كلها وهذا هو الذى يكشفك عن فضيلة التفكير وأنه خير من الذكر والتذكر لأن الفكر ذكر وزيادة وذكر القلب خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذكر ، فإذن الفكر أفضل من جملة الأعمال ولذلك قيل نضكر ساعة خير من عبادة سنة ، قيل هو الذى ينقل من الكاره إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، وقيل هو الذى يحدث مشاهدة وتقوى ولذلك قال تعالى - لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا - وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة فإن الفكر فيه يعرفنا أن الآخرة أولى بالإبتار فإذا رسخت هذه المعرفة يقينا فى قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا وهذا ما عينناه بالحال إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته وورغته ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح فى طراح الدنيا والانبال على أعمال الآخرة فهنا خمس درجات : أولاها التذكر وهو إحضار للمعرفتين فى القلب . وثانيها التفكير وهو طلب للمعرفة المقصودة منها . والثالثة حصول للمعرفة المطلوبة واستئثار القلب بها . والرابعة تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة . والخامسة خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدد له من الحال فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضيء بها للوضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنهض الأعضاء للعمل فكذلك زناد نور للمعرفة هو الفكر فيجمع بين المرتين كما يجمع بين الحجر والحديد ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا فينبعث نور المعرفة كانبعث النار من الحديد ويغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى ما لم يكن يميل إليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه ثم تنهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما يتنهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره ، فإذن عمرة العلوم والأحوال والعلوم لأنها يعلما والأحوال التى تصورها أن تغلب على القلب لا يمكن حصرها ولهذا لو أراد مرید أن يحصر فنون الفكر ومجاريه وأنه فياذا يتفكر لم يقدر عليه لأن مجارى الفكر غير محصورة وعمراته غير تناهية ، نعم نحن نجتهد فى ضبط مجاريه بالإضافة إلى مهمات العلوم الدينية وبالإضافة إلى الأحوال التى هى مقامات السالكين ويكون ذلك ضبطا جليا فان تفصيل ذلك يستدعى شرح العلوم كلها وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها فاتها مشتتة على علوم تلك العلوم تستمد من أفكار مخصوصة فلنشر إلى ضبط الجامع فيها ليحصل الوقوف على مجارى الفكر .

(بيان مجارى الفكر)

اعلم أن الفكر قد يجرى فى أمر يتعلق بالدين وقد يجرى فيما يتعلق بغير الدين وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين فلترك القسم الآخر ونفى بالدين المعاملة التى بين الصديقين الرب تعالى لجميع أفكار العبد إيمان أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله وإنما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفضاله لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين وما يتعلق بالعبد إيمان أن يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى أو فيها هو مكروه ولا حاجة إلى الفكر فى غير هذين القسمين ، وما يتعلق بالرب تعالى إيمان أن يكون نظرا فى ذاته وصفاته وأسماؤه الحسنى ولهذا أن يكون فى أفضاله وملكوته وملكوته وجميع ما فى السموات والأرض وما بينهما وينكشف

أنظر إليك وأنتد
لرويم :
شغلت قلبى بما لديك فلا
ينضك طول الحياة
عن فكر
آستنى منك بالوداد قد
أوحشتنى من جميع
ذا البشر
ذكرك لى مؤنس
يمارضى
يوعدنى عنك منك
بالظفر
وجيئا صكنت
يامدى همى
فأنت منى بموضع النظر
وروى أن مطرف
ابن الشخير كتب إلى
عمر بن عبد العزيز
ليكن أنسك بالله
واقطعك إليه فان
له عبادا استأنسوا
بالله وكانوا فى وحدتهم

لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثال وهو أن حال السائرين إلى الله تعالى والمشتاقين إلى لقائه يضاهاى حال العاشق فلتتخذ العاشق المستهتر مثالنا ، فنقول : العاشق المستغرق المهمل يشغله لا يبدو فكره من أن يتعلق بمشوقه أو يتعاقب بنفسه فان تفكر في معشوقه فاما أن يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته ليتعم بالفكر فيه وبمشاهدته وإما أن يتفكر في أفضاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعفا لذته ومقويا لهيبته وإن تفكر في نفسه فيكون فكره في صفاته التي تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها أوفى الصفات التي تقر به منه وتحميه إليه حتى يتصف بها فان تفكر في شئ خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حد العشق وهو نقصان فيه لأن العشق التام الكامل ما يستغرق العاشق ويستوفي القلب حتى لا يترك فيه متمسكا لغيره فحجب الله تعالى ينبغى أن يكون كذلك فلا يبدو نظره وتفكره محبوبه ومهما كان تفكره محصورا في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجا عن مقتضى المحبة أصلا فلنبداً بالقسم الأول وهو تفكره في صفات نفسه وأفعال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه فان هذا الفكر هو الذى يتعلق بعلم العاملة الذى هو للتصود بهذا الكتاب وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم الكاشفة ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب يتقسم إلى ظاهر كالطاعات والمعاصى وإلى باطن كالصفات النجيات والمهلكات التي محلها القلب وذكرنا تفصيلها في ربع المهلكات والنجيات والطاعات والمعاصى تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة وإلى ما ينسب إلى جميع البدن كالفرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون في المسكن الحرام ويجب في كل واحد من المكروه التفكير في ثلاثة أمور : الأول التفكير في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا فرب شئ لا يظهر كونه مكروها بل يدرك بدقيق النظر . والثاني التفكير في أنه إن كان مكروها فمما طريق الاحتراز عنه . والثالث أن هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فتركه أو هو متعرض له في الاستقبال فيحترز عنه أو قاربه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات فاذا جمعت هذه الأقسام زادت مجارى الفكر في هذه الأقسام على مائة والمبدد فوقع إلى الفكر إما في جميعها أو في أكثرها وشرح آحاد هذه الانقسامات بطول ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع الطاعات والمعاصى والصفات المهلكات والصفات النجيات فلنذكر في كل نوع مثالا ليقس به المرید سائرهما وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه [النوع الأول المعاصى] ينبغى أن يفش الانسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا ثم بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمصيبة بها فيتركها أو لا يسبها بالأسس فيتداركها بالترك والندم أو هو متعرض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها فينظر في اللسان ويقول إنه متعرض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والممازاة والممازحة والخوض فيما لا يبنى إلى غير ذلك من المكروه فيقرر أولا في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والافتراء وأن لا يجالس إلا صالحا تقيا ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله وإلا يضيع حجرا في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا لله فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز ويتفكر في سمعه أنه يصفى به إلى الغيبة والكذب فضول الكلام وإلى اللهو والبدعة وأن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو وأنه ينبغى أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهي عن المنكر فمهما كان ذلك فيتفكر في بطنه أنه إنما يصفى الله تعالى فيه بالأكل والشرب إما بكرة الأكل من الحلال فان ذلك مكروه عند الله ومقو للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدو الله وإما بأكل الحرام والشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه ومالكسبه ويتفكر في طريق الحلال ومدخله ثم

أشد استئناسا من الناس في كثرتهم وأوحش ما يكون الناس أنس ما يكونون وأنس ما يكون الناس أوحش ما يكونون . قال الواسطي : لا يصل إلى عمل الأنس من لم يستوحش من الأكوان كلها . وقال أبو الحسين الوراق : لا يكون الأنس بالله إلا ومعه التعظيم لأن كل من استأنست به سقط عن قلبك تعظيمه إلا الله تعالى فانك لا تزيد به أنسا إلا ازددت منه هية وتعظيما . قالت رابعة : كل مطيع مستأنس وأنشدت :
ولقد جعلت في الفؤاد
معدنى

يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن توبه درهم حرام (١) كما ورد الخبر به فهكذا يتفكر في أعضائه في هذا القدر كفاية عن الاستقصاء فهم حاصل بالتفكير حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمرابطة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها [وأما النوع الثاني وهو الطاعات] فينظر أولاً في الفرائض للكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ثم يرجع إلى عضو عضو فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها بما يحبه الله تعالى فيقول مثلاً إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتتنظر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لأفعله وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان للطبع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه وأنظر إلى فلان الفاسق بين الأزدراء فأزجره بذلك عن معصيته فلم لأفعله وكذلك يقول في صممه إنني قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكراً فإني أعطيه وقد أنعم الله عليّ به وأودعني لأشكره فما لي أكره نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله وكذلك يتفكر في اللسان ويقول إنني قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة وكل كلمة طيبة فإنها صدقة وكذلك يتفكر في ماله فيقول أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلاني فإني مستغن عنه ومهما احتجت إليه رزقني الله تعالى مثله وإن كنت محتاجاً الآن فأنا إلى ثواب الأيثار أحوج مني إلى ذلك المال وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وحيلة بدنه وأمواله بل عن دوابه وغلمانه وأولاده فإن كل ذلك أدواته وأسبابه ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها فيستنبط بديق الفكر وجوه الطاعات للمعونة بها ويتفكر فيما يرغب في البدار إلى تلك الطاعات ويتفكر في إخلاص النية فيها ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات [وأما النوع الثالث فهي الصفات المهلكة التي عملها القلب] فيعرفها بما ذكرناه في ربيع المهلكات وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والتفلة والترور وغير ذلك ويتفقد من قلبه هذه الصفات فإن ظن أن قلبه منزّه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستنباط بالعلاجات عليه فإن النفس أبداً تعد بالحير من نفسها وتخلف فإذا ادعت التواضع والبرائة من الكبر فينفي أن تجرب بحمل حزمة حطب في السوق كما كان الأولون يجربون به أنفسهم وإذا ادعت الحلم تعرض لضرب يناله من غيره ثم يجربها في كظم الغيظ وكذلك في سائر الصفات وهذا تفكر في إنه هل هو موصوف بالصفة الكروية أم لا ولذلك علامات ذكرناها في ربيع المهلكات فإذا دلت العلامة على وجودها فكر في الأسباب التي تقبح تلك الصفات عنده وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة وخبث البخل والرياء في نفسه عجبا بالعمل فيتفكر ويقول إنما عمل يبدني وجارحني وبقدري وإرادتي وكل ذلك ليس مني ولا إلهي وإنما هو من خلق الله وفضله علىّ فهو الذي خلقني وخلق جارحني وخلق قدرتي وإرادتي وهو الذي حرك أعضائي بقدرته وكذلك قدرتي وإرادتي فكيف أعجب بعملي أو بنفسي ولا أقوم لنفسي بنفسى فإذا أحس في نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الخفاة ويقول لها لم ترين نفسك أكبر والكبير من هو عند الله كبير وذلك ينكشف بضد اللوت وكم من كافر في الحال يموت مقرباً إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر وكم من مسلم يموت شقياً

وأبحت جسمي من
أراد جلوسى
فالجسم منى للجلوس
مؤانس
وحبيب قلبي في الفؤاد
أنيسى

وقال مالك بن دينار:
من لم يأنس بمحادثة
الله عن محادثة الخلق
قد قل علمه وعمى
قلبه وضيع عمره .
قيل لبعضهم من معك
في الدار قال الله تعالى
معي ولا يستوحش من
أنس بره . وقال
الحراز: الأنس بمحادثة
الأرواح مع المحبوب
في مجالس القرب .
ووصف بعض العارفين
صفة أهل المحبة
الواصلين فقال: جدد
لهم الود في كل طرفة

(١) حديث إن الله لا يقبل صلاة عبد في ثمن توبه درهم حرام أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه

مجهول وقد تقدم .

بتغير حاله عند الموت بسوء الحجة فاذا عرف أن الكبير مهلك وأن أصله الحماقة فيتفكر في علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال التواضع وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشهره تفكر في أن هذه صفة البهائم ولو كان في شهوة الطعام والوقوع كال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة ولما انصف به البهائم ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن الملائكة المقربين أمد وكذلك يقرر على نفسه في الغضب ثم يتفكر في طريق العلاج وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بد له من تحصيل ما في هذه الكتب [وأما النوع الرابع وهو للنجيات] فهو التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهد في الدنيا والإخلاص والصدق في الطاعات ومحبة الله وتعظيمه والرضا بما آله والشوق إليه والخشوع والتواضع له وكل ذلك ذكرناه في هذا الربع وذكرنا أسبابه وتلاميذه فليتفكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يوزره من هذه الصفات التي هي للقربة إلى الله تعالى فاذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يشرها إلا علوم وأن العلوم لا يشرها إلا أفكار فاذا أراد أن يكتب لنفسه أحوال التوبة والندم فليفتش ذنوبه أولاً وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها وليتحقق عند نفسه أنه معرض لقت الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم وإذا أراد أن يستتير من قلبه حال الشكر فليتنظر في إحسان الله إليه وأياديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه على ما شرحنا بعضه في كتاب الشكر فليطالع ذلك وإذا أراد حال المحبة والشوق فليتنظر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه كما سنشير إلى طرف منه في القسم الثاني من الفكر وإذا أراد حال الخوف فليتنظر أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة ثم لينظر في الموت وسكراته ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقابه وديدانه ثم في هول النداء عند نفخة الصور ثم في هول الحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ثم في الناقشة في الحساب والمضايقة في التقدير والعظيم ثم في الصراط ودقته وشدته ثم في خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار أو يصرف إلى اليمين فيزال دار القرار ثم ليحضر بعد أحوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاها ومقامها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقومها وصديدها وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية الموكلين بها وأنهم كما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد صموا لها تغيظاً وزفيراً وهلم جرا إلى جميع ما ورد في القرآن من شرحها وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء فليتنظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها للقيم وملسكها الدائم فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي تشر اجتلاب أحوال محبوبة أو التنزه عن صفات مذمومة وقد ذكرنا في كل واحد من هذه الأحوال كتاباً مفرداً يستعان به على تفصيل الفكر أما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكير فإنه جامع لجميع اللقائات والأحوال وفيه شفاء للعالمين وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال وفيه ما يزرع عن سائر الصفات الذمومة فينبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكير فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة فقراءة آية بتفكير وفهم خير من ختمه بغير تدبر وفهم فليتوقف في التأمل فيها ولو ليلة واحدة فإن تحت كل كلمة منها أسراراً لا تحصر ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق العامة وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قد أوتي جوامع الكلم (١) وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم تقدم.

بدوام الاتصال وآوام
في كنفه بمخائق
السكون إليه حتى
أنت قلوبهم وحت
أرواحهم شوقاً وكان
الحب والشوق منهم
إشارة من الحق إليهم
عن حقيقة التوحيد
وهو الوجود بالله
فذهبت مناهم وانقطعت
آمانهم عنده لما بان
منه لهم ولو أن الحق
تعالى أمر جميع الأنبياء
يسألون لهم ما سأله
بعض ما أعد لهم من
قديم وحدانيته ودوام
أزليته وسابق علمه
وكان نصيبهم معرفتهم
به وفراغ همهم عليه
واجتماع أهوائهم فيه
فصار بحسبهم من
عبيده الموم أن

العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم «إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة وعش ماشئت فانك ميت واعمل ماشئت فانك مجزى به» (١) فان هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين وهي كافية لتأملين فيها طول العمر إذلو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقهم والحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالسكينة فهذا هو طريق الفكر في علوم العاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله تعالى أو مسكروها والبتدي ينفي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة ويزه باطنه وظاهره عن السكاره وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هو له غاية للطلب بل المشغول به محبوب عن مطلب الصديقين وهو التعم بالفكر في جلال الله تعالى وجماله واستغراق القلب بحيث ينفي عن نفسه أى ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحجوب كالعاشق المستتر عند لقاء الحبيب فإنه لا يتفرغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها بل يبقى كالمهتوت الغافل عن نفسه وهو منتهى لذة المشاق . فأما ما ذكرناه فهو تفكير في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال فاذا ضيع جميع عمره في إصلاح نفسه فحق يتعم بالقرب ولذلك كان الخواص يدور في البوادي فلقية الحسين بن منصور وقال فيم أنت؟ قال أدور في البوادي أصلح حالي في التوكل فقال الحسين أفيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد فالفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصديقين . وأما التزه عن الصفات للمهلكات فيجربى مجرى الخروج عن العدة في النكاح . وأما الانصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجربى مجرى تهيئة المرأة جهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها فان استغرقت جميع عمرها في تبرئة الرحم وتزيين الوجه كان ذلك حجابا لها عن لقاء المحبوب ، فهكذا ينفي أن تهم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة وإن كنت كالعبد السوء لا يتحرك إلا خوفا من الضرب وطعنا في الأجرة فدونك وإتمام البدن بالأعمال الظاهرة فان بينك وبين القلب حجابا كثيرا فاذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الجنة ولكن للرجال أقوام آخرون وإذا عرفت مجال الفكر في علوم العاملة التي بين العبد وبين ربه فينبغي أن تتخذ ذلك عادتك وديدتك صباحا ومساء فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك للبعدة من الله تعالى وأحوالك للقربة إليه سبحانه وتعالى بل كل مريد فينبغي أن يكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات للمنجات وجملة المعاصي والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم ، ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة فإنه إن سلم منها سلم من غيرها وهي البخل والكبر والعجب والرياء والحسد وشدة الغضب وشراه الطعام وشراه الوقوع وحب المال وحب الجاه . ومن المنجات عشرة : الندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء ، والزهد في الدنيا ، والاحلاص في الأعمال ، وحسن الخلق مع الخلق ، وحب الله تعالى ، والخشوع له . فهذه عشرون خصلة عشرة مذمومة وعشرة محمودة فهما كفي من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته ويدع الفكر فيها ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على نحو أقل الرذائل عن نفسه فيقبل على التهمة الباقية وهكذا يفعل حتى يحيط على الجميع ، وكذا يطالب نفسه بالانصاف بالمنجات ، فاذا انصف بواحدة منها كالتوبة والنعم مثلا خط عليها واشتغل بالباقي ، وهذا يحتاج إليه المريد المشمر .

(١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم غير مرة

رفع عن قلوبهم جميع
المهموم . وأنشد في
معناه
كانت قلبي أهواء
مفرقة
فاستجمت إذا رأتك
النفس أهوائ
فصار يحدني من
كنت أحسنه
وصرت مولى الورى
مدصرت مولائى
تركت للناس دينام
ودينهم
علا بد كرك ياديني
ودنيائى
وفد يكون من الأنس
الأنس بطاعة الله
وذكره وتلاوة كلامه
وسائر أبواب القربات
وهذا القدر من الأنس
نعمة من الله تعالى
ومنحة منه ولكن

وأما أكثر الناس من المدودين من الصالحين فينبغي أن يشبوا في جرائم المعاصي الظاهرة كأكل الشبهة وإطلاق اللسان بالغيبة والتمية والراء والثناء على النفس والافراط في معاداة الأعداء، وموالاته الأولياء والداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه وما لم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بصمارة القلب وتطهيره بل كل فريق من الناس يضل عليهم نوع من العصية فينبغي أن يكون تقدم لها وتفكرهم فيها لافي معاصيهم بمنزل عنها. مثاله العالم الورع فإنه لا يخلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت إماما بتدريس أو بالوعظ ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون فإنه إن كان كلامه مقبولا حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزين والتصنع وذلك من الهلكات وإن رد كلامه لم يخل عن غيظ وأتفة وحقد على من يرده وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره وقد يلبس الشيطان عليه ويقول إن غيظك من حيث إنه رد الحق وأنكره فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرذائل والأعراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد حرصا على استحلاب الثناء والله لا يحب التكلفين والشيطان قد يلبس عليه ويقول إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها لنشر الحق وبحسن موقعه في القلب إعلاء لدين الله فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع وإنما يدورون حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراماً ويكون بلقائه أشد فرحا واستبشاراً ممن يغلو في موالاته غيره وإن كان ذلك الغير مستحقا للموالاته وربما ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتفأروا وتفأروا النساء فيشقى على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه وكل ذلك رشع الصفات المهلكات المستكنة في سر القلب التي قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات فتنة العالم عظيمة وهو إمام مالك وإمام مالك ولا مطمع له في سلامة العوام فمن أحس في نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى مهما مثل فقد كان المسجد محوى في زمن الصحابة رضى الله تعالى عنهم جمعا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم مفتون وكانوا يتدافعون الفتوى وكل من كان يفتى كان يود أن يكفيه غيره وعند هذا ينبغي أن يتقى شياطين الأنس إذا قالوا لا تفعل هذا فإن هذا الباب لو فتح لاندردت العلوم من بين الخلق ولتقل لهم إن دين الإسلام مستغن عنى فإنه قد كان معمورا قبلى وكذلك يكون بعدى ولومت لم تهتم أركان الإسلام فإن الدين مستغن عنى وأما أنا فلست مستغنيا عن إصلاح قلبى، وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل فإن الناس لو حسبوا في السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرياسة والعلو يحلمهم على كسر القيود وهضم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم فالعلم لا يندرس مادام الشيطان يحبب إلى الخلق الرياسة والشيطان لا يفتقر عن عمله إلى يوم القيامة بل يتهم لنشر العلم أقوام لا نصيب لهم في الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم»^(١) و«إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»^(٢) فلا ينبغي أن يغتر العالم بهذه التلبسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى في قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فإن ذلك يذلل النفاق

(١) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم تقدم (٢) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر تقدم أيضا في العلم.

ليس هو حال الأنس الذى يكون للجهين والأنس حال شريف يكون عند طهارة الباطن وكنسه بصدق الزهد وكمال التقوى وقطع الأسباب والملائق ومحو الخواطر والهواجس وحقيقته عندى كنس الوجود بثقل لأع العظمة وانتشار الروح في ميادين الفتح وله استقلال بنفسه يشتمل على القاب فيجمعه به عن الهيبة وفي الهيبة اجتماع الروح ورسوبه إلى عمل النفس وهذا الذى وصفناه من أنس القادات وهيبة القادات يكون في مقام البقاء بعد الصبور على

قال صلى الله عليه وسلم « حب الجاه والسال ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل (١) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر إفساداً فيها من حب الجاه والمال في دين المرء المسلم (٢) » ولا ينقل حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس والمهرب من محالطتهم وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم فليكن العالم في التنفطن حثفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها وهذه وظيفة العالم المتقي فأما أمثالنا فينبغي أن يكون تفكيرنا فيما يقوى إيماننا بيوم الحساب إذ لو رأنا السلف الصالحون لقالوا قطعاً إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب فأعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار فان من خاف شيئاً هرب منه ومن رجس شيئاً طلبه وقد علمنا أن الهرب من النار بترك الشهوات والحرام وبترك المعاصي ونحن منهمكون فيها وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون في الفرائض منها فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا والتكالب عليها ويقال لو كان هذا مذموماً لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا فليتنا كنا كالعوام إذ امتنا ماتت معنا ذنوبنا لما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا فنسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا النعم علينا فهذه مجاري أفكار العلماء والصالحين في علم العمالة فان فرغوا منها انقطع التفاهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التفكير في جلال الله وعظمته والتبتم بمشاهدته بعين القلب ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع اللهكات والانصاف بجميع النجيات وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولاً معلولاً مكدراً مقطوعاً وكان ضعيفاً كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ويكون كالعاشق الذي خلا بمشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتغص عليه لذة الشهادة ولا طريق له في كمال التبتم إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه وهذه الصفات الذمومة عقارب وحيات وهي مؤذيات ومشوشات وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات فهذا القدر كاف في التنبيه على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربه تعالى . القسم الثاني الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه ، وفيه مقامان المقام الأعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذات الله وذلك لأن العقول تحير فيه فلا يطيق مد البصر إليه إلا الصديقون ثم لا يطيقون دوام النظر بل سائر الخلق أحوال أباصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الحفاش بالإضافة إلى نور الشمس فانه لا يطيقه البتة بل يخفى نهاراً وإنما يتردد ليلاً ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض وأحوال الصديقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس فانه يقدر على النظر إليها ولا يطيق دوامه ويخفى على بصره لو أدام النظر ونظيره المختطف إليها يورث العمش ويفرق البصر وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والذهش واضطراب العقل فالصواب إذن أن لا يتعرض لمجاري الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته فان أكثر العقول لا تحتمله بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء وهو أن الله تعالى مقدس عن اللسان ومنزه عن الأقطار والجهات وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطيعوا وأسماعه ومعرفة بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم إنه يتعاطف ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو وأن يكون جسماً مشخصاً له مقدار وحجم فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله حتى قال بعض الحق من العوام إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإله لظن المسكين أن الجلالة

(١) حديث حب المال والجاه يفتت النفاق في القلب الحديث تقدم (٢) حديث ما ذئبان جاثان أرسلا في زريبة غنم الحديث تقدم .

محر الفناء وما غير
الأنس والهية اللذين
ينهبان بوجود الفناء
لأن الهية والأنس
قبل الفناء ظهرا من
مطالعة الصفات من
الجلال والجمال وذلك
مقام التلوين وما ذكرناه
بعد الفناء في مقام
التمكين والبقاء من
مطالعة الذات ومن
الأنس خضوع النفس
للمطعنة ومن الهية
خشوعها والخضوع
والخشوع يتقاربان
ويفترقان بفرق لطيف
يدرك بإسماء الروح.
ومنها القرب قال الله
تعالى لنبيه عليه الصلاة
والسلام - واسجد
واقرب - وقد ورد
« أقرب ما يكون العبد

والعظمة في هذه الأعضاء وهذا لأن الانسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه ، نعم غاية أن يقدر نفسه جميل الصورة جالساً على سريره وبين يديه غلمان يتتلون أمره فلا جرم غايته أن يقدر ذلك في حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم العظمة بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لحاقلك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك وقال كيف يكون خالقي أتقص مني أف يكون مقصوص الجناح أو يكون زماً لا يقدر على الطيران أو يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثاها وهو خالقي ومصوري وعقولي أكثر الخلق قريب من هذا العقل وإن الانسان الجهول ظلوم كفار . ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لا تخبر عبادي بصفاتي فينكروني ولكن أخبرهم عنى بما يفهمون . ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته محظراً من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصالح الخلق أن لا يتعرض لمجاري الفكر فيه لكننا نعدل إلى المقام الثاني وهو النظر في أفعاله ومجاري قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه فانها تدل على جلالة وكبريائه وتقدسه وتعاليه وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته فينظر إلى صفاته من آثار صفاته فإننا لانطبق النظر إلى صفاته كما أنا نطبق النظر إلى الأرض مهما استتارت بنور الشمس ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب لأن نور الأرض من آثار نور الشمس والنظر في الآثار يدل على المؤثر دلالة ما وان كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته بل لاظلمة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس إذ قوام وجود الأشياء بذاته اليوم بنفسه كأن قوام نور الأجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه ويمكن النظر إليها فيكون الماء واسطة يفيض قليلاً من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا ننهر بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال فهذا سر قوله ﷺ « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله تعالى » .

(بيان كيفية التفكير في خلق الله تعالى)

اعلم أن كل مافي الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقته وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف قضيا عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته وإحصاء ذلك غير ممكن لأنه لو كان البحر مدادا لكدت البحر قبل أن ينفد عشر عشره ولكننا نشير إلى جملته ليكون ذلك كالمثال لما عدها . فنقول للوجودات الخلوقة منقسمة إلى مالا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكير فيها وكم من للوجودات التي لانعلمها كما قال الله تعالى - ويخلق ما لاتعلمون - سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنعمهم وما لا يلمون - وقال - وننشئكم فيها لاتعلمون - وإلى ما يعرف أصلها وجملتها ولا يعرف تفصيلها فيمكننا أن نتفكر في تفصيلها وهي منقسمة إلى ما أدر كناه بحس البصر وإلى مالا ندركه بالبصر أما الذي لاندركه بالبصر فكاللائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويضمض فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهي المدركات بحس البصر وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما فالسموات مشاهد بكواكبها وقمرها ونهارها وحركتها ودوراتها في طلوعها وغروبها والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بنومها وأمطارها وثلوجها ورعداها وبرقها وصورها وعتقها وشهبها وعواصفها فإحاطة بهذه هي الأجناس الشاهدة من السموات والأرض وما بينهما وكل جلس منها ينقسم إلى أنواع وكل نوع ينقسم إلى أقسام ويتشعب كل قسم

من ربه في سجوده »
فالساجد إذا ذيق طعم
السجود يقرب لأنه
يسجد ويطوى
بسجوده بساط الكون
ما كان وما يكون
ويسجد على طرف
رداء العظمة فيقرب .
قال بعضهم إنى لأجد
الحضور فأقول يا الله
أو يارب فأجد ذلك
على أتقل من الجبال
قيل ولم قال لأن النداء
يكون من وراء حجاب
وهل رأيت جليسا
ينأى جليسه وإنما
هي إشارات وملاحظات
ومتناغاة وملاطقات
وهذا الذي وصفه مقام
عزيز متحقق فيه
القرب ولكنه مشعر
بمحو ومؤذن بسر

إلى أصناف ولا نهاية لانشباب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهياته ومعانيه الظاهرة والباطنة وجميع ذلك مجال التفكير فلا تتحرك ذرة في السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلاله وكبريائه وهي الآيات الدالة عليه ، وقد ورد القرآن بالحث على التفكير في هذه الآيات كما قال الله تعالى - إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الألباب - وكما قال تعالى - ومن آياته - من أول القرآن إلى آخره ، فلنذكر كيفية التفكير في بعض الآيات ، فمن آياته الانسان المخلوق من النطفة وأقرب شيء إليك نفسك وفيك من الصنائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر وعشيرة وأنت غافل عنه ، فيامن هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال - وفي أنفسكم أفلا تبصرون - وذكر أنك مخلوق من نطفة قدرة فقال - قتل الانسان ما أكفره من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه قدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره - وقال تعالى - ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا تم بشر تنشقون وقال تعالى ألم يك نطفة من ميثم يمتن ثم كان علقة مخلوق فسوى - وقال تعالى - ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم - وقال - أولم ير الانسان أنا خلقنا من نطفة فاذا هو خصيم مبين وقال - إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج - ثم ذكر كيف جعل النطفة والعلقة مضغاً وللضغنة عظاماً فقال تعالى - ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة - الآية ، فتكرر ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليعلم لفظه ويترك التفكير في معناه فانظر الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء قدرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنت كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم وكيف قدم بسلسلة المحبة والصحوة إلى الاجتماع وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الولاغ وكيف استجلب دم الحيض من أعماق المروق وجمعه في الرحم ، ثم كيف خلق الولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر ، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء ثم كيف جعلها مضغاً ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلى العظام والأعصاب والمروق والأوتار واللحم ثم كيف ركب من اللحم والأعصاب والمروق الأعضاء الظاهرة فدور الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ثم مديد الرجل وقسم رءوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأظفار ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والعدة والسكبد والطحال والرئة والرحم والثالثة والأمعاء كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لمعمل مخصوص ، ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لوقفت طبقة منها أوزالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار فلو ذهبنا إلى أن نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من المعجائب والآيات لا نقضى فيه الأعمار فانظر الآن إلى المظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيصة رقيقة ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ، ولما كان الانسان محتاجاً إلى الحركة بجملة بدنه وبعض أعضائه مقتررا للتردد في حاجاته لم يجعل عظمه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى تيسر بها الحركة وقدرة شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتنا من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم

يكون ذلك لمن غابت
نفسه في نور روحه
لغلبة سكره وقوة محوه
فاذا صحوا أفاق تتخلص
الروح من النفس
والنفس من الروح
ويعود كل من الصبد
إلى محله ومقامه فيقول
يا الله ويلرب بلسان
النفس للطمثنة العائدة
إلى مقام حاجتها وهل
ميسوديتها والروح
تستقل بفتوحه وبكمال
الحال عن الأقوال
وهذا أتم وأقرب من
الأول لأنه وفي حق
القرب باستقلال الروح
بالتفوح وأقام رسم
العسودية بهود حكم
النفس إلى محل الانتقار
وحظ القرب لا يزال

الآخر كالرباط له ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفرًا خاصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتطبق عليها فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يتمتع عليه ولولا للفواصل لتعذر عليه ذلك ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها وقدر كهبان خمسة وخمسين عظامًا مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه فثمة ستة تحمص القحف وأربعة عشر للحمي الأعلى واثنتان للحمي الأسفل والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الأنياب والأضراس والثنايا ثم جعل الرقبة مركبة للرأس وركبها من سبع خرزات مجوّفات مستديرات فيها تحريفات وزادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر وجه الحكمة فيها ثم ركب الرقبة على الظهر وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة فيتصل به من أسفله عظم الصمص وهو أيضا مؤلف من ثلاثة أجزاء ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ، فلانطول بذكر عدد ذلك ومجموع عدد العظام في بدن الانسان ما تناه عظم وعمانية وأربعون عظاما سوى العظام الصغيرة التي حشى بها خلل الفواصل فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة ، وليس للقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها فان هذا علم قريب يعرفه الأطباء وللشرحون وإنما الغرض أن ينظر منها في مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها وادبرها وخالف بين أشكالها وأقذارها خصصها بهذا العدد المخصوص لأنه لو زاد عليها واحدا لكان وبالا على الانسان يحتاج إلى قلعه ولو نقص منها واحدا لكان قصانا يحتاج إلى جبره فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها فشتان بين النظرين ، ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات تخلق في بدن الانسان خمسمائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة ، والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية ، وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها لو قصت واحدة من جعلتها اخلت أمر العين وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص وأمرا الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله وشرحه يطول ، فلنذكر مجال في آحاد هذه الأجزاء ثم في آحاد هذه الأعضاء ثم في جملة البدن فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم ، فانظر الآن إلى ظاهر الانسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فتري به من العجائب والصنعة ما يقضى به العجب وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قدرة تترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها وما حكته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقتها ومغاربها فلانظن أن ذرة من ملكوت السموات تفك عن حكمة وحكم بل هي أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع للعجائب من بدن الانسان بل لانسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات ولذلك قال تعالى - أنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليها وأخرج ضحاها - فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت إليه ثانيا وتأمل أنه لو اجتمع الجن والانس على أن يخلقوا للنطفة صمعا وبصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا أو خلقوا فيها عظاما أو عرقا أو عصبان أو جلد أو شعرا هل يقدرون على ذلك بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه فالحمد لله الذي نظر إلى صورة

بتوفر نصيب الروح باقامة رسم العبودية من النفس . وقال الجنيدي إن الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه فانظر ماذا يقرب من قلبك . وقال أبو يعقوب السوسى مادام العبد يكون بالقرب لم يكن قريبا حتى يقرب عن رؤية القرب بالقرب فإذا ذهب عن رؤية القرب بالقرب فذلك القرب وقد قال قائلمهم: قد تحققتك في الله ر ففاجاك لساني فاجتصنا لمعان واقترنا لمعان

إنسان مصور على حائط تأتى النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الانسان وقال الناظر إليها كأنه إنسان عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم في قلبك عمله مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالسبع والقلم واليد والحائط وبالقدرة والعلم وبالارادة وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره وإنما منتهى فعله الجمع بين السبع والحائط على ترتيب مخصوص فيكبر تعجبك منه وتستعظمه وأنت ترى النطفة القدرة كانت معدومة غلقها خالقها في الأصلاب والترائب ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها وقسم أجزائها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها وجعلها مبيعة بصيرة عالة ناطقة وخلق لها الظهر أساسا لبدنها والبطن حاويا لآلات غذائها والرأس جامعا لحواسها ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهياتها ثم حماها بالأجفان لئلا تسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقداء عنها ثم أظهر في مقدار عدمة منها صورة السموات مع اتساع أكتافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها ثم شق أذنيه وأودعها ماء مرا ليحفظ معها ويدفع الهواء عنها وحوطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت قدره إلى صاخبها ولتحمس بديبب الهواء إليها وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فينتبه من النوم صاحبها إذا قصدتها دابة في حال النوم ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته وليستنشق بمنفذ للنخريين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه وفتح الفم وأودع اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا مما في القلب وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدد رءوسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متاسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه ولتحمها حروف الكلام وخلق الخنجره وهياها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت في محارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها ثم خلق الخناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة واللباسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقا حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ وزين الوجه باللحية والحاجبين وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل وزين العينين بالأهداب ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفضل مخصوص فسخر للمعدة لنضج الغذاء والسكبد لإحالة الغذاء إلى الدم والطحال والمرارة والسكبد لخدمة السكبد فالطحال يخدمها يجذب السوداء عنها والمرارة تخدمها يجذب الصفراء عنها والسكبد يخدمها يجذب للثابتة عنها والثابتة تخدم السكبد بقبول الماء عنها ثم تخرجه في طريق الإحليل والعروق تخدم السكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد إلى اللقاصد وعرض الكف وقسم الأصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ووضع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجها آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء فان بسطها كانت له طبعا يضع عليها ما يريد وإن جمعها كانت له آلة للضرب وإن ضمها

إن يكن غيبك التمد
ظلم عن لحظ عيان
فلقد صبرك الوج
مد من الأحشاء داني
قال ذو النون ما ازداد
أحد من الله قرابة إلا
ازداد هيبه . وقال
سهل أدنى مقام من
مقامات القرب الحياء
وقال الصرا باذى
باتباع السنة تال
المسرفة وبأداء
الفرأض تال القرية
وبالمواظبة على النوافل
تال الهبة . ومنها
الحياء والحياء على
الوصف العام والوصف
الحاص فأما الوصف
العام فما أمر به رسول
الله صلى الله عليه وسلم
في قوله «استحيوا من
الله حق الحياء قالوا

ضما غير تام كانت مفرقة له وإن بسطها وضم أصابعها كانت مجرقة له ثم خلق الأظفار على رءوسها زينة للأنامل وعماد لها من ورائها حتى لا تنقطع ويلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل وليحك بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذي هو أخس الأجزاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكة لكان أهجر الخلق وأضعفهم ولم يتم أحد مقامه في حرك بدنه ثم هذى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والنفضة من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بغيره لم يثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث ولو كشف الغطاء والقشاء وامتد البصر إليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها هيئا فشيئا ولا يرى الصور ولا آله فهل رأيت مصورا أو فاعلا لا يمس آله ومصنوعه ولا يلاقه وهو يتصرف فيه فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه ، ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته فانه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبيل حتى تتكس ونحرك وخرج من ذلك الضيق وطلب للنفذ كأنه قائل بصبر بما يحتاج إليه ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التمام الذي ثم لما كان بدنه سخيلا لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين القرث والدم سائقا خالصا وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأبنت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي ثم فتح في حلمة الثدي قبا ضيقا جدا حتى لا يخرج اللبن منه إلا بدللص تدريجا فان الطفل لا يطبق منه إلا القليل ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك الضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين لأنه في الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغنى عن السن وإذا كبر لم يواقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ ويحتاج الطعام إلى الضغ والطحن فأبنت له الأسنان عند الحاجة لاقبلها ولا بعدها فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك الثبات البينة ثم حثن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزا عن تدبير نفسه فلم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه ، ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والمهذبة تدريجا حتى بلغ وتكامل فصار مرافقا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا إما كفورا أو شكورا مطبعا وأصايا مؤمنا أو كافرا تصديقا لقوله تعالى - هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميما بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا - فانظر إلى اللطف والكرم ثم إلى القدرة والحكمة بهزك هجاب الحضرة الربانية والسبب كل العجب ممن يرى خطأ حسنا أو نقشا حسنا على حائط فيستحسنه فيصرف جميع همه إلى التفكير في النقاش والخطاط وأنه كيف نفسه وخطه وكيف اتحد عليه ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول ما أحذقه وما أكل صنمته وأحسن قدرته ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم ينقل عن صانعه ومصوره فلا تدهشه عظمته ولا يهجره جلاله وحكته فهذه نبذة من هجاب بدئك التي لا يمكن استقصاؤها فهو أقرب مجال لتسكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت قائل عن ذلك مشغول يطنك وفرجك لا تعرف من تسكك إلا أن نجوع فتأكل وتشبع فتنام وتنتهي فتجتمع وتنضب فتقاتل والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك وإنما خاصة الإنسان التي حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض وهجاب الأفاق والأنفس إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة القربين ويعشر في زمرة النبيين والصدقيين مقربا من حضرة رب العالمين وليست هذه النزلة للبهائم ولا لإنسان رضى من الدنيا بشهوات البهائم فانه شر من البهائم بكثير إذ لا قدرة

إنا نستحي يا رسول الله قال ليس ذلك ولكن من استجيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى ولينذر الموت والبلوى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استجيا من الله حق الحياء « وهذا الحياء من اللصقات وأما الحياء الخاص فمن الأحوال وهو ما نقل عن عثمان رضي الله عنه أنه قال إني لأغسل في البيت للظلم فأطوى حياء من الله . أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن قال سمعت أبا العباس الجبدي يقول سمعت أحمد السقطي

البيحة على ذلك وأما هو قد خلق الله له القدرة ثم عطّلها وكفر نعمة الله فيها فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وإذ اعرفت طريق التفكير في تفكير في الأرض التي هي مقرّك ثم في أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات . أما الأرض : فمن آياته أن خلق الأرض فراشا ومهادا وسلك فيها سبلا فجاءا وجعلها ذلولا لتحشوا في مناكبها وجعلها قارة لاتتحرك وأرسي فيها الجبال أوتادا لها تمنعها من أن تميد ثم وسع أكنافها حتى يحجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثرت تطوافهم فقال تعالى - والسماء بنيانها بأيد وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم للهادون - وقال تعالى هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها - وقال تعالى - الذي جعل لكم الأرض فراشا - وقد أكرر في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها فظهرها مقرّ للأحياء وبطنها مرقد للأموات قال الله تعالى - ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا - فانظر إلى الأرض وهي ميتة فاذا أنزل عليها للواء اهتزت وربت واخضرت وأنبئت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف أودع للياه نحتها فقبحر الميون وأسأل الأنهار تجري على وجهها وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ما رقيقا عذبا صافيا زلالا وجعل به كل شيء حتى فأخرج به فون الأحجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة لأعصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأرايح يفضل بعضها على بعض في الأكل تسمى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة . فان قلت إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها فمحق كان في النواة نطفة مطوقة بتقيد الرطب ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنة مائة حبة ثم انظر إلى أرض البوادي وفتش ظاهرها وباطنها اقرأها تراها مشاهبا فاذا أنزل عليها للواء اهتزت وربت وأنبئت من كل زوج بهيج ألوانا مختلفة ونباتا متشابهوا غير متشابه لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير النافع الفرية فهذا النبات يغذي وهذا يقوى وهذا يحيى وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا إذا حصل في المدة قلع الصفراء من أمهات المروق وهذا يستحيل إلى الصفراء وهذا يجمع البلغم والسوداء وهذا يستحيل إليها وهذا يصفي الدم وهذا يستحيل دما وهذا يفرح وهذا ينوم وهذا يقوى وهذا يضعف فلم تثبت من الأرض ورقة ولا تينة إلا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربته إلى عمل مخصوص فالتخلل تؤبر والسكرم يكسح والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل وبعض ذلك يستتبت بيت البلر في الأرض وبعضه يفرس الأغصان وبعضه يركب في الشجر ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لاقضت الأيام في وصف ذلك فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق التفكير فهذه عجائب النبات [ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الأرض] ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروز والزمرد واللؤلؤ وغيرها بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد وبعضها لا ينطبع كالفيروز والزمرد واللؤلؤ وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الأواني والآلات والنقود والحلى منها ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والسكريت والقار وغيرها وأقلها للملح ولا يحتاج إليه إلا لتطيب الطعام ولو خلّت عنه بلة لتسارع الهلاك إليها فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبعة بجورها بحيث يجتمع فيها للواء الصافي من الطير فيستحيل ملعا مالحا محرقا لا يمكن تناول مثقال منه

ابن صالح يقول سمعت
محمد بن عبدون يقول
سمعت أبا العباس
المؤدب يقول قال لي
سرى : احفظ عنى
ما أقول لك إن الحياء
والأنس يطوفان
بالقلب فاذا وجد فيه
الزهد والورع حطا
وإلرحلا والحياء
إطراق الروح إجلالا
لعظيم الجلال والأنس
التساذ الروح بكال
الجمال فاذا اجتمعا
فهو الغاية في المنى والنهاية
في العطاء وأنشد
شيخ الاسلام :
أشتاقه فاذا بدا
أطرق من إجلاله
لاخيفة بل هية
وصيانة لجماله
الموت في إداره
والعيش في إقباله

ليكون ذلك تطييباً لطعامك إذا أكلته فيهنأ عيشك وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ما خلق شئ منها عيشاً ولا لباً ولا هزل إلا بل خلق الكل بالحق كما ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي وكما يليق بجلاله وكرمه واطفه ولذلك قال تعالى - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا عيين ما خلقناهما إلا بالحق . ومن آياته أصناف الحيوانات: وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يعيش وانقسام ما يعيش إلى ما يعيش على رجلين وإلى ما يعيش على أربع وعلى عشر وعلى مائة كما يشاهد في بعض الحشرات ثم انقسامها في النافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع فانظر إلى طيور الجوارح وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية ترى فيها من العجائب ما لا تشك معه في عظمتها وقدرتها وحكمة مصورها وكيف يمكن أن يستغنى ذلك بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقعة أو النحلة أو النحلة أو الضفادع وهي من صفات الحيوانات في بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها وفي إلفها لزوجها وفي ادخالها لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها إلى حاجاتها لم تقدر على ذلك قري الضفادع يبنى بيته على طرف نهر فيطلب أولاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع لها دونه حتى يمكنه أن يصل بالحيط بين طرفيه ثم يتدلى ويلقى اللعاب الذي هو خيطه على جانب يلتصق به ثم ينفذ إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الحيط ثم كذلك يتردد ثانياً وثالثاً ويجعل بعد ما بينهما متناسبا تناسباً هندسياً حتى إذا أحكم معاقده القمط ورب الحبوط كالسدى اشتغل باللحمة فيضع اللحمة على السدى ويضيف بضعه إلى بعض ويحكم القمط على موضع التقاء اللحمة بالسدى ويراعى في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب ويقعد في زاوية مترصداً لوقوع الصيد في الشبكة فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله فان عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقي منكس في الهواء ينتظر ذبابة تطير فإذا طارت رمى بنفسه إليه فأخذه ولف خيطه على رجله وأحكمه ثم أكله وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كونه آدمى أو علمه أو لا هادي له ولا معلم أو يشك ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز بل القليل العظيم شخصه الظاهرة قوته عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف أفلا يشهد هو بشكاه وصورته وحركته وهداياته وعجائب صنعه لظاهره الحكيم وخالقه القادر العليم فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق للبر وجلاله وكآل قدرته وحكمته ما تعجب فيه الألباب والعقول فضلاً عن سائر الحيوانات وهذا الباب أيضاً لا حصر له فان الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنها أكثر المشاهد ، نعم إذا رأى حيواناً غريباً ولودوداً تجدد تعجبه وقال سبحان الله ما أعجبه والاسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر إلى الأنعام التي ألها ونظر إلى أشكالها وصورها ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباساً لحلقه وأكافاً لها ثم في ظنهم وإقامتهم وآنية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصواناً لأقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للوادي والقفارات البعيدة لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها فانه ما خلقها إلا يعلم محيط بجميع منافعها سابق على خالقها إياها سبحانه من الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكير ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استمالة بوزر أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم التقدير فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب المعارفين بتوحيده فما للخلق إلا الأذعان لقمه وقدرته والاعتراف بربوبيته والافتقار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته فمن ذا الذي يحصى ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته

وأصد عنه إذا بدا وأروم طيف خياله قال بعض الحكماء من تكلم في الحياة ولا يستحي من الله فيها يتكلم به فهو مستدرج . وقال ذوالنون: الحياة وجود الهيبة في القلب مع حشمة ما سبق منك إلى ربك . وقال ابن عطاء . العلم الأكبر الهيبة والحياة فإذا ذهب عنه الهيبة والحياة فلا خير فيه . وقال أبو سليمان : إن العباد عملوا على أربع درجات على الخوف والرجاء والتعظيم والحياة وأشرفهم منزلة من عمل على الحياة لما أيقن أن الله تعالى يراه على كل حال

معرفة فسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدائه بمنه ورافته . ومن آياته البحار العميقة المكتشفة لأقطار الأرض التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض حتى إن جميع المكشوف من البوادي والجبال من الماء بالإضافة إلى الماء بجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء . قال النبي صلى الله عليه وسلم « الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض ^(١) » فالنسب اصطبل إلى جميع الأرض . واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها فتأمل الآن عجائب البحار فأن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض كما أن سمته أضعاف سمعة الأرض ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فربما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرك ويعلم أنها حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو إنسان إلا وفي البحر أمثاله وأضماؤه وفيه أجناس لا يعد لها نظير في البر وقد ذكرت أو صافها في مجلدات وجميعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره في صدفة تحت الماء وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر ثم تأمل ما عدها من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسيرها للتجار وطلاب الأموال وغيرهم وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ثم عرف لللاحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها ولا يستنصى على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلدات وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيال مشغف متصل الأجزاء كأنه شيء واحد لطيف التركيب سريع التبول للتطبيع كأنه منفصل مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في تحصيلها لو هلك ذلك ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في إخراجها فالمعجب من آدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويفعل عن نعمة الله في شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها فتأمل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار فيها متسع للفكر ومجال وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفضحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته فيها منادية أرباب القلوب بنفقاتها قائلة لكل ذي لب أماراتي وترى صورتي وتركيبى وصفاتي ومنافعي واختلاف حالاتي وكثرة فوائدني أنظن أنني كونهت نفسي أو خلقتي أحد من جنس أو ما تستحي أن تنظر في كلمة مر قومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدمي عالم قادر مريد متكلم ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية للرقومة على صفحات وجهي بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب لا للذين هم عن السمع معزولون توهمني في ظلمة الأحشاء مغموسة في دم الخيض في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي فينقش النقاش حدقتي وأجفاني وجهي وخدي وشفقي فترى التقويس يظهر شيئا فشيئا على التدرج ولا ترى داخل النطفة نقاشا ولا خارجها ولا داخل الرحم ولا خارجة ولا خبر منها للأُم ولا للآب وللنطفة وللرحم أم شاهد النقاش بأعجب مما تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته فهل تقدر على أن تعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي يعم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير

(١) حديث الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض تقدم ولم أجده .

استحيا من حسنة
أكثر مما استحيا
العاصون من سيئاتهم .
وقال بعضهم : الغالب
على قلوب المستحيين
الاجلال والتعظيم دائما
عند نظر الله إليهم .
ومنها الاتصال . قال
النوري : الاتصال
مكاشفات القلوب
ومشاهدات الأسرار .
وقال بعضهم الاتصال
وصول السر إلى مقام
الدهول وقال بعضهم
الاتصال أن لا يشهد
العبد غير خالق
ولا يتصل بسره خاطر
لتعير صانعه . وقال .
سهل بن عبد الله
حركوا بالبلاء فتحركوا
ولو سكنوا اتصلوا .
وقال عبي بن معاذ

اتصال بها لا من داخل ولا من خارج فان كنت لاتعجب من هذه العجائب ولا تفهم بها أن الذي صور
ونقش وقدر لانظير له ولا يساويه نقاش ولا مصور كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وضع فبين
الفاعلين من المباني والتباعد ما بين الفاعلين فان كنت لاتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فانه
أعجب من كل عجب فان الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنك من التبيين مع هذا البيان
جدير بأن تعجب منه فسبحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحابيه
فشاهدوه في جميع ذرات العالم وأجزائه وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بزمه وعلائقه الخلق
والأمر والامتثال والفضل واللطف والقهر لاراد لحكمه ولا معقب لقضائه [ومن آياته الهواء اللطيف
الحيوس بين مقر السماء ومهدب الأرض] لا يدرك بحس المس عند هبوب الرياح جسمه ولا يرى
بالمعين شخصه وجملة مثل البحر الواحد والطيور مخلقة في جو السماء ومستبقة سباحة فيه بأجنحتها
كما تسبح حيوانات البحر في الماء وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج
البحر فاذا حرك الله الهواء وجعله ريحا هابة فان شاء جعله نثرا بين يدي رحمة كما قال سبحانه - وأرسلنا
الرياح لواقع - فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتستعد للقاء وإن شاء جعله عذابا
على العصاة من خليقته كما قال تعالى - إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر نزع الناس
كأنهم أعجاز نخل منقعر - ثم انظر إلى لطف الهواء ثم شدته وقوته مهما ضغط في الماء فالزق المنفوخ
يتعامل عليه الرجل القوي ليغمسه في الماء فيعجز عنه والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه
فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوة مع لطافته وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه
الماء وكذلك كل مجوف فيه هواء لا ينفوس في الماء لأن الهواء ينقبض عن الفوس في الماء فلا ينفصل
عن السطح الداخل من السفينة فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة في الهواء اللطيف
كالذي يقع في بئر فيتعلق بذيل رجل قوى يمتنع عن الهوى في البئر فالسفينة بمقرها تشبث بأذيال
الهواء القوي حتى تمتنع من الهوى والفوس في الماء فسبحان من خلق المركب الثقيل في الهواء اللطيف
من غير علاقة تشاهد وعقدة تشد ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من العيوم والرعود والبروق
والأمطار والثلوج والشهب والصواعق فهي عجائب ما بين السماء والأرض وقد أشار القرآن إلى جملة
ذلك في قوله تعالى - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا عينين - وهذا هو الذي بينهما وأشار إلى
تفصيله في مواضع شتى حيث قال تعالى - والسحاب المسخر بين السماء والأرض - وحيث تعرض للرع
والبرق والسحاب والمطر فاذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بينك وتسمع الرعد بأذنك
فالبهجة تشاركك في هذه العرفة فارفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم اللاأطى فقد فتحت عينيك
فأدرت ظاهرها فتمض عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة ترى عجائب باطنها وغرائب
أسرارها وهذا أيضا باب يطول الفكر فيه إذ لا مطمع في استقصائه فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف
تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء وهو مع رخاوته حامل
لحماء الثقيل ومحسك له في جو السماء إلا أن بأذن الله في إرسال الماء وتمطيع القطرات كل قطرة بالقدر
الذي أراه الله تعالى وطى الشكل الذي شاء فترى السحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات
متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة بأخرى بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم
لها لا تمدل عنه فلا يتقدم للتأخر ولا يتأخر للتقدم حتى يصيب الأرض قطرة قطرة فلو اجتمع الأولون
والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة أو يعرفوا عددا ما ينزل منها في بلدة واحدة أو قرية واحدة
لمعجز حساب الجن والانس عن ذلك فلا يعلم عددها إلا الذي أو جسدها ثم كل قطرة منها عينت

الرازي: العمال أربعة
ثابت وزاهد ومشتاق
وواصل فالثابت
محبوب بتوبته
والزاهد محبوب بزهده
والمشتاق محبوب
بماله والواصل لا يحبه
عن الحق شيء. وقال
أبو سعيد القرشي:
الواصل الذي يصله الله
فلا يخشى عليه القطع
أبدا والتصل الذي
يهدمه يتصل وكما دنا
القطع وكان هذا
الذي ذكره حال
المريد والمراد لكون
أحدهما مبادأ
بالكشوف وكون
الآخر مردودا إلى
الاجتهاد. وقال
أبو يزيد: الواصلون
في ثلاثة أحرف مهم

لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب مكتوب على تلك القطرة بخط إلهي لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية التي في ناحية الجبل الفلاني تصل إليها عند عطشها في الوقت الفلاني هذا مع ما في انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفي تناثر الثلوج كالقطن للندوف من العجائب التي لا تحصى كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر مالا أحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل بل ليس للمؤمنين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ولا لعبيان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سببه وعلته فيقول الجاهل الغرور إنما يثزل الماء لأنه ثقيل بطبعه وإنما هذا سبب نزوله ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها ولو قيل له ماضى الطبع وما الذى خلقه ومن الذى خلق الماء الذى طبعه الثقل وما الذى رقى الماء للصبوب في أسافل الشجر إلى أعلى الأغصان وهو ثقيل بطبعه فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئاً فشيئاً بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق فينذى كل جزء من كل ورقة ويمجرى إليها في تجاويف عروق شجرية صفار يروى منه العرق الذى هو أصل الورقة ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير للمدود في طول الورقة عروق صفار فكأن الكبير نهروما انشعب عنه جداول ثم ينشعب من الجداول سوق أصغر منها ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط في جميع عرض الورقة فيصل للماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبقى طراوتها ونضارتها وكذلك إلى سائر أجزاء النواكه فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق فإن كان ذلك يجذب جاذب فما الذى سخر ذلك الجاذب وإن كان ينتهى بالآخرة إلى خالق السموات والأرض وجبار الملك والملكوت فلم لا يعمل عليه من أول الأمر فنهاية الجاهل بداية العاقل [ومن آياته ملكوت السموات والأرض وما فيها من الكواكب] وهو الأمر كله ومن أدرك الكل وطاقته عجائب السموات قد فاتته الكل تحقيقاً فالأرض والبخار والهواء وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات قطرة في بحر وأصغر ثم إنظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم في كتابه فمن سورة الإسراء إلى موضع وكمن قسم في القرآن بها كقوله تعالى - والسماء ذات البروج ، والسماء ذات الطارق ، والسماء ذات الحيك ، والسماء وما بناها - وكقوله تعالى - والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها - وكقوله تعالى - فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس - وقوله تعالى - والنجم إذا هوى ، فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسمت لوتعلمون عظيم - وقد علمت أن عجائب النطفة القنطرة عجز عن معرفتها الأولون والآخرون وما أقسم الله بها فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وأنتى على التفكيرين فيه فقال - وبفكرتون في خلق السموات والأرض - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبته» (١) أى تجاوزها من غير فكري وضم المرصين عنها فقال - وجعلنا السماء سقفا محفوظا ومن عن آياتها معرضون - فأى نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء وهى متغيرات على القرب والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير إلى أن يباغ الكتاب أجله ولذلك سباه الله تعالى محفوظا فقال - وجعلنا السماء سقفا محفوظا - وقال سبحانه - وبينا فوقكم سماء شدادا - وقال - أنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها - فانظر إلى لللكوت ترى عجائب العز والجبروت ولا تظن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه ترى زرق السماء وضوء الكواكب وتشرقها فان البهائم

(١) حديث ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبته أى قوله تعالى - وبفكرتون في خلق السموات والأرض - تقدم .

لله وشغلهم في الله ورجوعهم إلى الله . وقال السيارى الوصول مقام جليل وذلك أن الله تعالى إذا أحب عبداً أن يوصله اختصر عليه الطريق وقرب إليه البعيد . وقال الجنيد الواصل هو الحاصل عند ربه وقال رويم أهل الوصول أوصل الله إليهم قلوبهم فهم محفوظو القوى ممنوعون من الخلق أبداً . وقال ذوالنون ما رجعت من رجعت إلا من الطريق وما وصل إليه أحد فرجع عنه . واعلم أن الاتصال وللواصلة أشار إليه الشيخ وكل من

تشارك في هذا النظر فان كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى ابراهيم بقوله - وكذلك ترى ابراهيم ملكوت السموات والأرض - لابل كل ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه الملك والشهادة وما ناب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء وهو عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فأجل أيها العاقل فكرك في الملكوت فمسي يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن فنعد ذلك ربما يرجي لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال : رأى قلبي ربي . وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى وأدنى شيء إليك نفسك ثم الأرض التي هي مفترق ثم الهواء المكتنف لك ثم النبات والحوان وما على وجه الأرض ثم عجائب الجو وهو ما بين السماء والأرض ثم السموات السبع بكواكبها ثم الكرسي ثم العرش ثم الملائكة الذين هم حملة العرش وخزان السموات ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما فينك وبين هذه القافز العظيمة والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة وهي معرفة ظاهر نفسك ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعى معرفتك بربك وتقول قد عرفته وعرفت خلقه فقها ذا أضعرك وإلى ماذا أنتطلع فأرفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها وفي دوراتها وطلوعها وغروبها وشمسها وقرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودورها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ومن غير تغير في سيرها بل تجري جميعا في منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطوبها الله تعالى طي السجل للكتاب وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يعيل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصي ثم انظر كيفية أشكالها فبعضها على صورة العقرب وبعضها على صورة الحمل والثور والأسد والإنسان وما من صورة في الأرض إلا ولها مثال في السماء ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدة سنة ثم هي تطلع في كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف الواقت ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام فكان لا يتميز وقت العاش عن وقت الاستراحة فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباسا والنوم سباتا والنهار معاشا وانظر إلى إبلاجه الليل في النهار والليل في النهار وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص وانظر إلى إمامته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان ومجائب السموات لا مطعم في إحصاء عشر عشر جزء من أجزائها وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر واعتقد على طريق الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا والله تعالى حكم كثيرة في خلقه ثم في مقداره ثم في شكله ثم في لونه ثم في وضعه من السماء وقربه من وسط السماء وبعده وقربه من الكواكب التي بجانبه وبعده وقس على ذلك ما ذكرناه من أعضاء بدنك إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة وأمر السماء أعظم بل لانسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء لافي كبر جسم ولاف كثرة معانيه وفس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدركها ويدور بجوانبها وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الأرض مائة وثلاثين مرة وفي الأخبار ما يدل على عظمها (١) ثم الكواكب

وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو من رتبة الوصول ثم يتفاوتون فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال وهو رتبة في التجلي فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاختيار وهذه رتبة في الوصول ومنهم من يتوقف في مقام الهية والأنس بما يكشف قلبه به من مطالعة الجمال والجلال وهذا تجلي طريق الصفات وهو رتبة في الوصول ومنهم من ترقى لمقام الفناء مشتملا على باطنه أنوار اليقين وللشاهدة مضيئا في

(١) الحديث الدال على عظم الشمس أحمد من حديث عبد الله بن عمر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت فقال في نار الله الحامية لولا ما زعها من أمر الله لأهلك

التي تراها أصفرها مثل الأرض ثمانى مرات وأكبرها يتهى إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض وهذا تعرف ارتفاعها وبمدها إذ للبعد صارت ترى صفارا ولذلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال - رفع صمكها فسواها - وفي الأخبار أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام (١) فإذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض أصغارا فانظر إلى كثرة الكواكب ثم انظر إلى السماء التي الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لا تحس بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها لكن لا تشك أنها في لحظة تسير مقدار عرض كوكب لأن الزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة قد مدار الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم «هل زالت الشمس فقال لا نعم فقال كيف تقول لانهم فقال من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام (٢)» فانظر إلى عظم شخصها ثم إلى خفة حركتها ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورته مع اتساع أكتافها في حدقة العين مع صغرها حتى تجلس على الأرض وتنتح عينيك نحوها فترى جميعها فذهت السماء بمظنها وكثرة كواكبها لا تنظر إليها بل انظر إلى بارئها كيف خلقها ثم أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها وكل عالم كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب منك أنك تدخل بيت غنى فتراه مزوقا بالصبح مموها بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك وأنت أبدا تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لا تتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه فما هذا البيت دون ذلك البيت الذي تصفه بل ذلك البيت هو أيضا جزء من الأرض التي هي أخص أجزاء هذا البيت ومع هذا فلا تنظر إليه ليس له سبب إلا أنه بيت ربك هو الذي انفرد بينائه وترتيبه وأنت قد نسبت نفسك وربك وبيت ربك واشتغلت بطنك وفرجك ليس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ولا تقدر على أن تأكل عشر مائتا كلة بهيمة فتكون الهيمة فوقك بشر درجات وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فيناقون بألسنتهم بين يديك ويضمرون خبايا الاعتقادات عليك وإن صدقوك في مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأتسهم نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا وقد يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك وقد اشتغلت بهذا القورور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والأرض ثم غفلت عن التمتع بالنظر إلى جلال مالك الملك وما مثلك ومثل عقلتك إلا كمثل النملة تخرج من جحرها الذي خربت في قصر مشيد من تصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجوارى والعلسان وأنواع الدخائر

ما على الأرض وللطيراني في الكبير من حديث أبي أمامة وكل بالشمس تسعة أملاك رمونها بالثلج كل يوم لولا ذلك ما أنت على شيء إلا أحرقته (١) حديث بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام الترمذي من رواية الحسن عن أبي هريرة وقال غريب قال وروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى ابن زيد قالوا ولم يسمع الحسن من أبي هريرة ورواه أبو الشيخ في العظمة من رواية أبي نصر عن أبي ذر ورجاله ثقات إلا أنه لا يعرف لأبي نصر سماع من أبي ذر (٢) حديث أنه قال لجبريل هل زالت الشمس فقال لانهم فقال كيف تقول لانهم فقال من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام لم أجد له أصلا .

شهوده عن وجوده وهذا ضرب من تجلي القدرات لخواص القربين وهذا القام رتبة في الوصول وفوق هذا حق اليقين ويكون من ذلك في الدنيا لخواص لمح وهو سريان نور المشاهدة في كلية العبد حتى يعطى به روحه وقلبه ونفسه حتى قابله وهذا من أعلى رتب الوصول فإذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه بعد في أول المنزل فأين الوصول هيئات منازل طريق الوصول لا تقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبدى فكيف في العمر القصير الدنيوى ومنها

والتماس فإما إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبها لم تتحدث لو قدرت على النطق إلا عن بينها وغداها وكيفية ادخارها فأما حال القصر والملك الذي في القصر فهم بمنزل عنه وعن التفكير به بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغداها وبينها إلى غيره وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضا عن سكانه فأنت أيضا غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرفه النملة منك ومن سكان بيتك ، نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه وأما أنت فلك قدرة على أن تجول في السموات وتعرف من عجائب ما الخلق غافلون عنه ولتقبض عنان الكلام عن هذا الخط فإنه مجال لا آخر له ولو استقصينا أعمارنا طويلة لم نقدر على شرح ما فضل الله تعالى علينا بعرفته وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء وما عرفوه قائل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وجملة ما عرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفه الملائكة القربون كما سرافيل وجبريل وغيرهما من جميع علوم الملائكة والجن والانس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علما بل هو إلى أن يسمى دهشا وحيرة وتصورا وعجزا أقرب فسبحان من عرف عباده ما عرف ثم خاطب جميعهم فقال - وما أو تيتيم من العلم إلا قليلا - فهذا بيان معاقد الجمل التي تجول فيها فكر المتفكرين في خلق الله تعالى وليس فيها فكر في ذات الله تعالى ولكن يستفاد من الفكر في الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته وكما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم ، وهذا كما أنك تعظم علما بسبب معرفتك بعلمه فلا تزال تطلع على غريبة غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسنه له توقيرا وتعظيما واحتراما حتى إن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيدك محلا من قلبك يستدعي التعظيم له في نفسك فهكذا تأمل في خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه وكل ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا يتأخر أبدا وإنما لكل عبد منهما بقدر ما رزق ، فلنقتصر على ما ذكرناه ولنصف إلى هذا ما فصلناه في كتاب الشكر فانا نظرننا في ذلك الكتاب في فعل الله تعالى من حيث هو إحسان إلينا وإتمام علينا ، وفي هذا الكتاب نظرننا فيه من حيث إنه فعل الله فقط وكل ما نظرننا فيه فان الطبيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته والوقوف ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته وما من ذرة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدى بها من يشاء ، فمن نظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وضعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به ومن نظر فيها قاصرا للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لامن حيث ارتباطها بسبب الأسباب فقد شقي وارتدى فعوذ بالله من الضلال ، ونسأله أن يمننا منزلة أقدام الجبال بمنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته .

(تم الكتاب التاسع من ربيع النجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه)

يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده وبه كمل جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه .

القبض والبسط وهما
حالات شريفة قال الله
تعالى - والله يقبض
ويبسط - وقد تكلم
بهما الشيوخ وأشاروا
بإشارات هي علامات
القبض والبسط ولم
أجد كاشفا عن
حقيقتيهما إلا أنها كتفوا
بالإشارة والإشارة
تنفع الأهل وأحببت
أن أشبع الكلام فيهما
لهما يتشوق إلى ذلك
طالب ويعجب بسط
القول فيه والله أعلم .
واعلم أن القبض
والبسط لهما موسم
معلوم ووقت محتم
لا يكونان قبله ولا
يكونان بعده ووقتهما
وموسمهما في أوائل حال
الحبة الخاصة لا في نهايتها

(كتاب ذكر الموت وما بعده)

(وهو الكتاب العاشر من ربيع المنجيات ، وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي قسم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة ، وقصر به آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم في الحافرة ، فقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحد ، ومن ملاعبة الجواري والفلان إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التمتع بالطعام والشراب إلى التمرغ في التراب ، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن اللذيع الوثير إلى المصرع الويل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزاً ، وانخدوا من دونه حجبا وحرزا ، وانظر - هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا - فبجان من انفرد بالقهر والاستيلاء ، واستأثر باستحقاق البقاء ، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ، ثم جعل الموت مخلصا للأتقياء وموعدا في حقهم للقائه وجعل القبر سجنا للأشقياء وحبسا ضيقا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء فله الانعام بالنعم المتظاهرة ، وله الانتقام بالنقم القاهرة ، وله الشكر في السموات والأرض وله الحمد في الأولى والآخرة ، والصلاة على محمد ذي المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا .

[أما بعد] فجدد بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جلسه ، والقبر مقره وبطن الأرض مستقره ، والقيامة مواعده ، والجنة والنار مورد ، أن لا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلع إلا إليه ، ولا ترجع إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول إلا حوله ، ولا انتظار إلا برص إلا له ، وحقيق بأن بعد نفسه من الموت وبرها في أمصاب القبور ، فان كل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ^(١) » ولن يتيسر الاستعداد للشي إلا عند تجديد ذكره على القلب ولا يتجدد ذكره إلا عند التذكر بالأضواء إلى المذكرات له والنظر في النهايات عليه ونحن نذكر من أمر الموت ومقدماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة والجنة والنار ما لا يد للعبد من تذكره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار ، ليكون ذلك مستحشا على الاستعداد فقد قرب لما بعد الموت الرحيل فما بقي من العمر إلا القليل والخلق عنه غافلون - اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون - ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين :

(الشطر الأول في مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور ، وفيه ثمانية أبواب :)

الباب الأول في فضل ذكر الموت والترغيب فيه . الباب الثاني في ذكر طول الأمل وقصره . الباب الثالث في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عند الموت . الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده . الباب الخامس في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين . الباب السادس في أقوال العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور . الباب السابع في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور . الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام .

(كتاب ذكر الموت وما بعده)

(١) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت تقدم غير مرة .

ولا قبل حال المحبة
الخاصة فمن هو
في مقام المحبة العامة
الثابتة بحكم الايمان
لا يكون له قبض ولا
بسط وإنما يكون له
خوف ورجاء وقد يجد
شبه حال القبض وشبه
حال البسط ويظن
ذلك قبضا وبسطا
وليس هو ذلك وإنما
هو ثم يستره فيظنه
قبضا واهتزاز نفساني
ونشاط طبيعي يظنه
بسطا والهم والنشاط
يصدران من محل
النفس ومن جوهرها
لبقاء صفاتها ومادامت
صفة الأمانة فيها بقية
على النفس يكون منها
الاهتزاز والنشاط والهم
وهج سا جور النفس

(الباب الأول في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره)

اعلم أن التمتع في الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يفعل قلبه لاحالة عن ذكر الموت فلا يذكره وإذا ذكر به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم - قل إن للموت الذي تفرون منه فانه ملايقكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون - ثم الناس إمامهمك وإماتائب مبتدئ. أوعارف منته أما المتهكم فلا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشغل بخدمته وهذا يزيد ذكر الموت من الله بعدا ، وأما النائب فانه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والحشية فينبئ التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يخطئه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم «من كره لقاء الله كره لقاء الله لقاءه» (١) فان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه رضاه فلا يبد كارها للقائه ، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لا يشغل له سواه وإلا التحق بالتهكم في الدنيا وأما العارف فانه يذكر الموت دائما لأنه موعده للقائه لحبيه والمحبة لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب وهذا في غالب الأمر يستبطن محبة الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين كما روى عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال حبيب جاء على فاقة لأفلق . بن ندم اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إلى من الغنى والسقم أحب إلى من الصحة والموت أحب إلى من العيش فسهل على الموت حتى ألقاك ، فأذن النائب معذور في كراهة الموت وهذا معذور في حب الموت وتمنيه وأعلى منهما رتبة من فوض أمره إلى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتا ولا حياة بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى ، وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثوابه وفضل فان المتهكم أيضا يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا إذ ينقص عليه نعيمه ويكدر عليه صفو لدمه وكل ما يكدر على الانسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة .

(بيان فضل ذكر الموت كيفما كان)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكثروا من ذكر هادم اللذات» (٢) معناه نقصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى . وقال صلى الله عليه وسلم «لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا» (٣) وقالت عائشة رضی الله عنها «يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال نعم من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة» (٤) «وإنما يب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا ، وقال صلى الله عليه وسلم «تحفة المؤمن الموت» (٥) وإنما قال هذا

(الباب الأول في ذكر الموت والترغيب فيه)

(١) حديث من كره لقاء الله كره لقاء الله لقاءه متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث أكثروا من ذكر هادم اللذات الترمذي وقال حسن والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٣) حديث لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا البيهقي في الشعب من حديث أم حبيبة الجهنية وقد تقدم (٤) حديث قالت عائشة هل يحشر مع الشهداء أحد قال نعم من ذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة تقدم (٥) حديث تحفة المؤمن الموت ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني والحاكم من حديث عبدالله بن عمر . رسلا بسند حسن .

والنشاط ارتغاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع فاذا ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة يصير ذاحل وذا قلب وذا نفس لوامة ويتناوب القبض والبسط فيه عند ذلك لأنه ارتقى من رتبة الإيمان إلى رتبة الايمان وحال المحبة الخاصة فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى قال الواسطي يقبضك عمالك ويبسطك فيها له وقال النوري يقبضك بايك ويبسطك لإياه واعلم أن وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها وظهور البسط لظهور صفة القلب وغابته

لأن الدنيا سجن المؤمن إذ لا يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدامه شيطانه فلموت إطلاق له من هذا العذاب والاطلاق تحفة في حقه وقال صلى الله عليه وسلم «الموت كفارة لكل مسلم» (١) « وأراد بهذا المسلم حقا المؤمن صدقا الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من المعاصي إلا باللمم والصغار فلموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائض . قال عطاء الخراساني « مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات قالوا وما مكدر اللذات قال الموت» (٢) وقال أنس رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكثر ما من ذكر الموت فإنه يحصن الذنوب ويذهب في الدنيا» (٣) « وقال صلى الله عليه وسلم «كفى بالموت مفرقا» (٤) « وقال عليه السلام «كفى بالموت واعظا» (٥) . « وخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون، فقال: اذكروا الموت أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» (٦) . « وذكروا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه ، فقال: كيف ذكركم صاحبكم للموت قالوا ما كنا نأكد نعمه يذكر الموت قال فان صاحبكم ليس هنالك» (٧) « وقال ابن عمر رضي الله عنهما «أثبت النبي صلى الله عليه وسلم عشرين عمرة فقال رجل من الأنصار من أكس الناس وأكرم الناس يا رسول الله فقال: أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة» (٨) « وأما الآثار : فقد قال الحسن رحمه الله تعالى فضح الموت الدنيا فلم يترك لدى لب فرحا . وقال الربيع ابن خيثم ما فائب ينتظره المؤمن خيرا له من الموت وكان يقول لا تشعروا بي أحدا وسألوني إلى رب سلا وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه: يا أخي احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تبعي فيها الموت فلا تجده . وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم ييكون حتى كأن بين أيديهم جنازة . وقال إبراهيم التيمي شيئا قطعا عنى لذة الدنيا ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل . وقال كعب

(١) حديث الموت كفارة لكل مسلم أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب والخطيب في التاريخ من حديث أنس قال ابن العربي في سراج الريددين إنه حسن صحيح وضعفه ابن الجوزي وقد جمعت طرقه في جزء (٢) حديث عطاء الخراساني مر النبي صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلاء الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات الحديث ابن أبي الدنيا في الموت هكذا مر سلا وروينا في أمالي الحلال من حديث أنس ولا يصح (٣) حديث أنس أكثر ما من ذكر الموت فإنه يحصن الذنوب ويذهب في الدنيا ابن أبي الدنيا في الموت باسناد ضعيف جدا (٤) حديث كفي بالموت مفرقا الحديث ابن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس وعراك بن مالك بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في البر والصلة من رواية أبي عبد الرحمن الحلبى مر سلا (٥) حديث كفي بالموت واعظا الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد (٦) حديث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال اذكروا الموت الحديث ابن أبي الدنيا في الموت من حديث ابن عمر باسناد ضعيف (٧) حديث ذكر عند رسول الله ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال كيف كان ذكركم صاحبكم للموت الحديث ابن أبي الدنيا في الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك في الزهد قال أنا مالك بن مغول قد ذكره بلا زيادة فيه (٨) حديث ابن عمر أثبت النبي صلى الله عليه وسلم عشرين عمرة فقال رجل من الأنصار من أكس الناس الحديث ابن ماجه مختصرا وابن أبي الدنيا بكامله باسناد جيد .

والنفس مادامت لوامة فتارة مغلوبة وتارة غالبة والقبض والبسط باعتبار ذلك منها وصاحب القلب تحت حجاب نوراني لوجود قلبه كما أن صاحب النفس تحت حجاب ظلماني لوجود نفسه فإذا ارتقى من القلب وخرج من حجابه لا يقيد الحبال ولا يتصرف فيه فيخرج من تصرف القبض والبسط حيثة فلا يقبض ولا يبسط مادام متخلصا من الوجود النوراني الذي هو القلب ومتحققا بالقرب من غير حجاب النفس والقلب فإذا عاد إلى

من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهو معها . وقد مطرف رأيت فيما يرى النائم كأن قال لا يقول في وسط مسجد البصرة : قطع ذكر الموت لقلوب الخائنين فوالله ما ترام إلا والمهين . وقال أشعث كنا ندخل على الحسن فأنما هو النار وأمر الآخرة وذكر الموت . وقالت صفيّة رضي الله تعالى عنها إن امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت أ كثرى ذكر الموت يرق قلبك فقلبت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها . وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دما . وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكي حتى تتخلع أوصاله فاذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه . وقال الحسن . ما رأيت عاقلا قط إلا أصبته من الموت حذرا وعليه حزينا وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء عظمى فقال ألت أول خليفة يموت قال زدني قال ليس من آباءك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك فبكي عمر لذلك . وكان الربيع بن خيثم قد حفر قبراً في داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول لو فارق ذكر الموت فإني ساعة واحدة لفسد . وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير إن هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيمها لا موت فيه . وقال عمر بن عبد العزيز لعنبة أ كثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك . وقال أبو سليمان الداراني قلت لأم هرون : أعيين الموت ؟ قالت لاء قلت لم ؟ قالت لو عصيت آدميا ما اشتبهت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته

(بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب)

اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه ثقلة ففكرهم فيه وذكورهم ومن يذكروه ليس يذكروه بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا يجمع ذكر الموت في قلبه فالطريق فيه أن يفرغ القلب من كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه كالذي يريد أن يسافر إلى مفاضة محطرة أو يركب البحر فإنه لا يتفكر إلا فيه فاذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ويتأمل كيف محال التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاءهم في قبورهم وكيف أرموا نساءهم وأيتمو أولادهم وضعوا أموالهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم ففهما تذكر رجل رجلا وفصل في قلبه حاله وكيفية موته وتوهم صورته وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء ونسيانه للموت وانخداعه بعواتة الأسباب وركونه إلى القوة والشباب وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت التدرج والهلاك السريع وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه إلى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به حتى جاءه الموت في وقت لم يحسبه فأنكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار فند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كما قبتهم . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا ذكرت الموتى فقد نفسك كأحدم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه السعيد بن وعظ بغيره . وقال عمر بن عبد العزيز ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديا وأمرأعيا إلى الله عز وجل تضعونه في صدع من الأرض قد توسد التراب وخلف الأحباب وقطع الأسباب فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يحدد ذكر الموت في القلب حتى يقاب عليه بحيث يصير نصب عينيه فعند ذلك يوشك أن يستمد له ويتجافى عن دار العرور وإلا فالله كر بظاهر القلب وعذبة اللسان

الوجود من الفناء والبقاء يسود إلى الوجود والنوراني الذي هو القلب فيعود القبض والبسط إليه عند ذلك ومهما غلص إلى الفناء والبقاء فلا قبض ولا بسط قال فارس أوالا القبض ثم البسط ثم لا قبض ولا بسط لأن القبض والبسط يقع في الوجود فأما مع الفناء والبقاء فلا ثم إن القبض قد يكون عقوبة الإفراط في البسط وذلك أن الولد من أفه تعالى يرد على القلب فيحتل به القلب منه روحا وفرحا واستبشارا فتسرق النفس السمع عند ذلك وتأخذ نصيبها فاذا وصل أثر الوارد

قليل الجدوى في التحذير والتنبية ومهما طاب قلبه بنى من الدنيا بيقضى أن يتذكر في الحال أنه لا بد له من مفارقتها ، نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسناتها ثم بكى فقال والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور أقررت بالدنيا أعيننا ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته.

(الباب الثاني في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل وسبب طوله وكيفية معالجته)

(فضيلة قصر الأمل)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر « إذا أصبحت فلا تتحدث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تتحدث نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن مهتك لسقمك فانك يا عبد الله لا تدري ما صمك غدا ^(١) » وروى علي كرم الله وجهه أنه صلى الله عليه وسلم قال « إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا ثم قال : ألا إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ويبيغض وإذا أحب عبدا أعطاه الإيمان ألا إن الدين أبناء وللدينا أبناء فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا ألا إن الدنيا قد ارتحمت مولية ألا إن الآخرة قد ارتحمت مقبلة ألا وإنكم في يوم عمل ليس فيه حساب ألا وإنكم توشكون في يوم حساب ليس فيه عمل ^(٢) » وقالت أم النذر « اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية إلى الناس فقال : أيها الناس أمانتحيون من الله قالوا وما ذلك يا رسول الله ؟ قال تجمعون ما لا تاكلون وتأملون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون ^(٣) » وقال أبو سعيد الخدري « اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر إن أسامة لطويل الأمل والذي نفسى بيده ما طرفت عيناي إلا ظننت أن شفرى لا يلتقيان حتى يقبض الله روحى ولا رفت طرفى فظننت أنى واضمه حتى أقبض ولا لقيت لقمة إلا ظننت أنى لأسيغها حتى أغص بها من الموت ثم قال يا بني آدم إن كنتم تعقلون ففسدوا أنفسكم من الموتى والذي نفسى بيده - إن ما تواعدون لآت وما أتم به جزين - ^(٤) » وعن ابن عباس رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالتراب فأقول له يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول ما يدري لعلى لأبأه ^(٥) » وروى « أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاثة أعواد ففرز عودا

(الباب الثاني في طول الأمل)

(١) حديث قال لعبد الله بن عمر إذا أصبحت فلا تتحدث نفسك بالمساء الحديث ابن حبان ورواه البخارى من قول ابن عمر في آخر حديث كنى في الدنيا كأنك غريب (٢) حديث طى إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل الحديث بطوله ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل ورواه أيضا من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف (٣) حديث أم النذر أيها الناس أمانتحيون من الله تعالى قالوا وما ذلك يا رسول الله قال تجمعون ما لا تاكلون وتأملون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والطبراني في مسند الشاميين وأبو نعيم في الحلية والبيهقى في الشعب بأسناد ضعيف وقد تقدم (٤) حديث أبي سعيد اشترى ابن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من أسامة الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والطبراني في مسند الشاميين وأبو نعيم في الحلية والبيهقى في الشعب بأسناد ضعيف (٥) حديث ابن عباس كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالتراب فأقول الماء منك قريب فيقول ما يدري لعلى لأبأه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل والبراز بأسناد ضعيف .

إلى النفس طغت بطبعها وأفرطت في البسط حتى تشاكل البسط نشاطا فتقابل بالقبض عقوبة وكل القبض إذا قنض لا يكون إلا من حركة النفس وظهورها بصفها ولو تأدبت النفس وعدلت ولم تجر بالطغيان تارة وبالصيان أخرى ما وجد صاحب القلب القبض وما دام روحه وأنسه ورعايته الاعتدال الذى يسد باب القبض متلقى من قوله تعالى - لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم - فوارد الفرح مادام موقوفا على الروح والقلب لا يكثف

بين يديه والآخر إلى جنبه وأما الثالث فأبده فقال هل تدرون ما هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا الانسان وهذا الأجل وذلك الأمل يتعاطاه ابن آدم ويختلجه لأجل دون الأمل (١) وقال عليه السلام «مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية إن أخطأته النايا وقع في الهرم (٢)» قال ابن مسعود هذا المرء وهذه الختوف حوله شوارع إليه والهرم وراء الختوف والأمل وراء الهرم فهو يؤمل وهذه الختوف شوارع إليه فأبها أمر به أخذه فان أخطأته الختوف قتله الهرم وهو ينتظر الأمل قال عبداً «خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا وخط خطوطا إلى جنب الخط وخط خطا خارجا وقال أندرون ما هذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا الانسان للخط الذي في الوسط وهذا الأجل محيط به وهذه الأعراض للخطوط التي حوله تنهشه إن أخطأته هذا شه هذا وذلك الأمل يعني الخط الخارج (٣)» وقال أنس «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يهرم ابن آدم ويقيم معه اثنتان الحرص والأمل (٤)» وفي رواية وتنبأ مع اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر وقال رسول الله ﷺ «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الأمة باليخل والأمل (٥)» وقيل بينا عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثر بها الأرض فقال عيسى اللهم انزع منه الأمل فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة فقال عيسى اللهم اردد إليه الأمل فقام فجعل يعمل فسأله عيسى عن ذلك فقال بينا أنا عمل إذ قالت لي نفسي إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير فألقيت المسحاة واضطجعت ثم قالت لي نفسي والله لا بد لك من عيش ما بقيت فقامت إلى مسحاتي، وقال الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكلكم يحب أن يدخل الجنة قالوا نعم يا رسول الله قال قصر وامن الأمل وثبتوا أجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء (٦)» وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير المات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل (٧)» الآثار : قال مطرف بن عبد الله لو علمت متى أجلى لحشيت على ذهاب عقلي ولكن الله تعالى من على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ماتنهموا بعيش ولا نامت بينهم الأسواق. وقال الحسن السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم ولولاهما ماضى المسلمون في الطرق. وقال الثوري بلغني أن الانسان خلق أحمق ولولا ذلك لم يهنا العيش. وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن إنما

(١) حديث أنه أخذ ثلاثة أعواد ففرز عودا بين يديه الحديث أحمد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له الرامهرمزي في الأمثال من رواية أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري وإسناده حسن ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا أيضا من رواية أبي المتوكل مراسلا (٢) حديث مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن الشخير وقال حسن (٣) حديث ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا الحديث رواه البخاري (٤) حديث أنس يهرم ابن آدم ويقيم معه اثنتان الحرص والأمل وفي رواية ويشب مع اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر ورواه مسلم بلفظ الثاني وابن أبي الدنيا في قصر الأمل باللفظ الأول باسناد صحيح (٥) حديث نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد وهلك آخر هذه الأمة باليخل والأمل ابن أبي الدنيا فيه من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٦) حديث الحسن أكلكم يحب أن يدخل الجنة قالوا نعم يا رسول الله قال قصر وامن الأمل الحديث ابن أبي الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مراسلا (٧) حديث كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه اللهم إني أعوذ بك من أمل يمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير المات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل ابن أبي الدنيا فيه. من رواية حوشب عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي إسناده ضفوفه والو لا أدري من حوشب.

ولا يستوجب صاحبه القبح سيما إذا لطف بالفرح بالوارد بالايواء إلى الله وإذا لم يلتجئ بالايواء إلى الله تعالى تضاعت النفس وأخذت حظها من الفرح وهو الفرح بما أتى المنوع منه فمن ذلك القبح في بعض الأحيان وهذا من أطف الذنوب الموجبة للقبح وفي النفس من حركاتها وصفاتها واثبات متعددة موجبة للقبح ثم الخوف والرجاء لا يهدمها صاحب القبح والبسط ولا صاحب الأنس والهيبة لأتيا من ضرورة الايمان فلا يعدمان وأما القبح والبسط

عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها . وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني مؤمل الدنيا ولطوت يطالبه وغافل وليس يفعل عنه وضاحك ملء فيه ولا يدري أساخر رب العالمين عليه أم راض وثلاث أحرزنتني حتى أبكتني فراق الأختة محمد وحزبه وهول المطلع والوقوف بين يدي الله ولا أدري إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار . وقال بعضهم رأيت زرارة بن أبي أوفى بعد موته في المنام فقالت هي الأعمال أبلغ عندكم قال التوكل وقصر الأمل . وقال الثوري الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس يأكل الغليظ ولا لبس العباءة وسأل الفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عنه شهوة الطعام والشراب ثم دعا ربه فرد عليه الأمل فرجع إلى الطعام والشراب . وقيل للحسن يا أبا سعيد ألا تنسل قيصك فقال الأمر أعجل من ذلك . وقال الحسن الموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوى من ورائكم وقال بعضهم أنا كرجل مهاد عنقه والسيهيق عليه ينتظر متى تضرب عنقه . وقال داود الطائي لو أعلمت أن أعيش شهرا لرأيتني قد أتيت عظيما وكيف أو مل ذلك وأرى الفجائع تفتش الخلائق في ساعات الليل والنهار . وحكى أنه جاء شقيق البلخي إلى أستاذه يقال له أبو هاشم الرماني في طرف كسائه شيء مصرور فقال له أستاذه إيش هذا معك فقال لوزات دفعها إلى أخ لي وقال أحب أن تظفر عليها فقال يا شقيق وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل لا كلك أبدأ قال فأغلق في وجهي الباب ودخل . وقال عمر ابن عبد العزيز في خطبته إن لكل سفر زادا لا محالة فزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى وكونوا كمن عابن ما أعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ولا يطولن عليكم الأمد فقصو قلوبكم وتتقادوا لعدوك فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه وربما كانت بين ذلك خطافات المنايا وكم رأيت ورأيت من كان بالدنيا مقترا وإنما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة فأما من لا يداوى كلها إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح أعوذ بالله من أن أمركم بما لا أنهي عنه نفسي فتخسر صفتي وتظهر عيبي وتبدو مسكنتي في يوم يبدو فيه النعي والفقر والوازين فيه منصوبة لقد عنيت به النجوم لانكدرت ولو عنيت به الجبال لدابت ولو عنيت به الأرض لنشقةقت أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وأنكم صائرون إلى إحداها وكتب رجل إلى أخ له أما بعد فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والتوسط بينهما اللوت ونحن في أضغاث أحلام والسلام وكتب آخر إلى أخ له إن الحزن على الدنيا يطويل واللوت من الانسان قريب وللنقص في كل يوم منه نصيب وللبلاء في جسمه ديب فبادر قبل أن تنادي بالرحيل والسلام . وقال الحسن كان آدم عليه السلام قبل أن يخطئ ما مله خلف ظهره وأجله بين عينيه فلما أصاب الخطيئة حول جعل أمه بين عينيه وأجله خلف ظهره . وقال عبد الله بن حبيب سمعت أبي يقول أيها الغر بطول صحته أما رأيت ميتا قط من غير سقم أيها الغر بطول الهلة أما رأيت ما أخذوا قط من غير عدة إنك لو فكرت في طول عمرك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك أبالصحة تغترون أم بطول العافية تمرحون أم الموت تأمنون أم على ملك الموت تجترون إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط ثم يقال رحم الله عبدا عمل لما بعد الموت رحم الله عبدا نظر لنفسه قبل نزول الموت ، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه ما رأيت من عبادة الله في المسجد الحرام إذ أتى بحجر متقور فطلب من يقرؤه فأتى بوهب بن منبه فإذا فيه ابن آدم إنك لو رأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك ولرغبت في الزيادة من عملك ولتصرت من حرصك وحيلك وإنما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك وفارقك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسيب فلا أنت إلى دنياك عائد ولا في حسناتك زائدا فاعمل

فيندمان عند صاحب الإيمان لتقصان الحظ من القلب وعند صاحب الفناء والبقاء والقرب لتخلصه من القلب وقد برد على الباطن قبض وبسط ولا يعرف سببها ولا يخفى سبب القبض والبسط إلا على قليل الحظ من العلم الذي لم يحكم علم الحال ولا علم المقام . ومن أحكم علم الحال والمقام لا يخفى عليه سبب القبض والبسط وربما يشبهه عليه سبب القبض والبسط كما يشبهه عليه سبب القبض والنشاط بالبسط وإنما علم ذلك لمن استقام قلبه ومن عدم القبض والبسط وارتقى منهما

ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة فيسكن سليمان بكاء شديدا وقال بعضهم رأيت كتابا من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فإني أحذرك متحولك من دار مهلتك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك فتصير في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها فيأتيك منكر ونكير فيقعدانك وينهرانك فان يكن الله معك فلا بأس ولا وحشة ولا فاقة وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع ثم تليفتك صيحة الحشر وتضع الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق وخلاء الأرض من أهلها والسماوات من سكانها فباحت الأسرار وأسعرت النار ووضعت الموازين وجرى بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين فكم من مفتضح ومستور وكم من هالك وناج وكم من معذب ومرحوم فيا ليت شعري ما حالى وحالك يومئذ في هذا ما هدم اللذات وأسلى عن الشهوات وقصر عن الأمل وأيقظ النائمين وحذر العافلين أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعهما من قلوب المتقين فاعناهم به وله والسلام . وخطب عمر بن عبد العزيز حمد الله وأثنى عليه وقال أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى وإن لكم معادا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم غلاب وشقى غدا عبدا أخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء وجتته التي عرضها السماوات والأرض وإنما يكون الأمان غدا لمن خاف واتقى وباع قليلا بكثير وقانيا ياق وشقوة بسعادة الأترو أنكم في أسلاب المالكين وسيخلف بعدكم الباؤون ألا ترون أنكم في كل يوم تشيعون غدا يورثها إلى الله عز وجل قد قضى نهبه واتقطع أمله فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسد ولا مهند قد خلع الأسباب وفارق الأحباب وواجه الحساب وإيم الله إني لأقول مقالتي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نسي ولكن كما سئلت من الله عاقلة أمر فيها بطاعته وأنهى فيها عن معصيته وأستغفر الله ووضع كفه على وجهه وجعل يمينه على قلبه فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء وقال الثوري رأيت شيئا في مسجد الكوفة يقول أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي ولو أتاني ما أمرته بشيء ولا نهايته عن شيء ولا لي على أحد شيء ولا لأحد عندي شيء وقال عبد الله بن ثعلبة تضحك ولعل أ كفا نك قد خرجت من عند القصار ، وقال أبو محمد بن علي الزاهد خرجنا في جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائي فانتبذ قعد ناحية وهي تدفن فبغت ففقدت قريبا منه فتكلم فقال : من خاف الوعيد نصر عليه البعيد ومن طال أمله ضعف عمله وكل ما هو آت قريب . واعلم يا أخي أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشغوم واعلم أن أهل الدنيا جميعا من أهل القبور إنما يندمون على ما خلفوه وبفرحون بما قدموا فما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون . وروى أن معروفا الكرخي رحمه الله تعالى أقام الصلاة قال محمد بن أبي توبة فقال لي تقدم فقلت إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها فقال معروف وأنت تحدث نفسك أن تصلي صلاة أخرى فعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع من خير العمل وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته إن الدنيا ليست بدار قرار كم دار كتب الله عليها الفناء وكتب على أهلها الظن عنها فكم من عامر موثق عما قليل يخرب وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظن فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما يحضرتمكم من النقلة ونزودوا فان خير الراد التقوى إنما الدنيا كئيب ظلال قلص فذهب بينا ابن آدم في الدنيا ينافس وهو قمر العين إذ دعاه الله بقدره ورماه بيوم حنقه فسلبه آتاره وديناه وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر إنما تسر قليلا وتحزن طويلا . وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه

ففسه مطمئنة
لا تنفخ من جوهرها
نار توجب القبض ولا
يتلاطم بحر طبعها من
أهوية الهوى حتى
يظهر منه البسطور بما
صار لمثل هذا القبض
والبسط في نفسه لا من
نفسه فتكون نفسه
المطمئنة بطبع القلب
فيجري القبض
والبسط في نفسه
المطمئنة ومال قلبه قبض
ولا بسط لأن القلب
متحصن بشعاع نور
الروح مستقر في دعة
القرب فلا قبض ولا
بسط (ومنها الفناء
والبقاء) قد قيل
الفناء أن يفنى عن
الخطوط فلا يكون له
في شيء حظ بل يفنى

أنه كان يقول في خطبته أين الوضاعة الحسنة وجوههم المعبون بشبابهم أين الملوك الذين بنوا المدن وحصنوها بالحيطان أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب قد تضع بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور الواحا الواحا ثم النجا النجا .

(بيان السبب في طول الأمل وعلاجه)

اعلم أن طول الأمل له سببان : أحدهما الجهل والآخر حب الدنيا أما حب الدنيا فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلاقتها تمل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه والانسان مشغوف بالأمانى الباطلة فيمنى نفسه أبدأ بما يوافق مراده وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا فيصير قلبه كما كفا على هذا الفكر موقوفا عليه فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه فان خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوف ووعده نفسه وقال الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب وإذا كبر فيقول إلى أن تصبر شيئا فإذا صار شيئا قال إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة أو ترجع من هذه السفرة أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك فلا يزال يسوف ويؤخر ولا يخوض في شغل إلا ويتعلق بتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخرى وهكذا على التدرج يؤخر يوما بعد يوم ويفضي به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تختطفه النية في وقت لا يحتسبه فتطول عند ذلك حسرته وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون واحزننا من سوف والسوف السكين لا يدري أن الذي يدعو إلى التسويف اليوم هو معه غدا وإنما زاد بطول المدة قوة ورسوخا ويظن أنه يتصور أن يكون للخائف في الدنيا والحافظ لم يفرغ قط وهيئات فما يفرغ منها إلا من أطرحها :

لما قضى أحد منها لبائته وما انتهى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله **« أحب من أحببت فانك مفارقة (١) »** . وأما الجهل فهو أن الانسان قد يهود على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلدة وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة ولا يدري أن ذلك غير بعيد وإن كان ذلك بعيدا فالمرض فجأة غير بعيد وكل مرض فائما يقع فجأة وإذا مرض لم يكن الموت بعيدا ولو تفكر هذا العاقل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وريبع من ليل ونهار لعظم استشعاره واشتغال بالاستعداد له ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب فهو أبدا يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه وهو أبدا يظن أنه يشيع الجنائز ولا يقدر أن تشيع جنازته لأن هذا قد تكرر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره فأما موت نفسه فلم يألفه ولم يتصور أن يألفه فانه لم يقع وإذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه فهو الأول وهو الآخر وسبيله أن يقبس نفسه بغيره . ويهمل أنه لا بد وأن تحمل جنازته ويدفن في قبره ولعل اللبن الذي يغطى به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري فتسويفه جهل محض ، وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه أما الجهل فيدفع بالفسر الصافي من القلب الحاضر وبسبب الحكمة

(١) حديث أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم غير مرة .

عن الأشياء كلها
شغلا بمن فني فيه
وقد قال عامر بن
عبد الله لأبالي
امرأة رأيت أم حانظا
ويكون محفوظا فيها
الله عليه مصروفا
عن جميع المخالفات
والبقاء يعقبه وهو
أن يخفى عماله ويخفى
بما لله تعالى . وقيل
الباقى أن تصير
الأشياء كلها له شيئا
واحدا فيكون كل
حركته في موافقة
الحق دون مخالفته
فكان فانيا عن
المخالفات باقيا في
المواقفات . وعندى
أن هذا الذى ذكره
هذا القائل هو

البالغة من القلوب الطاهرة وأما حب الدنيا فالملاج في إخراجها من القلب شديد وهو الداء المضال الذي أعبأ الأولين والآخرين علاجه ولا علاج له إلا الإيمان، باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فان حب الخطيئة هو الذي يحو عن القلب حب الحقير فاذا رأى حقارة الدنيا ونقاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطى ملك الأرض من الشرق إلى المغرب وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منصف فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا أماناً كان مستهدفاً فافوزوا عظيماً وأماناً كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خسرانا مبيناً فلينظر الانسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لاجالة وكيف تنفت عظامها ولينفكر أن الدود يبدأ بحدقته النبي أولاً واليسرى فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر وواله منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأحوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الأكبر فأمثال هذه الأفكار هي التي تجدد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له .

(بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره)

اعلم أن الناس في ذلك يتفاوتون فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أيذا قال الله تعالى - يود أحدكم لو يعمر ألف سنة - ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الذي شاهد مورآ وهو الذي يحب الدنيا حباً شديداً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الشيخ شاب في حب طلب الدنيا وإن التفت ترقوقاته من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل مأم» (١) ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدر لنفسه وجوداً في عام قابل ولكن هذا يستعد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف فاذا جمع ما يكتفيه استته اشتغل بالعبادة ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة فلا يستعد إلا للتأخر وأما لقد قال عيسى عليه السلام : لاتهموا برزق غد فان يكن غد من آجالكم فستأني فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهموا لآجال غيركم ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة كما قال نبينا ﷺ «يا عبد الله إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح» ومنهم من لا يقدر البقاء أيضاً ساعة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضى ساعة ويقول لعلى لأبلغه ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره وهذا الانسان هو الذي يصلى صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة إيمانه فقال ما خطوت خطوة إلا ظننت أنى لأتبعها أخرى (٢) وكما نقل عن الأسود وهو حبشى أنه كان يصلى ليلاً ويلتفت يمينا وشمالاً فقال له قائل ما هذا قال أنظر ملك الموت من أى جهة يأتيني فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من

(١) حديث الشيخ شاب في حب الدنيا وإن التفت ترقوقاته من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل مأم لم أجده بهذا اللفظ وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وحب المال (٢) حديث سؤاله لمعاذ عن حقيقة إيمانه فقال ما خطوت خطوة إلا ظننت أنى لأتبعها أخرى أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وهو ضعيف .

مقام صحة التوبة
النصوح وليس من
الفناء والبقاء في شيء
ومن الإشارة إلى الفناء
ماروى عن عبد الله
ابن عمر أنه سلم عليه
إنسان وهو في الطواف
فلم يرد عليه فسكاه
إلى بعض أصحابه فقال
له كنا نترامى الله في
ذلك المكان . وقيل :
الفناء هو الفينة عن
الأشياء كما كان فناء
موسى حين تجلى ربه
للجبل . وقال الحران:
الفناء هو التلاشي
بالحق والبقاء هو
الخصور مع الحق .
وقال الجنيد : الفناء
استمجام السكل عن
أوصافك واشتغال
السكل منك بكليته

أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله فان الله لا يظلم مثقال ذرة - ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - ثم يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل وكل إنسان يدعى أنه قصير الأمل وهو كاذب وإنما يظهر ذلك بأعماله فانه يمتنى بأسباب ربما لا يحتاج إليها في سنة فيدل ذلك على طول أمله وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يفتل عنه ساعة فليست تعد للموت الذي يرد عليه في الوقت فان عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه ثم يستأنف مثله إلى الصباح وهكذا إذا أصبح ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه فمثل هذا إذا مات سعد وغنم وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة فالوت له سعادة والحياة له مزيد فليكن الموت على بالك يا مسكين فان السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناما لكل نفس أمهات فيه .

(بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير)

اعلم أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما في غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غدا فالاستعداد نتيجة تقرب الانتظار فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسى ما وراء المدة ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكاملها لا ينقص منها اليوم الذي مضى وذلك يمنع من مبادرة العمل أبدا فانه أبدا يرى لنفسه متسعا في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال عليه السلام « ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا أو فقرا منسيا أو مرضا مفسدا أو هرما مقيدا أو موتا مجهما أو الدجال فالدجال شر غائب ينتظر أو الساعة أو الساعة أدهى وأمر (١) » وذال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يظلم « اغتتم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفرغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ (٣) » أي أنه لا يستنهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما وقال صلى الله عليه وسلم « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة (٤) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة وجاء الموت بما فيه (٥) » « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتستم المنية راتبة لازمة إما بشقاوة وإما بسعادة (٦) » وقال أبو هريرة « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا النذير والموت المعير والساعة الوعد (٧) »

(١) حديث ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا أو فقرا منسيا الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة بلفظ هل ينتظرون إلا غناء الحديث وقال حسن ورواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل بلفظ الصنف وفيه من لم يسم (٢) حديث ابن عباس اغتتم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك الحديث ابن أبي الدنيا فيه باسناد حسن ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدي مرسلا (٣) حديث نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ البخاري من حديث ابن عباس وقد تقدم (٤) حديث من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن (٥) حديث جاءت الراجفة تتبعها الرادفة الحديث الترمذي وحسنه من حديث أبي بن كعب (٦) حديث كان إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتستم المنية الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث زيد السلمي مرسلا (٧) حديث أبي هريرة أنا النذير والموت المعير والساعة الموعد ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وأبو القاسم البغوي باسناد فيه لين .

وقال إبراهيم بن شيبان علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوجدانية وصحة العبودية وما كان غير هذا فهو من المغالط والزندقة . وسئل الحراز ما علامة الفاني ؟ قال علامة من ادعى الفناء ذهب حظه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى . وقال أبو سعيد الحراز : أهل الفناء في الفناء صحتهم أن يصحهم علم البقاء وأهل البقاء في البقاء صحتهم أن يصحهم علم الفناء . واعلم أن أقاويل الشيوخ في الفناء

وقال ابن عمر « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السمف فقال ما بقي من الدنيا إلا كما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « مثل الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقي متعلقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع (٢) » وقال جابر « كان رسول الله ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومسيبتكم بعثت أنا والساعة كهاتين وقرن بين أصبعيه (٣) » وقال ابن مسعود رضى الله عنه « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - فقال إن النور إذا دخل الصدر انفسح فليل يارسل الله هل لذلك من علامة تعرف قال نعم التجافى عن دار الغرور والاناثة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله (٤) » وقال السدى - الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا - أى أيكم أكثر للموت ذكرا وأحسن له استعدادا وأشد منه خوفا وحذرا وقال حذيفة ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادى أيها الناس الرحيل الرحيل وتصديق ذلك قوله تعالى - إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر - فى الموت وقال سعيد مولى بن عبيد بن جهم « قلت لعبد الله وهو يصلى فأوجز فى صلاته ثم أتبل على فقال أرحنى بما جئتك فاني أبادر قلت وما تبادر قال ملك الموت رحمك الله قال فقامت عنه وقام إلى صلاته ومردا ودالطاني فسأله رجل عن حديث فقال دعنى إنما أبادر خروج نفسى قال عمر رضى الله عنه التؤدة فى كل شئ خير إلا فى أعمال الخير للآخرة ، وقال المنذر سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه ويحك بادرى قبل أن يأتيك الأمر ويحك بادرى قبل أن يأتيك الأمر حتى كرر ذلك ستين مرة أجمعه ولا يرانى. وكان الحسن يقول فى موعظته البادرة البادرة فأنما هى الأنافة لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التى تتقربون بها إلى الله عز وجل رحم الله امرأ نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية - إنا نعلم ما وعدناهم عدا - يعنى الأنافة آخر العدد خروج نفسك آخر العدد فراق أهلك آخر العدد دخولك فى قبرك واجتهاد موسى الأعمى قبل موته اجتهدا شديدا فليل له لو أمسكت أو رقت بنفسك بعض الرفق فقال إن الخيل إذا رحلت تقارب رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها والذى بقى من أجلى أقل من ذلك قال فلم يزل على ذلك حتى مات، وكان يقول لامرأته شدى رحلك فليس على جهنم معبر وقال بعض الخلفاء على منبره: عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوما صيحين ثم اتقوا واعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا واستعدوا للموت فقد أظلمكم ورحلوا فقد جد بكم وإن غاية تنفصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر للذة وإن غائبا يجد به الجديدان الليل والنهار لحرقى بسرعة الأوبة وإن قادما يحمل بالفوز أو الشقة ولستحق لأفضل العدة فالتقى عند ربه من ناصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فان أجله مستور عنه وأمله خادع له والشيطان موكل به بعينه التوبة ليسوفها ويزين إليه العصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به فيها حاسرة على ذى غفلة

(١) حديث ابن عمر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السمف فقال ما بقي من الدنيا إلا كما بقي من يومنا هذا فى مثل ما مضى منه ابن أبي الدنيا فيه بأسناد حسن وللترمذى نحوه من حديث أبي سعيد وحسنه (٢) حديث مثل الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره الحديث ابن أبي الدنيا فيه من حديث أنس ولا يصح (٣) حديث جابر كان إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه الحديث مسلم وابن أبي الدنيا فى قصر الأمل واللفظ له (٤) حديث ابن مسعود تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - فقال إن النور إذا دخل الصدر انفسح الحديث ابن أبي الدنيا فى قصر الأمل والحاكم فى المستدرک وقد تقدم .

والبقاء كثيرة فبعضها إشارة إلى فناء المخالفات وبقاء الموافقات وهذا يقتضيه التوبة النصوح فهو ثابت بوصف التوبة وبعضها يشير إلى زوال الرغبة والحرص والأمل وهذا يقتضيه الزهد وبعضها إشارة إلى فناء الأوصاف للذمومة وبقاء الأوصاف المحمودة وهذا يقتضيه تزكية النفس وبعضها إشارة إلى حقيقة الفناء المطلق وكل هذه الاشارات فيها معنى الفناء من وجه ولكن الفناء المطلق هو ما يستولى من أمر الحق سبحانه وتعالى على العبد فيقلب كون

أن يكون عمره عليه حجة وأن ترديه أيامه إلى شقوة جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعة الله معصية ولا يحل به بعد الموت حسرة إنه صميع الدعاء وإنه بيده الخير دائماً فعال لما يشاء وقال بعض المفسرين في قوله تعالى - فنتم أنفسكم - قال بالشهوات واللذات - وتربصتم - قال بالتوبة - وارتبتم - قال شكركم - حتى جاء أمر الله - قال الموت - وغرکم بالله الغرور - قال الشيطان . وقال الحسن تصبروا وتشددوا فانما هي أيام قلائل وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما يحضر تكلم وقال ابن مسعود ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله عارية والضيف مرتحل والغارية مؤداة وقال أبو عبيدة الباجي : دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحبا بكم وأهلا بكم الله بالسلام وأهلنا وإياكم دار المقام هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم واتقيتم فلا يمكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعوه بهذه الأذن وتخرجوه من هذه الأذن فإن من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً ورأى محمداً يضع لينة على لينة ولا فصلة على قصة ولكن رفع له علم فشمم إليه الوحا الوحا النجا النجا إعلام تعرجون أنتم ورب الكعبة كأنكم والأمر معاً رحم الله عبداً جعل العيش عيشاً واحداً فأكل كسرة ولبس خلة وألزم بالأرض واجتهد في العبادة وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك^(١). وقال عاصم الأحول قال لي فضيل الرقاشي وأنا سائله يا هذا لا يشغلنك كثرة الناس عن نفسك فإن الأمر يخص إليك دونهم ولا تنقل أذهب ههنا وههنا فيقطع عنك النهار في لاشئ^١ فإن الأمر محفوظ عليك ولم تر شيئاً قط أحسن طلباً ولا أسرع إدراكاً من حسنة حديثة لذنب قديم .

(الباب الثالث في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عنده)

الحق سبحانه وتعالى على كون العبد وهو ينقسم إلى فناء ظاهر وفناء باطن فأما الفناء الظاهر فهو أن يتجلى الحق سبحانه وتعالى بطريق الأفعال ويسلب عن العبد اختياره وإرادته فلا يرى لنفسه ولا لغيره فضلاً إلا بالحق ثم يأخذ في المعاملة مع الله تعالى بحسبه حتى سمعت أن بعض من أقيم في هذا المقام من الفناء كان يبقى أياماً لا يتناول الطعام والشراب حتى يتجرد له فعمل الحق فيه ويقبض الله تعالى له من

اعلم أنه لو لم يكن بين العبد والمسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بعجزه والكان جديراً بأن يتنفس عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقيقاً بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده لاسيما وهو في كل نفس بصده كما قال بعض الحكماء كرب بيدسواك لا تدرى متى يفشاك . وقال لقمان لابنه يا بني أمر لا تدرى متى يلقاك استمد له قبل أن يفجأك والعجب أن الانسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتسكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات التزع وهو عنه غافل فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور . واعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ومن لم يذوقها فاعلم يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التي أدركها وإما بالاستدلال بأحوال الناس في التزع على شدة ما هم فيه فأما القياس الذي يشهد له فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم فاذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسرى إلى الروح يتألم والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء فلا يصيب الروح إلا بعض الألم فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاق غيره فمما أعظم ذلك الألم وما أشده . والتزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجده وإنما يجري في جزء من الروح يلاق ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تنوص في سائر أجزاء البدن فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهراً

(١) حديث أبي عبيدة الباجي دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحبا بكم الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية من هذا الوجه .

وباطنا لإلوتصيه النار فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم. وأما الجراحة فأنما تصيب للوضع الذي منه الحديد قطع فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار فألم التزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فانه التزع المجدوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم فلأنسأل عن كربيه وألمه حتى قالوا إن للموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمنشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح وإنما يستغيب الضروب ويصبح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه وإنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتساعد على قلبه وبلغ كل موضع منه فهذه كل قوة وضعف كل جراحة فلم يترك له قوة الاستغاثة. أما العقل فقد غشيه وشوشه وأما اللسان فقد أبكمه وأما الأطراف فقد ضعفها ويود لو قدر على الاستراحة بالأعين والصياح والاستغاثة ولكنه لا يقدر على ذلك فان بقيت فيه قوة سمعت له عند زرع الروح وجذبها خوارا وغرغرة من حلقه و صدره وقد تغير لونه وارتد حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته وقد جذب منه كل عرق على حياله فالألم منتشر في داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعلى أجفانه وتقلص الشفتان ويتقلص اللسان إلى أصله وترتفع الأثنيان إلى أعلى موضعهما وتخضر أنامله فلاتسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ولو كان المجدوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما فكيف والمجدوب نفس الروح التأملا من عرق واحد بل من جميع المروق ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا فتردأ ولا تقدمه ثم ساقاه ثم غدها ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويفلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تقبل توبة العبد ما لم يفرغر^(١)» وقال مجاهد في قوله تعالى - وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن - قال إذا عين الرسل فصد ذلك تبدوله صفحة وجهه ملك الموت فلأنسأل عن طعم ممرارة الموت وكربيه عند ترادف سكراته ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «اللهم هوّن على محمد سكرات الموت^(٢)» والناس إنما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فان الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام يامعشر الحواريين ادعوا الله تعالى أن هوّن على هذه السكرة بيني للموت فقد خفت للموت مخافة أوقفني خوفا من الموت على الموت. وروى أن نفر من بني اسرائيل مرّوا بقبرة فقال بعضهم لبعض لودعوتهم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه القبرة ميتا تسألونه فدعوا الله تعالى فاذا هم رجل قد قام وبين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال يا قوم ما أردتم مني لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت ممرارة الموت من قلبي وقالت عائشة رضي الله عنها لا أعبط أحدا هوّن عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وروى أنه عليه السلام كان يقول «اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل اللهم فأعني على الموت وهوّنه عليّ^(٣)» وعن الحسن «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال

يطعمه ويسقيه كيف شاء وأحب وهذا لعمري فناء لأنه فني عن نفسه وعن الغير نظرا إلى فعل الله تعالى بفناء فعل غير الله والفناء الباطن أن يكشف نارة بالصفات ونارة بمشاهدة آثار عظمة الذات فيستولي على باطنه أمر الحق حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس وليس من ضرورة الفناء أن يثيب إحساسه وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصري

- (١) حديث إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغر الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر
(٢) حديث كان يقول اللهم هوّن على محمد سكرات الموت تقدم (٣) حديث كان يقول اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث صعمة ابن غيلان الجهني وهو معتل سقط منه الصحابي والتابعي .

هو قدر ثلثائة ضربة بالسيف^(١)». «ومثل صلى الله عليه وسلم عن الموت وشدته فقال إن أهون الموت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف^(٢)». «ودخل صلى الله عليه وسلم على مريض ثم قال إني أعلم مايلقي مامنه عرق إلا ويألم للموت على حدته^(٣)» وكان على كرم الله وجهه يحض على القتال ويقول إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفسى بيده لألف ضربة بالسيف أهون على من موت على فراش وقال الأوزاعي بلغنا أن البيت يجرد ألم الموت مالم يبعث من قبره وقال شداد بن أوس الموت أقطع هول في الدنيا والآخرة على المؤمن وهو أشد من نشر بالناشير وقرض بالمقاريض وعلى في القدر ولولأن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما اتضعوا بعيش ولا لدوا بنوم. وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم ييلتها بعمله شدد عليه الموت ليليلغ بسكرات الموت وكرهه درجته في الجنة وإذا كان للكافر معروف لم يجزبه هون عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفة فيصير إلى النار وعن بعضهم أنه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف تجدون الموت فلما مرض قيل له فأنت كيف تجده فقال كأن السموات مطبقة على الأرض وكأن نفسى يخرج من ثقب إبرة وقال صلى الله عليه وسلم «موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر^(٤)» وروى عن مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لماتوا باذن الله تعالى لأن في كل شعرة للموت ولا يقع الموت بشيء إلا مات^(٥)» وروى «لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لهابت^(٦)» وروى أن إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له كيف وجدت الموت يا خليلي قال كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب فقال أما إنا قد هونا عليك وروى عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه يا موسى كيف وجدت الموت قال وجدت نفسى كالصغور حين يقلى على اللقى لا يعوت فيستريح ولا ينجو فبطير. وروى عنه أنه قال وجدت نفسى كشاة حية تسلخ يده القصاب وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم «أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هون على سكرات الموت^(٧)»

(١) حديث الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغضته وألمه فقال هو قدر ثلثائة ضربة بالسيف ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلًا ورجاله ثقات (٢) حديث مثل عن الموت وشدته فقال إن أهون الموت بمنزلة حسكة الحديث ابن أبي الدنيا فيه من رواية شهر بن حوشب مرسلًا (٣) حديث دخل على مريض فقال إني لأعلم مايلقي مامنه عرق إلا ويألم للموت على حدته ابن أبي الدنيا فيه من حديث سلمان بسند ضعيف ورواه في المرض والكفارات من رواية عبيد ابن عمير مرسلًا مع اختلاف ورجاله ثقات (٤) حديث موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر أحمد من حديث عائشة باسناد صحيح قال وأخذة أسف ولأبي داود من حديث خالد السلمي موت الفجأة أخذة أسف (٥) حديث مكحول لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لماتوا الحديث ابن أبي الدنيا في الموت من رواية أبي ميسرة رفته وفيه لو أن ألم شعرة ، وزاد وإن في يوم القيامة لتسعين هولاً أدناها هولاً يضاعف على الموت سبعين ألف ضعف وأبو ميسرة هو عمرو بن شرحبيل والحديث مرسل حسن الاسناد (٦) حديث لو أن قطرة من الموت لو وضعت على جبال الدنيا كلها لهابت لم أجده أصلًا ولعل المصنف لم يورده حديثًا فإنه قال وروى (٧) حديث إنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هون على سكرات الموت متفق عليه من حديث عائشة .

وقلت له هل يكون بقاء التخيلات في السر ووجود الوسواس من الشرك الحنفي وكان عندي أن ذلك من الشرك الحنفي فقال لي هذا يكون في مقام الفناء ولم يذكر أنه هل هو من الشرك الحنفي أم لا ثم ذكر حكاية مسلم بن يسار أنه كان في الصلاة فوقعت أسطوانة في الجامع فارتعج لهدتها أهل السوق فدخلوا المسجد فرأوه في الصلاة ولم يحس بالأسطوانة ووقعها فهذا هو الاستفراق والفناء باطنًا ثم قد يتسع وعاءه حتى لعله يكون

وفاطمة رضى الله عنها تقول وا كرباه لسكرك يا ابتاه وهو يقول لا كرب على أهلك بعد اليوم (١) وقال عمر رضى الله عنه لسكعب الأحبار يا كعب حدثنا عن الموت فقال نعم يا أمير المؤمنين إن الموت كنهضن كثير الشوك أدخل في جوف رجل وأخذت كل شوكة بعرق ثم جذبه رجل شديدا ليجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول عليك السلام تفارقتى وأفارقك إلى يوم القيامة (٢) فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه ، فما حالنا ونحن اللهممكون في العاصى وتوالى علينا سكرات الموت بقية الدواهي فان دواهي الموت ثلاث . الأولى : شدة النزاع كاذكرناه . الدهاية الثانية مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروح والخوف منه على القاب فلو رأى صورته التي قبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته ، فقد روى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت هل تستطيع أن ترى صورتي التي قبضت عليها روح الفاجر ؟ قال لا تطيق ذلك . قال بلى . قال فأعرض عني فأعرض عنه ثم التفت فإذا هو برجل أسود قائم الشعر متن الريح أسود الثياب يخرج من فيه ومناخيره لهب النار والدخان ففتى على إبراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه ، وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن داود عليه السلام كان رجلا غيورا وكان إذا خرج أغلق الأبواب فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فاذا هي برجل في العمار قالت من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليقين منه عناه فجاء داود فرآه فقال من أنت فقال أنا الذي لا أهاب الملوك ولا يمنع مني الحجاب فقال فأنت والله إذن ملك الموت وزمل داود عليه السلام مكانه (٣) وروى أن عيسى عليه السلام مر بمجمعة فضربها برجله فقال تسكمني باذن الله فقالت يا روح الله أنا ملك زمان كذا وكذا بينا أنا جالس في ملكي على تاجي وحولى جنودى وحشمى على سرى رملكى إذ بدا لى ملك الموت فزال منى كل عضو على حباله ثم خرجت نفسى إليه فيأبى ما كان من تلك الجموع كان فرقة ويأبى ما كان من ذلك الأنس كان وحشة ، فهذه داهية يلقاها الصاة ويكفأها الطيعون ، فقد حكى الأنبياء مجرد سكرة النزاع دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ولو رآها في منامه ليلة لتنفص عليه بقية عمره فكيف برؤيته في مثل تلك الحال . وأما للطيع فانه يراه في أحسن صورة وأجملها ، فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا وكان له بيت يتعبد فيه فإذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم فإذا برجل في جوف البيت فقال من أدخلك دارى فقال أدخلنيها ربهما فقال أنا ربهما فقال أدخلنيها من هو أملك بها منى ومنك فقال من أنت من الملائكة قال أنا ملك الموت قال هل تستطيع أن ترى الصورة التي قبضت فيها روح المؤمن ؟ قال نعم فأعرض عني فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب قد ذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه فقال يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه ، ومنها مشاهدة الملكين الحافظين . قال وهيب : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه

متحققا بالفناء ومعناه روحا وقلبا ولا يغيب عن كل ما يجرى عليه من قول وفعل ويكون من أقسام الفناء أن يكون في كل فعل وقول مرجعه إلى الله وينتظر الاذن في كليات أموره ليكون في الأشياء باق لا بنفسه فتارك الاختيار منتظر لفعل الحق فان وصاحب الانتظار لا إذن الحق في كليات أموره راجع إلى الله يباطنه في جزئياتها فان ومن ملكه الله تعالى اختياره وأطلقه في التصرف يختار كيف شاء وأراد لا منتظرا للفعل ولا منتظرا للاذن هو باق والباقي في مقام

(١) حديث إن فاطمة قالت وا كرباه لسكرك يا أبتاه الحديث البخارى من حديث أنس بلفظ وا كرب أبتاه وفي رواية لابن خزيمة وا كرباه (٢) حديث إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض الحديث رويناه في الأربعين لأبى هدية إبراهيم بن هدية عن أنس وأبو هدية هالك (٣) حديث أبى هريرة إن داود كان رجلا غيورا الحديث أحمد باسناد جيد نحوه وابن أبى الدنيا في كتاب الموت بلفظه .

الكتابان عمله فان كان مطيعا قال له جزاك الله عنا خيرا فربّ مجلس صدق أجلسنا وعمل صالح أحضرنا ، وإن كان فاجرا قال له لاجزاك الله عنا خيرا فربّ مجلس سوء أجلسنا وعمل غير صالح أحضرنا وكلام قبيح أسمعنا فلا جزاك الله عنا خيرا فذلك شخوص بصر الميت إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبدا. الداهية الثالثة : مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة فانهم في حال السكرات قد تجاوزت قوامم واستسلمت للخروج أرواحهم ولن تخرج أرواحهم مالم يسمو الله ملك الموت بأحد البشريين إما أبشر يا عدو الله بالنار أو أبشر يا ولي الله بالجنة ، ومن هذا كان خوف أرباب الأبواب ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار (١)» وقال صلى الله عليه وسلم «من أحب لقاء الله أحب لقاءه ومن كره لقاء الله كره لقاءه فقالوا كلنا نكره الموت قال ليس ذلك بذلك إن المؤمن إذا فرج له عماءه قادم عليه أحب لقاء الله وأحب لقاءه (٢)» وروى أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود وهو لما به من آخر الليل قم فانظراى ساعة هي قيام ابن مسعود ثم جاءه فقال قد طلعت الحمراء فقال حذيفة أعوذ بالله من صباح إلى النار ، ودخل مروان على أبي هريرة فقال مروان اللهم خفف عنه فقال أبو هريرة اللهم اشدنم بكى أبو هريرة وقال والله ما أبكى حزنا على الدنيا ولا جزعا من فراقكم ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي بجنة أم نار ، وروى في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن الله إذا رضى عن عبد قال يملك الموت اذهب إلى فلان فأنتى بروحه لأرجمه حسبي من عمله قد بولته فوجدته حيث أحب فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ومعهم قضبان الريمان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه وتقوم الملائكة صفيين لخروج روحه معهم الريمان فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ قال فيقول له جنوده مالك يا سيدنا فيقول أمانتون ما أعطى هذا العبد من الكرامة أين كنتم من هذا فالواقدهم نابه فكان مصوما (٣)» وقال الحسن لاراحة للمؤمن إلا في لقاء الله ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى قيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه ، وقيل لجابر بن زيد عند الموت ما تشتهي قال نظرة إلى الحسن فلما دخل عليه الحسن قيل له هذا الحسن فرجع طرفه إليه ثم قال يا إخواناه الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة ، وقال محمد بن واسع عند الموت يا إخواناه عليكم السلام إلى النار أو بفوا الله وتمنى بعضهم أن يبقى في الترع أبدا ولا يبعث لثواب ولا عقاب . نخوف سوء الحاتمة قطع

(١) حديث لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار ابن أبي الدنيا في الموت من رواية رجل لم يسم عن طي موقوفا لا يخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة أم إلى النار وفي رواية حرام طي نفس أن يخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ما يشهد لذلك إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته الحديث (٢) حديث من أحب لقاء الله أحب لقاءه ومن كره لقاء الله كره لقاءه الحديث متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت (٣) حديث إن الله إذا رضى عن عبد قال يملك الموت اذهب إلى فلان فأنتى بروحه لأرجمه الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث تميم الدارى بإسناد ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح في أول الحديث برفعه وفي آخره ما دل على أنه مرفوع وللذاتى من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح إذا حضر الميت أنه ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون أخرجنى راضية مرضية عنك إلى روح الله ورب رحمان ورب راض غير غضبان الحديث .

لا يهجه الحق عن
الخلق ولا الخلق عن
الحق والقائى محبوب
بالحق عن الخلق
والقناء الظاهر لأرباب
القلوب والأحوال
والقناء الباطن لمن
أطلق عسن وثاق
الأحوال وصار بالله
لا بالأحوال وخرج
من القلب فصار مع
مقلبه لامع قلبه .
[الباب الثانى والستون]
فى شرح كلمات مشيرة
إلى بعض الأحوال فى
اصطلاح الصوفية [
أخبرنا الشيخ الثقة
أبو الفتح محمد بن
عبد الباقي بن سليمان
إجازة قال أنا أبو الفضل
أحمد بن أحمد قال أنا
الحافظ أبو نعيم

قلوب العارفين وهو من الدواهي العظيمة عند الموت وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الوضع ، ولكننا لانطول بذكره وإعادته .
(بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت)

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى . أما الصورة فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ارقبوا الميت عند ثلاث إذا رشح جبينه ودمعت عيناه وبيست شفتاه فهى من رحمة الله قد نزلت به وإذا غط غطيظ الخنوق واحمر لونه واربدت شفتاه فهو من عذاب الله قد نزل به (١) » وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهى علامة الخير قال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله (٢) » وفى رواية حذيفة « فانها تهدم ما قبلها من الخطايا (٣) » وقال عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة (٤) » وقال عبيد الله وهو يشهد وقال عثمان إذا احتضر الميت فلقنوه لا إله إلا الله فإنه ما من عبد يحتم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة . وقال عمر رضى الله عنه : احضروا موتاكم وذكرهم فانهم يرون ملائرون ولقنوم لا إله إلا الله . وقال أبو هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئا ففك حليه فوجد طرف لسانه لاصقا بحنكته يقول لا إله إلا الله ففرض له بكلمة الاخلاص (٥) » وينبئ للملقن أن لا يلج في التلقين ولكن يتلطف فربما لا ينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك ويؤدى إلى استئثاره التلقين وكراهيته للكلمة ويغشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة ، وإنما معنى هذه السكلمة أن يموت الرجل وليس في قلبه شئ غير الله فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه وإن كان القلب مشغوبا بالدنيا ملتفتا إليها متأسفا على لذاتها وكانت السكلمة على رأس اللسان ولم ينطبق القلب على تحقيقها وقع الأمر في خطر المشيئة فان مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يفضل الله تعالى بالقبول . وأما حسن الظن فهو مستحب في هذا الوقت وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجاء . وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظن بالله ، دخل وائلة بن الأسقع على مريض فقال أخبرنى كيف ظنك بالله قال أغرقتنى ذنوبى وأشرفت على هلكة ولكنى أرجو رحمة ربي فكبر وائلة وكبر أهل البيت بتكبيره وقال الله أكبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بى فليظن بى ماشاء (٦) » ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت فقال : كيف تجدك قال أرجو الله وأخاف ذنوبى فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما اجتماعا في قلب عبد في مثل هذا

(١) حديث ارقبوا الميت عند ثلاث إذا رشح جبينه وذرفت عيناه الحديث الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من حديث سلمان ولا يصح (٢) حديث لقنوا موتاكم لا إله إلا الله تقدم (٣) حديث حذيفة فانها تهدم ما قبلها تقدم (٤) حديث من بات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة تقدم . (٥) حديث أبى هريرة حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئا الحديث ابن أبى الدنيا فى كتاب المحتضرين وللطبرانى والبيهقى فى الشعب وإسناده جيد إلا أن فى رواية البيهقى رجلا لم يسم وسمى فى رواية الطبرانى إسحق بن يحيى بن طلحة وهو ضعيف (٦) حديث دخل وائلة ابن الأسقع على مريض فقال أخبرنى كيف ظنك بالله وفيه يقول الله أنا عند ظن عبدي بى فليظن بى ماشاء ابن حبان بالمرفوع منه وقد تقدم وأحمد والبيهقى فى الشعب به جميعا .

الأصفهاني قال ثنا محمد ابن إبراهيم قال ثنا أبو مسلم الكشي قال ثنا مسور بن عيسى قال ثنا القاسم بن يحيى قال ثنا ياسين الزيات عن أبى الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن من معادن التقوى تعلمك إلى ما قد علمت علم مالم تعلم والنقص فيما علمت قلة الزيادة فيه وإنما زهد الرجل فى علم مالم يعلم قلة الانتفاع بما قد علم » فتشايخ الصوفية أحكموا أساس التقوى وتعلموا العلم لله تعالى وعملوا بما علموا الموضع تنوأم فطمع الله تعالى مالم

للوطن إلا أعطاه الله الذي يرجو وآمنه من الذي يخاف (١) وقال ثابت البناني كان شاباً به حدة وكان له أم تعظه كثيراً وتقول له يا بني إن لك يوماً فاذكر يومك فلما نزل به أمر الله تعالى أكتبت عليه أمه وجعلت تقول له يا بني قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول إن لك يوماً فقال يا أمه إن لي رباً كثيراً للمعروف وإني لأرجو أن لا يصدمني اليوم بعض معروفه ، قال ثابت فرحمه الله بحسن ظنه بربه . وقال جابر بن وداعة كان شاباً به رهق فاحتضر فقالت له أمه يا بني توصي بشيء قال نعم خاتمي لاتسليبيته فإن فيه ذكر الله تعالى فلفل الله يرحمني فلما دفن رؤى في اللثام فقال أخبروا أمي أن الكلمة قد نقتتني وأن الله قد غفر لي . ومرض أعرابي فقيل له إنك تموت فقال أن يذهب بي قالوا إلى الله قال لما كراهتني أن أذهب إلى من لا يرى الخير إلا منه . وقال أبو العتمر بن سليمان قال أني لما حضرته الوفاة بامعتمر حدثني بالرخص لعل ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به وكانوا يستحبون أن يذكروا للعبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه .

(بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها)

قال أشعث بن أسلم سألت إبراهيم عليه السلام ملك الموت واسمه عزرائيل وله عيتان عين في وجهه وعين في قفاه فقال يا ملك الموت ما تصنع إذا كان نفس بالشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بأرض والتقى الزحفان كيف تصنع ؟ قال أدعو الأرواح باذن الله فتكون بين أصبعي هاتين وقال قد حدثت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء قال وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجل . وقال سليمان بن داود عليهما السلام الملك الموت عليه السلام مالي لأراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا قال ما أنا بذلك بأعلم منك إنما هي محض أو كتب تلقى إليها أسماء ، وقال وهب بن منبه كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى الأرض فدعا بشباب ليلبسها فلم تصعبه فطلب غير هاتين ليس ما أعجبه بعد مرات وكذلك طلب دابة فأتى بها فلم تصعبه حتى أتى بدواب فركب أحسنها فجاءه إبليس فنفض في منخره نفخة ففلاها كبراً ثم سار وسارت معه الحيول وهو لا ينظر إلى الناس كبرافجاءه رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد عليه السلام فأخذ بلجام دابته فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت أمراً عظيماً قال إن لي إليك حاجة قال اصبر حتى أنزل قال لا الآن قهره على اللجام دابته فقال اذكرها قال هو سر فأدنى له رأسه فساراه وقال أنا ملك الموت فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضى حاجتي وأودعهم قال لا والله لا ترى أهلك وتملك أبداً قبض روحه فخر كأنه خشية ثم مضى فلقى عبداً مؤمناً في تلك الحال فسلم عليه فرد عليه السلام فقال إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك فقال هات فساراه وقال أنا ملك الموت فقال أهلاً ومرحباً بمن طالت غيبته طي فو الله ما كان في الأرض غائب أحب إلي أن ألقاه منك فقال ملك الموت اقض حاجتك التي خرجت لها فقال مالي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى قال فاختر طي أي حال شئت أن أقبض روحك فقال تقدر طي ذلك قال نعم إنني أمرت بذلك قال فدعني حتى أتوضأ وأصلي ثم أقبض روحي وأنا ساجد قبض روحه وهو ساجد . وقال أبو بكر بن عبد الله المزني جمع رجل من بني إسرائيل مالا فلما أشرف على الموت قال لبنيه أروني أصناف أموالي فأتى بشيء كثير من الخيل والابل والرقيق وغيره فلما نظر إليه بكى تحسراً عليه فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال له ما يبكيك فو الذي خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك قال فالمهلة حتى أفرقه قال هي بات انقطعت عنك المهلة فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك قبض روحه . وروى أن رجلاً جمع مالا فأوعى ولم يدع صنفاً من المال إلا أخذته وابنتي قصراً وجعل عليه بايين وثيمين وجمع عليه حرساً من غلماناه ثم جمع أهله وصنع لهم طعاماً وقصد طي سريره ورفع إحدى رجله طي الأخرى وهم يأكلون .

(١) حديث دخل طي شاب وهو يموت فقال كيف تجدك فقال أرجوا الله وأخاف ذنوبي الحديث تقدم .

يطمأن من غرائب
المعلوم ودقيق الأشارات
واستبطنوا من كلام
الله تعالى غرائب العلوم
ومجائب الأسرار
وترسخ قدمهم في العلم
قال أبو سعيد الخزاز
أول الفهم لكلام الله
العمل به لأن فيه العلم
والفهم والاستنباط
وأول الفهم لقاء السمع
والمشاهدة لقوله تعالى
- إن في ذلك لذكرى
لمن كان له قلب أو ألقى
السمع وهو شهيد .
وقال أبو بكر الواسطي
الراسخون في العلم هم
الذين رسخوا بأرواحهم
في غيب الغيب وفي
سر السر ففهمهم
ماعرهم وأراد منهم
من مقتضى الآيات

فلما فرغوا ، قال يانفس انصبي لسنين فقد جمعت لك ما يكفيك فم يفرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب وفي عنقه غلالة يتشبه بالمساكين قمرع الباب بشدة عظيمة قرعا أفزعه وهو على فراشه فوثب إليه الغلمان وقالوا ماشأنتك فقال ادعوا إلى مولانا كم فقالوا وإلى مثلك يخرج مولانا قال نعم فأخبروه بذلك فقال هلا فطمم به وفطم قمرع الباب قرعة أشد من الأولى فوثب إليه الحرس فقال أخبروه آني ملك الموت فلما سمعوه ألقى عليهم الرعب ووقع على مولاهم الذل والتخضع فقال قولوا له قولنا لنا وقولوا هل تأخذ به أحدا فدخل عليه وقال اصنع في مالك ما أنت صانع فاني لست بخارج منها حتى أخرج روحك فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه لعنك الله من مال أنت شفقتني عن عبادة ربي ومنعتني أن آخذ لربي فأنطق الله الملك فقال لم تسبني وقد كنت تدخل على السلاطين بي ويرد التقي عن باهمم وكنت تسكح التمتعيات بي وتجناس مجالس الملوك بي وتنفقني في سبيل الشر فلا أمتنع منك ولو آتقتني في سبيل الخير ففتكت خلقت وابن آدم من تراب فنطلق وير ومنطلق باثم ثم قبض ملك الموت روحه فقطع وقال وهب بن منبه قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما في الأرض مثله ثم عرج إلى السماء فقالت اللائكة لمن كنت أشد رحمة ممن قبضت روحه قال أمرت بقبض نفس امرأة في فلاة من الأرض فأيتها وقد ولدت مولودا فرحمتها لرحمتها ورحمت ولدها لصغره وكونه في فلاة لا تمتهد له بها فقالت اللائكة الجبار الذي قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذي رحمته فقال ملك الموت سبحان اللطيف لما يشاء قال عطاء بن يسار إذا كان ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت صحيفة فيقال قبض في هذه السنة من في هذه الصحيفة قال فان العبد ليغرس القراس وينكح الأزواج ويبني البنيان وإن اسمه في تلك الصحيفة وهو لا يدري . وقال الحسن مامن يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى أجله قبض روحه فاذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء فيأخذ ملك الموت بضادتي الباب فيقول والله ما أكلت له رزقا ولا أفيت له عمرا ولا اتقصت له أجلا وإن لي فيكم لعودة بعد عودة حتى لا أبقى منكم أحدا قال الحسن فوالله لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لتهلوا عن مبيتهم ولبكوا على أنفسهم وقال يزيد الرقاشي بيننا جبار من الجبابرة من بنى إسرائيل جالس في منزله قد خلا بعض أهله إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فثار إليه فزعا مضطبا فقال له من أنت ومن أدخلك على داري قال أما الذي أدخلني الدار فربها وأما أنا فإلهي لا يمنع مني الحجاب ولا أستأذن على الملوك ولا أخاف صولة للتسلطين ولا يتمتع مني كل جبار عنيد ولا شيطان مريد قال فسقط في يد الجبار وارتعد حتى سقط منكبا على وجهه ثم رفع رأسه إليه مستجديا متذللا له فقال له أنت إذن ملك الموت قال أنا هو قال فهل أنت ممهل حتى أحدث عهدا قال هيأت انقطعت مدتك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك فإيسر إلى تأخيرك سبيل قال فإلى أين تذهب بي قال إلى عملك الذي قدمته وإلى بيتك الذي مهدته قال فإني لم أقدم عملا صالحا ولم أمهد بيتا حسنا قال فإني لظي نزاعة للشوى ثم قبض روحه فسقط ميتا بين أهله فمن بين صارخ وبك قال يزيد الرقاشي لو يعلمون سوء النقلب كان العويل على ذلك أكثر وعن الأعمش عن خيثة قال دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه فلما خرج قال الرجل من هذا قال هذا ملك الموت قال لقد رأيته ينظر إلى كأنه يريدني قال فإذا تريد قال أريد أن تغلصني منه فأمر الريح حتى تحملني إلى أقصى الهند ففعلت الريح ذلك ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أماته ثانيا رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائي . قال نعم كنت أتعب منه لأنني كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة قريبة وكان عندك ففعلت من ذلك.

مالم يرد من غيرهم
وخاصوا بحر العلم
بالفهم لطلب الزيادات
فانكشف لهم من
مدخور الحزائن
والمنزور تحت كل
حرف وآية من الفهم
ومعائب النقص
فاستخرجوا الدرر
والجواهر ونطقوا
بالحكمة . وقد ورد
في الخبر عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
فيما رواه سفيان بن
عيينة عن ابن جريج
عن عطاء عن أبي
هريرة أنه قال إن من
العلم كهية المسكون
لا يلمه إلا العلماء بالله
فاذا انطقوا به لا ينكروه
إلا أهل القرة بالله .
أخبرنا أبو زرعة قال

(الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده)
(وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم)

اعلم أن في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة حيا وميتا وفلاوة ولا وجميع أحواله عبرة للناظرين وتبصرة للمستبصرين إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحبيبه ونبيّه وكان صفيه ورسوله ونبيه فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته وهل أخره لحظة بمد حضور منيته لا، بل أرسل إليه اللائكة الكرام الوكّلين بقبض أرواح الأنام فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان وخيرات حسان بل إلى مقعد صدق في جوار الرحمن فاشتد مع ذلك في التزع كربه وظهر أنينه وترادف قلقه وارتفع حنينه وتغير لونه وعرق جبينه واضطربت في الانقباض والانبساط فماله ويمينه حتى بكى لمصرعه من حضره واتجب لشدة حاله من شاهد منظره فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدورا وهل راقب الملك فيه أهلا وعشيرا وهل ساعه إذ كان للحق نصيرا وللخلق بشيرا ونذيرا هيات بل امتلما كان به مأمورا واتبع ما وجدته في اللوح مسطورا فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود والحوض المورود وهو أول من تنشق عنه الأرض وهو صاحب الشفاعة يوم العرض فالعجب أنا لانعبر به ولنا على ثقة فيما نلقاه بل نحن أسراء الشهوات وقرناء المعاصي والسيئات فما بالنا لاتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وحبیب رب العالمين لعنا نظن أننا مخلصون أو نتوهم أننا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون هيات بل نتيقن أننا جميعا على النار واردون ثم لا ينجو منها إلا المتقون فنحن للورود مستيقنون وللصدور عنها متوهمون لا، بل ظلمنا أنفسنا إن كنا كذلك لنالب الظن منتظرين لما نحن والله من المتقين وقد قال الله رب العالمين - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم نجى الدين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا - فلينظر كل عبد إلى نفسه انه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين فلقد كانوا مع ما وقعوا له من الحاتمين ثم انظر إلى سيد المرسلين فانه كان من أمره على يقين إذ كان سيد النبيين وقائد المتقين واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا وكيف اشتد أمره عند الانقلاب إلى جنّة المأوى قال ابن مسعود رضی الله عنه «دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة رضی الله عنها حين دنا الفراق فنظر إلينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال مرحبا بكم حياكم الله آواكم الله نصرکم الله وأوصيكم بتقوى الله وأوصى بكم الله إلى لكم منه نذير مبين ألا تعلوا على الله في بلاده وعباده وقد دنا الأجل والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى وإلى جنّة المأوى وإلى الكأس الأوفى فآفروا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدى منى السلام ورحمة الله (١) ». وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته «من لأمتي بعدى

أنا أبو بكر بن خلف
قال ثنا أبو عبد الرحمن
قال سمعت النصارى
يقول سمعت ابن عائشة
يقول سمعت القرشي
يقول هي أسرار الله تعالى
ييدها إلى أمنا أوليائه
وسادات النبلاء من
غير جماع ولا دراسة
وهي من الأسرار التي
لم يطلع عليها إلا
الحواس . وقال
أبو سعيد الخزاز
للعارفين خزائن
أودعوها علوما غريبة
وأبناء عجمية يتكلمون
فيها بلسان الأبدية
ويخبرون عنها بسارة
الأزلية وهي من العلم
المجهول فقوله بلسان
الأبدية وعبارة الأزلية
إشارة إلى أنهم بالله

(الباب الرابع في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم)

(١) حديث ابن مسعود دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة حين دنا الفراق الحديث رواه الزائر وقال هذا الكلام قد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متقاربة قال وعبد الرحمن الأصهباني لم يسمع هذا من مرة وإنما هو ممن أخبره عن مرة قال ولا أعلم أحدا رواه عن عبد الله غير مرة . قلت وقد روى من غير ما وجه رواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود ودورونه في مشيخة القاضي أبي بكر الأنصاري من رواية الحسن العربي عن ابن مسعود ولكنهما منقطعان وضعيفان والحسن العربي إنما يرويه عن مرة كما رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط .

فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لأأخذله في أمته وبشره بأنه أسرع الناس خروجا من الأرض إذا بشوا وسيدهم إذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته فقال الآن قرت عيني (١) وقالت عائشة رضي الله عنها «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقتله بسبع قرب من سبعة آبار فقتلنا ذلك فوجد راحة فخرج فضلى بالناس واستغفر لأهل أهدودما لهم وأوصى بالأنصار فقال أما بعد يا معشر المهاجرين فإنكم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على هبتها التي هي عليها اليوم وإن الأنصار عيبتي التي أويت إليها فأكرموا كريمهم يعني محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم ثم قال إن عبدا خيرا بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله فبكي أبو بكر رضي الله عنه وظن أنه يريد نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم على رسلك يا أبا بكر سدا وهذه الأبواب الشوارع في المسجد إلا باب أبي بكر فاني لأعلم امرأة أفضل عندي في الصحبة من أبي بكر (٢) قالت عائشة رضي الله عنها «قبض صلى الله عليه وسلم في بيتي وفي يومى وبين سحرى ونحرى وجمع الله بين ربي وريقه عند الموت فدخل على أخى عبد الرحمن ويده سواك فجعل ينظر إليه ففرقت أنه يعجبه ذلك فقلت له آخذك فأوما برأسه أن نعم فتأولته إياه فأدخله في فيه فاشتد عليه فقلت أليته لك فأوما برأسه أن نعم فلينته وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده ويقول لا إله إلا الله إن للموت لسكرات ثم نصب يده يقول الرفيق الأعلى الرفيق الأعلى فقلت إذن والله لا يختارنا (٣)» وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأته الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد تقلا أطافوا بالمسجد فدخل العباس رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فأعلمه بمكاتهم وإشفاقهم ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه على رضي الله عنه فأعلمه بمثله فد يده وقالها فتأولوه فقال ماتقولون؟ قالوا تقول نخشى أن تموت وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فثار رسول الله ﷺ فخرج متوكئا على الفضل والعباس أمامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من اللبر وثاب الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس إنه بلغني أنكم تخافون على الموت كأنه استنكار منكم للموت وماتسكرون من موت نبيكم ألم أنع إليكم وتنمى إليكم هل خلدني قبلي فيمن يمث فأخذ فيكم ألا إني لاحق بربي وإنكم لاحقون به وإني أوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله عز وجل قال - والعصر إن الإنسان لني خسر إلا الذين آمنوا - إلى آخرها وإن الأمور تجري بأذن الله فلا تعملنكم استبطاء أمر على استعجاله فإن الله عز وجل لا يسجل لمجلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه - فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم - وأوصيكم بالأنصار خيرا فإنهم الذين تبوءوا الدار والائمان من قبلكم

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عند موته من لأمقى بعدى فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لأأخذله في أمته الحديث الطبراني من حديث جابر وابن عباس في حديث طويل فيه من لأمقى المصطفة من بعدى قال أشر يا حبيب الله فإن الله عز وجل يقول قد حرمت الجنة على جميع الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال الآن طابت نفسي وإسناده ضعيف (٢) حديث عائشة أمرنا أن نقتله بسبع قرب من سبعة آبار فقتلنا ذلك فوجد راحة فخرج فضلى بالناس واستغفر لأهل أهدودما لهم وأوصى بالأنصار فقال أما بعد يا معشر المهاجرين فإنكم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على هبتها التي هي عليها اليوم وإن الأنصار عيبتي التي أويت إليها فأكرموا كريمهم يعني محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم ثم قال إن عبدا خيرا بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله فبكي أبو بكر رضي الله عنه وظن أنه يريد نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم على رسلك يا أبا بكر سدا وهذه الأبواب الشوارع في المسجد إلا باب أبي بكر فاني لأعلم امرأة أفضل عندي في الصحبة من أبي بكر (٣) حديث عائشة قبض في بيتي وفي يومى وبين سحرى ونحرى وجمع الله بين ربي وريقه عند الموت فدخل على أخى عبد الرحمن ويده سواك فجعل ينظر إليه ففرقت أنه يعجبه ذلك فقلت له آخذك فأوما برأسه أن نعم فتأولته إياه فأدخله في فيه فاشتد عليه فقلت أليته لك فأوما برأسه أن نعم فلينته وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده ويقول لا إله إلا الله إن للموت لسكرات ثم نصب يده يقول الرفيق الأعلى الرفيق الأعلى فقلت إذن والله لا يختارنا (٣)» وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأته الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد تقلا أطافوا بالمسجد فدخل العباس رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فأعلمه بمكاتهم وإشفاقهم ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه على رضي الله عنه فأعلمه بمثله فد يده وقالها فتأولوه فقال ماتقولون؟ قالوا تقول نخشى أن تموت وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فثار رسول الله ﷺ فخرج متوكئا على الفضل والعباس أمامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من اللبر وثاب الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس إنه بلغني أنكم تخافون على الموت كأنه استنكار منكم للموت وماتسكرون من موت نبيكم ألم أنع إليكم وتنمى إليكم هل خلدني قبلي فيمن يمث فأخذ فيكم ألا إني لاحق بربي وإنكم لاحقون به وإني أوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله عز وجل قال - والعصر إن الإنسان لني خسر إلا الذين آمنوا - إلى آخرها وإن الأمور تجري بأذن الله فلا تعملنكم استبطاء أمر على استعجاله فإن الله عز وجل لا يسجل لمجلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه - فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم - وأوصيكم بالأنصار خيرا فإنهم الذين تبوءوا الدار والائمان من قبلكم

ينطقون وقد قال تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم «بي ينطق» وهو العلم اللدني الذي قال الله تعالى فيه في حق الخضر - آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما - فماتت اولته ألسنتهم من الكلمات تنهيا من بعضهم لبعض وإشارة منهم إلى أحوال يحدونها ومما سلات قلبية يرفونها قولهم الجمع والفرقة قيل أصل الجمع والفرقة قوله تعالى - شهد الله أنه لا إله إلا هو - فهذا جمع ثم فرق فقال ولللائكة وأولو العلم - وقوله تعالى - آمنة بالله - جمع ثم فرق بقوله - وما أزلنا - والجمع أصل والفرقة

أن تحسنوا إليهم ألم يشاطروكم الثمار ألم يوسعوا عليكم في الديار ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخاصة
 ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من أحسنهم وليتجاوز عن سيئهم ألا ولا تستأثروا عليهم
 ألا وإنى فرط لكم وأتم لاحتقون بي ألا وإن موعدكم الحوض حوضى أعرض مما بين بصرى الشام
 وصنعاء اليمن يصب فيه ميزاب الكوثر ماء أشد يابسا من اللبن والين من الزبد وأحلى من الشهد
 من شرب منه لم يظمأ أبدا حضاؤه اللؤلؤ وبطحاؤه للسك من حرمة في الموقف غدا حرم الخير كله
 ألا فمن أحب أن يردّه على غدا فليكفف لسانه ويده إلا مما يبنى فقال العباس يابى أوص بقريش
 فقال إنما أوصى بهذا الأمر قريشا والناس تبع لقريش برم لبرم وفاجرهم فاجرهم فاستوصوا
 آل قريش بالناس خيرا يا أيها الناس إن القنوب تغير النعم وتبدل القسم فاذا بر الناس برم أمتهم
 وإذا فجر الناس عقومهم قال الله تعالى - وكذلك نولى بعض الظالمين بضامبا كانوا يكسبون- (١)
 وروى ابن مسعود رضى الله عنه « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر رضى الله عنه سل يا أبا بكر
 فقال يا رسول الله دنا الأجل فقال قد دنا الأجل وتبدل فقال لبيك يابى الله ما عند الله فليتشمري
 عن منقلبنا فقال إلى الله وإلى سدرة المنتهى ثم إلى جنة اللاوى والفردوس الأعلى والسكاس الأوفى
 والرفيق الأعلى والحظ والعيش الهنا فقال يابى الله من على غسلك؟ قال رجال من أهل بيتي الأذى فالأذى
 قال فقيم نفسك؟ فقال فى ثيابي هذه وفى حلة يمانية وفى يابض مصر فقال كيف الصلاة عليك منا
 وبكينا وبكى ثم قال مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا إذا غسلتمونى وكفتمونى فضعونى
 على سرىرى فى بيتى هذا على شفير قبرى ثم اخرجوا عنى ساعة فان أول من صلى على الله عز وجل هو
 الذى صلى عليكم وملائكته - ثم يأذن للملائكة فى الصلاة على فأول من يدخل على من خلق الله
 ويصلى على جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك اللوت مع جنود كثيرة ثم للملائكة بأجمعها صلى
 الله عليهم أجمعين ثم أتم فادخلوا على أفواجا فضلوا على أفواجا زمرة زمرة وسلموا تسليما ولا تؤذونى
 بزكية ولا صيحة ولا رنة وليبدأ منكم الامام وأهل بيتي الأذى فالأذى ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان
 قال لمن يدخلك القبر؟ قال زمر من أهل بيتي الأذى فالأذى مع ملائكة كثيرة لا رونهم وهم يرونكم
 قوموا فأدوا عنى إلى من بعدى (٢) « وقال عبد الله بن زمعة جاء بلال فى أول شهر ربيع الأول فأذن
 بالصلاة فقال رسول الله ﷺ « مروا أبا بكر يصلى بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر فى
 رجال ليس فهم أبو بكر فقلت تم يا عمر فصل بالناس مقام عمر فلما كبر وكان رجلا صيتا سمع
 رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير فقال أين أبو بكر يابى الله ذلك والسلمون قالها ثلاث
 مرات مروا أبا بكر فليصل بالناس فقالت عائشة رضى الله عنها يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق
 القلب إذا قام فى مقامك غلبه البكاء فقال إنكن صويحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس

(١) حديث سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم
 يزداد تقيلا أطافوا بالمسجد فدخل العباس فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم فذكر الحديث فى خروجه متوكئا
 مصوب الرأس يخط رجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من اللبر فذكر خطبته بطولها هو حديث
 مرسل ضعيف وفيه نكارة ولم أجد له أصلا وأبوه عبد الله بن ضرار بن الأزور تابعى. روى عن
 ابن مسعود قال أبو حاتم فيه وفى أبيه سعيد ليس بالقوى (٢) حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله
 عليه وسلم قال لأبي بكر سل يا أبا بكر فقال يا رسول الله دنا الأجل فقال قد دنا الأجل الحديث فى
 سؤالهم له من على غسلك وقيم نفسك وكيفية الصلاة عليه رواه ابن سعد فى الطبقات عن محمد
 ابن عمر وهو الواقدى بإسناد ضعيف إلى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف كما تقدم.

فزع فكل جمع
 بلا خفرقة زندقه
 وكل خفرقة بلا جمع
 تعطيل . وقال الجنيد
 القرب بالوجد جمع
 وغيته فى البشرية
 تفرقة وقيل جمعهم فى
 للفرقة وفرقهم فى
 الأحوال والجمع اتصال
 لا يشاهد صاحبه إلا
 الحق ففى شاهد غيره
 لما جمع والتفرقة شهود
 لمن شاء بالمباينة
 وعباراتهم فى ذلك
 كثيرة والمقصود أنهم
 أشاروا بالجمع إلى
 تجريد التوحيد
 وأشاروا بالتفرقة إلى
 الاكتساب ففى هنا
 لاجمع إلا بتفرقة
 ويقولون فلان فى عين
 الجمع يبنون استيلاء

قال فضلى أبو بكر بعد الصلاة التي صلى عمر فكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة بعد ذلك ويحك ماذا صنعت لى والله لولا آتى ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك ما فعلت فيقول عبد الله إنى لم أر أحدا أولى بذلك منك قالت عائشة رضى الله عنها وما قلت ذلك ولا صرفته عن أبى بكر إلا رغبة به عن الدنيا ولما فى الولاية من المخاطرة والمساكة إلا من سلم الله وخشيت أيضا أن لا يكون الناس يحبون رجلا صلى فى مقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو حى أبدا إلا أن يشاء الله فيجسدونه ويغفون عليه ويتشاءمون به فاذن الأمر أمر الله والقضاء قضاءه وعصمه الله من كل ما تخوفت عليه من أمر الدنيا والدين (١) » وقالت عائشة رضى الله عنها فلما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة فى أول النهار ففرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوأجهم مستبشرين وأخلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفساء فيينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا فى الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخرجن عنى هذا للملك يستأذن على فخرج من فى البيت غيرى ورأسه فى حجرى » فجلس وتحت فى جانب البيت فناجى الملك طويلا ثم إنه دعانى فأعادورأسه فى حجرى وقال للنسوة ادخلن قتل ما هذا بحس جبريل عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءنى فقال إن الله عز وجل أرسلنى وأمرنى أن لا أدخل عليك إلا باذن فان لم تأذن لى أرجع وإن أذنت لى دخلت وأمرنى أن لا أقبضك حتى تأمرنى فماذا أمرك قتل ككف عنى حتى يأتىنى جبريل عليه السلام فهذه ساعة جبريل فقالت عائشة رضى الله عنها فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأى فوجنا وكأنا ضربنا بصاخرة مانعير إليه شيئا وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاما لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا قالت وجاء جبريل فى ساعته فلم صرفت حه خرج أهل البيت فدخل فقال إن الله عز وجل قرأ عليك السلام ويقول كيف تجدك وهو أعلم بالذى تجد منك ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفا وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنة فى أمك قال أجدنى وجما فقال أشر فان الله تعالى أراد أن يملك ما عدلك فقال يا جبريل إن ملك الموت استأذن على وأخبره الخبر فقال جبريل يا محمد إن ربك إليك مشتاق ألم يطبك الذى يريدك لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبدا إلا أن ربك متم شرفك وهو إليك مشتاق قال فلا تبرح إذن حتى يحمى وأذن للنساء فقال يا فاطمة ادنى فأكبت عليه فاجاها فرفضت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ثم قال أدنى منى رأسك فأكبت عليه فاجاها فرفضت رأسها وهى تضحك وما تطيق الكلام فكان الذى رأينا منها هجبا فسألها بعد ذلك فقالت أخبرنى وقال إنى ميت اليوم فكبت ثم قال إنى دعوت الله أن يلحقك بى فى أول أهلى وأن يملك مسمى فضحكت وأدنت ابنيها منه فشهما قالت وجاء ملك الموت فسلم واستأذن فأذن له فقال الملك سأتأمرنا يا محمد قال ألحقنى بربى الآن فقال بلى من يومك هذا أما إن ربك إليك مشتاق ولم يتردد عن أحد ترده عنك

(١) حديث عبد الله بن زمعة جاء به فى أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبي صلى الله عليه وسلم مرأوا أبابكر فليصل بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر فى رجال ليس فيهم أبوبكر الحديث أبو داود باسناد جيد نحوه مختصرا دون قوله فقالت عائشة إن أبابكر رجل رقيق إلى آخره ولم يقل فى أول ربيع الأول وقال مروا من يصل بالناس وقال أبابكر ذلك وللؤمنون مرتين وفى رواية له فقال لا لا لا يصل للناس ابن أبى قحافة يقول ذلك منضبا وأما فى آخره من قول عائشة فى الصحيحين من حديثها فقالت عائشة يا رسول الله إن أبابكر رجل رقيق إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء فقال إنك صواحب يوسف مروا أبابكر فليصل بالناس .

مراقبة الحق على باطنه
فاذا عاد إلى شيء من
أعماله عاد إلى التفرقة
فضحة الجمع بالتفرقة
وصحة التفرقة بالجمع
فهذا يرجع حاصله
إلى أن الجمع من العلم
بالله والتفرقة من العلم
بأمر الله ولا بد منهما
جميعا . قال للزين
الجمع عين القناء بالله
والتفرقة العبودية
متصل بعضها ببعض
وقد غلط قوم وادعوا
أنهم فى عين الجمع
وأغاروا إلى صرف
التوحيد وعطلوا
الاكتساب فزندقوا
وإنما الجمع حكم الروح
والتفرقة حكم القالب
وما دلم هذا التركيب
بأبى فلا بد من الجمع

ولم ينه عن الدخول على أحد إلا بذن غيرك ولسكن ساعتك أمامك وخرج قالت وجاء جبريل فقال السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما نزل فيه إلى الأرض أبدا طوى الوحي وطويت الدنيا وما كان لي في الأرض حاجة غيرك ومالي فيها حاجة إلا حضورك ثم لزوم موقفي لا والذي بعث محمد بالحق ما في البيت أحد يستطيع أن يحير إليه في ذلك كلمة ولا يمشي إلى أحد من رجاله لعظم ما يسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا قالت قصمت إلى النبي ﷺ حتى أضع رأسه بين يدي وأمسكت بصدرة وجهه ليعلم عليه حتى يبلب وجبهته ترشح رشحا مارأيته من إنسان قط فجعلت أسلت ذلك الفرق وما وجدت رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول له إذا أفاق بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي ماتلقى جبهتك من الرشح فقال يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شذقيه كنفس الحمار فعند ذلك ارتعنا وبشنا إلى أهلنا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخى بعثه إلى أبي قحافة رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يمجي أحد وإنما صدمه الله عنه لأنه ولاء جبريل وميكائيل وجعل إذا أغشى عليه قال بل الرفيق الأعلى كأن الحيرة تعاد عليه فإذا أطاق الكلام قال الصلاة الصلاة إنكم لا تزالون متباكين ماصليتم جميعا الصلاة الصلاة كان يوصي بها حتى مات وهو يقول الصلاة الصلاة (١) قالت عائشة رضی الله عنها مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى واتصاف النهار يوم الاثنين (٢) قالت فاطمة رضی الله عنها ما بقيت من يوم الاثنين والله لا تزال الأمة تصاب فيه بمظيعة

والتفسرة . وقال الواسطي إذا نظرت إلى نفسك فرقت وإذا نظرت إلى ربك جمعت وإذا كنت قائما بغيرك فأنت فان بلا جمع ولا تفرقة .

وقيل جمعهم بذاته وفرقهم في صفاته وقد يريدون بالجمع والتفرقة أنه إذا أثبت لنفسه حكما ونظرا إلى أعماله فهو في التفرقة وإذا أثبت الأشياء بالحق فهو في الجمع وجميع الاشارات يني أن الكون يفرق والمكون يجمع فمن أفرد المكون جمع ومن نظرا إلى الكون فرقت التفرقة عبودية والجمع توحيد فاذا

(١) حديث عائشة لما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار ففرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوالهم مستبشرين وأخلاء رسول الله ﷺ بالنساء فبينما نحن على ذلك لم يكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اخرجن عنى ، هذا للكم يستأذن على الحديث بطوله في عجمي ملك الموت ثم ذهابه ثم عجمي جبريل ثم عجمي ملك الموت ووفاته صلى الله عليه وسلم الطبراني في الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف في حديث طويل فيه فلما كان يوم الاثنين اشتد الأمر وأوحى الله إلى ملك الموت أن اهبط إلى حبيبي وصفي محمد صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة وارفق به في قبض روحه وفيه دخول ملك الموت واستئذانه في قبضه فقال يا ملك الموت أين خلفت حبيبي جبريل قال خلفته في سماء الدنيا والللائكة يزورنه فيك لما كان بأسرع أن أتاه جبريل فقعده عند رأسه وذكر بشارة جبريل له بما أعد الله له وفيه أدن يا ملك الموت فأتته إلى ما أمرت به الحديث وفيه فدنا ملك الموت بعالج قبض روح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر كربه لذلك إلى أن قال قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث طويل في ورتين كبار وهو منكر وفيه عبد النعم بن إدريس ابن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال أحمد كان يكذب على وهب بن منبه وأبوه إدريس أيضا متروك قاله الدارقطني ورواه الطبراني أيضا من حديث الحسين بن علي أن جبريل جاءه أولا فقال له عن ربه كيف تجدك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء إسماعيل وأن جبريل دخل أولا فسأله ثم استأذن ملك الموت وقوله امض لما أمرت به وهو منكر أيضا وفيه عبد الله بن ميمون القداح قال البخاري ذاهب الحديث ورواه أيضا من حديث ابن عباس في عجمي ملك الموت أولا واستئذانه قوله إن ربك بقرئك السلام فقال أين جبريل فقال هو قريب مني الآن يأتي فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل الحديث وفيه المختار بن نافع منكر الحديث .

(٢) حديث عائشة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى واتصاف النهار يوم الاثنين رواه ابن عبد البر .

وقالت أم كلثوم يوم أصيب على كرم الله وجهه بالكوفة مثلها ما لقيت من يوم الاثنين مات في رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه قتل على وفيه قتل أبي فمالقت من يوم الاثنين وقالت عائشة رضي الله عنها «لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بثوبه فاختلوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فماتكم إلا بعد البعد وخلط آخرون فلاتوا الكلام بغير بيان وبقي آخرون معهم عقولهم وأقعد آخرون وكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته وعلى فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يميت ولم يرجعه الله عز وجل وليقطعن أيدي وأرجل رجالك من المنافقين يتحنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموت إنما واعد الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتكم^(١)» وفي رواية أنه قال: يا أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يميت والله لا أسمع أحدا يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات إلا علوته بسفي هذا. وأما على فإنه أقعد فلم يرح في البيت وأما عثمان فجعل لا يكلم أحدا يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس فإن الله عز وجل أيدهما بالتوفيق والسداد وإن كان الناس لم يرعوا إلا بقول أبي بكر حتى جاء العباس فقال والله الذي لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم الموت ولقد قال وهو بين أظهركم - إنك ميت وإني ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون - وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه ثم أكب عليه قبله ثم قال بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كان الله ليذيقك الموت مرتين فقد والله توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج إلى الناس فقال أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يبسدر ب محمد فإنه حي لا يموت قال الله تعالى - وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم -^(٢) الآية فكان الناس لم يسموا هذه الآية إلا يومئذ وفي رواية: أن أبا بكر رضي الله عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كتفصع الجرة وهو في ذلك جلد الفعل والقال فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول: بأبي أنت وأمي ونسفي وأهل طبت

(١) حديث عائشة لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبه فاختلوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فماتكم إلا بعد البعد وخلط آخرون معهم عقولهم وأقعد آخرون وكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته وعلى فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يميت الحديث إلى قوله عند ربكم تختصمون لم أجده أصلاً وهو منكر (٢) حديث بلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه ثم أكب عليه قبله وبكى ثم قال بأبي أنت وأمي ما كان الله ليذيقك الموت مرتين الحديث إلى آخر قوله وكان الناس لم يسموا هذه الآية إلا يومئذ البخاري ومسلم من حديث عائشة أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسنع حتى نزل ودخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيم رسول الله ﷺ وهو منسفي بثوب حبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه قبله وبكى ثم قال بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتين أما الموتة التي كتبت عليك فقدمتها ولهما من حديث ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس الحديث وفيه والله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر لفظ البخاري فيهما.

أثبت طاعته نظراً إلى كسبه فرق وإذا أثبتها بالله جمع وإذا تحقق بالفناء فهو جمع الجمع ويمكن أن يقال رؤية الأفعال تفرقة ورؤية الصفات جمع ورؤية الذات جمع الجمع . مثل بعضهم عن حال موسى عليه السلام في وقت الكلام فقال : أفنى موسى عن موسى فلم يكن لموسى خبر من موسى ثم كالم فكان المكلم والمكلم هو وكيف كان يطبق موسى حمل الخطاب وردّ الجواب لولا إياها مع ومعنى هذا أن الله تعالى منعه قسوة بتلك

حيا وميتا انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوة فغطت عن الصفة وجلت عن البكاء وخصمت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجدنا لحزنك بالنفوس ولولا أنك نهيت عن البكاء لأفقدنا عليك ماء العيون فأما ما لا نستطيع فيه عنا فسكند وادكار محالفان لا يبرحان اللهم فأبغى عنا إذ كرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك ولنسكن من بالك فلولا ما خلفت من السكينة لم يبق أحد لما خلفت من الوحشة اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا (١). وعن ابن عمر أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى عجب أهل البيت عجباً سمعهم أهل الصلى كما ذكر شيئا ازدادوا لما سكن عجبهم إلا نسلم رجل على الباب صبت جلد قال السلام عليكم يا أهل البيت - كل نفس ذائقة الموت - الآية إن في الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل عناية فآله فارجوا وبه فتقوا فاستمموا له وأنكروه وقطعوا البكاء فلما انقطع البكاء فقد صوته فاطلع أحدهم فلم ير أحدا ثم عادوا فبكوا فزادهم مناد آخر لا يرفون صوته يا أهل البيت اذكروا الله واحمدوه على كل حال تكونوا من المحلصين إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغبة فآله فأطيعوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الحضر واليسع عليهما السلام حضرا النبي صلى الله عليه وسلم (٢) واستوفى القعقاع بن عمرو حكاية خطبة أبي بكر رضى الله عنه فقال قام أبو بكر في الناس خطيبا حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جليها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه

(١) حديث إن أبا بكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهلان وغصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفعل والمقال فأكب عليه فكشف الثوب عن وجهه الحديث إلى قوله واحفظه فينا ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث ابن عمر باسناد ضيف جاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى فكشف الثوب عن وجهه الحديث إلى آخره (٢) حديث ابن عمر في معجم التزيية به صلى الله عليه وسلم إن في الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل عناية فآله فارجوا وبه فتقوا ثم ممعوا آخر بعده إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغبة فآله فأطيعوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الحضر واليسع لم أجد فيه ذكر اليسع وأما ذكر الحضر في التعزية فأنكر النووي وجوده في كتب الحديث وقال إنما ذكره الأصحاب قلت بلى قد رواه الحاكم في المستدرک في حديث أنس ولم يصححه ولا يصح ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث أنس أيضا قال لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع أصحابه حوله ليكون فدخل عليهم رجل طويل شعر للنسكبين في إزار ورداء يتخطى أصحاب رسول الله ﷺ حتى أخذ بضادتي باب البيت فسكى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل على أصحابه فقال إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك فآلى الله تعالى فأنبيوا ونظروهم إليكم في البلاء فانظروا فان للصاب من لم يجبره الثواب ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر على الرجل فنظروهم بيننا وشمالا فلم يروا أحدا فقال أبو بكر لعل هذا الحضر أخو نبينا عليه السلام جاء يزينا ورواه الطبراني في الأوسط وإسناده ضيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا أيضا من حديث على بن أبي طالب لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء آت نسع حسه ولا نرى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إن في الله عوضا من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت فبآله فتقوا وإياه فارجوا فان المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم فقال على تدرود من هذا هو الحضر وفيه محمد بن جعفر الصادق تسكلم فيه وفيه انقطاع بين على بن الحسين وبين جده على والمعروف عن على بن الحسين مرسلا من غير ذكر على كما رواه الشافى في الأم وليس فيه ذكر الحضر.

القوة مع ولولا
تلك القوة ما قدر
على السمع ثم أنشد
القائل مثملا :
وبدا له من بعد
ما اندمل الهوى
بقى تألى موها
لمانه

يدو ككاشية الرداء
ودونه
سبب الدرى متنع
أركانه
فبدا لينظر كيف لاح
فلم يطق
نظرا إليه ورده
أشجانه
فالنار ما اشتملت عليه
ضلوعه
ولماء ما صحت به
أجانه
ومنها قولهم التجلى
والاستقار. قال الجنيد

على كل حال وقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فله الحمد وحده وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وخاتم أنبيائه وأشهد أن الكتاب كأنزل وأن الدين كما شرع وأن الحديث كما حدث وأن القول كما قال وأن الله هو الحق البين اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونيك وحبيبك وأمينك وخيرتك وصفوتك بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك اللهم واجعل صلواتك ومما فاتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام المتقين محمد قائد الحير وإمام الحير ورسول الرحمة اللهم قرب زلفته وعظم برهانه وكرم مقامه وابسته مقاما محمودا يغبطه به الأولون والآخرون وانصنا بمقامه المحمود يوم القيامة واخلفه فينا في الدنيا والآخرة وبلغه الدرجة والوسيلة في الجنة اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم إنك حميد مجيد أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لم يموت وإن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعا فان الله عز وجل قد اختار لبيبه صلى الله عليه وسلم ما عنده على ما عندكم وقبضه إلى نوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر - يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط - ولا يشفلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم وعاجلوا الشيطان بالحير تعجزوه ولا تنتظروه فيلحق بكم ويفتنكم . وقال ابن عباس لما فرغ أبو بكر من خطبته قال يا عمر أنت الذي بلغني أنك تقول ما مات نبي الله صلى الله عليه وسلم أما ترى أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا: كذا وكذا ويوم كذا: كذا وكذا وقال تعالى في كتابه - إنك ميت وإنهم ميتون - فقال والله لسكأنى لم أسمع بها في كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا أشهد أن الكتاب كما أنزل وأن الحديث كما حدث وأن الله حي لا يموت - إنا لله وإنا إليه راجعون - وصلوات الله على رسوله وعند الله نحتسب رسوله صلى الله عليه وسلم ثم جلس إلى أبي بكر . وقالت عائشة رضی الله عنها لما اجتمعوا لعسله قالوا : والله ما ندري كيف تفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أتجرده عن ثيابه كما نضع بموتانا أو تفعله في ثيابه قالت فأرسل الله عليهم النوم حتى ما بقى منهم رجل إلا واضع لحيته على صدره ناعسا ثم قال قائل لا يدري من هو عسلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ثيابه فانتبهوا ففعلوا ذلك ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قميصه حتى إذا فرغوا من غسله كفن وقال على كرم الله وجهه أردنا خلع قميصه فنودينا نخلعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثيابه فأقررناه ففعلناه في قميصه كما تفعل موتانا مستلقيا ما نشاء أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرغ منه وإن معنا لحفيفا في البيت كالريح الرخاء ويصوت بنا ارقفوا رسول الله ﷺ فانكم ستكفون فهكذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يترك سبدا ولا لبدا إلا دفن معه قال أبو جعفر فرش لحده بفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها التي كان يلبس يقظان على القطيفة والفرش ثم وضع عليها في أكفانه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى في حياته ابنة على لبنة ولا وضع قصبه على قصبه (١) ففي وفاته عبرة تامة للمسلمين به أسوة حسنة .

(وفاة أبي بكر الصديق رضی الله تعالى عنه)

لما احتضر أبو بكر رضی الله تعالى عنه جاءت عائشة رضی الله عنها فتمثلت بهذا البيت :

(١) حديث أبي جعفر فرش لحده بفرشه وقطيفة وفيه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبه على قصبه أما وضع الفرشة والقطيفة فالذي وضع القطيفة شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا وأما كونه لم يترك مالا فقد تقدم من حديث عائشة وغيرها وأما كونه ما بنى في حياته فتقدم أيضا .

إنما هو تأديب وتهذيب وتذويب فالتأديب محل الاستتار وهو للعوام والتهذيب للخواص وهو التجلي والتذويب للأولياء وهو الشاهدة . وحاصل الاشارات في الاستتار والتجلى راجع إلى ظهور صفات النفس . (ومنها الاستتار) وهو إشارة إلى غيبة صفات النفس بكامل قوة صفات القلب (ومنها التجلي) ثم التجلي قد يكون بطريق الأفعال وقد يكون بطريق الصفات وقد يكون بطريق الذات والحق تعالى أبقى على الخواص موضع الاستتار رحمة منه

لمسرك مايقى الثراء عن النقي إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر
فكشفت عن وجهه وقال ليس كذا ولكن قولى - وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه
تحيد - انظروا ثوبى هذين فاغسلوهما وكهونى فهما فان الحى إلى الجديد أحوج من الميت .
وقالت عائشة رضى الله عنها عند موته :

وأبيض يستقى الفمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

قال أبو بكر ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا عليه فقالوا ألا ندعوك طيبيا ينظر إليك؟
قال قد نظر إلى طيبى وقال إني فصال لما أريد . ودخل عليه سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه
بعوده قال يا أبا بكر أوصنا قال : إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذن منها إلا بلاغك . واعلم أن
من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله فلا تهنرن الله في ذمته فيكبك في النار على وجهك، ولما نقل
أبو بكر رضى الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخاف فاستخاف عمر رضى الله عنه فقال الناس
له استخفت علينا فظا غليظا فإذا تقول لربك فقال أقول استخافت على خلقك خير خاقتك ثم أرسل
إلى عمر رضى الله عنه فجاه فقال إني موصيك بوصية . اعلم أن الله حقا في النهار لا يقبله في الليل وأن
الله حقا في الليل لا يقبله في النهار وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدي الفريضة وإنما نقلت موازين من ثقلت
موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وتملة عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يتقل
وإما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفت عليهم وحق لميزان لا يوضع
فيه إلا الباطل أن يخف وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فيقول القائل
أنا دون هؤلاء ولا أبلغ مبلغ هؤلاء فان الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم ورد عليهم صالح الذى عملوا
فيقول القائل أنا أفضل من هؤلاء وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون للمؤمن رغبانها
ولا يقى يديه إلى الهلكة ولا يمتنى على الله غير الحق فان حفظت وصيتى هذه فلا يكون غائب أحب
إليك من اللوت ولا بدلك منه وإن ضيعت وصيتى فلا يكون غائب أفض إليك من اللوت ولا بدلك
منه ولست بمعجزه ، وقال سعيد بن المسيب لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه أتاه ناس من الصحابة
فقالوا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زدنا فانا نراك لما بك . فقال أبو بكر من قال هؤلاء
الكلمات ثم مات جعل الله روحه في الأفق البين قالوا وما الأفق البين؟ قال قاع بين يدي العرش
فيه رياض الله وأشجار ينشاه كل يوم مائة رحمة فمن قال هذا القول جعل الله روحه في هذا
الساكن : اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ثم جعلتهم فريقين فريقا للنعم وفريقا
للسعير فاجعلنى للنعم ولا تجعلنى للسعير . اللهم إنك خلقت الخلق فرقا وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت
منهم ثقيا وسعيدا وغويا ورشيدا فلا تشقى بما صيكت . اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل
أن تخلقها فلا يحبس لها مما علمت فاجعلنى ممن تستعمله بطاعتك . اللهم إن أحدا لا يشاء حتى تشاء
فاجعل مشيتك أن أشاء ما يقربنى إليك . اللهم إنك قد قدرت حركات العباد فلا يتحرك شئ
إلا بإذنك فاجعل حركاتى في تقواك . اللهم إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملا
يعمل به فاجعلنى من خير التامين . اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلا
فاجعلنى من ساكن جنتك . اللهم إنك أردت بقوم الضلال وضيقت به صدورهم فاشرح صدرى
للإيمان وزينه فى قلبى . اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك فأحبنى بعد الموت حياة
طيبة وقربنى إليك زلتى . اللهم من أصبح وأمسى تقته ورجاؤه غيرك فأنت تقى ورجائى ولا حول
ولا قوة إلا بالله قال أبو بكر هذا كله فى كتاب الله عز وجل .

لهم ولنيرهم فأما لهم
فلائهم به يرجعون
إلى مصالح النفوس وأما
لنيرهم فلا تنهلوا مواضع
الاستتار لم ينتفع بهم
لاستخراقهم فى جمع
الجمع وبروزهم لله الواحد
القهار . قال بعضهم
علامة تجلنى الحق
للأسرار هو أن لا يشهد
السر ما يتسلط عليه
التعبير ويحويه القهم
فمن عبر أوقهم فهو
صاحب استدلال لا ناظر
اجلال . وقال بعضهم
التجلى رفع حجة
البشرية لأن يتلون
ذات الحق عز وجل
والاستتار أن تكون
البشرية حائلة بينك
وبين شهود الغيب .
(ومنها التجريد والتفريد)

(وفاة عمر بن الخطاب رضی اللہ تعالیٰ عنہ)

قال عمرو بن ميمون كنت قائماً غداة أصيب عمر مائني وبينه إلاعبد الله بن عباس وكان إذا مرّ بين الصفيين قام بينهما فاذا رأى خلا قال استوا حتى إذا لم يرفيهم خلا تقدّم فكبر قال وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فما هو إلا أن كبر فسمعتة يقول قتلني أو أكلني السكب حين طعنه أبو لؤلؤة وطار الملح بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يميناً أو شمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً فمات منهم تسعة وفي رواية سبعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما ظن الملح أنه مأخوذ نحر نفسه ، وتناول عمر رضی اللہ عنہ عبد الرحمن بن عوف فقدمه فأما من كان يلي عمر فقد رأى ما رأيت وأما نواحي المسجد ما يدرون ما الأمر غير أنهم قدلوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله صلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال يا ابن العباس انظر من قتلني قال فغاب ساعة ثم جاء فقال غلام الغيرة بن شعبة فقال عمر رضی اللہ عنہ قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفاً ، ثم قال الحمد لله الذي لم يجعل مني يد رجل مسلم قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة وكان العباس أكثرهم رقيقاً فقال ابن عباس إن شئت فعلت : أي إن شئت قتلناهم قال بعد ما تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلتكم وجواحكم فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه قال وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ قال قائل يقول أخاف عليه وقائل يقول لا بأس فآني بنبيذ ضرب منه فخرج من جوفه ثم آني بلبن ف ضرب منه فخرج من جوفه فصرفوا أنه ميت قال فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه وجاء رجل شاب فقال أبتري أمير المؤمنين يبشرى من الله عز وجل قد كان لك محبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم في الاسلام ما قد علمت ثم ولت فعلت ثم شهادة فقال وددت أن ذلك كان كفافاً لا على ولا لى فلما أدير الرجل إذا إزاره بمس الأرض فقال ردوا على الغلام فقال يا ابن أخي ارفع نوبك فإنه ألقى لثوبك وألقى لربك ثم قال يا عبد الله انظر ما على من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه فقال إن وفي به مال آل عمر فأده من أموالهم وإفلس في بني عدى بن كعب فان تم أموالهم فسل في قريش ولا تهمهم إلى غيرهم وأد عني هذا المال انطلق إلى أم المؤمنين عائشة فقل عمر يقرأ عليك السلام ولا تقل أمير المؤمنين فآني لست اليوم للمؤمنين أميراً وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فذهب عبد الله فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعة تبكي فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريده لنفسى ولأورثته اليوم على نفسى فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء فقال ارفعوني فأسندته رجل إليه فقال ما لك قال الذي تحب يا أمير المؤمنين قد أذنت قال الحمد لله ما كان شيء أعم إلى من ذلك فاذا أنا قبضت فاحملوني ثم سلم وقل يستأذن عمر فان أذنت لى فأدخلوني وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها فلما رأيناها قمنا فوجبت عليه فبكت عنده ساعة واستأذن الرجال فوجبت داخل فسمعت بكاءها من داخل فقالوا أوص يا أمير المؤمنين واستخلف فقال ما أرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء نفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فمسي عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء كهيئة التعمية له فان أصابت الامارة سعدا فذاك وإلا فليستنن به أيكم أمر فآني لم أعزله من محب ولا خيانة وقال أوصي لحليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم فضلهم ويحفظ لهم حرماتهم وأوصيه بالأنصار خير الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يفزع عن مسيئهم وأوصيه بأهل الأمصار خير اقاتهم رده الاسلام

الإشارة منهم في التجريد والتفريد أن العبد يتجرد عن الأغراض فيما يفعله لا يأتي بما يأتي به نظراً إلى الأغراض في الدنيا والآخرة بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبودية واقياً والتفريد أن لا يرى نفسه فيما يأتي به بل يرى منة الله عليه فالتجريد بنى الأغيار والتفريد بنى نفسه واستغراقه في رؤية نعمة الله عليه وغيبته عن نفسه (ومنها الوجد والتواجد والوجود) فالوجد ما يرد على الباطن من الله يكسبه فرحاً أو حزناً ويضيره عن هيئته

وجباة الأموال وغيظ العدو وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم وأوصيه بالأعراب خيرا فاتهم أصل العرب ومادة الاسلام وأن يأخذ من حوائج أموالهم ويرد على قرائمهم وأوصيه بذمة الله عز وجل وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بمهدم وأن يقاتل لهم من وراءهم ولا يكلمهم إلا طاقهم قال فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلم عبد الله بن عمر وقال يستأذن عمر بن الخطاب فمالت أدخلوه فأدخلوه في موضع هناك مع صاحبيه الحديث وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قال لي جبريل عليه السلام ليك الاسلام على موت عمر (١) » وعن ابن عباس قال بوضع عمر على سريره فكشفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرضع وأنا فيهم فلم يرعني إلا رجلا قد أخذ بمسكبي فالتفت فإذا هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه فترحم على عمر وقال ما خلفت أحدا أحب إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك وإيم الله إن كنت لأظن لي جعلتك الله مع صاحبك وذلك أني كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول « ذهبت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر (٢) » فاني كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما .

(وفاة عثمان رضي الله عنه)

الحديث في قتله مشهور وقد قال عبد الله بن سلام أنيت أخى عثمان لأسلم عليه وهو محصور قد دخلت عليه فقال مرحبا يا أخى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة في هذه الخوخة وهي خوخة في البيت فقال يا عثمان حصروك قلت نعم قال عطشوك قلت نعم فأدلى إلى دلوها فيه ماء فشربت حتى رويت حتى إنى لأجد برده بين يدي وبين كفتي وقال لي إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندنا فاخترت أن أفطر عنده فقتل ذلك اليوم رضي الله عنه . وقال عبد الله بن سلام لمن حضر : تشحط عثمان في الموت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشحط ؟ قالوا بمعناه يقول : اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثا قال والذي نفسي بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبدا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة وعن ثمامة بن حزن القشيري قال شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال اتوني بصاحبك اللذين ألباكم علي قال فجاء بهما كأنهما حلالان أو حماران فأشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال أنشدكم بالله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستحب غير بئر رومة فقال من يشتري رومة يجعل دلوها مع دلاء المسلمين غير له منها في الجنة فاشتريتها من صلب مالي فأتتم اليوم تمنوني أن أشرب منها ومن ماء البحر ؟ قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أني جهزت جيش العسرة من مالي ؟ قالوا نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن للسجد كان قد ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في المسجد غير منها في الجنة فاشتريتها من صلب مالي فأتتم اليوم تمنوني أن أصلي فيها ركعتين ؟ قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على نبيير بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا فتحرك الجبل حتى تساقطت حجراته بالحضيض قال فركضه برجله وقال اسكن نبيير فما عليك إلا نبي وصدیق وشهيدان ؟ قالوا اللهم نعم قال الله أكبر شهدوا لي ورب الكعبة أني شهيد (٣) . وروى عن شيخ من ضبة أن عثمان حين

(١) حديث قال لي جبريل عليه السلام ليك الاسلام على موت عمر أبو بكر الآجري في كتاب الشريعة من حديث أبي بن كعب بسند ضعيف جدا وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٢) حديث ابن عباس قال وضع عمر على سريره فكشفه الناس يدعون ويصلون فذكر قول علي بن أبي طالب كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ذهبت أنا وأبو بكر وعمر الحديث متفق عليه (٣) حديث ثمامة ابن حزن القشيري شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان الحديث الترمذي وقال حسن والنسائي .

ويتطلع إلى الله تعالى وهو فرحة يجدها الغلوب عليه بصفات نفسه ينظر منها إلى الله تعالى والتواجد استحلاب الوجد بالذكر والتفكير والوجود اتساع فرجة الوجد بالخروج إلى قضاء الوجدان فلا وجد مع الوجدان ولا خبر مع العيان فالوجد بعرضية الزوال والوجود ثابت ثبوت الجبال وقد قيل : قد كان يطربني وجدى فأقعدنى عن رؤية الوجد من في الوجد موجود والوجد يطرب من في الوجد راحته والوجد عند حضور الحق مفقود

ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين اللهم إني أستعديك عليهم وأستعينك على جميع أموري وأسألك الصبر على ما ابتليتنى .

(وفاة على كرم الله وجهه)

قال الأصعب الحنظلي لما كانت الليلة التي أصيب فيها على كرم الله وجهه أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع مثاقل فعاد الثانية وهو كذلك ثم عاد الثالثة فقام على عشي وهو يقول:

أشدد حيازك الموت فان الموت لا يقا
ولا تجزع من الموت إذا حلّ بواديك

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه ابن ملجم فضربه فخرجت أم كلثوم ابنة على رضى الله عنه فجعلت تقول مالى ولصلاة العداة قتل زوجى أمير المؤمنين صلاة العداة وقتل أبى صلاة العداة وعن شيخ من قرشي أن عليا كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال فزت ورب الكعبة وعن محمد بن على أنه لما ضرب أوصى بنه ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض ولما نقل الحسن بن على رضى الله عنه ما دخل عليه الحسين رضى الله عنه فقال يا أخى لأى شئ تجزع تقدم على رسول الله ﷺ وعلى بنى على بنى طالب وهما أبوك وعلى خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أمك وعلى حمزة وجعفر وهما عمك قال يا أخى أقدم على أمر لم أقدم على مثله وعن محمد بن الحسن رضى الله عنه ما قال لما نزل القوم بالحسين رضى الله عنه ما يؤمن أنهم قاتلوه قام في أصحابه خطيبا حمد الله وأثنى عليه ثم قال قد نزل من الأمر ما ترون وإن الدنيا قد تغيرت وتسكرت وأدبر معروفها واندمرت حتى لم يبق منها إلا كعباية الإناء الأحاسي من عيش كالمرعى الويل لأتروا الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله تعالى وإني لأرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا جرما .

(الباب الخامس فى كلام المختصرين من الخلفاء والأمراء والصالحين)

لما حضرت معاوية بن أبى سفيان الوفاة قال أمدونى فأقعد فجعل يسبح الله تعالى ويذكره ثم بكى وقال تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط ألا كان هذا وغصن الشباب نضريان وبكى حتى علا بكأوه وقال يارب ارحم الشيخ العاصى ذا القلب القاسى اللهم أقل العثرة واغفر الزلة وعد بحملك على من لم يرج غيرك ولم يثق بأحد سواك . وروى عن شيخ من قرشي أنه دخل مع جماعة عليه فى مرضه فرأوا فى جلده غصونا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فهل الدنيا أجمع إلا ما جربنا ورأينا أما والله لقد استقبلنا زهرتها بجدتنا وباستلذذنا بعيشنا فما لبثنا الدنيا أن تقضت ذلك منا حالا بعد حال وعروة بعد عروة فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلفتنا واستلأمت إلينا أف للدنيا من دار ثم أف لها من دار . وروى أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال : أيها الناس إن من زرع قد استحصد وإني قد وليتكم ولن يليكم أحد من بعدى إلا وهو شر منى كما كان من قبلى خيرا منى ويا يزيد إذا وفى أجلي فول غسلى رجلا ليبيبا فان اللبيب من اقه بمكان فلينعن الغسل وليجهر بالتكبير ثم اعمد إلى مندبل فى الحزاة فيه ثوب من ثياب النبى صلى الله عليه وسلم وقراضة من شعره وأظفاره فاستودع القراضة أنفى وفمى وأذنى وعينى واجعل الثوب على جلدى دون أكفانى ويا يزيد احفظ وصية الله فى الوالدين فاذا أدرجتمونى فى جسدى ووضعتونى فى حفرتى فغفوا معاوية وأرحم الراحمين . وقال محمد بن عقبة لما نزل بمعاوية الموت قال ياليتنى كنت رجلا من قرشي بنى طوى وإني لم آل من هذا الأمر شيئا . ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق يلوى ثوبا بيده ثم يضرب به للفصلة فقال عبد الملك ليتنى كنت غسالا كل من كسب يدي يوما يوم

(الباب الخامس فى كلام جماعة من المختصرين)

(ومنها الغلبة) الغلبة وجد متلاحق فالوجد كالبرق يبدو والغلبة كتلاحق السبرق وتواتره يغيب عن التمييز فالوجد ينطقه سريرا والغلبة تبتقى للأمرار حرز انمينا . (ومنها السامرة) وهى تفرد الأرواح بحسنى مناجاتها ولطيف مناجاتها فى سر السر بلطيف إدراكها للقلب لتفرد الروح بها فلتذ بها دون القلب (ومنها السكر والصحو) فالسكر استيلاء سلطان الحال والصحو العود إلى ترتيب الأفعال وتهذيب الأقوال قال محمد بن خفيف

ولم آك من أمر الدنيا شيئاً فبلغ ذلك أباحازم فقال الحمد لله الذي جعلهم إذا حضرم الموت يتحنون ما نحن فيه وإذا حضرنا للموت لم تمن مامم فيه . وقيل لعبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه كيف تجدك يا أمير المؤمنين ؟ قال أجدني كما قال الله تعالى - ولقد جثمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم - الآية ، ومات . وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان امرأة عمر بن عبد العزيز كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول : اللهم أخف عليهم موتي ولو ساعة من نهار فلما كان اليوم الذي قبض فيه خرجت من عنده فجلست في بيت آخر بيني وبينه باب وهو في قبة له فسمعه يقول - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين - ثم هدأ فجمعت لأسمع له حركة ولا كلاماً فقلت لو صيف له انظر أنا ثم هو فلما دخل صاح فوثبت فإذا هوميت وقيل له لما حضره الموت اعهد يا أمير المؤمنين قال أحذركم مثل مصر عى هذا فإنه لا بد لكم منه وروى أنه لما نقل عمر بن عبد العزيز دعى له طبيب فلما نظر إليه قال أرى الرجل قد سقى السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال ولاتأمن الموت أيضاً طى من لم يسق السم قال الطبيب هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين قال نعم قد عرفت ذلك حين وقع في بطني قال فعالج يا أمير المؤمنين فاني أخاف أن تذهب نفسك قال ربى خير مذهب إليه والله لو علمت أن شغافى عند شحمة أذنى مارفت يدي إلى أذنى فتناوته اللهم خر لعمر في لقائك فلم يلبث إلا أياماً حتى مات وقيل لما حضرته الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك يا أمير المؤمنين أبشر فقد أحيا الله بك سناً وأظهر بك عدلاً فبكى ثم قال أليس أوقف فأستل عن أمر هذا الخلق فوالله لو عدلت فيهم لحفت على نفسي أن لا تقوم بحجتها بين يدي الله إلا أن يلقيها الله حجتها فكيف بكثير مما ضيعنا وفاضت عيناه فلم يلبث إلا سبراً حتى مات ولما قرب وقت موته قال أجلكوني فأجلسوه فقال: أنا الذي أمرتني فقصرت ونهيتني فصيت ثلاث مرات ولكن لا إله إلا الله ثم رفع رأسه فأحد النظر فقيل له في ذلك فقال إني لأرى خضرة مامم بالنس ولا جن ثم قبض رحمه الله . وحكى عن هرون الرشيد أنه انتهى أ كفانه يده عند الموت وكان ينظر إليها ويقول ما أغنى عنى ماله هلك عنى سلطانيه وفرش الأمان رمادا واضطجع عليه وكان يقول يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه وكان العتصم يقول عند موته لو علمت أن عمري هكذا قصر ما فعلت وكان للتصم يضطرب على نفسه عند موته فقيل له لا بأس عليك يا أمير المؤمنين فقال ليس إلا هذا لقد ذهبت الدنيا وأبليت الآخرة . وقال عمرو بن العاص عند الوفاة وقد نظر إلى صناديق لبنيه من يأخذها بما فيها ليه كان بعرا . وقال الحجاج عند موته اللهم اغفر لي فان الناس يقولون إنك لا تغفر لي فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويفطه عليها ولما حكى ذلك للحسن قال أفاها ؟ قيل نعم قال عسى .

(بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم)

(من أهل التصوف رضى الله عنهم أجمعين)

لما حضرت معاذاً رضى الله عنه الوفاة قال اللهم إني قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الأنهار ولا لفرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر ولما اشتد به التبع ونزع نزعاً لم ينزعه أحد كان كلما أفاق من غمرة ففتح طرفه ثم قال رب ما أخفقى ختقك فوعزتك إنك تعلم أن قلبي يحبك ولما حضرته سلمان الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك قال ما أبكى جزعاً على الدنيا ولكن عهد إلينا رسول الله

السكر غليان القلب
عند معارضات ذكر
المحبوب وقال الواسطي
مقامات الوجد أربعة
الذهول ثم الحيرة ثم
السكر ثم الصحو كمن
سمع بالبحر ثم دنامته
ثم دخل فيه ثم أخذته
الأمواج فعلى هذا من
بقى عليه أثر من
سريان الحال فيه
فعلية أثر من السكر
ومن عاد كل شئ منه
إلى مستقره فهو صاح
فالسكر لأرباب القلوب
والصحو لكاهن الشافين
بحقائق الفيوب .
(ومنها المحو والإثبات)
المحو بإزالة أوصاف
النفس والاثبات بما
أدير عليهم من آثار
الحب كؤوس أو المحو

صلى الله عليه وسلم أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب (١) فقامات سلمان نظري جميع مارك فاذا قيمته بضعة عشر درهما ولما حضر بلالا الوفاة قالت امرأته واحزناه فقال بل واطرباه غدانلقى الأعبة محمدا وحزبه وقيل فتح عبدالله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال لئلا هذا فليعمل العاملون - ولما حضر إبراهيم النخعي الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك قال أنتظر من الله رسولا يبشرني بالجنة أو بالنار ولما حضر ابن للسكر الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك فقال والله ما يبكي لئلا أعلم أني أميتة ولكن أخاف أني أميت شيئا حبسته هينا وهو عند الله عظيم ولما حضر عامر بن عبد القيس الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك قال ما يبكي جزعا من اللوت ولا حرصا على الدنيا ولكن أبكي على ما فوتني من ظمأ الحواجر وعلى قيام الليل في الشتاء ولما حضرت فضيلا الوفاة غشي عليه ثم فتح عينيه وقال وابعده سفره واقلة زاده ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه اجعل رأسي على التراب فبكي نصر فقال له ما يبكيك قال ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هو فا توت قبرا غريبا قال اسكت فاني سألت الله تعالى أن يميتني حياة الأغنياء وأن يميتني موت الفقراء ثم قال له لقي ولا تصد على ما لم أنكمم بكلام ثان . وقال عطاء بن يسار تبدي إبليس لرجل عند الموت فقال له نجوت قال ما آمنك بعد وبكى بعضهم عند اللوت فقيل له ما يبكيك قال آية في كتاب الله تعالى قوله عز وجل - إنما يتقبل الله من المتقين - ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل مجود بنفسه فقال إن أمرا هذا أوله لجدير أن يتقى آخره وإن أمرا هذا آخره لجدير أن يزهدي في أوله . وقال الجري كنت عند الجنيد في حال نزعه وكان يوم الجمعة ويوم النيروز وهو يقرأ القرآن فحتم فقلت له في هذه الحالة يا أبا القاسم قال ومن أولى بذلك مني وهو ذا تطوى صحيفتي . وقال رويم حضرت وفاة أبي سعيد الخزاز وهو يقول:

حين قلوب العارفين إلى الذكر وتذكروا رم وقت للناجاة للسر
أدبرت ككؤوس للمنايا عليهم فأغفوا عن الدنيا كما غفاه ذى الشكر
همومهمو جواله بمسكك به أهمل ود الله كالأنجم الزهر
فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه وأرواحهم في الحجب نحو العلاتسرى
لما عرسوا بالإقرب حبيبهم وما عرجوا من مس بؤس ولا ضر

وقيل للجنيد إن أبا سعيد الخزاز كان كثير التواجد عند الموت فقال لم يكن يجب أن تطير روحه اشتياقا وقيل لدى النون عند موته ماتتهسى قال أن أعرفه قبل موتى بلحظة وقيل لبعضهم وهو في الترع قل الله فقال إلى متى تقولون الله وأنا محترق بالله . وقال بعضهم كنت عند ممشاد الدينوري قدم فقير وقال السلام عليكم هل هنا موضع نظيف يمكن للإنسان أن يموت فيه قال فأشاروا إليه بمكان وكان ثم عين ماء فجدد الفقير الوضوء وركع ماشاء الله ومضى إلى ذلك المكان ومد رجليه ومات وكان أبو العباس الدينوري يتكلم في مجلسه فصاحت امرأة تواجدا فقال لها موتي فقامت المرأة فلما بلغت باب الدار التفت إليه وقالت قدمت قدمت ووقعت ميتة . ويحكى عن فاطمة أخت أبي علي الروذباري قالت لما قرب أجل أبي علي الروذباري وكان رأسه في حجرى فتش عينيه وقال هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول يا أبا علي قد بلغناك الرتبة القصوى وإن لم ترد هائم أنشأ يقول:

وحقك لا نظرت إلى سواكا بعين مودة حتى أراكا
أراك معذبى بفتور لحظ وبالحد للورد من حياكا

(١) حديث لما حضرت سلمان الوفاة بكى وفيه عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب أحمد والحاكم وصححه وقد تقدم .

هو رسوم الأعمال
بنظر الفناء إلى نفسه
وامانسه والاثبات
إثباتها بما أنشأ الحق
له من الوجوه به
فهو بالحق لا بنفسه
بإثبات الحق إياه
مستأنفا بعد أن
عماه عن أوصافه .
قال ابن عطاء يحمو
أوصافهم ويثبت
أسرارهم (ومنها علم
اليقين وعين اليقين
وحق اليقين) فعمل
اليقين ما كان
من طريق النظر
بالاستدلال وعين اليقين
ما كان من طريق
الكشف والنوال
وحق اليقين ما كان
بتحقيق الانفصال
عن لوث الصلصال

وقيل للجنيد قل لا إله إلا الله فقال ما نسيت فاذكره وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري خادم الشبلي ما الذي رأيت منه فقال قال عليّ درهم مظلمة وتصدقت عن صاحبه بألوف فما طي قلبي شغل أعظم منه ثم قال وضئى للصلاة ففعلت فتسيت تخليل لحيته وقد أمسك على لسانه فقبض على يدي وأدخلها في لحيته ثم مات فبكى جعفر وقال ما تقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من آداب الشرية وقيل لبشر بن الحرث لما احتضر وكان يشق عليه كأنك تحب الحياة فقال التدموم على الله شديد وقيل لصالح بن مسمار ألا توصي بابنك وعيالك فقال إني لأستحي من الله أن أوصي بهم إلى غيره ولما احتضر أبو سليمان الداراني أتاه أصحابه فقالوا أبشر فانك تقدم على رب غفور رحيم فقال لهم ألا تقولون احذر فانك تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويماقبك بالكبير ولما احتضر أبو بكر الواسطي قيل له أوصنا فقال احفظ وامرأد الحق فيكم احتضر بعضهم فبكت امرأته فقال لها ما يبكيك فقالت عايتك أبكي فقال إن كنت باكية فابكي على نفسك فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة وقال الجنيد دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته فقلت كيف تجردك فأنشأ يقول :

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي والذي بي أصابني من طبيبي

فأخذت الروح لآروحه فقال كيف يجرد ريع الروح من جوفه محترق ثم أنشأ يقول :

القلب محترق والدمع مسبق والكرب مجتمع والصبر مفترق

كيف القرار على من لا قرار له مما جناه الهوى والشوق والقلق

يارب إن يك شيء فيه لي فرج فاستن عليّ به مادام بي رمق

وحكى أن قوما من أصحاب الشبلي دخلوا عليه وهو في الموت فقالوا له قل لا إله إلا الله فأنشأ يقول :

إن بيتنا أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج وجيبك المأمول حجتنا

يوم يأتي الناس بالحجج لا أتاح الله لي فرجا يوم أدعو منك بالفرج

وحكى أن أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد في وقت نزع فسلم عليه فلم يجبه ثم أجاب بعد ساعة وقال اعذرني فإني كنت في وردى ثم ولى وجهه إلى القبلة وكبر ومات وقيل للسكتاني لما حضرته

الوفاة ما كان عمرك فقال لو لم يقرب أجلي ما أخبرتكم به وقفت على باب قلبي أربعين سنة فكلامر

فيه غير الله حبيته عنه وحكى عن العتمر قال كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق

قللت اللهم هون عليه سكرات الموت فانه كان وكان فذكرت محاسنه فأفاق فقال من التلكم؟ قلت أنا

فقال إن ملك الموت عليه السلام يقول لي إني بكل سخي رفيق ثم طفيء ولما حضرت يوسف بن أسباط

الوفاة شهده حذيفة فوجده قلنا فقال يا أبا محمد هذا أو ان القلق والجزع فقال يا أبا عبد الله وكيف لا أقلق

ولا أجزع وإني لا أعلم أتى صدقت الله في شيء من عملي فقال حذيفة واعجباه لهذا الرجل الصالح يحلف

عند موته أنه لا يعلم أنه صدق الله في شيء من عمله. وعن العازلي قال دخلت على شيخ لي من أصحاب هذه الصفة

وهو عليل وهو يقول يمكنك أن تعمل ما تريد فارفق بي . ودخل بعض المشايخ على محمد الدينوري

في وقت وفاته فقال له فصل الله تعالى وصنع من باب الدعاء فضحك ثم قال منذ ثلاثين سنة تعرض على

الجنة بما فيها لما أعرتها طرفي . وقيل لرويم عند الموت قل لا إله إلا الله فقال لأحسن غيره ولما حضرت

الثوري الوفاة قيل له قل لا إله إلا الله فقال أليس ثم أمر . ودخل المزني على الشافعي رحمه الله عليه ما

في مرضه الذي توفي فيه فقال له كيف أصبحت يا أبا عبد الله فقال أصبحت من الدينار احلوا للاخوان

مفارقا ولسوء عملي ملائيا ولكأس النية شاربا وعلى الله تعالى واردا ولا أدري أروحي تصير إلى

الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزها ثم أنشأ يقول :

بورود رائد الوصال
قال فارس : علم اليقين
لا اضطراب فيه
وعين اليقين هو
العلم الذي أودعه
الله الأسرار والعلم
إذا انفرد عن نعت
اليقين كان علما
بشبهة فاذا انضم
إليه اليقين كان علما
بلاشبهة وحق اليقين
هو حقيقة ما أشار
إليه علم اليقين وعين
اليقين . وقال الجنيد
حق اليقين ما يتحقق
العبد بذلك وهو
أن يشاهد القيوب
كما يشاهد الرئيات
مشاهدة عيان
ويحكم على الغيب فيخبر
عنه بالصدق كما أخبر
الصديق حين قال لما

ولما قسا قلبي وضاعت مذاهبي جمعت رجائي نحو عفوك سلما
تساظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما
لما زلت ذا عفوعن الذنب لم تزل تجود وتنفو منة وتكرما
ولولاك لم ينوي إبليس طابد فكيف وقد أغوى صفيك آدمآ

ولما حضر أحمد بن خضرويه الوفاة سئل عن مسألة قدمعت عيناه وقال يا بني باب كنت أدقه خمسا
وتسعين سنة هوذا يفتح الساعة لي لأدري أيفتح بالسعادة أو الشقاوة فآن لي أو ان الجواب فهذه
أقاويلهم وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فقلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى
بعضهم الشوق والحب فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله والكل صحيح بالاضافة إلى أحوالهم.
(الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والقابر وحكم زيارة القبور)

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لأهل النفلة فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة لأنهم
يظنون أنهم أبدا إلى جنازة غيرهم ينظرون ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون أو يحسبون
ذلك ولكنهم على القرب لا يهدرون ولا يتفكرون أن الممولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون
فبطل حسابهم وانقضت على القرب زماتهم فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولا عليها
فانه محمول عليها على القرب وكأن قد ولطه في غد أو بعد غد. وروى عن أبي هريرة أنه كان إذا
رأى جنازة قال امضوا فانا على الأثر. وكان مكحول دمشق إذا رأى جنازة قال اغدوا فانا رايمون
موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأول والآخر لا عقل له. وقال أسيد بن حضير ما شهدت جنازة
فحدثني نفسي بشيء سوى ما هو مفهول به وما هو صائر إليه ولمامات أخو مالك بن دينار خرج مالك
في جنازته يبكي ويقول والله لا تفر عيني حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه ولا أعلم مادمت حيا وقال الأعمش
كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزي لحزن الجميع وقال ثابت البناني كنا نشهد الجنائز فلا ندري إلا
متقنا با كيا فهكذا كان خوفهم من الموت والآن لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم
يضحكون ويلهون ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته ولا يتفكر أقرانه وأذربه إلا في الجيلة
التي بها يتناول بعض ما خلفه ولا يتفكر واحد منهم إلا ما شاء الله في جنازة نفسه وفي حاله إذا حمل
عليها ولا سبب لهذه النفلة إلا قساوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر
والأحوال التي بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا ينينا فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه
الغفلة فان أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكأؤم على البيت ولو عقلا البكوا على أنفسهم لا على البيت
نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على البيت فقال لو ترحمون على أنفسكم لكان خيرا لكم فإنه
نجما من أهوال ثلاثة : وجه ملك الموت وقد رأى ، ومرارة الموت وقد ذاق ، وخوف الحائمة وقد
أمن . وقال أبو عمرو بن الصلاء : جلست إلى جرير وهو يملى على كاتبه شعرا فأطلعت جنازة
فأمسك وقال شيتني والله هذه الجنائز وأنشأ يقول :

نروعنا الجنائز مقبسات ونلهو حين تذهب مدبرات
مكروعة ثلة لغار ذئب فلما غاب عادت راتعات

فمن آداب حضور الجنائز التفكير والتنبيه والاستعداد والشئ أمامها على هيئة التواضع كما ذكرنا
آدابه وسنته في فن الفقه ومن آدابه حسن الظن باليت وإن كان فاسقا وإساءة الظن بالنفس وإن
كان ظاهرها الصلاح فان الحائمة محظرة لا تدرى حقيقتها ، ولذلك روى عن عمر بن ذر أنه مات

(الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والقابر)

قال له رسول الله
صلى الله عليه وسلم
وماذا أبيت لعمالك
قال الله ورسوله وقال
بعضهم : علم اليقين
حال التفرقة وعين
اليقين حال الجمع وحق
اليقين جمع الجمع
لسان التوحيد وقيل
لليقين اسم و رسم
وعلم وعين وحق
فالاسم والرسم للموأم
وعلم اليقين للأولياء
وعين اليقين لخواص
الأولياء وحق اليقين
للأنبياء عليهم الصلاة
والسلام وحقية اليقين
اختص بها نبينا محمد
صلى الله عليه وسلم .
(ومنها الوقت) والمراد
بالوقت ما هو غالب
على العبد وأغلب

واحد من جيرانه وكان مسرفاً على نفسه فتجافى كثير من الناس عن جنازته فحضرها هو وصلى عليها فلما دلى في قبره وقف على قبره وقال مرحمك الله يا أبا فلان فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود وإن قالوا مذنب وذو خطايا فمن منا غير مذنب وغير ذي خطايا. ويحكى أن رجلاً من القهقريين في الفسادمات في بعض نواحي البصرة فلم تجد امرأته من يصبها على حمل جنازته إذ لم يدبرها أحد من جيرانه لكثرة فسقه فاستأجرت حمالين وحملتها إلى المصلى فاصلى عليه أحد خدمتها إلى الصحراء لدفن فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار فرأته كالمنتظر للجنازة ثم قصد أن يصلى عليها فانتشر الخبر في البلد بأن الزاهد نزل ليصلى على فلان فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه وتمجبت الناس من صلاة الزاهد عليه فقال قيل لي في المنام أنزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصلت عليه فانه مغفور له فزادته تجب الناس فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته قالت كما عرف كان طول نهاره في الماخور مشغولاً بشرب الخمر فقال انظري هل تعرفين منه شيئاً من أعمال الخير قالت نعم ثلاثة أشياء: كان كل يوم يغيق من سكره وقت الصبح يبذل ثيابه ويتوضأ ويصلى الصبح في جماعة ثم يعود إلى الماخور ويشتمل بالفسق، والثاني أنه كان أبداً لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده وكان شديد التفقد لهم، والثالث أنه كان يفوق في أثناء سكره في ظلام الليل فيبكي ويقول يارب أي زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الحبيث يعني نفسه فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره. وعن صلة بن أشيم وقد دفن أخ له فقال على قبره:

فان تج منها نتج من ذي عظيمة وإلا فإن لا إخالك ناجياً

(بيان حال القبر وأقوابهم عند القبور)

قال الضحاك قال رجل «يا رسول الله من أزهد الناس؟ قال من لم ينس القبر والبلى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفسد ولم يعد غدًا من أيامه وعدت نفسه من أهل القبور» (١). وقيل له: كرم الله وجهه ما شأنك جاورت القبرة قال: إني أجدم خير جيران إني أجدم جيران صدق يكفون الألسنة ويذكرون الآخرة وقال رسول الله ﷺ «ما رأيت منظرًا إلا والقبر أفضح منه» (٢). وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس إلى قبر وكننت أدنى القوم منه فبكي وبكيت وبكوا فقال ما يبكيكم فلنا بكيكنا البكاء قال هذا قبر أمي آمنة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي فاستأذنته أن أستغفر لها فأبى عليّ فأدركني ما يدرك الولد من الرقة» (٣).

(١) حديث الضحاك: قال رجل يا رسول الله من أزهد الناس؟ قال من لم ينس القبور والبلى والحديث تقدم (٢) حديث: ما رأيت منظرًا إلا والقبر أفضح منه تقدم في الباب الثالث من آداب الصعبة (٣) حديث عمر: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس على قبر وكننت أدنى القوم الحديث وفيه هذا قبر أمي بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي الحديث وتقدم في آداب الصعبة أيضاً ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه ذكر لعمر بن الخطاب وآخره عند ابن ماجه مختصراً وفيه أيوب بن هاني ضعفه ابن معين وقال أبو حاتم صالح.

ما على العبد وقته
فانه كالبف يمضي
الوقت بحمكه ويقطع
وقد يراد بالوقت
ما يهجم على العبد
لا يكسبه فيتصرف
فيه فيكون بحمكه
يقال فلان يحكمكم
الوقت يعني مأخوذاً
عما منه بما للحق.
(ومنه الغيبة والشهود)
فالشهود هو الحضرة
وقنا بنت المرافقة
ووقتا بوصف
المشاهدة لآدم العبد
موصوفاً بالشهود
والرعاية فهو حاضر
فاذا قصد حال
المشاهدة والمراقبة
خرج من دائرة
الحضور فهو غائب
وقد يعنون بالنية

وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فمثل عن ذلك وقيل له تذكر الجنة والنار فلا تبكى وتبكى إذا وقفت على قبر فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد» (١) وقيل إن عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة فنزل وصلى ركعتين فقبل له هذا شي لم تسكن تصنعه فقال ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحبت أن أتقرب إلى الله بهما وقال مجاهد أول ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة هذا ما أعددت لك فما أعددت لى . وقال أبوذر ألا أخبركم بيوم تقرى يوم أوضع فى قبرى وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور فقبل له فى ذلك فقال أجلس إلى قوم يذكرونى معادى وإذا قت لم يفتابونى وكان جعفر بن محمد يأتى القبور ليلا ويقول يا أهل القبور مالى إذا دعوتكم لا تجيبونى ثم يقول حيل والله بينهم وبين جوانى وكأنى بى أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه يا فلان لقد أرقت اللبنة أنفكر فى القبر وساكنه إنك لورأيت لليت بعد ثلاثة فى قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنىس منك به ولرأيت بيتا تجول فيه الهوام ويجرى فيه الصديد وتغترقه الديدان مع تغير الريح وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة وطيب الريح وتقاء الثوب قال ثم شق شهقة خر منشيا عليه وكان يزيد الرقاشى يقول أيها القبور فى حفرته والمتخلى فى القبر بوحدته للسناس فى بطن الأرض بأعماله ليت شعرى بأى أعمالك استبشرت وبأى اخوانك اغتبطت ثم يبكى حتى يبل عمامته ثم يقول استبشر والله بأعماله الصالحة واغتبط والله باخوانه للتعاونين على طاعة الله تعالى وكان إذا نظر إلى القبور خار كما يخور الثور وقال حاتم الأصم من مر بالقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم وكان بكر العابد يقول يا أماء ليتك كنتى بى عقبا إن لابتك فى القبر حبسا طويلا ومن بعد ذلك منه رحيلا وقال يحيى بن معاذ يا ابن آدم دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أين توجيهه إن أجبته من دنياك واشتغلت بالرحلة إليه دخلتها وإن أجبته من قبرك منعتها وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على القابر يقول ما أحسن ظواهرك إنما الدواهى فى بواطنك وكان عطاء السلمى إذا جن عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم يقول يا أهل القبور متى فواموتاه وعابتم أعمالكم فواعملوا ثم يقول غدا عطاء فى القبور غدا عطاء فى القبور فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح وقال سفیان من أكثر من ذكر القبر وجدته روضة من رياض الجنة ومن غفل عن ذكره وجدته حفرة من حفر النار وكان الربيع بن خيم قد حفر فى داره قبرا فسكان إذا وجد فى قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ماشاء الله ثم يقول رب ارجعون لى أعمل صالحا فيما تركت- يرددها ثم يرد على نفسه ياربيع قد رجعتك فاعمل وقال أحمد بن حرب تتمعجب الأرض من رجل يهد مضجعه ويسوى فراشه للنوم فتقول يا ابن آدم لم لاتذكر طول بلاك وما بينى وبينك شىء وقال ميمون بن مهران خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل على فقال يا ميمون هذه قبور آبائى بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم وعيشهم أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلث واستحكّم فيهم البلى وأصابت الهوام مقبلا فى أبدانهم ثم بكى وقال والله ما أعلم أحدا أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله وقال ثابت البنانى دخلت القابر فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول يا ثابت لا يفرنك صوت أهلها فكم

الغيبه عن الأشياء
بالحق فيكون على
هذا المعنى حاصل ذلك
راجعا إلى مقام الفناء
(ومنها الذوق والشرب
والرى) فالذوق إيمان
والشرب علم والرى
حال فالذوق الأرباب
البوادع والشرب لأرباب
الطوائع واللوايح
والواضع والرى لأرباب
الأحوال وذلك أن
الأحوال هى التى تستقر
لها لم يستقر فليس
بمحال وإنما هى لواضع
وطوائع وقيل الحال
لا تستقر لأنها تحمول
فاذا استقرت تكون
مقاما (ومنها المحاضرة
واللكاشفة والشاهدة)
فالمحاضرة لأرباب
التساوين والشاهدة

(١) حديث عثمان كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته وفيه إن القبر أول منازل الآخرة الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه وتقدم فى آداب الصحبة .

من نفس مغمومة فيها ، وروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن فظفت وجهها وقالت :

وكانوا رجاء ثم أموارزية لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وقيل إنها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت المدينة فسمعوا صوتا من جانب البقيع هل وجدوا ما فقدوا فسمعوا من الجانب الآخر بل يمشوا فاقبلوا . وقال أبو موسى التيمي : توفيت امرأة الفرزدق نخرج في جنازتها وجوه البصرة وفيهم الحسن فقال له الحسن يا أبا فراس ماذا أعددت لهذا اليوم فقال شهادة أن لا إله إلا الله منذ سنين سنة فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال :

أخاف وراء القبر إن لم تعافني أشد من القبر التهايا وأضيحا

إذا جأني يوم القيامة قائداً عنيف وسواق يسوق الفرزدقا

لقد خاب من أولاد آدم من مشى إلى النار مغلول القلادة أزرقا

وقد أنشدوا في أهل القبور :

قف بالقبور وقل على ساكنها من منكم للعمور في ظلماتها

ومن الحكرم منكم في قبرها قد ذاق برد الأمن من روعاتها

أما السكون لدى العيون فواحد لا يستبيز الفضل في درجاتها

لو جاوبوك لأخبروك بالسن تصف الحقائق بعد من حالاتها

أما الطبع فنازل في روضة يفضى إلى سائها من دوحاتها

والجرم الطاغى بها متقلب في حفرة يأوى إلى حياتها

وعقارب تسعى إليه فروحه في شدة التعذيب من لدغاتها

ومر داود الطائي على امرأة تبكي على قبر وهي تقول :

عدمت الحياة ولا نلتها إذا كنت في القبر قد ألدوكا

فكيف أذوق لطم الكرى وأنت يمينك قد وسدوكا

ثم قالت يا ابنه بأى خديك بدأ الدود فصعق داود مكانه وخر مغشيا عليه . وقال مالك بن دينار مررت بالمقبرة فأنشأت أقول :

أتيت القبور فناديتها فأين العظم والمهتر

وأين المدل بسلطانه وأين الزكي إذا ما افتخر

قال فنوديت من بينها أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول :

تفانوا جميعا فما نجبر وماتوا جميعا ومات الجبر

تروح وتغدو بنات الثرى فمجدو محامن تلك الصور

فيا مائلى عن أناس مضوا أما لك فما ترى معتبر

قال فرجعت وأنا باك .

آيات وجدت مكتوبة على القبور

وجد مكتوبا على قبر :

تناجيك أجدات وهن صموت وسكانها تحت التراب خفوت

أيا جامع الدنيا لتسير بلاغه لمن نجمع الدنيا وأنت صموت

لأرباب التحسين
وللكاشفة بينهما إلى
أن تستقر فالمشاهدة
والمحاضرة لأهل العلم
والكاشفة لأهل العين
والمشاهدة لأهل الحق
أى حق اليقين (ومنها
الطوارق واليوادى
والبساده والواقع
والقادح والطوالع
واللوامع واللاوائح)
وهذه كلها ألفاظ
مقاربة المعنى ويمكن
بسبب القول فيها
ويكون حاصل ذلك
راجعا إلى معنى واحد
يكثر بالعبارة فلا فائدة
فيه والمقصود أن هذه
الأصاء كلها مبادئ
الحال ومقدماته وإذا
صح الحال استوعب

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

أي غانم أما ذراك فواسع وقبرك معمور الجوانب محكم
وما ينفع القبور عمران قبره إذا كان فيه جسمه بينهم

وقال ابن السكك مررت على المقابر فاذا على قبر مكتوب :

يمر أقاربي جنات قبري كأن أقاربي لم يعرفوني
ذوو الميراث يقتسمون مالي وما يألون أن جعدوا ديوني
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا فيا لله أسرع ما نسوني

ووجد على قبر مكتوبا :

إن الحبيب من الأحباب مختلس لا يمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدنيا ولذاتها يامن يمد عليه اللفظ والنفس
أصبحت يا غافلا في النقص منغما وأنت دهرك في اللذات منغس
لا يرحم الموت ذا جهل لفرته ولا الذي كان منه العلم يقتبس
كم أحرص الموت في قبر وقتت به عن الجواب لسانا ما به حرس
قد كان قصرك معمورا له شرف فقبرك اليوم في الأجداد مندرس

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

وقفت على الأعبة حين صفت قبورهم كأفراس الرهان
فلسا أن بكيت وقاض دمعى رأيت عيناي بينهم مكاني

ووجد على قبر طيب مكتوبا :

قد قلت لما قال لي قائل صار لثمان إلى رسمه
فأين ما بوصف من طبه وحذقه في الساء مع جسسه
هيات لا يدفع عن غيره من كان لا يدفع عن نفسه

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

يا أيها الناس كان لي أمل قصر بي عن بلوغه الأجل
فليتق الله ربه رجل أمكنه في حياته العمل
ما أنا وحدى نقلت حيث ترى كل إلى مثله سيقتل

فهذه آيات كتبت على قبور لتقصير مكانها عن الاعتبار قبل الموت والبصير هو الذي ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستمد للحوق بهم ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذي هو مضيع له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بهذا فبرها لأنهم عرفوا قدر الأعمار وانكشفت لهم حقائق الأمور فأنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب وليستزيد الموفق به ربته فيتضاعف له الثواب فانهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه فحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت قادر على تلك الساعة واطلقت تقدر على أمثالهم ثم أنت مضيع لها فوطن نفسك على التحصير على تضييعها عند خروج الأمر من الاختيار إذ لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتداء فقد قال بعض الصالحين رأيت أخا لي في الله فيما يرى النائم قلت يا فلان عشت الحمد لله رب العالمين قال لأن أقدر على أن أقولها يعني الحمد لله رب العالمين أحب إلى من الدنيا وما فيها ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفنونني لأن فلانا

هذه الأسماء كلها ومعانيها .

(ومنها التلويح والتحكين)

فالتلويح لأرباب القلوب لأنهم تحت

حجب القلوب وللقلوب تخلس إلى الصفات

وللصفات تعدد تعدد جهاتها فظهر لأرباب

القلوب بحسب تعدد الصفات تلويحات ولا

تجاوز للقلوب وأربابها عن عالم الصفات وأما

أرباب التحكين فخرجوا عن مشائم الأحوال وخرقوا

حجب القلوب وباشرت أرواحهم

سسطوح نور الذات فارفع التلويح لعدم

قد قام فصلي ركعتين لأن أكون أقدر على أن أصلهما أحب إلي من الدنيا وما فيها .

(بيان أقاولهم عند موت الولد)

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله في تقدمه عليه في الموت منزلة مالوكا في سفر فسبقه الولد إلى البلد الذي هو مستقره ووطنه فإنه لا يمتظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على القرب وليس بينهما إلا تقدم وتأخر وهكذا الموت فإن معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق التأخر وإذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه لاسما وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزى به كل مصاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لأن أقدم سقطا أحب إلي من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله» (١) وإنما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأظلى وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب وقال زيد بن أسلم توفي ابن لرواد عليه السلام فحزن عليه حزنا شديدا قيل له ما كان عدله عندك قال ملء الأرض ذهباً قيل له فإن لك من الأجر في الآخرة مثل ذلك وقال رسول الله ﷺ «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جنة من النار فقالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أو اثنتان قال أو اثنتان» (٢) وليخلص الولد الدعاء لولده عند الموت فإنه أرجى دعاء وأقرب به إلى الاجابة . وقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال اللهم إني أصبحت أرجوك له وأخافك عليه فحقق رجائي وآمن خوفاً ووقف أبو سنان على قبر ابنه فقال اللهم إني قد غفرت له ما وجب لي عليه فأغفر له ما وجب لك عليه فانك أجود وأكرم ، ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال اللهم إني قد وهبت له ما صرفه من برى فهب له ما صرف فيه من طاعتك . ولما مات ذر بن عمر بن ذر قال أبوه عمر بن ذر بعد ما وضعه في الحدف فقال يا ذر لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك ثم قال اللهم إن هذا ذر معتق به مامتعتى ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه اللهم وقد كنت ألتزمته طاعتك وطاعتك اللهم وما وعدتني عليه من الأجر في مصيبي فقد وهبت له ذلك فهب لي عذابه ولا تمذبه فأبكى الناس ثم قال عند انصرافه ما علينا بعدك من خصاصة يا ذر وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة فأقدم مضينا وتر كناك ولو ألقنا ما مضناك . ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال ما رأيت مثل هذه النظارة وما ذاك إلا من قلة الحزن فقالت يا عبد الله إني لفي حزن ما يشركني فيه أحد قال فكيف قالت إن زوجي ذبح شاة في يوم عيد الأضحى وكان لي صبيان مليحان بامبان فقال أكبرهما للآخر أتريد أن أريك كيف ذبح أبي الشاة قال نعم فأخذته وذبحه وما شعرنا به إلا منتشحا في دمه فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فاجأ إلى جيب فرهقه ذنب فأكله وخرج أبوه يطلبه فمات عطشا من شدة الحر قالت فأرادني الدهر كما ترى فأمثال هذه النصاب ينبغي أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدة الجزع فسامن مصيبة إلا وبصير ما هو أعظم منها وما يدفعه الله في كل حال فهو الأكثر .

(بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به)

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكير والاعتبار وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك بعد (٣) .

(١) حديث لأن أقدم سقطا أحب إلي من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله لم أجد فيه ذكر مائة فارس وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة لسقط أقدمه بين يدي أحب إلي من فارس أخلفه خلفي (٢) حديث لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم الحديث تقدم في النكاح (٣) حديث نهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك مسلم من حديث بريدة وقد تقدم .

التغير في القدرات إذ جلت ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات فلما اخلصوا إلى مواطن القرب من أنصبه تجلى الذات ارتفع عنهم التلويح فالتساوين حينئذ يكون في نفوسهم لأنها في محل القلوب لموضع طهارتها وقدسها والتاوين الواقع في النفوس لا يخرج صاحبه عن حال التمسكين لأن جريان التلويح في النفس لبقاء رسم الانسانية وثبوت القسدم في التمسكين كشف حق الحقيقة وليس المعنى بالتمسكين أن لا يكون للعبس يد تغير فإنه بشر وإنما المعنى

روى عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لاتقولوا هجرا (١)» وزار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم يربا كيا أكثر من يومئذ (٢) وفي هذا اليوم قال أذن لي في الزيارة دون الاستغفار (٣) كما وردنا من قبل وقال ابن أبي مليكة أقبلت عائشة رضي الله عنها يوما من المقابر فقلت يأم المؤمنين من أين أقبلت قالت من قبر أخي عبد الرحمن فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها قالت نعم ثم أمر بها (٤) ولا ينبغي أن يتمسك بهذا فيؤذن للنساء في الخروج إلى المقابر فانهن يكترن المهجر على رؤوس المقابر فلا يفي خير زيارتهن بشرها ولا يغفلون في الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظام الزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها ، نعم لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «زر القبور تذكر بها الآخرة واغسل الموتى فان معالجة جسدخاو موعظة بليغة وصل على الجنائز لعل ذلك أن يحزنك فان الحزين في ظل الله (٥)» وقال ابن أبي مليكة قال رسول الله ﷺ «زوروا موتاكم وسلموا عليهم فان لكم فيهم عبرة (٦)» وعن نافع أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد الا وقف عليه وسلم عليه وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام فتصلي وتبكي عنده وقال النبي صلى الله عليه وسلم «من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برآ (٧)» وعن ابن سيرين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعوا الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين (٨)» وقال النبي صلى الله عليه وسلم

أن ما كوشف له من الحقيقة لا يتوارى عنه أبدا ولا يتناقص بل يزيد وصاحب التواضع قد يتناقص الشيء في حقه عند ظهور صفات نفسه وتقيب عنه الحقيقة في بعض الأحوال ويكون نبوته على مستقر الإيمان وتلوينه في زوائد الأحوال (ومنها النفس) ويقال النفس للمتنهى والوقت للمبتدى والحال للمتوسط فكانت إشارة منهم إلى أن المبتدى يطرقه من الله تعالى طارق لا يستقر والمتوسط صاحب حال غالب حاله عليه والنتهى صاحب نفس

(١) حديث علي كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لاتقولوا هجرا رواه أحمد وأبو يعلى في مسنده وابن أبي الدنيا في كتاب القبور واللفظه ويقل أحمد وأبو يعلى غير أن لاتقولوا هجرا وفيه على بن زيد بن جدعان عن ربيعة بن النابتة قال البخاري لم يصح وريعة ذكره ابن حبان في الثقات (٢) حديث زار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم يربا كيا أكثر من يومئذ ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأنخس متروك ورواه بنحوه من وجه آخر كنا معه قريبا من ألف راكب وفيه أنه لم يأذن له في الاستغفار لها (٣) حديث وقال في هذا اليوم أذن لي في الزيارة دون الاستغفار تقدم في الحديث قبله من حديث بريدة أنه لم يؤذن له في الاستغفار لها ورواه مسلم من حديث أبي هريرة استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي (٤) حديث ابن أبي مليكة أقبلت عائشة يوما من المقابر فقلت يأم المؤمنين من أين أقبلت قالت من قبر أخي عبد الرحمن فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها قالت نعم ثم أمر بها ابن أبي الدنيا في القبور إسناد جيد (٥) حديث أبي ذر زار القبور تذكر الآخرة واغسل الموتى فان معالجة جسدخاو موعظة بليغة الحديث ابن أبي الدنيا في القبور والحاكم بإسناد جيد (٦) حديث ابن أبي مليكة زوروا موتاكم وسلموا عليهم وصلوا عليهم الحديث ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسل وإسناده حسن (٧) حديث من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برآ الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة وابن أبي الدنيا في القبور من رواية محمد بن النعمان يرفعه وهو معضل ومحمد بن النعمان مجهول وشيخه عند الطبراني يحيى بن العلاء الجلي متروك (٨) حديث ابن سيرين ان الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعوا الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الإسناد ورواه ابن عدى من رواية يحيى بن عتبة بن أبي العيزار عن محمد بن جعدة

« من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة (٢) » وقال كعب الأحبار: ما من جري بطاع إلا نزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يخفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك حتى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفا من الملائكة يوقرونه. والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلا بوجهه البيت وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يمسه ولا يقبله فان ذلك من عادة النصارى. قال نافع كان ابن عمر رأته مائة مرة أو أكثر يعمى إلى القبر فيقول السلام على النبي السلام على أبي بكر السلام على أبي وينصرف. وعن أبي أمامة قال رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف. وقالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله ﷺ « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا امتأنس به ورد عليه حتى يقوم » (٣) وقال سليمان بن سحيم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم قلت يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقهم سلامهم قال نعم وأرد عليهم وقال أبو هريرة إذا مر الرجل بقبر الرجل يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه وإذا مر بقبر لا يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام وقال رجل من آل عاصم الجحدري رأيت عاصم في منامي بعد موته بهنتين قلت أليس قد مات قال بلى قلت أين أنت فقال أنا واقف في روضة من رياض الجنة أنا وقرن من أمهاني نجتمع كل ليلة جمعة وصيحتها إلى أبي بكر بن عبد الله المزني فتتلاقى أخباركم قلت أجسامكم أم أرواحكم قال هيئات بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح قال قلت فهل تملعون بزيارتنا إياكم قال نعم نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس قلت وكيف ذلك دون الأيام كلها قال لفضل يوم الجمعة وعظمه. وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة قبيل ليلته لو أخرت إلى يوم الاثنين قال بلغني أن اللونى يملون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبله ويوما بعده وقال الضحاك: من زار قبري قبل طلوع الشمس يوم السبت علم البيت بزيارته قبل وكيف ذلك قال لمكان يوم الجمعة. وقال بشر بن منصور لما كان زمن الطاعون كان رجل مختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال أنس الله وحشتكم ورحم غربتكم ونجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هذه الكلمات قال الرجل فأمسيت ذات ليلة فأنصرفت إلى أهلى ولم أت المقابر فأدعوا كما كنت أدعو فيينا أنا نائم إذا بخلق كثير قد جاءونى قلت ما أتم وما حاجتكم قالوا نحن أهل المقابر قلت ما جاء بكم قالوا إنك قد عودتنا منك هدية عندنا نصرافك إلى أهلك قلت وما هي قالوا الدعوات التي كنت تدعو لنا بها قلت فاني أعود لذلك فما تركتها بعد ذلك. وقال بشر بن غالب النجرائى رأيت رابعة العدوية العابدة في منامى وكنت كثير الدعاء لها فقالت لى يا بشر بن غالب هداياك تأتينا على أطباق من نور محرمة بمناديل الحرير قلت وكيف ذلك قالت وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق النور وخرم بمناديل الحرير ثم أتى به البيت قبيل له هذه هدية فلان إليك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الميت في قبره إلا كالعريق الموث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه

عن أنس قال ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن جحادة عن قتادة عن أنس ومجي بن عقبه والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف (١) حديث من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي تقدم في أسرار الحج (٢) حديث من زارنى بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة تقدم فيه (٣) حديث عائشة ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا امتأنس به ورد عليه حتى يقوم ابن أبي الدنيا في القبور وفيه عبد الله بن سميان ولم أقف على حاله ورواه ابن عبد البر في التمهيد من حديث ابن عباس نحوه وصححه عبد الحق الأشيبلى.

متمسكن من الحال لا يتناوب عليه الحال بالنية والحضور بل تكون للواجب مقرونة بانفاسه مقبلة لا تتناوب عليه وهذه كلها أحوال لأربابها ولهم منها ذوق وشرب والله يفسح يركنهم آمين

[الباب الثالث والستون في ذكر شيء من البدايات والنهايات وصحتها] حدثنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب السهروردى قال أنا الشريف أبو طالب الحسين بن محمد الزينى قال أخبرتنا كريمة الروزية قالت أخبرنا أبو الهيثم محمد بن مكى

وأخيه أوصديق له فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها وإن هدايا الأحياء للأموات الدعاء والاستغفار (١). وقال بعضهم مات أخ لي فرأيت في المنام قفلة ما كان حالك حيث وضعت في قبرك قال أتاني آت يشهاب من نار فلولا أن داعيا دعالي لرأيت أنه سيضربني به ومن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له قال سعيد بن عبد الله الأزدي «شهدت بأمامة الباهلي وهو في الترع فقال ياسعيد إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان ابن فلانة فإنه يسمع ولا يجب ثم ليقول يا فلان ابن فلانة الثانية فإنه يستوي قاعدا ثم ليقول يا فلان ابن فلانة الثالثة فإنه يقول أرشدنا برحمتك الله ولكن لا نسمعون فيقول له اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأنت رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً وبالقرآن إماماً فإن منكراً ونكيراً يتأخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا وقد لقن حجة ويكون الله عز وجل حبيبه دونهما فقال رجل يا رسول الله فإن لم يعرف اسم أمه قال فلينسبه إلى حواء (٢) ولا بأس بقراءة القرآن على القبور روى عن علي بن موسى الحداد قال: كنت مع أحمد بن حنبل في جنازة ومحمد بن قدامة الجوهري معنا فلما دفن الميت جاء رجل ضربه يقرأ عند القبر فقال له أحمد يا هذا إن القراءة عند القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد يا أباهد الله ماتقول في مبشر بن اسمعيل الحلبي قال ثقة قال هل كتبت عنه شيئا قال نعم قال أخبرني مبشر بن اسمعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها وقال سمعت ابن عمر يوصى بذلك فقال له أحمد فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ. وقال محمد ابن أحمد المروزي سمعت أحمد بن حنبل يقول إذا دخلتم المقابر فاقرءوا بآيات الكتاب والمعوذتين وقل هو الله أحد واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم وقال أبو قلابة أقبلت من الشام إلى البصرة فزلت الخندق فتطهرت واصلت ركعتين بليل ثم وضعت رأسي على قبر فتمت ثم تنهيت فاذا صاحب القبر يشتكيني يقول لقد أذبتني منذ الليلة ثم قال إنكم لا تعلمون ونحن نعلم ولا تقدر على العمل ثم قال للركعتان اللتان ركعتما خير من الدنيا وما فيها ثم قال جرى الله عنا أهل الدنيا خيراً أقرتهم السلام فإنه قد يدخل عليتنا من دعائهم نور أمثال الجبال فالتمسوا من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها ولزور الانتفاع بدعائه فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصور في قلبه الميت كيف تفرقت أجزاؤه وكيف يهت من قبره وأنه على القبر سيلحق به كما روى عن مطرف بن أبي بكر الهذلي قال كانت عجوز في عبد القيس متعبدة فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى المهراب وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور بلفظ أنها عوتبت في كثرة آياتها للمقابر

الكشميني قال أنا أبو عبد الله محمد بن يوسف القبري قال حدثنا أبو عبد الله محمد ابن اسمعيل بن ابراهيم البخاري قال حدثنا الحميدي قال حدثنا سفيان بن عيينة قال حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاري قال أخبرني محمد بن ابراهيم التيمي أنه سمع علقمة بن وقاص قال سمعت عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يقول على النبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن

(١) حديث ما لي في قبره إلا كالفرق المغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو من أخيه أو صديق له الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن علي بن عبد الواحد قال الذهبي حدث عن هشام بن عمار بحديث باطل (٢) حديث سعيد بن عبد الله الأزدي قال شهدت بأمامة الباهلي وهو في الترع فقال ياسعيد إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان ابن فلانة الحديث في تلقين الميت في قبره الطبراني هكذا باسناد ضيف .

قالت إن القلب القاسى إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى وإني لآنى القبور فكأنى أنظرو وقد خرجوا من بين أطباقها وكأنى أنظر إلى تلك الوجوه المتعففة وإلى تلك الأجسام المتعففة وإلى تلك الأوجافان الدصمة فيألفها من نظرة لوأشربها العباد قلوبهم ما أنسكل مرارتها للأففس وأشد تلفها للأبدان بل ينبغى أن يحضر من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبد العزيز حيث دخل عليه فقيه فمجب من تغير صورته لكثرة الجهد والعبادة فقال له يافلان لورأتنى بعد ثلاث وقد أدخلت قبرى وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الحددين وتقلصت الشفتان عن الأسنان، وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم وتآ البطن فعلا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من المناخر لرأيت أعجب مما تراه الآن ويستحب الثناء على الميت وألا يذكر إلا بالجميل قالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تنموا فيه» (١) وقال صلى الله عليه وسلم «لا تسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا» (٢) وقال صلى الله عليه وسلم «لا تذكروا موتاكم إلا بخير فانهم إن يكونوا من أهل الجنة تأمنوا وإن يكونوا من أهل النار تحسبهم مأم فيه» (٣) وقال أنس بن مالك «مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا عليها شرا فقال عليه السلام وجبت ومروا بأخرى فأتوا عليها خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت فسأله عمر عن ذلك فقال إن هذا أئتمت عليه خيرا فوجبت له الجنة وهذا أئتمت عليه شرا فوجبت له النار وأتم شهداء الله فى الأرض» (٤) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن البديل موت فبئس عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره فيقول الله تعالى ملائكتك أنه شهدكم أنى قد قبلت شهادة عبيدى على عبدى وتجاوزت عن علمى فى عبدى» (٥)

(الباب السابع فى حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر إلى تفحة الصور)

(بيان حقيقة الموت)

اعلم أن للناس فى حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد أخطأوا فيها فظن بعضهم أن الموت هو العدم وأنه لا حشر ولا نشر ولا عقاب للخير والشر وأن موت الانسان كموت الحيوانات وجفاف النبات وهذا رأى للحددين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر وظن قوم أنه بعدم الموت ولا يتألم بعقاب ولا يتمتع بشواب مادام فى القبر إلى أن يعاد فى وقت الحشر وقال آخرون إن الروح باقية لا تنعدم بالموت وإنما الثاب والمعاقب هى الأرواح دون الأجساد وإن الأجساد لا تبث ولا تحشر أصلا

(١) حديث إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تنموا فيه أبو داود من حديث عائشة باسناد جيد (٢) حديث لا تسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا البخارى من حديث عائشة أيضا (٣) حديث لا تذكروا موتاكم إلا بخير الحديث ابن أبى الدنيا فى الموت هكذا باسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائى من حديث عائشة جيد مقتصر على ما ذكر منه هنا بلفظ هلسككم وذكره بالزيادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائى والطبرانى (٤) حديث أنس مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا عليها شرا فقال وجبت الحديث متفق عليه (٥) حديث أبى هريرة إن البديل موت فبئس عليه القوم الثناء يعلم الله منه غير ذلك الحديث أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عز وجل مامن عبد مسلم يموت فيشهد له ثلاث آيات من جيرانه الأدين بخير إلا قال الله عز وجل قد قبلت شهادة عبادى على ما علموا وغفرت له ما علم.

(الباب السابع فى حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر)

كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» النية أول العمل وبحسبها يكون العمل وأهم ما المرید فى ابتداء أمره فى طريق القوم أن يدخل طريق الصوفية ويتزانا بزيمهم وبجالس طائفتهم لله تعالى فان دخوله فى طريقهم هجرة حاله ووقته. وقد ورد «المهاجر من هجر ما نهاه الله عنه» وقد قال الله تعالى - ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله - فالمرید ينبغى أن

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق بل الذي تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أن الموت معناه تغير حال فقط وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إمامة ذميمة وإما منعمة ، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بمخرج الجسد عن طاعتها فان الأعضاء آلات للروح تستعملها حتى انها لتبطنش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب والقلب ههنا عبارة عن الروح والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهي تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه وبشدة تقع في الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها فتكون الروح العالمة العاقلة المندركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها وكل الأعضاء آلات والروح هي المستعملة لها وأعنى بالروح المعنى الذي يدرك من الانسان العلوم والآلام الضموم ولذات الأفراح ومهما بطل تصرفها في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات ولا بطل منها الأفراح والضموم ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات والانسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام واللذات وذلك لا يموت أى لا ينعدم ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له كما أن معنى الزمانة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة فالموت زمانة مطلقا في الأعضاء كلها وحقيقة الانسان نفسه وروحه وهى باقية . نم تغير حاله من جهتين : إحداهما أنه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه وسلب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الانسان وبين أن يسلب الانسان من هذه الأشياء فان المؤلم هو القراق والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبي الرجل عن الملك والمال والألم واحد في الحائزين ، وإنما معنى الموت سلب الانسان عن أمواله بازعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم فان كان له في الدنيا شئ يأنس به ويستريح إليه ويعتمد بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه في مفارقه بل يانفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى إلى قبيص كان يلبسه مثلا ويفرح به وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ولم يأنس إلا به عظم نعيمه وتمت - معانته إذ خلى بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله ، فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة ، والثاني أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوقا له في الحياة كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوقا له في النوم والناس ينام فاذا ماتوا انتبهوا وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته وقد كان ذلك مسطورا في كتاب مطوى في سر قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا فاذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيئة إلا ويحسرها عليها تحسرا يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة وعند ذلك يقال له - كفى بنفسك اليوم عليك - حيا - وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن وتشتعل فيه نيران القراق أعنى فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة فان من طلب الزاد للبلغة فاذا بلغ المقصد فرح

يخرج إلى طريق القوم لله تعالى فانه إن وصل إلى نهايات القوم فقد لحق بالقوم بالمنزل وإن أدركه الموت قبل الوصول إلى نهايات القوم فأجره على الله وكل من كانت بدايته أحكم كانت نهايته أتم . أخبرنا أبو زرعة بإجازة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن عن أبي العباس البغدادي عن جعفر الخلدی قال سمعت الجيسد يقول أكثر العوائق والحوائل والموانع من فساد الابتداء فالمرید في أول سلوك هذا الطريق يحتاج

بمفارقة بقية الزاد إذ لم يكن يريد الزاد لعينه وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغنى عنه فقد حصل ما كان يوده واستغنى عنه وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب وقد يعنى عنه ويكون حال التمتع بالدنيا مطمئن إليها كحال من تتم عند غيبة ملك من الملوك في داره وملكه وحرمة اعتياده على أن الملك يقساهل في أمره أو على أن الملك ليس يدرى ما يعطاه من قبيح أفعاله فأخذ الملك بنته وعرض عليه جريدة قد دونت فيها جميع فواحه وجناياته ذرة ذرة وخطوة خطوة والملك قاهر متسلط وغيور على حرمة ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع إليه في العصاة عليه فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والحجلة والحياء والتجسس والندم فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا مطمئن إليها قبل نزول عذاب القبر به بل عند موته نعوذ بالله منه فإن الحزى والافتضاح وهتك السترا أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرها فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت شاهداً ولو البصائر بشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت إذ لا يعرف للموت من لا يعرف الحياة ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها وإدراك ماهية ذاتها « ولم يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم فيها ولا أن يزيد على أن يقول الروح من أمر ربي (١) » فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه وإنما للأئمة في هذا كرحال الروح بعد الموت وبدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار كثيرة : أما الآيات فما ورد في الشهداء إذ قال تعالى - ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل كثير : أما الآيات فما ورد في الشهداء إذ قال تعالى - ولما قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فقيل يا رسول الله أنتاديبهم وهم أموات فقال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام منكُم إلا أنهم لا يقدرون على الجواب (٢) » فهذا نص في بقاء روح الشقي وبقاء إدراكها ومعرفة قتها والآية نص في أرواح الشهداء ولا يغلو للميت عن سعادة أو شقاوة وقال صلى الله عليه وسلم « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (٣) » وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند الموت من غير تأخر وإنما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله . وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مات أحدكم عرض عليه مقدمه غدوة وعشية إن كان من أهل الجنة فمن الجنة وإن كان من أهل النار فمن النار ويقال لهذا مقعدك حتى تمت إليه يوم القيامة وليس يخفى ما في مشاهدة المقعد من عذاب ونعيم في الحال (٥) »

إلى إحكام النية وإحكام النية تنزيهاً من دواعي الهوى وكل ما كان للنفس فيه حظ عاجل حتى يكون خروجه خالصاً لله تعالى . وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز اعلم يا عمر أن عون الله للعبد بقدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له ومث قصرت عنه نيته قصر عنه عون الله بقدر ذلك . وكتب بعض الصالحين إلى أخيه أخلص النية في أعمالك يكفك قليل من العمل ومن لم يهتد إلى النية بنفسه يصحب من يلمه حسن النية . قال سهل بن عبد الله التستري أول ما يؤمر به

(١) حديث إنه لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم في الروح . متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود له عن الروح ونزول قوله تعالى - ويسئلونك عن الروح - وقد تقدم (٢) حديث ندائه من قبل من صناديد قريش يوم بدر يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقاً الحديث مسلم من حديث عمر بن الخطاب (٣) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة الترمذي من حديث أبي سعيد وتقدم في الرجاء والخوف (٤) حديث أنس الموت القيامة من مات فقد قامت قيامته ابن أبي الدنيا في الموت بأسناد ضعيف وقد تقدم (٥) حديث إذا مات أحدكم عرض عليه مقدمه بالغدوة والعشى الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر .

وعن أبي قيس قال كنا مع عاقمة في جنازة فقال أما هذا فقد قامت قيامته . وقال على كرم الله وجهه حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات غريبا مات شهيدا ووقى فئات القبر وغدى وريح عليه برزقه من الجنة (١) » وقال مسروق ما غبطت أحدا ما غبطت مؤمنا في اللحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله تعالى . وقال يعلى بن الوليد كنت أمشى يوما مع أبي الدرداء فقلت له ما تحب لمن تحب قال الموت قلت فان لم يميت قال يقل ماله وولده وإنما أحب الموت لأنه لا يجبه إلا المؤمن والموت إطلاق المؤمن من السجن وإنما أحب قلة المال والولد لأنه فتنه وسبب للأمن بالدنيا والأمن بن لا بد من فراقه غاية الشقاء فكل مأسوى الله وذكره والانس به فلا بد من فراقه عند الموت لا محالة ولهذا قال عبد الله بن عمرو : إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات في سجن فأخرج منه فهو يتفصح في الأرض ويتقلب فيها وهذا الذي ذكره حال من تجافى عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه ومقاساة الشهوات تؤذيه فكان في الموت خلاصه من جميع المؤذيات وانفراده بمحبوبه الذي كان به أنسه من غير عائق ولا دافع وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم واللذات وأكل اللذات للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين للتفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين إلى لقاء الله راضين بالقتل في طلب مرضاته فان نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعا بالآخرة والبايع لا يلتفت قلبه إلى البيع وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها وتشوق إليها فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه وما أقل التفاته إلى ما باعه إذا فارقه وتجرد القلب لحب الله تعالى قد يتفق في بعض الأحوال ولكن لا يدركه الموت عليه فيتغير والقتال سبب للموت فكان سببا لإدراك الموت على مثل هذه الحالة فلهذا عظم النعيم إذ مضى النعيم أن ينال الانسان ما يريد قال الله تعالى - ولهم ما يشتهون - فكان هذا أجمع عبارة لمعانى لذات الجنة وأعظم العذاب أن يمنع الانسان عن مراده كما قال الله تعالى - وحيل بينهم وبين ما يشتهون - فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم وهذا النعيم يدركه الشهيد كما أقطع نفسه من غير تأخير وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى فقد روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر « ألا أبشرك يا جابر وكان قد استشهد أبوه يوم أحد فقال بلى بشرك الله بالحير فقال إن الله عز وجل قد أحيا أباك وأقدمه بين يديه وقال تمن على عبدى ما شئت أعطيكه فقال يارب ما عبدتك حتى عبادتك آتني عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى قال له إنه قد سبق مني أنك إليها لا ترجع (٢) » وقال كعب يوجد رجل في الجنة يبكي فيقال له لم تبكي وأنت في الجنة قال أبكي لأني لم أقتل في الله إلا قتلة واحدة فكنت أشتى أن أرد فأقتل فيه قتلات . واعلم أن المؤمن ينكشف له عيب الموت . من سعة جلال الله ماتكون الدنيا بالاضافة إليه كالسجن والضيق ويكون مثاله كالحبوس في بيت مظلم فتح له باب

المريد البتدى التبرى
من الحركات الذمومة
ثم النقل إلى الحركات
المحمودة ثم التفرد
لأمر الله تعالى ثم
التوقف في الرشاد ثم
الثبات ثم البيان ثم
القرب ثم المناجاة ثم
المصااة ثم الموالاته
ويكون الرضا والتسليم
مراده والتفويض
والتوكل حاله ثم بمن
الله تعالى بعد هذه
بالمعرفة فيكون مقامه
عند الله مقام للتبرئين
من الحول والقوة
وهذا مقام حملة العرش
وليس بعده مقام
هذا من كلام سهل
جمع فيه ما في البداية
والنهاية ومتى تمسك
الرديد بالصدق

(١) حديث أبي هريرة من مات غريبا مات شهيدا ووقى فئات القبر ابن ماجه بسند ضعيف وقال فتنه القبر وقال ابن أبي الدنيا فان (٢) حديث عائشة ألا أبشرك يا جابر الحديث وفيه إن الله أحيا أباك فأقدمه بين يديه الحديث ابن أبي الدنيا في الموت باسناد فيه ضعف وللمتري وحسنه وابن ماجه من حديث جابر ألا أبشرك بما لقي الله به أباك قال بلى يا رسول الله الحديث وفيه فقال يا عبدى تمن على أعطك قال يارب تحببني فأقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه إنه سبق مني أنهم لا يرجعون.

إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطيور فلا يشتهي العود إلى السجن المظلم وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً فقال لرجل مات «أصبح هذا مرتحلاً عن الدنيا وتركها لأهلها فان كان قدرضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه (١)» فرفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كمناسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم وقال صلى الله عليه وسلم «إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه (٢)» وكذلك المؤمن يخرج من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم «إن فلاناً قدمنا فقال مستريح أو مستراح منه (٣)» وأشار بالمستريح إلى المؤمن والمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه وقال أبو عمر صاحب السقياء مرثياً ابن عمر ونحن صبيان فنظر إلى قبر فاذا جمجمة بادية فأمر رجلاً فواراها ثم قال إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الترى شيئاً وإنما الأرواح التي تعاقب وتتاب إلى يوم القيامة، وعن عمرو بن دينار قال ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده وإنهم ليسألونه ويكفنونونه وإنه لينظر إليهم وقال مالك بن أنس بلغني أن أرواح المؤمنين مرسلت تذهب حيث شاءت وقال النعمان بن بشير «سمعت رسول الله ﷺ على النبر يقول ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل للدباب يمور في جوفها فإله الله في إخوانكم من أهل القبور فإن أعمالكم تعرض عليهم (٤)» وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فانها تعرض على أوليائكم من أهل القبور (٥)» ولذلك قال أبو الدرداء اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً أخزى به عند عبد الله بن رواحة وكان قد مات وهو خاله وسئل عبدالله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي؟ قال في حواصل طير بيض في ظل العرش وأرواح الكافرين في الأرض السابعة. وقال أبو سعيد الخدري سمعت رسول الله

(١) حديث قال لرجل مات أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فان كان قدرضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلًا ورجاله ثقات (٢) حديث إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه ابن أبي الدنيا فيه من رواية بقره عن جابر بن غانم السلقى عن سليم بن عامر الجنائزى مرسلًا هكذا (٣) حديث قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن فلاناً قدمنا فقال مستريح أو مستراح منه متفق عليه من حديث أبي قتادة باللفظ مرثياً عليه بجزالة فقال ذلك وهو عند ابن أبي الدنيا في الموت باللفظ الذي أورده المصنف (٤) حديث النعمان بن بشير ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل للدباب يمور في جوفها فإله الله في إخوانكم من أهل القبور فان أعمالكم تعرض عليهم ابن أبي الدنيا أبو بكر بن لال من رواية مالك بن أدي عن النعمان من قوله الله الله ورواه بكاه الأزدى في الضمراء وقال لا يصح إسناده وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل بكاه في ترجمة أبي اسميل السكونى رواية عن مالك بن أدي ونقل عن أبيه أن كلا منهما مجهول قال الأزدى لا يصح إسناده وذكر ابن حبان في الثقات مالك بن أدي (٥) حديث أبي هريرة لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فانها تعرض على أوليائكم من أهل القبور ابن أبي الدنيا والمحاملى بإسناد ضعيف ولأحمد من رواية من سمع إنساناً عن أنس أن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات الحديث.

والإخلاص بلغ مبلغ الرجال ولا يحتمق صدقه وإخلاصه شيء مثل متابعة أمر التمرح وقطع النظر عن الخلق فكل الآفات التي دخلت على أهل البدايات لموضع نظرهم إلى الخلق وبلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا يكمل إيمان المرء حتى يكون الناس عنده كالأباعر ثم يرجع إلى نفسه فيراها أصغر صاغراً» إشارة إلى قطع النظر عن الخلق والخروج منهم وترك التقبيل بآدابهم. قال أحمد بن حنبل من أحب معه على كل حال فيلزم

صلى الله عليه وسلم يقول «إن الميت يعرف من يفلسه ومن يحمله ومن يبدله في قبره»^(١). وقال صالح المري بلغني أن الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التي تخرج إليهم كيف كان مأواك وفي أي الجسد كنت في طيب أو خبيث . وقال عبيد بن عمير أهل القبور يترقبون الأخبار فإذا أتاهم الميت قالوا ماض فلان ؟ فيقول ألم يأتكم أو ما قدم عليكم فيقولون إن الله وإنا إليه راجعون سلك به غير سبيلنا . وعن جعفر بن سعيد قال إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب . وقال مجاهد: إن الرجل ليبشر بصلاح ولده في قبره وروى أبو أيوب الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير في الدنيا يقولون أنظروا أخاكم حتى يستريح فإنه كان في كرب شديد فيسألونه ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة وهل تزوجت فلانة فإذا سألوهم عن رجل مات قبله وقال مات قبلي قالوا إن الله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية»^(٢).

(بيان كلام القبر للبيت)

وكلام الموتى إما بلسان المقال أو بلسان الحال التي هي أوضح في تفهيم الموتى من لسان المقال في تفهيم الأحياء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول القبر للبيت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما عرك في ألم تعلم أني بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ما عرك في إذ كنت تمر بي فذاذا فان كان مصلحا أجاب عنه محجب القبر فيقول أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر إنى إذا تحول عليه خضرا ويعود جسده نورا وتصعد روحه إلى الله تعالى»^(٣) والفذاهو الذي يقدم رجلا ويؤخر أخرى هكذا فسره الراوى . وقال عبيد بن عمير الليثي ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التي يدفن فيها أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد فان كنت في حياتك لله مطيعا كنت عليك اليوم رحمة وإن كنت عاصيا فأنا اليوم عليك قمة أنا الذي من دخلني مطيعا خرج مسرورا ومن دخلني عاصيا خرج مشبورا . وقال محمد بن صبيح بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره فغضب أو أصابه بعض ما يكره ناداه جيرانه من الموتى أيها المتخلف في الدنيا بعد إخوانه وجيرانه أما كان لك فينا معتبرا أما كان لك في متقدمنا إياك فكرة أماريت انقطاع أعمالنا عنا وأنت في المهلة فهل استدركت ما فات إخوانك وتناديه بقاع الأرض أيها المقتر بظاهر الدنيا هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك في بطن الأرض بمن غرته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله إلى القبور وأنت تراه محمولا تهادأه أجبته إلى المنزل الذي لا بد له منه . وقال يزيد الرقاشي بلغني أن الميت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله؟ فقالت أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الأخلاء والأهلون فلا أيس لك اليوم عندنا . وقال كعب: إذا وضع العبد الصالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة قال فتجىء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطلت في القيام لله

(١) حديث أبي سعيد الخدري إن الميت يعرف من يفلسه ومن يحمله ومن يبدله في قبره ورواه أحمد من رواية رجل عنه اسمه معاوية أو ابن معاوية نسيه عبد الملك بن حسن (٢) حديث أبي أيوب إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير يقولون أنظروا أخاكم حتى يستريح ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والظبراني في مسند الشاميين باسناد ضعيف ورواه ابن المبارك في الزهد موقوفا على أبي أيوب باسناد جيد ورفع ابن صاعد في زوائده على الزهد وفيه سلام الطويل ضعيف وهو عند النسائي وابن حبان نحوه . من حديث أبي هريرة باسناد جيد (٣) حديث يقول القبر للبيت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما عرك في ألم تعلم أني بيت الفتنة الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب القبور والظبراني في مسند الشاميين وأبو أحمد الحاكم في الكنى من حديث أبي الحجاج الثمالي باسناد ضعيف.

الصدق فان الله تعالى مع الصادقين وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «الصدق يهدى إلى البر» ولا بد للمريد من الخروج من المال والجاه والخروج عن الخلق بقطع النظر عنهم إلى أن يحكم أسامه فيعلم دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس وأنفع شيء للمريد معرفة النفس ولا يقوم بواجب حق معرفة النفس من له في الدنيا حاجة من طلب الفضول والزيادات أو عليه من الهوى بقية . قال زيد بن أسلم: خصلتان هما كمال أمرك تصبح

عليهما فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام : لاسبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه لله في دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجاهد لله فلا سبيل لكم عليه قال فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه قال فيقال له هنيئا طبت حيا وطبت ميتا قال وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشا من الجنة ودنارا من الجنة ويفسح له في قبره مد بصره ويؤتى بخنديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يعثه الله من قبره . وقال عبد الله بن عبيد بن عمير في جنازة بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعه فلا يكلمه شيء إلا قبره يقول ويحك ابن آدم أليس قد حذرتني وحذرت ضيقى وتنتى وهولى ودودى لماذا أعددت لى (١) » .

(بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير)

قال البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار بفسل رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ثلاثا ثم قال إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة بعث الله ملائكة كأن وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفنه فيجلسون مد بصره فإذا خرجت روحه صلى الله عليه وسلم كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وقتحت أبواب السماء فليس منها باب إلا يجب أن يدخل بروحه منه فإذا صعد بروحه قيل أى رب عبدك فلان فيقول ارجعوه فأروء ما أعددت له من الكرامة فإني وعدتكم منها خلقناكم وفيها نعيدكم - الآية وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول ربى الله ودينى الاسلام ونبى محمد ﷺ قال فيتهراته اتهارا شديدا وهى آخر فتنة تعرض على الميت فإذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت وهى معنى قوله تعالى - يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت - الآية ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول أ بشر برحمة ربك وجنات فيها نعيم مقيم فيقول وأنت فبشرك الله بخير من أنت ؟ فيقول أنا عمالك الصالح والله ما علمت إن كنت لسريما إلى طاعة الله بطيئا عن معصية الله فجزاك الله خيرا قال ثم ينادى مناد أن افرشوا له من فرش الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيفرش له من فرش الجنة ويفتح له باب إلى الجنة فيقول اللهم محجل قيام الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى . قال وأما الكافر فإنه إذا كان فى قبل من الآخرة وانقطع من الدنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسراويل من قطران فيحتوشونه فإذا خرجت نفسه لسنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك فى السماء وعلقت أبواب السماء فليس منها باب إلا يكره أن يدخل بروحه منه فإذا صعد بروحه نيد وقيل أى رب عبدك فلان لم تقبله سماء ولا أرض فيقول الله عز وجل ارجعوه فأروء ما أعددت له من الشر إني وعدتكم - منها خلقناكم وفيها نعيدكم - الآية وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال له يا هذا من ربك وما دينك فيقول لا أدري فيقال لا دريت ثم يأتيه آت يبيح الوجه منتن الريح يبيح الثياب فيقول أ بشر بسخط من الله وبعذاب أليم مقيم فيقول بشرك الله بشر من أنت فيقول أنا عمالك الحبيث والله إن كنت لسريما فى معصية الله بطيئا عن طاعة الله فجزاك الله شرا

(١) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعه فلا يكلمه إلا قبره يقول ويحك يا ابن آدم الحديث ابن أبي الدنيا فى القبور هكذا مرسلًا ورجاله ثقات ورواه ابن المبارك فى الزهد إلا أنه قال بلغنى ولم يرفعه .

لاهم لله بمصية وتسمى
ولا لهم لله بمصية فاذا
أحكم الزهد والتقوى
انكشفت له النفس
وخرجت من حجبها
وعلم طريق حركتها
وخفى شهبواتها
وداسنها وتلبساتها
ومن تمسك بالصدق
قد تمسك بالبروة
الوثقى . قال ذوالنون
الله تعالى فى أرضه
سيف ما وضع على شيء
إلا قطع وهو الصدق
ونقل فى معنى الصدق
أن عابدا من بنى
إسرائيل راودته
ملكه عن نفسه ،
فقال اجعلوا لى ماء فى
الحلأ أنتظف به ثم
صعد على موضع فى
العصر فرمى بنفسه

فيقول وأنت جزاك الله شرًا ثم يقبض له أصم أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يقلوها لم يستطيعوا لو ضرب بها جبل صار ترابًا فيضربه بها ضربة فيصير ترابًا ثم تعود فيه الروح فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الأرضين لبس الثقلين قال ثم ينادى مناد أن افرشوا له لوحين من نار واقتحوا له بابًا إلى النار فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار (١) وقال محمد بن علي مامن ميت يموت إلا مثل له عند الموت أعماله الحسنه وأعماله السيئة قال فيشخص إلى حسنة وبطرق عن سيئاته . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المؤمن إذا احتضر أتمه لللائكة بحريرة فيها مسك وضمائر الريحان فقلل روحه كما تسل الشعرة من العجين ويقال : أيتها النفس الطمئنة اخرجي راضية ومرضيا عنك إلى روح الله وكرامته فإذا أخرجت روحه وضعت على ذلك السك والريحان وطويت عليها الحريرة وبعث بها إلى عليين وإن الكافر إذا احتضر أتمه لللائكة بمسح فيه حجرة قترع روحه انترعا شديدًا ويقال : أيتها النفس الحبيثة اخرجي ساخطة ومسخرطا عليك إلى هوان الله وعذابه فإذا أخرجت روحه وضعت على تلك الحجرة وإن لها نيشا يطوى عليها المسح ويذهب بها إلى سجين (٢) » وعن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقرأ قوله تعالى - حتى إذا جاء أحدم الموت قال رب ارجعوني لعلى أعمل صالحا فإني تركت - قال أي شيء تريد في أي شيء ترغب أتريد أن ترجع لتجمع المال وتفرس القراس وتبني البنيان وتشقق الأنهار قال لا لعلى أعمل صالحا فإني تركت قال فيقول الجبار - كلا إنها كلمة هو قائلها - أي ليقولها عند الموت . وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم « للمؤمن في قبره روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعا ويضئ حتى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدررون فيا إذا أنزلت - فان له معيشة ضنكا - قالوا الله ورسوله أعلم قال عذاب الكافر في قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تفتينا هل تدررون ما التين ؟ تسعة وتسعون حية لكل حية سبعة رؤوس يخذشونه ويلحسونه وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون » ولا ينبغي أن يتمجب من هذا العدد على الخصوص فان أعداد هذه الحيات والعقارب بمدد الأخلاق الذمومة من الكبر والرياء والحسد والذل والحقد وسائر الصفات فان لها أصولا معدودة ثم تنشب منها فروع معدودة ثم تنقسم فروعها إلى أقسام وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات فالقوى منها يلدغ لدغ التين والضعيف يلدغ لدغ العقرب وما بينهما يؤدي إيذاء الحية وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعب فروعها إلا أن مقدار عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوة (٣) فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة فمن لم تكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم فان قلت فحقن شاهد الكافر في قبره مدة وتراقبه ولا نشاهد شيئا من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة ؟ فاعلم أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأمثال هذا [أحدها] وهو الأظهر والأصح

(١) حديث البراء خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منسكما رأسه ثم قال اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر الحديث بطوله أبو داود والحاكم بكامله وقال صحيح على شرط الشيخين وضعفه ابن حبان ورواه النسائي وابن ماجه مختصرا (٢) حديث أبي هريرة إن المؤمن إذا حضر أتمه لللائكة بحريرة فيها مسك وضمائر الريحان الحديث ابن أبي الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبراز باللفظ المصنف (٣) حديث أبي هريرة المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعا الحديث ورواه ابن حبان

فأوحى الله تعالى إلى ملك الهواء أن الزم عبيدي قال فازمه ووضعته على الأرض وضعا رفيقا قبيل لإبليس ألا أغويته فقال ليس لي سلطان على من خالف هواه وبذل نفسه لله تعالى وينبغي للمريد أن تكون له في كل شيء نية لله تعالى حتى في أكله وشربه وملبوسه فلا يلبس إلا لله ولا يأكل إلا لله ولا يشرب إلا لله ولا ينام إلا لله لأن هذه كلها أرفاق أدخلها على النفس اذا كانت لله لا تستعصى النفس وتجب إلى ما يراد منها من المعاملة لله والإخلاص وإذا

والأسلم أن تصدق بأنها موجودة وهي تلدغ الميت ولسكنك لانتشاهد ذلك فان هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور للسكرتية وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم السمكوت أما ترى الصحابة رضوا الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بزول جبريل وما كانوا يشاهدونه ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده فان كنت لا تؤمن بهذا فصحيح أصل الايمان بالملائكة والوحي أم عليك وإن كنت آمنت به وجوزت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة فكيف لا تجوز هذا في الميت وكما أن الملك لا يشبه الأدميين والحيوانات فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا بل هي جنس آخر وتدرج بحاسة أخرى [للقلم الثاني] أن تذكر أمر النائم وأنه قد يرى في نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه بصبح في نومه ويهرق جبينه وقد ينزعج من مكانه كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى اليقظان وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حواله حية والحية موجودة في حقها والعذاب حاصل ولكنه في حقاك غير مشاهد وإذا كان العذاب في ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد [للقلم الثالث] أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذي يلقاها منها وهو السم ثم السم ليس هو الألم بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد توفروا وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يقضى إليه في العادة فإنه لو خلق في الانسان لذة الوقوع مثلا من غير مباشرة صورة الوقوع لم يمكن تعريفها إلا بالاضافة إليه لتكون الاضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب والسبب يراد لثمرته لا لادائه وهذه الصفات للمهاسكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كالآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذيا عند موت العاشق فإنه كان لذيذا فطرات حالة صار اللذيق بنفسه مؤلما حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يمتحنه أن لم يكن قد تتم بالعشق والوصال بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميت فإنه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه فصار يشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ولو أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله أليس يعظم شقاؤه ويشدد عذابه ويمتحنه ويقول ليته لم يكن لي مال قط ولا جاه قط فكنت لا تأذى بفراقه فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة:

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

لما حال من لا يفرح إلا بالدنيا فتؤخذ منه الدنيا وتسلم إلى أعدائه ثم يضاف إلى هذا العذاب تحسره على ما فاتته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عز وجل فان حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتمتع به فينوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرتة على ما فاتته من نعيم الآخرة أبدأ الآباد وذل الرد والحجاب عن الله تعالى وذلك هو العذاب الذي يمدب به إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم كما قال تعالى - كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم - وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله وكان مشتاقا إلى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيم أوقدم على محبوه وانقطعت عنه العوائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبدأ الآباد ومثل ذلك فليعمل العاملون والمقصود أن الرجل قد يجب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب ، فاذن ألم فراق الفرس عنده أعظم من لدغ العقرب ووجهه للفرس هو الذي يلدغه إذا أخذ منه فرسه فليستمد لهذه اللدغات فان الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه ومعارفه ويأخذ منه جاهه وتبوله بل يأخذ منه سمعه وبصره وأعضائه ويأس من رجوع جميع ذلك إليه فاذا لم يجب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه

دخل في شيء من رفق النفس لأنه بغير نية صالحة صار ذلك وبالآ عليه وقد ورد في الخبر «من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الأذفر ومن تطيب لغير الله عز وجل جاء يوم القيامة وريحه أثنى من الجيفة» . وقيل كان أنس يقول طيبوا كفى بمسك فان ثابتا يصالحني ويقبل يدي وقد كانوا يحسنون اللباس للصلاة متقربين بذلك إلى الله بنيتهم فالمريد ينبغي أن يفقد جميع أحواله وأعماله وأسواله ولا يسمع نفسه أن تتحرك بحركة أو تتكلم بكلمة إلا الله تعالى

من المقارب والحيات وكما لو أخذ ذلك منه وهو حى فيعظم عقابه فكذلك إذا مات لأننا قدينا أن
 للذى القى هو للدرك للآلام والالذات لم يمّت بل عذابه بعد الموت أشد لأنه فى الحياة يتسلى بأسباب
 يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ويتسلى برجاء العود إليه ويتسلى برجاء العوض منه ولاسلوة
 بعد الموت إذ قد اندمّ عليه طرق التسلى وحصل اليأس ، فاذا ن كل قيص له ومندبل قدأجه بحيث
 كان يشقى عليه لوأخذ منه فانه يبقى متأسفا عليه ومعذبا به فان كان مخفا فى الدنيا سلم وهو للذى
 بقولهم نجا المحضون وإن كان مثقلا عظم عذابه وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من
 يسرق منه عشرة دنانير فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين وهو الذى بقوله
 صلى الله عليه وسلم «صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين» (١) وما من شئ من الدنيا
 يتخلف عنك عند اللوت إلا وهو حسرة عليك بعد اللوت فان شئت فاستكبر وإن شئت فاستقل
 فان استكبرت فلست بمستكبر إلا من الحسرة وان استقلت فلست تخفف إلا عن ظهرك وانما استكبر
 الحيات والمقارب فى قبور الأغنياء الذين استجوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا إليها
 فهذه مقامات الإيمان فى حيات القبر وعقابه وفى سائر أنواع عذابه . رأى أبو سعيد الخدرى
 ابنا له قد مات فى المنام فقال له يا بنى عطفى قال لا تخالف الله تعالى فيما يريد قال يا بنى زدنى قال يا بنت
 لا تطيق قال قل قال لا تجعل بينك وبين الله قيما فالبس قيما ثلاثين سنة . فان قلت فما الصحيح
 من هذه القامات الثلاث . فاعلم أن فى الناس من لم يثبت إلا الأول وأنكر ما بعده ومنهم من أنكر
 الأول وأثبت الثانى ومنهم من لم يثبت إلا الثالث وإنما اتفق الذى انكشف لنا بطريق الاستبصار
 أن كل ذلك فى حيز الامكان وأن من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله باتساع قدرة الله
 سبحانه وعجائب تديره فينكر من أقوال الله تعالى ما لم يأنس به ويألفه وذلك جهل وقصور بل
 هذه الطرق الثلاثة فى التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب ورب عبد يقاب بنوع واحد من هذه
 الأنواع ورب عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره ، هذا
 هو الحق فصدق به تقليدا فيعز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيا والذى أوصيك به أن
 لا تنكر نظرك فى تفصيل ذلك ولا تشتغل بمعرفته بل اشتغل بالتدبير فى دفع العذاب كيفما كان
 فان أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك كنت كمن أخذ سلطان وجبهه ليقطع يده
 ويجمع أنفه فأخذ طول الليل يفكر فى أنه هل يقطعه بسكين أو بسيف أو بجمسى وأهمل طريق
 الحيلة فى دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل فقد علم على القطع أن الصبد لا يخلو بعد
 للوت من عذاب عظيم أو نعيم مقيم فينبغى أن يكون الاستعداد له . فأما البحث عن تفصيل
 العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان .

(بيان سؤال منكر ونكير وصورتها وضغطة القبر وبقية القول فى عذاب القبر)

قال أبو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم «إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال
 لأحدهما منكر وللآخر نكير فيقولان له ما كنت تقول فى النبى فان كان مؤمنا قال هو عبد الله
 ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ثم فسح له
 فى قبره سبعون ذراعا فى سمين ذراعا وينور له فى قبره ثم يقال له نم فيقول دعونى أرجع إلى أهلى
 فأخبرهم فيقال له نم فينام كنومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه
 ذلك وإن كان مناقا قال لأدرى كنت أسمع الناس يقولون شيئا وكنت أقوله فيقولان إن كنا لنعلم

(١) حديث . صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين لم أجده له أصلا .

وقد رأينا من أصحاب
 شيخنا من كان ينوى
 عند كل لقمة ويقول
 بلسانه أيضا أكل
 هذه اللقمة لله تعالى
 ولا ينعى القول إذا لم
 تكن النية فى القلب
 لأن النية عمل القلب
 وإنما اللسان ترجمان
 فما لم تشتمل عليها
 غزيرة القلب لله
 لا تكون نية . ونادى
 رجل امرأته وكان
 يسرح شعره فقال
 هات الدرى أراد
 الليل ليفرق شعره
 فقالت له امرأته أجبى
 بالمسدى وللرأة
 فسكت ثم قال نعم
 فقال له من ممهسكت
 وتوقفت عن للرأة
 ثم قلت نعم فقال إنى

أنك تقول ذلك ثم يقال للأرض التثمي عليه فلتتم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معذباً حتى ييمته الله من مضجعه ذلك (١) وعن عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه « يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاموا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ثم رجعوا إليك فعملوك وكفدوك وحنطوك ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ثم يهبلوا عليك التراب ويدفنونك فإذا انصرفوا عنك أنك فتانا القبر منكرو ونكير أصواتهما كالرعد القاصف وبصائرهما كالبرق الحاطف يجران أشعارهما ويبحثان القبر بأنيابهما فتلاك وترتراك كيف بك عند ذلك يا عمر ؟ فقال عمر ويكون معنى مثل عقل الآن ؟ قال نعم قال إذن أكيفكما (٢) » وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت إنما يتغير البدن والأعضاء فيكون الميت عاقلاً مدركاً عالماً بالآلام واللذات كما كان لا يتغير من عقله شيء وليس العقل المدرك هذه الأعضاء بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض بل الذي لا يتقسم في نفسه هو المدرك للأشياء ولو تناثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء المدرك الذي لا يتجزأ ولا يتقسم لكان الإنسان العاقل بكامله قائماً باقياً وهو كذلك بعد الموت فإن ذلك الجزء لا يعمل الموت ولا يطرأ عليه العدم . وقال محمد بن النكدر بلغني أن الكافر يسلم على قبره دابة تهباء صماء في يدها سوط من حديد في رأسه مثل غرب الجمل تضربه به إلى يوم القيامة لآراءه فتقبه ولا تسمع صوته قرحه . وقال أبو هريرة إذا وضع الميت في قبره جاءت أعماله الصالحة فتحوشته فإن أتاه من قبل رأسه جاء قرآنته القرآن وإن أتاه من قبل رجله جاء قيامه وإن أتاه من قبل يده قالت اليدان والله لقد كان يبسطني للصدقة والدعاء لاسئلكم عليه وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية فيقول أما إني لو رأيت خلا لكنت أنا صاحبه . قال سفيان نجاحش عنه أعماله الصالحة كما نجاحش الرجل عن أخيه وأهله وولده ثم قاله عند ذلك بارك الله لك في مضجعك فنعمة الأخلاء أخلاؤك ونعم الأصحاب أصحابك . وعن حذيفة قال « كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال « يضغظناؤم من في هذا ضغطة ترد منه حمائله (٣) » وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للقبر ضغطة ولو سلم أو نجما منها أحد لنجا سعد بن معاذ (٤) » وعن أنس قال « توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة فتبعتها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأنا حاله ، فلما انتهينا إلى القبر فدخله انتقع وجهه صفرة ، فلما خرج أسفر وجهه فقلنا يا رسول الله رأينا منك شيئاً فم ذلك ؟ قال ذكرت ضغطة ابنتي وشدة عذاب القبر ، فأنتيت فأخبرت أن الله

(١) حديث أبي هريرة إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير الحديث الترمذي وحسنه وابن حبان مع اختلاف (٢) حديث عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاموا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ، الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب القبور هكذا مرسلًا ورجاله ثقات قال البيهقي في الاعتقاد رويته من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسلًا . قلت ووصله ابن بطه في الإبانة من حديث ابن عباس ورواه البيهقي في الاعتقاد من حديث عمر وقال غريب بهذا الإسناد خرد به مفضل . ولأحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمر فقال عمر أبرد إلينا عقولنا فقال نعم كيهنكم اليوم فقال عمر بنيه الحجر (٣) حديث حذيفة كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ، الحديث رواه أحمد بسند ضعيف (٤) حديث عائشة إن للقبر ضغطة لو سلم أو نجما منها أحد لنجا سعد بن معاذ رواه أحمد بإسناد جيد .

قلت لها هات المدري بنية فلما قالت والمرأة لم يكن لي في المرأة فتوقفت حتى هيا الله تعالى لي نية فقلت نعم وكل مبتدئ لا يحكم أساس بدايته بمحاجة الألف والأصدقاء والمعارف ويتمسك بالوحدة لانستقر بدايته ، وقد قيل من قلة الصديق كثرة الخطاء وأقع ماله لزوم الصمت وأن لا يترك معه كلام الناس فإن باطنه يتغير ويتأثر بالأقوال المختلفة وكل من لا يعلم كمال زهده في الدنيا وتمسكه بمخاتق التقوى لا يعرفه أبداً فان عدم

قد خفف عنها ولقد ضفطت ضفطة مع صوتها ما بين الخافقين (١) .

(الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام)

اعلم أن أنوار البصائر للاستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن مناهج الاعتبار تعرفنا أحوال الموتى على الجملة وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء ولكن خالد زيد وعمرو وسينه فلا ينكشف أصلاً فانا إن عولنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندري على ماذا مات وكيف ختم له وإن عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى عمله القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى - إنما يتقبل الله من التقيين - فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومشاهدة ما يجري عليه وإذامات قد تحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم التيب والملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة وإنما يرى بين أخرى خلقت تلك العين في قلب كل إنسان ولكن الانسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصرها ولا يتصور أن يبصر بها شيئاً من عالم الملكوت ما لم تنقش تلك الغشاوة عن عين قلبه، ولما كانت الغشاوة منقشة عن أعين الأنبياء عليهم السلام فلا جرم نظرنا إلى الملكوت وشاهدنا عجائبه والموتى في عالم الملكوت فشاهدوهم وأخبروا ، ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضفطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته (٢) وكذلك حال أبي جابر لما استشهد إذ أخبره أن الله أقدمه بين يديه ليس بينهما ستر ، ومثل هذه المشاهدات لا مطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تحرب درجاتهم منهم وإنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضئيلة إلا أنها أيضاً مشاهدة نبوية وأعلى بها المشاهدة في المنام وهي من أنوار النبوة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة (٣) » وهو أيضاً انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن أكثر كذبه لم تصدق رؤيته ومن أكثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهراً (٤) وهو إشارة إلى طهارة الباطن أيضاً فهو الأصل وطهارة الظاهر بمنزلة التمسك والتكلمة لها ومهما صفا الباطن انكشف في حدة القلب ما سيكون في المستقبل كما انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم حتى نزل قوله تعالى - لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق - (٥) ولما غلخ الانسان عن منامات دلت على أمور فوجدتها صحيحة والرؤيا بصيرة الغيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرة الآدمي وهو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت والحقائق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره

(١) حديث أنس توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقاة الحديث وفيه لقد ضفطت ضفطة مع صوتها ما بين الخافقين ابن أبي الدنيا في الموت من رواة تسليمان الأعمش عن أنس ولم يسمع منه .

(الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة)

(٢) حديث رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضفطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته وكذلك حال أبي جابر لما استشهد تقدمت الثلاثة أحاديث في الباب الذي قبله (٣) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة تقدم (٤) حديث أمره بالطهارة عند النوم متفق عليه من حديث البراء إذا أتيت مضجعت فتوضأ وضوءك للصلاة الحديث (٥) حديث انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ابن أبي حاتم في تفسيره من رواية مجاهد مرسل .

معرفة لا يفتح عليه خيراً وبواطن أهل الابتداء كالشمع تقبل كل قش وربما استضر المبتدىء بمجرد النظر إلى الناس ويستضر بفضول النظر أيضاً وفضول الشيء فيقف من الأشياء كلها على الضرورة فينظر ضرورة حتى لو مشى في بعض الطريق يجتهد أن يكون نظره إلى الطريق الذي يسلكه لا يلتفت يمينه ويساره ثم يتقى موضع نظر الناس إليه وإحساسهم منه بالرعاية والاحترام فان علم الناس منه بذلك أضمر عليه من فضله ولا يستحق فضول

علاوة على علم للعامة ولكن القدر الذى يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك المقصود وهو أن تعلم أن القلب مثله مثال مرآة تراهى فيها الصور وحقائق الأمور وأن كل ما قدره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت فى خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح وتارة بالكتاب البين وتارة بإمام مبين كما ورد فى القرآن فجميع ماجرى فى العالم وما سيجرى مكتوب فيه ومنقوش عليه تقشاً لا يشاهد بهذه العين ولا تظن أن ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم وأن الكتاب من كاغد أو ورق بل ينبغى أن تفهم قطعاً أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم بل إن كتبت تطلب له مثلاً يقر به إلى فهمك فاعلم أن ثبوت القادير فى اللوح يضاهاى ثبوت كلمات القرآن وحرروفه فى دماغ حافظ القرآن وقلبه فإنه مسطور فيه حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه ولو فتشت دماغه جزءاً جزءاً لم تشاهد من ذلك الخط حرفاً وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فمن هذا الخط ينبغى أن تفهم كون اللوح مثقوباً بجميع ما قدره الله تعالى وقضاه واللوح فى المثال كمرآة ظهر فيها الصور فلوضع فى مقابلة المرآة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرآة تراهى فى هذه إلا أن يكون بينهما حجاب فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها واشتغال القلب بشهواته وقضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذى هو من عالم الملكوت ، فإن هبت ريح حركت هذا الحجاب ورفته تلاً فى مرآة القلب شئ من عالم الملكوت كالبرق الخاطف وقد ثبت ويدوم وقد لا يدوم وهو الغالب وما دام متيقظاً فهو مشغول بما تورده الحواس عليه من عالم الملك والشهادة وهو حجاب عن عالم الملكوت ، ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلا تورده على القلب فإذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافياً فى جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ فوقع فى قلبه شئ مما فى اللوح كما تقع الصورة من مرآة فى مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما إلا أن النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعاً للخيال عن عمله وعن تحركه فما يقع فى القلب يبتدره الخيال فيحاكيه مثال يقاربه وتكون التخيلات أثبت فى الحفظ من غيرها فيبقى الخيال فى الحفظ فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال فيحتاج العبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أى معنى من المعانى فيرجع إلى المعانى بالمناسبة التى بين التخيل والمعانى وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر فى علم التعبير وبكيفية مثال واحد وهو أن رجلاً قال لابن سيرين رأيت كأن ييدى خاتماً أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح فى رمضان قال صدقت فانظر أن روح الختم هو المنع ولأجله يراد الختم وإيمانك كشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه وهو كونه ما نال الناس من الأكل والشرب ولكن الخيال ألف المنع عند الختم بالحتم بالصوره الخيالية التى تتضمن روح المعنى ولا يبقى فى الحفظ إلا الصورة الخيالية ، فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذى لا تنحصر عجائبه وكيف لا هو أخو الموت وإنما الموت هو عجب من العجائب وهذا لأنه يشبهه من وجه ضعيف أثرى كشف اللطام عن عالم الغيب حتى صار المنام يعرف ما سيكون فى المستقبل لما ذكرى فى الموت الذى يخرق الحجاب ويكشف اللطام بالكلية حتى يرى الانسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنسكال والمنازى والنضامخ نود باق من ذلك وإما مكنوفا بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف اللطام - لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرتك اليوم جديد - ويقال - أفسح هذا أم أتم لا تبصرون أصلوها فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون - وإليهم الاشارة بقوله تعالى - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون -

المشى فان كل شئ من
قول وفعل ونظر وسماح
خرج عن حد
الضرورة جر إلى
الفضول ثم يجر إلى
تضييع الأصول . قال
سفيان : إنما حرما
الوصول بتضييع
الأصول فكل من
لا يمسك بالضرورة فى
القول والفعل لا يقدر
أن يقف على قدر
الحاجة من الطعام
والشراب والنوم ومضى
نمضى الضرورة
تداعت عزائم قلبه
وانحلت شيئاً بعد شئ
قال سهل بن عبد الله
من لم يصدقه اختياراً
يبعد الخلق اضطراباً
وينفتح على العبد
أبواب الرخص

فأعلم العلماء وأحكم الحكماء يتكشّف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر قطيباله ولا اختلج به ضميره فلو لم يكن للماقل همّ وغم إلا الفكرة في خطر تلك الحال أن الحجاب عماذا يرتفع وما الذي ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة أم سعادة دائمة لكان ذلك كافياً في استغراق جميع العمر والعجب من غفلتنا وهذه العظام بين أيدينا وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وذريتنا بل بأعضائنا وسمنا وبصرنا مع أننا لم نغفّر جميع ذلك يقينا ولكن أين من ينث روح القدس في روعه فيقول ما قال لسيد النبيين «أحب من أحببت فانك مفارقة وعش ماشئت فانك ميت واعمل ماشئت فانك مجزي به (١)» فلا جرم لما كان ذلك مكشوفاً له بين اليقين كان في الدنيا كما برسيل لم يضع لينة على لينة ولا قصبه على قصبه (٢) ولم يخلف ديناراً ولا درهماً (٣) ولم يتخذ حبيواً ولا خليلاً نعم قال «لو كنت متخذاً لئلا لا اتخذت أبابكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الرحمن (٤)» فيبين أن خلة الرحمن تخلت باطن قلبه وأن حبه تمكن من حبه قلبه فلم يترك فيه متسعاً لحليل ولا حبيب وقد قال لأمته - إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبيكم الله - فأنما أمته من اتبعه وما تبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة فإنه مادام إلا إلى الله واليوم الآخر وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة فبقدر ما عرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة قد سلكت سبيله الذي سلكه وبقدر ما سلكت سبيله فقد اتبعته وبقدر ما اتبعته قد صرت من أمته وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعتها والتحققت بالدين قال الله تعالى فيهم - فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى - فلو خرجت من مكن التورر وأنصفت نفسك ياربجل وكلنا ذلك الرجل لعلت أنك من حين تصبح إلى حين تسمى لانسى إلا في الحظوظ العاجلة ولا تتحرك ولا تسكن إلا لما جل الدنيا ثم تطمع أن تكون غداً من أمته وأتباعه ما أبدظنك وما أبدظمك - أن جعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون - ولترجع إلى ما كنا فيه ويصده قد امتدّ عنان الكلام إلى غير مقصده ولنذكر الآن من اللامات الكاشفة لأحوال الموتى ما يظم الانتفاع به إذ هببت النبوة وبعثت البشرات وليس ذلك إلا للامات.

(بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة)

لمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال عليه السلام «من رأى في المنام قدراً أتى حقا فإن الشيطان لا يمثل بي (٥)» وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأيت رسول الله ﷺ في المنام فرأيت أنه لا ينظر إليّ قلت يا رسول الله ماشأني فالتفت إليّ وقال ألت القبيل وأنت صائم قال والذي نفسي بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبداً . وقال العباس رضي الله عنه كنت وداً للمر فاشتيت أن أرام في المنام فما رأيت إلا عند رأس الحول فرأيت يمسح العرق عن جبينه وهو يقول هذا أوان فراغى إن كان عرشى ليهد لولا أتى لفته رء وفارحياً . وقال الحسن بن علي قال لي علي رضي الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع لي الليلة في منامى قلت يا رسول الله ما لقيت من أمتك قال ادع عليهم قلت اللهم أبدلني بهم من هو خير لي منهم وأبدلهم بي من هو شر لهم مني فيخرج فضربه ابن ملجم وقال بعض الشيوخ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت يا رسول الله استغفر لي فأعرض عني قلت يا رسول الله إن

والانواع وبهالك مع
المالكين ولا ينبغي
للبتدى أن يعرف
أحدًا من أرباب
الدنيا فان معرفته لهم
سم قاتل . وقد ورد
«الدنيا مبخوضة الله
فمن تمسك بحبل منها
قاده إلى النار» وما
حبل من جبالها إلا
كأبنائها والطالين
لها والخبين فمن
عرفهم انجذب إليها
شاه أو أوى ويجرز
للبتدى عن مجالسة
الغفراء الذين لا يقولون
بقيام الليل وصيام
النهار فإنه يدخل عليه
منهم أكثر مما يدخل
عليه بمجالسة أبناء
الدنيا وربما يشيرون
إلى أن الأعمال شغل

- (١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم .
- (٢) حديث لم يضع لينة على لينة ولا قصبه على قصبه أيضاً (٣) حديث لم يخلف ديناراً ولا درهماً تقدم أيضاً (٤) حديث لو كنت متخذاً لئلا لا اتخذت أبابكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن تقدم أيضاً (٥) حديث من رأى في المنام قدراً أتى حقا فإن الشيطان لا يتخيل بي متفق عليه من حديث أبي هريرة .

سفيان بن عيينة حدثنا عن محمد بن النكدر عن جابر بن سجد الله إنك لم تسأل شيئا قط قلت لا فأقبل عليّ فقال غفر الله لك (١) وروى عن العباس بن عبد المطلب قال كنت مواخيا لأبي لهب مصاحبا له فلما ملت وأخبر الله عنه بما أخبر حزنت عليه وأهني أمره فسألت الله تعالى حولاً أن يريني إياه في المنام قال فرأيتك يلهب ناراً فسألته عن حاله فقال صرت إلى النار في العذاب لا يخفف عني ولا يروح إلا ليلة الاثنين في كل الأيام والليالي قلت وكيف ذلك قال ولد في تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم فجاءتني أميمة فبشرتني بولادة آمنة إياه ففرحت به وأعتقت وليدة لي فرحاً به فأنا النبي الله بذلك أن رفع عني العذاب في كل ليلة اثنين . وقال عبد الواحد بن زيد خرجت حاجاً فصحبني رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن إلا صلى على النبي ﷺ فسألته عن ذلك فقال أخبرك عن ذلك خرجت أول مرة إلى مكة ومعى أبي فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل فبينما أنا نائم إذ أتاني آت فقال لي قم فقد أمات الله أباك وسود وجهه قال قممت مذعوراً فكشفت الثوب عن وجهه فإذا هو ميت أسود الوجه فداخنتي من ذلك رعب فبينما أنا في ذلك النعم إذ غلبتني عيني فنمت فإذا على رأس أبي أربعة سودان معهم أعمدة حديد إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين فقال لهم تنحوا فمسح وجهه بيده ثم أتاني فقال قم فقد ييض الله وجهه أريك قتلت له من أنت بأبي أنت وأمي فقال أنا محمد قال قممت فكشفت الثوب عن وجه أبي فإذا هو أبيض فما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن عمر بن عبد العزيز قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسا عنده فسلمت وجلست فبينما أنا جالس إذ أتى بعلي ومعاوية فأدخلا بيئنا وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر فما كان بأسرع من أن خرج على رضي الله عنه وهو يقول قضي لي ورب الكعبة وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول غفر لي ورب الكعبة واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال قتل الحسين والله وكان ذلك قبل قتله فأنكره أصحابه فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم فقال ألا تعلم ما صنعت أمتي بعدى قتلوا ابني الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفقها إلى الله تعالى فبجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوماً بقتله في اليوم الذي رآه ورؤي الصديق رضي الله عنه فقيل له إنك كنت تقول أبداً في لسانك هذا أوردني الموارد فماذا فعل الله بك قال قلت به لا إله إلا الله فأوردني الجنة .

(بيان منامات للشايخ رحمة الله عليهم أجمعين)

قال بعض للشايخ رأيت منما الدورقي في المنام فقلت يا سيدي ما فعل الله بك فقال ديرني في الجنان فقيل لي يا منتم هل استحسنتم فيها شيئا قلت لا يا سيدي فقال لو استحسنتم منها شيئاً لو كنتك إليه ولم أوصلك إلى ورؤي يوسف بن الحسين في المنام فقيل له ما فعل الله بك قال غفر لي قبل بماذا قال ما خلطت جدا بهزل وعن منصور بن إسماعيل قال رأيت عبد الله الزبارة في النوم فقلت ما فعل الله بك قال أوقفني بين يديه فغفر لي كل ذنب أقررت به إلا ذنباً واحداً فأنى استحييت أن أقربه فأوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي فقلت ما كان ذلك الذنب قال نظرت إلى غلام جميل فاستحسنته فاستحييت من الله أن أذكره وقال أبو جعفر الصيدلاني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم وحوله جماعة من الفقراء فبينما نحن كذلك إذ انشقت السماء ففرز ملكان أحدهما يده طشت ويده الآخر يريق فوضع الطشت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ففصل يده ثم أمر حتى غسلوا تم وضع الطشت بين يدي

(١) حديث ابن عيينة عن محمد بن النكدر عن جابر ما مثل النبي صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا ، رواه مسلم وقد تقدم .

التعبدين وأن أرباب الأحوال ارتضوا عن ذلك . وينبغي للفقير أن يقتصر على الفرائض وصوم رمضان حسب ولا ينبغي أن يدخل هذا الكلام صمه رأساً فانا اخترنا ومارسنا الأمور كلها وجالسنا الفقراء والصالحين ورأينا أن الذين يقولون هذا القول ويرون الفرائض دون الزيادات والنوافل تحت القصور مع كونهم أصحاب في أحوالهم فعلى العبد التمسك بكل فريضة وفضيلة فبذلك يثبت قدمه في بدايته ويراعى يوم الجمعة خاصة ويحمله لله تعالى خالصاً لا يمزجه بشيء

قال أحدهما للآخر لا تصب على يده فإنه ليس منهم قلت يا رسول الله ليس قد روى عنك أنك قلت «الره مع من أحب» قال بلى قلت يا رسول الله فاني أحبك وأحب هؤلاء الفقراء قال صلى الله عليه وسلم صب على يده فإنه منهم وقال الجنيد رأيت في المنام كأنى أتكم على الناس فوقف على ملك فقال أقرب ما تقرب به للتقربون إلى الله تعالى ماذا قلت عمل خفي بيمينان وفي فؤلى للملك وهو يقول كلام موفق والله وروى مجمع في النوم قيل له كيف رأيت الأمر قال رأيت الزاهد بن في الدنيا ذهبوا بغير الدنيا والآخرة . وقال رجل من أهل الشام لعلاء بن زياد رأيتك في النوم كأنك في الجنة فزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال لعل الشيطان أراد أمراً فصمت منه فأشخص رجلاً يقتلى . وقال محمد بن واسع الرؤيا تسر للؤمن ولا تتره وقال صالح بن بشر رأيت عطاء السلى في النوم قلت له رحمك الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا قال أما والله لقد أعقبني ذلك راحة طويلة وفرحاً دائماً قلت في أى الدرجات أنت - فقال مع الدين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقيين - الآية . وسئل زرار بن أبي أوفى للناس أى الأعمال أفضل عندكم فقال الرضا وقصر الأمل وقال يزيد بن مذكور رأيت الأوزاعي في المنام فقالت يا أبا عمرو دلني على عمل أتقرب به إلى الله تعالى قال ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المهزومين قال وكان يزيد شيخاً كبيراً فلم يزل يبكي حتى أظلمت عيناه وقال ابن عيينة رأيت أخى في المنام قلت يا أخى ما فعل الله بك قال كل ذنب استغفرت منه غفر لي وما لم أستغفر منه لم يغفر لي وقال على الطلمسى رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا قلت من أنت قالت حوراء قلت زوجي نفسك قالت اخطنى إلى سيدى وأمهرنى قلت وما مهرك قالت حبس نفسك عن آفاتنا وقال إبراهيم بن اسحق الحرى رأيت زبيدة في المنام قلت ما فعل الله بك قالت غفر لي قلت لها بما أنفقت في طريق مكة قالت أما النفقات التي أنفقتها رجعت أجورها إلى أربابها وغفر لي بئى ولما مات سفيان الثوري روى في المنام قيل له ما فعل الله بك قال وضعت أول قدمي على الصراط والثاني في الجنة وقال أحمد بن أبي الحواري رأيت فيما يرى النائم جارية ما رأيت أحسن منها وكان يتلأأ وجهها نورا قلت لها ماذا ضوء وجهك قالت تذكر تلك الليلة التي بكيت فيها قلت نعم قالت أخذت سمكاً فمسحت به وجهي فمن ثم ضوء وجهي كما ترى وقال السكتاني رأيت الجنيد في المنام قلت له ما فعل الله بك قال طاحت تلك الاشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا إلا طير ركبتين كنا نصليهما في الليل ورؤيت زبيدة في المنام قيل لها ما فعل الله بك قالت غفر لي بهذه الكلمات الأربع لا إله إلا الله أفنى بها عمري لا إله إلا الله أدخل بها قبري لا إله إلا الله أدخل بها وحدي لا إله إلا الله ألقى بها ربي وروى بشر في المنام قيل له ما فعل الله بك قال رحمني ربي عز وجل وقال يا بشر أما استحييت مني كنت تخافني كل ذلك الخوف وروى أبو سليمان في النوم قيل له ما فعل الله بك قال رحمني وما كان شيء أضر على من إشارات القوم إلى وقال أبو بكر السكتاني رأيت في النوم شاباً إلى أرحسن منه قلت له من أنت قال النفوس قلت فأين تسكن قال كل قلب حزين ثم التفت فإذا امرأة سوداء قلت من أنت قالت أنا السقم قلت فأين تسكنين قالت كل قلب فرح مرح قال فانتبهت وتماهدت أن لا أضحك إلا غلبة وقال أبو سعيد الخزاز رأيت في المنام كأن إبليس وثب على فأخذت العصا لأضربه فلم يفرغ منها فهتف بي هاتف إن هذا لا يخاف من هله وإنما يخاف من نور يكون في القلب وقال المسوحى رأيت إبليس في النوم يمشى عرياناً قلت ألا تستحي من الناس فقال بالله هؤلاء ناس لو كانوا من الناس ما كنت ألب بهم طرفي النهار كما يتلاعب الصبيان بالسكره بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمي وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية وقال أبو سعيد الخزاز كنت في دمشق فرأيت في المنام كأن النبي

من أحواله نفسه ومآربها ويسكر إلى الجامع قبل طلوع الشمس بعد الغسل للجمعة وإن اغتسل قريبا من وقت الصلاة إذا أمكنه ذلك فحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة اغتسل للجمعة ولو اشترت الماء بمشائك وما من نبي إلا وقد أمره الله تعالى أن ينتقل للجمعة فان غسل الجمعة كفارة للذنوب ما بين المجتنبين » ويشتمل بالصلاة والتضرع والدعاء والتلاوة وأنواع الأذكار من غير فتور إلى أن يصل الجمعة ويجلس معتكفا في

صلى الله عليه وسلم جاءني متكئا على أبي بكر وعمر رضى الله عنهما فجاه فوقف على وأنا أقول شيئا من الأصوات وأدق في صدرى فقال شر هذا أكثر من خيره. وعن ابن عيينة قال رأيت سفيان الثوري في النوم كأنه في الجنة يطير من شجرة إلى شجرة يقول لئلا هذا فيعمل العامون فقلت له أوصني قال أقلل من معرفة الناس وروى أبو حاتم الرازي عن قبيصة بن عقبة قال رأيت سفيان الثوري فقلت ما فعل الله بك فقال:

نظرت إلى ربي كفاحا فقال لي هنيئا رضائي عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قواما إذا أظلم الدجى بعيرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أي قصر أردته وزرني فاني منك غير بعيد

وروى الشبلبي بعد موته بثلاثة أيام قفيل له ما فعل الله بك قال ناقض حتى أيست فلما رأيت بأسى تمدني برحمته وروى مجنون بن عامر بعد موته في المنام قفيل له ما فعل الله بك قال غفر لي وجعلني حجة على المهين وروى الثوري في المنام قفيل له ما فعل الله بك قال رحمي قفيل له ما حال عبد الله بن المبارك فقال هو بمن يلج على ربه في كل يوم مرتين وروى بعضهم فمثل عن حاله فقال: حاسبونا فقد قوا ثم نموا فأعتقوا وروى مالك بن أنس قفيل له ما فعل الله بك قال غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضى الله عنه عند رؤية الجنائز سبحان الحى الذى لا يموت وروى في الليلة التى مات فيها الحسن البصرى كان أبواب السماء مفتحة وكان مناديا ينادى ألا إن الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض وروى الجاحظ قفيل له ما فعل الله بك فقال:

ولا تكذب بمخطك غير شئ يسرك في القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس في المنام عريانا فقال ألا تستحي من الناس فقال وهؤلاء ناس الناس أقوام في مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدى وأحرقوا كبدى قال الجنيد فما انتهت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رءوسهم على ركبهم يتفكرون فلما رأوني قالوا لا يترك حديث الحبيث وروى النصراباذى بمكة بعد وفاته في النوم قفيل له ما فعل الله بك قال عوتبت عتاب الأشراف ثم نوديت يا أبا القاسم أبعده الاتصال انفصال فقلت لا إذا الجلال لما وضعت في اللحد حتى لحقت برى ورأى عتبة الغلام حوراء في المنام على صورة حسنة فقالت بأعنة أئالك عاشقة فانظر لا تعمل من الأعمال شيئا فيحال بينى وبينك فقال عتبة طلقت الدنيا ثلاثا لارجعة لى عليها حتى ألتاك وقيل رأى أيوب السخيتاني جنازة عاص فدخل الدهليز كيلا يصل على عايبها فرأى الميت بعضهم في المنام قفيل له ما فعل الله بك قال غفر لي وقال قل لأيوب - قل لو أنتم تعلمون كونه خزانة رحمة ربي إذا أمسكتم خشية الاتفاق - وقال بعضهم رأيت في الليلة التى مات فيها داود الطائى نوراً وملائكة تزولوا وملائكة صعدوا فقلت أى ليلة هذه فقالوا ليلة مات فيها داود الطائى وقد زخرفت الجنة لتقدم روحه وقال أبو سعيد الشحام رأيت سهلاً الصعلوكى في المنام فقلت أيها الشيخ قال دع الشيخ قلت تلك الأحوال التى شاهدتها فقال لم تكن عنا فقلت ما فعل الله بك قال غفر لي بمسائل كان يسأل عنها العجز وقال أبو بكر الرشيدى رأيت محمدا الطوسى المعلم في النوم فقال لى قل لأبى سعيد الصغار المؤدب:

وكننا على أن لا نحول عن الهوى فقد وحيات الحب حلتنا وما حلنا

قال فانتبهت فذكرت ذلك له فقال كنت أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة وقال ابن راشد رأيت ابن المبارك في النوم بعد موته فقلت أليس قد مات قال بلى فأت فاصنع الله بك قال غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب قلت فسفيان الثوري قال يخرج ذاك - من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقيين - الآية وقال الربيع بن سليمان رأيت الشافعى رحمة الله عليه بعد وفاته في المنام فقلت يا أبا عبد الله ما صنع الله بك

الجامع إلى أن يصل
فرض العصر وبقية
النهار يشغله بالتسبيح
والاستغفار والصلاة
على النبي صلى الله عليه
وسلم فانه يرى بركة
ذلك في جميع الأسبوع
حتى يرى ثمرة ذلك
يوم الجمعة وقد كان من
الصادقين من يضبط
أحواله وأقواله وأفعاله
جميع الأسبوع لأنه يوم
المزيد لكل صادق
ويكون ما يجده يوم
الجمعة معياراً يعتبر به
سائر الأسبوع الذى
مضى فانه إذا كان
الأسبوع سليماً يكون
يوم الجمعة فيه مزيد
الأنوار والبركات وما يجد
في يوم الجمعة من الظلمة
وسامة النفس وقلة

قال أجلسني على كرسى من ذهب ونثر على اللؤلؤ الرطب وورأى رجل من أصحاب الحسن البصرى ليلة مات الحسن كأن منادياً ينادى - إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين - واصطفى الحسن البصرى على أهل زمانه وقال أبو يعقوب القارى الدقيقى رأيت فى منامى رجلاً آدم طراً والواو الناس يتيمونه فقلت من هذا قالوا أويس القرنى فأتيته فقلت أوصى رحمة الله فكلم فى وجهى فقلت مسترشد فأرشدنى أرشدك الله فأقبل على وقال اتبع رحمة ربك عند محبته واحذر قهقهة عند معصيته ولا تقطع رجاءك منه فى خلال ذلك ثم ولى وتركنى وقال أبو بكر بن أبى صريم رأيت ورقاء بن بشر الحضرمى فقلت ما فعلت يا ورقاء قال نجوت بعد كل جهد قلت فأى الأعمال وجدتموها أفضل قال البكاء من خشية الله وقال يزيد بن نعمة هلكت جارية فى الطاعون الجارف فرأها أبوها فى المنام فقال لها يا بنية أخبريني عن الآخرة قالت يا أبت قد مننا على أمر عظيم نعلم ولا نعلم وتمعنون ولا تتمعنون والله لتسيحبه أو تسيحبتان أو ركعة أو ركعتان فى فسحة عمل أحب إلى من الدنيا وما فيها وقال بعض أصحاب عتبة الغلام رأيت عتبة فى المنام فقلت ما صنع الله بك قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة فى بيتك قال فلما أصبحت جئت إلى بيتى فاذا خط عتبة الغلام فى حائط البيت يا هادى الضلين ويا راحم الذين ويا مقبل عثرات العائرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين وقال موسى بن حماد رأيت سفیان الثورى فى الجنة يطير من نخلة إلى نخلة ومن شجرة إلى شجرة فقلت يا أبا عبد الله بم نلت هذا فقال بالورع قلت فما نال على بن عاصم قال ذلك لا يكاد يرى إلا كإيرى الكوكب ورأى رجلاً من التابعين النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال يا رسول الله عظمى قال نعم من لم يتفقد نقصان فهو فى نقصان ومن كان فى نقصان فالموت خير له . وقال الشافعى رحمة الله عليه دهمى فى هذه الأيام أمر أمضى وآلمنى ولم يطلع عليه غير الله عز وجل فلما كان البارحة أتانى آت فى منامى فقال لى يا محمد بن إدريس قل اللهم إنى لأملك لنفسى نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتى ولا أتقى إلا ما وقيتنى اللهم فوقى لما تحب وترضى من القول والعمل فى عافية فلما أصبحت أعدت ذلك فلما ترحل النهار أعطانى الله عز وجل طلبتى وسهل لى الخلاص مما كنت فيه فعليكم بهذه اللدعات لا تغفلوا عنها فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال اللوتى وعلى الأعمال القريبة إلى الله زلفى ، فلنذكر بعدها ما بين يدي اللوتى من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار إما فى الجنة أوفى النار والحمد لله حمد الشاكرين .

[الشطر الثانى من كتاب ذكر الموت فى أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار فى الجنة أوفى النار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار] أوفى يان نفخة الصور وصفة أرض المحشر وأهله وصفة عرق أهل المحشر وصفة طول يوم القيامة وصفة يوم القيامة ووداها وأسامها وصفة المساءة عن الذنوب وصفة الميزان وصفة الحصى ورد المظالم وصفة الصراط وصفة الشفاعة وصفة الحوض وصفة جهنم وأهوالها وأنكالها وحياتها وعقاربها وصفة الجنة وأصناف نعمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأثمارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشهم وضررهم وصفة طعامهم وصفة الحور العين والولدان وصفة النظر إلى وجه الله تعالى وباب فى سعة رحمة الله تعالى وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى .

(صفة نفخة الصور)

قد عرفت فيما سبق شدة أحوال الميت فى سكرات الموت وخطره فى خوف العاقبة ثم مقاساته لظلمة القبر

(الشطر الثانى من وقت نفخة الصور)

الانشراح ظلم ضيق فى الأسبوع يعرف ذلك ويعتبره ويتقى جداً أن يلبس للناس اما المرتفع من الثياب أو ثياب التفتشين ليرى بين الزهد فى لبس للرفع للناس هوى وفى لبس الحشن رياء فلا يلبس إلا لله . بلغنا أن سفیان لبس القميص مقلوباً ولم يعلم بذلك حتى ارتفع النهار ونبهه على ذلك بعض الناس فهم أن يخلع ويغير ثم أمسك وقال لبسته بنية الله فلا غيره فألبسه بنية للناس فليعلم الصبد ذلك وليعتبره ولا بد للبتدى أن يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه فيحفظ

وديدانه ثم لمنكر ونكير وسؤالهما ثم لعذاب القبر وخطره إن كان منضوبا عليه وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه من فسخ الصور والبث يوم النشور والعرض على الجبار والتؤال عن التليل والكثير ونصب لليزان لمعرفة القادير ثم جواز الصراط مع دفته وحدثه ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالاسعاد وإما بالاشقاء فهذه أحوال وأهوال لا بد لك من معرفتها الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ثم تطويل الفكر في ذلك لينبت من قلبك دواعي الاستعداد لها وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويدها أفئدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحرق الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحر جهنم وزمهرير هامع ما تكشفه من المصائب والأهوال بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الذي أخبره صدقت ثم مديده لتناوله كان مصداق لبسانه ومكذبا بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان وقد قال النبي ﷺ « قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وما ينبغي له أن يكذبني أما شتمه أياي فيقول إن لي ولدا وأما تكذبه فقله لن يعيدني كما بدأني (١) » وإنما تور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبث والنشور لقلة الفهم في هذا العالم لأمثال تلك الأمور ولو لم يشاهد الانسان توالد الحيوانات وقيل له إن صانعا يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الأدمي الصور العاقل التكلم التصرف لاشد نفور باطنه عن التصديق به ولذلك قال الله تعالى - وألم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين - وقال تعالى أيعجب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى ثم كان علقة مخلوق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى - ففى خلق الأدمي مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه أعاجيب تزيد على الأعاجيب بعته وإعادته في فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكته من يشاهد ذلك في صنعه وقدرته فإن كان في إيمانك ضعف فقول الإيمان بالنظر في النشأة الأولى فإن الثانية مثلها وأسهل منها وإن كنت قوى الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها التفكير والاعتبار لتسلب عن قلبك الراحة والقرار فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار وتفكر أو لا فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفع الصور فإنها صحيحة واحدة تنفجر بها القبور عن رءوس الموتى فيثورون دفعة واحدة فتوم نفسك وقد وثبت متغيرا وجهك مغبرا بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك مبهوتا من شدة الصعقة شاخص العين نحو النداء وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم وقد أزهجهم الفزع والرعب مضافا إلى ما كان عندهم من الموموم والغموم وشدة الانتظار لعاقبة الأمر كما قال تعالى - ونفخ في الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون - وقال تعالى - فإذا قرأ فى الناقر فذلك يومئذ يوم - ير على الكافرين غير يسير - وقال تعالى - ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ما ينظرون إلا لصيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون - فلو لم يكن بين يدي الموتى إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جديرا بأن يتقى فانها نفخة وصيحة يصعق بها من فى السموات والأرض يعنى يموتون بها إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيف أنتم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة

من القرآن من السبع إلى الجميع إلى أقل أو أكثر كيف أمكن ولا يصغى إلى قول من يقول ملازمة ذكر واحد أفضل من تلاوة القرآن فانه يجد بتلاوة القرآن فى الصلاة وفى غير الصلاة جميع ما يتنى بتوفيق الله تعالى وإنما اختار بعض الشايع أن يديم الريد ذكرا واحدا ليجتمع لهم فيه ومن لازم التلاوة فى الخلوة وتمسك بالوحدة تفيده التلاوة والصلاة أو فى ما يفيد الذكر الواحد فإذا سئم فى بعض الأحيان يصانع النفس على الذكر مصانعة وينزل من التلاوة

(١) حديث قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وما ينبغي له أن يكذبني الحديث البخارى من حديث أبي هريرة .

وأصغى بالأذن ينتظر متى يؤمر فينفخ (١) « قال مقاتل : الصور هو القرن وذلك أن إسرئيل عليه السلام واضع يده على القرن كهيئة اليوق ودائرة رأس القرن كمرض السموات والأرض وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى فإذا نفخ صفق من في السموات والأرض أى مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله وهو جبريل وميكائيل وإسرئيل وملك الموت ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ثم روح ميكائيل ثم روح إسرئيل ثم يأمر ملك الموت فيموت ثم يابث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة ثم يحيى الله إسرئيل فيأمره أن ينفخ الثانية فنلك قوله تعالى - ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم ينظرون - على أرجلهم ينظرون إلى البعث وقال صلى الله عليه وسلم « حين بعث إلى بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فاتقوا النفخة (٢) » فتفكر في الخلائق وذلم وانكسارهم واستكاثرتهم عند الانبعاث خوفا من هذه الصعقة وانتظارا لما يقضى عليهم من معادة أو شقاوة وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم بل إن كنت في الدنيا من الترفين والأغنياء التمتعين بمملوك الأرض في ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقهم يوطئون بالأقدام مثل الذر وعند ذلك تقبل الوحوش من البرارى والجبال منكسة رموسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنس بها ولكن حشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة وشغلهم ذلك عن الحرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى - وإذا الوحوش حشرت - ثم أقيمت الشياطين للردة بعد تمردها وعتوها. وأذعنت خاشعة من هيئة العرض على الله تعالى تصديقا لقوله تعالى - فوريك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحشرنهم حول جهنم جثيا - فتفكر في حالك وحال قايك هناك .

(صفة أرض المحشر وأهله)

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلا إلى أرض المحشر أرض بيضاء قاع مصصف لا ترى فيها عوجا ولا أمنا ولا ترى عليها بؤة تخفى الإنسان وراهها ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها بل هو صعيد واحد بسيط لانفاوت فيه يساقون إليه زمرا فاسبجان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة والراجفة هي النفخة الأولى والرادفة هي النفخة الثانية وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة وتلك الأبصار أن تكون خاشعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لأحد (٣) »

(١) حديث كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحتى الجبهة الحديث الترمذى من حديث أبى سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ إن صاحب القرن بأيديهما أو في أيديهما قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران وفي رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطاة مختلف فيه (٢) حديث حين بعث إلى بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرى الحديث لم أجده هكذا بل قد ورد أن إسرئيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخارى في التاريخ وأبو الشيخ في كتاب العظمة من حديث أبى هريرة إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاها إسرئيل فهو واضمه على فيه شاخص بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر قال البخارى ولم يصح وفي رواية لأبى الشيخ ما طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينه كوكبان دريان وإسنادها جيد (٣) حديث يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لأحد

إلى الله ذكر فانه أخف على النفس وينسى أن يعلم أن الاعتبار بالقلب فكل عمل من تلاوة وصلاة وذكر لا يجمع فيه بين القلب واللسان لا يعتد به كل الاعتداد فانه عمل ناقص ولا يحتمل الوساوس وحديث النفس فانه مضروداء عضال فيطالب نفسه أن تصبر في تلاوته معنى القرآن مكان حديث النفس من باطنه فكما أن التلاوة على اللسان هو مشتمل بها ولا يزوجها بكلام آخر هكذا يكون معنى القرآن في القلب لا يمزجه بحديث النفس وإن كان أعجميا لا يعلم

قال الراوى : والعفرة بياض ليس بالناصع والنقى هو النقى عن القشر والنخالة ومعلم أى لانباء بستر ولا تفاوت برد البصر ، ولا تظن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لاتساويها إلا فى الاسم قال تعالى - يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات - . قال ابن عباس : يزداد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتمد مد الأديم العكاظى أرض بياض مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة والسموات تذهب شمسهما وقرها ونجومها فانظر بامسكين فى هول ذلك اليوم وشدة فانه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر وأظلمت الأرض لمخود سراجها فبينام كذلك إذ دارت السماء من فوق رؤسهم وانسقت مع غلظها وشدتها خمسمائة عام والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها فهاول صوت انشقاقها فى سمعك وباهية ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدة ثمر نهار وتسيل كالفضة المذابة تحالطها صفرة فصارت وردة كالدهان وصارت السماء كالمهل وصارت الجبال كالعمن واشتدك الناس كالفرش المبيوث وهم حفاة عراة مشاة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد أجهم العرق وبلغ شحوم الأذان . قالت سودة زوج النبي صلى الله عليه وسلم راوية الحديث قلت يارسول الله واسواتاه ينظر بعضنا إلى بعض فقال شغل الناس عن ذلك بهم - لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه - (١) » فأعظم يوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والاتفات كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم قال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ركباناً ومشاة وعلى وجوههم فقال رجل يارسول الله وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم (٢) » فى طبع الآدمى إنكار كل مالم يأنس به ولو لم يشاهد الانسان الحية وهى تمشى على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور النسي على غير رجل والنسي بالرجل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد ذلك فإياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لخالفته قياس ما فى الدنيا فانك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكاراً لها فأحضر فى قلبك صورتك وأنت واقف عارياً مكشوفاً ذليلاً مدحوراً متحيراً مبهوتاً منتظراً لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم هذه الحال فانها عظيمة .

(صفة العرق)

ثم تفكر فى ازدحام الخلائق واجتماعهم حتى ازدحم على الوقف أهل السموات السبع والأرضين السبع من ملك وجن وإنس وشيطان ووحش وسبع وطير فأشرفت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ثم أدنيت من رؤوس العالمين كقواب قوسين فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين ولم يمكن من الاستئلال به إلا القربون فمن بين مستظل بالعرش وبين مضج لحر الشمس قد صهرته بحرها واشتدكر به وغمه من وهجها ثم تدافعت الخلائق ودفع

متفق عليه من حديث سهل بن سعد وفصل البخارى قوله ليس فيها معلم لأحد فجعلها من قول سهل أو غيره وأدرجها مسلم فيه (١) حديث يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد أجهم العرق وبلغ شحوم الأذان قالت سودة راوية الحديث واسواتاه الحديث الثعلبي والغوى وهو فى الصحيحين من حديث عائشة وهى القائلة واسواتاه ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أم سلمة وهى القائلة واسواتاه (٢) حديث أبى هريرة يحشر الناس يوم القيامة ركباناً ومشاة على وجوههم الحديث رواه الترمذى وحسنه وفى الصحيحين من حديث أنس أن رجلاً قال يابى الله كيف يحشر الكافر على وجهه قال أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة .

معنى القرآن يكون
لمراقبة حلية باطنه
فيشغل باطنه بمطالعة
نظر الله إليه مكان
حديث النفس فان
بالدوام على ذلك يصير
من أرباب المشاهدة.
قال مالك : قلوب
الصديقين إذا سمعت
القرآن طربت إلى
الآخرة فليتمسك
المريد بهذه الأصول
وليسـتـعن . بدوام
الافتقار إلى الله فبذلك
ثبات قدمه . قال
سهل : على قدر لزوم
الالتجاء والافتقار إلى
الله تعالى يعرف البلاء
وعلى قدر معرفته
بالبلاء يكون افتقاره
إلى الله فدوام الافتقار
إلى الله أصل كل خير

بعضهم بعضاً لشدة الزحام واختلاف الأقدام وانضاف إليه شدة الحجلة والحياء من الافتضاح والاختراء عند العرض على جبار السماء فاجتمع وهج الشمس وحر الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ففاض العرق من أصل كل شجرة حتى سال على صعيد القيامة ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله فبعضهم بلغ العرق ركبته وبعضهم حقويه وبعضهم إلى شحمة أذنيه وبعضهم كاد يغيب فيه . قال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يوم يقوم الناس لرب العالمين - حتى يغيب أحدهم في رشحته إلى أنصاف أذنيه»^(١) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين باعوا بجلجهم ويبلغ آذانهم»^(٢) كذا رواه البخاري وسلم في الصحيح وفي حديث آخر «قياما شاحصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء فيلجمهم العرق من شدة الكرب»^(٣) وقال عقبه بن عامر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ غنظه ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ فاه، وأشار يده فألجمها فاه، ومنهم من يغطي العرق، وضرب يده على رأسه هكذا»^(٤) فتأمل يا مسكين في عرق أهل المحشر وشدة كربهم وفيهم من ينادى فيقول رب أرحنى من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار وكل ذلك ولم يلهوا بعد حسابا ولا عقابا فانك واحد منهم ولا تدري إلى أين يبلغ بك العرق . واعلم أن كل عرق لم يخرج من سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد في قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر يعرف ونهى عن منكر فسيخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو لم يكن ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق في تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرا وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار في القيامة فإنه يوم عظيمة شدته طويلة مدته .

(صفة طول يوم القيامة)

يوم تنف فيه الحلائق شاحصة أبصارهم منقطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظرون في أمورهم يقفون ثلاثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يجدون في روح نسيم . قال كعب وقناة - يوم يقوم الناس لرب العالمين - قال يقومون مقدار ثلاثمائة عام بل قال عبد الله بن عمر وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال « كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم»^(٥) وقال الحسن ما ظنك يوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة

(١) حديث ابن عمر يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحته إلى أنصاف أذنيه متفق عليه (٢) حديث أبي هريرة يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعا الحديث أخرجه في الصحيحين كما ذكره المصنف (٣) حديث قياما شاحصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب ابن عدى من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى ابن سليمان الجرجاني ضعفه ابن معين وقال ابن عدى لا أظن أنه كان يتعمد الكذب لكن له تشبه عليه (٤) حديث عقبه بن عامر تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمنهم من يبلغ عرقه عقبه الحديث رواه أحمد وفيه ابن لهيعة (٥) حديث ابن عمرو تلا هذه الآية يوم يقوم الناس لرب العالمين ثم قال كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم قلت إنما هو عبد الله بن عمرو رواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبي حاتم راويا غير ابن وهب ولهم عبد الرحمن بن ميسرة الحضرمي أربعة هذا أحدهم مصري والثلاثة الآخرون شاميون .

ومفتاح كل علم دقيق في طريق التسوم وهذا الافتقار مع كل الأتقاس لا ينشأ بحركة ولا يستقل بكلمة دون الافتقار إلى الله فيها وكل كلمة وحركة خلت عن مراجعة الله والافتقار فيها لانهب خيرا قطعا علنا ذلك وتحققناه . وقال سهل من اتقل من نفس إلى نفس من غير ذكر فقد ضيع حاله وأدى ما يدخل على من ضيع حاله دخوله فيها لا ينييه وتركه ما ينييه . وبلغنا أن حسان بن سنان قال ذات يوم لمن هذه الله ثم رجس إلى

لا يأتون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشا واحترقت أجوافهم جوعا انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آنية قد آن حرها واشتد لفتحها فلما بلغ المجهود منهم ما لاطافة لهم به كلم بعضهم بعضا في طلب من يكرم على مولاه ليشفع في حتمهم فلم يتعلقوا بنبي إلا دفعهم وقال دعوني نفسي نفسي شغلتني أمري عن أمر غيبي واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى وقال قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ولا ينضب بعده مثله حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه - لا يمكن الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا - فتأمل في طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن العاصي في عمرك المختصر . واعلم أن من طال انتظاره في الدنيا للموت لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات فإنه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصلح في الدنيا» (١) فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فإدام يبق لك نفس من عمرك فالأمر إليك والاستعداد بيدك فاعمل في أيام قصار لأيام طوال ترج ربحا لا تنتهي لسروره واستحقر عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة فانك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفا لكان ربحك كثيرا وتبكت يسيرا .

(صفة يوم القيامة ودواهيته وأساميه)

فاستعد بامسكين لهذا اليوم العظيم شأنه المديد زمانه القاهر سلطانه القريب أوانه، يوم ترى السماء فيه قد انقطرت ، والسكوا كب من هولته قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كورت ، والجبال قد سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سجرت والنفوس إلى الأبدان قد زوجت ، والجحيم قد سمرت ، والجنة قد أزلقت ، والجبال قد نسفت ، والأرض قد مدت ، يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلازلهاء ، وأخرجت الأرض أنفالهاء ، يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم ، يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ، ويحمل عرش بك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة ، يوم ترج الأرض فيه رجا وتبس الجبال بسا فكانت هباء منبثا ، يوم يكون الناس كالفرش للبيوت وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ، يوم تنسف فيه الجبال نسفا فترك قاعا صافقا لا ترى فيها عوجا ولا أمثا ، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ، يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان ، فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان ، يوم يمنع فيه العاصي من الكلام ولا يسئل فيه عن الإجماع بل يؤخذ بالنواصي والأقدام ، يوم تجد كل نفس ماعمت من خیر محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ، يوم تمل في كل نفس ما أحضرت وتشهد ما قدمت وأخرت يوم تحرس فيه الألسن

(١) حديث سئل عن طول ذلك اليوم فقال والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصلح في الدنيا أبو يهلى والبيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد الخدري وفيه ابن طيبة وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن طيبة وهو حسن ولأبي يهلى من حديث أبي هريرة بأسناد جيد يهون ذلك على المؤمن كتندي الشمس للغروب إلى أن تنرب ورواه البيهقي في الشعب إلى أن قال أظنه رضعه بافظ إن الله ليخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة .

نفسه وقال نالي وهذا السؤال وهل هذه إلا كلمة لاتعنيني وهل هذا إلا لاستيلاء نفسي وقلة أدبها وآلى على نفسه أن يصوم سنة كفارة لهذه الكلمة فبالصدق نالوا ما نالوا وبقوة العزائم عزائم الزجال بلغوا ما بلغوا . أخبرنا أبو زرعة إجازة قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصورا يقول سمعت أبا عمرو الأعمشى يقول سمعت الجنيد يقول لو أقبل صادق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاتته من الله أكثر مما نالاه وهذه

وتنطق الجوارح يوم شيب ذكره سيد المرسلين إذ قال له الصديق رضى الله عنه : أراك قد شبت يا رسول الله قال « شيتنى هود وأخوانها (١) » وهى الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت؛ فيا أيها القارئ العاجز إنما حظك من قراءتك أن تجمع القرآن وتحركه باللسان ولو كنت متفكرا فيما تقرأه لكنت جدرا بأن تنشق مرارتك مما شاب منه شعربيد المرسلين وإذا اقتعت بحركة اللسان افتقد حرمت ثمرة القرآن فالقيامة أحد ما ذكر فيه وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أسماها لتقف بكثرة أسماها على كثرة معانيها فليس المقصود بكثرة الأسماء تكرير الأسماء والألقاب بل الفرض تنبيه أولى الألباب فتح كل اسم من أسماء القيامة سر وفي كل نص من نصوصها معنى فاحرص على معرفة معانيها ونحن الآن نجمع لك أسماها . وهى : يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم الحاسبة ويوم المسألة ويوم المسابقة ويوم المناقشة ويوم المنافسة ويوم الرزلة ويوم الدمدة ويوم الصاعقة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الراجفة ويوم الرادفة ويوم العاشية ويوم الداهية ويوم الآزفة ويوم الحاقة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاق ويوم الفراق ويوم الساق ويوم القصاص ويوم التناد ويوم الحساب ويوم اللآب ويوم العذاب ويوم القرار ويوم القرار ويوم اللقاء ويوم البقاء ويوم القضاء ويوم الجزاء ويوم البلاء ويوم البكاء ويوم الحشر ويوم الوعيد ويوم العرض ويوم الوزن ويوم الحق ويوم الحكم ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الفتح ويوم الحزى ويوم عظيم ويوم عقيم ويوم عسير ويوم الدين ويوم اليقين ويوم النشور ويوم المصير ويوم النفخة ويوم الصيحة ويوم الرجفة ويوم الرجة ويوم الزجرة ويوم السكرة ويوم القزع ويوم الجزع ويوم المنتهى ويوم الأوى ويوم اللقيات ويوم اليعاد ويوم الرصاد ويوم القلق ويوم العرق ويوم الافتقار ويوم الانكدار ويوم الانتشار ويوم الانشقاق ويوم الوقوف ويوم الخروج ويوم الخلود ويوم التغابن ويوم عبوس ويوم معلوم ويوم موعود ويوم مشهود ويوم لا ريب فيه ويوم تبلى السرائر ويوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا ويوم تشخص فيه الأبصار ويوم لا ينفى مولى عن مولى شيئا ويوم لا تملك نفس لنفس شيئا ويوم يدعون إلى نار جهنم دعا ويوم يسحبون فى النار على وجوههم ويوم تغلب وجوههم فى النار ويوم لا يجزى والد عن ولده ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون يوم لا مرد له من الله يوم هم بارزون يوم هم على النار يفتنون يوم لا ينفع مال ولا بنون يوم لا تنفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار يوم تردفهم العاذر وتبلى السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الأستار يوم تخشع فيه الأبصار وتسكن الأصوات ويقل فيه الالتفات وتبرز الخفيات وتظهر الحطيات يوم يساق العباد ومعهم الأشهاد ويشيب الصغير ويسكر الكبير فيومئذ وضعت الموازين ونشرت الدواوين وبرزت الجحيم وأغلى الجحيم وزفرت النار ويشس الكفار وسمرت النيران وتغيرت الألوان وخرس اللسان ونطقت جوارح الانسان فيا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم حيث أغلقت الأبواب وأرخت الستور واستترت عن الخلائق قهارفت الفجور فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك فلويل كل الويل لنا معاشر الغافلين يرسل الله لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب اللين ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ثم يعرفنا غفلتنا ويقول - اقرب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم - ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول اقتربت الساعة

الجملة يحتاج البتدى أن يحكمها والنتهى عالم بها عامل بحقايقها فالبتدى صادق والنتهى صديق قال أبو سعيد القرشى الصادق الذى ظاهره مستقيم وباطنه يميل أحيانا إلى حظ النفس وعلامته أن يجد الخلاوة فى بعض الطاعة ولا يجدها فى بعض وإذا اشتغل بالذكر نور الروح وإذا اشتغل بحفظ النفس يجب عن الأذكار والصدق القدى استقام ظاهره وباطنه سبب الله تعالى بتسليو الأحوال لا يجبه عن الله وعن الأذكار أكل

(١) حديث شيتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم .

وانشق القمر - إنهم يرونه بعيدا ويراها قريبا - وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا - ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملا فلا تتدبر معانيه ولا تنظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه ولا نستعد للتخلص من دواهيته فنموذ بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنا الله بواسع رحمته.

(صفة المساءلة)

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأحوال فبا يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان فتسئل عن القليل والكثير والتغير والتطير فبينما أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عظامها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصي المهجرين إلى موقف العرض على الجبار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله عز وجل ملكا مابين شفرى عينيه مسيرة مائة عام (١) » لما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء اللائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض وترام على عظم أشخاص منكسرين لشدة اليوم مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده وعند نزولهم لا يبقى نبي ولا صديق ولا صالح إلا ويخرون لأذقانهم خوفا من أن يكونوا هم المأخوذون فهذا حال المقرين لما ظنك بالعصاة المهجرين وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة أفيكم ربنا وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفرغ اللائكة من سؤالهم إجلالا لحاقهم عن أن يكون فيهم فنادوا بأصواتهم منزهين لملكهم عما توهمه أهل الأرض وقالوا سبحان ربنا ما هو فينا ولكنه آت من بعد وعند ذلك تقوم اللائكة صفا محدقين بالخلائق من الجوانب وعلى جميعهم شعار اللد والحضوع وهيئة الخوف والهابة لشدة اليوم وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله - فلنسالن الذين أرسل إليهم ولنسالن المرسلين فلنقصن عليهم علم وما كنا غائبين - وقوله - فوريك لئسأتم أجمعين عما كانوا يعملون - فيبدأ سبحانه بالأنبياء - يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب - فيأشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتنمحي علومهم من شدة الهيبة إذ يقال لهم ماذا أجبتم وقد أرسلتم إلى الخلائق وكانوا قد علموا قدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون فيقولون من شدة الهيبة لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب وهم في ذلك الوقت صادقون إذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم إلى أن يقوبهم الله تعالى فيدعى نوح عليه السلام فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيقال لأمته هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير ويؤتى بهيسى عليه السلام فيقول الله تعال له أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله فيبقى ممتسحطا تحت هيبة هذا السؤال سنين فيالعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال ثم تقبل اللائكة فينادون واحدا واحدا يافلان بن فلانة هلم إلى موقف العرض وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول وتحنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار ولا يكشف سترهم على ملا الخلائق وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش - وأشرفت الأرض بنور ربها - وأيقن قلب كل عبد باقبال الجبار لمساءلة العباد وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه وأنه التصود بالأخذ والسؤال دون من عداه فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك يا جبريل ائتني بالنار فيجىء لها جبريل ويقول يا جبريل أجيبي خالقك ومليكك فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها فلم يلبث بعد ندائه أن ثارت وفارت وزفرت إلى الخلائق وشهقت وسمع الخلائق تديظها وزفيرها وانهمضت خزنتها متوثبة إلى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وخالف أمره فأخطر بيالك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعا ورعبا فتساقطوا شيئا على الركب

(١) حديث إن لله عز وجل ملكا مابين شفرى عينيه مسيرة خمسمائة عام لم أره بهذا اللفظ.

ولا نوم ولا شرب
ولا طعام والصديق
يريد نفسه لله وأقرب
الأحوال إلى النبوة
الصدقية . وقال
أبو يزيد : آخر
نهايات الصديقين أول
درجة الأنبياء . واعلم
أن أرباب النهايات
استقامت بواطنهم
وظواهرهم لله
وأرواحهم خلصت
عن ظلمات النفوس
ووطئت بساط القرب
وتسوسهم متقادة
مطوعة سالحة مع
القلوب عجيبة إلى كل
ما تجيب إليه القلوب
أرواحهم متلقة
بالمقام الأعلى انطفأت
فيهم نيران الهوى
وتحمر في بواطنهم

ولوا مدبرين - يوم ترى كل أمة جاثية - وسقط بعضهم على الوجوه منسكبين وينادي المصاقو الظالمون بالويل والثبور وينادي الصديقون نفسى نفسى فبينما هم كذلك إذ زفرت النار فزفرت الثانية فضاعف خوفهم وتحاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون ثم زفرت الثالثة فساقت الحلائق على وجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفي خاشع وانهمضت عند ذلك قلوب الظالمين فبليت الحناجر كاظمين وذهلت العقول من السمداء والأشقياء أجمعين وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال ماذا أجيتم فاذا رأوا ما قد آتيم من السياسة على الأنبياء اشتد الفزع على العصاة فصر الوالد من ولده وال أخ من أخيه والزوج من زوجته وبقى كل واحد منتظرا لأمره ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلايته وعن جميع جوارحه وأعضائه قال أبو هريرة « قالوا يا رسول الله هل ترى ربنا يوم القيامة فقال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب قالوا لا قال فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا قال فوالله نفسى بيده لا تضارون في رؤية ربكم فيلقى العبد فيقول له ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والابل وأذكرك رأسا وتربع فيقول العبد بلى فيقول أظننت أنك ملائقي فيقول لا فيقول فأنا أنساك كما نسيتني (١) فتوهم نفسك يامسكين وقد أخذت الملائكة بضديك وأنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاها فيقول لك ألم أنعم عليك بالشباب قضا إذا أبلت ألم أمهل لك في العمر قضا إذا أفنته ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته وفيما ذا أفقته ألم أكرمك بالملم فاذا عملت فباعلت فكيف ترى حياتك وخجلتك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك فان أنكرت شهدت عليك جوارحك . قال أنس رضى الله عنه « كنا مع رسول الله ﷺ فضحك ثم قال أتدرون من أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فاني لا أجزى على نفسى إلا شاهدا منى فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكاتمين شهودا قال فيحتم على فيه ويقال لأركانه انطقى قال فتنتطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول لأعضائه بمدا لكن وسحقا فضكن كنت أنا ضل (٢) فعمو ذبا فقه من الاتضاح على ملا الحاق شهادة الأعضاء إلا أن الله تعالى وعد للؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره . سأل ابن عمر رجل فقال له كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى فقال قال رسول الله ﷺ « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول إنى سترتها عليك في الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم (٣) » وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة (٤) » فهذا إغمايرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل في حق نفسه تقصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساويهم ولم يذكركم في غيبهم بما يكرهون لو سمعوه فهذا جدير بأن يجازى بمثله في القيامة وهب أنه قد ستره عن غيرك أليس قد قرع صمك النداء إلى المعرض فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك إذ يؤخذ بناصيتك تتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والمالم عليك من عدة المول مظلم تقدر

صرح العلم وانكشفت لهم الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق أبي بكر رضى الله عنه « من أراد أن ينظر إلى ميت يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى أبي بكر » إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى ما كشف به من صريح العلم الذى لا يصل إليه عوام المؤمنين إلا بعد الموت حيث يقال - فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد - فأرباب النهايات ماتت أهويتهم وخلصت أرواحهم . قال يحيى بن معاذ وقد سئل عن وصف العارف فقال رجل

(١) حديث أبي هريرة هل ترى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب الحديث متفق عليه دون قوله فيلقى العبد الخ فانفرد به مسلم (٢) حديث أنس أتدرون من أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه الحديث رواه مسلم (٣) حديث سأل ابن عمر رجل فقال كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى الحديث رواه مسلم (٤) حديث من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة تقدم .

وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق . وروى الحسن « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه في حجر عائشة رضى الله عنها فنفس فدكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فتقط على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتبه فقال ما يبكيك يا عائشة ؟ قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة قال والذي نفسى بيده في ثلاثة مواطن فان أحدا لا يذكر إلا نفسه : إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أينخف ميزانه أم يتقل ، وعند الصحف حتى ينظر أيمنه يأخذ كتابه أو شماله ، وعند الصراط (١) » . وعن أنس « يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي میزان ويوكل به ملك فان تقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سمع فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم القيامة « إنه يوم ينادى الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول له قم يا آدم فابعث بعث النار فيقول وكم بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فلما سمع الصحابة ذلك أباسوا حتى ما أوضاعوا ابضا حكة فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عند أصحابه قال اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده إن معكم لحليقتين ما كانتا مع أحد قط إلا كثرتا مع من هلك من بني آدم وبني إبليس قالوا وما هما يا رسول الله ؟ قال يأجوج ومأجوج قال فسرى عن القوم فقال اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أتم في الناس يوم القيامة إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقعة في ذراع النابتة (٢) »

(صفة الحصاء ورد الظالم)

قد عرفت هول میزان وخطره وأن الأعين شاخصة إلى لسان میزان - فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهيه نار حامية - واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما قال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وإنما حاسبه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا ولا يتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى ويرد الظالم حبة بعد حبة ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه ويطبب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة فهذا يدخل الجنة بغير حساب وإن مات قبل رد الظالم أحاط به خصاؤه فهذا يأخذ بيده وهذا يقبض على ناصيته وهذا يتعاق بلبيه هذا يقول ظلمتني وهذا يقول شتمتني وهذا يقول استهزأت بي وهذا يقول ذكرتني في الغيبة بما يسوءني وهذا يقول جاورتني فأسأت جوارى وهذا يقول عاملتني ففشتني وهذا يقول أباعتني فبنتني وأخفيت عني عيب سلعتك وهذا يقول كذبت في سعر

(١) حديث الحسن أن عائشة ذكرت الآخرة فبكت الحديث وفيه فقال ما يبكيك يا عائشة قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة الحديث أبو داود من رواية الحسن أنها ذكرت النار فبكت فقال ما يبكيك دون كون رأسه صلى الله عليه وسلم في حجرها وأنه نفس وإسناده جيد (٢) حديث يقول الله يا آدم قم فابعث بعث النار فيقول وكم بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعون الحديث متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ورواه البخاري من حديث أبي هريرة نحوه وقد تقدم .

كلما ازدادوا نعمة
ازدادوا عبودية وكلما
ازدادوا دنيا ازدادوا
قربا وكلما ازدادوا
جاهها ورفعة ازدادوا
تواضعا وذلة على
الؤمنين أعزة على
الكافرين سوكلت اتولوا
شهوة من شهوات
النفوس استخرجت
منهم شكرا صافيا
يتناولون الشهوات تارة
رققا بالنفوس لأنها
معهم كالطفل الذي
يلطف بالشيء ويهدى
له شيء لأنه مقهور
تحت السياسة مرحوم
ملطوف به وتارة
يتعمون نفوسهم
لشبهات تأسيب بالأنبياء
واختيارهم التقلل من
الشهوات الدنيوية قال

متاعك وهذا يقول رأيتني محتاجاً وكنت غنياً لما أطمعتني وهذا يقول وجدتني مظلوماً وكنت قادراً على دفع الظلم عنى فداهنت الظالم وما راعيتنى ، فيبنا أنت كذلك وقد أنشب الحصاء فيك مخالهم وأحكوا في تلايبك أيديهم وأنت مهوت متعير من كثيرهم حتى لم يبق في عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته في مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو خيانة أو نظر بعين استحقاق وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخاضك من أيديهم إذ قرع صمك نداء الجبار جل جلاله - اليوم تجرى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم - فخذ ذلك ينخلع قلبك من الهية وتوقن نفسك بالبور وتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال - ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخركم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقننى رهوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس الآلة فما أشد فحرك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم وما أشد حسراتك في ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل وشوفت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقاً أو تظهر عذراً فخذ ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك وتنقل إلى خصمائك عوضاً عن حقوقهم . قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون من المفلس قلنا المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع قال المفلس من أمتى من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فئت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار (١) » ، فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكاييد الشيطان ، فإن سلمت حسنة واحدة في كل مدة طويلة ابتدتها خصماً وأخذوها ، ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل لعلت أنه لا ينقض عنك يوم إلا ويجرى على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفى جميع حسناتك فكيف يبقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات وكيف ترجو الخلاص من الظالم في يوم يقتص فيه للجماة من القرناء ، فقد روى أبو ذر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال يا أبا ذر أتدرى فيم ينتطحان قلت لا قال ولكن الله يدري وسيقضى بينهما يوم القيامة (٢) » . وقال أبو هريرة في قوله عز وجل - وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم - إنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة بهائم والدواب والطيور وكل شيء فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماة من القرناء ثم يقول كوني تراباً فذلك حين يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً فكنت أنت يامسكين في يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك فتقول أين حسناتي فيقال نقلت إلى صحيفة خصمائك وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصبت واشتد بسبب الكف عنها عناؤك فتقول يارب هذه سيئات ما قارفتها قط فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم في البايعة والمجاورة والمخاطبة والناظرة والذاكرة والدارسة وسائر أصناف العاملة .

(١) حديث أبي هريرة : هل تدرون من المفلس ؟ قالوا المفلس يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع الحديث تقدم (٢) حديث : يا أبا ذر أتدرى فيم ينتطحان قلت لا قال ولكن الله يدري وسيقضى بينهما أحمد من رواية أشياخ لم يسموا عن أبي ذر .

عبي بن معاذ الدنيا عروس تطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينفث شعرها ويحرق ثوبها والعارف بالله مشغل بسيدته ولا يلتفت إليها . واعلم أن المنتهى مع كمال حاله لا يستغنى أيضاً عن سياسة النفس ومنعها الشهوات وأخذ الحظ من زيادة الصيام والقيام وأنواع البر وقد غلط في هذا خلق وظنوا أن المنتهى استغنى عن الزيادات والنوافل ولا على قلبه من الاسترسال في تناول اللذات والشهوات وهذا خطأ لا من حيث إنه يحجب العارف عن معرفته ولكن

قال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان قد يشن أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالحقرات وهى الموبقات فاتقوا الظلم ما استطعتم فان العبد ليحىء يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أنهن سينجيه لما يزال عبد يحىء فيقول رب إن فلانا ظلمنى بمظلمة فيقول امح من حسناته لما يزال كذلك حتى لا يبقى له من حسناته شيء وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب فتفرق القوم فخطبوا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنعوا ما أرادوا (١) » وكذلك الذنوب « ولما نزل قوله تعالى - إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون - قال الزبير : يا رسول الله أكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب قال: نعم ليكررن عليكم حتى تؤدوا إلى كل ذى حق حقه (٢) » قال الزبير والله إن الأمر لشديد فأعظم بشدة يوم لا يسامح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن لطة ولا عن كلمة حتى ينتقم للمظلوم من الظالم قال أنس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الله العباد عراة غيرا بهما قال : قلنا ما بهما قال ليس معهم شيء ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينهى لأحد من أهل الجنة ولأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصه منه ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصه منه حتى الأظمة قلنا وكيف وإنما نأتى الله عز وجل عراة غيرا بهما فقال بالحسنات والسيئات (٣) » فاتقوا الله عباد الله ووظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخاق في معاشرتهم فان ما بين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة إليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص وليس ببعض الحسنات بينه وبين الله بكال الاخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله ففساه بقره بذلك إلى الله تعالى فيقال به لطفه الذى ادخره لأحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم كما روى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيت ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ما يضحكك يا رسول الله بأى أنت وأمى قال رجلان من أمى جثا بين يدي رب العزة فقال أحدهما يارب خذ لى مظلمتى من أخى فقال الله تعالى أعط أخاك مظلمته فقال يارب لم يبق من حسناتى شيء قال الله تعالى للطالب كيف اصنع ولم يبق من حسناته شيء قال يارب يتحمل عنى من أوزارى قال وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال فقال الله للطالب ارفع رأسك فانظر فى الجنان فرفع رأسه فقال يارب أرى مدائن من فضة

بوقف عن مقام الزيد
وقوم لما رأوا أن هذه
الأشياء لا تؤثر فيهم
فسوة ولا تورثهم حجة
ركنوا إليها واسترسلوا
فيها وقنعوا بأداء
الفرائض واتسعوا في
لأكل والشرب وهذا
الانبساط منهم بقية
من سكر الأحوال
وتقييد بنور الحال
وعدم التخاص
بالكفاية إلى نور الحق
ومن تخاص من نور

(١) حديث ابن مسعود إن الشيطان قد أيس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك المحقرات وهى الموبقات الحديث وفى آخره وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة الحديث رواه أحمد والبيهقى فى الشعب مقتصر على آخره إياكم ومحقرات الذنوب فانهم مجتمعين على الرجل حتى يهلكه وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلا الحديث وإسناده جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصرا من حديث جابر إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون فى جزيرة العرب ولكن فى التحريش بينهم (٢) حديث لما نزل قوله تعالى - إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قال الزبير يا رسول الله أكرر علينا ما كان بيننا الحديث أحمد واللفظ له والترمذى من حديث الزبير وقال حسن صحيح (٣) حديث أنس يحشر العباد عراة غيرا بهما قلنا ما بهما قال ليس معهم شيء الحديث قلت ليس من حديث أنس وإنما هو عبيد الله ابن أنس رواه أحمد بإسناد حسن وقال غرلا مكان غيرا .

مر تفتة وقصورا من ذهب مكملة بالؤلؤلأى نبى هذا؟ أولأى صدق هذا أولأى شىء به هذا؟ قال لمن أعطانى الحقن قال يارب ومن يملك ثمنه قال أنت يملكه قال وما هو قال عفوك عن أخيك قال يارب إنى قد عفوت عنه قال الله تعالى خديد أخيك فأدخله الجنة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين (١) وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالخلق بأخلاق الله وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق فتفكر الآن فى نفسك إن خلت مهيبتك عن الظالم أو تلتطف لك حتى عفائك وأبغنت بسعادة الأبد كيف يكون سرورك فى منصرفك من مفصل القضاء وقد خلع عليك خلمة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعم لا يدور بمحواشيه الفناء وعند ذلك طار قلبك سرورا وفرحا وبيض وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر فتوهم بتخترك بين الخلائق رافعا رأسك خاليا عن الأوزار ظهرتك ونضرة نسيم الريح وبرد الرضا يتلألأ من جبينك وخلق الأولين والآخريين ينظرون اليك وإلى حالك ويقبطونك فى حسنك وجمالك والملائكة يحشون بين يديك ومن خلفك وينادون على رءوس الأشهاد هذا فلان بن فلان رضى الله عنه وأرضاه وقد سمد سعادة لا يشقى بعدها أبدا أفترى أن هذا للتعجب ليس بأعظم من المسكينة التى تنالها فى قلوب الخلق فى الدنيا بربائك ومداهنتك وتصنعك وتزينك فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لانسبة له إليه فوسل إلى إدراك هذه الرتبة بالاخلاص الصافي والنية الصادقة فى معاملتك مع الله فإن تدرك ذلك إلا به وإن تكن الأخرى والعياذ بالله بأن خرج من مهيبتك جريعة كنت تحسبها هينة وهى عند الله عظيمة لثقتك لأجلها فقال عليك لعنى يا عبد السوء لا تقبل منك عبادتك فلانسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك ثم تغضب للملائكة لغضب الله تعالى فيقولون عليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين وعند ذلك تنال اليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بمظاظتها وزعارتها وصورها المنكرة فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملاء الخلق وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك وإلى ظهور خزيك وأنت تنادى بالويل والثبور وهم يقولون لك لا تدع اليوم ثبورا واحدا وادع ثبورا كثيرا وتنادى للملائكة ويقولون هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه ومحازبه ولعنه بقبائح مساويه فشقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله أو طلبا للمسكينة فى قلوبهم أو خوفا من الاقتضاح عندهم لما أعظم جهلك إذ تحترز عن الاقتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله فى الدنيا للقرضة ثم لا تخشى من الاقتضاح العظيم فى ذلك اللأ العظيم مع التمرض لسخط الله وعقابه الأليم والسياق بأيدى الزبانية إلى سواء الجحيم فهذه أحوالك وأنت لم تشتر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط .

(صفة الصراط)

ثم تفكر بعد هذه الأهوال فى قول الله تعالى - يوم نحشر النقيين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا - وفى قوله تعالى - فاهدوهم إلى صراط الجحيم - وقفوهم إنهم مسئولون - فالتاس بعد هذه الأهوال يساقون إلى الصراط وهو جسر محدود على متن النار أحد من السيف وأدق من الشعر فمن استقام فى هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ومن عدل عن الاستقامة فى الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى عن ترفى أول قدم من الصراط وتردى فتفكر الآن فيما عمل من الفزع بغؤادك إذا رأيت الصراط ودقته ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحتها ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها

(١) حديث أنس يينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ما أضحكك يا رسول الله أبى وأمى قال رجلان من أمى جثيا بين يدي رب العالمين الحديث بطوله ابن أبى الدنيا فى حسن الظن بالله والحاكم فى الاستدراك وقد تقدم .

الحال إلى نور الحق
ينهب عنه بقايا
السكر ويوقف نفسه
مقام العبيد كأحد
عوام المؤمنين يتقرب
بالصلاة والصوم وأنواع
البر حتى يأمطة الأذى
عن الطريق ولا
يستكبر ولا يستكف
أن يسود فى صور
عوام المؤمنين من
إظهار الإرادة بكل
بر وصلة فيتناول
الشهوات وقتا رقعا

وقد كانت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وتقل ظهرك بالأوزار
الساكنة لك عن المشي على بساط الأرض فضلا عن حدة الصراط فكيف بك إذا وضعت عليه
إحدى رجلك فأحسست بحدته واضطرت إلى أن ترفع القدم الثانية والحلائق بين يديك يزولن
ويتعرون وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلايب وأنت تنظر إليهم كيف ينكسون فتسفل
إلى جهة النار رهوسهم وتعلو أرجلهم فيأله من منظر ما أظلمه ومرتمى ما أصعبه مجازاً مضيقه فانظر
إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك تلتفت يمينا وشمالاً إلى الخلق
وهم يهاقون في النار والرسول عليه السلام يقول «يارب سلم سلم» والزقات بالويل والثبور قد
ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلائق فكيف بك لو زلت قدمك
ولم ينفعك ندمك فنادت بالويل والثبور وقلت هذا ما كنت أخافه فياليتني قدمت حياتي باليتني
أخذت مع الرسول سيلاً يا ويلتنا ليتني لم آخذ فلانا خليلاً ياليتني كنت تراباً ياليتني كنت نسيامنيا
ياليت أمي لم تلدني ، وعند ذلك تخطفك النيران والعياذ بالله وينادي النادى اخسوا فيها ولا تسكلمون
فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأنين والتنفس والاستغاثة فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار
بين يديك فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار في دركات جهنم وإن كنت
به مؤمناً وعنه غافلاً وبالاستعداد له متهاوناً فما أعظم خسرتك وطغيانك وماذا ينفعك إيمانك إذا
لم يعثبك على السعي في طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه فلو لم يكن بين يديك إلا هول الصراط
وارتياع قلبك من خطر الجواز عليه وإن سلمت فناهيك به هولاً وفزعاً وعباقراً رسول الله صلى الله
عليه وسلم «يضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يجز بأمتة من الرسل ولا يشكلم يومئذ
إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم اللهم سلم وفي جهنم كلاب مثل شوك السعدان هل رأيت
شوك السعدان قالوا نعم يا رسول الله قال فاتها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى
تخطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخرول ثم ينجو^(١)» وقال أبو سعيد الخدري
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ير الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلايب وخطاطيف
تخطف الناس يمينا وشمالاً وعلى جنبتيه لائسكة يقولون اللهم سلم اللهم سلم فمن الناس من يمر مثل البرق
ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس المجري ومنهم من يسعي سعياً ومنهم من يمشي مشياً ومنهم من
يجبو حبوا ومنهم من يزحف زحفاً فأما أهل النار الذين هم أهاها فلا يعوتون ولا يحيون وأماناس
فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون لحماً ثم يؤذن في الشفاعة^(٢)» وذكر إلى آخر
الحديث . وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال «يجمع الله الأولين والآخرين
ليقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء» وذكر الحديث
إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال «ثم يقول للمؤمنين ارفعوا رؤسكم فرفع رؤسهم فبسطهم
نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسمى بين يديه ومنهم من
يعطى نوره أصغر من ذلك ومنهم من يعطى نوره مثل الذخلة ومنهم من يعطى نوره أصغر من
ذلك حتى يكون آخرهم رجلاً يعطى نوره على إبهام قدمه فيضي مرة ويجبو مرة فإذا أضاء
قدم قدمه فمشى وإذا أظلم قام ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من

بالنفس المظهرة الزكاة
للقادة المطوعة لأنها
أسيرته ويعنهما
الشهوات وقتاً لأن
في ذلك صلاحها
واعتبر هذا سواء
بحال الصبي فإنه إن
جاوز حد الاعتدال
من إعطاء المراد
وقتاً ومنه وقتاً
انصد طبعه لأن
الجيلة لا بد من فهمها
بسياسة العلم ومادامت
الجيلة باقية لا بد من

(١) حديث ينصب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يجز بأمتة من حديث أبي هريرة
في أثناء حديث طويل (٢) حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم
وخطاطيف الحديث متفق عليه مع اختلاف ألفاظ .

يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كأنقضاض الكواكب ومنهم من يمر كشدة الفرس ومنهم من يمر كشدة الرجل حتى يمر الذي أعطى نوره على إبهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه تجر منه يد وتعلق أخرى وتعلق رجل وتجر أخرى وتصيب جوانبه النار قال فلا يزال كذلك حتى يخلص فإذا خلص وقف عليها ثم قال الحمد لله لقد أعطاني الله ما لم يعط أحدا إذ نجاني منها بعد إذ رأيتها فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيقتدل (١) « وقال أنس بن مالك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة وإن الملائكة ينجون المؤمنين والمؤمنات وإن جبريل عليه السلام يأخذ بحجزتي وإني لأقول يا رب سلم سلم فالزوال والزلات يومئذ كثير (٢) » فهذه أهوال الصراط وعظائم فظول فيه فكرك فان أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا فان الله لا يجمع بين خوفين على عبد فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة ولست أعنى بالخوف رقة كرامة النساء تدمع عينك وبرق قلبك حال السباع ثم تنساه على القرب وتعود إلى لهوك ولعبك فماذا من الخوف في شيء بل من خاف شيئا هرب منه ومن رجا شيئا طلبه فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى ويعثك على طاعته وأبعد من رقة النساء خوف الحق إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم استعذت بالله لعوذ بالله اللهم سلم سلم وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم فالشيطان يضحك من استعاذتهم كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراء حصن فادارأي أبواب السبع وصولته من بعد قال بلسانه أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستمع بشدة بنيانه وإحكام أركانه فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه فأني يعني عنه ذلك من السبع وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول لا إله إلا الله صادقا ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معه ود غيره ومن اتخذ إلهه هوا فهو بعيد من الصدق في توحيد وأمره مخطر في نفسه فان محجزت عن ذلك كله فكأن محب الرسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا على تعظيم سنته ومتشوقا إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ومبتورا بأدعيتهم فساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة .

(صفة الشفاعة)

اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فان الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعَةَ الأنبياء والمصدقين بل شفاعَةَ العلماء والصالحين وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فان له شفاعَةَ في أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه فكن حريصا على أن تكسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة وذلك بأن لا تحقر آدميا أصلا فان الله تعالى خبا ولايته في عباده فاعل الذي تزدرب عينك هو ولي الله ولا تستصغر محصية أصلا فان الله تعالى خبا غضبه في معاصيه فلعل مقت الله فيه ولا تستحقر أصلا طاعة فان الله تعالى خبا رضاه في طاعته فلعل رضاه فيه ولو السكامة الطيبة أو اللقمة أو النية الحسنة أو ما يجرى مجراه وشواهد الشفاعة في القرآن والأخبار كثيرة : قال الله تعالى - ولسوف يعطيك ربك فترضى -

(١) حديث ابن مسعود يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قيا ما أربعين سنة شاحصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء قال وذكر الحديث إلى ذكر سجود المؤمنين الحديث بطوله رواه ابن عدى والحاكم وقد تقدم بعضه مختصرا (٢) حديث أنس الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة الحديث البيهقي في الشعب وقال هذا إسناد ضيف قال وروى عن زياد النميري عن أنس مرفوعا الصراط كحد الشعرة أو كحد السيف قال وهي رواية صحيحة انتهى ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه ابن لهيعة .

سياسة المسلم وهذا باب غامض دخل في الهيات على التنبهي من ذلك دواخل ووقع الركون وانسد به باب المزيد فالمتنهي ملك ناصية الاختيار في الأخذ والترك ولا بد له من أخذ وترك في الأعمال والحظوظ ففي الأعمال لا بد له من أخذ وترك فتارة يأتي بالأعمال كأحد الصادقين وتارة يترك

روى عمرو بن العاص «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام - رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم - وقول عيسى عليه السلام - إن تعذبهم فأنهم عبادك - ثم رفع يديه وقال أمتي أمتي ثم بكى فقال الله عز وجل يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنك قد نسيتك فأتاه جبريل فسأله فأخبره والله أعلم به فقال يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنك قد نسيتك في أمتهك ولا نسوه لك^(١)» وقال صلى الله عليه وسلم «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وأحللت لي القنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض مسجدا وترابها طهورا فأنا رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأعطيته الشفاعة وكل نبي بعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة^(٢)» وقال صلى الله عليه وسلم «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير غيري» وقال صلى الله عليه وسلم «أنا سيد ولد آدم ولا غفر وأنا أول من تنشق الأرض عنه وأنا أول شافع وأول مشفع يدي لواء الحمد تحت آدم فمن دونه^(٣)» وقال صلى الله عليه وسلم «لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبى ودعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة^(٤)» وقال ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ «ينصب للأنبيا منابر من ذهب فيجلسون عليها ويقي منبري لا أجلس عليه قائما بين يدي ربي منتصبا مخافة أن يبعث بي إلى الجنة وتبقى أمتي بعدى فأقول يارب أمتي فيقول الله عز وجل يا محمد وما تريد أن أصنع بأمتك فأقول يارب عجل حسابهم فما أزال أشفع حتى أعطى صككا لرجال قد بعث بهم إلى النار وحتى إن مالكا خازن النار يقول يا محمد ما تركت النار لنتب ربك في أمته من بقية^(٥)» وقال صلى الله عليه وسلم «إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما طي وجه الأرض من حجر ومدر^(٦)» وقال أبو هريرة «أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تصببه فبش منها نهشة ثم قال أنا سيد المرسلين يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الله وينفخهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من النهم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس

زيادة الأعمال رقعا بالنفس وتارة يأخذ الحظوظ والشهوات رقعا بالنفس وتارة يتركها افتقادا للنفس بحسن السياسة فيكون في ذلك كله مختارا فمن ساكن ترك الحظوظ بالكفاية فهو زاهد تارك بالكفاية ومن استرسل في أخذها فهو راغب بالكفاية والنهي شمل الطرفين فإنه على غاية الاعتدال

(١) حديث عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم - رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم - وقول عيسى صلى الله عليه وسلم - إن تعذبهم فأنهم عبادك - ثم رفع يديه . ثم قال أمتي أمتي ثم بكى الحديث وفيه يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنك قد نسيتك ولا نسوه لك في أمتهك قلت ليس هو من حديث عمرو بن العاص وإنما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم ولعله سقط من الإحياء ذكر عبد الله من بعض النسخ (٢) حديث أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي الحديث وفيه وأعطيته الشفاعة متفق عليه من حديث جابر إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير غيري الترمذي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب قال الترمذي حسن صحيح (٣) حديث أنا سيد ولد آدم ولا غفر الحديث الترمذي وقال حسن وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري (٤) حديث لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبى دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة متفق عليه من حديث أنس ورواه مسلم من حديث أبي هريرة (٥) حديث ابن عباس ينصب للأنبيا منابر من ذهب فيجلسون عليها ويقي منبري لا أجلس عليه قائما بين يدي ربي منتصبا الحديث الطبراني في الأوسط وفي إسناده محمد بن ثابت البناني ضعيف (٦) حديث إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما طي وجه الأرض من حجر ومدر أحمد والطبراني من حديث يزيدة بسند حسن .

بعضهم لبعض ألا ترون ما قد باعكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم فيقول بعض الناس لبعض عليكم بآدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول لهم آدم عليه السلام إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد نهانى عن الشجرة فعصيته نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحا عليه السلام فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد صماك الله عبدا شكورا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد كانت لى دعوة دعوتها لى تومى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون أنت نبى الله وخليفه من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول لهم إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنى كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرها نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى عليه السلام فيقولون يا موسى أنت رسول الله فضلك برسائه وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله وإن يغضب بعده مثله وإنى قتلت نفسا لم أوامر بقتلها نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى عيسى عليه السلام فيأتون عيسى فيقولون يا عيسى أنت رسول الله وكنته ألقاها إلى مريم وروح منه وكنى الناس فى المهدي اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول عيسى عليه السلام إن ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنبا نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيأتونى فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فأطاقى فأتى تحت العرش فأقع ساجدا لربى ثم يفتح الله لى من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتح على أحد قبلى ثم يقال يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع فأرفع رأسى فأقول أمى أمى يا رب يقال يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ثم قال والذى نفسى بيده إن بين المصرعين من مصاريح الجنة كابين مكة وحمير أو كابين مكة وبصرى (١) وفى حديث آخر هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا إبراهيم وهو قوله فى الكواكب هذاربى وقوله لأهلهم بل فضله كبيرهم هذا وقوله إنى سقيم فهذه شفاعته رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأحد أمته من العلماء والصالحين شفاعته أيضا حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل الجنة بشفاعته رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر (٢) وقال صلى الله عليه وسلم يقال للرجل قم يا فلان فاشفع فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة

(١) حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بلجم فرفع إليه الذراع وكان يعجبه فنهش منها نهشة ثم قال أنا سيد الناس الحديث بطوله فى الشفاعة قال وفى حديث آخر هذا السياق مع ذكر خطايا إبراهيم متفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجه مسلم (٢) حديث يدخل الجنة بشفاعته رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر رويناه فى جزء أبى عمر بن السالك من حديث أبى أمامة إلا أنه قال مثل أحد الحيين ربيعة ومضر وفيه فكان المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان وإسناده حسن وللترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن أبى الجداء يدخل الجنة بشفاعته الرجل من أمتى أكثر من بنى تميم قالوا سواك قال سواى قال الترمذى حسن صحيح وقال الحاكم صحيح قيل أراد بالرجل أويسا .

واقف على الصراط
بين الافراط والتفريط
فمن ردت إليه
الأقسام فى النهاية
فأخذها زاهدا فى
الزهد فهو تحت قهر
الحال من ترك الاختيار
وتارك الاختيار الوافق
مع فعل الله تعالى مقيد
بالحال وكان أن الزاهد
مقيد بالترك تارك
الاختيار فكذلك
الزاهد فى الزهد الآخذ
من الدنيا ماسيق إليه

ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله (۱) « وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 « إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول
 يا فلان هل تعرفني؟ فيقول لا والله ما أعرفك من أنت، فيقول أنا الذي مررت بي في الدنيا فاستسقيتني
 شربة ماء فسقيتك قال قد عرفت قال فاشفع لي بها عند ربك فيسأل الله تعالى ذكره ويقول إني
 أشرفت على أهل النار فناداني رجل من أهلها فقال هل تعرفني؟ فقلت لا من أنت؟ فقال أنا الذي
 استسقيتني في الدنيا فسقيتك فاشفع لي عند ربك فشفعني فيه فيشفعه الله فيه فيؤمر به فيخرج من
 النار (۲) « وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا
 وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا يتسوا لواء الحمد يومئذ بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي
 ولا غير (۳) « وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني أتوم بين يدي ربي عز وجل فأكسى حلة
 من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري (۴) «
 وقال ابن عباس رضى الله عنهما « جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه
 فخرج حتى إذا دنا منهم منهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجبا إن الله عز وجل أخذ من
 خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليلا، وقال آخر ماذا بأعجب من كلام موسى كله تكليبا، وقال آخر فعيسى
 كلمة الله وروحه، وقال آخر آدم اصطفاه الله فخرج عليهم صلى الله عليه وسلم فسلم وقال قد سمعت
 كلامكم وتمجبتكم إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى نجي الله وهو كذلك وعيسى روح الله
 وكلته وهو كذلك وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ألا وأنا حبيب الله ولا غير وأنا حامل لواء الحمد
 يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أول من يحرك حلق
 الجنة فيفتح الله لي فأدخلها ومعى قراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الأولين والآخريين ولا فخر (۵) «
 (صفة الحوض)

اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم وقد اشتملت الأخبار على وصفه
 ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدنيا علمه وفي الآخرة ذوقه فإن من صفاته أن من شرب منه
 لم يظم أبدا . قال أنس « أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرجع رأسه متبسما فقالوا له
 يا رسول الله لم ضحكت؟ فقال آية أنزات على آتفا وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم - إنا أعطيناك
 الكوثر - حتى ختمها ثم قال هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال إنه نهر وعنديه

(۱) حديث يقال للرجل قم يا فلان فاشفع فيقوم يشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على
 قدر عمله الترمذي من حديث أبي سعيد إن من أمتي من يشفع للفئام ومنهم من يشفع للقبيلة
 الحديث وقال حسن وللبرار من حديث أنس إن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة (۲) حديث أنس
 إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول
 يا فلان هل تعرفني فيقول لا والله ما أعرفك من أنت فيقول أنا الذي مررت بي في الدنيا فاستسقيتني
 شربة فسقيتك الحديث في شفاعته فيه وإخراجه من النار أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس
 بسند ضعيف (۳) حديث أنس أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا الحديث الترمذي وقال حسن غريب
 (۴) حديث فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش الحديث الترمذي من حديث
 أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح (۵) حديث ابن عباس جلس ناس من أصحاب رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم منهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم
 عجبا إن الله اتخذ من خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليلا الحديث رواه الترمذي وقال غريب .

لرؤيته فعل الله مقيدا
 بالأخذ وإذا استقرت
 النهاية لا يتقيد بالأخذ
 ولا بالترك بل يترك وقتا
 واختياره من اختيار الله
 ويأخذ وقتا واختياره
 من اختيار الله وهكذا
 صومه النافلة وصلاته
 النافلة يأتي بها وقتا
 ويسمح للنفس وقتا لأنه
 مختار صحيح في الاختيار
 في الخالين وهذا هو
 الصحيح ونهاية النهاية
 وكل حال يستقر

ربى عز وجل فى الجنة عليه خير كثير عليه حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آتته عدد نجوم السماء (١) وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بيننا أنا أسير فى الجنة إذا نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجووف قلت ما هذا يا جبريل؟ قال هذا الكوثر الذى أعطاك ربك فضرب الملك يده فاذا طينه مسك أذفر (٢)» وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ما بين لابتى حوضى مثل ما بين المدينة وضعاء أو مثل ما بين المدينة وعمان (٣)» وروى ابن عمر «أنه لما نزل قوله تعالى - إنا أعطيناك الكوثر - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر فى الجنة حافتاه من ذهب شرا به أشدّ يياضا من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك يجرى على جنادل اللؤلؤ والمرجان (٤)» وقال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن حوضى ما بين عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشدّ يياضا من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا أو لك الناس ورودا عليه قهراء المهاجرين قال عمر بن الخطاب ومن ثم يارسول الله؟ قال ثم الشعث رهوسا الدنس ثيابا الذين لا ينكحون التمتع ولا تفتح لهم أبواب السدد (٥)» قال عمر بن عبد العزيز والله لقد نكحت التمتع فاطمة بنت عبد الملك وتحت لى أبواب السدد إلا أن يرحمنى الله فلا جرم لأدهن رأسى حتى شعث ولا أغسل ثوبى الذى على جسدى حتى يتسخ وعن أبى ذر قال «قلت يارسول الله ما آتية الحوض؟ قال والذى نفس محمد بيده لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء وأكوابها فى الليلة الظلمة للضحية من شرب منه لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طول ما بين عمان وأيلة ماؤه أشدّ يياضا من اللبن وأحلى من العسل (٦)» وعن حمزة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لكل نبى حوضا وإنهم يتباهون بهم أكثر واردة وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم واردة (٧)» فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون فى جملة الواردين وليحذر أن يكون متمنيا ومقترا وهو يظن أنه راج فان الراجى للحصاد من بث البذر ونقى الأرض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أو ان الحصاد فأما من ترك الحرث أو الزراعة وتفقى الأرض وسقىها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة

(١) حديث أنس أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يارسول الله لم ضحكك فقال آية نزلت على آتفا وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم - إنا أعطيناك الكوثر - رواه مسلم (٢) حديث أنس بينا أنا أسير فى الجنة إذا نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجووف الحديث الترمذى وقال حسن صحيح ورواه البخارى من قول أنس لما عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء الحديث وهو مرفوع وإن لم يكن صرح به عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) حديث أنس ما بين لابتى حوضى مثل ما بين المدينة وضعاء أو مثل ما بين المدينة وعمان رواه مسلم (٤) حديث ابن عمر لما نزل قوله تعالى - إنا أعطيناك الكوثر - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر فى الجنة حافتاه من ذهب الحديث الترمذى مع اختلاف لفظ وقال حسن صحيح ورواه الدارمى فى مسنده وهو أقرب إلى لفظ المصنف (٥) حديث ثوبان إن حوضى ما بين عدن إلى عمان البلقاء الحديث الترمذى وقال غريب وابن ماجه (٦) حديث أبى ذر قلت يارسول الله ما آتية الحوض قال والذى نفس بيده لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء الحديث رواه مسلم (٧) حديث حمزة إن لكل نبى حوضا وإنهم ليتباهون بهم أكثر واردة الحديث الترمذى وقال غريب قال وقد روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل ولم يذكر فيه عن حمزة وهو أصح

ويستقيم يشاكل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يتوم من الليل ولا يقوم الليل كله ويصوم من الشهر ولا يصوم الشهر كله غسيرة رمضان ويتناول الشهوات ولما قال الرجل إننى عزمت أن لا أكل اللحم قال فإنى أكل اللحم وأجبه ولو سألت

فهذا مغتر ومتمنّ وليس من الراجين في شيء، وهكذا رجاء أكثر الخلق وهو غرور الحقى نموذبا لله من الغرور والنفلة فان الاعتزاز بالله أعظم من الاعتزاز بالدنيا قال الله تعالى - فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الغرور -

(القول في صفة جهنم وأهلها وأنكالمها)

يأبها الناقل عن نفسه الغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا الشرف على الاقضاء والذوالدع التفكير فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك فانك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم نجى الدين اتقوا ونذر الظالمين فيها جحشا - فأنت من الورد على يقين ومن النجاة في شك فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فمساك تستعد له لاجاة منه وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا في حياتهم في كربها وأهلها وقوا ينتظرون حقيقة أنبأها وتشفيح شعاعها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب وأظلت عليهم نار ذات لهب وصعوا لها زفيرا وجرجرة تفصح عن شدة العيظ والنضب فعند ذلك أيقن المجرمون بالطيب وجنت الأمم على الركب حتى أشفق البراء من سوء للتقلب وخرج للنادى من الزبانية قائلا : أين فلان ابن فلان المسوف نفسه في الدنيا بطول الأمل المضيع عمره في سوء العمل فيبادر منه بمقامع من حديد ويستقبلونه بمظالم التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد ، وينكسونه في قعر الجحيم ويقولون له ذق إنك أنت العزيز الكريم - فأسكنوا هارا ضيقة الأرجاء مظلمة السالك مبهمة الهالك يخلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير شرابهم فيها الحميم ومستقرم الزبانية تقمهم والهاوية تجمعهم أمانهم فيها الهلاك ومالمهم منها فسلك قد شدت أقدامهم إلى النواصي واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها : يا مالك قد حق علينا الوعيد يا مالك قد أثقلنا الحديد يا مالك قد فضجت منا الجلود يا مالك أخرجنا منها فانا لا نعود فنقول الزبانية هيئات لات حين أمان ولا خروج لكم من دارها وان فاشسوا فيها ولا تكلمون ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتهم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف بل يكون على وجوههم مغلولين النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيانهم والنار عن شمائلهم فهم غرقى في النار طعامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار فهم بين مقطعات النيران وسرايل القطران وضرب المقامع وتقل السلاسل فهم يتجلبجون في مضابقتها ويتحطمون في دركاتهما ويضطربون بين غواشيتها تغلى بهم النار كغلى القدور ويهتفون بالويل والويل ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ماني بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم وتنقطع من العطش أكبادهم وتسيل على الحدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحمها وتسمع من الأطراف شعورها بل جلودها وكلما فضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها قد عريت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعمروق وعلائق العصب وهى تنشق في لفتح تلك النيران وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سودت وجوههم أشد سوادا من الحميم وأعميت أبصارهم وأبكت ألسنتهم وقصمت ظهورهم وكسرت عظامهم وجدعت آذانهم ومزقت جلودهم وغلت أيديهم إلى أعناقهم وجمع بين نواصيهم وأقدامهم وهم يشون على النار بوجوههم ويطنون حرك الحديد بأحداقهم فلهيب النار سار في بواطن أجسامهم وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم هذا بعض

(القول في صفة جهنم)

في أن يطعمنى كل يوم
لأطعمنى وذلك يدلك
على أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم كان
عنتارا في ذلك إن شاء
أكل وإن شاء لم يأكل
وكان يترك الأكل
اختيارا وقد دخلت
الفتنة على قوم كلما
قيل لهم إن رسول الله
صلى الله عليه وسلم
فضل كذا يقولون كان
رسول الله صلى الله عليه
وسلم مشرطا وهذا إذا

جملة أهوالهم وانظر الآن في تفصيل أهوالهم وتذكر أيضا في أودية جهنم وشماها فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثمان وألف وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والنافق حتى يواقع ذلك كله^(١) » وقال طي كرم الله وجهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادي الحزن قيل يا رسول الله وما وادي أوجب الحزن قال واد في جهنم تعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعداه الله تعالى للقراء المرابين^(٢) » فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي بها يصعب العبد بعضها فوق بعض الأطم جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السمير ثم الجعيم ثم الهاوية ، فانظر الآن في عمق الهاوية فإنه لا حد لعمقها كما لا حد لعمق شهوات الدنيا فكما لا ينتهي أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه فلا تنتهي هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها قال أبو هريرة « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتدرون ما هذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا حجر أرسل في جهنم مندسبين عاما الآن انتهى إلى قعرها^(٣) » ثم انظر إلى تفاوت الدرجات فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت فمن منهمك مستكثر كالعريق فيها ومن خائف فيها إلى حد محدود فكذلك تناول النار لهم متفاوت فان الله لا يظلم مثقال ذرة فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه إلا أن أقلمهم عذابا لو عرضت عليه الدنيا بخذافيرها لا تقدي بها من شدة ما هو فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة يتنعل بنملين من نار يظلى دماغه من حرارة نعليه^(٤) » فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر به من شدد عليه ومهما تشككت في شدة عذاب النار فقرب أصبعك من النار وقس ذلك به ثم اعلم أنك أخطأت في القياس فان نار الدنيا لا تناسب نار جهنم ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهيات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لحاضواها طامعين هرابممام فيه وعن هذا عبر في بعض الأخبار حيث قيل « إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقتها أهل الدنيا^(٥) » بل صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة نار جهنم فقال « أمز الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة^(٦) » وقال ﷺ « اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا فأذن لها في تسعين

قالوه على معنى أنه لا يلزمهم التأسي به جهل محض فان الرخصة الوقوف على حد قوله والعزيمة التأسي بفعله وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأرباب الرخص وفعله لأرباب العزائم ثم إن المنتهى يحاكي حاله حال رسول الله عليه الصلاة والسلام في دماء الخلق إلى الحق فكل

(١) حديث إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثمان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والنافق حتى يواقع ذلك كله لم أجده هكذا بحملته وسيأتي بعده ما ورد في ذكر الحيات والعقارب (٢) حديث على تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادي الحزن الحديث رواه ابن عدى بلفظ وادي الحزن وقال باطل وأبو نعيم والأصبهاني بسند ضعيف ورواه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ جب الحزن وضعفه ابن عدى وتقدم في ذم الجاه والرياء (٣) حديث أبي هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة الحديث وفيه هذا حجر أرسل في جهنم الحديث رواه مسلم (٤) حديث إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة من يتنعل بنملين من نار الحديث متفق عليه من حديث النعمان بن بشير (٥) حديث إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقتها أهل الدنيا ذكر ابن عبد البر من حديث ابن عباس وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات ولولا ذلك ما انتفع بها أحد وللبراز من حديث أنس وهو ضعيف وما وصلت إليك حتى أحسبه قال فضعت بالماء فذني، عليكم (٦) حديث أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت الحديث تقدم

نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ما يجدونه في الصيف من حرها وأشد ما يجدونه في الشتاء من زمهريرها (١) ، وقال أنس بن مالك يؤتى بأنعم الناس في الدنيا من الكفار فيقال اغمسوه في النار غمسة ثم يقال له هل رأيت نمبا قط فيقول لا ويؤتى بأشد الناس ضرا في الدنيا فيقال اغمسوه في الجنة غمسة ثم يقال له هل رأيت ضرا قط فيقول لا . وقال أبو هريرة لو كان في السجدة مائة ألفاً أو يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا وقد قال بعض العلماء في قوله - تلذذ وجوههم النار - إنها لفتحهم لفتح واحدة فما أبت لحما على عظم إلا ألقته عند أعقابهم ثم انظر بعد هذا في نعت الصديق الذي يسيل من أبدانهم حتى يفرقون فيه وهو الصناق ، قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ «لو أن دلو من غساق جهنم ألقى في الدنيا لأنن أهل الأرض (٢) » فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه وبأبيه الموت من كل مكان وما هو بميت وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتقا . ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى - ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لا تكونون من شجر من زقوم فماتون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم - وقال تعالى - إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلها كأنه رهوس الشياطين فانهم لا تكون منها فماتون منها البطون ثم إن لهم عليها شوبا من حميم ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم - وقال تعالى - تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية - وقال تعالى - إن لدنيا أنكالا ورجحيا وطعاما ذا غصا وعذابا أليما - وقال ابن عباس قال رسول الله ﷺ «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معاشهم فكيف من يكون طعامه ذلك (٣) » وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ارغبوا فيما رغبتكم الله واحذروا وخافوا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم فانه لو كانت قطرة من الجنة معكم في دنياكم التي أنتم فيها طيبتها لكم ولو كانت قطرة من النار معكم في دنياكم التي أنتم فيها خبيثتها عليكم (٤) » وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل مام فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يفتق من جوع ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون أنهم كما كانوا يجيزون العصص في الدنيا بشراب فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد فاذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فاذا دخل الشراب بطونهم قطع ما في بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم قال فيدعون خزنة جهنم أن ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فيقولون أولم تملك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال قال فيقولون ادعوا ما لك ا فدعون فيقولون يا مالك ليقض علينا ربك قال فيجيبهم إنكم ما تكونون (٥) » قال الأعمش أنبث أن

ما كان يعتمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يعتمده فكان قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيامه الزائد لا يخلو إما أنه كان ليقضى به وإما أنه كان لمزيد كان يجده بذلك فان كان ليقضى به فالنتهى أيضا مقتدى به ينبغي أن يأتي بمثل ذلك والصحيح الحق أن رسول الله صلى الله

(١) حديث اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا فأذن لها بنفسين الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث أبي سعيد الخدري لو أن دلو من غساق ألقى في الدنيا لأنن أهل الأرض الترمذي وقال إنما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف (٣) حديث ابن عباس لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا أفسدت على أهل الأرض معاشهم الحديث الترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه (٤) حديث أنس ارغبوا فيما رغبتكم الله واحذروا وخافوا مما خوفكم الله من عذابه وعقابه من جهنم الحديث لم أجده إلا إسنادا (٥) حديث أبي الدرداء يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل مام فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام الحديث الترمذي من رواية سمرة ابن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال الدارمي والناس لا يعرفون هذا الحديث وإنما روى عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قوله.

بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون قال فيجيهم أخشوا فيها ولا تسكلمون قال فعند ذلك يشعرون من كل خير وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل، قال أبو أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه - قال « يقرب إليه فيتكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه فوقته فروة رأسه فاذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره يقول الله تعالى - وسقوا ماء حميا قطع أمعاءهم - وقال تعالى - وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه - فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم (١) » فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة سمومها وعظم أشخاصها وفضاظة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغرقت بهم فمسي لانفتر عن النهش واللذغ ساعة واحدة قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزيمه يعني أشداه فيقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا قوله تعالى - ولا يحسبن الذين يخولون بما آتاهم الله من فضله الآية - (٢) » وقال الرسول صلى الله عليه وسلم « إن في النار الحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللمعة فيجد حموها أربعين خريفا وإن فيها لعقارب كالبعال الوكفة يلسعن اللمعة فيجد حموها أربعين خريفا وهذه الحيات والعقارب إنما تسلط على من سلط عليه في الدنيا البخل وسوء الخلق وإيذاء الناس ومن رقى ذلك رقى هذه الحيات فلم تمثل له (٣) » ثم تفكر بدهذا كله في تعظيم أجسام أهل النار فان الله تعالى يزيد في أجسامهم طولا وعرضا حتى يتزايد عذابهم بسببه فيحسون بلفح النار ولذغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ « ضرس الكافر في النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث (٤) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قاصة قد غطت وجهه (٥) » وقال عليه السلام « إن الكافر ليجر لسانه في سبعين يوم القيامة يتواطؤه الناس (٦) » ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار حمرات فتجدد جلودهم ولحومهم قال الحسن في قوله تعالى - كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها - قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا . ثم تفكر الآن في بكاء أهل النار وشيئهم ودعائهم بالويل والثبور فان ذلك يسلط عليهم في أول إلقتهم في النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى بهم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك (٧) » وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يرسل على أهل النار البكاء فيكون حتى تنقطع الدموع ثم يكون لهم حتى يرى في وجوههم كهيئة الأخدود لو أرسلت فيها السفن لجرت ومادام يؤذن لهم في البكاء

(١) حديث أبي أمامة في قوله تعالى - ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه - قال يقرب إليه الحديث الترمذي وقال غريب (٢) حديث أبي هريرة من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع الحديث البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث جابر نحوه (٣) حديث إن في النار الحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللمعة الحديث أحمد من رواية ابن لهيعة عن فراج عن عبد الله بن الحارث بن جزء (٤) حديث أبي هريرة ضرس الكافر في النار مثل أحد الحديث رواه مسلم (٥) حديث شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قاصة قد غطت وجهه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن صحيح غريب (٦) حديث إن الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس الترمذي من رواية أبي الخارق عن ابن عمر وقال غريب وأبو الخارق لا يعرف (٧) حديث يؤتى بهم يومئذ لها سبعون ألف زمام الحديث مسلم من حديث عبد الله بن مسعود.

عليه وسلم لم يفعل ذلك لجرد الاقتداء بل كان يجد بذلك زيادة وهو ما ذكرناه من تهذيب الحيلة . قال الله تعالى خطابا له - واعبد ربك حتى يأتيك اليقين - لأنه بذلك ازداد استمدادا من الحضرة الإلهية وقرع باب الكرم والنبي عليه الصلاة والسلام مفتقر إلى الزيادة من الله تعالى غير مستغن

والسبيق والزفير والدعوة بالويل والشبور فلمهم فيه مستروح ولكنهم ينعون أيضا من ذلك (١) قال محمد بن كعب : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون - ربنا أمتنا اثنتان وأحيتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل - فيقول الله تعالى مجيبا لهم - ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير - ثم يقولون - ربنا أبصرنا وصمنا فأرجعنا لعلنا نعمل صالحا - فيجيبهم الله تعالى - أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال - فيقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل - فيجيبهم الله تعالى - أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكروا وجاءكم النذير فذوقوا لعلنا نلطف بالذين من نصير - ثم يقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فانا ظالمون - فيجيبهم الله تعالى - اخشوا فيها ولا تكلمون - فلا يتكلمون بعدها أبدا وذلك غاية شدة العذاب . قال مالك بن أنس الله رضى عنه : قال زيد بن أسلم في قوله تعالى - سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص - قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا - سواء علينا أجزعنا أم صبرنا - وقال صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت (٢) » وعن الحسن قال يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتى كنت ذلك الرجل ورؤى الحسن رضى الله عنه جالسا في زاوية وهو يبكي ثقيل له لم تبكي؟ قال أخشى أن يطرحنى في النار ولا يبالي فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة وتفصيل غمومها وأحزانها ومجنها وحسرتها لانهاية له فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بشمن بخس دراهم معدودة إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة في الدنيا أيما قصيرة وكانت غير صافية بل كانت مكدرة منخصة فيقولون في أنفسهم واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بهصيان ربنا وكيف لم نكف أنفسنا الصبرا أيما قاتلا ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه وبقينا الآن في جوار رب العالمين متمتعين بالرضا والرضوان في الحسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها ثم إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم فقد قال رسول الله ﷺ « يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما يرجع الأملون والآخرون يمثلها فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن نرى ما أرىتنا من نوابك وما أعددت فيها لأولياك كان أهون علينا فيقول الله تعالى ذاك أردت بكم كنتم إذا خلوتهم بارزتموني بالعظام وإذا لقيتم الناس لقيتموهم محبتين تراءون الناس بخلاف ما تعطونى من قلوبكم هبتم الناس ولم تهابوني وأجلتم الناس ولم تجلوني وتركتم للناس ولم تركوا لى فالיום أذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتكم من الثواب القيم (٣) » قال أحمد بن حنبل إن أحدا يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار . وقال عيسى عليه السلام من جسد صحيح ووجه صبيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح . وقال داود إلهى لاصبر لى على حر شمسك - كيف صبرى

عن ذلك ثم في ذلك سر غريب وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم برابطة جنسية النفس كان يدعو الخلق إلى الحق ولولا رابطة الجنسية ما وصلوا إليه ولا اتضعوا به وبين قصة الطاهرة وتقصوس الأتباع رابطة التأليف كما بين روحه وأرواحهم رابطة التأليف ورباطة النفوس

(١) حديث أنس يرسل على أهل النار البكاء فيكون حتى تنقطع الدموع الحديث ابن ماجه من رواية يزيد الرقاشى عن أنس والرقاشى ضعيف (٢) حديث يؤتى يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح البخارى من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبى سعيد وقد تقدم (٣) حديث يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا روائحها الحديث رويناه فى الأربعين لأبى هدية عن أنس وأبو هدية إبراهيم بن هبة هالك .

على حر نارك ولا صبر لي على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك فانظر يا مسكين في هذه الأحوال واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق لها أهلا لا يزيدون ولا ينقصون وأن هذا أمر قد قضى وفرغ منه قال الله تعالى - وأنذرهم يوم الحسرة إذ نفضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون - ولعمري الإشارة به إلى يوم القيامة بل في أزل الأزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء فالمعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدري أن القضاء بماذا سبق في حقتك ؛ فان قلت فليت شعري ماذا موردى وإلى ماذا مآلى ومرجمى وما الذى سبق به القضاء في حقك فلك علامة تستأنس بها وتصديق رجائك بسببها وهي أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك فان كلا ميسر لما خلق له فان كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فانك مبعث عن النار وإن كنت لا تقصد خيرا إلا وتخطبك الموائق فتدفعه ولا تقصد شرا إلا وتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضى عليك فان دلالة هذا على العقوبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار فقد قال الله تعالى - إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم - فأعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقر كل من المارين والله أعلم .

(القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها)

أقلت آخا كما أن
الأرواح أقلت أولا
ولسكل روح مع
نفسه تأليف خاص
والسكون والتأليف
والامتزاج واقع بين
الأرواح والنفوس
وكان رسول الله صلى
الله عليه وسلم يديم
المعمل لتصفية نفسه
ونفوس الأتباع لها
احتاج إليه نفسه من
ذلك ناله وما فضل من
ذلك وصل إلى نفوس

اعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغمومها تقابلها دار أخرى تأمل نعيمها وسرورها فان من بعد من أحدهما استقر لآعماله في الأخرى فاستتر الخوف من قلبك بطول الفكر في أهوال الجحيم واستتر الرجاء بطول الفكر في النعم القيم للوعود لأهل الجنان وسق نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الأليم فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرة النعم يسقون من رحيق محتوم جالسين على منابر الياقوت الأحمر في خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العقري الأخضر متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالجزر والعسل مخفوفة باللسان والولدان مزينة بالخور العين من الحيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمنهن إنس قلوبهم ولا جان يعيشين في درجات الجنان إذا اختالت إحداهن في مشيها حمل أعطافها سبعون ألفا من الولدان عليها من طرائف الحرير الأبيض ماتتجير فيه الأبصار مكلمات بالتيجان الرصعة باللؤلؤ والمرجان شكلات غنجات عطرآت آمانات من الهرم والبؤس مقصورات في الخيام في قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان قاصرات الطرف عين ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين يضاء لذة للشاربين ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ السكون جزاء بما كانوا يعملون في مقام أمين في جنات وعميون في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرفت في وجوههم نضرة النعم لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربههم يتعاهدون فهم فيها اشتهت أنفسهم خالدون لا يخافون فيها ولا يحزنون وهم من ريب اللنون آمنون فهم فيها يتنعمون ربأ كلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا في أنهار أراضيها من فضة وحبساؤها مرجان وعلى أرض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران ويمطرون من سحب فيها من ماء النسرين على كنان الكافور ويؤتون بأكواب وأى أكواب بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كواب فيه من الرحيق المحتوم ممزوج به السلسيل العذب كواب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه بريقته وحمرة لم يصنعه آدمى فية صر في تسوية صنمته وتحسين صناعته في كف خادم يحكي ضياء وجهه الشمس في إشراقها والسكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه

(القول في صفة الجنة)

وملاحة أحداقه فيأعجبوا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا نحل الصبائع عن نزل بناتها ولا تنظر الأحداث بين التغير إلى أهلها كيف يأسي بدار قد أذن الله في خرابها وبناتها بعيشي دونها والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من اللوث والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثنان لكان جدرا بأن يهجر الدنيا بسببها وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتفحص من ضرورته كيف وأهلها ملوك آمنون وفي أنواع السرور تمتعون لهم فيها كل ما يشتهون وهم في كل يوم ببناء العرش يحضرون وإلى وجه الله الكريم ينظرون وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون وهم من زوالها آمنون قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ينادي مناد بأهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تستموا أبدا وإن لكم أن تمحوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تصموا فلا تصموا أبدا» فذلك قوله عز وجل - ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون - (۱) ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن فليس وراءه بيان الله تعالى بيان وأقرأ من قوله تعالى - ولئن خاف مقام ربه جنتان - إلى آخر سورة الرحمن وأقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فأقبل الآن تفصيلها بعد أن اطلمت على جملتها وتأمل أو لا تعدد الجنان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - ولئن خاف مقام ربه جنتان - قال «جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» (۲) ثم انظر إلى أبواب الجنة فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعات كأن أبواب النار بحسب أصول المعاصي قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أتق زوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة كلها وللجنة ثمانية أبواب فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد قال أبو بكر رضي الله عنه والله ما على أحد من ضرورة من أبها دعى فهل يدعى أحد منها كلها؟ قال نعم وأرجو أن تكون منهم» (۳) وعن حاصم بن ضمرة عن علي كرم الله وجهه أنه ذكر النار فظلم أمرها ذكر الأخطى ثم قال - وسبق الدين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا - حتى إذا اتقوا إلى باب من أبوابها وجدوا عندهم شجرة يخرج من تحتها قبا عينا نهمريان فصعدوا إلى إحداهما كما أمروا به فسيروا منها فأذهبت ماني بطونهم من أذى وأبأس ثم عمدوا إلى الأخرى فقطروا منها فخرت عليهم فضرة النعم فلم تغير أشجارهم بعدها أبدا ولا تشمت رءوسهم كأنما دهنوا بالدهان ثم اتقوا إلى الجنة فقال لهم خزنتها سلام عليكم طيمم فادخلوها خالد بن سفيان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أهل الجنة يلقونهم كما تليق أهل الدنيا بالذين يلقونهم» (۴) يقولون له أجزأ الله لك من الكرامة كذا قال فينبغي غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول قد جاء فلان باسمه القبي كان يدعى به في الدنيا فتقول أنت رأيت فيقول أنا رأيت وهو بأثرى فيستخفي الفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها فإذا اتسبى إلى منزله نظر إلى أساس بيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر وأخضر وأصفر من كل لون ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا

الأمة وهكذا انتهى مع أصحاب الأتباع على هذا المعنى فلا يتخلف عن الزيادة والنوافل ولا يسترسل في الشهوات والذوات إلا بدلالة نفس النفس ولا يعطى الاعتدال حقه من ذلك إلا بتأييد الله تعالى ونور الحكمة وكل من يحتاج إلى صحة الجلوقة للتفسير لا بد له من خلوته صححة بالحق حتى تكون

(۱) حديث أبي هريرة ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تستموا أبدا الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد (۲) حديث جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما الحديث متفق عليه من حديث أبي موسى (۳) حديث أبي هريرة من أتق زوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة الحديث متفق عليه .

مثل البرق ولولا أن الله تعالى قدره لألم أن يذهب بصره ثم يطأطئ رأسه فاذا أزواجه وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة - ثم انكأ فقال - الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله - ثم ينادى مناد يحيون فلا تموتون أبدا وتقيمون فلا تظنون أبدا وتصحون فلا تمرضون أبدا» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أتى يوم القيامة باب الجنة فأنفتح فيقول الحازن من أنت فأقول محمد فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك (١)» ثم تأمل الآن في غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتوا ظاهرا فكذا كذلك فيما يجازون به تفاوتوا ظاهرا فان كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمر الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى - ساقوا إلى مغفرة من ربكم - وقال تعالى - وفي ذلك فليتنافس المتنافسون - والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء تعل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنص بسبب الحمد عيشك وأحسن أحوالك أن تستقر في الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بمخاديرها فقد قال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أهل الجنة ليراهون أهل الغرف فوقهم كما تراهون الكوكب النائر في الأفق من الشرق إلى المغرب لثفاصل ما بينهم قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين (٢)» وقال أيضا «إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كاترون النجم الطالع في أفق من آفاق السماء وإن أبابكر وعمر منهم وأنعم (٣)» وقال جابر قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم «الآن أحدثكم بنرف الجنة قال قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما قال إن في الجنة غرفا من أصناف الجوهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال قلت يا رسول الله ولئن هذه الغرف قال لمن أفضى السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام قال قلنا يا رسول الله ومن يطبق ذلك قال أمقر تطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك من لقي أخاه فسلم عليه أو ورد عليه فقد أفضى السلام ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام ومن صلى العشاء الآخرة وصلى الغداة في جماعة فقد صلى بالليل والناس نيام (٤)» يعنى اليهود والنصارى والمجوس . «وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله - ومساكن طيبة في جنات عدن - قال : قصور من لؤلؤ في كل قصر سبعون دارا من ياقوت أحمر في كل دار سبعون بيتا من زمرد أخضر في كل بيت سرير على كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام في كل بيت سبعون وصيفة ويسعى للؤمن في كل غداة يعنى من القوة ما يأتى على ذلك أجمع (٥)» .

جلوته في حماية خلوته
ومن يترامى له أن
أوقاته كلها خلوة وأنه
لا يحجبه شيء وأن
أوقاته بالله والله ولا يرى
تصاننا لأن الله ما فطنه
لحقيقة المزيد فهو
صحيح في حاله غير أنه
تحت قصور لأنه ما به
لسياسة الجيلة وما عرف
سر تملك الاختيار
وما وقف من البيان
على البيضاء النقية وقد
تقلت عن الشايع كلمات

(١) حديث أتى يوم القيامة باب الجنة فأنفتح فيقول الحازن من أنت فأقول محمد الحديث مسلم من حديث أنس (٢) حديث أبي سعيد إن أهل الجنة ليراهون أهل الغرف فوقهم كاتراون الكوكب الحديث متفق عليه وقد تقدم (٣) حديث إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما يرون النجم الطالع رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد (٤) حديث جابر الآن أحدثكم بنرف الجنة قلت يا رسول الله بأين أنت وأما قال إن في الجنة غرفا من أصناف الجوهر الحديث أبو نعيم من رواية الحسن عن جابر (٥) حديث مثل عن قوله تعالى - ومساكن طيبة في جنات عدن - قال قصور من لؤلؤ الحديث أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة والآجرى في كتاب النصيحة

(صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأثمارها)

تأمل في صورة الجنة وتفكر في غبطة سكانها وفي حسرة من حرمها لقناعتته بالدينا عوضاً عنها قد قال أبوهريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب تراها زعفران وطينها مسك ^(١) . » وسئل ﷺ عن تربة الجنة فقال درمكة يضاء مسك خالص ^(٢) » وقال أبوهريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سره أن يسقيه الله عز وجل الحمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحمر في الآخرة فليتركه في الدنيا ^(٣) » « أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال أو تحت جبال للمسك ^(٤) » « ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحلبها الله عز وجل به في الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها ^(٥) » وقال أبوهريرة قال رسول الله ﷺ « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها قرءوا وإن شتم - وظل محدود - ^(٦) » وقال أبوأمامة : « كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون إن الله عز وجل ينعنا بالأعراب ومساائلهم أقبل أعرابي قال يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أدري أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هي قال السدر فإن لها شوكا فقال قد قال الله تعالى - في سدر عسود - يخضد الله شوكة فيجعل مكان كل شوكة ثمرة ثم تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر ^(٧) » وقال جرير بن عبد الله : نزلنا الصفاح فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه فقلت للبلاد انطلق بهذا النطح فأظله فانطلق فأظله فما استيقظ فإذا هو سلمان فأنتبه أسلم عليه فقال يا جرير تواضع لله فان من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة هل تدري ما الظلمات يوم القيامة قلت لأدري قال ظلم الناس بعضهم بعضاً ثم أخذ عويداً لا أكاد أراه من

فيها موضع اشتباه قد يسمها الانسان ويبنى عليها والأولى أن يفتر إلى الله تعالى في أى كلمة يسمعها حتى يسمعها الله من ذلك الصواب . نقل عن بعضهم أنه سئل عن كمال المعرفة فقال : إذا اجتمعت التفرقات واستوت الأحوال والأماكن وسقطت رؤية التمييز ومثل هذا القول يوم أن

من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال سألت أباهريرة وعمران بن حصين في هذه الآية ولا يصح والحسن بن خليفة لم يعرفه ابن أبي حاتم والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة على قول الجمهور (١) حديث أبي هريرة : إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب تراها زعفران وطينها مسك الترمذي بلفظ وبلاطها المسك وقال ليس إسناده بذلك القوى وليس عندي بمتصل ورواه البزار من حديث أبي سعيد بإسناد فيه مقال ورواه موقوفاً عليه بإسناد صحيح (٢) حديث : سئل عن تربة الجنة فقال درمكة يضاء مسك خالص مسلم من حديث أبي سعيد أن ابن صياد سأل النبي ﷺ عن ذلك فذكره (٣) حديث أبي هريرة : من سره أن يسقيه الله الحمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحمر في الآخرة فليتركه في الدنيا الطبراني في الأوسط بإسناد حسن وللنسائي بإسناد صحيح : من لبس الحمر في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الحمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة (٤) حديث : أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال أو تحت جبال للمسك العقيلي في الضعفاء من حديث أبي هريرة (٥) حديث : لو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحلبه الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعها الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد حسن (٦) حديث : إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٧) حديث أبي أمامة أقبل أعرابي قال يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية قال ما هي قال السدر الحديث ابن المبارك في الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسل من غير ذكر لأبي أمامة .

صفره فقال يا جرير لو طلبت مثل هذا في الجنة لم تجده قلت يا أبا عبد الله فأين النخل والشجر قال أصولها القؤلؤ والذهب وأعلىها التمر .

(صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم)

قال الله تعالى - يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير - والآيات في ذلك كثيرة وإنما تفصيله في الأخبار فقد روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من يدخل الجنة يتم لياأس لاتبلى ثيابه ولا يفتى شبابه في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ^(١) » . وقال رجل يارسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق خلق أم نسج تنسج فسكت رسول الله ﷺ وضحك بعض القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم م تضحكون من جاهل سألت عالما ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ينشق عنها ثمر الجنة مرتين ^(٢) » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتخطون أنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ورسحهم المسك لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية (وفي رواية) على كل زوجة سبعون حلة ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - يحلون فيها من أساور من ذهب - قال « إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين الشرق والغرب ^(٤) » وقال ﷺ « الحيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للمؤمن أهل لايراهم الآخرون ^(٥) » رواه البخاري في الصحيح قال ابن عباس الحيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب وقال أبو سعيد الخدري « قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : وفرش مرفوعة قال ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض ^(٦) »

(صفة طعام أهل الجنة)

بيان طعام أهل الجنة المذكور في القرآن من الفواكه والطيور والسمان واللبن والسوى والعسل واللبن وأصناف كثيرة لا تحصى قال الله تعالى - كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها - ، وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة ،

(١) حديث أبي هريرة : من يدخل الجنة يتم ولا يأس لاتبلى ثيابه الحديث رواه مسلم دون قوله : في الجنة ما لا عين رأت الخ فانفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبي هريرة : قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت الحديث (٢) حديث : قال رجل يارسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق خلقا أم تنسج نسجا الحديث النسائي من حديث عبد الله بن عمرو (٣) حديث أبي هريرة : أول زمرة تدخل الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر الحديث متفق عليه (٤) حديث : في قوله تعالى - يحلون فيها من أساور من ذهب - قال إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين الشرق والغرب الترمذي من حديث أبي سعيد دون ذكر الآية وقال لانعرفه إلا من حديث رشدين سعد (٥) حديث : الحيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا الحديث عزاه الصنف للبخاري وهو متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري (٦) حديث أبي سعيد في قوله تعالى - وفرش مرفوعة - قال ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض الترمذي بلفظ : ارتفاعها لكما بين السماء والأرض خمسمائة سنة وقال غريب لانعرفه إلا من حديث رشدين سعد .

لا يبق تمييز بين الحلوة والجلوة وبين القيام بصور الأعمال وبين تركها ولم يفهم منه أن القائل أراد بذلك معنى خاصا يبنى أن حظ المعرفة لا يتغير بحال من الأحوال وهذا صحيح لأن حظ المعرفة لا يتغير ولا يفتقر إلى التمييز وتستوى الأحوال فيه ولكن حظ البريد يتغير ويحتاج إلى

وقد قال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم «كنت قائماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حبر من أخبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال فمن أول إجازة يعنى على الصراط؟ فقال قراء المهاجرين، قال اليهودى فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال زيادة كبد الحوت، قال فما غداؤهم على أرضها؟ قال ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل فى أطرافها. قال فما شربهم عليه؟ قال من عين فيها تسمى سلسيلا. فقال صدقت (١)» وقال زيد بن أرقم «جاء رجل من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا أبا القاسم أأنت تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون وقال لأصحابه إن أقرئى بها خصمته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى والذى نفسى بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل فى الطعام والشرب والجماع، فقال اليهودى فان الذى يأكل ويشرب يكون له الحاجة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل اللسك فإذا البطن قد ضمير (٢)» وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشبهه فيخرب بين يديك مشويا (٣)» وقال حذيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن فى الجنة طيراً أمثال البخانى. قال أبو بكر رضى الله عنه إنها لناعمة يارسول الله. قال أنعم منها من يأكلها وأنت بمن يأكلها يا أبابكر (٤)» وقال عبدالله بن عمر فى قوله تعالى - يظاف عليهم بصحاف - قال يظاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب كل صحفة فيها لون ليس فى الأخرى مثله. وقال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه - ومزاجه من تسنيم - قال يمزج لأصحاب اليمين ويشربه المقربون صرفاً. وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: فى قوله تعالى - ختامه مسك - قال هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شربهم لو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذرورح إلا وجد ريح طيبها.

(صفة الحور العين والولدان)

قد تكرر فى القرآن وصفهم ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه، روى أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «غدوة فى سبيل الله أروحة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم أوموضع قدمه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلمت إلى الأرض لأضأت وملأت ما بينهما رائحة ولصيفها على رأسها خير من الدنيا بما فيها (٥)» يعنى الحمار وقال

(١) حديث ثوبان جاء حبر من أخبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال فمن أول الناس إجازة يعنى على الصراط فقال قراء المهاجرين قال اليهودى فما تحفتهم حين يدخلون الجنة قال زيادة كبد النون الحديث رواه مسلم بزيادة فى أوله وآخره (٢) حديث زيد بن أرقم جاء رجل من اليهود فقال يا أبا القاسم أأنت تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون الحديث وفيه حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل اللسك النسائى فى الكبرى باسناد صحيح (٣) حديث ابن مسعود إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشبهه فيخرب بين يديك مشويا البزار باسناد فيه ضعف (٤) حديث حذيفة إن فى الجنة طيراً أمثال البخانى الحديث غريب من حديث حذيفة ولأحمد من حديث أنس باسناد صحيح إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى فى شجر الجنة قال أبو بكر يارسول الله إن هذه الطير لناعمة قال أكلتها أنعم منها قالها ثلاثاً وإنى أرجو أن تكون ممن يأكل منها وهو عند الترمذى من وجه آخر ذكر فيه نهر السكوتر وقال فيه طير أعناقها كأعناق الجزر قال عمر: إن هذه لناعمة الحديث وليس فيه ذكر لأبي بكر وقال حسن (٥) حديث غدوة فى سبيل الله أروحة خير من الدنيا وما فيها الحديث البخارى من حديث أنس.

التميز وليس فى هذا الكلام وأمثاله ما ينافى ما ذكرناه. قيل ل محمد ابن الفضل حاجة الهارفين إلى ماذا قال حاجتهم إلى الحصلة التى كتلت بها الحسن كلفها الأوهى الاستقامة وكل من كان أنعم معرفة كان أم استقامة فاستقامة أرباب النهاية على التجماع والعباد فى الابتداء مأخوذ فى الأعمال محبوب بها

أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - كأنهن الياقوت والمرجان - قال ينظر إلى وجهها في خدرها أصنى من الرأة وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضى مابين الشرق والغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك (١) وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسرى بي دخلت في الجنة موضعا يسمى البيدخ عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر فقلن السلام عليك يا رسول الله فقلت يا جبريل ما هذا النداء قال هؤلاء المقصورات في الخيام استأذن ربهن في السلام عليك فأذن لهن فطفقن يقفن يقفن الراضيات فلا تخط أبدا ونحن الخالدات فلا نظن أبدا ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - حور مقصورات في الخيام - (٢) وقال مجاهد في قوله تعالى - وأزواج مطهرة - قال من الحيض والغائط والبول والبصاق والتخامة والمني والولد . وقال الأوزاعي - في شغلها كمون - قال شعلمة افتضاض الأبقار . وقال رجل يارسلو الله أياض أهل الجنة ؟ قال يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم (٣) وقال عبد الله بن عمر إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسمى معه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا (٤)» وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء فإذا انتهى الرجل صورة دخل فيها وإن فيها لمجتمع الحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقفن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نخط فطوبى لمن كان لنا وكنا له (٥)» وقال أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن الأحوال وفي التوسط محفوظ بالأحوال فقد يحجب عن الأعمال وفي الإتهام لا تعجبه الأعمال عن الأحوال ولا الأحوال عن الأعمال وذلك هو الفضل العظيم . سئل الجنيد عن النهاية فقال هي الرجوع إلى البداية وقد فسر بعضهم قول الجنيد فقال معناه أنه كان في ابتداء أمره في جهل ثم وصل إلى

(١) حديث أبي سعيد الخدرى في قوله تعالى - كأنهن الياقوت والمرجان - قال تنظر إلى وجهها في خدرها أصنى من الرأة الحديث أبو يعلى من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد بإسناد حسن ورواه أحمد وفيه ابن لهيعة ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية أبي الهيثم عن النبي ﷺ مرسلًا دون ذكر أبي سعيد وللترمذى من حديث ابن مسعود إن الرأة من نساء أهل الجنة ليرى يابس مخ ساقها من وراء سبعين حلة الحديث ورواه عنه موقوفًا قال وهذا أصح وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم (٢) حديث أنس لما أسرى بي دخلت في الجنة موضعا يسمى الصرح عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر الحديث وفيه أن جبريل قال هؤلاء المقصورات في الخيام وفيه فطفقن يقفن يقفن الراضيات فلا تخط لم أجده هكذا بشامه وللترمذى من حديث على بن إن في الجنة لمجتمع الحور العين يرفعن أصواتا لم تسمع الخلائق مثلها يقفن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نخط فطوبى لمن كان لنا وكنا له وقال غريب ولأبي الشيخ في كتاب العظمة حديث ابن أبي أوفى بسند ضعيف فيجتمعن في كل سبعة أيام فيقلن بأصوات الحديث (٣) حديث قال رجل يارسلو الله أياض أهل الجنة قال يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم الترمذى وصححه وابن جبان من حديث أنس يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع فقيل أو يطيق ذلك قال يعطى قوة مائة (٤) حديث إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحد منهن مقدار عمره في الدنيا أبو الشيخ في طبقات الحديث وفي كتاب العظمة من حديث ابن أبي أوفى لأنه قال مائة حوراء ولم يذكر فيه عناقده لهن وإسناده ضعيف وتقديمه بحديث (٥) حديث إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء الحديث الترمذى فرقه في موضعين من حديث على وقد تقدم بعضه قبل هذا بحديثين .

« إن الحور في الجنة يتغنين نحن الحور الحسان خبتنا لأزواج كرام (١) » وقال يحيى بن كثير في قوله تعالى - في روضة يجربون - قال الساج في الجنة وقال أبو أمامة الباهلي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجله ثنتان من الحور العين يضيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بزمارة الشيطان ولكن بتحميد الله وتهديسه (٢) » .

(بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار)

روى أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « أأهل مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلأأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وفاكة كثيرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة في حبرة وضمة في مقام أبدا ونضرة في دار عالية بية سليمة قالوا نحن المشمرون لها يا رسول الله قال قولوا إن شاء الله تعالى ثم ذكر الجهاد وحض عليه (٣) » وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال هل في الجنة خيل فاتمها تعجيني؟ قال إن أحببت ذلك أتيت بفرس من باقوتة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شئت له وقال رجل : إن الأبل تعجيني فهل في الجنة من إبل؟ قال يا عبد الله إن أدخلت الجنة فلك فيها ما شئت تصك ولدت عينك (٤) » وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي يكون حمله وفضاله وشبابه في ساعة واحدة (٥) » وقال رسول الله ﷺ « إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الاخوان إلى الاخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا فيلتقيان ويتحدثان ما كان بينهما في دار الدنيا فيقول يا أخى تذكر يوم كذا في مجلس كذا فدعونا الله عز وجل ففقرنا (٦) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة جرد مرد يبيض جماد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين طي خلق آدم طولهم ستون ذراعا في عرض سبعة أذرع (٧) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم

للمعرفة ثم زد إلى التعبير والجهل وهو كالطفولية يكون جهل ثم علم ثم جهل قال الله تعالى - لكيلا يعلم بعد علم شيئا - . وقال بعضهم: أعرف الخلق بالله أشدم تحميرا فيه ويجوز أن يكون معنى ذلك ما ذكرناه أنه ينادى الأعمال ثم يرقى إلى الأحوال ثم يجمع له بين الأعمال والأحوال وهذا يكون للنتهى

(١) حديث أنس إن الحور في الجنة يتغنين فيقلن نحن الحور الحسان خبتنا لأزواج كرام الطبراني في الأوسط وفيه الحسن بن داود للنسكدرى قال البخارى يتكلمون فيه وقال ابن عدى أرجو أنه لا بأس به (٢) حديث أبي أمامة مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجله ثنتان من الحور العين يضيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بزمارة الشيطان ولكن بتحميد الله وتهديسه الطبراني باسناد حسن (٣) حديث أسامة بن زيد « أأهل من مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها الحديث ابن ماجه وابن حبان (٤) حديث جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له هل في الجنة خيل فاتمها تعجيني الحديث الترمذى من حديث بريدة مع اختلاف لفظ وفيه السهوذى مختلف فيه ورواه ابن المبارك في الزهد بلفظ المصنف من رواية عبد الرحمن بن سابط مرسل قال الترمذى وهذا أصح وقد ذكر أبو موسى اللدينى عبد الرحمن بن سابط في ذيله طي ابن منده في الصحابة ولا يصح له صحبة (٥) حديث أبي سعيد إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي ويكون حمله وفضاله ونشأته في ساعة واحدة ابن ماجه والترمذى وقال حسن غريب قال وقد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم في الجنة جماع ولا يكون ولد انتهى ولأحمد من حديث لأبي رزين يلد ويلد مثل لنا تمك في الدنيا وتلدن بكم غير أن لا توالد (٦) حديث إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الاخوان إلى الاخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن بن أنس وقال لانعله يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم لإيهذا الاسناد تفرد به أنس انتهى والربيع بن صبيح ضعيف جدا ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب مرسل دون ذكر أنس (٧) حديث أهل الجنة جرد مرد يبيض جماد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين الحديث الترمذى من حديث معاذ وحسنه دون قوله يبيض جماد ودون قوله طي خلق آدم إلى آخره

وثنتان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كابين الجافية إلى صنعاء وإن عليهم التيجان وإن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين الشرق والغرب (١) وقال صلى الله عليه وسلم «نظرت إلى الجنة فإذا الرمان من رمانها تكلف البعير القتب وإذا طيرها كالبعث وإذا فيها جارية قتلت يا جارية لمن أنت؟ قالت يزيد بن حارثة وإذا في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (٢)» وقال كعب: خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده وكتب التوراة بيده وغرس الجنة بيده ثم قال لها تكلمي فقالت - قد أفلح المؤمنون - فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم قلناها تفصيلا، وقد ذكر الحسن البصري رحمه الله جملتها قال: إن رمانها مثل الدلاء وإن أنهارها لمن ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وأنهار من خمر فنة للشاربين لا تصفه الأحلام ولا تصدح منها الرءوس وإن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر مملوك ناعمون أبناء ثلاث وثلاثين في سن واحد طولهم ستون ذراعا في السماء ككل جرد ممد قد آمنوا العذاب واطمأن بهم الدار وإن أنهارها لتجري على رضراض من ياقوت وزبرجد وإن عروقها ونخلها وكرمها اللؤلؤ ونخارها لا يعلم عليها إلا الله تعالى وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة وإن لهم فيها خيلا وإبلًا هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاورون فيها وأزواجهم الحور العين كأنهن يضيء مكنون وإن المرأة لتأخذ بين أصبعيها سبعين حبة فتلبسها فيرى مخ ساقها من وراء تلك السبعين حبة قد طهر الله الأخلاق من السوء والأجساد من اللوث لا يمتخطون فيها ولا يولون ولا يتخطون وإنما هو جشاء وورشح مسك لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا أما إنه ليس ليل يكر الندو على الروح والروح على الندو وإن آخر من يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمده في بصره وملكه مسيرة مائة عام في قصور من الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ ويضع له في بصره حتى ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه يضيء عليهم سبعين ألف صحيفة من ذهب ووراح عليهم بمنزلها في كل صحيفة لون ليس في الأخرى مثله ويجد طعام آخره كما يجد طعام أوله وإن في الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا تيب. وقال مجاهد: إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير في ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه وأرضهم القدي ينظر إلى ربه بالعداة والعشى. وقال سعيد بن المسيب: ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة سوار من ذهب وسوار من لؤلؤ وسوار من فضة. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن في الجنة حوراء يقال لها العيناء إذا مشيت مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة وهي تقول أين الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر. وقال يحيى بن معاذ: ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشد وترك الدنيا مهرا الآخرة، وقال أيضا في طلب الدنيا ذل النفوس وفي طلب الآخرة عز النفوس فإيهما لمن يختار الذل في طلب ما يفنى ويترك العز في طلب ما يبقى.

(صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى)

قال الله تعالى - للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - وهذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى وهي اللذة

ورواه أيضا من حديث أبي هريرة مختصرا أهل الجنة جرد مرد كحل وقال غريب وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة على صورة أبيهم آدم نعتون ذراعا (١) حديث أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم الحديث الترمذي من حديث أبي سعيد منقطع من أوله إلى قوله وإن عليهم التيجان ومن هنا باسناده أيضا وقال لانرفه إلا من حديث رعد بن سعد (٢) حديث نظرت إلى الجنة فإذا الرمان من رمانها كجلد البعير القتب وإذا طيرها كالبعث الحديث رواه الثعلبي في تفسيره من رواية أبي هريرة العدي عن أبي سعيد وأبو هريرة اسمه عمارة بن حريث ضعيف جدا وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة يقول الله أعدمت لبأدى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

المراد للأخوذ في طريق
المحبوبين تجذب
روحه إلى الحضرة
الالهية وتستبج
القلب والقلب يستبج
النفوس والنفوس تستبج
القالب فيكون بكليته
قائما بالله ساجدا
بين يدي الله تعالى
كما قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم
«سجدك سوادى
وخياي» وقال الله تعالى
- والله يسجد من في

الكبرى التي ينسى فيها نعيم أهل الجنة وقد ذكرنا حقيقتها في كتاب الهبة وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقد أهل البدعة قال جرير بن عبد الله البجلي « كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ - وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها - (١) وهو مخرج في الصحيحين وروى مسلم في الصحيح عن صهيب قال « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - قال إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى نادى يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه قالوا ما هذا الموعد؟ ألم يتقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار قال فيرفع الحجاب وينظرون إلى وجه الله عز وجل فأسأطوا شيئا أحب إليهم من النظر إليه (٢) » وقد روى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة وهذه هي غاية الحسنى ونهاية التعمى وكل ما فضلناه من التعم عند هذه النعمة ينسى وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى بل لانبسة لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء ، وقد أوجزنا في الكلام هنا لما فضلناه في كتاب الهبة والشوق والرضا فلا ينبغي أن تكون همه البعد من الجنة حتى سوى لقاء الولي . وأما سائر نعيم الجنة فإنه يشارك فيه الهيمة للسرحة في للرعى .

(نغتم الكتاب يباب في سنة رحمة الله تعالى على سبيل التناؤل بذلك)

قد « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل (٣) » وليس لنا من الأعمال ما نرجو به للنفرة فنقتدى برسول الله ﷺ في التناؤل ونرجو أن نغتم عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى فقد قال الله تعالى - إن الله لا يفرح أن يشرك به ويفر مادون ذلك لمن يشاء - وقال تعالى - قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم - وقال تعالى - ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يمد الله غفورا رحيمًا - ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم أو طئى به القلم في كتابنا هذا وفي سائر كتبنا ونستغفره من أقوالنا التي لاتوافقها أعمالنا ونستغفره مما ادعينا وأظهرناه من العلم والبصيرة وبين الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ونستغفره من كل وعد وعدها به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستملمناها في معصيته ونستغفره من كل تصريح وتعمير بقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به ونستغفره من كل خطرة دعنا إلى تصنع وتكلف تزينا للناس في كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه أو استفدناه ، ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو صممه أن نكرم بالمفطرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهرا وباطنا

(١) حديث جرير : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال إنكم ترون ربكم الحديث هو في الصحيحين كما ذكر المصنف (٢) حديث صهيب في قوله تعالى - للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - رواه مسلم كما ذكره المصنف .

(باب في سنة الرحمة)

(٣) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل متفق عليه من حديث أنس في أثناء حديث : ويعبني الفأل الصالح والكلمة الحسنة ولهما من حديث أبي هريرة : وخيرها الفأل قالوا وما الفأل؟ قال الكلمة الصالحة يسمها أحدكم .

السموات والأرض
طوعا وكرها وظلالهم
بالصدو والآمال -
والظلال القواب تسجد
بوجود الأرواح وعند
ذلك تسرى روح الهبة
في جميع أجزائهم
وأبوابهم فيتلذذون
ويتعمون بذكر
الله تعالى وتلاوة
كلامه بحبه وودا
فيحبه الله تعالى

فان الكرم عيم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض ونحن خلق من خالق الله عز وجل لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه فقد قال رسول الله ﷺ «إن الله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطير والبهائم والموام فيها يتماطفون وبها يتراحمون وأخر تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة (۱)» وروى أنه «إذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتاباً من تحت العرش فيه إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثلاً أهل الجنة (۲)» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يتجلى الله عز وجل لنا يوم القيامة ضاحكاً فيقول أشيروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً (۳)» وقال النبي ﷺ «يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف (۴)» وقال ﷺ «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائي فيقولون نعم يا ربنا فيقول ألم فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك فيقول قد أوجبت لكم مغفرتي (۵)» وقال رسول الله ﷺ «يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوماً أو خافني في مقام (۶)» وقال رسول الله ﷺ «إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار فيقولون كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيسمع الله عز وجل ما قالوا فيأمر بأخراجهم من النار في أهل القبلة فيخرجون فإذا رأى ذلك الكفار قالوا يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجوا ثم قرأ رسول الله ﷺ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين (۷)» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها (۸)» وقال جابر بن عبد الله

وعجيبهم إلى خلقه
نعمة منه عليهم وفضلاً
على ما أخبرنا شيخنا
ضياء الدين أبو النجيب
السهروردي رحمه الله
قال أنا أبو طالب
الزيني قال أخبرتنا
صكرية السروزية
قالت أنا أبو الهيثم
الكشميهني قال أنا
عبد الله الفريرى قال
أنا أبو عبد الله البخارى

(۱) حديث إن الله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والحديث مسلم من حديث أبي هريرة وسلمان (۲) حديث إذا كان يوم القيامة أخرج الله كتاباً من تحت العرش فيه إن رحمتي سبقت غضبي الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي لفظ البخارى وقال مسلم كتب في كتابه على نفسه إن رحمتي تغلب غضبي (۳) حديث يتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكاً فيقول أشيروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً مسلم من حديث أبي موسى إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول هذا فداؤك من النار ولأبي داود أمى أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة الحديث وأما أول الحديث فرواه الطبرانى من حديث أبي موسى أيضاً يتجلى الله ربنا لنا ضاحكاً يوم القيامة حتى ينظروا إلى وجهه فيخرون له سجداً فيقول ارضعوا رؤوسكم فليس هذا يوم عبادة وفيه على بن زيد ابن جدعان (۴) حديث يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف الطبرانى من حديث أنس باسناد ضعيف (۵) حديث إن الله تعالى يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائي فيقولون نعم الحديث أحمد والطبرانى من حديث معاذ بسند ضعيف (۶) حديث يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوماً أو خافني في مقام الترمذى من حديث أنس وقال حسن غريب (۷) حديث إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار الحديث في إخراج أهل القبلة من النار ثم قرأ رسول الله ﷺ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين - النسائي في الكبرى من حديث جابر نحوه باسناد صحيح (۸) حديث لله أرحم بعبده للمؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفي أوله قصة المرأة من السبي إذ وجدت صبياً في السبي فأخذته فألصقته بيظنها فأرضعته .

من زادت حسناته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسيئاته فذلك الذي يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره ويروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام يا موسى استغاث بك فارون فلم تنه وعزتي وجلالي لو استغاث بي لأعنته وعفوت عنه وقال سعد بن بلال : يؤمر يوم القيامة بأخراج رجلين من النار فيقول الله تبارك وتعالى ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد وبأمر بردهما إلى النار فيعدو أحدهما في سلسله حتى يقتحمها ويتلصقا الآخر فيؤمر بردهما ويسألهما عن فعلهما فيقول الذي عدا إلى النار قد حذرت من وبال العصية فلم أكن لأعرض لسخطك ثانية ويقول الذي تلصقا - من ظني بك كان يشعري أن لا تردني إليها بعد ما أخرجتني منها فيأمر بهما إلى الجنة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ينادي مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتي (١) » ويروى أن أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ - وكنتم على شفاخرة من النار فأخذكم منها - فقال الأعرابي والله ما أتخذكم منها وهو يريد أن يوقظكم فيها فقال ابن عباس خذوها من غير فقيه وقال الصنابحي دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت فبكت فقال مهلا لم تبكي؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدثتكموه إلا حديثا واحدا وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحبط بنفسى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار (٢) » وقال عبد الله بن عمرو بن العاص قال رسول الله ﷺ «إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل منها مثل مد البصر ثم يقول أنتكر من هذا شيئا أظلمت ككتبي الحافظون فيقول لا يارب فيقول أفلك عذر فيقول لا يارب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول إنك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة قال فطاشت السجلات وتقلت البطاقة فلا يتحمل مع اسم الله شيء (٣) » وقال رسول الله ﷺ في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط إن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به فكان أبو سعيد يقول إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقروا إن شئتم - إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما -

قال حدثني إسحاق قال حدثنا عبد الصمد قال حدثنا عبد الرحمن ابن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله

(١) حديث ينادي مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد غفرت له لكم وبقيت التبعات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمتي رويته في سباعات أبي الأسود القشيري من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البلخي قال الخطيب ليس بثقة (٢) حديث الصنابحي عن عبادة بن الصامت من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرمه الله على النار مسلم من هذا الوجه وانفقا عليه من غير رواية الصنابحي بلفظ آخر (٣) حديث عبد الله بن عمرو إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا فذكر حديث البطاقة ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب .

قال يقول الله تعالى شفعت لللائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يسبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حتما فيلقمهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة في حميل السيل ألا ترونها تكون مما يلي الحجر والشجر مما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر وما يكون منها إلى الظل أبيض قالوا يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملهم ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة ثم أرايتم فهل لكم فيه ولون ربنا أعطيتنا ما لم نتمط أحدا من العالمين يقول الله تعالى إن لكم عندي ما هو أفضل من هذا فيقولون يا ربنا أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول رضائي عنكم فلا أسخط عليكم بعده أبدا^(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحهما وروى البخاري أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال عرضت على الأم عمر النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان والنبي ليس معه أحد والنبي معه الزهط فرأيت سوادا كثيرا فرجوت أن تكون أمي فقيل لي هذا موسى وقومه ثم قيل لي انظر فرأيت سوادا كثيرا قد سد الأفق فقيل لي انظر هكذا وهكذا فرأيت سوادا كثيرا فقيل لي هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر ذلك الصحابة قالوا أما نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آمننا بالله ورسوله هؤلاء هم أبناؤنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هم الذين لا يكتنون ولا يسترقون ولا يظفرون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون قام عكاشة فقال ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله فقال أنت منهم ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم سبقك بها عكاشة^(٢) وعن عمرو بن حزم الأنصاري قال «تقرب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا الصلاة مكتوبة ثم يرجع فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا قلنا يا رسول الله احتبست عنا حتى قلنا أنه قد حدث حدث قال لم يحدث إلا خير إن ربي عز وجل وعدني أن يدخل من أمي الجنة سبعين ألفا لأحساب عليهم وإني سألت ربي في هذه الثلاثة أيام الزيد فوجدت ربي ماجدا واجدا كريما فأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا قال قلت يا رب وتبلغ أمي هذا؟ قال أكل لك العدد من الأعراب^(٣) وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة قلت يا جبريل

(١) حديث إن الله يقول لللائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا الحديث في إخراج اللوحدين وقوله تعالى لأهل الجنة: فلا أسخط عليكم بعده أبدا أخرجه في الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبي سعيد (٢) حديث ابن عباس عرضت على الأم عمر النبي صلى الله عليه وسلم معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي ليس معه أحد الحديث إلى قوله سبقك بها عكاشة رواه البخاري (٣) حديث عمرو بن حزم الأنصاري تقرب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا الصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه إن ربي وعدني أن يدخل من أمي الجنة سبعين ألفا لأحساب عليهم وفيه أعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا البهق في البعث والنشور ولأحمد وأبي يعلى من حديث أبي بكر فزادني مع كل واحد سبعين ألفا وفيه رجل لم يسم ولاحمد والطبراني في الأوسط من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر فقال عمر فهلا استزدت فقال قد استزدت فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفا قال عمر فهلا استزدت قال قد استزدت فأعطاني هكذا وفرج عبد الله بن أبي بكر بين يديه قال عبد الله وبسط باعيه وحشي عليه وفيه موسى بن عبيدة الرندي ضيف .

تعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل إن الله تعالى قد أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى جبريل في السماء إن الله قد أحب فلانا فأحبه فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في

فهرس

١١٥	الطرف الخامس في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطمعة إليك	٢	(مكناب التوبة)
١١٦	الطرف السادس في إصلاح الأطمعة الطرف السابع في إصلاح المصلحين	٣	الركن الأول في نفس التوبة الخ بيان حقيقة التوبة وحدها
١١٧	الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام	٤	بيان وجوب التوبة وفضلها
١٢٠	بيان السبب العارف لخلق عن الشكر	٥	بيان أن وجوب التوبة على القور
١٢٤	الركن الثالث من كتاب الصبر بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد	٦	بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد البتة
١٣١	بيان فضل النعمة على البلاء	١٢	بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة
١٣٢	بيان الأفضل من الصبر والشكر	١٥	الركن الثاني فيما عنه التوبة وهي القنوب
١٣٨	(كتاب الخوف والرجاء)	٢٢	بيان أقسام القنوب بالإضافة إلى صفات المبد بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا
	ويشتمل على شطرين أما الشطر الأول فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء الخ	٣٢	بيان ما تعظم به الصنائع من القنوب
١٣٩	بيان حقيقة الرجاء	٣٤	الركن الثالث في تمام التوبة الخ
١٤١	بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه	٤٣	بيان أقسام الصادق في دوام التوبة
١٤٢	بيان دواء الرجاء والسبيل القوي يحصل منه حال الرجاء وينقلب	٤٦	بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب الخ
١٥٢	الشرط الثاني من الكتاب في الخوف بيان حقيقة الخوف	٤٩	الركن الرابع في دواء التوبة الخ
١٥٤	بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف	٥٩	(مكناب الصبر والشكر)
١٥٥	بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه	٦٠	الشرط الأول في الصبر بيان فضيلة الصبر
١٥٧	بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه	٦١	بيان حقيقة الصبر ومعناه
١٦١	بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما	٦٥	بيان كون الصبر نصف الإيمان
١٦٤	بيان القوي به يستجلب حال الخوف	٦٦	بيان الأسامي التي تتجدد لصبر الخ
١٧٠	بيان معنى سوء الخاتمة	٦٦	بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف
١٧٧	بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف	٦٧	بيان مظان الحاجة إلى الصبر الخ
١٨٠	بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف	٧٣	بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه
١٨٥	(كتاب الفقر والزهد)	٧٨	الشرط الثاني من الكتاب في الشكر الركن الأول في نفس الشكر بيان فضيلة الشكر
١٨٦	الشرط الأول من الكتاب في الفقر بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه	٧٩	بيان حد الشكر وحقه
١٨٩	بيان فضيلة الفقر مطلقاً	٨٣	بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى
١٩٥	بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراسخين والفانجين والصادقين	٨٧	بيان تمجيز ما يجهه الله تعالى عما يكرهه
١٩٦	بيان فضيلة الفقير على الغني	٩٦	الركن الثاني من أركان الشكر الخ بيان حقيقة النعمة وأقسامها
٢٠١	بيان آداب الفقير في فقره	١٠٦	بيان وجه التعمد في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجه من المحصر
٢٠٢	بيان آداب الفقير في قبول المعطاء الخ	١٠٧	الطرف الأول في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك
٢٠٥	بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطرب فيه	١٠٨	الطرف الثاني في أصناف النعم في خلق الإرادات
٢٠٩	بيان مقننار النبي المحرم للسؤال	١٠٩	الطرف الثالث في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة
		١١٣	الطرف الرابع في نعم الله تعالى في الأصول التي تحصل فيها الأطمعة الخ

ملحة

ملحة

٣٤٤	بيان أن التفرار من البلاد التي هي مطلق للناس ومنعتها لا يمدح في الرضا
٣٤٥	بيان جلة من حكايات الحيين وأقوالهم ومكاشفتهم
٣٤٩	خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تملق بالحسنة ينتفع بها
٣٥٠	(كتاب التوبة والإخلاص والصدق)
٣٥١	الباب الأول في التوبة
	بيان فضيلة التوبة
٣٥٣	بيان حقيقة التوبة
٣٥٥	بيان سر قول صل الله عليه وسلم : يا أيها المؤمن خير من عمله
٣٥٧	بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالتوبة
٣٦٢	بيان أن التوبة غير داخلة تحت الاختيار
٣٦٤	الباب الثاني في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته
	فضيلة الإخلاص
٣٦٧	بيان حقيقة الإخلاص
٣٦٩	بيان أوائل الفيوض في الإخلاص
٣٧٠	بيان درجات الثواب والآيات الكريمة للإخلاص
٣٧٢	بيان حكم العمل للشوب واستحقاق الثواب به
٣٧٤	الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته ودرجاته . فضيلة الصدق
٣٧٥	بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه
٣٨١	(كتاب المراقبة والمحاسبة)
	المقام الأول من المراقبة المباشرة
٣٨٤	المراقبة الثانية المراقبة
٣٨٥	بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها
٣٩١	المراقبة الثالثة محاسبة النفس الخ
	فضيلة المحاسبة
٣٩٢	بيان حقيقة المحاسبة بمد العمل
٣٩٣	المراقبة الرابعة في معاقبة النفس على تقصيرها
٣٩٥	المراقبة الخامسة المجاهدة
٤٠٣	المراقبة السادسة في توبيخ النفس ومعاقبتها
٤٠٩	(كتاب التفكير)
٤١٠	فضيلة التفكير
٤١٢	بيان حقيقة التفكير وثمرته
٤١٣	بيان مجازي الفكر
٤٢٠	بيان كيفية التفكير في خلق الله تعالى
٤٣٣	(كتاب ذكر الموت وما بعده)
	الشرط الأول في مقدمته وتوابعه الخ
٤٣٤	الباب الأول في ذكر الموت الخ
	بيان فضل ذكر الموت كفا كان
٤٣٦	بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب
٤٣٧	الباب الثاني في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل وسبب طول وكيفية معالجته

٢١٠	بيان أحوال السالكين
٢١١	الشرط الثاني من الكتاب في الزهد
	بيان حقيقة الزهد
٢١٤	بيان فضيلة الزهد
٢٢٠	بيان درجات الزهد وأقسامه الخ
٢٢٤	بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة
٢٣٦	بيان علامات الزهد
٢٣٨	(كتاب التوحيد والتوكل)
	بيان فضيلة التوكل
٢٤٠	بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل وهو الشرط الأول من الكتاب
٢٥٣	الشرط الثاني من الكتاب في أحوال التوكل وأعماله وفيه بيان حال التوكل الخ
	بيان حال التوكل
٢٥٧	بيان ما قاله الشيخ في أحوال التوكل
٢٥٨	بيان أعمال التوكلين
٢٦٥	بيان توكل المعبول
٢٦٨	بيان أحوال التوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال
٢٧٤	بيان آداب التوكلين إذا سرق متاعهم
٢٧٩	بيان أن ترك التداوي قد يحمي في بعض الأحوال ويعدل على قوة التوكل الخ
٢٨٣	بيان الرد على من قال ترك التداوي أفضل بكل حال
٢٨٥	بيان أحوال التوكلين في إظهار المرض وكتابه
٢٨٦	(كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا)
	بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى
٢٨٨	بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى
٢٩٣	بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده
٢٩٩	بيان أن أجل اللذات وأعلامها معرفة الله تعالى الخ
٣٠٣	بيان السبب في زيادة الطرق لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا
٣٠٧	بيان الأسباب المعوية لحب الله تعالى
٣١١	بيان السبب في تفاوت الناس في الحب
٣١٢	بيان السبب في تصور أنهم الملق عن معرفة الله سبحانه وتعالى
٣١٤	بيان معنى الشوق إلى الله تعالى
٣١٨	بيان محبة الله تعالى للعبد ومناها
٣٢٠	القول في علامات محبة العبد لله تعالى
٣٢٩	بيان معنى الأنس بالله تعالى
٣٣١	بيان معنى الانبساط والإدلال الذي يثمره غلة الأنس
٣٣٣	القول في معنى الرضا بقضاء الله الخ
٣٣٤	بيان فضيلة الرضا
٣٣٧	بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى
٣٤١	بيان أن الدعاء غير منافس للرضا

صفحة	صفحة
۴۸۶	فضیة لصر الأمل
بیان سؤال منکر ونکیر وصورتها ومنظلة القبر	۴۸۶
وبقیة القول فی عذاب القبر	بیان السبب فی طول الأمل وعلاجه
۴۸۸	۴۸۷
الباب الثامن فیما عرف من أحوال الموتی بالکاشفة فی المنام	بیان مراتب الناس فی طول الأمل ولصره
۴۹۰	۴۸۳
بیان منامات تکشف من أحوال الموتی والأعمال	بیان للبادرة إلى العمل وحذر آفة المتأخیر
النافعة فی الآخرة	۴۸۵
۴۹۱	الباب الثالث فی سكرات الموت وشدته وما یتحجب
بیان منامات المشایخ رحمة الله علیهم أجمعین	من الأحوال عنده
۴۹۴	۴۵۰
الشطر الثاني من کتاب ذکر الموت فی أحوال البیت	بیان ما یتحجب من أحوال المحتضر عند الموت
من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار فی الجنة	۴۵۱
أو النار وتفصیل ما ین یدیه من الأحوال والأخبار	بیان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحکایات یمرب
وفیه بیان نفخة الصور الخ . صفة نفخة الصور	لسان الحال عنها
۴۹۶	۴۵۳
صفة أرض المحصر وأهله	الباب الرابع فی وفاة رسول الله صلی الله علیه وسلم
۴۹۷	والمخلفاء الراشدين من بعده
صفة العرق	وفاة رسول الله صلی الله علیه وسلم
۴۹۸	۴۶۰
صفة طول يوم القيامة	وفاة أبی بکر الصديق رضی الله تعالی عنه
۴۹۹	۴۶۲
صفة يوم القيامة ودواعیه وأسایه	وفاة عمر بن الخطاب رضی الله تعالی عنه
۵۰۱	۴۶۳
صفة المسألة	وفاة عثمان رضی الله تعالی عنه
۵۰۳	۴۶۴
صفة المیزان	وفاة علی کرم الله وجهه
۵۰۴	الباب الخامس فی کلام المحتضرين من المخلفاء
صفة الخصماء ورد الظالم	والأسماء والصالحین
۵۰۷	۴۶۵
صفة الصراط	بیان أوایل جماعة من خصوص الصالحین من
۵۰۹	الصحابیة والتابعین ومن بعدهم من أهل التصوف
صفة الشفاعة	رضی الله عنهم أجمعین
۵۱۲	۴۶۸
صفة الحوس	الباب السادس فی أوایل المارفين علی الجنائز والمقابر
۵۱۴	وحکم زیارة القبور
القول فی صفة جهنم وأهوالها وأنکالها	۴۶۹
۵۱۶	بیان حال القبر وأقوالهم عند القبور
القول فی صفة الجنة وأصناف نعيمها	۴۷۳
۵۲۲	بیان أقوالهم عند موت الولد
صفة حائط الجنة وأراضیها وأشجارها وأنهارها	بیان زیارة القبور والدعاء للیت الخ
۵۲۳	الباب السابع فی حقيقة الموت وما یلقاه
صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسرورهم	الیت فی القبر إلى نفخة الصور
وأرائسکهم وخيامهم	بیان حقيقة الموت
صفة طعام أهل الجنة	۴۸۷
۵۳۴	بیان کلام القبر للیت وكلام الموتی إما بلسان المقال
صفة الحور العین والودان	أو بلسان الحال
۵۲۶	۴۸۳
بیان جبل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت	بیان عذاب القبر وسؤال منکر ونکیر
بها الأخبار	
۵۲۷	
صفة الرؤیة والنظر إلى وجه الله تبارک وتعالی .	
نظم الکتاب بیاب فی سمة رحمة الله تعالی علی سبیل	
التفاؤل بذلك	
۵۲۸	
باب فی سمة رحمة الله تعالی	

